كتاب

تاريخ الكنيسة القبطية

تأليف

الشماس منسى القمص

"المتنيح القس منسى يوحنا راعى الكنيسة
القبطية الأرثوذكسية بملوى (سابقا)"

« الله فى وسطها فلن تتزعزع » (مز ٤٦ : ٥)

وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (مت ١٦ : ١٨)

الطبعة الثالثة

١٩٨٢

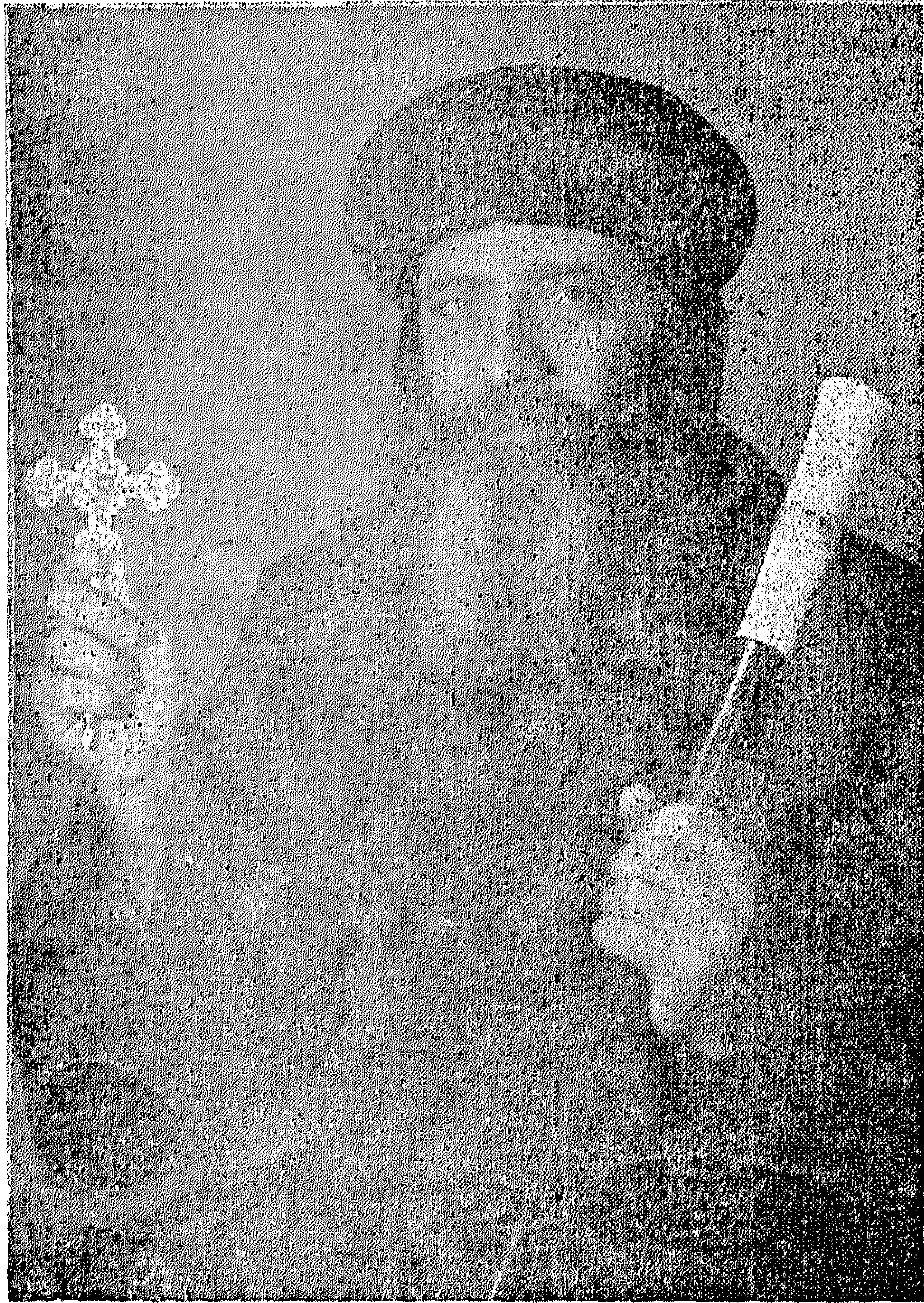
كتاب
تاريخ الكنيسة القبطية

تأليف
الشماس منسى القمص
"المتنيح القس منسى يوحنا راعي الكنيسة
القبطية الأرثوذكسية بملوي (سابقا)"

« الله فى وسطها فلن تتزعزع » (مز ٤٦ : ٥)
« وأبواب الجحيم لن تقوى عليها » (مت ١٦ : ١٨)

الطبعـــة الثالثـــة

١٩٨٢



غبطة البـابا المعظم الأنبـا شنوده الثالث
بابا وبطريرك الـكرازة المرقسية

كلمــة عن المؤلف

نيح الله نفســه

ولد الفقيــد العزيز سنة ١٨٩٩ بناحيـــة هور مركز ملوى من أبوين مسيحيين تقيين كريمى المحتــد عــريقى النسب ، ومات أبوه وهو فى سن الطفولة فعنيت أمه بتربيته تحت رعاية جده الوقور ونظرا لما كانت عليــه رحمهــا الله من الصـــلاح والورع والحكمــة وكرم النفس والبر بالفقراء والمساكين والعطف على الأرامل واليتــامى والمجربين فقــد تشرب الفقيــد منها هذه السجايا الحميدة وترعرع فى كنفها ونما فى أحضان الفضل والتقى وخصه الله فوق ذلك بذكاء حاد وعقل راجح وفكر ثاقب ٠

وكان حبه لــكنيسته الأرثوذكسية غريزة متأصلة فى نفسه وبلغت شدة تعلقه بها أنه ألم بالــكثير مما يتلى فيهــا وهو طالب بالمــدارس الابتــدائية ولم يكن قــد تجاوز الثانيــة عشرة من العمر ٠ ثم دفعتــه غيرته على تقــدم الكنيسة ونمائها على أن يكرس حياته لخدمتها فالتحق بالمدرسة الاكليريكية وهو فى السادسة عشرة من عمره بعــد تردد مديرها فى قبوله لصغر سنه، وللزعم بأنه وهو فى هــذه السن لا يقوى على تحمل أعبــاء الدراسة بهــا ٠ ولــكن ما ان مرت بضــعة شهور على وجوده بالمدرسة المذكورة حتى أصبح موضع اعجاب مديرها واساتذتها لــا أظهره من النبوغ الفائق ، واستمر كل سنى الدراسة فيهــا متفوقا على أقرانه مضرب المثل بينهم فى نبل الأخلاق وعلو الهمة وقوة الارادة وشــدة العــزيمة وأصــالة الرأى ٠ ولم يكن يكتفى بما يتلقاه فى المــدرسة من الدروس المقررة بل كان يحصل على كل مفيــد من الــكتب الــكنسية ومن مؤلفــات العلماء اللاهوتيين والمؤرخين ويدرسها بعناية تامة فاتسعت بذلك مداركه وكثرت معلوماته وعظمت ثقافته ٠

ولــا تخرج من المدرسة الاكليريكية عين واعظا لــكنيسة ملوى القبطية فقوبل فيهــا بادىء ذى بدء مقــابلة شاب فى العشرين من عمره ، ولــكن سرعان ما وجد فيــه شعبها واعظا تقيا قديرا ومعلما فاضلا حكيما ومرشدا صــالحا أمينــا فأحبــه جميع أفراد الشعب حبــا جما وأنزلوه أحسن منزلة فى نفوســهم ٠ وان أنس لا أنس موقفهم الرائع حينمــا قرأوا فى أحــدى

الصحف أن الطيب الذكر نيافة مطران المنيا السابق قرر نقله من كنيستهم الى كنيسة سمالوط فلقد ثارت عند ذلك ثائرتهم وقاموا قومة رجل واحد معترضين على نقله والفوا من بينهم وفدا قابل نيافة المطران فتفضل نيافته وهدأ خواطرهم بنفيه اشاعة نقله نفيا باتا وأبلغهم أن واعظهم عندما زار كنيسة سمالوط تلبية لدعوة أعضائها تعلق به أهلها وأخذوا يمهدون السبيل لتعيينه في كنيستهم ولكن نيافته لم يوافقهم على ذلك لما يعلمه من شدة محبة شعب ملوى له ودرجة تمسكهم بوجوده بينهم ·

وأذكر بهذه المناسبة أن اثنين من أصحاب النيافة والمطارنة عرضا عليه الخدمة معهما نظير مرتب كبير يغرى ولكنه فضل البقاء بكنيسة ملوى نظرا لما وجده فى أهلها من المحبة والاخلاص والوفاء ، غير ناظر الى الماديات الفانية لأنه لم يكن يبغى سوى خدمة الكنيسة والعمل على تقدمها ·

وقد رسم كاهنا لكنيسة ملوى فى يناير سنة ١٩٢٥ بناء على تزكية اجماعية من شعبها وكان يوم رسامته يوما مشهودا اشترك فى الاحتفال به جميع أهل المدينة على اختلاف مذاهبهم ونزعاتهم ، وكان الكل يهنئون بعضهم بعضا ..·

وكانت حياة الفقيد نيح الله نفسه سلسلة جهاد متواصلة الحلقات فانه علاوة على اضطلاعه بمسئوليات الخدمة بالكنيسة وافتقاد الرعية والقيام بالوعظ والتعليم كان يدأب على الاطلاع والبحث والتأليف والنشر، ولقد تمكن فى غضون تسع سنوات من تأليف خمسة عشر مؤلفا قيما من بينها كتاب تاريخ الكنيسة القبطية ، هذا فضلا عما كان ينشره فى الصحف والمجلات من البحوث الروحية والأدبية وعن تحمله أعباء ادارة وتحرير مجلة الفردوس ··

ولقد برز الفقيد ابان الحركة الوطنية فكان فيها خطيب ملوى الذى يشار اليه بالبنان يدعو دائما الى الاتحاد والاخاء والجهاد فى سبيل اسعاد الوطن العزيز ·

واليه يرجع الكثير من الفضل فى حمل أهالى ملوى على الاكتفاء باقامة المأتم لمدة ثلاثة أيام وكان من عادة البعض اقامتها لمدة أسبوع والبعض الآخر لمدة خمسة عشر يوما ··

وظل الفقيد مع ما كان يقوم به من الخدمات العامة السالفة الذكر نشطا في خدمة الكنيسة ، عاملا قويا في سبيل نهضتها ، وقد الف اتحادا من حضرات زملائه قساوسة ووعاظ كنائس البلاد المجاورة ، وأخذ يعمل معهم على انعاش هذه الكنائس باقامة مجامع بها يتبادلون الوعظ فيها، وكان لهذه المجامع بعون الله أثرها الفعال . ومع ما بلغه الفقيد من سمو المكانة في النفوس بسعة علمه وغزارة فضله وعلو همته فانه كان بعيدا كل البعد عن الزهو والخيلاء مثالا للتواضع وانكار الذات .

ولقد حلت به في سني حياته القصيرة تجارب متنوعة فتحملها بالصبر مقدما عنها لله خالص الشكر . جرب في أبنائه فكان كلما رزق ابنا اختطفه الموت منه ، وجرب كثيرا في صحته . ثم فجع في اليوم الثاني من ديسمبر سنة١٩٢٨ بوفاة المرحومة والدته العزيزة فخسر بوفاتها أعز من في الوجود اليه وأكثرهم حنوا وعطفا عليه ، وكان حزنه عليها شديدا لدرجة أنه كان يصلي بالالحان الحزينة مناجيا روحها الطاهرة ، وبالرغم من شدة وقع هذه المصائب في نفسه فانها لم تنل من عزيمته أو تضعف من مجهوداته الجبارة في خدمة كنيسته وأمته ، تلك الخدمة التي كرس حياته لأجلها والتي ظل يؤديها بكل أمانة ونشاط حتى أقعده المرض عنها مرغما.

وفي يوم الجمعة ١٦ مايو سنة ١٩٣٠ تحدث الى من كانوا في زيارته للاستفسار عن صحته قائلا لهم « سأموت الليلة فأرجو أن تصلوا علي في ملوى وتدفنوني في هور » فكان شأنه في ذلك شأن غيره من الأبرار القديسين الذين يشعرون بدنو الأجل وقرب الساعة . وما وافت الساعة الثانية عشرة من مساء اليوم المذكور الا وفاضت روحه الطاهرة الى باريها فلاقى وجه ربه راضيا مرضيا .

وفي صبيحة اليوم السابع عشر من شهر مايو سنة ١٩٣٠ سرى نعيه بسرعة البرق في جميع أنحاء ملوى وهور والبلاد المجاورة فاضطربت النفوس وخفقت القلوب وسالت العبرات .

وأقبل القوم على داره ووجوههم واجمة وقلوبهم دامية : كل يريد أن يلثم يديه متبركا منه ومودعا له قبل أن يلف في كفنه ويدرج في نعشه . واكتظت شوارع المدينة بالأهلين من جميع الطبقات والمذاهب والملل

وظلوا واقفين وكان على رؤوسهم الطير منتظرين تشييع جنازته حتى اذا ما اطل عليهم نعشه محمولا على الأعناق صرخوا صرخة الحزن من الأعماق وتزاحموا حواليه وخلفه باكين مولولين ، وكان اخواننا المسلمون يتهافتون على حمل نعشه قائلين للمسيحيين « دعونا نقوم بواجب الوفاء له فلقد اخلص فى حياته الود لنا بمثل ما اخلص لكم ، وخدمنا كما خدمكم وليس حزننا عليه بأخف من حزنكم » وسار موكب جنازته تلازمه الروعة ويحدوه الجلال حتى وصل الى الكنيسة القبطية حيث صلى على الفقيد لفيف من الكهنة وأبنه كثير من الخطباء ، ثم استأنفت الجنازة بعد ذلك سيرها حتى خرج به القوم من ملوى الى مدفنه ببلدة هور ، خرجوا به من المدينة التى تفانى فى خدمة كنيستها وفى حب شعبها ٠

خرجوا به ولكل باك حوله   صفقات موسى يوم دك الطور

حتى اتوا جدثا كان ضريحه   فى كل قلب موجد محفور

وبعد أن وورى الفقيد التراب انصرف الجمع وهم يبكون شبابه الغض ويترحمون عليه ويذكرون فضائله ويعددون ماثره ٠

لقد جاهد فقيد الكنيسة الشاب جهاد الأبطال ورقد فى الرب فنال اكليل الحياة ٠ جعل الله من سيرته العاطرة خير مثال يحتذيه العاملون المخلصون ٠

تحيـة الشقيق

بعد أن جثم اليأس قرابة نصف قرن ليقف حائلا فى اعادة طبع هـذا الـكتاب الفريد وتتابعت المشاكل وضاعت النسخ التى أعدت لاعادة طبعـه اذ بالعناية الالهية الساهرة تفجر الرجاء فى اعادة طبعه بأجمل صورة ٠

ولما كان تاريخك الحافل بالخدمات الجليلة للرب الذى أحبك فأكرمك باحياء ذكراك بأنه له المجد يكرم الذين يكرمونه فرغم قصر عمرك على الأرض الا أنها كانت ثمرا جيدا يكاد يكون لا ثلاثين وستين ومائة بل مائة وكذلك كان من فضل الله على أن يمتد لى العمر لأرى ما يأتى :

١ ـ احتفال الآباء الاجلاء كهنة مطرانيـة المنيـا بتخليد ذكراك فى اليوبيل الفضى لانتقالك للمجد بكنيسة السيدة العـذراء بملوى يوم الجمعـة ١٩٥٥/٥/١٣ فكانت خدمتهم فى هـذا اليوم جليلة فاض بهـا الآباء الأفاضل وفاءا وتقديرا وحبا لذكراك فقاموا جميعا وكانوا فى عددهم أربعة وعشرين قسيسا الموجودين أمام العرش الالهى فقـام كل منهم بالخدمة كاهنا وشماسا وشعبا ، وكان منظرهم روحيا فريدا رائعا فى التواضع والوداعة والمحبة والوفاء نقلنا فيه الى السماء ٠

٢ ـ كانت هناك ندوتان لتخليد ذكراك ومآثرك الأولى بكنيسـة السـيدة العذراء بالزيتون والأخرى بكنيسة السيدة العذراء بالمطرية ٠

٣ ـ فى لقاء السيد الرئيس الراحل محمد أنور السادات بالقيادات الدينية يوم ١٩٧٧/٢/٨ أشاد سيادته فى هـذا اللقاء بما سطرته فى تاريخ الـكنيسة القبطيـة تأليفك عن وطنيـة أقبـاط مصر وصلابة ايمانهم وسـلامة عقيـدتهم بقوله : « وينقل الـكاتب عن الشماس منسى القمص فى تاريخ الكنيسة القبطيةبالنص (وحاول الصليبيون أخذ مصر ولكنهم فشلوا ولشدة غيظهم من عدم مساعدة الأقباط لهم أنهم أصدروا قانونا بمنع أقباط مصر لزيارة القبر المقدس) » ٠

٤ ـ ثم شاءت نفس العناية الالهية أن يحتفل نيافة الأنبا بيمن أسقف ملوى

بتخليد ذكراك مع كهنة الايبارشية يوم ١٦/٥/١٩٧٧ بالمطرانية معددين مناقبك وخدماتك ومآثرك وحسبوك قدوة يجب أن يحتذى بها ، وهـذا ما نذكره لنيافته بالتقدير والعرفان ٠

٥ - فى عدد مجلة الكرازة الصادر فى ٢٤/٣/١٩٧٨ بقلم الأب القمص بطرس جيد مانصه :

القس المتنيح :

تعودنا الا نذكر أسماء الأحيـاء ولـكننا نذكر أسماء الذين انتقلوا من هـذا العـالم تخليـدا لذكراهم ونحن الآن بصدد كاهن ورع جليل انتقل من هـذا العالم الثانى فى شرخ الشباب ورغم قصر حياته على الأرض قدم لمكتبة الكنيسة ذوب الفكر وعصارة القريحة ، والعجيب انه عاش أعواما قليلة وبقيت كتبه تضيف عمرا الى عمره ٠

والأعجب من هذا بعد أن كتب كثيرا عن الموت كانت له لقاءات كثيرة مع الموت فلقد اختطفت يد المنون والد هـذا الكاهن وهو ما زال طفـلا صغيرا فربتـه أمه فنشأ على حبها وتعلق بها تعلقا شديدا وكانت فرحتها لاتوصف عندما تخرج من الاكليريكية وهو أقل من العشرين وبلغت فرحتهـا القمـة عنـدما سيم كاهنـا وسنه أقل من السادسة والعشرين ولـكن الموت عاد واختطف الأم كما اختطف الأب من قبل ٠

ويقولون انه منذ رحيل الأم ظل الكاهن المتنيح يرتل القـداس باللحن الحزين ، وعاش بعد أمه سنة ونصف ، وأصـابته وعكة بسيطة واذا به يقول للذين عادوه وزاروه : سأموت الليلة ، وهذا ما كان وهكذا جمعه الموت بأبيه وأمه والعجيب انه كتب كتابين هما (طريق السـماء) ، (يسـوع المصلوب) لا يكاد يخلو سطر من ذكر الموت وفناء الحياة ٠

ولقـد قرأت عن ملك حكيم عين موظفـا براتب شهرى وكل وظيفتـه أن يذكر للملك عبـارة واحـدة كل صـباح وهى تذكر أيهـا الملك انـك سوف تموت ٠

ولعلك أيهـا القـارئ فهمت من المقصود بالـكاهن الجليل انه القس

منسى يوحنا الذى سيم كاهنا على بلدة ملوى فى يناير سنة١٩٢٥ م وانطفأت شمعة حياته على الأرض عام ١٩٣٠ م لتضىء من جديد فى السماء ٠

ولقد كان أكثر من كتبوا وتحدثوا عن الموت والآن لعلك أيها القارىء العزيز لا تنسى القس منسى وموضوع قصر الحياة ٠

وكل ما نصف به القس منسى فى ذكراه وما يجب ألا ننساه ٠٠ أنه كان كالشجرة المخصبة ٠

وهنا نذكر كلمات الرب يسوع والبعض أعطى ثمرا ثلاثين وستين ومائة ٠

لقد عاش القس منسى قليلا ولكنه أعطى كثيرا ٠٠ وأكمل الرب يسوع البشارة والفداء فى ثلاث سنوات وبضعة أشهر ورغم أن يوحنا المعمدان أدى رسالته خير أداء فى ستة أشهر فقد قيل عنه : « لم يقم بين مواليد النساء من هو أعظم من يوحنا المعمدان » ٠

٦ ـ فى عدد الكرازة الصادر فى ١٩٧٨/٤/٢١ جاء بأقوال قداسة البابا شنوده الثالث ما يأتى :

القس منسى يوحنا تنيح وعمره ٣٠ سنة ولكنه ملأ الكنيسة كلها بعظاته العديدة التى انتشرت بسعة عجيبة ٠

لذلك يا أخى نرى أن الرب الذى أحببته وخدمته بكل جهدك وفكرك وقوتك ومن كل قلبك هو له المجد الذى فتح القلوب لتشيد بخدمتك وبعملك رغم مضى حوالى نصف قرن على انتقالك وهو وحده صاحب الفضل الأول والأخير فى اعادة طبع هذا الكتاب وما يتبعه من الكتب التى لم تظهر بعد أن منيت الجهود السابقة بالفشل تجلت عظمة الرب ومحبته وقدرته الغير محدودة فى هذا العمل العجيب ليكون فضل القوة له لا من أى مخلوق ٠

لذلك يشترك معى كل محبيك فى رفع آيات الحمد لجلاله الأقدس على هذه العطية والنعمة التى فتحت لنا الباب دون أن يكون لأى مجهود بشرى او عمل انسان أو مخلوق فضل ٠

فاهنأ يا أخى فى الفردوس ومجلتك « الفردوس » فى طريقها للظهور ايضا بما حوت من كنوز وذخائر لتكون فى متناول الجميع بعد أن تفضل أحد الآباء الاجلاء من زملائك الأوفياء بتقديم اعدادها لاعادة طبعها ·

له المجد الى أبد الآبدين آمين ·

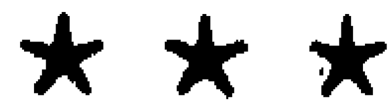
شقيقك

وهبه يؤنس نصر الله

بعــد حمــد الله

الى القارىء القبطى

فى هذا الـكتاب نقف على تاريخ آبائك الأبطال وأجدادك العظام الذين تمسكوا بالمسيحية ودافعوا عنها دفاعا مجيدا رفع شأنها وعظم اسمها وخلد لهم ذكرا حسـنا انتشر اريجه وذاع فى الأنام خبره · فلك أن تقـارن بين غيرتهم الوقادة على حفظ كرامة دينهم وبين فتورك المتنـاهى فى أمـر ذلك الدين · وبين سعيهم المتواصل لوضع كنيستهم فى الشأو الأعلى وبين تأخرك المعيب فى هذا الميدان · فلعلك تتخذ من ذلك درسا يحملك على التعهد بالسير فى السبيل الذى يمكنك من استعادة ذلك المجد الغابر ·



« كفاكم قعود فى هذا الجيل » (تث ١ : ٦)

« هلم فنبنى سور أورشليم ولا نكون بعد عارا » (نح ٢ : ١٧)

« أنت الذى أريتنا ضيقات كثيرة ورديئة تعود فتحيينا ومن أعمـاق الأرض تعود فتصعدنا » (مز ٧١ : ٢٠)



القرن الأول الميلادى

فجر المسيحية فى مصر

القسم الأول

مجىء السيد المسيح الى مصر

ان الله تعالى أظهر غيظه فى كثير من الأوقات على مصر فضربها مرة بالضربات العشر وبعد ذلك توعدها على ألسنة أنبيائه بأنواع عقوبات شديدة غير أنه سبحانه لم يشأ أن يغلق باب رحمته فى وجوه المصريين فجهز لهم بركات عظمى وثمينة وأنبأ بفم هوشع نبيه قائلا « من مصر دعوت ابنى » (هو ١١ : ١) ومع أن هذا القول كان أولا اشارة الى اخراج شعب اسرائيل من مصر ولكنه صار اشارة رمزية الى السيد المسيح لما هرب من وجه هيرودس ملتجئا الى مصر كما أشار الانجيلى متى (٢ : ١٥) وكان بقاء ذلك الشعب مدة فى مصر رمزا الى مكث المسيح هناك ٠ الا أن الأرض التى كانت لليهود أرض تنهد وعبودية صارت لملك اليهود المولود جديدا أرض ملجأ وراحة ٠

ان الله قد أراد أن يهرب ابنه الى مصر ليعطى المصريين عربون المصالحة العتيدة بعد أن أنزل بهم الضربات العديدة ٠ وكانت مصر ملجأ لأعظم رجال الله كابراهيم ويعقوب ويوسف وأرميا مرارا كثيرة ٠ ولئن كانت قد ضربت باللعنة الا أنها تقدست بوطىء قدمى المسيح ٠

ويقول البعض بأن مجىء المخلص الى مصر كان اتماما لما جاء (باش ١٩ : ١) حيث قيل « هوذا الرب راكب على سحابة سريعة وقادم الى مصر فترتجف أوثان مصر من وجهه ويذوب قلب مصر داخلها » ٠ وقد أنبأ الله فى خاتمة ذلك الاصحاح برجوع المصريين اليه بقوله « ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا فيرجعون الى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم » (عد ٢٢)

وقد تم هذا القول • فقد كانت مصر مملكة مسيحية من القرن الثالث الى السابع ولم يزل فيهـا بعض المسيحيين من أبناء الـكنيسة القديمة الى الآن وتحن بنعمة الله منهم •

ولا نعلم كم كان عمر السيد المسيح حين قـدومه الى مصر وبعضهم يرتأى أنه كان ابن سنتين استنادا على أمر هيرودس بقتل الأطفال من ابن سنتين فما دون حسب الزمان الذى تحققـه عن الصبى من المجوس (مت ٢ : ١٦) ولـكن الزمان الذى تحققه من المجوس لا ينسب الى قـوله ابن سنتين بل الى قوله « ما دون » لأن هيرودس أمر بقتل الأطفال من ابن سنتين لمزيد من الاحتراس على قتل المخلص كما زاد على مدينـة بيت لحم « كل تخومها » حتى لا ينجو المسيح بطريقة من الطرق •



(العـائلة المقدسة تهرب الى مصر)

ولـكن الأرجح بل المعلوم لنا أن المسيح لم يكن عمره اذ ذاك يزيد عن الثلاثة أشهر لأن المسيح ولد سنة ٣٤٩ لبناء مدينة رومية حسب رأى أفضل المحققين وهيرودس كما دون يوسيفوس المؤرخ مات سنة ٣٥٠ لبناء رومية فتكون المدة بين ولادة المسيح وموت هيرودس بسنة واحدة ويكون المسيح قد هرب الى مصر وسنه ثلاثة أشهر واستمر بها سبعة أشهر وفى نهايتها بلغه موت هيرودس ولا يمكن أن يكون المخلص قد ذهب الى مصر قبل مرور ثلاثة أشهر على ميلاده أو عقب ولادته بقليل كما ذهب البعض بدليل عدم خوف يوسف البار والسيدة العذراء من الذهاب الى أورشليم وتقدمة الرب علانية

فى الهيكل بعد مولده بأربعين يوما · ولو كان سجود المجوس وتخبيرهم لهيرودس علي أثر ميلاده لقتله هيرودس ولم يجسرا أن يذهبا به الى الهيكل (راجع لو ٢ : ٢٢ و٢٣ ولا ١٢ : ١)

أما العائلة المقدسة فأتت من بيت لحم الى مصر عن طريق الصحراء باجتياز القنطرة · ولا نعلم أيضا كيف تمكنت العائلة المقدسة من استحضار النفقة اللازمة للسفر والاقامة فىمصر ولكن يفهم أنه كان عندهم الذهبالذى أهداه المجوس اليهم · وأن يوسف كان نجارا ماهرا مجتهدا وكان يستطيع أن يدأب فى صناعته لتقديم حاجات العائلة ويؤخذ من التواريخ الكنسية أن السيد جاء الى مصر مع والدته ويوسف النجار وسالومة عن طريق صحراء سيناء · ودخلوها من جهة الفرمة (الجهة الواقعة بين بورسعيد والعريش) ومنها أتوا الى مدينة بسطة (١) فلم يقبلهم أهلها فنزلوا بظاهرها أياما ثم ساروا منها الى مدينة سمنود ومن هناك عبروا النيل الى اقليم الغربية واجتازوا غربا بجبل النطرون ببرية شيهات (٢) فباركته أم النور · ثم ساروا الى مدينة الأشمونين (٣) ودخلوها وهم لا يعلمون لهم مأوى فأقاموا فيها أياما · قال بعضهم « ظهرت على يد المخلص فى الأشمونين آية وهى أن خمسة جمال زاحمتهم فى مرورهم فصرخ فيهم المسيح فصاروا حجارة » · ثم أنهم ساروا من الأشمونين وأقاموا بقرب قرية تسمى منليس أياما ثم مضوا الى القوصية فطردهم أهلها فمضوا الى قرية ميرة (الآن مير) غربى القوصية ومنها قصدوا جبل قسقام الكائن به دير السيدة العذراء الشهير بالمحرق · وحينئذ مات هيرودس بالشام فظهر ملاك الرب ليوسف فعاد بمن معه من ميرة الىمصر ونزل فى بابيليون فى المغارة الكائنة بدير القديس سرجيوس (أبو سرجة) بمصر القديمة ثمرحلت الأسرةالمقدسة الى المطرية واغتسل أفرادها هناك من عين ماء فتباركت وتقدست من تلك الساعة · قيل أن العذراء قد غسلت من ذلك الماء ثياب المسيح وكانت قد اتسخت وصبت غسالتها بتلكالأراضى فأنبتت بلسانا وكانلذلك الوقت لاينبت البلسان الا بأرض فلسطين فانقطع من هناك وبقى فى هذا المكان وكثر الماء بالبئر التى هناك حيث سال عليها الماء الذى غسلت منه العذراء · وبشجرة البلسم الموجودة الى اليوم يقال أنها نبتت بقرب العين ومن دهنها كانوا يصنعون الميرون المقدس ويكرسون الكنائس وأوانيها ·

والمحقق من كل ذلك قدومه الى مدينة بابليون بالقرب من هليوبوليس

---

(١) الآن تل قديم هو بقايا المدينة ويعرف بتل بسطة بجوار الزقازيق

(٢) سمى كذلك لوجود النطرون والبردى فيه بكثرة وشيهات كلمة قبطية معناها « ميزان القلوب » وهى مركبة من شى ميزان أو كيل و (هيت) قلب· ويسمى أيضا اسقيط وبالقبطية (أياسكيطيس) ومعناه دار النساك · ويطلق عليه أيضا لقب وادى هبيب وهو شيخ قبيلة عربية نزلت وسكنت فى ذلك الوادى

(٣) بالقبطى اشمون الرمان كما يسميها العرب تماما

(عين شمس) وقال المؤرخون ان الأسرى البابليين الذين أسرهم رمسيس الأكبر من آسيا احتلوا قلعة (هاينين) على شاطىء النيل تجاه مدينة منف (١) وبنوا هناك مدينة دعوها (البابليون) أو بابل على اسم عاصمة بلادهم ٠ وسبب قدوم المخلص الى هذا المكان معلوم وهو أنه كان فيه فى ذلك الوقت هيكل مشهور لليهود اسمه هيكل (يانوس) شبيه بهيكل أورشليم بنى نحو سنة ١٦٠ ق٠م وكان حوله كثير من اليهود ٠ وباعتبار أن المخلص أتى أولا لأجل اليهود ليرد خراف بيت اسرائيل الضالة اختار مقره فى مصر الموضع الذى يكثر فيه بنو جنسه ولعل السبب أن يوسف كان له أقارب أو أصحاب ببابيليون فسكن حيث كانوا ٠

وقد روت التواريخ قصصا غريبة عما حدث حيث دخل المسيح الى مصر أهمها أن أبويه لجأ به الى هيكل فيه أصنام للآلهة فلما دخل يسوع سقطت الأصنام كلها أمامه وهذا رمز الى فاعلية قوة ابن الله ٠

ومن أهم اثار زيارة المسيح لمصر الباقية للآن :

١ ـ المغارة التى نزلت بها السيدة العذراء مع ابنها وخطيبها وهى الآن بكنيسة أبى سرجة بمصر القديمة (٢) ٠

(٢) النبع الموجود بقرب المطرية الى جنوبى اطلال عين شمس القديمة ٠

٣ ـ الشجرة المشهورة باسم شجرة العذراء بالمطرية التى يعتقد فيها الوطنيون والأجانب معا ٠

وهذه الحقائق ليست من معتقدات الكنيسة القبطية فقط بل يوجد عند الغربيين ما يؤيدها فيوجد لليوم فى المتحف البريطانى بلندن صورة معروفة بسنة الرب تمثل احتفالا كبيرا كان يقيمه المصريون لآلهتهم حتى السنة الأولى للميلاد وكان ذلك شائعا فى مصر شيوعا كبيرا وترتيبه أن يسير المغنون فالضاربون على الأعواد وبينهم فتيات حسنات الوجوه والقوام يضربن بالطبول والدفوف ويتقدم هذا الموكب الآلهة أيزيس محمولة على أكف الشرف والفخار حاملة ابنها هوروس على ركبتيها وحين مرور الآلهة يأتى الناس بمرضاهم على جانبى الطريق اعتقادا بنيلهم الشفاء ٠

---

(١) هى الآن خربة وكانت قائمة خلف الجيزة

(٢) كنيسة ابى سرجة قيل أنها بنيت فى عهد الرسل وهى أقدم الكنائس المصرية أما الكنيسة التى تعلوها فطلب اذنا ببنائها من عهد العزيز والى موفى عهد الدولة الأموية اثناس كبير القبط حينئذ فبنى بقصر الشمع « اسم يطلقه العرب على بابليون » كنيستى أبى سرجة وأبى كير فى أول القرن الثامن ثم تهدمتا فيما بعد رممهما ابن النرور يوحنا بن يوسف المعروف بابن الأبح كاتب سر الخليفة المستنصر الفاطمى سنة ٧٨٩ ش

وفى وسط الصورة الممثلة لذلك يرى الناظر ركبا حقيرا قد انزوى جانبا ليفتح الطريق لموكب الآلهة المذكورة · وهذا الركب مؤلف من امرأة متواضعة فقيرة وطفلها راكبين حمارا أنهكه التعب وخلفه رجل ريفى يسير راجلا وقد أضناه الكلال وطول الشقة ·



(العـــائلة المقدسة)

ومعلوم أن المصــور قصــد ايضاح الفرق بين الركبين فى ظاهرهما وخافيهما لأنه بينما نرى أن أبهة الأول قد بادت بانقراض عبادة الأصنام فى مصر ودالت عظمة الملك بقى اسم الطفل ويبقى الى الأبد فى مصر وغيرها من الأمصار ·

أما مدة بقــاء المسيح فى مصر فالمحقق عنــدنا أنه استمر سبعة أشهر لغاية موت هيرودوس أما اذا كان قد بقى بعد موت هيرودوس بمصر فهذا لا نعلمه · والمقول فى هــذا الشأن كثير فبعضـــهم يظنون أنه مكث سنتين وغيرهم أربعة وآخرون ستة والله أعلم ·

فلننظر ونتعجب لأن مصر الوثنية حمت المسيح والأرض المكروهة منه صارت له ملجأ . ولا ريب أن مجيء السيد المسيح الى مصر كان فاتحة سعادة لهذه البلاد لأن المكان الذى يتشرف بحلول ابن الله فيه يمتلىء خيرا وبركة ولنعلم أن رحلة السيد المسيح الى مصر قد أعدت قلوب المصريين وهيأتها للاذعان لكلمة الله فى القريب للبشارة على يد مار مرقس الانجيلى والرسول وقبول شريعة الكمال رسميا . ولا يبعد أن تكون الألسنة قد تناقلت آيات السيد المسيح المقدسة وعجائبه الخارقة للطبيعة خصوصا وأن تجاور القطرين المصرى والسورى وسهولة المواصلات التجارية بينهما مما يحملنا على الاعتقاد بأن أخبار السيد المسيح كانت قد وصلت آذان المصريين وقوت فيهم قابلية الاستعداد للخلاص .

وقد ذهب البعض الى أن الدين المسيحى دخل الثغر الاسكندرى قبل أن يكرز به مرقس الرسول :

أولا : بداعى قرب المكان من بلاد فلسطين وقد كان يوجد فيه أحياء لليهود وعلاقتهم متصلة دائما مع يهود بيت المقدس .

ثانيا : بدليل أن لوقا الانجيلى كتب انجيله الى أحد اشراف الاسكندرية المدعو ثاوفيلس .

ثالثا : لأن بعض الذين آمنوا بواسطة كرازة بطرس يوم الخمسين كانوا من مصر (أع ٢ : ١٠) وعلى كل حال فلم تقم للمسيحية قائمة ولم تعرف جيدا بمصر الا بعد أن وافى الرسول مرقس اليها . ومن ذلك الوقت أصبحت مصر ملكا لابن الله محمية من كل خطر برعايته فهو يكلأها بعينه التى لا تنام الى ما شاء الله ولا يتخلى عنها الى الأبد . ولابد أن ينجز مواعيده فتصبح مصر بأسرها للرب .

★ ★ ★

القسم الثانى

تاريخ البطـــــاركة

(١) مرقس الرسول (٢) انيـانوس

(٣) ميليوس (٤) كرذونوس

---

(١) مار مرقس الرسول :

ولد هذا القـديس من أبوين يهوديى الأصل استوطنـا فى بلدة تسمى (ايريانولوس) بأقاليم المدن الخمس الغربية (بنتابوليس) من شمالى قارة أفريقيا (١) ويدعى أبوه أرسطوبولوس قيل أنه ابن عم زوجة بطرس واخو توما الرسولين وقيل أنه كان لاويا وكاهنا ولكن هذا لم يثبت وأمه مريم كانت أخت برنابا الرسول كما هو واضح من (كو ٤ : ١٠) وكان أبواه على جانب عظيم من التقوى والورع متمسكين بشريعة آبائهما وأجدادهما · ويقال أنهما كانا من ذوى اليسار فسطت عليهما بعض قبائل البدو الرحل ونهبت أموالهما وامتعتهما حتى أصبحا معدمين وأصابهما الفقر المدقع واضطرهما ذلك الى هجر المدينة فقصدا فلسطين موطن آبائهما وأقاما زمانا بالقرب من أورشليم وكان هذا الرحيل قبيل ولادة مار مرقس أو بعد ولادته بقليل ·

نشأ مار مرقس فى فلسطين مركز اعلان بشـارة خـلاص العـالم · ويرجح أنه آمن بالمسيح على يد بطرس الرسـول لأنه كان يدعوه ابنـه (١ بط ٥:١٣) ولمـا كان بطرس الرسول قريبا لمار مرقس كما سلف اقتدى هذا به على أثر ايمان ذلك بالمخلص · وكان مار مرقس مماثلا لمار بطرس فى الغيرة والحمية على مجد الرب وخلاص النفوس وكان أول ثمر تعبه فىخدمة

---

(١) الخمس المدن الغربية واقعة فى الجزء الشرقى من طرابلس الغرب المتاخم الآن لمصر· وتسمى باليونانية · بنتابوليس · وقد تأسست سنة ٦٣٠ ق·م بواسطة جماعة التريان وهى:

١ ـ قيروان وهى الآن خربة وتبعد ١٥ كيلومترا عن مرسى سون ·
٢ ـ برنيقة والآن بنى غازى على خليج سدره ·
٣ ـ سوزوسا وكان اسمها ابولونى والآن اسمها مرسى سوزوسا ·
٤ ـ درنه وكان اسمها ارسينو ·
٥ ـ بطولمايس وتسمى الآن طولميت بقرب اطلال برقة · ويذكرها ابن كبر المؤرخ القبطى فى كتابه « السلم الـكبير » هكذا « برقة · تونس · طرابلس · القيروان افريقية » ·

فاديه جذب والده الى الايمان لأنه كان يهوديا غير مؤمن بالمسيح وذلك أنه بينما كان وأبوه سائرين فى طريقهما الى جهة الأردن اذ قابلهما أسد ولبوءة يزأران بصوت مخيف • فخالج قلب أبيه الخوف ولم يشأ حنوه الأبوى الا أن يوعز اليه أن يلوذ بالفرار وينجو بنفسه مستعدا لتقديم ذاته الى الوحشين رغبة فى خلاص ابنه • الا أن القديس طمأن والده وهو موقن بأن السيد المسيح سيخلصهما من هذه الضيقة • ثم رفع عينيه نحو السماء وصرخ بحرارة الى السيد المسيح قائلا له « يا ابن الله الحى الذى نؤمن به نجنا من هذه البلية وانقذنا من شر هذين الوحشين الكاسرين » وما لبث أن التفت حوله فوجد الأسدين وقد انطرحا على الأرض لاحراك فيهما • فشكر الرب على هذه العناية وربح أباه الى جانب المسيح لأنه عندما رأى فاعلية ايمان ابنه آمن بالمخلص ومجد اسمه القدوس •

ولما اختار السيد المسيح سبعين رسولا ليرسلهم أمام وجهه الى كل موضع حيث كان هو مزمعا أن يأتى انتخب بينهم مار مرقس وكان يلقب (بالثاوفوروس) أى حامل الاله • وكان لهذا الرسول اسمان فسمى «يوحنا» وهو اسمه اليهودى وسمى « مرقس » وهو اسمه اليونانى • وكان منزل والدته محط رحال التلاميذ ومقر اجتماعهم للعبادة وفيه كانوا يصلون لأجل خلاص الرسول بطرس من السجن ولما أطلق أتى اليه (أع ١٢ : ١٢و٢٥) ويظن أن بيته كان معروفا فى زمن السيد المسيح أيضا • والبعض يقولون أن المخلص لما أرسل اثنين من تلاميذه وقال لهما اذهبا الى المدينة فيلاقيكما انسان حامل جرة ماء فاتبعاه (مر ١٤:١٤) كان يقصد مار مرقس • وقالوا انه هو الشاب الذى كان لابسا ازارا على عريه ليلة موت المخلص ولما تبعه وأمسكه الشبان ترك الازار وهرب منهم عريانا (مر ١٤:١٥) وقد رجحوا ذلك لانفراده بكتابة هذين الخبرين ولم يكتب حادثة الجرة الا لوقا ويظهر انه سمعها منه • وقال الأنبا ساويرس المؤرخ أسقف الأشمونين « أنه كان من جملة الخدام الذين استقوا الماء الذى صيره سيدنا خمرا فى عرس قانا الجليل » أهـ • وكان هذا الرسول أيضا يأوى التلاميذ فى بيته فى زمان آلام المسيح وبعد قيامته من الأموات حيث دخل عليهم والأبواب مغلقة •

وفى خدمة التبشير كان هذا الرسول رفيقا لبولس وبرنابا (أع١٢:٢٥) ولكنه تركهما فى برجة ورجع (أع ١٣:٢٥) ولما أراد برنابا أن يأخذه معهما فى السفر الثانى للتبشير لم يستحسن بولس ذلك لأنه تركهما فى برجة فى السفر الأول فاختلفا فى أمره وانتهى الأمر بانفصالهما فأخذ برنابا مرقس معه الى قبرص سنة ٤٩ م •

وبعد هذا التاريخ بثلاث عشرة سنة أظهر بولس لأهل كولوسى رضاه

عنه وتحقق أمانته حيث قال لهم « ومرقس ابن أخت برنابا الذى أخذتم لأجله وصايا • ان أتى اليكم فاقبلوه » (كو ٤ : ١٠) وفى هذه الآية اشارة الى عزم مرقس على الذهاب الى كولوسى وحده للكرازة • ويتضح من رسالة فليمون أنه فى ذلك الوقت كان شريكا للرسول بولس فى أتعابه برومية (فل ٢٤) وكان مع تيموثاوس فى أفسس حين كتب بولس الى تيموثاوس رسالته الثانية بين سنة (٦٧ و٦٨) ورغب أن يأتى به اليه بدليل قوله « خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع لى للخدمة » (٢ تى ٤ : ١١) •

أما علاقته ببطرس الرسول فلم يرو عنها خبر صحيح الا ماكتبه هذا الرسول فى رسالته الأولى بين سنة ٦٣ و٦٧م وهو قوله « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة معكم ومرقس ابنى » (١ بط ٥ : ١٣) وقد اختلف المفسرون فى أى بابل يعنى الرسول • فقال قوم وهم الغربيون انه يقصد بابل رومية لكى يثبتوا ادعاءهم أن بطرس كان أسقفا على رومية ودليلهم اطلاق صاحب الرؤيا لقب بابل على رومية (رؤ ١٤ : ٨) لأنها كانت تشبه بابل القديمة فى فسادها ولكن لا دليل على أن رومية كانت تعرف وقتئذ بهذا الاسم المجازى لأن سفر الرؤيا كتب بعد موت الرسول بطرس بثلاثين سنة وقيل أيضا أن المشار اليها هى بابل أشور ولكنها كانت حينئذ قرية صغيرة ضاع مجدها السابق فليس هناك ما يلجىء بطرس الى الذهاب اليها وجعلها مركزا يكتب منه رسائله ولكن الصحيح أنها كانت « بابيليون » مصر القريبة من عين شمس لأنها كانت فى ذلك الوقت بلدة آهلة بالسكان فضلا عن أنه كان فيها هيكل اليهود المشهور وعدد عظيم منهم وباعتبار أن بطرس كان رسولا للختان لا سيما بين المتشتتين لابد له من تبشير يهود ذلك المكان • ومما يزيد المسألة ايضاحا ذكره لمرقس الرسول عقب ذكره لبابل (عد ١٣) ومعلوم لنا أن مصر كانت مركزا لمار مرقس فيكون بطرس فى ذلك الحين مقيما هنالك حيث كتب رسالته •

أما الغربيون فيدعون بأن مرقس ذهب الى رومية وهناك رسمه بطرس أسقفا وأرسله للتبشير فى أكويلا من أعمال البندقية بايطاليا ولما رجع الى رومية لم يجد الرسول بطرس فطلب اليه المؤمنون أن يدون لهم أخبار السيد المسيح كما سمعوها من فم الرسول بطرس فدون انجيله باللاتينية ولما حضر الرسول بطرس الى رومية اطلع عليه واعجب به وأمره أن يذهب الى مصر سنة ٥٨ م فنقل انجيله الى اللغة اليونانية لينشره بين المصريين •

والخلط ظاهر فى هذا الكلام لأنه يتضح لمن يطالع العهد الجديد أن علاقة مرقس كانت متصلة ببولس أكثر منها ببطرس • أما وجود بطرس

ومرقس في بابل مصر فسببه أن مرقس بعد أن بشر فى انطاكيـــة وقبرص ورومية واكويلا وخدم هناك خدمات جليلة يمم نحو أفريقيـا فجاء أولا الى مسقط رأسه في الخمس المدن قصدا في اجتذاب أهلها الى الايمان ومن ثم قصد الديار المصرية سنة ٥٥ م لنشر بشارة الخلاص فى أنحائها وهنـاك كتب انجيله فى سنة ٦١م · قال القديس يوحنا فم الذهب « ان انجيل القـديس مرقس قد كتب فى مصر » (١) ·

واتفق أن بطرس الرسول أتى مصر لتبشير اليهود المتشتتين فيها كما هى خدمته فتقابل معه مرقس في مدينة بابيليون التى فيها حرر رسالته الأولى وذكر مرقس لوجوده معه فى ذلك الحين · وسبب تسميته بابنـه ليس انه كان خاضعا له فى الـكرازة بل هو أنه عرف المسيح بواسطته كما ذكر آنفا راجع (١ كو ٤ : ١٥ و١٦) ·

قالوا ان مرقس كتب انجيله بمناظرة بطرس وارشاده واستدلوا على ذلك بأمرين (١) لأنه لا يستطيع أن يستقى هذه الأخبار الا من أحد الرسل الاثنى عشر (٢) لأن الانجيل خال من كل ما من شأنه أن يعود بالتعظيم على بطرس أما من جهة الأمر الأول فان مرقس كما تعلم كان من السبعين تلميذا وكانت له علاقة بأغلب الرسل المقربين فلا شك أنه أخذ هذه الأخبـار عنهم كما أخذ عنهم لوقا أيضا فضلا عما هو معلوم من أن بيته كان مقرا لكثير من أعمال المسيح ورسله · وأما عن الأمر الثانى فلا يبعد أن بطرس حينما قابل مرقس بمصر أطلعه على انجيله فأشار عليه من باب التواضع أن يرفع منه كل ما يعود عليه بالتمجيد فأجابه مرقس الى طلبه لما رأى فيه من الصواب ·

جاء مرقس الى الـديار المصرية فى مدة أوثون قيصر فى وقت كانت فيه مشحونة بالأهالى عامرة بالسكان يبلغ عدد من فيها من النفوس اثنى عشر مليونا وقيل بل عشرين مليونا ·

واتخذ مار مرقس الاسكندرية مقرا لخدمته لأنها كانت حينذاك تجمع أجناسا مختلفة من مصريين وحبش ونوبيين ويهود ويونانيين وغيرهم وكانت قصبة ولاية مصر ومركزا مهما للتجارة ومكانا آهلا بالعلم والعرفان وكانت تعتبر المدينة الثانية بعد رومية وكان فيها حيان لليهود من خمسة أحياء · وقبل أن يدخل الرسول المدينة صلى الى الله لكى يدرعه بالأسلحة الروحيـة اللازمة لمثل ذلك الجهاد الذى كان مزمعا أن يدخل فى ميدانه ·

ولما دخل المدينة جعل يطوف فى جميع شوارعها ليفتقد أحوالها حتى

---

(١) ميمره على انجيل متى ١ : ٣ ·

تقطع حذاؤه وكان ذلك فاتحة خير لأعماله المجيدة ودبرت العناية الالهية أن يعرج على اسكافى بالسوق يدعى « انيانوس » ليرتق له الحذاء • وبينما كان الاسكافى يشتغل اذ دخل المخراز فى يده فأدماها ولشدة الألم صاح قائلا « ايوس ثاؤس » الذى تأويله « الاله الواحد » وهذا دليل على تمسك المصريين بعبادة الاله الواحد من قديم الزمان • فسأله القديس كيف يعرف الله فلم يحر جوابا يؤيد ادراكه لما فاه به فطلب الرسول من أجله بحرارة وتفل على الأرض وأخذ جزءا من الطين ووضع على الجرح وقال « بسم الآب والابن والروح القدس الى الأبد أن تشفى يد هذا الانسان » فالتأم الجرح فى الحال •

ثم ابتدأ الرسول يكرز للاسكافى بشارة الخلاص وكانت كيفية شفائه جعلته يصغى جيدا لكل كلمة يقولها الرسول ويخضع لها • ثم دعاه الى منزله فقبل الرسول هذه الدعوة بسرور وهناك فى تلك الدار اعترف الرجل وأهل بيته بيسوع مخلص العالم • ومن ثم أخذت كلمة الله تنمو وتمتد بسرعة حتى أنه فى وقت وجيز تتلمذ للرسول كثيرون من المصريين رجالا ونساء فعمدهم ولكى يرشدهم الى حقائق الخلاص العميمة كتب لهم انجيله المقدس باللغتين اليونانية والقبطية وفى ذلك الحين تقابل مع الرسول بطرس بينما كان يطوف البلاد وكان موضع المقابلة بابيليون كما سبق معنا وكان ذلك بين سنة ٥٨ و٦٢ م ولما رحل الرسول بطرس عن مصر رجع مار مرقس من الطواف الى مدينة الاسكندرية وكان المؤمنون قد كثروا فساء هذا كهنة المصريين وأهل العلم بمدينة الاسكندرية ووقعت بين الفريقين مناظرات ومجادلات دينية أياما طوالا كان الظفر فيها لمرقس وأصحابه فتآمر عليه الوثنيون فرسم انيانوس أسقفا للمؤمنين ومعه ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة وخرج من عندهم وحضر الى برقة أو بالحرى الى الخمس المدن الغربية وأقام بها سنتين يبشر ويرسم كهنة •

ويظهر أنه فى ذلك الحين طلبه الرسول بولس اليه لمهام تبشيرية بينما كان مأسورا برومية أول مرة كما يتضح من (كو ٤ : ١٠) فلبى نداء بولس وذهب اليه فى رومية حيث اشترك معه فى اتعاب كثيرة كما يظهر من (فل ٢٤) فنرى هنا أن مار مرقس الرسول قضى وقتا فى تدبير ورعاية كنيسة رومية ولكن لا تحت اشراف بطرس بل بموجب طلب بولس وتحت ارشاده• ولابد أن يكون كاروز الديار المصرية قد زايل رومية بعد ذلك وذهب لزيارة شريكه فى العمل تيموثاوس بأفسس • ولما علم الرسول بولس ذلك أرسل لتيموثاوس رسالته الثانية بين سنة ٦٧ و٦٨ يقول له « خذ مرقس وأحضره معك لأنه نافع لى للخدمة » (٢ تى ٤ : ١١) فانطلق مع تيموثاوس الى رومية ولم يتركها هذه المرة الا بعد استشهاد الرسولين بطرس وبولس بين سنتى ٦٥ و٦٨ م ثم عاد الى كنيسة الاسكندرية غرس يده وزرع يمينه ليفتقد أحوالها ويتبين شؤونها •

ولما قدم الاسكندرية للمرة الثانية ربما فى أواخر سنة ٦٧م أو أوائل سنة ٦٨ م وجد أن أثماره قد ازهرت والمسيحية آخذة في الازدياد المطرد حتى ابتنى المؤمنون لهم كنيسة فى موضع يسمى « بوكاليا » أي مرعى البقر (١) وقيل أنه فى ذلك الوقت أنشأ مار مرقس المدرسة اللاهوتية وأقام يسطس رئيسا عليها • ثم أخذ يجول فى جميع الأماكن التى يوجد فيهـا المؤمنون مثبتا اياهم على ايمانهم الأقدس •

وقــد حدث فى يوم ٢٩ برموده (٢٦ أبريل) بينما كان المسيحيون يحتفلون بعيد الفصح والوثنيون بعيد الههم سيرابيس أخذ الرســول مرقس يقبح عبادة المخلوق دون الخالق ونهى سامعيه عن هذا الضلال وأرشــدهم الى طريق النور والحق والحياة • وكان الوثنيون يبغضونه بغضا شديدا كلما رأوا نجاح عمله واتبــاع الوثنيين له • ولــما سمعوا منه هذه الأقوال استنكروها للغــاية وهاجوا فى المدينة طالبين مرقس الرسول لتجديفه على الهتهم فتربصوا له والقوا عليه الأيدى وربطوا حبلا فى عنقه وأخذوا يطوفون به فى شوارع المدينة طول النهار ويجرونه فوق الصخور حتى تمزق لحمه وتهشمت عظــامه وسال دمه البرىء وهو محتمل اهانات شــديدة وتحقيرا كثيرا حتى أتى الليل فطرحوه فى السجن حيث ظهر له ملاك الرب فى رؤيا وشدد عزيمته •

ولــما أصبح النهار عاد الوثنيون الى تمثيلهم الفظيع به وهم يزأرون ويصيحون قائلين « جروا الثور الى بوكاليا » وكان الرسول فى أثناء ذلك يسبح الله ويشكره حتى فارقت روحه الطاهرة جسده البار مستشهدا فى ٣٠ برمودة سنة ٦٨م • وأراد جماعة الوثنيين بعد ذلك حرق جسده فأوقدوا النار وأشعلوا جذوتها ولكن شاءت ارادة الله أن توقفهم عند هذا الحد السىء فهبت ريح شديدة وأمطرت السماء غزيرا فأطفئت نيران أيديهم ولبثت نيران قلوبهم تلتهب غيظــا • وقــد فر المسيحيون بجسد القديس ودفنوه بكنيسة بوكاليا • وقد حفظ فى كنيسة الاسكندرية الى الجيل السادس أوموفوريون القديس نفسه أو وشاحه الكنسى وجميع البطاركة الذين جلسوا على كرسى البطريركية بعده كان يلتزم كل منهم بعد انتخابه أن يضع فى عنقه الوشــاح المشار اليه •

وقد أظهر الرب على أيدى الرسول أثناء اقامته بالبلاد المصرية آيات كثيرة وعجائب متعددة تأسس بواسطتها ملكوت الله وتأيد انجيله • وقيل فى

---

(١) كان مقرها شرقى الاسكندرية على شاطىء البحر بالقرب من الوادى الذى كان يضم الأضرحة والمقــابر وقيل أنهــا سميت كذلك لأنهــا كانت حظيرة للثيران التى كان الوثنيون يقربونها لأصنامهم •

وصف الرسول أنه كان معتدل القوام أبيض الشعر ناصعه يكلل هامتــه كالتاج . أنفه طويل ورفيع . وتقاطيع وجهه جميلة متناسبة . حواجبه مائلة الى الجهة الداخلة مقوسة . لحيته طويلة وكثيفة والرأس صلعاء . واصطلح أن يرسم بجانب صورة القديس صورة أسد رمزا الى افتتاحه انجيله بالصراخ الأبدى صراخ يوحنا المعمدان فى البرية حيث قال « أنا هو الصوت الصارخ فى البرية » وقيل ان ذلك من عمل أهالى البندقية الذين سرقوا جسده فى القرن التاسع حيث كانت علامة وطنهم المميزة لهم شكل أسد ذى أجنحة . أما الكلام على بقايا جسده فسيذكر فى حينه .



(مار مرقس الرسول يكتب انجيله)

(٢) انيانوس :

هو البطريرك الثانى من بطاركة الكرسى الاسكندرى سيم أسقفا سنة ٦٢ م فى شهر بشنس فى مدة حكم وسبانيوس قيصر بيد مار مرقس وذلك حينما برح هذا الرسول الاسكندرية لأول مرة فأقامه لينوب عنه فى تدبير الكنيسة مدة غيابه . وبعد انتهاء القديس جلس بعده على كرسى

البطريركية وقد مر بنا كيفية اهتدائه للمسيح وعقب ذلك ترك جميع مهامه العالية واشغاله الدنياوية واشتغل فى خدمة حقل المسيح الجديد فى مصر وحول بيتــه الى كنيسة قال ابن بطريق المؤرخ « ان مرقس الرسول صير مع حنانيا (انيانوس) اثنى عشر قسيسا وامرهم اذا مات البطريرك أن يختاروا واحدا من الاثنى عشر قسيسا ويضع الأحد عشر قسيسا أيديهم على رأسه ويصلحونه بطريركا ويباركونه ثم يختارون رجلا فاضلا ويصيرونه مكان ذلك القسيس ليكونوا اثنى عشر أبدا • فلم يزل القسوس بمدينــة الاسكندرية بطاركة الاسكندرية من الاثنى عشر قسيسا الى وقت الاكسندروس بطريرك الاسكندرية الذين كان فى مجمع الثــلاثمائة وثمانية عشر (نيقية الأول المسكونى) وأنه منع من أن يصلح القسوس البطريرك وانقطع ذلك الرسم وأمر أن لا يصلح البطاركة الا الأساقفة » أهـ •

غير أن أغلب المؤرخين يتفقون مع الأنبا ساويرس بأن الرسول مرقس رسم مع انيانوس فقط ثلاثة قسوس وسبعة شمامسة جعلهم يخدمون ويثبتون الأخوة وقد شهد المؤرخون للبابا انيانوس بالصــلاح والتقوى وقال عنــه أوسابيوس المؤرخ « أنه كان محبوبا من الله مقبولا عنده » وقال آخر « كان قلبه ينظر قلب الله يعرف مشيئته ويتممها » أهـ •

وفى عهد البــابا انيانوس نجحت التعاليم المسيحية واتسع نطــاقها وتمذهب بها الــكثيرون من أرباب المناصب العالية والأكابر والأعيان وبعض رجال الدولة وكثر المؤمنون فوسم منهم كهنة وخداما وأقام اثنتين وعشرين سنة وتنيح فى العشرين من شهر هاتور سنة ٨٤ م وقــد تولى أثناء جلوسه على الكرسى سبعة قياصرة هم نيرون وجلبا وأوثون وفيتيليوس ووسباسيان وتيطس ودومتيان •

(٣) ميليوس :

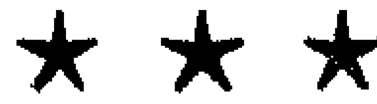
وهو ثالث بطاركة الاسكندرية انتخب للبطريركية بعد وفاة البــــابا انيانوس فى شهر كيهك سنة ٨٤ م وفى عهد دوميتيانوس قيصر باجماع آراء الشعب • وكان هذا البابا مشهورا بالعفاف متصفا بالتقوى والغيرة على رعية المسيح فأخذ يثبت الشعب فى الايمان حتى نما عدده بمصر والخمس المدن وافريقية وشرع المصريون يحتقرون الاعتقاد بعبادة الأوثان ويتهافتون على الانضمام لحضن المسيحية أفواجا وسادت فى أيامه السكينة وكانت الــكنيسة متمتعة بالسلام الــكلى •

وقد روى بعض المؤرخين أن دوميتيانوس قيصر طرد البابا ميليوس من الكرسى الاسكندرى وأقام عوضه غير أن هذه الرواية لم يقم دليل على صحتها ولم تتنــاقلها أقلام المؤرخين • ورقد هذا البــابا فى أول توت سنة ٩٦ م

(٤) كرذونوس :

البطريرك الرابع ٠ وما علم الكهنة والأساقفة الذين كانوا يباشرون الخدمة فى البلاد بأن البطريرك تنيح حتى حزنوا واجتمعوا فى مدينة الاسكندرية وتشاوروا مع الشعب المسيحى الذين فيها وطرحوا القرعة لكى يعرفوا من يستحق الجلوس على كرسى الاسكندرية فاتفق رأيهم بتأييد الله على انتخاب رجل فاضل اسمه كرذونوس قيل أنه ممن عمدهم الرسول مرقس فرسم بطريركا فى شهر بابه سنة ٩٦ م فى عهد تراجان قيصر وكان عفيفا متصفا بكل الصفات الصالحة فرعى كنيسته باجتهاد وأمانة مدة عشرين سنة وستة أشهر وعشرة أيام ٠

وقبض عليه واستشهد فى الاضطهاد الذى أثاره تراجان قيصر ٠ قيل أن سبب القبض عليه هو أن واليا رومانيا قال له « لماذا لاتشركون الهتنا بالهكم وتبقون على عبادته » فأجابه « لأننا لا نسجد لآخر » وكان استشهاده فى ٢١ بؤونة سنة ١٠٦ م وقد خلا الكرسى بعده ثلاث سنوات نظرا لشدة الاضطهاد وعدم تمكن الشعب المسيحى من انتخاب خليفة له ٠



القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) اضطهاد الوثنيين (٢) اضطهاد تراجان

---

(١) اضطهاد الوثنيين :

فى زمن ظهور الديانة المسيحية بمصر كان زمام الحكم فيها بيد المملكة الرومانية ٠ ولم تكن الحكومة تعنى بالمسيحيين فى مصر فى القرن الأول لقلة عددهم غير أن أشرار الوثنيين كانوا يضايقونهم ويتحرشون بهم فى الطرقات ويهجمون عليهم فى مجتمعاتهم وراح ضحية تلك التعديات مار مرقس الرسول وفى يوم استشهاده تتبعوا النصارى وأمعنوا فى قتلهم والتنكيل بهم فملأوا بجثثهم أكثر الطرقات وكان ذلك اليوم يوما مشهودا ٠

(٢) اضطهاد تراجان :

وفى آخر هذا القرن نما عدد المسيحيين بالاسكندرية فامتد اليهم لهيب اضطهاد القيصر تراجان الذى تولى سنة ٩٨ م واشتد عليهم واستشهد فى ذلك الاضطهاد البابا كرذونوس البطريرك الرابع وكان فى بدء ظهور النصرانية ينظر اليها كشيعة يهودية خطرة ولما اشتعلت ثورات اليهود على المملكة الرومانية اضطهدت الحكومة المسيحيين مع اليهود لظنها أنهم قسم منهم فنال المؤمنين فى الاسكندرية شدائد عظيمة ٠

القسم الرابع

البــدع

(١) كرنثيوس (٢) الغنوسطيون

---

(١) كرنثيوس :

هو يهودى المولد تعلم الفلسفة بالاسكندرية وبث ضـلاله سنة ٧٣ م وحاول فى حياة يوحنا الرسول أن ينشىء ديانة جديدة يؤلفها من تعـاليم المسيح ومبادئه ومن تعاليم الكنوسسيين (١) واليهود • فأخذ من الكنوسسيين خرافات البليروما (أى العالم الأعلى) والأيون (أى الأشخاص السماوية الخالدة بنو الأرواح) ودميورج (أى خالق العـالم الذى يختلف عن الاله الأعظم) ولكنه أظهر مبادئه بصورة لا ينفر منها اليهود فعلم أن الذى سن الشريعة لليهود هو خالق هذا العالم وهو ذو مناقب حميدة وصفات شريفة مكتسبة من الاله الحق غير أن هذه الفضائل لم تلبث حتى تدنست فأراد الله أن يلاشى سلطان مشترع اليهود بواسطة أيون مقدس يدعى المسيح • وكان رجل يهودى اسمه يسوع كامل وقدوس وابن بالطبيعة ليوسف ومريم فهذا حل فيه المسيح بنزوله عليه بهيئة حمامة عند عماده من يوحنـا بنهر الأردن • وحال اتحاد المسيح بيسوع قاوم هذا بشجاعة اله اليهود خالق العالم فحرض هذا عليه اليهود فقبضوا عليه ليصلبوه فلما رأى المسيح أنهم قبضوا على يسوع طار الى السماء وترك يسوع فصلب وحده •

ولهـذا أوصى كرنثيوس اشـياعه باحترام الاله الأعظم أبى المسيح وباحترام المسيح وأمرهم بعدم اعتبار مشترع اليهود وبرفض مبادىء الناموس الموسوى وأوصاهم بالسير على نظام المسيح معلما اياهم بأنه سيعود ثانية ويتحد بالانسان يسوع الذى حل فيه قبلا ويملك مع تابعيه على فلسطين الف سنة • ثم وعدهم بقيامة أجسادهم وتمتعها بأفراح سامية فى مدة ملك المسيح الف سنة وبعد ذلك يدومون فى حياة سعيدة فى العالم السماوى •

---

(١) الكنوسسيون هم قوم زعموا بانهم قادرون ان يردوا للبشر ما فقدوه من معرفة (اى كنوسس) الاله الأعظم ونادوا بانقلاب المملكة التى شيدها خالق العالم واصحابه وكان اول ظهورهم بعد موت الرسل •

(٢) الغنوسطيون :

ان الغنوسطية أى مذهب التوليد أنشئت فى فلسطين أو فى سورية عند ظهور الدين المسيحى • ولم يكن مذهب الغنوسطيين الا موفقا بين الدين المسيحى الجديد والأديان القديمة وأقيم له فى الاسكندرية مدرسة فى أوائل القرن الثانى للميلاد واعتنقه بعض المصريين • الا أن الغنوسطية المصرية كانت تختلف عن الأسيوية فاعتقد المصريون أن المادة أبدية وحيوية أيضا واعتبروا غالبا المسيح مخلصنا أنه شخصان الانسان يسوع وابن الله أو المسيح • فالمسيح الشخص الالهى زعموا أنه دخل فى يسوع الانسان حين اعتمد من يوحنا وتركه حين قبض عليه اليهود • ثم أنهم نسبوا للمسيح جسدا حقيقيا لا وهميا مع أنهم لم يتفقوا على ذلك • كما أنهم وضعوا لاتباعهم شرائع تبيح بفساد أميال البشر • وظل علماء المسيحيين الأفاضل يقاومون كل البدع التى كانت تنشأ من هذه الفلسفة مدة طويلة وانقرضت آخر شيعة لأهل هذه الهرطقة فى أواخر القرن السادس •

القرن الثانى

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) بريموس	(٢) يسطس	(٣) أومانيوس
(٤) مركيانوس	(٥) كلاديانوس	(٦) أغرينيوس
(٧) يوليانوس	(٨) ديمتريوس (١)	

---

(١) بريموس ـ البطريرك الخامس :

ولد بمدينة الاسكندرية وقيل أنه ممن عمدهم الرسول مرقس . وقال عنه الأنبا ساويرس المؤرخ أنه كان عفيفا كالملائكة ويفعل أفعالا حسنة بنسك فأجمعت كلمة المؤمنين على انتخابه بطريركا . ولما ارتقى الكرسى المرقسى فى شهر أبيب سنة ١٠٩ م فى عهد أدريانوس قيصر ازداد تمسكا بالفضائل وأضاف اليها الاجتهاد المتواصل فى سبيل تقدم المسيحية فى عهده . ولهذا لم يكن يفتأ يقوم بنفسه بالوعظ والارشاد بدون كلل ولأجل هذه الغاية كان يتخير الرجال الأكفاء ويقيمهم أساقفة وقسوسا ووعاظا ليهذبوا الرعية بالآداب المسيحية . وقد لبث يشتغل فى توسيع نطاق الكنيسة ١٢ سنة وساعده على تقدم العمل أن الكنيسة فى أيامه كانت فى سلام تام وطمأنينة كاملة . وكانت وفاته فى ٣ مسرى ١٢١ م .

(٢) يسطس ـ البطريرك السادس :

وحالما توفى الأب بريموس وقع اختيار الشعب على هذا الأب الفاضل الحكيم فرسم بطريركا فى شهر توت سنة ١٢١ م فى عهد أدريانوس وهو مولود بالاسكندرية ولما أسس الرسول مرقس المدرسة اللاهوتية أقامه رئيسا عليها . فلبث يعلم فى تلك المدرسة حتى أقيم بطريركا فترك وظيفته الأولى الى أومانيوس وأخذ هو يهتم بمسؤلية وظيفته الجديدة فخدم فيها بكل أمانة .

وجعل أهم أغراضه تبشير الوثنيين وجذبهم الى المسيحية فنجح فى عمله وتنصر منهم عدد عظيم · واستمر قائما بوظيفتــه عشر سنين وعشرة أشهر وخمسة عشر يوما وتنيح فى ١٢ بؤونة سنة ١٣١ م ·

(٣)أومانيوس ـ البطريرك السابع :

وعقب البابا يسطس أومانيوس أحد أفاضــل مسيحى الاسكندرية · وقع الاختيار عليه فى شهر أبيب سنة ١٣١ فى عهد أدريانوس لما كان معروفا عنه من العفة والنزاهة لأنه كان بتولا طاهرا · كان قبــلا مديرا للمدرســة اللاهوتية ومن أشهر أعماله فى مدة البطريركية رســامة أســاقفة للــكرازة المرقسية فأقام منهم عددا كبيرا أرسلهم الى كل جهات القطر المصرى والنوبة والخمس مدن الغربية لنشر بشرى الخلاص ·

وفى عهد هذا البابا البار اشتد الاضطهاد على المسيحيين فنال الشهادة كثيرون من الأقباط · وأقام البابا أومانيوس على كرسى الاسكندرية ثلاث عشرة سنة برضى الله والشعب وتنيح فى ٩ بابه سنة ١٤٤ م ·

(٤) مركيانوس ـ البطريرك الثامن :

ارتقى السدة المرقسية فى شهر هاتور سنة ١٤٤ م فى عهد أنطونيوس بيوس قيصر وهو مولود بالاسكندرية وكان مديرا للمدرسة اللاهوتية واستحق أن يرقى الى البطريركية لفضائله وأخلاقه الحميــدة · وقد حقق آمال من انتخبوه فأخذ بعد تنصيبه ينهج على آثار أســلافه الأفاضــل وينسج على منوالهم فى هداية النفوس وتهذيب الأخلاق رغم الاضطهاد الذى كان مشتدا على المسيحيين وقتئذ · ولبث فى جهاده هذا مثابرا مدة تسع سنين وشهرين و٢٦ يوما الى أن رقد بالرب فى ٦ طوبة سنة ١٥٤ م ·

(٥) كلاديانوس ـ البطريرك التاسع :

انتخبه شعب وأساقفة الاسكندرية بطريركا ورسم على الكرسى الرسولى فى شهر أمشــير سنة ١٥٤ م فى عهــد أنطونيوس بيوس وكان محبوبا من الجميع وهو مولود بالاسكندرية وكان بارا حكيما · ولمــا قبض على زمام الرئاسة أخذ يتعهد الزرع الذى تركه له أسلافه وكانت أيامه هادئة لم يحصل فيها للنصرانية ما يكدر صفوها · ولبث مواظبــا على عمله مدة أربع عشرة سنة وستة أشهر وثلاثة أيام وتوفى فى ٩ أبيب سنة ١٦٧ م ·

(٦) أغريبينوس ـ البطريرك العاشر :

ولد بالاسكندرية ورسم قسا بها وعرف بالصلاح والتقوى ونال رضاء الشعب والأساقفة بعد وفاة سلفه فجلس على كرسيه فى شهر مسرى سنة

١٦٧ م فى عهد مرقس أوريليوس قيصر وبدأ يرشد ويعلم حتى تقدم فى عهده العمل الروحى وانتشرت كلمة الخلاص وزاد عدد المنضمين الى دين المسيح · وقضى على الكرسى أربع عشرة سنة وسبعة أشهر وتوفى فى ٥ أمشير سنة ١٧٨ م ·

(٧) يوليانوس - البطريرك الحادى عشر :

ولد بالاسكندرية وقيل أنه كان تلميذا بالمدرسة اللاهوتية تحت ادارة الفيلسوف القبطى بنتينوس ففاق أترابه فى العلم وظهر عليهم بتقواه واستحق أن يرسم قسا · وبعد ذلك اختير بطريركا فى شهر برمهات ١٧٨ م فى عهد مرقس أوريليوس وعقب رسامته اشتغل بوضع ميامر (١) لأسلافه البطاركة تخليدا لذكراهم وفائدة لخلفائهم ·

وكان هذا البابا الفاضل متقربا من الهه حتى أعلن له قبيل وفاته عن الشخص الذى سيلحقه فى البطريركية وذلك أنه قد ظهر له ملاك الرب فى احدى الليالى قائلا « ان من يأتيك غدا بعنقود عنب هو الذى يكون بعدك على الكرسى المرقسى » · واتفق فى ذلك الصباح أن رجلا كراما عاميا لايدرى القراءة ولا الكتابة من أصل قبطى مسيحى يدعى ديمتريوس بينما كان يشذب أشجاره عثر بها على عنقود عنب فى غير أوانه ففكر أن يهديه للبطريرك ·

وكان البابا بوليانوس حينئذ فى أوقاته الأخيرة واجتمع حوله كبار الشعب وعظمائه يستفهمون منه عمن يجدر به أن يكون خلفا له · فأخبرهم أنه هو الذى يأتى الينا ويقدم عنقود عنب ، فظنوا متحيرين أن البطريرك لا يعى ما يقول اذ لا يمكن أن يوجد عنب فى الشتاء وبينما هم كذلك اذا بديمتريوس قد دخل وعنقود العنب بيده وقدمه للآب البطريرك فدهش الحاضرون وتناول البطريرك الهدية بسرور وأعلمهم بخبر ظهور الملاك له وأوصاهم بانتخاب من عينه روح الله فأطاعوا وصيته وفعلوا بحسب اشارته ·

وكانت مدة بطريركية البابا بوليانوس عشر سنين وتوفى فى ٨ برمهات سنة ١٩٠ م وقال الأنبا ساويرس فى خاتمة ترجمة هذا البابا « ومن بعد هذا البطريرك لم يقم أسقف الاسكندرية فيها بل صار يخرج سرا ويوسم كهنة فى كل مكان كمار مرقس الانجيلى » أ هـ

---

(١) ميمر كلمة سريانية معناها سيرة ·

(٨) ديمتريوس ١ ــ البطريرك الثانى عشر :

ولما قيل لهذا البابا أنه انتخب ليكون بطريركا توسل بضراعة ملتمسا أن يعفى من هذه المسئولية الهائلة محتجا بعدم علمه وزواجه اذ كانت العادة أن البطريرك ينبغى أن يكون بتولا • فلم يلتفت الى طلبه وتمت رسامته رغما عنه فى ١٨ برمهات سنة ١٩١ م فى عهد كومودوس قيصر فلما رأى ذلك أخذ للحال فى اجهاد جميع قواه توصلا الى استدراك ما فاته من العلوم والمعارف ففتح الله عليه بشىء كثير من العلم والحكمة حتى أصبح فى مقدمة علماء ذلك الزمان •

روى أنه استحضر لديه معلما ليعلمه فكان يجلس هو على الكرسى ويجلس المعلم تحت موطىء قدميه فلم يكن يفهم شيئا فذات ليلة ظهرت له السيدة العذراء وقدمت له دواة ملآنة ماء فشربها ولما أصبح الصباح طلب من معلمه أن يجلس على الكرسى ويجلس هو تحته ففتح الله ذهنه وصار يفقه كل ما يلقى عليه من الدروس حالا •

وكان هذا البابا على جانب عظيم من التقوى حتى أنه لم يباشر زوجته مباشرة زواج البتة • وقد حدث أن البعض تقمقموا عليه بسبب زواجه ولم يرق فى نظرهم أن يكون البطريرك ذا زوجة كباقى الناس فعلم بهذا الأمر وانتهز الفرصة فى يوم الصلاة وبعد تأدية الخدمة الدينية استحضر زوجته ووضع فى مئزرها بعضا من جمر نار المبخرة ووضع كذلك فى جبته وطاف على هذه الحال هو وهى بين الشعب وأمامهما نفر من الشمامسة ينشدون التراتيل الروحية حتى انتهوا من دورتهم دون أن يحدث للمئزر والجبة أى شىء من تأثير النار فاندهش المنتقدون واقتنعوا بواسطة ما شاهدوه بطهارة معاشرته لامرأته وطلبوا منه الصفح والغفران • وقيل انه كان فى مبدأ أمره ممتنعا عن الزواج فأجبره والده على الزواج من ابنة عمه وبعد اقترانه من امرأة صالحة كانت قد نذرت البتولية وأجبرت على الزواج نظيره كاشفا بعضهما بما فى عزمهما واتفقا على المعيشة معا بطهارة تامة فعاشا كذلك ٤٨ سنة ، قيل وكان ملاك الله يظللهما أثناء نومهما • وبعد هذه الحادثة أمر زوجته بأن تعيش مع العذارى اللواتى نذرن العفة وانفردن للعبادة •

ولعظم تقوى هذا البابا كان مطلعا بالروح على أعمال الخطاة القبيحة• فكان يكثر من توبيخهم وتبكيتهم ، وعندما كان أحدهم يتقدم الى تناول الأسرار المقدسة وهو متعلق بأية خطية كان يمنعه من الاشتراك ويوضح له خطيته حتى يخجل ويقر بذنبه ويتوب توبة حقيقية •

ولبث مواظبا على عمله حتى شاخ وكبر فكان يحمل الى البيعـة فى محفة وهو لا يفتر عن التعليم من الغداة الى الليل والأخوة يتوافدون اليـه للاستفادة من تعاليمه والاستفهام منه عما أشكل عليهم ادراكه مع أن قواه لم تكن تساعده على الفحص فى العلوم والـكتب الأخرى ٠ وكان بطريرك الاسكندرية هو الأسقف الوحيد فى مصر لحد ذلك العهد فرأى هذا البطريرك أنه من الضرورى أن يعين ثلاثة أساقفة آخرين للاقاليم البعيـدة عن مركز البطريركية ليتمكنوا من رعاية قطيع المؤمنين ٠

وفى سنة ٢٠٢ م رقى هذا البابا العلامة أوريجانوس رئيسا للمدرسة اللاهوتية خلفا لاكلمندس الاسكندرى ٠ وفى سنة ٢٣١ م سـاء البطريرك الظن بأوريجانوس ووقع بينهما نفور أدى البطريرك الى عقد مجمع حرم فيه أوريجانوس ونفاه وعين مكانه ياروكلاس أحد تلاميذ أوريجانوس ٠

ويقول المؤرخون ان هذه هى الغلطة الوحيـدة التى شـط بها البـابا ديمتريوس عن سبيل الصواب وذلك لأنهم يذكرون لأوريجانوس دفاعه المجيد عن المسيحية وكان يجدر ببطريرك تقى كهذا أن لا ينسى ماضى أوريجانوس الذى يدل على غيرته وفضله لأجل غلطة صغيرة ارتكبها كما سيأتى بنا فى ترجمة ذلك العلامة ٠

وفى أيام هذا البابا كان هياج بمدينة الاسكندرية وثار الاضطهاد على المؤمنين فسطالينوس والى مصر الرومانى على البطريركيـة ونهب أمتعتهـا وسلب أوانى الـكنيسة وقبض على البطريرك نفسه ونفـاه الى أوسيم (١) حيث بقى فيها الى أن هدأت نيران الاضطهاد ولبث على الـكرسى ٤٢ سنة ثم توفى فى ١٢ بابه سنة ٢٣٢ م وله من العمر ١٠٥ سنة ٠

---

(١) كانت هذه المدينة فى العصر المسيحى مركزا دينيا مهما بها أكثر من ٣٦٠ كنيسة ولـكن العرب بعد دخولهم الى مصر أضعفوا شأنها حتى صارت فى أوائل القرن التاسع عشر بلدة صغيرة على مسيرة ساعتين للراكب من كوبرى امبابة ٠

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

(١) المدرسة اللاهوتية
(٢) بنتينوس
(٣) اكليمندس الاسكندرى
(٤) أوريجانوس

---

(١) المدرسة اللاهوتية :

قيل أن مؤسسها هو مرقس الرسول سنة ٦٨ م وكانت تسمى المدرسة الكاتشيسس (أى تعليم قواعد الايمان بالسؤال والجواب) وكان الغرض من انشائها تعضيد الديانة المسيحية لأن الدين المسيحى لقى فى الاسكندرية مصاعب لم يلق مثلها فى غيرها وكان لابد له من التغلب عليها • وسببها أن الشعب كان يكره دين اليهود الذى هو أساس المسيحية وكان علماء الموزيوم الذى كانت فى أيديهم ادارة الشعب أقل استعدادا لقبول تعاليم مصدرها كمصدر الدين المسيحى • فرأى المسيحيون فى الحال أنه لابد من اصلاح تعليمهم اصلاحا خصوصيا فى مدينة خاصة بالفلاسفة والمحققين فأنشأوا تلك المدرسة للذين كانوا يريدون أن يتضلعوا فى معرفة أصول الديانة •

وفى أواخر القرن الثانى انحاز بنتينوس أحد الرواقيين القدماء الى تلك المدرسة التى كانت تناظر الموزيوم فى العلوم الأدبية والدينية وجعل مديرا لها : ثم اعتنق الفيلسوف أثناغورس الأثينى الدين الجديد واستلم ادارة المدرسة خلفه فيها قوم أعظم منه • وفى عهد اكليمندس وأوريجانوس بلغت تلك المدرسة اسمى درجات المجد وفاقت كل المدارس النصرانية التى أنشئت فى القرون الأولى للميلاد فكان يدرس فيها فوق اللاهوت والفلسفة المنطق والطبيعة والرياضة والفلك والموسيقى لأن العلوم كانت لها ضربة لازب لوجودها فى وسط ديانة يهودية مستندة الى الفلسفة ومدارس يونانية أو مصرية مستندة الى النظامات العمومية وأرتقة أريوس وهى دقيقة تميل اليها القلوب ومقاومين أشداء أقلقوا الكنيسة فى أزمانها الأولى وهم الغنوسطيون المشار اليهم آنفا •

واعتنى علماء تلك المدرسة بأن يعرضوا الدين المسيحى على الناس عرضا تعمقوا فى البحث عنه وذلك ما سماه القديس اكليمندس الاسكندرى « الغنوسطية الحقيقية » المضادة للغنوسطية الأرتقية التى انتحلت هذا

الاسم زورا وبعد أن عرضوا الايمان المسيحى على هذا المنوال الفوا تآليف شتى لتفسير التوراة ونبذا خصوصية فى قواعد الاعتقاد والقانون الوجيز المكمل المنسوب الى القديس أثناسيوس وكل الارتقات المشهورة ولا سيما أرتقات الألفيين وسابيليوس وأريوس ونسطورس وأوطيخا صادفت مقاومين أشداء فى المدرسة المسيحية ·

هذه هى المدرسة اللاهوتية التى امتد فضلها الى كل الأصقاع وانتشر نورها فى كل مكان وكفاها فخرا أن تخرج منها فطاحل بابوات الاسكندرية وحماة البيعة المقدسة · ومع أنها أصيبت بمحن شديدة واضطهدت فى أيام ساويرس سيتيموس وديوكلتيانوس القيصرين الا أنها رجعت الى رونقها بعد وفاة المضطهدين ومن دلائل عظم شأنها أن منصب رئيسها لأهميته كان يلى المنصب البطريركى فى الرتبة وجل البطاركة انتخبوا من رؤسائها ·

وظلت زاهرة بالعلوم والمعارف ويفد اليها طلاب من كل اصقاع المسكونة حتى قام رودن آخر رئيس تولاها ونقلها من مكانها الى بلدة سيد فى اقليم بامفيليا بدون سبب يدعو لذلك فأضر بها هذا النقل ضررا عظيما وتناقص عدد طلابها · ولما حدث ذلك الانشقاق المحزن الذى سببه مجمع خلكيدون فى أواسط القرن الخامس اندكت معالم تلك المدرسة وأصبحنا لانعرف عنها الا أنها كانت مقر العلم ومقصد العلماء ·

واليك أسماء الذين تعاقبوا على كرسى رئاسة هذه المدرسة :

(١) يسطس — أول من صار رئيسا على تلك المدرسة عينه مار مرقس الرسول وظل متواليا رئاستها فىأواخر سنى حياةالرسول وفى عهد البطاركة الأربعة الذين خلفوه ، وكان للبابا أنيانوس البطريرك الثانى عناية خاصة بتلك المدرسة وتعلم من مار مرقس كيف يهذبهم وكانوا جميعهم كما أخبرنا المؤرخون المسيحيون وفيليون اليهودى أيضا زاهدين فى الدنيا لا يكترثون بشىء من حطامها وانما كانوا يهتمون بالله فقط · ومن ثم كانوا جميعهم متحدين بمحبة صافية وفائزين بسلام الأرواح السماوية ولم يكن بينهم فقير ولا غنى لأن اغنياء منهم كانوا قد أعطوا أموالهم للفقراء لكى يفكر كل واحد فيما يجعل الانسان غنيا بالله · ولم يكونوا يتناولون مأكلا سوى مرة واحدة كل يوم وذلك بعد غروب الشمس وبعضهم كانوا يصومون ثلاثة أيام أو خمسة دون أن يأكلوا شيئا · وكان مأكلهم الخبز ومشربهم الماء لا غير · وذلك كان للرجال والنساء على حد سوى ·

(٢) أومانيوس : فى مدة بطريركية يسطس ·

(٣) مركيانوس : فى مدة بطريركية أومانيوس ·

(٤) بنتينوس
(٥) اكليمندس } فى بطريركية ديمتريوس
(٦) أوريجانوس

(٧) ياروكلاس
(٨) ديونوسيوس } فى بطريركية ثاؤنا
(٩) ثاوغنست
(١٠) بيروس (١)
(١١) أرشلاوس
(١٢) بطرس : فى بطريركية أرشلاوس

(١٣) سيرابيون (٢)
(١٤) مقار السياسى } فى بطريركية أثناسيوس
(١٥) ديديموس الضرير
(١٦) رودن : فى بطريركية كيرلس الأول

(٢) بنتينوس :

ولد بالاسكندرية فى أوائل القرن الثانى وهو من أصل قبطى (٣) قيل أنه كان قبل تنصره من فلاسفة الرواقيين (٤) والظاهر أنه كان هو

---

(١) كان كاهنا تقيا ورعا اشتهر بالتزهد والتنسك وعرف بزلاقة اللسان وفصاحة النطق حتى لقبه البابا بطرس البطريرك السابع عشر « أوريجانوس الصغير » وقد تتلمذ له كثيرون أشهرهم بمفيليوس البيروتى . وحوالى سنة ٢٨٢ م استشهد بيروس على مايظن فى الاضطهاد الذى أحدثه فاليريان قيصر .

(٢) كان عالما متضلعا وكاتبا ماهرا وصديقا وفيا للبابا اثناسيوس الرسولى ولذلك أرسله مع من ارسلهم الى القيصر قسطنطين الكبير .

(٣) يميل بعض الغربيين الى القول بأن أغلب علماء الكنيسة القبطية كانوا من أصل يونانى ويكفينا فى دفع افتراء هؤلاء القوم الذين يحاولون تجريد الكنيسة القبطية من كل ميزة حتى من علمائها ما جاء فى كتاب « برهان الكنيسة الشرقية » الذى طبعه تلاميذ مدرسة اليونان بمدينة رومية سنة ١٧٠٢ م حيث قيل « انما دعى الآباء الشرقيون يونانيين لأنهم كتبوا تآليفهم باللغة اليونانية » .

(٤) الرواقية فلسفة قديمة تجددت قبل الميلاد بسنتين وقد قال أصحابها أن الخير الأعظم فى الفضيلة وغرضهم كان اتحاد الدين بالفلسفة وقد أقروا بوجود الله ولكنهم قالوا بأنه حال فى كل شىء وبأنه توجد الهة صغرى اتفقت مع الهة الديانة المقبولة عند الجمهور .

ومعاصره اكليمندس الاسكندرى تلميذين لأثناغورس الفيلسوف (١) وكانا كباقى مسيحى مصر متضلعين فى علوم القدماء وحكمتهم كتضلعهم فى كل الحقائق والمبادىء المسيحية ٠

تولى بنتينوس رئاسة المدرسة اللاهوتية حوالى سنة ١٨١ م واستمر في وظيفته حتى أتت رسالة من بلاد الهند الى البابا ديمتريوس البطريرك يلتمس فيها أهلها أن يرسل اليهم عالما تقيا يعلمهم الايمان فوقع اختيار البطريرك على هذا العلامة وعرض عليه الأمر فقبله بكل سرور وتخلى عن رئاسة المدرسة سنة ١٩٠ م بعد أن سلم مقاليدها الى زميله اكليمندس حتى يعود اليها ٠ ومن ثم توجه الى بلاد الهند وأذاع فيها بشرى الخلاص ٠ قيل أنه وجد عند الهنود نسخة من انجيل متى باللغة العبرانية مكتوبة بخط الانجيلى نفسه وكانت موضوع اجلالهم واكرامهم فسألهم عمن أتى بها اليهم فأجابوه أنه الرسول برثولماوس ٠ وبعد أن صرف فى بلاد الهند مدة لانعلم مقدارها رجع الى الاسكندرية وأتى بهذه النسخة اليها ٠

وفى ذلك الحين شعرت الكنيسة بضرورة الشروع فى ترجمة حياة السيد المسيح الى اللغة المصرية فأخذ بنتينوس على عاتقه القيام بهذا العمل غير أنه رأى أن اللغة الهيروغليفية لا تصلح لهذا العمل فاستعار للغة القبطية حروف اللغة اليونانية ولما كانت هذه لا تصلح للنطق ببعض مقاطع ولهجات أضاف عليها ستة حروف من الأبجدية الهيروغليفية ومن ثم بدأ فى العمل بمساعدة تلاميذه حتى أنجزه واستطاع أن يخرج الكتاب المقدس للمصريين بلغتهم ليتعلموه فى بيوتهم وكنائسهم ٠ ومن ذلك الحين أهملت الكتابة بالأقلام الهيروغليفية واعتاضت عنها الكتابة اليونانية ٠

وعاش هذا الفيلسوف بعد أن تولى ادارة المدرسة اللاهوتية مرة ثانية مدة وجيزة ثم توفى سنة ١٩٠ م ، وقد ألف هذا العلامة تفاسير كثيرة على الأسفار الالهية حتى قال عنه تلميذه وخليفته انه كان موعبا من روح الكتاب ٠ غير أن جميع كتاباته مفقودة ٠

---

(١) هو من الاسكندرية ويسمى الفيلسوف الأثينوى كان مشتغلا بوظيفة عالية مهمة فى متحف تلك المدينة واعتبر من أساطين الديانة الوثنية ٠ وكان كغيره من الفلاسفة الأفلاطونيين يكرهون الديانة المسيحية ورغبة فى مقاومتها أجهد نفسه فى درس تعاليمها جيدا وواظب على ذلك بهمة لاتعرف الملل فكانت النتيجة أن قوة تأثير الديانة المسيحية والحق المؤسسة عليه قد فعلا فيه فعلا حسنا فتغيرت أفكاره وآمن بالمسيح سنة ١٧٦ م وأصبح من أعظم أنصار الديانة المسيحية وأكبر المدافعين عنها ٠ ومما كتبه لهذا الغرض رسالة عنوانها « الى مرقس أوريليوس وكمودس » ويظن أن تاريخها بين سنتى ١٧٦ و ١٧٧ م دافع فيها عن النمائم التى كان أعداء المسيحية يوجهونها اليها ٠

(٣) اكليمندس الاسكندرى :

هو تيطس فلافيون ذهب بعضهم الى أنه ولد بالاسكندرية فنسب اليها ٠ وقيل أنه لقب بالاسكندرى تمييزا له عن سميه اكليمندس الرومانى ٠ وقال آخرون أنه ولد فى أثينا نحو أواسط القرن الثانى ثم تفرغ منذ حداثته لدرس الفلسفة فتضلع فى الفلسفتين الرواقية والأفلاطونية (١) واذ لم يجد فيهما ما كانت تصبو اليه نفسه سعى يطلب الحقيقة فزار بلاد اليونان وايطاليا وآسيا الصغرى ومصر وخالط المعلمين النصارى فأثر فيه ماسمعه من القديس بنتينوس مدير المدرسة اللاهوتية فاهتدى الى النصرانية وصار من المساعدين لمعلمه فى المدرسة واشتهر فى معرفة الأسفار الالهية ٠ ذهب بعضهم الى أنه خلفه فى ادارتها نحو سنة ١٩٠ م وبقيت ادارة مدرسة الاسكندرية منوطة به الى سنة ٢٠٢ م وفيها حدث الاضطهاد الذى قام به ساويرس قيصر فاضطره الأمر الى الفرار الى فلسطين فزار أورشليم وأنطاكية ٠

وذكر فى بعض الروايات أنه كان فى أورشليم سنة ٢١٠ و٢١١م لأن أوسابيوس أسقف قيصرية (٣١٥ م) الملقب بأبى التاريخ الكنسى ذكر فى ذلك التاريخ أنه كان حاملا رقيما من أسقف أورشليم الى كنيسة انطاكية وأقام أولا فى أورشليم حيث وجد الاسكندر أسقفها مسجونا ثم قصد مدينة أنطاكية واجتمع باسكيلابيادس أسقفها ولم يعلم عنه شىء فى السنين الأخيرة من حياته ٠

وقال الباحثون أن هذا القديس يمتاز بين آباء الكنيسة بتضلعه فى الفلسفة اليونانية ومحبته لها وكان يعتبر الفلسفة علما الهيا والفلاسفة أنبياء الوثنية ٠ وكانت تعاليمهم عنده تمهيدا لطريق المسيح بين الوثنيين كما كان ناموس موسى تمهيدا لها بين العبرانيين ولميكن يثبتاحدى المدارسالفلسفية ولا خطر له قصد منتسق لجهة اللاهوت المسيحى٠ وكل الجهد الذى بذله فى التأليف بين الفلسفة والدين كان منحصرا فى تفاسير رمزية للكتاب المقدس وآراء يظهر لمن أمعن فيها النظر أنها جديرة ببعض أصحاب العلم الالهىأكثر مما هىحقيقية بمسيحى غير أنه بمقابلته بينالآراء المسيحية والآراء اليونانية حصل له نفوذ فيهم فى عصره وساعد على انتشار الفلسفة المسيحية ٠

وللقديس اكليمندس ثلاثة مصنفات لا تزال موجودة عنوان الأول « تحريض الأمم » وفيه يحرضهم على الرجوع من عبادة الأوثان الى خدمة الاله الحق وكلمته ٠ والثانى « المرشد » فى ثلاثة أجزاء ومضمونه تثقيف

---

(١) تعلم هذه الفلسفة بأن العالم يسوسه اله مستقل قدير عاقل ٠ وكان أفلاطون يعلم الناس ما يجب أن يخافوه وما يجب أن يرجوه بعد الموت وتعاليمه من جهة الأرواح وأنفس البشر عبارة عن خرافات محضة ٠

المؤمنين الحديثين وتهذيبهم فى معرفة الانجيل • وانشائه « المتنوعات » فى ثمانية مجلدات وهو يتضمن مقالات عديدة فى مواضيع فلسفية وحقائق انجيلية وذكر بعض التعاليم الباطلة ودحضها غير أن المجلد الثامن منه مفقود • ولنا منه رسالة عنوانها « من يخلص الاغنياء » مؤلفة على طريقة المقالة • وهناك أيضا أجزاء مؤلفات له مواضيعها « عيد الفصح • الصوم • النميمة • القوانين الكنسية • أغلاط المشهورين » • ومن مؤلفاته المفقودة كتاب « المقتطفات » فى ثمانية أجزاء وهو يتضمن ملخص حوادث الكتاب المقدس • وقد اقتبس أوسابيوس شواهد كثيرة من هذا الكتاب وذكر رسالة أخرى لاكليمندس عنوانها « الحث على الصبر » خاطب بها المعتمدين جديدا وكذلك تنسب اليه ترنيمة المخلص •

غير أن كتابه فى شرح الأسفار المقدسة بالاختصار يحتوى على أغلاط وحكايات منقولة عن الفلسفة الوثنية وهرطقة الغنوسطيين • ولما كان أوسابيوس وأيرينموس قد ذكرا الكتاب دون أن يذكرا الأغلاط الفظيعة التى ذكرها فوتيوس كان يظن أن الأغلاط المذكورة قد أدخلها فيه الهراطقة بعد ذلك اذ كان من دأبهم أن يفسدوا تآليف أشهر آباء الكنيسة •

قال أحد الكتاب « قلما ترى فى تآليف آباء الكنيسة القدماء أشياء اذ من الأشياء المشتملة عليها تآليفه فان فيها حوادث كثيرة متعلقة بتاريخ العالم فضلا عن أنها تحتوى على قطع كثيرة منقولة عن مؤلفين لم يبق لتآليفهم أثر » وأحسن طبعة من تآليفه هى التى طبعها الأسقف بوتسر باللغة اليونانية واللغة اللاتينية •

(٤) أوريجانوس :

ولد هذا العلامة العظيم فريد عصره بمدينة الاسكندرية سنة ١٨٥ م من والدين مسيحيين تقيين وكان أبوه يدعى ليونيدس وله سبعة أولاد أكبرهم أوريجانوس • قيل أن أبا أوريجانوس كان من معلمى الفصاحة فرباه بأعظم اهتمام ولم يكتف بأن يروضه فى العلوم والقوى العقلية والرياضية بل فقهه أيضا فى الكتب المقدسة وكان يختبر ذكاءه فيأمره بأن يحفظ كل يوم بعض آيات منها حتى حفظ أغلب نصوص الكتاب المقدس غيبا وكان أبوه يتعجب من بركات النعمة التى تشمله أكثر من حذاقة عقله فكان يدنو منه وهو نائم ويكشف عن صدره ويقبله باحترام كأنه هيكل الروح القدس •

ولما استكمل قواه وضعه فى المدرسة اللاهوتية فتتلمذ للعلامة اكليمندس وقرأ عليه الكتاب المقدس وتوسع فى درس مؤلفات أفلاطون والرواقيين •

وحالا تحقق حسن ظن أبيه به فبرز أوريجانوس على جميع أترابه ونشأ وقلبه مفعم بحب الدين والغيرة عليه وبه وجد وهيام الى نيل أكليل الشهادة حبا بالمسيح حتى عرض نفسه مرات ليكون فى عداد الشهداء ٠

وفى سنة ٢٠٢ م لما أثار ساويرس قيصر الاضطهاد قبض على ليونيدس وأودع السجن دون أن يعلم أوريجانوس اذ كان خارج البيت وقت القبض عليه ولما رجع فى المساء وجد أمه التعيسة واخوته غارقين فى بحار الأحزان واذ علم الخبر أعلن ميله ورغبته فى اللحاق بأبيه ليشترك معه فى نوال اكليل الشهادة ٠ فتوسلت اليه أمه بدموع غزيرة والتمست منه أن يبقى الى الصباح فأوى أوريجانوس الى مضجعه بعد ان أخذت امه ثيابه وأخفتها عنه فلم يتمكن فى الصباح من الخروج ولم تطلقه أمه الا بعد أن تأكدت منه انه لا يتركها الا اذا اضطر اضطرارا شديدا ٠

واذ ضاق به الأمر أرسل لأبيه خطاب تعزية يشجعه فيه على احتمال الخطوب ويطلب منه ان لا يشتغل بهم بقوله « حذار أن يغير العذاب رأيك فى دعوانا لا تهتم بأولادك فان الله سبحانه وتعالى يعتنى بنا » وقيل ان أوريجانوس كان معتادا أن يرسل أمثال هذا الخطاب لتشجيع المؤمنين الذين كانوا واقعين تحت طائلة عذاب الاضطهاد (١) ٠

أما ليونيدس فقطعت رأسه سنة ٢٠٣ م وتبعا لقوانين الاضطهاد حينئذ ضمت أملاكه الى الحكومة فباتت أرملته وأولاده فى فقر مدقع وأصبح أوريجانوس مكلفا بالقيام بأودهم وكان عمره وقتئذ سبع عشرة سنة ٠ ولم يكد يشعر بضيق الحال حتى سخرت له العناية الالهية امرأة غنية فاضلة كانت ملجأ لكثيرين من المنكوبين فى ابان الاضطهاد فرقت لحال أوريجانوس وآوته فى بيتها ولبث عندها طول مدة الاضطهاد وهى تنفق على تعليمه فى مدرسة اكليمندس ٠ وكان فى بيتها رجل هرطوقى تبنته اسمه بولس من أنطاكية فأفرغ أوريجانوس قصارى جهده ليرده عن ضلاله فلم يقلع عنه ولما لم يطاوع أوريجانوس ويشترك معه فى الصلاة ترك هذا دار المحسنة اليه ٠

وخرج أوريجانوس من ذلك المأوى وهو عازم على الظهور أمام العالم بمظهر الجندى الباسل ليدافع عن بيضة المسيحية وكان يزاول مهنة التعليم

---

(١) قد جمع أوسابيوس المؤرخ مجموعة تحتوى على اكثر من مائة مكتوب رقمتها يد أوريجانوس فى مثل تلك الظروف الحرجة ولم يبق منها شىء للآن بل ذهبت طعاما للنار التى أحرقت المكاتب فى الاسكندرية وفلسطين ٠ واوسابيوس هو اول من اعتنى بكتابة تاريخ أوريجانوس آخذا بعضه عن رسائله وبعضه عن تلامذته الذين بقوا احياء الى ايام اوسابيوس فى القرن الثالث ٠

ليقوم بنفقة نفسه وفى أثناء ذلك كان يذهب يفتقد من كان باقيا من المسيحيين فى السجون وطفق يعزيهم بكلمات روحية ويشجعهم على شرب كأس الموت بصبر · وكان يرافق الكثيرين منهم الى المحاكم وحتى الى منقع العذاب ويشدد عزائمهم على الثبات فىالايمان تارة بالاشارات وتارة بالخطب البليغة ومرارا شتى عرض حياته للخطر وهو يباشر أفعال الغيرة هذه · فاشتهر بعمله هذا واستحق اعجاب الجميع ولا سيما البابا ديمتريوس الذى قربه اليه وأظهر له سروره من سعيه المبارك وزاد ابتهاجه به عندما رآه فضلا عن تعبه فى تخفيف ويلات المتضايقين منكبا على الدرس ومواصلا المطالعة فشجعه على الاستمرار فى جهاده المبرور ·

وكانت المدرسة اللاهوتية حينئذ مغلقة بسبب هروب أساتذتها من وجه الاضطهاد فجد البطريرك حتى جمع بعض الطلبة فى تلك الأوقات المخيفة وكلف أوريجانوس بتعليمهم فشرع يعلم مبادىء الآداب اليونانية ثم تعاطى تفسير الدين المسيحى للموعظين · وكانت تصرف للتلاميذ مرتبات من الأموال المخصصة للفقراء ·

ولم يكد أوريجانوس ينجح فى عمله حتى قبض أكويلا والى مصر بأمر كاركلا قيصر على خمسة من تلاميذه وبعد أن عذبوا عذابا شديدا حكم عليهم بالموت المريع لأنهم أبوا أن ينكروا ايمانهم · وكان بين الخمسة اثنان باسم ساويرس أحدهما حرق والآخر قطعت رأسه بعد أن عذب طويلا · وهيراكليدس وهرون قطعت رأساهما أيضا · أما الخامس وهو ياروكلاس فكان صديقا حميما لأوريجانوس فلم يتركه عند القبض عليه بل رافقه الى موضع الاعدام · ولما شاهد الجنود يقتربون من ياروكلاس تقدم اليه بشجاعة وقبله قبلة الوداع على مشهد من الجميع فاغتاظ منه الرعاع وهموا برجمه ولكنه أسرع بالهروب ويظهر أن مطاردتهم له مكنت ياروكلاس من الفرار بطريقة ما وعاش حتى صار رئيسا للمدرسة اللاهوتية فبطريركا للكرازة المرقسية · الا أن التعليم فى تلك المدرسة أبطل من ذلك الحين وطرد أوريجانوس من المدينة ولما سمح له بالرجوع استأنف التعليم ·

وبعد سنتين عينه البابا ديمتريوس رئيسا رسميا للمدرسة اللاهوتية وهو فى الثامنة عشرة من عمره فتقاطر عليه الكثيرون للاستفادة من تعاليمه حتى أن الوثنيين أيضا أخذوا بفصاحته فكانوا يقبلون اليه وأهدى كثيرين منهم الى الايمان حتى أوغرت عليه صدور الوثنيين وصاروا يمقتونه مقتا شديدا رغما عن احترامهم له بالنسبة لفضيلته · وكانوا يتمنون أن يتمكنوا من القبض عليه ليوردوه موارد الهلاك · ولما رأى البابا ديمتريوس سخط الوثنيين على أوريجانوس يتزايد كل يوم اضطر أن يضع حوله حراسا أتوياء ليمنعوا الأذى عنه ·

قال أوسابيوس المؤرخ « ان عوامل الاضطهاد كانت تزداد ضده كل يوم وحنق القوم عليه أصبح شديدا حتى ان أهالى الاسكندرية عن بكرة أبيهم لم يستطيعوا احتماله ولا الصبر على انتقاله من منزل لآخر وجولاته فى كل ناحية مرشدا ومشجعا الجم الغفير الذين هداهم الى الايمان الصحيح » أهـ · وروى ابيفانيوس ان رعاع الوثنيين امسكوه يوما بينما كان سائرا فى الطريق وحملوه بضجيج شديد الى هيكل سيرابيوم الشاهق وحلقوا له رأسه ووضعوا عليها قلنسوة والبسوه حلة بيضاء على طريقة كهنتهم رغما عنه ومن ثم أخرجوه خارج الهيكل وأصعدوه على القمة الكبرى التى كانت فى أعلى السلم وأعطوه سعف النخيل وأمروه بأن يوزعه على عبدة الأوثان الذين كانوا مجتمعين حوله وهم يسخرون به ويصفقون له · فأسرع أوريجانوس ولوح بالأغصان ونثرها على المتجمهرين وهو يقول لهم بصوت عظيم « هلموا خذوا هذه الأغصان لكن ليس برسم الأوثان بل باسم يسوع المسيح خالق الانسان » فصروا بأسنانهم عليه وهموا بقتله ولكن الرب أنقذه هذه المرة أيضا من أيديهم ·

ويظهر ان انعكافه الزائد وسعيه المتواصل لنوال أسمى درجة فى العلم والفضيلة قد جعله زاهدا فى الحياة لدرجة متناهية فرفض جميع ما كان يقدم له جزاء لأتعابه وتقسى على جسده فكان يقتات فقط بما يدرأ عنه ألم الجوع ولا يشرب شيئا من المشروبات وكان ينام على الأرض دون فراش ويلبس ثوبا واحدا ويمشى دون حذاء · يصرف كل النهار فى التعليم والاشغال المتعبة ويقضى أكثر الليل فى الدرس والمطالعة · وفى تلك المدة تخلى عن مكتبته التى جمعها من مؤلفات الفلاسفة والتى كتبها بيده من مكتبة الاسكندرية لرجل وثنى مقابل راتب يومى قدره أربع بارات (أى ثمانية مليمات تقريبا) وحسب ذلك كافيا لسد حاجته · ولهذا لقبه المؤلفون القدماء بادمنتيوس (الألماسى) لميله الى النسك ونشاطه الذى لا يخامره ملل · ومع هذه الصرامة التى عامل بها نفسه كان مجملا بوداعة تسبى قلوب الجميع فرقة طباعه وحذاقة عقله جعلتا كثيرين من الاسكندرية يلتفون حوله · ولما كان ينتصب للخطابة كان الرجال والنساء من كل رتبة يسارعون لسماع تعاليمه ·

وكان أوريجانوس حريصا على عفته وطهارة ذيله ويخشى أن يرشقه حساده وخصماؤه بنبال اغتيابهم · وكان يشعر بأنه مضطر الى التردد على بيوت المؤمنين لتعليم العائلات أصول الدين ورأى كثيرات من التلميذات يتبعنه وفيما كان سنة ١٠٦ م يطالع فى الاصحاح التاسع عشر فى انجيل متى انتبه للآية الثانية عشر وأخذها على ظاهر معناها فخصى نفسه لكى يمنع عنه التجربة ولم يكاشف بأمره الا البابا ديمتريوس · وبسبب كل هذا التقشف الزائد أصيب جسمه بالنحول والضعف · قيل ان هذا ما كان يرومه أوريجانوس كى لا يكون أهلا لنوال درجة الكهنوت ·

ولم يكتف أوريجانوس بما حصله من العلوم الكثيرة فى المدرسة اللاهوتية فعكف على درس العلوم الطبيعية والأدبية فى المدرسة الوثنية التى كان يديرها امونيوس السقاص غير أنه لما رأى نمو عدد تلاميذه تركها نظرا لعدم ملائمة تلك الدروس لما كتبه الوحى الالهى • غير أنه لبث يطالع ما سطره الأقدمون من الأقوال المفيدة ولما عاب عليه البعض ذلك كتب يقول « لما كنت قد كرست نفسى لخدمة كلمة الخلاص وكان قد ذاع صيتى فى الآفاق نظرا لبراعتى واقتدارى وكثيرا ما كنت معضدا للهراطقة وأهل البدع الذين يجيئون لزيارتى والبحث معى وكنت مرموقا بجماعة من المغرمين بالعلوم اليونانية خصوصا المتعمقة فى الفلسفة ـ قصدت أن أفحص أفكار الهراطقة وامتحن تآليف الفلاسفة الذين أحيانا ينطقون بحقائق مهمة وقد اتبعت فى هذا خطوات بنتينوس الذى أفاد الكثيرين قبل أن أوجد أنا ولم تكن معارفه قاصرة على هذا الحد كما أننى قفوت آثار هاراكلامى الذى كان عضوا فى مجمع الاسكندرية وقد علمت أنه واظب مدة خمس سنوات يحضر عند معلم الفلسفة قبل أن ابتدىء أنا فى استيعاب هذه العلوم » أ هـ •

فانكب أوريجانوس على درس الفلسفة على مذهب بيتاغورس وأفلاطون ليستعين بذلك على رد مزاعم أهل البدع وعلى تفسير الكتاب ولهذا كان أيضا صديقا لأمنيوس السقاص •

وفى سنة ٢١١ م زار مدينة رومية فقوبل فيها بكل اجلال كما يليق بعالم فاضل مثله وتقابل بزفرينوس أسقف تلك المدينة بعد فكتور • فثبت هناك فى ما عزم عليه من عمل شىء يكون له نفع عظيم لعلماء التوراة • واذ صرف فى الأمر غايته لم ير بدا من أن يشرك معه فى تدبير المدرسة اللاهوتية باروكلاس أحد تلاميذه المتقدمين • ثم انصب على درس اللغة العبرانية فلم يلبث أن برع فيها وكان غرضه أن يستقصى معانى آيات الكتاب المقدس الحقيقية ليضع لها تفسيرا وافيا وليؤهل نفسه الى ترجمة الكتب المقدسة الى ست لغات وهو عمل يعد من أعظم الأعمال التى قام بها أوريجانوس فى حياته ولو أن هذه الترجمة لم تنشر الا بعد وفاته بسنين قليلة •

وكان صيته حينئذ قد قرع كل الاسماع ودوى فى جميع الأماكن فتوافد عليه الكثيرون طلبا للاستفادة من معلوماته • وكان من أجل خدماته قيامه بثلاث رحلات الى بلاد العرب أولها كان بين سنة ٢١٢ و٢١٣ م وسبب ذهابه هو أن حاكم بلاد العرب أرسل بعد هدوء الاضطهاد الى والى مصر وبطريرك الاسكندرية يطلب منهما ارسال الرجل المسيحى المسمى أوريجانوس بدون تأخير وذلك لكى يشرح له تعاليم الديانة المسيحية ويرشده الى طريق الخلاص فترك أوريجانوس فى مكانه باروكلاس وذهب لاتمام هذه المهمة ولم يستمر

فيها طويلا لأن البطريرك عين شخصا اسمه بيرلوس أسقفا على البصرة لهداية بلاد العرب ٠ والمرة الثانية كانت ليحضر مجمعا انعقد بسبب سقوط بيرلوس أسقف بصرة المتقدم ذكره فى الهرطقة فتمكن أوريجانوس من ارجاعه الى حضن الكنيسة ٠ والثالثة كانت لدحض بدعة انتشرت هناك ومؤداها أن اللاهوت مات مع الناسوت وقام معه ثانية فى وقت واحد ٠

وفى سنة ٢١٢ م تعرف أوريجانوس برجل من أرباب الثروة والنفوذ يدعى امبروسيوس وكان تابعا لضلال فالنتينوس فهداه أوريجانوس الى الايمان وصار له صديقا حميما وتمكن بواسطته من توسيع دائرة تعليمه وجعل درس جميع الفلسفة المعروفة تمهيدا لدرس اللاهوت المسيحى ٠ ولم يكتف امبروسيوس بمساعدته على التعليم بل حثه على وضع أكثر الكتب التى ألفها ونسخها على مصاريفه الخصوصية ٠ فاشترى مؤلفات واستأجر سبعة نساخ وكان يملى عليهم أوريجانوس متعاقبين (لايلقنهم معا كما توهم البعض) فنشر فى الاسكندرية تفسيره لسفر التكوين والمزامير ومراثى أرميا والأقسام الخمسة الأولى من كتابه فى انجيل يوحنا ورسالة فى القيامة ورسالة عنوانها (ستروماتا أى مجموع فوائد) وتاليفه المعنون « بالمبادىء » ٠ وقد روى بعض الكتاب انه كتب بعد ذلك الى فابيانوس أسقف رومية ان امبروسيوس نشر المؤلف الأخير خلافا لارادته لأن فى ذلك الكتاب المذكور خلط المبادىء المسيحية بالفلسفة الأفلاطونية فجعل لمضاديه فى زمن نال سبيلا الى رجمه بتهمات قوية ٠ ولكن أفضل المحققين يصرحون بأن كتاب المبادىء كان خاليا من كل عيب بشهادة البابا أثناسيوس الرسولى الذى رفع شأن هذا الكتاب ودفع عنه كل تهمة وحكم بقصر نظر من يرون فيه ضلالا ٠ ولقد أشار القديس أثناسيوس على من يطالع هذا الكتاب بأن يفرق بين آراء أوريجانوس وبين الآراء المناقضة التى أوردها ذلك العلامة للرد عليها (١) وقال العلامة ديديموس الضرير « ان كتاب المبادىء هو أرثوذكسى المبنى والمعنى ٠ أما الذين يرون فيه هرطقة فقاصرون عن ادراك مكنون أسراره » (٢) ٠

وفى سنة ٢١٥ م اشتد الاضطهاد فى الاسكندرية فى عهد كاركلا قيصر فهرب أوريجانوس الى قيصرية فى فلسطين حيث لقى فيها كل اعتبار واكرام٠ ومع أن وظيفة الوعظ كانت حينئذ خاصة برجال الكهنوت ولم يكن أوريجانوس قد نال رتبة كهنوتية مع توافر علمه وتقواه بسبب زهده فى الرتب والوظائف الا أن اسكندر أسقف أورشليم رفيقه فى التلمذة وثيوسيتوس أسقف قيصرية طلبا منه أن يشرح الأسفار المقدسة جهارا لفائدة الجمهور بحضورهما ولما سمعاه أطلقا عليه لقب « سيد مفسرى الكتاب المقدس » وكان ميليانوس

(١) قرارات مجمع نيقية رقم ٢٧ (٢) سقراط ك ٣ ف ٢٣

أسقف قيصرية الكبادوك ينتظر حضور أوريجانوس بفروغ صبر ولما استبطأه أسرع الى فلسطين ليتلقى العلوم ممن كان يفتخر بأن يدعوه أستاذه ٠

فلما وصلت أخبار أوريجانوس الى مسامع البابا ديمتريوس اعترض على أولئك الأساقفة لسماحهم لأوريجانوس بمزاولة مهنة خاصة بالكهنة فجاوبه الأساقفة بما يدل على احترامهم له ودافعا عن أنفسهما بأنهما سارا على منوال السالف الصالح الا أن البابا ديمتريوس لم يقتنع فأرسل رسائل لأوريجانوس مع بعض الشمامسة يأمره بعدم القيام بأية خدمة ويخبره بهدوء الاضطهاد ليحضر ويمارس أعماله فرجع أوريجانوس بسرعة الى الاسكندرية واستلم زمام أعماله ٠

ولم يمض الا القليل بعد ذلك حتى أتيح لأوريجانوس زيارة العربية حيث اجتمع بهيبوليتوس أحد فلاسفة المسيحية وقتئذ وقد وضع هذا كتابا عنوانه (philosophumena) نسب الجزء الأول منه الى أوريجانوس وسنة ٢١٩ م استدعته ماميا أم الملك اسكندر محب المسيحيين الى أنطاكية لتسمع وعظه واستمر مدة كان فيها موضوع الاجلال والاكرام ٠ وكان لمعارفه وآدابه تأثير عظيم وبسببه خف الاضطهاد الذى كان واقعا على المسيحيين أوانئذ ٠

وفى سنة ٢٢٨ م أرسله البابا ديمتريوس الى اخائية ببلاد اليونان ليقاوم الهراطقة الذين أقلقوا راحة الكنيسة هناك فزار فى طريقه فلسطين وكان فى كل مدينة أو قرية نزلها يدعى الى الوعظ فى الكنائس ولما مر بفلسطين عند رجوعه خاطبه أسقفها ثوسيستوس بالاشتراك مع اسكندر أسقف أورشليم بأنه لا يجوز بأستاذ الكهنة والأساقفة أن يكون مجردا من كل رتب الكهنوت ٠ ويظهر أن أوريجانوس كان بسيط القلب فاقتنع بكلامهما وارتضى أن يقبل منهما درجة القسوسية وهو فى السنة الثالثة والأربعين من العمر ٠

غير أن ديمتريوس البابا الاسكندرى اعتبر هذه السيامة تعديا على حقوقه ٠ ومن ذلك الحين بدأ سوء التفاهم يجد مكانا بين أوريجانوس والبطريرك الذى أقام الحجة على ذينك الأسقفين لرسامتهما شخصا خاضعا له فجاوباه بأن احترامهما لمركزه عظيم ٠ قال أورنيموس « أن الحسد هو الذى حمل ديمتريوس على هذا كله » غير أنه لم يأت ببرهان على صحة ذلك والحقيقة كما يرويها المدققون أن البطريرك الاسكندرى امتنع عن ترقية أوريجانوس لدرجة كهنوتية لسببين أولهما لأنه خصى نفسه الأمر الذى أخفاه أوريجانوس عن أسقفى فلسطين وأورشليم ٠ ثانيهما نحول جسمه وضعفه وقد قلنا أن أوريجانوس كان يسعى وراء انحطاط القوى ليكون حائلا بينه وبين الرتب الكهنوتية التى كان راغبا عنها كأغلب أتقياء العصور الأولى ٠

ولما رجع أوريجانوس الى الاسكندرية بعد رسامته رأى البطريرك حاقدا عليه ووجد مركزه قد سقط فحصل بينه وبين البطريرك نزاع عقد بسببه هذا مجمعا بالاسكندرية سنة ٢٣١ م حكم فيه بنفي أوريجانوس ويحرمه لأنه رسم من أسقفين غير تابعين للكرازة المرقسية ولأنه خصى نفسه الأمر الذى بالغ أوريجانوس فى كتمانه وساعده البطريرك على ذلك ولكنه اضطر الى اشهاره رغما عنه ثم أرسل خطابات الى جميع الكنائس يعلمها بحكمه على أوريجانوس ٠

أما أوريجانوس فمع كونه عرف أن هذا الحكم فى غاية القساوة الا أنه تدارك الأمر بحكمته ولم يشأ أن يمكث فى الاسكندرية ليوسع هذا الخلاف بل تركها تركا لا رجوع بعده ٠ وكان قد أكمل القسم الخامس من كتابه فى انجيل القديس يوحنا ففزع الى قيصرية ٠ وفى تلك الأثناء عقد مجمع آخر فى الاسكندرية وفحص كتاب « المبادىء » وحكم بأنه هرطوقى وحرم مؤلفه ٠

ولما وصل أوريجانوس الى فلسطين استقبل فيها استقبال القائد المنتصر فاستاء البابا ديمتريوس من كثرة تعدى أساقفة تلك الجهة على حقوقه ٠ ولحق بأوريجانوس امبروسيوس وعائلته وتبعه كثيرون من طلاب العلم ولهذا عزم على فتح مدرسة فى قيصرية فلسطين يعلم فيها تفسير الكتاب المقدس وكمل فى تلك المدينة المذكورة تفسيره لانجيل يوحنا ٠

وقد كتب حينئذ عما كان يجول بصدره قائلا « وحدث بعد هذه الأمور ان الله أخرجنى من أرض مصر بيت العبودية كما خلص شعبه منها قديما ؛ ثم قام عدوى (يعنى البطريرك) وأقام فى وجهى حربا عوانا بواسطة مكاتيبه التافهة التى تغاير مبادىء الانجيل تماما وحرك ضدى ريحا صرصرا فرأيت من الصواب أن أقاوم جهد استطاعتى مدافعا عن المبدأ المهم الذى اختطيته لنفسى وسرت عليه وهو الافادة والاستفادة وكنت أخشى من أن هذه المماحكات العقيمة يستفحل شرها فتثير ثائرة النفس الامارة فتضعف الذاكرة حينئذ وأعجز عن اتمام شرح الكتاب المقدس الذى بدأت به قبل أن ينطمس ذهنى خصوصا وأن ابتعادى عن النساخ الذين كانوا يكتبون الخط المختزل منعنى من تملية ما يخطر على بالى من الأفكار ٠ أما الآن وقد بعدت عن كل عوامل التأثير وقدر الله جل وعلا أن تخيب تلك السهام النارية التى صوبت نحوى وتذهب فى الهواء الفت نفسى حينئذ وقوع الملمات التى كانت تصيبنى بسبب التبشير بكلمة الانجيل واضطرت هذه النفس أن تتحمل بطيب خاطر جميع المصائب التى انتابتنى فهدأ روعى وسكن جأشى لجودة الهواء وحسن الطقس فعقدت النية على عدم تأجيل نسخ وتملية المؤلفات المطلوب منى اتمامها » اهـ

وفى ذلك الحين كان أساقفة الكنائس الشرقية يطعنون فى سيامة أوريجانوس ويظهرون هرطقته ٠ أما أساقفة فلسطين وفينيقية فكانوا

يعضدونه ويدفعون عنه الملامة . أما مدرسة قيصرية فاستمرت تزهو وتزهر ونبغ من تلاميذ أوريجانوس جماعة مشهورون فنشروا صيته وأذاعوا مبادئه في التفسير وكان منهم كثيرون هداهم الى الايمان وصاروا فيما بعد قديسين منهم اغريغوريوس ثاقماثورغوس (صانع العجائب) الذى سقف فيما بعد على قيصرية الجديدة من أعمال تيطس وأخوه اثينودوروس الذى صار أسقفا أيضا على تلك البلاد . أما أوريجانوس فلم يعدل عن مشروعاته الأدبية بل زاد همة ونشاطا وحمية والف رسالة في فائدة الصلاة وأخرى في تفسير الصلاة الربانية وكان يراسل كثيرا أشهر أساقفة آسيا ودعى الى كثير من المجامع الكنسية .

ومع أنه مدح كثيرا لتجلده الذى أظهره ازاء ما أصابه الا أنه لم يسلم من الغلطات التى يرتكبها كثيرون ممن يكونون في حال كحاله . فقيل انه وجه لخصمه البطريرك كثيرا من الانتقادات وتحرك أحيانا للانتقام منه لولا تبكيت ضميره وصفاته المسيحية . وحدث أنه كان يعظ يوما بأورشليم على الآية القائلة « وللشرير قال الله مالك تحدث بفرائضي وتحمل عهدى على فمك » (مز ٥٠ : ١٦) ولم ينته من قراءة هذه الآية حتى وبخته حواسه وخشى أن يفهم السامعون أنه يقصد توجيه الكلام لديمتريوس وانهالت الدموع على خديه بغزارة وارتفع صوته بالبكاء حتى لم يقو على التفوه بكلمة واحدة فشاركه السامعون في التأثر والبكاء . وعقب ذلك تنيح البابا ديمتريوس وخلفه ياروكلاس تلميذ أوريجانوس ويظهر أنه كان موافقا لسلفه على اجراءاته ضد أوريجانوس فلم يفكر في أثناء رئاسته أن يدعوه ليعود الى الاسكندرية .

وفى ابان الاضطهاد الذى قام به مكمسيانوس قيصر ٢٣٦ م سجن امبروسيوس صديق أوريجانوس وبروتكتسيتوس أحد قسوس قيصرية وعوملا بمزيد القساوة فألف لتعزيتهما رسالة في الاستشهاد . وقبض أيضا على كثيرين من أتباعه وأكره هو نفسه على الفرار من قيصرية فالتجأ الى فرميتيانوس أسقف قيصرية في كبدوكية أحد أصدقائه المعجبين به كثيرا . ولما حدث الاضطهاد هناك اختبأ مدة سنتين في بيت يوليانه امرأة غنية فاضلة وأذنت له في استعمال مكتبة ابتاعتها من سيماخوس أحد علماء الأبيونيين (١) الذى ترجم العهد القديم الى اليونانية فانكب أوريجانوس على مطالعة ما في هذه المكتبة من الصحف وكمل فيه مقابلة النسخة العبرانية والنسخة اليونانية من التوراة وتهيأ بذلك لعمله العظيم بوضع كتاب

---

(١) كانوا يعتقدون بحفظ ناموس موسى وبأن المسيح خاص باليهود ورفضوا رسائل بولس لأنها توجب الخلاص للامم .

« المسدسات » أى وضع آيات الـكتاب المقدس فى ستة حقول ليظهر للعالم الـكتاب المقدس منشورا فى ست لغات كما سيأتى ذكره ·

وفى سنة ٢٣٨ م رجع الى قيصرية فى فلسطين واستأنف أعماله ولم يلبث أن دعى الى أثينا وتمم هناك تفسير سفر حزقيال وبدأ بتفسير سفر نشيد الانشاد ولما جلس فيليب الملك العربى على تخت الامبراطورية الرومانية راسل أوريجانوس عائلته · وفى ذلك الوقت اشتهرت رسالة ضد الديانة المسيحية وعم انتشارها جدا وضعها كلسوس الفيلسوف الوثنى الأفلاطونى فانبرى العلامة أوريجانوس لتفنيدها والف رسالة ضدها دافع فيها عن الدين المسيحى دفاعا مجيدا · ثم وضع حينئذ أيضا تفسير انجيل القديس متى ورسائل أخرى ·

وفى السنة الستين من عمره أى سنة ٢٤٥ م سمح للستينوغرافيين (أى الذين يكتبون بخط مختصر) أن ينقلوا خطبه وكان بين هذه الجماعة عدد من الفتيات اتخذن هذه الصناعة مهنة لهن للافادة والاستفادة · وكانت المجامع تستشيره فى المسائل الصعبة وتنتهى اليه فى عظيم المشاكل ·

وفى الاضطهاد الذى قام به ديسيوس قيصر نظر الى أوريجانوس كأكبر مدافع عن حقائق الديانة المسيحية فقبض عليه وطرح فى السجن وعذب عذابا شديدا وكتب فى السجن رسالة تتضمن النصيحة والتشجيع لمشاركيه فى العذاب الا أن صحته اعتلت لما حل به من الآلام وقد كتب يوسيبيوس عما عاناه أوريجانوس فى سياق كلامه عن استشهاد القديسين اسكندر أسقف أورشليم وبيسلسيوس أسقف انطاكية يقول « يصعب على الكاتب الماهر وصف ما قاساه أوريجانوس واحتمله بصبر وفرح من العذاب الشديد والآلام القاسية أثناء هذا الاضطهاد اذ وضعوه فى مقطرة من حديد وزجوه فى أعماق السجن حيث ظل بضعة أيام مطروحا على خشبة وهو مشدود بأربعة وثاقات لا يستطيع معها الحراك وهم يشعلون النار من حوله تهديدا له وتخويفا وغير ذلك من مرائر شرحها يطول ووصفها يهول ذاقها هذا المسيحى من أعدائه العديدين ولـكنه لم يبد ضجرا ولا أظهر مللا ولم يقل يا أزمة انفرجى · وعندما انتهى القوم من تجريع أوريجانوس كل أصناف العذاب قدموه للحكم عليه بالموت فسعى القاضى الموكل بالحكم جهده فى تأخير مدته ليس لينجى أوريجانوس منه بل ليطيل عذابه باطالة أيام حياته · فالذى تم لأوريجانوس من آلام وعذاب يجدر بأن يكون عبرة لمن يعتبر وذكرى لمن يذكر وتعزية للذى وقع فى مصاب أو اصابه شر وتجربة وعلى من يرغب شرحا وافيا عن ذلك عليه بمراجعة رسائل أوريجانوس التى بقيت بعده فيجد فيها أخبارا يوثق بصحتها وتفصيلا وافيا عما أصابه وأصاب غيره من قبله » أهـ (١) ·

---

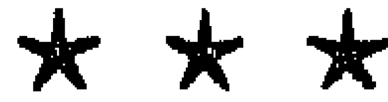
(١) لم يبق من هذه للرسائل التى اشار اليها يوسيبيوس سوى رسالتين لم يذكر فيهما شىء عن حوادث اضطهاد ديسيوس ويظهر ان ذلك واضح فى رسائل أوريجانوس المفقودة ·

الا أن أوريجانوس مع كل ذلك لم يحكم عليه القاضى بالقتل وفيما بعد أطلق سراحه ولا يعلم كيف أطلق من السجن الا من رواية أبيفانيوس أسقف قبرص المتوفى فى أواخر سنة ٤٠٢ م حيث قال « بأن الوالى أتى أوريجانوس يوما فى السجن وعرض عليه أحد أمرين اما أن يرتكب رغمـا عنه أمرا مخلا بقانون العفـة أو يقدم بخورا فى مجمرة كانت معه باسم الأوثان • ولشدة حرص أوريجانوس على عفته آثر أن يلقى البخور فى المجمرة على اقتراف المنكر وبذلك اطلق سراحـه » أهـ وقال بعض المؤرخين ان ذلك لم يكن فى اضطهاد ديسيوس بل كان فى اضطهاد ساويرس اذ كان أوريجانوس فى الاسكندرية ولما كان أبيفانيوس من أكبر خصـوم أوريجـانوس أنـكر أكثر المؤرخين هذه السقطة وقال غيرهم أن أعداء أوريجانوس زادوا هذه الحكاية على كتاب أبيفانيوس وانه لو صح ذلكلما أهمل ذكره برفيروس عدو المسيحيين الاله الذى نقب عن زلات كثيرين من علمائهم • وهكذا يوجد بعض المؤرخين يدافعون عن صحة هذا الخبر وكثيرون منهم يكذبون وبراهين هؤلاء أظهر وأقـوى •

والذين مالوا الى تصـديق الخبر اسـتندوا على قطعـة رثاء وجدت لأوريجانوس رثى بها نفسه بقوله « أيها البرج الشامخ ألا انك سقطت الى الحضيض بغتة • ويا أيتها الشجرة الغضة المثمرة ألا انك على الفور يبست ويا أيها النور المتوقد ألا انك أظلمت وشيكا ويا أيها الينبوع الجارى ألا انك نضبت • ويلى فانى كنت مشتملا بمواهب ونعم وقد عريت عنها الآن جميعها • فرقوا لحالى يا أحبائى فانى دست خاتم اقرارى واتحـدت مع الشـيطان وأشفقوا على يا خلانى فانى رذلت وطرحت أمام وجه الله • أين ذاك الراعى راعى النفوس الصالح وأين من نزل الى أورشليم الى أريحا وعنى بأمر جريح اللصوص فانجدنى يارب أنا الذى وقعت من أعلى أورشليم ونقضت النـذر الذى أخذته على فى المعمودية وغيرها وأغثنى أيها الروح القدس وهب لى من لدنك نعمة لأتوب • رب انى ابتهل اليك لأن تردنى فقد سلكت للهـلاك أعظم مسلك • أنعم على بالروح القدس المرشد والمهذب الصالح لئلا أمسى مأوى للشيطان ولكن أدوسه كما داسنى وأقوى على حيله فأعود الى التمتع بخلاصك • رب أنى أخر أمام عرش مراحمك فكن لى رحوما أنا النائح هذا النواح لتسد ما أسـأت به • ان معـاشر المسيحيين القديسين يتوسطون عندك من أجلى أنا العبد الساقط رب اظهر رحمتك لخروفك التائه الذليل للذئب المفترس ونجنى من فمه وانزع عنى ملابس حدادى والبسنى منطقـة الفرح والسرور واقبلنى أيضا فى فرح الهى وأجعلنى أن أكون أهـلا لملـكوته بواسطة خالص صلوات الـكنيسة عنى التى تحزن على وتواضع نفسها من أجلى ليسوع المسيح الذى له مع الآب والروح القدس كل شرف وكرامة الآن والى أبد الآبدين ، آمين » أهـ •

والمعلوم انه لم يفرج عن أوريجانوس الا بعد موت ديسيوس قيصر وأمسى بعد ما عاناه من التعذيب أكسح من قبل الجراح التى أنزلتها القيود فى رجليه فلبث مدة بعد خروجه من السجن يتجرع آلاما مبرحة ويتقلب على فراش الضنى والنحول وهو يقترب بسرعة الى حافة الموت · ولكن انتعش حينئذ عندما وصله كتاب من البابا ديونسيوس البطريرك الاسكندرى الذى خلف ياروكلاس يشجعه فيه على احتمال المشقات ويظهر له حزنه العميق على حالته التعيسة · غير أن حياة أوريجانوس لم تطل بعد خروجه الا أربع سنوات على قول بعضهم كان فيها غير منكف من جهده فى التأليف والمكاتبات والخطب وعلى قول آخرين لم يعش سوى سنة واحدة وعلى كل حال فقد أثر عليه ما عوقب به من الآلام المبرحة التى انهكت جسمه وسحقته فمات سنة ٢٥٤ م فى مدينة صور وله من العمر ٦٩ سنة ويحق لنا أن ندعوه شهيدا ودفن فى المكان الذى مات فيه بصور وظل قبره معروفا حتى شيدت فوقه كنيسة وذكر كثيرون من أصدقائه انه مات تحت العذاب سنة ٢٥٤ م وحفظ ضريحه مدة قرون عديدة بقرب المذبح فى كنيسة صور الأسقفية واستمر قبره مزارا للكثيرين حتى القرن السادس · قال مؤرخ « واذا سألت أهل صور عن مكان قبره لأشاروا لك الى أطلال كنيسة قديمة بنيت عليها أكواخهم وقالوا لك هنا قبر (أورسنيوس) يريدون أوريجانوس مدفون فى قباب تلك الكنيسة وهو الآن تحت الأرض » أهـ ·

فرجل مسيحى فاضل كهذا كيف يتهمونه بالهرطقة وقد كانت حياته كلها بريئة من كل ما يشين واجمع الكل على طهارة ثيابه ونزاهة نفسه حتى قال عنه أورسابيوس « أن حياة هذا الرجل أفضل مفسر لعظاته » وقال موسهيم المؤرخ « ان بيانه الساحر وعلمه الكثير وطبعه المحبوب وصيته الحسن فى التقوى الحارة الخالصة أعطته سطوة عظيمة · ولا سيما بين العلماء وذوى المراتب الأولى فى الهيئة الاجتماعية · ولم يقم أحد منذ زمن الرسل أكثر منه مناضلة واجتهادا فى اذاعة المعرفة وتفقيه المسيحيين وتنويرهم واتحادهم وتوقيرهم فى عيون البشر » أهـ ·



أما ما ينسب الى أوريجانوس من الضلال فلم ينبه فى حياته الا عن القليل منه ولما طرق مسامعه خبر هذه الاشاعات الكاذبة قال فى ميمره الخامس والعشرين على انجيل القديس لوقا « ان من دواعى سرور أعدائى أن ينسبوا الى آراء لم أتصورها ولم تدر بخلدى » وجل ما أشيع عنه من الضلالات جمع بعد موته · ويغلب على الظن أن الذين نسبوا اليه الهرطقة هم أناس قرأوا مؤلفاته بدون أن يفهموها جيدا فتوهموا من ظاهرها مايلصق به تلك التهمة · ويقال ان بعض الهراطقة فى ذلك الحين كانوا يجتهدون بأن

يدسوا فى كتب المؤلفين أنواع هرطقاتهم ليوصلوها الى عقول الجمهور من هذا السبيل فلا يبعد أن يكونوا عملوا ذلك بمؤلفات أوريجانوس كما عملوا بمؤلفات اكليمندس قبله وكما شرع كثيرون منهم بكتابة أناجيل ورسائل ونسبوها للرسل وضمنوها ما يعتقدون من البدع والأضاليل ولكن جميعها نبذت ·

أما الأضاليل التى نسبت الى أوريجانوس وجمعها خصومه وأذاعوها فهى :

١ ـ ان الأنفس خلقت قبل أجسادها وحبست فيها لمعاص ارتكبتها (١) ·

٢ ـ ان نفس المسيح خلقت واتحدت باللاهوت وذلك قبل زمن التجسد ·

٣ ـ ان الشياطين والهالكين يخلصون ·

٤ ـ ان الأجساد الحقيقية لا تقوم فى يوم النشور وسيعاض عنها بأجساد أخرى ·

٥ ـ ان الأرواح تتقمص ·

٦ ـ ان عوالم كثيرة خلقت قبل هذا العالم وستخلق كذلك عوالم أخرى بعده أهـ ·

ويقول الواقفون على الحقيقة ان هذه الهرطقات لا أثر لها فى مؤلفات أوريجانوس ولم تظهر الا فى الترجمات اللاتينية التى وضعها من بعده روفينوس الاكويلى القائل فى مقدمة كتابه « انى لم أتصد الى اصلاح بعض عبارات أوريجانوس الا بقصد تهذيبها » أهـ ·

ولما كانت بعض عبارات أوريجانوس بعيدة الفهم اجتهد أن يصلحها فكان عدم فهمه اياها سببا لأنه يرقم ما اعتبره الخصوم ضلالا لأوريجانوس حتى أن أنسطاسيوس أسقف رومية سنة ٣٩٨ ـ ٤٠٢ م فى رسالته الى يوحنا أسقف أورشليم أحد أنصار أوريجانوس أوقع الحرم على ترجمة روفينوس لا على الأصل اليونانى ·

ومعظم تلك الأضاليل المذكورة مأخوذة عن اعتقادات وثنية ولا يعقل أن أوريجانوس نصير المسيحية الوحيد حينئذ ضد الوثنية ينقل تلك الآراء السخيفة وقد قال اغريغوريوس ثافماثورغوس تلميذ أوريجانوس فى دفاعه عنه « أنه كان يحذرنى من الاستناد فيمايختص بالدين على الفلسفة البشرية » وقد قرر أوريجانوس نفسه فى مقدمة كتابه المبادىء رقم ٢ ضرورة نبذ أكثر ما يقوله فلاسفة اليونان لأن أكثره يحسب ضلالا · ولئن كان أوريجانوس

---

(١) يقصد خصوم أوريجانوس انهم يجعلوه يعتقد بأن النفوس البشرية خلقت مع الملائكة فى مكان واحد وزمان واحد ثم ارتكبت بعض المعاصى فانحدرت بسبب ذلك الى الأرض واتحدت بأجساد كثيفة عقابا لها ·

يجهد ذاته فى فهم تلك الفلسفة فذلك ليستعين بها على رد هجمات أهلها على المسيحية وليتمكن من أن يستخرج لهم من ديانتهم مايؤيد به ديانته وقد أشار الى ذلك فى رسالة لاغريغوريوس المذكور حيث قال « كما أن العبرانيين قد صنعوا بذهب المصريين وفضتهم تابوت العهد والكاروبين وأوانى المذبح كذلك يجب علينا نحن المسيحيين أن نصنع بفلسفة اليونان فلننقل الى هيكل الحكمة الالهية هذه الزينات التى يسىء أربابها استعمالها . فلنأخذ عن اللغة اليونانية التى طالما استعملت لمدح الضلال والرذيلة عذوبتها وطلاوتها لنزين حقيقتنا الناصعة بالزينة التى طالما البسوها بطلهم وبهتانهم . فلنجعل اله الشر قوة للخير . ولكن حذار من الترهات التى تكسوها هذه الزينات حذار من أن ننقل شيئا منها الى دين الحق لئلا نضل ونكون مثل يربعام الذى تزوج بابنة ملك مصر وعاد مع عروسه الى اسرائيل فأبدل عبادة الاله الحقيقى بعبادة أصنام المصريين » أهـ .

وقد انبرى كثيرون من المؤرخين الصادقين خصوصا فى الأيام المتأخرة للذب عن أوريجانوس وتبرئته مما نسب اليه وخير ما وقفنا عليه فى هذا الشأن دفاع صاحب كتاب « مختصر تاريخ الأمة القبطية » (ص ٣٨٤ - ٣٩٠) ننقل ملخصه لفائدته التامة هذا على أننا أيضا أخذنا عن ذلك الكتاب أفضل الآراء التى دافعنا بها عن أوريجانوس : -

التهمة الأولى - هى المختصة بخلق النفوس قبل أجسادها . خالفها أوريجانوس فى كتاب المبادىء ك ٢ ف ٨ وغيره من مؤلفاته بقوله « ان النفس البشرية خلقت فى اليوم السادس عندما نفخ الله فى آدم وكان ذلك بعد خلق الملائكة » اهـ . وانحدار النفوس الذى تكلم عنه خصومه لم يكن غير انحدار الملائكة الذين سقطوا (المبادىء ك ٣ ف ٥) .

التهمة الثانية - هى المختصة بخلق نفس المسيح قبل تجسده . وبمقارنتها بقوله فى كتابه المبادىء ك ٤ ف ٢١ « ان الكلمة أخذ جسدا بنفس ناطقة وذلك عند التجسد لا قبله ولا بعده » يتضح بطلانها .

التهمة الثالثة - هى المختصة بخلاص الشياطين والهالكين . وقد ادعوا بها لسوء فهمهم أقوال ذلك الفيلسوف وهذه هى « ان الملائكة قسمان قسم أطاع فخلص خلاصا أبديا وقسم سقط فهلك هلاكا أبديا . وأما الجنس البشرى فرغما عن سقوطه فى خطيئة آدم الأصلية يمكنه أن يخرج من الهوة التى وقع فيها ويتحد بالله وبملائكته الأبرار . غير أن الذين يسترسلون فى ضلالهم يصبحون عبيدا للشيطان فيهبطون فى الهاوية الأبدية » (المبادىء ك ١ ف ٦ : ٢ و ٣) أى أن الذين يؤمنون بالمسيح يخلصون من العقاب الأول وبعكس ذلك الذين لا يؤمنون .

التهمة الرابعة – هى المختصة بعدم قيامة الأجساد نفسها ٠ ويناقضها ما قرره فى تفسيره للمزمور الأول وفى كتابه المبادىء ك٢ ف ٢:٢ « ان عدل الله يقتضى أن يتوج الأجساد نفسها التى سفكت دماء أصحابها فى سبيل المسيح » أهـ ٠

وقد ادعى أورينموس عدو أوريجانوس بأنه اعتقد بتغير شكل الأجساد عند القيامة بأن تأخذ أشكالا كروية كالشمس والنجوم وسائر الكواكب ٠ ولكن أوريجانوس لم يشبه أجساد الناس بالكواكب الا فى البهاء حسب قول بولس الرسول فى (١ كو ١٥ : ٤٠ و ٤١) ونفى هذا القول فى كتابه الثانى على القيامة ٠

التهمة الخامسة – هى المختصة بتقمص الأرواح ٠ وقد انتشرت فى حياة أوريجانوس ففندها فى ميمره ١٦ على سفر أرميا ١٦ : ١ وفى رسالة بعث بها لتلاميذه بالاسكندرية يقول « ان هذا الرأى لا يخطر لمجنون فى منامه » أهـ ٠

التهمة السادسة – هى المختصة بخلق عوالم كثيرة ٠ وفى كتابه المبادىء ك٢ ف ٣:٦ وك٣ ف ٥:٣ لم يذكر سوى ثلاثة عوالم :

١ – عالم الملائكة ٠ ٢ – العالم البشرى ٠

٣ – العالم الذى يتكون بعد البعث من اتحاد العالمين المتقدمين ٠

ومن يطالع أقوال آباء الكنيسة بشأن أوريجانوس لايستطيع أن يحكم عما اذا كان شخص أوريجانوس محروما أم غير محروم فقط نعلم أن الكنيسة شجبت تلك الضلالات التى أذاعها الخصوم ٠ وتاريخ الكنيسة مشحون بأخبار الانشقاقات التى قامت بين الآباء بسبب أوريجانوس فمنهم من كانوا يعتبرونه هرطوقيا ومنهم من كانوا يعتبرونه من معلمى البيعة الأفاضل فمن خصومه :

(١) البابا ديمتريوس كما ذكر ٠

(٢) متيوديوس أسقف أولمبيا ٠ وضع ضده ثلاثة كتب غير أنه فى آخر حياته أدرك خطاه وذكر أوريجانوس بكل احترام ٠

(٣) أبيفانيوس أسقف قبرص ٠ هو أول من أذاع البدع عن أوريجانوس وعنه أخذ الآخرون ٠ وقد كان بسيطا سريع التصديق لما يسمع فكتب عن أوريجانوس ما كتب بسلامة ضمير ٠

(٤) ثوفيلس بابا الاسكندرية ٠ وسيعرف القارىء فى تاريخه سبب هذه العداوة ٠

(٥) أيرونيموس أحد علماء سوريا فى القرن الرابع كان فى مبدأ الأمر

من انصار أوريجانوس ولـكنه بسبب منازعاته مع روفينوس المذكور انه نقل كتب أوريجـانوس للاتينيـة صـار من الد اخصـامه الا أنه كتب عنـه قبل أن يكون خصمه قائلا « لم يكن أوريجانوس مجرد كاتب عذب المشرب يرتاح اليه أمراء الـكتاب أو مجرد مؤلف فاق نظراءه بمؤلفـاته الدانية القطوف بل كان بلا جدال المعلم الأول لجميع الكنائس بعد الرسل ولا مشاحة فى أن آراءه تعبر عن الأرثوذكسية التى لم يشبها ضلال اما الذين استوقد الحسد ضلوعهم فاتهموه بالهرطقـة فان هم الا كلاب كلبة » أ هـ ولـما أصبح يقاوم الأوريجانيين شديد المقاومة قال لهم « وافقونا على أن أوريجانوس انخدع فى بعض المسـائل فلا يبقى لى ما أقول وان اعترضنا من يحسدونه على فخره ببعض أغلاط له فليعلموا أن الخطأ من شيم كبار الرجال فلا نتشبث بزلات من لا نستطيع مباراته فى فضائله » أ هـ ·

ومن محبى أوريجانوس والمدافعين عنه :

(١) البابا ديونوسيوس الاسكندرى البطريرك الرابع عشر ·

(٢) ثيوسيستوس أسقف فلسطين ·

(٣) غريغوريوس العجايبى ·

(٤) أخوه ثينودوروس ·

(٥ و٦) غريغوريوس النزينزى وباسيليوس الـكبير · درسا العلم من مؤلفات أوريجانوس ولخصا منها رسائل عرفت باسم فيلوكالى (محب الجمال) لتعليم الناشئة المسيحية وأطلق عليها هذا الاسم لميل أوريجانوس الى كل مبدأ سام ·

(٧) غريغوريوس أسقف نيصص بالكبادوك · كان كثير المطالعة لمؤلفات أوريجانوس حتى حفظ أغلبها وسار على منواله فى ما كتبه من الكتب وكان يلقب أوريجانوس بزعيم فلاسفة المسيحيين ·

(٨) بمفيليوس البيروتى تلميذ بيروس مدير المدرسة اللاهوتيـة نسخ معظم مؤلفات أوريجانوس بيده وشغف بمطالعتها وكتب عنه وهو سـجين يقول « ان لخصـوم هذا الفيلسوف عقولا قاصرة عن الخوض فى عبـاب مباحثه الواسعة وعاجزة عن ادراك سمو المعـانى التى يرمى اليها من كان معلما للـكنيسة بعد رسل الرب » أهـ ·

(٩) ديديموس الضرير مدير المدرسة اللاهوتية مدح كتاب المبادىء ·

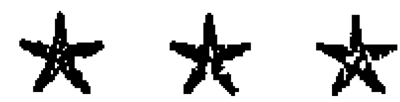
(١٠) البابا اثناسيوس الرسولى البطريرك العشرون دافع عن كتاب المبـادىء ·

(١١) القديس يوحنا فم الذهب • مات منفيا فى سبيل الدفاع عن مبادىء أوريجانوس التى كان كلفا بمطالعتها كما يتضح من تاريخ البابا ثاوفيلس البطريرك الثالث والعشرين •

(١٢) توتيم أسقف سيتى • اعترض على أبيفانيوس عندما قاوم القديس يوحنا فم الذهب لغرامه بكتب أوريجانوس بقوله « اعلم يا أبيفانيوس أنه لا يمكننا أن نسىء الى الذى مات تقيا وليس فى استطاعتنا أن نحرم أسفارا اعتبرها آباؤنا أرثوذكسية فضلا عن أننا لم نجد فيها أثرا للهرطقة » أ هـ •

(١٣) ايسيذوروس مدير مستشفى الاسكندرية والاخوة الطوال القامة • دافعوا عن أوريجانوس دفاع الأبطال وطردوا من الاسكندرية وصادفوا الأهوال فى سبيل التمسك باحترامه وقد أقسم هو والاخوة المذكورون على أن أوريجانوس برىء من كل هرطقة •

(١٤) يوحنا ٢ أسقف أورشليم • هام بكتب أوريجانوس وحاول أبيفانيوس وايرونيموس أن يجعلاه ينكف عن مدح أوريجانوس برسالة بعث بها اليه الأول ولكنه لم يفعل بل كتب محاماة عن أوريجانوس رسالة أرسلها الى البابا ثوفيلس البطريرك الاسكندرى حينما كان يجل أوريجانوس• فيظهر لنا أن أصدقاء أوريجانوس أكثر اعتبارا فى نظر الكنيسة من خصومه فلو كان أوريجانوس هرطوقيا لما دافع عنه أولئك وبالتالى كانوا يعتبرونه مثله محرومين لغرامهم بمطالعة كتبه واجلالهم لشخصه العظيم •



والآن نأخذ فى ايضاح مذهب أوريجانوس فى التفسير • قال عنه موسهيم المؤرخ « ان هذا المتوقد الذهن رأى أن لا طريقة سهلة بها يناضل عن كل ما قيل فى الكتب المقدسة ضد اشراك الهراطقة وأعداء المسيحية لو فسر لغة الكتاب المقدس حرفيا فصمم عزمه على تفسير الكتاب المقدس كما اعتاد الأفلاطونيون على أن يفسروا تواريخ آلهتهم • فعلم أن الكلمات فى أماكن كثيرة من الكتاب المقدس لا معنى لها وفى بعض الأماكن حيث اعترف بأن لها معنى ما أعتقد بأنه يراد بالعبارة المذكورة معنى سرى مكتوم يجب أن يفضل على معنى الكلمات الظاهر • وهذا المعنى المكتوم هو الذى يفتش عنه فى شروحاته بانتباه لكنه معوج وغالبا يتغافل بالكلية ويزدرى بالمعنى الظاهر • ويقسم هذا المعنى البعيد أيضا الى معنى أدبى ومعنى سرى أو روحى • المعنى الأول يعلمنا ما يتعلق بحال النفس الداخلى وبأعمالنا الخارجية • والمعنى الثانى يعلمنا حقيقة تاريخ العالم السرى أو الروحانى

وشرائعه . وتخيل أيضا أن هذا العالم السرى مزدوج بعضه سام أو سماوى وبعضه دون أو أرضى أى الكنيسة . فلهذا قسم معنى الكتب المقدسة السرى الى أرضى أو تشبيهى والى سموى أو روحانى . وطريقة تفسير الكتب المقدسة هذه التى استصوبتها اليهود كانت دارجة عند المسيحيين قبل أوريجانوس لكن لأنه حدد لها قوانين ورتبها على هيئة نظام يعتبر غالبا كمبتدعها » أهـ .

وقال صاحب « تاريخ الكنيسة » المطبوع فى أورشليم سنة ١٨٩٢م « والغريب أن أوريجانوس بعد ما كان يتشبث ببساطة وايمان بمفهوم آيات الكتاب الحرفى مجريا بالفعل ما ورد فى مت ١٠ : ١٠ فلم يقتن شيئا لذاته ومت ١٩ : ١٢ فخصى نفسه فصار يتخيل فى كل آية بسيطة من كتاب الله معنى أدبيا مشفوعا بسر غامض يلمح الى حوادث سموية » أ هـ .

ومع أن أوريجانوس تطرف كثيرا فى تفسير كل آيات الكتاب المقدس تفسيرا مجازيا وفى الاكثار من الاستعارات وجعله المحل الثانى للمحل الحرفى الا أن أغلب الكتاب المسيحيين يغتفرون له هذا التفنن لعلمهم بأنه سار عليه فى سبيل الذود عن حقائق ديانته المسيحية وقد ارتكب هذا الخطأ سهوا لأنه حسبه أنسب طريقة لرد هجمات أعداء المسيحية بل كتب ما كتب بدافع الغيرة الدينية وهو مسيحى مخلص سليم الاعتقاد وأحد الذين عددوا غلطاته فى تفسيره قال « ويلوح لنا أن أوريجانوس كان تقيا ورعا وأنه بنى بعض تعاليم الديانة المسيحية على مبادىء صحيحة مقررة غير أن تفننه المطلق نكب بكثيرين من ذوى العقول الضعيفة عن سواء السبيل » اهـ (١) .

★ ★ ★

أما أكثر مؤلفات هذا المفضال فقد وصلت الينا فى ترجمات غير صحيحة بقلم أيرونيموس وروفينوس وكثيرون من العلماء القدماء اقتبسوا منها . وأشهر مصنفاته التى وصلت الينا فى اللغة الأصلية هى :

(١) كتاب عنوانه « الرد على كلسوس » كتبه فى ثمانية أجزاء .

(٢) مجموع مقالات فى « الصلاة الربانية » وهو الكتاب الثانى الذى وصل الينا بتمامه فى اللغة الأصلية .

(٣) كتابه فى « الشهداء » .

(٤) فى « الرئاسات » وهو كتاب بالغ الخصوم فى انتقاده وأجزاؤه أربعة :

١ - يبحث عن الأقانيم فى الثالوث الأقدس وعن السقوط وعن الطبيعة العاقلة وعن المخلوقات المادية والروحية وعن الملائكة .

---

(١) تاريخ الكنيسة المطبوع بأورشليم سنة ١٨٩٢ م ص ١٤٨

٢ ـ يبحث عن العالم وما فيه ويثبت أن اله العهد القديم واله العهد الجديد واحد ويفصح عن التجسد والقيامة وعقاب الصالحين ·

٣ ـ يبحث عن حرية الارادة وعن الشيطان وعن تجربة الانسان وعن أصل العالم ونهايته ·

٤ ـ يبحث عن الأسفار المقدسة وأصلها الالهى وعن كيفية مطالعتها ودرسها · ويوجد الآن من هذا الكتاب قطع كبيرة فى اللغة الأصلية ولا سيما من الجزء الثالث والرابع ولنا أيضا اللغة اللاتينية لروفينوس وأجزاء أخرى لأرونيموس ·

(٥) شرح الكتاب المقدس فى ثلاثة أجزاء :

١ ـ يتضمن تفسير بعض الأسفار المقدسة كسفر التكوين والخروج وحزقيال الخ · وانجيل متى ويوحنا والرسالة الى أهل رومية الخ · ولم يبق من هذا الجزء سوى أوراق قليلة ·

٢ ـ يتضمن ملاحظات على آيات غامضة من الكتاب وهو لا يعرف الا من الماع المعلمين الأولين اليه واقتباسهم منه ·

٣ ـ يتضمن مواعظ ومقالات قدمها فى قيصرية أو ارتجلها بعد أن أتى عليه من العمر ستون سنة بعضها موجود الآن فى اللغة الأصلية ولكن اكثرها مترجم الى اللغة اللاتينية بقلم أيرونيموس وروفينوس ·

(٦) كتاب موسوم « بالمتنوعات » فى عشرة أجزاء ألفه اقتداء باكليميندس أستاذه غير أن هذا الكتاب فقد ولم تبق منه سوى فصول قليلة استشهد بها أيرونيموس فى مصنفاته ·

(٧) كتاب عنوانه « القيامة » لم يبق منه الا أجزاء قليلة ·

(٨) رسائل عديدة دون منها يوسيبيوس مائة رسالة غير أنها فقدت ما خلا القليل منها ·

(٩) كتاب عناه « بالمسدسات » وضع فيه آيات الكتاب المقدس فى ستة حقول متوازية :

١ ـ يتضمن المتن فى اللغة العبرانية · بحروف عبرانية ·

٢ ـ آيات الكتاب المقدس فى اللغة العبرانية بأحرف يونانية ·

٣ ـ الترجمة اليونانية التى وضعها أكويلا الدخيل اليهودى فى أوائل القرن الثانى ·

٤ ـ الترجمة اليونانية لسيماخوس الأبيونى السامرى الذى نبغ فى القرن الثالث ·

٥ ـ الترجمة السبعينية التى نشأت فى الاسكندرية فى القرن الثالث قبل المسيح ·

٦ ـ الترجمة اليونانية التى وضعها ثيودتيون الدخيل اليهودى بعد اكويلا بزمن قليل ·

وقد وضع أوريجانوس فى بعض كتبه ترجمة خامسة وسادسة وسابعة للكتاب المقدس وكان قصارى مرغوبه تنقيح الترجمة السبعينية بمعارضتها بسائر الترجمات فكان يدل على الآيات غير الواردة فى الأصل العبرانى بهذه العلامة × ويدخل الآيات المحذوفة فى الترجمة السبعينية واضعا قبالتها هذه العلامة ★ وقد كانت نسخة هذا الكتاب الأصلية محفوظة فى مكتبة قيصرية التى أنشأها بامفيلوس الشهير المناضل عن أوريجانوس والأرجح ان الاسلام أحرقوها مع سائر النسخ النفيسة عند افتتاحهم هذه المدينة سنة ٦٥٣ م ولم تكن نسخة أخرى مثلها وقتئذ اذ كانت الترجمة السبعينية المنقحة متواترة وحدها ولا يبعد أن أوريجانوس الف كتبا أخرى عديدة على الأسفار الالهية وكتب رسائل جمة ضد بعض البدع ولما كان جدول مؤلفاته الذى وضعه يوسيبوس وأيرونيموس مفقودا عزيت اليه رسائل لم يكن يعرفها مطلقا · كما أنه أول من كتب كتبا لتعليم الديانة للمبتدئين ويعتبر كتاب « ستروماتا » وكتبه الأربعة المبادىء شرح أكثر تعليم المسيحية ·

وقد جد العلماء فى طبع مؤلفات أوريجانوس لا سيما ترجمات الكتاب المقدس واهتموا باعادة ما فقد منها وجعلوها على نسق القطع الموجودة وطبع الجميع عدة طبعات أشهرها طبعة منتفوكون وهى فى مجلدين طبعا فى باريس سنة ١٧١٣ م وطبع كتب المبادىء حسب ترجمة روفينوس اللاتينية مع نقصه وتغييره وتحريفه طبعه ردينينغ فى ليبسيك سنة ١٨٣٦ م وطبعه ثنيتسر فى ستتغارت وطبع رسالة فى الاستشهاد وتستين فى بازل سنة ١٦٧٤ · وطبعت تاليفه كلها فى باريس بين سنة ١٧٣٣ و ١٧٥٩ فجاءت فى أربعة مجلدات ضخمة ·

الا أن أفضل الكتب التى وضعها تلك الثمانية كتب التى دافع بها عن النصرانية ردا لمزاعم كلسوس عدوها وايضاحا لقيمة هذا الكتاب ولفضل أوريجانوس تنقل عنه النبذ الآتية قال : (١) « ربما كان الأليق بنا أن نقتفى بأثر يسوع المسيح الذى كان صامتا أمام قضاته ولم يجب على الافتراء المنزل فيه من أعدائه الا بقداسة سيرته وبشهرة آياته · هكذا قد يعتبر بلا فائدة دحض الوشايات التى لم تزل الأنام الأشرار تنزلها فيه لأنه يبرأ نفسه منها تبرئة كافية بفضيلة تلاميذه الحقيقيين التى تخزى شهرتها جميع

---

(١) عن خلاصة تاريخ الكنيسة للعالم الفاضل لومند الافرنسى ج ١ ص ١٠٤ـ١٠٩.

الأكاذيب فلا أكتب اذا لأجل تأييد المؤمنين الحقيقيين لأن المحاماة عنهم خارجة عن حكم اللزوم بل أكتب لأجل الغير المؤمنين الذين يمكنهم أن ينالوا فائدة من هذا التعليم ٠

فبعد أن دحض اعتراضات صلسس الخصوصية أيد صحة الدين المسيحى ببينات لا رد عليها بالنبوات التى أنذرت بيسوع المسيح وبآياته وسيرة تلاميذه فقال : نظرا الى النبوات ينبغى بالعدل أن تصدق كتب اليهود وكتب باقى الأمم ولا يجب أن يقع الريب فى قدميتها اذا اعتبرت الحجج التى أتى بها يوسيفوس وتاسيانوس المصدق قولهما والمعول على روايتهما : ثم أتى أوريجانوس بذكر النبوات التى أنذرت جليا بميلاد يسوع المسيح وآلامه وموته وجميع لواحق مجيئه ٠ وبين أن اليهود مذ أتى يسوع المسيح لم يعد لهم لا نبوات ولا معجزات ولا أدنى علامة تدل على أن الوقاية الالهية عندهم كما يرى عند المسيحيين ٠ فنظرا الى المعجزات لم ينكر صلسس أن يسوع المسيح أتى بمعجزات لكنه كان ينسبها الى صنعة السحر فرد عليه أوريجانوس بأنه توجد وسائط أكيدة يميز بها سحر ابليس من المعجزات الحقيقية التى هى عمل البارى تعالى وهذه الوسائط تقوم بالفحص عن آداب صانعيها وتعليمهم والمفاعيل التى تبرزها هذه المعجزات فموسى والأنبياء ويسوع المسيح وتلاميذه لم يعلموا الا ما كان مطابقا كل المطابقة للصواب وجزيل الفائدة للآداب الصالحة للجمهور فهم أول من وضعوا بالعمل ماعلموه وكان التأثير عظيما ومستديما أما موسى فهذب أمة برمتها وساسها بنواميس مقدسة ويسوع المسيح ضم جميع الأمم الى معرفة الاله الحقيقى والى مباشرة كامل الفضائل أما الخبثاء والكذبة فلا يبتغون اصلاح الناس ولا لسحرهم ومكرهم نتائج صالحة ٠

فانبعاث يسوع المسيح من الموت الآية العظيمة وأساس الدين المسيحى لا يمكن قط أن تشتبه بمكر لأن يسوع المسيح مات مشتهرا معلقا على صليب تجاه كامل الشعب اليهودى ودفن وبقى فى القبر ثلاثة أيام وكان القبر مختوما والجنود تحرسه فظهر مدة أربعين يوما لبطرس ولباقى الرسل ثم لخمسمائة تلميذ كانوا مجتمعين معا ٠ فلو لم يشاهدوه منبعثا ولو لم يتيقنوا الوهيته لما كانوا قط عرضوا بنفوسهم للعذاب والموت لينذروا فى كل مكان التعليم الذى أخذوه عنه كما أمرهم بل لكان موته المخجل مما محا من عقولهم ذكره ولكانوا عدوا نفوسهم مخدوعين ومن ثم لكانوا أول من شجبوه ورذلوه ٠ فوجب أن يكونوا شاهدوا أمرا خارق العادة حتى اعتنقوا تعاليمه وجعلوا غيرهم يعتنقونها ولم يبالوا لذلك لا براحتهم ولا بحريتهم ولا بحياتهم فكيف يمكن أن أناسا جهلاء وأميين يقدمون على تغيير العالم بأسره ان لم يكونوا مؤيدين بقوة الهية وكيف يمكن أن الشعوب ينبذون عوائدهم القديمة بانذارهم

ويتبعون تعليما مغايرا لو لم يكونوا انبدلوا بقوة خارقة العادة وبمعجزات باهرة ·

ثم أثبت أوريجانوس ألوهية الدين المسيحى بالانقلاب العجيب الذى يبرزه فى من يعتنقونه فقال : ان المفعول العظيم الصادر عن الانذار بالانجيل هو اصلاح الآداب فلو شفى أحد مائة انسان من رذيلة الدنس يستصعب الظن بأن ليس فيه شيء فائق الطبيعة · فان كان ذلك كذلك ما القول فى جمهور وافر من مسيحيين قد انقلبوا عما كانوا عليه منذ قبلوا هذا التعليم فأصبحوا معتنقين العفة الكاملة فى جميع أمصار المملكة فان قواعد آداب المسيحيين ترفعهم كثيرا فوق غير المسيحيين فيردع المسيحى آلامه الشديدة ليرضى الله سبحانه · أما الوثنيون فيتمرغون فى حمأة الشهوات القبيحة ولا يستحون بها ويزعمون أنهم يراعون الفضل والصلاح بينما هم متورطون فى أعماق الفساد · فأقل المسيحيين تفقها أحسن استنارة فى شرف العفاف وعظمته من فلاسفة الوثنيين وبتولاتهم وكهنتهم الأفضل آدابا · فليس أحد بيننا مدنسا بهذه القباحات وان وجد أحد فليس هو من عدد الحاضرين اجتماعاتنا ولا هو مسيحى فبالحقيقة كانوا يطردون من الكنيسة من سقط فى اثم لا سيما فى اثم الدنس فكانوا يندبون حالهم كأنهم موتى عن الله ومتى عادوا تائبين كانوا يفرضون عليهم قوانين ويمتحنونهم امتحانات أصرم من تلك التى كانوا يجرونها عليهم لأجل العماد فلم يعد يسوغ لهم أن يباشروا أدنى خدمة فى الكنيسة · ثم قال أوريجانوس أن المسيحيين يراعون زمام الأمانة نحو ملكهم حق المراعاة فهم بعيدون عن انشاء أدنى سجس بعدا هذا حده حتى أنهم بمقتضى أمر سيدهم وواضع ناموسهم لا يستعملون أسلحة ضد أعدائهم الا الصلاة والصبر لأن يسوع المسيح أراد أن يسلحوا نفوسهم للذبح كالخراف ولا يبادروا الى أدنى مقاومة قهرا فان الله سبحانه هو المكلف بمصالحهم وبالمحاماة عنهم فيربحون بهذه الوداعة أكثر مما يربحونه بالمقاومة فضلا عن أن الظالمين لم يستطيعوا أن يستأصلوا المسيحيين ترى موت الشهداء لم يزل يزيدهم عددا فان القساوة التى كانوا يجرونها على المسيحيين لم تخمد قط حرارة غيرتهم على ترجيع غير المؤمنين فكان منهم أناس لم يكن لهم عمل الا الانذار بالانجيل فى المدن والقرى ولئلا يظن بهم أنهم يصنعون ذلك رغبة فى ربح لم يكونوا يقبلون شيئا كليا حتى ولا ماكان لازما لمعاشهم واذا اضطرهم الاحتياج الى قبول شيء فكانوا يكتفون بما هو ضرورى فقط ويأبون أخذ مازاد على ذلك ولو قدم لهم طوعا : ثم يردف أوريجانوس كلامه بقوله : أما الآن حيث يوجد بين جمهور المسيحيين أغنياء وأصحاب مقامات ونساء شريفات فربما يظن بأن الانذار بتعليمنا شرفا ولكن هذا الظن لا حامل له فى البداية والآن أيضا ما نناله من الكرامة من بعض خاصتنا

لا يوازى الامتهان والاهانات التى تلتحق بنـا من قبل الوثنيين : ثم أشـار أوريجانوس الى أن المسيحيين مع ما كانوا عليه من اضطرام الغيرة على ترجيع غير المؤمنين للايمان لم يكونوا يهملون اجراء الامتحان بقدر الامكان على الذين يرومون اعتنـاقه فكانوا يأهبونهم خاصة بالمواعظ قبل أن يقبلوهم فى الاجتماع وعندما كانوا يشاهدونهم فى عزم شديد مخلص على أن يسلكوا سلوكا جيدا فكانوا يدخلونهم فى التجمعيات مميزينهم أيضا الى مصافين أى مصاف المبتدئين ومصاف المتقدمين وكانوا يخولون أناسا مخصوصين بالسهر على سيرتهم لـكيما يبعدوا عن الاجتماع من لم يكن سلوكهم مطابقا للدين المسيحي ويرشدوا غيرهم فى سبيل التقوى والفضيلة » أهـ .

القسم الثالث
المملـكة والـكنيسة

الفصـل الأول
(حوادث الاضطهاد)

(١) اضطهاد أدريانوس (٢) اضطهاد ساويرس سبتيموس.

---

(١) اضطهاد أدريانوس :

ان سوء الظن الذي كان سائدا على الأفهام من جهة المسيحيين حينئذ جعل الكثيرين ولا سيما ذوى الشأن ينظرون اليهم بعين البغض والكراهة . وفى عهد تملك أدريانوس قيصر من سنة ١١٧ م كانت الاشاعات الباطلة عن المسيحيين قد بلغت حدها حتى أنه لما أتى هذا القيصر الى الاسكندرية وأخذ يتجول فى أنحائها كتب لصاحب له اسمه سريانوس من عظماء الرومانيين عن أحوال مصر يقول « قد استقصيت أحوال مصر واسـتقريت عوائدها واطلعت عليها اطلاعا كليا وكنت فى بادىء أمرى أصفها بالمدح وأتحاشى ذمها فتبين لى بعد التأمل والنظر أنها عبرة لمن اعتبر فهى طائشة لاتدوم على حال ولا تنكف عن المشاغبة والمنافرة لا سيما فى أمور الدين وما يتولد منها على أن من لم يعبد منهم الشمس والعجل أبيس عد نصرانيـا مع أنه ليس كذلك بل الذين يزعمون منهم أنهم أساقفـة على دين المسيح هم كغيرهم من المصريين الذين يحترمون الشمس والعجل ولا فرق فى ذلك بين الأسقف وحاخام اليهود وكل قسيس أو راهب أو عامى له فى الشمس أو فى العجل احترام . ويغلب على فكرى أنه لو أتى بطريرك من بطاركة النصارى الخارجين عن ديار مصر

ودخل مصر لشارك أهلها فى التمسك بهذه الاحترامات الدينيــة وربما اعتقدوا أن العجل والشمس والمسيح انما هم أسماء مترادفة وأنها فى الحقيقة شىء واحد » أهـ •

ويظهر أن الذى حمل أدريانوس على أن يرتكب هذا الخطأ فى الحكم هو أنه وجد بين علماء المدرسة اللاهوتية المسيحية وعلماء المدرسة الوثنية الأولى (١) علاقات اتحاد متينة العرى • واستمر أدريانوس متشبثا بخطاه من جهة المسيحيين حتى أنه لما اضطهد اليهود فى مصر اشتد على المسيحيين فيها أيضا فقتل منهم خلقا كثيرا حتى خيل للناظر أنه أفناهم جميعا ولأجلهم أمر بتعميم عبادة الأوثان وارغام المسيحيين بنوع خاص على السجود لها •



« المسيحيون يصلون ليلا »

(١) انشأها بطليموس الأول ولبثت تخرج العلماء المجتهدين مدة ٩ أجيال من سنة ٣٢٣ق•م الى ٦٤٠ ب•م وكانت تشتغل فضلا عن الفلسفة فى الطب والكيميا والطبيعة والحساب والهندسة والفلك والجغرافية والموسيقى والتاريخ واللغة الخ • وكان مقر ابحاثها :

(١) المكتبة الكبرى كان فيها ٧٠٠ الف مجلد واحترقت عند دخول يوليوس قيصر مصر•

(٢) المكتبة الصغرى وتحتوى على ٣٠٠ الف مجلد باد معظمها اثناء اضطهاد الوثنيين للمسيحيين •

(٣) الرواق وفيه كانوا يتمرنون على درس العلوم • ومن مآثر هذه المدرسة ترجمة التوراة من العربية الى اليونانية وهى الترجمة المعروفة بالسبعينية •

(٢) ساويرس سبتيموس :

وبعد أدريانوس توالى جملة قياصرة لم يكن لهم اهتمام يذكر بمسيحى مصر حتى استولى على العرش ساويرس سبتيموس سنة ١٩٣ م ٠ ولما استتب له الملك وفد على مصر وأخذ يتجول فى أنحائها حتى وصل الى مدينة طيبة وقد هاله ماشاهده فى سياحته من الانتشار السريع الذى أحرزته الديانة المسيحية وأوجس خيفة من تمدن أهلها وكثرة عددهم وخشى منهم على المملكة الرومانيــة نفسها فأصــدر أوامره لليتوس والى مصر الرومانى بمحو آثار ذلك الدين ٠

وقد كانت أوامر القيصر هكذا صارمة وقد بذل الوالى جهده ليجعل الاضطهاد قاسيا طبقــا لرغائبــه حتى عم جميع أنحاء القطر المصرى الا أن الضغط الشديد كان على مدينة الاسكندرية بنوع خاص لأنهم كانوا يعتبرونها مركز الديانة المسيحية ٠ ومن شدة هول الاضطهاد الذى دام طول مدة بقاء القيصر بمصر ولم يكف الا بعــد تركــه اياها قفلت المــدرسة اللاهوتيــة وتشتت شمل تلاميذها ولازموا بيوتهم وفر أســاتذتهم الى خارج البــلاد ليفوزوا بحياتهم ٠

وكان اضطهاد ساويرس دون باقى القياصرة منحصرا بالأخص على العالم المسيحى فىمصر وأفريقيا لأنه لم يكن يخشى من المسيحيين سوىالأقباط



« المسيحيون يصلون فى المغائر والنفق »

وذلك لمعرفتــه بوفرة ثروتهم وكثرة علومهم ومعــارفهم · ولـمـا كان لا ينقص أهل مصر فى ذلك الحين للتخلص من نير الرومانيين غير الاتحاد والوئام وكان الدين المسيحى هو العــامل على لم شعثهم ونظم عقدهم حاول القيصر أن يلاشى ذلك الدين من مصر غير مكترث بمسيحى باقى الأقطــار لمـا كان عليه أهلها من الفقر والضعف ·

وقد استشهد من الأقبــاط فى ذلك الاضطهاد كثيرون ولشدة الاضطهاد ظن المسيحيون أن المسيح الدجال قد ظهر · وقد شهد اكليمندس الاسكندرى أنه كان عدد عظيم من المسيحيين يستشهدون يوميــا مقاسين أنواع العــذاب وقال ان كثيرين منهم كانوا يصلبون أو تقطع رؤوســـهم أو يحــرقون أمام أعيننـــا ·



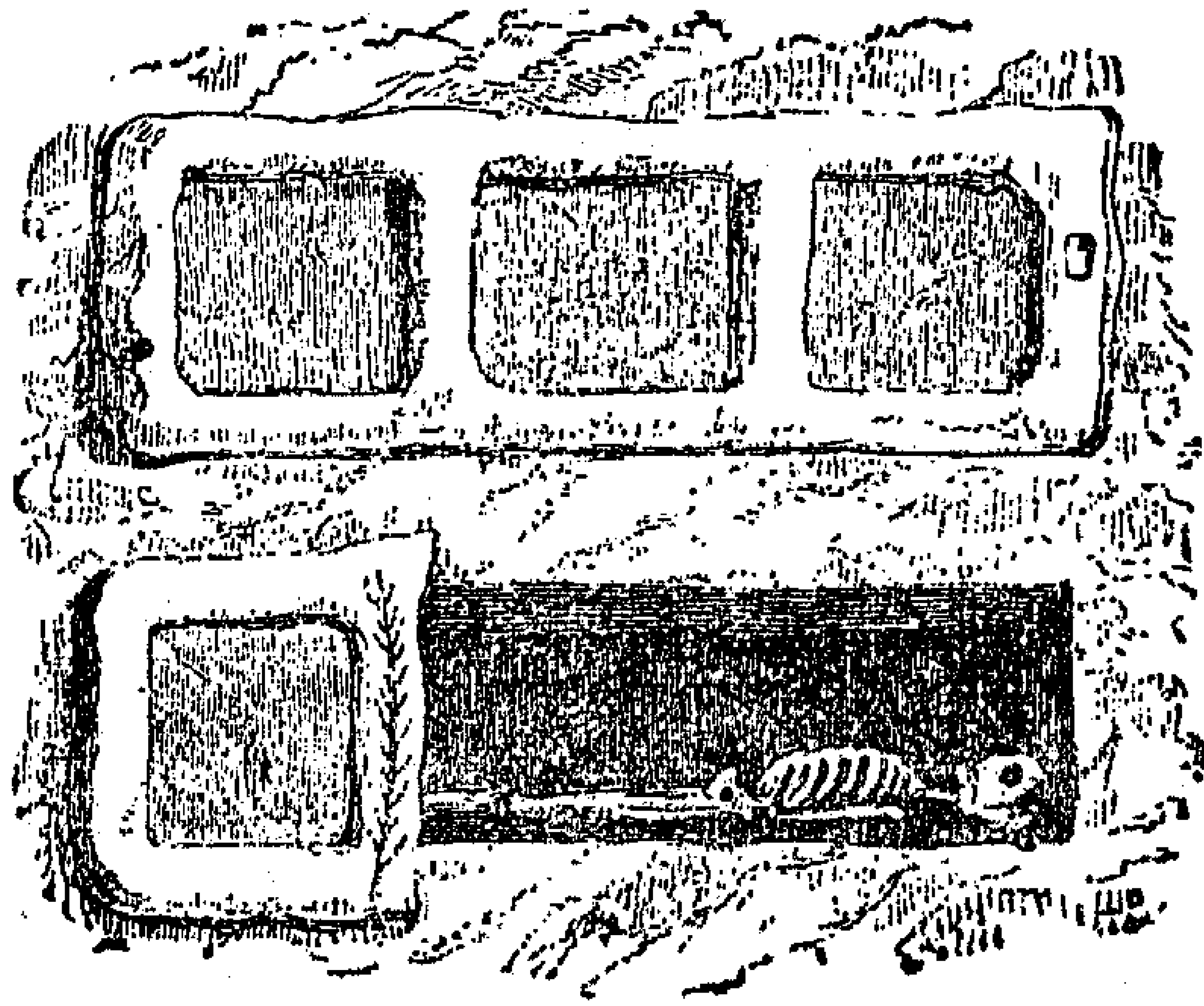
« صورة قديمة تمثل الراعى الصالح وجدت منقوشة على أحد قبور الشهداء »

واستمر الوالى الرومانى بمصر يعذب المسيحيين سبع ســنوات ويوقع بهم صنوف البلايا فكان يهجم على الرجال والنساء فى بيوتهم فجأة ويقبض عليهم ويجرهم الى مكان القتل وهنــاك تقطع رؤوسهم بعد أن يذوقوا أمر عذاب · وبعضهم يلقون فى السجون ويبقون بهــا حتى تفتك بهم الأمراض · وكانوا أحيانا يعاملونهم بمنتهى القساوة كما يرغب المشرفون عليهم وأحيانا يرفق بهم فيسمح لهم بمشاهدة أهلهم وأصدقائهم والتكلم معهم مما يخفف عنهم آلام السجن نوعا ·

وكان المسيحيون يقابلون بعضهم بعضا فى الطرقات وكل منهم يظهر للآخر أنه ينتظر اليوم الذى يقبض فيه عليه ولم يكونوا يستطيعون التكلم عن المسجونين الا همسا فى الآذان فـكان الواحد منهم يقول لصاحبــه « أتاك

الخبر أن فلانا قبض عليه وسجن ولا يمكن أن يطلق ثانية » وكقول بعضهم « وأسفاه على حالتنا التعيسة ٠ ما العمل » ولم يزل الأمر كذلك حتى ضاقت بهم رحبات السجون وسالت دماؤهم على الأرض فخضبتها ٠ وقد بلغت قساوة المضطهدين مبلغا جعلت النساء فى هذه الاضطهادات يعذبن عذابا اليما بخلاف الرجال الذين كانت تقطع رؤوسهم بدون تعذيب ٠

ولشدة الأهوال التى لاقاها المسيحيون انتشرت الأخبار بينهم حينئذ بأن المسيحيين قتلوا فى كل العالم أجمع وعملت السيوف فى النصارى فلم ينج منهم الا من لجأ الى الجبال واختفى فى المغائر ٠



« بقايا الشهداء فى قلب الأرض »

الفصل الثانى

مشاهير الشهداء

---

(١) بوتامينا الفتاة العفيفة وأمها مارسلا وباسيليدس الجندى :

كانت بوتامينا هذه أمة حسناء وقد ربتها أمها مارسلا على قواعد الايمان ووضعتها تحت ارشاد العلامة أوريجانوس فتمم تهذيبها ٠ ولما كانت بوتامينا فتاة بارعة الجمال أغرم بها مولاها الذى كانت تخدمه

وحاول مرارا أن يغريها تارة بالوعد وطورا بالوعيد ليتمكن من افساد بكارتها ولكنها قاومت اغراءه بعزم وثبات • فلما خاب أمله منها احتدم غيظا عليها وعمد الى اهلاكها فشكاها الى والى الاسكندرية بأنها مسيحية ووعده بمبلغ وافر من المال ان استمالها الى رغباته القبيحة وطلب اليه أن لا يحكم عليها بالعذاب الا ان استمرت مصرة فى ابائها •

فأحضرها الوالى الى المحكمة واستعمل معها جميع الوسائط الممكنة لاغرائها ولكنه لما رأى ان اجتهاداته المتكررة لم تنجح مطلقا وأن بوتامينا ثابتة على عزمها رغم ما هددها به من العذاب حكم عليها أخيرا بأن تطرح فى قدر مملوء من الزيت المغلى اذا أصرت على عصيان مولاها • فأجابت القديسة الوالى قائلة : « استحلفك بحياة الملك الذى تجله أن لا تسمح بنزع أثوابى كى لا أظهر عريانة وعوضا من هذه النعمة التى تقتضيها منى فضيلة الاحتشام ارضى أن أنزل رويدا رويدا فى القدر بأثوابى لكى تدرك مقدار الصبر الذى يمنحه لى مخلصى يسوع المسيح وأنت لا تدريه » فقبل الوالى طلبها وسلمها للجلادين وبينما كانوا سائرين بها الى موضع العذاب تعرض لها أراذل الناس بالكلمات الدنسة فزجرهم أحد الذين كانوا مكلفين بحراستها ويدعى باسيليدس وحافظ عليها حتى وصلت الى المكان فلما شاهدت منه ذلك قالت له « تشجع فانى سأصلى من أجلك حينما أكون فى دار سعادتى بعد الموت » •

وحالما فرغت من كلامها وضعت رجليها فى الزيت المغلى وأجرى عليها الجلادون نكالا بطيئا استقام ثلاث ساعات وهى تظهر صبرا مدهشا حتى تيقنوا أنفسهم بأن نعمة يسوع المسيح ترفع خدامه فوق أطول عذاب وأشده• وما وصل الزيت الى قمة رأسها حتى أسلمت روحها فى يد القدير • وماتت أمها مارسلا أيضا حريقا فى ذلك الوقت نفسه •

أما باسيليدس الجندى فقد أثرت عليه أحوال تلك الفتاة التعيسة ولا سيما سجاياها الحميدة واحتمالها العجيب فآمن بمخلصها وقد انجزت القديسة وعدها له عندما طلب منه أحد الجنود رفقائه أن يحلف له بالاله فامتنع قائلا « أنا مسيحى » فظنوه يمزح أولا لكنهم لما رأوه ثابتا على الاعتراف بالايمان قبضوا عليه وأتوا به الى القاضى فطرحه فى السجن فأتى المؤمنون يفتقدونه ومنحوه سر العماد ولما سألوه عن كيفية قبوله الايمان أجاب « ان القديسة بوتامينا ظهرت له فى رؤيا بعد موتها بثلاثة أيام وبيدها أكليل وضعته على رأسى وهى تقول لى « ستكون معى بعد قليل » وفى اليوم الثانى قطع رأسه بعدما اعترف بيسوع المسيح اعترافا مجيدا •

وروى ترتوليانوس وأوريجانوس أن عددا عظيما من الوثنيين غير هذا الجندى تنصر حينئذ بواسطة مابدا من الصفات الحسنة من القديسة

بوتامينا ومنهم أرنوبيوس أحـد علماء البـلاغة المشهورين بين كتاب الأجيال الأولى الذى شاهد القـديسة بمجد فى حلم ٠ وقيل أنهـا ظهرت لـكثيرين فآمنوا بالمسيح ٠

(٢) صــوفيا :

وفى أيام البابا أومانيوس البطريرك السابع اشتد الاضطهاد على القبط فاستشهد منهم كثيرون ٠ أشهرهم القديسة صوفيا من منف ٠ وهذه القديسة هى التى نقل القيصر قسطنطين الكبير جسدها الطـاهر الى القسطنطينية وشاد لها الكنيسة الشهيرة باسم (اجيا صوفيا) أى (القديسة صوفيا) ٠

القسم الرابع

البــدع والانشقاقات

(١) المدرسة الوثنية الفلسفية

(٢) تطرف بعض طلبـة المدرسة اللاهوتيـة فى التفنن

(٣) أمونيوس السقاص (٤) باسيليدس

(٥) كربوكراتس (٦) فالنتينوس

(٧) الخلاف على تعييد الفصح

---

(١) المدرسة الوثنية الفلسفية :

لما ازدهرت المدرسة اللاهوتية ونمت النصرانية بفضـل جهاد أولئـك العلماء الأفاضل الذين انجبتهم تلك المدرسة وكانوا ركنا متينا لدين المسيح دبت الغيرة فى قلوب الوثنيين فعملوا على مبـاراة المسيحيين وأنشأ رئيس فلاسفتهم أمونيوس السقاص الذى يظن بأنه أحد مبتدعى المسيحيين المدرسة الوثنيــة الفلسفية وخصصها لتعليم الفلسفـة الأفلاطونيـــة الجديدة وهى خلاصــة مذهبى أفـلاطون وأرسطو وفتحت لهـذه المـدرسة خزائن مكتبـة الاسكندرية المملوءة بالمصـنفات الموضـوعة من علمـاء المصريين واليونان وأخذوا يجهدون أنفسهم فى توسيع دائرةعلومها فاشتغلوا فى تكثير المجلدات وزيادة التآليف فخصص قسم من النساخ لتدوين ما يمليـــه عليه المؤلفون المعاصرون واهتم قسم آخر بنسخ مايقفون عليه من كتب فلاسفة الوثنيـــة القدماء ارادة زيادة انتشاره ليسهل على الجميع الاطلاع عليها ٠

وظهرت حينئذ كتب عديدة جدا ضد الديانة المسيحية غير أنها لم تأت بثمرة لأصحابها لأن المسيحية كانت آخذة فى التغلب رغم كل مقاومة ٠

وقد عظم شأن تلك المدرسة فى مدة مؤسسها وخليفتيه بلوتينوس وبرفيروس ثم جاء جامليك فأخذ يقاوم تعاليم المدرسة المسيحية فابتدأت من ذلك الحين تتحول من تعليم الفلسفة الراقية الى أعمال السحر والشعوذة وكان ذلك فى أيام القيصر يوليانوس الجاحد من سنة ٣٦١ ـ ٣٦٣ م الذى انهضها بعد سقوطها ٠ ثم أخذت فى الانحطاط حتى اندثرت فى حكم القيصر يوستنيانوس سنة ٥٢٩ م ولم يرأسها بعد جامليك سوى نيروكلوس وداماسوس ٠

(٢) تطرف بعض طلبة المدرسة اللاهوتية فى التفنن :

قد ظهر فى مصر فى هذا القرن كثيرون من المبتدعين الذين كانوا يدرسون بمدرسة الاسكندرية وجرهم الى الضلال تفننهم وقتئذ فى الباس القواعد الدينية ثوب المجاز والرمز ومحاولتهم مزج أسرار الديانة الوثنية المصرية وغوامض رموزها بقواعد الايمان المسيحى البسيطة مجتهدين فى اذاعة تعليمهم ومذهبهم فى الاسكندرية فكانوا يرغبون أن يكونوا مسيحيين ويتوشحوا بثوب الفلاسفة ورتبتهم واسمهم ٠ وكانوا يعتقدون أن الفلسفة الحقيقية موهبة الله العظمى الشافية منتشرة فيما بين كل شيع الفلاسفة ويجب على كل عاقل ولا سيما المعلم المسيحى أن يجمع هذا النثر من كل الجهات ويحامى بها عن الديانة ٠

وهؤلاء الأشخاص لقبوا بالأكلتكتيين « المنتخبين » واستخاروا تعاليم أفلاطون واعتقدوا بأكثر تعاليمه عن الله والنفس والانسانية والعالم ٠ الا أن أكثر هؤلاء ضلوا فى تعاليمهم ضلالا مبينا ومنهم :

(٣) امونيوس السقاص :

يقال انه ولد وتهذب مسيحيا ويحتمل أنه فقط كان مدعيا بالمسيحية كل حياته ٠ وكان يرغب أن يضم جميع الأديان بما فيها الدين المسيحى الى ديانة واحدة ليعتنقها الجميع وحاول أن يجعل قواعد هذه الديانة مرضية لكل أهل الأديان المختلفة فحول كل تاريخ الآلهة الوثنية الى تشابيه واستعارات مثبتا أن ما يكرمه العامة والكهنة بألقاب آلهة انما هم خدام الله الذين يليق بنا ويجب علينا أن نقدم لهم الخشوع حتى لا يبعدوا عن الخشوع الأعظم اللائق بالله تعالى ٠ وسلم أيضا بأن المسيح كان انسانا خارق العادة وحبيب الله وعارفا بعمل الله بنوع مدهش وأنكر أن المسيح أخذ فى ملاشاة عبادة الأرواح خدام العناية الالهية (آلهة الوثنيين) بل أراد أن يزيل ما تلطخت به الأديان القديمة وتلاميذه أفسدوا ودنسوا مبادىء معلمهم ٠

(٤) باسيليــدس :

وهو أشهر الغنوسطيين كان من الاسكندرية ونشر ضلاله فيها آخــذا عن سيمون الساحر ومنتــدر الهرطوقى واخترع خرافات أكثر سخافة من غيرها مدعيا أن ابراساس (الآب) خلق نوس (الفهم) وهذا خلق لوغوس (الكلمة) وهذا خلق فرونايس (الفطنة) وهى برأت صوفيا وديناميس (الحكمة والقدرة) اللتين فطرتا الملائكة وهم خلقوا السماء الأولى وبعض ملائكة آخرين وهؤلاء خلقوا أيضا سماء ثانية وعلى هذا النسق اتصلوا الى أنهم صاروا ٣٦٥ سماء بمقدار أيام السنة ومقدار مجموع حروف كلمــة ابراكساس اليونانية ٠

وكان يقول ان اله اليهود كان رئيس ملائكة من الرتبــة الثانيــة ٠ ولمــا كان يرغب فى الاستيلاء على جميع القبــائل ثار عليه جميع الرؤساء فأرسل الله نوس ابنه البكر لينقــذ النــاس من الملائكة الذين خلقوا العالم٠ وقال عن نوس هذا الذى هو يسوع المسيح أنه قوة غير هيولية وكان يتشح ماشاء من الهيئــات ولهذا لمــا أراد اليهود أن يصلبوه اتخذ صورة سمعان القروى وأعطاه صورته فصلب سمعان لا يسوع الذى كان يسخر باليهود ٠ ثم عاد غير منظور وصعد الى السماء ٠

وروى ابن العبرى المؤرخ أنه قال باكرام الحية وتعظيمها لأنها المشيرة على حواء بالمجامعة ولولاها لمــا تنــاسل النــاس ٠ قيل وكان باسيليدس يفر من الاستشهاد وينكب على مبــاشرة السحر وينغمس فى كل نوع من الشبق ٠ وكان يدعى بأنه أخذ تعليمه عن متى الرسول وغلوسيوس تلميذ بطرس الرسول ٠ وعرض مذهبــه على الناس بوجه سرى مبهم فتبعــه قوم كثيرون واستمر مذهبه هذا الى أواخر القرن الرابع ٠

(٥) كربوكراتس :

ويسمى أتباعه نيوستيثيين أعنى معلمين ومستنيرين وكان يزعم أولا أن يسوع المسيح كان ابن يوسف ومولودا منه كعامة النــاس ومتميزا عنهم بقوته فقط وأن الملائكة خلقوا العــالم وأنه يلزم من أثر البلوغ الى الله أن يتمم جميع أفعال الشهوة المتمردة التى يجب أن تطاع فى كل شىء مجــدفا بقوله أنها ذاك العدو الذى يأمر الانجيل بأن نصطلح معه (مت ٥ : ٢٥) وكان يقول انه باحتقــار شرائع الملائــكة الأشرار كافة على هذا الأسلوب تتحصل قمة الــكمال ٠ وأن النفس تنتقل الى أجساد مختلفة الى أن ترتكب جميع الأفعال الأكثر شناعة ٠ وكان يسلم بوجود نفسين وأن الأولى منهما دون الثانيــة تــكون خاضعة للملائــكة المتمردين ٠ وأتباع هذا الهرطوقى كانوا يدعــون مسيحيين ويميزون أنفسهم عن غيرهم بوسمهم طرف أذنهم

الأدنى بالنار أو الحديد وكانوا يسجدون لصور تلاميذ فيثاغورس أو أفلاطون أو غيرهما من الفلاسفة مع صور المسيح سواء ·

(٦) فالنتينوس :

لما لم يحصل على درجة الأسقفية التى كان هائما بها انشق من الكنيسة وقد أنكر تجسد المسيح من السيدة العذراء وزعم أنه أتى بجسده من السماء ومر بجسد مريم كما يجرى الماء من القناة ، وعلم بتأثير متصل للارواح بالانسان فمتى ازدادت الأرواح فى جسده جعلت جميع أدناس الحواس جائزة وكان يقسم الناس الى ثلاث مراتب لحميين وحيوانيين وروحيين ويقول انه هو وأتباعه من الروحيين ولذا كان بمعزل عن الاضطرار الى الأفعال الصالحة لكونهم دون ريب فى قمة الكمال ولأنهم متأكدون نوال السعادة الأبدية وكان يزعم أن اللحميين ممنوعون من الخلاص ومنتخبون للجحيم ·

وتتلخص تعاليم هذا الضال بأن البليروما (اسم غنوسطى لمسكن الله) فيه ٣٠ أيونا نصفهم ذكور ونصفهم اناث وغيرهم أربعة غير ممتزجين هم أورس (حارس حدود مسكن الله) والمسيح والروح القدس ويسوع · ثم ان صوفيا (الحكمة) أصغر الأيونيين بينما هى مشتاقة لادراك طبيعة اللاهوت الأعظم ولدت بنتا اسمها حكيموث (العلوم) التى طردت من مسكن الله الى حكام المادة الضخمة الغير المنتظمة فبمساعدة يسوع ولدت ديميارغوس (صانع) بانى كل الأشياء وهذا أفرز المادة اللطيفة الحيوية من المادة الكثيفة فصنع من الأولى السموات ومن الثانية الأرض ومزج البشر من نوعى المادة وأمه حكيموث أضافت لهما جوهرا ثالثا سماويا روحانيا ·

الا أن ديميارغوس داخلته الكبرياء ورام أن يحسبه البشر الها وأرسل لليهود أنبياء ليظهروا لهم أولوهيته وتبعه كثيرون من الملائكة الذين تسلطوا على أجزاء العالم المخلوق وادعوا ادعاءه · فأرسل المسيح وهو مركب من جوهر حيوى روحى ليبطل تمردهم آخذا جسدا أثيريا من السماء ومر به من جسد العذراء كما تجرى المياه من القناة وبه اتحد يسوع أعظم الأيونيين وقت عماده · فلما رأى ديميارغوس أن يسوع يسعى فى تقويض سلطانه أمر بصلبه غير أنه لما قبض عليه تركه المسيح ونفسه العاقلة وعلق على الصليب نفسه الحاسة وجسده الأثيرى ·

(٧) الخلاف على تعييد عيد الفصح :

كان يسمى يوم تذكار موت المسيح وتكفير الشعب « الفصح » وسمى كذلك لأن المسيح صلب يوم حفظ اليهود فصحهم · ولم يكن يعيد

سنويا فقط بل كان يعيد ذلك التذكار الخلاصى كل احد • فكان يوم الأحد يعتبر أيضا من جميع المسيحيين يوم فرح وبهجة فيقضونه بالصلاة وقوفا وبلا صوم • غير أن الفصح السنوى كانت له شعائر خصوصية فى قلوب المؤمنين وكان يحتفل فيه بتذكار الالام والقيامة معا •

غير أن فى ذلك الحين قام خلاف شديد بشأنه بين مسيحى آسيا الصغرى وكيليكيا وسوريا وبين النهرين وبين غيرهم من المسيحيين • فكلاهما صام الأسبوع المسمى أسبوع الآلام الذى مات فيه المسيح وفيه حفظوا عيدا مقدسا أو أكلوا خروفا كما كانت تفعل اليهود تذكارا لعشاء مخلصنا الأخير • غير أن مسيحى آسيا وما يجاورها كانوا يحفظون الفصح فى اليوم الرابع عشر من شهر نيسان العبرى فى الوقت الذى أكل اليهود فصحهم فيه • وفى اليوم السادس عشر حفظوا تذكار قيامة المسيح فى أى يوم من الأسبوع اتفقا أعنى من دون مراعاة يومى الأحد والجمعة • فكانت تعتبر أهمية اليومين فى عددهما الشهرى ١٤ و١٦ نيسان اللذين فيهما بالتمام تألم وقام لا فى غيرهما • وقالوا انهم أخذوا هذه القاعدة من الرسولين يوحنا وفيلبس وعضدوها أيضا بمثال المسيح ذاته الذى عمل فصحه مع اليهود • وكانوا يعتبرون يوم الآلام من وجه عقائدى يوم تحرير من العبودية وخلاص فكان يعد عندهم يوم فرح ويمنعون بعد انقضائه الحزن والصوم معا •

ولكن الكنيسة المصرية لم تعتبر الأهمية فى عدد اليوم من الشهر بل فى اسمه الأسبوعى اعنى الجمعة والأحد • فكانت ترى من الضرورى أن يكون تذكار الآلام يوم الجمعة وتذكار القيامة يوم الأحد • ولهذا السبب كانت فى السنين التى لا يتفق أن يكون اليوم الرابع عشر من نيسان يوم جمعة تعيد الآلام أول يوم جمعة بعده ثم القيامة يوم الأحد واسندوا هذه القاعدة الى بطرس وبولس الرسولين قائلين أنهما أصلها • وكانوا يعتبرون اليوم على وجه تاريخى يوم حزن ولم يسمح عندهم بحل الصوم قبل تذكار القيامة وقد وافق أساقفة رومية وانطاكية وأورشليم اذ ذاك على أن يتبعوا ما اتبعه مسيحو الاسكندرية بناء على ماكتبه اليهم البابا ديمتريوس فى ذلك •

فكانت الكنائس متفقة على ضرورة تعييد الفصح ولكنها اختلفت فى تعيين اليوم الذى يعيد فيه حتى كان بعضها يعيد بعد الآخر بأسبوع أحيانا • وبين سنة ١٦٠ و١٦٣ م سافر القديس بوليكربوس أسقف أزمير الى رومية لينهى بعض مسائل من جملتها مسألة الفصح آملا باقناع أسقف رومية نيشيوس العاشر فى أساقفتها فى أن تعيد كنيسته الفصح مثل كنائس آسيا • وبعد جدال طويل لم يتمكن أحدهما من اقناع الآخر • غير أن هذا الخلاف لم يكن مكدرا لسلامة المسيح بل كانت المحبة مستقرة فى القلوب حتى ان نيشيوس تنحى للقديس بوليكربوس ليجرى تقديس القرابين •

ونحو ختـام هذا القرن ارتأى فيكتور أسقف روميـة أنه يجب الزام المسيحيين الذين فى آسيا بالشريعـة والأوامر لـكى يتبعوا قانون أكثر العالم المسيحى • وكان وقتئذ البابا ديمتريوس على الكرسى الاسكندرى وناركيسس فى أورشليم وباكشيلس فى كورنثوس وبوليكراتس فى أفسس • فعقدت حينئذ مجامع كثيرة مكانيـة اجتمعت فى قيصرية وأورشليم والبنطس وغلاطيـة وكورنثوس وروميه وبين النهرين وغيرها وجميعها قررت رأيا واحدا وهو أن تراعى عادة تعييد الفصح اقتـداء بالـكنيسة الاسكندرية أى القيامة يوم الأحد وأن لا يحل الصـوم الا فيـه لأن أعظم المسيحيين استحرم حفظ يوم آخر من أيام الأسـبوع غير يوم الرب تـذكارا لقيـامة المسيح • وأرسلت القرارات الى جميع الـكنائس •

غير أن كنائس آسيا وفى مقدمتها كنيسة أزمير وأسقفها بوليكراتس لم ترض بأن تغير عادتها القديمة وأجابوا أسقف رومية بحدة بأنهم لايعدلون عن وضع سلفائهم المقدس • فاذ تهيج فيكتور من هذا العزم منعهم من شركته وشركة كنيسته وليس من شركة الـكنيسة الجامعة لأنه لم يكن قادرا على ذلك أى أنه قال انهم ليسوا مستحقين أن يسموا اخوته • ولكن بوليكراتس جمع مجمعـا مؤلفا من خمسين أسقفا كانت نتيجـة محاوراته رفض طلب فيكتور واعتبر عمله تعديا• ثم كتب بوليكراتس لفيكتور رسالة سنة ١٩٧م استشهد فيهـا على صحة عقيدتهم بفيلبس الرسول وابنتيـه ويوحنا الحبيب وبعض الشهداء والقديسين وختمها بقوله « ان الذى يقضى سبعين سنة فى مطالعـة الـكتب المقدسة والذى رأى بعينه رسل الرب المشتتين فى البلدان للتبشير • لا يبالى بالتهـديد ولا بالوعيد وهو يعلم انه يجب أن يطاع الله أكثر من الناس » ا هـ •

ولما استلم فيكتور هـذه الرسالة حتى أخـذ منه الحنق كل مأخذ فوقع الحرم على بوليكراتس ونادى بهرطقـة كنائس آسـيا وبضلالها ثم كتب بذلك الى جميع الـكنائس المسيحية • غير أن الأساقفة الذين لم يكونوا حتى هذا التـاريخ قـد رأوا مثل هـذا التهور فى كنيسة الله كنيسة الصلح والسلام حملوا حملة شعواء على فيكتور بأن أرسلوا له رسائل مرة يوبخونه فيهـا على سوء صنيعه ومن أشهر هذه الرسائل رسالة أيرينـاوس التى خاطبـه فيهـا بقوله « ان الاختـلاف فى يوم تعييـد الفصح أمر قـديم فى الـكنيسة وليس بحـديث كما تظن • بل هو قائم فى عهد أسـلافنا الـكرام الذين لم يقطعوا لذلك أسـباب المودة والاخاء • واعلم أن الأساقفة الذين تولوا قبلك زمام الـكنيسة الرومانية كانوا يشتركون فى الصلاة مع الـكنائس الأخرى التى كانت تخالفهم فى ليلة العيـد دون أن يحصـل نزاع مطلقـا ودون أن يفصموا مثلك رباط الألفة والمودة » اهـ •

وهكذا تمكن أيرينـاوس بواسطة مكاتيب محكمة ارسلهـا الى فيكتور وغيره من الأساقفة الذين لم يقطعوا علاقاتهم مع شركة الـكنائس الآسيوية

أن يخمد نار الخلاف ويوقف سيره وامتداده واضطر فيكتور أن يرضخ لحكم الأساقفة واذعن لصوت الكنيسة العام وعاد الى شركته مع كنائس آسيا مع مخالفتها له فى موضوع **الفصح** ٠

وكتب أساقفة آسيا رسالة مستطيلة يبررون أنفسهم فيها وهكذا استمر كل من الفئتين على عادته المختصة به الى أن أبطل عادة مسيحى آسيا المجمع النيقاوى فى القرن الرابع بأن أناط بالأساقفة الاسكندريين تحديد يوم عيد الفصح فظلوا يعينونه لجميع الكنائس المسيحية قرونا طويلة وترتب من ذلك الحين أن يصدر بابوات الاسكندرية رسالة فى كل عيد فصح يرسلونها لجميع الكنائس المسيحية عموما والمصرية خصوصا فى اليوم الذى يقع فيه عيد القيامة من كل سنة ٠ وكانت لهذه الرسائل أهمية عظمى حتى عند غير المسيحيين لما تضمنته من الحساب الفلكى الدقيق الذى جرى عليه المصريون القدماء بالضبط ولذلك عهد بكتابتها الى بطريرك الكنيسة القبطية المصرية وحده لعلمه بهذا الحساب التاريخى علما تاما وكانت فاتحة هذه الرسائل موعظة بليغة تقرأ فى الكنيسة جهارا ٠ ولا تزال الكنيسة القبطية سائرة على تلك القواعد التى وضعها رؤساؤها لكنائس العالم أجمع ٠ وقيل أن الذى وضع ذلك الحساب المشهور بالأبقطى (١) هو بطليموس الفلكى الفرماوى صاحب كتاب المجسطى فى عهد البابا ديمتريوس فنسب اليه ودعى بحساب الكرمة ٠

فلو كانت كل الكنائس اعتقدت فى القرن الأول ما تعتقد به الكنيسة الرومانية الآن من رياسة باباواتها وعصمتهم لما انتظرت حكم المجمع المسكونى الأول لتخضع له وتعمل بأوامره بل لخضعت للبابا الرومانى المعصوم صاحب السلطان المطلق ٠

ولبثت الكنائس سائرة على هذا الترتيب حتى سنة ١٥٨٢ م حين وضع اغريغوريوس الـ ١٣ أسقف رومية تقويمه الغوريغورى الذى أدخل به اصلاحا على التقويم اليوليانى ولذلك صارت الطوائف الغربية التى سارت على التقويم الغريغورى تعيد الفصح بعد اكتمال البدر الذى يلى الاعتدال الربيعى مباشرة بدون نظر الى تاريخ ذبح الخروف أما الطوائف الشرقية فظلت باقية على العادة الأولى الى اليوم ٠

ففى بعض السنين يتفق أن يكتمل أول بدر بعد الاعتدال الربيعى فى الوقت الذى يأتى فيه ذبح الخروف فتعيد جميع الطوائف المسيحية فى يوم واحد ٠ ولكن فى سنين أخرى يكون اكتمال البدر قبل ذبح الخروف فيأتى عيد الفصح عند الغربيين متقدما على الشرقيين ٠ ومدة هذا التقدم تتراوح بين

---

(١) الأبقطى هو عمر القمر فى أول توت من كل سنة ٠

أسبوع على الأقل وخمسة أسابيع على الأكثر ولا يأتى عيد الشرقيين قبل عيد الغربيين مطلقا ٠

فالغرض من حساب الأبقطى ٠ أنها هو تعيين يوم ذبح الخروف عند اليهود ٠ ومنه يمكن تعيين عيد الفصح والأعياد المرتبطة به كعيد الصعود وعيد العنصرة وذلك لأنه بين السنة التوتية القبطية والسنة اليهودية فرقا نشأ من أن السنة الأولى شمسية والسنة الثانية ذات أشهر قمرية ولكى يقع الفصح اليهودى دائما بعد الاعتدال الربيعى يضيف اليهود شهرا على سنتهم كل سنتين أى أنها فى السنتين الأوليين تكون ١٢ شهرا وفى الثالثة ١٣شهرا وبذلك جعلوها سنة شمسية ولو أن شهورها قمرية (١) ٠

---

(١) خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر ص ٢٠١ و ٢٠٢ ٠

القرن الثالث

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) ياروكلاس
(٢) ديونيسيوس
(٣) مكسيموس
(٤) ثاؤنا

---

(١) ياروكلاس ـ البطريرك الثالث عشر :

ولد فى الاسكندرية من أبوين وثنيين صارا فيما بعد مسيحيين وأدخلا ابنهما ياروكلاس فى المدرسة اللاهوتيـة ليدرس العلوم بها فتتلمذ للعـلامة أوريجانوس وأظهر مهارة فائقة ونبوغا عظيما حتى خصه البابا ديمتريوس بعنايته ورسمه شماسا فقسا ثم عينه مديرا لتلك المـدرسة وسلمه مقاليدها بعد طرد أوريجانوس منها · وقد أوكل اليه القيام بالوعظ فوق منبر الكنيسة المرقسية بالاسكندرية فاجتذب برقة أسلوبه وحسن سلوكه عددا غير قليل من شبان الوثنيين · وعقب وفاة البطريرك ديمتريوس كان قد حاز صـيتا بعيدا فى العلم والعمل فأجمع الـكل على توليته منصب البطريركية ورسموه فى شهر بابه سنة ٢٣٢ م فى عهد ساويرس قيصر ·

ولـكنه اضطر فيما بعد أن يهجر الاسكندرية بسبب الاضطهاد الذى أشعل نيرانه القيصر مكسيموس ضد المسيحيين · ولم يرجع اليها الا بعد أن هدأت القلاقل ونامت الفتن وتقوت المسيحية وكثر عدد المنضمين اليها وأوجد عدة ابروشيات جديدة حتى أقام عشرين أسقفا على معظم مدن القطر المصرى واستمر فى جهاده مدة ١٦ سنة وشهرا واحدا و٢٦ يوما وتوفى فى ٨ كيهك

وبالنسبة لشدة اعتبـار الـكهنة والشعب لهذا البطريرك ومحبتهم له دعوه (بابا) أى (جـد) الاسم الذى لم يسم به أحـد قبـله من بطـاركة المسيحيين · ولا ندرى كيف يتبجح الغربيون ويفوهون بدون خجل بأن هذا اللقب هو خاص بأسقفهم دون غيره وشهادة التاريخ تنقض مدعاهم · قال صاحب « تاريخ الانشقاق » ج ١ ص ٢٩ ـ ٣١ « وأما أساقفة عاصمات

الولايات والأقاليم أعنى الأولين فى المطارنة فكانوا يسمون (اكسر خوسة الولايات) أو أساقفة أولين • غير انه كانت لبعضهم أسماء خاصة أيضا منذ القديم • فكان أسقف أنطاكيا يسمى « بطريركا » • وأسقف اسكندرية « بابا » وأسقف رومية « أسقفا » أو أسقف المدينة (أى رومية) أو حبرا (وهو اسم مأخوذ عن استعمال قديم للكهنة الوثنيين فى رومية) وأحيانا كان يسمى « بابا » أما كلمة « بابا » فمن الواضح أنها ليست كلمة لاتينية ولا غربية بل هى شرقية محضة • وأول من سمى بها أسقف اسكندرية من أبناء أبروشيته فى القطر المصرى وفى اسكندرية عينها » أهـ •

وقال افتيشيوس بطريرك الملكيين باسكندرية (وهو سعيد بن بطريق من رجال القرن العاشر) فى تاريخه طبعة سنة ١٦٦١ « ان كلمة « بابا » مركبة من « أب آبا » ثم أدرجت الى « أبابا » وتخففت الى «بابا» وانتقل الاسم « بابا » من كرسى اسكندرى على كرسى رومى » أهـ وقال المقريزى المؤرخ المسلم فى كتابه « دخول قبط مصر فى النصرانيـة » « وكان بطرك الاسكندرية يقال له البابا من عهد حنانيا هذا أول بطاركة الاسكندرية الى أن أقيم ديمتريوس وهو الثانى عشر من بطاركة الاسكندرية • وصار الأساقفة يسمون البطرك الأب • والقسوس وسائر النصارى يسمون الأسقف الأب ويجعلون لفظة « البابا » تختص ببطرك الاسكندرية ومعناها « أب الآباء » ثم انتقل هذا الاسم من كرسى الاسكندرية الى كرسى رومه » اهـ (مجانى الأدب للجزويت ج ١ ص ٢٠٢ و٢٠٣) •

ولقد يدعى الغربيون أن تسمية أسقف اسكندرية « بابا » منحت من أسقفهم كليتنوس للقديس كيرلس فى المجمع الثالث المسكونى اكراما له ومن ذلك العصر أخذ بطاركة اسكندرية يلقبون باباوات • وفساد هذا الادعاء ظاهر لأن التاريخ يشهد بأن بطاركة الاسكندرية كانوا يسمون باباوات لا قبل المجمع الثالث والثانى فقط بل قبل الأول أيضا فان هذا اللقب أطلق على ياروكلاس الذى كان قبل كيرلس بـ ١٨٢ سنة وأطلق على اثناسيوس الذى كان قبل كيرلس أيضا بـ ٨٤ سنة • وقد امتد لقب بابا الى قرطجنة قبل رومية بدليل أن كرنيليوس أسقف رومية القديمة صدر معظم رسائله التى بعث بها الى قبريانوس أسقف قرطجنة فى أوائل القرن الثالث بقوله « السلام من كرنيليوس الى البابا قبريانوس » ومن ثم امتد ذلك اللقب الى أسقف رومية فى القرن الخامس بشهادة البابويين أنفسهم كما جاء بص ٣٤ من كتاب « تاريخ الكنيسة الاسكندرية » للبطريرك كيرلس مقار مانصه « ان الكنيسة منذ القرن الخامس قد جعلت لقب « بابا » خاصا بأسقف رومية » أ هـ •

والحقيقة أن أسقف رومية لم يدع حق ملكية لقب « بابا » الا فى القرن

الحادى عشر حيث عقد غريغوريوس السـابع أسقف رومية مجمعا مكانيا حرم فيـه كل أسقف يطلق على نفسه أو على غيره ذلك اللقب • وأما قبل هذا التـاريخ فلم يتجاسر أسقف رومانى يحصره فى شخصه بدليل أنه فى القرن السادس كتب فرتوناتوس أسقف بواتييه بفرنسا الى كل من فيلكس أسقف نانت وافروتيوس أسقف ثور (وكلاهما بفرنسا أيضا) رسالة لقبهما فيهـا « بالبابويين الطاهرين » وفى القرن السابع ورد اسم قورش (دخيل على الـكرسى الاسكندرى) مسبوقا بلفظة بابا وذلك من ضمن أعمال المجمع المنعقد بالقسطنطينية سنة ٦٨٠ م •

قال مؤلف كتاب مختصر تاريخ الأمة القبطية ص ٦٠ « أما اذا كان حبر رومية المذكور (غريغوريوس السابع) قوى فيما بعد على أن ينتزع لقب « بابا » من اخوته الغربيين ويحصره فى شخصه فانه لم يقو ولن يقوى على انتزاعه من حبرنا الاسكندرى • ونظرة واحدة الى جميع الخولاجيات القبطية (سواء كانت بين أيدى الأرثوذكس أو بين أيدى اخوانهم الكاثوليك) تكفى لتبرهن لنا على أن اسم الحبر الاسكندرى لايذكر حتى اليوم الا مشفوعا بلقب بابا متبوعا بالقاب ثلاثة • ففى الثلاثة القداسات وفى صلوات بخورى عشية وباكر بل فى جميع طقوس البيعة القبطية ينبه الشماس الشعب عند « أوشية الآباء » قائلا « صلوا من أجل رئيس كهنتنا أنبا فلان بابا وبطريرك وسيد ورئيس أساقفة مدينة الاسكندرية العظمى » أهـ (١) •

ولا نظن الكاثوليك فيما بعد يتجاسرون على سلب القاب غيرهم • ولكن اذا كنا نراهم قد سلبوا لقب الرب يسوع الأساس الوحيد والرأس الفريد للـكنيسة وجعلوا هذا اللقب وقفا على أسقفهم فلا عجب اذا تهجموا أيضا على القاب سواهم من رؤساء المسيحية •

(٢) ديونيسيوس ـ البطريرك الرابع عشر :

ولد بالاسكنـدرية فى أواخر القرن الثـانى وكان عابدا للأوثان على رأى مذهب الصابئة (٢) وكان مقداما وحكيما فبينما هو جالس فى بعض الأيام اذ مرت به عجوز أرملة ومعها كراسـة مكتوبة من رسـائل بولس الرسول تريد بيعهـا • فاشتراها منها وأخذ يتأمل فيها • ولمـا فهمها جيدا أعجب بهـا للغـاية ووقعت عنـده موقعـا حسنا واعتبرها أفضـل من كل

---

(١) ان أول من أطلق لقب بطرك على باباوات الاسكندرية هو القديس أثناسيوس الكبير حيث كتب عن اسكندر بابا الاسكندرية وسماه بطريركا •

(٢) عبادة الـكواكب والنجوم •

ما قرأه من كتب الفلاسفة · ثم طلب من المرأة أن تأتيه بمثل هذه الكراسة وهو يدفع لها ما تطلب من الثمن لأنه رأى أنه قد بقى من الكتاب شيء آخر· فذهبت المرأة وأحضرت له ثلاث رسائل أخرى وقدمتها اليه فأخذها وبدأ يطالعها وهو مندهش ومسرور جدا لجلال اللفظ وسمو المعنى ·

فشعرت المرأة بأن نعمة الله عملت فى قلبه فقالت له اذا شئت أيها الفيلسوف أن تطلع على كثير من مثل هذه الأقوال فعليك بالذهاب الى الكنيسة حيث تجد من يعطيها لك مجانا · فمضى لساعته الى الكنيسة وتواجه مع شماس يدعى أغسطين فدفع له رسائل بولس كاملة فقرأها وحفظها من قوة ذكائه ومضى الى البطريرك ديمتريوس ونال منه سر المعمودية ثم انخرط فى سلك المدرسة اللاهوتية وتتلمذ لأوريجانوس العلامة · وفى وقت وجيز نبغ فى العلوم المسيحية كما كان ماهرا فى العلوم الفلسفية · وكان له تلاميذ كثيرون يتعلمون منه الفلسفة الوثنية فأثر عليهم بأقواله وجعلهم يتبعون ديانته الجديدة ويدرسون عليه العلم المسيحى الحقيقى ·

وقال الانبا ساويرس المؤرخ « انه جعل بيته بيعة ولبثت مدة طويلة تدعى باسمه » · وقال هذا المؤرخ أيضا انه كان اسماء تلاميذه تاودورس وأغريغوريوس وأثناخورس هؤلاء أقاموا معه خمس سنين بعد تقدمته ثم نالوا رتبة الكهنوت وكان له تلميذ آخر اسمه افريقتوس كتب خمسة كتب وتعب فيها فلما سمع بحكمة ياروكلاس البطريرك مضى الى الاسكندرية ليتعلم منه · وكان ديونيسيوس يقول له « اعلم أن كل انسان لا يأكل الطعام الروحانى فهو هالك وقد كنت أنا مشغولا بالطعام الفانى وغافلا عن خبز الحياة الباقى حتى هدانى الرب » واجتذب التلميذ بهذا الكلام الى التعليم السمائى حتى أن من فضله عرف صحة نسبتى المسيح فى انجيلى متى ولوقا ولم يجد فيهما خلفا بالكلية ·

وكان لديونيسيوس بعد قبوله سر المعمودية نشاط وغيرة عظيمين فأحبه البابا ديمتريوس ورقاه الى رتبة الشموسية وبعد وفاته رفع البابا ياروكلاس درجته الى وظيفة قس ثم قلده فيما بعد رئاسة المدرسة اللاهوتية ومناظرة بعض الشئون الرعوية فاستمر فى عمله لا يكف عن أن يعلم ويعظ ويعمد المرتشدين حتى توفى البابا ياروكلاس فاجمعت كلمة المسيحيين على أن يخلفه ديونيسيوس فساموه بطريركا فى شهر كيهك سنة ٢٤٧م فى عهد فيليب قيصر بعد أن ترك فى رئاسة المدرسة اللاهوتية بيروس ·

ولما اضطهد ديسيوس قيصر المسيحيين كان همه موجها بالأخص الى رؤسائهم فشدد على نوابه بأن يقبضوا على رؤساء المسيحيين فى العالم

أجمع فحاول نائب القيصر فى مصر القبض على البابا ديونيسيوس فلم يفلح وتمكن البطريرك من الهروب الأمر الذى لامه عليه جرمانوس أحد أساقفة الأقاليم فأرسل اليه البابا ديونيسيوس الرسالة الآتية يدافع فيها عن سبب هروبه ويوضح الحوادث التى مرت به حيث قال :

الى جرمانوس سلام ·

« وبعد فانى أتكلم أمام الله وأشهده على نفسى أننى لا أكذب فيما أقول بأن هروبى لم يكن طبقا لأرادتى كما لا أدعى أننى أتيته بناء على الهام من الله بل الواقع أنه قبل أن يبتدىء الاضطهاد الذى أثاره ديسيوس قيصر جاء رجل اسمه فرومنتاريوس من قبل حابينوس ليبحث عنى وكنت قد مكثت فى منزلى نحو أربعة أيام انتظر مجىء فرومنتاريوس الذى لم يأت الى بيتى توا بل ذهب ينقب فى كل مكان فى الشوارع والحقول وبقرب الأنهر حيثما ظن أننى اختبىء هنـاك وكأنه ضرب بالعمى فلم يستطع العثور على منزلى لأنه لم يخطر ببـاله قط أننى أبقى فى البيت وقت الاضطهاد · فمرت الأربعة الأيام على هذه الحالة الى أن اذن لى الله أن أترك كمينى وفتح لى طريقا سلـكت فيـه بكيفية عجيبة جـدا فخرجت من المنزل ومعى أتباعى وكثيرون من الاخوة المسيحيين ، وكان ذلك بتدبير من الله وعناية منه ظهرت لنا فى كل الذى تم معنا بعد ذلك وبدونها لم نكن نذكر بشىء أو نفيد شيئا ·

وعنـدما أذنت الشمس بالمغيب كنا قـد قربنـــا من مدينـــة تدعى « اطابوزيرس » (١) أمسكنى العساكر أنا ورفقائى وقادونا الى سجن المدينة ولـكن تيموثاؤس لم يكن موجودا ولم يلق القبض عليه وذلك بعناية الهيـة فانه لـما دخل البيت وجـده قفرا وليس فيـه سـوى خـدام يحرسونه · أما نحن فصرنا عبيدا أرقاء · وقد اتفق أن رجلا من الأرياف رأى تيموثاؤس راكضا تلوح عليـه دلائل الخوف والجزع فسـأله الرجل عن سبب جـريه فأوضح له تيموثاؤس جليـة الخبر · وبعد أن سمع الرجل هذا الأمر ذهب فى طريقه وكان قاصـدا وليمة عرس فلما اسـتقر به الجلوس فى المجلس قص هـذا الخبر على آذان المدعوين لهذه الوليمة فلم يكن الا كلمح البصر حتى نهضوا جميعهم نهضة رجل واحد كأنهم كانوا على اتفاق سواء وجاءوا مسرعين كالسيل الجـارف واندفعوا علينـــا كالنسور وأخـذوا يصرخون ويضجون بأصوات كالرعد القاصف فلما رأى العساكر الذين كانوا يحرسوننا ما جرى ولوا الأدبار واركنوا الى الفرار فانقض أولـئك علينــا انقضاض البواشق بينما كنا نيـاما على أسرة ليس عليهـا شىء من الفراش · ويعلم الله أنى ظننتهم فى بادىء الأمر جماعة من اللصوص جاءوا قاصدين السلب

(١) مدينة صغيرة فى مريوط غربى الاسكندرية ·

والنهب ولذلك ظللت نائما دون أن أبدى حراكا وليس على شىء من الملبوس سوى قميص من الكتان أتدثر به وأما باقى ثيابى فكانت مطروحة بجانبى فقدمتها لهم عندما اقتربوا منى • أما هم فلم يكونوا يقصدون النهب ولا يبغون الثياب بل أمرونى أن أقوم من مكانى وأسير معهم مسرعا الى حيث يريدون • فلما أدركت قصدهم من المجىء الينا أخذت فى البكاء والعويل وتوسلت اليهم متضرعا أن ينصرفوا عنا ويتركوننا وشأننا وقلت لهم أنهم اذا شاءوا أن يعملوا معنا جميلا فليستأذنوا الذين ادخلونى فى هذا المكان ومن ثم يقطعون رأسي • فلما صحت عليهم هكذا كما يشهد بذلك رفاقى والذين اشتركوا معى فى الضيقات اجتهد أولئك القوم أن يأخذونى قسرا رغما منى ولذلك القيت بنفسى على الأرض مطروحا على ظهرى ولكنهم لم يشفقوا على بل أمسكوا يدى ورجلى وجرونى خارجا وتبعنى الذين شاهدوا هذه الحادثة وهم كايوس وفسطس وبطرس وبولس فأخرجونى خارج المدينة وأركبونى حمارا غير مسرج » أهـ •

وأرسل البابا ديونيسيوس برسالة أخرى الى بطريرك أنطاكية يشرح فيها بأسلوب مؤثر شدة ما قاساه المؤمنون من العذاب فى ذلك الاضطهاد وسنذكرها فى الكلام على اضطهادات هذا القرن وكان قصده من ارسال تلك الرسالة لذلك البطريرك أن يستنهض همته حتى لا يجزع من الضيقات ولا يخاف من الموت بل يثبت على محبة الفادى الى النهاية •

ولما مات القيصر ديسيوس سنة ٢٥١ م هدأت قليلا ثورة الاضطهاد فكتب ديونيسيوس الى القيصر غالوس يذكره بما جناه أبوه على المسيحيين فأثر ذلك فى نفس القيصر تأثيرا حسنا • ولكن داء الدفتريا الذى تفشى فيما بعد فى أنحاء المملكة كان وبالا على المسيحيين لأن كهنة الأوثان اقنعوا القيصر بأنه نتيجة غضب الآلهة من انتشار المسيحية • فنشأ عن ذلك اضطهاد هذا القيصر للمسيحيين اضطهادا مريعا للغاية الى أن مات سنة ٢٥٣ م وتولى مكانه فاليريان الذى سالم المسيحيين فى مبدأ الأمر حتى تسنى للبابا ديونيسيوس ان يطوف فى أنحاء القطر المصرى مفتقدا رعيته التى كابدت تتمزق من أهوال الاضطهادات • وقد سام فى سياحته شمامسة وقسوسا ودشن كنائس عديدة وبذل جهده فى تعزية شعبه ومواساته فى مصائبه كما هو شأن الراعى الصالح ولما وصل فى سياحته الى أبروشية (١) ارسينو (٢) فى الفيوم وقف على بدعة ابتدعها أسقفها فى مسألة المسيح الألف سنة فقضى عليه فى مجمع عقده هناك كما سيأتى ذكره فى باب البدع •

---

(١) أبروشية (بفتح الباء وسكون الراء) لفظة يونانية معناها مقاطعة •

(٢) ارسينو هى الآن كيمان فارس المتخربة بحرى مدينة الفيوم الحالية •

وفى ذلك الحين مات فابيانوس أسقف رومية وأقيم كرنيليوس خلفا له فاستولى روح الحسد على نوفاسيانوس أحد كهنة روميـة وأسكر أسقفين وجعلهما يوسمانه أسقفا على كرسى رومية . وما بلغ أمنيته حتى نشر بدعة جديدة مؤداها رفض توبة الذين يجحدون الايمـان أو يقعون فى اثم كبير وبوجـوب اعادة العماد الـذى يتم على أيدى الهراطقـة وكـذلك عمـاد الأرثوذكسيين الذين يتساهلون فى قبول الهراطقـة التـائبين . ولـما علم نوفاسيانوس أن كرنيليوس احتج عليه لدى الأساقفة أرسل للبابا ديونيسيوس البطريرك الاسكندرى يقول له « ان الشعب أرغمنى على قبول الأسقفية » فأرسل اليه البابا ديونيسيوس رسالة يقول فيها :

ديونيسيوس يهدى سلامه الى أخيه نوفاسيانوس .

« وبعد . فاذا صح ما قلته وصدق اعتذارك فى انك قبلت الوظيفـة بطريقة غير قانونية ضد رغبتك فعليك أن تبرهن ذلك بأن تترك هذه الوظيفة برغبتك وتعتز لها بارادتك لأن الواجب علينا أن نحتمل كل شيء ونذوق كل هوان وعذاب لا أن نسيء اساءة تؤثر فى كنيسة المسيح التى افتداها بدمه. واعلم هداك الله أن المجد الأسمى والشرف الأعظم يكونان لنا كاملين اذا نحن متنا شهداء لأجل الـكنيسة من أن نسهل لأبنائنا تقديم الذبائح للأوثان وانكار الايمان . ومن رأيى أن الذى يموت شهيدا لأجل ايمانه انما يريح نفسه وينال المجـد والثواب لشخصه فقط ولـكن الذى يموت لأجل الـكنيسة فهو يفيـد الـكنيسة ونفسه أيضا . والنتيجة أنك اذا أقنعت اخوانك وحملتهم على اتمام مبـادىء الاتفـاق والوئام فتكون حسناتك قـد زادت عن سيئاتك والا ان لم تستطع التأثير عليهم وخالفوا وساطتك فاعمل على الأقل لخـلاص نفسك واربأ بهـا . وفى الختـام أهديك تحيتى وسلامى على أمل أنك راغب فى السلام عامل على توطيد دعائمه باسم ربنا يسوع المسيح » أهـ .

ثم كتب هذا البـابا الى جميع الكراسى المسيحية لكى يقطعوا الشركة مع نوفاسيانوس وحظر على اكليروس كنيسة روميـة معاملتـه وأوصاهم بالتمسك بكرنيليوس أسقفهم الشرعى حتى كانت نتيجـة سـعيه ان اعتزل نوفاسيانوس الـكرسى الرومانى وتركه لـكرنيليوس الذى عقد مجمعا حرم فيه خصمه والبدعة التى جاهر بها .

وفى سنة ٢٥٧ م ثار اضطهاد القيصر فالريان فألقى والى مصر القبض على البـابا ديونيسيوس بعـد أن قتل كثيرين من المسيحيين وجلد البـابا ديونيسيوس وطلب منه أن يسجد للأوثان فأجابه نحن لا نسجد الا للسـيد المسيح خالق السماء والأرض فكلمه الوالى بالحسنى لكى يذعن فأبى فأخذ جماعة من المسيحيين وقتلهم أمامه ولما رآه مصرا القاه فى السجن ثم أعيد

ليحكم عليه بالموت واتهمه الوالى بانفراده مع أصحابه للصلاة معهم فقال له القديس نحن لا نكف عن مخاطبة الله ولكن الوالى عدل عن قتله ونفاه فى ناحية خفروبلييه وقد تلقى حينئذ رسالة من جرمانوس الأسقف المار ذكره يلومه فيها على ابطال الاجتماعات العمومية فرد عليه البابا ديونيسيوس بكتاب يصف فيه كيفية القبض عليه فقال :

« ولما حللنا سيفرد (١) التف حولنا جم غفير من الاخوة الذين جاءوا معنا من الاسكندرية ومن الذين وفدوا الينا من مصر بعد وصولنا الى هنا وهكذا مهد الله سبيلا لكلمته فى هذه الجهة كما فى كل الأماكن الأخرى • صحيح ان أعداءنا فى بادئ الأمر اضطهدونا ورشقونا بالأحجار ولكن أخيرا ترك كثيرون من الوثنيين أصنامهم ونبذوها ظهريا وأقبلوا الى الله بقلوبهم لأن كلمته غرست فى أفئدتهم كما يغرس البذار فى أرض ذات زرع وكانوا لم يسمعوا عنها من ذى قبل • وكأن الله جل وعلا أراد أن يأتى بنا الى هذا المنفى لنذيع بشارة الخلاص فيه فلما تم ذلك وأفلحنا شاءت مشيئته أن ننقل الى مكان آخر لهذه الغاية عينها وذلك أن ايمليانوس ابن الامبراطور قصد أن ينقلنا الى أماكن أشد ضررا وأكثر تعبا مشحونة بالمخاوف والمخاطر • ثم أمر سكان اقليم مريوط أن يلتئموا فى مكان واحد خصصه لهم وعين لهم قرى معروفة يقيمون فيها فيما بعد أما نحن الذين تبعونا فأوصوا أن نبقى مطروحين فى الطريق بلا مأوى ولا ملجأ لأنه لم يكن شك فى أننا أناس لا نركن الى الفرار ولا نميل الى الهرب بل وثق أنه متى أراد يسهل عليه القبض علينا بدون مشقة ولا أخفى اننى عندما صدر لى الأمر بالارتحال الى سيفرد هذه لم أكن أعلم الى أين أسير ولا أعرف شيئا عن المكان الذى أنفى اليه بل كنت بالكاد أعرف اسمه من قبل ولكننى كنت فرحا جدلا لعلمى أن هكذا ارادة الله • الا أنه لما أمرونى بالانتقال الى مكان اسمه كولونيوس تأثرت تأثيرا شهده الحاضرون لأننى علمت أن هذا المكان سيكون كسجن لى لا أستطيع فيه أن أتمم العمل المطلوب منى ولذلك تضايقت أولا بالنسبة لهذا الخبر وثقل سماعه على أذنى مع أننى كنت عالما بهذا الاقليم وأكثر خبرة به من غيرى ولكن قيل لى أنه خال من الاخوة المسيحيين وليس فيه أحد من أفاضل الرجال الذين تتلذذ النفس لمعاشرتهم فضلا عن أنه عرضة لوقاحة المسافرين ورذائلهم ومكمن للصوص وقطاع الطرق الا أن بعض الاخوة واسونى اذ أخبرونى أنه قريب من مدينة الاسكندرية • ومما يسر القلب أن سيفرد التى نفينا اليها جمعتنا بكثيرين من الاخوة المسيحيين • الذين لم نكن لنراهم لولاها وبواسطة اجتماعنا وارتباطنا تمكنا من نشر كلمة الله واذاعة خبر الخلاص بطريقة لم نكن لنحصل عليها لولا هذا المنفى • واذ كانت الاسكندرية قريبة من هذا المكان

---

(١) شمالى القطر المصرى •

الذي كنا نقيم فيه تمتعنا كثيرا بمشاهدة الذين نحبهم ونميل اليهم وقد كانوا يجيئون لزيارتنا دائما ويمكثون معنا طويلا ولذلك كنا نمثل جمعية عظيمة كانت تلتئم في أقصى مكان في الاسكندرية ولم تزل هذه الجمعيات توالى انعقادها لسماع كلمة الله حتى بعد أن تركناها ورجعنا الى مدينتنا » أهـ ٠ والذي أعاده الى كرسيه ابن فاليريان لشفقته عليه وظهور براءته أمامه بل زوده بكتاب منه يبيح له عقد الاجتماعات ومباشرة خدمته بدون أن يعارضه أحد ٠

ولم يكد البابا ديونيسيوس يستريح قليلا بعد كف الاضطهاد ورجوعه الى كرسيه حتى اضطر أن يوالى جهاده ضد المبتدعين الذين كانوا يكدرون صفو الكنيسة ببدعهم فعمل على حسم النزاع الذى نشأ في الكنيسة بسبب عماد الهراطقة وقاوم جميع المبتدعين كما سيأتى ذلك في باب البدع ٠

وحدث أن رجلا يدعى سابليوس جاء الى مصر من رومية ونشر فيها هرطقة « مؤلهى الآب » الذين يعتقدون أن الله نفسه لا أحد أقانيمه هو الذى كفر عن خطايا البشر ٠ وقد أضل سابليوس ببدعته هذه كثيرين من المؤمنين وبعض الأسياقفة فوقف أمامهم البابا ديونيسيوس وقفة البطل الباسل وقاوم ضلالهم في منشور أرسله الى الأسقفين أمونيوس وافراندر ٠ ولما لم يتمكن من ارجاع سابليوس حرمه في مجمع عقده بالاسكندرية سنة ٢٦١ م بعد أن فند في رسالة كل تعاليمه الفاسدة فرأى أنصار سابليوس أنهم في حاجة الى من يشد أزرهم فأغراهم بعض الدخلاء من الرومانيين على الشر والشقاق فكتبوا الى ديونيسيوس أسقف رومية كتابا فيه يرمون بطريركهم بالهرطقة والبدعة ٠ وكان الأسقف الرومانى شابا قليل الخبرة والمعرفة بالنسبة للبطريرك الاسكندرى الذى كان واسع الاطلاع شديد الاختبار ٠ فسار ديونيسيوس الرومانى سير الاعتساف وارتكب متن الشطط وعقد مجمعا حرم فيه ديونيسيوس البطريرك المصرى وأرسل يعلمه بالحكم ويسأله عما اذا كان عنده شيء يدافع به عن نفسه الأمر الذى عده البطريرك المصرى جسارة من أسقف رومية واهانة له غير أنه لعظم تقواه وتمسكه بأوامر الديانة المسيحية لم يرض أن يقابل الشر بالشر بل عمد الى قلمه وأرسل اليه رسالة يوضح له فيها العبارات التى أشكل عليه فهمها فكانت تلك الرسالة حدا فاصلا للنزاع الذى يسميه المؤرخون « نزاع الديونيسيين » واقتنع الأسقف الرومانى بأنه تسرع وأخطأ في عمله واحترم البابا الاسكندرى ووقف بجانبه في دحض بدعة بولس السيماساطى أسقف أنطاكية التى لأجلها انعقد مجمع في أنطاكية سنة ٢٦٤ م استدعى فيه القديس ديونيسيوس الاسكندرى غير أنه نظرا لشيخوخته اكتفى بأن بعث رسالتين احداهما الى المجمع والأخرى الى السيماساطى حل فيهما الأسئلة العشرة التى كان يوجهها بولس الى كل من يناقشه ٠

وقبل أن يبت المجمع المذكور حكما فى قضية بولس هذا نام البطريرك العظيم فى الرب واستراح من أتعاب جمة فى ١٧ برمهات سنة ٢٦٥ م وكانت مدة اقامته على الكرسى الاسكندرى سبعة عشر سنة ولهذا القديس رسائل عديدة فى أهم قضايا الايمان وفى وصف ما وقع عليه وعلى كنيسته من الاضطهاد وقد استقى منها أوسابيوس المؤرخ معظم أخبار ذلك الزمان. ولم يزل معظم تلك الرسائل محفوظا فى مكتبة « جالان » اليونانية واللاتينية بمدينة البندقية ومنها مقالة فى الفصح وأخرى فى السبت وما سبقت الاشارة اليه فى ترجمته .

(٣) مكسيموس — البطريرك الخامس عشر :

ولد بالاسكندرية من أبوين مسيحيين وكان قسا بها وتم تكريسه بطريركا فى شهر برمهات سنة ٢٦٥ م فى عهد غالينوس قيصر ولما حكم مجمع أنطاكية بحرم بولس السيماساطى أرسل حكمه الى هذا البطريرك يتضمن الأسباب التى دعت الى تجريد بولس من رتبة الكهنوتية واقامة دمنوس عوضا عنه . وبعد اطلاعه على الحكم بادر حالا بكتابة رسالتين واحدة للمجمع يشكر فيها مساعيه وأتعابه لخدمة الكنيسة والأخرى الى دمنوس تهنئة له بوظيفته الجديدة . ثم حرر منشورا الى جميع الكراسى الأسقفية يحذرهم فيه من تعاليم بولس وشرح لهم التعاليم المستقيمة التى ينبغى التمسك بها وبعد ذلك ظهرت بدعة مانى الخبيثة فكان لهذا البابا اليد الطولى فى دحضها وجاهد فى مقاومتها بكتابة رسائل متعددة والقاء الخطب . واستمر يرعى رعية الله التى اقتناها بدمه مدة ثمانى عشرة سنة ثم تنيح بسلام فى ١٤ برمودة سنة ٢٨٢ م .

(٤) ثاؤنا — البطريرك السادس عشر :

روى الانبا يؤنس مطران دمياط فى مجموعته لتاريخ البطاركة أن الآباء الأساقفة نصبوا بطريركا قبل ثاؤنا هذا اسمه ببنوده جلس على الكرسى المرقسى ستة شهور فى نهايتها اجتمع الأساقفة ضده وقرروا تجريده من رتبته لأنه قد خصى نفسه وأقاموا بدله البابا ثاؤنا فى شهر كيهك سنة ٢٨٢ م فى عهد بروفس وهذا البطريرك كان من قسوس الاسكندرية المشهورين بالعلم والوداعة وقد انتهز فرصة سكون الاضطرابات وجمع من المؤمنين الأغنياء أموالا وبنى بيعة حسنة على اسم السيدة العذراء وهو أول من بنى الكنائس بالاسكندرية وكانت النصارى قبله تصلى بالاسكندرية فى المغارات والسراديب خوفا من القتل وسفك الدماء فلاطف البابا ثاؤنا جماعة الروم وبالغ فى ملاطفتهم وأهدى اليهم تحفا جليلة حتى بنى كنيسة العذراء المذكورة وهى أول كنيسة بنيت صلى فيها القبط جهارا .

ولما تولى القيصر ديوكلتيانوس عرش رومية ادخل فى معيته عددا كثيرا من الأقباط المسيحيين فأرسل اليهم هذا البطريرك رسائل يأمرهم فيها أن يقوموا بواجبهم وأن يميزوا أنفسهم كمسيحيين عن الموظفين الوثنيين بأعمالهم الصالحة وسيرتهم الطيبة فمن ذلك رسالة الى لوسيان ناظر بيت الملك وهو موظف مسيحى ارتقى الى رتبته بعد تملك ديوكلتيانوس بقليل يقول له « ان الراحة التى تتمتع بها الكنيسة الآن تعزى الى سبب واحد فقط هو سلوك المسيحيين الحسن وأعمالهم الممدوحة التى تضىء كالشمس فى رابعة النهار ينعكس ضوؤها أمام أعين الكفرة والملحدين فتبهر أبصارهم وبذلك يتمجد أبونا الذى فى السموات · أما غرضنا الذى نرمى اليه والغاية القصوى التى نسعى خلفها هى أن نكون مسيحيين فعلا لا بالاسم فقط وأن نعمل أعمال المسيحيين الحقيقيين لأنه اذا كنا نطلب مجد أنفسنا الذاتى فنكون كمن يطلب شيئا تافها لا فائدة منه · فاذا يجب على كل مسيحى أن يهتم بمجد الله الآب وبمجد الله الابن الذى سمر لأجلنا على خشبة الصليب وفدانا بدمه فداء أبديا لا يقوم بذهب أو بفضة · فلذلك أيها العزيز لوسيان أريد أن يعرف عنك التباهى والفخر لأنك أهديت كثيرين من خدمة البلاط الملوكى الى معرفة الحق وأدخلتهم فى حظيرة المسيح بل الأحرى بك أن تشكر الله الذى اختارك آلة نافعة للبنيان وجعلك واسطة خير لنفع الآخرين وأعطاك نعمة فى عينى مولاك لحد تمكنت فيه من نشر كلمة الخلاص واذاعة معرفة فادى المسيحيين وذلك لمجد اسمه وخلاص الكثيرين » أﻫ ·

وأوصى كافة أمناء بيت الملك المسيحيين فقال « ان الله ينهاكم عن أن تبيعوا للآخرين شيئا من متعلقات القصر خلسة أو تأخذوا رشوة ولا تقولوا للامبراطور كلاما ضد الحق · ابتعدوا عن الطمع والجشع اللذين يتمسك بهما الوثنيون لا المسيحيون واعلموا أن الربح القبيح والغش هما صفتان لا تلائمان من قبل المسيح · فعولوا على الاقتداء به ذاك الذى كان فقيرا ومعدما · لا تتكلموا بشر فيما بينكم ولا تخرج كلمة قبيحة من أفواهكم بل لتكن كل أعمالكم مقرونة باللطف والتأدب مع العدل والحق بذلك يتمجد اسم ربنا والهنا يسوع المسيح فيكم وفى أعمالكم · تمموا واجباتكم التى أسندت اليكم بخوف من الله وبمحبة للامبراطور وبغاية الدقة والاجتهاد واعتبروا أن الأوامر التى تصدر لكم من مولاكم الذى لم يسىء الى أحد من رجال الله كأنها صادرة من الله نفسه لأنه مقام منه ولم يتقلد السيف باطلا · وأخيرا يا أبنائى الأعزاء البسوا الصبر كرداء وتمنطقوا بالفضيلة وامتلئوا بالرجاء والايمان والمحبة » أﻫ ·

ثم أرسل لأمين الخزانة الخاصة يأمره بأن يتحلى بالأمانة ويصرف بدقة حساب · وكتب لأمين الملابس يوصيه بملاحظة الترتيب والنظام وختم كلامه بقوله « وعلى الأمين أن يفعل كل هذا بتواضع وطول أناة لكى يتمجد

اسم المسيح حتى فى مثل هذه الأعمال القليلة الأهمية » اهـ · وأوصى أمين المكتبة بأن يحسن تنظيمها ويجد فى نسخ ما بها من الكتب الهامة وأن لا يفتأ يذكر أمام القيصر عظيم قدر الترجمة السبعينية للكتاب المقدس وأن يمزج كلامه مع القيصر بشواهد من سيرة المسيح ·

وكان فى عهد هذا البطريرك كاهن قديس لم يرزق بنسل يدعى ثيودوسيوس وحدث أن امرأته صوفية شاهدت بالكنيسة يوم عيد الرسولين بطرس وبولس أولاد المسيحيين يقدمون الى المعمودية فانكسر قلبها ورجعت الى البيت حزينة النفس وطلبت من الله بلجاجة أن يمن عليها بنسل · وفى ليلة ذلك اليوم شاهدت رؤيا فى نومها واذا بشخصين وقفا بها وأخبراها أن طلبتها أجيبت وسترزق ولدا وأمراها أن تذهب باكرا الى البطريرك وتخبره بذلك · فلما أصبح الصباح أخبرت زوجها بالأمر وانطلقت الى البابا ثاؤنا وأعلمته بما جرى فباركها وصرفها بسلام · وما أتت السنة حتى رزقت ولدا أتت به الى البطريرك ليعمده فدعاه بطرس ولما كبر تتلمذ له وأدخله المدرسة اللاهوتية فبرع براعة غريبة جذبت اليه أنظار جميع الشعب ·

ولما حضرت البطريرك الوفاة جاء اليه جميع الكهنة والشعب باكين قائلين « أتتركنا يا أبانا مثل الأيتام » فقال لهم « لستم أيتاما بل هذا بطرس أبوكم وهو البطريرك بعدى » وقدمه البطريرك قبل أن يتنيح ثم رقد فى الرب فى ٢ طوبه سنة ١٧ للشهداء و٣٠٠ م ·

وفى أواخر حبرية هذا البابا ثار اضطهاد ديوكلتيانوس قيصر فجعلت الكنيسة القبطية السنة الأولى لملك هذا الطاغية مبدأ لتاريخ سنيها وهو المعروف بتاريخ الشهداء ·

القسم الثاني

منشأ الرهبنة ومؤسسوها

(١) منشأ الرهبنة (٢) بـولا (٣) أنطونيوس
(٤) أمونيوس (٥) بفنوتيوس

---

(١) منشـأ الرهبنـة :

ان أولى الأمم المسيحية التى نشأ عندها نظام الرهبنة هى الأمة المصرية وقد ظهرت الرهبنة بمصر حال دخول الديانة المسيحية فيها وقيل أن الرسول مرقس هو الذى علمها لمسيحيى مصر ٠ قال أوسابيوس المؤرخ « لما كان مرقس الرسول متحليا بالطهر والعفاف وبث روح الفضيلة فى قلوب كثيرين من المصريين فاعتزلوا الخلق ولجأوا الى الكهوف والمغائر عاكفين على تسبيح الخالق والتغنى بذكره الأقدس فتحولت القفار القاحلة الى رياض يانعة تنبت النفوس وتثمر الكمال » أهـ ٠

الا أن التبتل والانفراد للتعبد كانا معروفين من قبل المصريين عند اليهود فقد روى فيلومن العبرى بأنه كان فى ضواحى الاسكندرية قوم من اليهود عرفوا بالمتأملين فى الالهيات تركوا كل ما يملكون من متاع الدنيا وأووا رجالا ونساء الى التلال المجاورة يقيمون فيها الصلوات ويسبحون الله بالمزامير والترانيم ٠ وقال كاسيانوس وهو كاتب كنسى « ان التقليد القديم يشهد بأن رهبان وادى النطرون متناسلون من المتأملين فى الالهيات » أهـ ٠

وقيل أن أول دير مسيحى تأسس كان فى سنة ١٥١ م حيث عزم فرونتينوس على ترك العالم زهدا فى الدنيا وملاذها فجمع اليه جماعة من الاخوة وسار بهم الى وادى النطرون فى مديرية الجيزة وهناك قضى بقية حياتهم بالنسك والتعبد فى بعض الكهوف الصخرية ٠ الا أن الرهبنة لم تعرف جيدا فى مصر الا فى عهد القديسين بولا وانطونيوس وكانت تسير على نظام التوحد والانفراد حيث ينفرد الراهب فى مغارة يقضى حياته فيها منعزلا عن البشر ٠ ولكنها فى عهد امونيوس ومكاريوس تطورت فصار الرهبان يشتركون ويتعاونون معا ٠ ثم فى عهد باخوميوس وشنوده اجتمعوا جماعات منظمة ووضعوا لأنفسهم قوانين خاصة يسيرون عليها ٠ غير أن كثيرين

استقر بعضهم يسير على نظام بولا وانطونيوس وغيرهم على منوال آخر ·
وكان رهبان مصر على ثلاثة أنواع النســاك وهم الذين يسكنون الأديرة
جماعات وفيئات · والزهاد وهم الذين يعيشون فى الخلوات والصوامع ·
والمتبتلون وهم الذين يجتمع اثنان أو ثلاثة منهم فى المدن بدون زواج ·

(٢) بــــولا :

روى القــــديس أنطونيوس كاتب سيرة هذا الأب قال : - فى سن السبعين خالجنى فـكر من العجرفة والكبرياء فقلت فى نفسى أظن أنه لايوجد ورائى أحد فى البرية أقام فى الفيافى سالـكا سبيل النسك والفضيلة مثلى · وفى الليلة التى كنت أتأمل فيها فى هذه الأمور أوحى الى من قبل الله أنه يوجـد خلفى رجل أفضـل منى وحضنى على أن أسعى لأراه · فلمـا أتى الصباح أخذت جريدة النخل التى كنت أتكىء عليهـا وأخذت أتمشى فى البرية كما كان يهـديني عقلى لأنى لم أكن أعرف الطريق · ولبثت سائرا الى الظهر وكان الحر شديدا فشرعت أحدث نفسى قائلا انى لمتكل على الله الذى لايتخلى عنى أن يرينى عبده الذى أوحى الى عنه ·

ولم يتم قوله حتى رأى وحشا كان نصفه شكل انسان ونصفه الآخر شبه حصان وهو ما يسميه الشعراء بالقنطورس · فرسـم القـديس على جبهته علامة الصليب وقال له أين هو عبد الله فأراه الوحش المكان مشيرا بأصبعه راكضا الى الغاب فاستمر القديس فى سفره باحثا على الطريق واذا هو يتعجب من هـذا الأمر مر من أمامه هذا الحيوان كأنه ذاهب الى ميدان فسيح وما هـذا الا الشيطان اتخذ تلك الصورة ليزعج القديس فاستغرب مشابهته الشكل الذى رآه فى الحيوان · وبعد أن ابتعد قليلا رأى وحشا آخر كانسان قصير القـامة له ساقان وقرنان كقرنى التيس فسأله من أنت فأجابه اننى أحد سكان البرارى الذى يعبدهم الوثنيون كأنهم آلهة وقـد أرسلتنى طائفتى لأطلب منك نيابة عنهم أن تتضرع لأجلنا الى المسيح الهنا الذى عرفنا أنه أتى لأجل خلاص العالم · وبعد أن تكلم الحيوان هذا الكلام جدد الشيخ أنطونيوس المسير وسالت دموعه على الأرض لـكنه سر لمجد المسيح ولابادة الشيطان وضرب بعكازه على الأرض وقال ويل للاسكندرية ويل لمدينة الوثنيين التى اجتمع فيها جميع شياطين الخليقة (١) ·

وكان قد توغل فى البرية ومر عليه وقت لم ير فيه انسانا أو حيوانا فصرف يومين بليلتين فى الصلاة راجيا من الله أن لايهمله · وفى اليوم التالى لاحظ ذئبا صاعدا الى الجبل فاقتفى أثره ولما صعد الى الجبل وقع نظره على

---

(١) خبر هذين الوحشين وجد فى الترجمة المشهور ان البابا اثناسيوس الرسولى كتبها للقديس انطونيوس وقد اثبتناه هنا وان وجد مخالفا لعقلية العصريين حفظا للاصل ·

مغارة كانت هناك وشاهد الذئب يدخل اليها ولـكنه لم يميز شيئا لشدة الظلام وقـد حاول الخوف أن يدخل قلبـه ولـكن المحبة الـكاملة تطرح الخوف الى خارج فـدنا من المغارة فلاح له فيهـا ضوء سراج فأسرع فى سيره لفرط سروره فعثرت رجله بحجر غير أن القـديس بولا حال سماعه بوقع أقـدامه دحرج الحجر وأغلق باب المغارة ٠

فارتمى القديس أنطونيوس أمام باب المغـارة على وجهه وتوسل الى القـديس بولا ليفتح له البـاب قائلا أنا وحدى ٠ فأجاب القـديس بولا لم أتيت فقال أنطونيوس انى لواثق بأنك تعلم من أنا ومن أين ولـماذا أتيت وبما أنك تقبل وحوش البرية فلم تكره بنى البشر ؟ لقـد طلبتك ووجدتك وقرعت البـاب بثقـة فافتحه لى والا فسأموت هنـا واذا ما رأيت جثتى فادفنها ٠ وسمع القـديس بولا صوت بكائه فأجابه قائلا « ما من أحد يطلب احسانا بانتهار ولا يفتر باكيا متنهدا فان كنت أتيت الى لـكى تموت فلماذا تتعجب من أنى لا أقبلك ٠ قال هذا وفتح له البـاب فالتقيـا وتعانقا وقبلا بعضهما بالقبلات المقدسة وسلم الواحد على الآخر باسمه كأنهما كانا يعرفان بعضهما قبلا ثم شكرا الله على احسانه اليهما وجلسا للمخاطبة ٠

فقال القديس بولا ـ لم احتملت كل هـذا الضيق ومشقة البحث عن شيخ وهن جسمه وهزل وسترى بعد قليل انه يصـير ترابا ٠ غير أن المحبة تحتمل كل شىء فجعلتك تتعب كثيرا فى الاستقصاء عنى ٠ فأخبرونى الآن ما حال العـالم ومن يدبره وهل يوجد بعد من يسجد للأصنام ويعبدها وهل بنو البشر مستمرون فى بنـاء البيوت فى المـدن القـديمة ٠ ولا يزال يوجد ملوك وحكام فى العـالم ؟ فأجابه القـديس أنطونيوس عن اجوبته ثم أخذ يسأل القـديس بولا عن السبب الـذى من أجله أتى الى البرية وكم عاما أتى عليه فيها وكم سنة حياته وماذا أكل وكيف عاش ٠

فأجابه القديس بولا ـ انى ولدت نحو سنة ٢٢٨ م فى الصعيد الأسفل بمدينـة طيبـة من أبوين مثريين ولـما صـار لى من العمـر ١٢ سنة مات والداى فدخلت مدارس الفـلاسفة وأتقنت فيهـا اللغـة اليونانية فضلا عن اللغـة المصرية وأقمت بمنزل زوج أختى (وقيل أخوه) ولم يكن مسيحيا ٠ ولـما بلغت العشرين من عمرى أثار ديسيوس قيصر اضطهاده سنة ٢٤٩ م على النصـارى وامتد الى الصعيد وصـدر الأمر بالتفتيش على المسيحيين لتعذيبهم ان كانوا لاينكرون مسيحهم ٠ فهربت الى منزل كان لى بين مزارعى ٠ ولم أمكث فى هـذا المـكان المنفرد قليـلا حتى انذرتنى أختى بأن زوجهـا عازم على اخبـار الحكومة بحقيقـة حالى لـكى يقبض على ويتمتع هـو بمالى وعقارى الذى يصير اليه بعدى بحق الأرث ٠ فخطر على بالى حينئذ قول السيد المسيح « من لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون لى تلميذا »

(لو ١٤ : ٣٣) فوهبت أختى وزوجها كل ما أمتلك من حطام الدنيا وودعت العالم الوداع الأخير وقصدت البرية الداخلة بجبل القلزم (١) حيث وجدت مغارة (٢) مغلق بابها بحجر كبير فدحرجته ودخلت اليها ورأيت بقربها نخلة تثمر وعين ماء فأقمت بها وصرت أقتات من ثمر النخلة واستقى من عين الماء واكتسى بخوص النخلة مجدولا ٠

وكنت فى أول سكناى فى البرية أقصد أن أعود الى بلدتى بعد زوال الاضطهاد ولكنى لما ذقت لذة الوحدة وعذوبة الانفراد والاختلاء مع الله أدركت أن الضرورة قد هيأت لى طريق الفضيلة فآثرت هجر العالم بتاتا وهكذا عشت حتى الآن منفردا كل الانفراد مثابرا على الصلاة والتأملات الروحية مدة ستين سنة ٠

وبينما هما يتخاطبان التفت كلاهما فنظرا غرابا على غصن شجرة وللوقت وقف بكل هدوء على الفرع وكان فى منقاره رغيف من الخبز فأتى والقاه فيما بينهما وطار وهما ينظران ويتعجبان ، فقال القديس بولا لضيفه مبارك الرب الذى أرسل لنا مأكلا فاعلم يا أخى أنطونيوس أنه منذ أتيت هنا وهذا الغراب يأتينى كل يوم بنصف رغيف واليوم من أجلك أتى برغيف كامل وبعد أن شكرا الرب جلسا للاكل وتنازعا فى من منهما يجب أن يكسر الخبز فاتفقا أخيرا على أن يكسراه معا فكسراه باسم الرب وبعد أن أكلاه وقفا يصليان طول ليلهما ٠

ولما أتى الصباح قال القديس بولا لضيفه لقد عرفت من مدة طويلة أنك تسكن هذه البرارى وكان الله قد وعدنى بزيارتك فجئتنى فى الوقت المناسب اذ حان وقت راحتى وسيحل لى الأمر الذى اشتهيته يعنى الانتقال من هذا العالم والسكنى مع سيدى يسوع المسيح حيث قد أعد لى اكليل البر ٠ فلهذا أرسلك لكى تدفن هذا الجسد الشقى وترد التراب الى التراب ٠ وبينما كان القديس بولا ينطق بهذا الكلام كانت دموع القديس أنطونيوس تنهمل بغزارة وأظهر أسفه متنهدا وطلب من القديس بولا ألا يفارقه أو يأخذه معه الى الوطن السعيد ٠ فأجابه بولا الطوباوى وقال له لا يليق بك أن تطلب الخير لنفسك بل لجيرانك ولذا أرجوك يا حبيبى اذا لم يكن فى الأمر مشقة أن تذهب بسرعة الى ديرك وتأتينى بالرداء الذى أعطاه لك القديس أثناسيوس

---

(١) هو شمالى الشرقية (الصحراء العربية) التى بين النيل والبحر الأحمر ٠

(٢) قيل أن مزيفى النقود فى زمان كليوباتره كانوا يختفون فى هذه المغائر ٠

الرسولى البطريرك لتكفننى به وتدفنى (١) ولم يكن فى حاجة الى ثيـــاب ولـكنه أراد أن تفارق روحه جسده فى غياب القديس أنطونيوس •

وكان القـــديس أنطونيوس يسمع كلامه بتعجب زائد وأدرك أن الله كشف للأنبـا بولا أشياء كثيرة وشكر الرب سرا ثم خر أمامه وصلى واقترب اليه وقبل عينيه ويديه وأسرع فى الخروج ليـذهب الى ديره • وبعـد أن سـافر ووصل الى الدير التقى به اثنـان من تلاميـذه ظلا يبحثان عنه طويلا وقالا له أين كنت يا أبانا فى هـذه الأيام ؟ فأجاب وقال لهما • ويل لى أنا الخاطىء فان اسم « مسيحى » الذى ادعى به هو مستعار ولست مستحقـا أن أدعى راهبـا لأنى رأيت ايليـا ويوحنا المعمدان فى البرية ورأيت بولا فى السماء وهو يتكلم معهما • ثم ضرب بيـده على صدره وأخذ الرداء وفارق تلميذيه ولم يشأ أن يعبر لهما عن معنى كلامه بل قال لهما للـكلام وقت وللصمت وقت •

ثم جد فى السير لأنه كان يشتهى أن يراه قبل انتقـاله فسافر فى اليوم الأول • ولـكنه فى اليوم الثـانى فى الساعة التـاسعة أبصر جمهورا من الملائـكة يصعدون الى السماء وروح القديس بولا معهم وهى تضىء كالشمس فجثـا على الأرض واضـعا التراب على رأسه وقال بقلب آسف • يا خائف الله لـماذا تركتنى هكذا بدون أن تودعنى على ما عانيته من مشقة السفر الذى كنت أسـابق فيـه الطيور • ثم استمر فى سـيره حتى دنا من باب المغـارة فوجـد جسد الشيخ الميت واقفا جاثيـا على ركبتيه ورأسه مستقيما ويديه مرتفعتين فظن أنه حى بعـد فجثـا خلفـه يصلى • غير أنه لـما رأى الشيخ لا يتنهد كعادته فى الصـلاة تفرس فيـه جيـــدا فتحقق أنه توفى فوثب على جسده زارفا الدموع ومقبلا يديه ورجليـه ثم لفـه بالرداء وحمله على كتفيه وهو يرتل المزامير غير أنه حزن عندما رأى نفسه أهمل استحضار آلة معه يحفر بهـا القبر وفيما هو مفكر فى أمره متحير اذا بأسدين جاءا معـا راكضين فلما نظرهمـا ارتعد واذ رفع فـكره الى الله وجدد نظره اليهما ظهـرا له كحمـامتين وديعتين تطيران فى الهـواء فاقترب الأسـدان وانطرحا بجـانب جسد الأب بولا مظهـرين اكرامهمـا له ثم هـزا ذيليهمـا لأنطونيوس المبـارك ورقـدا أمامه بوداعـة تامة وحكا أسنانهما ببعض وقرا بصوت عال كأنهما يظهران أسفهما • ثم حفرا فى الأرض قبرا كاملا وبعد ما فرغا من العمل تقـدما الى الأب انطونيوس وخفضـا ذنبيهما وسـجدا أمامه ولحسا يديه وقدميه كمن يطلب بركة فبـارك عليهما قائلا « أيها الرب الاله الذى بدون أمره لا تسقط ورقة واحدة على الأرض وبـدون مشيئته لا يسقط عصفور واحد فى الفخ باركنا جميعـا » ثم أطلق الأسدين باشارة

---

(١) قال القديس انطونيوس فى ترجمة الأنبا بولا « ان هذا الرداء كان قد أهداه القيصر قسطنطين الـكبير الى البابا اثناسيوس وهو أهداه الى » أهـ •

يده وصلى على جثة القديس بولا ودفنها وبعد أن أتم الدفن رجع الى ديره حاملا ثوب القديس بولا المصنوع من الخوص معتبرا اياه كنزا ثمينا . وكان يلبس هذا الثوب فى يومين من كل سنة وهما عيد الفصح وعيد العنصرة . وكانت وفاة القديس بولا فى اليوم العاشر من كانون الثانى سنة ٣٤٣ م الموافق ١٢ أمشير سنة ٥٩ ش .

ويليق بنا أن نأتى فى خاتمة هذا الخبر بما قاله أحد الكتاب « انى أسأل الآن الأغنياء والذين لا يعرفون كمية ثروتهم لزيادتها والذين يسكنون المنازل الفسيحة المزينة بالزخارف والنقوش ما الذى أعوز هذا الشيخ القديس المتعرى من كل غش ، فأنتم تشربون فى كؤوس من فضة وذهب وهذا بولا يطفى عطشه بكف يده . أنتم تلبسون البرفير وهذا كان مرتديا بثوب من نخل . غير أنه لا يكون الأمر هكذا دائما وهذه الحال تنقلب الى حالة أخرى ، فها أن السموات انفتحت لبولا المسكين وأنتم ستهبطون الى جهنم مع جميع كنوزهم . وهو قبر فى لحد ليقدم للمجد وأنتم تدفنون فى قبور من الرخام والمرمر لتحترقوا الى الأبد » أهـ .



« القديسان مار بولا ومار انطونيوس »

(٣) أنطونيوس :

كاتب سيرة هذا الأب الطوباوى كما سيأتى معنا هو القديس البابا أثناسيوس الرسولى البطريرك العشرون الذى كان يفتخر بكونه عرف القديس أنطونيوس منذ حداثته وأنه استقى له الماء مرارا كثيرة قال ماخلاصته : ولد القديس أنطونيوس سنة ٢٥١ م فى مدينة تدعى كوما (١) من والدين مسيحيين اشتهرا بالغنى فى المال والفضيلة فربياه على مبادىء الدين والتقوى ، فنشأ هادئا وقورا محبا للعزلة والانفراد كثير القناعة فى جميع مقتضيات المعيشة • ومع أن والديه لم ينظماه فى سلك التعليم باحدى المدارس الا أنهما هذباه بعلومهما ومعارفهما كما تدل كتابات القديس أنطونيوس الباقية الى الآن التى تدل على مقدرته وتشهد له بالتضلع •

ولم يبلغ الثامنة عشرة من عمره حتى فقد أبويه فالتزم أن يعتنى بتربية أخته الصغيرة ويدير حركة أملاكه الواسعة التى كان ينفق منها كثيرا لاغاثة البائسين • غير أن الأفكار المقدسة كانت متملكة عليه وكثيرا ما كان يعجب من شهامة الآباء الرسل الذين تركوا كل شىء وتجندوا لخدمة الكلمة وكيف كان كل مؤمن بواسطتهم يبيع أملاكه ويضع ثمنها تحت أقدامهم • واتفق ذات يوم أنه ذهب الى الكنيسة كعادته هو وأخته وهذه الأفكار تشغل خاطره واذا بفصل الانجيل يقرأ فسمع السيد المسيح يقول لأحد شبان اليهود الأغنياء « ان أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك واعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى » (مت ١٩ : ١١). فحالما سمع هذه العبارة حسبها صوتا الهيا يناديه من السماء فرضخ لهذه المشورة وعزم على تنفيذها •

ولما عاد الى منزله شرع فى العمل بهذا الكلام فأعطى أخته نصيبها ثم توجه بها الى دور العذارى التى كانت فى عصره قد اتسع نطاقها وأوصى بها رئيستهن لكى تراعيها كابنة لها • أما هو فأخذ يبيع كل أملاكه ويوزع منها على الفقراء حتى لم يبق لنفسه شيئا • وعاش بعد ذلك من كد يديه حيث كان يصنع قففا وحصرا ويقتات بثمنها • ثم انصرف همه نحو ترويض جسده على النمو فى الفضيلة والعيشة بالقداسة والتقوى•

ولم تكن الأديرة معروفة وقتئذ بل كان الأتقياء الهائمون بحب العزلة يجتهدون بكل طاقتهم فى الانفراد عن العالم والابتعاد عن معاشرة الناس ، فيتخذون لأنفسهم مغائر لا تبعد قليلا عن المدن والقرى وهناك ينعكفون على العبادة • فاجتمع انطونيوس ببعض هؤلاء وجعل يمر عليهم ويتعلم منهم الفضائل فكان كالنحلة التى تؤلف شهدها من متنوع الأزهار فتعلم من واحد

---

(١) كوما قيمن الآن قرب بنى سويف ومدينة هرقلية قديما التى كانت مشهورة بين مدن الصعيد •

فضيلة الصبر ومن آخر التواضع ومن غيره الصمت ومن آخر الطاعة وهكذا الى أن وصل الى درجة سامية فى سلم الكمال المسيحى وشابه المتعبدين فى الانفراد فى مغارة واحدة ، وكان يزاول العبادة نظيرهم واتخذ من بينهم شيخا معلما له • وكانت ذاكرته القوية تمكنه من حفظ فصل الانجيل من قراءته مرة واحدة حتى أعجب به المتوحدون وكانوا يجلون قدره ويقفون عند قدومه ويحيونه قائلين « تعال يا حبيب الله » •

غير أن الشيطان لم يرق له أن يرى شابا كهذا متمسكا بعرى القداسة فجمع قواه ضده وشرع فى الهجوم عليه بواسطة الأفكار الرديئة، فكان مرة يدفعه ليأسف على توزيع ثروته ويقول له كان يمكنك أن تبيعها وتتصرف بها حسنا وتعيش فى رضاء الله • وأخرى يقوده الى الندم على تركه واهماله أمر أخته الوحيدة بلا عناية فى العالم • وتارة يمثل له مشقات الطريق الذى كان سائرا فيه • وفوق ذلك كان يملأ مخيلته من الأشباح والصور الجميلة التى تسوقه الى الفساد آملا أن يخلب قلبه ويتغلب عليه •

أما القديس انطونيوس فقد تسلح تلقاء هذه الهجمات بسلاح الله الكامل فأخذ يردد فى ذهنه فردوس النعيم البهيج وعذاب جهنم المؤلم وتفانى فى قمع جسده وتذليله فكان ينقطع عن الأكل اليوم بالليل مرة وأحيانا ثلاثة أيام ، وكان يلبس المسح ويرقد على الأرض أو على حصير• ولما عجز الشيطان عن أن يوقعه من طريق محبة العالم أتاه من طريق آخر محاولا أن يجربه بالفخر والتباهى موسوسا له أنه أفضل الناس قداسة وأقدسهم سيرة ولكنه لم يكن يسمح لهذه الأفكار اللذيذة أن تستمر مترددة على خاطره بل كان يطردها حالا فى بدء هجومها وبذلك كان يتخلص من التجربة قبل استيلائها عليه •

وفى أحد الأيام بينما كان سائرا عثرت رجلاه ببعض الكنوز المصرية القديمة التى انهال عليها التراب والرمل فظن فى مبدأ الأمر أنها خيالات وصور كيفها له الشيطان بمناظر الذهب والحجارة ولكنه لما تحققها أدرك أن الشيطان يريد أن يجربه لكى يسهل له السبيل للرجوع الى العالم ففر هاربا عنها وعزم أن لا يمر من تلك الجهة مرة ثانية • ثم لجأ الى احدى المقابر التى كان يعتنى القدماء بتشييدها لتصير صالحة للسكنى وهى لا تبعد عن ناحية الميمون (١) ومن هناك كان يرسل أحد أصحابه بما يصنعه من السلال ليبيعها ويحضر له بثمنها ما يحتاجه من القوت الذى كان قاصرا على الخبز والملح والماء • ويروى أنه عاش عمره كله بدون أن يتناول لحما أو يشرب خمرا •

وفى ذلك الأوان كان القديس قد بلغ من العمر ٣٥ سنة فعزم على أن يتوغل فى البرية ، ورغب أن يصحب معه شيخه ومرشده فلما عرض

---

(١) هى بلدة على ضفة النيل بمديرية بنى سويف وبها دير للقديس انطونيوس •

عليه الأمر اعتذر لكبر سنه فتركه وتوجه الى القفر شرقى النيل وتعمق فى البرية وهو لا يدرى أين يلقى عصا ترحاله حتى عثر على قصر قديم عظيم البناية بنته أيدى ملوك مصر الفراعنة منذ زمن مديد فى ابان هجوم الأعداء على حدود مصر وجعلوه كنقطة من النقط العسكرية • فأصلح القديس له فيه مكانا ورتبه بقدر الامكان وكان قد استعد بمئونة تكفى لمدة ستة شهور ، وسر جدا بهذا الانفراد وبعده عن العالم حيث لا تحلو له تلك العيشة •

وحينئذ كان خبر قداسته قد شاع فى كل مكان فصار الناس يبادرون اليه بعضهم لسماع تعاليمه وبعضهم لنوال الشفاء من أمراضهم • أما هو فلم يكن يرغب فى الخروج من قصره فاستمروا يطلبونه وهو يمتنع حتى كادوا يكسرون عليه الباب • فلشدة لجاجتهم تعود الخروج اليهم أحيانا ليصلى على المرضى ويلقى العظات على المسترشدين الذين كانوا يبغون سماع نصائحه الروحية • فتتلمذ له منهم كثيرون فقبلهم وسن لهم قوانين وأقام منهم مئات حول قصره وذلك سنة ٣٠٥ م ولم يكن يظهر لهم الا فى النادر الى أن مضى نحو عشرين سنة وفى نهايتها اضطر الى الخروج والتجلى للذين أرادوا السير على منواله •

وكان القديس قد بلغ من العمر الخامسة والخمسين حينما امتلأت البقاع الموجودة حوله بعدد كبير من الراغبين فى عيشة العزلة منهم الأغنياء والفقراء • وما هو الا وقت قصير حتى قامت الأديرة بجوار ممفيس وارسينو وبابل وأفروديت وأماكن كثيرة ، وامتلأت من الرهبان الذين عاشوا تحت اشراف وتدبير القديس انطونيوس الذى كان ينتقل من مكان الى مكان آخر مرشدا وواعظا ومما نصحهم به قوله :

« يجب عليكم أن تقرروا فى أذهانكم أن الواحد منكم يحتسب ذاته كل يوم أنه ابتدأ جديدا حتى لا يكسل ولا يتراخى فالانسان يستطيع أن يجد نعيما فى أى مكان طالما هو متعلق بالله فى قلبه والشياطين يفزعون جدا من الصلوات والصوم والسهر والتقشفات لاسيما من احتقار العالم والفقر الاختيارى وكسر حدة الغضب لأن هذه الفضائل تسحق رأس ابليس كما أن أسلحة محاربتنا لأعدائنا هى الايمان الحى والسيرة النقية • والذى تعبد لله وهجر العالم وان كان ترك كل شىء حتى مجد الملوك وكنوزهم ينبغى أن يحتسب كل ذلك كالعدم بالنسبة الى السماء • وان الذى تركه يجب عليه تركه بعد قليل لأنه ليس بأحد دائم على الأرض وان ترك الانسان ما لا يقدر أن يأخذه معه بعد الموت فليس أمرا كبيرا • وكما أن العبد الأمين اذا أمره سيده بشىء لا يستعفى من عمله لأجل خدمته الماضية كذلك الرجل المتعبد لله لا ينظر ما قد فعله وانما يلتفت الى ما بقى مما يجب عليه لربه وانه لا يجازى ولا ينال الإكليل على البداية بل على النهاية

الحسنة · فاكتساب الفضيلة ليس أمرا صعبا كما يتصوره الناس بل يجب أن نلقى كل اتكالنا على ربنا يسوع المسيح وان ابليس لا يستطيع أن يضرنا مالم نسلم له أنفسنا » ·

ومما قاله أيضا لرهبانه « ان السلوك فى سبيل الفضيلة هو أفضل من فعل المعجزات وان الانسان يقدر أن ينتصر بسهولة على الشيطان اذا أخلص العبادة لله من كل قلبه بسرور باطنى روحى مستحضرا الله فى ذهنه كل حين لأن هذا النور يمزق ذلك الظلام ويزيل تجارب العدو سريعا · ومما يفيدنا فى ذلك النظر الى سيرة القديسين واقتفاء آثارهم فان فيها تحريضا على الاقتداء بهم » أهـ ·

ولبث القديس أنطونيوس عائشا بين رهبانه كملاك أرضى يحبب اليهم الفضيلة بسيرته والقداسة بقدوته حتى سنة ٣١١ م ففيها طرق سمعه خبر ثورة الاضطهاد الذى أضرمه مكسيميان قيصر فأسرع بنفر من رهبانه الى الثغر الاسكندرى وطفق يزور السجون ويعظ الحبساء فيها ويشوق اليهم سفك الدم من أجل فاديهم القدوس وكان يشترك معهم فى الترتيل والصلاة وبذلك يحول سجنهم المظلم الى مكان شهى ويختم خدمته بينهم بتوضيح زوال هذا العالم وبطلان جميع أمجاده · وكان يقصد المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ويخفف بكلامه الروحى أتعابهم · وبجرأة تامة كان يتوجه الى المحاكم ويحضر جلساتها ويأخذ فى المحاماة عن المسيحيين جهارا ويفند دعاوى أعدائهم · ولما كانت الغاية من الاضطهاد حينئذ ليس هلاك المسيحيين بل حملهم على نكران مخلصهم فكان يطلب الانفراد بالمتهمين ويثبت لهم ايمانهم ويصف لهم السعادة الأبدية المعدة لجميع الصابرين على الضيقات ·

ولما علم الحاكم المضطهد حينئذ أن الرهبان لهم يد طولى فى تشجيع المسيحيين على قبول الموت المريع أمر بمنعهم من المثول بالمحاكم · أما القديس انطونيوس فعزم على متابعة خطته ولو أدت به الى الاستشهاد فلبس ثوبا أبيض واعتلى رابية كان الحاكم مزمعا أن يمر بها · وجعل يطلب من الرب بحرارة أن يؤهله لنيل اكليل الشهادة · غير أن الحاكم حالما وقع نظره عليه أعجب بشهامته ونظر اليه نظرة احترام · ومن ذلك الحين هدأت الاضطهادات فعاد القديس الى ديره واستأنف عبادته بجد ونشاط كأنه لم يتعبد فيما مضى ·

وكان يحب الاختلاء لكي يتأمل فى بهاء وعظمة الحضرة الالهية واعتاد أن يصرف الليل كله فى الصلاة راكعا غير متحرك · فعند ابتداء صلاته كانت الشمس تغرب من ورائه ولما كانت تشرق صباحا أمامه كان يشكو منها قائلا « أيتها الشمس لماذا تعدمينى بنورك أشعة النور الالهى ·

وبالنسبة لكثرة تقشفاته صار جسده نحيفا كأنه غير مركب من لحم وعظام ومع ذلك كان أنيسا حليما وديعا وكان كلامه ووجهه يبديان الهشاشة والبشاشة ولم تتغير حاله هذه بتغيير الأمور الزمنية ٠

ولبثت الجموع تتوافد عليه من كل حدب وصوب وبالنظر لكثرتهم زرع من أجلهم حشائش وبقولا فلما نمت دخل بستانه وحوش الغاب فأتلفته٠ وذات يوم أمسك واحدا منها وقال له « لماذا تضر بى أنا الذى لم أضرك بشىء أخرج من ههنا ولا تعد » قيل فلم تعد الوحوش الى مزرعته ثانية٠ وفى ذات يوم أظهر له الله ما سيصيب مسيحى الاسكندرية من شرور الأريوسيين فجثا القديس والصق وجهه فى الأرض وطلب من سيدنا يسوع المسيح بعبرات هامية أن يبادر الى تخليص المؤمنين من هذا الشقاء فعزاه الله بأن أراه كيف تنتصر الكنيسة عليهم ٠

وما مر وقت طويل حتى اشتد اضطهاد الأريوسيين على الأرثوذكسيين فأرسل اليه البابا أثناسيوس الرسولى يطلب منه أن يأتى ويناصب معه الأريوسيين ٠ وحدث قبل هذا الوقت أن قسطنطين الملك وأولاده حرروا لهذا القديس خطابا وطلبوا اليه بخضوع أن يتنازل للرد على رسائلهم فتعجب الرهبان من تواضع الملك وأظهروا استغرابهم الزائد فجمعهم القديس وقال لهم « لا تتعجبوا لأن ملوك الأرض كتبوا الينا ولا يجب على المسيحى أن يستعظم هذا الأمر ويندهش منه ٠ أما الأمر العجيب والمذهل للعقول فهو أن الله كتب شريعته من أجل البشر وأرسلها على أيدى أصفيائهم وفى آخر الأيام خاطبنا فى ابنه الوحيد الذى يسمو بما لا يقاس على كل الملوك والسلاطين » أهـ ولما رأى الرهبان عدم اهتمامه بالرد على رسالة الملك أقنعوه بضرورة الرد لا لأنه ملك بل لأنه مسيحى قصد الاستفادة فلا ينبغى أن تمنع عنه ٠ فحرر له من ثم الرد هكذا بعد الديباجة « انى أسر معكم من أنكم تعبدون يسوع المسيح وأحرضكم على التفكر فى خلاصكم وعلى احتقار الأشياء الأرضية بدون أن تغفلوا لحظة عن الدينونة الأخيرة وأن تتأملوا بأن يسوع المسيح هو الملك الحقيقى والأبدى الوحيد وان تتخذوا الفطنة دستورا لأعمالكم فى ادارة شئون المملكة وتسيروا فى الرعية بالحلم والعدالة وتساعدوا الفقراء كمساعدتكم لأخوتكم » أهـ ٠ فلما قرأ الملك وأولاده وكبار دولته هذه الرسالة أثرت عليهم تأثيرا عظيما وأدركوا الفرق بين كتابات الأرثوذكسيين وكتابات الأريوسيين المملوءة من روح الرياء والنفاق ٠ واحتفظ الملك برسالة القديس كأنها كنز عظيم ٠

وبناء على طلب البابا أثناسيوس عزم القديس انطونيوس على التوجه الى الاسكندرية ولكنه قبل أن يقوم منها بلغه أن البطريرك قد نفى فرفع بناء على طلب وجهاء الاسكندرية خطابا الى الملك قسطنطين يحتج فيه على

مقاومتـه للارثوذكسيين · ولم يكتف بذلك بل لما علم أن الأريوسيين قد بلغت بهم الجسارة أن أشاعوا بأن القديس انطونيوس موافق على رأيهم رجع الى الاسكندرية مع بعض رهبانه وخطب فى المستقيمى الرأى قائلا « ان كنت قد جئت مرة ثانية من خلوتى لأظهر بينكم فذلك لكى أؤدى شهادة جلية لحقيقة ايماننا المقدس · انهم قد تجاسروا على الطعن بألوهية مخلصنا وقالوا انه كان خليقة بسيطة كلا ان ابن الله ليس هو خليقة ولم ينشأ من العدم بل كان منذ الأزل لأنه كان كلمة وحكمة الآب ولهذا لا تشتركوا فقط مع الأريوسيين المنافقين لأنه لا يمكن أن يكون اتحاد بين النور والظلام انه لكفر أن يقال بأنه وجد وقت لم يكن فيه الكلمة لأن الكلمة كان دائما مع الآب ·

« انكم مسيحيون لأنكم فى التقوى الحقيقية وفى الايمان الحقيقى وأما الأريوسيين فانهم حينما يقولون أن كلمة الآب ابن الله مخلوق فانهم لا يختلفون بشىء عن الوثنيين الذين يعبدون الخليقة عوضا عن الخالق · فصدقوا اذن أن كل الخلائق تقف ضدهم لأنهم يجعلون فى عدد المخلوقات رب وسيد كل الأشياء التى هى كافة من صنع يديه فاهربوا اذن من مخالطتهم كهربكم من الحيات والعقارب فمن لا يحب يسوع المسيح فليكن محروما · الرب سيجىء » أهـ ·

وقد كتب الى رجل أريوسى كان يضطهد الأرثوذكسيين بقساوة عظيمة مانصه « ان الله قد وضع فى قوس عدله سهام غضبه عليك وأنه سيرشقها على هامتك اذا لم تتب سريعا » أما الهرطوقى فلما قرأ الرسالة ضحك منها مستهزئا والقاها على الأرض وتفل عليها وتوطأها برجليه· قيل أنه بعد ثلاثة أيام ضربه الرب فمات ولكثرة العجائب التى صنعها الله على يد القديس بالاسكندرية وصل خبر قداسته للوثنيين فصاروا يفدون اليه ويتبركون بلمس جبته ولما ازدحموا عليه حاول تلاميذه أن يمنعوهم فانتهرهم وأمرهم أن يتركوا الحرية لكل من يأتى اليه فتمكن من تنصير عدد عظيم من الوثنيين حتى قال أحد المؤرخين « ان الذين تنصروا على يده حينئذ أكثر من الذين تنصروا فى مدة سنة » ·

ولما رأى الايمان قد انتعش عزم على الرجوع الى الدير فحزن الشعب على فراقه وطلبوا اليه أن يبقى معهم مدة غياب راعيهم فأجابهم « ان الشمع يذوب اذا اقترب من النار هكذا تضمحل فضيلة الناسك اذا دنا من العالم » ثم أخذ يثبتهم فى الايمان ويعزيهم على فراق راعيهم الجليل وتنبأ لهم بعودته منتصرا ·

ورجع القديس الى ديره واهتم بارسال محررات أكثرها الى الرهبان وقال بعضهم انها عشرون رسالة وآخرون انها سبع فقط · ولم يكن القديس

يعرف شيئاً من اللغات ولا العلوم بل كان يعرف القراءة والكتابة بلغته المصرية وجاء عنه أن أحد الفلاسفة الحكماء سأله ذات يوم اذا كان لا يضجر اذ لا سبيل له الى السلوى التى يدركها الآخرون بالقراءة في الكتب فأجابه « ان لى فى الطبيعة كتابا » وذات يوم آخر جاءه فيلسوفان ليختبرا علمه فقال لهما لماذا تتعبان نفسيكما لزيارة أحمق مثلى فأجاباه انا جئنا اليك لاعتقادنا أنك رجل حكيم · فقال لهما اذا كنت حكيما فكونا اذا مثلى لأن الاقتداء بالحكماء واجب فأنا مسيحى فكونا كذلك فصمتا متحيرين ثم تركاه · وقصده غير هؤلاء ممتحنون كثيرون من العلماء فسألهم عما اذا كان العقل أفضل أم العلم فأجابوا العقل فقال لهما اذا من كان عقله سليما لا يحتاج الى العلم · ثم ناقشهم فى أى الديانات أفضل وبعد مباحثة طويلة اقترح عليهم اخراج الأرواح النجسة من مجانين كانوا حاضرين وقتئذ ولما عجزوا تقدم هو ورسم عليهم علامة الصليب فخرجت منهم الشياطين ·

ولما امتلأ العالم من عرف طهارته وعجائبه شعر وهو فى السنة المئة والخامسة من العمر بدنو أجله فجعل يطوف على أديرة الرهبان ويزود تلاميذه بالنصائح ويحثهم على القيام بواجباتهم المقدسة المفروضة عليهم ومما قاله لهم بعد وعظ كثير « سأفارقكم يا أولادى لكنى لا أنفك عن محبتكم وانما أرجو أن تدوموا بكل غيرة ممارسين أعمالكم المقدسة ولا تتراخوا أبدا اياكم أن يخمد نشاطكم فى تتميم واجباتكم · اجعلوا الموت كل يوم نصب أعينكم واجتهدوا بعناء كلى فى أن تحفظوا أنفسكم طاهرة وخالية من كل الأفكار الرديئة أبذلوا الجهد فى اقتفاء آثار القديسين واتبعوا بكل شجاعة طريق الحق وحذار من أن تشتركوا مع شيع الهراطقة الذين تعرفون رداءتهم وأعمالهم الذميمة واهربوا كما تهربون من الطاعون من الأريوسيين المعروف كفرهم عند كل الناس وان كان حكام الولايات يساعدونهم ويناضلون عن تعليمهم فلا تتعجبوا قط لأن هذه السلطة الوهمية التى اختلسوها لابد أن تتلاشى بل فليكن ذلك محرضا لكم بزيادة على أن لا يكون لكم أقل علاقة معهم ، حافظوا بكل تقوى على تقليدات آبائكم واثبتوا بالأخص فى ايمان سيدنا يسوع المسيح له المجد الذى تعلمناه من الكتب المقدسة والذى فسرته لكم مرارا » أهـ ·

ولم ينته من هذا الكلام حتى أسرع بالذهاب الى صومعته لشعوره بمرض أصابه ودعا تلميذيه مكاريوس (أبو مقار الكبير المصرى) وأماناس وخاطبهما قائلا « انى أرى يا ولدى أن الله يدعونى اليه وانى مزمع كما هو مكتوب أن أسلك طريق كل أحد · فداوما على البر حسب عادتكما ولا تفقدا ثمرة أعمالكما المقدسة التى مارستماها منذ سنوات عديدة ولكن اجتهدا كأنكما بادئان فى أن تحفظا وتزيدا فى ارتقاء حرارتكما · وأنتما تعلمان

مكائد الشيطان وقساوته ولا تجهلان ضعفه فلا تخافاه قط بل آمنا بيسوع المسيح ولا تكن لكما رغبة الا فى خدمته ٠

عيشا كأنكما مزمعان أن تموتا كل يوم واسهرا دون انقطاع على نفسيكما وتذكرا التعاليم التى أرشدتكما اليها غالبا ولا تشتركا قط مع المنشقين ولا مع الهراطقة الأريوسيين لأنكما تعلمان جيدا كيف كنت دائما محتقرا لهم بسبب هرطقتهم المرذولة لأنهم يجسرون على محاربة يسوع المسيح وتعاليمه ٠ ابذلا الجد والجهد لتتحدا أولا معه ثم مع القديسين لكى يقبلوكما كأصدقاء وأصفياء فى الملكوت السماوى ٠ اطبعا هذه الأشياء على صفحات قلبيكما ٠ وان شئتما أن تبرهنا على محبتكما لى وأنكما تتذكرانى كأبيكما فلا تسمحا أن ينقل جسدى الى مصر خوفا من أن يحفظه أهلها فى بيوتهم ، وهذا هو السبب الذى حملنى على الفرار لأموت فوق هذا الجبل ٠ فادفنانى اذا تحت الأرض ولا تقرا لأحد عن موضع لحدى حتى اذا جاء يوم القيامة اقتبل هذا الجسد من يد يسوع المسيح بكر القيامة خاليا من الفساد ٠

أما ثيابى فوزعاها هكذا : أعطيا للاسقف أثناسيوس أحد جلود الغنم والرداء الذى استلمته منه جديدا رداه له باليا ٠ أعطيا للاسقف سيرابيوس جلد الغنم الآخر واحفظا لكما مسحى ٠ استودعكما الله ياولدى العزيزين ٠ ان انطونيوس يغادركما ويتخلف عنكما » أهـ ٠

وبعد أن لفظ هذه الكلمات اقترب تلميذاه وعانقاه وهما يبكيان وللحال امتد على سريره منتظرا الموت بسرور ولم يكن نظره قد كل بعد ولا سقط سن من أسنانه وبدا وجهه للناظرين كأنه يسطع نورا وبهاء ٠ ثم أسلم الروح بيد مخلصه فى اليوم الثانى والعشرين من شهر طوبه سنة ٣٦٥ م فقام تلميذاه بتكفينه واخفيا قبره حسب اشارته ووزعا متروكاته كما أوصى فكان من ناله شىء منها يعتبره أثمن من اللآلىء ٠

وقد دفن جسد القديس الطاهر أمام باب الهيكل القبلى بالكنيسة التى بناها فى حياته باسم السيدة العذراء وسميت بعد ذلك باسمه ولم تزل حتى اليوم تضم ذلك الجسد الكريم داخل دير عظيم شيد فى أيام الانبا انطونيوس بجوار مغارته بجبل العربة ٠

(٤) امونيوس :

ولد سنة ٢٩٤ م بجوار مريوط وهو كزميله أنطونيوس كان من أسرة مسيحية تقية موسرة وفقد أبويه وهو فى سن الحداثة فبات تحت وصاية عمه وكانت كل آماله متوجهة الى عيشة التبتل والقداسة ٠ غير أن عمه خطب له فتاة غنية رغما عنه وعلى غير ارادته ٠ ولما لم يكن فى قدرته

مخالفة أمر عمه أخذ فى مخاطبة الفتاة التى خطبت له بالأقوال الروحية وقد استطاع بسيرته المقدسة أن يؤثر عليها تأثيرا حسنا فحبب اليها عيشة الطهارة وغرس بفؤادها الميل الى تكريس النفس لتكون عروسا محفوظة للعريس الحقيقى يسوع المسيح • ومن ثم اتفق الاثنان على أن يقبلا عقد الزواج وهما مصممان على أن يعيشا معا كأخ وأخت لا كزوج وزوجة •

ولبثا على هذا الحال مدة طويلة وهما يحافظان كل المحافظة على شروط العفة والأمانة حتى مرت سبع عشرة سنة على زواجهما وبعدها ماتت الزوجة • فرأى أمونيوس أن المجال قد اتسع أمامه ليقضى مآربه الروحية فهجر مسقط رأسه ومضى الى القديس انطونيوس وتتلمذ له ودرس عليه قوانين الرهبنة المقدسة • وبعد ذلك أوفده القديس انطونيوس الى وادى النطرون ليؤسس أديرة هناك فتبعه جمهور عظيم من ناذرى العفة فنظم لهم الأحوال ورتب لهم معيشتهم واستمر مدة يسوسهم بالفضيلة والتقوى •

ولم تمض على هذا الحال ثمانون سنة حتى أصبح وادى النطرون يحتوى على خمسين ديرا • ومن مبادىء هذا الآب « أنه من العيب أن يتفرس الرجل التقى فى جسمه وهو عار من الملابس » وكانت وفاته فى ٢ بشنس سنة ٧٣ ش •

(٥) بفنوتيوس :

ولد بمدينة مصر بعد نصف الجيل الثالث ونما مفعما بالبركات السماوية والنعم الالهية الغير الاعتيادية • واذ تأمل جيدا فى حسن ذلك السبيل الذى سلكه المتوحدون فى برارى مصر وطيبة الذين زهدوا الدنيا واعتزلوا فى القفر شغف به وتاق الى اقتفاء أثرهم وبعد قليل ترك العالم بعد أن عاف كل امجاده وطلب سعادة السماء واتجه نحو تلك الأماكن قائلا فى نفسه « انه اذا كانت السماء تستحق أن تفضل على الأرض وأن الفردوس العلوى هو وطنى الحقيقى بينما الأرض تحسب كمنفى لى فلماذا اذا لا أوجه كل رغائبى نحو السماء وأهرب بكل جهدى من الأرض وأنفر منها » •

واذ أدرك أن سكناه مع النساك القريبين من وطنه بمصر يجعل أقرباءه يحولون دون قصده ويعوقونه عن متابعة سيره ابتعد ومضى الى الدير المدعو بيسار فى آخر حدود الأقليم المصرى الأعلى فى طيبة الخارجية حيث كان القديس انطونيوس يدبر أحوال الرهبان ويقبل اليه كل يوم عددا عظيما من الذين أخذوا بحسن صيته وأرادوا السير على خطته • فعرض بفنوتيوس نفسه على القديس وأخبره بميله الى المعيشة النسكية فثبته القديس ووضعه بين تلاميذه •

فبدأ القديس بفنوتيوس يمارس الفرائض النسكية التى يرشده اليها معلمه بنشاط كلى وأخذ يميت حواسه بالتقشفات الصارمة حتى أنه أخضع

جسده لروحه اخضاعا تاما • فكان يقضى أوقاته فى التأملات الروحية ويتلقى من الارشاد الالهى الأوامر المقدسة حتى أصبحت نفسه مستودع الحكمة الالهية وظهرت ثمار فضائله فى مدة سنين قليلة وصار معتبرا فى نظر الجميع ليس فى مصاف المبتدئين بل كأحد الآباء معلمى السيرة الروحية • وقد شهد القديس انطونيوس مرات كثيرة لعظم فضائله ومزيد فطنته وجزيل محبته فوافاه كثيرون طالبين منه أن يرشدهم الى كيفية السير فى طريق الكمال •

وحدث يوما أن بعض النساك اشتكوا أحدهم بذنب كان هو ينكره بتاتا وهم يكررون عليه شكايتهم فقال لهم القديس بفنوتيوس « اننى قد رأيت على شاطىء النهر رجلا مغروسا فى الوحل ثم نظرت واذا ببعض الرجال قد أتوا لانقاذه ولكنهم عوضا عن أن ينتشلوه الى الخارج أسقطوه فيه الى عنقه » وأراد القديس بهذا القول أن يفهمهم أنه يمكن معالجة المذنب بالكلمات اللينة لا بالقساوة التى تجدد فيه زلات جديدة كالنكران والكذب والاصرار على الاثم ولما سمع القديس انطونيوس ما خاطب به البار بفنوتيوس المشتكين قال لهم « هذا هو الرجل الذى يعرف أن يحكم بموجب الحق على الأشياء ويستطيع أن يفهم الأفكار العميقة » •

وشاء الرب بعد ذلك أن يجعل القديس بفنوتيوس بركة لأهل مدينة من مدن اقليم طيبة فاختير أسقفا لها ولكنه تألم من هذا الاختيار كثيرا وحاول التخلص منه غير أنه تحقق بعد الصلوات العديدة أن الله هو الذى اصطفاه لهذا المركز فقبل السيامة وترك البرية وأقام فى ابروشيته •

ولم يلبث فى دار أسقفيته طويلا حتى انتشر خبر سيرته الطاهرة فى كل مكان فصارت له فى عيون الناس منزلة سامية • أما هوفشرع يدبر رعيته بالحكمة التى اكتسبها من القديس أنطونيوس فطفق يعظهم ويرشدهم الى الحق ساهرا على تصرفاتهم جميعا • ثم اعتنى بوضع قوانين كنسية وتعاليم انجيلية فنمت ابروشيته وتقدم أهلها فى كل الصفات الحسنة •

ولما ثار اضطهاد ديوكلتيانوس وكمسيميانوس القيصرين على مسيحيى مصر وقعت على هذا القديس وعلى رعيته مصائب جسيمة وأخيرا قبض عليه سنة ٣٠٨ م وعذب أعذبة شديدة وقاسية من أجل اعترافه بالمسيح • ومنها أنه حكم عليه بقلع عينه اليمنى وبقطع مفاصل ركبته اليسرى وبربطه بالسلاسل وبأخذه الى أمكنة حفر المعادن ومقالع الرخام • وقد أبوا أن يميتوه ليطيلوا زمن عذابه وليذيقوه الموت فى كل لحظة واضحت حياته على هذه الصورة سلسلة استشهادات ولو لم يستشهد • ومع أنه كان يشتكى قبلا من تركه للبرية واقامته بالعالم الا أنه عندما وقع تحت طائلة

العــذاب أظهر سروره لأنه لولا وجوده بالعالم لما استحق أن يتألم من أجل مخلصه الأمر الذى يعتبره شرفا عظيما ٠

وكان وقتئــذ كثيرون من المعترفين باسم المسيح فى برارى مصر فى المــكان المســمى برفيريتوس لوجــود الرخــام فيـــه فــكانوا يلزمونهــم باستخراجه ٠ وأخذوا سبعة عشر شخصا ما عدا النساء والصبيان وأتوا بهم الى بلاد فلسطين حيث اعترفوا جهرا بالايمان المقــدس قدام فرميليانوس الوالى فأمر هذا بأن تحرق أعصاب الرجل اليسرى لــكل منهم وتقلع العين اليمنى كذلك ٠ ثم أرسلهم الى معــادن تلك البــلاد (١) ليفنيهم هناك بالتعب الشديد فــكان القــديس بفنوتيوس من أولئك المعترفين الذين أرسلوا من مصر الى فلسطين كما روى أوسابيوس وكان عددهم مائة وثلاثين شخصا فبقى القديس فى تلك المعادن مع سائر المعترفين الى نحو سنة ٣١١ م التى التزم فيها الملك غاليريوس المغتصب أن يأمر بازالة الاضطهاد عن المسيحيين لأجل مرض اعتراه فرجع أكثر المعترفين الى وطنهم ورجع القديس بفنوتيوس الى مصر وأقام فى أبروشيته وأخذ يجاهد فى سبيل انهاضها بما بقى له من القوة التى كادت تنسحق تحت شديد العذاب ٠

وعند ظهور الشيعة الأريوسية اشــتدت غيرة هذا القديس فى المحاماة عن الايمان المستقيم ٠ وحينما اجتمع مجمع نيقية المسكونى الأول سنة ٣٢٥م ذهب اليــه هــذا الآب وكان من أعضــائه المحترمين الذين تجلت غيرتهم وظهرت فضــائلهم حتى اكتسب مقــاما ساميا لدى الملك قسطنطين فــكان يدعوه مرارا كثيرة ويتفاوض معه على وضع التدابير اللازمة لراحة الكنيسة وتأييــد الايمان وقطع دابر هرطقــة أريوس ٠ ولم يكن قسطنطين يسمح له بالخروج من ديوانه قبــل أن يقبــل عينـــه اليمنى المقلوعــة من أجل اعترافه بالمسيح ٠

وكان هذا القديس أحد الآباء الذين وضعوا قانون الايمان الأرثوذكسى فى المجمع المــذكور ٠ وبعــد انحلال المجمع رجع الأساقفــة الى أبروشياتهم وعاد القــديس الى كرسيه وبعــد ذلك كان متحدا بالألفــة والوداد مع البابا أثناسيوس الرسولى ورافقـــه مع القــديس بوتامون الذى من هراكليا وسبعة وأربعين أسقفا الى المجمع الذى التأم بصور سنة ٣٥٣ م وكان أكثر أعضاء هذا المجمع يعتقدون اعتقــاد أريوس ٠ أما القــديس فلما تحقق ذلك ورأى بينهم مكسيموس أسقف أورشليم أخذ بيــده وقال له لا يليق أن يكون فى مجمع الأشرار أسقف أرثوذكسى اعترف بالمسيح فى الاضطهاد الأخير وكيف

---

(١) كانت المعادن المذكورة فى نصف المسافة بين بحيرة لوط الى بحر اباكا وقد وجد حديثا آثار معبد قــديم كان أولئك المعترفون قــد بنوه زمان اقامتهم هنــاك وبعد الاضطهاد أصبح هذا المعبد كنيسة أسقفية فى أيام الملوك المسيحيين ٠

يحتمل أن رجلا نظيرك مشهورا بالغيرة فى المناضلة عن الايمان يعرض نفسه لأن يضله ويغره الهراطقة الذين قصدوا أن يهلكوا القديس أثناسيوس الذى هو أشجع محام عن هذه القضية الأساسية من قانون الايمان • ثم أعلمه بتعصب الأريوسيين الذى كان يجهله مكسيموس لهذا الوقت • وتمكن من أن يفصله من حزبهم ويثبته فى شركة الكنيسة الاسكندرية •

ولما رجع هذا القديس الى كرسيه ثالثا قضى بقية حياته مجتهدا فى المحافظة على الايمان ومقاوما بكل قوته بدعة أريوس وبعد أن خدم مخلصه مدة سنين طويلة انتقل الى فردوس النعيم بشيخوخة صالحة فى سنة لا نعلمها ولكننا نعلم أنه جاهد الجهاد الحسن ونال الاكليل المجيد •

القسم الثالث
المملكة والكنيسة

(١) اضطهاد كاركلا (٢) اضطهاد مكسيمينوس الثراكى

(٣) اضطهاد ديسيوس (٤) اضطهاد فاليريان

(٥) ضيق بسبب الحرب ومآثر المسيحيين فى تخفيفه

---

(١) اضطهاد كاركلا :

وتوالى بعد ساويرس سبتيموس جملة قياصرة لم يكن لهم شأن يذكر مع مسيحيى مصر حتى ملك كاركلا سنة ٢١١ م فخطر له أن يزيد دخله فضاعف الجزية التى كان يدفعها له مسيحيو مصر وسن قانونا يقضى على المسيحى الذى يعرف عنه أنه قاوم الحكومة فى أمر ما بالصلب أو بطرحه للوحوش الضارية فتمزقه اربا وان كان عبدا ذليلا فيكتفى بعبوديته وذله •

ولما تناول ظلم هذا القيصر جميع طبقات المصريين ضج الكل منه ونقموا عليه ورموه بقوارص الكلام وأطلقوا عليه القاب السخرية فأراد أن ينتقم منهم وعول على تدبير مكيدة لهم فأعلن عزمه على اختيار كتيبة من المصريين ليكونوا جنودا ضمن حرسه الخصوصى • فسر شبان الاسكندرية بهذا العطف • وفى اليوم المعين للانتخاب خرج جميع أهالى الاسكندرية لمشاهدة الاختيار فى مكان عينه القيصر خارج المدينة فلم يكادوا يجتمعون حتى أشار الى عساكره فجردوا أسلحتهم وقضوا على جميع المشاهدين بأساليب وحشية ولم ينج منهم الا القليل •



« المسيحيون يطرحون للوحوش »

وقد انتقم الله من كاركلا جزاء فظائعه فاغتاله مكرينوس وحصلت منازعة على من يخلفه فانتهز وثنيو الاسكندرية تلك الفرصة للاعتداء على المسيحيين فكنت تراهم يوقعون بهم فى الطرقات والشوارع ·

(٢) اضطهاد مكسيمينوس الثراكى :

نالت الكنيسة راحة فى عهد الملك اسكندر ساويرس الذى ملك سنة ٢٢٢ م ولكن خليقته مكسيمينوس حال تملكه سنة ٢٣٥ م اشتد عليهم شدة عظيمة ووجه نظره الى مسيحيى مصر فضايقهم حتى اضطر البطريرك ياروكلاس أن يترك الاسكندرية فرارا من وجهه · غير أن كثيرين من المؤمنين تجرعوا الموت بعد أن ذاقوا أنواع آلام شديدة · وقد قصف الله عمر مكسيمينوس بعد ثلاث سنوات لملكه وخلفه غورديان فانتشر السلام فى مصر مدة ملكه ونمت المسيحية نموا يذكر · وعقب غورديان فيليب العربى سنة ٢٤٤ م الذى كدر صفو سلام مسيحيى مصر فأوقع بهم بلايا وأصابتهم منه اضطهادات ·

(٣) اضطهاد ديسيوس :

ان أشد الاضطهادات التى وقعت على المسيحيين المصريين تلك التى أصابتهم من ديسيوس قيصر الذى جلس على كرسى السلطنة الرومانية سنة

٢٤٩ م فكان اضطهاده بالغا منتهى القسوة والشدة حتى زل كثيرون من المسيحيين أثناء الاضطهاد وذبحوا للاوثان اجابة لطلب معذبيهم . ويكفينا فى وصف تلك الفظائع ما سطره يراع البابا ديونيسيوس الأول البطريرك الاسكندرى وبعث به الى فابيان أسقف أنطاكية وفيه وصف الاضطهاد المذكور وهو :

« ان الاضطهاد الذى أصابنا لم يحدث بناء على أمر من الحكومة بل ان ناره كانت مخبوءة تحت رماده مدة سنة كاملة فالتظت عندما أثارتها يد التعصب . وتفصيل ذلك أن شاعرا يدعى النبوة وفد على الاسكندرية وكان مجيئه شؤما عليها اذ جال فيها يهيج سخط الوثنيين ضدنا ويحرضهم على الدفاع عن خرافاتهم وأباطيلهم التافهة فتم لهم ذلك وأثار ثائرة الوثنيين نحونا وساعدهم على عملهم ما أباحته لهم الحكومة من اجراء أى شر وضرر يرغبونهما لنا . كما أنهم ظنوا أن منتهى التقوى والقداسة تنحصر فى عبادة أوثانهم وشياطينهم وهذه العبادة تتم بذبحنا وتقديم أجسادنا قربانا لأصنامهم .

« وكان أول شر ارتكبوه أن أمسكوا رجلا هرما يدعى « مترا » وطلبوا منه أن يجدف ويهزى بكلام بذىء . فرفض الرجل طلبهم بتاتا وحينئذ انقضوا عليه كالوحوش وأخذوا يضربونه بالعصى وينخزون وجهه وعينيه بمناخس وهو ثابت القلب ساكن الجأش . فلما يئسوا منه أخرجوه خارج المدينة ورجموه بالحجارة حتى مات . ثم اتفقوا جميعهم وساروا مندفعين الى منازل المسيحيين فكانوا يدخلونها بقوة غير مراعين حرمة الجيرة ولا شروط المروءة ويخرجون السكان منها ثم يتلفون كل ما وصلت اليهم أيديهم الأثيمة . فيأخذون الأشياء الثمينة القيمة أما الأثاث والأمتعة البيتية فيجعلونها طعاما للنار اذ يحرقونها على قارعة الطريق حتى اذا رآهم أحد وهم يركضون ويسلبون ويحرقون ظنهم جيشا ظفر بمدينة ففعل بها فعل الغالب المنتصر .

« أما المسيحيون فلم يبدوا أدنى مقاومة بل وقفوا يراقبون خراب بيوتهم وهم سكوت صامتون . فكانوا مثل اخوتهم الذين أشار اليهم بولس الرسول فى أنهم كانوا ينظرون سلب أموالهم بفرح . ولست أعرف سوى رجل واحد فقط من الذين وقعوا فى أيديهم أنكر ايمانه ولكن بعد عناء شديد وعذاب قاس . وأعرف أيضا أنهم القوا القبض على عذراء عفيفة فاضلة اسمها « ابولونيا » وكانت قد هرمت وشابت ناصيتها وأخذوا يضربونها على فكيها حتى حطموا أسنانها تحطيما . ثم أشعلوا نارا خارج المدينة وهددوها بالحرق حية ان لم تنطق بكلمات التجديف والسخر التى كانوا يلقنونها اياها . فأصابتها فى أول الأمر قشعريرة شديدة من شدة الآلام ولكنها عادت فتجلدت وثبتت فلما رأى معذبوها عدم فائدة هذا العذاب طرحوها فى النار حتى صارت رمادا .

« وقد أمسكوا أيضا رجلا آخر اسمه « سرابيون » بينما كان فى بيته وأذاقوه أعذبة يقصر القلم عن وصفها ويرق الحجر الصلد من تأثيرها حتى كسروا جميع أضلاعه وسحقوها سحقا وأخيرا طرحوه على أم رأســه من فوق علو شاهق ·

« وكان اذا سار الانسان ليلا أو نهارا فى الشوارع والأزقة لا يسمع سوى صراخ وضجيج قوم يهددون ويعـذبون كل من رفض أن يجحد ايمانه وينكر مسيحه ولا يشاهـد المرء غير أناس أتقيـاء يجرهـم الأشرار على وجوههم ثم يطرحونهم فى النار المتقدة فيحرقونهم كالهشيم · وقد بقيت هذه الخطوب متفاقمة مدة من الزمن الى أن ظهر هيـاج سياسى أعقبه حرب أهلية جرفت فى سبيلها كل شرير أثيم ولذلك استرحنـا قليلا اذ انصرف شرهم عنا الى بعضهم البعض · ولم نكد نتنفس الصـعداء حتى حاق بنا الخوف وحفنـا الخطر عندما أبدل ذلك الملك الذى كان أرق جانبا وأقل شرا من غيره بملك آخر قـد لا يجلس على كرسى المملـكة الا ويوجه أنظاره نحونا فيعمل على اضطهادنا · وقـد بدأ حدسنا يصـدق وظننـا يتحقق حالما صدر أمر شديد الوطأة مثلما أنبـأ بذلك مخلصنا له المجد متضمنا عبـارات تصطك منها الركب حتى أوشك المختـارون على السقوط والعثـار وعم الخوف الجميع وأركن كثيرون من المشاهير الى الفرار ورفت كل مسيحى فى خدمة الحكومة كيفما كان ذكاؤه ونباهتـه · وكان كل وثنى يعرف أحـد المسيحيين ويرشـد عنـه كان يؤتى به على عجل ويدعون الواحـد باسمه حتى يتقدم الى هيكل الأوثان فيطلب منه تقـديم الذبيحـة الوثنيـة وكان عقـاب من يرفض تقـديم الذبيحـة للصنم أن يكون هو نفسه ذبيحـة للصنم بعـد أن يجتهدوا فى اقنـاعه بذلك بكل وسائط التخويف والارهاب بينما كان يوجد جمهور من الوثنيين التأم هنـالك وهو يهزأ ويسخر بكل مسيحى يكون حظه اما نكران الايمان وتقـديم الذبائح للاوثان وأما الموت الذى هو نهاية كل انسان · ولـكن بعض ضعيفى الايمان أنـكر ايمانه وهو واقف أمام المـذبح الوثنى وأثبت أنه لم يكن مسيحيا قط فمثل هذا يصـدق عليهم قول المخلص المجيـد أنهم بالجهد يخلصون · وكان البعض يقتدون بهذا الجاحد والبعض يتمسكون بأذيال الفرار وغيرهم قبض عليهم وطرحـوا فى السجون مكبلين بالقيود والأغلال ومنهم من أنكر الديانة المسيحية بعد أن سجن قليـلا ولم يحاكم وكثيرون بقوا متمسكين بالـدين المسيحى معترفين به مع صـعوبة الأعذبة التى ذاقوها مدة طويلة · وكثيرون قواهم الله وأرسل لهم معونة من لدنه فبقوا مرتبطين بوحدانيـة الايمان الصحيح ولم يميلوا عنه يمنة أو يسرة وكان من أمرهم أن صـاروا أركانا متينة فى بيت الرب وعليهم بنيت الـكنيسة المصرية كما أنهم دعوا شهودا أمنـاء على مجد ملكوت ابن الله · وكان فى مقدمة هؤلاء الأتقياء رجل اسمه يوليانوس أصيب بالنقرس (داء المفاصل) فلم تكن له مقدرة على السير أو القيـام من مكانه فساقوه الى

المحاكمة يحمله رجلان على كتفيهما ولما تقدم هذان الرجلان أمام المحكمة أنكر أحدهما ايمانه بلا اهمال وأما الثانى واسمه كرونيون ولقبه اينوس فاعترف بايمانه اعترافا صريحا كما اعترف يوليانوس أيضا ولذلك حملوهما على جملين وطافوا بهما فى جميع أنحاء الاسكندرية ـ وهى كما تعلم واسعة الأطراف ـ وكانوا يجلدونهما بالسياط جلدا عنيفا وأخيرا طرحوهما فى لهيب يتقد بالنيران فصارا رمادا بينما كان مضطهدوهما وقوفا يتفرجون عليهما كأنه من المناظر التى تسر لها النفوس » أهـ (١) ٠

وقد حرر البابا ديونيسيوس رسالة أخرى أشار فيها الى كيفية استشهاد بعض المؤمنين وهاك مضمونها :

« وجدث أن ستة رجال وأربع نساء فيهم شاب فى ريعان عمره اسمه ديوسقوروس قبض عليهم وبعد أن جلد أولئك الأتقياء بالسياط طرحوا فى أتون النار المتقد ٠ أما ديوسقوروس فأعطاه القاضى مهلة يتدبر فيها نتيجة اصراره على التمسك بايمانه عساه يعود فيجحد اشفاقا على نضارة شبابه وخصوصا لما آنسه فيه من العقل والرصانة عندما كان يجيب على الأسئلة التى سألوه اياها ٠ وها أنا أخط هذه السطور وديوسقوروس قائم بجانبى يطفر من الفرح الروحى منتظرا عذابا مريعا وألما موجعا قد يصيبه الآن » أهـ ٠

فيتضح من خطاب البابا ديونيسيوس هذا أن سبب الاضطهاد هو غيرة الوثنيين من نمو الديانة المسيحية ٠ فقام المقدمون منهم ودعوا الى احياء الدين القديم واجهدوا النفس وبالغوا فى الدأب واستمالوا الكثيرين من أهالى البلاد الى ترك الديانة المسيحية والرجوع للوثنية فاستفحل الأمر واستحكم الخلاف بين النصارى والوثنيين وقامت قائمة الفتنة فخرج الوثنيون على المسيحيين ونهبوا بيوتهم وكثر السلب بمدينة الاسكندرية وكان نظامها قد اختل قبل عهد ديسيوس قيصر ٠ وظلت الفتنة تتعاظم الى أن صار اراقة دماء المسيحيين من الواجبات الدينية وتتبعوا أثرهم وكثر الفحص عنهم فخرجوا على وجوههم فى صحارى الصعيد الأعلى وانزووا فى أقطارها وانكمشوا أياما ٠

وكان لليهود يد فى اثارة هذه الفتنة على المسيحيين وايقاد نار التعصب ضدهم وكانت الحكومة الرومانية تسر جدا باستمرار الشقاق بين صنوف الأهالى بمصر وتأكيد العداوة بين أهل الأديان لتدوم شوكتها وتتأيد دولتها فعملت على النكاية بالمسيحيين وهم القسم الأضعف لتوغر صدور الوثنيين عليهم من جهة ولتكتسب رضاهم من جهة أخرى ٠

---

(١) من رسائل البابا ديونيسيوس التى نقلها أوسابيوس المؤرخ ونقلناه عن « تاريخ الأمة القبطية » وكنيستها لمدام بوتشر ٠

وقد كانت عبادة الشمس والقمر الى ذلك الحين شديدة الانتشار ولم يعترها ضعف ولا وهن ولا سيما فى عهد غورديان وفيليب ومن بعدهما • وكان التمسك بها لم يذهب من هياكل مصر والنوبة وذلك من أكبر الأسباب التى دعت الى هيـــاج الوثنيين على كـل من خالف دينهم وبالأخص على المسيحيين •

(٤) اضطهاد فاليريان :

وجاء بعد ديسيوس قياصرة لا يهمنا ذكرهم حتى ملك فاليريان سـنة ٢٥٤ م فأظهر للمسيحيين مزيد الأناسة وكان يستدعيهم الى قصره ويجالسهم وساءه أذيتهم ولـكن بعد قليل انقلبت محبة فاليريان الى البغضة وصـار من ألد الأعداء لهم • وكان السبب فى ذلك أن فاليريان كان مغرما بحكمة المصريين القـدماء واتخـذ له مشيرا واحـدا من كهنة المصريين بمصر يدعى مكريانوس كان يدعى السحر ومعرفة الأمور المستقبلة • فهذا لمـا رأى ميل الامبراطور للمسيحيين خاف أن ذلك التودد يكسبهم نفوذا عليه فتنخفض قيمته ولا يعود يقـدر أن يبلغ من القيصر مأربا ولا أن يستجلبه لعبادة الأوثان فأخذ يوشى على المسيحيين وأظهـر له أن الذبائح التى كان يقدمها للآلهـة لأجل حفظ الملك وسلامته لم تعـد مقبولة لسبب تقربه منهم وأنه من اللازم مقاصتهم • فصـدق فاليريان كذب مكريانوس وأمر بقصاصهم فكان اضطهاد شديد عليهم يضاهى الاضطهاد الذى حصل فى أيام ديسيوس قتل فيه كثيرون من الشيوخ والأساقفة وغيرهم • وكان المضـطهدون يهجمون على الآمنين فى بيوتهم ويجرونهم الى مناقع العـذاب حتى اضطر كثيرون من المسيحيين الى هجر دورهم واتخذوا الجبـال والمغائر مخابىء لهم •

وقـد صـادف البـابا ديونيسيوس البطريرك فى ذلك الاضطهاد أهوالا مريعـة وأخيرا نفى • وقـد روى بعد رجوعه من منفاه الى الاسكندرية أنه لم يجد من شمامسة الـكنيسة سـوى ثلاثة فقط وهم فوسطس ويوسـاب وكويرمولى مع أنه ترك عـددا وافرا منهم ظلوا مختبئين فى مكانهم وكانوا ينتهزون الفـرص ليعظوا الاخـوة ويبشروهم ولـكنهم ماتوا جميعـا بداء الدفتريا وغير هـؤلاء قتل كثيرون واستشهدوا واشـتدت القسـاوة على المسيحيين للغـاية حتى أنهم كانوا يشقون بطون أطفالهم ويأخذون مصارينهم ويلفونها على أنابيب القصب ويلقونهـا للأوثان • وآخـرون خيروا بين أن يسجـدوا للأوثان أو يعـذبوا الى الممـات فآثروا الهلاك فهلك منهم عدد لا يحصى • واسـتمر اضـطهاد فاليريان ثلاث سـنين ونصف وانتهى فى سنة ٢٦٠ م •

(٥) ضيق بسبب الحرب ومآثر المسيحيين فى تخفيفه :

تبوأ غالينوس العرش بعد أبيـه فاليريان ولـكنه انهمك فى الملاذ فرأى مكريانوس الساحر الوثنى أن يكون ملكا على مصر فأبى المسيحيون الخضوع له فعاداهم معاداة عظيمة حتى قام ايمليانوس الوالى وأخذ منه التاج وحكم مصر حكما جائرا • وبعد ذلك أتاه تيودتس قائد جيش غالينوس وحاصره

ودامت الحرب بينهما سجالا مدة من الزمن أصيبت البلاد فيها بنكبات عديدة وتحمل المسيحيون منهـا العبء الثقيل لقيـامهم بمساعدة المنكوبين وتخفيف آلامهم وقـد كتب البـابا ديونيسيوس رسالة فى عيد الفصح سنة ٢٦٤ م يصف فيها هول الحرب وكيف كان المسيحيون سببا فى تخفيفها قال :

« ان الوقت الحاضر أصبح كغيره فى الأوقات الغـابرة اذ يعسر فيه على الـكثيرين من المسيحيين أن يؤدوا فريضة عيد الفصح وسيان عنـدنا أوقات الحزن والغم وأيام الفرح والسرور التى لا يكاد يراها احد ولو فى المنـام لـكثرة توالى المصـائب وتتـابع النكبات حتى أصبح الانسان لايقع نظره الا على عيون تدمع وقلوب تفجع ومآق تسيل على الخدود بدل الدمع السخين الذى تنشق له الأعين حزنا على أناس أتقيـاء كثيرين ماتوا ودرجوا الى العالم البـاقى • واذا مررت الآن فى المدينة لسمعت التنهدات والزفرات يكاد القلب يتفطر منهـا أسفا على أقوام مشرفين على الهـلاك ينظرون أبواب القبور مفتوحة أمامهم تكاد تبتلعهم قبلما تفـارق أرواحهم الأجسـاد حتى أصبحنا فى زمن أشبه بالزمن الذى مات فيـه كل بكر فى أرض مصر على يد موسى فلم يخل بيت من البكاء والعويل لأنه يوجد ميت على الأقل فى كل منزل وكنت أتمنى لو أن يكون هـذا كل البلاء ويقف المصاب عنـد هذا الحد مع ما يسبقه من أهوال تشيب لهـا النواصى وتصطك منها الركب بل زادوا فى أنهم طردونا طردا وأقصونا الى أماكن بعيدة ثم أخذوا يضطهدونا حتى أماتوا أكثرنا ومع ذلك فـلا نزال نعيـد العيد بكل احتفـاء واحتفال وكلما كان اضطهادنا شـديدا كلما كان عيـدنا بهيجا • وكان المـكان الذى نذوق فيـه أشد الأعذبة لابد وأن نقيم فيـه أهم الحفـلات الدينية ولم نترك حقلا ولا مغـارة ولا سفينة ولا خانا ولا سجنا الا وعملنا فيـه جمعية يذكر فيهـا اسم الرب وينـادى بكلمته جهارا • أما أهم الأعياد وأكثرها مجلبة للفرح والسرور فهو العيـد الذى يحتفل به جمـاعة الشهداء الأبرار الآن فى السماء حيث يرأس حفلتهم الرب يسوع نفسه حيث لا ألم ولا تعب ولا جوع ولا شىء من مصائب هذه الحياة وبلاياها •

« وقـد أعقب هـذه النكبات حرب تلاها جوع وسـغب أصـابنا نحن والوثنيين على السواء ولـكن الضرر الأكثر لحق بالفقراء المساكين الذين اثر فينـا حالهم تأثيرا شـديدا فـكنا نواسيهم ونشاطر كل من انتابتـه مصيبة فى بلاياه ونرثى لأمرهم ونعطف عليهم عطفـا ينتج من قلوب رقيقة واحساسات مسيحية شريفـة تتأثر لمصـاب بنى البشر الذين هم اخوتنا فى الانسانية • ثم جاءت بعـد كل هـذه هـدنة قصيرة منحهـا لنـا الرب يسوع المسيح تمتعنـا فيهـا بشىء من الراحة والفرح ولم نلبث طويلا على هذه الحالة حتى داهمنا وباء فتـاك مسنا مسا ولـكنه فتك بالوثنيين فتكا ذريعـا •

فلما قـدم هـذا الداء الوبيل بخيله ورجله ظهرت احساسات الاخوة المسيحيين نحو القوم المصابين وبانت نواياهم الحسنة وعواطفهم الحبية مع

كل مريض مدنف حتى أنهم لم يخشوا شر الداء ولم يخافوا على أنفسهم من الهلاك بل عمدوا الى تمريض الضعفاء وسد حاجات المعوزين بهمة شماء ومروءة علياء وهى أعمال كانت تضىء فى هذه الأيام السوداء كما يضىء مصباح لامع فى حالك الظلام وديجوره فكانوا يداوون المرضى بالأدوية الروحية أولا حتى اذا فارقوا هذه الحياة الدنيا انطلقوا الى الأبدية وفى قلوبهم رجاء لا يفنى بالحياة الآتية • وكان كثيرون من هؤلاء الاخوة الذين يخدمون المرضى يموتون معهم بعد أن يصابوا بعدوى أمراضهم• نعم كانوا يموتون فرحين مسرورين لموت هو رقاد موقت تعقبه حياة أبدية سعيدة • وكانت العدوى تنتقل من المصاب الى الصحيح لأن هذا كان يستخرج مصل الداء منذلك بواسطة مصهكأنهم كانوا يحملونأعباء الأمراض من على أعناق الآخرين ولذلك مات الكثير من المسيحيين فداء لاخوانهم المرضى وهو عمل يظهر منه الفرق الكبير بين المسيحى الحقيقى الذى يضع نفسه عن الآخرين كما فعل سيده قبله وبين أولئك الذين يظهرون فى مظهر المحبين المخلصين بواسطة احساس غير حساس يبدونه فى آداب باطلة وتحيات فارغة ومودة عقيمة ولكن اذا جاء وقت الشدة فزعوا من أصدقائهم وابتعدوا عنهم أو قدموهم قربانا لأغراضهم اذا كان فىتقدمتهم ما يجلب بعض النفع أو يزيل شيئا من الضرر • ففى زمن هذا الوباء انتقل الكثيرون من خيرة الاخوة وأفاضل الأمة وذهبوا الى الدار الباقية شهداء الخدمة المسيحية وكان فيهم القسوس ومشائخ الكنيسة وشمامستها وغيرهم من الشعب الذين اشتهروا بحسن السيرة وطيب السمعة فالموت بهذه الكيفية وما اقترن به من شفقة عميقة وايمان حار وغيرة تقوية ومحبة مخلصة لا يقل فى الأهمية عن الاستشهاد الذى يحدث فى زمن الاضطهادات والذين يموتون بالطريقة المار ذكرها كانوا يكرمون ويحتفل بموتهم احتفالا باهرا اذ كانوا يحملون على الأكف ويوضعون فوق الرؤوس بعد أن تنغلف عيونهم وتكفكف كل دمعة منها ذرفت ساعة الحشرجة وتقفل أفواههم ويكفنونهم بأحسن الأكفان وأثمنها ومن ثم يدفنوهم باجلال واكرام وهكذا يودع الواحد منهم أخاه ويعود فلا يلبث طويلا حتى يودعه غيره على الطريقة التى اتبعها هو مع سابقه • أما الوثنيون فكانوا على الضد من ذلك ولاعجب فى هذا ولا غرابة مادامت الاحساسات المسيحية والعواطف التقوية لم تجد لها طريقا للقلب ولم تعمل فيه عملها المعروف فكان أولئك الوثنيون عندما يشعرون بأن أحدهم مريض يبتعدون عنه ويتنحون عن أعز أصدقائهم ومحبيهم وقد بلغت بهم القساوة مبلغا عظيما حتى كانوا يطرحون مرضاهم فى الأزقة والشوارع وهم بين حى وميت فاذا فارق المريض هذه الدار رموا به فى عرض الفلا دون أن يواروه التراب ومن غير أن يظهر على سماتهم أدنى المظاهر التى تدل على التأثير والاحساس ولو احتاطت بهم كل العوامل المؤثرة الفعالة » أهـ •

القسم الرابع

البـــدع والانشــقاقات

(١) سابليوس

(٢) نيبوس صاحب بدعة الألف سنة

(٣) بيرلس أسقف بصره (٤) بولس السيمساطى

(٥) مانى (٦) هيراكس

(٧) الخلاف على عماد الهراطقة والجاحدين

---

(١) سابليوس :

أحد أساقفة بطلومايس بالخمس المدن الغربية كان قد تربى فى مدينة رومية وتتلمذ لنوئيتوس الهرطوقى وأخذ عنه تعـاليمه التى تنحصر فى أن الله أقنوم واحـد أعطى النـاموس لبنى اسرائيل بصفته الآب وصار انسانا فى العهد الجديد بصفته الابن وحل على الرسل فى علية صهيون بصـفته الروح القدس ومن اعتقاد نوئيتوس سمى تابعوه « مؤلى الآب » (١) الا أن سابليوس فصـل ما تعلمه الـكتب عن الآب والابن والروح بنوع يختلف عن نوئيتوس ٠ فاعتقـد أن جزءا من الطبيعـــة الالهيـــة انفرز من الله الآب وكون الابن بالاتحاد مع الانسان يسوع المسيح وأن جزءا آخر انفصل عنه فكون الروح القدس ٠

وكان أول من اعتنق بدعة نوئيتوس وســابليوس زفيرينوس أسقف رومية وكاليسطوس خليفتــه وســاعدا المبتــدعين على نشر بدعتهمـا حتى انتشرت تلك الأراجيف وعمت أنحـــاء الغــرب ٠ وممـا زاد الطين بلة أن كاليسطوس ســام أساقفة وقسوسا وشمامسة من الذين تزوجوا ثانية وثالثة

---

(١) ان أول من نشر بدعة « مؤلى الآب » هو ابراكسياس الذى وفـد على رومية من آسيا الصغرى وفتح مدرسة بث فيهـا ضـلاله واستطاع أن يجذب الى هرطقتــه زفيرينوس أسقف رومية وكاليسطوس خليفتـه وقام بعد ابراكسياس تلميـذه نوئيتوس بنشر بدعته ٠ فلما علم البـابا ديونيسيوس ان هـذه البـدعة أخـذت تتسلط على عقول الرومانيين كتب لنوئيتوس رسالة طويلة شرح فيهـا التعليم الصحيح وفند بدعته ٠ فليعتبر الباباويون الذين ينـادون بعصمة باباواتهم ويقفوا عند حدهم معترفين لبـاباوات الاسكندرية بالفضـل فلولا غيرتهم الدينيـة لأصبحت الـكنيسة الرومانيـة الآن مجموعة هرطقـات فضلا عما هى عليه بفضل تساهل باباواتهم الأكرمين الذين لم يكن يهمهم سوى اتساع سلطتهم وازدياد نفوذهم٠

ثم أباح العماد لمغفرة الخطايا وادعى بأن الأسقف لا يقطع من الـكهنوت مهما جنى من الآثام • ولما لم يوافقه سابليوس على ذلك حرمه فجاء الى مصر سنة ٢٥٧ م وأخذ ينشر فيها بدعة « مؤلى الآب » فجذب اليه كثيرين ولما اتصل أمره بالبابا ديونيسيوس قاومه بشدة كما مر بنا فى تاريخ حياة هذا القديس وانتهى الأمر أخيرا بحرم سابليوس فى مجمع عقد سنة ٢٦١ م •

(٢) نيبوس صاحب بدعة الألف سنة :

كان أسقفا لأبروشية أرسينو فى الفيوم عرف بين رعيته بصفات حميدة جعلتهم يحترمونه احتراما زائدا • هذا الأسقف أخذ يعلم شعبه تعليما جديدا ذهب فيه الى تأكيد اقتراب الوقت الذى يملك فيه المسيح الف سنة على الأرض كأحد ملوك العالم مفسرا ما قيل فى سفر الرؤيا عن ذلك تفسيرا حرفيا • ووضع كتابا سماه « مضادة المتغزلين» كما لقبه مزدريا بمضادى الألف سنة • اعترض فيه على من يقولون بأن أقوال سفر الرؤيا تدخل تحت باب المجاز • وقد اجهد نفسه فى اقناع رعيته بذلك المبدأ فقبلوه بدون فحص •

وكان هذا الاعتقاد قد عرف فى عهد العلامة أوريجانوس فقاومهبشدة وأفناه بالمرة مفسرا الآيات المصرحة بملك المسيح الف سنة أنها تشير الى الأفراح الروحية المناسبة طبيعة الأرواح التى تقوم كاملة وذلك لا يكون فى هذا العالم بل فى العالم الآتى • الا أن نيبوس قصد احياء هذا الاعتقاد مرة أخرى بعد اضمحلاله وبعد موت نيبوس أخذ رجل اسمه كراسيون مركزه فى اذاعة تلك البدعة وهو رجل خبير ذو شرف وسطوة •

ولما اتفق للبابا ديونيسيوس ان يفتقد رعيته سنة ٢٥٥ م وقف على هذه البدعة وعرض عليه تابعوها أن يحكم فيها فاستعمل الحكمة المتناهية وجذبهم اليه باللطف والرقة وعقد مجمعا هناك ظل ثلاثة أيام تليت فيه احتجاجات نيبوس وبعدها كتب البابا ديونيسيوس رسالة ووضع نبذة فى « المواعيد الالهية » دحض فيها تلك الأفكار •

ولم يكتف البابا ديونيسيوس بذلك بل وضع شرحا لسفر الرؤيا قاعدته أنه يجب أن لا ينظر لعبارات هذا السفر نظرا حرفيا اذ هو عبارة عن رموز ونبوات بعضها تم وبعضها سيتم فى وقته • ويقول بعض المؤرخين أن هذا البابا ارتأى أن يوحنا الرسول ليس هو الذى كتب سفر الرؤيا بل وضعه يوحنا آخر غير أنه اعترف بأنه سفر موحى من الله يجب قراءته مع الحذر الـكلى •

(٣) بيرلس أسقف بصرة :

علم أن السيد المسيح قبل ولادته من العذراء لم يكن له لاهوت متميز بل انما كان له لاهوت الآب أى أن المسيح لم يكن له وجود قبل ولادته من مريم وأنه فى ولادته دخلت واتحدت بالانسان النفس الانسانية التى أصلها من الله وهى بلا ريب فائقة كل النفوس البشرية لأنها منبثقة من الطبيعة الالهية • ولما انتشرت هذه البدعة وبلغت مسامع العلامة أوريجانوس قام لبلاد العرب ودحض تعليم بيرلس فى مجمع انعقد ببصره سنة ٢٤٤ م وتمكن أوريجانوس من أن يرد بيرلس الى الحق ووفى هذا لذلك العلامة وأصبح بعد ذلك من أكبر أصدقائه وأشد المدافعين عنه •

(٤) بولس السيمساطى :

ولد فى سيمساط (مدينة صغيرة فيما بين النهرين) عن والدين فقيرين ولكن حاز على غنى طائل بوسائل محرمة • ولا يعلم بأى واسطة توصل الى أن يكون بطريركا على الكرسى الانطاكى • ولما أثرى بعد الفقر المدقع انهمك بالملاذ وكان يصطحب معه أين قام أو رحل امرأتين جميلتين يقضى معهما أكثر أوقاته • وكان مغرما بالرفاهية والفخفخة بحيث لم يكن يسير فى الطرقات الا ومائة من الخدم يتقدمونه ومائة يتبعونه • وأبدل تراتيل الكنيسة بنشائد لمجده كلف بنشيدها النساء • واذا خطب كان يجعل الناس أن تصفق له آخر كل مرة •

وكانت له حظوة كبرى عند زينب ملكة تدمر حتى وكلت اليه جباية الخراج وبذلك تقلد وظيفة دوسناريوس (أى والى مدنى من الدرجة الأولى له مرتب سنوى ٢٨٠ سترشيا أى ٣٥٩٦٠ فرنكا) وكان حرصه على القيام بوظيفته المدنية أشد منه على اتمام فروضه الدينية لأنه كان يتخذها سلاحا ضد اكليروسه ورعيته خوفا من مقاومتهم له •

وقد استمر فى طغيانه وتجبره حتى سقط فى هرطقة فظيعة زعم فيها أن ابن الله لم يكن من الأزل بل ولد انسانا حل فيه كلمة الله وحكمته عندما ولد من العذراء وأن هذه الحكمة التى مكنته من أن يعلم ويعمل العجائب فارقته حين قدم على الآلام • وبسبب اتحاد الكلمة الالهية هذا بالانسان يسوغ القول أن المسيح هو الله وليس بمعناها الحقيقى • ونشأ عن ذلك ضلاله الآخر وهو أنه كان فى المسيح اقنومان وابنان لله احدهما بالطبيعة والآخر بالتبنى • وبذلك شايع سابليوس فى انكار الثالوث الأقدس بقوله يوجد اله واحد تحسبه الكتب المقدسة بالآب وأن حكمته وكلمته ليست أقنوما بل انها فى العقل الالهى بمقام الفهم فى العقل الانسانى •

ولما بلغت القديس ديونيسيوس البطريرك الاسكندرى أخبار هذا الهرطوقى أرسل اليه رسائل عديدة وبين له فيها مخالفة غواياته لنصوص الكتاب وشهادة الآباء ٠ وقد جاوب بولس على بعض هذه الرسائل مواربا ومواريا ضلاله ٠ ولأجله عقد مجمع فى انطاكية تكرر انعقاده مرارا ٠ وكان المتقدمون فيه فرميليانوس أسقف قيصرية وأغريغوريوس أسقف قيصرية الجديدة وأخاه ايثنوذورس وايلينوس أسقف طرسوس وايماناوس أسقف أورشليم وغيرهم كثيرون ٠ أما القديس ديونيسيوس فلم يتمكن من اجابة دعوة المجمع لداعى شيخوخته واكتفى بما أرسل من الرسائل للمجمعوبولس مفندا ضلاله كما مر بنا ٠

وكان بولس السيماساطى حينما يحضر المجمع يراوغ كثيرا فى أقواله فمن جهة لا يبوح بحقيقة اعتقاده ومن جهة أخرى يسلم للمجمع بما يطلب منه التصريح به ٠ ولما لم يذعن للحق كتب أعضاء المجمع رسالة الى البابا مكسيموس البطريرك الاسكندرى وديونيسيوس أسقف رومية يبينون فيها معائب السيماساطى واصراره على ضلاله ٠

أما بولس فما فتىء مستمرا على ضلاله مستعملا المراوغة فى جميع أقواله فكان تارة يستغيث من قساوة الأساقفة عليه وطورا ينكر ما عزى اليه من الضلال حتى عقد بشأنه مجمع آخر حضره أساقفة أكثر عددا وخلعوه من بطريركية الكرسى الانطاكى وأقاموا عوضا عنه دمنوس ٠ غير أنه لم يرضخ للحكم بل استعصى بالدار البطريركية مستعينا بقوة تدمر فعرض الأساقفة أمره الى القيصر الرومانى أورليان فحكم بأن تعطى الأسقفية لمن انتخبه المجمع ٠

(٥) مانى :

ولد سنة ٢٣٩ م وهو من الذين قاومهم البابا مكسيموس البطريرك الاسكندرى ٠ كان أبا للمانيين ودعى كذلك لأنه نسب الى ذاته لقب البارقليط وكان أسيرا فى بلاد فارس فلما عتق من هناك تبنى لعجوز انفقت على تعليمه بين المجوس فدرس علومهم وفنونهم فكان فلكيا (ولو أنه غير متعمق) ومصورا وطبيبا وفيلسوفا ولكنه لم يضع حدا لمخيلته فتوسع فى تصوراته للغاية ٠

وبعد أن تنصر أراد أن يقرن مبادىء المجوس والمسيحيين معا وطفق يبث ضلاله سنة ٢٦٨ م واتماما لغرضه شرع يذيع بأن المسيح ترك عمل الخلاص ناقصا وأنه هو البارقليط ٠ وكان فى أول أمره يتباهى بكونه مسيحيا ويفسر الأسفار المقدسة ويجادل اليهود والوثنيين ٠ وبعد سقوطه فى خطية الهرطقة اتخذ لنفسه اثنى عشر تلميذا واثنين وسبعين أسقفا ممثلا المسيح وتحت كل أسقف قسوس وشمامسة وأرسلهم الى بلاد المشرق

بأسرها حتى الهنـد والصين ليـذيعوا تعاليمه فانخـدع كثيرون بغوايتـه وتتلمذ له عدد عظيم ٠

ثم انكب على السحر خاصة ولكى يكتسب شهرة أخذ يعالج ابن ملك الفرس الذى كان الأطبـاء قـد عجزوا عن شفائه فمـات الصبى تحت يده ولذلك القى فى السجن وحكم عليه بالموت ولـكنه رشى الحراس فمكنوه من الفرار وذهب الى فلسطين حيث قاومه أحد الأساقفة وأنكر عليه تعليمه وطرده خوفا من أن يضل الشعب فـذهب الى العربة فشعر به ملك الفرس وأرسل وقبض عليه وسلخ جلده حيا برؤوس القصب ثم سلم جسده للوحوش وحشا جلده تبنا وعلقه على باب المدينة ٠

وبعد موته تهيج تابعوه عوضا عن أن يخافوا فطاف أقدرهم وأفصحهم فى سـوريا وفارس ومصر وأفريقيـا وأكثر أماكن العالم وبصرامة آدابهم وبساطة ديانتهم تلمذوا فى كل مكان تلاميذ ومع كل الاضطهاد الذى الم بهم نسلهم باق للآن فى الجبال بين فارس والهند ٠

أما غوايات مانى فيوضحها أحسن ايضاح موسهيم المؤرخ (١) فروى أنها كانت مؤلفة من تعاليم المسيحية وفلسفة الفرس القديمة التى تلقنهـا فى مدارسهم وهو صغير ٠ وما تكلم به الفرس عن ملكهم ميثراس تكلم به مانى عن المسيح فعلم بأنه يوجد لـكل شىء مادتان الواحدة نور والأخرى ظلمة وللاثنتين ربان رب النور سمى الله ورب الظلمة سمى الشيطان وكلاهما متضادان فى الطبيعـة والأميـال ٠ ولأن اله النور سعيد فهو رحوم محسن ولأن اله الظلمة شقى يسعى ليجعل الغير أشقياء وكل واحد منهما أوجـد طائفة كبيرة من نسله على شكله ووزعها فى مملكته ٠

واستمر اله الظلمـة مدة طويلة لا يعلم بوجود نور أو اله له ولـكنه شعر بذلك من حرب حدثت فى مملـكته فحـاول أن يستولى على اله النور فعارضه هذا بجنوده غير أن قائدهم المـدعو الانسان الأول لم ينجح وتمكن جنود الظلمة من أخذ جانب عظيم من العنـاصر السموية ومن النور ذاته الذى هو مادة حيوية فمزجوها بالمادة الفاسدة فقام من جنود النور قائـد آخر يسمى بالروح الحى ومع أنه نجح كثيرا الا أنه لم يتمكن من تحرير مادة النور التى مزجت بالعناصر الرديئة ٠

وبعد ذلك أوجد اله الظلمة آدم وحواء فكل مولود من هذا المزيج قائم

(١) تاريخه للـكنيسة ص ١١٥ : ٣ ـ ١٠ ٠

بجسد من المادة الفاسدة وبنفسين احداهما شهوانية من اله الظلمة والأخرى عقلية خالدة لأنها من النور الالهى · ولما صنع رئيس الظلمة الناس من عقول غطاها بالأجساد خلق اله النور بواسطة الروح الحى أرضنا هذه من المادة الرديئة وجعلها مسكنا للجنس البشرى ووسيلة لتمهيد طريق تخليص النفوس تدريجيا من أجسادها وافراز الجيد من الردىء ·

ثم أخرج الله بعد ذلك من نفسه كائنين عظيمين وهما المسيح والروح القدس لاعالة النفوس المغشاة بالأجساد فالمسيح هو الشخص الذى يدعوه الفرس ميثراس وهو مادة سامية جدا من أنقى نور الله واجبة الوجود حيوية فائقة الحكمة مسكنها الشمس · وكذلك الروح القدس مادة حيوية براقة منتشرة فى كل الجلد المحيط بأرضنا يدفىء نفوس البشر ويبهجها ويجعل الأرض مثمرة ويخرج منها تدريجا نطفات النار الالهية المنتشرة وينهضها حتى ترجع الى عالمها التى أتت منه ·

وبعد أن أنذر الله طويلا النفوس المحبوسة فى الأجساد بواسطة ملائكة وأناس علمهم مشيئته أرسل أخيرا المسيح ابنه وأنزله من الشمس الى عالمنا هذا لكى يسرع برجوع الناس الى وطنهم السموى · فظهر المسيح بين اليهود لابسا صورة وظل جسد انسانى لا جسدا حقيقيا وأعلن لهم الواسطة الوحيدة لخلاص النفوس من أجسادها وبرهن على لاهوته بعجائبه · ولكن اله الظلمة أغوى اليهود ليصلبوه · ولما لم يكن له جسد لم تؤثر عليه الآلام ولكن اليهود حسبوه صلب فرجع المسيح الى الشمس مسكنه الأول بعد أن ترك تلاميذه لتعليم الناس ديانته ووعدهم بارسال رسول أعظم يفصح عن حقائق أسمى وهو البارقليط الذى كان يدعى مانى بأنه هو ·

والذين يؤمنون بألوهية المسيح ينبغى أن لا يعبدوا اله اليهود وهو اله الظلمة وأن يطيعوا شرائع المسيح التى أوضحها مانى ويقاومون بثبات شهوات النفس الشريرة وهكذا يتخلصون شيئا فشيئا من مادة رئيس الظلمة الفاسدة · غير أن كمال التطهير لا يفوز به الانسان فى هذه الحياة بل بعد الموت يحصل للنفس تطهيران الأول بالماء المقدس الموجود فى القمر ويلبثون فيه خمسة عشر يوما والثانى بالنار المقدسة الموجودة بالشمس وهذه تطهرهم تماما أما الأجساد فتنحل الى عنصرها الأصلى ·

أما النفوس التى لم تهتم بالتطهير فتسكن بعد الموت أجساد البهائم والبشر حتى تطهر · والأكثر انحطاطا يسلمون للارواح الشريرة المقيمة فى جلدنا ليعذبوا زمانا ما · وحين تتحرر أكثر النفوس وترجع الى عالم النور فحينئذ يأمر الله فتخرج نار جهنم من مقرها وتحرق وتلاشى هذا العالم ·

وبعد ذلك يرغم رئيس الظلمة وجنوده على الرجوع الى مقرهم الأصلى ويدومون فيه فى حال الشقاوة ويحاطون بحرس قوى من النفوس التى يئست من خلاصها حتى لا يقووا على محاربة اله النور ثانية ٠

ولكى يجعل مانى سبيلا لقبول مبادئه رفض أكثر العهد الجديد معتقدا بأنه حرف عن أصله ولا سيما العهد القديم الذى كان يعتبره من انشاء اله الظلمة الذى يعبده اليهود ووضع انجيلا دعاه (ارتن) مجاهرا بأنه موحى به اليه من الله ٠ ثم وضع لتابعيه عيشة صارمة فأمرهم بممارسة كل ما يضعف الجسد الذى هو عمل رئيس الظلمة ٠ وقسم تابعيه الى قسمين المختارين الذين ينبغى أن يتمتعوا من اللحم والبيض والحليب والسمك والخمر وكل أنواع المسكرات والزواج وكل تمتع ناتج من مخالطة الذكور الاناث والسامعين وقد صرح لهم بامتلاك البيوت وبأكل قليل من اللحم والتزوج بنساء ٠ ويغلب أن المختارين هم الأساقفة والقسوس والشمامسة والعلمانيين هم السامعون ٠

ويقول الآباء ان مانى هو الذى كان يتنبأ عنه الرسول بولس بقوله « ولكن الروح يقول صريحا أنه فى الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الايمان تابعين أرواحا مضلة وتعاليم شياطين ٠ مانعين عن الزواج وآمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر » (١ تى ٤ : ١ ـ ٣)

(٦) هيراكس :

أصله من ليونتوبوليس كانت صناعته عمل الكتب واشتهر بالعلم والتقوى ومع أنه شارك مانى فى بعض الآراء الا أنه خالفه فى أمور كثيرة فعلم أن عمل المسيح العظيم أن يسن شريعة جديدة أكمل وأدق من شريعة موسى ٠ ولهذا جزم بأن المسيح منع تابعيه عن الزواج واللحم والخمر وكلما تتلذذ به الحواس أو الجسد من الأشياء التى سمح بها موسى ثم منع أن يدخل الأطفال ملكوت السموات التى لا يستحقها الا الذين قاوموا الجسد وشهواته واعتقد أيضا أن ملكى صادق ملك سليم الذى بارك ابراهيم هو الروح القدس ٠ وأنكر قيامة الأجساد وفسر الكتاب المقدس ولا سيما الأسفار التاريخية تفسيرا تشبيهيا ٠

(٧) الخلاف على عماد الهراطقة والجاحدين :

كان من أهم المباحث فى الكنيسة فى هذا القرن المبحث فى ما اذا كان تعميد الهراطقة صحيحا أم باطلا واذا رجع أحدهم الى الكنيسة أيعاد تعميده أم يحسب معمدا ٠ ففى هذا الموضوع اختلفت آراء الكنائس قديما ٠ فكنائس آسيا الصغرى والكبادوك وكيليكية وغلاطية وسورية ومصر وأفريقية كانت تعتقد أن المعمودية لا تعتبر صحيحة ذات قوة فعالة ما لم تكن

بيد رؤساء الكنيسة الأرثوذكسية التى تجرى كل الأسرار على وجه صحيح ولذلك كانوا يعيدون معمودية من يرجع الى حضن الكنيسة من الهراطقة • غير أن رومية والكنائس الغربيـة كانت تقول بأن كل معمودية تتم باسم الثالوث الأقدس هى مقبولة ولهذا لم يكونوا يعمدون التائبين من الهراطقة وكانوا يكتفون بوضع الأيدى والصلاة على من اهتدى منهم • ولأجل ذلك اجتمع مجمع فى ايقونية ومجمع فى سنادا سنة ٢٣٠ م برئاسة فرميليانوس أسقف قيصرية تقرر فيهما عدم صحة معمودية الهراطقة • وفعل مثل ذلك أغريبينوس أسقف قرطجنة بعقده مجمعا فيها سنة ٢١٧ ـ ٢٢٣ م وقرر القرار عينه •

والذى ساعد على اشعال نار هذا النزاع ظهور بدعتين فى هذا الشأن الأولى بدعة نوفاسيانوس أسقف رومية الدخيل وتقضى برفض توبة الذين يجحدون الايمان أو يقعون فى اثم كبير وبوجوب اعادة العماد الذى يتم على أيدى الهراطقة وكذلك عماد الأرثوذكسيين الذين يتساهلون فى قبول الهراطقة التائبين • واعتنق مذهب نوفاسيانوس عدد كبير من الكنيسة الرومانية غير أنهم ما لبثوا أن أدركوا خطأهم وعزموا على العودة الى حضن الكنيسة ولما كانت عادة كنيسة رومية أن لا تعمد الهراطقة توقف الكهنة عن قبولهم ريثما يتفقون على رأى بشأن الراجعين من هرطقة نوفاسيانوس • فكتبوا الى القديس كبريانوس أسقف قرطجنة يسألونه رأيه فأجابهم برسالة جاء فيها « أن المعمدين من أيدى الهراطقة هم وحدهم الذين يجب اعادة عمادهم • أما الذين قبلوا العماد من الكنيسة الأرثوذكسية فعمادهم صحيح » أهـ ولما كان كبريانوس يفهم أن كثيرين من المسيحيين التابعين لكنائس متعددة قد جحدوا الدين اثر الاضطهادات التى أثارها الملوك الوثنيون قال للكهنة الرومانيين فى الرسالة عينها « أما مسألة الجاحدين التائبين فلا تتعلق بكنيسة رومية منفردة ولذلك يجب أن تحكم فيها الكنائس مجتمعة » (١) ولقد استصوب الكهنة الرومانيون هذا الرأى كما يثبت ذلك من رسالتهم الثانية الى كبريانوس التى جاء فيها « ان القضايا العامة لا يجب أن تنفرد كنيسة بالفصل فيها لأن فى ذلك خطأ عظيما واهانة كبرى لمجموع الكنائس المسيحية فضلا عن أن الكنيسة التى تتعرض لاصدار حكم فى قضية عامة يصبح حكمها ملغى ولا يعول عليه » أهـ (٢) •

والبدعة الأخرى بدعة فيلكسيموس الذى كان يعلم هو وأتباعه بوجوب الصفح عن الذين جحدوا الايمان بمجرد الشفاعة التى يتحصلون عليها من المؤمنين الموجودين فى السجون • والذى دعا الى نشر هذه البدعة هو أنه بسبب اضطهاد ديسوس قيصر للمسيحيين زل كثيرون منهم وقدموا الذبائح

---

(١) كبريانوس فى رسالة رقم ١٩ •   (٢) رسالة كبريانوس رقم ٣١ •

للأوثان اجابة لطلب معذبيهم ثم أرادوا بعد ذلك أن يرجعوا الى شركة الكنيسة بدون أن يخضعوا للتأديب الصارم حسب قوانينها ٠ ولكى يحصلوا على الغفران بأكثر سهولة التجأوا الى شفاعة الشهداء المحكوم عليهم بالموت وأخذوا منهم مكاتيب توصية بها يعلن الشهداء المشرفون على الموت أنهم حسبوا هؤلاء الأشخاص مستحقين لشركتهم وطلبوا أنيقبلوا ويعاملوا كاخوة فبعض الأساقفة والكهنة قبلوا حالا الجاحدين الذين قدموا مكاتيب كهذه لكن كبريانوس وغيره من ذوى الحزم والغيرة مع أنه لم يرد أبدا أن يبطل كرامة الشهداء قاوم الارتخاء الزائد وأراد أن يضع حدا لفعل مكاتيب التوصية هذه ٠

وفى سنة ٢٥٣ م قام على كرسى رومية الأسقف استفانوس واتباعا لعادة كنيسته شدد بمنع معمودية الهراطقة ولم يكتف بذلك بل خاطب فرميليانوس أسقف قيصرية وطلب منه الامتناع عن تعميد الهراطقة ٠ غير أن فرميليانوس أهمل كتابه فعقد استفانوس مجمعا سنة ٢٥٤ م حكم فيه بقطع فرميليانوس ومن وافقه من أساقفة كيليكية وغلاطية ٠ ولما كان القديس كبريانوس مشتركا مع هؤلاء فى المعتقد تهدده استفانوس بحرمه ان لم يقلع عن هذا الاعتقاد فلم يعبأ كبريانوس بهذا التهديد وقابله بمجمع عقده فى قرطجنة سنة ٢٥٥ م وبعد مباحثات طويلة حكم بضرورة اعادة عماد الهراطقة ومن تعمد على يدهم ممن يرجعون الى الكنيسة ٠ وأما الذين كانوا معتمدين فى الكنيسة وسقطوا فى كفر أو هرطقة فحكموا بعدم اعادة معموديتهم نفيا لبدعة نوفاسيانوس أسقف رومية الدخيل ٠

وأرسل المجمع قراره لاستفانوس أسقف رومية ومن جملة ماقيل له هذا الكلام « ان كل رئيس روحى حر فى سياسة كنيسته ٠ لأنه سيقدم حسابا عن أعماله للرب » (١) غير أن استفانوس رفض هذا القرار وكتب الى أساقفة افريقية يحثهم على الاقتداء به فى رفض قرار كبريانوس وجاوب أعضاء مجمع قرطجنة بقوله « يجب عليكم أن لا تحدثوا شيئا بل ان تجروا على التسليم وتقبلوا بوضع الأيدى فقط الذى يأتى اليكم من أية هرطقة كانت ٠ لأن الهراطقة أنفسهم لا يعمدون الذين ينتقلون من هرطقة الى أخرى٠ بل يقبلونهم قبولا بسيطا فى شركتهم » (٢) ثم هددهم بالقطع ان لم يذعنوا لارادته ٠

أما كبريانوس فاستغرب منه هذا العناد وأنكر عليه خضوع كنيسة أفريقية لاستبداده وكتب رسالة الى بومبيوس أحد أساقفة افريقية ضد استفانوس جاء فيها قوله « اننا لانجد مثلهذا القرار (أى قرار استفانوس)

---

(١) رسالة ٧٢ لكبريانوس ٠ (٢) رسالة ٧٤ لكبريانوس ٠

لا فى الانجيل ولا فى الرسـائل ولا فى أعمال الرسل ٠ وباطلا يقاومنـا بعض مستندين على العادة وهم مغلوبون من البراهين العقلية ٠ كأن العادة تعلو على الحقيقة أو كأنه لا يجب أن نجرى فى الروحيـات على ما أعلن من الروح القدس أنه الأفضل » أهـ (١) ٠

ثم أرسل أساقفة افريقية أيضا رسالة أخوية الى استفانوس يدعونه الى الاتحاد معهم فلم يشأ أن يقابل حملة الرسالة ولم يسمح لهم حتى ولا بمأوى وجاوبهم بخشونة بخطاب لقب فيـه كبريانوس بالرسـول الغـاش والنبى الـكذاب (٢) وما علم كبريانوس بذلك حتى كتب الى اخوته أساقفة افريقية يحذرهم من الوقوع فى ضلال استفانوس ٠ ولقـد جاء فى رسالته الى بومبيوس « أنه (اى استفانوس) صـديق الهراطقـة وعدو المسيحيين يقول بأنه يقدم كرامة لله ويظن بأنه حرم كهنة الله المحافظين على حقيقـة دين المسيح واتحاد الـكنيسة ٠ فان كانت الـكرامة لله تقـدم على هذا الوجه وان كان خوف الله والشىء القـانونى يحفظ من عباده وكهنته على هذه الصورة فلنرم سلاحنا ولنمد أيدينـا الى السبى » ثم قال له « ان هذا الأسقف الضال استفانوس قـد دل برسالته على جهله وغباوته » أهـ (٣) ٠

وقال فى رسالتـه الى كينتوس « أن بطرس الرسـول (الذى يدعى استفانوس أنه خليفته) لم يقل قط بتقدمه على سائر الرسل ولم يطلب ممن أتوا بعده فى الرسالة أن يقدموا له فروض الخضوع والطاعة ولم يدع أنهم دونه فى الرتبـة » أهـ (٤) ولم يكتف كبريانوس بهذه الرسائل بل عقد مجمعا ثانيا فى قرطجنة أبدى فيه كل من الأساقفة رأيه الخاص فقـال الأسقف الثالث والعشرون فى ترتيب جلوس الأساقفة فى المجمع « أنه جحد ايمان الـكنيسة ويجب أن لا يكون جحوده سـببا فى اضـطراب مجموع الأساقفة » وقال الأسقف الحادى والستون « أنه يهوذا الأسخريوطى الذى باع عروس المسيح لأعدائها » (٥) ٠

وكان فرميليانوس أسقف قيصرية قد أرسل هو أيضا وفدا الى رومية فقوبل هناك أسوأ مقابلة كوفد كبريانوس ولم يسمح له بسقف يبيت تحته ومن ثم تبـادل فرميليانوس وكبريانوس الرسائل ضد استفانوس ٠ وكان فرميليانوس قـد تلقى رسالة من كبريانوس فرد عليها برسالة طويلة جاء فيها قوله « لقد أبى استفانوس أن يقبل نوابك وأمر الرومانيين أن لايقبلوهم فدل بذلك على توحشه وهمجيته على أننا مدينون لهذا المتوحش لأن قسوته

---

(١) رسالة ٧٣ (٢) رسالة ٧٥ (٣) رسالة ٧٣ (٤) رسالة ٧٢

(٥) أعمال مجمع قرطجنة الذى عقده كبريانوس ٠

وغطرسته كأننا سببا فى أن عرفنا حكمتك وايمانك • غير أنه لا فضل له فى ذلك كما أنه لا فضل ليهوذا الأسخريوطى فى خيانته سيده • تلك الخيانة التى نتج عنها خلاص الجنس البشرى • ولكن دعنا من هذا الحديث الذى يذكرنا بوقاحة استفانوس وجسارته بل بشغفه بالانفصال عن وحدة المحبة والتغرب عن الاخوة والتمرد على الحق الخ » (١) ولم يكتف فرميليانوس بذلك بل كتب لاستفانوس رأسا رسالة منها قوله « لقد جسمت خطيتك بنفسك التى زينت لك الانفصال عن الكنيسة الواحدة • لا تنخدع يا استفانوس فانك قطعت نفسك بنفسك • لأن الذى يجحد شركة الوحدة الكنسية يصبح وحده منشقا عنها • وهكذا نراك منفصلا عن الكنائس المسيحية فى الوقت الذى تظن فيه انك تفصل تلك الكنائس عنك » (٢) •

ومع كل هذه المساعى الحميدة استمر الشقاق مضطرما وكاد يستفحل أمره لولا مداخلة البابا القديس ديونيسيوس البطريرك الاسكندرى التى جعلت النزاع يقف عند حده فكتب الى استفانوس يقول له « اعلم الآن أيها الأخ أن جميع الكنائس المنشقة قبلا فى الشرق وما بعده قد اتحدت • وجميع الرؤساء فى كل مكان متفقون فى الرأى وهم فرحون بالسلام الذى صار على غير انتظار منهم ديميتريانوس فى أنطاكية وثاوكتيستوس فى قيصرية ومازبان فى اليه (أورشليم) ومارينوس فى صور بعد رقاد اسكندر وايليوذوروس فى اللاذقية بعد وفاة ثيليميدرس وايلينوس فىطرسوس وسائر كنائس كيليكية وفرميليانوس وسائر الكبادوكية • وقد ذكرت أشهر الأساقفة فقط لكى لا أطيل الرسالة ولا أثقل الكلام • أما سورية كلها والعربية الذين تكفونهم دائما والذين أرسلتم اليهم الآن وبين النهرين والبنطس وبيثينية وبالاجمال الجميع فى كل مكان يبتهجون بالاتحاد والمحبة الأخوية ممجدين الله » اهـ (٣) •

على أن استفانوس الذى كان يشتهى أن يرى نفسه يوما رئيسا عاما للكنيسة المسيحية نظير معظم باباوات رومية لم يذعن لنصيحة زميل له يفوقه قداسة وعلما بل لبث مصرا على عناده حتى مات سنة ٢٥٧ م وخلفه سكستوس فكتب له البابا الاسكندرى رسالة جاء فيها قوله « فانه (أى استفانوس) كان قد كتب قبلا فى ايلينوس وفرميليانوس وسائر أساقفة كيليكية وغلاطية والشعوب المجاورة لهم قائلا بأنه لا يشترك معهم لهذه العلة عينها أى لأنهم يعيدون على زعمه معمودية الهراطقة • وحقا انها تقررت كما أعلم فى أعظم مجامع الأساقفة عقائد بأن الآتين من هرطقة يوعظون أولا ثم يغسلون ويطهرون من دنس الخميرة العتيقة • وقد أرسلت اليه ورجوته فى هؤلاء جميعهم » اهـ (٤) وأعقب هذه الرسائل برسائل أخرى

---

(١) رسالة ٧٥ (٢) رسالة ٧٥ (٣) تاريخ أوسابيوس ٧:٥ (٤) أوسابيوس ٧:٥

ظاهرها الإستشارة وباطنها الفات نظره الى وجوب التدقيق لمعرفة صحة عماد الهراطقة من عدم صحته · وكان يروم من وراء جميع رسائله حفظ كيان اتحاد الكنيسة ومنع كل شقاق وتحزب شأن الراعى الصالح حتى تمكن من اقناعه بروح المحبة والسلام أفضل من استعمال الشدة والعنف وله رسالة فى هذا الموضوع لفليمون أحد كهنة الكنيسة الرومانية قال فيها « ان فساد العماد الذى يتم على يد الهراطقة أصبح أمرا ثابتا بعد أن قررته عدة مجامع انعقدت فى ايكونيوم وغيرها · فهل يليق قلب هذه القرارات وتحريض الاخوة على المنازعات والمشاغبات · أما أنا فلا يمكننى أن آتى ذلك لأنه مكتوب « لا تنقل التخم القديم الذى وضعه آباؤك » اهـ (١)

وحدث حينئذ أن ثار اضطهاد فالريان قيصر وشدد النكير على رؤساء المسيحية فشغل كل من الأساقفة عن مسألة عماد الهراطقة بالنظر فى شئون رعيته وفى هذا الاضطهاد استشهد القديس كبريانوس والقديس سكستوس وشماسه لافيرنديوس ·

واتفق حينئذ أنه كان فى كنيسة الاسكندرية مؤمن تعمد بيد أحد الهراطقة ولأجل ذلك ارتاب ولبث مدة طويلة فى الكنيسة وضميره يوبخه حتى جاء الى البابا ديونيسيوس ملتمسا منه بدموع ولجاجة أن يعيد له عماده فلم يجب ديونيسيوس طلبه ولكنه طيب خاطره واحتار فى أمره بالنسبة لالحاح الرجل عليه · فبينما كان يخاطب زميله سكستوس أسقف رومية برسالة فى بعض الشئون (٢) خطر له أن يقف على رأيه فى هذا الأمر فأضاف الى رسالته قوله :

---

(١) أوسابيوس ٧ : ٥ ·

(٢) يتوهم البابوايون أن استشارة البابا ديونيسيوس لسكستوس تؤيد رئاسته المزعومة مع العلم أن بولس الرسول استشار الرسل فى أمور (غل ٢ : ٢) ولم يكونوا رؤساء عليه وكيرلس البابا الاسكندرى كتب ينصح نسطور فهل يعتبر رئيسا عليه · والقيصر ثيودوسيوس كلف القديس سمعان العمودى أن ينصح البابا كيرلس ويوحنا الانطاكى وكان مرؤوسا لهما · أما ظنهم ان قوله « خوفا من أن أكون غلطانا » يؤيد عصمة البابا فينقضه أن باباوين فى أيامه كانا من رؤساء الهرطقة وهما زفيرينوس وكاليسطوس وآخر أيضا بعدهما بقليل ذبح للاصنام فى اضطهاد ديوكلتيانوس وأقر وهو بابا بأن الصنم اله وهو مركلينوس ولئن كان تاب فيما بعد واستشهد · أما استشارة البابا ديونيسيوس لأسقف رومية فكانت من قبيل الوقوف على الرأى وخوفه من غلطه ما هو الا عن تواضع ولطف أخلاق وسمو آداب وتأكيد الحقيقة بأن كل ابن آدم يغلط كما أن البابا ديونيسيوس تصرف فى كثير من المسائل الأهم دون أن يستشير أسقف رومية أو حتى يقف على رأيه ·

« انى بالحقيقة أيها الأخ أطلب النصيحة واستمد الرأى منك فى هذا الأمر المهم الذى ورد على خوفا من ان أكون غلطانا ٠ فان مؤمنا من الاخوة المجتمعين يظن أنه قديم فى الكنيسة أقدم من زمان شرطونيتى وأظن أنه مشترك فى الكنيسة قبل اقامة المطوب الذكر يا روكلاس (سلفه) وقد اتفق أن يكون من المعمدين تعميدا على قفا اليد ٠ فلما سمع السؤالات والأجوبة عندنا تقدم الى باكيا ونادبا نفسه وكان يقع أمام رجلى معترفا ومنكرا بأقسام المعمودية التى تعمدها عند الهراطقة بأنها ليست مثل هذه ولا شركة لها معها لأنها مملوءة كفرا وتجاديف وقائلا ان نفسه قد تخشعت الآن تخشعا عظيما وليست له دالة أن يرفع عينيه الى الله ما دامت بداءته من تلك الأقوال والأعمال الشريرة ٠ ومن ثم طلب أن يحصل على هذا التطهير والقبول والنعمة الصحيحة الخالصة ٠ الأمر الذى أنا لم أجسر أن أعمله قائلا أن اشتراكه زمانا كثيرا يكفى لذلك ٠ فانى ٠٠ بعد أنه سمع الشكر وقال معنا « آمين » وحضر المائدة ومد يديه لتقبل الغذاء المقدس وناله أيضا واشترك زمانا كافيا بجسد ودم يسوع المسيح ٠ لا أستطيع أن أجسر وأعيد بناءه مرة ثانية من الأول ٠ وقد أمرته أن يتشجع ويتقدم بايمان ثابت وضمير صالح الى الاشتراك بالقداسات ٠ أما هو فما ينكف نائحا ويجزع أن يتقدم الى المائدة وبالرجاء العظيم يكاد الا يطيق حتى الوقوف معنا فى الصلوات » ٠

ومع كل ذلك استمر الخلاف فى هذه القضية حتى أصدر فيها المجمع النيقاوى المسكونى الأول الحكم النهائى سنة ٣٢٥ م وبعده الثانى سنة ٣٨١ م ٠

أما مسألة الذين زلوا ابان الاضطهادات وقدموا الذبائح للأوثان فبسببها عقد كبريانوس مجمعا بقرطجنة قرر فيه شجب بدعتى نوفاسيانوس وفيلكسيموس المشار اليهما آنفا ومعالجة الساقطين بدواء التوبة حتى ينقهوا ٠ الا أن المجمع اتفق على استئناف القضية للبابا الاسكندرى فرفعت اليه وكان فابيانوس أسقف أنطاكية ميالا لمبدأ نوفاسيانوس من حيث معاملة الذين أنكروا الايمان وتابوا بالقساوة الزائدة فكتب اليه القديس ديونيسيوس هذا الكتاب يقول فيه :

« اليك مثال عما حدث فى مثل هذه الأمور التى نتناقش فيها الآن ومنه يظهر لك كيف تصرفنا نحن ٠ حدث أن رجلا هرما اسمه سيرابيون وهو مسيحى لا غش فيه قضى حياة طويلة بكل تقوى وأمانة كان قد ذبح للأوثان أثناء اضطهادهم اياه ولكنه عاد فأقر بذنبه واستغفر ربه عن خطيته فلم يقبله أحد أو يرق لحاله انسان فأصاب الرجل مرض عضال الزمه الفراش

وظل ثلاثة ايام متوالية لا يعى ولا يتكلم وفى اليوم الرابع أفاق قليـلا من غشوته فدعا اليه ابنه الأكبر وقال له لقد طال يا ابنى زمن حجزك لى فأتوسل اليك أن تسرع وتطلقنى من عقالى فأرجوك أن تذهب وتأتى لى بأحد كهنة الكنيسة ، ولما قال هـذا عاد الى غشوته وصمته وأما الغلام فأسرع الى كاهن من كهنة الكنيسة ليدعوه كأمر أبيـه وكان الوقت ليـلا وكان الكاهن مريضا . وكنت قد أصدرت أمرا قبل هذا الوقت يقضى بأن الذين على حافة الموت اذا شعروا بحاجتهم للتوبة والحوا فى طلب المغفرة يجب أن يمنحوها حتى ينتقلوا من هـذا العالم وقلبهم مملوء من التعزية والرجاء بالحياة الأبدية . وعليه جاءنى الغـلام فأعطيتـه جزءا من الأفخارستيا وقلت له أن يغمسه فى المـاء ويضعه فى فم هـذا الرجل الهرم فذهب الولد مسرعا الى البيت ومعـه القطعـة التى أعطيتها له ولما قرب من مدخل البـاب كان سرابيون قـد عاد اليـه رشده فنهض قائلا « لقد جئت يا ابنى ولكن الشيخ لم يقدر على المجىء فعليك اتمام ما أمرت به ومن ثم أطلقنى بسلام فقد أبصرت عينـاى خلاص الرب » قبل الشاب اللقمة ووضعها حالا فى فم أبيه فلم يلبث حتى ازدردها وفاضت روحه الى خالقهـا . ألم يكن هذا الرجل قـد تاب توبة حقيقيـة وألم يظل حيا الى أن نال المغفرة ومحيت جميع ذنوبه ؟ وهل يعتبر هذا الرجل التقى مؤمنا لأجل أعماله الصالحـة الكثيرة التى عملها فى حياته وعند موته ؟ » اهـ .

القرن الرابع

القسم الأول

تاريخ البطـــاركة

(١) بطرس١ (٢) ارشلاوس (٣) الكسندروس١

(٤) أثناسيوس١ (٥) بطرس٢ (٦) تيموثاؤس١

(٧) ثاوفيلس

---

١ - بطرس١ - البطريرك السابع عشر :

كان تلميذا للبابا ثاؤنا وتربى تربية صحيحة في المدرسة اللاهوتية التى كان يديرها يومئذ القس أرشلاوس · ورسمه البطريرك شماسا ولما رأى عفافه وعلمه صيره قسا وكان ملازما خدمة الكنيسة ليلا ونهارا معتبرا من الجميع لأجل قداسة سيرته وجزيل علمه وغيرته على انتشار الايمان الأقدس · واتفق أن سابليوس الهرطوقى جاء يوما الى الكنيسة طالبا البطريرك ليجادله فأرسل اليه البابا ثاؤنا القس بطرس فازدرى سابليوس بالبطريرك اذ أرسل له شابا حقيرا ليجادله فأجابه القديس بطرس « اذا كنت اظهر أمامك صغيرا فاننى عند الرب كبير والرب يظهر كفرك به اليوم وينصرنى عليك كما نصر داود النبى على جليات الجبار » ثم أخذ يناضله ويناظره فى الحقائق الدينية حتى أفحمه وأخرجه مخزيا أمام الجميع ·

وحدث أيضا فى أحد الأعياد بينما كان البابا ثاؤنا محتفلا باقامة الأسرار وقف انسان به شيطان وجعل يرجم المؤمنين بالحجارة ويزأر مثل الوحوش فهرب الشعب منه الى داخل البيعة وعلم البطريرك بحال المجنون فقال للقديس بطرس اذهب اليه واطرد عنه هذا الشيطان فأخذ اناء مملوءا بالماء وقدمه الى الآب البطريرك وطلب اليه أن يرشمه بعلامة الصليب ففعل وخرج بطرس الى الرجل وانتهر الشيطان باسم الرب يسوع فخرج منه للحال ·

ولما ارتقى القديس بطرس كاثذرا (١) مرقس الرسول فى شهر امشير

---

(١) كاثذرا كلمة يونانية معناها كرسى البطريرك او المطران ·

سنة ١٧ ش و٣٠٠ م فى عهد ديوكلتيانوس قيصر خلفا لمعلمه البابا ثاؤنا ضاعف جهاده ولبث مواظبا على خدمة ربه بكل أمانة · وبعد نهاية القرن الثالث كان اضطهاد الكنيسة فى مصر بالغا أشده فى عهد ديوكلتيانوس ومكسيميان · فرأى البطريرك القديس رعيته فى خطر عظيم فبعضهم قتل وبعضهم هرب الى البرارى والكهوف ولذلك طاف بلاده كلها يشجع الضعفاء فى الايمان ويعزى المعترفين فى السجون ويسعفهم ويرجع الى حظيرة الخراف الضالة أى الذين كانوا تركوا الايمان الصحيح خوف العذاب حاثا اياهم على الصلاة والصوم ليستقبلوا الموت بيأس شديد وجأش رابط وما أتى الى مدينة ليكوبوليس (١) حتى أخذ منه الحزن مأخذا شديدا لما رأى أسقفها ميليتس قد كفر بالايمان وسالم الوثنيين ثم سجد لأصنامهم· وقد أفرغ القديس جهده كله فى أن يرد هذا الأسقف الى التوبة فلم ينتصح ولم يتب بل شق عصا الطاعة على رئيسه وطفق يشنع عليه ويرميه بتهم باطلة · وقد ازداد شرا حتى ابتدع بدعا رديئة بسببها انفصل من الكنيسة مع من تحزبوا له مما حدا بالقديس بطرس الى عقد مجمع فى الاسكندرية سنة ٣٠٦ م حكم فيه بقطع ميليتس ومن شايعه وكان ماسيرد ذكره فى الكلام على البدع والهرطقات ·

وفى سنة ٣٠٧ م لما قرب عيد القيامة تقدم الى البطريرك أولئك الذين كانوا قد جحدوا الايمان ثم ندموا ومارسوا لأجل سقطتهم توبة مستطيلة وطلبوا بدموع والحاح أن يحلهم ويقبلهم فى الكنيسة · فاهتم البابا بطرس باعداد المنشور الذى كان يصدر سنويا فى عيد الفصح وضمنه التوبة التى بموجبها يقبل الذين سقطوا فى مدة الاضطهاد الى حضن الكنيسة · وهذه هى القوانين نذكرها بالايجاز (٢) :

١ ـ جميع الذين زلوا فى بداءة الاضطهاد لشدة ما قاسوه من العذاب المريع ثم أظهروا توبة وندامة فى أثناء الثلاث سنوات الماضية يجوز قبولهم فى الكنيسة يوم العيد الآتى وذلك بعد أن يصوموا أربعين يوما صوما عنيفا ·

٢ ـ جميع الذين عثروا فى ايمانهم لداعى سجنهم فقط دون أن يعذبوا عذابا شديدا يجب أن تعطى لهم سنة كاملة يظهرون فيها التوبة الحقيقية قبل قبولهم فى حضن الكنيسة ·

٣ ـ كل الذين ارتدوا عن الايمان لمجرد الخوف والوهم فقط ولم يذوقوا عذابا تعطى لهم أربع سنوات ليبرهنوا فيها على التوبة والندامة ·

---

(١) هى اسيوط الحالية وكانت اول اسقفية فى القطر المصرى بعد الاسكندرية ·

(٢) هذه القوانين أيدها البابا بطرس بالشواهد والأدلة الكتابية وقد بقيت معمولا بها فى جميع الكنائس الأرثوذكسية فى العالم أجمع حتى بعد الانشقاق ·

٤ - جميع الذين ارتدوا ولم يعودوا يطلبون التوبة والانضمام الى الكنيسة فلا يوجد قانون لهم بل حرى بالكنيسة أن تبكيهم وترثى لحالهم ٠

٥ - الذين نجوا من العذاب أو الموت لتظاهرهم بالبله أو الصرع أو أية حيلة اخرى تمنح لهم مهلة ستة شهور فيها يكفرون عن سيئاتهم ٠

٦ - العبيد الذين أجبرهم مواليهم للتقدم للمحاكمة عوضا عنهم ثم سقطوا فى هذه التجربة ينبغى أنيبرهنوا علىتوبتهم بأعمالهم فى بحرسنة٠

٧ - الموالى الذين فعلوا ما تقدم تفرض عليهم ثلاث سنين توبة ٠

٨ - جميع الذين عثروا ثم عادوا فأصلحوا خطأهم حالا بأن قدموا أنفسهم للسجن وللعذاب يجب قبولهم فى عضوية الكنيسة بدون فحص أو قصاص ٠

٩ - كل الذين قدموا أنفسهم للأخطار طوعا واختيارا دون أن ينتظروا القاء القبض عليهم أو يصبروا حتى يرى ما يحل بهم لا تصح محاكمتهم ومقاصتهم بل يكتفى بتذكيرهم أن المسيح ورسله لم يعملوا هكذا ولم يلقوا بأنفسهم فى الهلاك أما الذين سقطوا من هذه الفئة المشار اليها فاذا كانوا من الأكليروس الذين طلبوا العودة الى حضن الكنيسة فلا يجب قبولهم فى الوظائف الكهنوتية ثانية ٠ بل يقبلون كأعضاء فى الكنيسة فقط ٠

١٠ - أولئك الذين أنكروا حيثياتهم وأشخاصهم لأجل تشجيع الآخرين وتقوية ايمانهم فى أوقات الاضطهاد فهم قد أتوا عملا حسنا فلا لوم عليهم ولا تثريب ٠

١١ - جميع الذين افتدوا أنفسهم بدراهم دفعوها فداء عنهم فلا يلامون قط ٠

١٢ - لا شىء على الذين نجوا بواسطة هربهم من الموت ولا قصاص عليهم ٠

١٣ - جميع الذين أجبروا اجبارا لكى يذبحوا للأوثان والذين أفقدهم العذاب شعورهم واحساسهم فأصبحوا لا يدركون يجب اعتبارهم فى درجة الذين اعترفوا بالمسيح تماما ما داموا فعلوا ما فعلوه بدون ارادتهم ٠ فاذا كانوا من الأكليروس يعادون الى وظائفهم كما كانوا اهـ ٠

وكان أريوس الهرطوقى فى بدء أمره تابعا لبدعة ميليتس المذكور وتلميذا له غير انه انفصل عنه وأتى الى البطريرك وأعلن خضوعه له فقبله وسامه شماسا ثم صار فيما بعد قسا وارتقى الى وظيفة واعظ لفصاحته ٠ الا أنه فى وعظه كان يمزج معظم كلامه بأقوال فلسفية تتناقض مع حقائق

الدين المسيحى الصحيحة . واتفق أنه كان يخطب يوما بحضرة البطريرك فتاه فى أقواله والقى هذه العبارة على مسمع منه وهى « ان ابن الله كائن بعد أن لم يكن » فتبادر لذهن البطريرك فى مبدأ الأمر أنه يقصد بهذا القول عن المسيح بالنسبة الى ناسوته المأخوذ من العذراء . ولكن معنى هذه العبارة تردد كثيرا بفم أريوس ولدى سؤال البطريرك اياه عن مراده بهذا القول اتضح له أنه سقط فى بدعة شنيعة . وبعد أن أكثر له النصح بدون أن يهتدى جرده من وظيفته وأصدر قرارا بحرمانه وقطعه من شركة الكنيسة ووقع عليه هو ومن كان حاضرا معه من الأساقفة .

وفى سنة ٣١١ م أمر القيصر مكسيميان دارا بالقبض على القديس البطريرك وسبب ذلك أن امرأة أنطاكية لمسيحى عبد الأوثان قامت للاسكندرية لتعمد ولديها فهاج عليها البحر وخشيت أن يموتا بلا عماد فشرطت ثدييها بمدية وصلبت على جبينيهما وقلبيهما ولما نجت وأتت البابا بطرس وجد مياه المعمودية حال عمادهما قد غاصت فسألها عن السبب فقصت له قصتها فآمن على عمادهما واكتفى بأن باركهما . فشكى الرجل الوثنى امرأته للقيصر بأنها ذهبت لترتكب المنكر مع المسيحيين وسأل القيصر عن رئيس المسيحيين فقيل له هو البابا بطرس وقد كان مملوءا عليه حنقا بسبب ما وضعه من الكتب تقبيحا لعبادة الأوثان وما كتبه من الرسائل الى المسيحيين يشددهم فى أوقات الاضطهاد . أما المرأة فلما رجعت لزوجها عرض عليها القيصر السجود للاصنام فأبت فأمر بحرقها وولداها معها فحرقوا فلأجل ذلك حضر مكسيميان شريك ديوكلتيان فى الملك بنفسه الى مصر لينتقم من البطريرك وبعد أن استعمل أقصى نوع من العذاب للفتك بمسيحيى مصر قبض على البابا بطرس وطرحه فى السجن وأمر بقطع رأسه ان أبى السجود للأصنام الا أنه لم يسأله أحد عن ذلك لعلم الجميع أنه يختار أن يموت ألف مرة أفضل من أن يجحد السيد المسيح .

ولما بلغ هذا الخبر مسامع المؤمنين اضطربوا اضطرابا شديدا وتجمهروا جميعهم على باب السجن قاصدين انقاذه من مخالب الموت . فلما جاء الجنود الى السجن ليأخذوه الى مكان القتل صاحت جماهير المسيحيين المحتشدة على باب السجن قائلة « اذا قتلنا كلنا حينئذ تؤخذ رأسه » فلما رأى ذلك القائد المكلف بقتل القديس خشى حدوث قلق وشغب فأبقى الأمر الى الغد آملا أن ينصرف المسيحيون الى بيوتهم فى الليل ولكن أمله خاب اذ استمروا جميعهم محافظين على راعيهم .

ولما علم أريوس الكافر أن الملك مصمم على قتل البطريرك خاف أن يتنيح قبل أن يحله ويبقى هو مربوطا ويقفل فى وجهه باب الارتقاء للوظائف

الـكهنوتية فتوسل الى بعض الأكليروس ووجوه الشعب أن يصـالحوه مع البطريرك قبل موته · فظنوا أن هذا الطلب رجوع منه الى الصواب ومضوا الى القديس بطرس وسألوه أن يحل أريوس من رباطه فصرخ البطريرك بصوت عظيم وقال « تسألوننى فى أريوس » ثم رفع يديه وقال « فى هـذا الزمان وفى الآتى يكون ممنوعا من مجد ابن الله سيدنا يسوع المسيح » فلما قال هذا نزل عليهم خوف عظيم ولم يجسر أحد أن يكلمه · فلما رآهم قد خافوا منــه طيب نفوسهم ونهض من وسطهم وأخــذ معــه الشيخين أرشـلاوس والأكسندروس تلميذيه وانفرد بهما وقال لهما « الله اله السموات يعيننى على اكمال شهادتى فلن تعودا تريانني بعد هذا اليوم فى الجسـد وأنت يا أرشلاوس القس تـكون بطريركا بعدى وأخوك الأكسـندروس بعـدك · ولا تقولا انى عـديم الرحمة من أجل اريوس فان فيه مكرا مخفيا · ولست أنا الذى حرمته بل السيد المسيح لأنى فى هذه الليلة لمـا اكملت صـلاتى ونمت رأيت شابا قد دخل على ووجهه يضىء كضوء الشمس وعليـه ثوب متشح به الى رجليـه وهو مشقوق وقـد أمسك بيده القطعة الممزقة فصرخت وقلت « يا سيدى من الذى شق ثوبك » فأجابنى « أريوس هو الذى مزق ثوبى فلا تقبله · واليوم يأتيك قوم طالبين منك ارجاعه فلا تطعهم وأوصىأرشلاوس والأكسندروس بأن يمنعاه من شركتهما » أهـ ·

ولـمـا انتهى من كلامه وقع على عنقيهما وقبلهما · وكانا يقبلان يديه ويودعانه بالبكاء لأجل قوله انكما لن تريانى بعد اليوم فى الجسد · ثم عاد الى الجمع الذى كان قائما فـوقف معهم وخاطبهم وقواهم وصـلى عليهم وباركهم وعزاهم وصرفهم بسلام ·

أما القائد فكان يفكر فى كيف يخرجه من السجن خفية حتى لايتكاثر عليه المسيحيون ويختطفونه منه أو يموت خلق كثير بسببه من المجتمعين على الباب من الشيوخ والشبان والرهبان والنساء والعذارى الذين كانوا يبكون بدموع غزيرة فلما شعر القديس بطرس بذلك أنفذ الى القائد سرا وقال له : تعال الليلة الى حائط السجن الذى أدقه لك من داخل وأنقبه من الجهة التى لا يقيم المسيحيون بازائها وهكذا يسهل عليك أخذى الى المكان المعين من الملك لقتلى · ولا ريب أن هذا الكلام العجيب الذى لم يسمع بمثله قط أدهش عقل القائد فعمل كما أشار عليه وخرج القديس مع الجند الى المكان المدعو بوكاليا وهو الموضع الذى تمت فيه شهادة القديس مار مرقس الانجيلى فطلب منهم البطريرك أن يتركوه يذهب الى حيث جسد مار مرقس للتبرك منه فسمحوا له وهنـاك أخذ يصلى طالبا من الله ازالة الاضطهاد · قيل آن وقت صلاته كان بالقرب من القبر مسكن صبية عذراء وأبوها رجل شيخ وكانت قائمة

تصلى ولما تمت صلاتها سمعت صوتا من السماء يقول « بطرس أول أسماء الرسل وبطرس آخر شهداء الاسكندرية » وقد تم هذا الكلام بأنه بعد وفاة القديس لم يستشهد غيره من بطاركة الاسكندرية قتلا بأيدى الوثنيين ٠

ولما أتم القديس صلاته تقدم الى الجنود فنظروا وجهه كوجه ملاك ثم رفع يديه وصلى الى الرب وصلب على وجهه وقال آمين وخلع بلينه وكشف رقبته الطاهرة وقال لهم افعلوا ما أمرتم به ، فتراجعوا الى الوراء مندهشين من تسليمه نفسه للموت بمثل هذه الشجاعة ولم يجسر أحد أن يضرب عنقه ٠ غير أن القائد دفع أخيرا لأحدهم خمس قطع من ذهب فتقدم وقطع هامة القديس فى ٢٩ هاتور سنة ٢٨ ش و٣١١م وكانت مدة مقامه على الكرسى ١١ سنة ٠

ولما أصبح الصباح وصل الخبر الى المسيحيين المحيطين بالسجن فمضوا اليه مسرعين ووجدوا جسده وثوبه عليه والشيخ والصبية العذراء جالسين يحفظانه فألصقوا الرأس بالجسد ونشروا عليه شعره وجمعوا دمه ولفوه فى النطع « بساط من الأديم » الذى كان ينام عليه ومضوا به الى البيعة وأجلسوه على كرسى القديس مرقس ولما كان حيا لم يكن يرضى الجلوس عليه بل كان يجلس على درجات الكرسى السفلية تواضعا واكراما لسالفه الأول منشىء هذا الكرسى الرسولى العظيم ٠

٢ ـ ارشلاوس ٠ البطريرك الثامن عشر :

ولد بالاسكندرية وامتاز عن أترابه بعلمه وقداسة سيرته ولذلك صيره البابا ثاؤنا قسا وجعله رئيسا للمدرسة اللاهوتية ٠ وبناء على وصية القديس بطرس أقيم بعده بطريركا من شهر كيهك سنة ٢٧ ش و٣١٢ م فى عهد قسطنطين قيصر وما عتم أن جلس على الكرسى المرقسى حتى توسل اليه أريوس بأن يعيده الى شركة الكنيسة ٠ وتمكن أريوس بمداهنته وتمليقه أن يستميل اليه وجهاء الشعب وعظماءه وطلب منهم أن يتوسطوا اليه عند البطريرك ليقبله فالتمسوا منه أن يشرك أريوس فى الخدمة الكنسية موهمين اياه بأنه تاب عن كل ذنوبه فقبل سؤالهم وأعاده الى رتبته الأولى التى كانت له قبل وقوعه فى الهرطقة وهى وظيفة القسوسية ومباشرة الوعظ وبهذا العمل خالف هذا البطريرك خلفه القديس بطرس ولعله أحسن الظن بأريوس لما رآه فيه من اللين المصطنع ومع ذلك فلم يشاء الرب أن يبقى أرشلاوس سوى ستة شهور ومات بعدها فى ١٩ بؤونة سنة ٢٩ ش و٣١٢ م وبعد موته رشح أريوس نفسه لمركز البطريركية ولكن الأكليروس والشعب لم يتفقوا على ذلك ٠

٣ ـ الاكسندروس١ ـ البطريرك التاسع عشر :

ارتفع الى كرسى البطريركية بعد موت ارشلاوس بمقتضى وصية القديس بطرس آخر الشهداء فى شهر أبيب سنة ٢٩ ش و ٣١٣م فى عهد قسطنطين وهو مولود بالاسكندرية ورسم قسا بها وحال انتخابه للبطريركية كان قد وصل الى سن الشيخوخة ورغما عن ذلك أخذ يستخدم علمه وتقواه فى خدمة الله بكل نشاط واخلاص ٠ وكان الشعب يلقبه بالقديس والفقراء يدعونه أبا المساكين ٠ وروى الأنبا ساويرس المؤرخ أن اثناسيوس الرسولى البطريرك الـ ٢٠ روى عن البابا الاكسندروس انه ما كان يقرأ قط فى الانجيل جالسا بل واقفا والضوء أمامه ٠ ولكن أفضل ما اشتهر به هو غيرته الشديدة على حفظ الايمان المستقيم ومحاربته للهراطقة ولا سيما الذين أنكروا لاهوت المسيح ٠

وهذه الغيرة كانت له منذ حداثته فقبل جلوسه على كرسى البطريركية كان قوى المعارضة والمقاومة لحزب ميليتس أسقف ليكوبولى المار ذكره ولهذا بعد وفاة أرشلاوس البطريرك اجتهد أولئك حتى لا يكون الأكسندروس بطريركا وكانوا يقدمون عوضه أريوس المنافق غير أن الله أحبط مسعاهم ٠ وقيل أن أريوس حاول أن يدخل اليه ليتمكن من خداعه كما خدع سلفه فقال البابا الأكسندروس قولوا له أوصانى أبى « يريد البابا بطرس » أن لاأقبلك فلا تدخل الى ولا اجتمع بك وذلك بأمر السيد المسيح فاعترف للمخلص بخطيئتك فاذا قبلك فهو يأمرنى بقبولك فغضب أريوس من البابا غضبا عظيما لاسيما لما رأى أن الشعب فضلهعليه واضطرم قلبه بنار الحسدولكونه لم يجد البطريرك ملوما فى سيرته اجتهد فى دحض تعليمه ووضع مقالات تجديف وكفر بلسانه المستحق القطع فقال ان ابن الله مخلوق ٠

وحدث أن البابا الأكسندروس القى خطبة مبنية على اقامة المسيح للموتى وبين للسامعين سلطانه فقاطعه أريوس بأن هذا ليس من تعليم الانجيل فاستمر البطريرك يعظ غير مبال بكلامه فرد أريوس عليه فى الأحد التالى بموعظة موضوعها « أبى أعظم منى » ٠

وكان هذا الخبيث قد تمكن بفصاحته الشيطانية أن يجتذب اليه أسقفين وبعض القسوس البسطاء والشعب الساذج وبتظاهره الكاذب أى باظهاره روح العبادة خدع عابدات كثيرات من النساء والبنات والراهبات وأخذ ينشر بواسطتهم بدعته الشنيعة فتقدمت فى حقه الشكاية للبابا الأكسندروس فأسرع هذا القديس فى العمل على ايقاف تيار تلك البدعة فجمع الأساقفة الموجودين بالاسكندرية سنة ٣١٩ م وبعد فحص تعليم أريوس بأن الابن مولود من الآب فلا يمكن أن يكون مساويا له فى الأزلية

حكموا بأن يقلع عنه ويكف عن نشره واجتهدوا فى رده عن ضلاله بواسطة النصائح المقرونة بروح الوداعة والمحبة ووقع على الحكم ٣٦ قسيسا و ٤٤ شماسا الا أن هذه الملاطفة زادته تكبرا وجسارة فشرع يعلم جهارا مستعملا كل نوع من الخداع لاستمالة القلوب اليه : وكان يدعى أن تعليمه هذا لا يدحض سوى هرطقة سابليوس · وبهذه الحيلة توصل الى اغراء كثيرين لا سيما ذوى السيرة الرديئة ·

فرأى البطريرك أن الملاينة لم تنفعه فعقد مجمعا ثانيا مؤلفا من مائة أسقف من ليبيا ومصر سنة ٣٢١ م وحكم بحط أريوس من درجة الكهنوت وبحرمه وبدعته ومن يتشيع له · وأمضى هذا القرار جميع أساقفة المجمع ما عدا أسقفين و١١ شماسا فقطعهم البطريرك وصدق على قرار المجمع الأول وأبلغ الحكم الى أريوس فأسرع هذا وبعث برسالة الى صديقه أوسابيوس أسقف نيكوميديا يوقفه فيها على الحكم الصادر ضده ويقول له بلهجة الثعالب : « الى سيدى العزيز رجل الله الأمين الأرثوذكسى أوسابيوس يسلم بالرب أريوس المضطهد من الأسقف اسكندر بسبب الحق الذى يعلو على الجميع الذى أنت تحامى عنه أيضا · بما أن مونيوس منطلق الى نيكوميديا رأيت لائقا أن أكتب لك معه وأخبر المحبة الوطنية والمودة اللتين تمارسهما للاخوة لأجل الله ومسيحه ان الأسقف يضطهدنا كثيرا ويهيج الجميع علينا حتى يطردنا من المدينة كأننا كافرون بالله لأننا لا نتفق معه فى اعلانه الجهارى بأن الله أزلى والابن أزلى وبأن الآب دائما آب والابن دائما ابن وان الابن من الله ذاته · وبما أن أخاك أوسابيوس القيصرى وثيودوتوس وبولينوس وأثناسيوس وأغريغوريوس وائيتس وكل أهل الشرق يقولون ان الله كان قبل الابن وبدون بداية فهم محرومون الا فيلوغونيوس وهيلانيكس ومكاريوس الأميون الهراطقة الذين يقول أحدهم ان الابن ضياء الآب · والآخر أنه شعاعة منه · والآخر أنه مساو للآب فى كونه غير مولود · فهذا الكفر لا تطيق آذاننا استماعه ولو هددنا الهراطقة بألف ميتة ما نقوله نحن ولا نعتقد به · وقد علمناه ولا نزال نعلمه ان الابن ليس غير مولود · ولا هو جزء من غير المولود بنوع ما · ولا صنع من مادة دون · بل بالارادة والقصد وجد قبل كل الدهور وقبل كل العالمين · اله تام · المولود الوحيد الغير المتغير · وأنه قبل ان ولد أو خلق أو قصد به أو ثبت لم يكن له وجود · لأنه لم يكن غير مولود قط · اننا نضطهد لأننا نقول أن للابن بداية ولكن الله بدون بداية ونضطهد أيضا لأننا نقول انه من العدم · وهذا نقوله لا انه ليس جزءا من الله ولا صنع من مادة دون · فعلى هذا نضطهد وأنت تعلم البقية · استودعك الله » اه ·

وقد كتب البابا الاكسندروس الى صديقه الاكسندروس أسقف البيزنطية (القسطنطينية) رسالة أتى فيها على تفاصيل بدعة أريوس وحزبه اذ

ينكرون لاهوت مخلصنا ويقولون أنه على حد سواء مع كل المخلوقات قال : انهم اعتقدوا بأنه وجد وقت لم يوجد فيــه ابن الله وذلك الذى لم يكن له وجود وجد بعدئذ ومنذئذ وجد كما يوجد كل انسان طبعا لأنهم يقولون ان الله عمل كل الأشياء من العدم مدخلين ابن الله فى هذه الخليقـــة لــكل الأشياء العاقلة والغير العاقلة ومن المعلوم يقولون أنه بطبيعة قابلة التغيير والفضيلة والرذيلة • فهذا التعليم الثائر الآن على تقوى الكنيسة هو تعليم أبيبون وأرطيماس وهو نظير تعليم بولس السيماساطى » ثم يذكر البـــابا اسكندر آراءه كما يأتى :

« اننا نؤمن كما نؤمن الكنيسة الرسولية بالآب الوحيد الغير المولود الواجب الوجود وهو عديم التغير والزوال هو هو وبغاية الكمال لا يشوبه زيادة ولا نقصان معطى الشريعة والأنبياء والأناجيل • رب الآباء والرسل وكل القديسين • وبرب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد • ليس مولودا من العــدم بل من الآب الحى وليس حسب الجسد الهيولى بتفريق وفيضان الأجزاء كما زعم سبليوس وفالنتيان بل بنوع لا يدرك ولا يعبر عنه حسب المعتقد الذى ذكرناه سابقا • فمن يخبر بجيله لأن وجوده غير مدرك عند كل الكائنات المائتة كما أن الآب غير مدرك لأن العقول المخلوقة لاتقدر أن تفهم هذه الولادة الالهية من الآب لا أحد يعر فمن هو الآب الا الابن ولا أحــد يعرف من هو الابن الا الآب• فانه غير متغير كما أن الآب غير متغير لاينقص عن الآب شيئا سوى أنه ليس غير مولود فهو الابن الــكامل وصــورة الآب التــامة • لهذا يجب أن تحفظ للآب غير المولود العظمة اللائقة به • وللابن يجب أن تقــدم أيضــا الــكرامة اللائقــة بانتدابنــا له الولادة الأزليــة من الآب » اهـ •

ولم يرضخ أريوس للحكم بل ثابر على الخطابة والوعظ مثبتا تعليمه ومباشرا الخدمة الدينية فاستمال اليه الكثيرين وكون له حزبا ابليسيا حتى اضــطر البطريرك أن يطرده من الاسكنــدرية هو والأســقفين المــذكورين وشماسين أحدهما يسمى « أونريوس » كان عضدا كبيرا لأريوس فغــادر أريوس الاسكندرية قاصدا فلسطين وأخذ يغتـــاب القــديس الاكسندروس ويشنع عليــه مظهــرا نفسه بين الأرثوذكسيين أرثوذكسيا وبذلك أثر على كثيرين وجمع له عددا من الأصدقاء على رأسهم أوسابيوس أسقف نيكوميديا الذى كان ذا صولة عظيمة • وأوسابيوس أسقف قيصرية وأوسيوس أسقف بيسيديــة وبوليوس أسقف صــور وأغريغوريوس أســقف بيروت وجميعهم سمحوا له بعقد جمعيات دينية فى أبروشيات مختلفــة ليكثر عــدد معتنقى بدعته فضلاً عن وجود أنصار له من كهنة الاسكندرية •

قيل أنه كان ينشر بدعته بواسطة التلحين لــا كان يعلمــه من تأثير الصوت فى النفس • فأثبت قطعا مشوبة بسموم هرطقته فى كتاب معروف

باسم « تاليا » ووقعها على الآلات الموسيقية وعلمها للشعب الذى كان يتغنى بها صباح مساء · وفى وقت وجيز امتلأت بلاد الشرق بمؤلفات مشحونة بهرطقات أريوس وبالتنديد على بطريرك الاسكندرية وكان ذلك قبل أن يتمكن هذا القديس من أن يعرف أهل كنائس الشرق بشقاق أريوس وسوء نيته فكتب اليه الأساقفة يطلبون منه أن يسحب حكمه على أريوس فرد عليهم برسائل مملوءة من الحكمة والعلم مبنية على (يو ١ : ١) « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » فقال هذه الآية قد أوقفت العقل البشرى عند حد الأسرار الالهية فان يوحنا البشير لم يستحسن البحث فى ميلاد الابن لأن جوهر الكلمة الذى لا يكيف يفوق ادراك البشريين بل الملائكة ولذلك لا أظن أنه يجب على أن أعد فى صفوف الأتقياء أولئك الذين يطلبون ما وراء ذلك ولا يلتفتون لما هو مكتوب « يا رب لم يرتفع قلبى ولم تستعل عيناى ولم أسلك فى العظائم ولا فى عجائب فوقى » (مزمور ١٣١ : ١و٢) اهـ ·

فهكذا لما أحس هذا البابا بالشر المتفاقم من جراء أعمال أريوس اتخذ طريقة فعالة لايقافه عند حده ومنع سريان بدعته فكتب تلك الرسائل الانجيلية المحضة الى أساقفة كل الكنائس أوضح فيها الأسباب التى حملته على حرمان أريوس وقطعه من شركة المؤمنين وكيف أنه لا يسمح بقبوله مرة أخرى مادام مصرا على ضلاله فاقتنع بعض الأساقفة بأقوال القديس الكسندروس ورجعوا الى التمسك بالحق الا أن أشياع أريوس عقدوا مجمعين الأول فى بيثينية سنة ٣٢٢م والثانى فى فلسطين سنة ٣٢٣م قرروا فيهما لغو الحكم الصادر على أريوس من بطريرك الاسكندرية وبناء على هذا القرار رجع أريوس الى الاسكندرية لينازع مستقيمى الرأى فاستفحل الخلاف بين أنصاره وبين أنصار البطريرك وقد انتهت بهم الحال الى المجادلة على قارعة الطريق حتى أصبحوا هزءا لناظريهم من الوثنيين · فاضطر البطريرك تلقاء هذا الاضطراب أن يشهر حرمان أريوس ويطرده من المدينة مرة ثانية وقام أيضا تلميذ البطريرك الاسكندرى الشماس أثناسيوس بكتابة المنشور السنوى ضد بدعة أريوس وبين أن تعليمه يأول الى تعدد الالهة وقياس الغير المحدود بمقاييس بشرية والايمان ببعض الكتاب دون البعض الآخر ووقع هذا المنشور ٣٦ كاهنا و٤٤ شماسا · وكن لأوسابيوس أسقف نيكوميديا المذكور كرامة عند كونسطاسيا أخت الملك قسطنطين الكبير الذى كان حينئذ ساكنا فى نيكوميديا · فتمكن بواسطتها أن يستميل قسطنطين الملك الى أريوس · وكان الملك يعرف شيخا جليلا كان عمره حينئذ ٦٧ سنة من رؤساء الأساقفة اسمه أوسيوس أسقف قرطبة من أسبانيا الذى كان قد اعترف بالايمان فى عهد اضطهاد مكسيميان · وكان مشهورا بسعة علمه ومزيد اطلاعه فاستدعاه اليه وأرسله الى الاسكندرية ليتوسط لدى بطريركها فى أمر صلحه مع أريوس

وأرسل معه خطابا رقيقا الى الأخصام ينصحهم فيه بأن يكفوا عن النزاع. وكان قسطنطين بسبب خداع أخته وأسقف نيكوميديا له ينظر الى أريوس كانسان صالح ولذلك طلب من البابا الكسندروس أن يمتنع عن اضطهاده ظلما وكتب الى أساقفة الشرق مظهرا لهم أن أريوس كاهن بار وغيور على الايمان المستقيم .

ولما حضر أوسيوس أسقف قرطبة الى الاسكندرية عقد مجمعا سنة ٣٢٤ م لم يتمكن فيه من عمل أى شىء فى سبيل الاتحاد وذلك لكثرة التعديات التى جرت من الأريوسيين على مستقيمى الايمان وحدثت مشاغبات حطمت فيها بعض تماثيل الامبراطور ولأجل ذلك اشترك أوسيوس مع الكسندروس فى حرمان أريوس فى ذلك المجمع وعاد أوسيوس الى نيكوميديا وأوقف الملك على جلية الخبر وأن أريوس وأعوانه هم المخطئون وأعلن له رغبة البطريرك الاسكندرى فى اقامة مجمع عام وانه وهو يصادق على هذا الاقتراح . فارتضى قسطنطين وبناء على ذلك التأم ذلك المجمع المشهور فى مدينة نيقية سنة ٣٢٥م حضره القديس الكسندروس يرافقه تلميذه أثناسيوس وبعد جدال طويل سيأتى فى محله حكم المجمع بقطع أريوس وأتباعه ونفيه الى الليريكون وأثبت كل ما فعله القديس الكسندروس ثم كتب المجمع رسالة الى كنيسة الاسكندرية وأثنى فيها كثيرا على جهاد بطريركها فرجع القديس الى كرسيه فقابله الاكليروس والشعب بما يستحقه من الاحترام والاجلال رجل ضحى بكل شىء فى سبيل حفظ نقاوة ايمان ابن الله . وكثيرون من الذين انخدعوا بأوهام أريوس رجعوا الى حظيرة الايمان المستقيم .

ويقال ان هذا البطريرك العظيم هو الذى كسر صنم النحاس الذى كان فى هيكل زحل بالاسكندرية وكانوا يعبدونه ويجعلون له عيدا فى ثانى عشر هاتور ويذبحون له الذبائح الكثيرة فأراد البابا الكسندروس كسر هذا الصنم فمنعه أهل الاسكندرية فاحتال عليهم وتلطف فى الحيلة الى أن قرب العيد فجمع الناس ووعظهم وقبح عندهم عبادة الصنم وحثهم على تركه وأن يعمل هذا العيد لميخائيل رئيس الملائكة فان هذا خير من عمل العيد للصنم فلا يتغير عمل العيد الذى جرت عادة أهل البلاد على عمله ولا تبطل ذبائحهم فيه فرضى الناس بهذا ووافقوا على كسر الصنم فكسروه وأحرقوه وعمل بيته كنيسة على اسم الملاك ميخائيل وجمع أحجارا من صنم هيكل سيرابيس وصنعها صليبا ولم تزل هذه الكنيسة بالاسكندرية الى أن احرقتها جيوش المعز لدين الله أبى تميم معد لما قدموا فى سنة ٣٥٨ هـ وكانت تسمى كنيسة القيامة واستمر عيد ميخائيل عند مسيحيى مصر باقيا يعمل فى كل سنة الى يومنا هذا .

أما البابا الكسندروس البار فبعد خمسة أشهر من عودته من مجمع نيقية مرض المرض الأخير وأشار قبل موته على الكنيسة المصرية أن تختار

بعد وفاته أثناسيوس تلميذه بطريركا • وقيل أنه فى آخر ساعاته قال « باطلا يهرب أثناسيوس انه لا ينال مأربه » ففتشوا على أثناسيوس فوجدوا أنه قد هرب حقا ثم رقد هذا الحبر الأرثوذكسى الغيور فى ٢٤ برمودة سنة ٤٣ ش و ٣٢٦ م •

٤ — أثناسيوس١ البطريرك العشرون :

ولد بمدينة الاسكندرية سنة ٢٩٦ م من والدين مصريين (١) وثنيين كانا معتبرين لكثرة غناهما وشريف نسبهما وكان وحيدا لهما وتوفى والده وهو صغير وحينما بلغ سن الرشد أخذت والدته تحسن له الزواج وتغريه على قبوله بطرق مختلفة وما كانت ترى منه الا الرفض والاباء مع حسن منظره وحدة صباه حتى قيل أنها سلطت عليه مرة احدى البغيات لتفسد عفته وتستولى على ثباته فلم تفلح وكانت تأخذ البنات الحسان وتزينهن وتدخلهن عليه فى مرقده فكان اذا استيقظ ضربهن وطردهن وذلك لأن هذا الغلام كان قد سر من عشرة أولاد المسيحيين الأتقياء الذين نذروا أنفسهم للرب ورغب أن يكون واحدا منهم ولما شكت أمره لرجل ساحر وثنى طلب أن يأكل معه فأولمت لهما وليمة عظيمة وبعد ذلك قال لها الفيلسوف الوثنى لا تتعبى نفسك فان ابنك يتبع طريق الجليلى فأخذت تبحث عن هذا الجليلى حتى اهتدت الى القديس الكسندروس البطريرك فبشرها باسم المسيح ونالت على يده المعمودية مع ابنها •

وذات يوم بينما كان البابا الكسندروس منتظرا مجىء بعض الأكليروس لتناول الطعام معهم وكان جالسا فى شرفة تطل على البحر حيث كان بعض الغلمان يلعبون • وبعد أن تأملهم جيدا وجدهم يعمدون بعضهم بحسب نظام الترتيب الكنسى تماما • ولما جاء الأكليروس أمرهم باستدعاء أولئك الغلمان فلما مثلوا أمامه رأى ماهو أعجب وذلك ان أحد هؤلاء الأولاد وهو أثناسيوس كان يجرى العماد بالطريقة القانونية لأترابه الوثنيين الذين لم يكونوا قد تعمدوا بعد وبعد مناقشة دارت بين البطريرك وأكليروسه اتفق رأيهم على

---

(١) يدلك على قبطية أثناسيوس تتلمذه للقديس انطونيوس الذى لم يكن يعرف غير اللغة القبطية • ولما كان أثناسيوس بروميه بعث لرهبان مصر برسالة مكتوبة بلغتهم ولغته القبطية • وقال مؤلف كتاب « الدر المنظوم » ص ٣٠ وهو مارونى « ان أثناسيوس لما كان يكتب باللغة اليونانية احصى بين أبناء الكنيسة اليونانية مع كونه قبطيا » اه وقال العلامة ستانلى « ان أوصاف شعره تشبه أوصاف شعر المومیات المصرية المحنطة أى « شعر خفيف أسمر اللون ضارب الى الحمرة » ولا عبرة بأن اسمه قد يغرى على الحكم بأنه يونانى اذ نجد فى التاريخ اسما يونانيا بحتا مثل « انطون » قد سمى به شخص لا مشاحة فى انه قبطى صميم » اه (الكرمة ٩ : ٤ ص ١٨٤) •

الاعتراف بصحة ذلك العماد والاكتفاء باجراء خدمة التثبيت للمتعمدين . ثم رشحوا أثناسيوس وبعض الأولاد الذين اشتركوا معه فى اجراء هـذه الفريضة الى رتبة الـكهنوت .

والمستفاد من كل ذلك أن نجابة أثناسيوس وحذاقته ظهرتا عليه منذ حداثته وقد استكشف ذلك فيه معلمه الـكسندروس البطريرك ولهذا أخذه من أمه ووضعه فى الدار البطريركية واعتنى بتهذيبه وتثقيف عقله بالعلوم فبرع براعة عجيبة ونال حظا وافرا من العلوم اللاهوتية والفلسفية حتى غدا علامة بين أهل عصره . هذا فضلا عما كان متوشحا به من التقوى والقداسة . وقيل أنه تتلمذ للقـديس أنطونيوس أبى الرهبان واقتبس عنه فضائل النساك والمتعبدين . وكان يظهر فى كل وظيفـة يتحصل عليها ما يؤهله لنوال أعظم منها فاذا كان تلميذا أصدر سنة ٣١٨م رسالة ضد الوثنيين دلت على غزارة مادته وقوة حجته فكان ذلك سببا فى أن أعجب به البابا الكسندروس فسامه شماسا وبعد ذلك صار رئيس شمامسة الـكرسى البطريركى سنة ٣١٩ م . ثم صـار مساعد البطريرك يحيل عليه المشـكلات والمعضـلات ليكشف عن غوامضها وفى هذه الأثنـاء ظهرت مواهب أثناسيوس مع حداثة سنه وهو الذى حضر المجمع الاسكندرى الملتئم سنة ٣١٩م وأمضى كرئيس شمامسة رسالة بطريركه ضـد أريوس كما وجـد اسمه محررا فى أكثر الرسـائل البطريركية . ثم تقدم فى ميـدان الحرب مع أريوس الهرطوقى فاستصحبه البطريرك معه الى مجمع نيقية وهنـاك أخـذ أثنـاسيوس رئيس الشمامسة ومشير البطريرك يفنـد آراء الأريوسـيين ويبطل أدلتهم ويدحض براهينهم السفسطية وأظهر من الغيرة على أزلية المسيح ما جعله موضوع اعجـاب آباء مجمع نيقيـة كلهم فاندهشوا من حذاقة لبه وصحة فكره حتى قيل أن قسـطنطين الملك قال له قبل ارفضـاض المجمع كأنه يتنبـأ له « أنت بطل كنيسة الله » .

وقال سـقراط المؤرخ الـكنسى « ان فصاحـة أثنـاسيوس فى المجمع النيقاوى قد جرت عليه كل البلايا التى صادفته فى حيـاته » ومع أن آباء المجمع احتجوا على وجوده بصفته رئيس شمامسة فقط لـكنه بعد افتتـاح الجلسة صار يتكلم ويحاج خصومه كأنه هو بابا الاسكندرية بعينه .

وبعد نياحة البابا الكسندروس انتخب أثناسيوس خلفا له بنـاء على وصيته ومع أن أثناسيوس حاول الافلات من عبء هذه الوظيفـة المحفوفة بالمشقات الا أن الكنيسة لم تجد من يليق لها أكثر منه فبحثوا عنه كثيرا حتى وجدوه فى مكان اختبأ به فأحضروه بفرح شديد ورفعوه الى رتبة البطريركية فى أواخر سنة ٣٢٦م وفى شهر بشنس سنة ٤٣ش فى عهد قسطنطين قيصر وكان عمره وقتئذ ٢٨ سنة ووضع عليه الأيدى لأول مرة خمسون إسقفا من

أساقفة الكراسى المجاورة وقد حاول الأريوسيون أن يمنعوا انتخابه خوفا من مقاومته لهم فلم يفلحوا ٠



« البابا أثناسيوس »

هذ هو أثناسيوس بطل الأرثوذكسية العظيم الذى قيل أن الله انتخبه ليريه كم ينبغى أن يتألم من أجل اسمه ٠ فلم يكد يعتلى الكرسى المرقسى حتى تألب الأريوسيون لاسقاطه فوشوا به الى الملك قسطنطين الكبير بأن ارتسامه لم يكن قانونيا ولكن كثيرين من الأرثوذكسيين أثبتوا حقيقة ارتسامه ومنهم القديس باخوميوس الناسك المصرى الذى حين ارتقاء البابا أثناسيوس الى الكرسى رأى رؤيا وفيها قال روح الله « انى قد أقمت أثناسيوس عمودا ونورا لكنيستى وستناله شدائد وتلقى عليه تهم كثيرة لأجل مناضلته عن حق الديانة ٠ الا أنه بالقوة الالهية يظفر بكل التجارب ويبشر الكنائس بحق الانجيل » وقد أخذت بشائر هذه النبوة تظهر حالما استلم هذا الحبر عصا

الرعاية فانه أخذ ينشر كلمة الانجيل داخل القطر وخارجه · وكان أول أثمار مجهوداته تأسيس كنيسة الحبشة ورسامة فرومنتيوس أسقفا عليها سنة ٣٣٠ م الأمر الذى سنفصله فى أعمال أبطال الكنيسة القبطية بقسم مشاهير الكنيسة ·

وانتهز البابا أثناسيوس فرصة السلام والهدوء فقام برحلة يتفقد فيها رعاياه ومضى فى سياحته لغاية أسوان فاستقبله الرهبان تحت رئاسة الراهبين العظيمين باخوميوس وبلامون استقبالا عظيما وهم يرنمون المزامير ·

وقد ابتدأ جهاد هذا البطل بسبب عودة المنازعات بشأن القضية الأريوسية وذلك أن كونسطاسيا شقيقة الملك أوصت أخاها وهى على فراش الموت بقس أريوسى اعتنت به دائما لأنه كان أبا اعترافها · فلما فاز هذا الكاهن الأريوسى برضاء الملك أخذ يقنعه بمساعدة أوسابيوس أسقف قيصرية ببراءة أريوس وانه نفى ظلما لأن اعتقاده موافق لمعتقد المجمع النيقاوى · فجازت المكيدة على قسطنطين واستدعى أريوس من منفاه فحضر وقدم للقيصر صورة ايمان ملتو كانت حسب الظاهر أرثوذكسية فرضى قسطنطين بقبوله وأرسله بمكاتيب توصية الى الأساقفة بأورشليم فقبلوه فى شركتهم اكراما لخاطر الملك · ثم عفى قسطنطين عن كل الأساقفة الذين كانوا قد نفوا بسبب الأريوسية · فما استقر هؤلاء الذئاب فى كراسيهم ولا سيما أوسابيوس أسقف نيكوميديا وتيوغنيس أسقف نيقية حتى عقدوا مجمعا فى أنطاكية سنة ٣٢٩م حكموا فيه بعزل بعض الأساقفة الأرثوذكسيين بحجة أنهم من أتباع سابليوس · ثم أخذوا توصية من الملك وصورة ايمان أريوس وارسلوهما معه الى البابا أثناسيوس ليقر بقبوله فى شركة الكنيسة ·

فلما اطلع البطريرك الاسكندرى على التماس أريوس أبى قبوله واعتبر رضى الأساقفة فى أورشليم والملك عنه مخالفة لقوانين الكنيسة · ثم طرده من الاسكندرية فرجع الى الملك بالخيبة والفشل · أما البطريرك فبادر حالا وأرسل للملك رسالة يقول فيها « انه لا يمكنه أن يقبل فى كنيسته رؤوس الهراطقة المحرومين من المجمع النيقاوى وأن الكنيسة عموما لا تقبل فى شركتها أناسا ينكرون الوهية يسوع المسيح » أهـ فتوهم الملك انه يفعل ذلك لاختلاف شخصى بينه وبين أريوس · وكان الأريوسيون يسعون سعيا حثيثا ليلطخوا صيته عند الملك فطفقوا يشنعون عليه بأنه وضع على مدينة مصر ضريبة جديدة لربح كنيسته ولعمل حلل بيضاء من الكتان (توانى) للأكليروس ولكن بعناية الله سخرت له كاهنين كانا عند الملك وهما اليبيوس ومكاريوس فبرآه من هذه التهمة وفوق ذلك حضرت سفارة من حزب ميليتس

(م ١٠ — تاريخ الكنيسة)

من الاسكندرية عند الملك ووشت بالبطريرك أيضا بأنه أرسل مبلغا وافرا من المال الى فيلومنوس عدو المملكة الذى كان عازما أن يملك بلاد مصر وأقاموا ثلاثة شهود ادعوا ذلك · ومن دعاوى الأريوسيين عليه أيضا أنه كسر كأسا مكرسة وهدم كنيسة · فلأجل ذلك أمر الملك بأن يحضر البطريرك ويبرىء نفسه مما قرفوه به ويدفع تلك التهم عنه · فحضر وكذب كل ماقرفوه به وأظهر خبث أعدائه فرده الملك الى كنيسته ومدحه كثيرا فى رسالة يقول فيها « انى قبلت باكرام أثناسيوس أسقفكم كقبولى رجل متنور من الله ومما سمعته منه ورأيت فيه فقد ظهر لى أنه رجل جليل القدر وأن كنيستكم فى احتياج اليه لأنه عالى الهمة وذو عناية بحفظ الحق والديانة ومحب السلام وقابل للصواب » اهـ ·

فلم يكتف الأريوسيون بذلك بل ازداد هيجانهم ولفقوا ضد القديس تهما جديدة وقدموها الى الملك فلم يبال بهم هذه المرة بعدما اتضح له كذبهم فى الدعاوى الأولى وحولهم على أخيه دلماتيوس ليسمع شكواهم وبناء على ذلك ذهب البطريرك الى أنطاكية وقدم الأدلة على براءته بما أخجل أعداءه وسربلهم بعار الكذب مرة أخرى ورجع الى مقر كرسيه بكرامته مصحوبا بمكاتيب رسمية علقها على جدران الأماكن العمومية بالاسكندرية اظهارا لبراءته · ولما لم ينجحوا بهذه الطريقة أيضا دبروا مكيدة أخرى وهى أنهم استدعوا الأساقفة الى عقد مجمع فى قيصرية وفلسطين لفحص التهم الموجهة الى البطريرك الاسكندرى · واذ كان هذا القديس عالما بأغراضهم امتنع عن الحضور ولكنه اضطر أخيرا بأمر الملك الى الحضور وأخذ معه ثمانية وأربعين من أساقفته الى المجمع الذى كان قد انتقل الى مدينة صور وانعقد فى سنة ٣٣٤م وكان أعضاؤه من أساقفة الشرق وأكثرهم اريوسيين والمتقدم فى المجمع أوسابيوس أسقف قيصرية المعروف بأنه من أشد أنصار أريوس تعصبا له وأناب الملك عنه ديونيسيوس من كبار الموظفين وأرسل للمجمع كتابا يحمل فيه على أثناسيوس ويقر أعمال حزب أوسابيوس ·

فجاء القديس أثناسيوس الى المجمع ومع أنه كان ينبغى أن يكون هو المتقدم فيه بالنسبة لأهمية مركز بطريركيته الدينية والمدنية ولكنهم لميسمحوا له أن يجلس مع الأساقفة · ولما رأى ذلك القديس بوتامون أسقف هراقليا نهض من كرسيه وبعين تذرف الدموع قال لأوسابيوس القيصرى « من يحتمل أن تكون أنت جالسا على كرسى التقدم وأثناسيوس يقف كرجل مذنب ، أما تذكر أنى ألقيت واياك فى السجن فى زمن اضطهاد الوثنيين وأنى من أجل الايمان عدمت عينى اليمنى وأنت خرجت سالما من السجن فكيف أمكنك الخروج سالما » اهـ ثم تبعه القديس بفنوتيوس وأخذ معه القديس مكسيموس أسقف أورشليم وخرجا من المجمع والدموع تقطر من عيونهم فلم يهتم الأريوسيون بذلك بل شرعوا يعددون ما اخترعوه من التهم الفاسدة ضد القديس ·

ومن تلك التهم أنه اقترف اثم الفسق مع بتول راهبة وادخلوا امرأة زانية ادعت فى مجمعهم بأن أثناسيوس اغتصبها وسلبها بكارتها • فنهض تيموثاوس قس الكنيسة الاسكندرية موهما اياها بأنه هو أثناسيوس اذ لم تكن تعرفه وقال لها « أنا أيتها المرأة الذى زنيت بك كرها » فأجابت تلك الفاجرة بجسارة غريبة « نعم أنت يا أثناسيوس أغويتنى وأفقدتنى عفتى التى نذرتها للرب » ثم تظاهرت بالبكاء طالبة من المجمع أن ينتقم لها ممن أفسد عفتها الأمر الذى أضحك الأرثوذكسيين وأخجل الأريوسيين •

ثم ادعوا على القديس بأنه ساحر ورغبة فى اتمام عمل سحرى دس السم لواحد من أتباع ميليتس اسمه أرسانيوس أسقف هبسيل (شطب) وقطع ذراعه واستخدمه فى السحر والشعوذة • وجاءوا بدليل على اثبات هذه التهمة وهو يد مبتورة من جثة قالوا انها يد أرسانيوس • وكان الأريوسيون قد اتفقوا مع أرسانيوس أن يهرب الى الصعيد ويختفى فيه حتى تجوز حيلتهم على الامبراطور• فذهل البطريرك لدى سماعه هذا الافتراء ولعلمه بأن أرسانيوس حى يرزق أنفذ شماسا الى الصعيد للبحث عنه • وكان أرسانيوس مقيما فى أحد الأديرة • وقبل وصول الشماس اليه كان بينس رئيس الدير قد أرسله الى صور حتى لا يعلم مقره غير أن الشماس القى القبض على رئيس الدير وراهب آخر اسمه هلياس فى أثناء رجوعهما من تشييع أرسانيوس وأحضرهما أمام حاكم الاقليم حيث اعترف بينس بأن هذه التهمة لا يمكن أن تثبت ضد أثناسيوس لأن العالم أجمع يعرف أن أرسانيوس لم يزل حيا •

أما أرسانيوس فأقلع عن ضلاله ورذل بدعة أريوس وجاء الاسكندرية ليتوب بين يدى القديس أثناسيوس فلما رآه رؤساء الكهنة أرسلوه حالا الى صور لشدة الحاجة اليه فوصل اليها قبل تقديم تهمته ضد البطريرك بليلة واحدة فلما رآه القديس أثناسيوس شكر الله وأخفاه فى مكان قريب من المجمع •

وفى اليوم التالى أخذوا يحتجون بشدة على القديس لأنه قتل أرسانيوس وأخذوا يرفعون اليه اليد المبتورة قائلين « هذه تشتكى عليك ياأثناسيوس » فوقف القديس فى وسط المجمع وقال بسكون تام هل يوجد فيكم من يعرف أرسانيوس أجابوا أنهم يعرفونه • حينئذ قام أرسانيوس فى الوسط • فلما قالوا هو حقا نزع القديس عن أرسانيوس رداءه وأظهر يديه صحيحتين ثم قال لمن هذه اليد الثالثة المقطوعة ؟

فلشدة ما أصابهم من الخزى اضطربوا وماجوا وانتهز أخذهم المدعو يوحنا هذه الفرصة للهروب لأنه هو الذى دبر هذه المكيدة وعليه تقع

مسئوليتها ولكنه انتظر حتى هدأوا ووسوس اليه الشيطان أن يقول « ان هذا دليل جديد على مقدرة أثناسيوس فى علم السحر لأنه بقوة سحره أعاد أرسانيوس الى الحياة » فاشتد سخط القوم وزاد حنقهم على هذا البطريرك البائس وصاحوا جميعهم سحار · سحار · اقتلوه وهموا باهلاكه وكادوا يفتكون به لولا أن الأمير ديونيسيوس خلصه من أيديهم وأنقذ حياته من العطب ·

ثم جددوا عليه تهمة انتهاك حرمة الأسرار المقدسة بايعازه الى أحد تلاميذه المدعو مكاريوس أن يهدم كنيسة اسخيراس الهرطوقى عنوة ويحرق كتبها وحطم فيها كأسا مكرسة · وأصل هذه الحكاية أن قسا اسكندريا يدعى كمونوس انشق من الكنيسة وأخذ يعين قسوسا من العلمانيين فحوكم أمام مجمع بالاسكندرية وحكم عليه بالتجريد من رتبته هو ومن رسمهم · وكان منهم رجل يدعى اسخيراس استهان بحكم المجمع ومضى الى قريته بأقليم مريوط وصار يعقد فيها جمعية صغيرة فى غرفة حيث لم تكن كنيسة هناك· فأرسل اليه البطريرك القس مكاريوس ليؤنبه على فعله فوجده طريح الفراش فلم يكلمه فقط وبخ أباه على ما يأتيه ابنه فوعده أبو اسخيراس بارجاع ابنه عن عمله الردىء · غير أن اسخيراس بعد شفائه انضم لحزب ميليتس ورفعت دعواه سابقا الى الملك فبرهن البطريرك على عدم وجود كنيسة هناك وأنه وقت ما أرسل اليه مكاريوس لم يكن يؤدى خدمة دينية بل كان مريضا بل ان اسخيراس نفسه فيما بعد أقر فى محضر أمضاه ثلاثة عشر قسا من الاسكندرية ومريوط بما نصه « يشهد الله أن لا علم لى بما تقولون عن هذه التهمة التى لفقها بعضهم بل اننى أصرح جهارا بعدم وجود كأس كسرها أحدهما أو أن شخصا ما مد يده بسوء نحو شىء من متاع كنيسة لا معرفة لى بوجودها ولكننى أقول الحق وهو أن بعضهم اضطرنى اضطرارا للاقرار بتلك التهمة الملفقة » أهـ ·

ومع أن هذه الدعوى انتهت أمام الملك قسطنطين سابقا الا أنه لما رفض البطريرك قبول اسخيراس وهو متمسك بمبادىء ميليتس عاد الأريوسيون فى مجمع صور وجددوا تهمته · ولعدم وجود دليل على صحة هذه التهمة أرسل ذلك المجمع ستة أساقفة أريوسيين لتحقيقها بمصر · فما وصلوا الى الديار المصرية حتى حرروا محضرا مشحونا بالأقاويل الكاذبة التى بنى عليها المجمع الشرير حكمه ضد القديس اثناسيوس بتجريده من درجة رئاسة الكهنوت وعزله عن الكرسى الاسكندرى · وعلى أثره انتقل الأساقفة الأريوسيون المجتمعون فى صور الى أورشليم لتدشين الكنيسة التى أقامها القيصر قسطنطين هناك فاثبتوا حكمهم الأول فى مجمع خبيث عقد فى أورشليم سنة ٣٣٥ م ·

وكان القس مكاريوس تلميذ اثناسيوس قد طرح فى سجن صور

بدعوى هدمه لكنيسة اسخيراس فعزم القديس أثناسيوس على رفع دعواه مباشرة الى الملك فاستصحب معه خمسة من أساقفته فى أول سفينة أقلعت من صور الى القسطنطينية • غير أن الأريوسيين أقنعوا الملك بأن أريوس على ايمان مجمع نيقية ولأن قوسطنس ابن الملك كان أريوسيا تقوى ذلك الحزب ونال حظوة عند الملك ولم يستطع البطريرك الاسكندرى أن يخاطب الملك لأن اشراف الدولة لم يسمحوا له بذلك اكراما لخاطر قسطنس •

وحدث ذات يوم أن الملك كان خارجا للنزهة فى موكب حافل فأوقفه شخص غير معروف ووضع يده على زمام جواده طالبا منه الانصاف فلم يعرفه قسطنطين فى بادىء الأمر ولكن الرجال الملتفين حوله أخبروه أنه أثناسيوس فغضب قسطنطين وأطلق لجواده العنان ودفعته الجنود لكى لايقترب منه • فحينئذ هتف أثناسيوس قائلا « أيها الملك اسأل جلالتكم شيئا واحدا وهو أن تحضر خصومى الذين حكموا على وتسمح لى بأن أتناقش معهم أمامك » فلم يسع الملك رفض طلبه وأمر باحضار الأساقفة الأريوسيين الى القسطنطينية • فلما وصلهم الخبر وهم فى أورشليم انزعجوا لعلمهم بقوة حجة خصمهم ورجعوا الى ابروشياتهم خائفين ولم يلب أحد منهم دعوى الامبراطور سوى أوسابيوس النيكوميدى وبعض الأساقفة الا أنهم لما اجتمعوا بأثناسيوس أمام الامبراطور لم يأتوا بذكر تهمة واحدة من التهم الأولى لعلمهم ببطلانها فاخترعوا تهمة جديدة وهى أن أثناسيوس عزم على أن يمنع المراكب التى كانت تأتى من مصر الى القسطنطينية حاملة ضريبة الحنطة •

وكان قسطنطين غيورا على سلطته فاحتدم غيظا عند سماعه هذه التهمة الكاذبة مع أن أثناسيوس أنكر صدور ذلك منه ولكن الامبراطور قاطعه ولم يرد أن يسمع منه كلمة واحدة لاسيما لما رآه يكلمه بدون تهيب وحكم بنفيه الى مدينة تريف (١) فلما سمع القديس هذا الحكم قال للملك بشجاعة « ان الله سيقوم ديانا بينى وبينك أنت الذى قبلت شكوى أعدائى وصدقتها » ومن ثم انطلق البطريرك الى منفاه مع بعض أساقفة أرثوذكسيين فوصل اليها فى ٥ فبراير سنة ٣٣٥ م حيث قوبل فيها باجلال عظيم من مكسيمينوس أسقف تلك المدينة وقسطنطين الصغير قائد جنود المملكة فى الغرب •

فسر الأريوسيون بذلك وطلبوا من الملك أن يعيد أريوس الى منصبه بالاسكندرية • ولكنه ما كاد يصل اليها حتى قامت قيامة مستقيمى الرأى وقفلوا أبواب الكنائس فى وجهه فخشى الوالى حدوث شغب وأمره بالخروج من البلاد المصرية فغادرها الى القسطنطينية حيث لقى حتفه كما سيأتى ذكره

---

(١) تقع فى الجنوب الغربى من فرنسا •

أما الكنيسة المصرية فقد لبست شعار الحزن على ابعاد رئيسها الأمين ولذلك كتب الأرثوذكسيون فى مصر الى القديس انطونيوس كوكب البرية ليتوسط لدى الملك فى ارجاع بطريركهم فحرر له رسالة لم تأت بفائدة بل رد عليه الملك جوابا شديدا قال فيه عن البطريرك الاسكندرى انه رجل جسور ومتكبر وغشاش • غير أنه بعد موت أريوس صمم قسطنطين على اعادة القديس أثناسيوس الى كرسيه فلم يمهله الأجل وبعد موته استولى ابنه قسطنس الأريوسى على الشرق وقسطنطين الثانى الأرثوذكسى على الغرب • وقيل أن قسطنطين الكبير أوصى قبل موته بالبابا أثناسيوس فطلبه ابنه قسطنطين مستقيم الايمان من منفاه هو وجميع الأساقفة الأرثوذكسيين وطيب خاطره وأرجعه الى مركزه مع رسالة كان يمدحه فيها جدا ويقول له « ان أباه المعظم أرسله الى تريف لكى ينقذه من أيدى أعدائه » وكان قدوم البطريرك الى مدينة الاسكندرية فى شهر نوفمبر سنة ٣٧٨ م بعد أن أبعد عنها مدة سنتين وأربعة أشهر فقوبل باحتفال حافل أبدى فيه الشعب المصرى من السرور والشكر ما لا يوصف •

ولم يجسر قسطنس الأريوسى أن يضاد أخاه بل صبر قليلا حتى يجد فرصة مناسبة لقضاء مأربه • ولا ريب أن نبأ رجوع بطريرك الاسكندرية اليها وقع وقعا سيئا فى نفوس الأريوسيين الذين كانوا قد تقووا وعظمت شوكتهم فعملوا ثانية على الايقاع بعدوهم أثناسيوس مستندين على مساعدة قسطنس الملك الأريوسى الذى عين أوسابيوس أسقف نيكوميديا بطريركا على القسطنطينية رغما عن عدم رضاء الشعب •

فعقد الأريوسيون مجمعا فى أنطاكية سنة ٣٤٠ م حكموا فيه بعزل أثناسيوس بابا الاسكندرية وأقاموا مكانه رجلا منهم اسمه يسطس كان من ضمن القسوس الذين تشيعوا لأريوس وأوقع عليهم البطريرك الكسندروس حكم الحرم معه • ثم بعثوا بقرار هذا المجمع مع ثلاثة من القسوس الى رومية لعلمهم بأن أسقف رومية ينحاز اليهم اذا أظهروا احترامهم له • ولما لم يكن أسقف رومية ملما بحوادث الشرق أرسل خطابا رقيقا الى بطريرك الاسكندرية مصحوبا بالشكاوى المقدمة ضده من حزب أريوس وأهمها أنه رجع الى كرسيه بدون قرار مجمع • فلما وصلت رسالة أسقف رومية الى بطريرك الاسكندرية عقد مجمعا فى الاسكندرية سنة ٣٤٠م اجتمع فيه نحو ثمانين أسقفا احتج فيه على أعمال الأريوسيين وأرسل رسلا الى أسقف رومية بقرار ذلك المجمع الذى يتضمن عدم رضاء المصريين على بطريرك غير بطريركهم وبرسالة أقاموا فيها الأدلة القوية على براءته وطهارة ذيله من كل تهمة معزوة اليه وقالوا فيها « ان الغرض الوحيد الذى يرمى اليه أوسابيوس هو تعميم بدعة أريوس ونشرها فى مصر » ثم حرر القديس أثناسيوس رسالة

دورية بعث بها الى جميع أساقفة المسكونة مظهرا فيها براءته وطاعنا فى قانونية المجامع الأريوسية بقوله « ان مثل هذه المجامع ليس لها أن تقاضى أسقف كنيسة الاسكندرية الذى لا يقاضيه الا مجمع مسكونى يمثل الكنيسة بأسرها » أهـ ٠

وبناء على ذلك اقترح أسقف رومية عقد مجمع لفحص شكاوى الطرفين ولكن حدث فى سنة ٣٤٠ م أن قسطنطين الثانى نصير الأرثوذكسيين قتل فخلا الجو للاريوسيين فعقدوا مجمعا فى أنطاكية سنة ٣٤١ م حضره الملك قسطنس برئاسة أوسابيوس بطريرك القسطنطينية أيدوا فيه الحكم الأول ٠ ولكراهة الشعب الاسكندرى ليسطس المذكور سابقا عرض الأريوسيون الكرسى على أوسابيوس الحمصى فرفض لعلمه بمحبة المصريين لبطريركهم أثناسيوس ٠ ولكن الأشرار وجدوا أخيرا رجلا عاتيا عنيدا يدعى غريغوريوس الكبادوكى أرسلوه الى الاسكندرية ليأخذ كرسى القديس أثناسيوس ٠

أما غريغوريوس هذا فأصله من مدينة كبادوكية ولكنه تعلم فى مدينة الاسكندرية ولقى من القديس أثناسيوس كل عناية واحترام ٠ ولما تعين غريغوريوس بطريركا على الاسكندرية قامت قيامة الشعب الأرثوذكسى وتألفت جمعية قوية لتحتج على هذه الأعمال المستغربة وأظهروا استعدادهم لعدم قبول أى انسان يكون رئيسا عليهم سوى أثناسيوس ٠ ولكن لما وصل غريغوريوس الى الاسكندرية تقابل مع الوالى فيلاغريوس وكان صديقه واتفق معه على الاستيلاء على الكنائس بالقوة وهجم مرة على الكنيسة قصد الايقاع بالقديس أثناسيوس وبعد أن مثل بالعابدين تمثيلا شنيعا تمكن القديس أثناسيوس من النجاة فقد أنقذته قوة الله من أيدى أعدائه اذ كان منزويا فى مكان خفى بداخل كنيسة القديس ثاؤنا وهى الكنيسة التى يصلى فيها البطريرك وله فيها مسكن خاص ٠ فلما رأى ذلك الافئيات خرج مستترا راجيا أن يكف المبتدعون عن مثل تلك الشرور فى حال غيابه ٠ قيل أنه فى أثناء محاولته الهروب أغمى عليه فحمله بعض الشعب الى الخارج وسهلوا له سبيل الهرب ٠

أما غريغوريوس فتصرف تصرف الأشرار اذ لما رأى الجو قد خلا له حجر على قسوس الاسكندرية تعميد أحد أو زيارة مريض أو ممارسة أى عمل من أعمال وظائفهم ٠ وفى هذه الأثناء برز محضر أمضاه الوثنيون وأتباع أريوس فقط وفيه يتهمون أثناسيوس تهمات فظيعة فصمم هذا القديس على ترك الاسكندرية وقصد الى رومه رجاء أن يقيم دعواه فى ذلك المجمع الذى اقترحه يوليوس أسقفها ٠ وقبل مبارحته للاسكندرية كتب رسالة الى الأرثوذكسيين ونصح لهم فيها أن يؤثروا الموت الف مرة على

أن يشتركوا مع الهراطقة • ثم كتب رسالة دورية بعث بها الى جميع أساقفة المسكونة قال فيها « انى استغيث بكم وبالأرض والسماء مما حل بكنيستى • انى استغيث بكم كما استغاث ذلك الرجل الاسرائيلى الذى عندما ماتت زوجته ـ بعد أن اغتصبها منه أعداؤه ـ قسم جثتها الى اثنى عشر قسما بعث بكل قسم منها الى سبط من أسباط اسرائيل الاثنى عشر • ليتحدوا جميعا ويأخذوا بثأر تلك الزوجة التى تمثل الأسباط كلها » أهـ •

أما الأريوسيون فأوفدوا الى أسقف رومية القس مكاريوس والشماسين مرتيروس وحزقيوس ليعلنوه بحكمهم على أثناسيوس ويطلبوا منه قطع كل علاقة معه فقوبلوا أسوأ مقابلة حتى اضطر القس مكاريوس الى الهروب ليلا واستمر الشماسان ينتظران انعقاد مجمع يفحص القضايا التى اتيا لأجلها • وفى ذلك الحين تلقى القديس أثناسيوس رسالة من أسقف رومية يستشيره فيها عن المكان الذى يستحسنه لعقد المجمع فيه فلم يجد أثناسيوس أفضل من رومية وكان قد ترك الاسكندرية قبل عيد الفصح عقب وصول غريغوريوس اليها كما مر وأتى رومية يصحبه بعض الأساقفة وأمونيوس أحد رهبان دير النطرون وهو أكبر الاخوة الذين اشتهروا بطول قامتهم وايسذوروس الراهب التقى لكى يؤيد احتجاجات مجمع أساقفته وكان قد تعلم اللغة اللاتينية ليخاطب بها أسقف رومية فتلقاه يوليوس أسقف رومية وملكها قسطنت بكل تجلة واكرام وحدد أسقف رومية للمجمع شهر ديسمبر من تلك السنة وأرسل اثنين من كهنته وهما البيديوس وبوليكين ليخبرا أعضاء المجمع بحضور اثناسيوس ويدعيانهم الى الحضور •

فلم يجتمع المجمع كما كان مقررا له لأن الأريوسيين خافوا افتضاح أمرهم كالسابق فى مجمع يضمهم مع أثناسيوس ولذلك أخروا الرسولين عندهم شهرين كاملين عقدوا فى أثنائهما مجمعا بأنطاكية عند ذهابهم اليها للاحتفال بتدشين كنيسة « الذهبية » وكان عددهم ٧٩ أسقفا وقرروا تأييد حرمان أثناسيوس وتجريده من وظيفته وقيل أنهم شجبوا بدعة أريوس ولكنهم لم يصرحوا بموافقة دستور المجمع النيقاوى ووضعوا عوضا عنه دستورا من أربع صور كانت أساسا للشيعة النصف الأريوسية تلك الشيعة التى تتفق مع الأريوسيين فى القول « بعدم مساواة الابن لأبيه فى الجوهر » وتخالفهم فى القول « بأزلية وجود الابن فى حضن أبيه » •

وبعد أن وضع الأريوسيون تلك الصور الأربع أرسلوها الى أسقف رومية على يد مندوبيه وأرفقوا بها رسالة يعنفونه بها لقبوله أثناسيوس فى شركته ويحتجون عليه بقولهم « ان الدعوة التى وردت الينا لحضور مجمع رومية لم تكن دعوى مجمعية بل فردية ولذا فانا لم نعتد بها » فكتب اليهم يوليوس يعرفهم بأنه لم يكتب اليهم ماكتب بصفته الفردية بل بصفته ممثلا

لمجموع اكليروس ابروشسيته ثم قال « ان القوانين الكنسية لا تخول حق الحكم على أسقف كرسى رسولى مثل أثناسيوس الا لمجمع أساقفة الكنيسة الاسكندرية أو لمجمع مسكونى وأنه فى الحالة الثانية يجب اخطار جميع الأساقفة أصحاب الكنائس الرسولية » أهـ (١) ٠

ولم يكتف أسقف رومية بذلك بل شكل مجمعا فى شهر نوفمبر من السنة ذاتها مؤلفا من نيف وخمسين أسقفا وفى هذا المجمع قرئت رسالة أساقفة مصر التى بها برأوه ونزهوه عن كل ما رماه به أتباع أريوس من التهم وبعد الفحص حكم المجمع بأنه برىء من كل ما قرفوه به استنادا على قرار مجمع الاسكندرية ٠

وكان يوليوس أسقف رومية فى ذلك الوقت يلاطف أثناسيوس ويرجوه البقاء عنده فقبل هذا ذلك لعلمه بعدم ملاءمة جو الاسكندرية له فى تلك الأحوال واستمر برومية سنة ونصفا وضع فيها نظام الرهبنة للرومانيين كما سيأتى معنا ٠ وقد أدهش البابا أثناسيوس الناس قاطبة فى رومية باثارة قبرى القديسين بطرس وبولس على كل عجائب هذه المدينة العظيمة فكان يذهب اليهما ملقيا نفسه أمامهما بحرقة دينية عجيبة ٠

وقد استمر النزاع بين الفريقين حتى ضجر منه قسطنت قيصر الغرب وأمر بعقد اجتماع فى ميلان (بايطاليا) سنة ٣٤٥ م الغرض منه الفصل فى أمر الخلاف فاجتمع المجمع وقرر أعضاؤه ضرورة عقد مجمع عام فانشرح صدر البابا الاسكندرى بذلك وذهب الى مدينة ميلان حيث قابل قسطنس الملك الأريوسى مقابلة خصوصية وحينئذ سار ليرى الآب الجليل أوسيوس أسقف قرطبة أما المجمع فانعقد فى سرديكا (فى اقليم الليريكون أى بلاد اليونان) مؤلفا من مائة أسقف غربى أرثوذكسى ومن سبعين أسقفا شرقيا أريوسيا وترأس المجمع أوسيوس أسقف قرطبة فطلب الغربيون أن يكون أثناسيوس عضوا فى المجمع فأنكر عليهم الشرقيون ذلك وتركوا المجمع مغضبين واجتمعوا وحدهم فى مدينة فيلبو ولم يستحوا من أن يحرموا آباء المجمع السرديكى وحرموا الأسقف الرومانى يوليوس لأنه اشترك مع أثناسيوس وقد أردفوا ذلك الحكم برسالة مجمعية قالوا فيها « ان الغربيين يحاولون أن يدخلوا على الكنيسة قانونا جديدا ليحاكموا الأساقفة الشرقيين بمقتضاه » أهـ ٠

أما المجمع السرديكى فواظب على عقد الاجتماعات التى أسفرت على

---

(١) أثناسيوس فى احتجاجه الثانى وسوزومين ك ٣ ف ١٠ (عن مختصر تاريخ الأمة القبطية ص ٤٥٣) اهـ ٠

الحكم ببراءة البابا أثناسيوس وتثبيت قانون ايمان نيقية وحرم الأساقفة الأريوسيين وفى مقدمتهم أورزاس وفالانس وحكموا بعزل غريغوريوس الكبادوكى ودعوه أسقفا دخيلا بل انكروا عليه الأسقفية (١) الأمر الذى أغضب الأريوسيين فهيجوا قسطنس على الأرثوذكسيين فأرسل لواليه بمصر أن يشدد على أتباع أثناسيوس وأن يضع حراسا على أبواب الاسكندرية لكى لا يدخلها أثناسيوس واذا تجاسر ورجع الى كرسيه يأمر بقطع رأسه . فعمل الوالى كما أشار عليه قسطنس ونفى خمسة من القسوس الذين ينتمون الى البطريرك وكثيرون منهم اختبأوا فى البرارى والقفار فرارا من اضطهاد أتباع أريوس لهم . فالتزم من ثم القديس أثناسيوس أن ينفرد فى احدى مدن (تراكيا) للعبادة .

وبعد أن ارفض مجمع سرديكا أوفد أعضاؤه أفراتيوس أسقف كولونيا (بايطاليا) وفنسانت أسقف كابو (بايطاليا أيضا) ليطلعا القيصر قسطنس على أحكامهم . فظهرت حينذاك دسيسة دنيئة دبرها البطريرك الأريوسى الانطاكى ضد أفراتيوس بأن دس امرأة زانية فى مخدعه ليتهمه بالزنا غير أن هذه المكيدة انفضحت باقرار المرأة نفسها . فساء قسطنس الظن بهؤلاء المبتدعين وغير وجهه عليهم .

وحينئذ دعى الملك قسطنت الأرثوذكسى الغيور القديس أثناسيوس برسالة رقيقة الى مدينة اكويلا فقصد البطريرك مدينة رومية حيث ودع أسقفها يوليوس وتقابل مع الملك قسطنت فزوده برسالة الى أخيه قسطنس الأريوسى بأنطاكية شديدة اللهجة يقول له فيها « انه ينادى عليه بالحرب ان لم يرجع القديس أثناسيوس الى كرسيه » وحالوصول البطريرك الىقسطنس كان هذا قد أبغض الأريوسيين لما اتضح له من شرهم فاستقبله باكرام وأقسم له أنه سيحامى عنه فيما بعد وانه لم يعد يصدق كل ما يقال عنه . ثم قال للقديس بناء على مشورة أولئك الهراطقة . اطلب منه أن تعطى كنيسة واحدة للاريوسيين ليصلوا فيها فقال القديس « نعم ولكن بشرط أن يعطى الأريوسيون كنيسة واحدة للارثوذكسيين فى أنطاكية » فتعجب الملك من

---

(١) كان مما قرره هذا المجمع السرديكى منحه ليوليوس اسقف رومية نظرا لما أظهره من الثبات فى الايمان الأرثوذكسى حق استئناف الحكم على الأساقفة اليه ، بناء على ذلك يدعى الغربيون بأولوية كرسيهم على باقى الكراسى ولكن ليعلم أولئك المدعون ان ماسن فى هذا المجمع كان للاسقف يوليوس وحده لما أظهره من الميل للحق فقط ولم يكن غرض المجمع أن يكون قانونا عاما لكل أسقف بعده من الذين لم يكونوا متصفين بالصفات الحسنة التى كانت ليوليوس . ناهيك عن أن القانون يعطى ليوليوس حق استئناف الحكم على الأساقفة الغربيين ولا تعلق له باساقفة الشرق البتة اهـ .

هذا الجواب وأبى الانطاكيون الا الاصرار على خلع اثناسيوس الا أن الملك لم يلتفت اليهم وأطلق سراحه فترك انطاكية قاصدا الاسكندرية ومر بأورشليم حيث قابله القديس مكسيموس أسقفها بسرور . وكان غريغوريوس الدخيل قد قتل فى ثورة شنها عليه الاسكندريون فتمهد بذلك السبيل أمام البابا الاسكندرى للعودة الى مركز بطريركيته ولكن لعدم ثقته بوعد قسطنس تمهل الى شهر اكتوبر واذ لم يجد مقاومة جديدة رجع الى وطنه بعد ذلك الغياب الطويل .

وبينما كان الحزن مخيما على الاسكندرية وأهلها واذا برسالة من أسقف رومية تبشرهم بقرب عودة راعيهم اليهم ويقول لهم « انى أحمد الله الذى وهبنى نعمة الاجتماع بمثل ذلك الرجل العظيم » أه وان القلم يعجز عن وصف الاحتفال الذى قوبل به البابا أثناسيوس عند رجوعه الى الاسكندرية .

ونكتفى بقليل من كثير مما كتبه القديس غوريغوريوس النزينزى فى وصف ذلك الاحتفال قال « ان القوم توافدوا من أنحاء المدينة على اختلاف نزعاتهم للقائه وما كان بهم من الوجد والهيام براعيهم جعلهم يطيرون سرورا وكان ازدحامهم أشبه بالنيل فى عز فيضانه » ولما كانت المواصلات حينئذ على ظهور الحمير التى علتها الجماهير وبأيديهم أغصان النخل والزيتون يلوحون بها تخيل غريغوريوس وهو يصف دخول أثناسيوس فائزا دخول المسيح أورشليم كملك . وذكر غريغوريوس الأبسطة الثمينة التى كانت تفرش تحت قدمى البطريرك وآلاف الأيدى التى كانت تبلغ حدة تصفيقها عنان السماء . والهواء وقد تشبع بالأعطار الزكية التى فاح أريجها والأنوار المتألقة فى شوارع المدينة .

وقد روى بعض المؤرخين فى خلال ذكر احتفال فخم اقامه سكان الاسكندرية لأحد حكامها المشهورين المحبوبين محاورة بين شيخ وشاب كانا بين المتفرجين فقال الشاب للشيخ « هذا احتفال فخم لا يقيمه الناس للامبراطور قسطنطين لو بعث من لحده » فقال له الشيخ « ذلك لأنك لم تر الاحتفال باستقبال أثناسيوس الكبير » أه .

وما كاد البطريرك يستريح من وعثاء السفر حتى أعاد جهاده فى استئصال شأفة بدعة أريوس وخلع الأساقفة الأريوسيين ثم نشر رسالة فى عيد القيامة سنة ٣٤٧ م قدم فيها الشكر لله على ما أولاه من نعمة الرجوع الى مقامه وختمها ببيان عن الأساقفة الذين رسمهم حديثا والأماكن التى عينوا فيها . ثم بعث برسالة الى السياح يخبرهم فيها أن الأرثوذكسيين لم يكتفوا بالفرح لعودته اليهم وانما نشطوا الى الأعمال التقوية بقوله « ان الناس فى الاسكندرية شرعوا يحثون بعضهم بعضا على ممارسة أفعال البر

بحيث قد صارت تلك المدينة بستان الآداب وجنة الخلال الحسنة وحديقة الفضائل المسيحية وأن كثيرين زهدوا فى الدنيا واستوطنوا الفيافى ليترهبوا . وأن فتيات كثيرات نذرن لله بتوليتهن وشبانا كثيرين متزوجين عاشوا بالعفة مع نسائهم . والأغنياء وزعوا أموالهم على الفقراء وكان كل بيت نظير كنيسة » اهـ .

وقد استمر البطريرك بعد رجوعه الى مصر ثلاث سنوات ذاق فيها مع رعيته طعم الراحة . غير أنه حدث بعد ذلك أى فى سنة ٣٥٠ م أن رجلا جرمانيا يدعى مانيانس قتل قسطنت الملك الأرثوذكسى واختطف مملكته ولم يكتف بذلك بل طمع فى الاستيلاء على القسم الشرقى . فأرسل الى مصر رجالا يبثون فيها روح التمرد على القيصر . غير أن حكمة البابا أثناسيوس حالت دون ذلك اذ أوصى الشعب بالخضوع للقيصر فلم تفلح مساعى مانيانس فى مصر وانتشب القتال بينه وبين قسطنس الى أن قتل سنة ٣٥٣ م .

وعقب قتل قسطنت الملك الأرثوذكسى استأنف الأريوسيون مقاومتهم للقديس أثناسيوس فأوغروا صدر قسطنس الأريوسى عليه ووسوسوا اليه بأن الله انتقم من قسطنت بالقتل لأجل مدافعته عن البطريرك أثناسيوس وأنه من الواجب عزل هذا الرجل الذى كان سببا لموت أخيه . غير أن قسطنس لم يتمكن من أذية القديس أثناسيوس حينئذ لارتباكه فى القتال مع مانيانس المذكور فحرر رسالة لأثناسيوس مملوءة بعبارات الاحترام والمحبة .

وبعد سنة من هذا العهد انتصر على مانيانس واستقل بالملك فوجه حربه الى الأرثوذكسيين وعلى رأسهم أثناسيوس وقد احتال فى مبدأ الأمر عليه ليعيده الى أوربا ثانية ليسهل عليه الانتقام منه ولكنه خاب فى مسعاه . ولما أحس القديس أن أعداءه أخذوا ينمون فيه ويدسون له الدسائس بعزم جديد أرسل فى شهر مايو سنة ٣٥٢ م خمسة أساقفة وثلاثة قسوس الى قسطنس لأثبات براءته مما عزى اليه سابقا وكان مع هؤلاء الأساقفة سيرابيون أسقف ثميبوس (١) ولكن هذه البعثة لم تصادف نجاحا .

وجمع قسطنس مجمعا فى اريلاتى (من فرنسا) سنة ٣٥٣ م (٢) وألزم أعضاءه ونائبى أسقف رومية (وهما فنسانت أسقف كابو ومارسيل أسقف كمبانيا بايطاليا) أن يصدروا أحكاما ضد أثناسيوس فأمضى القرار جميع الأساقفة ماعدا بولين أسقف تريف الذى أرسل الى المنفى حيث مات .

---

(١) كان يوجد مدينتان فى مصر قديما بهذا الاسم وكانتا اسقفيتين فى وقت واحد .

(٢) ان المجامع التى عقدت فى مدة حكم قسطنس بسبب الخلاف بين أثناسيوس وجماعة اريوس تتجاوز الاثنى عشر .

وتهيج الغربيون لتوقيع نائبى أسقف رومية على قرار هذا المجمع لولا تداخل ليباريوس أسقف رومية برسالة بعث بها الى أوسيوس أسقف قرطبة قال فيها « انى لو خيرت بين الموت وبين اختصام أثناسيوس لفضلت الأول على الثانى » والتمس أسقف رومية هذا من القيصر أن يعقد مجمعا ثانيا فتم له ذلك وعقد المجمع سنة ٣٥٥ م فى ميلان وكان مؤلفا من ٣٠٠ أسقف جلهم أريوسيون ٠ وقد حدث فى هذا المجمع خصام شديد بين أربعة أساقفة قاموا للدفاع عن أثناسيوس وبين الامبراطور الذى اشتد غضبه لأن القوم أنكروا عليه سلطته الشخصية ومقدرته على معاقبة أسقف رأى أن يعاقبه بنفسه بدون قانون ٠ وقد رد عليه الأساقفة واغلظوا له فى المقال حتى قالوا له أنهم لم يكونوا هنالك ليدرأوا له غلطته التى ارتكبها ثم أخبروه بصريح اللفظ قائلين « ان أثناسيوس بصفته بطريركا لايحاكمه الامبراطور بل الأساقفة فلا تخلط جنابك بين القوانين الكنسية والأوامر الامبراطورية » فأجابهم الملك بغيظ شديد « ان ارادتى هى القانون » ٠

غير أنه كانت النتيجة ان المجمع حكم ضد أثناسيوس ولما لم يقبل ليباريوس أسقف رومية ولا اكليروسه التوقيع على ذلك نفاهم الى مدينة (بيرا) بتراقيا وأقيم مكان الأسقف الرومانى شماس أريوسى يدعى فيلكس الثانى ٠ وأثار قسطنس اضطهادا عنيفا على الأرثوذكسيين قال عنه القديس باسيليوس « اننى ظننته ابتدأ اضطهاد المسيح الدجال الذى تنبأ عنه بولس الرسول فى رسالته الى أهل تسالونيكى » ٠

ثم أن القيصر كلف سريانوس والى مصر باخطار أثناسيوس بحكم النفى الصادر ضده وبتحويل الغلال التى كانت تعطى لفقراء الأرثوذكسيين الى كنائس الأريوسيين ٠ فجاء سريانوس الى القديس ومعه أحد رجال الامبراطور المسمى هيلاريوس وطلب منه شفهيا أن يرافقهما فرفض الطلب لعدم وجود أمر رسمى من الامبراطور بيدهما ٠ وقد ساعده على ذلك تعضيد جميع الشعب والأكليروس له تعضيدا تاما ولذلك أقسم سريانوس برأس الامبراطور أنه لا يعمل شيئا ضد أثناسيوس حتى ترد اليه أوامر رسمية من مولاه ٠ ومع ذلك فكل هذه الحوادث لم تثن عزم القديس بل ظل مثابرا على اكمال شؤون وظيفته بهمة رفيعة ٠

وبعد مرور ثلاثة أسابيع فى سنة ٣٥٦ م بينما كان البطريرك يقيم صلاة الغروب بكنيسة العذراء التى بناها البابا ثاؤنا اذا بسريانوس حاصرها بخمسة آلاف جندى فلما شعر البطريرك بذلك أوصى المصلين أن لا يهربوا هربا يوجب الخجل ولا أن يقابلوا القوة بمثلها ٠ والآن لنترك وصف ماجرى حينئذ للقديس نفسه فقد روى بعد ذلك يصف الحادثة قائلا :

« أما أنا فجلست على الكرسى الخاص لى وأوعزت الى الشماس أن يتلو المزمور ١٣٦ وكان الشعب يردون عليه قائلين « لأن الى الأبد رحمته » وحينئذ حان وقت الانصراف وكنا على وشك الذهاب الى منازلنا . ولما كان الظلام خارج الكنيسة حالكا جدا طرق العساكر جميع الأبواب (١) طرقا عنيفا عندما كان الشماس يرتل مزمور الحمدوالشكر هذا حتى أن دقالأبواب كان يعرف فى آذان الشعب الذين كانوا مشتغلين بالصلاة والعبادة وكانوا يعجبون لهذا الطارق ليلا . ولما كان الشعب يرد على الشماس بهذه العبارة « لأن الى الأبد رحمته » فتحت الأبواب قهرا وولجها الجيش الرومانى وهو يصيح صياح النصرة والفوز كمن افتتح مدينة قوية وكانت سيوفهم مشهورة فى أيديهم تلمع فى شعاع سرج الكنيسة المنعكسة عليها فاندفع العساكر فى الكنيسة كالسيل الجارف وهرعوا قاصدين اياى . أما أنا فوقفت وأمرت الشعب بالفرار بقدر الامكان ولكن بعضهم اجتهد أن يعترض العساكر فى طريقهم فذبحهم الجنود وداسوهم تحت أقدامهم عندما كانوا يركضون نحو ردهة الكنيسة للقبض على الفارين . وقد الح على القسوس لكى أفر ولكنى أبيت ذلك وقلت لهم « ان نفسى عندى ليست أعز من نفس أحد الشعب » ولعلمى الأكيد بأنى ما دمت موجودا أمام أولئك الذين يسعون خلفى ليقتلونى فانهم يكتفون بى ولا يبحثون على الآخرين بل يتركونهم وشأنهم حيث لا علاقة لهم معهم . وقلت فى نفسى اننى لا أهرب حتى ينجو جميع الشعب ثم وقفت وطلبت من الحضور أنيصلوا الصلاة الأخيرة وحينئذ أشرتاليهم بالانصراف حالا . ولما انصرف أكثر الشعب جاء الرهبان مع الذين تخلفوا من القسوس وحملونى خارجا » أهـ .

وكانت نجاة القديس أثناسيوس من ذلك الخطر بأعجوبة من الله فانه بينما كان قائما فى كرسيه يعظ الشعب ويحثهم على الصلاة اندفع الجنود بشدة الى داخل الكنيسة وكادوا يحيطون بكرسيه لولا أن الله ضرب على عيونهم بغشاوة فما قدروا أن يميزوه وكانت المصابيح قد انطفأت بسبب الهياج فانتهز الأكليروس هذه الفرصة وأنزلوه جبرا من الكرسى وهو يمتنع والزموه أن يهرب فاجتاز العساكر بطريقة عجيبة بدون أن يراه أحد منهم . ولما وصل الجنود الى كرسيه وجدوه فارغا ففتكوا بالمؤمنين وقتلوا منهم خلقا كثيرا فأرسلوا للملك يشتكون من الظلم الذى أوقعه بهم سريانوس فبدلا من أن يلبى الملك شكوى الشعب ويرثى لحالهم مدح الوالى على ما عمل .

أما القديس أثناسيوس فاختفى فىالمدينة زمنا ثم فر الى الصحراء ولجأ الى برية طيبة وانفرد فيها متعبدا مع الرهبان ومشاركا اياهم فى عوائدهم

---

(١) كانت الكنائس فى ذلك الحين كانها حصون أو معاقل وفيها كل ما يحتاج اليه فى وقت الضيق .

وهكذا كانت عادة البابا أثناسيوس أن يلجأ فى أوقات ضيقاته الى مغاور المتعبدين على طول شاطىء النيل فاذا ما شاهدوه يهرعون اليه من صوامعهم فرحين متهللين فيعلوه البشر ويناديهم بقول الكتاب « من هؤلاء الذين يطيرون كسحاب وكحمامات الى بروجها » ثم تراهم يحيطون به وهم يحملون المشاعل ورئيس الدير يسوق مطيـــة البطريرك حتى مكامنهم الحريزة وكان أحـد الاكليريكيين يأتيه بالقوت الضرورى وكان طعامه خبز الفـلاحين النـاشف الغير المختمر وكان اذا عطش اغترف من ماء النيل براحتيه واذا تعب واحتاج للراحة جلس على قطعة حصيرة رثة أو اذا نام افترش الثرى والتحف السماء . وكان يصرف أوقاته مختبئا فى نفق مظلم فى الأرض أو منزويا فى أحد القبور القديمة المهجورة وبالجملة فلم يدع مغارة أو كهفا الا وآوى اليه وكان عمره فى ذلك الحين ستين سنة .

ويجدر بنا هنـــا أن نذكر أن جبون المؤرخ فى كتابه « سقوط المملــكة الرومانية » لم يكن يعبأ كثيرا بأمور الدين الا أن سيرة القديس أثناسيوس قد أثرت عليه كثيرا فكتب عنه بشفقة زائدة ومما رواه أنه فى أثناء هروبه اختبأ ببئر جافة ولكن خادمة قد خانته وأحضرت العساكر ليقبضوا عليه ولــكنه كان قـد خرج قبل وصولهم اليه . وروى أيضا أنه زار ضواحى الاسكندرية وكانت توجد هناك عذراء فى العشرين من عمرها وكانت قد اشتهرت بجمالها الفتان . وفى ليلة من الليالى فاجأها زائر وطلب الضيافة وكان الوقت بعـد نصف الليل وكانت اذ ذاك نائمة فى مخدعها ولــكنها قامت ملبية لذلك الطلب فوجدت بطريركها الجليل وهو ملتف فى قميص قصير ورداء أحمر ففتحت له وخبأته فى منزلها وهناك أطعمته والبسته وصارت كاتبة له لتساعده على مكاتباته مع الــكنائس حتى أنها هربت تلك المراسلات تهريبا . وهذه القصة روتها الفتاة فى أثناء شيخوختها مفتخرة بها .

أما الأريوسيون فكانوا يطلبونه ويفتشون عنه بأمر الملك فى كل أطراف المملكة برا وبحرا كأنه عدو جميع البشر . ولكنه حتى وهو فى منفاه لم يكف عن العمل لما فيه الخير للآخرين فحرر احتجاجا بليغا وصف فيــه صنوف البلايا التى أنزلها أعوان الملك بالأرثوذكسيين وقد أتينا على فقرة منها سابقا وبعث بها الى قسطنس . ثم بلغه أن الأريوسيين يتهمونه بالجبن لهروبه من الاضطهاد فــكتب دفاعا عن نفسه قال فيه « هم يعضون أصبع الندم لأنهم لم يتمكنوا من قتلى . والآن هم يلومونني على هربى . غير عالمين أنه لو كان فى الهرب جناية لــكان فى الاضطهاد جنايات . اننى هربت لئلا أقتل . وهم يقتفون أثرى لئلا أنجو من القتل . فليكفوا عن اضطهادى لأكف عن الهــرب وكيف لا يعلمون أن فى قرارى منهم حجة عليهم . ان المرء لا تفزعه الرقــة واللين بل القسوة والشدة بل غلظة القلب والتوحش » .

وفيما كان فى مغارته مواظبا على الصلاة نما اليه خبر أن الأريوسيين كتبوا صورة ايمانهم وأنهم يكرهون الناس على قبولها والتوقيع عليها وأن كثيرين ختموها خوفا من الملك • فحزن الراعى الصالح لما رأى الذئاب تتلف خرافه ونظير أسد يزأر فى البرية كتب أربع مقالات يحث فيها المؤمنين بغيرة شديدة على حفظ الايمان والثبات عليه • ومع ما كان يقاسيه ويعانيه فى منفاه من التعب والنصب ما فتىء مهتما بكنيسته فكان يكاتب أساقفتها ويبعث بالرسائل اليهم وكانت أوامره نافذة المفعول كأنها صادرة منه وهو جالس على السدة البطريركية • وقد كتب عدة خطابات لتعزية الحزانى وارشاد الحائرين عدا عن تآليف فى أهم المباحث كان أبناء عصره فى حاجة شديدة لها • ثم وضع منشورا أرسله للرهبان فى مبادىء مهمة وسطر خطابا لصديقه الحميم سيرابيون أسقف ثميوس • وكان أعظم عمل أتاه الكتاب المهم المتضمن مقالات مسهبة فى تفنيد بدعة أريوس •

وفى ذلك الحين كان الأريوسيون قد أقاموا على الكرسى الاسكندرى بطريركا دخيلا يدعى جورجيوس من كبادوكية أيضا نظير غريغوريوس السابق ذكره • وأشاروا على قسطنس أن يكتب رسالة الى ملكى الحبشة ازاناس وسازاناس يخبرهما فيها أن أثناسيوس هرطوقى وسيامته لفرومنتينوس أسقف الحبشة فاسدة • فيقتضى أن يرسلا أسقفهم لينال السيامة الصحيحة من جورجيوس • غير أن ملكى الحبشة لم يعبأ برسالة قسطنس لثقتهما بأثناسيوس وفرومنتينوس •

وكان جورجيوس هذا قبل تعيينه فى الوظائف الكهنوتية سمسارا خادعا فى القسطنطينية ولكنه كان معروفا بالعلم وحالما تبوأ الكرسى المرقسى أتى من الأعمال الخبيثة مالا يأتيه انسان ذو عقل وشعور فان مدته فى الاسكندرية كانت عبارة عن اضطهاد جديد حل بالمصريين • وفى مبدأ الأمر حاول اغراء أساقفة مصر على امضاء قرار أريوسى واذ فشل فى مساعيه أشعل نار اضطهاده فكبل اثنى عشر أسقفا منهم بالقيود والأغلال وزجهم فى ظلمات السجون •

ولما صفا الجو للاريوسيين بغياب القديس أثناسيوس عقد الملك مجمعا فى سرميوم (غربى فرنسا) سنة ٣٥٧م ترأس عليه الأسقفان الغربيان أورزاس وفالانس وحضره قسطنس بنفسه • وقد وضع ذلك المجمع صورة ايمان جديدة حذف فيها لفظة (الجوهر) من قانون المجمع النيقاوى بمعنى أن الآب أعظم من الابن فى الرتبة والمجد وقد نجح الأريوسيون فى ارغام أوسيوس أسقف قرطبة على توقيع هذا القرار بعد أن أثخنوه ضربا بالعصى حتى تقطع جسمه وكان ليبيريوس أسقف رومية قد سئم من منفاه الذى

قضى فيــه مدة سنتين ونصف فدفعــه حب الرئاسة الى قبول التوقيع على ذلك القرار وأقــدم على ذلك خصوصا لمـا علم بموافقــة أســقف قرطبــة عليه • فــكتب للأريوسيين ثلاث رسائل رجاهم فيها أن يتوسطوا لدى القيصر كى يعيده الى أسقفيته وأعلن لهم لعنه لأثناسيوس وقطعــه كل علاقة معــه فرجع الى كرسيه واشــترك فى تدبيره مع فيلــكس الأسقف الأريوسى الى الممات (١) •

فلما علم الأرثوذكسيون ذلك عقدوا مجمعا فى (اجان) اثبتوا فيــه الدستور النيقاوى بدون نقص أو زيادة • وعقد أصحاب مذهب الاتفاق بين الطرفين مجمعا فى (أنقرة) أيدوا فيه دستور مجمع انطاكية ومجمع سرميوم ولبث الأريوسيون يتخبطون فى أعمالهم وأقوالهم حتى انقسموا الى عدة شيع ومذاهب كانت كل منها تقرر مايخالف الأخرى • وقد اجتمعت عدة مجامع فى أنقرة وأنطاكية وسرميوم للتوفيق بينها فلم تفلح جميعها بل كانت تعمل على توسيع دائرة الخلاف بزيادة •

أما القديس أثناسيوس فقد تصدع بسماع هذه الأخبار المحزنة التى كانت تصله تباعا ولا سيما سقوط صديقيه أوسيوس وليباريوس • غير أن أوسيوس قيل عنه أنه أمضى القرار تحت تأثير اضطهاد ثقيل أضعف عقله وكاد يفقده الشعور والادراك ولــكنه لم يلبث قبل موته حتى استرد ما عمل وتاب عن الهفوة التى ارتكبها فى ظروف صعبة •

واثر عليه كثيرا نبأ أتى ينعى اليه مار أنطونيوس الناسك الذى كان خير صديق وسند له واستمر القديس فى منفاه مدة خمس أو ست سنوات فى نهايتها بلغه خبر موت قسطنس الأريوسى وتولى مكانه يوليانوس الملحد •

---

(١) ومن المدهش أن الغربيين يحاولون تبرئة ليباريوس من وصمة سقوطه فى الهرطقة مع أن تواريخهم المشهورة بتحويل الحق الى باطل لم تجرؤ على انكار هذه الحقيقة واليك ما كتبه ليكورى معلم الــكنيسة الــكاثوليكية نقلا عن أورسى مجلد ٦ ك ١٤ عد ٧١ قال « اما البابا ليباريوس الذى كان منفيا الى بيريا منذ ثلاث سنوات ففشلت روحه من الاهانات والانفراد لاسيما منحزنه لدى مشاهدته فيلــكس شماسه الكاذب جالسا فىالكرسى الرومانى فأمضىاحدى الصور المذكورة شاجبا القــديس اثنــاسيوس ومشاركا الأساقفة الأريوسيين » اهـ (تاريخ الهرطقات مع دحضها ص ٨٣) وجاء فى كتاب « خلاصــة تاريخ الــكنيسة » للمعلم لومنــد الأفرنسى ج ١ ص ١٩٢ « أما البابا ليباريوس فكان اولا أبدى عزما شديدا الا أنه فشل فيما بعد لمــا قاساه من زعج المنفى فأمضى على شجب أثناسيوس لــكنه ندم حالا على ما فعل وفى الحال نهض من سقطته واصلح عثرته » اهـ وقــد اثبت ذلك أيضا ببراهين لا تدحص بطريركهم كيرلس مقار فى كتابه « الوضع الالهى فى تاسيس الــكنيسة » فليحكم اصــحاب الحجى وينصفوا •

ومع أن يوليانوس كان يبغض المسيحيين بوجه عام الا أن كراهيته لقسطنس دعته أن يأمر باعادة جميع المسيحيين ورؤسائهم الذين نفاهم هذا الملك وقيل أنه أمر باعادتهم لكى يحارب بعضهم بعضا فتنحل عرى الوحدة المسيحية فرجع البابا أثناسيوس الى الاسكندرية فقوبل فيها بابتهاج ماعليه من مزيد • وأما جورجيوس الأسقف الدخيل فكان له وقتئذ بغض شديد فى قلوب الجميع نظرا لما أتاه من الشرور ليس ضد المسيحيين فقط بل وضد الوثنيين أيضا حتى أن هؤلاء قتلوه قبل رجوع اثناسيوس بقليل أحرقوا جسده والقوا رماده فى البحر •

فأخذ القديس أثناسيوس يصلح ما سبق اتلافه بواسطة الهراطقة وكانت له همة عالية لا تعرف الفتور فخيب آمال جميع أعداء الديانة المسيحية اذ رد الناس عن عبادة الأوثان وعن غواية الهراطقة ولذلك عقد مجمعا سنة ٣٦٢ م لم يحضره سوى ٢٠ من أساقفته الذين كانت البلايا قد ذهبت بمعظمهم وقرر فى هذا المجمع ما يجب اتباعه مع الأريوسيين الذين يعودون الى الأرثوذكسية وأبلغ قراره هذا الى كل الكنائس ولا سيما كنيسة أنطاكية التى انصاعت لارشاداته الحكيمة •

فلما رأى يوليانوس الملك الكافر أن رجوع رؤساء المسيحيين دعا الى نموهم بخلاف ما كان يرجو سأل عن السبب فقيل له بواسطة الهراطقة لا يمكنك الانتصار على الدين المسيحى مالم تهلك أثناسيوس حامى هذا الايمان والذى زاده هياجا على أثناسيوس وصوله خبر عنه بأنه عمد بعض النساء اليونانيات اللائى كن وثنيات واعتنقن الديانة المسيحية فأصدر أمرا قاطعا لوالى الاسكندرية بنفى أثناسيوس من الاسكندرية حالا بحجة أن العفو الملكى لم يشمله وهذا ماكتبه يوليانوس للوالى « معأنك مهمل كثيرا فىأن تكتب لى عن مسائل متعددة وأنا أغضى عن هذا الاهمال الا أنه كان يتحتم عليك أن تخبرنى عن تصرفاتك مع أثناسيوس عدو الآلهة وكاره الأوثان وأنت تعلم حقيقة مقاصدى ضد هذا الرجل الذى أخبرتك عنها من زمن مضى وعليه فانى أقسم بالاله سيرابيس العظيم أنه ان لم يبرح أثناسيوس الاسكندرية بل القطر المصرى فى أوائل شهر ديسمبر فانى أغرم جميع موظفى حكومتك غرامة قدرها ١٠٠ رطل ذهب قصاصا لهم واعلم أننى بطىء العقاب ولكننى بطىء العفو والصفح » أهـ •

فبلغ القديس هذا الأمر فى شهر اكتوبر سنة ٣٦٢م فأسرع ليودع أصدقاءه الذين انفطرت قلوبهم حزنا على ذلك الفراق العاجل أما هو فكان يعزيهم بأن هذا الحادث نظير زوبعة عابرة تتلاشى فى وقت وجيز • ولما شعر أن الجنود أوشكت أن تقبض عليه نزل حالا فى مركب وسار فى النيل قاصدا الهروب الى «طيبة» ولما بلغ الحاكم أمر هروبه أسرع بجنوده وتبعه فى مركب آخر أكثر سرعة من مركب القديس فلما رأى الذين كانوا مع البطريرك أن

سفينة الحاكم اقتربت منهم أشاروا عليه بأن يخرج الى البر ويهرب الى البرية ويختبىء فيها ولكنه لم يرد بل أمر رئيس المركب بشجاعة وهدوء أن يوجه السفينة نحو طالبى نفسه كأنه منطلق الى الاسكندرية فلما صار بازاء أعدائه نادى الحاكم على من فى مركب القديس مستفهما عما اذا كان أثناسيوس فيها أم لا فأجابه هو بنفسه « هوذا أثناسيوس قريب منكم » فأسرع الحاكم بالسير صاعدا فى النيل أما هو فنزل فى ممفيس (جيزة) واستمر بها ريثما يكتب رسالة عيد الفصح السنوية التى كانت ترسل الى كل الكنائس ٠

وبعد ذلك قصد (طيبة) ليختفى هنـــاك فعندما اقترب الى مدينـــة هرموبوليس (الأشمونين) التقى به تيودوروس رئيس دير طـابانا بقرب سوهاج وكان قد جاء ليحتفل بقدومه احتفالا باهرا فاستمر البطريرك مدة فى هرموبوليس وانطينو واعظا ومبشرا الى أن بلغه فى منتصف الصيف أن الخطر محدق به من كل جانب فركب سفينة صغيرة هو والراهبان اللذان كانا يرافقانه على الدوام وحاولوا السفر ولكن الرياح عاكستهم واضطروا أن يقاسوا التعب العظيم فى جر السفينة وقضى القديس ذلك اليوم وهو يصلى بحرارة دون أن يلتفت الى رفيقيه ثم استفاق كأنه من نوم وقال لهم « هبوا انى قتلت » ثم صمت لما رأى الراهبين يبتسمان ثم أخبراه أنه فى حال صلاته علما بالهام الهى أن يوليانوس قتل ٠

وقد حققت الأخبـــار قول هذين الراهبين فقتل يوليانوس سنة ٣٦٣ م وتولى عوضا عنه يوبيانوس فهذا نشر حرية الأديان وقرر الغاء الأمر الصادر من سلفه ضد أثناسيوس فرجع القديس الى كرسيه وحال وصوله بعث اليه الملك رسالة فيها يطريه لثباته وشهامته ويلتمس منه أن يرسل له رســالة تتضمن تعليم الـكنيسة الأرثوذكسية فتداول أثناسيوس مع أساقفته فى أمر هذا الطلب ثم كتب شرحا للتعاليم القويمة وقع عليه هو وأساقفته وأرسله للملك الذى سر منه جدا وأرسل يستدعى اليه القـديس لمشاهدته لأنه كان مشتاقا الى رؤيته ٠ فذهب البابا أثناسيوس الى أنطاكية فقابله الملك مقابلة حسنة ورجع الى كرسيه بكرامة عظيمة ورأى الجو صافيا أمامه فجال فى أبروشيته المتعبة يعزى شعبه ويعظهم وكانت نتيجـة مساعيه فى أنطاكيـة والاسكندرية رجوع عدد عظيم من الأريوسيين ٠

ومع علم الأريوسيين بصحة ايمان هذا الملك فقد تجاسروا وأوفدوا اليه بعضهم وعلى رأسهم رجل كان قـد ســامه جورجيوس الـكبادوكى يدعى لوسيوس ٠ فقابلوا يوبيانوس بأنطاكية وطلبوا منه أن يعين للاسكنـدرية بطريركا ٠ فاعلمهم أنه سبق وكتب الى أثناسيوس ليرجع الى كرسيه فأخذوا يفوهون بمذمات ضد أثناسيوس مما دعى الى سخط الملك عليهم وتقدم أحد

العساكر وأفهم الملك بأن هؤلاء هم النفاية الباقية من حزب جورجيوس المحروم فطردهم من أمامه طردا مخزيا ولكنهم تبعوه فى طريقه فسخط على البحارة الذين لم يطرحوا لوسيوس فى اليم عند سفره معهم من الاسكندرية الى أنطاكية ٠

غير أن الدهر لم يبتسم للبطريرك الاسكندرى سوى سبعة أشهر اذ مات يوبيانوس الذى كان يرجو القديس كل خير للمسيحية على يديه وخلفه فى الملك والنتينوس ومع أن هذا كان مواليا لعقيدة الكنيسة الا أنه أخذ لنفسه الغرب وسلم الشرق لأخيه فالنص الأريوسى فأمر حال جلوسه على كرسى الملك بنفى جميع الأساقفة الأرثوذكسيين الذين سبق نفيهم بواسطة قسطنس ورجعوا بسماح يوليانوس ٠ وبناء على ذلك أراد والى مصر أن يطرد أثناسيوس من كرسيه ولكن ما شعر بذلك وجهاء الشعب والأعيان حتى تجمهروا وجاءوا الى الوالى محتجين عن بطريركهم بأنه لا يدخل تحت هذا الأمر اذ لم يرجع من منفاه بأمر يوليانوس بل بأمر يوبيانوس خلفه ٠ ولما لم يقتنع الوالى أعلنوه بأنه لا يمكن نفى أثناسيوس وشعر الوالى بحركة عظيمة قام بها الشعب فأدرك أن نفى البطريرك يجر وبالا عظيما فأظهر رضاء مؤقتا ٠

وفى شهر أكتوبر بينما كان القديس مقيما بزاوية فى كنيسة القديس ديونيسيوس علم أن الوالى مصمم على القبض عليه فأسرع بالفرار حتى أن جنود الملك فتشوا عنه فى تلك الليلة فى كل مكان بالكنيسة فلم يقفوا له على أثر ٠ أما هو فاختبأ فى قبر أبيه واستمر هناك أربعة أشهر كانت كلها اضطرابات وقلاقل بسبب ابتعاده مما اضطر الوالى الى أن يكتب لوالنص يقول له « انه لا يسكن هياج القوم الا بوجود بطريركهم بينهم » ولما علم والنص بذلك خاف من أن يغتاظ أخوه والنتينوس عليه وسمح للقديس بالاستقرار فى كرسيه فرجع اليه فى سنة ٣٦٨ م وله من العمر يومئذ ٧٢ سنة ٠

ولم تكن شيخوخته لتحول بينه وبين استئناف العمل الروحى فجدد جهاده مبتدئا فى سنة ٣٦٨م بترميم كنيسة سيزاريوم التى كانت قد حرقتفى شغب أحدثه الوثنيون فىالاسكندرية فىغرة شهر يولية سنة ٣٦٦م (١) ثم

---

(١) هذه الكنيسة كان قد اتم البابا اثناسيوس بناءها فى سنة ٣٦١ م وكانت مبنية على اطلال المسمى (سيزاريوم) أى قصر القيصر وهو قصر قديم للامبراطرة الرومانيين وكان لم يزل خاصا بالامبراطور ٠ وفى مدة الصوم الكبير سنة ٣٥٤م كانت كنائس الاسكندرية تزدحم بجمهور المصلين ازدحاما هائلا فطلب الشعب من البطريرك أن يقيم صلاة العيد فى كنيسة سيزاريوم وكان قد تم بناؤها ولم تكرس فخشى وقتئذ اجابة طلبهم بفتح هذه الكنيسة لأن هذا القصر لم يكن قد سلم للكنيسة ووضع تحت تصرفها ٠ فضلا عن أن اقامة الصلاة فى كنيسة غير مدشنة امر مخالف للقوانين الكنسية ٠ غير أن البطريرك اضطر الى اجابة طلب الشعب فاعتبر ذلك عند اعدائه ذنبا جديدا له اهـ ٠

وضع أساسا لكنيسة أخرى دعيت فيما بعد باسمه • ثم وصل اليـه خبر هرطقة أبوليناريوس أسقف اللاذقيـة الذى اعتقد أن لاهوت المسيح حل محل نفسه فوضع كتابين فى تفنيـد هـذه البدعـة • ولم يفتر عن مقاومة المبتدعين فى كل مكان بل كان جادا فى استئصال شأفتهم ولأجل ذلك كاتب داماسون أسقف رومية يحثه على توقيع العقاب الكنسى على أورانس أسقف ميلان ونصير الشيعة النصف الأريوسية فأطاع داماسوس أمره ونفذ رغبته فى سنة ٣٧٠ م • وبعد أن طهر الغرب من جراثيم الهراطقة التفت الى الشرق وأخذ فى مراسلة القديس باسيليوس أسقف قيصرية الكبادوك وغريغوريوس أسقف نيزينزا وغريغوريوس نيصص الأساقفـة الأرثوذكسيين وغيرهم من الأساقفة الأريوسيين حاثا اياهم على قطع دابر الشيع المختلفـة ومقاومة مبتدعيها •

وفى ذلك الوقت طلب منه أن يقيم أسقفا لأهالى مدينتين فى مقاطعـة بنتابوليس فرسم لهم بحسب طلبهم ايسوذورس • وبعـد هذا العهد حـرم رجلا عظيما هو حاكم (ليبيـا) وأرسل منشورا الى الـكنائس يوضح فيه الأسباب التى دعته الى ذلك • وهكذا استمر يجاهر ويكافح وينـاضل عن الحق الانجيلى مدة الخمس السنوات التى قضاها على الكرسى بعد رجوعه الأخير حتى انتهت حياته الدنياوية وابتدأت حياته السماوية الخالدة فى ٧ بشنس سنة ٩٠ش وربيع سنة ٣٧٣م بعد أن جلس على السدة البطريركية ٤٦ سنة وخمسة عشر يوما • ولما شعر بقرب حلول الأجل أوصى بتعيين بطرس أحد أساقفته خلفا له •

وقيل أن القديس أثناسيوس كان قصير القامة جدا حتى أشار اليـه يوليانوس الجاحد بالقزم تعبيرا وتقريعا ولكن غريغوريوس النزينزى يؤكد لنـا أنه كان حسن الطلعـة جميل المحيا عليه سيماء التقوى والورع يخـال للرائى أنه ملك من الملائـكة • وينقل عنـه أنه كان أيضـا محدودبا بعض الأحديداب ذا أنف مقوس وفم دقيق ولحية قصيرة متصلة بشاربين كبيرين • وكان ذا شعر خفيف أسمر اللون ضارب الى الحمرة •

هذا ولما كان هذا الرجل العظيم قد ساهم الرسل فى جهادهم المدهش عن الايمان القويم وشاركهم فى اكاليلهم النورانية فقد جملته الكنيسة بلقب « الرسولى » الذى كان يلقب به معاصرو الرسل وخلفاؤهم وتلاميذهم الذين حذوا حذوهم ونسجوا على منوالهم فى جهاد الخدمة وتعب الكرازة والمحاماة عن الايمان • وقد شاطرهم ذلك البطريرك جهادهم واستحقاقهم ونال شرفهم ولقب أيضا « بالأكبر » باعتبار مقامه الذى ارتفع بسبب جهاده وقد قال عنه القديس غريغوريوس النزينزى « ان من يمدح أثنـاسيوس يمدح الفضـيلة

نفسها » أهـ وأما عن تصانيفه فقد قال الأنبا قزما « ان من يجد شيئا منهـا فليكتبـه حالا على قرطـاس · وان كان لا يجـد قرطـاسا فليـدونه على أثوابه » أهـ وأبلغ وصف لعظم ذلك الجهاد الذى قام به أثناسيوس ذلك المثل الذى اشتهر حينئذ القائل :

« كل العالم ضد أثناسيوس وأثناسيوس ضد العالم »

قال أحدهم « ولعل الترجمة اللاتينية لهذه العبارة التاريخية أصل المثل الأفرنجى المشهور Athanasius, Contra Mundum. أى أثناسيوس ضد الذى يضرب لمن يثبت على رأيه رغم اجماع الناس على معارضته » أهـ ·

فلا غرو اذا نظم فيـه شـاعر الفرنجة من قصـيدة سماها « القيثارة الرسولية » قوله :

أثناسيوس العظيم قلبـا ... أضحى مليك القلوب طرا

من بولس زانـــه رداء ... فازداد قدسا ونال برا

وبلغ اعجـاب الغربيين به أن نقلوا رفاته تدريجـا نحو بلادهم من الاسكندرية الى القسطنطينية فالبندقية ففرنسا فأسبانيا (١) ·

وللقديس أثناسيوس مؤلفات عديدة جدا وكلها تبحث خصوصـا عن البدعة الأريوسية وما يتعلق بها وهى هذه :

١ ـ رسالة ضد الأمم · ٢ ـ رسالة فى التجسد ·
٣ ـ أربع رسائل ضد الأريوسيين · ٤ ـ خطاب ضد الأريوسيين ·
٥ ـ رسالة فى هربه ·
٦ ـ احتجاج بعث به الى الامبراطور قسطنطين الـكبير ·
٧ ـ تاريخ البدع الأريوسية والمانيكية ·
٨ ـ كتاب فى تجسد الـكلمة ·
٩ ـ رسالة جامعة الى الأساقفـة ·
١٠ـ رسالة فى قوانين مجمع نيقية ·
١١ـ رسالة الى أسقف مصر وليبية ·
١٢ـ أربع رسائل الى سيرابيون ·
١٣ـ رسالة مجمعى أرمينى وسلوكية المحليين ·
١٤ـ رسالة الى روفس ·
١٥ـ رسائل الى أهالى أنطاكية ·
(١٦) جدول الأسفار الالهيـة ·

---

(١) وقـد أحضر رفاته الى مصر فى عهد البـابا شنوده الثالث فى ١٠ مايو سنة ١٩٧٣م (النـاشر) ·

وله أيضا رسائل فى الخطيئة غير المغفورة وفى سفر المزامير وغيره من أسفار العهد القديم وكذلك تنسب اليه سيرة أنطونيوس الناسك ٠

والآن نأتى بذكر بعض ما أثبته العلامة ستانلى من نوادر البابا أثناسيوس وأقواله وآرائه ننقله ملخصا : (١)

قيل أنه سئل عن رأيه فى عماد الأشخاص وهم على فراش الموت فأجاب بهذه الاستعارة المفحمة « لقد قال أحد الملائكة لسلف سلفى (أى البابا بطرس خاتم الشهداء) لم ترسل الى هذه الخرائط محكمة الختام وهى خالية خاوية لا شىء فيها ؟ » ٠

وكان مارا ذات يوم فى احدى ساحات الاسكندرية فلقى دهماء من غوغاء الوثنيين وحدث أن غرابا كان طائرا ينعق من فوقه وهو مار فسأله الغوغاء سخرية ومزحا ماذا يقول الغراب فضحك أثناسيوس من وراء كمه ثم التفت اليهم مجيبا بقوله (ألا تسمعونه يقول لكم « غاق غاق غدا غدا » فهو ينذركم بشر لاحق بكم غدا اذ يصدر الامبراطور أمرا رسميا بمنع اقامة عيدكم الوثنى) وفعلا تم فى الغد ما أنبأهم به من قبل حتى بهتوا ولم يدروا كيف أتاه العلم بتعطيل عيدهم ٠

أما الآراء المسيحية التى كان له الفضل فى الدفاع عنها وحفظها سالمة فمنها :

(١) كانت عقيدة أريوس التي تقول بفصل الآب عن الابن مأخوذة عن مبادىء تؤدى الى تعدد الآلهة أو بالحرى اعتقاده أن المسيح من جملة المخلوقات جعل عبادته وثنية محضة فقاوم البابا أثناسيوس هذه البدعة معتبرا أن اتحاد الابن بالآب ضرورى لفهم الأعمال الالهية على الوجه الأفضل٠

ولما كان في الكتاب مايدل على عدل الآب ورحمة الابن اهتم البابا أثناسيوس ليزيل كل اعتراض بالتوفيق بين العدل والرحمة ٠ على أن رأيه الأساسى كان أن « الفدا » نشأ عن الحب الغير المنقسم الصادر من الآب والابن على السواء لارجاع الانسان الى الاتحاد بالله ٠

(٢) وكان من رأى أريوس عدم امكان فهم ما يختص بالله الغير المحدود بعقل الانسان المحدود حتى أنه قال « ان الله غير مدرك ليس من الناس

---

(١) عن مجلة الكرمة ٩ : ٤ و٥و٧ معربا بقلم داود افندى غالى ٠

وحدهم بل أيضا من نفس الابن الوحيد المولود » (١) فنهض البابا أثناسيوس مناديا بكمال الآداب والطبيعة الالهيــة معلما ان الــكمال الالهى انما يتمثل أمامنا ونتعرف به فى صورة الــكمال البشرى ٠

(٣) وكان أريوس يعتقد بوجود ذوات أخرى تجمع بين صفات الله وبعض صفات الانسان دون البعض الآخر فانتقل بذلك الى الاعتقــاد بدين يخلط ما بين المسيحية والخرافات الوثنية فأثبت البابا أثناسيوس ان الدين ينحصر بين اثنين فقط الله والانسان وحفظ المسيحيــة ببساطتها من تلاعب أهل البدع ٠

(٤) وكان يذهب البابا أثناسيوس الى اعتبار الأناجيل الأربعة متفوقة عن باقى أسفار الكتاب المقدس اعتقادا منه بأن سر التجسد يتطلب ذلك ٠ وهذا التفوق لايعتبر امتيازا كما توهم البعض بل اظهارا لأن سر التجسد هو النقطة الجوهرية فى الديانة ٠

وكان فى أوائل القرن الرابع أن قام خلاف بسبب أسفار الانجيل فوضع البابا أثناسيوس جدولا بالأسفار الصحيحة الموجودة بيننــا الآن وســارت كنائس الشرق والغرب على ترتيبه وسقطت الأسفار المزورة ٠

ومن محاسن أعمال البــابا أثناسيوس وفضــائله وتسامحه العجيب ما يأتى :

(١) الف بين المتوحدين الذين كانوا يعتبرون التزهد التعبدى أفضل من أصول الدين وبين الرهبان الذين كانوا يعتبرون هذه أفضل من ذاك فــكان يجتمع بالطرفين وقال غريغوريوس النزينزى أنه كان يبرهن للمتوحدين على أن الدين يستطيع أن يكون فلسفيا ويعلم الرهبــان بأن الفلسفة فى حاجة لارشاد الدين ٠

(٢) ومما وضعه من القوانين فى مجمع نيقية أن لا يرسم أسقف بأيدى أقل من ثلاثة أساقفة وحدث أن أسقفا توسم الــكفاءة فى شاب فرسمه أسقفا فلم يشأ البابا أثناسيوس أن يتمسك بحرفية المبــدأ عندما تأكد من كفاءة الأسقف الموسوم بل زاد أن رقاه مطرانا ٠

(٣) ومع انهأول منوضع كلمة (أومؤوسيوس) أى « مساو فىالجوهر » وقــد كان هــذا التعبير محبوبا لديه للغــاية ولبث يعلم به طول حيــاته

---

(١) فيلوستورجيوس ٢ : ٣ ٠

وكان قد اقنع مجمع نيقية بضرورة استعماله الا أنه اضطر أن يترك استعماله لما رأى كثيرين يسيئون فهمه ٠

(٤) وعقد البابا أثناسيوس مجمعا عاما سنة ٣٦٣م للبحث فى أمر الذين كانوا قد ضلوا مع الأريوسيين وأتوا الآن خاضعين نادمين فحكم بقبولهم ووافق الكل على حكمه ٠

وفى هذا المجمع عمل على حسم الخلاف العظيم الشأن الذى قام حينئذ بين اللاتين واليونان على بعض الفاظ فكان اللاتين يستعملون لفظة «أيبوستاتيس» بالمعنى الذى وردت به فى قانون الايمان النيقاوى أى كمرادف للفظة « أوسيا » ويترجمونها بلفظة الجوهر Substantia التى هى ترجمة حرفية للفظة الأصلية « أيبوستاتيس » أما اليونان فكانوا بدأوا يستعملون هذه اللفظة بمعنى « ابروس أوبون » أى « شخص وذات » ودعوا اللاتين سابليوسيين (أى مفرقى الأقانيم على مذهب سابليوس) وفى الوقت نفسه اتهم اللاتين اليونان بأنهم أريوسيون ٠ واقترح بعضهم ازالة للخلاف أن تستعمل اللفظتان معا ٠

فلما رأى البابا أثناسيوس نيران هذا الخلاف تستعر جمع بين الفريقين وخاطبهما بشفقة مبينا لهما صحيح المعنى المقصود فاذا كلا الفريقين متفق معه فيما أراد فلما أنس منهما أن لا اختلاف بينهما أجاز لكل منهما اختيار ما يشاء من الألفاظ بعد أن قيدهما بما يراد به من الحقائق ٠

(٥) وآخر فضائله أنه قام بنصرة القديس باسيليوس الذى كتب اليه يستغيث به من شعبه الذى يعده من أهل البدع فأرسل البابا أثناسيوس خطابا لأهل آسيا الصغرى يقول « ان الذين يتهمون القديس باسيليوس يعذبون أنفسهم لغير داع الا أنه قد تنزل لضعف الضعفاء فعدوا أنفسكم سعداء اذا تولى رعايتكم مثل هذا الرجل الممتلىء حكمة وصدقا » أهـ وقد كان القديس باسيليوس يشتهى أن يرى من أحسن اليه ولكن حالت الأيام دون أمنيته فكتب يصفه عن بعد ملقبا اياه بصموئيل الكنيسة ومثله بمنارة فاروس بالاسكندرية مشيرا بذلك الى أنه كان نورا وهدى للكنيسة فى عصره وستكون تعاليمه نبراسا لها فى مستقبل عصورها ٠

(٥) بطرس ٢ ـ البطريرك الحادى والعشرون :

كان تلميذا للبابا أثناسيوس الرسولى فتهذب بعلمه وتمثل بقداسته حتى رآه معلمه جديرا بالارتقاء الى رتب الكهنوت فرسمه قسا ونظمه فى سلك أكليروسه وبعد ذلك سامه أسقفا ولكثرة ثقته بعلمه وتقواه أوفده الى سورية سنة ٣٧١م لمقاومة انتشار البدع فيها بالاشتراك مع القديس باسيليوس الكبير أسقف الكبادوك فى ذلك الجهاد ٠ ولما شعر القديس أثناسيوس بقرب

حلول الأجل أوصى بتعيينه خلفا له فاطاعة لأمره ولمعرفة الشعب بما كان متصفا به من الفضائل أجمعوا على انتخابه ورفعوه الى الكرسى المرقسى فى شهر بؤونه سنة ٩٠ ش و٣٧٣م فى عهد فالنص قيصر ٠

وكان معلمه أثناسيوس قد غرس بفؤاده أصل الكراهة للهراطقة فنسج على منواله فى محاربتهم الأمر الذىذكر الأريوسيين بانخذالهم المتوالى أمام القديس أثناسيوس فهاج لذلك هياجهم وقامت قيامتهم على البابا بطرس ووشوا بحقه لدى الملك فالنص الأريوسى بأنه لا يستحق أن يكون بطريركا للاسكندرية فصادف قولهم ارتياحا من فالنص ولشدة تغيظه من أن المصريين انتخبوا لهم بطريركا حسب اختيارهم أراد أن ينتقم منهم فى شخص بطريركهم ٠

وكان يوجد رجل مصرى أريوسى يدعى لوسيوس نال رتبة الأسقفية بطريقة غير قانونية خارج القطر المصرى وقد طمع فى الاستيلاء على الكرسى المرقسى فى عهد البابا أثناسيوس وقدم للاسكندرية لنوال بغيته ولكنه ماكاد يصل الى بيت أمه حتى انتشر حوله الأرثوذكسيون كالجراد وحاولوا الفتك به لولا أن والى مصر أنقذه من أيديهم وطرده الى خارج القطر المصرى لينجو بحياته ٠

فهذا الشقى لما رأى أن فالنص صدق نميمة الأريوسيين ضد البابا بطرس انتهز هذه الفرصة لقضاء مأربه فرضى به الملك بديلا للبطريرك الاسكندرى وفى الحال أرسل الى بلاديوس والى مصر الأريوسى يأمره بنفى البابا بطرس ليأخذ مركزه لوسيوس الهرطوقى ٠ وسار لوسيوس الى مصر وخوفا من هياج الشعب عليه أرسل معه القيصر جيشا جرارا تحت قيادة ماجينوس أمين خزينة المملكة وأوزويوس بطريرك أنطاكية الدخيل وهجم القائد على الكنيسة التى كان فيها البابا بطرس رجاء اغتياله ففر البطريرك هاربا واختفى فى قصر خرب قريب من شاطىء البحر وهناك كتب رسالة رعوية لم تزل باقية الى الآن يصف فيها هذه الحوادث التى وقعت يومئذ ٠

وكان داماسوس أسقف رومية قد أنفذ رسولا من قبله الى الاسكندرية يحمل رسائل سلام ومحبة الى البابا بطرس فعند وصوله قبض عليه الوثنيون وسجنوه ليشتغل فى المناجم واذا رأى البطريرك الاسكندرى أنه لا فائدة لرعيته من استسلامه للهلاك حول وجهه شطر مدينة رومة ليختفى فيها من وجه الشر ووصل اليها سنة ٣٧٤م فقابله أسقفها داماسوس بما يليق به من الاكرام واستضافه عنده خمس سنوات كاملة ٠

وكان ذهاب البابا بطرس الى رومية من حسن حظ كنيستها اذ انه حرك الأسقف الرومانى على أن يعقد مجمعا مكانيا يحرم فيه بدع أبوليناريوس

ومارسيل ومكدونيوس لينفى عن كنيسة رومية شبهة موالاتها للهراطقة ·
فخضع داماسوس لمشورته وعقد ذلك المجمع سنة ٣٧٨م وحرمت تلك البدع
وكان القديس ملاتيوس أسقف أنطاكية قد اجتمع وقتئذ بتلك المدينة هو و١٤٦
أسقفا شرقيا فبعث لهم داماسوس بقرار ذلك المجمع فصادقوا عليه جميعهم
فالفضل فى تطهير كنيسة رومية من البدع حينئذ راجع الى كنيسة الاسكندرية
الا أنها فتحت صدرها للخرافات والبدع بعد انفصالها عن تلك الكنيسة
المجيدة مركز الأرثوذكسية وخزانة التعاليم الرسولية ·

أما لوسيوس الأريوسى الأسقف الدخيل فحضر بمن معه من الجنود الى الاسكندرية ودخل اليها دخول الظافر المنتصر فأكرم والى مصر وفادته وساعده على اختطاف الكرسى المرقسى اختطافا وجلس عليه بالقوة رغم ارادة الشعب الذى أبى مطلقا أن يعترف بهذا اللص رئيسا عليه · وهجر الأرثوذكسيون الكنائس مفضلين الاقامة بمنازلهم على الصلاة خلف الهراطقة · ولما نصحهم القائد وأبوا قبول نصيحته اضطهدهم بشدة ·

غير أن الشعب مع كل ما حل به من الويلات لم ينفك طالبا عزل لوسيوس الدخيل واعادة بطريركهم وأساقفتهم المنفيين وكانوا اذا رأوه يقولون له « انك يالوسيوس تحارب الله باضطهاد قديسيه » وفى شهر مايو سنة ٣٧٨م اذ كان الملك فالنص مشغولا بمقاتلة سكان شمالى أوربا رجع البابا بطرس من رومية الى الاسكندرية لما رأى لوسيوس بدون سند ولا عضد وحالما وصل الى مقر كرسيه قام الأرثوذكسيون على لوسيوس وطردوه خارج الاسكندرية وأجلسوا بطريركهم الشرعى علىكرسيه ثانية· فاشتكى لوسيوس الشعب الاسكندرى الى فالنص ولكن هذا لم يلتفت اليه لانهماكه فى الحرب ثم قتل الملك الأريوسى فى السنة ذاتها فخابت آمال لوسيوس ·

ولما رأى ثيودوسيوس الذى خلف فالنص أن كنيسة القسطنطينية قد تأخرت وانحط شأنها بسبب اهتمام ملوكها باضطهاد الأرثوذكسيين أناط البابا بطرس القبطى باصلاحها وذلك لثقة الملوك العظمى فى رؤساء الكنيسة القبطية· فاستمر البطريرك الاسكندرى مدة يعالج أمراض كنيسة القسطنطينية وبعد ذلك كلف صديقه البار غريغوريوس النزينزى بالاهتمام بها فلبى طلبه وبدأ باتمام عمله· ورفع مسيحيو القسطنطينية عريضة لأغريغوريوس ممهورة بامضاء عدد كبير من الأساقفة ومصدق عليها من بابا الاسكندرية يطلبون فيها أن يأتى لاصلاح كنيستهم فقبل الطلب وجاء الى القسطنطينية ورسم عليها بطريركا واهتم باعادة مجد الكنيسة اليها ومع أنه رفض كثيرا أن يرتقى الى رتبة الكهنوت ولكنه قبل اكراما لخاطر صديقه البابا بطرس ·

غير أن مكسيموس الكلبى وهو رجل ردىء السلوك تظاهر بالصداقة لاغريغريوس وكان غرضه أن يدس له الدسائس لينـال منه كرسى بطريركية القسطنطينية • وفعلا جاء الى الاسكندرية وأخذ يستعمل حيلته ومكره عند البـابا بطرس ليحول نظره عن غريغوريوس ويقيمه بدله وكان مكسيموس يصف غريغوريوس بكل الصفات المذمومة فلبساطة البابا بطرس واخلاصه صدق وشاياته وأرسل وفدا الى القسطنطينية ليقوم بسيامة مكسيموس • وحال وصول الوفد كان غريغوريوس مريضا ولـكن تقواه أجبرته على أن يذهب الى الكنيسة ليشترك مع المحتفلين برسامة مكسيموس الذى لا زال يعتبره صديقا له • ولـكن مسيحيى القسطنطينية حالما شعروا بالأمر رفضوا قبول مكسيموس وثاروا عليه وطردوه من المدينة • فسار الى القيصر وتظلم لديه لـكى يعيده الى مركزه فلم يصغ لشكواه فأتى البابا بطرس وطلب منه أن يستخدم نفوذه فى اعادته • وكانت أخبار صفاته السيئة قد وصلت الى مسامع البابا فلم يشأ أن يساعده بل طلب من الوالى أن ينفيه فنفاه •

واستمر البابا بطرس بعد ذلك مواظبا على رعاية شعبه كوكيل أمين حتى أتم جهاده وتنيح فى ٢٠ أمشير سنة ٩٧ ش وفى شهر فبراير سنة ٣٨٠م

(٦) تيموثاوس١ ـ البطريرك الثانى والعشرون :

جلس على الـكرسى الاسكندرى بعد بطرس أخوه تيموثاوس فى شهر برمهات سنة ٩٧ ش و ٣٨٠م فى عهد ثيودوسيوس قيصر وقيل أنه كان يلقب بالفقير وذلك لأنه وزع كل ما يمتلـكه من حطام الدنيـا • ومن أمره أنه كان تلميذا للبطريرك القديس أثناسيوس الرسولى وشاطره فى كثير من أتعابه ومصائبه • وهو الذى فضح مكيدة الأريوسيين للقديس أثناسيوس فى مجمع صور وذلك عندما أتى الأريوسيون بالمرأة الزانية لكى تتهم أثناسيوس بأنه اغتصب بكارتها فوقف أمامهـا تيموثاوس وأوهمها بأنه هو أثناسيوس مما سجل على المرأة الـكذب وعلى محرضيها الخجل •

ولم تكن أتعاب هذا البابا بأقل من أتعاب سالفيه فانه كان مشتركا مع أخيه البابا بطرس فى معظم أعماله وكان عضوا فى مجمع الاسكندرية الذى كان يقوم بتدبير شئون كنيسة القسطنطينية وله عمل شريف فى المحافظة على قانون المجمع النيقاوى بدون زيادة أو نقص وذلك فان الكنيسة القديمة لم تسلم الا بالعشرين قانونا النيقاوية ولـكن أساقفة رومية اجتهدوا فى القرن الخـامس أن يعتبروا بعض قوانين مجمع سرديكا كقوانين مجمع نيقيـــة فقاومهم عند ذلك أساقفة أفريقيا وأرسلوا الى بطاركة الاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية يطلبون نسخا كاملة لـكل القوانين النيقاوية المعروفة عندهم فنسخ البابا تيموثاوس العشرين قانونا الأصلية ووزعها على كل الـكنائس معلما بأن الـكنيسة لم تقبل الا هذه العشرين قانونا •

وقد ابتدأ جهاد هذا البابا بعد ذلك فانه ما كادت الكنيسة تتطهر من وباء بدعة أريوس حتى ظهرت هرطقة أخرى قام بنشرها مكدونيوس النصف الأريوسى بطريرك القسطنطينيــة ومؤداها انكار الوهيــة الروح القــدس • فانعقد بسببها المجمع القسطنطينى (المسكونى الثانى) سنة ٣٨١ م كمــا سيأتى وحضره البابا تيموثاوس ورهط من أساقفته واشترك مع أعضاء هذا المجمع فى القضاء على تلك البدعة وحرموا أيضا أناسا آخرين لعقائد أخرى شنيعة تظاهروا بها فى المسيح •

وكان لكرسى الاسكندرية المركز الأول بين كراسى المسكونة أجمع ولكن لما أخذ هذا المجمع فى أن يجعل هذا الكرسى فى الدرجة الثانية بعد رومية والقسطنطينية التى دعيت « رومية الجديدة » مراعاة لخاطر ملكى رومية والقسطنطينية اللذين أرادا رفع شأن أسقفيتى عاصمتيهما انسحب البــابا تيموثاوس هو وأساقفته من المجمع وعاد الى مصر احتجــاجا على تصرف المجمع المخالف لتصرف الكنيسة بالاجماع مدة نحو أربعة قرون •

ورجع البابا تيموثاوس الى الاسكندرية وصرف ما بقى من حيــاته فى اتمام ما رآه واجبا عليه عمله فكتب تاريخا لحيــاة كثيرين من القديسين ووضع قوانين للــكهنة وفى أيامه بنيت عدة كنائس واستتيب جماعة كثيرة من مقالة أريوس ثم رقد فى الرب فى ٢٦ أبيب سنة ١٠٢ ش و ٣٨٥م •

(٧) تاوفيلس - البطريرك الثالث والعشرون :

روى عنه يوحنا النيقاوى المؤرخ القبطى أنه ولد من أبوين مسيحيين فى مدينة ممفيس وتيتم منهما وهو طفل وله أخت صغيرة فقامت بتربيتهما جارية حبشية وثنية كانت لأبويهما • وحدث أنها ذات ليلة أخذتهما معها الى الهيكل لتؤدى فروض العبــادة الوثنيــة فحال دخولها سقطت الأصنام الى الأرض وتحطمت • ففرت بهما الجارية خوفا من انتقام كهنة الوثنيين واختفت قليلا ببلدة نيقيوس ثم جاءت الاسكندرية • وقــد دبرت العنــاية الالهية أن تأخذهما الى كنيسة مسيحية لكى تتعرف هذا الدين الذى طرقت شهرته كل أذن • فولجت باب كنيســة القــديس ثاؤنا وجلست بازاء كرسى القــديس أثناسيوس الذى لــا رآها مع الطفلين أمر بابقائهم حتى تنتهى الخدمة • ثم استخبرها البطريرك عن حقيقة حالها ولما قصت عليه خبرها ردها الى الديانة المسيحية وأخذ منها الطفلين ووضعهما تحت عنايته الخصوصية • ولما كبرا قليلا وضع الفتــاة فى دير لبثت به الى يوم زواجها برجل من بلدة المحــلة (غربية) وفيها ولدت كيرلس الذى صار فيما بعد خلفا لخاله تاوفيلس •

أما تاوفيلس فنظمه القديس أثناسيوس فى سلك تلاميذه فنما عالمــا

تقيا ولما شوهد فيه من الحذق والنشاط اختاره معلمه كاتما لأسراره بعد أن رقاه الى درجة الكهنوت • وبعد وفاة معلمه استمر فى مدينة الاسكندرية يخدم فى كنائسها الى أن رقد البابا تيموثاوس فانتخب بطريركا مكانه بالاجماع فى شهر مسرى سنة ١٠٢ ش و ٣٨٥م فى عهد ثيودوسيوس قيصر لما رآه فيه الشعب من حسن السيرة وعظيم الغيرة على دين المسيح مما جعله موضعا لثقة ثيودوسيوس الملك الأرثوذكسى الذى أمر بتعميم الديانة المسيحية فى كل مكان واعتبارها الديانة الرسمية للمملكة الرومانية •

ومما يدل على ثقة هذا الملك بالبطريرك الاسكندرى تكليفه اياه بأن يصلح ما وقع من الخلل ثانية فى مسألة عيد الفصح فانه فى سنة ٣٨٧م صار الفرق بين العيد المصرى والعيد الرومانى مدة خمسة أسابيع كاملة • فوضع البابا ثاوفيلس تقويما للاعياد لمدة ٤١٨ سنة ووضع جدولا يحتوى على الأيام التى يقع فيها عيد الفصح لمدة مائة سنة ابتداء من سنة ٣٨٠ م ولا تزال صورة هذا التقويم باقية الى يومنا هذا وفيها أوضح البطريرك بأن السيد المسيح صلب فى اليوم الخامس عشر من شهر نيسان (أبريل) لا فى الرابع عشر منه ثم وضع هذه القاعدة وهى : « اذا كان اليوم الرابع عشر من الشهر القمرى يوافق يوم الأحد فعيد الفصح يتبعه بأسبوع » أهـ •

ثم أن البابا ثاوفيلس دخل يوما يصحبه بعض الرهبان الى بستان للقديس أثناسيوس فتذكر أنه كان يأكل مرة مع معلمه هذا وهو كاتم أسراره وقال له القديس أنه يشتهى أن ينظف الأكوام التى رآها ويبنى فى موضعها بيعة على اسمى اليشع النبى ويوحنا المعمدان فتحدث بذلك كثيرا فسمعته امرأة كانت قد أتت من رومه بعد وفاة زوجها ومعها ولداها وصورة الملاك روفائيل فتحركت بغيرة الهية وقدمت الأموال اللازمة لتنظيف الأكوام وبعد اتمام العمل ظهر كنز مغطى ببلاطة قد نقش عليها ثلاث ثيتات (جمع حرف ثيتا القبطى) اشارة الى (ثاوس) أى الله وثيودوسيوس أى الملك وثاوفيلس أى البطريرك وقد استدل مما كتب على البلاطة أن ذلك الكنز يرتقى الى عهد الاسكندر الأكبر المكدونى فأخبر البطريرك الملك ثيودوسيوس بأمر الكنز فقام الملك الى الاسكندرية بنفسه وعاين الكنز ثم اقتسمه بينه وبين ثاوفيلس فأنشأ البطريرك بنصيبه كنيسة فى جانب البستان وكنائس جمة على اسم السيدة العذراء والملاك روفائيل فى جهات مختلفة بالاسكندرية • ثم شاد جملة أديرة منها « الدير المحرق » (١) ورسم ولدى المرأة فيما بعد أسقفين •

---

(١) سمى المحرق لوجوده بقرب حوض زراعى اشتهر بالحوض المحرق وذلك لنضوب المياه منه قبل غيره من الحياض •

وكان القديس أثناسيوس قد تنبأ عن تلميذه تاوفيلس قائلا « انه سيكون مطرقة قوية لهدم معابد الوثنيين » فبدأت هذه النبوة تتم عندما رأى هذا البابا أن المسيحيين فى مصر قد كثر عددهم وقل عدد عبدة الأصنام ونجم عن ذلك ازدحام شديد فى الكنائس أثناء احتفالات النصارى فى أعيادهم رغما عما جدده من الكنائس فخطر له بعد استشارة أعيان الشعب أن يخاطب الملك ثيودوسيوس لكى يستصدر منه أمرا بتحويل معابد الأصنام المهجورة الى كنائس • فوهبه القيصر جميع هياكل الوثنيين ليستولى عليها ويتصرف فيها كما يريد وأمر والى مصر ايفاجريوس أن يساعده بقوته اذا تعرض له أحد (١) •

فبدأ البطريرك سنة ٣٨٩ م بهدم اطلال هيكل دارس خاص بباخوس (اله الخمر) فى الاسكندرية وبنى مكانه بانقاضه كنيسة باسم الملك ثيودوسيوس وبينما كان البناؤون قائمين بالبناء عثروا على تماثيل قبيحة الشكل عرضها البابا ثاوفيلس للفرجة اظهارا لقبح الديانة الوثنية فتهيج لذلك الوثنيون وقد زادهم غضبا علمهم بأن ديانة المسيح ترتفع على اطلال ديانتهم فاعتصبوا على المسيحيين بقيادة الفيلسوف أولمبيوس وفتكوا بكثيرين منهم وكانوا يقتلون كل من رأوه مارا بالشوارع حتى اضطر الوالى أن يخاطب الملك عما يعمله تلقاء هذه الحالة • فرد هذا عليه بأن المسيحيين الذين قتلوا يعتبرون شهداء ولذلك ينبغى مسامحة قاتليهم من الوثنيين •

فلما رأى أهل الاسكندرية ذلك ثارت ثورتهم على الأقلية الوثنية منهم فتحصن هؤلاء فى هيكل سيرابيوم وأخذوا يدافعون عن أنفسهم ويصدون هجمات الجماهير العديدة التى قامت ضدهم • وكان هيكل سيرابيوم هذا على جانب عظيم من المتانة والاتساع وكان مبنيا على قمة تل يصعد اليه بسلم يبلغ مائة درجة وكانت حجارته من الرخام والمرمر وحيطانه من داخل مغطاة بالنحاس والفضة والذهب • وفى وسطه ردهة واسعة وتحته سراديب وطرق سرية وهو مقسم الى غرف يختص بعضها بالكهنة وبعضها بالمصلين وبعضها بالضيوف وفيه مكتبة كبرى •

ففى هذا الصرح الشامخ تحصن الوثنيون وكانوا كلما شاهدوا مسيحيا قريبا منهم قبضوا عليه وجذبوه عندهم وعذبوه لكى يبخر لأصنامهم

---

(١) يلاحظ فى هذا المقام أن كثيرين يتهمون البابا ثاوفيلس بالتعدى على حرية الأديان لهدم معابد الوثنيين ولكن يلاحظ أيضا أنه لم يقدم على ذلك الا لما رآها مهجورة لاتجرى فيها عبادة فان قسطنطين الملك كان قد ابطل الذبائح الوثنية خصوصا التى كانت تجرى تحت جنح الظلام لأنها كانت ذبائح بشرية تعتبر كقتل وجنايات فظيعة • فضلا عن ذلك فان معابد اليهود كانت موجودة ومع ذلك لم يتعرض اليها البطريرك لأنهم كانوا يقيمون فيها عبادتهم اهـ •

واذا أبى كانوا يقدمونه ذبيحة وقد افتخر بعد ذلك هيلاريوس كاهن الاله جوبيتير بأنه ذبح مرة بيده تسع ذبائح آدمية على مذابح الأصنام الكاذبة • ولما ازدادت تعدياتهم نصحهم الوالى بالحسنى ليكفوا عن شرهم ولكن أولمبيوس قائدهم كان يغريهم بفصاحته على عدم التسليم • ولما لم يذعنوا اضطر القائد أخيرا أن يشهر أمر الملك القاضى بهدم هيكل سيرابيوم • فوقع الرعب فى قلوبهم وتركوا الهيكل تحت جنح الظلام وتفرقوا أيدى سبا فلما علم ذلك الوالى والبطريرك أتيا باحتفال عظيم لكى ينقضا هذا الهيكل وكان آخر ما بقى من آثار الديانة الوثنية •

وكان فيه صنم كبير جدا يداه ممتدتان من الحائط الواحد الى الآخر وهو مصنوع من الخشب ومغطى بالمعادن ومطعم بحجارة كريمة وقد اسود لونه لتقادم عهده اذ كان موضوع اجلال المصريين مدة ٦٠٠ سنة وكانت تخرج منه أصوات لا يعرف مصدرها فكانوا يعتبرونها دليلا على عظمة هذا الاله الكاذب • فلما تقدموا لتحطيم ذلك الصنم خاف بعضهم اذ كانوا لايزالون مصدقين بخرافات أجدادهم ووقفوا جامدين ظانين أنه اذا كسر هذا الصنم يخرب العالم ولكن البطريرك أمر جنديا باجراء العمل حالا فرفع يده وضرب الصنم ضربة أزعجت جميع المشاهدين كأن عدوا قويا فاجأهم • ولكنه على أثر ضربة أخرى انكسرت بها رأس الصنم تحول خوفهم الى ضحك عندما رأوا انه قد خرج من جوفه جملة فيران كانت معششة فيه وحينئذ تقدم الآخرون وأكملوا تحطيمه وأحرقوه وذروا رماده فى الريح ونقضوا جميع أبنية هذا الهيكل وبنوا فوقها كنيستان احداهما شيدت فى مكان معبد ايزيس وسميت باسم الملك هونوريوس والأخرى أقيمت على اطلال معبد سيرابيس وعرفت باسم الملك اركاديوس •

وقد كتب سقراط المؤرخ الكنسى فيما بعد عن ذلك الهيكل ما يأتى ـ « عندما تهدم هيكل سيرابيس وأصبح أنقاضا بالية وجدت كتابة منقوشة على حجارته باللغة الهيروغليفية لها شكل صليب وهيئته تماما • فلما رآها المسيحيون والوثنيون قال كل فريق منهما ان هذه شارات ودلائل من ديانتنا خاصة بنا دون الغير ذلك لأن المسيحيين يعتقدون أن الصليب علامة الفداء وتذكار الخلاص الذى عمله المسيح للجنس البشرى ولذلك قالوا ان هذه الاشارات التى وجدت على الحجارة تدل على ديانتهم وتنبىء بها • أما الوثنيون فقالوا لايبعد أن تكون هذه العلامات دلائل على المسيح وسيرابيس فى آن واحد وذلك لأنها مشتركة بين المسيحيين من حيثية الشكل وبين الوثنيين من جهة الكتابة والحفر • وبينما كان الطرفان يتباحثان ويتجادلان فى هذا الشأن ظهر لهم وثنى اعتنق الديانة المسيحية وكان ملما بمعرفة الهيروغليفية عارفا باللغة المصرية القديمة فترجم لهما هذه الكتابة

الموضوعة بشكل صليب واذا هى « الحياة الآتية » فلما سمع المسيحيون هذه الترجمة قالوا لم يبق بعد دليل على أنهـا تشير الى ديانتنا وأنها وضعت لتنبيء عنها • ثم ظهرت كتابات أخرى باللغة المصرية أوضحت معنى شكل الصليب هذا ايضاحا تاما ومعناها « أنه عندما يبتدىء النـاس يعيشون العيشة الجديدة (أى يصيرون مسيحيين) فلابد من سقوط هيكل سيرابيوه » فلما طرق هذا القول مسامع الوثنيين اقتبل الكثيرون منهم الديانة المسيحية معترفين بخطاياهم تائبين الى ربهم عما فرط منهم ثم تعمدوا بمعمودية التوبة الصحيحة » أهـ •

وكان لنهر النيل مقيـاس محفوظ فى هيكل سيرابيوم من عهـد حكم البطالسة وقد نقله قسطنطين القيصر الرومانى الى كنيسته الكبرى سيزاريوم ثم أعيد الى هيكل سيرابيوم بأمر يوليانوس الجاحد • ولما هدم هذا الهيكل حمله المسيحيون باحتفال عظيم الى كنيسته مما حدا بالوثنيين لأن يتنبـأوا بغيظ بأن الآلهة ستنتقم منهم بانقاص مياه النيل جزاء اهانتهم لها • واتفق أن النيل فى تلك السنة لم يرتفع الى معدله فظن ضعاف العقول من الوثنيين أن ذلك نتيجة انتقام الاله سيرابيوم وأخذوا ينقمون على البطريرك والوالى فكتب هذا الى القيصر يخبره بالأمر فرد عليه قائلا « اذا كان النيل لايفيض الا بواسطة السحر أو الرقى أو بذبح الذبائح وتقديم المحرقات للأوثان فخير له أن لا يفيض وأن تبقى مصر ظمآنة الى الأبد » •

وقد ذهب البابا ثاوفيلس بعد ذلك الى القسطنطينية مرتين الأولى فى سنة ٣٩٤م ليحضر مجمعا عقد لفحص بعض المسائل ولحضور الاحتفـال بتشييد كنيسة كبرى بنيت على اسمى الرسـولين بطرس وبولس • وذهب ثانية فى سنة ٣٩٨ م ليقيم القديس يوحنا فم الذهب بطريركا على كرسى القسطنطينية وعاد الى كرسيه •

وفى سنة ٣٩٩م قصد البابا ثاوفيلس أن يضع حدا للخلاف الذى كان قائما بين يوحنـا أسقف أورشليم وهو من رهبـان وادى النطرون وبين أورنيموس وكان الخلاف بسبب العلامة أوريجانوس فرد أورنيموس بجواب جاف على البابا ثاوفيلس يقول « انك لم تعرف كيف يكون الجدل والمناقشة لأنك تعيش مع رهبان يجلون قدرك ويرفعون مقامك » •

وكانت حياة البابا ثاوفيلس فيما بعد ذلك مملوءة بالقلاقل والاضطرابات وقـد بدأت أتعـابه بسبب بدعـة انتشرت بين رهبـان سكيتى كان رأسـها أفوديوس من بين النهرين مؤداها أن الله ذو صورة بشرية وذو أعضـاء جسمية وفى نفس تلك السنة نشر البطريرك رسالة عيد الفصح السنوية فاغتاظ أولئك الرهبان من عبارة وردت فيهـا وهى قوله « ان الله روح

لا يدركه الفهم وليس هو مجرد انسان يقع تحت الحد والحصر » أهـ فهاج لذلك هياجهم على البطريرك لما رأوه يخالفهم فى الاعتقاد وترك أكثرهم صوامعهم وجاءوا كجيش جرار الى الاسكندرية وعزموا على الفتك بالبطريرك حالما يقع بصرهم عليه واحتشدوا حول داره وهم يتهددونه ويتوعدونه • واذ رأى أن قلوبهم ملأى بالغيظ ولم يجد له عضدا أسرع الى مرتفع وصعد عليه وخاطبهم بعبارات رقيقة تهدىء الخواطر الهائجة ومن ذلك قوله لهم « اننى اذا رأيت وجوهكم أشعر كأنى أشاهد الله لأنكم على صورته ومثاله » فسكن ثورانهم قليلا وكانوا يظنون أن العبارة التى أوردها عن الله فى رسالة عيد الفصح اقتبسها من مؤلفات أوريجانوس ولذلك طلبوا اليه بشدة أن يحرم اوريجانوس وكل من يطالع كتبه فوعدهم بذلك • ثم انعكف على مطالعة مؤلفات أوريجانوس اذ لم يكن قد طالعها قبلا فتبين من بعض الفاظها ما يشعر بضلاله • وفى أوائل السنة التالية شكل مجمعا حرم فيه أوريجانوس ونذد بتعليمه فى رسالة عيد الفصح •

وكان يوجد بين رهبان جبل نيثريا (الفرما) أربعة أخوة يلقبون « بالطوال القامة » نظرا لطول قامتهم كان أكبرهم يدعى أمونيوس وهو الذى سافر مع البابا أثناسيوس الى رومية وكان هؤلاء الاخوة من آب واحد وأم واحدة وقد اشتهروا بتقواهم الزائدة وغيرتهم الشديدة على الايمان • وكانوا للبابا ثاوفيلس خير نصير وأفضل مساعد فى ما قام به سابقا من جلائل الأعمال • لذلك رأى ضرورة مكافأتهم على خدمتهم له فعين أحدهم ديوسقوروس أسقفا لواحة هرموبوليس (المنيا والأشمونين) واستحضر لديه الباقين وأقام منهم يوساب وانتيموس قسيسين فى كنيسة الاسكندرية وهؤلاء الاخوة كانوا من أنصار العلامة أوريجانوس المولعين بمطالعة تصانيفه • فلما رأوا البطريرك قد شجب فيلسوفهم غضبوا وتركوا الاسكندرية بدون اذنه وعادوا الى قلاليهم بالدير والتجأوا الى رهبنتهم وتحزبوا معها وأرسلوا وفدا الى أحدهم ديوسقوروس أسقف هرموبوليس وطعنوا له فى ثاوفيلس وفى تنعم عيشته فقبل شكواهم وتحزب معهم وأصبح الرهبان منقسمين الى قسمين رهبان سكيتى الذين يعتقدون أن الله صورة بشرية ورهبان نيثريا الذين يعتقدون أن الله روح •

ثم حدث حينئذ خلاف آخر بين البطريرك وبين ايسوذوروس أمين صندوق كنائس الاسكندرية وكانا قبلا صديقين ويظهر أن العداوة نشأت أيضا بسبب ميل ايسوذوروس لأوريجانوس والاخوة الطويلى القامة (١).

---

(١) ويروى أن سبب الخلاف هو ولع البطريرك بتشييد الكنائس والأديرة وصرف أموال طائلة عليها وكانت رغبة ايسوذوروس توزيع المال على الفقراء والمساكين •

بدليل أن ايسوذوروس رجع أيضا الى دير نيثريا وانحاز لمعضدى أوريجانوس مما حمل البـابا ثاوفيلس على أن يظهر مقته لمن خالفوه فى الرأى بسبب أوريجانوس وأرسل منشورا الى رهبان دير سكيتى يأمرهم فيه أن يتجنبوا أولئك الرهبـان ثم قطع أسقف هرموبوليس لأنه قبلهم فى شركته • فأرسل اليه رهبـان دير نيثريا وفدا يرأسه أمونيوس أكبر الاخوة الطوال القـامة ليحتج على تصرفه ضد أوريجانوس فكان هذا الاحتجاج سببا لزيادة الخلاف فرجعوا الى صـوامعهم والغضب يملأهم • وخشى البطريرك نتيجـة زرع الشقاق بين الرهبان فأخذ معه الوالى وقصد اليهم خوفا من تعديهم عليـه وذلك لكى يقنعهم ويبرهن لهم من أقوال أوريجانوس أنه مبتدع فلم يقتنـع الرهبـان وقفلوا كنيسة الدير فى وجهه وتسلحوا بالنبابيت المغطاة بسعف النخل ظنا منهم أن البطريرك أتى ليقنعهم بقوة الوالى فاستعدوا لمقاومة كل من يعترضهم وبذلك وقعوا تحت طائلة الحكم الذى يقضى بالحرم على كل من ينحاز الى أوريجانوس •

أما الاخوة الطوال القامة فلما رأوا خطر مقاومتهم للبطريرك عظيما تركوا القطر المصرى قاصدين فلسطين وكان جماعة المسيحيين فى فلسطين يرمقونهم بعين الاحتقار والفتور لعلمهم أنهم محرومون من بطريركهم ولكن بعض الأسـاقفة قبلوهم ولـما لامهم البـابا ثاوفيلس على ذلك لم يعودوا يمتزجون بهم •

وكان عدد الرهبـان التابعين للاخوة الطوال القـامة يبلغ الخمسين فصمموا على الذهاب الى القسطنطينية لرفع دعواهم أمام بطريركها القديس يوحنا فم الذهب • وفى سنة ٤٠٤م مثل أمامه أولئك الرجال وهم بثياب رثة ووجوه شاحبـة بسبب مشـقة السفر فشفق عليهم وسـألهم عمـا يطلبون فالتمسوا منه أن ينصفهم من بطريركهم أو يرفعون دعواهم الى الامبراطور• فوعدهم فم الذهب خيرا وأعطاهم أماكن لراحتهم وأخبرهم أنه سيكاتب أخاه ثاوفيلس فى أمرهم • وكان حينئذ بالبلاط الملـكى بعض أكليروس الاسكندرية الذين كانوا قد جاءوا اليه لأشغال تختص بوظيفتهم • فلما استشارهم فم الذهب فى الأمر حذروه من قبولهم فى شركته لأن بطريركهم منعهم وقد حرمهم وأنه اذا قبلهم بدون اذن منه يعتبر عمله اهانة له •

غير أن فم الـذهب كان قـد قبلهم فى شركته فلمـا أحس البطريرك الاسكندرى بذلك وبلغه ان الاخوة الطوال عازمون على رفع دعواهم للملكة أفدوكسيا ظن أن فم الذهب هو المهيج لهذه الحركة وغـدا الاخوة الطوال عنده أمرا ثانويا وعول على معاداة فم الذهب خصوصا عنـدما وصل اليه خطاب فم الذهب القائل « انى فحصتهم باعتناء فلم أجد فى اقرارهم مايخالف

الحق على أن الحزن قد استوعب قلوبهم ويخشى أن يقدموا عليك الشكاية للامبراطور فأرجو اذا أن تصفح عنهم لينتهى الأمر والا طرحت هذه الدعوى المحزنة أمام المجمع » فغضب لذلك البابا ثاوفيلس غضبا شديدا ورد عليه بغيظ قائلا « اذا كنت لم تقف على مضمون الدستور الذى وضعه المجمع النيقاوى القاضى بعدم تداخل أسقف أو بطريرك فى المسائل التى لا تنحصر ضمن دائرة سلطته فأرجوك أن تتطلع على هذا القانون وتدرسه حتى تريح نفسك من التعرض لى وتكف عن الصدام والجدال معى ٠ أما اذا قضى على الزمان بالمحاكمة فسوف يحاكمنى أساقفة مصريون لا أنت ولا غيرك ممن هم بعيدون عنا يقتضى لوصولنا اليهم أو وصولهم الينا سفر ٧٥ يوما كاملا » ٠

فقرأ فم الذهب هذا الخطاب الشديد اللهجة بالرضى والاذعان وأخذ يسعى جهده فى استرضاء خاطر الاخوة الطوال القامة ولكنهم أصروا على رفع دعواهم للملكة٠ وذات يومبينما كانت أفدوكسيا راكبة فى مركبتها الملكية تقدم الرهبان المصريون وطرحوا أنفسهم أمامها وشكوا اليها حالتهم فوعدتهم بالنظر فى طلبهم واستدعاء بطريرك الاسكندرية الى القسطنطينية ٠ وكان لهذه الامبراطورة تأثير يذكر على قلب زوجها فأقنعته بضرورة عقد مجمع لمحاكمة ثاوفيلس يرأسه فم الذهب ٠ وهذا العمل يعتبر من وجهة قانونية اجحافا بحق بطريرك الكرازة المرقسية ولهذا عندما بلغه الخبر استحكم فيه سوء الظن بفم الذهب وكتب الى أبيفانيوس أسقف قبرص الذى كان ضريبا له فى شدة الكراهة لمؤلفات أوريجانوس وأفهمه بأن فم الذهب من أنصار ذلك العلامة ٠ فعقد أبيفانيوس مجمعا من أساقفة قبرص وحرم من يقرأ تلك المؤلفات ٠ ثم تبعه ثاوفيلس فى عقد مجمع بالاسكندرية صادق فيه على قرار مجمع قبرص وأرسل قرار المجمعين الى فم الذهب الذى عرف من خلالهما المكيدة التى تدبر له فقال « هذان الرجلان يريدان خلعى غير أنى سأثبت فى مركزى لأن الله هو الذى أقامنى فيه » ٠

وفى سنة ٤٠٣م سافر البطريرك الاسكندرى الى القسطنطينية فاستقبل فيها باحتفال باهر من بحارة المراكب المصرية التى كانت راسية هناك حاملة ضريبة الحنطة ٠ وكانت الأحوال فى القسطنطينية قد تغيرت وتحول قلب الملكة عن فم الذهب بسبب تبكيته لها على افراطها فى الخلاعة فطلبت الى البطريرك الاسكندرى أن يعقد مجمعا يحرم فيه فم الذهب ويحكم عليه بالنفى وقد تم ذلك فى مجمع عقد بالقرب من خلكيدون فى مكان جميل يدعى بالبسنديانة ونفى فم الذهب رغما عن سخط شعب القسطنطينية على ذلك الأمر ٠ غير أن الله أعاده فى نفس ليلة نفيه بسبب زلزلة كادت تقوض المدينة وترك البابا ثاوفيلس مدينة القسطنطينية راجعا الى الاسكندرية ٠



« القديس يوحنــا فم الذهب »

غير أنه بعد مدة نصبت الملكة تمثالا لها فى ساحة قريبــة من كنيسة أجياصوفيا فكانت أصــوات الطرب حول تمثالها تختلط بأصوات المرتلين فى الكنيسة ولذلك ندد فم الذهب بهذا العمل تنديدا قاسيا فعملت مرة أخرى على التخلص منه فطلبت من الأساقفــة عقد مجمع آخر يحاكمون فيــه فم الذهب مرة أخرى وطلب من البابا ثاوفيلس أن يحضر ولكنه أبى واكتفى بابداء رأيه وهو « أن القانون الثانى عشر من قانون مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٤١ م قرر أن الأسقف اذا عزله مجمع ما لا يسوغ ارجاعه الا عن يد مجمع آخر أعظم من الأول وأن الأســقف اذا التجــأ الى الامبراطور بغية رجوعه الى وظيفته بدون تبرئة المجمع له يجب عزله أبدا من الوظيفة الأسقفية » اهـ وبناء على ذلك نفى فم الذهب نفيا مؤبدا حيث قضى نحبه فى منفاه هذا ٠

أما الاخوة الطوال القامة فكان قد تم الصلح بينهم وبين بطريركهم وذلك أن البابا ثاوفيلس كان قد أتهم فم الذهب فى مجمع (السنديانة) بأنه حرض

رهبانه على العصيان عليه فطلب المجمع الشهود فى هذه القضية فوجد أن ديسقوروس أسقف هرموبوليس قـد تنيح ولم يبق سوى أمونيوس أخيه الذى حمل الى السنديانة وهو يحتضر فلما رآه البطريرك فى حالة الموت ذرفت عيناه مدرارا من شدة التأثر وزال من قلبه كل جفاء ٠

ولا ريب أن تاريخ البابا ثاوفيلس قد تشوه بمقاومته لفم الذهب الرجل الذى أجمعت كل الـكنائس على محبته ولكن التاريخ نفسه يخبرنا أنه فيما بعد تجلى له سوء صنيعه وشدة تطرفه ضد أخيه فم الذهب فندم على مابدا منه ضده ثم قضى بقية حياته فى الأعمال النافعة فأضاف بعض القوانين الى الكنيسة يحتوى احدها على أن الاكليروس يجب أن يختارهم الاكليروس عند تعيينهم ويختبرهم الأسقف وينتخبهم الشعب بعد تمام رضائه ورغبته ٠ ثم اشتغل فى انجاز بعض الأمور المهمة بنشاط تام حتى أصابه الهزال والضعف ومات بارا تقيا كما يشهد بذلك مؤلف كتاب « الدلالة اللامعة » ص١١٧ حيث يقول « أن ثاوفيلس قـد مات بارا وأنه معدود من كبـار معلمى الـكنيسة الجامعة وكانت نياحته فى ١٨ بابه سنة ١٢٩ ش (١) و١٥ أكتوبر سنة٤١٢م وخلف لنـا تآليف جليلة مملوءة بالتعاليم المسيحية النقية وكلها تدور حول المحبة والرحمة والنصح والتناول والقيامة والعقاب والثواب ٠ وهو أول من أطلق على الـكنيسة المصرية اسم « الـكنيسة القبطية » ٠

---

(١) بحسب الجـدول الذى وضعه الاسـعد ابن العسال من علماء القرن الـ ١٣ تعتبر نياحة البابا ثاوفيلس سنة ١٤٧ ش لا فى سنة ١٢٩ كما ذكرنا عن الأنبـا ساويرس المؤرخ وذلك لأن ابن العسال يذكر أن مدة رئاسة البابا ديونيسيوس ٤٠ سنة بينما يذكر الأنبـا ساويرس أنها ١٦ فقط ولـكننا سنضطر للسير بموجب جدول ابن العسال منذ الآن لأنه تام وتاريخ الأنبا ساويرس يقف عند القرن الثامن ولهذا لا عجب ان كنت ترى فيما بعد أن البابا كيرلس ارتقى الـكرسى سنة ١٤٧ ش مع أنه أخذ مكان سلفه حالا ٠

القسم الثـــانى
رؤساء الرهبنة ومشاهير الـكنيسة
وبعض مجهوداتهم

(١) مكاريوس المصرى (٢) مكاريوس الاسكندرى
(٣) باخوميوس (٤) يوحنـــا
(٥) بيمين واخوته (٦) ديديموس الضرير
(٧) تأسيس كنيسة مسيحية ببلاد الحبشـــة بواسطة أتعـــاب المصريين
(٨) نشر الرهبنة فى العالم بواسطة بطريرك الاسكندرية
(٩) نشر الدين المسيحى بين السودانيين والبدو بواسطة أفاضل الـكنيسة القبطية
(١٠) بعض الذين وفـــدوا على مصر فى هـــذا القـــرن لدرس نظام الرهبنـــة

---

(١) مكاريوس المصرى ـ (أبو مقار الـكبير) :

ولد بالصعيد (وقيل ببلدة شنشور بالمنوفية) سنة ٣٠١ م من أبوين مسيحيين فقيرين هذباه على روح النسك وكان مشتغلا فى حداثتـــه برعاية البقر • واتفق يوما أنه برفقة بعض أترابه سرقوا جانبا من التين الذى لم يأكل منه سوى تينة واحدة ومع ذلك انتبه الى زلته وعرف أنه أغاظ الله بها وأخذ يبكى ويندم عليها وبمرارة نفس كان يتذكرها طول حياته •

وقيل أن أبويه رأيا قبل ولادته أنه سيولد لهما ولد ينتشر صيته فى كل مكان ولذا سمياه مكاريوس أى طوباوى • ولما نشأ فى القامة زوجاه بغير ارادته فتظاهر بالمرض أياما • ثم استسمح أباه بأن يمضى الى البرية لتبديل الهواء وشاهد كل البرية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا وكأنه علم أنها ستكون ميراثا له ولبنيه من بعده • فترك كل أعماله الأولى وتمسك بأذيال الفقـــر وسعى جهده فى اقتنـــاء الفضائل حتى نمى خبره الى أسقف جهته فكرسه شماسا لخدمة الكنيسة • ولما كانت هذه الخدمة غير ملائمة لأميالة أراد أن يهرب الى مكان بعيد عن الأماكن المأهولة وأخذ يباشر فكرته الأولى وكان يصنع سلالا ويعطيها لرجل صالح يبيعها ويأتيه بثمنها ما يقتات به • ومن أظهر صفاته التواضع والوداعة حتى أن الشيطان حسده وحرك عليه بعض الأشرار فاتهموه بصنيع فعل الدنس مع عاهرة وضربوه بقساوة وجروه فى الشوارع مستهزئين به ولكنه لم يفتح فاه كمخلصه بل صبر على كل ماأصابه

والأبلغ من ذلك أنه لم يرفض ما الزم به وهو أنه يعــول تلك المرأة بتقــديم الدراهم اللازمة لمعيشتها مدة حبلها فجد فى صنع السلال وكان يخاطب ذاته عنــدما يستحوذ عليه الــكسل قائلا « اشــتغل بنشــاط يا مكاريوس فقــد صــارت لك امرأة » ولمــا داهم المرأة الطلق تعذبت جدا واضطرت أن تعترف ببراءة مكاريوس مما اتهمته به فذهب اليه الذين أهانوه وطلبوا منه الصفح عن أذيتهم له ٠

أما هو فخوفا من أن يجلب له حسن تصرفه كرامة واحتراما من أولئك الناس هرب من ذلك المــكان وتوجه الى صحراء ليبيا ببرية الأسقيط بوادى النطرون وكان قد بلغ من العمر ثلاثين سنة ٠ ثم قصد القديس أنطونيوس أبا الرهبان فقال عنــه « هذا اسرائيلى حقا لا غش فيــه » وتتلمذ له مدة ولبس منه اسكيم الرهبنة وأقام ببرية الأسقيط وكان قد شاع صيت فضائله فى العالم فهرع اليه الجماهير من المؤمنين ليتعلموا منه ٠ فلما رأى كثرتهم شاد لهمديرا فخيما لايزال قائما الى اليوم وكان يعرف أولا بدير مكسيموس ودوماديوس (١) ثم عرف باسم دير السيدة برموس (أى الدير الذى يسبق دير موسى) وأعقبه بآخر وهو دير أبى مقــار ٠ وكانت تلامذته تنهج على مثاله فى حب الفضيلة والتقشف وكانوا جميعا يداومون الاشتغال بأيديهم لاكتساب معاشهم مثله ٠

ولما بلغ الأربعين من عمره سنة ٣٤٠ م التزم أن يرسم كاهنا لخدمة الأسرار الربية وتوزيعها على أولئك السياح العائشين تحت تدبيره ٠ ومن فضائله أنه كان يحب الصمت والانفراد ليتمكن من أن يختلى بالله متفاوضا معه ومناجيا اياه ٠ وكان يفضل عيشة النسك على عيشة الترف واستمر محافظا على صرامة عيشته بفطنة تامة ٠ وذات يوم كان أحــد تلاميذه يكلمه وقت الظهر وقــد شعر بعطش شديد فطلب منه اذنا بتناول قليل من المــاء فأجابه قائلا « اكتف الآن بأن تستريح تحت هذه الشجرة فى ظلها متذكرا بأنه يوجد كثيرون من البشر فى هذه الساعة سائرين برا وبحرا من دون أن يحصلوا على هذا الفى الذى أعطى لك لتستظل تحته » ثم قال له « تشجع يا ولدى فأنا قد جزت مدة عشرين سنة كاملة من غير أن أصنع ما كانت تطلبه منى أميالى الطبيعية لا فى المأكولات ولا فى المشروبات ولا فى النوم ٠ لأنى لم آكل سوى كمية قليلة من الخبز الذى كنت قبل أن آكله أزنه كيــلا يتجاوز القدر المعتاد ولم أكن أشرب الا مقدارا صغيرا من الماء ٠ وأما نومى

---

(١) هما ولدا فالنتنيانوس الأول قيصر الغرب الذى تولى العرش سنة ٣٦٤م هجرا العالم، وأبهة الملك وتتلمذا للقديس مكاريوس ٠

فكان برهات وجيزة متباعدة غير متصلة وذلك باسناد رأسى على الحائط حينما لم يعد فى جلد على فتح عينى » أهـ ·

ومن الطرق التى وضعها القديس مكاريوس لرهبانه ليتمكنوا بالسير فيها من اماتة أجسادهم قوله لهم « انه يلزم السائح أن يعود ذاته على الأصوام كأنه يجب أن يعيش مائة سنة وأن يضاد ميله ويقهر الامه النفسانية · وأن يتناسى الاهانات التى تصنع فى حقه وأن يتجلد فى احتمال المكاره · وأن يصبر على الأوجاع ويتكبد المصائب كأنه فى كل يوم مزمع أن يفارق الحياة · على أن التفكر فى النوع الأول وهو استطالة الحياة يحجز عن الراهب والسائح كل نوع من الاهمال والتراخى فى الخدمة الالهية المسبب من الخوف ومن الأمراض الجسدية · وأما التفكير فى النوع الثانى وهو أن كل يوم يمكن أن يكون هو الأخير من الحياة فهذا يصيره أن يحتقر الخيرات الأرضية · ويتهاون بالأتعاب والأمراض والشدائد متأملا فى الوطن الذى كل يوم يمكن أن يدعى من الله للانتقال اليه فى الحياة الأبدية » أهـ ولما سئل هذا القديس عن النوع الملائم لحسن الصلاة أجاب قائلا « انه ليس بضرورى أن تكون الصلاة مستطيلة بل يكفى أن ترفع الأيدى نحو السماء بالقول « يارب اصنع معى الرحمة بالنوع الذى يرضيك » وأما حينما تحاربنا تجربة ما فيلزمنا أن نقول « يا الهى اعنى » على أن الله يعلم جيدا ماهو الموافق لنا فلا يتغافل عن معونتنا » ·

ولكى يوارى الله فضيلة صفيه وأعماله النسكية تحت غطاء التواضع جعله وهو يصلى ذات يوم يسمع صوتا يقول له « انك لم تبلغ بعد يا مكاريوس درجة سامية من الكمال الذى بلغته امرأتان عائشتان فى بيت واحد بالاسكندرية وهما فلانة وفلانة » فما سمع القديس هذا الصوت الا ونهض لساعته وجد فى السير حتى اذا وصل الثغر المذكور واستدل على بيتهما قرع بابهما ففتحت له احداهما فاستدعاهما وخاطبهما قائلا « انى من أجلكما قد عانيت مشقة السفر على بعد الشقة ومتاعب البرية وما ذلك الا شوقا لأعلم ماذا تصنعان وما هى حالة معيشتكما » فقالتا له « هل يمكنك أن تجد صلاحا فى امرأتين متزوجتين يعيشان فى لذة ونعيم ؟ » فألح عليهما فقالتا له « اننا اقترنا بسر الزواج مع أخوين من مدة ١٥ سنة وقد مضت هذه المدة بدون أن تخرج من فم الواحدة كلمة تغيظ الأخرى ولم يحدث بيننا خصام أو شبه خصام قط وأن الواحدة منا لا تميز أولادها عن أولاد سلفتها بل تهتم بما يرضى أولاد الأخرى قبل أولادها » ثم قالتا له « اننا قد رغبنا الى رجلينا فى أن يمنحانا رضاهما الطوعى لكى ننفرد للعبادة فى أحد أديرة الراهبات ولما لم يصرحا لنا تعاهدنا أمام مخلصنا أن نعيش هكذا الى آخر رمق من حياتنا · ونطلب منه تعالى أن يساعدنا على القيام بعهدنا » فلما سمع

القديس خيرهما هتف قائلا « حقا ان الله يمنح المتزوجين كما يمنح المتبتلين وأنه تعالى لا ينظر الا للضمائر والقلوب ويمنح روحه القدوس لجميع الذين يخدمونه من أية هيئة كانت » ٠

وفى سنة ٣٧٥ م أمر فالنص قيصر الأريوسى بطرد جميع رؤساء الأديرة الذين حافظوا على الايمان الأرثوذكسى القديم فنفذ لوسيوس هذا الأمر بأن نفى القديس مكاريوس وسميه القديس مكاريوس الاسكندرى وكثيرين من الرهبان الى جزيرة فيلى فى الصعيد الأعلى (١) ٠ وكانت هذه الجزيرة لا تزال وثنية بالمرة وفيها هيكل للاصنام مشهور وكان كاهن هذا الهيكل محترما فى نظر السكان حتى كادوا يؤلهونه ٠ فلما وصل هذان القديسان ومن معهما من الرهبان الى تلك الجزيرة كانت ابنة ذلك الكاهن الوثنى مصابة بروح نجس فانطلقت الى الشاطىء الذى رسى فيه القديسان وصاحت قائلة « لم أتيتم ياعبيد الله الى هذا المكان الذى استوطناه من زمن بعيد ٠ أطمعتم فى الاستيلاء على هذه الجزيرة بعد أن استوليتم على القطر كله ٠ ها نحن نتركها لكم اذ لا قوة لنا على مقاومتكم » ولما صلى النساك على الفتاة فارقها ذلك الروح الشرير فبرئت ٠ وللحال اعتمد معظم أهالى تلك الجزيرة الوثنية ٠ ولما سمع الشعب الاسكندرى بهذا الخبر طالب لوسيوس بشدة بارجاع هذين البارين فأصدر أمرا خصوصيا بالرغم عنه باعادة هذين الرئيسين ومن معهما حوالى سنة ٣٧٦ م ٠

وما رجع القديس مكاريوس الى بريته حتى استأنف أعماله التقوية فظل يعلم المتوحدين ويرشدهم الى أن رقد بالرب فى ٢٧ برمهات سنة ١٠٨ ش بالغا من العمر ٩٠ سنة تاركا برية الأسقيط تحاكى السماء موطن الملائكة ومقر التسبيح والتمجيد (٢) وقد نما عدد رهبانه الى ١٥٠٠ راهب٠ وكانت لهم مكانة كبرى ومنزلة عليا لما اشتهروا به من كثرة الحكمة ووفرة العلم ٠

ولهذا القديس مؤلفات جليلة رد بها على مؤلفات الوثنيين ضد الديانة المسيحية لم يعثر العالم المسيحى منها أو بالحرى لم يصل ليده من تلك العصور المتقدمة الا كتاب عظاته المحتوى على خمسين عظة وكتب فى المبدأ باللغتين القبطية لفائدة رهبانه وأمته وباليونانية لفائدة أهل هذه اللغة الذين كانوا منتشرين بمصر ٠ ومع أن أكثر مؤلفات آباء الكنيسة اغتالتها يد الضياع الا أن نسخة عظات هذا القديس ظلت محفوظة حتى وقف عليها الانكليز وطبعوها

---

(١) جنوبى أسوان وبينهما ثمانية كيلومترات وتعرف عند العوام باسم « أنس الوجود »

(٢) سرق جسد القديس ودفن بكنيسة شبشير طملاى بمركز منوف ٤٤٠ سنة ونقله البابا ميخائيل ٣ الى البرية ولم يزل بها لليوم ٠

بلغتهم ثم ترجموها الى العربية · وللقديس خلاف المواعظ بعض أقوال أخرى روحية منثورة فى كتاب بستان الرهبان · وله سبع رسائل لاهوتية طبعت بالفرنسية فى مدينة طولون بفرنسا سنة ١٦٨٤ م ·

(٢) مكاريوس الاسكندرى :

ولد فى الاسكندرية فى أوائل القرن الرابع من والدين فقيرين ولهذا اشتغل خبازا بضع سنين وكان يصنع الفطائر ويبيعها لينفقها فى ما يحتاج ولما كان الله قد انتخبه اناء مقدسا له لبث بين الموعوظين الغير المعمدين ثلاثين سنة · الا أنه بعدما اعتمد وتقوى بالنعمة لم تطب له عيشة أهل العالم فكان يتوق الى سماع أخبار النساك والسياح العائشين فى البرارى والقفار وعزم على الاقتداء بهم قائلا « ان قيمة نفسى توازى قيمة نفوس أولئك القديسين فلما لا أنسج على منوالهم » ·

ثم انطلق الى القديس أنطونيوس وتتلمذ له وترهب بوادى النطرون فى أيام الأنبا مكاريوس الكبير وبعد ذلك توجه الى برية متوحشة وأقام يعبد فيها سبع سنين بغاية التعنف اقتصر فى الثلاث السنين الأخيرة على أكل الحشيش والعروق النيئة المرة · وقد انتهى أخيرا الى حد الامساك فكان لا يأكل الا مرة فى الأسبوع لاعتقاده أن جسده هذا هو عدوه الألد ويقول عنه انه شريك الشيطان فى الاضرار بى فينبغى أن أذله وأضعفه حتى لا يقوى على محاربتى ·

وكان يصرف نهاره فى الترتيل وليله فى الصلاة واذا غلب عليه النعاس كان يعذب نفسه بحيث يبقى أياما وليالى بدون أن ينام وقد الزم نفسه بأن لا ينام فى كل ليلة أكثر من ساعتين واستمر هكذا طول حياته · ولكنه فى صوم الأربعين المقدسة كان يزداد فى تقشفه وقد قضى مرة هذا الصوم واقفا لم يجلس ولم ينم بل كان يصلى واقفا أم جاثيا ولم يأكل ولم يشرب الا فى أيام الآحاد ·

وذات يوم لسعته نحلة فقتلها ولكنه ندم فيما بعد على قتلها وأراد الشيطان أن يدخل فى عقله الأفكار النجسة فمضى وسكن فى مكان مملوء بالزنابير لا تقدر الحيوانات أن تسكن فيه خوفا من لسعاتها فأقام هو فيه ستة أشهر يتحمل لسع الزنابير السامة ولما ترك ذلك المكان كانت هيئته قد تغيرت الا أنه انتصر على الأفكار الشريرة ·

وبعد كل ذلك الجهاد الطويل لم يكن يشعر بأنه عمل شيئا يؤهله لنيل الحياة الأبدية وما كان يظن أنه ابتدأ بالسير فى طريق الفضيلة ولهذا عزم

على الذهاب الى بعض السياح ليسألهم عن كيفية العبادة الحقيقية ومن ثم قام الى برية الصعيد وتنكر بلبس أثواب خادم لئلا يعرفه أحد وقصد مجمع القديس باخوميوس بصفته عاميا يريد أن يترهب فلما رآه رئيس الدير شيخا منعه لعدم اقتداره على العيشة المتعبة أما هو فألح عليه بدموع ليقبله فقبله ودفع له جانبا من الخوص لكى يضفره · فانفرد فى مكان وظل يشتغل واقف على قدميه ثلاثة أيام بلا أكل ولا شرب حتى قال أحد الآباء للقديس باخوميوس « أخرج عنا هذا الرجل لأن ليس له جسد » ·

أما القديس باخوميوس فقد عرفه بارشاد الهى فاستقبله باحتفال عظيم فشق عليه هذا الأمر وخرج من تلك البرية ولجأ الى مكان فوق جبال نيتريا · ولم يلبث فى هذا الموضع طويلا حتى بلغ خبره الى البطريرك الاسكندرى فأرسل اليه أناسا أتوا به ورسمه كاهنا فلما رأى نفسه قد اكتسب درجة كهنوتية أراد أن يزداد فى تقشفه واكتساب الكمال فترك كل البرارى المعروفة وانفرد فى أخوف برارى ليبيا التى أطلق عليها فيما بعد اسم برية القلالى نظرا لكثرة القلالى التى ابتناها القديس هناك لتلاميذه الكثيرين ·

وكان قد التف حوله أكثر من ٥٠٠٠ راهب ومتوحد فكان يرشدهم وينفعهم فضلا عن قيامه بواجبات عبادته الشاقة فكان يصلى فى النهار مائة مرة ويقضى أكثر الليل فى الصلاة المتوالية · وروى أنه بقى مرة يومين كاملين يصلى دون أن يتوه عقله دقيقة واحدة · أما موضوع تأملاته فما كان الا يسوع المصلوب · فكان يقطع كل أوقاته بالتأمل فى آلامه ويرثى لحال أمه التى كانت واقفة تحت صليبه ولهذا أوصى تلاميذه باكرامها والتشفع بها ·

وقد أتاه يوما الأنبا بلاديوس واعترف عليه بأن الأفكار الباطلة تزعجه وبين له ميله لترك رياضات الصلاة فقال له القديس اياك أن تغلب بهذه التجربة الشديدة الخطر وانى أشير عليك بأن تطيل الصلاة كل ما تبلبلت بتلك الهواجس واياك أن تنقص منها شيئا البتة وقل للعدو ان كنت لا أقدر أن أصلى كما يجب فانى استمر فى مخدع الصلاة حبا بالمسيح ·

وكان لهذا القديس قوة اخراج الشياطين بمجرد اشارة الصليب · وقد أتى اليه أحد الكهنة مرة وهو يشكو من آكلة مريعة وخر قدامه طالبا عونه فتحنن عليه القديس وشفاه ثم قال له انما أصابك هذا المرض لأنك تجاسرت على أن تقدم ذبيحة القداس الالهى فى حال الخطيئة المميتة ثم أمره أن لا يقدس قبل أن يتوب لله توبة صادقة ·

واضطهد فالنص الأريوسى هذا القديس ونفاه مع القديس مكاريوس المصرى كما سبق معنا • وحدث بينما كان القديس مسافرا فى النيل مع اثنين من قواد جيش الملك دنا منه أحدهما وقال له طوبى لكم أنتم الذين تستهزئون بالعالم فاجابه القديس مكاريوس حقا ما قلت ويا لسوء حظكم أنتم الذين لا تدرون أن العالم يستهزىء بكم •

ولما رجع من منفاه سكن بريته الأولى ثم مات فى ٦ بشنس سنة ١١٢ش و٣٩١م وكان عمره ٨٩ سنة • وقد ذكر بلاديوس الذى عاشر القديس زمانا مديدا أنه كان قصير القامة وضعيف المزاج • وله قوانين كثيرة طبعت فى باريس سنة ١٦٣٧ م ورسالة فى نفوس الابرار بعد الموت طبعت فى أوترخت بسويسرة سنة ١٦٩٦ م •

(٣) باخوميوس :

هو الملقب بأبى الشركة لأنه أول من ابتدأ بالمعيشة المشتركة فى الأديرة تحت قانون واحد ورئيس تعيش الرهبان تحت طاعته • ولد بطيبة (١) من أبوين وثنيين مثريين ربياه وارشداه فى الاعتقادات الوثنية الكاذبة ولما أدرك رشده حاولا يوما أن يرغماه على عبادة الأصنام فلعنها وهزأ بعابديها وفى يوم آخر سقياه خمرا كانت قد قدمت للاوثان فتقيأها لساعته فاستنتج والداه من ذلك أنه سيكون عدوا للأوثان •

ولما بلغ العشرين من عمره تطوع فى الجيش الرومانى وحارب فى بلاد الحبشة تحت قيادة والد قسطنطين الكبير الذى كان وقتئذ قائد جيوش ديوكلتيانوس قيصر وحضر مواقع حربية أظهر فيها شجاعة فائقة وهمة عالية ودخل يوما مع بعض الجنود مدينة ديوسبولى حيث كان يقطن كثيرون من المسيحيين الذين شفقة منهم على هؤلاء الجنود قدموا لهم مالزم من الأكل والشرب وأعدوا لهم وسائل الراحة فتعجب باخوميوس من هذه الشهامة وسأل عن السبب الذى حمل أولئك الناس على معاملتهم بالمحبة والرحمة دون أن يعرفوهم فأجابوه بأنهم مسيحيون وديانتهم تأمرهم بصنع الخير مع كل أحد مهما كانت جنسيته وديانته ومع أنه كان قد درس علوما كثيرة ولكنه لم يعرف شيئا عن المسيحية التى مال بقلبه اليها وتوسل الى الله قائلا « أيها الاله القادر على كل شىء امنحنى أن أعرف بأى نوع تريد أن أسجد لك وأخدمك » •

ثم غادر الجندية بعد نهاية الحرب وعاد الى وطنه وذهب حالا الى كنيسة ثيتوسكوبوس وانخرط فى سلك الموعوظين وهكذا فى عيد فصح سنة

(١) هى الآن الأقصر ومن بقاياها مدينة أبو وذراع أبى النجا والقرنة •

٣١٤ م اعتنق المسيحية ونال سر العماد من الأنبا سيرابيون (سرابامون) أسقف دندره (١) وله من العمر يومئذ خمس وعشرون سنة · وفى ليلة عماده شاهد فى الحلم فى رؤيا سماوية أن يده اليمنى ممتدة تحت ندى السماء الذى استحال على الفور الى تفاحة بيده وسمع صوتا يقول له « احتفظ يا باخوميوس على ما يأتى عليك الآن الذى هو علامة النعمة العظيمة التى أراد المسيح أن يسكبها على قلبك » ·



« القديس باخوميوس أبو الشركة »

وبعد عماده شعر بميل زائد نحو عيشة الكمال المسيحى واشتاق للعزلة والانفراد فتوجه الى أسوان وتتلمذ للأنبا بلامون أحد شيوخ البرية الذى قال له « ان حياة السواح يا ابنى هى أكثر صعوبة مما تتصورها حتى أن كثيرين ابتدأوا بها ولم يستطيعوا أن يتمموها · فتأمل فى نوع عيشتى ففى فصل الصيف آكل مرة واحدة فى كل يوم وفى فصل الشتاء كل يومين

(١) على شاطىء النيل الغربى أمام بندر قنا ·

مرة . وطعامى دواما الخبز والملح دون أن استعمل زيتا أو خمرا . كما انني أقضى نصف الليل وأحيانا الليل كله فى تلاوة المزامير وفى التأمل فى الكتاب الالهى ولهذا أنصحك أن تروض نفسك مدة على هذه العيشة وبعد ذلك تأتى الى وأصيرك رفيقا لى » فأظهر باخوميوس مزيد خوفه ولكنه تقوى داخلا بنعمة الله وأجاب الأنبا بلامون قائلا « اننى أتكل على نعمة المسيح واستند على صلواتك من أجلى لأنال قوة أستطيع بها أن أعيش متمما واجباتى لغاية الموت » فسر القديس بلامون من حسن جوابه والبسه اسكيم الرهبنة . فسار التلميذ فى طريق الكمال وبالغ فى اماتة جسده حتى فاق معلمه فى صرامة العيش وطول الصوم والسهر . واتفق أن سائحا مريضا بمرض الكبرياء كان يصنع العجائب بقوة ابليس حتى انه كان يمشى على جمر نار ملتهب فلا يحترق فجاء الى القديسين وقال لهما هل حصل أحدكما على مثل هذا الايمان الذى حصلت عليه فانى أمشى فى وسط النار بدون أن تمسنى فأجاب الآب بلامون ان أحسنا التواضع فيكون حينئذ ايماننا حسنا . فلما سمع باخوميوس هذا الكلام بدأ يزداد فى فضيلة التواضع وأما ذلك المغرور فأسقطه ابليس فى الزنا ومات شر ميتة .

وبعد مدة سنتين تباعد يوما عن قلايته فى مقر قريب من طابانا (١) ليلتقط حطبا ماشيا بين الشوك حافيا كعادته ولما كان يصلى جاثيا ظهر له ملاك الرب وأشار عليه ببناء دير فى تلك الجهة التى كانت بلدة قديمة خربة . فمضى الى شيخه وقص عليه الرؤيا ثم ذهبا وسكنا فى المكان المعين وبنيا هذا الدير (٢) وبعد أن شيدا عدة أمكنة هناك ترك القديس بلامون تلميذه باخوميوس فيها ورجع الى مكان عزلته ولم يعد يواجه أحدهما الآخر الا مرة واحدة فى كل سنة . وتوفى القديس بلامون بعد مدة ولكن باخوميوس تعزى بحضور أخيه البكر يوحنا لأنه لم يكن قد شاهد أحدا من أقربائه منذ تركه لوطنه وسر لأن أخاه اعتنق الديانة المسيحية وعشق سيرة الرهبنة . ولكنه كان غليظ القلب فتعب القديس باخوميوس كثيرا فى سبيل تهذيبه حتى صيره أنيسا وديعا وبعد أن قضى خمس عشرة سنة فى ذلك الدير مات بارا تقيا .

فاستمر القديس باخوميوس بعد موت أخيه مواظبا على عيشة الوحدة والتقشف فى ذلك الدير وأخذ الشيطان فى محاربته بالأفكار الرديئة التى كان ينتصر عليها بتأمل نار جهنم التى لا تطفأ ودودها الذى لا يموت . ثم

---

(١) وبالقبطية (طابنيسيس » وتعريبها « نخل ايزيس » وهى بلدة تابعة لأبروشية دندرة . قيل أنها جزيرة فى النيل تعرف الآن بجزيرة الغريب . وقيل انها مدينة كانت على الشاطىء الأيمن للنيل الجنوبى « فاو » بمديرية قنا .

(٢) للانبا بلامون دير بناحية القصر والصياد بمركز نجع حمادى بمديرية قنا لم يزل عامرا الى اليوم .

ظهر له الشيطان بأشكال متنوعة لذيذة ومخيفة ليوقفه عن عبادته ولكنه تسلح ضده بالأسلحة الروحية وقضى بمعونة الله عز وجل أربعين ليلة لم ينم البتة ممارسا الصلوات والقراءة فى الكتب الالهية حتى انغلب العدو أمامه كما انه استمر مدة خمس عشرة سنة لا ينام فيها الا برهات وجيزة مستندا على عكازه من دون أن يقرب من الحائط · وقد أعطاه الله سلطانا على تماسيح نهر النيل فلم تكن تضره أبدا ·

واذ كان يصلى ليلة ظهر له ملاك الرب وأعلمه بأن يتخذ العناية لتهذيب الآخرين فشرع يقبل فى ديره جميع الذين أحبوا السير على منواله حتى أنه فى زمن وجيز جدا وجد عنده مائة راهب أما الفرائض الرهبانية التى وضعها فقيل انه اقتبلها من الملاك نفسه ·

ولا يخفى أن الطريق التى سار فيها الأنبا أنطونيوس وجعلها فريضة لرهبانه من بعده وهى أن يحصل كل واحد منهم على قوته بتعب يديه كانت عسرة وشاقة وغير كافلة بحفظ الرهبانية ودوامها فى عالم الوجود والفضل للأنبا باخوميوس صاحب الشركة الذى اتخذ طريقة سهلة قدر الناس بواسطتها أن يعتنقوا الرهبنة وينتظموا فى سلكها فى كل زمان وهى أنه وضع كل قنية الرهبان ومحصول تعب أيديهم فى مجمع واحد تحت سلطة أحدهم وتدبيره وجعلهم يعيشون عيشة روكية ودعا ذلك ايكونونيا (شركة) وفرض عليهم أن يشتغلوا بأيديهم لربح الدير ولكنه ترك الحرية لكل واحد ليشتغل حسب قوته ونشاطه · ولم يكن الرهبان يأكلون الا وهم مجتمعون على المائدة وكما فرض لهم هذا القانون فرض لهم قانونا آخر لحياتهم الروحية ورسم فى ذلك القانون فرائض ليست بمستطيلة جدا اشفاقا على المتقدمين فى السن من الرهبان فكانوا يحضرون يوميا لتلاوتها أمام الهيكل بدون كلل ويتناولون الأفخارستيا فى يومى السبت والأحد · ولما لم يوجد بين الرهبان أحد حاصلا على درجة كهنوتية (وحفظ هذا الأمر فى دير طابانا بعد موت القديس باخوميوس مدة تزيد عن المائة سنة) فلهذا كانوا يحضرون بعض الكهنة من الكنائس القريبة لاتمام خدمة القداس · وأما الوعظ فكان يصير مرتين أو ثلاث مرات فى كل سنة ·

ووضع للرهبان أن يستعملوا الكتاب المقدس بارشاد الرؤساء حتى فى وقت شغلهم وأن يحفظوا المزامير غيبا · ومن لم يكن يعرف القراءة فكان يلزم بحفظها قبل لبس شكل الرهبنة ليتمكن من اشباع نفسه بتلاوة الكتب المقدسة · وكان على الرهبان أن يشتغلوا بأيديهم للحصول على حاجتهم وترك القديس باخوميوس الحرية لكل واحد ليشتغل حسب قوته ونشاطه وكان كثير النصح لهم بترك الميل لمجد العالم وحدث أن أحد الرهبان المكلفين

بالنسيج أشتغل فى يوم واحد ما يلزمه عمله فى يومين ووضعه على باب قلايته لكى يكتسب اطراء القديس فلما رآه وأدرك سريرته قال للرهبان الحاضرين « تأملوا أن هذا الراهب يجهد نفسه بالتعب من الصباح الى المساء لأجل الشيطان وهكذا يضنى جسده من غير افادة لنفسه » ثم أمر ذلك الراهب بأن يحضر فى اجتماع الرهبان ويلتمس منهم أن يصلوا لأجله أمام الله ليهبه الغفران وفرض عليه أن يبقى فى قلايته خمسة أشهر يقتات بالخبز والماء فقط • ولاحظ مرة أخرى أن راهبا كان يصوم كثيرا محبة فى نيل الفخر فأمره بأن يحضر نصف النهار مع الرهبان الى المائدة ليأكل معهم من الخبز والحبوب المسلوقة أفضل من أن يصوم طالبا المجد الباطل •

وذكر أنه رأى يوما قوما من الرهبان الحديثين صاعدين الى شجرة تين ليأكلوا سرا فأمر القديس حينئذ بقطع الشجرة فشفع فيها البستانى الذى كان رجلا فاضلا معتبرا ولم يرد القديس أن يكسر خاطره فلم يقطعها ولكنه صلى وبعد صلاته يبست التينة • ومن القوانين أن يصلى الرهبان اثنتى عشرة مرة نهارا واثنتى عشرة ليلا ويصوم كل منهم حسب طاقته وغير ذلك من القوانين التى سار عليها غيره فيما بعد • وكان القديس يعامل الرهبان بالحلم والشفقة ولا سيما الشيوخ والمرضى منهم • أما الشبان فكان يتصرف معهم بالأناة والصبر ويدرجهم قليلا قليلا فى طريق الكمال ولم يلزمهم بتقشفات الدير الاعتيادية كلها بل أمر الطباخ بأن يصلح لهم طعاما خصوصيا فلم يعجب الطباخ هذا الأمر حتى أنه فى بعض الأيام لم يهيىء لهم شيئا من الطعام لأنه حسب زعمه لم ير هذا لائقا بالراهب ومن جهة أخرى كان يجد فرصة لجدل الجدائل لأجل فائدة الدير • فلما علم القديس بفعله هذا أمره أن يأتى بكل ما كان صنع من الجدائل وكان عددها نحو خمسمائة فوضعها كلها أمام الرهبان وأحرقها ثم قال لهم ان الطاعة لا تأذن للراهب أن يفحص عن تصرفات رئيسه فان ذلك مما لا يسوغ له انما عليه أن يطيع بسرعة وسرور • ومرة أخرى أرسل وكيل الدير ليبيع جدائل الدير وعين له ثمنها فلما مضى ذلك الوكيل اتفق أن أناسا قدموا له أكثر من الثمن الذى عينه له الرئيس فباعها بالثمن الأعلى فلما علم القديس بذلك وبخه أيضا على مخالفته وأوصاه أن يرد للشارى ما كان أخذه فوق الثمن المعين • ثم عزله من وظيفته وعاقبه بأن فرض عليه ممارسة أفعال شاقة • وأمر الجميع أن ينبذوا كتب الهراطقة وكانت

قوانين هذا البار محفوظة في كل الأديرة التي كانت تحت اشرافه • وروى كاسيانوس الذى زار أديرة القطر المصرى بعد ذلك بأزمنة مديدة أنه رأى أولئك الرهبان محافظين تماما على تلك القوانين لاسيما ما يختص برؤسائهم حتى اذا كان أحدهم يكتب وناداه الرئيس لا يتم كتابة الحرف الذى ابتدأ به بل يقوم اليه عاجلا ، وشهد بأنهم لم يكونوا يضعون فى قلاليهم الا الضرورى لقوتهم حتى يتلألأ على وجوههم نور الفضيلة وتسطع منها أشعة الصلاح •

وكان القديس باخوميوس أشد الناس سرورا بنجاح رهبانه الذين كان يأتى لمشاهدتهم كثيرون ويتعجبون مما يرونه من الصفات المقدسة فى أناس يشبهون الملائكة من كل الوجوه • غير أن ابتهاج القديس تحول الى حزن لما أعلن له الله عن حال رهبنته فى المستقبل وعن التغيير العتيد أن يحدث فيها من قبل رؤسائها ولهذا شدد على الرهبان بحفظ قانونه جيدا ومقاومة الميل لمجد العالم مقاومة مستمرة بقوله « ترى ما الذى يجعل الانسان أن يهمل ذاته الا اذا انجذب الى محبة المجد الباطل • ولماذا ينتفخ متعظما مع أنه ليس الا ترابا ورمادا • فلنبك بالأحرى على ذلنا وشقائنا ما دام لنا زمان للبكاء • حتى اذا انتهت أيام غربتنا لا نحتاج الى زمن آخر لنتوب فيه دون أن نحصل عليه • على أنه طالما نحن فى قيد هذه الحياة نستطيع أن نندب خطايانا وننوح عليها • وأما فى جهنم فيقول المرتل « لأنه ليس فى الموت ذكرك • فى الهاوية من يحمدك » (مز ٦ : ٥) فلتلزمنا تيارات من الدموع لنبكى البكاء الواجب على نفس تعيسة تكون بعد رفضها العالم وما فيه رجعت تشتبك بمهماته وشهواته وتعود الى الأفكار اللحمية والرغبات الأرضية وعلى هذه الصورة تسقط من جديد فى ذلك الأسر الذى فازت أولا بالنجاة منه فلا نرتضى يا اخوتى الأعزاء بأن يفقدنا الحياة الأبدية هذا العالم الغرار الفانى الزائل الذى لا يمكننا بوجه من الوجوه أن نتكل عليه » أهـ •

ولما اشتهر أمر القديس باخوميوس وتردد اسمه على الألسنة أتت أخته مريم لزيارته فلم يرد أن يقابلها ولم يسمح لها بالدخول الى الدير بل أرسل البواب يقول لها ان أخاك فى سلام وقد ودع العالم فلا يود أن يراه ثانية وان كنت تشتهين التنسك وتصيرين قدوة صالحة للنساء فهو يبتنى لك ديرا لتعبدى الله فيه فلبت أخته دعواه وشيد لها ديرا خاصا سنة ٣٤٠ م واجتمع معها نساء كثيرات يعبدن الله تحت اشراف القديس باخوميوس •

واستمر القديس على اسداء النصائح للرهبان الذين يرى فيهم عيبا ولما يراهم باقين فى حالتهم الرديئة يصلي من أجلهم دون أن يؤدبهم سريعا منتظرا فعل نعمة الله فى قلوبهم • وكان بين رهبانه عشرة أشخاص متقشفين للغاية ولكنهم كانوا ذوى السنة نمامة الأمر الذى كان يكرهه القديس جدا • واذا اتفق يوما أن أحدهم جاء اليه يتكلم معه ضد قريبه كان يتركه ويقوم حالا وهو يقول له كلمات المرتل « الذى يقع بقريبه خفية كنت أطرده » وهكذا يصده عن النميمة ولكن هذه الطريقة لم تجعل أولئك العشرة يكفون عن ارتكاب خطيئة النميمة فالتجأ الى الله بالصلوات الحارة مدة أربعين ليلة من دون أن يرقد مطلقا أو يأكل سوى مرة فى كل أسبوع الى أن تنازل الرب وأوقف النمامين عن التكلم بالنميمة • ولما كان يقدم نصيحة لراهب كان يطلبها بكل لطف ومحبة واذا لاحظ أن أحد الرهبان تألم من كلمة صدرت منه لا يستريح حتى يزيل منه ما ألم به من جرى كلامه •

وأما من جهة الأذى الذى يصدر ضده فكان كأنه عديم الشعور به بل يقبله بكل فرح وسرور • ومن ذلك أن أحد رهبان دير طابانا طلب من الرئيس أن يرفعه الى وظيفة ايكونوموس فقال له هذا ان الأب العام باخوميوس لم يسمح بترقيته فامتلأ ذلك الراهب غيظا على القديس وذهب اليه مسرعا فوجده يشتغل مع الرهبان فى ظل حائط الدير فأنشأ يهينه بكلمات شديدة • أما القديس فأخذ يعتذر له كأنه مذنب فى حقه وأمر الرئيس بترقيته وبهذا اللطف عالج حدة الراهب فعدل عن الوظيفة وطلب الصفح والغفران عما أفرط به • وكان القديس لا يميز نفسه عن الرهبان فى شيء لا فى زمن الصحة ولا فى زمن المرض حتى أنه لم يخدم منهم بل بالعكس كان هو يخدمهم ولم يتميز عنهم الا باتعابه وتواضعه وصبره على المكاره •

وحوالى سنة ٣١١ م زار القديس أثناسيوس الرسولى جميع ابروشيات كرازته لتثبيت رعيته فى الايمان الأرثوذكسى وفى أثناء زيارته لكنائس طيبة رأى أن يمر من ضواحى دير طابانا • فالقديس باخوميوس خرج لملاقاته مع عدد كثير من رهبانه ولكى لا يعرف من البطريرك ولا من رفقائه زج نفسه بين الرهبان الآخرين كأنه أحقر من فيهم ولما قصد البابا أثناسيوس أن يرسمه قسا هرب الى تبنه (١) فقال البابا لأولاده قولوا لأبيكم الذى بنى بيته على الصخرة التى لا تتزعزع وهرب من المجد الباطل « طوبى لك وطوبى لأولادك » •

---

(١) هى جزيرة قرب دندره •

وحدث أن شابا يدعى ثيوذوروس ابن امرأة شريفة الأصل تأمل ذات يوم وهو فى الثانية عشرة من عمره فى زوال هذا العالم وبطلان أمجاده وأدرك أنه عديم المنفعة لمن يحبونه نعزم على السير فى طريق الزهد وتوجه الى القديس باخوميوس وعرض عليه نفسه فقبله لعلمه أن الله اصطفاه ليكون رئيسا للرهبان بعده ٠

وعلمت أم ذلك الشاب بما نواه وسار فيه فاستولى عليها الحزن وتوجهت الى الدير وطلبت من القديس باخوميوس أن يرد لها ابنها فأجابها انه نذر نفسه لله فالتمست منه أن يدعوه اليها لتراه فأبى ابنها أن يراها معتذرا بقوله « من يضع يده على المحراث لا ينبغى أن ينظر للوراء » ٠ فتاثرت الأم من قساوة ابنها بل من عزمه الشديد على السير فى طريق الفضيلة وأحبت أن تقتفى اثره فانضمت الى دير النساء (١) ٠

وقد ميز الله صفيه باخوميوس بموهبة صنع العجائب والتكلم بالنبوات فتوافدت عليه الناس من كل مكان بعضهم لنوال الشفاء وبعضهم للاستشارة فى أمورهم ٠ غير أن القديس لم يهتم بشفاء المرضى من رهبانه بل كان يشجعهم على احتمال كل ما يصابون به من قبل الله بشكر زائد حتى يكتسبوا رحمته ورضاه دواما ٠ وأخص تلاميذه ثيوذوروس المذكور اعتراه يوما وجع شديد فى رأسه وطلب منه أن يشفيه فأجابه « أعتقد جيدا يا ابنى بأنه لا تأتى علينا الأوجاع والأحزان أو أية شدة كانت الا بارادة الله أو سماحه فاحتمل اذا بصبر واتضاع هذا الوجع الذى أرسله لك الله وانتظر الى أن ينقذك منه تعالى متى يشاء ٠ وانه اذا كان عز وجل يتنازل لأن يمنحك بواسطة هذا العذاب مدة مستطيلة من الزمان فيقدم لعزته الشكر عن ذلك نظير أيوب البار الذى فيما بين أوجاعه وآلامه لم يكن يفتر عن مباركة الرب وتأكد أيضا أنه وان كانت الأصوام أو الصلوات وباقى أفعال الاماتات ممدوحة بلا ريب فان احتمال ما يفتقدنا به الله من الشدائد بصبر هو أجود وأكثر استحقاقا للمدح » اهـ ٠

ولما كثر حول القديس ازدحام الناس الذين يقصدون أن يستشيروه فى أحوالهم بعلمه الالهى انعم الله عليه بمعرفة اللغات كما أنعم بذلك على

---

(١) صار ثيوذوروس فيما بعد وكيلا على الرهبان للقديس باخوميوس وبعد نياحة هذا القديس اقيم رئيسا عاما لهم ٠

الرسل وسببه أن راهبا جاءه من رومية وقصد أن يرتشد منه فابتهل الآب الى الله من أجل فائدة هذا الراهب وقال « أنت تعلم أيها الاله أننى لعدم معرفتى لغات لا أقدر أن أمنح ربحا باسمك للذين يأتون الى من أماكن بعيدة فاما أن تمنحنى معرفة لغة من يقدم الى لأفيده أو لا تدع أحدا يأتى الى » فاستجاب الرب طلبه وسمع اعتراف الراهب وأرشده ٠

وبعد أن بنى القديس باخوميوس أديرة كثيرة واجتمع فيها ما ينيف على السبعة الآلاف راهب وفى دير طابانا اجتمع الف واربعمائة راهب أراد الرب أن ينقله اليه ٠ فبعد الصوم المقدس لسنة ٣٤٨ م افتقد الله رهبان أديرة القديس باخوميوس بمرض أمات منهم فى مدة وجيزة نحو مائة راهب أكثرهم من الأتقياء ثم ان القديس باخوميوس مرض أربعين يوما اجتازها بكل سكينة الروح وبهجة القلب وقبل رقاده بيومين جمع لديه رهبانه وخاطبهم قائلا « اننى أشاهد يا أولادى الأعزاء أن الله عن قرب يريد أن يدعونى اليه ٠ أما أنا فمن دون خوف أقبل نحو الموت ٠ لأنى واثق بصلاح الله الغير المتناهى ٠ فاحفظوا أنتم فى ذهنكم الأشياء التى أوصيتكم بها مرات كثيرة ٠ فكونوا ساهرين فى الصلوات حارين فى أعمالكم ٠ واهربوا من المخاطبات مع أولئك الذين يمكنهم أن يسلبوا منكم فضيلة الايمان أى يعكسوا استقامة عوائدكم ٠ بل تقدرون أن تتفاوضوا مع اناس خائفين من الله ٠ الذين بواسطة سيرتهم الفاضلة يكونون لديكم نموذجا صالحا يفيدكم للبناء ولتعزية أنفسكم ٠ فانا الآن أشعر بانحلال قواى وبدنو ارتحالى بانفصال نفسى من جسدى ٠ فانتخبوا اذا فيما بينكم بحضورى معكم رجلا يتخذ على ذاته تدبيركم بعد الله مهتما فى خلاصكم الأبدى ٠ أما أنا فأرى أن باترونيوس أليق لهذه الوظيفة » اهـ ٠

فوافق كل الرهبان على اختياره وقبلوا باترونيوس رئيسا عليهم وكان هو أيضا مريضا وقتئذ فى دير آخر ٠ ثم أوصاهم القديس باخوميوس باتباع قوانينه وتجنب الهراطقة وبالثبات فى الايمان الأرثوذكسى وقدم لهم ثيوذوروس تلميذه أيضا ليقبلوا رئاسته فى الوقت المناسب واذ رأى ملاك الله يتقدم اليه بخطوات هادئة رسم على ذاته علامة الصليب وأسلم الروح فى ١٤ بشنس سنة ٢٢٢ ش و٣٤٩ م وهو ابن ٧٤ سنة ودفن فى المكان الذى أوصى به ٠

وقد ظلت رهبنة هذا القديس قائمة فى الشرق حتى القرن الحادى عشر ٠ وقد روى انسلم أسقف هافلبرج بألمانيا من رجال ذلك القرن أنه شاهد

بالقسطنطينية ديرا باسم القديس باخوميوس وبه ٥٠٠ راهب عاملين بقوانين ذلك القديس العظيم · أما سيرة هذا البار فقد دونها أحد رهبانه بالقبطية ونقلها عنه ايرونيموس فديونيسيوس الصغير · وقد عربها بعض القبط ثم ترجمها الموسيو اميلينو الى الفرنسية وطبعها فى باريس سنة ١٨٨٩ م · وبعد القديس باخوميوس تراس مكانه باترونيوس كاشارته وبعد هذا تراس ثيوذوروس المشار اليه آنفا والذى تنيح وبالدير ثلاثة آلاف راهب ورسم القديس أثناسيوس أموز أسقفا على دير طابانا وهو الذى اضطهده غريغوريوس الدخيل ونفاه ·

(٤) يوحنا الاسيوطى :

ولد فى ليكوبولى (أسيوط) سنة ٤٠٥ م من أبوين فقيرين وكان أبوه نجارا فتعلم صناعته ومارسها الى ان بلغ الخامسة والعشرين من عمره ورأى فى نفسه ميلا لعيشة الانفراد فانطلق الى البرية وتتلمذ لناسك شيخ الذى رآه فى اتضاع تام فرفعه الى أرفع درجة من الكمال ·

وبعد نياحة معلم القديس يوحنا زار جملة أديرة مدة خمس سنين تمم فيها درس فروض الكمال ثم صعد الى أكمة مرتفعة على جبل بقرب مدينة ليكوبولى ونقر فى صخورها مغارة وقطن فيها أربعين سنة لم يشاهده فيها أحد ولم يكن يظهر الا من كوة صغيرة فى المغارة كان يفتحها نادرا ولم يكن يقتات الا القليل من البقول والماء ومع ذلك كان يبش فى وجوه زائريه ومنع النساء من المجيء اليه ·

وقد اشتهر بحكمته وعلمه بالمستقبلات حتى أن القائد الرومانى الذى كان معسكرا فى أسوان كان يستشيره فى أموره العائلية والسياسية لاعتقاده برجحان رأيه ووفور فضيلته · وطلب منه مرة أن يسمح لزوجته بمقابلته وكانت قد أتت من مكان بعيد لتستشيره فاعتذر له بكونه عزم منذ سكناه بالمغارة على عدم مشاهدة امرأة قط · الا أن القائد قال له ان امرأتى تموت من شدة الحزن اذا لم تراك فقال له القديس امض وستراني امرأتك فى هذه الليلة · فتركه القائد وهو يندهش · وفى تلك الليلة ترأى للمرأة فى الحلم ونصحها بأن تكون رغبتها من رجال الله لا أن تشاهدهم بل أن تتمثل بأفعالهم التى تسمع عنها ثم دعا لها ولزوجها بالبركة ولما أخبرت زوجها بما شاهدت زادت حيرته وزار القديس مقدما له شكره ·

وبعد ذلك هجم البرابرة من الحبشة على الصعيد فخاف القائد واستشار القديس فى أمرهم فقال له لا تخش كثرة عددهم اتكل على الله وهو يوقعهم فى يدك فتم قوله ٠

وأتاه مرة شريف حبشى كانت امرأته على باب الولادة وطلب منه أن يصلى من أجلها فوعده بنجاتها وسلامة ابنها وأخبره انه سيصل اليهما بعد الولادة بسبعة أيام وأمره بتربية ابنه فى طريق الفضيلة وبعد أن تتم له سبع سنوات يضعه تحت اشراف أحد السياح لترويضه على عيشة النسك لينشأ سائحا متوحدا ٠

واتصل خبر هذا القديس بثيودوسيوس قيصر الكبير فأرسل يأخذ رأيه فى أمر الحرب التى كانت بينه وبين مكسيموس فأعلمه القديس بخبر انتصاره عليه قبل وقوعه فعظم شأن القديس فى نظر القيصر وأرسل اتروبيوس أحد وزرائه يلتمس منه بالحاح أن يأتى الى الملك فأبى يوحنا كلية ترك معبده ولكنه أخبره أنه سيغلب فى كل حروبه وبعد قليل يموت ٠

واذ أدرك القديس يوحنا أن زمن نياحته قد أزف أمر أن لا يطلبه أحد مدة ثلاثة أيام وصرف ذلك الوقت مصليا ثم أسلم الروح فى سنة ٤٩٤ م وقيل أنه وجد بعد موته منتصبا على ركبتيه ٠

وأطلق على هذا القديس غالبا لقب « نبى مصر » ولم يكن يقتصر على خير نفسه ويكتفى بملازمته للعبادة بل اهتم بخير فقراء مديريته فكلف بعض تلاميذه بجمع صدقات من المحسنين وتوزيعها على المحتاجين ٠ ولما رأى المسيحيون حسن عمله اتفقوا فيما بينهم على أن يقدموا له عشر ايرادهم فكان القديس يجمع هذه الأعشار ويوزعها على الفقراء والبائسين وقد سار هذا المشروع سيرا حثيثا وبزغت شمسه من أسيوط فانتشرت أشعته على كل مصر ومنها عم جميع الممالك المسيحية ٠ وقد أسند المؤرخون مبدأ تقديم الأعشار عند المسيحيين الى هذا الراهب الأسيوطى ٠ وبعد هذا العهد كانت هذه الأعشار تجزأ الى ثلاثة أقسام الأول لرواتب الاكليروس والثانى لعمارة الكنائس والثالث للفقراء ٠ ولا تزال هذه القاعدة فى كثير من كنائس القطر حيث يجمع من المصلين صدقات على ثلاث مرات ٠

(٥) بيمين السائح واخوته :

ولد سنة ٣٥٠ م وكان له ستة اخوة هم أنوبيوس أكبرهم وبايز وسمعان والون ونسطور الملقب منذ القديم بالناسك وسارمناص الشاب ٠ قيل أن

جماعة التدميرين الذين غزوا مصر قبلا استولوا على جميع ممتلكات والد هؤلاء الاخوة ثم أوردوه حتفه • وهؤلاء الاخوة السبعة اتفقوا معا على اعتناق سيرة الرهبنة واعتزل القديس بيمين عن الناس سنة ٣٨٥م وانفرد فى برية الأسقيط بمصر حيث تبعه اخوته الستة •

وكانت العيشة التى آثرها بيمين شديدة وصارمة للغاية اذ كان يقول « ان اللذة الشهوانية تطرد من القلب الندامة وخوف الله كما يطرد الدخان النحل فرائحتها تخمد النعمة وتنزع من النفس التعزية وحضور الروح القدس أيضا » غير أنه رأى فى المستقبل أن هذه العيشة الغير الاعتيادية تنشىء فى الانسان زهوا وفخرا ففضل عوضا عن أن يصوم ثلاثة أيام أو أسبوعا أن ياكل كل يوم بطريقة تجعله دواما شاعرا بالجوع • وعوضا عن أن يسهر الليل كله ينام منه أربع ساعات ويقضى نصف الباقى فى الترتيل والصلاة والنصف الآخر فى عمل يده • أما يومه فكان يقضى منه الى الساعة السادسة فى عمله والى التاسعة فى صلواته وما بقى يجمع فيه البقول التى يأكلها فى الغروب •

وكان القديس فى حياته يكثر من زيارة الشيوخ لكى يستفيد من آدابهم ولم يضجر من تأمل قول الأنبا موسى أحد معلميه « يجب أن يكون لخادم الله قلب منسحق بالندامة ولابد أن يتخشع كل التخشع لأجل ذنوبه ويراها دائما أمام عينيه على أنه لابد له حينئذ من أن لا يفتكر أبدا فى زلات القريب ولا يحكم على أحد ما اذا لم يفوض له ذلك أما من باب المحبة وأما للقيام بواجبات وظيفته » اهـ •

وفى سنة ٣٩٥ م أغار البرابرة على برية الأسقيط فانسحب هو واخوته الى فنبزينوت بالقرب من هيكل قديم للأوثان وأقام هناك عدة أعوام يسوس جماعة قليلة بمساعدة أخيه الأكبر أنوبيوس وكانوا يكرمون بعضهم اكراما عجيبا • وحدث أن أنوبيوس قضى أسبوعا فى ذلك المعبد يرجم صباحا بالحجارة تمثالا كان فيه قصد اهانته ويأتى أمامه مساء جاثيا طالبا الغفران • فبيمين الذى شاهد تصرف أخيه هذا سأله عن مغزاه فأجابه انه لأجل تعليمك عملت هذا فالتمثال لم يكن يحزن وقت رشقه بالحجارة ولم يبتهج اذ كنت أطلب منه الصفح فعلى هذا النحو ينبغى أن نتصرف أمام أحزان ولذات العالم » ومن هذا الدرس تعلم بيمين أن يقول « انى أصم لا أسمع ما يقال عنى وأعمى لا التفت الى نقائص القريب وأخرس لا أتكلم فيها ولا أحكم عليها بل أترك الحكم لله » •

وكان أحد السواح المقيمين تحت ارشاده يذهب أحيانا الى احدى البلاد القريبة ويبيع لمعلمه ما يشتغله من السلال · فجاءه يوما طالبا منه أن يرشده الى طريقة يبيع بها السلال فقال له « اذا أراد أحد أن يشتريها بأكثر من ثمنها فلا تبعها وأما بأقل منه فسلم وكن على الدوام منتبها لكى يربح الناس منك وسر لأنك تخسر لأجلهم » واتفق أن القديس شعر بأن رجلا اشترى منه السلال لكى يعمل معه معروفا فدفع له فضته واسترجع منه السلال قائلا له « لا أريد أن أربح بخسارة الغير » ·

وأدرك القديس معنى قول السيد المسيح « من أحب أبا أو أما أو أخوة أكثر منى فلا يستحقنى » بمعنى أنه لا ينبغى أن يحبهم محبة تعوقه عن اتمام عمل خلاصه · فذات يوم جاءته والدته كى تشاهده فهرب منها مختفيا ولكنها لاحظته فتبعته وهى تبكى متوسلة اليه أن يقف لتشاهده وتخاطبه · أما هو فأجابها « لاتبكى لأنك عتيدة أن تشاهدينى فى السماء الى الأبد اذا سرت فى طريقى » ومرة أخرى أرسلت اليه شقيقته تقول ان ابنها مسجون وقد وعد الحاكم باطلاقه اذا طلبت منه ذلك فرد عليها يقول « ليس لبيمين بنون يحزن عليهم فليفحصه الحاكم فان كان مذنبا فليعاقبه وان كان بريئا فليطلقه » فتعجب الحاكم من فضيلته وأطلق الشاب ·

ولم يكن تصرفه هذا قساوة منه على أهله لأن محبته وشفقته تجلت لكثيرين من الحزانى والمصابين الذين كانوا يلجأون اليه فيجدون فيه معزيا جليلا وكان يشعر بعطف كلى على الخطاة حتى انه كان يقول « يجب أن نستعمل مع كل الخطاة كل ما نملك من الرحمة والمحبة لأننا اذا وبخناهم بشدة حينما يصرخون لنا بذنوبهم نزيدهم حزنا ولكن ان كنا نهدىء روعهم ونطلب منهم أن يكفوا عن حزنهم ويلقوا اتكالهم على الله ونحذرهم من العودة للخطيئة فى المستقبل يمكننا أن نجذبهم الى التوبة بسهولة » ·

ولما اشتهر القديس بيمين بصفات حسنة كثيرة فى أنحاء القطر وأخصها استقراء الأحوال وكشف المكنونات · أصبح مقصدا لكل متحير وكثر القادمون اليه من كل مكان وقال له أحدهم يوما لقد كنت أخشى أن توصد فى وجهى باب مغارتك لأنه زمن صيام فأجابه « انى لا أعرف أن أغلق فى وجه أى انسان هذا الباب الخشبى بل انى أجتهد بكل قوتى أن أغلق باب لسانى » والتجأ اليه مرة أحد الرهبان لكى يعين له عملا يقوم به خلاف زرع الأراضى واعطاء محصولها للفقراء فأجابه « ان هذا العمل الحسن لا يلزم أن يغير » ولما لامه البعض على تعيين فلاحة الأرض كعمل

خاص بالراهب قال « ان الذى يريد أن يفعل الخير لا يتخير نوعه بل فليعمل مافى قدرته » وحينما طلب منه البعض أن يرشدهم الى كيفية ابادة الأفكار الرديئة أجابهم « اهملوا تلك الأفكار نظير المغلوق عليهم فى السجن . لا تصغوا اليها ولا ترددوها من جديد فى هواجسكم فتبيد من ذاتها كما تهلك الحيوانات التى توجد فى مكان ليس فيه هواء » ولما كشف له أحد الرهبان ضميره فى أنه كان يتعذب من قبل تصورات مختلفة أجابه « كما أن الذباب لا يستقر على وعاء مملوء من الماء المغلى الشديد الحرارة بل يستقر على الوعاء المملوء بالماء الفاتر وهناك يتولد الدود هكذا لا يستطيع الشيطان أن يضر بتجاربه الذين تتقد فى قلوبهم محبة الله بل يستحوذ على الذى يكون قلبه فاترا فى محبة الله » .

وأحد الاخوة ارتكب زلة فتعهد له بأن يكفر عنها باماتة ثلاث سنين فقال له « اخاف أن لا تثبت على هذا المقصد يجب أن ترضى بأمانة ثلاثة أيام وتعملها بحرارة » وآخر جاء يستشيره فى بعض الوسائط التى يستعملها لينجو من تجربة شديدة وقوية فأمره أن يبعد عن مسكنه مسافة ثلاثة أيام وثلاث ليال ويصوم كل يوم حتى المغرب مدة سنة . وقيل أن راهبا كان متعذبا جدا من أفكار التجديف وحاول مرارا أن يخطر القديس بأمره ولكنه خشى فلمح منه ذلك وطلب اليه أن يكاشفه بأمره فشكى له تجربته فقال له « اذا وسوس اليك الشيطان بمثل هذه الأفكار قل له « ان تجديفك يقع عليك أما أنا فلا آخذ منه جزءا لأن قلبى يبغضه » وذات يوم جاءه رجل من سورية وسأله أى دواء أنفع لصلابة القلب فأجابه « الحرارة فى الصلاة والمواظبة » وكان يحث الاخوة على دوام ممارسة الفرائض الالهية ولا سيما سر الأفخارستيا فقال لهم « ان الظباء بعد أن تفترس الأفاعى فى البرارى تلتهب من سمومها فتطلب الماء لكى تبرد غليلها هكذا نحن نقدر أن نجتاز بادية هذا العالم بدون أن نبتلع شيئا من سمها ولا ننجو من ذلك الا بتكرار مباشرة الفضائل الالهية » .

وكانت الأجوبة الحكيمة التى يجاوب بها هذا القديس سائليه ناشئة من كثرة استنارته بشريعة الله ومواظبته على مطالعة الكتب المقدسة حتى أنه قال فى هذا الموضوع « كما أن الماء الجارى على توالى الزمن يتمكن من اقتلاع الصخور الراسخة هكذا المداومة على تلاوة كلام الله تلين القلوب الجامدة » ولكى يعزى ذلك البار الذين كانوا لا يجدون تعزية من كلمة الله لعدم فهمها قال لهم هكذا « كما أن الرقاة الذين يرقون الحيات

لايفهمون فحوى تلك الكلمات التى ينطقون بها ومع ذلك تفعل مفعولها فى الحيات فتمنعها عن اللدغ هكذا كلام الله اذا تلى يستطيع أن يزعج الشياطين ولو لم يفهمه الذى يتلوه » ٠

وأعطى تلاميذه هذه القاعدة « لا تجاروا هواكم بل قاوموه فى كل حين لأن الذين يتبعون أهواءهم لا يحتاجون للشيطان ليجربهم فهم أنفسهم مجربون أشداء » وكان يقول « لا يمكن أن يطرد الشر بالشر ٠ اذا فعل معك أحد شرا فافعل معه خيرا لتغلب الشر الذى يفعله معك بالخير الذى تفعله معه » وأضاف الى ذلك ما نصه « ان المقلق والمتذمر والمتظلم لا يستطيع أحد منهم أن يكون راهبا وكذا ذوو الأميال الرديئة الشديدة ومن يجازى الشر بالشر » وكثيرا ما كان ينصح اخوته أن لا يكتموا التجارب فى أنفسهم قائلا « لا شيء أحب للعدو من أن يرى واحدا مصرا على عدم اخبار رئيسه أو مرشده بتجاربه » وقوله « يجب أن تكون عيوب المرء دائما نصب عينيه بحيث أن ذلك يمنعنا عن ملاحظة عيوب الغير » وقوله « ان الصوم والانسحاق يمنعاننا عن رؤية زلات الغير ولو كانت تظهر مسوخا للذين يغفلون عن خطاياهم ٠ فلا ريب أن الذى يحكم على نفسه يقدر أن يعيش فى كل موضع ويحتمل بصبر كل الشتائم » وقال يوما لراهب « ان من يملك نقاوة القلب هذه التى بها تستحق النفس أن ترى الله هو مقتنع أن فساد قلبه قد جعله أردأ من القتلة أنفسهم » أما اخوة أنوبيوس فأثبت هذا الحكم بقوله « ان الدينونة التى يدين بها الانسان نفسه تحجب زلات غيره فليس الانسان عادلا الا متى حكم على نفسه » وكان القديس بيمين يستعمل عادة هذا التشبيه وهو « رجلان كان لكل منهما صاحب ميت فى بيته فذهب الواحد الى الآخر وكلاهما يبكى على جسم حبيبه يتأسف عليه ومن ثم سبيلنا أن نشفق بعضنا على بعض ونشفق على زلات القريب »٠ وللقديس خلاف هذه الأقوال كثير ولا سيما فيما يتعلق بالصمت واحتقار الذات ٠ ومما يؤسف له أننا لم نقف على ما ذكرنا الا فى مؤلفات الأجانب لفرط اهمالنا فى حفظ آثار آبائنا ٠

وبعد أن مضى البار بيمين مدة فى البرية يرشد ويعلم هجم البربر ثانيا على الجهة التى كان مقيما بها وكانوا يقتلون كل من وجدوه أمامهم حتى اضطر القديس أن يهرب هو والقديس أرسانيوس سنة ٤٣٠ م وأخيرا رقد فى الرب فى أواسط الجيل الخامس ٠

(٦) ديديموس الضرير :

ولد بالاسكندرية سنة ٣٧٨ م وأصيب بمرض فى عينيه وهو فى الرابعة من عمره ففقد بصره ولكن رغبته الشديدة للحصول على العلم ذللت أمامه كل عقبة فلم يمنعه فقد البصر ولا الفقر من تعلم الحروف الأبجدية على لوح محفور وبهذه الطريقة تعلم النحو والمعانى والبيان والفلسفة والمنطق والرياضة وفن الموسيقى ٠ وكان متمكنا من كل علم من هذه العلوم تمكنا جعله متفوقا على أترابه ومناظريه ٠ وقال أيرونيموس « أنه تعلم الهندسة أيضا التى تحتاج الى النظر أكثر مما سواها حتى كان أعجوبة لكل ناظر اليه فانتشر صيته وذاع اسمه فى كل مكان » ٠

وكان ديديموس صديقا حميما للقديس انطونيوس فذات يوم شرعا يتخاطبان عن الكتب المقدسة فسأله القديس فى أثناء مذاكراته ألعلك لا تحزن على كونك كفيف البصر ؟ فقال له ديديموس ان ذلك ليحزننى جدا٠ فقال القديس « انى لمتعجب من حزنك على فقد ما تشترك فيه معك أحقر الحيوانات كواسطة للشعور بها مادام لا شعور عندها غير البصر ولا تفرح متعزيا لأن الله خولك نظرا آخر لا يهبه تقدس اسمه الا لمحبيه فأعطاك عينين كأعين الملائكة تبصر بهما الروحيات بل بواسطتهما أدركت الاله نفسه وسطع نوره أمامك فأزاح دياجير الظلام عن عينى قلبك فاستنرت » فتسلى ديديموس بهذا القول طول حياته ٠

ولما كان شائعا حينئذ بين كثيرين أن أوريجانوس لايمتاز عن المبتدعين والهراطقة ٠ وكان هذا العلامة من الواقفين على الحقيقة والعارفين بسلامة ايمان أوريجانوس نشر شرحا وافيا لكتاب أوريجانوس المسمى « المبادىء » أوضح فيه خطأ الذين يعتقدون فى أوريجانوس الضلال وأن ما يوجهونه اليه من الانتقاد هو مجرد أوهام لا قيمة لها ثم قال « ان الذين يتهمون أوريجانوس بالابتداع هم عديمو الفهم لا مقدرة لهم على ادراك الأفكار العالية والحكمة الغامضة التى امتاز بها ذلك الرجل العظيم الذى يعد من النوابغ المشهورين » أهـ ٠

وبعد وفاة مقار السياسى مدير المدرسة اللاهوتية عين البابا أثناسيوس ديديموس خليفة له سنة ٣٤٠ م فكان استاذا ماهرا ومدافعا قويا عن الايمان القويم فتقاطر طلاب العلم اليه من كل مكان وتتلمذ له روفينوس وايرونيموس اللذان أتيا مصر لدرس أحوال الرهبنة كما سيأتى٠

ولما كان كثيرون من ذوى البصر يتلقون العلم عن ذلك الضرير لقب حينئذ « الأعمى البصير » ٠

ولما شاخ هذا الرجل العالم كان حزنه عميقا على المسيحيين الذين كانوا واقعين تحت اضطهاد يوليانوس الجاحد فصرف يوما كاملا فى الصلاة والصوم وهو يبتهل الى الله أن يرفع البلاء عن شعبه الى أن أضناه التعب فنام وفى أثناء نومه سمع صوتا من العلاء يقول له « قم وكل وقل لأثناسيوس ان القيصر قد مات » فكتب تاريخ اليوم والساعة اللذين سمع فيهما هذا الصوت فوافق بالتمام الوقت الذى قتل فيه يوليانوس ٠

قال سقراط المؤرخ « ان ديديموس كان يعتبره الناس حصنا متينا وسندا قويا للديانة المسيحية حتى قبل أن يتولى رئاسة المدرسة اللاهوتية وهو يعد خصما عنيدا كسر شوكة أتباع أريوس وأذلهم فى مناظرته لهم ٠ وله مصنفات عديدة لم يسبق منها فى عالم الوجود سوى أربعة فقط » أهـ وقد وضع من الكتب كتاب تفسير للمزامير ولانجيل متى ويوحنا وكتابا فى عقائد الدين وكتابين فند فيهما ضلال الاريوسيين وكتابا فى الروح القدس ترجمه ايرونيموس الى اللاتينية وعشرة كتب فى تفسير نبوة أشعيا وثمانية فى نبوة هوشع وبعث الى ايرونيموس بثلاثة كتب فى تفسير آيات من الأسفار المقدسة وكتب خمسة كتب فى نبوة زكريا اقترحها عليه ايرونيموس وفسر سفر أيوب وغير ذلك ٠ وايرونيموس تلميذه الذى عدد مؤلفاته كتب عنه فى سنة ٣٩٢ م يقول « وهو حى الى الآن وقد جاوز الثالثة والثمانين من عمره » وتوفى ديديموس سنة ٣٩٦ م ٠

(٧) تأسيس كنيسة مسيحية ببلاد الحبشة بواسطة أتعاب المصريين :

فى بدء صعود البابا أثناسيوس الرسولى الى كرسى البطريركية حدث حادث تاريخى هو فتح بلاد الحبشة للتبشير بالانجيل وذلك أن أحد فلاسفة مدينة صور واسمه ميروبيوس أراد أن يقوم برحلة رياضية لبلاد الهند فأخذ معه اثنين من أقاربه وهما صبيان مسيحيان اسم الأول فرومنتينوس والثانى ايديسيوس ففى أثناء رحلتهم فى بحر القلزم (البحر الأحمر) احتاجوا الى طعام فاقتربوا من الشاطىء ورآهم البرابرة القاطنون هناك فهجموا عليهم لينتقموا من بحارة فى احدى السفن كانوا قد اساءوا اليهم فذبحوا ميروبيوس وجميع البحارة والركاب ولم يستثنوا الا الصبيين اللذين كانا قد هربا الى مسافة قريبة فوجدوهما تحت ظل شجرة كبيرة يطالعان الكتاب المقدس

ويصليان الى الله لينقذهما فأحاطوا بهما وأسروهما وقدموهما هدية الى ملك البلاد فى مدينة اكسوم فى عاصمة أثيوبيا (الحبشة) فى ذلك الحين ٠ فجعل الملك ايديسيوس رئيس سقاته وفرومنتينوس أمين صندوقه ٠

وعند موت الملك اعتقهما ولكن أرملة الملك طلبت منهما أن يمكثا فى بلادها ليساعداها على تربية أولادها الصغار فقبلا وساعدا الملكة بمشورتيهما فى أمور الحكومة حتى صارت حكومة الحبشة فى أيديهما على توالى الأيام ٠ وفى أثناء ذلك استخدما كل نفوذ لهما فى نشر الديانة المسيحية وساعدهما على ذلك تجار مسيحيون رحلوا للتجارة فى أقاصى تلك البلاد فنبت البذار الذى زرعاه ونما بسرعة ٠

وبعد سنوات عديدة صار ولى العهد راشدا فلم يبق لهما وجه فى الاقامة بتلك البلاد فرجعا الى وطنهما أما ايديسيوس فسبق الى صور حيث رسم فيها قسا وأخبر روفينوس كاتب القصة بجلية الخبر ولكن فرومنتينوس عرج على مصر ليسرد الخبر على مسامع البابا أثناسيوس الرسولى ٠

وحدث أنه بينما كان هذا البابا جالسا فى مجمع مع زمرة من الأساقفة قيل له أن رجلا غريبا وفد حالا من البلاد الحبشية يرغب فى مقابلتهم ٠ وعندما حظى فرومنتينوس بالمقابلة طلب اليهم أن يعينوا أسقفا ليرأس كنيسة الله الصغيرة فى بلاد الحبشة فصرح البابا أثناسيوس الى مجمع القسوس المجتمعين حوله قائلا كما قال فرعون عن يوسف « هل نجد مثل هذا رجلا فيه روح الله ؟ » ثم قام برسامته وتكريسه أسقفا للحبشة وسافر فرومنتينوس عائدا الى مقر وظيفته فاستقبلوه هناك أفضل استقبال وسرت بذكره الأغانى نورد لك هنا مثالا منها تكاد تكون حرفية :

حيوا سلامتنا بأصوات السرور   وتقدموا بمديحه مترنمين
ذا باب رحمتنا مع البر الغزير   غيث أتى من فيض رب العالمين

وقيل أن كثيرين من البرابرة شفوا من أمراضهم على يده وأن عددا عظيما اهتدى الى الايمان بالمسيح فأقام لهم كنيسة وترجم الكتاب المقدس الى اللغة الحبشية ولم يمض الا القليل حتى قبل معظم الأحباش الديانة المسيحية ٠٠ ولقب الأسقف رسميا فى بلاد الحبش (أبا سلامة) أى (أبو السلام) ولغاية يومنا هذا يقال لأسقف الحبشة (أبا سلامة)

وصـارت الـكنيسة القبطية من ذلك اليوم هى صـاحبة الحق فى ارسـال الأساقفة الأقباط اليها ٠

ويقال أن متى الرسول هو أول من نادى بالانجيل فى الحبشة وتبعـه مار مرقس كاروز الـديار المصرية حتى ان فرومنتينوس وجـد أثرا للديانة المسيحيه فى تلك البـلاد وعلى كل حال فلم تقم المسيحية قائمة ببلاد الحبشة الا فى عهد البابا أثناسيوس ٠

(٨) نشر الرهبنة فى العالم بواسطة بطريرك الاسكندرية :

سبق معنا أن الكاتب لسيرة القديس أنطونيوس هو البابا أثناسيوس الرسولى كتبها فى حياة القديس أنطونيوس نفسه واختلف الرواة فى السبب الذى حمل البـابا على تحرير تلك السيرة فقـال بعضهم انه كتبها تلبيـة لطلب نساك مصر أثنـاء اقامته بينهم وقال آخرون انه دونها فى رومية حين استضافه أسقفها وطلب منه مسيحيو تلك البـلاد الذين كانت قد وصلت الى مسامعهم أنبـاء القـديس أنطونيوس اللذيذة أن يقص عليهم خبره ولما اخذ يقص عليهم ذلك البطريرك أخبـارا عن أبطال الرهبنة ونظامها كانوا يصغون اليه بكل ارتيـاح وبعـد ذلك كتب لهم ترجمة القديس وقوانينـه فصادفت منزعا فى نفوس الغربيين وأخذوا فى تأسيس رهبانيات كثيرة تسير على نظـام رهبنـة مصر وكثر اقبـال الشبان الذين هجروا العالم وآثروا المكوث على قمم الجبـال والقفـار والصحارى والمغـائر والوديان كمـا جرى فى برارى مصر الشرقية والغربية ٠

ويمكننا أن نوفق بين الروايتين بما نذكره وهو أن البابا أثناسيوس كتب تاريخين للانبا أنطونيوس أحدهما بنـاء على طلب رهبان مصر وثانيهما بناء على طلب مسيحيى روميـة وهـذا هو السبب فى وجود بعض اختلاف لايضر بالجوهر بين مؤرخى الشرق ومؤرخى الغرب فى ترجمـة القـديس وذكر ايرونيموس تأييدا لهـذا القول « أنه لمـا هرب هذا البطريرك الى رومية أخذ موجز سيرة القـديس أنطونيوس الذى كان قـد الفه وأن أناسا كثيرين بعد أن قرأوا الخبر هجروا العـالم وترهبوا » أهـ وكان القديس أثناسيوس قـد كتبه باللغة اليونانية وترجمه ايرونيموس الى اللغة اللاتينية ٠

وانتشر ذلك التاريخ الذى كتبه البابا أثناسيوس عن القديس أنطونيوس حتى بلغ مدينة تريف على حدود جرمانيا ٠ وقيل أن اثنين من ندماء الملك

سمعا جماعة تقرأ ذلك التاريخ فتأثر منها جدا وتركا وظيفتيهما وآثرا عيشة النسك وبلغت سيرة أنطونيوس اسماع أغوسطينوس وقد قصها عليه بميلانو صديق زاره فأظهر تأثره الشديد وأتت به هذه القصة الى المسيح ·

وبالجملة فقد سار خبر القديس أنطونيوس الى جميع الأصقاع الغربية حتى فى بريطانيا سموا بعض كنائسهم باسم هذا البطل المصرى بل وجد على أقدم الأنصاب المسيحية فى اسكوتلنده نقش يمثل مار أنطونيوس مع صديقه الأنبا بولا · وكذلك المصورون المسيحيون فى أسبانيا وهولاندا وغيرهما صوروه مجاهدا ضد التجربة ·

(٩) نشر الدين المسيحى بين البدو وتعميدهم بواسطة أفاضل الكنيسة القبطية :

من كبار رهبان هذا الجيل الآب موسى القبطى الذى كان يعيش فى صومعة موجودة فى الصحراء الواقعة بين مصر وفلسطين · وكان مشهورا بالتقوى وله منزلة سامية لما أجراه الله على يديه من الآيات والمعجزات بين قبائل البدو المقيمين بتلك الجهات تحت رعاية ملكة اسمها مافيا كان زوجها متحالفا مع الرومان وبعد وفاته صاروا يغيرون على كل بلاد المشرق ولم يكن فالنص الملك الأريوسى قادرا على صدهم عن حدود بلاده لاهتمامه بمقاومة سكان جنوبى فرنسا · فأرسل فالنص للملكة مافيا يطلب عقد صلح معها فاشترطت عليه أن يعين لبلادها موسى أسقفا مع أنها لم تكن مسيحية بعد · فأرسل موسى بأمر الملك ليرسم أسقفا من بطريرك الاسكندرية ولكنه رأى أن لوسيوس البطريرك الأريوسى مضطهد الأرثوذكسيين هو الذى يقوم مقام البطريرك الأرثوذكسى فرفض مطلقا أن يرسم من بطريرك هرطوقى قائلا « اننى أحسب نفسى غير مستحق لهذه الوظيفة السامية ولكن اذا كانت دواعى الحال عند الحكومة ماسة لتوظيفى فيها فلا مندوحة لى من قبول هذه الوظيفة ولكنى لا أقتبلها من لوسيوس ولا هو يضع يده على ليرسمنى لأنها يد ملوثة بدماء الأبرار القديسين » ·

فاغتاظ منه لوسيوس وحاول أولو الأمر أن يقنعوا موسى بقبول الرسامة ولكنه أبى بتاتا أن ترتفع يد لوسيوس الأثيمة على رأسه فأخذه الحراس الى أحد الأساقفة المنفيين لأجل تمسكهم بالايمان الأرثوذكسى فوضع يده عليه ورسمه ·

ولما تعين موسى أسقفا انتشرت بواسطته الديانة المسيحية انتشارا واسعا بين جماعة البدو • ولما رقى يوستنيان العرش الامبراطورى صارت جميع هذه البلاد مسيحية بالمرة •

فمن هنا يتضح أن الكنيسة القبطية لم تقتصر على قبول الايمان المسيحى لنفسها بل عملت على نشر هذا الايمان فى الأقطار البعيدة التى لم تكن قد آمنت بالمسيح وككنيسة تبشيرية أرسلت من قبلها مرسلين الى جهات عديدة من أنحاء المعمورة لهذه الغاية • وهنا ننقل ما كتبته فى هذا الشأن « لجنة التاريخ القبطى » بكتابها « خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر » ص ٢٣٠ : « وقد كتبت أخيرا فى ذلك الآنسة مرغريت مرى تقول « بينما كان المسيحيون فى افسس وكورنثوس وغيرهما من الأصقاع عبارة عن جماعات صغيرة متفرقة • كان مسيحيو مصر هيئة منتظمة بلغت من القوة حدا أفضى الى جعل النصرانية الدين الرسمى للقطر المصرى قبل القرن الرابع للميلاد ولهذا يحق لمصر أن تفتخر بأنها أول قطر مسيحى فى العالم • والفخر الأكبر انها حتى قبل بلوغها هذا الشأن كانت ترسل المبشرين من أبنائها الى سكان أوربا الوثنيين • وقد مخرت سفن أولئك المبشرين فى البحر الأبيض المتوسط الى أن بلغت سواحل فرنسا الجنوبية • فتخلف بها بعض منهم وواصل الباقون سفرهم على ظهر سفن ساحلية غالبا حتى عبروا مضيق جبل طارق واتجهوا شمالا بمحاذاة سواحل أسبانيا والبرتغال وفرنسا الى أن وصلوا الى التيارات الخطرة التى تكتنف رأس بوشات ثم استقبلوا عرض البحر وشقوا عبابه الى ايرلندا الجنوبية فنزلوا بها وبثوا دعوتهم فيها وأسسوا كنيسة بريطانية أرسلت مبشريها بعد ذلك الى الأقطار الأخرى • وليس ذلك فقط بل ان بعض المرسلين سافروا فى الطريق القديم الذى كانت تسير فيه السفن التجارية وبلغوا بريطانيا ذاتها فنزلوا على ساحلها الغربى الذى لبث الفينيقيون قرونا عديدة يؤمونه للتجارة •

« وقد جلب المبشرون المصريون معهم الى الجزر البريطانية نظام الرهبنة الذى أحدث أثرا بالغا فى أوربا فى القرون الوسطى • وآثار سفراتهم هذه يجدها الباحث مدونة فى بيان كتبه يوخريوس أسقف ليون المتوفى سنة ٤٥٠ م وقال فيه « ان الرهبان المصريين استقروا فى فرنسا » أهـ •

ويجدها أيضا فى تذكار الرهبـــان المصريين السبعة الذين ماتوا فى ايرلندا وخلدوا فى دعاء أوينجس وأخيرا يجدها فى تاريخ تلك الطائفة التى قطنت جلاستنبرى وسارت فى حياتها على نمط الرهبان المصريين » أهـ ٠

(١٠) بعض الذين وفدوا على مصر فى هذا القرن لدرس نظام الرهبنة :

منهم روفينوس (١) وسيدة تدعى ميلانو (٢) وروى الأول عن حـــالة الرهبنة فى مصر حينئذ أخبارا كثيرة منها أن أسقف مدينة أوكيرسخيوس اخبره أن فى تلك المدينة عشرة آلاف راهب وأن معظم الهياكل الوثنية تحولت الى أديرة وان اثنتى عشرة كنيسة أخرى بنيت فى تلك المدينة لهذا الغرض ٠ وشاهد فى الفيوم وفى سوهاج أديرة كثيرة تجمع ألوفا من الرهبان ووقف بالقرب من هرموبوليس (الأشمونين) على دير به خمسمائة راهب بينهم ابولوينوس وقد ترهب وهو فى الخامسة عشرة من عمره وهو من أصل طيب وتحصل على كثير من العلوم وكان مقاوما لجورجيوس البطريرك الدخيل وأقامه البابا أثناسيوس أسقفا وصار رئيسا على الدير المذكور ٠

وعثر روفينوس فى خلوة خلف مدينة أنطونيوس (دير البرشا) على راهب يدعى الياس قطن مغارة واسعة مدة سبعة وسبعين سنة قضـــاها وحيدا ٠ وكان عمره حينئذ ١١٠ سنين والفاه مصابا بالفالج الذى اهزله وأضعفه ولم ير الياس خارج مغارته ولم يسكن مكانا غيرها كما أنه شفى مرضى كثيرين وكان طعامه ثلاث أوقيات من الخبز يوميا وثلاث زيتونات كل مســـــاء ٠

ووجد مغارة أخرى كان يسكنها ثيون وهو راهب اشتهر بعلمه وتضلعه فى اللغات اليونانية والمصرية واللاتينية وممن أتوا مصر أيضا أيرونيموس(٣)

---

(١) من ايطاليا اتى مصر لدرس قوانين رهبنتها ليستعين بها على تحسين حالة الرهبان الغربيين ٠ وكان مغرما بكتابات اوريجانوس وتشاحن بسببها مع صديقه ايرونيموس وبعـد رجوعه الى بلاده ترجم كتاب اوريجانوس الموسـوم بالمبـادىء وصـدره بما كتبـه بامفيلوس محاماة عن أوريجانوس وبتقريظ ايرونيموس نفسه المصـدرة به ترجمته لشرح أوريجـانوس على سفر نشيد الأنشاد وقـد ذيل الـكتاب المذكور برسالة منه وضع فيها ما ادخله اصحاب اوريجانوس وخصومه فى كتاباته من الزخارف والدسائس المضعفة ٠

(٢) سيدة رومانية من أصل طيب صحبت روفينوس الى مصر ومكثت تتعبد باحد اديرتها حتى قبض عليها الأريوسيون ونفوها ٠

(٣) ولد سنة ٣٣١م فى مدينة ستريدون وسافر الى بلاد كثيرة وتقلب فى وظـائف كهنوتية ثم اتى مصر واغرم بمؤلفات أوريجانوس ثم عدل عنها وصـار يقاوم كل من احبها وبسببها تخاصم مع صديقه روفينوس كما علمت مع أنه استعان فى مؤلفاته العديدة بكتب أوريجانوس ٠

وكاسيانوس (١) وقد أظهر هذا دهشته مما شاهده من قساوة الرهبان على أنفسهم حتى أنهم كانوا يضطرون الى حمل مايلزمهم على منكبيهم ويسيرون بهذه الأحمال الثقيلة مسافة قد تزيد عن ثلاثة أو أربعة أميال · وروى عن رؤساء الرهبان حينئذ أنهم لم يكونوا يكلفون تلامذتهم بأية خدمة وحكى أحدهم بأن رئيسه كرونيوس فى شيخوخته كان يملأ الجرة ويطوف بها على الرهبان ليسقيهم · ورئيس آخر يدعى ثيوذوروس كان يعد المائدة لتلاميذه ولما سئل فى ذلك أجاب « لست سيدا حتى أسمح للناس بأن تخدمنى » ومن أشهر من وفدوا الى مصر أيضا القديس أرسانيوس (٢) من مدينة رومية ·

وممن كتبوا عن الرهبنة حينئذ « بلاديوس » طاف أديرة كثيرة ووضع لها تاريخا قيما· نشأ فى مصر الوسطى وسنة ٣٩٩م أصيب بمرض فسافر الى فلسطين للاستشفاء فأقيم أسقفا فى هلينو بوليس بمقاطعة بيت عنيا وكان من المتشيعين للعلامة أوريجانوس ومن أصدقاء القديس يوحنا فم الذهب ولما نفى هذا القديس قبض على بلاديوس وأودع السجن مع أساقفة كثيرين من أنصار أوريجانوس وفم الذهب· وفى سنة ٤٠٥م نفى بلاديوس الى أسوان· وبعد وفاة البابا ثاوفيلس صرح له بالاقامة فى اقليم مصر الوسطى فصرف فيه أربع سنوات ووضع فيها تاريخه وأتمه سنة ٤٤٠ م ·

---

(١) مكث فى مصر بين سنتى ٣٩٠ و ٤٠٣ م ونقل جملة قوانين للرهبنة المصرية الى اللغة اللاتينية لتكون نبراسا لرهبان الغرب ·

(٢) أصله من عائلة شريفة اختير مؤدبا لأولاد ثيودسيوس قيصر الكبير ولكنه آثر عيشة النسك وهرب الى مصر الى برية شيهات وقدم نفسه الى رئيس دير يدعى يوحنا والتمس منه أن يقبله فلكى يمتحنه الرئيس أعرض عنه هو ورهبانه وجلسوا للاكل وهو واقف أمامهم ثم طرحوا له لقمة فتناولها بخشوع وأكلها فقبل بين الرهبان وعينت له صومعة فوق جبل المقطم ولما تولى تلميذه أركاديوس بن ثيودوسيوس قيصر الملك أحب أن يرقيه ويهبه عطايا فأرسل يقول له « ان من مات عن العالم لا يهتم بالدراهم » وطلب منه أن يوزع ما وهبه له للفقراء والمساكين · وقيل ان البابا ثاوفيلس البطريرك أتى لزيارته فطلب منه أمرا واحدا وهو أن يعود بدون أن يقابله لأنه عزم على أن لا يرى اناسا قط · وحدث أن احدى شريفات رومية قدمت مصر لزيارته وسارت اليه من الريف الى البرية مشيا على الأقدام فأبى أن يقابلها فشكت منه للبابا ثاوفيلس فطيب خاطرها وقال لها ان قديسا مثله لا ينتظر منه أن يتطلع الى امرأة ·

وكان يستشير فى أموره راهبا بسيطا ولما سئل عن ذلك اجاب « انى مع ازدياد تفقهى بعلوم البشر اقل دراية من هذا الشيخ البسيط ، ولما كان كثير السكوت سئل عن ذلك أيضا فقال « كثيرا ماتكلمت فندمت · وأما عن الصمت فلم أندم » ·

وعاش فى البرية أربعين سنة أجهد فيها نفسه بالنسك الزائد حتى كان يصرف ليله بالصلاة ولا يرقد سوى ساعتين عند الفجر · وكان يعيش من عمل يديه ووقت القداس يقف خلف عمود حتى لا يراه أحد ومن كثرة البكاء زال جمال منظره وسقط شعر جفونه وانحنت قامته من الكبر ثم تنيح بسلام ·

القسم الثالث
المملكة والكنيسة

الفصل الأول
حوادث الاضطهاد

(١) اضطهاد ديوكلتيانوس
(٢) اضطهاد غاليريوس
(٣) اضطهاد مكسيميان ·
(٤) تاريخ الشهداء
(٥) عهد قسطنطين الملك المؤمن
(٦) اضطهاد الأريوسيين بمساعدة قسطنس
(٧) اضطهاد يوليانوس
(٨) اضطهاد فالنص الملك الأريوسى
(٩) ثيودسيوس الملك الأرثوذكسى

---

(١) اضطهاد ديوكلتيانوس :

تعاقب جملة ملوك على كرسى المملكة الرومانية بعد فاليريان لم يقم أحد منهم باضطهاد على مصر حتى آل العرش أخيرا الى ديوكلتيانوس سنة ٢٨٤ م وكان العامل على مصر يومئذ رجل اسمه أخيلوس انتهز فرصة الارتباكات التى سادت على المملكة الرومانية واستقل بمصر ونادى بنفسه ملكا عليها وجعل مقره طيبة وأقام فيها أربعة أعوام لم يتمكن غاليريوس الوالى الرومانى فى خلالها من اخضاعه · فاضطر ديوكلتيانوس أن يحضر بنفسه الى مصر ليقتص من أخيلوس على هذه المخالفة والجرأة ويخلص البلاد من يده ولدى وصوله حاصر الاسكندرية وضيق عليها تضييقا شديدا وبعد ثمانية أشهر فتحها عنوة واستولى عليها فأحرق المدينة وفتك بأهلها فتكا ذريعا ·

وكان قد ظن أن المسيحيين هم الذين أثاروا هذه الفتنة وناصروا أخيلوس فاستعمل معهم الظلم والعسف وتجاوز الحدود فى ذلك وارتكب ما لايخطر على بال أحد من المآثم والمظالم واقتفى أثر أخيلوس العاصى الذى هرب الى داخل البلاد فكان القيصر أينما حل يوقع بهم ويقتلهم ويهدم كنائسهم ويخرب معابدهم ويعذب رؤساءهم ويسبى نساءهم وأولادهم · وسبى كثيرين من مدينة الاسكندرية وأباح لجنوده باقى أهلها ليفعلوا بهم مايشاؤون فعاثوا

فى الأرض وأهلكوا الحرث والنسل وقتلوا وفتكوا ونهبوا وسبوا وأراقوا الدماء أنهارا واشتدوا شدة لم يسبق لها مثيل ٠

واستمر ديوكلتيانوس يعذب المسيحيين بأفظع أنواع العذاب رغبة فى تمزيق شملهم وحملهم على السجود للأصنام ٠ وروى بعض الآباء أن ديوكلتيانوس ركب ظهر فرسه وأمر جنده أن لا يتركوا القتل حتى تسيل الدماء على الأرض وتعلوا حتى تصل الى ركبة فرسه ٠ فكان من الألطاف الالهية أن سقطت به الفرس على الأرض فتلوثت ركبتاها بالدم فتم قوله وأبطلوا القتل ٠ غير أن كثيرين من المسيحيين كانوا محبوسين وقد حكم عليهم بالموت أو بالنفى ولما شعروا بأن ديوكلتيانوس ينوى بهم شرا تركوا مصر وفروا الى بلاد أخرى ٠

وقد استمر الاضطهاد جاريا على المسيحيين فى مصر ثلاث سنوات ففى نهايتها أصيب ديوكلتيانوس بالجنون بعد أن ذاق المسيحيون ما لا يوصف من العذاب وروى أوسابيوس المؤرخ الذى أتى الى مصر بعد هدوء الاضطهاد بقليل ورن بأذنيه صدى أنين المنكوبين قال :

« انه يعسر على الكاتب الماهر أن يصف مقدار ما تجرعه الشهداء فى صعيد مصر من أعذبة قاسية وآلام تشيب من ذكرها النواصى فقد كانوا يأتون بهؤلاء الشهداء ويخدشون أجسامهم وينزعون عنها الجلد الى أن ينكشف اللحم وهكذا يفعلون بباقى أجزاء الجسم الى أن يموتوا ٠ أما النساء فكانت تربط احداهن فى احدى رجليها وترفع فى الهواء بواسطة آلة مخصصة لذلك بعد أن يخلعوا عنها ملابسها ويكشفوا كل جسمها وتظهر أمام جمهور المتفرجين بمظهر تنفر منه الانسانية وتأباه النفوس الأبية ٠

« وكثيرون ماتوا بواسطة الأشجار بالطريقة الآتية وهى أنهم كانوا يقربون غصنين قويين من شجرتين متقاربتين بآلة وضعت لهذا الغرض ثم يجيئون بالشهيد ويربطونه بهذين الغصنين ومن ثم يتركانهما ليعودا الى أصلهما فهذا يعتدل لجهة اليمين مثلا والآخر للشمال والشهيد بينهما تتمزق أضلاعه وتسحق عظامه سحقا ويتطاير جسمه فى الفضاء ٠

« ولم تكف لهذه الفظائع أيام وشهور بل كانت تستمر سنينا طوالا وهى فى أفظع حالاتها وكثيرا ما كان يصدر حكم بقتل عشرة أشخاص فى لحظة واحدة وأحيانا يقتلون عشرين رجلا مرة واحدة وأحيانا ثلاثين وستين ٠ ومرة حكم على مائة رجل بالموت فماتوا فى يوم واحد مع زوجاتهم وأولادهم الصغار وذلك بعد أن ذاقوا من العذاب الوانا » ٠

وقد روى أوسابيوس أيضا قائلا « وقد شاهدت بعينى بينما كنت واقفا بقرب النطع جما غفيرا من المسيحيين جمعوا لينالوا الشهادة ولكن بطرق مختلفة فكان بعضهم تجز رؤوسهم وبعضهم يحرقون فى أتون النار المتقدة حتى أن السيف الذى كانت تقطع به الرؤوس ثلم وفل حده وتحطم تحطيما لكثرة ما سحق من الرقاب ٠ وكذلك السيافون تعبوا وخارت قواهم من ذبح الآدميين فكانوا يستريحون هنيهة ريثما يتنفسون الصعداء ٠

« فمما تقدم يتضح ولا شك أننا شهرد عدول على ما شاهدناه بأعيننا من الغيرة الخارقة والقوة الالهية الصحيحة والفرح فى الروح القدس الذى ملأ قلوب هؤلاء الذين يؤمنون بالمسيح ابن الله ايمانا متينا جعلهم يتقبلون الموت بصدور منشرحة وثغور باسمة ٠ حتى أنه عندما كان يصدر الحكم على واحد منهم بالاعدام كان الآخرون يندفعون من كل صوب مزدحمين فى المحكمة أمام القاضى معترفين له بأنهم مسيحيون غير مبالين بما يلحق بهم من أعذبة مريعة واضطهادات شنيعة بل كانوا يجاهرون بكل جرأة وشجاعة بديانتهم الحقيقية التى تعلم بوجود اله واحد عظيم خالق السماء والأرض والبحر وكل ما فيها ٠

« ومن العجيب الغريب أنه عندما كان يصدر الحكم النهائى بموتهم كانوا يقابلون هذا الحكم بفرح وتهليل حتى أنهم كانوا يرنمون ويرتلون أغانى الحمد والشكر لله الذى أهلهم لأن يموتوا لأجله ٠ وكانوا يظلون يفرحون ويطربون الى آخر نسمة من حياتهم عندما تفارق أجسادهم أرواحهم ٠

« نعم أن هذا غريب ولكن الأعجب من هذا كله أن الأفراد الذين اشتهروا بغناهم وثرواتهم والذين عرفوا بطيب محتدهم وشرف نسبهم وذاع صيتهم فى الآفاق خصوصا لأنهم برعوا فى الفلسفة والعلم ونبغوا فى المعرفة والعرفان هؤلاء كانوا يحسبون كل هذه الأمجاد والمزايا من سقط المتاع ويزدرون بها ازدراء فى جانب أهمية الدين الحقيقى والايمان الصحيح بربنا ومخلصنا يسوع المسيح » اهـ ٠

(٢) اضطهاد غاليريوس ٠ سنة ٣٠٤ م :

كان غاليريوس صهر ديوكلتيانوس يؤمل من وراء الاضطهادات القاسية التى اضطهد بها المسيحيين أن يفنى جموعهم ويقلل عددهم ولكنه رأى أن ذلك الدين كان ينتشر انتشارا عظيما جدا كل ما اشتدت عليه

الوطأة من الحكومة فأصدر غاليريوس أمرا جديدا فى خريف سنة ٣٠٨م يقضى باعادة الاضطهاد على المسيحيين • وقد اشتد غيظه عندما رآهم لا يخشون الاضطهاد بل كانوا يقابلونه بثبات الايمان وقوة العزيمة • فكلف المضطهدون بتشديد الاضطهاد عليهم وكان العامل على اشعال هذه النار من جديد مكسيميان دازا الذى أفرغ كل ما فى وسعه لألصاق كل بلية بمسيحيى مصر فكان يفتك بأغنيائهم ويسخر فقرائهم فى مناجم المعادن فى مصر واستغنى بهم عن المجرمين الذين كانوا يشتغلون فيها وكانوا يحكمون عليهم بالأشغال المؤبدة حتى لا يحلموا يوما بأنهم سيعتقون من ذلك العمل وكان منهم كثيرون من الأساقفة والرؤساء الذين افتدوا أنفسهم على توالى الزمن بشروط معلومة •

وفى سنة ٣١١م ابتلى الله غاليريوس بمرض عضال عز شفاؤه فظن أن ذلك بسبب هياجه على المسيحيين فأمر بابطال الاضطهاد وقيل أنه اعتنق الديانة المسيحية ولكن المسيح لم يقبل توبته الكاذبة فقضى على حياته •

(٣) اضطهاد مكسيميان :

مع أن غاليريوس أبطل الاضطهاد الا أن مكسيميان دازا الذى تنازل له ديوكلتيانوس عن العرش سنة ٣٠٥م لم يكف عن اظهار غيظه وتوجيه شره للمسيحيين ففاق جميع أعداءهم فى القساوة البربرية عليهم وأمطرهم وابلا من العذاب راح فيه الوف من الشهداء الأبرار قال أحد المؤرخين « حتى كانت القتلى منهم تحمل على عجل وترمى فى البحر » •

واستشهد حينئذ البابا بطرس البطريرك الثامن عشر الملقب « بآخر الشهداء » وذلك لأنه صلى قبل قطع رأسه بأن يكون دمه آخر دم يسفك من دماء المسيحيين وقد حقق الله سؤاله • فان مكسيميان اضطر أن يبطل الاضطهاد لاشتغاله بالقتال مع قسطنطين غير أنه هزم أخيرا ولعظم قنوطه تناول سما فأخمدت أنفاسه •

(٤) تاريخ الشهداء :

دام الاضطهاد على المسيحيين منذ أيام ديوكلتيانوس عشر سنوات متتابعة استشهد فيها الألوف العديدة من المسيحيين وقيل أن الذين قطعت أعناقهم فى اضطهاد ديوكلتيانوس فقط سنة ٣٠٣م لأجل اقرارهم بالمسيح

كان نحو ١٤٠٠٠٠ من النفوس ما عدا ٧٠٠٠٠٠ هلكوا بالحبس والنفى · وبعض المؤرخين يقولون أن عدد الشهداء حينئذ يبلغ ٨٤٠٠٠٠ نسمة ويظهر أنه مجموع شهداء اضطهادات الثلاثة الملوك ديوكلتيانوس وغاليريوس ومكسيميان · ومن ذلك الحين أخذ عدد الأقباط يتناقص من عشرين مليونا الى عشرة ملايين ·

ولما رآه الأقباط من آيات الظلم وقساوة الاضطهادات التى كان يتفنن فيها المضطهدون اعتبروا أول ملك ديوكلتيانوس أقسى ملك اضطهدهم تاريخا لهم تؤرخ به الوقائع ويسمونه « تاريخ الشهداء » لكثرة ما سفك فيه من دماء المسيحيين ويبتدىء هذا التاريخ المعول عليه الآن بالكنيسة القبطية من يوم ٢٩ أغسطس سنة ٢٨٤ م ليكون تذكارا لأولادهم يعرفون منه أنهم لم يشتروا حريتهم الدينية الا بدم زكى ثمين · الا أن تاريخ الميلاد القبطى ينقص عن التاريخ المعلوم الغربى ثمان سنين فسنة ١٩٢٣ الحالية هى سنة ١٩١٥ قبطية ·

(٥) عهد قسطنطين الملك المؤمن :

جلس على العرش سنة ٣٠٦ م كان مشهورا بالرأفة وكمال الشفقة وغاية الشجاعة والبسالة · وكان محبا للديانة المسيحية محاميا عنها· واستنجد به يوما الايطاليون ليخلصهم من جور مقنقوس ملكهم فسار اليه بعدد قليل من الجنود ولكنه لما رأى كثرة عدد جنود خصمه تردد فى الأمر وبينما هو متحير رأى هو وكثير من عساكره شكل صليب على دائرة كوكب الشمس مكتوبا عليه بالرومانية « بهذا تغلب » ثم رأى فى المنام أيضا حبرا من أحبار المسيحيين يأمره بأن يتخذ صورة الصليب شعار ملكه على سلاح جنوده وأعلامه فتقوت عزيمته



« قسطنطين الملك المؤمن »

وأمر فجعلوا شعائر الصليب على جميع الأسلحة والرايات فى المملكة الرومانية ٠ وقد كان قبل هذا شعار القياصرة عبارة عن صورة صنمية فاتخذ قسطنطين لنفسه بيرقا مطرزا بالقصب ومكللا بالجواهر على شكل صليبى ورقم عليه اسم المسيح بالحروف الرومانية وصور المسيح متوجا بتاج الذهب وأمر جميع جنوده أن يرسم كل منهم صورة المسيح على كنانته وسلاحه ففعلوا جميعا ٠ وتقدم لمحاربة خصمه ففاز به وانتصر عليه ومن ثم اعتنق المسيحية ونال سر العماد ٠

(٦) اضطهاد الأريوسيين بمساعدة قسطنس :

ملك على الشرق قسطنس ابن قسطنطين سنة ٣٣٧م فأعز الأريوسيين وناصرهم على الأرثوذكسيين فاضطهدوهم اضطهادات مرة توازى اضطهادات الوثنيين ٠ وعزل قسطنس البابا أثناسيوس وعين مكانه رجلا شريرا يدعى غريغوريوس وقواه بجنوده فهجم بهم مرة على المؤمنين بينما كانوا يباشرون العبادة فى يوم جمعة الصلبوت وانضم اليهم رعاع اليهود والوثنيين وأخذوا يبطشون بالمصلين فهتكوا حرمة العذارى الطاهرات وقبض غريغوريوس الدخيل على أربعين عذراء وعراهن وضربهن بالسياط وقتل عددا وافرا من الشعب آملا أن يكون أثناسيوس بين المقتولين فدنسوا الأماكن المقدسة وأحرقوا الكتب الالهية ثم نهبوا خزائن الكنيسة وامتعتها وقتلوا كثيرين من الرهبان بينما كانوا يدافعون عن كرامة بيت الله ٠

وقد استمر غريغوريوس يرتكب فظائعه حتى أنه اضطهد عمة البابا أثناسيوس الى أن ماتت وبعد موتها منع أن تدفن فى مقبرة المسيحيين ٠ ثم التهم الأموال التى كانت تجمع للأرامل والأيتام ٠ واضطهد الراهب بوتامون أحد أعضاء المجمع النيقاوى وهو رجل لا تزال آثار اضطهادات ديوكلتيانوس له بادية فى وجهه وجسمه فأمر غريغوريوس بجلده حتى مات من تأثير الضرب بعد أيام قليلة ولما بلغت أخبار هذه المساوىء مسامع القديس أنطونيوس أبى الرهبان كتب رسالة لأغريغوريوس يلومه فيها على هذه التصرفات المنافية لروح المسيحية فازدرى بالرسالة ومزقها ٠

وبعد موت غريغوريوس عين قسطنس مكانه جورجيوس ضريبه فى الشر فجدد اضطهاد الأرثوذكسيين وبدأ فظائعه بأن طرد ثلاثين أسقفا من الاسكندرية ونفاهم حتى اختفت آثارهم بالمرة بعد أن عوملوا معاملة قاسية

شديدة حتى أن بعضهم مات فى الطريق قبل أن يصل منفاه وغيره مات بعد وصوله بقليل ٠

وذكر القديس أثناسيوس فى احدى رسائله بعض شرور هذا الوغد بقوله « ولم ينته أسبوع عيد الفصح حتى كنت ترى العذارى الفتيات يطرحن فى السجون اضطهادا وتعذيبا وكان العساكر يربطون الأساقفة بسلاسل وأغلال ويجرونهم فى الشوارع ٠ وكان أعوان جورجيوس يدخلون مساكن الأيتام والأرامل عنوة واقتدارا ويسلبون ما فيها ٠ وكانوا يدفنون المسيحيين أحياء تحت جنح الظلام ثم يضعون علامات على منازلهم ليعرفوها حتى اذا أصبح الصباح نهبوا ما فيها بدون مقاوم ٠ ولم يقتصر هذا الشر على الاكليروس فقط بل ان أقاربهم كانوا فى خطر لا لذنب بل لأنهم أقرباؤهم ولم يقف الأشرار المضطهدون عند هذه الفظائع بل تجاوزوها كثيرا وتمادوا فى غيهم وعتوهم لدرجة أوجبت نفور الشعب واشمئزازه من هذه الحالة حتى أن أعضاء الكنيسة لم يطيقوا تأدية الصلاة فيها بعد عيد الفصح بل كانوا يذهبون الى المقابر ويصلون فيها لأنهم كرهوا الصلاة مع جورجيوس فلما علم هذا الظالم الغاشم بكره الشعب له حرض ضدهم ضابطا من الشيعة المانوية اسمه سباسيان فسار نحوهم فى نفر من الجند مسلح بسيوف قاطعة وسهام لامعة وحراب نافذة وهجم على هذا الشعب الضعيف فى يوم الرب المبارك الذى قدسه لعبادته لا لقتل الأنفس البريئة ٠ فلما وصل الى المقبرة لم يجد الا رجالا يعدون على الأصابع لأن أكثر الناس قد عادوا الى منازلهم عندما مال النهار فلم يرحم هؤلاء البائسين الأبرياء بل أعمل فيهم الصارم البتار وبرهن بعمله هذا على قسوة وعتو وجدا فى مثل هذا المتوحش اللئيم وبعد أن أودى بالرجال حول نظره نحو أولئك العذارى الطاهرات فأضرم نارا تأجج سعيرها وادناهن منها وهددهن بالاعتراف بمذهب أريوس والانحياز اليه ٠ أما هن فلم يعلن عن اعتقادهن ورفضن طلبه هذا كما أنهن احتقرن النار وحسبنها ماء زلالا فلذلك اشتد حنق هذا الوحش الضارى عليهن فجردهن من ثيابهن وظل يضربهن على الوجوه حتى تغيرت سحنتهن ولم يكن أحد يعرفهن فيما بعد ٠ ولقد القى هذا الضابط القبض على نحو أربعين رجلا وجلدهم بالسياط جلدا تقشعر منه الأبدان وترتعد لهوله الفرائص وذلك بأن مزق ظهورهم بعصى خضراء قطعت من النخل بشوكها حتى أن بعضهم عملت لهم عملية جراحية لاخراج الشوك من لحمه وبعضهم لم يحتمل العذاب والآلام فمات

من شدة الضرب • أما الذين عاشوا بعد هذه المصائب فنفوا الى الواحات الكبرى بما فيهم واحدة من أولئك العذارى ولم يكن هذا العاتى يسلم لأقارب الموتى بأخذ جثث موتاهم ولكن لما تعهد له هؤلاء الأقارب بعدم الاحتفال بموتاهم والامتناع عن تأدية الفرائض الدينية المعتادة لهم اذن لهم أولئك القساة بدفنهم كما وافق أغراضهم حتى يخفوا عن أعين العالم دلائل قسوتهم وغلاظتهم التى لم تخف بل ظلت ظاهرة فى بطون التواريخ الى الآن وعلى خطة الجهل والعمه هذه سار أولئك المجانين سيرا لم يؤثر فى أهل الايمان الصحيح تأثيرا يذكر لأن أصدقاء وأقارب الذين ماتوا فى هذا الاضطهاد كانوا يفرحون ويطربون لأن اخوانهم بقوا محافظين على ايمانهم الى ساعة موتهم ولو أنهم أسفوا لعدم التصريح بدفن جثثهم وهو عمل يدل على منتهى الفظاظة والخشونة فى صدور الفجار الذين تجردوا من الانسانية فأصبحت أعمالهم واضحة عند الله والناس » أهـ •

(٧) يوليانوس الجاحد أو المرتد :

هو ابن عم أخى قسطنطين الكبير ملك سنة ٣٦٢ م وقد رفض الديانة المسيحية وتمسك بالوثنية فتقوى فى أيامه وثنيو الاسكندرية وانتعشت مدرستهم الفلسفية • وكان يوليانوس يحترم العجل أبيس معبود المصريين احتراما عظيما للغاية حتى أنه لما كان على أهبة الركوب لقتال سابور ملك الفرس وبعث اليه أوقديقس نائبه على مصر يخبره بأن المصريين عثروا على شكل العجل أبيس معبودهم الذى مات وأنه تبين لهم أنه معبودهم بعينه فرح بذلك واستبشر بالنصر على سابور اذ كان يحب العجل المذكور حبا كثيرا •

(٨) اضطهاد فالنص الأريوسى :

جاء بعد يوليانوس يوبيانوس سنة ٣٦٣ م وكان مسيحيا أرثوذكسيا فأحسن للبابا أثناسيوس وللأرثوذكسيين وتمتعت الكنيسة فى أيامه بسلام ورد الى الايمان رجال الجيش الذين كانوا قد زاغوا عن الايمان فى أيام يوليانوس واقفرت هياكل الوثنيين • الا أن مدة هذا الملك المؤمن لم تطل أكثر من نصف سنة وخلفه فالنص الأريوسى سنة ٣٦٤ م الذى فاق جميع من تقدموه فى اظهار القساوة نحو الأرثوذكسيين فنفى أساقفتهم وضيق على المؤمنين كثيرا • وفى عهده حدث اضطراب فى مدينة

الاسكندرية وتعدى الوثنيون على كنيسة سيزاريوم وحرقوها فى يولية سنة ٣٦٦ م ٠

وأقام فالنص بطريركا دخيلا على الكرسى المرقسى ولكى يثبت والى مصر الأريوسى مركز هذا الدخيل قصد بفرقة من الجند كنيسة القديس ثاؤنا وهجم على هذا المكان المقدس وأوقع الرعب فى قلوب المصلين واندس بين الجنود سفلة اليهود ورعاع الوثنيين اذ وجدوها فرصة مناسبة للانتقام من المسيحيين وأخذوا فى تدنيس المذابح واهانة المصلين بتوحش زائد ففتكوا بالرجال وهتكوا أعراض النساء داخل الهياكل ٠ وقد بلغ الفحش بأحد هؤلاء الوحوش أن تعرى عن ثيابه وسط النساء وأخذ يجدف على اسم الله القدوس بالفاظ البذاءة التى ترتعد لها الفرائص ٠

ومع ذلك أصر الأرثوذكسيون على عدم اعتبار بطريرك فالنص فاستدعى القائد رؤساء كهنتهم اليه وأخذ يحثهم على الخضوع له بالوعد تارة وبالوعيد أخرى ولما لم يجد منهم أدنى قبول أنزلهم فى سفينة مخلعة وتركهم تحت رحمة الماء والهواء فهلك بعضهم ونجا البعض الآخر حيث قذفته الأمواج الى سواحل أفريقية وهليوبوليس (سورية) ٠

ثم عول بلاديوس الوالى على زيارة الأقباط فى منازلهم ليقنعهم بوجوب الخضوع للوسيوس واذ لم يجد منهم الا الرفض والاباء أوقع بهم من الويلات أشدها ٠ ثم استحضر هو والبطريرك الدخيل أحد عشر أسقفا من أساقفة القطر وعرض عليهم الأمر القيصرى القاضى بوجوب انكار لاهوت المسيح وخيرهم بين التوقيع عليه والنفى ففضلوا النفى والموت على خيانة الايمان الأرثوذكسى فنفوا الى قرية بفلسطين كان معظم سكانها من اليهود المتعصبين ضد المسيحية ٠

ثم عمد القائد والبطريرك الدخيل الى زيارة الرهبان ساكنى أديرة وادى النطرون فسارا اليهم بفرقة من الجنود قاصدين ارغامهم على انكار الوهية الابن فقام الرهبان يدافعون عن أنفسهم دفاع الأبطال مفضلين أن يسفكوا آخر نقطة من دمائهم دون أن يثلموا شرف مخلصهم ٠ فضجرا منهم ونفيا رؤسائهم ظنا منهما أنهم هم الذين يقوونهم ولكن أملهما خاب اذ رأيا ايمانهم أمنع من جبهة الأسد ٠

وكان بين الأساقفة الذين حكم عليهم بالنفى ميلاس أسقف رينوكولور العريش الذى تتلمذ للقديس أنطونيوس والذى لم يفارقه الا ليمنح تاج الأسقفية • ومن بديع ما حفظه التاريخ عن هذا الأسقف أنه فى الوقت الذى جاءه نواب الوالى يطلبونه للنفى كان مشتغلا بتنظيف قناديل الكنيسة فقابلهم ويداه ملوثتان بالزيت وثيابه يعلوها التراب فظنوه خادما وسألوه عن الأسقف فذهب بهم الى دار الأسقفية حيث أعد لهم وليمة فاخرة ولما كرروا عليه السؤال قال لهم « أنا هو الأسقف الذى تطلبونه » فأعجبوا باتضاعه وعرضوا عليه الفرار فأبى الا الذهاب مع اخوته الأساقفة الذين كانوا يهزأون بالعذاب المعد لهم •

ومن الذين قبض عليهم فى دير وادى النطرون روفينوس الشاب والسيدة ميلانو وقد ذكرنا انهما أجنبيان وفدا على مصر ليترهبا فيها • وكان لميلانو يد طولى فى ايواء كثيرين من الرهبان وانطلقت بنفسها للقائد ودافعت عنهم وسجن روفينوس مدة ثم نفى خارج القطر المصرى• ونفيت ميلانو الى قيصرية فلسطين هى وكثير من الأساقفة والرهبان • وكان أهالى قيصرية يترحبون بهؤلاء المصريين المنفيين ويقدمون لهم الاحترام اللائق بهم •

ومما يستحق الذكر فى هذا الصدد ان فالنص كان قد نفى أسقف مدينة أورفا (كائنة بين النهرين) بسبب تمسكه بايمان مجمع نيقية واعترافه بقانون البابا أثناسيوس وأقام بدله أسقفا آخر وكلف الوالى مودستوس بأن يجبر الكهنة والشمامسة على الاشتراك مع الأسقف الجديد والا فينفيهم الى أقاصى المملكة فجمعهم مودستوس وحاول اقناعهم لكنه لم يستفد منهم شيئا بل أجابه أحدهم باسم الجميع قائلا « ان لنا راعيا شرعيا ولا نعرف راعيا غيره » فأرسلوا جميعا الى المنفى • فتشجع الشعب بمثلهم وأبوا الاشتراك مع أسقف الزور • فكانوا يخرجون من المدينة وقت تلاوة الفرض ويجتمعون فى البرية للصلاة • فلما علم الملك بذلك اغتاظ على الوالى وأنبه تأنيبا شديدا لعدم اهتمامه فى منع هذه الاجتماعات وأمره بأن يجمع كل من كان عنده من الجنود ويشتت بهم هذا الجمع • أما مودستوس ولئن كان مقاوما للارثوذكسيين الا أنه لم يحب أن يبادر الى طريق القساوة فانذر المؤمنين سرا بأن لا يمضوا اليوم التالى الى مكان الاجتماع للصلاة لأن الملك أمره بأن يعاقب جميع الذين يجتمعون فيه • فكان يؤمل بأن يمنع بهذا التهديد عقد الاجتماع ويهدى بهذه

الطريقة غضب الملك • أما الأرثوذكسيون فقد ازدادوا بذلك سرعة وتلهفا للمضى الى مكان الصلاة فبادروا اليه باكرا جدا وكانوا أكثر عددا من ذى قبل •

فلما أخبر الوالى بذلك استولت عليه الحيرة ولم يدر ما العمل الا أنه أخذ فى السير نحو هذا المكان وصحبته جنود كثيرون أمرهم بأن يقعقعوا ويضجوا ليرعبوا الشعب ويحملوه على الفرار • فلما كان جائزا فى المدينة شاهد امرأة مسكينة تخرج مسرعة من بيتها ولا تبالى بغلق بابه وعلى يديها طفل وهى تهرول فى سيرها وتجر ذيل ردائها على الأرض ولا تهتم أن ترفعه عن الثرى حسب طريقة البلاد ومرت هكذا فى وسط صفوف العساكر السائرة أمام الوالى مجدة فى السير بدون أدنى خوف بتة • فأوقفها مودستوس وقال لها : أين تمضين مسرعة أيتها المرأة ؟ أجابته اننى ماضية الى الحقول حيث جمع المؤمنين • قال لها الوالى : ألا تعلمين بأنه قد صدر أمر الملك بقتل جميع الذين يوجدون هناك ؟ قالت له : نعم أعلم ولهذا أنا أجد فى السير لأبلغ الى ذلك المكان خوفا من أن تفوتنى فرصة احتمال الاستشهاد • قال لها : ولم تأخذين هذا الطفل معك ؟ قالت له : لكى يشترك معى فى هذا المجد •

فتعجب مودستوس من بسالة هذه المرأة وعاد الى البلاط الملوكى وأخبر الملك بما جرى وأقنعه بالعدول عن هذا العمل حيث لا تعود عليه فائدة من اضطهاد المؤمنين لأن الاضطهاد كان يقويهم ويثبتهم على ايمانهم ويزيدهم شجاعة ومحبة •

(٩) ثيودوسيوس الملك الأرثوذكسى :

كانت أحوال الأرثوذكسيين قد ساءت بعد موت فالنص فاجتهد ثيودوسيوس قيصر الذى تولى سنة ٣٩٢ م ذاته فى اعادة مجد المسيحية الى رونقه الأصلى واتحد مع رؤساء الأرثوذكسيين على ابطال عبادة الأوثان ورغب الى مجلس رومية ليصدر مرسوما فى هذا الشأن فأبى عليه ذلك فأبطل ثيودوسيوس المجلس والغاه وخلع أربابه ورسم بهدم جميع معابد الأوثان وهياكلها ونهى عن تقريب القربان لها فى البيوت وعن أن تقام فيها شعائر دينية وأن تكون الديانة المسيحية الديانة الرسمية فى سائر الأقطار الرومانية ونهى عن التفرق فى الدين وسلوك مذهب الاعتدال •



« ثيودوسيوس الملك الأرثوذكسى »

ورسم ثيودوسيوس فى سنة ٣٩٥ م بمحو الديانة المصرية الوثنية وأن لايباح فى بلاد مصر الا التمسك بالدين المسيحى فأغلقت الهياكل والمعابد المصرية ومن ثم عم الدين المسيحى كل القطر واحتفل النصارى بأداء طقوسه علنا · قال بعض المؤرخين « وكان للمصريين يومئذ أربعون الف صنم للعبادة فحل محلها دين المسيح الآمر بالتوحيد ومع ذلك فقد بقى من العاكفين على دين الوثنية كثير بصعيد مصر ولم يمح هذا الدين الا بتوالى الأيام وكرور الأعوام · واشتهر أهل مصر من هذا التاريخ باسم « قبطة مصر » فطائفة الأقباط من أهالى مصر الآن هم المتنصرون من ذرية الأمة المصرية القديمة وهم بقية ذلك الشعب الذى قدر واقتدر وفاز واشتهر » أهـ ·

الفصل الثانى
مشاهير الشهداء

(١) مارمينا العجايبى
(٢) القديسة دميانة
(٣) القديسة كاترينا
(٤) القديسة ثيوذورة والقديس ديديموس
(٥) القديس تيموثاوس وزوجته
(٦) شهيدان أجنبيان

---

(١) مارمينا العجايبى :

ولد سنة ٢٥٠ م بمريوط وكان أبوه من مديرى الأقاليم فى آسيا الصغرى ونقل الى مصر · ولما مات عين مينا فى منصبه · وبعد ذلك وقع اضطهاد ديوكلتيانوس فترك منصبه ولجأ الى البرية غير أن ضميره وبخه على فراره الذى حسبه هروبا من الاعتراف بالايمان فرجع الى المدينة وجاهر بايمانه فحاول الحكام أن يغيروا رأيه شفقة به ولكنه استمر ثابتا فقبض عليه وعذب عذابا شديدا وأخيرا قطعت رأسه فى ١٥ هاتور بعد أن أجرى الله على يديه المعجزات الكثيرة وبعد زمن وجد جسده فأقيمت عليه كنيسة بأمر ملك القسطنطينية بجهة مريوط لاتزال آثارها ظاهرة للآن وتوجد عدة كنائس باسمائه فى أنحاء القطر ·

(٢) القديسة دميانة :

هى الابنة الوحيدة لمرقس والى البرلس والزعفران ووادى السيسبان باقليم الغربية · وكانت جميلة الطلعة حتى أجمع المؤرخون على تسميتها « ربة الجمال والكمال » ولما بلغت سن الخامسة عشرة نذرت أن تعيش بتولا فابتنى لها والدها قصرا خاصا اعتزلت فيه واعتزل معها أربعون عذراء قبطية من بنات أكابر الولاية ·

واتفق أن والدها أرغمه ديوكلتيانوس قيصر على أن يبخر للاصنام فلما سمعت ذلك أسرعت اليه وأنبته على سقوطه الشنيع وحضته على الرجوع للسيد المسيح قائلة « خير لك يا أبى أن تموت شهيدا فتحيا مع المسيح من أن تحيا وتثنيا فتموت مع الشيطان » أهـ فتاب وصرح أمام القيصر بايمانه فأمر باعدامه · ولما علم القيصر ان ابنته هى التى حرضته على عدم الامتثال

لأمره أنفذ اليها قائدا معه مئة جندى لكى يحملها على انكار ايمانها او يقتلها · فانتهرت القـائد عندما بلغها أمر القيصر وأفهمته أنها لا تطيعه فشرع القائد يعذبها واللواتى كن معها وتفنن فى تعذيبهن والتنكيل بهن فاحتملن كل ذلك بصبر وبعد ذلك قطعت رؤوسهن ·

ثم جاء القديس يوليوس الأقفهصى كاتب سير الشهداء وأخذ الأجساد ودفنها بالاكرام · ثم أثبت سيرتهن فى سجل الشهداء وأمر قسطنطين الكبير فبنيت كنيسة فوق قبر القديسة ودشنها البابا الأكسندروس فى ١٢ بشنس ورسم لها أسقفا وقسوسا وشمامسة ·



« القديسة دميانة وحولها العذارى »

وللقديسة دميانة دير عظيم ببلقاس يؤمه المؤمنون فى ١٢ بشنس من كل سنة حاملين اليه الهدايا وبنيت على اسمها كنائس عديدة بالقطر المصرى ٠

(٣) القديسة كاترينة :

ولدت بالاسكندرية فى ختام القرن الثالث من أبوين وثنيين ولما بلغت من السن ثمان عشرة سنة كانت قد تحلت بالجمال الباهر والعلوم الزائدة التى أوضحت لها بطلان الديانة الوثنية ٠ ورأت ذات ليلة فى الرؤيا السيدة العذراء تحمل طفلها يسوع وتطلب منه أن يقبل كاترينة عبدة له وهو يعرض عنها لأنها لم تكن بعد قد اعتمدت فاستيقظت من نومها وسعت لنيل العماد حتى نالته ومن ثم ظهرت لها تلك الرؤيا والطفل يقبل اليها ويظهر رضاءه عليها ٠

وفى سنة ٣٠٧ م قدم الى الاسكندرية القيصر مكسيموس الثانى وأصدر أمرا باعدام كل مسيحى لا يضحى للأوثان وحينئذ اشتعلت نيران الاضطهاد والقديسة كاترينا تواصل جهادها فى سبيل تثبيت المؤمنين ولم تكتف بذلك بل بلغت بها الشجاعة أن ولجت هيكل الأوثان ومكسيموس يضحى لها ووبخته على عظم جهله بتقديمه ذبائح لآلهة كاذبة فاندهش القيصر من جمالها المفرض وشجاعتها النادرة واستدعاها الى بلاطه زاعما أنه ينتصر عليها ويفوز بها ٠ أما هى فطلبت منه أن يحضر اليها علماء الوثنية لتباحثهم فى أمر ديانتهم ٠ فحضر منهم خمسون عالما ونزلت معهم فى ميدان الجدال وأخذت تبرهن لهم على فساد عبادتهم للجمادات التى لا تحس ولا تشعر حتى أفحمتهم وصرح بعضهم بتركه لتلك العبادة من تلك الساعة وبعد أن أوضحت لهم فضل الديانة المسيحية ونقاوة التعاليم الانجيلية قبل الايمان باقى الفلاسفة ٠

ولما انتشر خبر هذه الحادثة خشى الوثنيون انتشار المسيحية بينهم بسببها فحرضوا القيصر على قتل كاترينا والفلاسفة والا زالت عبادتهم فاستحضروا لكى ينكروا ديانتهم فأبوا فقتل الفلاسفة وطرح كاترينا فى السجن لعلها تتبع ديانته وتقبله زوجا لأن جمالها كان قد سبى فؤاده وجعل ينفذ اليها الرسل لاقناعها باطاعته فكانت ترسل معهم كلمات التوبيخ حتى استحالت محبته غيظا وأمر الجنود بأن يعروها أمامه من ملابسها ويعلقوها من يديها ورجليها ففعلوا هكذا وضربوها بمخالب

حديدية حتى تمزقت وملأ دمها البلاط واتصلت جراحها ببعضها حتى صارت جرحا واحدا ثم أعيدت الى السجن ووضعت تحت الحفظ حتى يعود القيصر من رحلته فى مدن مصر ٠

وكانت فوستينا امرأة القيصر قد طرق سمعها أخبار كاترينا فعزمت ليلة على زيارتها فى سجنها ونامت فرأت القديسة تضع أكليلا على رأسها وتقول لها أن المسيح وهبه اياك فاشتد شوقها اليها وسارت اليها بصحبة بيرفيريوس القائد وبعد أن علمتهما طريق الحق نالا العماد بعد أيام قليلة ٠

ولما رجع القيصر من رحلته ورأى كاترينا ثابتة على ايمانها جهز لها دواليب مركبة بسيوف بارزة وتحتها شكل صندوق ووضعها فيه ودارت الدواليب ولكنها تحطمت فجاءت اليه امرأته وقالت له ألا تكفى هذه العجائب لاقناعك بصحة ديانة كاترينا ٠ واذا علم أنها وبرفيريوس صارا مسيحيين قطع رأسيهما حالا ٠ ثم أمر بقطع رأس القديسة فتوسلت الى الله حينئذ أن يجيبها الى أمرين الأول أن يخلص الكنيسة من الاضطهاد والثانى أن لا يدع أحدا يمس جسدها بعد موتها ٠ ثم صلت وبعد ذلك قدمت رأسها للجلاد فقطعها وهى فى السنة التاسعة عشرة من عمرها ٠

(٤) القديسة ثيوذورة والقديس ديديموس :

ولدت القديسة ثيوذورة فى نهاية القرن الثالث من أبوين مسيحيين عظيمين وانصل خبر جمالها الفتان بأولاد الأشراف فطلبوا يدها ولكنها آثرت العفة فنذرت نفسها لله وكانت تقضى أوقاتها بمنزلها تصلى وتقرأ الكتب المقدسة ٠ واشتد اضطهاد ديوكلتيانوس وهى فى سن السابعة عشرة واشتكى عليها بأنها مسيحية فاستحضرت أمام بركولوس الوالى فانذهل والحاضرون معه من فرط جمالها ولما تحقق من شريف نسبها وعظيم أدبها سألها لماذا لا تتزوجين يا ربة الجمال البارع فأجابته لأنى وعدت أن أكون عروسا لواحد فقط هو سيدى يسوع المسيح ٠ فأخبرها بالأمر الصادر ضد عذارى النصارى بأنهن اذا أبين التبخير للأوثان يطرحن فى دور البغاء فيخسرن بتوليتهن ٠ فأجابته انى واثقة أن مخلصى يحفظنى ويحفظ كل الذين يخلصون له العبادة من كل شر ودنس ٠ ولما أطال معها الكلام أجابته جوابا قاطعا بأنها لا تنثنى عن عزمها مهما هددها فقال لها انى آسف على جهلك وعنادك وسامهلك

ثلاثة أيام لعلك تثوبين الى رشدك فقاطعتـه قائلة « هب أن الثلاثة الأيام قد انقضت فافعل بى ما تشاء » فأمر الوالى أن تحفظ فى مكان أمين •

ففى هـذه الثـلاثة الأيام شـاع خبر شجاعتها فى كل مكان فمدحت حتى من الوثنيين أما هى فـكانت تستعد للموت واذ رآها الوالى بعد الثلاثة الأيام ثابتـة على عزمها أمر أن توضع فى بيوت البغـاء لتفتض ولـكنها لم تجزع لأنهـا كانت تنتظر خلاص الرب الذى دبر لها طريقـة حسنة لنجاتها• وذلك أن شابا مسيحيا يدعى ديديموس فـكر فى خلاصها فلبس أثواب جندى وتقلد سيفا ومشى مسرعا ينظر نظرة الوقح وطلب الدخول عليهـا فسمح له الحراس تلقـاء مبلغ من الدراهم أعطـاه لهم فـدخل عليهـا ولمـا رأته استولى عليها رعب مقـدس فقـال لها لا تجزعى لأنى أرسلت من قبـل الله لأنقـذ طهارتـك فافعلى ما أقـول لك البسى أثوابى هـذه وأنا ألبس ثوبـك وانصرفى متنكرة وأنا أقوم هنـا عوضا عنك فقبلت البتول مشورته وخرجت دون أن يعرفهـا أحد لأنهـا غطت وجهها بالرداء كمن يستحى أن يراه أحد عند خروجه من مكان ردىء •

وبعد ذلك انـكشفت حيلة ديديموس فقدم الى الحاكم بثوب القـديسة فسأله المغتصب قائلا من أرسلك لتخالف أمر القيصر فأجابه « ان الاله الذى أعبده هو الذى أرسلنى لأصنع ما صنعت » فقال له الحاكم « ان لم تخبرنا أين تـكون ثيوذورة فموتا تموت » فأجابه ديديموس « لست أعلم عنها شيئا الا أنهـا خرجت من ماخور البغـاء نقيـة طـاهرة » فسأله الحـاكم عن اسمه ومذهبـه فأجابه « اسمى ديديموس ومذهبى مذهب النصارى وكنت مقيـدا بسلاسل الآثام فحلنى السـيد المسيح وأطلقنى بنعمتـه » فأمـره المغتصب أن يسجد للأصـنام فأبى ولمـا رآه ثابتـا فى ايمانه أمر بقطع رأسه وطرح جسده فى النار •

فسمع خبر الحكم فى كل مكان وبينما كان الجنـد يسوقونه لمـكان الاعـدام رؤيت ثيوذورة تجرى خلفـه بسرعة حتى وصلت اليـه وقالت له بلهجـة التوبيخ « لمـاذا هكذا يا أخى تختلس اكليلى » ؟ فقـال لها « أذكرى يا أختى احسانى اليكى ولا تكافئينى عليه بعـدم المعروف لأنى لم أكن أروم بما فعلتـه الا أن أنال حكم الموت لأجل مخلصى فحكم به على لا عليـك » فأجابتـه « كلا يا أخى لم يحكم عليـك بالموت الا لأجلى واذ كنت قـد رضيت لك بأن تنقـذ بكوريتى ولـكن لا أرضى أن تأخذ اكليل الاستشهاد منى فدعنى

على الأقل أسبقك الى أخذه » واستمرا يتجـادلان فى من منهما يتقدم الآخر الى الموت وقـد أخـذت المشـاهدين الدهشـة وكثيرون منهم سكبوا دموعهم لهـذا المنظر المؤثر وتعجب الوالى نفسـه ممـا حصـل الا انه لم يجسر أن يطلقهما خوفا من القيصر فأمر بقطع رأسيهما وهكـذا نالا اكليلى الشهادة فى سنة ٣٠٤ م ٠

(٥) القديس تيموثاوس وزوجتـه :

كانا من قرية فى الصعيد يقال لها برابى وكان تيموثاوس شماسا فى الكنيسة وتزوج من امرأة مسيحية تدعى مورا ولكنها كانت أقل منه ايمانا ٠ وبعد زواجـه بعشرين يوما حضر أرسانيوس والى انصنا (١) وحاكم بلاد الصعيد الى قريته واستدعى اليه تيموثاوس وأراه آلات العـذاب المريعـة وهـدده بها ان لم يدفع اليه ما عنده من الـكتب المقدسة ٠ ويجحد ايمانه المسيحى ٠ فقال له القديس « لو كان لى أولاد لاسرعت بتقديمهم اليك ولا أقدم اليك الكتب المقدسة كما أنى أفضل الموت الف مرة من أن أترك ديانتى المسيحية » ولما قال هذا تقدم الجنود لتعذيبه فأدخلوا فى أذنيه سيخا محمى فعمى فقالوا له ها قد عميت لرفضك السجود لآلهة الملكة فأجابهم « نعم لقد فقدت هذه العيون التى من دأبها النظر الى الأباطيل أما نفسى فيضيئها عينا المسيح » فعلقوه برجليه على خشب وعلقوا حجرا ثقيلا بعنقه وتركوه هكذا وهو يطلب مساعدة نعمة الله ٠

وعلم الحـاكم أن له امرأة تزوجهـا من مدة قريبـة فاستدعاها اليه وحسن لها أن تردع زوجهـا عن عزمه ليفوز بحيـاته ويظهر انه كان قـد بقى له بصيص من النظر فانطلقت اليـه بعـد أن لبست أفخر ثيابها وتطييت وجعلت تخاطبـه ليرجع عن الايمان وينجو بحيـاته حتى لا يرملهـا وهى صـغيرة فالتفت اليها القـديس ووبخها بصرامة وقال لها « كنت أظنـك تشجعيننى على احتمال العـذاب لأحظى بسعادة الله ٠ لا أن تحثينى على ما يفقدنى تلك السعادة ويطرحنى فى أتون النار الأبدية فـكونى أمينة للمسيح مثلى حتى تشتركى معى فى مجده » ٠

---

(١) انصنا كانت مركز الولاية وخربت منذ زمان بعيد وعلى اطلالها الآن بلدة الشيخ عبادة بمركز ملوى ٠ وأريانوس حاكمها هذا الذى اشتهر بقساوته الشديدة على المسيحيين لم يلبث فى غباوته بل آمن بالمسيح وذلك أنه اذ كان يعذب شهيدا انجرح بسهم كان أمر الجلادين أن يرموا به الشهيد فارتد اليه وانغرس فى عينـه وبعـد موت الشهيد نال الشفاء بازاء قبره بوضع شىء من تراب القبر على عينـه واعترف بيسوع المسيح ومات شهيدا ٠

فتأسفت مورا على خطيئتها وباشارة زوجها انطلقت الى الحاكم واعترفت أمامه بالمسيح فأمر بقص شعرها وقطع أصابعها ثم طرحت فى اناء مملوء من الزيت المغلى فلم يؤثر عليها وهى ثابتة صابرة شاكرة الرب الذى خلصها من الضلال وبعد ذلك صدر الأمر بصلبها مع زوجها وجعل صليبها تجاه صليبه لكى ينظرا بعضهما بعضا فيشتد حزنهما وعذابهما ٠ وفيما كانت ماضية لمحل الصلب قابلتها أمها وطوقتها بذراعيها وهى تبكى بكاء مرا أما هى فلم تظهر حزنا بل فرت من بين يدى والدتها حيث وصلت الى المكان وهناك نالت مع زوجها اكليل الشهادة ٠

وغير هؤلاء الشهداء من لا يحصى عددهم حفظ أسماء بعضهم كتاب السنكسار ٠

(٦) شهيدان أجنبيان :

ومن الشهداء الأجانب الذين تعترف بهم كنيستنا شهيدان مشهوران عندنا هما :

(١) القديس مركوريوس الشهير بأبى سيفين :

ولد بروميّة من أبوين مسيحيين فى عهد ديسيوس قيصر وانتظم فى سلك الجندية تلقب بمركوريوس أى رئيس الجند وبأبى سيفين اشارة الى سيف الروح الذى كان له خلاف سيف المملكة ٠ وبعد أن جاهد فى سبيل رفع شأن الديانة المسيحية استشهد فى قيصرية فلسطين فى ٢٥ هاتور سنة ٢٥٠ م وفى أيام البابا يوحنا الرابع والستين نقلت رفاته الطاهرة الى مصر القديمة فى ٩ بؤونة ٠

(٢) القديس جاورجيوس الشهير بمار جرجس :

ولد سنة ٢٨٠ م بالكبادوك (بآسيا الصغرى) ٠ وقد انتظم فى الخدمة فى عهد ديوكلتيانوس وارتقى الى رتبة قائد ولما استعرت نار الاضطهاد الذى أثاره هذا القيصر باع كل ما يملكه ووزعه على المساكين استعدادا لحمل الآلام لأجل مخلصه ٠ وبينما كان يوما سائرا فى مدينة نيكوميدية وجد منشور القيصر القاضى باضطهاد المسيحيين فمزقه وتوجه بنفسه الى الملك وأنشأ يدافع عن المسيحيين فأمر الملك بتعذيبه فذاق منه أنواع العذاب أشكالا وألوانا وكان عليها صابرا حتى آمن كثيرون عندما رأوا عظم ثباته ومنهم الملكة نفسها ومن ثم قطعت رأسه ورأس الملكة معا فى ٢٣ برمودة



« الشهيد العظيم مار جرجس »

سنة ٣٠٣ م وبعد ما دفن جسده فى لد بفلسطين التى هى وطن والدته نقل الى مصر القديمة فى ١٩ أبيب ٠ وهذا الشهيد هو موضوع احترام المسيحيين جميعـا لا سيما مسيحيو مصر وروسـيا وانجلترا ٠ ويصوره المصورون بهيئة فارس بيـده رمح يطعن به تنينـا اشارة الى انتصاره على الشيطان٠ وبنيت كنائس قبطية كثيرة على اسمه ٠

القسم الرابع

المجـامع والبـدع والانشقاقات

(١) مجمع نيقيـة
(٢) مجمع القسطنطينية
(٣) درجات الـكنائس
(٤) أريوس
(٥) مكدونيوس
(٦) مرقس المصرى
(٧) شيعة المصلين
(٨) خلاف فى مقام السيدة العذراء
(٩) انشقاق ميليتس

---

(١) مجمع نيقيـــة :

ويسمى المجمع المسكونى الأول · وكان الداعى لانعقاده انتشار بدعة أريوس الهرطوقى واضطراب الـكنيسة وانزعاج المؤمنين بسببها · فـكتب القـديس الاكسندروس بابا الاسكندرية الى الملك قسطنطين الـكبير طالبـا منه عقـد مجمع مسكونى لفض هذا النزاع وتقرير مسائل أخـرى مختلف عليهـا وذهب أوسيوس أسقف قرطبـة الى الملك وطلب منـه نفس الطلب فارتضى قسطنطين وكتب منشورا يستدعى فيه جميع أساقفة المملـكة للاجتماع فى مدينة نيقيـة (١) فلبى الدعوى حالا ٣١٨ أسقفا من كل أقاليم العـالم المسيحى ما عـدا القليل والأكثرون منهم كانوا قد اعترفوا بألوهية سـيدنا يسوع المسيح وتعذبوا لأجل ذلك فى زمن اضطهادات الوثنيين ·

وكان أعظم الحضور شأنا الأكسندروس بابا الاسكندرية وهو البـابا الوحيد فى ذلك العصر وكان بحكم وظيفتـه هو المـدعى ضد أريوس وكان بصحبته أثناسيوس رئيس شمامسته وسكرتيره الخاص الغير البـالغ من العمر ٢٥ سنة وكانت تلوح على وجهه هيئـــة الملائـكة كما روى صديقه غريغوريوس النزينزى · وكان معهما من ممثلى كنيسة الاسكندرية الأنبـا برتامون أسقف هرقلية بأعالى النيل والقـديس بفنوتيوس أسقف طيبة العليا وكانا قد عذبا فى زمن الاضطهاد وقلعت عيناهما بالسيف وكويت حواجبهما بالحديد المحمى بالنار ·

---

(١) تقع فى ولاية بيثينية وكانت العـاصمة الثانية لها بعد نيكوميديا وكان لهذا المجمع تأثير عظيم على اهل تلك المـدينة وكان فى تلك الأيام كلمـا ارادوا حصر عدد الآباء الذين حضروه اضـافوا واحـدا على العـدد الحقيقى يرمزون بذلك الى ان الروح القـدس كان حاضرا معهم ·

ويليهم فى الأهمية اسطاسيوس أسقف أنطاكية ويوساب أسقف قيصرية ومكاريوس أسقف أورشليم وبولس أسقف قيصرية الجـديدة ويعقوب أسقف نصيبين وعطا الله أسـقف أديسـا وحضر غيرهم من أرمينية وبلاد الفرس وأيضا من الغوط القاطنين عبر نهر الدانوب • ومن آسيا الصغرى يوساب عن نيكومديا وغيره من أنصار أريوس ومارسليوس أكبر معارضى أريوس الذى كان ينوب عن أثناسيوس فى مجـادلة أريوس اذا غاب • وحضر عن جزيرة قبرص الأسقف اسبريدون وغير هؤلاء كثيرون وكان عدد ممثلى بلاد الشرق يبلغ ٢١٠ والثمانية كانوا يمثلون البلاد الغربيـــة التى كانت أقـــل مدنيـة وعلما • وهؤلاء الثمانية كانوا يمثلون ايطاليـــا وأسـبانيا والغال وبريطانيـا والليريكوم (البوسنة والهرسك) والسرب والبلغار أو دولماطيا • ولـكبر سن سلفستروس أسقف روميـة أوفـد من قبـله نائبين همـا وثين وويكنـدس وكذلك مطـر وفانوس أسـقف القسطنطينيـــة اذ كان مريضـا أرسل القس اسكنـدر نائبـا عنه وكان أهم أساقفـة الغرب أوسيوس أسقف قرطبــــة •

وحضر أريوس وأتبـاعه وهم أوسـابيوس أسقف نيكوميديا وثاوغنس مطران نيقيـة ومارس أسقف خلـكيدون ومعهم عشرة فـلاسفة وخلاف هؤلاء وأولئـك كان المجمع مكتظا بعـدد عظيم من الـذين أتوا غيرة على لاهوت المسيح ومنهم من أتوا بغيـة الفرجة لعلمهم بأهمية المجمع الذى ضم ممثلى كنائس العـالم للبحث فى أهم المسـائل وبلغ عـدد جميع المشاهدين نحو الألفين كان بينهم بعض الفـلاسفة الذين لم يسمح لهم بالدخـول بل كانوا يقابلون الأعضاء فى الخارج ويناقشونهم • وكان الشمامسة لابسين رداء طويلا والأساقفة والـكهنة برنسا كبيرا من الصوف وكلها من اللون الأبيض

واجتمع المجمع سنة ٣٢٥ م ولا يعرف جيـدا الشهر الذى اجتمع فيه المجمع فيقول بعضهم فى ٢٠ آيار (مايو) وغيرهم فى ١٩ حزيران (يونية)• اما مكان المجمع فـكان فى الساحة الوسطى فى القصر الملوكى • ودخـل بعض موظفى البيت الملوكى ورجال البـلاط وعـدد من الأسرة المالـكة ورام قسطنطين أن يحضر المجمع لـكى يزيده شرفا فقط لأنه قال للآباء « ان الحكم على قضـايا الايمان لا يختص بسلطة ملك بل انما خصـه السـيد المسيح بالأساقفة فقط » •

فـدخل الضـابط الذى يتقـدمه فوقف الجمع ثم دخل هو ماشيا الهوينا ووضع فى الوسط كرسى من ذهب له فأبى إن يجلس عليـه وجلس فى آخر

المجمع ولكن الأساقفة أشاروا عليه أن ينتقل من مكانه ويجلس فى الموضع الذى أعد له ففعل وبعد أن جلس جلسوا وجلس الأساقفة عن يمينه ويساره ويتقدم الجالسون من اليمين البابا الاكسندروس ورئيس شمامسته أثناسيوس ويوساب القيصرى ويتقدم الجالسون عن اليسار أوسيوس القرطبى وأريوس وأكبر أعوانه واصطف الجمهور على جانبى القاعة ·

ومن المعلوم أن أوسيوس أسقف قرطبة اعتبر رئيسا للمجمع الا أن الجميع سلموا للبابا الأكسندروس أن يتقدمهم فى كل عمل · ثم قام الملك والقى خطابا باللاتينية ترجمه له يوساب حض فيه على الاتحاد وفض المشاكل بالحكمة · وكان موعد انعقادالاجتماع فى ٢٠مايو فدارت فيه بعض المناقشات والمفاوضات لغاية ١٤ يونية عندما حضر الملك ووضع قانون الايمان فى التاسع عشر من الشهر وختم المجمع أعماله فى ٢٥ أغسطس ·

وكان أهم الحاضرين فى ذلك المجمع وقبلة أنظار الجميع أثناسيوس رئيس شمامسة البابا الأكسندروس فهو الذى كان يتولى الدفاع ضد أريوس وأتباعه نظرا لما أظهره من البراعة قبل انعقاد المجمع فى مناضلة الأريوسيين فى بعض مجادلات جرت بينه وبينهم فأفحمهم وكان يناظرهم فى كل مادة من المواد ويكشف مغالطاتهم ويعرضها على المجمع للنظر فيها · فأعجب به الجميع ولا سيما الملك وصار الكل يقصدونه للسلام عليه والتكلم معه ويضربون معه مواعيد لمقابلته وهو مشتغل بفحص الأوراق وأخذها وردها · وقد اعترض الأريوسيون على وجود أثناسيوس بالمجمع بصفة رئيس شمامسة ولكن الملك لم يعبأ باعتراضهم معتبرا وجوده ضروريا · ولهذا لا تزال الكنائس الغربية تعتبر رتبة « رئيس شمامسة » من الدرجات الكهنوتية وذلك لأن أثناسيوس مع عظم شأنه بمجمع نيقية لم يكن الا رئيس شمامسة ·

وبدأ المجمع أعماله فى فحص ما قدمه الرعاة من الشكاوى ضد اخوتهم وما كان أدهش تصرف الملك اذ أخرج من جيبه ملفا من هذه الأوراق وبعد أن وبخ مقدميها لعرضهم تهما ضد اخوتهم وأقسم بالله أن لا يقرأ شيئا منها ثم طلب موقدا ودفع اليه تلك المعروضات والتشكيات السرية · ثم أفسح المجال لرئيس المجمع ولكنه بقى فى قاعة الاجتماع واهتم كل الاهتمام بسماع المناقشات وفعلا اشترك فى بعضها ·

ثم انعقدت الجلسة الأولى وكان الملك قد أعطى الحرية لكل من يتفاوض من الأساقفة فكثر الجدال واللغط والغضب وانفضت الجلسة الأولى بدون

جدوى • وفى اليوم التالى تقدموا للمناقشة فوقف أريوس وقال « ان الابن ليس مساويا للآب فى الأزلية وليس من جوهره وان الآب كان فى الأصل وحيدا فأخرج الابن من العدم بارادته وان الآب لا يرى ولا يكيف حتى للابن لأن الذى له بداية لايعرف الأزلى وان الابن اله لحصوله على لاهوت مكتسب» فحال سماع الآباء هذه الكلمات ضجوا ضجيجا هائلا وصموا آذانهم كيلا يسمعوا هذا التجديف • وقرئت بعض أناشيد أريوس فزاد سخط الأساقفة لما حوته من الضلال ولم يطيقوا سماعها فمزقوها مما دعى الى هياج أنصار أريوس واضطر الملك أن يسكتهم بالقوة وأخذ أريوس يدافع عن معتقده فانبرى له أثناسيوس وأفحمه بردود قوية • وقد وجدت صورة هذه المحاورة بكتاب قديم بمكتبة البطريركية القبطية ندرجها هنا لما فيها من الفوائد الغزيرة (١) :

« قال أريوس ان سليمان الحكيم تكلم بلسان المسيح قائلا خلقنى أول طريقه (أم ٨ : ٢٢) قال أثناسيوس معنى ذلك هو أن الرب ولدنى لأن النص العبرانى يذكر عوض خلقنى (قنانى) أى ولدنى كما يقال قنى بالله ولدا أى ولد ويؤيد هذا التفسير ماورد فى نفس الفصل اذ يقول : منذ الأزل مسحت منذ البدء كنت معه قبل أن يخلق الجبال وقبل أن يصنع الأرض لما ثبت السموات كنت هناك : وما يتلوه من الأقوال التى تدل على ولادة الابن الأزلية كما نص داود النبى « أنت ابنى • أنا اليوم ولدتك • ومن البطن قبل كوكب الصبح ولدتك (مز ٢ : ٧ و ١١٠ : ٣) •

أر ـ ان الابن قال أبى أعظم منى (يو ١٤ : ٢٨) فعلى هذا يكون الابن أصغر من الآب ولا يساويه بالجوهر •

أث ـ ان الابن دون الآب لكونه تجسد كما يتضح ذلك من نفس الآية « لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى الى الآب • لأن أبى أعظم منى » أى أنه بناسوته يمضى الى الآب الذى هو أعظم من ناسوت الابن والا كيف يتكلم بلاهوته انه يمضى الى الآب حال كونه فى حضن الآب (يو ١:١٨) ويؤيد ذلك أنه فى نفس الفصل يتكلم باللاهوت ويبين مساواته لأبيه بالجوهر بقوله « من رآنى فقد رأى الآب وأنا فى الآب والآب فى وكل ما للآب فهو لى وكل ما لى فهو له لأننا نحن واحد » •

---

(١) أخذا عن الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة ج١ ص ٢٨٩ ـ ٢٩٢ •

أر - ان المسيح قال « دفع الى كل سلطان فى السماء وعلى الأرض » (مت ٢٨ : ١٨) فذكر هنا أنه نال السلطان من أبيـه لأنه أعظم منه وغير مساو له ·

أث - يعنى أن الابن بولادته الأزلية من الآب قد ملك كل سلطان أو أنه قال ذلك بحسب كونه متأنسا لأنه فى اثر هذا القول ساوى نفسه بأبيه بقوله لتلاميذه عمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس ·

أر - ان المسيح نسب ذاته لعدم معرفة ساعة الدينونة بقوله لتـلاميذه « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد ولا ملائكة السموات الا الآب وحده » فاذا كان الابن لا يعرف وقت الدينونة فكيف يكون الها ؟

أث - ان المسيح قال ذلك لتـلاميذه لئـلا يسألوه عن هـذا السر الذى لا يجوز لهم أن يطلعوا عليـه كمـا يقول صـاحب السر انى لا أعلم هـذه المسألة أى لا أعلمهـا علمـا يبـاح به لأن بطرس قال له يارب أنت تعرف كل شىء ·

أر - ان المسيح قال أنا لا أقدر أن أصنع مشيئتى بل مشيئة منأرسلنى (يو ٥ : ٣٠) فاذا هو عبد للآب ودونه ·

أث - ان المسيح تكلم فى مواضع كثيرة بحسب كونه الها صار انسانا كقوله « ان شئت فلتعبر عنى هذه الكأس » « الهى الهى لماذا تركتنى » « انى صاعد الى أبى وأبيكم والهى والهكم » ومثل ذلك صـلاته الى أبيه مرارا كثيرة · وبصفة كونه الها قال « من رآنى فقد رأى الآب « أنا فى الآب والآب فى » « وأنا والآب واحد » وفى نفس الفصل الواردة فيه آية الاعتراض قال تعالى « كما أن الآب يقيم الموتى ويحييهم كذلك الابن أيضا يحيى من يشاء ليكرم الجميع الابن كما يكرمون الآب » · وغير ذلك كثير من أقوال المسيح التى تصرح بمساواة لاهوته للاهوت أبيه فى الأزلية والعظمة والقدرة ·

أر - ان يوحنا قال فى بشارته عن الابن « كل شىء به كان وبغيره لم يكن شىء مما كان » (١ : ٣) فهـذا القول يدل على أن الابن آلة استخدمها الآب لصنع الخلائق فالابن اذا ليس الها خالقا ·

أث - ان الآب خلق بالابن أى بواسطة الابن الخالق كما يقال بنى الملك المدينة بابنه فالملك وابنه يعدان بانيى المدينة · ولا سيما أن يوحنـا صرح بلاهوت الابن وأزليته ومساواته لأبيه فى الجوهر والقـدرة والابداع فى

بشارته وفى رسالته حيث قال « الذى كان منذ البدء الذى سمعناه الذى رأيناه الذى لمسته أيدينا » (١ يو ١ : ١) وأيضا « الشهود فى السماء ثلاثة الآب والكلمة والروح وهؤلاء الثلاثة هم واحد » (١ يو ٥ : ٧) وفى الرؤيا « أنا هو الألف والياء البداية والنهاية يقول الرب الكائن والذى كان والذى يأتى القادر على كل شىء » (رؤ ١ :٨) وقوله « للجالس على العرش وللحمل البركة والكرامة والمجد والسلطان الى أبد الآبدين » (رؤ ٥ :١٣) وفى أول الفصل الواردة فيه آية الاعتراض نص البشير بجلاء عن لاهوت الابن بقوله « فى البدء كان الكلمة والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله » فكيف يكون معنى قوله بعد هذا التصريح ان الابن ليس باله خالق لكنه آلة لصنع الخلائق • وقد اعترف داود النبى بأن الابن خالق كما قال « أنت يا رب فى البدء أسست الأرض والسموات صنع يديك » ولا ريب أن هذا القول يخاطب به النبى ابن الله كما فهم ذلك الرسول (عب ١ : ١٠) فقد اتضح أن ابن الله خالق نظير أبيه واله مساو له فى الجوهر والعظمة والمجد » أهـ •

وطلب من يوساب القيصرى وسميه النيكوميدى أن يتبرأا من هرطقة أريوس فوقعا فى حيرة وارتباك شديدين ولم يتفقا على قاعدة ترضيهما وترضى المجمع ثم تلا يوساب القيصرى عقيدة قال انه تسلمها من الأساقفة الذين سبقوه ظاهرها عكس باطنها •

فنصح الامبراطور للحضور أن يوافقوا عليها • وكان يوساب وحزبه يقبلون كل عبارة يبديها الأرثوذكسيون ولكنهم يؤولونها بحيث تضعف قوتها فى ما وضعت له وأفاضوا فى نصوص الكتاب لتأييد تنصلهم • فسئلوا ان كانوا يقبلون أن يكتب فى العقيدة عن طبيعة الابن أنه من الله فقالوا نعم لأننا نحن أيضا من الله والكتاب يقول « لكن لنا اله واحد الآب الذى منه جميع الأشياء » (١ كو ٨ : ٦) ويقول أيضا « هوذا الكل قد صار جديدا • ولكن الكل من الله » (٢ كو ٥ . ١٧ و١٨) فسئلوا اذا كانوا يعترفون أن الابن ليس مخلوقا بل هو قوة الآب وحكمته وصورته وانه هو الله حقا : فنظر بعضهم الى بعض وتشاوروا همسا ثم قالوا • اننا نوافق على ذلك لأننا نحن البشر ندعى صورة الله ومجد الله (١ كو ١١:٧) وأشياء كثيرة يقول عنها الكتاب أنها قوته كقول المزمور « جميع قوة الرب خرجت من مصر » حتى أن الجراد سميت بقوات الرب وأما من جهة القول بأنه اله حقيقى فلا مشاحنة فيه اذ أنه جعل أو تعين هكذا •

ولم يلق أحد الفريقين أية عبارة يعبر بها عن فكرة الا وقام الفريق الآخر باضعاف قوتها ونفيها ٠

فاقترح أثناسيوس أن تضاف كلمة Homo - ousion أى « مساو فى الجوهر » أو « ذو جوهر واحد » للتعبير عن هذه الحقيقة بطريقة موجزة واضحة فعارض اليوسابيون فى استعمال هذه اللفظة بدعوى أنها ليست من الكتاب وغير ملائمة وقابلة للتأويل ثم اقترحوا استبدالها بلفظة Homoi - ousion أى « مشابه فى الجوهر » والفرق بين الكلمتين حرف واحد وهو « يوتا » باليونانية والقبطية ولكن ما أعظم الفرق بين اللفظين فى المعنى !! وبقدر معارضتهم بقدر ما ظهر للأغلبية أنها هى العبارة المقصودة بالذات للتمييز بين من يؤمن بصحة لاهوت المسيح وبين من يعتقد بما هو أقل من ذلك ٠ فصودق على اقتراح أثناسيوس بأغلبية هائلة ولم تزد الأقلية عن سبعة عشر صوتا وقوبلت هذه النتيجة بالسرور التام وتقرر أن يكون قانون الايمان هكذا :

« نؤمن باله واحد الله الآب الضابط الكل الخالق السماء والأرض ما يرى وما لا يرى ٠ نؤمن برب واحد يسوع المسيح ابن الله الوحيد المولود من الآب قبل كل الدهور نور من نور اله حق من اله حق مولود غير مخلوق مساو الآب فى الجوهر الذى به كان كل شىء هذا الذى من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسد من الروح القدس ومن مريم العذراء تأنس وصلب على عهد بيلاطس البنطى تألم وقبر وقام من بين الأموات فى اليوم الثالث كما فى الكتب وصعد الى السموات وجلس عن يمين أبيه وأيضا يأتى فى مجده ليدين الأحياء والأموات الذى ليس لملكه انقضاء » أهـ ٠

ويلى هذا القرار الالهى حرم أريوس وأتباعه وحرم بدعة سابليوس الذى أذاع أريوس أن معارضيه يقبلونها وبذلك أوضح المجمع النقطتين الأساسيتين فى التعليم عن كلمة الله وهما تمييز الأقانيم فى اللاهوت وصحة لاهوت المسيح ٠

وقد وقع على هذا القرار جميع أعضاء المجمع برضاء كلى ولم يبق على عقيدة أريوس سوى خمسة أشخاص منهم يوساب النيكوميدى ويوساب القيصرى الا أنهما أمضيا بعد تردد ولم يلبث سوى الاثنين اللذين حرما بالاسكندرية وهما سيكوندس أسقف بطليموسة وثيوناس أسقف ماريكة وقد

وبخ الأول أسقف نيكوميديا لأنه وقع خوفا من النفى وقال له انى أبلغك من قبل الله بأنا فى خلال عام واحد سيصيبك ما أصابنى ٠

وبعد أن حكم المجمع بحرم أريوس وبدعته أمر بنفيه وبحرق كتبه وباعدام من يتستر عليها ٠ وما يأتى يؤخذ منه رأى المجمع فى أريوس وهو من رسالة أنفذها المجمع الى كنائس افريقية قال : « قبل كل شىء وقع البحث أمام الملك قسطنطين الكلى التقوى فى اثم أريوس ورفقائه وعدم تقواهم وحتم بصوت الجميع أن تعليمه العديم التقوى ليكن أناثيما وهكذا أيضا فلتكن أقواله وعباراته التجديفية التى استعملها لأنه قال مجدفا أن ابن الله من القدم وأنه وجد زمان لم يوجد فيه وقال ان ابن الله من تلقاء ارادته قادر على الفضيلة والرذيلة وقال أنه مخلوق وعمل فكل هذا حرمه ٠ والمجمع المقدس لا يطيق استماع هذا التعليم العديم التقوى أو بالحرى هذه السفاهة وهذه الأقوال التجديفية وقد سمعتم أو تسمعون ماذا جرى فى حقه لئلا نظهر نحن أننا تعدينا على انسان أخذ استحقاق شره ولكن شره غلب بهذا المقدار حتى أدخل معه فى الهلاك ثيوناس المرمريكى وسيكوندس من عكا لأنهما حكم عليهما كما حكم عليه » أهـ ٠

ولما انتهى المجمع من القضاء على أريوس وبدعته صرف همه للفصل فى مسائل أخرى :

(١) منها مسألة تحديد يوم عيد القيامة فقرر بالاجماع أن يكون العيد المذكور فى موعد واحد بجميع البلدان أى يوم الأحد الذى يلى البدر الذى يكون فيه عيد اليهود حتى لا يعيدوا قبل اليهود أو معهم وقرروا أن بابا الاسكندرية هو الذى يبلغ الكنائس الأخرى عن اليوم الذى يقع فيه هذا العيد فى العام التالى وذلك لأن الاسكندرية فى ذلك العهد كانت مركز العلوم الفلكية وجرت العادة وقتئذ أن بطريركها يحسب ميقات البدء بعد الاعتدال للسنة القادمة ويبلغ أسقفى رومية وأنطاكية وهما يبلغان سائر الأساقفة ٠

(٢) ثم نظر المجمع فى أمر الشقاق الذى أحدثه ميليتس بهضمه كأسقف حقوق رئيسه البطريرك وتقدمه لرسامة أساقفة وقسوس بلا رأى رئيسه فقرر من جهته فى القوانين ٥ و٦ و٧ بحفظ حقوق بطريرك الاسكندرية على مرؤسيه وأعطاه الحقوق التى كانت لأخويه أسقفى رومية وأنطاكية ٠

ثم أرسل المجمع هذه الرسالة الى المصريين بحكمه فى هاتين المسألتين وهاك هى :

« بقى علينا الآن طياشة ميليتس والذين رسمهم والآن أيهـا الاخوة الأحباء نخبركم قضاء المجمع على هذه القضية • اننا اذا راعينا الحقيقة نجد أن ميليتس لا يستحق اكراما أو صفحا على ما اقترفه من أمر الشقاق الذى أحدثه الا أن الشفقة والحنان يحتمان علينا أن نعامله بالرأفة واللطف ولذلك اذن له المجمع بالاقامة فى بلدته مسقط رأسه وأمره أن لايمارس اية وظيفة كهنوتية سواء كانت رسامة أحد أو ترشيح أحد للرسامة ويتحتم عليه عدم الظهور فى أى اقليم أو مدينة بهذا المظهر ولا أن يدعى شيئا حرمه عليه المجمع بل تبقى له صفته الشخصية فقط • أما الذين عينهم هو فى وظائف وتثبتوا فيها بواسطة رسامة قانونية فيجب قبولهم فى عضوية الكنيسة بالشروط الآتية وهى : أن تبقى لهم وظائفهم ورتبهم ولكنهم يعتبرون أقل درجة فى كل شىء من الآخرين الذين عينهم رئيسنا المحترم البطريرك اسكندر واقامتهم الكنائس الأخرى • كذا لا سلطة لهم على تعيين أو ترشيح من يشاءون ولا أن يعملوا عملا ما بدون تصديق أحد أساقفة الكنيسة الجامعة الذين يعدون من أنصار البابا اسكندر ومساعديه • وعند موت أحد هؤلاء القسوس الذين سامهم ميليتس سابقا ينبغى تعيين واحد بدله من الذين تنطبق حالتهم على النظامات الحديثة على شرط أن يكون ذا أهلية واستحقاق فيختاره الشعب ويصدق أسقف الاسكندرية على انتخابه • فهذا الامتياز يمنح لجميع الأساقفة على السواء الا ميليتس فلا يعطى هذه السلطة نظرا لسلوكه السابق المغاير للصواب والتعقل بل يجرد من كل سلطة وسطوة لأجل طياشته وخيلائه ولأنه رجل لا يبعد عليه أن يحدث شقاقا جديدا مثل الذى أتاه قبلا • فهذه المسائل تهم مصر وكنيستها الرفيعة الشأن على الخصوص وعليه فاذا سن قانون آخر غير هذا أو حدثت رسامة كاهن ليست قانونية فيكون لغبطة الحبر المفضال البطريرك الاكسندروس حق التداخل فى هذا الأمر وأن يفحصه فحصا دقيقا ويبت حكمه لأنه ليس بصاحب صوت فقط فى الذى يحدث ولكن له الرئاسة العليا والسلطة التامة فى تنفيذ أى عمل يريده •

« ولقد يسرنا أيضا فى هذا المقام أن نخبركم بما قر عليه الرأى فى مسألة تحديد يوم عيد القيامة المبارك فان هذه المسألة انتهت بمساعدة صلواتكم وأصبح جميع الاخوة المسيحيين فى الشرق الذين كانوا يعيدون هذا العيد مع اليهود تماما يعيدون من الآن فصاعدا مع الرومانيين ومعنا ومع الذين حفظوه منذ القديم معنا » اهـ •

(٣) ثم نظر المجمع فى مشكلة معمودية الهراطقة التى كانت بين أساقفة أفريقيا وآسيا الصغرى وبين أسقف رومية فاعترف المجمع بمعمودية واحدة وحدد أن لايقبل بعض من الهراطقة لا بالمعمودية لأن معموديتهم المعروفة اسما هى بالفعل غير صحيحة لعدم ارتباطها بالاعتراف بالثالوث الأقدس · والبعض الآخر أن يقبلوا بلا معمودية لكون المعمودية المتممة عليهم لبثت غير فاسدة ولا ممسوسة من آرائهم لتعلقها بمواضيع أخرى لا تمس المعمودية ·

فبذلك رذل المجمع رأى أسقف رومية بخصوص عماد الهراطقة ولقد قال فى هذا الصدد بنديكتوس ١٢ أسقف رومية (١٣٣٤ ــ ١٣٤٢ م) « ان اسطفانوس قد علم بوجوب اعادة العماد الذى يتم على يد الهراطقة وعلم كبريانوس بعكس ذلك أما المجمع النيقاوى فقد خالف هذين التعليمين حيث قرر أن المتعمدين من أيدى الهراطقة عمادا صحيحا لا يعاد عمادهم بعكس الذين اعتمدوا منهم عمادا فاسدا » أهـ (١) وقال أوغسطينوس أعظم قديسى الكنيسة اللاتينية « ان الحكم النهائى فى قضية عماد الهراطقة كان للمجمع المسكونى الذى له وحده هذا الحق أما رأى اسطفانوس فانه فضلا عن فساده لم تكن له قوة على اقناع كبريانوس وهكذا كان حكم الكنيسة مجتمعة حجة لا ترد لاثبات الحقيقة فيما يختص بالعقيدة الأرثوذكسية » أهـ (٢) ·

(٤) حكم على ذوى الكهنوت أن يكونوا من أصحاب الزوجات وقد أراد جل الأعضاء أن يقرروا ضرورة تبتل كل رتب الأكليروس الا أن رأيهم لم يقبل وكان أشد معارضيه القديس بفنوتيوس أسقف طيبة الذى أشير اليه بأنه فقد عينه اليمنى ويده اليسرى فى الاضطهاد وهو أعزب اذ صرح بأنه ليس من الواجب التثقيل على ذوى الكهنوت خشية حدوث ضرر للبيعة عوض النفع فأثر كلامه فى الجميع لأنهم عرفوا أنه لا ينتفع من القرار أو عدمه واكتفى المجمع بالحكم على الكهنة المترملين بعدم اعادة الزيجة ·

وبعد ذلك سن المجمع عشرين قانونا لم تزل بحمد الله موجودة سالمة الى عصرنا هذا · وهذه القوانين وسائر الأحكام أيضا أنيط نشرها بكل

(١) راجع بوسويه فى مقدمة دفاعه عن اقرار الاكليروس الفرنسى رقم ٤٨ ·

(٢) راجع كتاب العماد لأغسطينوس (ك٢ ف٤ : ٥وك ٣ف ٢:٢) ·

واحد من أساقفة الكراسى الأولية فى أبروشيته • ومن جملتهم أوسيليانوس فى افريقية وأوسيوس فى الغرب كله • ولم يذكر شىء بخصوص أسقف رومية البتـــة يتعلق بنشرها فــلا أحــد انتظر منه تصــديقا عليها ولا اســتأذن منه لينشرها• وكما أن مسألة نشر القوانين فى الشرق والغرب تنفى صحة الدعوى بسلطانه فان فحوى القوانين أيضا ينفيها نفيا واضحا •

وقد اجتهد أساقفة رومية فى القرن الخــامس أن يجروا بعض قوانين مجمع سرديكا التى توجب استئناف الأحكام ضد الأساقفة الى أسقف رومية الى قوانين مجمع نيقيــة فقاومهم عند ذلك أساقفة افريقيــة وأرسلوا الى بطاركة الاسكندرية وأنطاكية والقسطنطينية يطلبون نسخا كاملة لكل القوانين النيقاوية المعروفة عندهم فنقلوا نسختين صحيحتين احداهما من الاسكندرية والأخرى من القسطنطينية فكان فحوى الجواب أن الــكنائس الأرثوذكسية لم تقبل الا هذه العشرين قانونا وبعض هذه القوانين يعارض كل المعارضــة قوانين مجمع سرديكا التى أرادوا أن يثبتــوا بهــا رئاســة أسقفهم المزعومة ويهدمها واليك هى :

قال القانون الرابع « ينبغى أن يقام الأسقف على الخصوص من جميع أساقفــة الأبروشية • فان كان عسرا اما لضرورة شديدة أو لبعد المسافة فلابد من اجتماع ثلاثة معــا بعــد اشتراك الغائبين فى الأصوات وموافقتهم كتابة وحينئــذ يعملون الشرطونيــة • أما تثبيت الاجراءات فمنوط فى كل أبروشية بالمتروبوليت » فهــذا القــانون فضــلا عن ايضاحه مساواة رؤساء الأبروشيات بعضهم لبعض بلا امتياز هو ضد العــادة المرعية اليوم فى الغرب بأن كل أسقف عندهم حتى بطاركة الطوائف التابعة لهم « المعروفة بالمكتلكة » محتاج الى تصــديق من البابا أو بالحرى أن هذه العادة الغربية هى ضــد المجمع المسكونى وهى لاغية •

وقال القانون الخامس « لقد رأينا حسننا أن تعقد مجامع فى كل أبروشية مرتين فى السنة لــكى تفحص أمثــال هــذه المسائل (الــكنسية) باجتماع عمومى من جميع أساقفة الابروشية » وهنــا أيضا مرجع المسائل الــكنسية لا الى البابا بل الى مجامع الأبروشيات •

وقال القانون السادس « لتحفظ السنن القديمة التى فى مصر وليبيــة والخمس المــدن بأن تكون السلطة على هؤلاء كلهم لأسقف الاسكندرية • بما أن هذه العادة مرعية للاسقف الذى فى رومية أيضا • ومثل ذلك ليحفظ التقدم

للـكنائس فى أنطاكية وفى الأبروشيات الأخرى • وبالاجمال ليكن واضـحا أن كل من صار أسـقفا بلا رأى الميتروبوليت قـد حكم المجمع الـكبير أنه لا يجب أن يكون أسـقفا وأما اذا قاوم اثنـان أو ثلاثة عن عنـاد شخصى لصـوت الجميع العـام رغما عن كونه مصيبا وموافقا للقـانون الـكنسى فليعمل بصوت الأكثرين » •

وقال القانون السابع « بما أنهـا جرت العـادة والتسليم القـديم أن يكون الأسقف الذى فى الية « أورشليم » ذا كرامة فلتكن له التبعيـة فى الـكرامة مع المحافظة على رتبة الميتروبوليت الخاصة بها » •

فواضح هنـا أن هـذين القـانونين يثبتـان لـكل أسقف من أساقفة الـكراسى الأولى رئاسته لا كأنهما يثبتان أمرا جديدا بل بناء على العـادة القـديمة وعلى الخصوص القانون السادس يثبت دائرة الـكرسى الاسكندرى الذى كانت حقوقه قـد ديست من ميليتس الأسقف المبتـدع المـار ذكره الذى ساقه عنـاده الى أنه داس حقوق البطريرك الاسكندرى وكان يقيم شرطونيات بلا رأيه • ولهـذا السبب جـدد المجمع وثبت حقوق الأسـقف الاسكندرى المـداسة لتكون مرعية فى دائرته كما أن حقوق أسقف رومية لم تزل مرعية فى دائرته • وكذلك حقوق الأنطاكى وحقوق كل أسقف من الأساقفة المتقدمين• ثم قرر فى القـانون السـابع أن تـكون التبعيـة فى الـكرامة أى الجلسة للأورشليمى بعد الانطاكى •

فهذه قوانين مجمع مسكونى صريحة تبين لـكل أسقف دائرته ولا تعين ولا تشير الى أسقف عام على كل الـكنيسة حالة كون المذاكرة فى مثل هذه المسائل كانت توجب ذلك لو كان له أصل أو على الأقل كانت توجب وكـلاء البـابا أن يدافعوا عن حقوقه ويقرروها (١) ولنختم بشهادة البابا أثناسيوس الرسولى فى رسالته الى الانطاكيين وهى : « أن الكنيسة فيها رؤساء كثيرون متساوون فى الـكرامة يقودهم رئيس واحد ربنا يسوع المسيح » (٢) •

* وبعد أن انتهى المجمع من أعماله أولم قسطنطين لأعضـائه وليمـة عظيمة فى بدء السنة العشرين للـكه أى فى اليوم الرابع والعشرين من شهر يولية فاجتمع الآباء الروحيون على مائدة الملك • ويقول أوسابيوس المؤرخ « أن اجتماع آباء الـكنيسة فى سـلام وصفاء بهذه المأدبة الفخيمة كان يشبه

---

(١) تاريخ الانشقاق ج١ ص ١١٧ـ١١٩ . (٢) ذوسيثاوس ١ : ٧ •

صورة ملكوت المسيح وقد تجلى هذا المنظر أمامى كحلم أكثر مما هو حقيقة • » أهـ وكان الامبراطور يحادث ضيوفه بكل بشاشة ثم القى عليهم خطاب الوداع ناصحا اياهم بالتزام خطة السلام • وبعد ذلك وزع عليهم الهدايا وسلمهم الأوامر الى حكام البلاد التى هم تابعون لها آمرا هؤلاء الحكام بأن يوزعوا على الكنائس كل سنة مقدارا من الحنطة لمؤونة رجال الأكليروس والأرامل والعذارى والفقراء التابعين للكنائس ثم طلب منهم البركة وأعد لهم الركائب لعودتهم الى أوطانهم فعادوا اليها بسلام •

(٢) مجمع القسطنطينية :

« ويسمى المجمع المسكونى الثانى » وسبب انعقاده التعاليم الكفرية التى أذاعها مكدونيوس بطريرك القسطنطينية عن الروح القدس والتى اضطربت البيعة لأجلها • واذ كان ثيودوسيوس الأرثوذكسى يرغب فى استئصال شأفة البدع والهرطقات أمر بانعقاد هذا المجمع فى مدينة القسطنطينية سنة ٣٨١ م •

وكان فى هذا المجمع رجال قديسون عظام نذكر منهم نكتاريوس بطريرك القسطنطينية وتيموثاوس بابا الاسكندرية وملاتيوس أسقف أنطاكية وكيرلس أسقف أورشليم وغريغوريوس الثاولوغوس وغريغوريوس النيسى وامفيلوشوس أسقف أيقونية وبيلاجيوس أسقف اللاذقية وثيودورس أسقف طرسوس وأكاكيوس أسقف حلب وأفلوجيوس أسقف اداسيس وغيرهم كثيرون مجموعهم ١٥٠ أبا ولم يكن من رومية أحد لا أسقفها ولا نواب له ولا تليت رسالة من الأسقف نيابة عنه حسب عادة الأساقفة الغائبين ومع ذلك توافق أسقف رومية وكل الكنيسة الغربية على أعماله ولم يزل هو وكنيسته يعترفون بأنه مجمع مسكونى وقال المؤرخ صوزومينوس (فاجتمع من الذين يعتقدون بمساواة الثالوث فى الجوهر نحو ١٥٠ وفى رئاستهم تيموثاوس المتقلد ادارة كرسى الاسكندرية خلفا لأخيه بطرس الذى كان قد توفى لا من عهد بعيد » (١) •

وقد بحث المجمع فى جملة هرطقات أهمها هرطقة مكدونيوس المار ذكره الذى اعتقد بأن الروح القدس مخلوق • ولما طرحت قضيته أمام المجمع بدأ بثبت بدعته فقال ان الروح القدس مخلوق مرتكنا على قول

---

(١) صوزومينوس ٧ : ٧و٩ •

الكتاب « كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان » (يو ١ : ٣) فأجابوه قائلين « أيها الانسان لا يوجد لدينا الا روح واحد وهو روح الله ومن المعلوم أن روح الله ليس شيئا غير حياته واذا قلنا أن حياته مخلوقة فعلى زعمك أنه غير حى واذا كان غير حى فهناك الكفر الشنيع والرأى الشنيع » ولما ابى أن يرجع عن أنكاره انزلوه من درجة البطريركية وحرموا كل من يقول بقوله واثبتوا دستور الايمان النيقاوى الذى كان ينتهى بقوله « نعم نؤمن بالروح القدس » فاضافت مجمع القسطنطينية عليه هذا القول « الرب المحيى الكل المنبثق من الآب الذى هو مع الآب والابن يسجد له ويتمجد الناطق فى الأنبياء وبكنيسة واحدة مقدسة جامعة رسولية ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا ونترجى قيامة الأموات والحياة الجديدة فى العالم الآتى ، آمين » ٠

وحرم المجمع كل من يزيد على هذا الايمان الذى سنه آباء المجمع النيقاوى وأكمل فى هذا المجمع المقدس شيئا آخر أو ينقص منه أو يحدد حدا مضادا لما حدد فيقع هذا الحرم على الكنيسة البابوية التى زادت بعد الروح القدس المنبثق من الآب لفظة والابن كما ستقف عليه فى باب البدع فى القرن الثامن ٠

ثم نظر المجمع فى هرطقة أبوليناريوس أسقف اللاذقية ومن أمره أنه كان شديد المناضلة فى اثبات لاهوت المسيح ضد الأريوسيين ولما كانت مناضلته بدون فطنة سقط فى البدعة اذ أنكر وجود النفس البشرية فى المسيح واعتقد أن اللاهوت قام بوظيفتها وامتزج مع الناسوت امتزاجا كليا حتى أنه احتمل معه أوجاع الصليب والموت وجعل تفاوتا بين الأقانيم الثلاثة فقال ان الروح القدس عظيم والابن أعظم منه والآب أعظم من كليهما فحرم هذا المجمع تعليمه ٠

وكان رئيس المجمع ملانيوس الأنطاكى ثم توفى قبل انحلاله فتولى الرئاسة غريغوريوس الثاولوغوس ٠ وكان متوليا مؤقتا للكرسى البطريركى بالقسطنطينية قبل ذلك بمدة قليلة ولكن تيموثاوس بابا الاسكندرية قاومه فاستعفى مسرورا لأنه علم أن الذى يتولى بعده الكرسى البطريركى ورئاسة المجمع صديقه نكتاريوس ٠

ثم سن المجمع سبعة قوانين تتعلق بنظام الكنيسة وسياستها وروعى فى وضعها خاطر ملكى رومية والقسطنطينية فوضعت هذه فى الرتبة الثانية

بعد رومية ووضعت الاسكندرية بعدهما فاستاء البابا تيموثاوس من تصرف المجمع الذى يدل على تناسيه لجهاد باباوات الاسكندرية الأفاضل وعدم اعتبار المعروف منذ القديم وهو أن لكرسى الاسكندرية المركز الأول فاحتج البابا تيموثاوس على هذا القرار وخرج من المجمع غاضبا ٠

ويتبين من مراجعة نص القوانين التى سنها المجمع فى هذا الشأن أن أساس النظام الكنسى ليس الاعتبارات الدينية بل المدنية ودونك نص القانون الثانى « لا يتعدين الأساقفة الذين خارج ادارتهم على الكنائس التى خارج حدودهم ولا يشوشن الكنائس ٠ بل وفقا للقانون لأسقف الاسكندرية أن يسوس أمور مصر فقط ٠ ولأساقفة الشرق أن يسوسوا الشرق فقط مع المحافظة على التقدم الذى فى قوانين نيقية لكنيسة الانطاكيين ٠ ولأساقفة ولاية آسيا أن يسوسوا أمور آسيا فقط ٠ وللذين فى البنطس أمور البنطس فقط وللذين فى ثراكى أن يسوسوا أمور ثراكى فقط ٠ فلا يتعدين أساقفة خارج ولايتهم لاقامة شرطونيات أو معاطاة أمور أخرى كنسية من دون أن يدعوا ٠ والمحافظة على القانون السابق تدوينه فى الادارات تقتضى صريحا أن يسوس أحوال كل أبروشية مجمع الأبروشية كما هو محدد فى نيقية ٠ وأما كنائس الله التى بين الأمم البربرية (يعنى خارج المملكة) فيجب أن تساس حسب عادة الآباء المرعية » ٠

والقانون الثالث « أما أسقف القسطنطينية فليكن له التقدم فى الكرامة بعد أسقف رومية لكونها (أى القسطنطينية) رومية جديدة » أهـ ٠

فهذان القانونان ينفيان الرئاسة التى يدعيها الغربيون لأساقفتهم فان القانون الأول منع تعدى أى أسقف كان على حقوق سواه وحكم بأن الأمور الكنسية المشاعة يفصل فيها مجمع الأساقفة لا أسقف رومية وذلك استنادا على قوانين مجمع نيقية ٠

(٣) **درجات الكنائس** : ويجدر بنا فى هذا الصدد أن نتكلم عن مقام كل كرسى من كراسى الأسقفيات المسيحية لأن كلا منها ينازع الآخر فى الادعاء بالأسبقية والاعتبار ٠ وكل مدقق فى الحوادث التاريخية يقربان المراكز الدينية كانت تقاس قيمتها بقيمة المدن الكائنة فيها ٠ فانه مع أن الكنيسة فى مبدأ الأمر كانت تعلم بالتساوى بين جميع أفراد الرتب الكهنوتية ولكنه لما دعا الحال الى عقد مجامع للبحث فى المشاكل الدينية احتاج الأمر الى واحد ليكون هو المتقدم فى تلك المجامع فلكى لا يفهم أحد أن هذا

التقدم ناشىء عن امتياز لأسقف عن الآخر قالوا اذا كان المجمع قاصرا على أساقفة مدينة واحدة وما حولها من القرى يكون التقدم لأسقف المدينة . واذا كان المجمع مؤلفا من أساقفة مدن عديدة يتقدم فيه أسقف المدينة الأكثر شهرة . ويوجد سبب آخر قضى على المؤمنين أن يوجهوا نظرهم الى بعض المراكز الأسقفية أكثر من غيرها وذلك بالنسبة لأنها كانت مقرا لبعض الرسل واتصلت الى الأساقفة بسلسلة الخلافة ودعيت « الكراسى الرسولية » .

فالمراكز الدينية التى حازت أحد هذين الامتيازين كانت لها أسبقية على التى لم تحزهما ولكن التى امتازت بالأكثر من المراكز التى اقترنت أهميتها المدنية بتسلسل أساقفتها عن خلافة رسولية واشتهرت عن سواها هى فى الشرق الاسكندرية . وانطاكية . وأفسس . وكورنثوس . وفى الغرب . رومية . ولما كان المركز الكنسى الذى يفقد أهميته المدنية يفقد أهميته الدينية أيضا فان كرسى أورشليم فقد منذالقديم أهميته بعد خراب هذه المدنية ولحقه بعدئذ كرسيا أفسس وكورنثوس ولكن الكرسى الاسكندرى ارتفع عن بقية الكراسى لأن مقره مدينة الاسكندرية كانت عاصمة الديار المصرية وامتازت بأنها كانت محط رجال العلوم والمعاملات التجارية للعالم أجمع .

ولما تداخل ميليتس المشار اليه آنفا وأحدث انشقاقه وتعدى على سلطة بطريرك الاسكندرية برسامة أساقفة بدون أخذ رأيه قرر المجمع النيقاوى ضرورة مراعاة حقوق بطريرك الاسكندرية . وكذلك كرسى رومية عاصمة العالم وقتئذ وأنطاكية عاصمة الشرق استمرا متمتعين بحقوقهما منذ عهد الرسل ولكن الكنيسة الباباوية تنادى ليلا ونهارا أن رئيسها هو رئيس الكنيسة العام واليك الأدلة على كذب قولها .

جاء فى كتاب « مختصر تاريخ الأمة القبطية » ص ٣٣٧ ـ ٣٤٠ مايأتى: « ان الحق الذى يجب أن يعلن هو أن تقدم الكنائس بعضها على بعض لم يكن مبنيا الا على التقدم المدنى المحض . ولذلك فاننا نرى آباء المجمع القسطنطينى (المسكونى الثانى) عندما أصبحت القسطنطينية مماثلة لرومية فى الرفعة المدنية قد بادروا الى مساواتها بها فى الرفعة الدينية حيث قرروا فى القانون الثالث أن تكون لها الدرجة الثانية بعد رومية وأن تلقب رومة الجديدة وهكذا أصبحت أسقفية القسطنطينية (البيزنطية) التى أغفلها المجمع النيقاوى فى قانونه السادس لصغر شأنها وقتئذ مقدمة على أسقفيتى اسكندرية وانطاكية .

ولقد جاء فى القانون الـ ٢٨ من قوانين مجمع خلكيدون الذى ترذله كنيستنا القبطية وتقدسه الكنيسة اللاتينية « أن المدنية التى حظيت بالملك (رومية الجديدة) وجب أن تمتاز فى المسائل الكنسية أسوة بمدينة رومية القديمة » وجاء أيضا فى القانون الـ ١٧ من قوانين هذا المجمع أنه « اذا شاد القيصر مدينة جديدة فلتكن منزلتها الكنسية ملائمة لمنزلتها المدنية » على أن ذلك القرار لم يكن من مبتكرات مجمع خلكيدون فقد سبقه اليه مجمع أنطاكية المنعقد سنة ٣٤٢ م اذ قرر فى قانونه الـ ٩ « أن يكون النظام الكنسى تابعا للنظام المدينى » (١) وكذلك قرر مجمع تورينو بايطاليا المنعقد سنة ٤٠١ م « أن يكون التقدم للأسقف الذى يبرهن على تقدم مدينة أسقفيته من الوجهة المدنية » (وذلك على أثر النزاع الذى حدث بين أسقفيتى أرلس وفينا (جنوبى فرنسا) بشأن التقدم الكنسى) ٠

وعلى ذلك يكون تقدم كنيسة رومية الدينى قد بنى على تقدمها المدنى٠ لما هو معلوم من أنها كانت عاصمة العالم الوثنى يومئذ ٠ وهذا هو تليمون الكاثوليكى يقول فى تاريخه الكنسى (م ١٦ ص ٧٠٧) « ان مجمع خلكيدون لم يعلل تقدم الكنيسة الرومانية الا بتقدم مدينة رومية مدنيا » وقال سليدن (فى تاريخه م ٩ ص ٢٦٢) « ان ملك فرنسا (فرانسوا الأول) لم يكن ليرى فى سلطة البابوات حقا الهيا بل بشريا محضا » وقال فوشيه فى كتاب حرية الكنيسة الجليكانية (الفرنسية) (م ١ ص ٧١) « لم يكن من سبب فى تقدم أساقفة رومية سوى عظم مدينتهم » وأخيرا قال ارهادوس بيليوس أستاذ اللاهوت الأدبى فى كلية الجزويت بكان بفرنسا فى كتابه (أرزاق الكهنة » المطبوع سنة ١٦٤٤ م ما نصه « ان تقدم البابوات الرومانيين ان هوَ الا منة منحت لهم من المجامع والقياصرة (لا من الله) وهكذا كان ذلك التقدم من وضع البشر » ٠

وفضلا عن ذلك فان الدرجة الأسقفية واحدة لا يؤثر فيها ارتقاء الايبروشية أو انحطاطها ٠ وهذا هو ايرونيموس يقول فى رسالته الـ ٨٥ الى ايفاجريوم « ان الأسقف ثابت فى وظيفته سواء أقام فى رومية أو فى رجيو (مدينة صغيرة شمالى ايطاليا) فى القسطنطينية أو فى جيبيو (مدينة صغيرة بايطاليا) فى الاسكندرية أو فى تانيس » أهـ ٠ هذا فضلا عما اعترف به البطريرك القبطى الكاثوليكى كيرلس مقار فى كتابه

---

(١) راجع مجموعة المجامع م ٢ ص ٥٦٦ ٠

« الوضع الالهى فى تأسيس الـكنيسة » « ان تقدم رومية القديمة كان يرمى الغرض منه الى صفة عرش الملـكة وبالنتيجة أنه لم يكن له أدنى صبغة الهيـئة » أهـ ٠

واليك شهادة القديس أغناطيوس (وهو من أساقفة انطاكيـة) قال « ان جميع الأساقفـة الذين تعينوا الى أقاصى المسـكونة هم وكلاء المسيح ورأيهم رأى المسيح » (١) والقـديس كبريانوس يقول بصريح العبارة « ان الرتبـة الأسقفية واحـدة » ويقول أيضـا « كما انها أقيمت كنيسة واحدة للمسيح فى كل العـالم منقسمة الى أعضـاء كثيرة هكذا الرتبـة الأسقفية واحدة منقسمة الى عدد أساقفة كثيرين » (٢) ٠

والدليل على صدق هؤلاء الأفاضل وعلى أن الـكنيسة لم تكن تعتبر فى عصورها الأولى أية كنيسة منها أسمى من الأخرى ما نراه فى تصرف الآباء فى المجامع المسكونية الأولى حيث كانوا يقررون احكامهم لا باسم كنيسـة خصوصية بل باسم الـكنيسة المسيحية فى كل العـالم التى تجمع كل الكنائس رسولية كانت أو غير رسولية ٠ فقط كانوا يقدمون فى الكرامة رئيس الكنيسة الذى يعرفون عنه الغيرة على الايمان والشهرة فى الدفاع عنـه كباباوات الـكرسى الاسكندرى مثلا اذ طلبوا منهم أن يترأسوا المجـامع المسكونيـة الثلاثة الأولى ٠

واذا أردتم برهانا على أن المجامع لم تكن تحكم الا باسم الـكنيسة عامة فاليكم بعض ما دونه كيرلس مقار بطريرك الأقبـاط الـكاثوليك فى كتابه « الوضع الالهى فى تأسيس الـكنيسة » من ص ١٩١ ـ ٢٠٧ « ولـكن هل أصدر المجمع النيقاوى حكمه مقيدا بأوامر باباوية وهل اعتبر ان مايصدره من الأحكام يكون باسم البابا ؟ ذلك ما يدعيه الغربيون وهى دعوى فاسـدة مبنية على أساس واه لأنه من الحقائق المقررة أن البابا سلفستروس لم يبعث برسائل المجمع حينئذ بل ان المجمع أبلغ حكمه لـكنيسة رومية أسوة بباقى الـكناس كحكم الهى سماوى مؤيد بالروح القدس ٠

« واليكم شهادة القديس أثناسيوس الرسولى الذى قال « ان آباء نيقية عندما أصدروا حكمهم فى قضية الفصح قالوا « هذا ماوجدناه حسنا » لأن هذه المرة كانت الأولى التى فيها سن قانون عام فى هذا الموضـوع « يوم

---

(١) الى أفسس فصل ٣ (٢) فى وحدة الكنيسة فصل ٥ ورسالة ٥٥

تعييد الفصح » أما عند الكلام على الايمان فلم يقل الآباء هذا ماوجدناه حسنا بل قالوا « هذا ما تؤمن به الكنيسة الجامعة » ثم جاهروا بمعتقدهم ليدلوا على أن ايمانهم ليس بحديث العهد بل هو نفس الايمان الرسولى وان ماسطرته أيدى هؤلاء الآباء لم يكن من عملهم بل هو الايمان عينه المسلم من الرسل الى الكنائس » أهـ ٠

وما يقال عن مجمع نيقية يقال أيضا عن مجمع القسطنطينية فانه كان مؤلفا من ١٥٠ أبا شرقيا ولم يكن لأسقف رومية فيه نصيب البتة حتى أنه لما دعى للحضور كباقى الأساقفة اعتذر عن الحضور ولم يرسل حتى من ينوب عنه ٠ وانعقد المجمع بدون أن تكون له أقل علاقة به بالمرة بل وأبلغ من ذلك أن التاريخ يشهد أن داماسوس الأسقف الرومانى كتب حينئذ لآباء المجمع القسطنطينى المائة والخمسين ليأتوا الى رومية لكى ينضموا الى مجمع كبير كنسى غربى مزمع أن ينعقد ولكن المائة والخمسين أبا رفضوا بتاتا أن يلبوا هذه الدعوة وأجابوا الأسقف الرومانى بشجاعة بأن كنائسهم تكبدت الصعوبة حتى خرجت من الزوبعة العظيمة التى صدمتها وأشاروا الى كسل الغربيين الواضح الذين بدل ما انهم يأتون الى القسطنطينية وذلك فى طاقتهم يطلبون سفر الشرقيين الى رومه فى الوقت الذى ابتدأت كنائسهم أن تنتعش وأصبحت فى حاجة الى وجودهم فى حضرتها ٠

وقد أصدر المجمع القسطنطينى حكمه فى قضية لاهوت الروح القدس مستندا لا على صوت الكنيسة الرومانية التى لم تكن تعرف عن المجمع شيئا بل على صوت الكنيسة العام كما يشهد بذلك القديس غريغوريوس النيسى أحد أعضاء المجمع حيث يقول فى اثبات أن الروح القدس اله حق ومساو فى الجوهر للآب والابن « انه يكفينا هذا الدليل التقليدى الذى تسلمناه من آبائنا والذى تسلمه آباؤنا من الرسل » (١) وأخوه القديس باسيليوس قال لمكدونيوس قبل اشتهار المجمع القسطنطينى « أن أحذر أن تفصل الروح القدس من الآب والابن فان التقليد يمنعك من ذلك ٠ هكذا علم السيد وهكذا كرز الرسل وهكذا حفظ الآباء وهكذا اعترف الشهداء ويكفيك أن تقر بما

---

(١) مؤلفه ضد اتوميوس كتاب ٤ ٠

تعلمت » (١) فأين صوت الكنيسة البابابوية وسلطانها اذا · ليحكم البابابويون عقولهم لعلهم يرتدعون (٢) ·

وليس من ينكر أنه كان للكرسى الاسكندرى الأولوية على الكراسى الأسقفية عامة وكان كرسى رومية حسدا منه يتقد غيظا لتقدم كرسى الاسكندرية عليه واعتبار الملوك له أكثر منه · ولكن بطاركة الاسكندرية الذين اشتهروا بالرقة واللطف وحسن المجاملة رضوا باشتراك أساقفة رومية فى حل المشكلات معهم ولو أفضى الى التنازل عن أفضليتهم · ولكن الرئاسة الفعلية والخطاب العام الذى يصدر سنويا وفيه تاريخ عيد الفصح كان مصدرهما الاسكندرية ·

أما الكرسى الأورشليمى فقد استرد مجده فى القرن الرابع وأخذ يترقى بسبب اعتبار المسيحيين للأماكن المقدسة · ولهذا فى القانون السابع من القوانين التى أصدرها مجمع نيقية وضع الكرسى الأورشليمى فى الدرجة الثانية أما الرئاسة العامة فكانت للاسكندرية فعلا ولرومية ادعاء · ويتضح ذلك من مراجعة التاريخ حيث يقرر أن الذين قاوموا البدع وعقدوا المجامع وترأسوا عليها وقاسوا الويلات فى سبيل تأييد الايمان هم باباوات الاسكندرية الذين كانوا يعتبرون مسئولين أمام الكنيسة عن حفظ سلامة الايمان بينما كان أساقفة رومية يتمتعون بالراحة حتى أن ليباريوس لما نفى بسبب تمسكه بتعاليم أثناسيوس الرسولى لم يطق النفى فجحد الايمان ورجع الى كرسيه ثانية ·

قال العلامة ستانلى فى كتابه فى تاريخ البابا أثناسيوس الرسولى : — « وأصبح البطريرك الاسكندرى بعد مجمع نيقية قاضى المسيحية فى كل العالم تطاع أحكامه فى جميع أنحاء المعمورة المسيحية فى كل الأمور العلمية دنيويها ودينيها وبلغ نفوذه أو كاد يبلغ نفوذ باباوات رومه فيما بعد فى أمور الكنيسة الغربية » أهـ حتى قال غريغوريوس النزينزى » ان رأس كنيسة الاسكندرية هو رأس العالم » وهذا نص قوله « ان القديس أثناسيوس اذ صار أسقفا على الاسكندرية أؤتمن على ادارة الشعب ورئاسته ويقول واحد أؤتمن على كل المسكونة » أهـ (٣) ·

---

(١) ضد بدعة سابليوس رسالة ٢٤ ·

(٢) عن كتاب « الوضع الالهى فى تاسيس الكنيسة » لكيرلس متار بالفرنسية ونقلناه عن كتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » ج ١ ص ٣٧٦ و٣٧٩ ·

(٣) خطاب ٢١ ·

وان كان يظن أسقف رومية أنه الرئيس الأول للكنيسة هدم أمله لما قام قسطنطين الكبير بتشييد مدينة القسطنطينية ولقد منحها كل امتيازات رومية القديمة واقتضى الحال أن يحسب أسقفها بدرجة أسقف رومية • ولم يجسر أحد بأن ينكر على القياصرة هذه البدعة ففى مجمع القسطنطينية المسكونى المار ذكره أقيم بطريرك القسطنطينية بموجب القانون الثالث فى الرتبة الأولى بعد أسقف رومية ووضع كرسيا الاسكندرية وانطاكيا بعدهما •

أما اذا كان قد أعطى لكرسى رومية رتبة أولى فذلك ليس على كل الكنيسة بل على جميع الكنائس الغربية فقط لأنه هو وحده فى الغرب مؤسس من الرسل فيما أن فى الشرق كراسى كثيرة مثله مؤسسة من بطرس ومن سائر الرسل • كما أن الاعتبار المدنى لا الدينى هو الذى كان يميز بعض الكراسى عن بعضها كما ذكر •

فاذا كان رؤساء كرسى رومية يفتخرون على رؤساء كرسى الاسكندرية بحصولهم على التقدم عليهم فى مجمع القسطنطينية فعليهم أن يتأكدوا أن الأسباب التى أوجبت تقدم رومية أن الامبراطرة الذين كانوا على مذهب أريوس لم يكونوا يعبأون بها ولا يهتمون بأمرها بل كانوا يصرفون جهدهم فى مقاومة بطريرك مصر والحط من شأن كرسى الاسكندرية لأن هذا الكرسى كان الوحيد المقاوم لهم دون باقى الكراسى الأسقفية فى العالم المسيحى أجمع •

(٤) **أريوس** : ولد فى ليبية القيروان بافريقيا سنة ٢٧٠م وكان له المام بعلوم كثيرة وبالنسبة لفصاحته ولطف معاشرته ومحبته للمجد الفارغ كان يسعى دواما لاحداث أمور جديدة فجاء الى الاسكندرية طامعا بأن ينال وظائف كنسية فدخل المدرسة اللاهوتية وتقدم فى علومها تقدما باهرا وداخلته الكبرياء وأحب أن يرقى درجات رفيعة بواسطة فصاحته •

وفى مبدأ أمره انضم الى ميليتس أسقف ليكوبوليس وساعده على العصيان ضد القديس بطرس بابا الاسكندرية ولكنه اذ رأى أن انضمامه لحزب ميليتس لا يساعده على التقدم تركه وصالح القديس بطرس فسامه شماسا سنة ٣٠٦م ولكنه كان مشتركا مع ميليتس اشتراكا خفيا •

أما هرطقة أريوس التى بدأ باذاعتها فى عهد البابا بطرس فكانت علة لنكبات عديدة حلت بالكنيسة • وأساس هذه البدعة أن الكنيسة كانت تعلم

منذ القـديم بأن الله واحد فى ثلاثة أقانيم ولـكنها لم تبحث فى نسبة أحدهم للآخر وحقيقة الفرق بينهم ولم تحكم فى شىء من هـذه القضايا غير أنه لما ظهر سابليوس الذى كان ينكر تمييز الثلاثة الأقانيم فى اللاهوت قائلا انه توجد ثلاثة أسماء لاله واحد مخترعة لتبيان مفاعيل اللاهوت المختلفة فحكمت الـكنيسة مضادة له بأنه يوجد فرق بين كل من الآب والابن والروح القـدس أى انه يوجد ثلاثة أقانيم متميزون فى اللاهوت ٠

وكان مذهب أريوس كأنه شرح لتعليم سـابليوس فـذهب الى أن الابن يختلف عن الآب فى الجوهر وأنه (أى الابن) أول وأشرف كل ما خلقه الآب من العـدم وأنه هو الواسطة التى كون بها الـكون ٠ ومع ذلك فهو حسب اعتقـاد أريوس أدنى من الآب فى الطبيعـة والمنزلة والآب أقدم من الابن لأن الابن مخلوق به ٠ وتمكن أريوس بدهائه وفصاحته من أن يجذب اليه بعض الأنصار فـكانوا يجادلون المؤمنين فى شوارع الاسكندرية ويصرخ الواحد منهم فى وجه الآخر قائلا « يا هرطوقى من الأكبر ٠ الوالد أم المولود » وآخر يقول « هل من المعقول ان يوجد ابن قبل ولادته » فبالطبع لم يفهم هؤلاء البسطاء السذج أن لفظة ابن نسبية مجازية بل اتخذوها حرفية (١) ٠

ومن حيل أريوس أنه جعل شعبه فى كنيسة بوكاليس التى رسمه قسا عليها البابا أرشلا أنهم يرتلون معا بعد قراءة كل مزمور كالآتى « المجد للآب بالابن فى الروح القدس » ظنا منه أن غالبية الشعب لا يلاحظون تحريفه للأصل الذى هو « المجد للآب والابن والروح القدس » وصار أتباعه يعلمون النساء فى الشوارع هذا السؤال « أيمكن أن يوجد ولد قبل أن يولد ؟ » ٠

واذ كان البابا الاكسندروس يعلم أمام أريوس مرة أن الكلمة ابن الله مساو للآب وأن له طبيعة وذاتا واحدة مع الآب عارضه أريوس وحكم أن هـذا التعليم هو نفس هرطقة سابليوس وقال أن المسيح غير مساو للآب فى الجوهر والعظمة وأنه مخلوق بارادة الآب حادث غير أزلى وأنه حال كونه أكمل خلق الله كان بحسب اختيـاره المعتـوق ذا طبيعـة متغيرة يمكنـه اتيـان الفضـيلة والرزيلة ولـكنه اعتنق الصـلاح والفضـائل فأشركه الله من أجل أعمـاله الصـالحة بطبيعتـه الالهيـة مجملا اياه بهـذه الألقاب أى كلمة وابن وحكمة ٠

---

(١) أنظر لفظة ابن النور ولفظة ابن جهنم وأمثالهما فى الانجيل ولا تنس شيوع لفظة ابن السبيل وابن الفضل الخ ٠

وان كان أريوس يحسب كقيم هذه الهرطقة الا أنه لم يكن مبتدعها على الأصح بل القائم بنشرها وامتدادها ويقال أنه أشرب هذه التعاليم من لوسياس الانطاكى . غير أن الذين أخذ عنهم أريوس معتقده لم يكن لهم تأثير كما كان لأريوس الذى تمكن من نشر بدعته وجعل كثيرين يعتنقونها ولعل سبب ذلك هو رد الفعل الناتج من شدة تمسك المؤمنين حينئذ بالأمور الروحية واحتفاظهم على معانيها وقوتها احتفاظا لم يدعهم يسقطون فى أزمنة الاضطهادات المرة .

وكان أريوس فى أول أمره يبث تعاليمه خفية ولكنه لما أذاع ضلاله جهارا حرم لأجله مرارا وتكرارا وبسببه انعقد مجمع نيقية فحكم بهرطقته ونفاه الى الليريكون هو ومن شايعه بعد أن قرر القانون الآتى « ان الجامعة المقدسة والكنيسة الرسولية تحرم كل قائل بوجود زمن لم يكن ابن الله موجودا فيه وأنه لم يوجد قبل أن يولد وأنه وجد من لا شىء أو من يقول ان الابن وجد من مادة أو جوهر غير جوهر الله الاب وكل من يؤمن أنه خلق أو من يقول انه قابل للتغيير ويعتريه ظل دوران » أهـ .

غير أنه فيما بعد تمكن أريوس من الرجوع من منفاه بواسطة اخت قسطنطين الكبير وحاول الرجوع الى مركزه بالاسكندرية ولكن البابا أثناسيوس الرسولى طرده منها فاجتهد أتباع أوسابيوس النيكوميدى نصيره أن يجعلوه يحوز القبول فى شركة كنيسة القسطنطينية فاستقدموه اليها واستدعاه الملك ليطلع على ايمانه وكان اتباع أوسابيوس قد قرروا للملك بأنه متمسك بالرأى القويم فقدم له صورة ايمانه خطأ وأقسم له بأنه لم يتمسك ولن يتمسك بايمان سواه . وعنى بهذا الايمان ما كان مكتوبا فى ورقة مخبأة معه فأوهم ظاهر كلامه أنه متمسك بالايمان القويم فانخدع الملك بهذا القسم وأمر أن يقبل فى شركة الكنيسة ويعرف عند اسكندر بطريرك القسطنطينية كراع فرفض هذا البطريرك قبوله وجعل يبذل جهده فى كشف الحقيقة وأن اعتراف أريوس بالايمان القويم انما هو مخاتلة . غير أن الملك بقى مصرا على رأيه وعين يوما لقبوله .

فأما اسكندر وكان قد بلغ سن الشيخوخة فمضى الى الكنيسة موعبا حزنا وجعل يذرف الدموع السخينة طالبا الى الله أن يصرف عن كنيسته هذا الخطب الذى ألم بها . وفى ذلك النهار عند العصر اذ كان أتباع أريوس وأنصاره يطوفون به فى أزقة المدينة باحتفال عظيم حتى انتهوا به الى ساحة المدينة اعتراه رعب واقشعرار فأحس كأن أحشاءه قد تمزقت فسقط فجأة

ميتا · وقيل أنه فيما كان فى وسط ذلك الاحتفال يروم دخول الكنيسة منتصرا فلم يك يدنو منها حتى شعر بنفسه مضطرا الى قضاء أمر طبيعى فانفرد بذلك فى مكان خفى · ولما أبطأ فى الرجوع ذهبوا اليه فألفوه ميتا مطروحا على وجهه ملطخا بدمائه وأمعاؤه مندلقة الى الأرض بين الأقذار ·

أما تعاليمه فلم تمت بموته بل انتشرت بعد موته أكثر مما انتشرت فى حياته وامتدت الى أمد بعيد وازداد أتباعه كثيرا حتى تمكنوا من محاربة الأرثوذكسيين وبعد ذلك وقع الانشقاق بين الأريوسيين فانقسموا الى عدة شيع ·

وهكذا بقيت التعاليم الأريوسية ممتدة فى أسبانيا والولايات الجرمانية أكثر من ٣٠٠ سنة وأما بريطانيا فلم تمتد فيها سطوتها الا عند انعقاد المجمع الانطاكى سنة ٣٦٣ م وفى أيام ثيوديوس الثانى صدر أمر باستئصال الأريوسية وابادتها بموجب قانون تقرر فى السلطنة الرومانية وذلك سنة ٤٢٨ م ومن ذلك العهد الى الآن لم تعرف فرقة بالحقيقة أريوسية حسب تعاليم أريوس · لكن يقال ان سرفتس أحياها فى حدود القرن السادس عشر وأيد هذا القول أراسمس فذاعت تعاليمها وأزعجت الكنيسة كما يظهر من حكم كنيسة انجلترا الصادر بهذا الشأن ومآله أن الأريوسيين الذين وجدوا غير قابلى الاصلاح ينفون الى بعض القلاع فى شمالى والس أو والنجفور لكى يعيشوا هناك من تعب أيديهم ولا يسمح لأحد أن يخالطهم الا خفرتهم ولا أن يخرجوا من هناك حتى يتحقق صدق قدسيتهم ورجوعهم عن غيهم الى الايمان القويم ·

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن كيرلس مقار بطريرك الأقباط الكاثوليك ذكر فى كتابه « الوضع الالهى فى تأسيس الكنيسة » أن الكنائس الغربية جحدت الايمان ثلاث مرات معتنقة مذهب أريوس قال : « على أن الكنائس الغربية لم تجحد الايمان مرة واحدة بل ثلاث مرات : الأولى سنة ٣٥١م وذلك فى مجمع أرلس حيث كان فنستوس أسقف كابو نائبا عن البابا ليباريوس· فان هذا الأسقف ومعه جميع الأساقفة الغربيين قد نزلوا على ارادة الامبراطور قسطانس وحكموا على القديس أثناسيوس بالاجرام وقرروا أرثوذكسية الأساقفة الأريوسيين · والثانية سنة ٣٥٥ م وذلك فى مجمع ميلانو حيث صدق ٣٠٠ أسقف غربى على خلع القديس أثناسيوس وقبول الأريوسيين فى شركة الكنيسة ولم يفضل العذاب وآلام النفى على جحود الايمان ودوس العدل من هذا العدد الكثير الا ثلاثة أساقفة هم أوسابيوس

أسقف فرسايل وديونيسيوس أسقف ميلانو ولوسيفورس أسقف كاجلياري ٠ والثالثة سنة ٣٥٩م وذلك فى مجمع ريمينى الشهير حيث اجتمع ٤٠٠ أسقف غربى ٠ ثمانون منهم من الأريوسيين والباقون من الأرثوذكسيين وقد ال الأمر بهم الا ١٨ منهم الى جحد دستور الايمان النيقاوى والتوقيع على خلع أثناسيوس والاعتراف بأرثوذكسية الأريوسيين ٠

أضف الى هذا الالحاد الذى ارتكبه مجموع الأسقفية الغربية الحاد البابا ليباريوس نفسه بصفته أسقف الكنيسة الرسولية الوحيدة فى الغرب كله فان ليباريوس هذا بعد أن سئم من آلام النفى مدة سنتين وتاقت نفسه الى أن يعود الى التربع على كرسى رومية الكبير ٠٠ جحد ايمان نيقية وقطع القديس اثناسيوس من شركة الكنيسة واعتنق الأريوسية (١) ٠

(٥) مكدونيوس عدو الروح القدس :

كان أولا من حزب الأريوسيين وتمكن هؤلاء بواسطة نفوذهم عند قسطنس قيصر من أن يرسموه بطريركا لكرسى القسطنطينية سنة ٣٤٣ م فدخل المدينة محفوفا بالجنود وثار شغب بين المؤمنين والأريوسيين قتل فيه كثيرون ٠ وكان مكدونيوس يضطهد أتباع بولس البطريرك الشرعى المعزول حتى قيل أنه أرسل فخنقه ٠

وفيما بعد تغير قسطنس عليه لأنه نقل جثة أبيه قسطنطين من مدفن الى آخر فأمر بطرده من كرسيه فطرد منه سنة ٣٦٠ م على أنه لما كان بطريركا لم يكن يعلم الا تعليم أريوس الا أنه لما عزل أراد أن يكون مبتدعا بدعة جديدة ٠ وكان المبتدعون الذين سبقوه قد أنكروا لاهوت الآب ولاهوت الابن فأراد أن ينكر لاهوت الروح القدس فادعى أن الروح القدس عمل الهى منتشر فى الكون وليس باقنوم متميز عن الآب والابن واعتبره أنه مخلوق يشبه الملائكة لكنه ذو رتبة أسمى منهم ٠

ثم أخذ يبث ضلاله فى كثيرين وكان قد نفى الى مكان يدعى بيلى فشاخ هناك وعاجلته نقمة الله الا أن بدعته استمرت بعد موته وكان أخص القائمين بنشرها تلميذه مارانتينو أسقف نيكوميديا وامتدت بدعته فى أديرة كثيرة للرهبان وانتشرت فى تراسة وبيثينية وكان العامة يدعون أتباع مكدونيوس « أعداء الروح القدس » ٠

---

(١) نقلا عن « الخريدة النفيسة » ج١ ص ٣٥٧ — ٣٥٩ ٠

ولما رجع البابا أثناسيوس من منفاه إلى كرسيه سنة ٣٦٢م عقد مجمعا بالاسكندرية شجب فيه هذه البدعة وتبعه بعض الأساقفة فشجبوها • ولما وصل خبرها الى مسامع ثيودوسيوس قيصر أمر بانعقاد مجمع القسطنطينية سنة ٣٨١ م التأم فيه ١٥٠ أسقفا شرقيا فحكموا على مكدونيوس وقضى المجمع بسلطانه على تلك البدعة الحديثة الغير البالغة •

(٦) مرقس المصرى :

أصله من مدينة منفيس (بالجيزة) ذهب الى أسبانيا وتتلمذ له أولا امرأة اسمها أغاياثم جذبت تلك المرأة أحد معلمى الفصاحة اسمه البيديوس وهذان الاثنان علما بريشيليانوس الذى سميت البدعة باسمه فيما بعد • أما تعليمهم فكان فى أعمقه نفس تعليم المانيين ممتزجا أيضا بأضاليل أخرى فكانوا يقولون أن النفوس من جوهر الله وأنها تنحدر باختيارها إلى الأرض جايزة فى السموات السبع بواسطة درجات قوات للمحاربة ضد الملك الشرير الذى كان يضعها فى أجساد لحمية مختلفة ويزعمون بغير ذلك من الأضاليل التى لا طائل تحتها •

(٧) شيعة المصلين :

وقد انتشرت فى سوريا ومصر بدعة مؤداها ان فى عقل كل انسان روحا شريرا لا يمكن أن يفارقه الا بالصلوات المستمرة والترنم المستديم • ومتى هرب الروح هروبا نهائيا تعود النفس إلى إلله خالية من كل دنس لأنها ذرة منه •

(٨) خلاف فى مقام السيدة العذراء :

وقد نشأ فى هذا القرن مذهب أعداء مريم الذين يقولون أنها لم تلبث عذراء بل ولدت بعد ميلاد يسوع المسيح أولادا من القديس يوسف • ويقال أنه فى ذلك الزمان بعينه انتشر تعليم آخر يضاد التعليم المذكور وهو أن فى البتول القديسة شيئا من اللاهوت وقد دعى أصحاب هذا التعليم كوليريديس لأنهم كانوا يعبدون العذراء بتقديم بعض أقراص من طحين تسمى باليونانية كوليريديس ومنها اسمهم • وكان أكثر النساء متمسكات بهذا الاعتقاد وكن فى بعض الأيام يزين عجلة مع كرسى مربع موشح بأقمشة

من كتان ويقــدمن للبتول خبزا ثم تأخــذ كل منهن جزءا من ذلك الخبز وذلك عبارة عن اقامة قــداس • ويظهر أنه من هــذا المــذهب تسرب الى ذهن بنى الاسلام أن المسيح دعا القوم ليتخذوه وأمه الهين من دون الله •• من قوله فى سورة المائدة •

(٩) انشقاق ميليتس :

هو أسقف مدينة ليكوبوليس (أسيوط) وقد روى عنه البابا أثناسيوس أنه فى أثناء اضطهاد ديوكلتيانوس نجى نفسه بأن ذبح للأوثان رغمــا عن النصيحة التى أرسلها اليه أربعة من الأساقفــة كانوا فى السجن ثم ذاقوا كأس الحمــام • ولم يكتف بذلك بل انتهز فرصة غياب البطريرك وجلس على كرسى البطريركية وأخذ يتداخل فى شؤونها وصار يرسم قسوســا بل سلم أساقفــة لأبروشــيات أخرى غير أبروشيته حتى بلغ عــددهم ثلاثين أســقفا جاهروا فيما بعد بخروجهم على الكرسى الاسكندرى واستقلالهم عنه وأدخلوا أنظمة يهودية فى عبادتهم •

فعقــد البــابا بطرس آخر الشهداء مجمعــا حكم فيــه بحط ميليتس من درجته وأبلغــه الحكم فلم يذعن بل صرح بانشــقاقه وظــاهره أريوس الهرطوقى • وبعــد هذا كله اعتزل ميليتس فى بلدته عن كل عمل • وفيما بعد نظر مجمع نيقيــة فى أمر انشقاق ميليتس فقرر بشأنه ما ذكر بالرسالة التى أرسلها للــكنيسة المصرية وذكرت فى الــكلام على أعمال مجمع نيقية •

وقد رضخ ميليتس لحكم هذا المجمع وخضع للبابا الاكسندروس خليفة البابا بطرس الى أن مات سنة ٣٣٠ م بعد ان انضم للأريوســيين فى حبرية البــابا أثناسيوس الرسولى • وقــد خلفه فى رئاسة حزبه يوحنا اركاف الذى اشتهر بعدائه للبابا أثناسيوس • أما حزب ميليتس فقد بقى بعد موت اركاف قائما فى مصر حتى القرن الخامس وكان يقوده بعض الرهبان الذين أدخلوا على مبادئه شيئا من قوانين اليهود والسامريين •

القرن الخامس

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) كيرلس١ (٢) ديوسقورس١
(٣) تيموثاوس٢ (٤) بطرس٣
(٥) أثناسيوس٢ (٦) يوحنا١

---

(١) كيرلس١ ـ البطريرك الرابع والعشرون :

وهو ابن أخت البابا ثاوفيلس ولهذا اعتنى بتربيته وتعليمه اعتناء زائدا فأدخله أولا المدرسة اللاهوتية بالاسكندرية فدرس العلوم الفلسفية التى تلزم لكل من يقوم مدافعا عن الدين المسيحى ضد الهراطقة والمبتدعين • وبعد ذلك أرسله الى جبل النطرون الى برية القديس أبى مقار ليتتلمذ لسيرابيون الحكيم الذى أوصاه البابا ثاوفيلس بأن يهذبه بعلوم الكنيسة فأقام هناك خمس سنين يقرأ الكتب الالهية ولم يكن ينقطع عن المذاكرة حتى فى أغلب الليالى • فكان يقف يقرأ وفى يده سيف حديد فأذا نعس ينخسه فيستيقظ • ولبث مواظبا على ذلك حتى برع فى فهم الأسفار المقدسة براعة غريبة • ومن ثم استدعاه خاله الى الاسكندرية وبقى معه فى قلايته يقرأ بين يديه • ولما رآه مستحقا للرتب الكهنوتية رسمه شماسا وكلفه بالقيام بالوعظ فحاز اعجاب سامعيه وكان موضوع فرح جميع الكهنة والعلماء حتى أنهم كانوا اذا تكلم يشتهون أن لا يسكت لحلاوة الفاظه •

ثم انعكف على مطالعة أقوال آباء الكنيسة حتى ألم بها الماما كليا • ففرح به خاله البابا ثاوفيلس وشكر الرب الذى رزقه ولدا روحانيا مثل هذا نشأ بالنعمة والحكمة وكانت له سيرة حسنة • فاشتهر بشهرة عظيمة وحاز صيتا بعيدا حتى انتخبه الشعب والاكليروس بصوت واحد لتبوؤ الكرسى المرقسى خلفا لخاله ثاوفيلس فى هاتور سنة ١٤٧ ش حسب جدول ابن العسال و١٢٩ ش حسب تاريخ أنبا ساويرس وسنة ٤١٢ م فى عهد ثيودوسيوس قيصر الصغير ولو أنه قام وقتئذ حزب آخر طالبا تيموثاوس رئيس الشمامسة ليكون بطريركا الا أن مساعى هذا الحزب لم تنجح فتوطد كيرلس على الكرسى البطريركى حيث قام بجهاده العظيم •



« البـــابا كيرلس الأكبر »

ووقت تولى هــذا البطل لــكرسى البطريركية كان فى مدينة الاسكندرية كثيرون من الهراطقـــة واليهود الذين عظمت شــوكتهم وصــار لهم نفــوذ عظيم • فالهراطقـــة تقووا بسبب تظــاهرهم بالعبــادة الشاقة حتى صار لهم أســقف خاص يدعى ثيوبمتوس • واليهود جعلت لهم الرشــوة مكانة عنــد الولاة والقضـــاة •

فبــدأ هــذا البطريرك جهاده باضطهاد النوفاسيين أتباع نوفاسيانوس الهرطوقى الذين كانوا يأبون أن يحلوا الناس من خطاياهم فناصبهم وأوضح لهم سوء معتقدهم الذى يجعل الله جلت قدرته عــديم الرحمة ولــا لم يرعووا عن غيهم الزمهم بالخروج من المدينة وطرد أسقفهم وجرده من جميع أملاكه ومقتنياته وأخذ منه ذخــائره التى كانت تحت يده • أما اليهود فمع أنهم أفرغوا كنــانة جهــدهم حتى يفســدوا عقول الحكام والولاة بالهدايا ولــكنهم لم يفلحوا • وبالنسبة لــكراهتهم الشــديدة للبــابا كيرلس اشاعوا ذات ليلة أن النــار اشتعلت فى كنيسة القــديس اسكنــدر فالتزم المؤمنون بناء على

هذا الخبر أن يبادروا اليها من كل جهة زاحمين الشوارع كبارا وصغارا مسرعين لاطفاء النار • فانتهز اليهود هذه الفرصة وشرعوا يفتكون بهم ويهدرون دماءهم بقساوة ووحشية • ولما اتضحت جلية الأمر صباحا قامت قيامة المسيحيين وعزموا على الانتقام من اليهود ولما لم يقدر البابا أن يمنعهم تنازل لهم بعد عناء شديد بأن يكتفوا بطردهم من المدينة بدون أن يمسوا أحدا بضرر فطردوهم وهدموا كل مجامعهم واستولوا عليها وما فيها • ولما بلغ الأمر لأورستا والى المدينة لام البطريرك على ذلك فأخبره أنه لولاه لجرت دماء اليهود فى الشوارع كالأنهار • وفى هذا الحين أيضا جرت حادثة الفيلسوفة هيباشا الشهيرة التى غدر بها بعض الطائشين بدون ترو وبدون أن يعلم البابا كيرلس مطلقا •

وهذه الحوادث جرت فى بدء رئاسة البابا كيرلس ثم اشتغل بعدها بوضع مقالات وميامر حتى أن أكثر رؤساء الاسكندرية استخدموا نساخا لينقلوا اليهم ما وضعه هذا البطريرك • وكان قد سمع بأن يوليانوس الفيلسوف والملك الكافر وضع عشرة كتب ضد الدين المسيحى وكانت موضوع فخر الشبان الوثنيين فحاول أن يجمعها ويحرقها ولما لم يتمكن من ذلك كتب الى القيصر ثيودوسيوس يستعين به على ذلك فلبى القيصر طلبه وجمع كتب يوليانوس وأبادها وأرسل يلتمس منه أن يصلى من أجله • ثم أخذ البطريرك فى الرد على أقوال يوليانوس وطفق يفندها جميعها حتى قضى عليها •

وكان هذا البابا على رأى خاله ثاوفيلس البطريرك من جهة فم الذهب ولذلك لم يذكر اسمه فى صلوات القداس • وكتب اليه اتيكوس بطريرك القسطنطينية فطلب اليه أن يذكره كحسب عادة الكنيسة نظرا الى البطاركة المؤمنين فلم يرض بذلك • فاتفق يوما أنه رأى فى الحلم القديس يوحنا فم الذهب فى الكنيسة مع زمرة من الملائكة متسلحين وهم يخرجونه خارجا وبينما هو على هذه الحال اذا بالسيدة العذراء قد حضرت وطلبت الى القديس يوحنا من أجل كيرلس ليبقيه فى كرسيه • فتنبه حينئذ البابا كيرلس وعلى الفور أخذ يكرم القديس يوحنا وضم اسمه الى قائمة أسماء القديسين (١) وأمر الرعية كلها باكرامه •

---

(١) كانت هذه القائمة عبارة عن لوحات مصنوعة اما من الخشب أو العاج أو الذهب أو الفضة ومحفورة عليها الأسماء التى تذكر فى القداس وهى :

وفى ذلك الحين ظهر نسطور بطريرك القسطنطينية المنافق وابتدع هرطقة شنيعة مؤداها انكار ألوهية السيد المسيح وابتدأ فيها بانكار كون السيدة العذراء والدة الاله قائلا « انى اعترف موقنا ان كلمة الله هو قبل كل الدهور الا أنى أنكر على القائل بأن مريم والدة الله فذلك عين البطلان لأنها كانت امرأة والحال أنه من المستحيل أن يولد الله من امرأة ولا أنكر أنها أم السيد المسيح الا أن الأمومة من حيث الناسوت » اهـ وبذلك قسم هذا المبتدع السيد المسيح الى شخصين معتقدا أن الطبيعة الالهية لم تتحد بالانسان الكامل وانما ساعدته فى حياته فقط • فامتدت بدعته حتى وصلت الى رهبان مصر وبعض الأكليريكيين القبيحى السيرة فتأثر بعضهم من براهينه السفسطية وأرادوا أن يقلعوا عن تسمية العذراء بوالدة الاله • وحالما طرقت هذه الأخبار أذن البابا كيرلس أسرع وكتب فى رسالة عيد الفصح يفند هذه البدعة تفنيدا قويا وأرسل هذه الرسالة الذين ماكادوا يطالعونها حتى زال كل ريب منهم • وانتشرت هذه الرسالة فى جهات عديدة حتى وصلت الى القسطنطينية وتداولها المصريون فيها وبواسطتها تعزى الشعب القسطنطينى وتمكن فى الايمان المستقيم •

أما نسطور فلم يرتدع ببراهين هذه الرسالة بل ازداد غيا وأوعز الى أحد كهنته المدعو افوسيوس ليرد عليه مبررا فيها رئيسه • وشرع نسطور يذيع عن القديس كيرلس بأنه تابع لأبوليناريوس الهرطوقى وانه اخترع هذه التهم ضده وحرك رهبان مصر ليشيعوا عنه أمثال تلك الأقوال الباطلة • أما البطريرك الاسكندرى فكراع أمين أرسل لنسطور رسالة يبرر فيها نفسه مما أشاعه عنه ويوضح له حقيقة الايمان وينصحه بمحبة أخوية أن يعدل عن رأيه ويصلح خطأه وختمها بقوله « وعلى ذلك تأكد انى مستعد لاحتمال كل سوء وعذاب السجن والموت لأجل ايمان يسوع ، فازداد نسطور شرا وأصر على ضلاله وكتب الى القديس بتكبر ووقاحة محتقرا اياه ومزدريا به ومخبرا اياه أن العائلة الملوكية راضية عليه وعلى أعماله •

وكان لرؤساء الكرسى الاسكندرى نواب فى مدينة القسطنطينية للقيام بمصالح البطريركية فى البلاط الملوكى • فخاطبهم البابا كيرلس

---

(١) اسم العذراء مريم والرسل وبعض مشاهير القديسين •

(٢) أسماء الأشخاص المعروفين الذين ماتوا على المبدأ الدينى الصحيح •

(٣) أسماء بعض الأشخاص الأحياء الذين ترى الكنيسة أنهم مستحقون للاكرام والاجلال •

بشأن نسطور لكى يلاحظوا تصرفاته ويحيطوه علما بها • ولكن حدث أن كهنة نسطور تكلموا مع نواب القديس كيرلس قائلين بأن أسقفهم صحيح الايمان وانه يرغب فى السلام فمع كون النواب كانوا يعرفون عن نسطور عكس ذلك فقد كاتبوا رئيسهم بهذا الأمر وأرسلوا اليه صورة مفادها أن نسطور مبتدع • فبعد فحص القديس كيرلس لتلك الصورة أرسل اليهم طالبا اخفاءها والسعى لدى نسطور ليوقع على صورة الايمان الصحيح لتكون أساسا للصلح •

وكان القديس كيرلس قد كتب بنفسه لنسطور عدة رسائل يقنعه فيها بالاقلاع عن غوايته ولكن نسطور احتقر رسائل القديس ولم يقتنع بها وينحاز الى الايمان الرسولى • وابتدأت تتقاطر على القديس كيرلس الرسائل من كل جهة تسأله بأن يوضح لهم حقيقة الايمان ليروا ما ذهب اليه نسطور فى الاعتقاد • فكان يجيب كل سائل بما يشفى الغليل برسائل اشتهر أمرها وحازت رضاء الجميع •

ولما رأى القديس كيرلس أن القيصر يدافع عن نسطور ويحامى عنه لاعتباره اياه رجلا فاضلا عالما كتب اليه رسالة يوضح له فيها ضلال نسطور وكتب أيضا رسائل أخرى لبعض أفراد العائلة القيصرية شرح فيها سر التجسد • فكتب رسالتين احداهما للملكة أفدوكسيا زوجة القيصر وبولكاريا شقيقتها • والثانية لاركاديا وماريا شقيقتى القيصر مذ كانتا ناذرتين العفة لله مع بولكاريا • مبينا لهما فى هاتين الرسالتين حقيقة الايمان والأضرار الناشئة للدين المسيحى من بدعة نسطور ويحرض على العمل لاستئصال شأفة هذه المنازعات •

وفى سنة ٤٣٠ م وفد على القسطنطينية من أوربا أسقف من أتباع بيلاجيوس (وهم قوم يجولون فى البحار والقفار لا مقر لهم) مع جماعة من رفاقه فكتب نسطور الى كليستينوس أسقف رومية يعلمه بوصول هذه البعثة التى تعتبر تابعة له ويسأله رأيه فيما يجب أن يجريه معهم وقصد بهذه الحيلة أن يستميل اليه جانب الأسقف الرومانى ضد خصمه كيرلس ولذلك ختم رسالته اليه بالشكوى من معاملة كيرلس له وتفهيمه آراءه • ولما لم يرد عليه الأسقف بسرعة كتب اليه نسطور ثانيا فى هذا الصدد فجاوبه كليستينوس بأنه لم يستعجل فى الرد ليتمكن من معرفة الموضوع • ولما كان الأسقف الرومانى عالما بتفوق البابا الاسكندرى عليه فى علم اللاهوت كتب يطلب منه ايضاحا للمسألة فكتب اليه القديس

كيرلس كتابا يعلمه فيه بحقيقة نسطور وأرسله مع واحد مخصوص اسمه يوسيذونيوس وأوصاه بأن لا يعطى أسقف رومية الكتاب مالم يتحقق أن نسطور كتب له ٠

فلما وقف أسقف رومية على الحقيقة عقد مجمعا حكم فيه على نسطور بأنه هرطوقى مبتدع وكان قرار المجمع تهديدا لنسطور لكى يقلع عن ضلاله ولذلك كتب اليه أسقف رومية يقول « ان لم ترفض واضحا وبنية مستقيمة هذا التعليم المضل ولا تعتقد الاعتقاد الصحيح بسيدنا يسوع المسيح فى مدة عشرة أيام أفصلك من شركتى وأقطع كل علاقة معك » وأرسل هذا القرار الى القديس كيرلس ليعلن نسطور به ٠ فأرسل هذا البابا الى بعض أساقفة الشرق يطلب منهم أن يقنعوا نسطور بالرجوع عن آرائه ومنهم أكاكينوس مطران حلب الشيخ البالغ من العمر يومئذ مائة سنة ٠ ثم عقد مجمعا فى الاسكندرية قرئت فيه كل رسائله فارتاح اليها وحكم بصحتها وحرر رسالة لنسطور بين فيها كيف ينبغى أن يؤمن ٠ ثم وضع القديس كيرلس اثنى عشر بندا يشمل كل بند منها على قضية وحرم كل من يعمل بخلاف ذلك وكلف نسطور بأن يمضى عليها ٠ وهذه هى الاثنا عشر بندا التى أصدرها :

(١) من لم يعترف أن عمانوئيل هو اله حقيقى ومن أجل هذا أن العذراء الطاهرة هى والدة الله كونها ولدت جسدانيا الكلمة المتجسد الذى من الله لكون الكلمة صار جسداً فليكن محروما ٠

(٢) من لم يعترف بأن كلمة الله الآب صار واحدا مع الجسد كالأقنوم وأن المسيح واحد فقط مع جسده وهو اله وهو انسان فليكن محروما ٠

(٣) من فرق من بعد الاتحاد بالمسيح الواحد الى اقنومين وضايقهما فى بعضهما بعضا بالمصاحبة فقط أم بالعظمة أم بالقدرة أم بالسلطان ولم يحسن أن يوحدهما بوحدانية طبيعية فليكن محروما ٠

(٤) من ميز تلك الأصوات المذكورة فى كتب الانجيليين أم فى رسائل الرسل أم نطق بها الآباء القديسون أم قالها المسيح على ذاته وفرزها الى أقنومين أم الى اثنين قائم بذاته ويفهم أن البعض منها هى لائقة لانسان خصوصى وحده فقط كأنه غريب عن كلمة الله وأن البعض منها ملائمة لله فهو يخصها لكلمة الآب وحده فقط فليكن محروما ٠



« البابا كيرلس الأول وهو يخطب »

(٥) من تجاسر وقال ان المسيح الذى يستعمل السلطان الالهى أنه انسان ساذج ولم يحسن أن يقول أنه اله بالحقيقة وابن واحد بالطبيعة الذى كالاتحاد الأقنومى واشترك معنا فى اللحم والدم لكون الكلمة صار جسدا على مافى الكتب فليكن محروما ٠

(٦) من قال ان كلمة الآب هو اله أم رب المسيح وليس يحسن الاعتراف بأن المسيح نفسه هو اله وهو انسان لكون الكلمة صار جسدا على مافى الكتب فليكن محروما ٠

(٧) من قال ان الله الكلمة كان يفعل فى الانسان يسوع وأن عزة ابن الله الوحيد اتصلت به كأنه آخر غير الكلمة فليكن محروما ٠

(٨) من تجاسر وقال ينبغى أن يسجد للانسان الذى أصعد الى السماء مع الله وأن يمجد معه أو يسمى معه الها كان واحدا مع آخر وهو يضطر أن يعترف أن زيادة فى كل حين ولا يمجد عمانوئيل بسجدة واحدة ويوصل اليه هذا المجد فقط لكون الكلمة صار جسدا فليكن محروما ٠

(٩) من قال أن ربنـا يسوع المسيح الوحيد كان ممجدا من قبل الروح القـدس بقـدرة غريبة منه وأنه بنعمـة الروح كان يستعمل تلك القـدرة والسلطان على خروج الأرواح النجسة وبه يتم الآيات اللاهوتية فى البشرية ولا يقول ان الروح خاصة له وأنه كان يفعل به آيات اللاهوت فليكن محروما ٠

(١٠) ان الـكتاب المقدس يقول ان المسيح صار رسولا وعظيم أحبـار ايماننا وانه قرب نفسه لله لأجلنـا ولأجل خلاصـنا بخورا طيبـا لله الآب فأما من قال أن كلمة الله ليس هو الذى صـار رسـولا ورئيسا للـكهنوت وتجسد وصار انسانا مثلنا بل أنه أخذ جسدا خارجا عنه وهو انسان فقط من امرأة دون الـكلمة ٠ ثم ومن قال أيضـا ان المسيح قرب نفسه لله الآب لأجل نفسه ولم يحسن القول أنه قرب نفسه لأجل خلاصنا نحن البشر فقط لأنه لم يحتج الى قربان اذ لم يعرف خطيئة فليكن محروما ٠

(١١) من لم يعترف بأن جسد الرب شاف محيى كونه لـكلمة الله الآب ويعكس الحق ويقول أنه آخر خارج عنه اجتمع بالتمجيـد وكان فيـه فقط بحلوله ظـاهرا يقول انه محيى على ما قلنـا ٠ لـكون الله الـكلمة كان ساكنا فيـه غير متحد به باتحاد أقنومى ولم يحسن كما سبق قولنا انه معطى الحياة كونه صار لـكلمة الله خاصة الذى هو قادر أن يحيى الـكل فليكن محروما ٠

(١٢) من لم يعترف بأن الله الـكلمة تألم فى الجسد وصلب فى الجسد وذاق الموت وأنه بكر الأموات مثلما أنه الحيـاة وهو المحيى كالاله فليكن محروما ٠ أهـ

فلما وصلت كتابات القديس كيرلس الى نسطور رفض التوقيع عليها بحجة عدم استقامتها وأخذ يكتب على كل فصـل منها فصـلا ضده ختمـه بالحرم وكتب كثيرون من أساقفـة نسطور ضـدها منهم أندراوس أسـقف سميساط وثاوذوريتوس أسـقف كورش الذى كتب بايعاز يوحنـا بطريرك أنطاكية وكتب أيضا فى تجسد الـكلمة ضد آراء القـديس كيرلس وكتب أيبا أسقف اداسيس (أورفا) مدافعـا عن نسطور ٠ وهكذا انقسمت الـكنيسة الى شطرين فكانت كنائس رومية وأورشليم وآسيا الصغرى تابعة للبـابا كيرلس ٠ وكنيسة أنطاكية تابعة لنسطور ٠

ولـما انتشرت رسائل البـابا الاسكندرى فى القسطنطينية اقتنع بهـا الشعب وأبغضـوا نسطور للغـاية ٠ ولـكن نسطور استعمل نفوذه عنـد

القيصر ضـد خصومه غير أن هـذا وقف فى ذلك الحين على رسالة كتبها اليه القـديس كيرلس يطلب فيهـا عقـد مجمع عام ويقول له فيهـا « ان آباءك كانوا غيورين على مجد الـكنيسة فيلزمك أن تأمر بعقد مجمع عام تفحص فيـه قضـية نسطور الذى يحاول أن يشتت بيعـة المسيح ونحن تلقاء ذلك نصلى من أجلك ومن أجل مملـكتك » ·

وكان بعض رهبان القسطنطينية قـد جاهروا ضد نسطور فطـردهم واضطهد بعضهم اضطهادا شـديدا فانضم الشعب القسطنطينى الى القديس كيرلس فى طلب عقد المجمع وكان لمـا قرأ القيصر الرسالة الكيروليسية تحرك بقوة الرب ولبى الطلب وأمر بعقد مجمع مسكونى وأرسلت مكاتيب الدعوى الى الأساقفة ونادى بأن يكون هذا المجمع بمدينة أفسس سنة ٤٣١ م وعين لافتتاحه يوم عيد العنصرة ·

فتقـاطر الأسـاقفة من كل مكان الى هـذا المجمع وأتى البطـريرك الاسكندرى بصحبة خمسون أسقفا مصريا فىمقدمتهم شنودة الأخميمى وبقطر السوهاجى الراهبـان وحضر يوبيناليوس أسقف أورشليم فاستقبلهم ممنون أسقف أفسس وهو مصرى الأصـل هو وكثير من الأسـاقفة القويمى الرأى وضموا أصواتهم الى صـوت اخوانهم المصريين ففـاقوا فى العدد خصومهم النسطوريين ·

وجاء نسطور الى أفسس ومعه أربعون أسقفا من التـابعين له وتأخر عن الحضـور أسـاقفة الشرق ويوحنـا الانطاكى ونواب أسقف روميـة · وبعـد أن انتظرهم المجمع ستة عشر يوما أرسلوا يعتـذرون عن تأخـرهم ويعدون أنهم بعـد خمسة أو ستة أيام يصلون · ثم فهم المجمع من مطرانين شرقيين نقـلا عن يوحنا الانطاكى بأنه لا مانع من انعقـاد المجمع قبل مجيئه الى أفسس · وكان البابا الاسكندرى قد أخذ تحريرا ملوكيا يأمر بعدم تأجيل العمل · وفوق ذلك فقد دعت أعذار صحية الى الاستعجال فى فتح المجمع وقبل انعقاده أخذ بعض الأساقفة يترددون على نسطور وينصحونه بالحسنى لـكى يكف عن عناده ويسالم القديس كيرلس فلم يذعن لهم ·

وقد بدأت جلسات المجمع تحتشد فى شهر يونية من تلك السنة وأرسل الى نسطور ليحضر فأبى ولمـا وصل الخبر الى القيصر اعتذر لديه نسطور بأنه يخشى من الذهاب الىالمجمع وحده لئلا يقتل لأن أعداءه أكثر من أنصاره ولمـا كان القيصر لم يحضر المجمع ليترك له الحرية التـامة أرسل من قبـله

نائبا يدعى كانديديانوس نسطورى المذهب وأوصاه القيصر بالمحافظة على النظام فقط دون التداخل فى شؤون الأساقفة ٠ قيل أن هذا النائب أراد قبل انعقاد جلسات المجمع أن يضطهد الأرثوذكسيين لكى يخافوا ويحكموا لصالح نسطور فأخذ القديس كيرلس ومن معه وحبسهم فى مكان فيه حنطة فسأل البطريرك أصحابه أى شىء تحت أرجلنا قالوا له قمح فقال : « الشكر لله المبارك الذى أعطانا الغلبة لأنهم جعلونا فى بيت الحياة » غير أن ذلك لم يؤثر على الأرثوذكسيين بل زادهم ثباتا فى ايمانهم ٠

وكان المجمع مؤلفا من مائتى أسقف تحت رئاسة البابا الاسكندرى (١) وحال انعقاده اعترض نسطور عليه طالبا منه انتظار نواب بقية الكنائس وساعده مندوب القيصر فى هذا الطلب ٠ أما الآباء فلم يرجعوا عن عزمهم لمعرفتهم بسوء نيته ٠ ولما كان رؤساء المجمع يقيمون الصلاة انفرد عنهم نسطور وأبى حضور المجمع فأنفذوا اليه ثلاثة أساقفة يسألونه أن يحضر معهم للصلاة فلم يمكنهم مندوب القيصر من مقابلته وتكررت له الدعوة ثلاث مرات بواسطة الأساقفة والانذارات وأخيرا كتب نسطور كتابا موقعا عليه هو و١٦ مطرانا و٥٠ أسقفا يقول فيه أنه لا يحضر المجمع قبل وصول يوحنا الأنطاكى وأساقفته ٠ فلم يبال المجمع بهذه الاعتذارات الباطلة وأخذ فى عقد الجلسة الأولى ٠

فتليت رسائل القديس كيرلس وبنوده الاثنا عشر ورسالة كليستينوس أسقف رومية الى نسطور وقرار مجمعى رومية والاسكندرية فصدق المجمع عليها بأنها أرثوذكسية ٠ وصدق على الأحكام السابقة من بيلاجيوس وكليستينوس الهرطوقيين ٠ وقرر ان لا يسن قانون غير دستور الايمان المعروف وأن لا يزيد أحد فيه ولا ينقص منه شيئا وحرم كل من يفعل خلاف ذلك ٠

أما حكم المجمع ضد نسطور فهذا نصه : « حيث أن نسطور الكلى النفاق قد رفض أن يخضع لصوت دعوتنا اياه ولم يقبل الأساقفة الذين

---

(١) يدعى الباباويون أن البابا كيرلس كان نائبا عن أسقفهم فى المجمع اذ أقامه رئيسا عليه عوضا عنه والقول ساقط من أصله اذ لو كان كيرلس نائبا عن أسقف رومية أو رئيسا من طرفه كما يدعون ما الحاجة الى ارسال النواب من قبل أسقف رومية ولماذا لم يذكر فى امضاءات البابا كيرلس انه نائب عن أسقف رومية جريا على العادة لو كان ذلك صحيحا ؟

ارسلناهم اليه من قبلنا فلم يمكنا أن نتأخر عن أن نفحص تعاليمه الآتية · ولأننا تحققنا من رسائله وتآليفه ومن أقواله ومناضلته عن آرائه قبل افتتاح هذا المجمع فى هذه المدينة مما ثبت عليه بشهادات راهنة بانه قد اعتقد الاعتقاد الأثيم فالتزمنا ضرورة بناء على القوانين المقدسة بأن نبرز ضده هذا الحكم ليس من دون حزن ودموع فهو تعالى بواسطة هذا المجمع المقدس فليعدمه الدرجة الأسقفية وليكن مفروزا من أية شركة كهنوتية » أهـ ثم كتبوا اعلانا الى نسطور هذه صورته « من المجمع المقدس الملتئم فى أفسس برحمة الله تعالى وبموجب مراسيم ملكنا الكلى العبادة والحسن الديانة الى نسطور يهوذا الثانى · اعلم أنه لأجل تعاليمك الأثيمة النفاقية وعصيانك على القوانين قد عزلت وقطعت من هذا السينودس (المجمع) بموجب قوانين الشرائع الكنسية وحكم عليك فالفرز من كل درجة والعدم من كل وظيفة والابتعاد عن كل خدمة كنسية » أهـ

ثم ان هذا المجمع فى تحديده أعلن بحسب تعليم القديس كيرلس والتعليم المحفوظ فى الكنيسة من عهد الرسل بأن سر تجسد ابن الله قائم في اتحاد لاهوته مع ناسوته فى أقنوم الكلمة الأزلى بدون انفصال ولا امتزاج · وأن مريم العذراء هى والدة الاله · وكانت الجلسة الأولى قد استغرقت من الصباح الى المساء وقد مكث الشعب الأفسسى النهار كله منتظرا حكم المجمع ·

وحالما أعلن الحكم ضد نسطور كانوا يصيحون « ليحيى كيرلس عضد الايمان » و « ليحيى الأساقفة الشرفاء المحامون عن لاهوت سيدنا يسوع المسيح وعن الأمومة الالهية لمريم البتول » ثم أن الشعب أوقدوا شموعا ورافقوا الآباء الى منازلهم وكانت النار توقد كالنجوم فى الشوارع واستمر الشعب يسبحون الليل كله ·

غير أن نسطور لم يرجع عن غيه وأصر على عناده وقصد أن يشين شأن البابا كيرلس ويعزله عن كرسيه مستعينا بمندوب القيصر · فهذا النائب أرسل نسطور الى الملك مصحوبا بكتابات له لم يخبر فيها بأخبار المجمع الحقيقية بل طعن فيه وفى تصرفاته وكتاباته وملأها بالأقاويل الكاذبة والتهم الشنيعة ضد القديس كيرلس وممنون أسقف أفسس بأنهما ظالمان قاسيان ·

والذى عكر صفو السلام اكثر هو انه بعد خمسة ايام وصل يوحنا الانطاكى ومعه اثنان وثلاثون أسقفا • فحالما علم بما قرره المجمع امتلأ غيظا ونسب كيرلس الى الاستبداد والفساد واعتبر عمل المجمع عجلة ثم الف بوقاحته مجمعا لصوصيا مركبا من اربعين أسقفا نسطوريا وحكم فيه بجسارة حكما غيابيا بقطع القديس كيرلس وممنون أسقف افسس من درجة الكهنوت ورفض الاثنى عشر القضية المختصة بالايمان وبفصل آباء المجمع من الشركة الى أن يتوبوا ويجتمعوا ثانية ويلغوا ما قرره ويحرموا بنود كيرلس الاثنى عشر ، وأرسل هذا القرار الى القيصر وامرأته والأكليروس وشعب القسطنطينية والمجلس الأعلى وأضاف عليه تحارير تتضمن الطعن على البطريرك الاسكندرى والمجمع وأسباب ابطائه ويطلب اعادة فحص القضية •

وفى ذلك الحين وصل نواب أسقف رومية الى افسس وهما الأسقفان أركاديوس وبروياكتوس والقس فيلبس • فاجتمع مجمع القديس كيرلس مرة ثانية فى ١٠ يونية وقرئت فيه أعمال الجلسة الأولى ورسالة أسقف رومية • وفى اليوم التالى عقدت الجلسة الثالثة فوقع فيها نواب أسقف رومية على أعمال المجمع السابقة وفى ٢٦ يونية عقدت جلسة رابعة بناء على طلب القديس كيرلس وممنون أسقف أفسس ضد يوحنا الانطاكى لقطعه اياهما فعقدت فى اليوم التالى جلسة خاصة دعى فيها يوحنا مرة ثالثة بانذار • فأنفذ رئيس شمامسته الى المجمع ومعه كتاب يتضمن أقواله فأبى المجمع الا حضوره شخصيا فأجابهم يوحنا أن ينتظروا أمر القيصر • فحكم المجمع حالا بالقطع على يوحنا وعلى ثلاثة وثلاثين أسقفا معه وأظهروا براءة القديس كيرلس وممنون أسقف أفسس • وللمجمع أيضا جلستان سادسة وسابعة ففى السادسة أثبت دستور الايمان المؤلف فى المجمعين الأول والثانى • وفى السابعة حررت أسقفية قبرص من الخضوع لبطريركية أنطاكية وسنت ثمانية قوانين لم تزل الى اليوم •

أما يوحنا الانطاكى فكتب الى القيصر ضد مجمع القديس كيرلس ملتمسا منه أن يحضر أمامه ثلاثة أساقفة من كل حزب الى نيكوميديا • ولما اطلع القيصر على كل الأخبار الكاذبة التى وصلت اليه من حزب نسطور دون أن يطلع على أخبار المجمع الحقيقى أصدر أمرا ملوكيا للقديس كيرلس وللمجمع مؤنبا موبخا محرضا على الاتحاد وزيادة الفحص عما يخص الايمان وأمر بعقد مجمع جديد يقرر فيه قرارات جديدة يتفق عليها الجميع •

فالشرقيون كتبوا للقيصر يشكون من سوء معاملة كيرلس لهم أما المجمع القانونى فجاوبه يعلمه بحسن صنيعه وخوفا من أن يقع جوابه فى أيدى أضداده وجه نظره الى القديس دلماتيوس وهو رجل كان جنديا فى الحرس الامبراطورى وأصبح زاهدا حتى ظل مقيما فى صومعة ثمان وأربعين سنة . فأرسل اليه القديس كيرلس ولشريكه فى الرهبنة أوطاخى رسالته للقيصر مع رجل أمين ضمن قصبة يتوكأ عليها كعكاز حيث أمكنه بهذه الطريقة أن يجوز الحراس برا وبحرا وهو يتظاهر بأنه شحاذ حتى أوصل الرسالة الى دلماتيوس المومأ اليه . فلما اطلع على الخبر طلب جميع الرهبان الذين فى أديرة القسطنطينية وسار هو فى مقدمتهم باحتفال مشى فيه جميع سكان هذه المدينة الكبرى وهم يرتلون المزامير بحماس شديد الى أن بلغوا البلاط الامبراطورى حيث واجهوا القيصر ثيودوسيوس وأخبروه بالحقائق فاقتنع بها . فخرج دلماتيوس من حضرة الملك ورجع الى كنيسة القديس موكيوس وخطب فى الجمهور الأرثوذكسى المحتشد فيها مبشرا بأن القيصر أدرك الصواب وسمح لنواب مجمع القديس كيرلس أن يطلعوه على صورة أعمالهم . فلما اطلع القيصر عليها ارتاح وطاب خاطره ووعد الأرثوذكسيين بالتعضيد والمساعدة .

الا أن الأمور لم تستقر على ذلك لأن كونتا اسمه ايريناوس وقد صار فيما بعد مطرانا على صور غير فكر القيصر وخدعه مرة أخرى فأصبح حائرا لا يدرى كيف يفعل ولكن اكاسيوس الشيخ أسقف حلب أبدى له رأيا هدأ روعه وهو أن يعزل القديس كيرلس وممنون ونسطور فأبرز القيصر حكما قضى فيه بذلك وقبض على القديس كيرلس وممنون وسلما الى الكونت يعقوب ليسجنهما أما نسطور فاحتفظ به كانديديانوس الأمير .

فاغتم آباء المجمع لهذه الاهانة التى حصلت للقديس كيرلس وحرروا رسائل عديدة الى الأكليروس القسطنطينى والى غيرهم محتجين بشدة على التعدى الذى حصل وهؤلاء طلبوا من القيصر أن يفحص عن الحق فسمح بحضور ثمانية أشخاص بالنيابة عن كل حزب لترفع الدعاوى أمامه وكان من حزب يوحنا ثاوذوريتوش أسقف كورش وبولس أسقف حمص فقابلهم فى خلكيدونية .

أما القديس كيرلس فشرع فى مدة سجنه أن يؤلف تفسيرا مطولا لحروماته الاثنى عشر . وبعد أن اقتنع القيصر أمر بطرد نسطور الى ديره القريب من انطاكية وباعادة كيرلس وممنون الى منصبيهما . وأقام على

كرسى القسطنطينية واحدا من رجال كيرلس اسمه مكسيميانوس • وأمر ينهى المجمع وبرجوع الأساقفة الى مراكزهم فقام القديس كيرلس من أفسس الى الاسكندرية وهناك قابلته رعيته بابتهاج عظيم وجاء المجمع يهنئونه بانتصاره على عدو المسيح • وعقب وصوله كتب رسالة مطولة الى القيصر أوضح فيها الحق نافيا عنه كل ما عزى اليه من التهم •

ولم يكتف النسطوريون بذلك بل أوقدوا نار الشقاق وعقدوا مجمعين أحدهما فى طرسوس والآخر فى انطاكية أعادوا فيهما حرم كيرلس وبنوده ورفضوا أحكام المجمع الأفسسى واعتبروا أعضائه لصوصا وكيرلس ذئبا خاطفا وتمسكوا بمبادىء نسطور • فاستاء القيصر من تصرفهم هذا وأشار عليه مكسيميانوس بطريرك القسطنطينية أن يطلب بابا الاسكندرية ويوحنا الانطاكى ويأمرهما بالاتحاد والوفاق • فلم يرتض القديس كيرلس فى مبدأ الأمر بصلح يلثم شيئا من الآراء القديمة الا أنه أخذ يراسل يوحنا الانطاكى وأرسل اليه كاسينوس وأمونيوس الشماسين صحبة أريسطولاوس المعتمد القيصرى الى أنطاكية برسالة تتضمن قبوله اياه فى شركة الكنيسة ان كان يوقع على الصك المرسل معهم والمتضمن حرم نسطور ورفض بدعته • فلما وصل هؤلاء الى أنطاكية وجدوا البطريرك فى مجمع عقده مع أساقفته • فلما عرض عليه الصك قبل التوقيع عليه بعد تغيير بعض كلمات لم يفهمها وأرسله للقديس كيرلس بيد بولس مطران حمص فلما وصل هذا الى الاسكندرية سمح له القديس كيرلس أن يلقى خطاباً ففاه بخطاب بليغ سر به السامعون وأظهروا استحسانهم بالتصفيق المتكرر له وكان ذلك سنة ٤٣٣ م •

ثم انه كان قبل هذه الحوادث قد أرسل القديس كيرلس رسالة كانت عنده من أقوال القديس أثناسيوس الرسولى إلى ابكيطس أسقف كورنثوس فوقعت فى أيدى الحزب النسطورى فشوهوها ببدعتهم الأثيمة ولما حضر مطران حمص الى القديس كيرلس اعترض عليه بفحوى تلك الرسالة فأعطاه القديس الصورة الصحيحة فبعدما قرأها تحقق صحتها ورجع الى يوحنا الانطاكى وأطلعه عليها وزاد هذا اقتناعا شرح كيرلس بنوده الاثنى عشر التى كان فيها بعض العبارات البعيدة المعنى وهكذا تسالم البطريركان واستلم يوحنا رسالة القديس كيرلس المتضمنة قبوله فى الشركة •

غير أن بعض الأساقفة الأرثوذكسيين لم يعجبهم صلح القديس كيرلس مع يوحنا الانطاكى ولاموه على عبارتين وردتا فى قرار الصلح وهما أولا

قول يوحنا « لأنه صار اتحاد الطبيعتين فلذلك نعترف بمسيح واحد وابن واحد ورب واحد وبحسب معنى هذا الاتحاد الخالى من الاختلاط نعترف بأن القديسة هى والدة الاله » وثانيا قوله « وأما الأقوال الانجيلية والرسولية المقولة عن الرب فتعلم أن علماء اللاهوت يجعلون بعضها عامة كأنها تفى لأقنوم واحد ويفصلون بعضها لاختلاف الطبيعتين وينسبون تلك الواجبة لله للاهوت المسيح ويسبون الوضيعة لناسوته » ومن الذين عارضوا القديس كيرلس على قبوله لهذا القرار أكاكيوس أسقف ميليتبنى وأولوجيوس كاهن القسطنطينية وغيرهم ممن قالوا أن قرار يوحنا هذا دك أركان مجمع أفسس ٠

كما أن أساقفة الشرق لم يوافقوا على هذا الاتفاق ورفضوا الاشتراك مع القديس كيرلس وخرجوا من تحت طاعة يوحنا واستقلوا بأنفسهم تابعين مذهب نسطور ٠ ومع أن اسم القديس كيرلس صار يتردد على كل فم وأصبح مشهورا بالغيرة الحقيقية على سلامة الايمان الا أن بعض الأساقفة الأشرار نظير أوثاريوس والأديوس ومكسيميانوس كانوا يشيعون عنه بأنه هرطوقى تابع لتعاليم أبو ليناريوس المبتدع وقد زوروا رسالة هرطوقية ووضعوا اسمه عليها ونشروا منها نسخا عديدة فى جهات مختلفة كما أنهم زوروا عن القديس كليستينوس أسقف رومية على لسان القس فيلبس أحد نوابه بأنه برر نسطور الى آخر ما هنالك من الأقاويل التى شاعت ووصلت الى مسامع القيصر حتى اضطر القديس كيرلس أن يضع عدة مؤلفات فى سر التجسد مبررا نفسه من كل ما أشيع عنه ٠ وقد ظهرت أخلاقه المسيحية عندما صفح عن ثاوذوريتوش أسقف كورش دون أن يضطره الى نفى الاعتراف بالاهانات التى وجهها الى شخص القديس وبذلك اكتسب محبة الجميع ٠

وقضى ما بقى له من الحياة بعد ذلك الجهاد الطويل فى خدمة مخلصه بكل أمانة وعاش خمسا وستين سنة قضى منها زهاء الثلاثين سنة فى رئاسة الكرسى الاسكندرى ثم تنيح بسلام فى ٣ أبيب سنة ١٧٩ ش ٤٤٤ م ٠

أما مؤلفاته فهى جليلة الشأن وهذه أسماء المحفوظ الآن منها :

١ - تفسير الأسفار الخمسة وسفر أشعياء وأسفار الأنبياء الصغار وانجيل يوحنا ٠

٢ - كتاب ضد نسطور

٣ - وآخر ضد يوليانوس

٤ ـ رسائل عديدة فى الثالوث الأقدس
٥ ـ رسائل عديدة فى التجسد
٦ ـ فى العبادة الروحية
٧ ـ مواعظ ورسائل

٨ ـ كتب عديدة شتى · ويطلق على أحد الليتورجيات (القداديس أو صلاة القربان) اسم القديس كيرلس وهو القداس الذى وضعه مار مرقس الرسولى ولكن لما كان القديس كيرلس قد رتبه نسب اليه ·

(٢) ديوسقوروس ـ البطريرك الخامس والعشرون :

ارتقى الكرسى المرقسى فى مسرى سنة ١٧٩ ش و ٤٤٤ م فى عهد ثيودوسيوس قيصر الصغير خليفة للقديس كيرلس وكان ضريبه فى شدة الغيرة على سلامة كنيسة المسيح وفى أيام هذا البابا انشطرت الكنائس المسيحية الى شطرين وهما ذوو الطبيعة الواحدة وذوو الطبيعتين ولنأخذ فى استدراج تلك الحوادث الخطيرة لكى نقف على الحقيقة وندرك سر هذا الانشقاق ·

انه حال قيام ديوسقوروس على الكرسى الاسكندرى لم تكن الكنائس المسيحية على وفاق تام مع بعضها وعلة ذلك طمع أساقفة رومية الغير المتناهى ورغبتهم التى لا حد لها فى السيادة العامة على الكنيسة المسيحية فى كل العالم · ولم يكن الأسقف الرومانى يخشى بطش أحد من رؤساء الكنائس سوى بابا الاسكندرية · فان القسطنطينية مع كونها كانت عاصمة المملكة الجديدة ولكن بطاركتها كانوا ضعيفى الشوكة وكثيرا ما تداخل بطاركة الاسكندرية وأساقفة رومية فى شئونها بينما الاسكندرية مع كل الجهاد الذى قامت به أمام أعداء الكنيسة وازدياد المقاومات ضدها كل يوم بسبب ذلك فانها لبثت محتفظة بمقام الرئاسة الفعلية ·

ولقد سعى أسقف رومية سعيا متواصلا للاتحاد مع بابا الاسكندرية كما يظهر ذلك من خطاب أرسله ليو الى ديوسقوروس فى شهر يونية سنة ٤٤٥ م يلتمس منه فيه المؤاخاة والعمل على التداخل فى أهم الأمور سوية مادام الاثنان متساويين فى الرتبة والدرجة الا أن بابا الاسكندرية ضرب بخطابه عرض الحائط وهزأ به لما يعلمه من غاياته الدنيئة ·

ولم يكن أسقف رومية وحده هو الذى يحسد رؤساء الكرسى المرقسى لكن أساقفة الشرق بأسرهم كانوا يغارون منهم لتعويل القياصرة على آرائهم فى المسائل الكنسية وذلك لما أحرزوه من الصيت الجليل فى العالم المسيحى أجمع بسبب مقاومتهم للهراطقة وانتصارهم على أعداء الديانة نظير أريوس ونسطور حتى اعتبر رأى رؤساء الكنيسة الاسكندرية هو رأى المملكة ذاتها • لهذا السبب كان أسقف رومية وأساقفة الشرق يتحينون الفرص المناسبة لاذلال شأن الكرسى المرقسى فقاد لهم الحظ ظهور بدعة جديدة فى ضواحى القسطنطينية •

وذلك انه كان فى أيام البابا ديوسقوروس اشمندريت رئيس دير فى القسطنطينية اسمه أوطاخى عدو ألد لنسطور لم يكتف بما حدده المجمع الثالث المسكونى ضد تعليمه بل تطرف فى تعبيره عن سر التجسد الى أن قال بوحدة طبيعة المسيح وأن جسده مع كونه جسد اله ليس مساويا لجسدنا فى الجوهر لأن الطبيعة البشرية على زعمه قد ابتلعت واندثرت فى الطبيعة الالهية •

فثاوذوريتوش أسقف كورش الذى اشتهر باعتناقه لمذهب نسطور وتطوعه للدفاع عنه أخذ يكتب ضد أوطاخى ويشهر بتعليمه حتى بلغ الأمر البابا ديوسقوروس فظن أن النسطوريين الذين كسر شوكتهم سلفه القديس كيرلس يتحفزون للقيام فخوفا من أنيضيع مجهودات سالفيه ولما هو معروف عن فساد مبدأ ثاوذوريتوش وتعريضه برسائل القديس كيرلس كتب ضده للقيصر ثاودوسيوس الثانى مظهرا الخوف من أن الكنيسة الانطاكية أوشكت أن تكون كلها نسطورية • ولشدة ثقة القياصرة بغيرة آباء الكنيسة القبطية على سلامة الايمان أصدر ثاودوسيوس قيصر أمرا ضد الانطاكيين وحظر على ثاوذوريتوش الخروج من دائرة أبروشيته •

غير أن الانطاكيين وطنوا أنفسهم على الدفاع فأرسل البطريرك دمنوس سفارة الى القيصر لتعرفه بأن أوطاخى مبتدع مثل أبوليناريوس ولكنهم لم يفلحوا • فقام أوسابيوس أسقف دوريليوم من أعمال فريجية أحد المتحزبين لنسطور يحج أوطاخى • ولما لم يقنعه قصد القسطنطينية سنة ٤٤٨ م وشكاه الى فلابيانوس بطريركها وكان هذا أيضا نسطوريا فشكل مجمعا اقليميا مركبا من ٢٩ أسقفا و٢٣ أرشمندريتا ودعى أوطاخى الى هذا المجمع فامتنع فى مبدأ الأمر خوفا من غدر المجمع به ولكنه حضر فى الجلسة السابعة بصحبة صديقه خريسافيوس من موظفى بلاط القيصر فسأل

أوسابيوس أوطاخى « هل يعترف بأن المسيح مساو للآب فى جوهر اللاهوت ومساو لأمه فى جوهر الناسوت ؟ فأجاب بأنه يعترف بأن المسيح من طبيعتين قبل الاتحاد وأنه بعد الاتحاد طبيعة واحدة • فحكم على أوطاخى بأنه مبتدع وجرده المجمع من رتبته الكهنوتية ثم أيد مذهب نسطور بأنه ذو طبيعتين من بعد الاتحاد •

ولئن كان أوطاخى فى مبدأ أمره قصد بعقيدته ازالة بدعة نسطور غير أن تطرفه فى المدافعة نظمه فى سلك الهراطقة الا أنه بعد صدور الحكم عليه اخذ يرفع صوته قائلا أنه مظلوم وكان أسقف رومية مقصدا لكل مبتدع اذ كان يسره ليحس بأنه رئيس الكنيسة العام أن يرفع رؤساء الكهنة دعاويهم اليه • ولما كان مستقيمو الرأى يطرحون مشاكلهم أمام أبصار باباوات الاسكندرية لم يكن يطلب مساعدة أسقف رومية الا المبتدعين الذين كانوا يشتكون اليه ويملقونه فكان ينتصر لهم رغما عن ضلالهم • لهذا لما رأى أوطاخى نفسه قد شجب رفع اليه أمره فرد عليه لاون أسقف رومية برسالة معزية سنة ٤٤٠ م يشجعه فيها ويدعوه ابنه فى الايمان الكاثوليكى لأنه تحقق صدق عقيدته •

ثم ذهب أوطاخى صحبة صديقه خريسافيوس موظف البلاط القيصرى المذكور ورفع دعواه أمام القيصر وتظاهر بأنه محكوم عليه جورا الى أن رضى القيصر بعقد مجمع مسكونى فى مدينة أفسس (١) وأرسل القيصر الى ديوسقوروس البابا الاسكندرى ثلاثة مكاتيب الأول يطلب فيه منه أن يحضر معه عشرة مطارنة وعشرة أساقفة ويبادر الىأفسس ويمنع قبول ثاوذوريتوش والثانى يأمر فيه بقبول الأشمندريت برسوم بين آباء المجمع بصفته قائم مقام جميع الأرشيمندريتين الشرقيين • والثالث بمنع حضور ثاوذوريتوس ثم يقول له « واننا نظن أن بعضا من أتباع نسطور يجتهدون وقصدهم أن المذكور يحضر فى المجمع المقدس • فلأجل ذلك قد تحسن برأينا أن نرسل لحضرتكم هذه الرسالة وبها نعرف قدسك وقدس المجمع اننا مقتدون

---

(١) ان وقائع هذا المجمع والمجمع الذى عقد بعده بخلكيدون مأخوذة أصلا عن كتاب « أعمال مجمع خلكيدون » وهو تاريخ طبع بالعربية فى رومية سنة ١٦٩٤ م بأمر الكنيسة الرومانية لهداية مخالفيها ولكنها لما رأت أن به حقائق كثيرة تتنافى مع رأيها ندمت على طبعه ونشره وحرقت ماتمكنت من جمعه وقد أخذنا نحن صورة هذه الحوادث عما كتبه المرحوم الأيغومانوس فيلوثاوس بكتاب « تاريخ الانشقاق » ج ١ وعما نقل عن كتاب اعمال مجمع خلكيدون بكتاب « الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة » ج١ •

بقوانين الآباء الأطهار ونوهب لقدسك سلطانا ونجعلك متقدما ليس فقط فيما يخص ثاوذوريتوس بل وبما يخص كل المجمع المقدس الخ » أهـ ٠

فلما شعر فلابيانوس بطريرك القسطنطينية بأنه سيقع تحت الحرم نظير باقى النسطوريين التجأ الى أسقف رومية ملجأ الهراطقة وكتب اليه يستعين به (١) وكان قد وصل حينئذ للاون أسقف رومية اعلان من القيصر ثيودوسيوس يقول فيه « انه عهد بفض المشاكل الى مجمع يلتئم فى مدينة أفسس تحت رئاسة البطريرك الاسكندرى » فحالما وقع بصره على هذا الخبر طار شعاع الشر من عينيه واحتدمت نار الغيرة والغيظ فى قلبه وكشر عن ناب العداء والخصام نحو ديوسقوروس ونسى « محسوبه » أوطاخى الذى وعده بالمساعدة ٠ ولما لم يحصل على أمنيته بالسيادة يوما ما ويدعى ولو مرة واحدة ليرأس ولو مجمعا واحدا امتنع عن الحضور الى أفسس وأرسل نوابا الى المجمع كما هى عادته فى اظهار الأبهة الفارغة وهم الأسقف يوليوس والقس ريناتوس والشماس ايلاريوس وكاتب ليكتب الوقائع التى تصير يدعى دولشيسيوس ٠ وأعطاهم مكتوبا الى الملك ورسالة أخرى الى فلافيان وهى المعروفة « بالطومس » أو « بطومس لاون » (٢) شرح فيها رأيه فى هذا المعضل وكان على أتم الموافقة لمعتقد نسطور ٠ وهذه الرسالة

---

(١) كتب الآب ملاتيوس الأرثوذكسى يستجير عندما قاومه لغير سبب داماسوس اسقف رومية ٠ فاستاء القديس باسيليوس الكبير من استخفاف داماسوس بقوانين الكنيسة واستجار بالبابا أثناسيوس الرسولى وبعث يقول له « ان نشر الوية السلام فوق ربوع كنيسة أنطاكية منوط بك وحدك ٠ لأن ما أصاب هذه الكنيسة يفتقر الى شفقتك الانجيلية وحكمتك الرسولية ٠ ان كنيسة أنطاكية أيها القديس لم تمزقها أيدى الهراطقة بل أيدى أولئك الذين يدعون انهم ارثوذكسيون (يريد اساقفة رومية) وهم اشر من الأريوسيين (راجع رسالته الـ ٦٦) ثم أعقبها برسالتين أشد منها لهجة قال فيهما « ان الهراطقة يحتمون بالأساقفة الرومانيين الذين يغرسون بذور الشقاق أينما حلوا » (رسالة ٦٩و٨٠)٠

ثم كتب القديس باسيليوس لأوسابيوس أسقف ساموساط الذى كان موفدا لرومية لفض ذلك النزاع يقول « لقد علمت بما جرى بينك وبن الرومانيين ٠ وكنت أود لو لم يكن عندى به علم لأن ذلك الانسان (داماسوس أسقف رومية) متكبر متغطرس ومن طبيعة أولئك المتغطرسين أن ينتفخوا كلما لاطفتهم ٠ على أننا لا ننتظر غير رفق الله بنا فان ادركنا فحسبنا ذلك والا فأى تعضيد يمكن أن ننتظره من الغربيين الغلاظ الأكباد الذين لا يعرفون الحقائق ولا يحتملون أن يتعلموها ٠ أى تعضيد يمكن أن ننتظره من أولئك الذين فضلا عن تشبع ادمغتهم بالآراء الفاسدة يحاربون من يذكر لهم الحقيقة فيغرسون الهرطقة بأيديهم » (رسالة ٢٣٦) اهـ ـ مليقرأ الباباويون لعلهم يعتبرون ٠

(٢) طومس كلمة يونانية معناها كتاب او رسالة ٠

التى أرسلها لفلابيانوس فقط كان يجب أن يرسلها رأسا الى المجمع ولكنه استبد برأيه مصمما على اعتبار المجمع غير قانونى حتى قبل أن تعقد جلساته ويظهر تقريره ومن هنا يتضح أنه كان عازما على مقاومته ولو قرر كل صواب مادامت الرئاسة انتزعت منه وأعطيت لخصمه ديوسقوروس واذ وصل نواب هذا الأسقف تلقاهم فلافيان بمزيد الاحترام واستضافهم عنده بكرم زائد ٠

ولما تكامل عدد أعضاء المجمع اجتمع فى كنيسة السيدة العذراء ١٣٠ أسقفا وأرسل القيصر اثنين من قبله نائبين عنه وهما البيذيوس وأولاجيوس وأمرهما بأن الذين كانوا قضاة فى أمر أوطاخى يحضرون بدون أن يفوهوا بكلمة وأن لا يحضر المجمع ثاوذوريتوس البتة ولا أحد من زملائه ومما قاله لهما فى الرسالة التى زودهما بها « تصرفا فى الأمور بأحسن نظام٠ وأحضرا فى مجلس الشرع واعلمانا الأمر كله » أهـ ٠

وترأس المجمع ديوسقوروس بابا الاسكندرية بأمر القيصر ثم جلس بعده نواب أسقف رومية ثم يوبينساليوس أسقف أورشليم فدمنوس أسقف أنطاكية ففلانيانوس أسقف القسطنطينية فاسطفانوس الأفسسى فأسقف قيصرية ٠ ولما افتتحت الجلسة الأولى تليت تحارير الملك وأثبت قبول نيابة نواب رومية ٠ ثم قرىء الأمر بقبول برسوم ٠ ثم طلب رئيس المجمع (ديوسقوروس) من نواب القيصر ما عندهم فى ذلك فقرئت رسائل القيصر الى نوابه والمجمع بخصوص اجراءات افلابيانوس ثم شرعوا فى موضوع الايمان فقال نائب أسقف رومية أن قدس أسقفهم لاون أرسل معهم رسالة فأمر الرئيس بقبولها ٠ ولما قدمت الى القس يوحنا سكرتير المجمع ليتلوها رأى نفسه مضطرا الى قراءة رسائل أخرى من القيصر الى رئيس المجمع قبل رسالة أسقف رومية ٠ فتليت رسائل القيصر وبعد ذلك قال الرئيس « يظهر لنا أن القيصر أمر بعقد هذا المجمع بسبب المشاغبة التى جرت فى القسطنطينية ولذلك يلزمنا أن نبحث أولا فى هذه المسألة وبعد ذلك نقارنها بأعمال آبائنا القديسين التى فرضوها فى المجامع المقدسة » فوافق المجمع على رأيه ٠

حينئذ قال أسقف أورشليم ينبغى أن يحضر أوطاخى بنفسه للمجمع ويدافع عن نفسه ٠ فجاء أوطاخى وقدم اعترافا مثل اعتراف المجمع الثالث بدون أن يذكر شيئا عن المسألة المختلف عليها فقرىء ٠ ثم طلب البيدوس المقدم قراءة بقية الأعمال فقبل الرئيس طلبه وسأل آباء المجمع عن رأيهم

فأجابوا بالقبول الا نواب رومية فانهم طلبوا قراءة رسالة أسقفهم الى فلانيانوس قبل قراءة الأعمال . فوقف أوطاخى واشتكى للمجمع ضد هؤلاء الرجال لأنهم لما أتوا المدينة أقاموا فى بيت فلابيانوس الذى أحسن وفادتهم وقدم لهم هدايا جزيلة والتمس من المجمع أن يمنعهم عن ابداء رأيهم لئلا يحكموا عليه تبعا لأهوائهم . فعمل الرئيس برأى الجمهور وقرئت الأعمال فظهر منها أن أعمدة الايمان الأقوياء هم باباوات الاسكندرية الأفاضل الذين جاهدوا جهاد الأبطال فى الدفاع عن تعاليم المسيح وحفظوها نقية سالمة فعبقت رائحة فضيلتهم فى المجمع كالعبير وذكر بالأخص القديس كيرلس على أثر قراءة رسائله التى أقر المجمع عليها جميعها . ثم قال افسطاثيوس مطران بيروت ما فعل كيرلس حين فهمت كتاباته على غير معناها الى أن أورد عنه قوله « لا ينبغى لنا أن نفهم طبيعتين بل طبيعة واحدة متجسدة فى الله الكلمة » وهذا القول أثبته القديس كيرلس بشهادة القديس أثناسيوس الرسولى فأجاب المجمع « ليس من يقول أن المسيح اثنان بعد الاتحاد ولا من يفصل الغير المنفصل » .

ولما وصلوا فى القراءة الى سؤال أوسابيوس لأوطاخى « هل تعتقد بطبيعتين فى المسيح بعد التجسد » عارض آباء المجمع بحدة وقام جملة من الأساقفة الحاضرين وصرخوا بأعلى أصواتهم « ارفعوا أوسابيوس وأحرقوه . ليشق الى اثنين كما حاول أن يقسم المسيح . كل من يقول بطبيعتين محروم » فقال ديوسقوروس « هل تسلمون بأن المسيح بعد التجسد صار له طبيعتان ؟ » فأجاب الآباء بالاجماع « كل من يقول بطبيعتين بعد التجسد فليكن محروما » فقال ديوسقوروس « لنؤيد هذا الكلام » فقال الآباء بالاجماع « لأنه اعتقاد الآباء » .

وبعد ذلك سأل رئيس المجمع الأعضاء عما يرونه فى أوطاخى . فأجاب أسقف أورشليم بما أنه اعترف بايمان مجمع أفسس الأول (المسكونى الثالث) فأنا أرى أنه أرثوذكسى واحكم بتثبيته فى درجة الكهنوتية وفى ديره . فوافق باقى الأعضاء على رأيه بقولهم « يظهر من قول أوطاخى أنه أرثوذكسى » فلما رأى الرئيس هذا الاجماع قال « انى قد ثبت أنا أيضا حكم هذا المجمع وحكمت بأن يحصى أوطاخى فى عدد الكهنة ويتولى ديره كما كان سابقا » .

ثم قدم للمجمع احتجاج من رهبان أوطاخى على حرم فلابيانوس لهم فقال لهم الرئيس « لا يحلكم من حرمكم الا اعترافكم بالايمان الصحيح »

فصاح كبيرهم « ان ايماننـــا هو ايمان مجمعى الآباء فى نيقية وأفسس · ايمان أثناسيوس وكيرلس وباقى الأساقفة الأرثوذكسيين » فرأى أســقف أورشليم أن يقبلوا فى شركة المؤمنين فرضى المجمع بذلك وبراهم جميعا ·

وبعد فحص قضــايا كثيرة نظير هــذه قال الرئيس « يجب أن نطبق أعمالنـــا على أعمـــال الآباء الذين سبقونا » ثم اتفقوا على أن تقرأ أعمـــال المجمع الثالث فقرىء ايمان المجمع وحكم فى الجلسة السادسة بالقصـــاص على الذين يعلمون الضلال ·

وكان أوطاخى قد ادعى بتحريف أعمال مجمع القسطنطينية مستشهدا بنقيب الوظائف الملوكية فعارض كلامه فلابيانوس · فطلب الرئيس البينــة كتابة فقـــال له فلابيـــانوس « انك قطعت أمامى السبيل لايراد كل احتجـــاج وان كان حقا » فاستشهد البـــابا ديوسقوروس بالمجمع المقدس على أنه لم يمنعه عن شيء وكرر طلب الاحتجاج منه فاستمر فلابيانوس على عناده من الجهة الواحدة لم يتنـــازل عن قوله بطبيعتين بعـــد الاتحـــاد وأيد رأيه غير مكترث بتحـــديد المجمع الأفسسى الأول · ومن الجهة الأخرى لم يؤمن على الحكم الذى أصـــدره بحل أوطاخى وبالحالة هذه ظهر مضادا لأولئك الآباء · فتعين لهم حينئذ عزله من الرئاسة وحكم بذلك جميعهم واحد بعد واحد بما فيهم البابا ديوسقوروس رئيس المجمع ·

ثم نظر فى الجلسة الثانية شكايات كثيرة قدمت الى المجمع ضد أساقفة نسطوريين وبناء عليها حكم المجمع بتجريد كل من ثاذوريتوس أسقف كورش وتهمته النسطورية وطعنه فى حق القـــديس كيرلس وهيبـــا أســـقف الرها ودمنوس أسقف أنطاكية لمـــدافعته عن تعليم نسطور وعين بدله مكسيموس · وايرينـــاوس أســـقف صور الذى كان نســـطوريا ومتزوجا بامرأتين ورســـم عوضـــا عنه فوتيوس ثم عرض المجمـــع أعمــــاله على القيصر فأمن على تحديدهم وحكمهم وتقرر حرم فلابيانوس وستة من أساقفته وكل من لا يقول ان طبيعة واحدة للكلمة المتجسد حسب اعتقاد كيرلس والمجمع المقدس ·

واننا نضرب صفحا عن كل ما يدعيه رؤساء كنيسة رومية بأن هـــذا المجمع استعمل القوة فى تنفيـــذ جميع قراراته وتسميتهم اياه « بالمجمع اللصى الذى سمى به مجمع أفسس الأول من النسطوريين وغير ذلك ممـــا لا يستغرب صـــدوره من قوم أكل حب الذات صـــدورهم وأفقـــدهم عقلهم فجعلهم يهرفون بمـــا لا يعرفون · وقـــد كان من المنتظر أن يختلق أســـاقفة

رومية مثل هــذه التهم لمـا يجدون أنفسهم خلوا من فضـائل يجارون بهـا باباوات الـكرسى المرقسى وكل من يقف على حوادث ميل أساقفـة روميـة للرئاسة العـامة وكيف أنهم فى سبيل الحصول عليها أراقوا دماء الأبرياء لا يندهش اذا سمعهم يندون بالمجمع الثانى فى أفسس ٠

واننا لفى غاية العجب كيف أنهم يعتبرون المجمع الثـالث المسكونى الأفسسى الأول ويؤمنون على أعمـال رئيسه القـديس كيرلس وفى الوقت نفسه يشجبون المجمع الأفسسى الثـانى مع أن المعارضين والذين وقعت عليهم الأحكام فى كـلا المجمعين هم رؤسـاء الحـزب النسطورى الذين حضروا المجمعين وقاوموهما فهل غيرت الأيام قلب أسقف رومية من نحو النسطوريين أم أن الميل لمقـاومة البـابا الاسكندرى الزمه بان يتنـازل عن المعتقد القديم رغبة فى أن يجد طريقــه لمقاومته فاعتنق مذهبا باطلا ليؤيد مركزه بأنصاره؟ ومن يطالع كتابات الغربيين عن نسطور لا يعسر عليهم أن يلمس اثر ميلهم اليه واجتهادهم فى الاعتذار عنه ٠

ومما يوضح ما نقول هو أنه حـدث بعد انفضاض مجمع أفسس الثانى أن نواب أسقف رومية خرجوا منه بالخيبـة اذ لم يتمكنوا من نجاة فلابيانوس وحزبه فتجمهروا معا عصبة واحدة وانطلقوا الى رومية يشـكون لأسقفهم ما أصـابهم من الخـذلان وكان أسقف رومية يتوهم أن الرسالة التى أرسلها لفـلابيانوس يتخـذها المجمع كقـانون للايمـان أو كوحى الهى فلمـا خاب رجاؤه من ذلك أضمر سوءا لجميع آباء المجمع وعلى رأسهم ديوسقوروس ويلوح لنـا أن الشيطان كان يرسم فى مخيلة أسـقف رومية صـورة سلطته العـامة على كل الـكنائس وبذلك يفقده صوابه ويسهل له ارتكاب كل محرم فى سبيل الحصول على تلك السيادة الموهومة ٠

فأخـذ لاون الأسقف الرومانى يعمل جهـده فى الحط من قـوة خصمه وتخفيض شأنه فلم يدع واسطة لمقـاومة البـابا الاسكندرى ومناجزته الا وطرق بابها فـكتب كتابا الى ثيودوسيوس قيصر يقول له فيــه أن الديانة المسيحية تـكاد تضمحل مالم يلغ حكم ديوسقوروس فى مجمع أفسس ٠ ثم كتب لبولـكاريا شقيقة القيصر وكتب لـكنيسة القسطنطينية يحرضها على نبـذ قرارات المجمع ٠ ولمـا لم تفده كل هذه الحيل والوسائل رمى نفســه بين يدى فالنتنيان قيصر رومية والتمس منه أن يطلب من ثيودوسيوس قيصر الشرق أن يسمح باقامة مجمع عام فى رومية حيث يكون نفوذه أقوى من نفوذ

خصمه • قال المؤرخون « ان محبة الذات أو خذلانه فى نيل الرئاسة المطلقة اضطراه الى سكب دموع غزيرة كاذبة أمام أفدوكيا زوجة قيصر رومية وأمه ابلاكيديا لكى تحملا القيصر على الكتابة لثيودسيوس فلم يسع فالنتيان الى الاجابة لكثرة الالحاح وكتب لزميله قيصر الشرق » • غير أن ثودوسيوس القيصر الأرثوذكسى أبى اجابة الطلب لثقته فى البابا ديوسقوروس ورد على قيصر الغرب قائلا « ان ماجرى يكفى وهو حسن ولا حاجة الى مجمع آخر » ومما ينبغى الاشارة اليه أن فالنتنيان كان يلقب لاون فى جواباته لثيودوسيوس بالبابا الأعظم الا أن ثيودوسيوس كان يسميه البطريرك المحترم أو رئيس الأساقفة الموقر• وكان تاريخ هذه الخطابات فى فاتحة سنة ٤٥٠ م •

غير أن الحظ قد عاد وخدم لاون فانه فى شهر يولية من تلك السنة انتقل ثيودوسيوس الى رحمة مولاه بدون خلف فقامت مكانه بالملك أخته بولكاريا الراهبة ونكثت عهد العفة وتزوجت بقائد جيشها مركيانوس وسلمته ادارة المملكة • فلما تغيرت أحوال المملكة استحضر لاون أسقف رومية زعماء الحزب النسطورى ليستعين بهم على ديوسقوروس ومنهم ثاوذوريتوس أسقف كورش وهيبا أسقف الرها وغيرهما وبعث بأنصار السوء هؤلاء الى مركيان قيصر يلتمسون منه السماح بعقد مجمع تفحص فيه أعمال مجمع أفسس •

فلما رأى البابا ديوسقوروس أن لاون تمادى فى عدوانه وأفرط فى المعاكسة شرع فى حرمانه وتجريده من وظيفته وذلك لأنه سعى فى ابطال قرارات مجمع نظامى شرعى فجمع مجمعا قطع فيه لاون من شركته لقبوله أولئك الهراطقة • وهذا المجمع عقد بعد موت ثيودوسيوس قيصر وبذلك ينهدم قول المفترين الذين يدعون بأن بابا الاسكندرية كان يعمل ما يعمل معززا بقوة القيصر •

وكان موظفو بلاط قيصر الشرق الجديد بعضهم يتحزب لنسطور والبعض الآخر للأرثوذكسيين الا أن الحزب الأقوى كان نسطوريا وذلك لأن بولكاريا وزوجها مركيان كانا من هذا الحزب • كانت بولكاريا شديدة الكراهة للبابا ديوسقوروس بالنسبة لما وصل اليه من السلطة والنفوذ • فرأت هذه الفرصة مناسبة لهدمه واتخذت ذريعة لذلك اتهامه بالهرطقة • وكان أول عمل عدائى وجهته لديوسقوروس هو أنه كان لهذا البابا نائب

فى القسطنطينية فارتقى بواسطته الى كرسى البطريركية ٠ فابتدأت بولكاريا مقاومتها لديوسقوروس بأن أجبرت نائبه بالقسطنطينية على حرم أوطاخى ونسطور والمصادقة على مبادىء لاون ٠

ثم كتب مركيانوس زوج بولكاريا الى لاون يقول له فيه « انى مستعد لعقد مجمع تحت رئاستك واذا كان فى السفر مشقة عليك فأنا أقوم مقامك لرئاسة المجمع » فرد عليه لاون بأنه ينبغى فى هذا المجمع البحث عن طريقة يتمكنون بها من الصفح عن الأساقفة الذين سلكوا مسلك ديوسقوروس ووافقوا على رأيه ٠ وكان يؤمل لاون أن يكون مقر المجمع رومية غير أن القيصر لم يكن يرغب ذلك فأصدر أمرا باقامته فى مدينة نيقية مما أساء لاون ومنعه عن الحضور فأرسل نوابا عنه ادعى فيما بعد أنهم ترأسوا الجلسات باسمه ولكن الحقيقة أن مركيانوس انتخب تسعة عشر عضوا من كبار المملكة ليترأسوا المجمع بالنيابة عنه ٠

أما الذين حضروا هذا المجمع فمن قائل أنهم ٣٣٠ ومن قائل أنهم ٥٠٠ وقيل أن البابا ديوسقوروس لما حضر مع أساقفته وشاهد ذلك الجمع الغفير هتف نحو القيصر قائلا « أيها الملك الأعز ما هذا الجمع الذى أراه وما سبب اجتماعه ٠ ان الايمان لفى غاية الكمال والآن لسنا ننتظر قيام هرطقة توجب اجتماعا مثل هذا فدع الأساقفة ليذهب كل الى مركزه » فأجابه بعضهم « ان القيصر ليس بمتحقق ان كان المسيح طبيعة واحدة أم طبيعتين » فوقف البابا ديوسقوروس وقال « ان اعتقاد البيعة لاينبغى أن يزاد عليه أو ينقص منه فالمسيح واحد بالطبع والجوهر والفعل والمشيئة كما كرز الآباء » ولما تردد قليل مثل هذا الكلام قال ديوسقوروس « أسألكم فأجيبونى ٠ لما دعى المسيح الى عرس قانا الجليل دعى انسانا أم الها فأجابوه انسانا ٠ قال لهم ولما حول الخمر كان تحويله له باللاهوت أم بالناسوت ٠ أو فوض اللاهوت أن يعمل ذلك وللناسوت أن يسكت ٠ وان كان حسب رأيكم باللاهوت فليس ذلك بعجب عجيب وأمر غريب اذ كان اللاهوت قادرا على كل شىء وانما العجب بالناسوت لاتحاد اللاهوت به٠ وها أنا أقول أن ذهبى الفم يدعو مريم والدة الله ٠ ولم يقل والدة نصف الله ٠ وكيرلس يدعو المسيح الها واحدا بالحقيقة وابنا واحدا بالحقيقة وأن اتحاد اللاهوت بالناسوت يماثل الفولاذ اذا عبر الكور واتحد بالنار فيصير طبع النار وطبع الحديد شيئا واحدا ٠ أما احتجاجكم عن ذلك بايجاب وقوع الآلام على اللاهوت فمعنا الدليل الكافى من الشهداء الذين

لما كانوا يعاقبون ما كانت تعاقب أنفسهم وتتألم والله قبل الآلام بجسده ولاهوته منزه عن قبول الآلام بالكلية » أهـ ·

فاقتنع كثيرون بهذا الكلام ثم خطب البابا ديوسقوروس داعيا للملك حتى انزعج المقطوعون واللاونيون واختلوا بالملك ووشوا اليه بحق البابا ديوسقوروس بأنه يريد سلب سلطانه وأن لاون يرغب بحط ديوسقوروس استقرار الكلمة له وأن ترك الحرية لديوسقوروس لا تتمم أغراضهم وطلبوا منه الحرية فى أعمالهم ليخرجوا ديوسقوروس من المجمع · فلم يكد عدد المجتمعين يكمل حتى صدر اليهم الأمر حال وصولهم الى نيقية بأن يرحلوا الى خلكيدون بالقرب من البوسفور وعقد المجمع بها وافتتحت الجلسات فى اليوم الثامن من شهر أكتوبر سنة ٤٥١ م فى كنيسة خلكيدون · ولما عقدت الجلسة الأولى كانت أول طلبات نواب لاون اخراج ديوسقوروس من المجمع · ولما لم يقبل رئيس المجمع ذلك أصر النواب على طلبهم معترضين بلسان أوسابيوس عدو أوطاخى بأن ديوسقوروس عقد مجمعا بدون استئذان الكرسى الرسولى (الرومانى) وأضافوا بأن ديوسقوروس الذى أتى ليدان لا ينبغى له الجلوس معنا لأن ذلك يجلب علينا احتقارا · فازدرى نواب الحكومة بكلام هؤلاء الأشرار وقر رأيهم على بقاء ديوسقوروس فى المجمع · وأجاب البابا على تهمتهم بكل ثبات قائلا « انى لم أكن فى حاجة الى استئذان أسقف رومية فى عقد المجامع التى صدر أمر القيصر بتشكيلها » ثم طلب قراءة القرارات التى صدرت فى المجمع الأخير مما يخص الايمان فأجابه الرئيس « ينبغى أن تصبر الى قراءة الأعمال » ·

وكان لاون قد أعاد ثاوذوريتوس الى كرسيه فسمح له بالدخول الى المجمع حينئذ فأحدث دخوله ضجة عظيمة سمع فيها صوت أساقفة مصر وايليريا وفلسطين يقولون « ارحمونا يا قوم · قد اضمحل الايمان · اعلموا أن القوانين توجب طرد هذا خارجا فاطردوه أنتم عنا » ·

فأجاب أساقفة الشرق النسطوريين « لقد أرغمنا ديوسقوروس فوقعنا على أوراق بيضاء اطردوا أتباع مانى وأبوليناريوس مضادى الايمان اطردوا ديوسقوروس » ·

قال المصريون « ان ثاوذوريتوس شتم المسيح ولعن كيرلس فان قبلناه أهنا المسيح ورفضنا كيرلس » ·

وأخذ الفريقان يتحاوران معا بمثل هذا الكلام وشرع كل حزب في أن يوجه الى الآخر شديد المطاعن حتى أشرف المجمع على أن يكون ميدانا للمحاربة لولا أن مندوبي الحكومة استعملوا نفوذهم في اعادة النظام والسكينة ووقف واحد منهم وخطب في المجمع قائلا « انه لايجدر بالأساقفة وأئمة الدين أن يأتوا مثل هذه الأعمال المشينة من صياح وصراخ بل يجب عليهم أن يكونوا قدوة للشعب في الهدوء والسكينة . ونحن نرجوكم أن تستعملوا البرهان بدل البهتان والدليل عوضا عن القول وأميلوا آذانكم لسماع ما يتلى عليكم » .

ثم أخذ الكاتب يتلو قرارات مجمع أفسس الثاني وكان أعضاء الحزبين يقاطعونه بضجيج الاستحسان أو الاستهجان . وكان البابا ديوسقوروس في وسط ذلك الهيجان ساكنا هادئا مستعملا الحكمة مجردا سيف البرهان عوضا عن الثرثرة الفارغة التي كانت سلاح نواب رومية الوحيد وكان مما فاه به في هذا المجمع قوله « قد علمتم أن القيصر لم يجعل لي وحدى الأمر بل ليوبيناليوس وتلاسيوس أيضا ومنح لهما التدبير فنحن بما حكم به اذعن لنا المجمع بأسره فلماذا ينسبون الى وحدى تدبير هذه الأمور حالة كون سلطان الثلاثة متساويا وقد استصوب المجمع ما حكم به فأقروا بأصواتهم ووضعوا خطوطهم بأيديهم وأخبرنا القيصر بذلك وهو ثبت بأمر عال كل ما حكم به المجمع المقدس » أهـ .

فأجاب أساقفة الشرق ما معناه « أنهم لم يشتركوا في حرم فلابيانوس الا تحت تأثير الارهابات والتخاويف » وكان معظم المتكلمين شمامسة . فاعترض الأساقفة المصريون على تداخلهم الغير قانوني طالبين اخراج كل من ليس له حق الكلام في المجمع فلم يسمع لهم ولم يجب مطلبهم .

وبعد ذلك سأل رئيس المجمع المشتكين على ديوسقوروس « من الذى أرغمكم على الامضاء ؟ » أجابوه ديوسقوروس ورهبان أوطاخي الذين عددهم ٣٠٠ راهب فأجابهم أساقفة مصر « لو كنتم مسيحيين حقا لما أرهبكم التهديد لأن الأرثوذكسي لا يخاف . ها نحن الآن مستعدون للموت دون أن نحيد قيد شعرة عن ايماننا فلو كنتم مؤمنين حقا لما وقعتم على الأوراق حسب ادعائكم لأن المسألة تختص بجلالة الايمان الذى ينبغي للمؤمن الحقيقي أن يسفك آخر نقطة من دمه في سبيل تأييده » .

ولما استأنفوا قراءة بقية الأعمال كثر الهياج واللغط فأظهر نواب الحكومة الاستياء الشديد مرة أخرى فقال ثاوذوريتوس ان كتبة ديوسقوروس

هم علة هذا الضجيج . فأجاب البابا بهدوء « لا يوجد معى سوى كاتبين فقط وهما لا يقويان على احداث مثل هذا السجس » .

ثم سئل البابا ديوسقوروس لماذا لم تقرأ رسالة لاون فى المجمع فأجاب أمرت بقراءتها مرتين . فسألوا يوبيناليوس شريكه فقال « أجلنا قراءتها حتى ننتهى من قراءة رسائل القيصر وبعد ذلك لم يطلب منا قراءتها » .

وبينما كانت تقرأ الأعمال كان أساقفة الشرق يعترضون اعتراضات سقيمة فتارة ينكرون ما قالوه أو كتبوه حتى قال لهم ديوسقوروس « لقد تجاسرتم على نكران كل شىء فالأفضل أنتقولوا اننا لم نكن حاضرين بالمرة » وأخرى يعترضون على البابا الاسكندرى بما أملته عليهم أهواؤهم . فمن ذلك أنهم أخذوا عليه قوله فى مجمع أفسس « انى أفحص قوانين الآباء الذين اجتمعوا فى نيقية وفى أفسس » ولما اعترض أوسابيوس على لفظة « أفحص » أجاب البابا ديوسقوروس « ان الفحص لازم لأن مخلصنا قال « فتشوا الكتب » ولكن كان لكم وجه للاعتراض لو قلت أجدد » .

ولما قرىء ايمان أوطاخى قال البابا ديوسقوروس « فان كان أوطاخى يذهب بخلاف مذهب البيعة فهو لا يستحق العقاب فقط بل النار أيضا أما أنا فمهتم بالايمان ولست بشأن أحد من الناس بل فكرى شاخص الى اللاهوت فلا أبالى بأحد ولا اهتم بأحد سوى بنفسى وبالايمان المستقيم الصحيح » .

وبعد ذلك أنكر باسيليوس خطابه المحرر فى دفتر الأعمال فقال رئيس المجمع « اذا لماذا وقعت على القرار بحرم فلابيانوس » فأجاب « انى التزمت أن أطاوع ١٣٠ أسقفا » فقال له ديوسقوروس « الآن من فمك تتبرر ومن فمك تدان لقد استحيت من الناس وأهنت الايمان خوفا منهم » .

واذ رأى الأساقفة الشرقيون أن قولهم « أجبرنا على التوقيع » يوجب عليهم شديد اللوم قالوا أخيرا « أخطأنا كلنا ونطلب الغفران » ولأجل ذلك قبلوا وانتقلوا الى الجهة الأخرى التى كان فيها الأساقفة النسطوريون فقالوا لهم « مبارك قدومكم » .

ثم سألوا البابا ديوسقوروس لماذا حكم على فلافيان بالحرم والنفى فأجاب « ان الأسباب التى بنى عليها الحكم على فلافيان واضحة صريحة هى أنه كان يعتقد بوجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد . أما أنا فلى شهادات من أقوال الآباء أثناسيوس وغريغوريوس وكيرلس تؤيد أنهم كانوا يعتقدون

بعدم وجود طبيعتين للمسيح بعد التجسد بل ان الكلمة المتجسدة اتخذت طبيعة واحدة فقط · فاذا كان فى اعتقادى خطأ فيكون أصله من خطأ هؤلاء الآباء المحترمين الذين أقول أنا بقولهم ولا أتحول عن مبدأهم · وحتى يكون المجمع على ثقة من قولى أخبره اننى نقلت أقوالهم هذه بالحرف الواحد واعتنيت كثيرا فى ضبطها على الأصل والتحقق من صحتها » أهـ ·

وكان نواب لاون يتذمرون من ترك الحرية لديسقوروس ليبدى أفكاره فأجابهم الرئيس « ان هذا المجمع يقتفى آثار العدل والحق فى أعماله فهو يمنح حرية الأفكار الصحيحة لجميع الأعضاء على السواء » وبذلك انتهت الجلسة الأولى وعينوا موعدا لانعقاده بعد خمسة أيام ·

غير أن أساقفة الشرق ومندوبى أسقف رومية رأوا أن السماح لديوسقوروس بالكلام فى المجمع يؤول الى تبرئته ولهذا استعجلوا فطلبوا عقد المجمع بعد ثلاثة أيام بدل خمسة وجعلوا حضور المجمع قاصرا على أساقفة الشرق وبعض أساقفة الغرب ومنعوا أساقفة مصر ومندوبى الحكومة وديوسقوروس بل وضعوا على باب بيته حراسا حتى لايتمكن من الخروج · ولما حاول الخروج ليحضر المجمع منعه الحراس بأسنة رماحهم ·

وفى تلك الجلسة بل المؤامرة التى تشابه من كل الوجوه مؤامرة كهنة اليهود على المخلص استحضر النسطوريون شهودا زورا قدموا عرائض يطعنون بها عرض البابا ديوسقوروس بما طعن به الأريوسيون البابا أثناسيوس الرسولى قبله ثم وضع المجمع حكمه بتجريده من رتبته بدون أن يؤتى به ليدافع عن نفسه وأعلن بالحكم حالا وأرسل الحكم الى القيصر وزوجته وأساقفة مصر الموجودين بخلكيدون وكل ذلك جرى بغاية الاستعجال الأمر الذى جعل مندوبى الحكومة يحتجون ويطلبون سحب الحكم ولكن بدون جدوى · فحرى بالمؤرخين اذا أن يطلقوا على هذا المجمع لقب « اللصى » فالحقيقة تؤيده عليه وتنفيه عن مجمع أفسس الثانى ·

غير أن مقاومى البابا الاسكندرى رأوا فيما بعد أن حكمهم باطل وغير معتبر شرعا لعدم قيامه على أسباب قانونية توجب عزل خصمهم وكاد أن يذهب صرخة فى واد بالنسبة لمعارضة مندوبى الحكومة له فجددوا النظر فى قضية البابا ديوسقوروس وطلبوه للحضور ولكنه لما علم أن مندوبى الحكومة انسحبوا من المجمع امتنع وقال لمن دعوه « انى قصدت مرارا الذهاب الى المجمع فمنعنى الحراس الواقفون على باب منزلى » وكان سبب

امتناع البابا عن حضور ذلك المجمع علمه بسوء نيـة أعضائه وشر ماعزموا عليه وهذا ما فهمه ممن أرسلوا اليه ليدعوه الى المجمع ٠

أما المجمع فأيد الحكم على البابا ديوسقوروس وكان من بين أعضائه من لا يريد الحكم عليـه ولـكنهم إضطروا خوفا من بطش القيصر ٠ ولمـا أطلع البـابا على قرار عقيـدتهم وطلب منـه توقيعـه قرأه أمام بعض أساقفته فعلقوا عليه حاشـية من أربعـة أركان الورقة المـكتوب فيها تفيـد حرم هذه العقيدة ومن يتمسك بها ٠

ولمـا بلغ مركيان رفض ديوسقوروس التوقيع على قرار المجمع هـو وأساقفته هم بقتله فأشير عليه باحضاره أمامه فأمر به فحضر وأومأ الى ديوسقوروس أن يذعن لرأى القيصر ليستمر فى مركزه فقال ديوسقوروس « أن القيصر لا يلزمه البحث فى هذه الأمور الدقيقة بل ينبغى له أن يشتغل بأمور مملكته وتدبيرها ويدع الـكهنة يبحثون عن الأمانة المسـتقيمة فانهم يعرفون الـكتب وخير له أن لا يميل مع الهوى ولا يتبع غير الحق » فقـالت بولـكاريا زوجة القيصر وكانت جالسـة بازائه « يا ديوسقوروس قد كان فى زمان أبى انسان قوى الرأى مثلك فحرم ونفى من كرسيه (تعنى به يوحنا فم الذهب) فقال لها « نعم وقـد علمت ما جرى لأمك وكيف ابتليت بالمرض الذى تعرفينه الى أن مضت الى جسد القـديس يوحنـا واستغفرت فعوفيت » فحنقت بولـكاريا من قوله ولـكمته فانقلع له ضرسان بالنسبة لشيخوخته وتناولته أيدى الرجال فنتفوا أكثر لحيته فأخذ ضرسيه وشـعره وأرسلهما لأبنائه فى مصر قائلا لهم : « هذا ثمر جهادى » ٠

حينئذ أصدر القيصر أمرا بنفيه الى غاغرا (١) وذهب يقوده الجند الى منفاه وهم يعاملونه بقساوة كلص قاتل وكان مرافقا له من اكليروسه القديس مكاريوس أسقف اتكو والقس بطرس والشـماس ثاويسطس كاتب سـيرته وتوجه الى محل نفيـه فعبر بيت المقـدس وفلسطين وعرفهم ايمانه فتبعوه وقالوا بقوله وقـدم عدة أساقفة على أمانته٠ وبعد نفيه حاول أعضاء المجمع أن يجبروا أساقفتـه على التوقيع على قرارهم ولـكنهم أبوا بتة ولما وعدوهم بحمايتهم من المصريين اذا هم وقعوا رفضوا اطاعتهم وهكذا انفض هـذا المجمع بعد أن شق كنيسة المسيح ٠

---

(١) هى جزيرة بغلاغونيا من آسيا الصغرى ٠

أما خصوم البابا الاسكندرى فلما رأوا أن السماء والأرض تعلنـان ظلمهم له ادعوا زورا وبهتانا بأنهم حرموه ونفوه لأنه شريك أوطاخى وتلك تهمة كاذبة فالـكنيسة القبطيـة تشجب أوطاخى وتعتبره هرطوقيـا والفرق ظـاهر بين اعتقادات أوطاخى واعترافات وأقوال البابا ديوسقوروس التى صرح بهـا فى بهرة المجمع منكرا فيهـا الامتزاج والاختلاط والاستحالة بكل صراحة ورفض أوطاخى مادام حائدا عن استقامة الايمان العـام · وتبعته فى ذلك الـكنائس التى تعتبره كالـكنيسة القبطية والسريانية وغيرهما · وقـد كتب وهو فى منفاه رسالة ضد أوطاخى الى شـخص اسمه أبريطن مسجلة ضمن كتاب « اعترافات الآباء » يقول فيهـا « يجب علينـا أن نقلع ونخرج عن كل من يقول أن الله الـكلمة تألم بلاهوته أو مات وأما نحن فما نؤمن هكذا بل أن الله الكلمة صار جسدا بحق وبقى بلا الم ولا موت بالجملة بلاهوته · لـكن قوما يظنون ويقولون اننـا اذا قلنـا أن المسيح تألم بالجسد لا باللاهوت نوجد فى هذا القول موافقين لمجمع خلكيدون ونحن نجيبهم ونقول اذا كان أهل مجمـع خلـكيدون يعـترفون أن الله الـكلمة تألم بالجسـد للأقنوم الواحد الذى هو الابن الواحد المتجسد مستشهدا بأثناسيوس كمـا تقدم وبكيرلس » أهـ ·

واذا اعترض الغربيون بقبول ديوسقوروس لأوطاخى فى مجمع أفسس الثانى فنقول ان ذلك لا يؤخذ دليلا على اشتراكه معه فى الهرطقة وذلك لأن اعتراف أوطاخى كان فى ظاهره مستقيما موافقا لايمان المجامع السابقة ولم يكن حجاب هرطقته مكشوفا بعد · وعندما ظهرت حقيقـة معتقـد أوطاخى رفضه البابا الاسكنـدرى ورفض القول بتغير وتألم اللاهوت ورفض آراء أبوليناريوس بانكار النفس النـاطقة ورفض التعليم بالاختـلاط والامتزاج والاستحـالة خلافا لأوطاخى ولم يكن يقع شىء يؤثر على وحدة الكنيسة لولا سوء تصرف نواب رومية ·

واستمر البابا ديوسقوروس فى منفاه حتى توفى فى أول توت سنة١٩٥ ش٬و٤٥٧م بعد أن قضى فيه نحو أربع أو خمس سنين يعانى آلاما شديدة من سكان ذلك المـكان القساة بصـبر تام كما كان قـد سبق واحتمل بكل أناة وسكون تلك الاهانات المرة التى أهانه بهـا أنصـار مجمع خلـكيدون فى القسطنطينية وسلك بغاية الحكمة والرصانة ولم يرد بكلمة واحدة على أولئك السفلة الذين كانوا يشتمونه ويحتقرونه أثناء مروره بالشوارع ·

وروى أن البابا ديوسقوروس ومن كان معه من الأساقفة المصريين شرعوا فى منفاهم ينشرون نور الانجيل ويبشرون أهل ذلك المكان حتى تمكنوا من أن ينصروا كثيرين منهم وقد أظهر الله على أيديهم آيات وعجائب ٠

وحدث أن تاجرا مصريا زار البابا ديوسقوروس فى منفاه فتألم لما شاهد ما وصل اليه من الاحتقار فذكره البابا بما أصاب الرب يسوع من الهوان وأعطى التاجر تلميذ البطريرك قطعة ذهبية ذات قيمة لينفق منها على معلمه ووعد أن يرسل غيرها فلما علم البابا ديوسقوروس بذلك قطع القطعة ووزعها على فقراء المكان ضد رغبة تلميذه ٠ ومما أجراه هناك من المعجزات أن أعسم طلب منه بحرارة أن يسمح له بنقطة دم يمسح بها نفسه فشرط له القديس جزءا من جسمه وأعطاه من دمه ما أدهن به وصلى عليه ففاز بالشفاء الكلى ٠ وارتفع شأن البطريرك الاسكندرى فى عيون أهل منفاه بعد أن كانوا يعاملونه بقساوة وأصبح موضوع احترامهم واكرامهم ٠

وقال الأنبا ساويرس المؤرخ « وقد استمر ديوسقوروس بجزيرة غاغرا حتى أخذ أكليل الشهادة من مركيان الملك » أهـ ولعله يقصد أنه مات من شدة ما لاقى من الصعوبات من ذلك الملك ٠ فناحت الكنيسة المصرية على رئيسها واستمرت محافظة على الايمان الذى قضى حياته فى الدفاع عنه ٠ ومع أن الحكومة حاولت أن تقيم للمصريين بطريركا خلافه الا أنهم رفضوا مطلقا الاشتراك مع الهراطقة واشتركت الكنيسة الحبشية مع أمها الكنيسة القبطية فى رفض قرارات مجمع خلكيدون وأبت الاعتراف بسلطة البطاركة الأروام الذين كان القيصر يعينهم على الكرسى ٠

فليقل لنا الباباويون ٠ من كان يعترف بسلطان أسقفهم العام على الكنيسة حينئذ ٠ ولماذا لم يخضع البابا ديوسقوروس له اذا كان يعرفه رئيسا له واذا كان البابا ديوسقوروس عاصيا فكيف نرى شعبا بأجمعه يطيعه وهو الرئيس الأصغر ويعاند الرئيس العام عليهم أى أسقف رومية٠ فلا يستطيع أن يسلم من له قليل من العقل انه لم يكن يوجد فى تلك الأمة التى كان عددها حينئذ يربو عن العشرة الملايين ولو مليون واحد مستنير يعرف أن أسقف رومية هو رئيس الكنيسة الأعظم فيخضع له ويسلم برأيه٠

أما الذين سلموا فى مصر برأى مجمع خلكيدون فلم يكن بينهم مصرى وطنى واحد ولكن جميعهم كانوا من الفئة اليونانية القاطنة بمصر وهى الفئة التى كانت تروج بهذه البلاد كل بدعة يبعثها الينا الغرب ولا ريب

أن الطائفة الأريوسية التى شغلت الكنيسة المصرية مثلا كانت بالضرورة يونانية بينما الشعب الأرثوذكسى الذى كان يسميه أعداؤه بالسابليين أو فيما بعد بالأوطاخيين كان بالضرورة وطنيا وهذه الطائفة الوطنية الأرثوذكسية أو ان شئت قل المصرية كانت تشمل تلك الهيئة العظيمة نعنى بها هيئة المتعبدين والرهبان وهؤلاء كانوا أقباطا صميمين كما يتبين جليا من أسمائهم ومن جهلهم اللغة اليونانية وكانت تشمل أيضا الجزء الأكبر من مسيحى الاسكندرية · ونفس الهيئة اليونانية بمصر هى التى كدرت سلام كنيستنا بالتسليم برأى المجمع الخلكيدونى وصار الأقباط من تلك الساعة يلقبون اتباع ذلك المجمع بالسنوديين (أى المجمعيين) أو الامبراطوريين احتقارا لهم كما اختصت الكنيسة المصرية نفسها وكنائس سوريا التى على مذهبها بلقب « الأرثوذكسية » أى ذوات الرأى المستقيم·

ومع أن أسقف رومية تمكن بواسطة مجمع خلكيدون من سحق خصمه العنيد ديوسقوروس الا أنه لم يكن راضيا تمام الرضا على ذلك المجمع وذلك لأنه لم يتحصل على غايته القصوى التى كان يسعى اليها وهى التصديق من الامبراطورة أو المجمع بأولوية الكرسى الرومانى واعطائه الرئاسة على باقى الكراسى فضلا عن أن المجمع قرر فى المادة الثامنة والعشرين تجريد كرسى رومية من هذه الدعاوى الفارغة وبأن لا حق له فى الأسبقية على الكنائس الشرقية · وقد اغتاظ لاون لأنه كان يقصد ادخال هذه العبارة فى القرار الذى صدر بحرمان ديوسقوروس وهى « نحن نواب بابا رومية رئيس الكنيسة الجامعة نحرم ديوسقوروس بمصادقة المجمع » الا أن المجمع (ويظهر أنهم نواب الحكومة فى ذلك المجمع) رفض هذه الجملة واكتفى بالثانية وهى (رئيس أساقفة رومية العظمى) ونفس بروتيريوس الذى عينه المجمع الخلكيدونى بطريركا لمصر بدل ديوسقوروس مع أنه صافى لاون وصادقه الا أنه لم يتنازل له عن أولوية الكنيسة القبطية فى اصدار رسائل عيد الفصح التى كان يكتبها بطاركة مصر على الدوام ·

٣ ـ تيموثاوس ٢ ـ البطريرك السادس والعشرون :

لم يكن أوقع حزنا فى نفس المصريين نظير الخبر الذى أنبأهم بأن رئيسهم ديوسقوروس قد عزل بدون حق شرعى فأخذ منهم الغيظ كل مأخذ واستمروا معتبرين اياه الرئيس الوحيد وبسبب ذلك اشتعلت نيران البغضاء بين المصريين وبين الرومانيين المقيمين فى مصر ·

ولما نفى القيصر البابا ديوسقوروس أرسل مندوبا من قبله بصحبة أربعة أساقفة لانتخاب بطريرك جديد للمصريين فهاج لذلك سخط المصريين عامة وعارضوا شديد المعارضة فى اقامة خلف لبطريركهم طالما كان حيا • غير أن القوة تغلبت وأقام الحزب الرومانى شخصا يدعى بروتيريوس بصفة بطريرك على الاسكندرية • وكان هذا الرجل موضع ثقة البابا ديوسقوروس حتى عهد اليه بادارة الكنائس أثناء غيابه الا أنه لم يراع الأمانة وصادق على أعمال مجمع خلكيدون وعلى رسالة لاون علنا لينال عطف منتخبيه الأروام •

ولما قضى الأمر برسامة بروتيريوس قامت قيامة الأمة المصرية واشتد هياجها ضد ذلك الخائن المنافق حتى اضطرت الحكومة لأن ترسل جنودا من قبلها لاخضاع هذا الشعب الثائر • ولكن المصريين قاوموا تلك القوة باستبسال حتى هزموها فغضب الوالى وعول على الانتقام منهم فقطع جراية الخبز التى كانت تصرف للتكايا والمساطب وقفل الحمامات العمومية ومنع المجتمعات • ثم أرسل يطلب قوة أخرى من الامبراطورة فأمدته بألفى رجل ولكنهم لم يقووا على قمع الثورة حتى اضطر الوالى أخيرا أن يعقد صلحا شروطه أبطال كل الأوامر السابقة التى أصدرها ضد المصريين مع استمرارهم على عدم اعتبار الرجل الذى عينته الامبراطورة بطريركا بدون رضاهم وكانوا قد عقدوا مجمعا عظيما حرموه فيه لموافقته الخلكيدونيين ولقبوله مركز بطريرك لايزال حيا •

أما بروتيريوس الذى كان عارفا بشدة كراهة الشعب له لم يكن ينتقل من مكان الى آخر الا بحراسة بعض العساكر • ولما رأى هذه القوة طوع أمره أخذ يسطو على الكنائس والأديرة ويسلبها وينهب مالها حتى جمع ثروة وافرة جعلته مطمح أنظار اللصوص • فسطوا على منزله فى احدى الليالى وقتلوه وسلبوا كل ما وصلت اليه أيديهم • وقيل أنه لما شاع الخبر جاء بعض الرعاع وسحبوا جثته وطافوا بها فى شوارع المدينة وبعد أن مثلوا بها أشنع تمثيل حملوها الى الملعب الذى بناه بطليموس وطرحوها للنار المضطرمة فالتهمتها •

ولا ريب أن ماوقع ببروتيريوس هذا كان عقابا من الله لما أتاه من الفظائع ومنها قتل القديس مكاريوس أسقف ادكو كما سيأتى فى تاريخ هذا البار غير أن الأساقفة الأرثوذكسيين استمروا بدون بطريرك فى حياة

البابا ديوسقوروس ثم بلغهم خبر نياحته فبكوه بحرقة واستدعوا تيموثاوس ويلقب بايلورس من منفاه الى الاسكندرية وكان متأصلا أى من القائلين بوحدة المسيح الطبيعية وكان مركيان القيصر المحامى عن مجمع خلكيدون قد مات وتولى عوضا عنه لاون الثراكى ٠ فانتهز الأساقفة تلك الفرصة وأسرعوا فى تنصيب تيموثاوس على كرسى البطريركية فى بابه سنة ١٩٥ ش و٤٥٧م ٠ فى عهد ذلك القيصر وهذا البابا قال عنه يوحنا النيقاوى المؤرخ « أنه عاش عيشة صالحة بينما كان راهبا فى دير القلمون بمديرية الفيوم الى أن تعين قسا فى كنيسة الاسكندرية ثم خلف ديوسقوروس بعد وفاته وهو مثال التقوى والدين » ٠

وكان والى الاسكندرية متغيبا عنها أثناء انتخاب هذا البطريرك فساءه اجراء الانتخاب بدون اذنه وشرع فى نفيه من الاسكندرية لولا ماعرفه فى الشعب من احترام رؤسائه الأرثوذكسيين ٠ أما البابا تيموثاوس فاستمر مجاهدا ضد أنصار المجمع الخلكيدونى الذين هددوا سلامة الكنيسة فحرم جميع الكهنة الذين تبعوا بروتيريوس وأصروا على التمسك بمبادئه وعقد مجمعا حكم فيه بحرم المجمع الخلكيدونى ورسالة لاون وتبرأ من كل شركة مع كنائس رومية وأنطاكية والقسطنطينية التى كانت فى بدء الأمر أرثوذكسية ولكنها انحازت فيما بعد للخلكيدونيين بتأثير القيصر وامرأته ٠

فرفع أولئك الكهنة المحرومون وعددهم ١٤ من مائة أسقف أو أكثر شكواهم الى القيصر والى بطريرك القسطنطينية ٠ وأرسل أيضا البابا تيموثاوس وفدا من الأساقفة والقسوس بكتاب الى القيصر وعضد هذا الوفد جماعة قوية الشوكة ظهرت فى القسطنطينية لمقاومة المجمع الخلكيدونى وابطال قراراته ٠ ومع أن القيصر كان من أنصار مجمع خلكيدون ولكنه لم ير بدا من الأمر بطلب جميع رؤساء الديانة فى المملكة بأسرها لعقد مجمع عام تفحص فيه أعمال مجمع خلكيدون عما اذا كانت صحيحة أو باطلة ويقول المؤرخون ان معظم الأساقفة اضطروا أن يراعوا خاطر القيصر ويؤيدوا معتقده فأقروا بصحة قرارات مجمع خلكيدون الا أسقفين فقط اشتركا مع تيموثاوس البابا الاسكندرى فى اعتبارها باطلة ٠

ومع ذلك لم يجسر القيصر أن يمد يده بسوء الى البطريرك الاسكندرى خوفا من هياج المصريين عليه ٠ وكادت الأمور تهدأ لولا أن أسقف رومية استمر فى طغيانه وأقنع الامبراطور بضرورة نفى بابا الاسكندرية ٠ فصدر

الأمر لوالى الاسكندرية بذلك فأسرع هـــذا بسرور ونفى تيموثاوس وأخاه أناطوليوس الى غاغرا سنة ٤٦٠ م ٠

وبعد نفى هذا البـــابا انتخب الملـــكيون (١) رجلا يدعى تيموثاوس كان يلقب « صاحب القلنسوة البيضاء » قيل أنه كان ذا صفات حسنة استمال بها قلوب الشعب اليه مع أنهم كانوا يعتبرونه دخيلا ولـــكنه كان يذكر فى القداس اسم البابا ديوسقوروس الأمر الذى أساء أسقف رومية والامبراطور وسر منه الأرثوذكسيون الذين كانوا يقابلونه بالتحية قائلين « أننـــا وان لم نقر على انتخـــابك فاننـــا نحبـــك للغـــاية » وقيل انه لمـــا رجع تيموثاوس الأرثوذكسى من النفى الى كرسيه مرة ثانية رجع تيموثاوس الملكى الى ديره بدون أن يقاوم أقل مقاومة ٠

واستمر البابا تيموثاوس الأرثوذكسى منفيا مدة سبع سنوات حتى آل الملك الى باسيليكوس الأرثوذكسى فالتمس منه قويمو الرأى أن يعيد بطريركهم من منفـــاه فأمر بعودته ورجع البـــابا تيموثاوس الى مقره وحال وصـــوله الى الاسكندرية عقـــد مجمعـــا ســـنة ٤٦٨ م بلغ عـــدد أعضـــائه ٥٠٠ من الأساقفـــة حكم فيـــه ثانية برفض مجمع خلـــكيدون وأقر على التعليم بوحدة المسيح الطبيعيـــة ورفع قراره الى القيصر فقبل القرار وأصـــدر منشورا ضد المجمع الخلـــكيدونى ورســـالة لاون قبلتـــه كل الـــكنائس الرسولية وصـــار مذهب الطبيعـــة الواحدة الديانة الأولى فى المملـــكة عموما ٠ واستمر البابا تيموثاوس فى جهاده حتى توفى فى ٧ مسرى سنة ٢١٨ ش و٤٧٧م ٠

٤ ـ بطرس ٣ ـ البطريرك السابع والعشرون :

يلقب « ببطرس منغوس » كان قبل رسامته قسا وربما كان تلميذا للبابا ديوسقوروس وكان صديقا لسلفه البـــابا تيموثاوس أقيم بطريركا فى توت سنة ٢١٩ش و٤٧٧م فى عهد زينون قيصر٠ ولم يكد يعتلى الكرسى البطريركى حتى عقـــد مجمعـــا بالاسكندرية حرم فيـــه مجمع خلـــكيدون ورسالة لاون ٠ وكان القيصر الأرثوذكسى باسيليكوس قـــد نزل عن الـــكرسى ورجع اليـــه زينون الخلـــكيدونى وكان هـــذا مغتـــاظا على البابا بطرس لأنه عين بطريركا

---

(١) سمى أنصار مجمع خلـــكيدون بالملـــكيين لأنهم كانوا على رأى الملك أو الامبراطور الرومانى فى الديانة لأن جل الملوك الرومانيين بعد هذا التـــاريخ كانوا من أقوى أنصـــار الخلـــكيدونيين ومن أشـــد أعـــداء الأرثوذكسيين ٠ ودعى الأرثوذكسيون بالمتأصلين أى الذين لم يغيروا معتقدهم ٠

بدون تصريح منه فاتخذ عقده لهذا المجمع وسيلة لاضطهاده فأمر بنفيه ورجوع تيموثاوس صاحب القلنسوة البيضاء الا أن البابا بطرس لم يفارق الاسكندرية بل لبث مختفيا فيها مدة خمس سنوات ٠

ومنعا للقلاقل فكر تيموثاوس هذا أن يعين قاعدة يجرى بموجبها انتخاب البطاركة بالاسكندرية فتألف وفد يرأسه رجل يدعى يوحنا التلاوى (نسبة الى تلامنوفية) وسار لمقابلة القيصر يرجوه أن يترك الحرية للاقباط فى انتخاب بطاركتهم ٠ فظن القيصر أن يوحنا رئيس الوفد يسعى فى الحصول على البطريركية ضد رغبته فحلف يوحنا أمامه بأنه لايبغى ذلك ولهذا أجاب القيصر طلب الوفد ٠ غير أنه بعد موت تيموثاوس سنة ٤٨٢م رشح يوحنا نفسه لمركز البطريركية وأرسل يعلن جميع الأساقفة بانتخابه ٠ وممن أخطرهم بذلك أسقف رومية والقيصر وبطريرك القسطنطينية ٠ فوصلت رسالة أسقف رومية فى ميعادها وتأخرت رسالة القيصر وبطريرك القسطنطينية ٠ فحقد القيصر عليه لمكاتبته أسقف رومية قبله وتذكر وعده بعدم قبول البطريركية ٠ فأرسل القيصر الى أسقف رومية يعلمه بأنه غير راض على انتخاب يوحنا لبطريركية الاسكندرية لأن ذلك يدعو الى ازدياد الاضطرابات وانه عازم على اعادة بطرس بطريركها الحقيقى ٠ وكان أسقف رومية قد انتفخ بالرسالة التى أرسلها اليه يوحنا وتوهم أن له حق الرئاسة فى انتخاب باباوات الاسكندرية ولذلك جاوب القيصر بأنه راض عن يوحنا لا بطرس فاستخف القيصر بأوهامه الفارغة وطرح خطابه فى سلة المهملات وأمر بنفى يوحنا وبرد البابا بطرس من منفاه ٠ أما يوحنا فلم يرجع الى مصر بعد نفيه مع أنه رفع دعواه الى أناستاسيوس خليفة زينون لوجود معرفة قديمة العهد بينهما ظنها تنفعه ولكن القيصر أعرض عنه واكتفى بتعيينه أسقفا فى احدى الابروشيات ٠

وبعد رجوع البابا بطرس من منفاه تلقى رسالة من أكاكيوس بطريرك القسطنطينية يرجوه فيها أن يقبله فى أمانته ٠ وكان أكاكيوس من أنصار مجمع خلكيدون ولكنه ندم فيما بعد وأراد أن ينضم للارثوذكسيين وذلك أنه بينما كان البابا بطرس هاربا من أمام الخلكيدونيين ومعه الانجيل المقدس قابله الشماس يوليانوس الاسكندرى الذى كان بالقسطنطينية وقال له :

« انى لما كنت فى القسطنطينية أرسل الى أكاكيوس شماسا يدعونى الى المكان الذى كان يبيت فيه فلما سرت اليه قال لى أيها الشماس

يوليانوس هل أنت مزمع أن تشترك معى فى الصلاة أم لا فأجبته قائلا لا٠ لأن ذلك من المستحيل فانه لا يوجد هنا الأرثوذكسية يعنى لا تصل ٠ ثم أمرنى أن أجلس وكنا كلانا منفردين فى ذلك المكان ولما حمل الانجيل قال لى هكذا انطلق الى الاسكندرية وفتش على الأنبا بطرس واحلف له كما حلفت لك أنا الآن بقولى وحق الكتب المقدسة انى أرغب من كل نفسى أن أتوب واطرح عنى هرطقة مجمع خلكيدون الدنسة فانى بينما كان المغبوط تيموثاوس موجودا فى هذه المدينة بمنزل (باسيليكوس) أرسلت نحوه شماسى (كريزاريون) وبيده كتابى المخطوط بيدى وفيه تبت وحرمت مجمع خلكيدون وطومس لاون والأوطاخيين وكل هرطقة غير أن ثيوكتيستيس الوالى المعتنق مذهب أوطاخى المعترف بتعليم باطل لما وجد الشماس فى الساحة أخذ من يده الكتاب وقرأه ووجد أنى قد حرمت فيه أوطاخى فضرب الشماس وطرده ومزق الكتاب ولم يكن ليعلم بذلك تيموثاوس المغبوط لأنه كان ساكنا فى الدور الأعلى ٠ وقد كنت ظننت أن الشماس طرد بايعاز الطوبانى تيموثاوس وبما أن الحزن استولى على بسبب ضرب شماسى لبثت لا أبدى أدنى حركة خائفا على تكدير سلام تلك الأيام وحيث أنى الآن أخشى أن تدركنى ساعة الموت ويحل بى قضاء الله أطلب وأنا مستعد أن أفعل كل ما يريح فؤادك وانى لمتندم وتائب وحارم لكل هرطقة » (١) ٠

ثم طلب البطريرك اكاكيوس من الشماس يوليانوس المذكور أن يحمل اليه رسالة للبابا ويتوسط عنده ليقبله ومن ثم تبادلت بين البابا بطرس وأكاكيوس جملة رسائل حتى تحقق البطريرك الاسكندرى صدق توبة البطريرك القسطنطينى واتفقا معا على الاتحاد ووعد أكاكيوس باقناع الملك برفض مجمع خلكيدون وأرسل البابا بطرس بعض شيوخ الرهبان الأتقياء الى القسطنطينية ليحضروا المجمع الذى عقد فيها سنة ٤٨١م لاجراء مراسيم الاتحاد ووضع مندوبو الكنيسة منشورا مشهورا باسم « هيوتيكون » أى « كتاب الاتحاد » وحكم فيه على تعاليم اريوس ونسطور وأوطاخى معا وأثبتت بنود كيرلس وأيدت مجامع نيقية والقسطنطينية وأفسس ورفض طومس لاون ومجمع خلكيدون ٠ ورفع المنشور الى الملك فصادق عليه وأمر بتنفيذه وأرسل الى جميع الأساقفة والقسوس والرهبان والعلمانيين فى الاسكندرية ومصر وليبية والخمس المدن الغربية ٠

---

(١) حسن السلوك فى تاريخ البطاركة والملوك ج ١ : ١٦١ ـ

ثم تبادلت رسائل أخرى فى أمر هذا المنشور بين البابا بطرس واكاكيوس حتى اتفقا عليه وبناء على ذلك قبل رؤساء الطبيعة الواحدة التوقيع على « كتاب الاتحاد » فأمضاها البابا بطرس منغوس بطريرك الاسكندرية وبطرس القصار أسقف أنطاكية . وأمضى عليها من رؤساء أنصار مجمع خلكيدون أكاكيوس أسقف القسطنطينية وكاد المشروع يتم لولا أن بعض أساقفة مصر ومنهم يعقوب أسقف صاومينا أسقف منية طامة لما شعروا بأن بطريركهم اتحد مع أكاكيوس بطريرك القسطنطينية الذى كان معروفا عندهم بالتحزب لمجمع خلكيدون ولطومس لاون ظنوا أن بطريركهم بقبوله التوقيع على « كتاب الاتحاد » وافق أنصار مجمع خلكيدون وطومس لاون فانفصلوا عن شركته غير أن البطريرك تلافى الخطر وأرسل فاستدعى الى الاسكندرية جميع الأساقفة وعقد مجمعا أطلعهم فيه على مادار بينه وبين بطريرك القسطنطينية من الرسائل وقرأ لهم « كتاب الاتحاد » فاقتنع جميعهم سوى بعض المتحزبين الذين لبثوا مصرين على عنادهم وأطلق عليهم لقب (الأسيفاييين) « الذين بلا رأس » لأنهم حرموا من رأسهم أو قائدهم .

ثم أن أسقف رومية الذى كان مبدأه ومبدأ أسلافه وخلفائه أن يزيدوا الشقاق استحكاما فى الكنيسة المصرية وأن يوجدوا شقاقا آخر بين كنائس الشرق والغرب جريا وراء مآربهم الشخصية فلهذا قاوم مشروع الاتحاد لا لسبب الا لأنه لم يخرج من تحت يد جنابه . كما أن بعض المتحزبين من أنصار مجمع خلكيدون كتبوا رسالة لأكاكيوس يلومونه فيها على اشتراكه مع منغوس فلم يكترث أكاكيوس لكتاباتهم بل اقنع كثيرين منهم على موافقة كتاب الاتحاد وبعضهم لم يوافق وأرسل واحد منهم يدعى كيرلس وهو رئيس دير الذين لاينامون الى أسقف رومية يستنجد به فأرسل أسقف رومية لسفيريه بالقسطنطينية أن لا يعملا شيئا بلا اتفاق مع كيرلس . وعوضا عن أن يخاطب رؤساء الديانة فى الأمر كتب للقيصر طالبا نفى منغوس واعادة يوحنا التلاوى وسحب كتاب الاتحاد وارسال أكاكيوس الى رومية ليعتذر عن نفسه . فرد عليه القيصر بأن يوحنا نفى لحنثه فى القسم وأن منغوس صحيح الايمان واستاء أكاكيوس من كتابات أسقف رومية التى تدل على كبرياء متناهية وأصر على الاشتراك مع البابا بطرس . فعقد أسقف رومية مجمعا حرم فيه البابا بطرس وأكاكيوس . ولما بلغهما الخبر عقد كل منهما فى عاصمة بطريركيته مجمعا حرم فيه أعمال مجمع خلكيدون ورسالة لاون .

ثم توفى أكاكيوس وجاء بعـده أفراويطاوس ولم تطل حياته فخلفه أوفيميوس فأرسل اليه البابا بطرس خطابا عن رسائل سلفه أفراويطاوس يحرم فيه المجمع الرابع وكان أوفيميوس هذا على مذهب الملكيين فقطع العلاقات الأرثوذكسية مع البابا بطرس · والذين اتحدوا مع باباوات الاسكندرية جهارا من بطاركة القسطنطينية هم أفراويطاوس سنة ٤٩١ م وتيموثاوس ١ سنة ٥١١ م وأنتيموس سنة ٥٣٥ م وسرجيوس سنة ٦٠٨ م وبيروس سنة ٦٣٩ م وبولس سنة ٦٤٣ م وبطرس سنة ٦٥٢ م وتوما سنة ٦٥٦ م وثيوذوروس سنة ٦٦٦ م ويوحنا سنة ٧١٢م · واستمر هذا البابا على كرسيه مدة ثمان سنوات وثلاثة أشهر ثم لحق بآبائه فى ٢ هاتور سنة ٢٢٥ ش وأكتوبر سنة ٤٩٠ م ·

٥ ـ أثناسيوس ٢ ـ البطريرك الثامن والعشرون :

ولما تنيح البابا بطرس قدم للكرسى الاسكندرى أثناسيوس فى شهر كيهك سنة ٢٢٥ ش و ٤٩٠م فى عهد زينون قيصر انتخبه الشعب والأكليروس باجماع الآراء وكان كاهنا فى بيعة الاسكندرية ووكيلا لكنائسها مشهورا بصلاحه واستقامة ايمانه · ويلقب بالصغير تمييزا له من البابا أثناسيوس الرسولى الملقب « بالكبير » · ولم يكن فى أيام هذا البطريرك فى الاسكندرية بطريرك آخر سواه وخضعت أبروشيات القطر المصرى بأجمعها له وذلك لأن الكنائس الرسولية بأجمعها رفضت اعتبار مجمع خلكيدون وحرمت رسالة لاون ·

وقد صرف هذا البطريرك همته مشتركا مع القيصر أناستاسيوس فى اعادة السلام الى الشرق عموما ومصر خصوصا · وكانت رغبة القيصر أن لا تقوم المنافسات الدينية مرة أخرى بل ينبغى أن تترك الحرية لكل انسان فى اختيار أى مذهب أو دين يعتقد به · ولما رأى بعض الأساقفة ميالين للبحث والجدال عزم على تغييرهم كى لا يكدروا صفو جو الكنيسة مرة أخرى · وبذلك ساد روح السلام على الكنائس بأسرها الا الكنيسة الكاثوليكية التى لم يكف رؤساؤها المحترمون عن معاكسة كل من لايوافقهم على اعتبار مجمع خلكيدون · وما أحسن قول بعضهم فى ذلك « انهم (أساقفة رومية) لم يكفهم مقاومة الأحياء بل كانوا يجتهدون فى معاكسة أناس انتقلوا الى الدار الأخرى فكانوا يطلبون بالحاح شطب اسم ديوسقوروس بابا الاسكندرية وأكاكيوس بطريرك القسطنطينية من بين أسماء

الأساقفة • بينما كان هذان فى دار لا رئيس فيها الا الله وحده والتى يقول كل مسيحى حقيقى أنه لا يحب البقاء فيها اذا صح أن حضرات أساقفة رومية وكلاء بطرس هم المفوضون فيها » أهـ •

ولم يظهر من الأرثوذكسيين الذين اتحدوا مع الكنيسة القبطية أقل تحزب حتى أنه لما توفى أكاكيوس بطريرك القسطنطينية وخلفه أفراويطاوس نسج على منواله متبعا « كتاب الاتحاد » رافضا مجمع خلكيدون • غير أن أوفيميوس الذى خلف أفراويطاوس كما سبق طرد الأرثوذكسيين فغضب عليه القيصر وعقد مجمعا حكم عليه فيه بالنفى وأقام بدله مكدونيوس •

وأقام البابا أثناسيوس الثانى على الكرسى المرقسى نحو سبع سنين كانت كلها خالية من الاضطراب وكانت الكنيسة سالمة من كل اضطهاد وتوفى فى ٢٠ توت سنة ٢٢٩ ش و ٤٩٧ م •

٦ - يوحنا ١ - البطريرك التاسع والعشرون :

كان يلقب « بالراهب » رسم بطريركا فى بؤونة سنة ٢٢٩ ش و٤٩٧ م فى عهد لاون قيصر لاشتهاره بالحكمة والتعقل اللذين عرف بهما سلفه • فسلك مسلك من تقدمه من الآباء القديسين وكانت البيعة والشعب فى أيامه فى أمن وسلام •

ولما توفى زينون وقام مكانه أناستاسيوس البار رأى أن مكدونيوس بطريرك القسطنطينية قد قطع العلاقة مع الكنيسة الاسكندرية وأثبت أعمال مجمع خلكيدون وأخذ يكاتب أسقف رومية فأخذ القيصر يقنع مكدونيوس بأن يحرم المجمع الرابع فأبى • ولذلك عقد القيصر مجمعا بالقسطنطينية سنة ٥١١ م حكم فيه بانزاله عن كرسيه ونفيه وأقيم عوضا عنه رجل فاضل يدعى تيموثاوس وحال ارتقائه عقد مجمعا أيد فيه الأمانة الأرثوذكسية وحرم مكدونيوس وأرسل اليه الحرم مع سفارة وكان الخلكيدونيون يرفضون التسبيحات الثلاثة وهى « قدوس الله قدوس القوى الخ •• » لأن بها القول « يا من صلبت عنا » وكان مكدونيوس قد أبطلها من كنيسة القسطنطينية فأعاد القيصر ترتيلها ثم حرم المجمع الخلكيدونى وعقد وفاقا مع يوحنا بابا الاسكندرية وساويرس بطريرك انطاكية الذى خلف بطرس القصار •

واستمرت البلاد المصرية فى عهد البابا يوحنا فى أمن وطمأنينة دون كل المملكة الرومانية التى كانت فى قلاقل مستمرة ٠ ويلاحظ أن القلاقل لم تكن لتنشأ فى مصر لولا تداخل أسقف رومية فى شؤونها فكانت وظيفته كوظيفة من يحرك النار اذا هدأت لكى يزداد اضطرامها ٠ وفى هذا الوقت كانت يد هذا المدعى أقصر من أن تمتد الى الكنيسة المصرية فساد فيها روح السلام ٠ غير أنها تكدرت أخيرا بسبب داء عياء أصاب كثيرين من الأهالى ٠ ثم تنيح البابا يوحنا فى الرابع من بشنس ٢٣٤ و ٥٠٧ م بعد أن أقام على الكرسى نحو تسع سنوات ٠

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

(١) شنوده (٢) ايسيذوروس (٣) مكاريوس

---

(١) شنوده : ولد هذا الأنبا (١) ببلدة شندويل (٢) من أبوين مثريين كانا يمتلكان قطعانا كثيرة من الأغنام وكان شنوده يرافق الرعاة الى المراعى ونبتت فى قلبه وهو فى سن الحداثة بذور التقوى فكان يصرف وقته فى الحقل فى الصلاة والعبادة والصوم ويترك طعامه للرعاة ٠

ولما أخبر الرعاة والده بذلك أخذه الى دير بالصحراء قرب سوهاج كان الرئيس فيه الأنبا بيجول وطلب منه أن يضع يده عليه ليباركه فقال له الأنبا بيجول « باركنى أنت لأنك ستصير أبا لجماعة كثيرة » ٠

ونشأ شنوده نشأة صالحة واعتنى خاله بتربيته تربية حسنة ومن معاشرته للرهبان الأتقياء اقتبس عنهم كل الفضائل وفاقهم فى الزهد وصار راهبا صالحا استحق أن يتقلد رئاسة الرهبان بعد خاله فجعل يشتغل بهمة عالية فنظم ادارة الدير ووسع نطاقه وبلغ عدد الرهبان فى عهده ٢٢٠٠ بالدير الأبيض و١٨٠٠ بالدير الأحمر(٣) وأكسبه جهاده الحسن

---

(١) انبا كلمة دخيلة على اللغة العربية ومعناها سيد وباضافة الألف واللام اليها هكذا الأنبا يعنى السيد ٠

(٢) بجوار اخميم بمديرية جرجا ٠

(٣) الدير الأبيض ويسمى دير الأنبا شنوده وبجواره الدير الاحمر أو دير الانبا بيشوى ٠ وهما قائمان للآن غربى سوهاج ٠

نفوذا ساميا ليس على الرهبان فقط بل على جميع البلاد المجاورة لذلك الدير وكان يأتى اليه أكابر الأمة ليستشيروه فى أمورهم المهمة فكان يكشف لهم ما خفى من أسرارهم حتى اعتبروه كأحد الأنبياء العظام الذين يخاطبون الله رأسا ٠

وحدث مرة أن قائدا رومانيا كان سائرا للقتال فمر فى طريقه على دير الأنبا شنوده ليأخذ رأيه فى الحرب وكان الأنبا شنوده قد اعتزل فى مكان بعيد للعبادة وأوصى الرهبان بمنع كل زائر يقطع عليه اختلائه مع الله ٠ فلما جاء القائد أخبره الرهبان بالأمر ولكنه صمم على أن لا يبرح الدير الا اذا قابله وضرب بعساكره حول الدير واستمر الرهبان يقدمون الطعام للجنود حتى ملوا فأوفدوا للأنبا شنوده كاتبا كان له دالة عليه ليدعوه للقائد وينقذهم من هذه النفقات ٠ فلما علم الأنبا شنوده بالأمر قام لمقابلة القائد وقضى معه وقتا ثم طلب منه القائد أن يهبه احدى حياصاته (أحزمته) ليتمنطق بها وقت الحرب فأعطاه احداها ٠ قيل أنه لما حمى وطيس الحرب لبس ذلك القائد الحياصة فهزم أعداءه هزيمة تامة ٠

وكان الأنبا شنوده شديد الغيرة على الديانة المسيحية فذات يوم أتاه بعض الكرامين الأقباط طالبين منه أن ينصفهم من سيدهم الوثنى الذى لم يدفع لهم أجورهم بحجة أن الكروم لم تثمر جيدا ٠ فسار الأنبا شنوده الى ذلك الوثنى برهط من رهبانه والزمه بدفع حقوق المسيحيين فدفعها مكرها ٠ وحدث أيضا أن رجلا يدعى بطرس جاءه طالبا بركته فوبخه توبيخا شديدا لأنه كان متزوجا بابنة أخته ٠ فقال له الرجل ان للفتاة ارثا لم يرد أن يزوجها لأجنبى خوفا عليه ٠ فعنفه القديس شنوده وقال له « الم تقرأ ما ورد فى الانجيل » ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » ؛ فلما سمع الرجل ذلك بكى وطلب من الأب أن يرشده الى طريق الخلاص فأرشده وقام الرجل وأحضر ٥٠٠ قطعة من الذهب وقدمها للقديس ليوزعها على الفقراء تكفيرا عن خطيئته ٠ فأبى الأنبا شنوده أن يمسكها بيده وأمره أن يبحث عن شخص أمين ينفذ له غرضه ٠ فسار الرجل حتى وصل الى أنبا بولس رئيس دير بوش وسلمه المبلغ وعاد الى امرأته وكشف لها ما جرى ثم وهبها أملاكها وأملاكه وطلقها ورجع الى دير الأنبا شنوده وقضى بقية حياته راهبا ٠

ولما تولى البابا كيرلس الأول الكرسى البطريركى رأى فى الأنبا شنوده رجلا فصيحا غيورا على كنيسته القبطية وتعاليمها الأرثوذكسية فكان يهتدى برأيه فى كثير من المسائل العويصة ٠ وفى سنة ٣٤١ م استصحبه البابا كيرلس هو والقديس بقطر السوهاجى الى مجمع أفسس المسكونى الثالث فأظهر الأنبا شنوده كفاءة علمية كبرى فى دحض بدعة نسطور المنافق (١) وقيل أن أنبا شنوده دخل مرة الغرفة التى كان الأساقفة يتحاورون فيها وكان فى وسطها كرسى وضع عليه الانجيل المقدس ٠ فجاء نسطور ورفع الانجيل عن الكرسى وجلس عليه ٠ فاحتدم الأنبا شنوده غيظا من هذا التصرف المعيب وتقدم الى نسطور وصفعه على وجهه قائلا « لماذا تحب أن تكرم نفسك أكثر من كتاب الله ؟ » فسأل نسطور عنه فقيل له أنه أحد رهبان مصر فاحتج هو وأنصاره على السماح لراهب بالدخول فى مجمع الأساقفة ثم سأل القديس قاصدا الاستهزاء به من أنت ؟ فأجابه الأنبا شنوده بقوة عارضته قائلا « ألا تعلم من أنا ٠ أنا رجل أرسله الله ليزيح النقاب عن شرورك ويطلب لك القصاص على خطاياك وغرورك » فحالما سمع نسطور هذه الكلمات خر على الأرض كمن أصابه صرع ٠ قيل أن البابا كيرلس فى تلك الآونة رقى الأنبا شنوده الى الدرجة الكهنوتية التى تخول له الحضور فى مجمع الأساقفة ٠

وبعد انتهاء المجمع عاد الأنبا شنوده الى رهبانه ٠ وفيما بعد اذ علم أن هناك من يحاولون العبث بالتعليم « بطبيعة المسيح الواحدة المتجسدة » ذلك التعليم الأرثوذكسى الذى أجمعت عليه الكنيسة منذ تأسيسها وثب وثبة الأسد وباشتراكه مع القديس ديوسقوروس البابا الاسكندرى حارب أولئك المعتدين وكاد يقضى عليهم وعلى ما يحاولون لو لم تحل دون ذلك منيته حيث رقد بالرب فى ٧ أبيب سنة ١٦٨ ش ٠

وللأنبا شنوده مواعظ بليغة ومؤلفات نفيسة وضعها باللغة القبطية وبقيت محفوظة بالدير الأبيض حتى عثر على بعضها المستر ماسبرو وعلى

---

(١) لم نجد بين أسماء القديسين المصريين الذين تعتبرهم الكنيسة الكاثوليكية أسم الأنبا شنوده وذلك لمقاومته انصار الطبيعتين وفاتهم انهم باسقاط هذا القديس من بين القديسين قد ناقضوا البابا كيرلس الكبير عماد الأرثوذكسية المعتبر عندهم عمودا للدين الذى قرر ان انبا شنوده لم يكن قديسا فقط بل قديسا ونبيا ايضا (الأجرومية القبطية لمالون الجزويت ص ٣و٤) ٠

البعض الآخر المستر زويجا فالمسيو ميلينو الذى نشرها بالفرنسية سنة ١٨٨٩ م ٠

(٢) ايسوذوروس الفرمي :

ولد فى مدينة الاسكندرية سنة ٣٧٠ م من عائلة شريفة نظرا الى التقوى والغنى وكانت بينه وبين البابوين ثاوفيلس وكيرلس صلة قرابة وقد تربى من حداثته تربية حسنة فنشأ عالما بأصول الدين وباقى العلوم ولا سيما اللغة اليونانية حتى أنه اعتبر أحد آباء الكنيسة الجامعة وأحد علماء عصره ٠

ولكن فضله ظهر واضحا عندما طرح مجد العالم خلفه وازدرى بملذاته وآثر عيشة الوحدة والزهد فأحسن بكل ما يملك على الفقراء والمساكين وهرب ليلا وانفرد يعيش سائحا مع بعض النساك فى جبل صغير قريب من مدينة بيلوسيوس المدعوة الآن فرموس (١) ولذلك دعى باليونانى وباقى اللغات الغربية ايسوذوروس بيلوسيوطا وبالعربى ايسوذوروس الفرمى ٠

وصرف هذا البابا جملة سنين مواظبا على العبادة وكان محبا للصمت ميالا للانفراد للصلاة والتأمل مع الله وأظهر قساوة شديدة على جسده فأذله بالتقشفات الشاقة والأصوام الزائدة ٠ وفيما بعد رأى نفسه مدعوا الى الانذار بالتعاليم المستقيمة والمجاهدة عن الحقائق الدينية والآداب فقام بذلك دون أن يخشى عظماء العالم ٠ وعقب اقتباله درجة الكهنوت شرع فى وضع رسائل عديدة ومتباينة المواضيع ووجه كل خطاب منها الى كل شخص ذى دعوة أو رتبة أو وظيفة خصوصية من كل سن وجنس ورتبة حتى أنه اتصل الى أزمنتنا هذه من رسائله مايتجاوز الألفين ٠ وفحوى رسائله يدل بالأخص على الروح المسيحية التى كانت تملأ قلبه وتبرهن على تعمقه فى معرفة الكتب المقدسة فكان بارعا فى تشويق الناس الى الفضيلة وتكريههم فى الرذيلة وبليغا فى معرفة تواريخ البيعة والقوانين والتهذيبات الكنسية المختصة بكل ذى وظيفة منها ٠ وكانت رسائله تقابل من الجميع بثناء زائد حتى أن بعض المؤرخين يقول أنها

---

(١) بيلوسيوس باقليم الوجه البحرى وكانت أقوى حصن حربى على حدود مصر من الشمال الغربى ٠

لم تكن أقل اعتبارا من أنفاس القديس يوحنا فم الذهب نظرا الى الغيرة على استئصال الرزائل والعوائد الرديئة وتهذيبها بموجب تعليم الانجيل ·

وكان القديس قد طالع ما كتبه القديس يوحنا فم الذهب بكلف زائد وتشبع من روحه لا سيما من كتابه المدعو « واجبات الكهنوت » واقتفى أثره ونسج على منواله حتى أنه استحق أن يدعى تلميذا خصوصيا له · وكان اعتباره القلبى لفم الذهب شديدا بهذا المقدار حتى أنه لم يكتف بأن يسلك بموجب تعليمه فقط ولكنه كان يدافع عنه بجرأة أمام قريبه البابا ثاوفيلس البطريرك الاسكندرى · وهذه المدافعة هيجت عليه أعداء القديس فم الذهب فاتهموه معه بتهم كثيرة تحمل بسببها اضطهادات قاسية· وهكذا بعد وفاة البابا ثاوفيلس بذل مجهوده لدى خليفته وابن أخته البابا كيرلس ليوضح له سمو فضل القديس يوحنا وحمله على أن يضع اسمه بين أسماء القديسين وكان للبابا كيرلس فى محاربته للنسطوريين النصير الشديد ·

ومما حرره هذا القديس فيما يختص بواجب ذوى الرتب الكهنوتية أمام الاهانات التى تصادفهم قوله : « اننا نخطىء على حد سواء حينما ننتقم لأنفسنا بأخذ الثأر عن الاهانات الصادرة فى حقنا وحينما لا ننتقم عن الاهانات الصادرة فى حق الله · فيجب علينا اذا أن نحتمل بدعة وصبر الاهانة حينما تلحق بأشخاصنا فقط وأن نستعمل الحنو والتساهل فى غفرانها · وأما حينما تلحق الاهانة بالعزة الالهية فوقتئذ يكون عدلا وواجبا أن نتصف بالغيرة وأن نظهر الغيظ المقدس والغضب المؤسس على حب الله من أننا نحتمل ذلك بجبانة ونخشى بدناءة اغاظة غيرنا ولكن نحن نصنع ما يضاد هذا الأمر على خط مستقيم · أى أننا نتقد غضبا ونشتعل بنار الغيرة ضد أعدائنا فيما يصادفنا وأما فيما يخص الله وكنيسته فنحن فاترون متغاضون خالون من كل حرارة · فموسى الأكثر حلما ودعة من جميع الناس قد احتمى غضبا ضد الشعب الاسرائيلى حينما صنعوا العجل الذهبى ليسجدوا له · وفى هذا الحادث ظهر غضبه أكثر قداسة من أى تنازل وحلم ودعة كانت · وايليا تسلح بالغيرة المتقدة ضد عابدى الأصنام · والقديس يوحنا المعمدان ضد هيرودس الملك · والقديس بولس الرسول ضد عليم الساحر · فهؤلاء القديسون انتقموا من الاهانة المتصلة بالله فى الوقت عينه الذى فيه كانوا يتغاضون عن الاهانات التى تتصل بأشخاصهم · فأى نعم ان الله

هو اكثر اقتدارا بما يجب على الانتقام لذاته بعدله الرهيب ولكنه مع ذلك اراد تعالى ان الناس الصالحين يشتركون فى المحاماة عن الحق منتقمين بقدر ما هو ممكن لديهم عن الافتراء المصنوع فى حق عزته الالهية. فهذا هو الترتيب الذى كان القديسون يتصرفون بموجبه وبه كانوا يحصلون على ثبات فضيلتهم وفلسفتهم الحقيقية » اهـ .

وغيرة القديس ايسيذوروس المقرونة بالشجاعة فى تهذيب الآخرين امتدت الى رئيسه اوسابيوس اسقف بيلوس خليفة الأنبا آمون فانه رآه يتصرف تصرفات غير عادلة وينشىء خطابات بعدم حكمة حتى انه سبب شكوكا كثيرة فى كنائس الاقليم المصرى أخذ يجابهه بالحقيقة ويعلمه بأنه شط عن الصواب . وأبلغ من ذلك قيام القديس بتوبيخ حاكم المقاطعة وتأنيبه على المظالم التى كان يرتكبها وعلى عدم مراعاة حقوق الكنيسة ؛

وقد اتت توبيخاته هذه بأثمار تامة وكان اسلوبه فى التوبيخ بديعا يتضح من قوله فى احدى رسائله « أمر ضرورى هو أن نوبخ البعض بقساوة والبعض بعذوبة وليونة لأنه لا يمكن اكتساب الجميع بنوع واحد ولا يستطاع معالجة الأمراض كلها وشفاؤها بدواء هو هو بعينه » أهـ :

والمعلوم أن الأفاضل الذين اخذوا على انفسهم تقويم المعوج واصلاح الفاسد يكثر اعداؤهم والناقمون عليهم ولا عجب ان وجد كثيرون ينقمون على القديس ايسدوروس ويضطهدونه أما هو فلم يكن يتألم من اضطهاداتهم لأنه كان يعلم أنه فى هذا الطريق سار القديسون قبله فكان يتسلح بقوة وصبر وثبات على الاحتمال بدون ضجر . وتمكن أعداؤه من طرده من مكان نسكه وارسلوه الى المنفى فكانت غبطة القديس بما جرى له شديدة حتى أنه خاطب صديقا له فى احدى رسائله قائلا « أنه ان كان من يصنع الواجب عليه ويتمم حسبنا التزاماته يقتضى أن يعامل بالردى وأن تحيق به الاضطهادات والمصائب وأن من يصنع الشر يلزم أن يمدح ويكافأ بالانعامات فلا شك بأنه يجب على الانسان ان يختار النوع الأول بصنيع الخير بدون أن يلتفت مطلقا الى الاضطهاد الذى يلحق به من جرى ذلك لأننا اذا قطعنا النظر عن المجازاة السماوية عينها التى وعد الله أن يجازى بها الفضيلة ثم عن العقاب المريع نفسه المعد فى جهنم للانتقام عن الرزيلة فالفضيلة وحدها وبذاتها هى اكليل ومكافأة البار . كما أن الشرير يجد قصاصه وعقابه فى الشر والرزيلة ولهذا تجد الفضيلة

دائما محبوبة على حد سواء ولو أنها اضطهدت بالتهم الباطلة نفسها ، والرزيلة هى دائما مستحقة البغضة مهما تشرفت من الناس الضالين » أهـ ٠

وقد شاهد القديس مبتدعين كثيرين وانتشرت فى أيامه هرطقات متعددة ولكن جميعها لم تكن كافية لأن تبلبل أفكاره اذ كان يعلم أنه لابد أن تأتى العثرات (مت ١٨:٧) ويتأكد أن هذه الامتحانات التى تتلقاها الكنيسة آيلة لنجاحها ولابد أن تنتصر عليها أخيرا ٠

ولما أكمل القديس جهاده رأى فى نفسه اضطراما شديدا للوصول الى مقر الراحة الأبدية ولهذا حينما داهمه المرض الأخير تعزى وابتهج وهكذا رقد بالرب بهدوء وسلام فى ٤ شباط سنة ٤٤٥ م ٠

(٣) مكاريوس أسقف ادكو : (١)

هو أحد مشاهير النساك ومن أبطال الكنيسة القبطية فى هذا القرن الذين دافعوا بكل قوتهم وضحوا حياتهم فى سبيل تأييد اعتقادها الذى حفظته الكنيسة منذ نشأتها سالما وهو مايختص بوحدة مخلصنا الطبيعية ٠ وكان من حداثته متصفا بالوداعة والتواضع ولما رسم أسقفا لابروشية ادكو كان يصعد على المنبر ليعظ الشعب فيشتد بكاؤه ونشيجه ولما سئل عن سبب بكائه أجاب « انى أشاهد خطايا الشعب كما ينظر الزيت فى الوعاء » ٠

وظهرت غيرته على مجد ابن الله ومحافظته على كرامته فى هذه الحادثة وذلك أن بعض الوثنيين كانوا يختطفون أولاد المسيحيين ويقدمونهم ضحية لأصنامهم فلما سمع القديس هذا الخبر قام الى بلدة الوثنيين المجاورة لمدينة ادكو يصحبه ثلاثة رجال فقط ٠ ولما انتهوا الى الهيكل وشاهدوا أبنيته الشامخة والتفاف الوثنيين حوله كالجراد والأسلحة بأيديهم طار لب الثلاثة الرجال ولا سيما عندما فاجأهم الوثنيون وهم يتقدمون نحو الهيكل وقالوا للقديس « لماذا أتيت الى هنا وما حاجتك عندنا » أما القديس فلم يتطرق اليه وجل بل أجابهم بمثل حماستهم

---

(١) وجد بالفاتيكان كتاب قديم بخط اليد يؤخذ منه أن ناسخه تلقى مافيه من الأقوال عن لسان البابا ديوسقوروس البطريرك الاسكندرى نفسه حينما كان فى منفاه ٠ وهذا الكتاب يحتوى على تاريخ سفرة ديوسقوروس الى مجمع افسس وما تم فيه ٠ ومن ذلك الكتاب اخذت ترجمة القديس مكاريوس أسقف ادكو ٠ وادكو هذه بمركز رشيد بمديرية البحيرة ٠

قائلا « لقد جئت لأرى ماتفعلونه بأولاد المسيحيين الذين تختطفونهم لتقدموهم ذبيحة لآلهتكم الكاذبة • فقالوا له ان هذا الخبر كاذب ومن أبلغك اياه نمام • فأجابهم ان كنتم صادقين فدعوني أتبين الأمر بنفسي في داخل الهيكل فسمحوا له بالدخول ودخل معه رجل واحد ممن كانوا معه نظرا لخوف الاثنين اللذين بقيا خارجا وما تقدم القديس داخل باب الهيكل حتى رأى عشرين رجلا بأسلحتهم متقدمين اليه وهم يهددونه بدنو أجله وحملوه ليقدم ذبيحة لأحد آلهتهم ولم يؤخرهم سوى أن رئيس كهنتهم هوميرس لم يكن موجودا فاستدعوه وقد انتهز الرجل الذى كان مغلولا مع القديس هذه الفرصة وأسر اليه قائلا : هذا وقت الصلاة فأجابه القديس « لاتخف لابد أن يسوع ينقذنا من هذا الموت المريع » ولم ينته من هذه الكلمة حتى سمع الاثنان على الباب صوت ويصيح أحد المؤمنين يطلب اطلاق سراحهما فان هذا المؤمن لما علم بانطلاق القديس للهجوم على هيكل الوثنيين خشى عليه منهم فجمع عددا غفيرا من المؤمنين وسار الى الهيكل وكسر الباب وخلص القديس وزميله من الموت وهما على حافته • وقيل أنه استخدم قوته فى حرق جميع الأوثان التى وجدها فى الهيكل وطاف البلدة يحرق كل ما تصل إليه يده منها حتى أن الأهالى اذ رأوا آلهتهم تحرق أمامهم دون أن تقوى على انقاذ نفسها أو تؤذى من أهانها اعتمد منهم كثيرون •

وبعد ذلك أمر ثيودوسيوس قيصر بعقد مجمع فى أفسس تفحص فيه هرطقة أوطاخى فسار القديس الى الاسكندرية ماشيا على قدميه وفى عزمه أن ينطلق أيضا الى مجمع أفسس ماشيا ولما كان القيصر أرسل سفينتين لنقل البابا ديوسقوروس وحاشيته تقدم ربانهما الى القديس مكاريوس وبعد أن أوضح له صعوبة السير على الأقدام الى أفسس طلب منه أن يشرفه بنزوله فى مركبه فأبى القديس وقال له « لاتحلو لى الراحة فى سبيل خدمة الله بل يطيب لى معها التعب » ولكن ربان السفينة لم يتركه بل استمر يلح عليه ويلتمس منه الركوب معه فقال له القديس « الله يباركك يا ابنى لا تلح فى طلبك اذ لا يمكنى الركوب كما أنى لا أملك شيئا أدفعه لك كأجر » فقال الربان : اذا كان الأجر هو الذى يمنعك من السفر معى فسافر فى مركب البطريرك مجانا فابتهج القديس وسر لأنه استحق أن يرافق خليفة مارمرقس ولكنه اتخذ له مكانا قصيا من السفينة وجلس فيه • غير أن البابا ديوسقوروس لما

علم بوجوده استدعاه اليه واجلسه في مكان مناسب ولما كان القديس لا يعرف الا لهجة واحدة من لهجات اللغة القبطية كان المترجم ينقل اقوال كل منهما للآخر ·

ونظر أحد الشمامسة الى القديس بازدراء ودهش كيف يحتفل البطريرك وأساقفته برجل بسيط كهذا ليس له المام بالعلوم واللغات فوبخه البطريرك توبيخا شديدا والزمه بان يطلب منه الصفح والقديس لايعلم ماجرى ولم يشعر الا والشماس يسجد امامه فأقامه متحيرا وسأل عن السبب فأفهمه اياه البطريرك وطلب للشماس العفو فأجابه « التمس من المولى أن يغفر خطاياك يا ابنى » ·

ومن ذلك الحين صار القديس موضوع احترام جميع المسافرين فى السفينة ولما وصل الى مجمع افسس قام بخدمات جليلة لبطريركه · وفي مجمع خلكيدون المرذول أظهر غيرة كلية وثباتا عجيبا فى المحافظة على ايمان الكنيسة القديمة فحكم عليه بالنفي مع بطريركه ديوسقوروس ·

ولكنه فيما بعد تخلص من النفى بمساعدة تجار مصريين كانوا قد انتهوا بسفرهم الى حيث منفى الآباء وجاء معهم متنكرا موفدا من قبل البابا ديوسقوروس لتثبيت المؤمنين · وكان وصوله فى الوقت الذى أرسل فيه مركيانوس قيصر رسولا من طرفه يحمل صورة قرار مجمع خلكيدون ليرغم المصريين على التوقيع عليها فجمع رسول القيصر اكليروس الاسكندرية وعظماءها وأخذ يحضهم على الاعتراف بطبيعتين ويحسن لهم قبول طومس لاون فانتصب الأنبا مكاريوس وأخذ بشجاعة فائقة يلقى على مسامع الحاضرين خطبة زيف فيها ذلك الاعتقاد وروى وقائع ذلك المجمع المزور وبرهن على أن أعماله كانت خلافا لكل قانون دينى ومدنى ·

وحدث أن بروتيريوس الذى اقامه البابا ديوسقوروس وكيلا عنه قبل ذلك المذهب مشترطا رسامته بطريركا فحنق الأنبا مكاريوس لرؤيته رجلا يخون من ائتمنه وطفق يوبخه توبيخا عنيفا فاغتاظ منه بروتيريوس ورفسه بقدمه في بطنه فسقط على الأرض وتوفي للحال بالقيمة لشيخوخته وكان البابا ديوسقوروس قد تنبأ له قائلا « انك تنال الشهادة فى الاسكندرية لأجل دفاعك عن ايمان ابن الله » فتم قوله ونال القديس إكليل الشهادة ·

(٤) يحنس القصير : (١)

ولد فى طيبة بالقصى المنـفيد سنة ٣٣٩ م من أبوين فقيرين تقيين ، ولما بلغ الثمانى عشرة من عمره اشتاق الى الرهبنة فمضى ألى برية شليهيت وتتلمذ للأنبا بموية وخدمه لمدة اثنتى عشرة سنة فى مرضه .

وكان يحنس معروفا بالطاعة الكاملة ومن دلائل ذلك أن معلمه وجد يوما عودا يابسا فأمره بغرسه وسقيه مرتين يوميا حتى يثمر . فعمل يحنس بأمر رئيسه الشاق الغير المقبول عقلا وعادة وبكل خضوع وبدون اشمئزاز سار عليه ثلاث سنين وكان الماء يبعد عن الموضع الذى غرس فيه العود بنحو اثنى عشر ميلا . كبر العود وصار شجرة مثمرة ، فأخذ معلمه من الثمرة ودار بها على الشيوخ قائلا : « خذوا كلوا من ثمرة الطاعة » ولا تزال هذه الشجرة باقية الى يومنا هذا فى المكان الذى كان فيه ديره .

(٥) بعض مشاهير :

واشتهر فى هذا القرن ايضا آباء كثيرون بالفضيلة والتقوى منهم الأنبا ايسوذوروس تلميذ القديس مكاريوس المصرى والايغومانوس يوحنا استاذ القديس ارسانيوس الرومانى وأنبا بيشوى والقديس موسى الأسود الحبشى ويضيق بنا المقام عن ذكر تاريخهم وفى كتاب السنكسار منه ما يغنى .

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) اركاديوس واضطهاد مركيان وبولكاريا
(٢) اضطهاد ليو ومساعدة باسيليكوس وزينون المؤمنين

---

(١) اركاديوس واضطهاد مركيان وبولكاريا :

وملك بعد ثيودوسيوس على الشرق ابنه أركاديوس سنة ٣٩٥ م فسار على منهج أبيه وأمر بأن تغلق جميع هياكل الأصنام فى ديار مصر ومنع التدين الا بالدين المسيحى فتأيد هذا الدين وصار الناس يدخلون فيه أفواجا حتى هجرت هياكل الأصنام فأعطى القيصر بطريرك الاسكندرية تصريحا ليتصرف فيها كما يشاء فهدمت وأقيم مكانها كنائس وضيق

أركاديوس على الأريوسيين وأمر بأخذ الكنائس منهم بعد أن حكموها نحو أربعين سنة وأسقط من جيشه من كان أريوسيا وطرد من كان فى ديوانه وخدمه منهم .

وملك بعد أركاديوس ابنه ثيودوسيوس الصغير سنة ٤٠٨ م وبعد موته خلفته أخته بولكاريا سنة ٤٥٠ م وكانت قد نذرت الرهبنة ثم نكثت العهد وتزوجت برجل متقدم فى السن من أكابر المجلس يدعى مركيان ويلاحظ أنه بعد أن ملك ثيودوسيوس الكبير سنة ٢٨١ م عمت مصر الديانة المسيحية وزادت العناية بتشييد الكنائس وفتح المدارس وتأسيس الأديرة وايقاف الأطيان والرزق عليها وكانت بولكاريا تحسد رؤساء الكرسى الاسكندرى على ما وصلوا اليه من الشهرة والاعتزاز وحصولهم على شرف سام يفوق شرف الملوك وخشيت امتداد نفوذ بطاركة القبط فى القصر الملكى وارتفاع كلمتهم على كلمة الحكام الرومانيين وخافت من استقلال هؤلاء البطاركة ببلادهم وتأكدت أن ذلك فى امكانهم لعلمها بأن البطريرك الاسكندرى يستطيع أن يقيم ويقعد بلاده بكلمة تصدر منه . فعملت على اذلال شرفهم فى شخص البابا ديوسقوروس ورأى أسقف رومية أن ذلك من مصلحته ليحل محل البطريرك المصرى فى السطوة والنفوذ فاتفق معها على تدبير مكيدة لذلك القديس فابتدعوا هرطقة مؤداها أن فى السيد المسيح طبيعتين ومشيئتين وأرادوا أن يرغموا البابا ديوسقوروس والكنيسة على التسليم بها والا يطرد من مركزه وتضطهد كنيسته وكانت النتيجة أنهم عقدوا ذلك المجمع الشرير بخلكيدون وحكموا فيه بنفيه وكتب مركيانوس الى جميع مملكته يأمر بقتل كل من لا يقول بقول مجمع خلكيدون فاضطهد الكنيسة المصرية اضطهادا عنيفا ومع ذلك لم توافق الملك والملكة على رأيهما واستمرت معترفة برئاسة بطريركها عليها وأدى كل ذلك الى تعاظم أسباب الشحناء والبغضاء بين الأقباط الوطنيين وبين الرومانيين المقيمين بمصر وزادت عوامل الجفاء والخصام بينهما خصوصا عندما عينت الملكة بطريركا لمصر غير ديوسقوروس فخضع له الأروام أما الأقباط فأبوا الاعتراف بسلطته عليهم مطلقا ورفضوا جميع قرارات مجمع خلكيدون رفضا باتا وكانوا يعتبرون أن

---

(١) ولهذا القديس دير بمركز ملوى باسمه يقال فى بعض الروايات أنه لما اضطهد المماليك الأهالى لجأ المسيحيون منهم الى هذا الدير والى قرية الشيخ عبادة لاعتقاد المسلمين بأنهما مسكونان بالشياطين (تقويم المؤيد لسنة ١٩٠٨ ص ٢٩٤) .

الهزء بأعماله برهان على صدق وطنيتهم واخلاصهم لبلادهم وحبهم لكنيستهم • وسارت الكنيسة الحبشية على عقيدة أمها الكنيسة القبطية وأبت الخضوع لبطاركة بولكاريا ورفضت مطلقا رسامة مطارنتها بيد غير بطريرك الأقباط الأرثوذكس ولا تزال على هذا الرأى الى يومنا هذا •

واستفحل الخلاف بين المصريين والأروام الذين كانوا معضدين من الحكومة • وانتشب القتال مرارا بينهم وبين المصريين فأريقت دماء كثيرين من هؤلاء • ولما أقيم بروتيريوس بطريركا من قبل الحكومة ولم يسلم برئاسته الأرثوذكسيون حمل عليهم مندوب الملكة بفرقة من الجند كانت معه حال اجتماعهم ليلة عيد القيامة للصلاة ففرق شملهم وقتل كثيرين منهم واستولى على أمتعة الكنائس وأموالها وسلمها للبطريرك الدخيل •

(٢) اضطهاد ليو ومساعدة باسيليكوس وزينون المؤمنين :

والقيصر ليو الذى جاء بعد بولكاريا سنة ٤٥٧ م كان يميل الى ترك الحرية للمصريين فى ما يختص بدينهم لولا اغراء أسقف رومية اياه على اضطهادهم فشدد عليهم ونفى بطريركهم وسفك دماء ثلاثين ألفا من مسيحى الاسكندرية بدعوى أنهم خالفوا رأيه ، وملك بعده باسيليكوس سنة ٤٧٤ م وكان قويم المعتقد فأحسن الى الأرثوذكسيين وعقد مجمعا بالقسطنطينية برئاسة البابا تيموثاوس بطريرك الاسكندرية الذى استدعاه من منفاه وحكم فيه برفض أعمال مجمع خلكيدون وأيد الاعتراف بالطبيعة الواحدة وقرر حرم نسطور وأوطاخى •

وجلس بعده على العرش زينون الملك البار سنة ٤٧٧ م وكان فى مبدأ الأمر خلكيدونى المذهب فنفى البابا بطرس منغوس من الاسكندرية ولكنه فيما بعد اعتنق مذهب الطبيعة الواحدة فرد البطريرك من المنفى وعقد بمشورته ومشورة بطرس القصار البطريرك الأنطاكى وأكاكيوس بطريرك القسطنطينية مجمعا فى هذه المدينة وحكم فيه برفض أعمال المجمع الخلكيدونى فأيد هذا الحكم وأثبته بمرسومه المسمى هينوتيكن « أساس الاتحاد » وكاد ينجح فى لم شعث المتنافرين لولا معارضة أسقف رومية ومقاومته كما هو شأن أساقفة رومية الذين كان من دأبهم أن يوسعوا فرجة الخلاف فى الكنيسة المصرية لاعتقادهم أن صيدهم لا يحلو الا فى الماء العكر • غير أن معارضة أسقف رومية لزينون لم

تعد بفائدة فأعز هذا المتأصلين التابعين للبابا ديوسقوروس ورفع غلالهم وكان يحمل الى دير أبى مقار بوادى هبيب كل سنة ما يحتاج اليه من القمح وغير ذلك ٠

القسم الرابع

البدع والانشقاقات

(١) مجمع أفسس المسكونى الثالث

(٢) نسطور (٣) أوطاخى

(٤) بدعة رهبان سكيتى (٥) بدعة مجمع خلكيدون

---

(١) مجمع أفسس المسكونى الثالث :

انعقد سنة ٤٣١ بأمر ثيودوسيوس قيصر تحت رئاسة البابا كيرلس الاسكندرى حضره مائتا أسقف لمحاكمة نسطور الذى أنكر أن السيدة العذراء والدة الاله وعلم باقنومين فى السيد المسيح فحكم المجمع بحرم هذه البدعة وأثبت أن فى السيد المسيح أقنوما واحدا وطبيعة واحدة من بعد الاتحاد بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة ثم وضعوا مقدمة دستور الايمان التى هى « نعظمك يا أم النور الحقيقى ونمجدك أيتها العذراء القديسة والدة الاله لأنك ولدت مخلص العالم أتى وخلص نفوسنا ٠ المجد لك يا سيدنا وملكنا المسيح فخر الرسل اكليل الشهداء تهليل الصديقين ثبات الكنائس غافر الخطايا نكرز ونبشر بالثالوث المقدس لاهوت واحد نسجد له ونمجده يارب ارحم ٠ يارب ارحم ٠ يا رب بارك آمين » ثم أمروا بأن يقرأها كل المسيحيين من الكهنة والشعب شيوخاً وصبياناً ورجالاً ونساء فى الصلوات والقداسات وبعد أن ثبتوا الكنيسة بالقوانين انصرفوا الى بلادهم ٠

هذا واننا نختم الكلام على هذا المجمع بقسم من القانون الثامن من قوانينه يتعلق فى ادارة الكنائس واستقلالية كل واحدة منها هو: « لا يجوز لأحد من الأساقفة الموقرين أن يمد يده الى ابروشية غير ابروشيته ليست له من القديم ومنذ البدء تحت رئاسة أسلافه وان كان أحد وضع يدا واغتصب ابروشية وجعلها فى دائرته فليردها لكى لاتخالف قوانين الآباء ولا يدخل دخان سلطة عالمية تحت برقع الخدمة الكهنوتية

ولا نضيع الحرية رويدا رويدا ونحن غافلون · الحرية التى منحها لنا بدمه الخاص ربنا يسوع المسيح محرر جميع البشر فقد رأى المجمع المسكونى أن تحفظ لكل أبروشية حقوقها القديمة القائمة لها منذ الأبد سالمة صحيحة وفقا للعادة المرعية منذ القديم بأن كل ميتروبليت له الرخصة أن يحصل على المساواة فى الأعمال لصيانته وان برز أحد بقانون يخالف القوانين المسنونة الآن فقد رأى المجمع المسكونى المقدس أن يكون ذلك لاغياً » اهـ ·

(٢) نسطور :

ولد بجرمانيقية المعروفة الآن بمرعش فى سورية واظهر فى مبدأ أمره غيرة ضد الأريوسيين والأبوليناريوسيين حتى ارتقى الكرسى القسطنطينى وقال فى خطاب يوم رسامته « سلمنى أيها الملك الأرض خالية من الهراطقة فأسلمك السماء » ولكنه كان يخفى تحت هذا التظاهر الكاذب كبرياء شديدة وقال بعضهم « ان نسطور حارب جميع الهرطقات ليمهد السبيل الى هرطقته » فانه ما عتم أن جلس على الكرسى حتى أخذ يعلم أنه لما كان الجزء اللاهوتى من طبيعة المسيح لم يولد من العذراء فلا يحق أن تسمى أم الله بل والدة المسيح الانسان وقصد بذلك أن يمهد السبيل الى انكار الوهية المسيح الذى قسمه الى شخصين معلما أن اللاهوت لم يتحد بالناسوت بل ساعده فقط · وصرح مرة فى خطبة قائلاً « كيف أسجد لطفل ابن ثلاثة شهور قد سجد له المجوس » وقال أيضا « كيف يكون لله أم فاذا يستحق المعذرة الحنفاء الذين كانوا يأتون بأمهات الهتهم فى ملاعبهم وقد كتب الرسول عن لاهوت المسيح أنه بلا أب ولا أم ولا ميلاد · ان مريم لم تلد الها بل ما يولد من الجسد ليس الا جسد وما يولد من الروح فهو روح · ان الخليقة لم تلد الخالق بل ولدت انسانا آلة للاهوت » اهـ ·

فحالما سمع مؤمنو القسطنطينية هذا الكلام من نسطور قاموا ضده ونادوا بسقوطه ولكنه تشبث بخطئاته واتاه مرة بعض الرهبان يفندونه عدم مطابقة اعتقاداته للايمان القديم فأمر بسجنهم فى الكنيسة وأمر خدامه بنزع ملابسهم وضربهم فصاروا يرفسونهم ويلطمونهم وأوثقوهم بعامود ثم هشموا أكتافهم وطرحوهم على الخضيض وكانوا يضربونهم على بطونهم ·

ولما انتشرت بدعته قاومها البابا كيرلس كما ذكر وقرر حرمه ونفى الى ديره الأول عله يرعوى عن غيـه فلم يقلع عنه بل صـار ينفث سمومه برهبان ذلك الدير ولذلـك نفى الى اخميم بصـعيد مصر وأخيرا مات ذلك الشقى بغوايته وقيل أنه لشدة يأسه كسر رأسه ٠

أما أتباع نسطور فاهتموا بنشر بدعته بعد موته وأسسوا لهم مدرسة بالرها ثم طردوا منها فلجأوا الى نصيبين وشرطنوا لهم رئيسا أطلقوا عليه لقب « جاثليق » واستمروا يذيعون بدعتهم ويوجد منهم لليوم فريق فى جبل سنجار على حدود العجم وفى ملبار بالهند ٠

(٣) أوطـاخى :

كان راهبـا مترأسا على دير بالقرب من القسطنطينية به ٣٠٠ راهب وكان قد قاوم نسطور وأسـاقفته بيسالة وشكاه لمجمع أفسس حيث ذهب بشخصه ليشهد على ضلاله ولهذا كان أصدقاء البابا كيرلس يعتبرونه من المحامين عن الايمان ٠ وفى سبيل المدافعة عن مقام المسيح ضـد نسطور تطرف فى التعبير عن طبيعتـه فقـال ان طبيعتـه الناسوتية اندمجت فى اللاهوتيـة وحرم هـذا التعليم فى المجمع الأفسسى الثانى سنة ٤٩٤ م الذى ترأسه البـابا ديوسقوروس الا أن أوطـاخى اعترف بايمان مجمع نيقيـة فحل من حرمه وقام ينشر مذهبـه الآب بارسوما وتلميذه صموئيل بين الأرمن سنة ٤٦٠ م الا أن السوريين تركوا بعدئذ نظام التعليم الأوطاخى بفضـل جهاد الآب بطرس القصار وبطريرك الانطاكى ٠

(٤) بدعـة رهبـان سكيتى :

ومؤداها ان الله ذو صـورة بشرية وأعضـاء جسمية ٠ وقد كان من أنصارها راهب اسمه سرابيون قـد بلغ من الـكبر عتيا وكان مبجلا معتبرا فى ديره ببرية شيهات وهـذا كان يعبد الله كأنه انسان بحصر اللفظ ٠ ولبث على اعتقـاده هـذا مدة من الزمن حتى وقعت بينه وبين رئيس الدير وشماس عالم مباحثـة اقتنع منهما بأخطائه ٠ وأهل هـذه البـدعة سلموا بهـا من سقم فهمهم للـكتاب المقـدس وأخـذهم بمعنـاه الحرفى وتفسيرهم لـما جاء فيـه عن الله كأن له عين أو أذن أو يمين أو شمال أو وجه الخ تفسيرا حرفيـا ٠ ولـما اقتنعوا بوجوب تفسير بعض أقوال الـكتاب روحيا أقلعوا عن بدعتهم الوخيمة ٠

(٥) بدعة مجمع خلكيدون :

وهو أن للسيد المسيح طبيعتين ومشيئتين وهو اعتقاد يقرب القائلين به الى مذهب نسطور المبتدع القائل بشخصين فى السيد المسيح . وليس من ينكر أن الكاثوليك يعتقدون أن المسيح اثنان لأن اصطلاحهم على القول بأن المسيح أقنوم الهى بحت لاينفى اعتقادهم بأنه اثنان بعد قولهم انه كيانان وشيئان وذاتان وطبيعتان بل لا ينفى قول لاون أسقفهم فى طومسه المشهور « وحقا يأتى المسيح اثنان (اثنين) الاله والانسان » (١) .

أما الذين يخشون من أن التسليم بطبيعة واحدة فى السيد المسيح يجرهم الى الاعتقاد بالاختلاط والامتزاج فليسمعوا قول القديس ساويرس الانطاكى « اننا اذا قلنا بطبيعة واحدة للسيد المسيح من طبيعتى اللاهوت والناسوت نقول أيضا ان ذلك يكون بغير امتزاج ولا اختلاط ولا فساد بل مع بقائهما على ما كانتا عليه فطبيعة الانسان من طبيعتى النفس والبدن وطبيعة الجسم من طبيعتى الهيولى والصورة من غير أن تنقلب النفس بدنا ولا الهيولى صورة وبالعكس » أهـ (٢) .

والغريب أن الباباويين الذين ينكرون وحدة المسيح الطبيعية فى الوقت نفسه يسلمون بها باعتقادهم أن السيدة العذراء هى أم الله لأن اعتقادنا بأن العذراء هى أم الله هو عين الكفر ان لم نسلم بطبيعة واحدة فى المسيح وفى ذلك يقول أحد الآباء سائلا المخالفين « هل ولدت مريم الها أم انسانا فان قلتم الها ضللتم لأن الله لا يولد وان قلتم انسانا كانت أم انسان لا أم اله وذلك تنكرونه وان قلتم ولدت الها وانسانا كانت أم اله وانسان فلها ابنان أحدهما اله والآخر انسان وهذا قول ينقضه العقل ويزيفه فاذا لا يصح الا أن تقولوا أن الاله والانسان صارا واحدا ولذلك مريم ولدت واحدا فالذى ولدته لا الها بالاطلاق ولا انسانا بالاطلاق ولا الها وانسانا بل الها متأنسا وهذا هو الحق » أهـ .

وليس من ينكر أن الكنيسة الرومانية قبل الانشقاق وبعده أحيانا كانت تسلم برأى الكنيسة القبطية أى بطبيعة واحدة للسيد المسيح واليكم شهادة صاحب كتاب « تاريخ الانشقاق » وهو أحد كهنة كنيسة الأروام الأرثوذكس التى تتفق مع الكنيسة البابوية لا معنا فى هذه القضية

---

(١) راجع كتاب أعمال مجمع خلكيدون المطبوع بالعربية برومية سنة ١٦٩٤ م .
(٢) مختصر تاريخ الدول لابن العبرى ص ١٤٧ .

قال فى ج ١ ص ١٩٢ « وكان معلمو الغـــربه على الغـــالب متفقين مع الاسكندريين فى المنهج والتعبير كما يتضح من رســائل يوليوس بابا رومية الى ديونيسيوس أسقف قبرص فى أواسط القرن الرابع حيث ينكر الاعتراف بطبيعتين استـنادا على قول الانجيل « والـكلمة صـار بشرا » وقول بولس « رب واحـد يسوع المسيح » ويعترف بطبيعـــة واحـدة للاهوت الغير المتألم والناسوت المتألم » أهـ ·

والأسقف الرومانى أنوريوس فى سنة ٦٢٥ م دافع عن مشيئة واحدة فى السيد المسيح بشهادة مؤرخى الـكاثوليك أنفسهم فقـال ليفونسيوس ليكورى أحـد الذين يعترفون بقداستهم فى كتابه « تاريخ الهرطقـــات » ص ١٠٨ أن أنوريوس قال « اننـا نعتقـد مشيئة واحـــدة فى المسيح لأن اللاهوت لم يأخــذ خطيئتنـــا بل طبيعتنـــا كمـا خلقت قبل انفسادها بالخطيئـة » أهـ وقال ليفونسيوس أيضـا « ان البعض من المؤرخين الكاثوليك استنتجوا من هـذا أن أنوريوس سـقط فى هرطقـة المونوظوليتيين » أهـ وشهد بذلك أيضا المعلم لومند اليسوعى مؤلف كتاب « خلاصـــة تاريخ الـكنيسة » ج ١ ص ٢٨٨ و٢٨٩ ·

ووافق أنوريوس على الاعتقـاد بمشيئة واحدة أسقف رومانى آخر وهو يوحنـا الرابع سنة ٦٤٠ م كتب للملك قسطنطين الثـانى يحامى عن أنوريوس يقول « ان البعض كانوا يعتقدون أن فى يسوع المسـيح ارادتين متضــادتين فلهؤلاء أجاب البـابا أنوريوس أن يسوع المسيح الاله الـكامل والانسان الـكامل اذ أتى ليصلح فساد الطبيعـة البشرية فحبل به وولد دون خطيئـة وكذلك لم تـكن مشيئتان متضـادتان ومشيئة جسده لم تضاد قط مشيئة روحه » (تاريخ الهرطقات ص ٣٠٩) ·

وقال ليفونسيوس أيضـا تعليقــا على ذلك « لا ننكر أن أنوريوس أخطأ اذ أمر بالصمت على من يقول ان فى المسيح مشيئة واحـدة لأنه متى كان الـكلام فى ضـلال فالأمر بالصمت عنه يكون نفس محاماة الضـلال وحيثما وجد الضلال وجب اشهارة ومصادمته وبهـذا قام نقص أنوريوس » (الهرطقـات ٣٠٩) أهـ فها قـد رأيتـا أن أعظم قديسى الكنيسة الكاثوليكية يجاهر بخطأ ونقص أخذ باباواتها فأين اذا تلك العصمة الموهومة ؟

وجاء فى كتاب « الايمان الصحيح فى السيد المسيح » ص ١٤٢ الذى ألفــه أســقف رومانى خطابا لرؤساء كهنة القبط والحبش والأرمن والسريان

يستدعيهم به الى الانضمام لرأيه فى الطبيعة والمشيئة ما نصه : « ان الكنيسة الكاثوليكية تطعن بالحرم من لا يعتقد بأن المسيح هو طبيعة واحدة للكلمة المتجسدة وان سالت أين يوجد هذا الحرم اجيبك على الفور كما تدون فى المجمع اللاتراني المنعقد بأمر القديس مرتينوس البابا سنة ٦٤٩ م فى القانون الخامس بهذه الألفاظ « من لا يعتقد بموجب رأى الآباء القديسين انها موجودة طبيعة واحدة متجسدة لله الكلمة فى المسيح خاصة وحقيا دلالة على أن المسيح الاله أخذ جوهرنا كله كاملا ما عدا الخطيئة فليكن محروما » اهـ والأدهى أن هذا القانون لم يصدر قبل المجمع الخلكيدونى بل بعده وهو يدل صراحة على أن الكنيسة البابوية كانت تحرم من لا يقول بطبيعة واحدة في المسيح ٠

وقال صاحب كتاب « تاريخ الهرطقات » عن المسيح ليلة آلامه « فان كان الناسوت وحده قد أطاع وصلى وتألم واذا لم تكن تقدمة المسيح وصلاته وتوسطه افعالا صادرة عن الكلمة بل عن الناسوت فقط بنوع أن الاتحاد اقنومي لم يساعد بشيء ليكون مبدأ افعاله كاملا فينتج من ذلك أن ناسوت المسيح كان يفعل من ذاته وان كان الأمر كذلك فيجب أن يقال انه كان حاصلا على قيام بنفسه وكان له اقنوم خاص متميز عن اقنوم الكلمة وها هو ذا فى المسيح أقنومان كما يزعم نسطور » اهـ فليسمع البابويون قول قديسهم هذا الذى نقض به رأى برويار اللاتينى الذى كان يزعم أن ناسوت مخلصنا وحده أطاع وصلى وتألم وان تقدمته وصلاته وتوسطه لم تكن أفعالا صادرة عن الكلمة كأنه مبدأ طبيعى وفعال بل انها كانت أفعال الناسوت خاصة وأنه في مدة وجوده فى القبر بطل أن يكون ابن الله الى غير ذلك من الآراء المرذولة التى كان يمكنه أن يوفر على نفسه تعب الرد عليها بتلك المحاولة اذا سلم بوحدة المسيح الطبيعية ٠

وفي كتاب « اعتراف الآباء » المعتبر بكنيستنا القبطية طائفة كبيرة من شهادات الآباء العظام المعترف بقداستهم من كل الكنائس المسيحية تشهد بطبيعة واحدة للسيد المسيح فننقل بعضها عن كتاب « نفح العبير » ص ٢٠٦ - ٢٢٦ :

قال القديس أغناطيوس البطريرك الانطاكى الأول الشهيد في رسالة له « نحن نؤمن أن المسيح الاله تألم بالجسد كالانسان وهو غير متألم كالإله

وذاق الموت بالجسد وهو غير مائت كالاله فاذا سمعت أن الله تألم عنا وان الله الكلمة مات لأجلنا فافهم انا نوصل الطبائع الى وحدانية اللاهوت والناسوت » .

وقال القديس اغريغوريوس العجائبى من كتاب له فى الامانة « الله الحقيقى الغير جسد ظهر فى الجسد وهو تام فى اللاهوت الحقيقى الكامل ليس هو شخصين ولا هو طبيعتين ولا نقول انا نعبد رابوعا الله وابن الله وانسانا والروح القدس ومن أجل هذا نحرم المنافقين » .

وقال القديس أثناسيوس الرسولى من مقالة له على التجسد الالهى وقد استشهد بها القديس كيرلس الاسكندرى أكثر من مرة وهى واردة فى تاريخ المجمع الأفسسى دفعتين فى الجزء الأول والثالث « وليس نقول عن هذا الابن الواحد أنه طبيعتان واحدة نسجد لها والأخرى لا نسجد لها بل طبيعة واحدة لله الكلمة المتجسد » .

وقال أيضا فى رسالته الى ابيكتيتوس وقد استشهد بها القديس كيرلس وتحررت فى تاريخ المجمع المسكونى الثالث الأفسسى دفعتين فى الجزء الثانى والثالث وهكذا « وكيف يتجاسر الذين يدعون مسيحيين على أن يشكوا فى هل أن السيد الذى ولد من مريم هو ابن الله بالجوهر والطبع وأنه بحسب الجسد هو من زرع داود من جسد القديسة مريم ومن هم الذين يتجاسرون بهذا المقدار حتى يقولوا أن المسيح الذى تألم وصلب بالجسد ليس هو برب ولا بمخلص ولا اله ولا ابن الآب » .

وقال القديس باسيليوس الكبير فى تفسيره قول الحكيم « ان الرب خلقنى » « وليس انا نقول على الابن الوحيد أنه اثنان ولا نقول أن اللاهوت (منفرد) بذاته ولا اللاهوت بذاته بل نقول طبيعة واحدة واتنوما واحدا » .

وقال القديس أغريغوريوس أخو باسيليوس المشار اليه فى مقالة له على عماد سيدنا وصوت الآب الشاهد له بالبنوة هكذا : ــ قال (أعنى الله الآب) « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » ليس هو ابنى وآخر ابن مريم « ليس هو واحدا الذى ولد فى المغارة وآخر غيره سجدت له المجوس . له هو الذى اصطبغ وغيره لم يصطبغ بل هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » .

وقال القديس يوليوس أسقف رومية المومأ اليه فى رسالته المذكور أنه أرسلها الى ديونيسيوس أسقف قبرص فى أواسط القرن الرابع

« وبالضرورة يلزم الذين يعتقدون بطبيعتين أن يسجدوا للواحدة ولا يسجدوا للأخرى وأن يعتمدوا بالتى للاهوت ولا يعتمدوا بالتى للناسوت ولكن ان كنا نعتمد بموت الرب فهى طبيعة واحدة نعترف بها للاهوت الغير المتألم والجسد المتألم لكى تكون صبغتنا هكذا فى الله وتكمل بموت الرب » .

وقال القديس غريغوريوس النزينزى الناطق بالالهيات فى مقالته على اللاهوت « هو ابن واحد وليس المسيح طبيعتين بعد الإتحاد ولا مفترقا ولا مختلطا فى ما اجتمع من الجهتين طبيعة اللاهوت وطبيعة الناسوت اجتمعتا الى وحدانية وصارتا واحدا » .

وقال القديس العظيم يوحنا الذهبى فمه فى المقالة الثالثة من تفسيره رسالة أفسس « ولكنى أبين الأمر أن الله الكلمة أخذ الانسان كله من طبيعتنا وهو كامل فى كل شىء وله أقنومه فيه أعنى الكلمة فلأجل هذا نقول عنه أنه طبيعة واحدة الله الكلمة صار جسدا » .

.. وقال القديس ثاودوطسس أسقف انكوريا من خطبة له على الميلاد السيدى وتليت خطبته هذه فى المجمع الأفسسى المقدس وسجلت بالجزء الثالث من تاريخ المجمع المشار اليه « لأن الذى اتحد لا يسمى اثنين بل واحد وأن قسمتهما بالعقل وتأملت كل واحد منهما بمفرده فقد حللت الاتحاد والوحدة » .

وخير ما نختتم به هذه الشهادات شهادة البابا كيرلس الاسكندرى فى ختام كتابه الى ثيودوسيوس قيصر « اننا لا نعرى الناسوت من اللاهوت ولا نعرى الكلمة من الناسوت بعد ذلك الاتحاد الغامض الذى لا يمكن تفسيره بل نعترف بأن المسيح الواحد هو من شيئين قد اجتمعا الى واحد مؤلف من كليهما لا بهدم الطبيعتين ولا باختلاطهما بل باتحاد شريف فى الغاية بوجه عجيب » أهـ .

القرن السادس

القسم الاول
تاريخ البطاركة

(١) يوحنا ٢
(٢) ديوسقوروس ٢
(٣) تيموثاوس ٣
(٤) ثيودوسيوس ١
(٥) بطرس ٤
(٦) دميان

(١) يوحنا ٢ - البطريرك الثلاثون :

قضى بضع سنين راهبا قبل رسامته مقيما فى دير الغار الذى كان على مقربة من بلبيس (بمديرية الشرقية) وكان يلقب بالحبيس بالنسبة لبقائه مترهبا في مكان واحد مدة طويلة • وكان ذا قرابة بسلفه البابا يوحنا الأول • وجال ارتقائه الكرسي المرقسي فى بؤونه سنة ٢٣٤ ش و٥٠٧ م فى عهد اناسطاس قيصر كانت الكنيسة المصرية قد أخذت قسطها من الراحة والحرية فاتسع نطاقها واستردت ما فقدته من المراكز الدينية بسبب الاضطهاد • وتلقى هذا البابا عقب جلوسه على السدة البطريركية رسائل عديدة من رؤساء الأساقفة الأرثوذكسيين يهنئونه بوظيفته ويؤيدون له الاعتراف بالايمان الصحيح ويرفضون كل هرطقة خصوصا هرطقات نسطور وأوطاخى وأبوليناريوس معترفين بوحدة المسيح الطبيعية •

وكانت الرسائل متبادلة على الأخص بينه وبين بطريرك انطاكية المدعو ساويرس الذى اشتهر بالتعصب للطبيعة الواحدة وبمقاومة مجمع خلكيدون وكان قبل رسامته مقيما فى الاسكندرية ثم اختير بطريركا لانطاكية • وقد أسف القيصر فيما بعد لتعيينه اياه بطريركا على انطاكية لأنه كان لا يعرف للتسامح فى عقيدته معنى وقد حاول القيصر أن يجعله يتنازل عن مبدئه سواء بالقوة أم باللين فلم يجد الا الاباء الشديد •

فأرسل الأنبا ساويرس بطريرك انطاكية هذا الذى جلس على كرسى القديس أغناطيوس الكبير سنوديقا الى البابا يوحنا الاسكندرى بالاتحاد فى الأمانة ويبشر فيها بالاتفاق بينهما فى الأمانة الواحدة الأرثوذكسية التى للآباء القديسين • فقبلها البابا يوحنا شاكرا هو وأساقفته وقرأوها فى

كنائسهم وفى جميع أنحاء الكرازة المرقسية واصعدوا صلوات وشكروا السيد المسيح الذى أعاد الأعضاء المقطوعة الى مواضعها · وكتب أيضا البابا يوحنا الى القديس ساويرس جوابا يشرح فيه الأمانة المستقيمة ففرح به هذا الآب فرحا عظيما · وأقام البابا يوحنا بطريركا احدى عشرة سنة وتنيح فى الثانى عشر من بشنس سنة ٢٤١ ش و٥١٧ م ·

(٢) ديوسقوروس ٢ - البطريرك الحادى والثلاثون :

ولما تنيح البابا يوحنا كان له كاتب يدعى ديوسقوروس ابن عم البابا تيموثاوس الأول · وكان رجلا كاملا محبوبا من الشعب حتى طلب القيصر نفسه تعيينه · الا أن الكنيسة القبطية لم تكن لترضى مطلقا بتداخل القياصرة فى انتخاب بطاركتها · فهدأ ديوسقوروس خواطر الشعب بوعده اياهم برفض تعيين القيصر ويسلم ذاته لهم لينتخبوه أو لا ينتخبوه حسب ما يتفق مع ارادتهم ومع قوانين الكنيسة · فلبث المصريون مدة دون أن يرسموه حتى هدأت الأحوال فأقيم بطريركا بكنيسة مار يوحنا وتمت رسامته فى شهر هاتور سنة ٢٤٢ ش و ٥١٧ م فى عهد اناستاس قيصر باحتفال عظيم · وقام البطريرك بالخدمة وتناول الأسرار المقدسة ·

وقد امتدح المؤرخون هذا البابا بالنسبة لحسن تصرفاته وجميل طباعه التى يندر من يتصف بها · وعقب رسامته مباشرة كتب رسالة الى الآب ساويرس يذكر له فيها نياحة البابا المغبوط يوحنا وجلوسه بعده على الكرسى الرسولى · فكتب اليه يعزيه ويعلمه أنه مشترك معه فى الأمانة المستقيمة التى ينبغى المداومة على التعليم بها والمحافظة عليها ·

وحدث أن القيصر أناستاسيوس غضب على قوم بالاسكندرية فخاف الجميع وطلبوا من البابا ديوسقوروس أن يذهب لمقابلة القيصر فى القسطنطينية ويتوسط لديه حتى يرضى عليهم · فسافر البطريرك الى القسطنطينية وتمكن من الحصول على عفو عام للكل · وقيل أن هذا البابا الموقر صادف تعديات كثيرة واهانات مرة من أنصار مجمع خلكيدون فى القسطنطينية ولكنه احتملها بصبر تام ولم يرد أن يجاوب أولئك الأشرار بكلمة واحدة بينما كانوا يوجهون اليه قوارص الكلام أثناء مروره فى شوارع القسطنطينية العمومية ·

ولم تطل حياة هذا البطريرك العظيم فلم يلبث على الكرسى البطريركى سوى ثلاث سنين وفى قول آخر سنة واحدة ونصف وتنيح فى السابع عشر من بابه ولحق بآبائه فى سنة ٢٤٤ ش و٥٢٠ م ٠

(٣) تيموثاوس ٣ ـ البطريرك الثاني والثلاثون :

اختير للكرسى البطريركى فى هاتور سنة ٢٤٤ ش و ٥٢٠ م فى عهد يوستينوس قيصر الأول لما اتصف به من التعقل والحكمة وكان من المتمسكين بوحدة المسيح الطبيعية والمتعصبين ضد مجمع خلكيدون نظير ساويرس بطريرك أنطاكية ولذلك جدد معه العلاقات حال استلامه مقاليد الرئاسة وحرر له رسالة متضمنة الايمان الصحيح ٠ واتفق بعد سيامته أن توفى أناستاسيوس القيصر المؤمن وأقيم بعده رجل ردىء من أنصار مجمع خلكيدون اسمه يوستينوس سنة ٥٢٧ م ، فلما جلس على كرسى القيصرية بذل جهده ليعيد كل المؤمنين الأرثوذكسيين الى اعتقاد مجمع خلكيدون ووجه نظره بالأخص لمسيحيى مصر قاصدا اضطهادهم لأنهم كانوا أكثر من غيرهم كراهة لمجمع خلكيدون ورسالة لاون ٠ وعين لذلك قوة عسكرية وفدت على الاسكندرية لكى ترغم أهلها على قبول قرارات المجمع الخلكيدونى ٠

ولما عرف البابا تيموثاوس الخطر المحدق برعيته أرسل وفدا الى القيصر يطلب منه الغاء هذه الاجراءات خوفا من حدوث ثورة تصطلى من هولها الركب ٠ وتقابل هذا الوفد مع امرأة القيصر وكانت على مذهب المصريين فاقنعت القيصر بالعدول عما دبره بخصوص ذوى الطبيعة الواحدة فقبل وأرسل الأوامر الى جيشه بمبارحة الاسكندرية والذهاب الى أقاليم شمالى افريقيا الغربية ٠

ولكن القيصر عاد فيما بعد وشرع فى عقد مجمع بالقسطنطينية الغرض منه اجبار الأرثوذكسيين على اعتناق مذهب الخلكيدونيين ودعا اليه جميع رؤساء الكنائس فحضر منهم كليسوس أسقف رومية وأبوليناريوس الذى صيره القيصر بطريركا ملكيا على الاسكندرية فيما بعد وأوطيخوس بطريرك القسطنطينية والأساقفة الذين تحت أيديهم ٠

وكان أول من حتم عليهم القيصر بحضور المجمع البابا تيموثاوس بطريرك الاسكندرية وساويرس بطريرك أنطاكية ٠ فأما البطريرك الاسكندرى

فلما كان يعلم غرضه السيء أبى قبول هذه الدعوة واستمر فى مركزه مدبرا رعيته • فهاج لذلك غضب القيصر وأمر بالقبض عليه لينفى فتعرض لهذا الأمر الأرثوذكسيون وهددوا كل من يمد يده الى بطريركهم• فأمر الملك والى الاسكندرية بأن يردهم بالقوة فحدثت اذ ذاك مجزرة عظيمة أسفرت عن قتل عدد عظيم من الأرثوذكسيين وبذلك أمكن للوالى القبض على البطريرك ونفيه فاستمر ثلاث سنوات فى المنفى قاسى فيها شدائد عظيمة جدا وبعدها رجع الى مركزه •

أما الأب ساويرس بطريرك أنطاكية فانه قبل دعوة القيصر لحضور المجمع فى القسطنطينية وذهب اليه ومعه بعض علماء الأساقفة منهم فيلوكسينوس أسقف مابوغ • فلما وصل الى القسطنطينية أكرمه الملك فى البداية اكراما عظيما ظانا أنه بذلك يستجلبه الى الخلكيدونية ويساعده على تعميم اعتبار طومس لاون • ولكنه لما جاء يوم انعقاد المجمع حضر جميع الأساقفة الى الأب ساويرس الشجاع فقال ان لم يحرموا أولا طومس لاون والمجمع الخلكيدونى المرذول فلا أقبل الاجتماع مع أحد• ففى الحال أمر القيصر باضطهاده فنزلت عليه البلايا وحلت به الشدائد والقى فى السجن هو وبعض أساقفته والبعض الآخر نفى وأقيم مكانه رجل خلكيدونى المذهب يدعى بولس • وبعد سنتين أفرج عنه بسؤال الملكة ثيوذورة المؤمنة فهرب من القسطنطينية وجاء القطر المصرى فقابله البابا تيموثاوس بكل احترام وخوفا من سطوة الحكومة كان يهرب من مدينة الى مدينة ومن دير الى دير حتى انطلق أخيرا الى مدينة سخا (بمديرية الغربية) واختفى فى بيت أرخن (١) يدعى درتاوس كان مشهورا بالاهتمام بأمور الشيوخ والرهبان الذين رفضوا ضلال يوليانوس الهرطوقى وكان الأب ساويرس يكاتب الأساقفة أصحابه الذين بالاسكندرية ويعزيهم ويصبرهم ويوصيهم أن يثبتوا على الشدائد •

أما البابا تيموثاوس فبعد رجوعه من منفاه لبث مستمرا على مبادئه الأرثوذكسية حتى ظهر يوليانوس الاليكريشى من القسطنطينية وأخذ فى نشر بدعة أوطاخى فحرمه وفصله من شركة الكنيسة • وخرج الأب ساويرس من مكمنه واشترك مع البطريرك الاسكندرى فى مقاومة هذه البدعة وكتب الأب ساويرس رسالة الى يوليانوس يفند له فيها بدعته •

---

(١) كلمة يونانية معناها هدية الله •

ثم قضى البابا تيموثاوس ما بقى من حياته مجاهدا فى سبيل الأمانة المستقيمة مشتركا مع الأب ساويرس ودحض جميع مقالات يوليانوس · وكانت مدة مقامه بطريركا على كرسى الاسكندرية سبع عشرة سنة توفى فى الثالث عشر من أمشير سنة ٢٦٠ ش و٥٣٦ م ·

(٤) ثيودوسيوس ١ ـ البطريرك الثالث والثلاثون :

وبأمر الله اجتمع الأساقفة والشعب الأرثوذكسى بعد نياحة البابا تيموثاوس الثالث وبتدبير السيد المسيح اتفقوا على اختيار الأب ثيودسيوس لكرسى البطريركية · فى أبيب سنة ٢٦٠ ش و٥٣٦ م فى عهد يوستنيانوس قيصر الأول وكان معروفا بالعفة مشهورا بالنبوغ فى العلوم الكنسية · وبعد رسامته عقد مجمعا حرم فيه مجمع خلكيدون ورسالة لاون وسائر الهراطقة وخصوصا يوليانوس الذى كان ينفث سمومه فى القويمى الرأى حينئذ بالديار المصرية · فاغتاظ يوليانوس وأراد أن يدبر له مكيدة · فوقع نظره على ارشدياقن البيعة الاسكندرية · وكان رجلا طاعنا فى السن يدعى قيانوس وكان قائما وقت رسامة البابا ثيودوسيوس بطريركا مع الأساقفة والكهنة واستمر فى البيعة حتى نصبوه وكتبوا تقليده وقدموه لرتبة الرئاسة على الكرسى الرسولى وكملوه باتفاق جميع الشعب المسيحى المحب لله ·

فاحتال يوليانوس الهرطوقى وبعض الأشرار نظيره على قيانوس هذا وخدعوه بقولهم له انه كان ينبغى أن تكون رتبة البطريركية له لا سواه واستمروا يغشونه حتى اغتر بأقوالهم الرديئة وسمح لهم أن يأخذوه الى بيت قس ردىء الفعل محب للمال يدعى ثيوذوروس وهناك رسموا قيانوس بطريركا · ثم مضى يوليانوس الهرطوقى الى صديقه يوحنا والى الاسكندرية وأجزل له الهدايا ورشاه بالأموال حتى رضى بطرد ثيودوسيوس البطريرك من كرسى الاسكندرية وأخفى أولئك الأشرار عن الوالى ما دبروه بخصوص اقامة قيانوس مكانه · ثم قاموا فى الحال وعزموا على الهجوم على البطريرك ليلا · وبينما كان القديس فى تلك الليلة قائما بصلاة نصف الليل اذا به يسمع ضجة عظيمة أدرك منها عظم الخطر المحيط به فخرج من مخدعه حالا وهرب الى جهة حرسمانوس ومكث هناك ستة أشهر دون أن يعلم القيصر بكل ماجرى ·

وقد صادف البابا ثيودوسيوس متاعب جمة من أولئك الأوباش أى قيانوس المخالف ومن معه • وكان الوالى مجتهدا فى انقاذه منهم خوفا من اغتيالهم له فتشاور مع بعض الآباء وأنزلوه فى مركب فى البحر ومضوا به الى قرية مليج من أعمال مصر واجتمع فى الاسكندرية حينئذ ثلاث فرق من المسيحيين احداها (المستقيمو الرأى) وقد نسبوا لبطريركهم المنفى ودعوا بالثيودوسيين والثانية (الخياليون) أتباع يوليانوس وسلفه أوطاخى والثالثة (الخلكيدونيون) أو الملكيون التابعون لمذهب المملكة •

واستمر البابا ثيودوسيوس سنتين فى منفاه حتى قلق الأرثوذكسيون

وطلبوا من الوالى بالحاح أن يعيده لهم فخاف منهم وأخرج قيانوس من المدينة وأرسل يخبر الملكة الأرثوذكسية بذلك • فلما بلغ الخبر مسامع الملكة كلمت زوجها بحكمة محدثة اياه بكل ماجرى للبابا ثيودوسيوس• ففرح القيصر فى قلبه بما حل بمن لم يشاركه فى أمانته الفاسدة الا أنه ترك الحرية لزوجته تعمل ماتريد • فتصرفت الملكة بتعقل وأرسلت الى والى الاسكندرية تستخبر منه عن قانونية رسامة ثيودوسيوس •

فجاء رسل الملكة الى الاسكندرية وحال وصولهم أخبرهم الوالى وكل من نال رشوة من قيانوس أن رسامة قيانوس حق وأنه هو الأولى فى الرسامة غير أن قولهم لم يثبت اذ اجتمع نحو مائة وعشرين رجلا من الكهنة ومقدمى المدينة وكتبوا تقريرا يعترفون فيه بقانونية بطريركية ثيودوسيوس ثم اجتمعوا برسل الملكة فى البيعة واجتمع معهم جميع أهالى الاسكندرية وأخذوا يستفهمون من جميع الحاضرين عن ثيودوسيوس وهل رسامته شرعية فأجمعت كلمة الكل على صحتها وأنها تقدمت رسامة قيانوس بشهرين • وبينما هم يبحثون حضر قيانوس بنفسه أمام تلك الهيئة واعترف بالحقيقة طالبا الصفح عن تعديه ووضع توقيعه مع المعترفين وصرح بأنه خادم مطيع للبابا ثيودوسيوس وأنه يرتضى بأن يكون أرشدياقنا كما كان • ففرح الجميع بذلك ممجدين الله وزاد سرورهم برجوع بطريركهم المغيوط اليهم بسلام •

ولما رجع البطريرك الى كرسيه خضع قيانوس له ثم تقدم بالشكر لرسل الملكة وأرسل معهم رسالة للقيصر وامرأته يخبرهما فيها بكل ماجرى فلما وصل الرسل وسلموا الرسالة للقيصر واطلع على كل مافيها اضطربت أفكاره الخلكيدونية وقال فى نفسه هوذا أنا سئمت كرسى

الاسكندرية لثيودوسيوس ولـكنى لا أضمن مساعدته لى على تعميم عقيدتى ولو أضفت الى كرسيه جميع ولايات أفريقيـة · وفى الحـال أملى عليه الشيطان كتابا لوالى الاسكندرية ومقدميها وللبـابا ثيودوسيوس ليجتـذبه فيـه الى اعتقـاد مجمع خلـكيدون وطومس لاون ويساعـده على نشره ووعده مكافأة على ذلك أن يمنحه كرسى البطريركية والولاية فى مصر ويكون جميع أساقفـة أفريقيـة تحت طاعتـه · ثم هـدده بأنه اذا لم يطع ولم يرض فليخرج من البيعة ليمضى الى حيث يشاء ·

فلما قرأ البابا المجاهد المغبوط البطريرك ثيودوسيوس المعترف بالمسيح كتاب القيصر هتف أمام رسل الملك والوالى والجمع المحتشـد قائلا « ان ابليس أخـذ السيد المخلص وأصـعده على جبل عال وأراه جميع ممـالك العالم ومجدها وقال له كل هـذه أعطيكها ان سجدت لى · هكذا أنتم أتيتم تعـدونى بأن أصـير غريبـا عن المسيح الملك الحقيقى حبـا فى مجد الدنيا البـاطل » ثم رفع يديه أمام الجميع وقال « بالحقيقـة أحـرم طومس لاون ومجمع خلـكيدون وكل من يعترف بهما فهو محروم من الآن والى الأبـد آمين » ثم قال للوالى ولجميع جيش القيصر « ليس لمولاكم سلطان الا على جسدى الفانى ولـكن نفسى فى يد مخلصى والآن هوذا البيع وكل ما فيهـا أمامكم ومهما أردتم فافعلوه وأما أنا فتـابع لايمان آبائى الذين تقـدمونى اثنـاسيوس وكيرلس وديوسقوروس وتيموثاوس وغيرهم الذين صرت أنا نائبا لهم بغير استحقاق » ثم قام وخرج وقال « من كان يحب الله فليتبعنى » فخرج وراءه الأرثوذكسيون · ولم يشأ الوالى أن يقبض عليه بل تركه يذهب الى حيث يشاء كأمر القيصر فخرج من المـدينة وقوة السيد المسيح ترشده بل ان الوالى نفسه اهتم بأمره وأعد له كل ما يحتـاج اليه وحمله فى مركب الى صعيد مصر حيث أقام هناك اربع سنين يعلم الشعب والـكهنة والرهبان فى الديارات ويثبتهم على الأمانة الأرثوذكسية ويصـبرهم على احتمـال الاضطهاد حتى الموت ·

أما رسل القيصر فرجعوا اليه وأعلموه بالخـبر فاندهش هو وجميع رجال بلاطـه من ثبـات ثيودوسيوس على أمانتـه ورفضه كل تلك الهبات · وأقام القيصر عوضا عنه رجلا يدعى بولس النيسى وكان هذا الرجل أجنبيا عن مصر شب ودب فى طرسوس وبدون أن يعلم المصريون من أمره شـيئا رسمه القيصر فى القسطنطينية فصـار هذا الرسم قاعدة لبطاركة الملكيين أن يرسموا بالقسطنطينية ويسيروا للاسكندرية · وقـد تم هـذا كله سنة

٥٤١ م • وجاء بولس الى الاسكندرية تحرسه قوة عسكرية هائلة ولكن المصريين لم يقبلوه ولم يعبأوا به ولم يحسبوا لوجوده بطريركا عليهم أدنى حساب ولم يفاتحه أحد منهم بكلمة واحدة بل كانوا يلقبونه يهوذا الثانى• ولم يكونوا يعرفون لهم بطريركا آخر سوى ثيودوسيوس المنفى الذى كانوا يطيعونه ويخضعون لأوامره التى كان يرسلها اليهم •

واستمر بولس سنة على هذا المنوال حتى اضطر أخيرا أن يخبر القيصر بأن المصريين يهربون منه كما يهرب الحمل من الذئب • فرد عليه القيصر بكتاب يأمره فيه أن يغلق أبواب البيع التى بمدينة الاسكندرية ويختم عليها بخاتمه ويجعل عليها حراسا حتى لا يدخلها أحد مطلقا ومنع بولس من الرئاسة بوضع يده على الكنيسة الكبرى المسماة بالكنيسة القيصرية ثم استحوذ بمساعدة الجيش على عدة كنائس مهمة غيرها •

أما المسيحيون فلما سمعوا بأمر قفل الكنائس حزنوا حزنا مفرطا ومكثوا سنة كاملة بدون أن يصلوا فى كنيسة ما ولم يكن يعزيهم ويصبرهم سوى كتب بطريركهم المنفى التى كانت ترد اليهم بين آن وآخر • ولما زاد قلقهم اجتمعوا وتشاوروا فى بناء بيعة فتم لهم ذلك وبنوها بقوة المسيح غربى الاسكندرية فى الموضع المعروف بالسوارى والصربيون على اسم الانجيليين ثم بنوا كنيسة أخرى شرقى الملعب غربى الأعمدة قليلا على اسمى قزمان ودميان وبنوا كنائس أخرى سموا احداها الكنيسة الملائكية نكاية فى الكنيسة القيصرية •

فلما علم بذلك القيصر أنفذ وفتح جميع البيع وجعلها تحت سلطان الخلكيدونيين • فلما علم البابا ثيودوسيوس ناح وبكى وطلب الرب من أجل ثبات أمانة شعبه وكان يصلى ويقول « ياربى يسوع المسيح أنت اشتريت هذا الشعب بدمك الشريف وأنت المهتم بهم فلا تتخل عنهم بل لترعاهم عنايتك » •

ولم يكن بولس البطريرك الدخيل مبغوضا من المصريين فقط بل من بعض الرومانيين أيضا بالنسبة لدناءة أعماله • ولما رأى قوة الحكومة تحت يده شرع فى أن ينتقم من الجميع • وبدأ أعماله بنقل ايلياس قائد جنود الوجه القبلى الى مكان آخر حتى يضعف قوة الأقباط فى الصعيد • فشعر بيوس أحد شمامسة الكنيسة الاسكندرية بالأمر فأرسل كتابا لايلياس يخبره به فوقع الكتاب فى يد أحد أتباع بولس فجاءه به ولذلك أمر بولس بالقبض

على الشماس المسكين متهما اياه باهمال مصلحة الكنيسة وتبديد ايرادها وسلمه الى عهدة درون والى مصر فاستمر يعذبه الى أن أسلم روحه ٠

فرفع أقرباء الشماس بيوس دعواهم الى القيصر فأمر بعزل درون الوالى وعين بدله ليبريوس وأمره باجراء تحقيق دقيق فى قضية بيوس ولكن بولس البطريرك الدخيل ودرون الوالى السابق أخذ كل منهما يلقى التبعة على الآخر فأسفر التحقيق عن ادانة كليهما فحكم بالاعدام على درون وبالنفى على بولس وحكم عليه بالعزل والحرمان من بطريركيتى انطاكية وأورشليم ٠ وعين القيصر عوضه رجلا يدعى زيلوس ٠ ولم يكن لهذا البطريرك أى اعتبار لدى الأقباط وعاملوه بنفس المعاملة التى عاملوا بها بولس قبله غير معترفين بأحد رئيسا عليهم سوى ثيودوسيوس ٠

وحدث أن يوستينوس قيصر توفى وملك عوضه يوستنيانوس وكان أشد كرها للأرثوذكسيين غير أنه فى مبدأ أمره نهج منهجا يختلف عن خطة سلفه وأظهر لينا نحوهم وأمر باستحضار ثيودوسيوس اليه من النفى وترك له نوعا من الحرية واذ خاف لئلا يؤول ذلك الى تعميم الأرثوذكسية تظاهر بأنه يريد عقد مجمع بالقسطنطينية ينهى فيه القضايا التى تدور عليها المنازعات وكتب رسالة مملوءة عطفا للبابا ثيودوسيوس ووعده بأن لا يلحقه أذى وأوصى حامل الرسالة أن ينطلق به حتى يتقدمه الى العاصمة٠

فعزم البطريرك على مقابلة القيصر واستعان بقوة السيد المسيح وأخذ معه عددا من علماء كهنته ولما وصلوا الى القطسطنطينية دخل الى القيصر وامرأته فلما عاينوا سكينته وتواضعه وفضله استقبلوه حسنا وأنزلوه فى مواضع أعدوها له ومن معه ٠ ثم استدعاه القيصر اليه مرارا وهو يكلمه بكل رقة ليستميله الى جانب مجمع خلكيدون ولكنه لم يفلح فى تغيير عقيدته ٠ ولما تقابل معه البطريرك ثالث دفعة وأخذ يعده بالكرامة ان هو أطاع رأيه قال له « لا حياة لا موت ولا غلاء ولا عرى ولا سيف يصد قلبى عن أمانة آبائى » فغضب عليه الملك والقاه فى أحد سجون القسطنطينية مدة وبعد ذلك نفاه واستمر فى المنفى حتى أدركته المنية فرقد فى الرب بعد أن قضى مدة اثنتين وثلاثين سنة بطريركا صرف منها ٢٨ سنة فى أماكن النفى ووضع من المقالات والتعاليم فى مدة بطريركيته الشىء الكثير٠ وانتقل بسلام الى السيد المسيح الذى كان يحبه فى اليوم الثامن والعشرين من شهر بأؤونه سنة ٢٨٣ ش و ٥٦٨ م ٠

وكانت علاقة هذا البابا بالأب ساويرس بطريرك أنطاكية متينة للغاية • وكان الأب ساويرس فى مدة البابا ثيودوسيوس لازال فى بيت دروتاوس المار ذكره وكان هذا الرجل قد أمكنه أن يمضى الى أرسطاماخوس الوالى وسأله أن يترأف على شيوخ الرهبان الذين فى البرية بأن ينعم عليهم ويمكنهم أن يبنوا بيعا عوضا عما أخذه منهم الهراطقة • وكان الأب ساويرس قد وضع كتبا قهر بها أنصار الطبيعتين واستمر مجاهدا طول حياته حتى مر عليه ثلاثون سنة منذ رسم بطريركا على أنطاكية وهو صابر على اضطهاد المخالفين • ثم تنيح مسرورا بمقابلة المخلص الذى دافع عنه طول حياته •

(٥) بطرس ٤ ـ البطريرك الرابع والثلاثون :

لما نفى يوستنيانوس قيصر البابا ثيودوسيوس المرة الأخيرة وضع منشورات بحرم بعض مشاهير المصريين والفلسطينيين وأرسل لبطريركه زويلوس فى مصر أن يوقع عليه فرضى فى مبدأ الأمر ولكنه رجع وامتنع فنفاه وعين غيره رجلا يدعى أبوليناريوس الذى أتى من القسطنطينية الى الاسكندرية بلباس قائد ومعه قوة عسكرية لتوطيد رئاسته فلما قدم الاسكندرية ودخل الكنيسة نزع ثياب الجند ولبس ثياب البطاركة وقدس • فهم الناس برجمه فانصرف وجميع عسكره وأظهر أنه أتاه كتاب من الملك يقرأه على الناس وضرب الناقوس فى الاسكندرية يوم الأحد فاجتمع الناس للصلاة حتى لم يبق أحد فصعد المنبر وقال : ـ « يا أهل الاسكندرية ان لم تتركوا مقالة ديوسقوروس أخاف عليكم لئلا يرسل القيصر من يقتلكم ويستبيح أموالكم ونساءكم » فهموا برجمه وهو على المنبر فأشار الى العسكر فوضعوا السيف فيهم فقتل من الناس عدد كثير وفر منهم عدد وافر الى الديارات بوادى هبيب وأخذ الملكيون كنائس المتأصلين وأمر القيصر أبوليناريوس أن يجتهد فى مقاومة الأرثوذكسيين حتى لا يظهر أحد من أساقفتهم بمدينة الاسكندرية ومن يومئذ صار كرسى الأرثوذكسيين بوادى هبيب •

وبعد وفاة البابا ثيودوسيوس أظهر أبوليناريوس فرحه لظنه بأن الجو قد خلا له ليعلن رئاسته العامة على الكنيسة القبطية • وعمل وليمة للكهنة وأهل المدينة وتوهم أنهم يوافقونه لأن الآباء الأساقفة لم يكن أحد منهم يستطيع الظهور بالاسكندرية بالنسبة لتشديد القيصر عليهم• ولكن بمشيئة الله تولى الاسكندرية رجل فاضل فسمح للأرثوذكسيين أن

يقيموا لهم بطريركا فى السر • فخرجوا الى دير الزجاج (١) كأنهم يريدون الصلاة وأرسلوا الى الوجه البحرى وأحضروا ثلاثة أساقفة وأقاموا قسا يدعى بطرس بطريركا وتعزى به الشعب وتقوت أمانتهم ولكنهم لم يكونوا يقوون على الدخول به الى المدينة علانية خوفا من أن يعلم بذلك أبوليناريوس أو القيصر وكان ذلك فى مسرى سنة ٢٨٣ ش و٥٦٨ فى عهد بوستينس قيصر الثانى •

فلبث البطريرك مقيما بمكان يبعد عن الاسكندرية مقدار تسعة أميال فى بيعة على اسم يوسف البار وكانوا يحملون اليه جميع ما يحتاج • غير أنه فيما بعد شعر أبوليناريوس بالأمر فغضب جدا وكتب للقيصر يعلمه بما كان ولكن قبل وصول كتابه الى يوستنيانوس ضربه الرب بمرض عضال قضى على حياته أما البابا بطرس فكان بهى الطلعة جميل الصفات محبا للمتعلمين ولهذا استخبر عن كاتب له يكون ملما بعلوم الكنيسة فأرشدوه الى راهب يدعى دميان بدير تابور فمضى اليه البطريرك وتحدث معه وطلب منه أن يشترك فى أتعاب تدبير الكنيسة ورجاه بأن يذهب ليقيم معه فى الدير • فأطاعه دميان ومضى معه الى حيث يقيم • وكان هناك أديرة كثيرة العدد يسكنها جمع غفير من الرهبان وبجوارها ٣٠ ضيعة تسمى (سكاطينا) سكانها أرثوذكسيون • وكانت الأديرة والضيع جميعها تحت ادارة البابا بطرس • وفى أيام هذا البابا وفد على مصر يعقوب البرادعى وكان من أمره ما سيذكر فى سيرته •

أما شعب أنطاكية فلم يكن اضطهاده أهون من اضطهاد شعب مصر • وبعد وفاة الأب المغبوط ساويرس أجلسوا مكانه انسانا اسمه ثاوفانيوس وأقاموه فى دير يعرف بدير أمونيوس لأن الهراطقة هناك كانوا نظير هراطقة مصر يضايقون الأساقفة المستقيمى الايمان • ثم ان البابا بطرس قضى حياته مجاهدا فى كرم الرب حتى تنيح بعد سنتين من رسامته بطريركا فى الخامس والعشرين من بؤونه سنة ٢٨٥ ش و٥٧٠م ومن أيام البابا بطرس صارت قاعدة لزمن طويل أن يرسم البطاركة بدير أبى مقار بوادى هبيب •

(٦) دميان — البطريرك الخامس والثلاثون :

ولما تنيح البابا بطرس أجلسوا مكانه كاتبه دميان الراهب فى مسرى سنة ٢٨٥ ش و٥٧٠م فى عهد يوستينس قيصر الثانى وكان قبل

---

(١) كان بأرض بلدة معمل الزجاج بمركز كفر الدوار وخرب من زمن بعيد •

ذلك قد أقام فى دير أبى يحنس ست عشرة سنة تحت ارشاد رجال قديسين يتعبد بتقشف زائد ٠ ومن ثم انتقل الى دير تابور أى دير الآباء فى زمان عمارة الأربعة الأديرة بوادى هبيب وحالما ارتقى الكرسى البطريركى قاوم بعض الذين بقوا من حزب ميليتس لما اشتهروا به من الأفعال الرديئة وقد كانوا مختلطين بالرهبان فأمر بطردهم خوفا من ان يفسدوا عقولهم ٠

ولما تنيح الأب ثاوفانيوس بطريرك أنطاكية أقيم مكانه رجل من كهنة البيعة يدعى بطرس وكان غليظ القلب مظلما فى أفكاره مضطرب العقل مقاوما للأمانة المستقيمة ٠ وبالنسبة للاتحاد الذى كان بين الكنيستين كتب بطرس هذا الى البابا دميان سنوديقا ففرح به فى مبدأ الأمر ولكنه بينما هو يفحص الكلام المدون فيه وجد فيه عثرة فى الاعتراف بالثالوث المقدس ومؤدى كلام بطرس ان تعليم الثالوث فى غير محله ولا داعى لذكره بالمرة فطلب أن يجذبه الى الايمان برفق حتى لا ينثلم الاتحاد بين الكرسيين وكتب اليه مقالة يذكر فيها اعتراف المجامع المسكونية والآباء القديسين بالثالوث المقدس ٠ فلم يرعو بطرس عن فيه وكتب للبابا دميان رسالة شديدة اللهجة يؤخذ منها أنه مصر على ضلاله فعقد البابا مجمعا حكم على بدعته بالحرم وعليه هو بالقطع وكان سببا لوجود خلاف بين المصريين والانطاكيين مدة عشرين سنة حتى قصف الله عمر بطرس المخالف ٠

واستمر البابا دميان يسوس رعيته باهتمام مجتهدا فى الابتعاد عن كل مايولد الانشقاق وهو منزو فى صومعة بدير وادى النطرون نظرا لقيام الملكيين وأخذهم جميع كنائس الاسكندرية وكان أبوليناريوس بطريرك الملكيين قد مات سنة ٥٦٩ م وخلفه بطريرك آخر اسمه يوحنا أصله من قواد الجيش تمت رسامته فى القسطنطينية وأرسل الى مصر ليقبض على ايراد الكنائس فيها والتاريخ يصف يوحنا هذا بمحبته للسلام والهدوء ولهذا لم يستعمل القوة فى اجبار الأقباط على ترك مذهبهم بل تركهم يعبدون الله بحرية تامة ٠

أما البابا دميان فقضى بقية حياته بوضع الميامر والمقالات ومقاومة أصحاب البدع الذين كانوا يأتون اليه ويجادلونه فكان الرب يعطيه الغلبة عليهم الى أن تنيح بسلام الرب فى شيخوخة حسنة بعد أن أقام بطريركا مدة ست وثلاثين سنة ٠ وكانت وفاته فى اليوم الثامن عشر من بؤونه سنة ٣٠٩ ش و ٦٠٣ م ٠

القسم الثانى
مشاهير الكنيسة

(١) يعقوب البرادعى
(٢) من هم اليعاقبة
(٣) بعض مشاهير

---

(١) يعقوب البرادعى :

وفد على مصر فى أيام البابا بطرس الرابع · كان كثير العبادة والزهد لا يلبس سوى خرق البراذع فسمى البرادعى ويلقب بالزنزلى أيضا · ولد فى بلدة تيلا على مسافة ٥٥ ميلا من الرها بمقاطعة ايطاليا فى أواخر القرن الخامس · ونشأ أولا فى دير بالقرب من الرها يدعى دير الشقوق وبعد وفاة أسقف هذه المدينة رسم أسقفا عليها سنة ٥٤١ م ·

ثم توجه الى القسطنطينية ليدافع عن الايمان الأرثوذكسى ويفتقد الآباء البطاركة الذين طرحوا فى السجون وتحصل بواسطة مساعدة الملكة ثيوذورة المؤمنة على أن يرسم من الثلاثة بطاركة المعزولين وهم ثيودوسيوس الاسكندرى وساويرس الأنطاكى وأنتيموس القسطنطينى مطرانا عاما على كل الكنائس الأرثوذكسية ·

وقبل رسامته كانت أيدى ملوك الروم تعبت بأنصار الطبيعة الواحدة وكاد هؤلاء ييأسون اذ مات بعضهم والبعض الآخر أسر فنهض يعقوب واشتغل مدة أسقفيته كلها وهى ٣٣ سنة فى لم شعث طائفته وكان لابسا برذعة بمثابة ثوب شحاذ يطوف بها فى أنحاء الولايات الرومانية لكى يضم سكانها الى حظيرة الكنيسة القبطية ويدخل فى أذهانهم مذهبها واعتقادها بهمة لاتعرف الكلل ماشيا تحت الأخطار والأهوال من بلد الى بلد لا يعرف الخوف ولا يشعر بالخطر المحدق به من موظفى الحكومة ومن الكهنة الرومانيين ·

وصار يشرطن قسوسا وأساقفة ويضم الشيع المتفرقة الى مراكز معلومة ويوفق بين المتخاصمين وهدى أتباع أوطاخى وجعلهم يتركون اعتقادهم الفاسد ويتمذهبون بمذهب الكنيسة القديم · الى أن جدد للأرثوذكسيين مركز بطريركيتهم فى أنطاكية وترأس مجمعين كرس لهم فيهما

بطريركين واحدا بعد الآخر بعد وفاة القديس ساويرس وهما سرجيوس وبولس ٠

وهكذا استقر مذهب الطبيعة الواحدة فى كثير من جهات آسيا الصغرى وما بين النهرين وسوريا وقبرص وفلسطين وبلاد الأرمن وانقسمت طوائفه الى ثلاث وهى السريان والأرمن والمصريون وتنطوى تحتهم الحبشة٠ فالسريان كان عندهم ١١٦ أسقفا وبطريرك أنطاكى يسمى دائما أغناطيوس ومركزه ماردين والأرمن لهم أيضا بطريرك يقيم فى استراغ ويسمى العام ٠ ويرجع الكل فى أمرهم الى البطريرك الاسكندرى ٠

والذى حدا بيعقوب للحضور الى مصر هو السعى فى اعادة السلام بين كنائسها وكنائس سوريا وسبب ذلك أن يعقوب كان قد رسم بطريركا ارثوذكسيا لأنطاكية يدعى بولس ولكن لسبب الاضطهاد الذى لحق به اضطر أن يوافق الخلكيدونيين ٠ فاستاء يعقوب منه وأصدر قرارا بحرمه وكان بولس قد فرق القسطنطينية بعد أن جاهر أمام الامبراطور بأرثوذكسيته وتاب عن زلته وأتى الى يعقوب فقبله وضمه الى عضوية الكنيسة غير أن المصريين عابوا على يعقوب قبوله بولس مرة أخرى حتى أن البابا بطرس اصدر قرارا بحرم بولس فحضر يعقوب الى مصر للمفاوضة فى هذا الأمر وترأس مجمعا عقد فى الثغر الاسكندرى اقتنع فيه برداءة سلوك بولس وسيرته السابقة بالاسكندرية مسقط رأسه فسلم يعقوب بعزله ولكنه يبقى عضوا فى الكنيسة لأنه تاب وأعلن عزله بواسطة ثلاثة أساقفة ومن ثم سافر يعقوب من مصر ليباشر جهاده ٠

أما بولس فكان له أنصار عديدون رفضوا قرار مجمع الاسكندرية بشأنه وكاد الشقاق يستفحل فعزم يعقوب على زيارة مصر ثانية فى أيام البابا دميان ال ٣٥ ولكنه أصيب بمرض فى الطريق فعرج على دير فى حدود مصر ولما بلغ البطريرك الاسكندرى خبر مرضه ذهب اليه ليزوره فوجده قد مات فى سنة ٥٧٨ م ٠ وقد شهد المؤرخون بأن هذا الرجل كان بارا تقيا وقادرا فى فصاحته وعلمه وأنه لو لم يهيىء الله وجوده لما قام لقويمى الرأى قائمة وبعد موته ترك الكنائس الأرثوذكسية نامية أحسن نمو فى كل تلك الأماكن ٠ وجملة ماكرز من الكهنة والشمامسة مائة الف قسيس وشماس وعشرين أسقفا ومطرانا وبطريركين ٠

(٢) من هم اليعاقبة ؟

ويدعى المؤرخون اللاتين والأروام أن أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة قد أكرموا يعقوب المذكور بتسميتهم يعاقبة باسمه ولذلك دعا الخلكيدونيون الكنيسة القبطية بالكنيسة اليعقوبية وهو قول ملقى على عواهنه يدل على جهل قائله اذ لا توجد هناك علاقة بالمرة بين الكنيسة القبطية ويعقوب كما أن يعقوب لم يكرز فى مصر بل كان يكرز فى الولايات الأخرى ·

ويظهر أن الخلكيدونيين قصدوا باطلاق لقب « اليعقوبية » على الكنيسة القبطية أن ينتقموا لأنفسهم منها لأنها أطلقت عليهم لقب « الملكيين » ولكن لسنا بمخطئين فى تسمية الكنيسة الرومانية بالكنيسة الملكية لأنها انحازت الى الملك أو الامبراطور الرومانى مذهبا وسياسة وأول من أطلق اسم اليعاقبة هو أفتيخوس بطريرك الملكيين فى القرن العاشر ولكنه أطلقه على السريان الذين كانوا خاضعين رسميا ليعقوب البرادعى · ولما نشرت كتابات أفتيخوس بين الافرنج ورأى بعض مؤرخيهم أن تعاليم الأقباط لا تختلف عن تعاليم السريان فخرج هؤلاء المؤرخون من هذا الرأى الى تسمية الأقباط باليعاقبة أيضا ·

وربما أطلقوا هذا اللقب سهوا أو جهلا منهم ولكنه كان سببا فى جر كثيرين الى الوقوع فى هذا الخطأ حتى من بعض أبناء الكنيسة القبطية ومنهم ابن العسال وأبو دقن الذى قال ان هذه التسمية وصلتنا من أبى الأسباط اتماما لنبوة الملاك جبرائيل للعذراء أو المولود منها « يملك على بيت يعقوب الى الأبد » وقال المقريزى المؤرخ المسلم « ان أصحاب مرقيان دعوا أصحاب ديوسقوروس باسم اليعاقبة أو اليعقوبية وأطلقوا عليهم جميعا هذا الاسم واختلف فى تسميتهم بذلك فقيل أن ديوسقوروس كان يسمى قبل بطريركيته باسم يعقوب وأنه كان يكتب وهو منفى الى أصحابه بأن يثبتوا على أمانة المسكين المنفى يعقوب وقيل بل كان له تلميذ اسمه يعقوب وكان يرسله وهو منفى الى أصحابه فنسبوا اليه · وقيل بل كان يعقوب تلميذ ساويرس بطريرك أنطاكية وكان على رأى ديوسقوروس فكان ساويرس يبعث يعقوب الى سائر المسيحيين ويثبتهم على أمانة ديوسقوروس فنسب النصارى الى يعقوب المذكور » أهـ · وقال آخرون ان ذلك نسبة الى يعقوب الرسول ·

فيتضح أن المؤرخين الذين اتفقوا على تسمية كنيسة مجمع خلكيدون بالـكنيسة الملـكية لم يتفقوا فى روايتهم على نسبة تسمية اليعاقبة للكنيسة القبطيـة وكل أقوالهم فى هـذا الشأن مردودة اذ قـد التبس عليهم فيهـا وجه الصـواب لاسيما وأن البـابا ديوسقوروس لم يعرف باسم يعقوب ولم يكن له تلميذ بهـذا الاسم ولم يبشر يعقوب الرسول بمصر ولا كرز يعقوب البرادعى بمصر رادا الأقبـاط الى مذهب الطبيعـة الواحدة بل كانوا هم المتمسكين به دون غيرهم ولم يعرف الأقبـاط منذ أول عهدهم بالمسيحية الى اليـوم الا بالأقبـــاط الأرثوذكس وكنيســتهم « الـكنيسة القبطيـــــة الأرثوذكسية » ·

(٣) بعض مشـاهير :

وممن اشتهر فى هذا القرن من الأقباط :

أولا ـ يوحنـا البرلسى · أحد الذين وضـعوا كتاب السنكسار (١) راهب ببرية شيهات ثم رسـم أســقفا على البرلس فى رئاسـة البـــابا دميان الـ ٣٥ ·

ثانيا ـ قزمان · أولع بالسياحة فطاف أماكن عديدة ومع أنه وضع كتبا كثيرة الا أنه لم يبق منهـا الا كتاب « وصـف البـلدان طبقا لقواعد الدين المسيحى » ·

ثالثا ـ ديوسقوروس · عالم قبطى وضع كتابا فى علم النبات بناء على طلب أميرة رومانية ·

رابعا ـ أعمـال أخرى للمصريين · وكتبت فى هـذا القرن نسخة من سفر التكوين محفوظـة فى مكتبة فينـا ببلاد النمسا وهى تحتوى على أكثر من ٨٨ صـورة كما أن علمـاء العـالم بأسره كانوا يفدون على الاسكندرية لتصحيح ما بأيديهم من النسخ القديمة التى لايوجد من يعرف بأصـولها سوى علماء الاسكندرية ·

---

(١) ان الذين جمعوا كتـاب السنكسار واهتموا بتدوينـه هم (١) يوليوس الأقفهصى (نسبة لأقفهص بمركز الفشن) وكان معتنيـا بآثار الشهداء فى اضطهاد ديوكلتيانوس فى آخر القرن الثالث (٢) يوحنـا البرلسى نسبة الى البرلس بمديرية الغربية) (٣) ميخائيل أسقف أتريب (من اطلالها تل أتريب بجوار بنها العسل·) ·

القسم الثالث
المملكة والكنيسة

(١) أناستاسيوس (٢) يوستينوس (١)
(٣) يوسكنيانوس (١) (٤) ثورة الأقباط فى عهد موريس

---

(١) أناستاسيوس :

تولى هذا الامبراطور سنة ٤٩١ م وكان واقفا على أحوال مصر وملما بكل ما فيها لأنه مكث بها مدة منفيا من وجه سلفه وكان مقيما فى مركز منوف بمديرية المنوفية حيث كان له أصدقاء كثيرون ٠ وحدث أن أحد الأعيان أشار عليه بزيارة راهب اشتهر بالتقوى يدعى أرميا يقيم فى احدى بلاد ذلك المركز ليدعو له بالخير ٠ فزاره بصحبة بعض أصحابه الذين طلبوا من الراهب أن يباركه فباركهم جميعا ولم يبارك أناستاسيوس ببركة خاصة ٠ وبعد انصرافهم صرخ أناستاسيوس بحزنه لذلك وأظهر خوفه من أن يكون الراهب قد عرف أن خفاياه سيئة فأبى أن يباركه فحاول أصحابه أن يزيلوا هذا الظن منه ولكنهم لم يفلحوا فعادوا الى الراهب وأخبروه بالأمر فاستدعاه اليه ولما اختلى به هو وثلاثة من أصحابه أخبره بأنه رأى يد الله مرفوعة فوق رأسه فلم يرما يجعله يباركه بعد الله ثم أوصاه قائلا « ان الله الذى عينك لمنصب الملك يطلب منك أن تعيش صالحا بعيدا عن الأفعال الرديئة غير موافق لانصار مجمع خلكيدون لأن من يصادق على ذلك المجمع يحل عليه غضب الله » ٠

وقد تمت نبؤة الأب أرميا فجلس أناستاسيوس على عرش الملك وطلب بعض وجوه الأقباط من هذا الأب أن يوفد اليه بعض تلاميذه لزيارته فأرسلهم تحت رئاسة راهب يدعى وريدنوس من أقارب ذلك الناسك وأوصاهم بأن لا يقبلوا منه هبة أو عطية الا أن يكون بخورا وبعض أوان تحتاج اليها الكنائس ولما كان هذا الامبراطور منفيا بنى كنيسة أرسل اليها مع أولئك الرسل أوانى من الذهب والفضة وبخورا ونذورا عظيمة المقدار كما أنه أهدى بعض أصحابه من المصريين هدايا فاخرة وعين بعضهم فى وظائف سامية فى الحكومة ٠

وصفوة القول انه لم يقم بين القياصرة من عمل مثله على اسعاد مصر وارجاع السلام اليها · وكان نظير سلفه فى احترامه للمذهب القديم وامداده لذويه بعمارة كنائسهم وأديرتهم واحسانه الى رهبانهم ودفع المرتبات السنوية لهم · ولما رأى أن الانشقاقات الدينية هى التى تبدد السكينة نفى كل الأساقفة الغربيين الذين رآهم ميالين لزرع بذور الخصام والمنافسة فهدات الأحوال فى كل الكراسى البطريركية الا فى كرسى رومية فان أساقفته كانوا قد استمرأوا عيشة المناشذة والمناجذة فخرج من بين تابعيهم رجل يدعى ويطاليانوس متعللا بأخذ الثأر للكثلكة وهو فى الحقيقة انما يطلب الملك فجمع الجموع الكثيرة حوله وحاول ان يغتصب العرش من اناستاسيوس ولكنه انهزم شر هزيمة ·

وفى أيام هذا القيصر هجم الفرس على مصر وانتشب القتال بينهم وبين الرومانيين مدة أصيبت فيها البلاد بمجاعة فادحة · وفى أثناء اشتدادها تبرع أحد المسيحيين اليهود بتوزيع مقدار عظيم من الحنطة على المحتاجين فى يوم عيد القيامة فتزاحم الجياع على أبواب الكنائس حتى هلك منهم ٣٠٠ الف نفس فى ذلك اليوم ·

(٢) يوستنيوس١ :

تولى سنة ٥١٨ م وكان رجلا عاميا أميا فتشبع للمجمع الخلكيدونى جهلا منه وصرف همه فى مقاومة الأرثوذكسيين · ومن دلائل الغطرسة التى درسها عن أسقف رومية أمره بقطع رأس القديس ساويرس بطريرك أنطاكية ففر القديس من وجهه ولجأ الى مصر فأخذ فى اضطهاد بطريرك الكنيسة القبطية وأمر بنفيه وبسبب ذلك جرت مذبحة هائلة هلك فيها نحو مائتى الف نفس · ثم نفى أساقفة ارثوذكسيين فى جهات كثيرة ·

(٣) يوستنيانوس١ :

تولى سنة ٥٢٧ م وكان فى أوائل ملكه مشغولا بتوطيد دعائم عرشه وبعد ذلك اهتم باجراء صلح بين الكنيستين اليونانية والرومانية · ثم أدار وجهه نحو المصريين فاضطهدهم بشدة قاصدا أن يرغمهم على الاعتراف بقرارات مجمع خلكيدون واضطهد الأب ثيودوسيوس طويلا كما مر بسيرته وخلع الأساقفة الأرثوذكسيين فى القسطنطينية وأرغم كثيرين بعد التعذيب على الاعتراف بالطبيعتين ·

غير أن الملكة ثيوذورة وسائر علماء البلاط كانوا من حزب المتأصلين أو ذوى الطبيعة الواحدة ولم يكونوا راضين بهذه المعاملة الرديئة والقساوة الشديدة اللتين سار بهما الملك ضد الأرثوذكسيين وكانوا يعزون المضطهدين ويقومون بكل ما يحتاجه المسجونون من القوت . وكان لثيوذورة السلطان المطلق على زوجها لجمالها وحكمتها فنصحته بالتزام خطة الاعتدال فهدأ قليلا ولكنه رجع الى تهوره فيما بعد واضطهد الأرثوذكسيين وسلب كنائسهم حتى اضطر الأقباط الى تشييد خلافها وسموا احداها الكنيسة الملائكية نكاية فى الكنيسة القيصرية الكبرى التى اغتصبها منهم القيصر .

وحدث مرة أنه أمر أسقفا أرثوذكسيا أن يعترف بقرار مجمع خلكيدون أو يعمل أعجوبة فأجابه أن العجائب لغير المؤمنين وطلب من الله أن يظهر أعجوبته فى نفس الملك فأصبح وجهه متورما فجزع وطلب من زوجته أن تطلب من الراهب أن يصلى من أجله فصلى فنال الشفاء . واعتزل الراهب مدة الصوم الكبير فوشى الخلكيدونيون للملك فاستدعاه اليه فابى بحجة أن قانون الوحدة يوجب عدم تركها قبل يوم خميس العهد ولكن الملك عاجلته المنية قبل مجىء ذلك اليوم .

وقد ساعد ولاة مصر بطاركة الأروام على سلب حقوق بطاركة المصريين فتعصب الأقباط ضد اليونانيين وأبطلوا لغتهم من كنائسهم ومجتمعاتهم وصاروا يصلون بلغتهم الأصلية وترجموا كل الكتب الدينية اليها .

وفى عهد هذا القيصر حدثت فتنة فى الاسكندرية بسبب بطريرك الأروام فانتهزها اليهود وفتكوا بكثيرين من المسيحيين . ولبث الخلكيدونيون يعبثون فى الأرض فسادا واشتد غيظ المصريين من القيصر عندما أصدر أمرا يحرم فيه أوريجانوس بطل الكنيسة الاسكندرية حتى لم يعد يطيق أى مصرى أن يرى رومانيا أمامه فانفصلوا عنهم وصاروا قسمين واختص كل جماعة منهما بلون فاختار المصريون اللون الأخضر والرومانيون الأزرق .

(٤) ثورة الأقباط فى عهد موريس :

وجاء بعد يوستنيانوس يوستينس ٢ سنة ٥٦٥ م وكان أشفق على العباد من سلفه ويظهر أن ذلك من تأثير زوجته ابنة أخت الملكة ثيوذورة فترك الناس يدينون بما يشاؤون فتمكنت الكنيسة القبطية من استرجاع مراكز كثيرة من التى اغتصبت منها وتحسنت أحوال شعبها ورعيتها -

وخلف يوستينوس طيباريوس ٢ سنة ٥٧٨ م الذى تنازل عن الملك لموريس سنة ٥٨٢ م وفى أوائل حكمه حدثت ثورة فى مصر فى الوجه البحرى تحت زعامة ثلاثة اخوة من الأقباط هم أبوسخيرون ومينا ويعقوب من بلدة عقيلة (١) وسببها أن حاكم قسم سمنود (غربية) القى القبض على رجلين قبطيين من ذوى الوجاهة والاعتبار أحدهما يسمى قسا بن صموئيل والآخر بانون بن آمونى فهجم الثائرون على الرومانيين فى جهة بنا وابى صير (بالقرب من سمنود) وطردوهم منها فأرسل واليها الى الامبراطور يشكوه أمره فأمر الامبراطور يوحنا والى الاسكندرية بقمع الثائرين الذين كانوا قد وضعوا يدهم على أقاليم الوجه البحرى وحاولوا الاستيلاء على الاسكندرية فاغتصبوا الحنطة التى كانت مرسلة اليها ٠

وحدثت من جراء ذلك مجاعة اهتاج منها سخط القوم على الوالى وكادوا يفتكون به لولا بعض أعيان الأقباط الذين ردوا عنه اعتداء الغوغاء ٠

ومع أن يوحنا والى الاسكندرية كان صديقا للثلاثة الاخوة الا أنهم استمروا فى مقاومتهم فعزله القيصر وعين بدله رجلا يسمى بولس وتمكن اسحق ابن أكبر الثلاثة الاخوة من الانتصار على الرومانيين فاستولى على كثير من مراكبهم وسعى خلفهم الى قبرص يكتسح أمامه قوتهم الحربية حتى خاف الامبراطور من سوء النتيجة وطلب الى يولوجيوس بطريركه فى مصر أن يعقد صلحا مع الثلاثة الاخوة ٠

وكان يوليوس البطريرك الرومانى على جانب عظيم من دماثة الأخلاق فاكتسب رضاء المصريين عنه واجتمع مع الثلاثة الاخوة لاجراء الصلح فى مسقط رأسهم فأبوا القبول الا اذا أعاد الامبراطور صديقهم يوحنا الوالى فأجاب طلبهم ورجع الوالى الى منصبه وعين لقيادة الجيش رجلا يدعى ثيوذوروس ٠

وحدث أن قائد الجيش الجديد أخذ القبطيين المأسورين وثلاثة آخرين من عظماء المصريين كانوا قد سجنوا معهما وأوقفهم على شاطىء النيل المقابل للشاطىء الذى احتشد عليه الثائرون وأمرهم بطرح السلاح والا يقضى على الخمسة الرجال فتوسل المأسورون الى الثائرين أن يكفوا عن القتال شفقة بهم فألقى معظم هؤلاء الأسلحة وعبروا النهر وتقابلوا

---

(١) هى الآن زاوية صقر بمركز أبى حمص بحيرة ٠

مع أصحابهم المقبوض عليهم ولم يبق فى ساحة النزال الا الثلاثة الاخوة وبعض أصدقائهم وظلوا يقاتلون الجيش الرومانى باستبسال ولكنهم غلبوا أخيرا وفروا الى مدينة صان (شرقية) فقبض عليهم الرومانيون ومضوا بهم الى الاسكندرية ومروا بهم فى الشوارع ليعتبر بهم العصاة ثم طرح الثلاثة الاخوة وابنهم اسحق فى السجن ولبث يوحنا الوالى يدافع عنهم طول مدة ولايته بدون جدوى حتى تعين مكانه وال جديد فقطع رؤوس الاخوة ونفى اسحق نفيا مؤبدا ٠ وأمر الامبراطور بأخذ ممتلكات الثائرين وحرق مدينتى عقيلة وصان ٠

ولم تكد نار هذه الثورة تخمد حتى قامت ثورات أخرى فى خمس مدن وهى صان وخربتا وبسطة وسنهور واخميم وغيرها وانتهت جميعها بمذابح وحشية من الوطنيين الذين لازمهم الفشل فى كل تدبيراتهم ٠

وبالجملة فلم يكد ينتهى القرن السادس حتى بلغت العداوة بين المصريين والرومانيين أشدها خصوصا عندما أنفذ القيصر أمرا الى نائبه بمصر بطرد جميع الأقباط من خدمة الحكومة وعدم قبول أحد منهم فى مصالحها قصدا منه فى اذلالهم فكان ذلك من أقوى البواعث على قنوط الأقباط واعتزالهم الروم بالكلية وقطع كل العلاقات معهم ٠ وكان كل ما اشتد الضيق بالأقباط كلما ازدادوا تمسكا برأيهم وطمعا فى نوال الاستقلال الدينى الذى اشتروه بسفك دماء الألوف المؤلفة منهم ٠

القسم الرابع

البـــدع والانشقاقات

(١) اختلاف فى ماهية جسد السيد المسيح ·
(٢) اختلاف آخر فى ماهية الأقانيم الالهية وفى لاهوت المخلص وناسوته ·
(٣) بدعة بقيـة حزب ميليتس ·
(٤) الاسيفياليون (الذين بلا رأس) ·
(٥) نزاع بسبب العلامة أوريجانوس ·
(٦) نزاع على الثلاثة التقديسات ·
(٧) مسألة الفصول الثـلاثة ·

---

(١) اختلاف فى ماهية جسد السيد المسيح :

غلبت بين أنصار الطبيعة الواحدة فى هـذا القرن اختـلافات قامت بسبب البحث فى ماهيـة جسد المسيح · فيوليان الهيليكار نسوسى سـنة ٥١٩ م اعتقـد أن الطبيعـة الالهيـة اتحدت بجسد المسيح منذ حبل به حتى تغير الجسـد فى طبيعتـه وصـار عـديم الفساد فوافق على ذلك قيانوس ومنه تسمى المعتقـدون بهـذه العقيـدة قيانيين · وانقسم القرون بهـذا التعليم الى ثلاثة أحزاب · فنشأ بينهم اختـلاف فى هل كان جسد المسيح مخلوقا أم غير مخلوق فانقسموا الى قسمين سمى الواحد بعبـدة المخلوق والآخر بتبعـة الغير المخلوق وخرج منهم حزب ثالث اعتقـد أن جسد المسيح قابل الفساد ولـكن بقوة اللاهوت لم يصر بالحقيقة فاسدا · وأقلع الغيانيون ورجعوا الى حضن الـكنيسة فى عهد البـابا الاكسندروس ال ٢ بعد أن تمسكوا بضلالهم ١٧٠ سنة ·

وعارض رأى يوليـانوس طـائفة أخرى علمت بأن جسد المسيح كان نظير جسدنا قابل للفنـاء والفساد فالذين يسمون بالكربتيكولين ولا سيما ثيومستيوس شماس اسكندرى استنتجوا من هذا التعليم أن المسيح وأن كان باللاهوت يعلم كل شىء ولـكن ناسوته يجهل أمورا كثيرة ولأنهم يعتقدون بوحـدة المسيح الطبيعيـة استنتج الآخرون من تعليمهم أنهم أشركوا الطبيعة الالهيـة فى الجهـل ولهـذا سـموا أغنيتيين · وروى موسـهيم المؤرخ البروتستانتى أن البـابا ثيودوسيوس الاسكندرى كان من أصحاب هـذا

الرأى وأنه حمل فى حدة الجدال ضد الهراطقة على أن يقول « ان انسانية المسيح كانت تجهل اليوم الأخير » فقالوا انه نسب الجهل للاهوت لاعتقاده بوحدة الطبيعتين ٠ الا أن هذا الرأى لم يدم لأن الذين صرحوا به فى معرض الدفاع عن الايمان انتبهوا الى غلطتهم وعدلوا عنها ٠

(٢) اختلاف آخر فى ماهية الأقانيم الالهية وفى لاهوت المخلص وناسوته :

وروى مؤرخو اللاتين والأروام أن البابا دميان البطريرك ال ٣٥ ذهب بأن لكل من الأقانيم الثلاثة وجودا خاصا وأن للثلاثة معا وجودا رابعا عاما وهكذا قامت شيعة مربعى اللاهوت وسموا أربعيين أو دميانيين ٠ وعنها انشقت شيعة قاومت تعليمها باتباعها مذهب سابليوس القديم ٠ ثم قام واحد من معلمى الفلسفة فى الاسكندرية اسمه استفانوس النيوبى ذهب أنه لا فرق بين اللاهوت والناسوت فى المسيح فتبعته شيعة سميت بالنوبيين ٠ الا أن كل هذه الاختلافات التى قامت بين أشياع الطبيعة الواحدة تلاشت جميعها عندما قام يعقوب البرادعى وأخذ يؤلف بين آرائهم ويرد من ضل منهم الى محجة الصواب ٠ وصاروا الكل على رأى واحد هو رأى ديوسقوروس البابا الاسكندرى ٠

(٣) بدعة بقية حزب ميليتس :

وظهرت بدعة أخرى بين الذين بقوا من حزب ميليتس الذى انشق عن الكنيسة فى عهد البابا بطرس آخر الشهداء فكانوا اذا قصدوا أن يقدموا الأسرار الالهية يقضون الليل كله يترنحون بشرب الخمور وحجتهم فى ذلك أن السيد المسيح قبل أن يسلم لتلاميذه السر المقدس شرب معهم خمرا ٠ فقاوم البابا دميان هذه الفيئة ولما لم يذعنوا أمر بنفيهم من بين الرهبان خوفا من أن تمتد البدعة اليهم ٠

(٤) الاسيفياليون (الذين بلا رأس) :

وهم الذين انفصلوا عن الكنيسة فى أيام البابا بطرس مغوس البطريرك ال ٢٧ لأنه قبل الاتحاد مع بطريرك الاسكندرية الذى كان أحد الذين حكموا على البابا ديوسقوروس ٠ ثم انقسمت هذه الشيعة الى أحزاب ثلاثة هى الأنثروبومرفيتيين والبارسنوفيتيين والأساسنتيين وتبع هذه الأحزاب أحزاب أخر وقد بقى من كهنة الذين لا رأس لهم أربعة قسوس فى أيام البابا دميان وكانوا يسكنون شرقى مصر فتسلط عليهم فكر

شيطانى بأنهم يقيمون لأنفسهم اسقفا خوفا من ملاشاة ذكرهم فاختـاروا اكبرهم بارسـنوفة ورسمه الثـلاثة القسوس اسقفا · فلمـا سمع أهل غربى مصر منهم بذلك غضـبوا جـدا لأنهم فعلوا ذلك بغير مشورتهم فانفصـلوا عنهم ولم يساعدوهم وبذلك لم يكن لهؤلاء من يعمدهم أو يقربهم أو يصـلى لهم فوسموا لهم أسـقفا ولـكنهم اسـتمروا ينقصـون شـيئا فشـيئا حتى بادوا بالـكلية ·

(٥) نزاع بسبب العلامة أوريجانوس :

ان الحروم الـكثيرة التى صـدرت ضد العلامة أوريجانوس لم تؤثر على مقامه ومركزه عند رهبان مصر المطلعين بتدقيق على مؤلفـاته العديدة والعارفين بأتعابه وطهـارة سيرته · فترجم انسان اسمه بلاتر فى الغرب بعض مؤلفاته الى اللاتينية · وفى الشرق ولا سيما فى سـوريا وفلسطين كان الرهبـان يدافعون عنه بغيرة صحيحة ووافقهم على ذلك بعض الأساقفة ولا سيما ثيوذوروس الذى من قيصرية كبدوكية ·

فحدث أن افرآم بطريرك أنطاكية حكم على أوريجـانوس وأضـاليله لاعتبـاره اياها مساعدة مذهب الطبيعـة الواحدة الذى كان يكرهه فطلب أولئك الرهبـان من بطرس الأورشليمى قطع افرآم فأبى وأرسل منـدوبين منقبله الى القسطنطينية ليقدما ليوستنيانوس قيصر شكاية ضد أوريجانوس· فعقـد القيصر مع مينـا بطريرك القسطنطينيـة مجمعـا أصـدر منه أمرا مستوفيا بحرم أوريجانوس وعقائده ونهى عن مطالعة كتبه · وبعد ذلك حكم فى مجمع مسكونى عظيم جمعه القيصر سنة ٥٥٣ م على آراء أوريجانوس بأنها سامة للـكنيسة ·

(٦) نزاع على الثلاثة التقديسات :

ان الـكنيسة منـذ القـديم رتبت قـراءة التريساجيون (أى الثـلاثة التقديسات) وقيل أن أول من أذاعها هو أغنـاطيوس الثاوفورس والذى أمر بترتيلها قبل قراءة الانجيل هو بطرس الرسول ·

وجاء فى كتاب البصخة المطبوع حديثا « ان يوسف ونيقوديموس لـما شرعا فى تحنيط السيد أمسك يوسف يده وقال هذه اليد العظيمة التى كونت المخلوقات وأنا أكفنها ففتح المسيح عينيه وتبسم فى وجهه فصرخ عنـد ذلك يوسف قائلا « قدوس الله الخ » أهـ وهذا نصها : ـ

« قدوس الله قدوس القوى قدوس الحى الذى لا يموت · يا من ولدت من العذراء ارحمنا » ·

« قدوس الله الخ · يا من صلبت عنا ارحمنا » ·

« قدوس الله الخ · يا من قمت من بين الأموات وصعدت الى السموات ارحمنا » ·

ولما ظهر نسطور بطريرك القسطنطينية وأراد أن يحذف من طقوس الكنيسة كل ما يدل ولو ظاهرا على نسبة الالام للاهوت منع اطلاق لقب والدة الاله على السيدة العذراء ولما رأى أن بعض عبارات هذه التقديسات تخالف مبادئه حذفها واكتفى بأن تكون هكذا « قدوس الله · قدوس القوى · قدوس الحى الذى لا يموت · ارحمنا » وأمر جميع الكنائس بترتيلها على هذه الصورة فخضعت لاشارته الكنائس التى نشأ فيها ودرس علومه بينها وهى كنائس سوريا والشرق ·

وفى أيام البابا بطرس مغوس بطريرك الاسكندرية كان معاصرا له الآب بطرس القصار بطريرك أنطاكية أحد الذين وقعوا على منشور الاتحاد فأشار البطريرك الاسكندرى على البطريرك الأنطاكى بأن يعيد للثلاثة التقديسات ما حذف منها لكى تحفظ كما رتبت فى العصر الرسولى · فأصدر بطريرك أنطاكية منشورا لجميع الأبروشيات التابعة له يأمر فيه بترتيل الثلاثة التقديسات كما وضعها الرسل فعملت الكنائس بأمره ولا سيما كنيسة القسطنطينية ·

ولما انتشرت هذه الزيادة لم يرض عنها الخلكيدونيون فأشاعوا بأن بطرس القصار يقصد بذلك أن ينسب للاهوت الولادة والآلام والموت وأطلقوا عليه لقب « صالب اللاهوت » غير أن الملكة ثيوذورة أقنعت القيصر يوستنيانوس فصدق عليها رسميا · قال العلامة موسهيم المؤرخ « وكانت النتيجة أن المسيحيين الغربيين رفضوا الترنيمة لأنهم فهموا أنها تشير الى صلب الأقانيم الثلاثة وأما المسيحيون الشرقيون فاستمروا يستعملونها دائما الى وقتنا هذا بدون خطيئة لأنهم يعيدون الترنيمة الى المسيح وحده أو الى أقنوم واحد فقط فى الثالوث » أهـ (١) ·

فيفهم من قول هذا المؤرخ أن الذين أبوا أن يرتلوا التريساجيون بالصورة الأصلية ظنوا أن ذكر قدوس فيها ثلاث دفعات فى كل مرة

---

(١) تاريخ الكنيسة المسيحية ص ٢٢٠ ·

اشارة الى الثالوث الأقدس فلهذا حكموا بأنها بدعة ولكن الكنيسة لا تعتبرها هكذا ولم تقصد بها ان تخاطب الثالوث الأقدس كأنها تقول « قدوس الله الآب قدوس القوى الابن قدوس الحى الذى لا يموت الروح القدس » بل المراد مخاطبة الابن المتأنس فقط معترفة فى الأولى بولادته وفى الثانية بصلبه وفى الثالثة بقيامته وصعوده ٠

قال الشيخ حبيب أبو رابطة أحد علماء الكنيسة السريانية فى القرن الحادى عشر من رسالة له ضد أحد النساطرة أيد بها التقديس المثلث كما تترنم به الكنيسة القبطية « ان الأربعة الحيوانات رتلوا التقديس المثلث بقولهم « قدوس قدوس قدوس الرب الاله القادر على كل شىء الذى كان والكائن والذى يأتى » (رؤ ٤:٨ و٩) ولا ريب أنهم كانوا يخاطبون الابن فقط كما يستدل من قرينة الكلام ومن مراجعة (رؤ ١:٧ و٨ و١٢:٢٢ و٢٠) وان اعترض معترض بأن قول الحيوانات « والذى يأتى » انما يريدون به أقنوم الابن لكن لا يفهم منه سوى كونه لاهوتا مجردا فنجيبه قائلين ٠ ان هذه العبارة التى قيلت من بعد التجسد لا يراد بها فى الانجيل أو خلافه الا الابن حالة كونه متجسدا ٠ فاسمع ماذا قال الملاكان وقت صعود المسيح له المجد « ان يسوع هذا الذى ارتفع عنكم الى السماء سيأتى هكذا كما رأيتموه منطلقا الى السماء » (١ ع ١ : ١١) أهـ ٠

وقال العلامة موسهيم أيضا « وحدثت منازعة جسيمة بين اليونانيين سنة ٥١٩ م فى أنه هل يليق القول أن أحد الأقانيم صلب فاستعمل كثيرون هذه العبارة لكى يلحوا على الناطرة الذين تطرفوا فى تفريق طبيعتى المسيح والرهبان السيكثيون فى القسطنطينية الذين هم أصل هذه المنازعة ولكن الآخرين حسبوا هذه العبارة مطابقة لضلال صالبى اللاهوت أو الأفتيخيين فرفضوها ووافق أورمسداس أسقف رومية حين استشاره الرهبان السيكثيون وحصلت منازعات جسيمة سامة ٠ وأخيرا المجمع الخامس ويوحنا الثانى خليفة أورمسداس استرجع الصلح للكنيسة باستصواب استعمال العبارة » أهـ (١) ٠

ولا تزال كنيستا الموارنة والسريان الكاثوليكيتين التابعتين لقصر الفاتيكان ترنمان هذه الترنيمة فى جمعة الحاش (الآلام) وتشيران بها

---

(١) تاريخ الكنيسة ص ٢٤٤ .

الى أقنوم الابن المتأنس ٠ ومؤلف كتاب « تاريخ سوريا » وهو مارونى ذكر فى كتابه ج ٥ ص ١٤٩ عن مؤسس كنيستهم وهو يوحنا مارون ما يأتى « ويعزى الى يوحنا مارون رسالة فى التريساجيون أى التقديسات الثلاثية قدوس الله قدوس القوى قدوس الحى الذى لا يموت عنوانها جواب على من يزعمون اننا نعزو الصلب الى الثالوث الأقدس اذ نزيد على التقديسات « يا من صليت من أجلنا » ثم ذكر فى ص ١٥٠ فقرة من كتاب ليوحنا مارون فى هذا المعنى فى شرح رتبة القداس فصل ١٩ قال فيها « اننا نبين لسؤالكم أيها الأبناء الأحباء هل ينبغى أن يترنم بالتقديسات مع الزيادة عليها « يا من صلبت من أجلنا » ومتى يترنم بذلك ؟ فاعلموا أن هذه التسبحة توجه تارة الى الثالوث الأقدس وتارة الى أحد الأقانيم الالهية فقط واذا وجهت الى الثالوث الأقدس المسجود له لم يسغ البتة أن يلحق بها « يا من صلبت » ٠٠٠ ومتى وجهت هذه التسبحة الى الابن فلا مانع من أن يزاد عليها ذكر الآلام والصلب والموت والدفن والقيامة وباقى أسرار تدبير مخلصنا اذ لا مراء أن الابن تألم وصلب ومات من أجلنا » اهـ هذا وان يوحنا مارون المشار اليه قضى حياته يدافع عن وحدة مشيئة المسيح خلافا لمذهب الكنيسة البابوية بأن فى المسيح طبيعتين ومشيئتين ٠

(٧) مسألة الفصول الثلاثة :

علمنا أنه كان من أنصار الطبيعة الواحدة فى بلاط القيصر الملكة ثيوذورة المشهورة بالتمسك بايمانها ودوميتيانوس كاتم أسرار القيصر فانضم اليهم ثالث وهو ثيوذوروس القيصرى المذكور الذى كان القيصر يعتبره ويجله فسافر الى القسطنطينية وبينما كان يوستينانوس ينكل بالأرثوذكسيين أقنعه بالاتفاق مع الملكة أن مجمع خلكيدون أخطأ بقبوله النسطوريين قبل أن يحرم مؤلفاتهم ثم أفهمه أن الخلكيدونيين قبلوا بينهم ثيوذوروس المبسوسيتى وثاوذوريتوس أسقفكورش وايباس الذى من اديسا (الرها) ان هؤلاء هم أصل الشيعة النسطورية والمدافعون عنها وكتب كل منهم كتابا ضد القديس كيرلس ومع كل ذلك قبلهم المجمع الخلكيدونى وأعز شأنهم ٠ فلما وقف يوستنيانوس على الحقيقة أصدر سنة ٥٤٤ م منشورا يحرم فيه الفصول الثلاثة وهى مؤلفات ثيوذوروس المبسوسيتى وكتابات ثاوذوريتوس ضد القديس كيرلس والرسالة التى أرسلها ايباس

خطايا الى مارس الفارسى ثم حرم مؤلفيها وطلب من جميع البطاركة والأساقفة فى أنحاء المملكة الرومانيــة المصادقة على هذا الحرمان والتوقيع على المنشور الصادر به وكان عبارة عن تسفيه أعمال مجمع خلكيدون وتسفيه آراء القائلين بصحة قراراته لأن أولئك الكتاب الثلاثة كانوا من معضديه فاضطر كثيرون من الأساقفة على توقيع المنشور وتهدد من يمتنع بالعزل ·

وكانت الملكة ثيوذورة قد استدعت ويجيليوس أسقف رومية الى حرم مجمع خلكيدون ومساعدة البطاركة انثيموس القسطنطينى وثيوذوروس الاسكندرى وساويرس الأنطاكى والقول بقولهم فأجاب طلبها ووافق على رأيها وحرم من يعتقد بطبيعتين فى المسيح ولا يعترف بجوهر واحد فقط ومن يقول أنه صلب من حيث هو انسان ولا يعترف أن ابن الله نفسه صلب وشجب الفصول الثلاثة ومؤلفيها النسطوريين الذين قبلهم مجمع خلكيدون · أما أساقفة أفريقية والليريكوم فألزموه أن يسترجع ذلك الشجب لأنه لا أحد منهم يحسبه اسقفا وأخا ان لم يستصوب الفصول وذلك المجمع ·

وبعد ذلك طلب منه يوستنيانوس أن يمهر منشوره فراوغ كثيرا وماطل فطلب منه القيصر بأن يحضر الى القسطنطينية فقام من رومية وبينما كان يركب السفينة فى نهر تيبر أخذ شعبرومية يرشقه بالحجارة قائلا « فليرافقك صيتك الردى · فليرافقك الموت · لقد صنعت شرورا فى رومية · فلتلاقينك الشرور حيث تذهب » ولما قابل الملك سلمه كتابا معروفا باسم « جوديكاتم » حكم فيه على الفصول الثلاثة وقد اجتهد فى مجمع عقد فى العاصمة أن يقنع الأساقفة الغربيين ليمضوه فلم يستطع بل قاموا ضده وطعنوا فيه بأنه خان الايمان ودنس الكنيسة بعقيدة خبيثة (فليسمع الذين ينادون بعصمة باباواتهم فى تعاليمهم) ·

ولم يكتف يوستنيانوس بذلك بل عقد مجمعا ثانيا سنة ٥٥١ م دعا اليه أساقفة افريقية والكريكيوم وأمرهم بشجب مجمع خلكيدون فلم يوافقه منهم كثيرون · وفى تلك السنة نفسها أصدر أمرا ثانيا ضد مجمع خلكيدون أشد من الأول وطلب من أسقف رومية أن يوقع عليه فأبى وفر واختبأ بكنيسة مار بطرس بالقسطنطينية فطارده يوستنيانوس ولكنه تمكن من الهروب الى خلكيدون وبعد ذلك أمنه الملك على حياته ليحضر مجمعا

مسكونيا عقده فى القسطنطينية سنة ٥٥٣ م وحضره ١٦٥ أسقفا خلكيدونيا حكموا جميعهم على الفصول الثلاثة · وكان ويجيليوس فى المدينة متمارضا فعرضت عليه قرارات المجمع ليوقعها فامتنع فنفاه القيصر ثم ندم وأمضى تلك الأحكام وعاد الى كرسيه ولكنه وجد أساقفته قد انفصلوا عنه لأنه بامضائه على ذلك القرار قد رذل مجمع خلكيدون ·

وقد حضر هذا المجمع أبوليناريوس البطريرك الامبراطورى بالاسكندرية أما الكنيسة القبطية فمع كونها كانت ترى قرارات يوستنيانوس طبقا لاعتقادها ولكنها أبت أن تشترك معه فى تدبير المكائد للآخرين ورفضت منشوره رفضا قطعيا اذ كانت قد آلت على نفسها أن لاتحرم انسانا انتقل من هذا العالم الى العالم الآخر بل اذا رأته مخطئا اكتفت باشهار أخطائه ·

فالآن لنا فرصة نقارن فيها بين تصرفات أساقفة رومية وتصرفات بطاركة الاسكندرية وكيف أن هؤلاء كانوا يترفعون عن السعى للايقاع بالغير بينما كان أولئك لا يجدون فرصة يتمكنون فيها من نشر الأذى على رؤساء الكنائس الأخرى حتى ينتهزوها · ولنا أيضا أن نقارن بين ارتياب أساقفة رومية بايمانهم وتمسك بطاركة الاسكندرية به · وكيف لايخجل الغربيون اذا ذكروا مع تاريخ أسقفهم ويجيليوس تاريخ ديوسقوروس البابا الاسكندرى ورأوا البون العظيم بين تلون ذاك وثبات هذا وكيف أن التهديدات المرة لم تزعجه بل استمر محافظا على ايمان كنيسته الى أن جاد بآخر أنفاسه · وأما أسقفهم فكان يتلون كل يوم بلون وسهل عليه أخيرا أن يسلم فى ايمانه حبا فى سواد عيون الفخفخة الكاذبة ·

القرن السابع

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) أنسطاسيوس (٢) آندرونيقوس
(٣) بنيامين١ (٤) أغاثو
(٥) يوحنا٣ (٦) اسحق
(٧) سيمون١

---

(١) أنسطاسيوس ـ البطريرك السادس والثلاثون :

كان من أبوين وجيهين أقيم بعد البابا دميان وكان رجلا حكيما مزينا بالفضائل وكان قسا فى كنيسة الانجيليين وكنيستى قزمان ودميان بالاسكندرية مشهورا بالتضلع فى كتب البيعة وفهم الأمانة فأجمعت كلمة الشعب على انتخابه فى أبيب سنة ٣٠٩ ش و٦٠٣م فى عهد فوقا قيصر المغتصب وقد عرفنا فيما سبق أن البطاركة كانوا ممنوعين من الدخول الى الاسكندرية ولكن هذا البابا كان قوى القلب يمضى الى المدينة ويدخلها فى كل وقت ويرسم فيها الكهنة ٠ ثم أخذ يعمل مع قومه حتى استرد ما استولى عليه الملكيون من كنائس المتأصلين ورمم منها ماانشعث فى أيام الاضطرابات ٠ فأخذ البيعة التى هى بربوة اثارات وبيعة على اسم رئيس الملائكة ميخائيل ٠ وكان له تعب عظيم من جماعة تيباريوس وابلساريوس الذين صار عليهم اسم قيانوس وأصحاب المجمع الخلكيدونى٠

وعين وقتئذ رجل شرير يدعى أولوجيوس بطريركا للملكيين وكان حانقا على البابا انسطاسيوس جدا وحاول أن يوقع به ولكن الله لم يسلمه فى يديه وفى الغالب كانت وظيفة البطاركة الملكيين سياسية أكثر منها دينية بدليل أنه لم يكن لهم عمل سوى تنفيذ ارادة الامبراطور واتفق أنه قام حينئذ رجل يدعى فوقا وقتل القيصر وجلس موضعه وكان ظالما عاتيا فكتب له أولوجيوس فى البابا أنسطاسيوس بأقوال كاذبة منها قوله أن البطريرك لما كرز فى بيعة يوحنا المعمدان حرمه هو وجميع الملوك المنتصرين للمجمع الخلكيدونى فلما سمع فوقا ذلك كتب لوالى

الاسكندرية أن يغتصب من البطريرك بيعتى قزمان ودميان وجميع أوانيها ويدفعها لأولوجيوس • فأخذت البيعة بالقوة ورجع البابا أنسطاسيوس الى الدير وقلبه ملآن بالحزن •

وفى أيام البابا أنسطاسيوس افتتح كسرى ملك الفرس بلاد الشام ووصل حدود مصر يتهددها ويتوعدها وكان كثيرون من مسيحيى سوريا قد فروا الى مصر ملتجئين اليها من ظلم الفرس فعمل البابا أنسطاسيوس كل مافى وسعه لتخفيف ويلاتهم وتنفيث كربهم • وكان البطريرك الرومانى الذى خلف تاودروس الذىجاء بعد اولوجيوس يدعى يوحنا الملقب (بالرحيم) وذلك لأنه كان على جانب عظيم من رقة الأخلاق المسيحية فتسابق مع البابا الاسكندرى فى مؤاساة هؤلاء المنكوبين والحق يقال أن يوحنا قدم مساعدة تذكر للبابا أنسطاسيوس اذ كان أوسع منه ثروة لأن البطاركة الملكيين كانوا واضعين أيديهم على ايراد الكنائس القبطية ودخلها كله ولم يكن لدى البطريرك المصرى سوى ما يجمعه من المحسنين لسد احتياجاته • فسار البابا أنسطاسيوس مع يوحنا بغاية الوداد والصداقة الخالصة من كل نفاق لما تبينه فيه من التقوى الصحيحة •

وكان البابا أنسطاسيوس فى أيامه يشتهى أن يجمع الله بين الكرسيين الاسكندرى والأنطاكى الذى فرقه بطرس فسمع الله لطلبته ومات بطرس المذكور وجلس عوضه على كرسى أنطاكية رجل صالح عالم يدعى أثناسيوس فسبق البابا أنسطاسيوس وكتب له سنوديقا مملوءا حكمة وجعله فيه شريكا له وأخا فى اصلاح ما أفسده بطرس الضال فقبل انسطاسيوس رسالته وجمع الأساقفة وأخبرهم بالأمر فسروا جميعا لعودة الاتحاد بين كرسيى ثيودسيوس وساويرس اللذين كانا يعملان لتأييد الايمان جنبا الى جنب فقام الأب أثناسيوس وأخذ معه خمسة أساقفة وسار فى موكب الى الاسكندرية فلما وصل اليها وبلغ خبره البابا الاسكندرى قام باكليروسه وخرج ماشيا حتى تلقاه بالتسبيح والفرح ودخلوا جميعا الدير القائم على ساحل البحر شرقى بحرى الاديرة وجلسوا هناك بسلامة ثم أقاموا الصلاة وتناولوا من الأسرار المقدسة وخطب فيهم الأب أثناسيوس خطبة بليغة واستمر ضيفا كريما لدى البابا أنسطاسيوس شهرا كاملا وهما يتحاوران ويتسامران فى الأمور الروحية ٠

وكان البابا انسطاسيوس مهتما بأمور البيعة بحرص عظيم ومشتغلا بالعلوم الروحانية وأقام على الكرسى اثنتى عشرة سنة حافظا للامانة المستقيمة كتب فيها اثنى عشر كتابا رتبها على حروف الهجاء القبطى أى أنه ابتدا فيها أول سنة بحرف (الفا) وفى الثانية بحرف (فيتا) وهكذا الى أن كتب الكتاب الثانى عشر ووسمه بحرف (لفلا) ثم أراد السيد المسيح أن ينقله الى كورة الأحياء فى الثالث والعشرين من كيهك سنة ٣٢٠ ش و٦١٤م ·

(٢) أندرونيقوس ـ البطريرك السابع والثلاثون :

جلس على الكرسى بعد البابا أنسطاسيوس فى أمشير سنة ٣٢٠ ش و ٦١٤م فى عهد هرقل قيصر وكان عالما غنيا جدا محبا للصدقة شماسا فى كنيسة الانجيليين وكان أهله من مقدمى المدينة حتى أنهم ولوا ابن عمه ديوان الاسكندرية ومن أجل قوة سلطانه لم يقدر الهراطقة أن يخرجوه من الاسكندرية الى الأديرة فأذنت له الحكومة بالبقاء فى الاسكندرية بغاية ما يكون من الحرية فجلس فى قلاية فى بيعة الانجيليين أيامه كلها ولذلك مد السلام رواقه على الكنيسة المصرية طول حياته ·

وكان كسرى ملك الفرس قد استولى على مصر سنة ٦٢٠ م ولشدة تضيقه على المصريين لم يتمكنوا من اقامة خلف للبابا أندرونيقوس وكان يوحنا بطريرك الملكيين قد توفى قبل البطريرك المصرى بسنة ولم يتمكن هرقل قيصر الرومان لمشغوليته بالدفاع عن القسطنطينية عاصمة ملكه أن يعين لهم بطريركا فى مصر فاستمرت الكنيستان المصرية والرومانية بلا رئيس حتى شرع المصريون فى انتخاب بطريرك لهم فتنبه الأروام وأرادوا محاكاتهم خوفا من أن يستقل البطريرك المصرى ويستولى على ايراد الكنائس الذى صار فى حيازتهم ولم ينتظروا أمر القيصر بل انتخبوا رجلا يدعى جرجس ورسموه بطريركا لهم أما الأقباط فوقع اختيارهم على رجل خائف من الله مؤمن اسمه بنيامين من دير يعرف بدير قنوبوس أتى اليه فى ذلك الوقت لأن هذا الدير لم تخربه الفرس مع ما خربوه · وكان بنيامين هذا من أهل مريوط (١) من عائلة اشتهرت بالثروة الكثيرة والنفوذ الواسع مما ساعد هذا البطريرك فى ما قام به من الأعمال العظيمة لخير الكنيسة

(١) هى الآن تتبع الشيتة بمركز كفر الدوار وخربت من زمان بعيد ·

وجعل له شهرة فائقة وكان فى الدير تحت ارشاد شيخ قديس يدعى ثاؤنا رباه بخوف الله حتى برع فى العلوم الروحية وبلغ درجة فائقة فى القداسة وكانت أكثر قراءته فى انجيل يوحنا حتى حفظه ورأى فى احدى الليالى فى نومه رجلا فقيرا وقف به وقال له « افرح يابنيامين الحمل المتواضع والراعى معا الذى يرعى قطيع السيد المسيح » فاضطرب مما سمع وأخبر به معلمه فأفهمه أن هذا صوت شيطان ليقوده الى الكبرياء ثم قال له ان لى خمسين سنة فى هذا الدير ولم أر شيئا مثل ذلك ٠

غير أن بنيامين كان يتزايد كل يوم فى الفضيلة حتى كان وجهه يتلألأ كوجه ملاك ولكثرة اعجاب معلمه به أخذه ومضى به الى البابا أندرونيقوس وشرح له حاله فطلب البابا أن يقدمه اليه فلما شاهده رأى نعمة المسيح عليه فسأله عما شاهد فروى له الحقيقة فأمسكها البطريرك تلك الليلة ولما كان الصباح عزم ثاؤنا على الرحيل للدير ببنيامين فمنعه البطريرك عن أن يأخذه وأبقاه لديه ثم رسمه قسيسا وصيره وكيلا له وفرح به البابا أندرونيقوس فرحا عظيما ولما دنت وفاته أوصى أن يكون بعده ثم تنيح البابا أندرونيقوس بعدما قضى على كرسى البطريركية ست سنين ورأى اضطهاد الفرس الكريه للمسيحيين وصبر على ما حل به ومات شيخا وهو حافظ الأمانة المستقيمة أمانة آبائه وكانت نياحته فى ٨ طوبه سنة ٣٢٥ ش و ٦٢٠ م ٠

(٣) بنيامين ١ ـ البطريرك الثامن والثلاثون :

جلس على الكرسى الاسكندرى فى أمشير سنة ٣٢٥ ش و ٦٢٠ م فى عهد هرقل قيصر بعد معلمه أندرونيقوس ٠ وجميع بطاركة الكرسى المرقسى قبل البابا بنيامين كانوا من الاسكندرية وهو أول بطريرك أقيم من المدن والبلاد وكان مسقط رأسه مريوط كما ذكر وكانت حياته كلها سلسلة أوجاع وآلام ٠ فانه لم يكد يرسم بطريركا حتى أوفد هرقل قيصر الرومان واليا الى أرض مصر يدعى كيروس ليكون بطريركا وواليا عليها٠ ولكى ينال هرقل رضاء المصريين كلف كيروس بنشر مشروع الاتحاد الذى سيأتى ذكره القائل بأن للمسيح « مشيئة واحدة » بدل قولهم « طبيعة واحدة » ٠ فأبى البابا بنيامين قبول أى تعليم يؤثر على ما تقلده من آبائه٠ فأخذ الوالى فى اضطهاده حتى رأى حياته فى خطر وقيل أن ملاك الرب تراءى له وقال له « اهرب أنت ومن معك من هنا لأنه شدائد عظيمة تنزل

عليكم ولكن تعز فلا يستمر هذا الجهاد سوى عشر سنين » فكتب منشورا الى سائر الأساقفة فى أقاليم مصر ينصحهم فيه أن يختفوا من وجه التجربة الآتية عليهم · وجمع كهنة الاسكندرية وأوصاهم بالسهر على الرعية ثم خرج من طريق مريوط وهو ماش على رجليه ليلا ومعه اثنان من تلاميذه حتى وصل الى اسقيط القديس مكاريوس وكان هذا عقب الخراب الذى دهم هذه البرية من الفرس فلم يجد فيها الا نفرا قليلا فتركهم وانصرف الى الصعيد وسكن هناك فى بلاد تيباس واختفى فى دير صغير حتى تمت العشر سنين ·

وفى هذه الأثناء هجم العرب على مصر بقيادة عمرو بن العاص واستولوا عليها وقرب عمرو منه كبار الأقباط وكان بينهم رجل يسمى شنوده فتقدم اليه وأعلمه بخبر البطريرك وما كان من أمر هروبه واختفائه وطلب منه ان يأمر بعودته فلبى طلبه وكتب أمانا وأرسله الى جميع الجهات يدعو فيه البطريرك للحضور دون أن يخاف مطلقا ولما حضر وذهب لمقابلته ليشكره على هذا الصنيع أكرمه وأظهر له الولاء وأقسم له بالأمان على نفسه وعلى رعيته وقيل أنه طلب منه أن يصلى لأجله حتى اذا رجع منتصرا من حروبه الأخرى يجيبه الى كل ما يطلبه فدعا له البطريرك وتم لعمرو ما أراد بدعائه وعزل البطريرك الذى أقامه هرقل · ورجع البابا بنيامين الى مركزه معززا مكرما وهكذا عادت المياه الى مجاريها بعد غياب ثلاث عشرة سنة منها عشر سنين فى عهد هرقل وثلاث سنين قبل أن يفتح المسلمون الاسكندرية وأعطاه عمرو الكنائس التى اغتصبها الأروام ثم أخذ فى جذب الذين أضلهم هرقل فرجع منهم كثيرون وظهر الأرثوذكسيون الذين كانوا مختفين حسب مشورة بطريركهم ثم ظهر ملاك الرب للبطريرك طالبا منه ان يبنى بيعة بدير مطرا لأنه لم يتجنس بأفعال الخلكيدونيين الرديئة دون كل الكنائس والأديرة التى هتكوا فيها الأعراض واهرقوا فيها الدماء ·

ثم وجه البطريرك التفاته نحو الأديرة التى أخربها الفرس أثناء تملكهم لمصر واجتهد فى تصليحها فرمم عمارات أديرة شيهات بوادى النطرون فبنى دير الأنبا بيشوى وأعاد اليه رهبانه ولما نما عددهم وأخذوا قسطهم من الراحة تصحبهم الى دير أبى مقار فرمموه وبنوا به كنيسة عظيمة ودعوا البطريرك لتكريسها · وكان شنوده كبير الأقباط حينئذ قد كلف البابا بنيامين ببناء كنيسة على اسم القديس مرقس ولكن الأجل لم يفسح له ·

وكان مع هذا البطريرك انسان مملوء نعمة وحكمة اسمه أغاثو وكان قسا فى الكنيسة وهو من أهل مريوط كان فى زمن هرقل يتزيا بزى العلمانيين فى مدينة الاسكندرية ويطوف فى الليل ليثبت الأرثوذكسيين المختفين ويقضى حوائجهم ويناولهم من الأسرار المقدسة وفى النهار كان يحمل على كتفه قفة فيها آلات النجارة ويتظاهر أمام المضطهدين بأنه نجار حتى لا يعترضوا سبيله • فمكث هكذا ١٠ سنين الى حين ظهور المسلمين ورجوع البابا بنيامين فجعله وكيلا له فى تدبير البيعة • وأصيب البابا بنيامين بمرض فى رجليه استمر فيه سنتين وقبل وفاته أرسل مطرانا جديدا الى الحبشة ومعه راهب اسمه تكلاهيمانوت عرف بقداسته وتقواه ولا زال الحبش يكرمونه ويجلونه الى هذا اليوم ويقولون انه أول من أوجد الرهبنة فى بلادهم • ثم لحق البابا بنيامين بآبائه وتنيح فى اليوم الثامن من طوبه سنة ٣٦٤ ش وسنة ٦٥٩ م بعد أن جلس على كرسى البطريركية تسعا وثلاثين سنة •

أما البطريرك الرومانى كيروس فقد مر بنا خبر عزله وقيل أنه لشدة حسرته لسبب خيبته وفشله مص خاتما مسموما فمات لوقته ولا يعلم من من القيصر أو الملكيين بمصر اختار خلفه بطرس الذى لما عرف أن للبابا بنيامين السلطة والرئاسة فى مصر لم يعجبه البقاء فيها فآب الى القسطنطينية مع المهاجرين اليها واستمر الكرسى الرومانى بعد بطرس خاليا مدة ستين سنة •

(٤) أغاثو ـ البطريرك التاسع والثلاثون :

جلس على كرسى البطريركية بعد معلمه بنيامين وكان صالحا كاسمه وهو من الاسكندرية وأحزنه كثيرا رؤية أولاده فى أيدى الأمم وتحت سلطانهم • ولما فتح العرب عدة ولايات وجزر للروم فى أمشير سنة ٣٦٤ش وسنة ٦٥٩ م فى عهد خلافة على بن أبى طالب • نهبوا كل ما فيها وسبوا أهلها وأتوا بهم الى مصر فكان البابا أغاثو يبتاع منهم الرجال والنساء بالفضة والذهب ويأتى بهم الى بيوت المسيحيين خوفا من أن يسلموا •

وقد تضايق هذا البابا كثيرا من تصرفات رجل اسمه ثيودوسيوس من أتباع كنيسة الأروام بمصر كان رئيسا فى جماعة الخلكيدونيين فهذا مضى الى دمشق وقدم رشوة وافرة الى الخليفة يزيد بن معاوية وأخذ منه أمرا يتسلط به على شعب الاسكندرية ومريوط وكل مايتبعهما واستمد

هذا الرجل سلطته من الحاكم الاسلامى بواسطة الخداع والمكر فسعى فى مضايقة البابا أغاثو وأقلقه وطلب منه مالا وأخذ منه ٣٦ دينارا جزية كل سنة عن تلاميذه وقرر عليه دفع كل ما ينفقه على النواتية فى الأسطول . ثم ضيق عليه ضيقا عظيما فما كان البابا يستطيع الخروج من باب قلايته حتى أن ثيودوسيوس أوصى أتباعه قائلا « اذا رأيتم بابا الأرثوذكسيين خارجا ليلا أو نهارا ارجموه بالحجارة واقتلوه وأنا المجاوب عنه » وكان غرضه من ذلك أن يكون بطريركا عوضه . أما البابا أغاثو فكان يصلى من أجله حسب وصية السيد المسيح .

وفى أيام هذا البطريرك عمرت البيعة التى على اسم أبى مقار وكثر الاخوة حتى انهم بنوا القلالى بقرب البهلس . وحدث أن رجلا تقيا حكيما يدعى يوحنا من سمنود كان راهبا بدير أنبا مكاريوس فى الاسقيط أصيب بمرض عضال عديم الشفاء وفى ذات ليلة رأى فى نومه انسانا مهيبا لمسه فأبرأه وخاطبه بأن يقوم بالواجب الذى سيكلف به فقام من وقته ومضى الى دير من أعمال الفيوم ومعه تلميذاه واختفى هناك . فظهر للبابا أغاثو فى رؤيا أيضا من قال له ادع اليك القس يوحنا ليعينك ويساعدك وهو الذى يجلس بعدك على الكرسى . فانفذ كهنته الى أنبا مينا أسقف الفيوم يطلب منه أن يرسل يوحنا اليه . ومع أن أسقف الفيوم كان يحب يوحنا الا أنه لم يستطع مخالفة البطريرك . فأتى يوحنا الى الاسكندرية ففرح به البابا وأشار عليه البعض بأن يرسمه أسقفا لبعض الكراسى ولكنه أبى .

وقضى البابا أغاثو بقية أيامه مهتما برسامة الكهنة المستحقين للشرطونية الخائفين من الله والناس يشكرون الله على أفعاله حتى أكمل كل أيامه بشيخوخة حسنة وأقام ١٧ سنة على كرسيه وتنيح فى ١٦ هاتور سنة ٣٨٣ ش وسنة ٦٧٧ م وجعل جسده مع البابا بنيامين .

وحدث عندما توفى هذا البطريرك أن أسرع ثيودوسيوس الخلكيدونى الى البطريركية وأوصد جميع أبوابها وختمها بالشمع الأحمر بدون مسوغ شرعى وبدون قانون يخول له هذا التداخل المذموم واستاء الأرثوذكسيون من هذه الوقاحة وقاومه أرخن بسخا يدعى اسحق مستعينا عليه بوالى سخا ورفع الأرثوذكسيون الأمر الى الوالى المسلم فنظر فى الأمر ورفع هذا الحيف الثقيل الى أن انتقم منه الرب بضربة قوية فى أحشائه وهى علة الاستسقاء وصار يأكل بدون شبع حتى مات ميتة سيئة .

(٥) يوحنا ٣ - البطريرك الاربعون :

بعد نياحة البابا أغاثو كان الآب يوحنا قد حاز صيتا حميدا واكتسب شهرة فى القداسة والفضيلة فانتخب بالاجماع لكرسى البطريركية فى أول كيهك سنة ٣٨٣ ش و٦٧٧م فى عهد خلافة معاوية بن أبى سفيان وكان ابن ثيودوسيوس الخلكيدونى قد تولى عوضه ولكنه كان أحسن منه أخلاقا وصار للبابا يوحنا كالولد وكان يحبه ويثق به ويهديه الى الطرق المستقيمة ·

وكانت معظم الكنائس الأرثوذكسية فى الاسكندرية حينئذ فى يد الملكيين منذ وضع اليد عليها ثيودوسيوس فلما استولى عبد العزيز على مصر اتخذ له كاتبين أرثوذكسيين وهما أثناسيوس وكان له ثلاثة أولاد وهو من أهل الرها من أعمال سورية والآخر اسمه اسحق له ولد واحد من شبرا · فكتب البطريرك الى هذين الكاتبين يعرفهما حال الكنائس وكيف هى بيد الخلكيدونيين الذين لقلة عددهم لم يكونوا يشغلونها بل أغلقوها وختموها بالشمع حتى لا يصلى فيها الارثوذكسيون · واستخدم هذان الكاتبان نفوذهما وأرسلا رسلا الى الاسكندرية كلفاهم بفتح الكنائس وتسليمها جميعها للبطريرك القبطى ·

وكان هذا البابا بهى الطلعة يلوح لكل من يرى وجهه أنه يرى وجه ملاك وقد أوتى من عند الله نعمة شفاء المرضى وعفة النفس والجسد ومسالمة جميع الناس حتى بلغ صيت أفعاله الحميدة الى العظماء فأجزلوا له الهدايا · وحدث أن الوالى وهو سعيد بن يزيد مضى الى الاسكندرية كعادة من يتولى ليأخذ خراجها بدون أن يبلغ خبر وصوله اذن البطريرك فلم يخرج لمقابلته فسعى حينئذ قوم أشرار من الأروام فى مقدمتهم ثاوفانيس وهو زوج أخت ثيودوسيوس الخلكيدونى وقالوا للوالى أن البطريرك أبى الاحتفاء بك لكثرة تبجحه وازدياد كبريائه ووفرة ماله · فغضب الوالى واستدعاه اليه وأوقفه بين يديه وسأله عن سبب تأخيره عن الخروج للقائه فأجابه « يعلم الله أننى لم أفعل هذا لغلظ رقبة ولكن لعدم علمى وذلك لضعفى ولعدم امكانى الخروج من المدينة الى موضع آخر » فاضطرم غيظ الوالى وسلمه لجنوده الى أن يقوم بدفع مائة الف دينار · وكان ممن استلموه رجل يدعى سعد عديم الرحمة قاسى القلب فأخذه الى بيته أول يوم فى جمعة الآلام ليعذبه حتى يقوم بالمال ·

وكان مع البطريرك رجلان من أولاد الأخيار أراس القس الأمين على مال البيعة معروف بالدعة عند كل أهل المدينة والشماس كاتبه رجل حكيم محب للناس . فلما أوقف ذلك الرجل البطريرك أمامه وقال له أريد منك المائة الف دينار التى أمر الوالى أن تقوم بها فأجابه البابا بسكينة وهدوء « أتطلب منى مائة الف دينار ولا أملك منها الف درهم لأن الهى فى شريعتى أمرنى أن لا أقتنى المال لأنه أصل كل الشرور . فكل ما تشاء افعل جسدى بيدك ونفسى بيد الله » فلما سمع الكافر ذلك حنق على البابا للغاية وأمر أن يحضر له وعاء نحاس مملوءا جمرا وأوقف البطريرك عليه ليقول انه يقوم بالمال حتى ذاب شحم القدمين من قوة النار ولكن البطريرك لم يتحرك ولم يلفظ كلمة استغاثة كأنه كان واقفا على وتير الفراش غير أن الله جلت قدرته أوقع بزوجة الوالى ضيقا فأنفذت رسولا يقول له « احذر أن تفعل سوءا بالبطريرك رجل الله لأنى بليت الليلة بسببه » .

فأمر الأمير سعيد بأن لا يمسه بسوء بل يجتهد ليأخذ منه ما يقدر عليه بلطف فعاد سعيد الى بيته وكان يوم ثلاثاء البصخة وأخذه الى السجن والأغلال فى عنقه والسلاسل فى يديه ورجليه وجعل يتهدده بأن يدفع المال واستحضر له ثياب يهودى وأقسم انه اذا لم يدفع ماهو مقرر عليه يلبسه اياها ويلطخ وجهه برماد ويطوف به حول المدينة . أما البطريرك فكان يجاوبه بكل شجاعة قائلا « لا تستطيع أن تمد يدك الى بسوء بغير أمر الله » فقال له انى أترك نصف المبلغ فأدفع النصف الآخر لكى أطلقك . فأجابه البابا كل ما أملكه هو ثيابى التى على جسدى واستمر الرجل ينازعه الى أن انتهى بالقيمة المطلوبة الى عشرة آلاف دينار . فأفهمه البطريرك أنه لا يقوى على دفعها .

واتصل الخبر بالكتاب الأقباط الموظفين بالاسكندرية أن المبلغ انتهى الى عشرة آلاف دينار فأوعزوا اليه سرا أن يقبل الدفع وهم يجمعونها خوفا من أن يجرى على البيعة اضطهاد بسبب ذلك ثم تقدموا الى الوالى وطلبوا منه أن يحضر البطريرك أمامه ليسمع قوله فلما شاهد وجهه الملائكى رق لحاله واستحضر له وسادة ليجلس عليها ثم قال له الوالى « السلطان لا يقاوم » فأجابه البطريرك « يطاع السلطان فيما يجب ويخالف فيما يبغض الله فقد قال الانجيل « لا تخافوا ممن يقتل الجسد وليس له سلطان على النفس ولكن خافوا ممن يقدر أن يهلك النفس

والجسد جميعا يعنى الله القادر على ذلك وحده » فقال له الوالى « الهك يحب الحق والصدق » فأجابه البطريرك « الهى كله حق وليس فيه كذب بل يهلك من ينطق بالكذب » فقال له الوالى « كل مادفعه لك النصارى فادفعه لى ولا أطلب منك سواه » فأشار الموظفون على البطريرك أن يقبل فقبل وأطلقه الوالى بكل كرامة ففرح المؤمنون ونال أعداء البيعة خزى جسيم ٠

وخرج البطريرك من دار الامارة راكبا والأرثوذكسيون يحيطون به واستمروا يسبحون ويرتلون حتى وصلوا الى البيعة وكان يوم خميس العهد فصلى على اللقان وغسل أرجل الشعب وأقام الصلاة وقرب الأسرار ورجع الى قلايته بسرور زائد يمجد الله ٠

أما ثاوفانيس رئيس مريوط الذى اشتكى البطريرك فغضب عليه الأمير لاشتهار فضائحه وسلمه الى أحد كتابه ليلقيه فى السجن ثم أرسل من يقتله بعد أن عذبه عذابا شديدا ٠ وأعطى الله البطريرك حظوة ونعمة لدى الوالى فأمر فى جميع المدينة أن لا يخاطب أحد البطريرك الا باللين ولا ينبغى لأحد أن يذكر أمامه عنه كلمة سوء وأن لا يتعرض له أحد فى دخوله ولا فى خروجه ٠ وقد ساعد الرب البطريرك فجمع هو والأراخنة والكتاب المؤمنون وجميع الشعب الأرثوذكسى حتى أوفى الأمير ماقرر له، وبعد ذلك اهتم مع رعيته ببناء بيعة القديس مارمرقس الانجيلى وأتمها فى ثلاث سنين بكل زينة واشترى لها دورا كثيرة وأملاكا بمصر ومريوط والاسكندرية وبنى طاحون كعك ومعصرة زيت حار ٠

ومما حدث فى أيامه اشتراك الأرثوذكسيين مع أهل أغراوة وأهل اسخيطس لأنهم كانوا خلكيدونيين وكان هذا البابا كثير الصدقات نحدث فى زمنه غلاء استمر ثلاث سنين واعانه الله على القيام بحال ضعفاء المدينة طول تلك المدة ولولاه لهلكوا من شدة الجوع فكان يدفع لهم قوتهم دفعتين فى كل جمعة ويدفع لهم أيضا دراهم ٠

وقد شاء الرب أن يصاب بمرض النقرس فى رجليه فتعذب منه كثيرا وسار الوالى الى مصر فسار معه الى أن وصلا اليها فلحقه نخس فى جنبه فأخبر الوالى بذلك فحزن عليه وأنفذ الكتاب ليفتقدوه وأعدوا له مركبا لينحدر الى الاسكندرية وحال وصوله كان الآباء الأساقفة قد علموا بخبر مرضه فدخلوا اليه وكان بصحبتهم غريغوريوس أسقف القيس ويوحنا

أسقف نقيوس ويعقوب أسقف أرواط ويوحنا أسقف سخا وتيدر أسقف مليدس وجماعة من الشعب وكانوا كلهم فى حزن عميق لعلمهم بدنو أجله ثم حملوه الى بيعة مار مرقس التى بناها هو وأدخلوه أمام المذبح الكبير فوقف بقوة الروح وقال صلاة الشكر وبعد أن أكملها اعترته غيبوبة فحملوه الى مخدعه وفيه أسلم الروح فى ١٠ كيهك سنة ٣٩٢ ش وسنة ٦٨٦ م وجعل جسده فى المكان الذى بناه لنفسه قبل نياحته فى كنيسة مار مرقس الرسول ·

وبعد نياحته أصدر عبد العزيز أمرا يقضى فيه على الأقباط بأن لاينتخبوا بطريركهم الا فى بابيليون وكانوا قبلا ينتخبونه فى الاسكندرية ومن ذلك الحين لغاية القرن الحادى عشر والبطاركة ينتخبون ببابيليون ولكن رسامتهم تتم فى كنيسة الملائكة بالاسكندرية كما أنه على البطريرك المنتخب أن يدفع مبلغا من المال لكنائس الاسكندرية لأجل تعميرها وحفظها من الزوال ·

(٦) اسحق - البطريرك الحادى والأربعون :

وكان قبل نياحة البابا يوحنا أنه طلب من الرب أن يرشده الى من يصلح للجلوس بعده على الكرسى ولما علم عن أخ تقى متعبد فى دير ابى مقار كان قد تتلمذ لزكريا ايغومانس ذلك الدير والذى ارتقى فيما بعد الى كرسى أسقفية مدينة سياس فكتب البطريرك وأحضره اليه وطلب منه أن يكتب كتابا فأفسده حتى لا يعين فى وظيفة ما زهدا منه فى مجد العالم فلما علم البطريرك نيته قال له حسنا ماكتبته ووضعه تحت عنايته وكان هذا الراهب يدعى اسحق مجتهدا فى أعماله وفى الكتابة والنسخ فأشركه معلمه معه فى خدمة البيعة وحدث بعد نياحة البطريرك انه اجتمع الأساقفة وفى مقدمتهم غريغوريوس أسقف القيس ويعقوب أسقف أرواط ويوحنا أسقف ذيقوس وجماعة من الشعب وتشاوروا مع كهنة الاسكندرية ومع الكاتب المتولى واتفقوا على أن يقدموا الشماس جرجس من سخا بطريركا بدون أخذ رأى الوالى وكان حينئذ عبد العزيز ابن مروان وقالوا فى أنفسهم ان تقمقم علينا الوالى أخبرناه اننا اقمنا جرجس بطريركا بوصاية سلفه يوحنا · ثم أخذوا الشماس وقسموه قسا والبسوه اسكيم الرهبنة وأذاعوا الخبر بأنه غدا يقام البطريرك وغاب عن ذاكرتهم قول الرب « فى قلب الانسان مشورات كثيرة ولكن مشورة الرب هى التى تثبت » ·

فلما كان الغد اجتمعوا بارشدياقن المدينة وكان اسمه مرقس وهو رجل فاضل فمنعهم وقال ان لم تحضروا يوم الأحد كما جرت العادة لا أرسمه · وحينئذ وصل قوم من أتباع الوالى وطلبوا أخذ البطريرك الذى رسموه ليمضوا به الى الوالى فى مصر فساروا به وهناك ظهر أن الذى أوصى به البابا يوحنا هو اسحق لا جرجس فغضب الوالى وأمر بتقديم من سبقت الوصاية عليه وقد حاول الشماس أن يدفع أموالا يستميل بها الوالى الى حزبه ولكنه لم يفلح فقطعه الأساقفة من درجته ثم عادوا الى الاسكندرية ووضعوا الأيدى على الأب اسحق وأجلسوه على الكرسى فى نفس الشهر والسنة اللذين توفى فيهما سلفه فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان ·

ومن أمر هذا البابا أنه ولد فى شبرا من أعمال الغربية وقيل من البرلس من أبوين اشتهرا بالغنى والشرف ولما تقدم قليلا فى العمر أدخل المدرسة فكان فيها آية فى العلم والتقوى حتى عين كاتبا فى الديوان فنال ثقة جميع رؤسائه وأصبح معروفا بالصفات الحسنة عند الجميع · وكان فى عيشته متقشفا للغاية يلبس على جسده من داخل لباس شعر وفوقه رداء فاخر وكان يكتفى من الطعام بما يسد سغبه ·

وقد حركه والداه الى الزواج كثيرا بدعوى اقامة نسل ولكنه أبى وتبينت أغراضه السامية عندما استعفى من وظيفته وقصد دير أبى مقار وتتلمذ للأسقف زكريا وقد لاح له من جمال وجهه وبهاء طلعته وحسن صفاته أنه من عائلة ذات شرف فخشى سطوة أهله وأرسله الى الطرانة ليقيم عند أحد الكهنة الأفاضل حتى يقف على حقيقة أمره ·

وكان ذووه بعد مبارحته لهم قد أخذوا يبحثون عليه فى كل مكان ولا سيما فى الأديرة حتى كلفوا البطريرك بأن يساعدهم فى التفتيش عنه ولكنهم لم يفلحوا ولم يعثروا له على أثر فحزنوا عليه حزنا مفرطا · وبعد ذلك استدعاه الأسقف زكريا وألبسه أسكيم الرهبنة ووضعه تحت ارشاد شيخ يدعى الأنبا ابراهيم وأمره بأن يذهب ليختفى فى دير (باماهو) حتى ينتهى الانزعاج الحاصل بسببه · فاستمر الشاب اسحق فى ذلك الجبل مدة ستة أشهر خطر له فى نهايتها أن يزور أهله ليهدى بالهم ويوفر عليهم تعب البحث عنه · فعرض الأمر على الشيخ ابراهيم وأقنعه به فسارا معا الى بلده حتى صارا بالقرب منها وقد آذنت الشمس بالمغيب فمالا الى

مكان يملكه أهله ليبيتا فيه فوجدا راهبا استقصى منه عن أحوال أهله فحدثه بما جرى لهم بعد فراقه ولذلك عرفه بنفسه وطلب اليه أن يستدعى له رجلا يدعى الشماس فيلوثاوس من أقربائه وكان مملوءا من خوف الله فلما تقابل معه طلب منه أن يخبر أهله بأمر مجيئه بشرط أن يضمن له عدم حجزهم اياه والسماح له بالرجوع الى الدير فقبل ذلك وانطلق الى والدى اسحق وأخبرهما بالامر فذهبا الى مكان اقامته ومعهما جمع كثير من أهله ومعارفه وكانت ساعة التقائهم بها مفعمة بالسرور الزائد · ثم التمسوا منه أن يبقى عندهم شهرا فقبل وبعده رجع الى معلمه الاسقف زكريا ولبث عنده حتى استدعاه البطريرك اليه كما سلف ·

ولما جلس هذا البابا على الكرسى المرقسى اخذ فى اتمام واجباته فأقام البيعة الكبيرة التى للقديس مرقس وكانت حيطانها قد مالت وجدد محل البطريركية بالاسكندرية وعلى يديه تجددت كنائس عديدة للأرثوذكسيين لم يتمكنوا من أن يبنوها أولا وبنى بيعة بحلوان وسبب بنائها أن الوالى ابتنى له بها قصرا وأمر أراخنة الصعيد وسائر الأقاليم بأن يبنى كل واحد منهم لنفسه مكانا بحلوان وقد أصيب هذا البابا بمصائب متنوعة بعضها من أثناسيوس جابى الخراج ولكنه فيما بعد كف عن ايصال الاذى اليه عندما أشرف ابنه على الموت فاضطر أن يستدعى البطريرك ليصلى عليه وبواسطة صلاته نال ابنه الشفاء ·

وعقب ذلك حضر للبطريرك وفد من احدى ممالك السودان يشرح له سوء الحالة فى تلك البلاد ويقول له انه لم يبق عندهم من الأساقفة ما يكفى للخدمة الدينية ويطلب تعيين من يلزم · وكان حينئذ خلاف شديد بين ملكى النوبة وملك الحبشة وبسبب أن الأول كان مسيحيا بالاسم واتفق مع المسلمين على محاربة الثانى وغرضه من ذلك الحصول على العبيد المخصصين للجزية السنوية فخشى البطريرك أن يرسل أساقفة لئلا ينالهم أذى من جرى هذا الخلاف فرأى أن يكتب للملكين ليصطلحا ويكفا عن المشاحنة وكتب لملك النوبة الذى أظهر العداوة للمسيحيين يقول له « ان عليك مسئولية عظمى من الله اذا عملت على تعطيل بشارة الخلاص وتسببت فى خراب الكنائس الجنوبية واضمحلالها » ويظهر انه كتب اليه يحذره من التحالف مع المسلمين ·

فسعى قوم من أهل المكر لدى عبد العزيز والى مصر قائلين انه أخذ فى مكاتبة ملوك السودان والحبش ليتحد معهم على خلع نير المسلمين عن مصر فغضب الوالى وقبض على البطريرك وأمر بقطع رأسه ولكن بعضهم توسط فى الأمر ورجا الوالى أن ينتظر حتى تسترجع الخطابات ويعرف ما فيها . فأرجأ الوالى تنفيذ الحكم على البطريرك وانتهز كتاب الأقباط الماهرين تلك الفرصة وكتبوا خطابات قلدوا فيها خط البابا اسحق وسطروا بها كل ما فى الخطابات الأولى وحذفوا منها كل مايخص المسلمين وانما فعلوا هذا الأمر خوفا على البطريرك ولئلا يلحق البيعة ضرر . وقبل أن يصل البطريرك الى الوالى عرفوه أن الرسل حضروا ومعهم الخطابات فأسرع فى طلبهم وقرأ الكتب فلما وقف عليها لم يجد شيئا يذكر فسكن غضبه وأنفذ للوقت وأعاد البطريرك الى الاسكندرية لكنه حرمه فيما بعد من مزايا كثيرة . واستمر البطريرك بعد ذلك مجاهدا فى خدمة كنيسته حتى أنهى على الكرسى البطريركى ثلاث سنوات وتوفى فى اليوم التاسع من هاتور سنة ٣٩٥ ش و٦٨٩م وبعد نياحته جعل جسده فى المكان الذى أنشأه فى بيعة مار مرقس .

(٧) سيمون ١ - البطريرك الثانى والأربعون :

وبعد أن تنيح البابا اسحق كان الشعب والكهنة مهتمين فى من يقدموه بعده على كرسى البطريركية . فوقع بين كهنة مار مرقس الانجيلى وكهنة بيعة الانجيليين فى المدينة خصام . فبعضهم كان يزكى يوحنا الأيغومانوس بدير الزجاج بدعوى انه رجل عالم كاتب وآخرون يرشحون انسانا يدعى بقطر ايغومانوس دير تفسر وكان رجلا فاضلا وقد مال الكتاب الأقباط الى رأى كهنة بيعة الانجيليين لأنها هى البيعة الكبيرة وكان بها مائة وأربعون كاهنا غير أن الفريق الأول الذى رشح يوحنا كان يساعده الكاتب المتولى وكتب تادرس أرخن مدينة الاسكندرية الى الوالى يذكر لهم يوحنا ايغومانوس دير الزجاج وهو الذى وقع عليه الاختيار ليكون بطريركا .

غير أن ارادة الله لم تصادق على تعيين هذا أو ذاك بل أقامت رجلا كان فى دير الزجاج قديس خائف الله فاضل عالم يدعى سيمون من بلاد الشرق سريانى الجنس أرثوذكسى المذهب جاء به أبواه الى الاسكندرية منذ صبائه ودفعا به الى ذلك الدير اكراما لجسد القديس ساويرس

البطريرك الأنطاكى الذى كان مدفونا فيه وفى أيام البابا أغاثو أخذ تادرس أرخن الاسكندرية المذكور سيمون هذا الى يوحنا ايغومانوس دير الزجاج ليدرس عليه العلوم فنال منها قسطا وافرا حتى رآه البابا أغاثو لائقا لدرجة الكهنوت فرسمه قسا وكان الثانى بعد معلمه يوحنا فى طقس الدير . فكتب الأمير وارسل يستحضر يوحنا فسار معه سيمون تلميذه وبعض كهنة الاسكندرية والأرخن تادرس فلما وصلوا دفعوا الكتاب للأمير وفيه اسم يوحنا فطلب ان ينظره فلما حضر أمامه سر به جدا لأنه كان شخصا بهى المنظر ثم سأل الأساقفة عنه فأطروا حسن سلوكه ولهذا أظهر موافقته على تعيينه بطريركا .

وكان هذا التدبير خلافا لمشيئة الله ولذلك تحرك أحد الأساقفة يقول هذا لا ينبغى أن يكون لنا بطريركا . فنزل على الجميع سكوت حتى لم يقو على مجاوبته أحد فسأله الوالى من تراه يصلح اذا . فأجابه ان المستحق لهذه الرتبة هو سيمون فأمر الوالى باحضاره ولما شاهده سأل عن جنسه فقيل له انه سريانى من أهل الشرق . فقال للأساقفة أما كان الأفضل ان تختاروا لكم بطريركا من بلادكم فأجابوه أن الذى اخترناه أحضرناه بين يديك والأمر لله ولك فسأل الوالى سيمون عن يوحنا وهل يليق أن يكون بطريركا فأجابه انه لا يوجد فى كل مصر ولا فى الشرق من يستحق هذه الرتبة مثل يوحنا فهو أبى الروحانى من صغرى وسيرته كسيرة الملائكة . فتعجب الأمير من كلامه وحينئذ خرج صوت من جميع الأساقفة والكتاب والأراخنة قائلين ليحيى الله الأمير لنا سنين كثيرة سلم الكرسى لسيمون فهو مستحق للبطريركية فلما سمع الأمير شهادتهم عن انسان غريب لم يعرفوه الا منذ يومين فقط سمح لهم باقامته بطريركا فمضوا به وقدموه على الكرسى فى بيعة الانجيليين فى شهر كيهك سنة ٣٩٥ش و٦٨٩م فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان ولقد امتنع سيمون كثيرا عن قبول الرسامة ولكنه رضى أخيرا وقبل يوحنا ذلك بكل فرح وابتهاج حبا فى راحة رعيته وميلا منه الى السلام والوئام . وكانت نتيجة هذا أن العواطف الحسنة والمحبة المتبادلة ملأت قلب سيمون وأفعمت فؤاد يوحنا فعينه سيمون وكيلا له ومتصرفا وكان يهتدى برأيه ويسير على نصيحته مدة الثلاث سنوات التى عاشها يوحنا بعد تعيين سيمون وعند وفاته وضع البطريرك يده على عينيه وكفنه بنفسه وأخذ بركته ودفنه وأقام عنده أربعين يوما حتى بنى له قبرا ووسعه حتى اذا مات يدفن معه فيه .

ثم كتب البابا سيمون سنوديقا الى يوليانوس بطريرك أنطاكية وأرسلها مع أساقفته يذكر له فيها الاتحاد بين الكرسيين الاسكندرى والأنطاكى ٠ فلما وقف عليها وجدها مملوءة من الحكمة والعلم ففرح جدا وخطب فى بيعته باسم البابا سيمون وكتب له جوابها وأعاد رسله باكرام زائد فكان فرح عظيم من الشعب الأرثوذكسى وسلام واتحاد فى البيعة التى كانت تنمو كل يوم وقد بقى هذا البطريرك يحافظ على نواميس الرهبنة كما لو كان فى ديره ٠ وكان البابا سيمون على جانب عظيم من التقوى والتقشف ولم يكن يعطى نفسه راحة ولم يمتعها بطيب الأكل بل كان غذاؤه دواما خبزا وملحا مخلوطا بكمون وبقل وماء وقيل أنه لم يأكل لحما قط ولم يكن يحضر مع الأساقفة ولا الكهنة لأنه كان يطلب الانفراد لاتمام قوانين الصلاة وكان اذا قابل الكهنة يحرضهم على النسك والأمانة ويوبخهم على عيشة الافراط حتى ضجر منه بعض الكهنة العالميين وصاروا يبغضونه بغضا شديدا وتآمروا فيما بينهم على اهلاكه فمضى قوم منهم الى بعض السحرة وقدموا له مالا ليركب لهم سما قاتلا فأخذوا السم ووضعوه فى الاناء الذى كان يشرب فيه البطريرك وجاءوا به اليه ليشرب منه ٠ وكان قد تناول من الأسرار الربانية فلم ينله سوء فأعادوا عملهم مرة ثانية فلم يصب بأذى وتم قول الانجيل « يحملون حيات وان شربوا شيئا مميتا لا يضرهم » (مر ١٦ : ١٨) ٠

فاندهش الكهنة والساحر مما جرى فأخذوا تينا وجعلوا فيه سما أقوى فعلا عن الأول وكلفوا أحد الكهنة بأن يطعمه اياه صباحا قبل أن يأكل شيئا فلما تناول منه تحركت عليه أحشاؤه ولزم الفراش مريضا واستمر كذلك أربعين يوما وهم ينتظرون موته غير أن الرب أقامه صحيحا ٠ أما أولئك الأشرار فقد جزاهم الرب حسب فعلهم وذلك أن الوالى لما جاء الى المدينة ورأى البطريرك متغيرا مما جرى له سأل عن السبب فقيل له من الكتاب أن أربعة من الكهنة سقوه سما فأمر بحرقهم أحياء مع الساحر فلما أخرجوهم الى موضع يسمى الفاروس لكى يحرقوا ركع البابا على وجهه أمام الوالى وبكى بدموع غزيرة وطلب منه أن يعفو عنهم ولا يؤذيهم بسببه فتعجب الوالى من جميل أخلاقه وعفى عن الكهنة ولكنه أحرق الساحر عبرة لسواه ٠

وبعد ذلك ولى الأب يوحنا النيقاوى تدبير الأديرة وكان من أمره ما سيأتى ذكره فى باب المشاهير ٠ ثم ولى بعده آخر اسمه مينا من دير

أبى مقار وكان رجلا وجيها قوى الحجة محبا للاخوة وحدث أن الأساقفة اجتمعوا عند الوالى للبحث فى بدعة للطلاق التى تفشت بين بعض أغنياء الأقباط وكان بينهم أساقفة من أتباع الهراطقة ثاوفيلاسطس الخلكيدونى وتاودرس الأوطاخى وجرجس البرسنوفى وغيرهم وبينما كانوا مجتمعين فى احد الاعياد طفق الوالى يشنع عليهم بأنهم كفرة يجعلون لله زوجة وولدا ثم عيرهم بعدم اتفاقهم والتفت الى كل من الثلاثة الاساقفة الهراطقة وسأله « من من هؤلاء الأساقفة الثلاثة أقرب اليك » فأجاب كل منهم « البابا سيمون » ثم سأل البابا سيمون اخيرا هكذا فأجابه بصوت عال وقال « لا احب ولا اقترب الى واحد من هؤلاء وانا احرمهم واحرم هرطقاتهم واعتقاداتهم المرذولة » فصادق الجميع على كلامه واجابوا ان قوله هو الصواب ·

وجرى بعد ذلك أن نصارى بلاد الهند وخاصة اقليم مليبار كان منهم من هاجر من بلاد سورية وبعضهم امن بكرازة توما الرسول وساروا على منوال نصارى الشرق بواسطة معاشرتهم لهم وصاروا يساسون دينيا من بطاركة أنطاكية كما تساس الحبشة من الاسكندرية ولذلك كانوا معتادين ان يرسلوا الى بطريرك انطاكية وفدا يرسم لهم من هم فى حاجة اليهم من الأساقفة ولما لم يتمكن الوفد من الوصول الى بلاد سورية لما كان فى طريقها من الموانع والعثرات جاء الى الاسكندرية الى البابا سيمون يطلب منه أن يقيم لهم اسقفا للهند فخشى البطريرك بأس الوالى واعتذر بأنه لا يمكنه أن يقوم بهذا العمل بدون اذن منه · فخرج الوفد من عنده فاجتمع به قوم من أتباع مجمع خلكيدون وحضروا به الى بطريرك الملكيين فأخذ انسانا من مريوط ورسمه لهم اسقفا ورسم لهم كاهنين وسيرهم سرا الى الهند ·

وبعد أن ساروا مدة عشرين يوما قبض عليهم فى الطريق قوم من العرب فهرب القس الهندى وعاد الى مصر ومضوا بالثلاثة وأحضروهم موثقين الى الخليفة مروان فى دمشق فلما علم انهم من مصر ومريوط اقتص منهم وأرسلهم الى ابنه عبد العزيز والى مصر موبخا اياه لعجزه عن معرفة الأمور الجارية فى بلاده ويخبره أن بطريرك النصارى المقيم بالاسكندرية قد بعث بأخبار مصر الى الهند مع رسل من قبله ويأمره بضربه مائتى سوط وتغريمه بمائة الف دينار يرسلها له بسرعة مع الرسل الواصلين اليه ·

فوصلت الأخبار الى عبد العزيز فى الساعة الثانية من الليل وكان البابا سيمون حينئذ بحلوان صحبة أحد أساقفته فأرسل واستحضره لديه مع اثنين من كتبته وهدده بالقتل ان لم يعترف بالحقيقة فروى له الخبر بأن قسا هنديا جاء يطلب منه إقامة أسقف فاجتمع بدون اذن من الوالى فلم يصدقه بل زاد فى توعده وأخبره بما حكم به عليه الخليفة وهدده بهدم جميع البيع وقتل كل الأساقفة فطلب منه أن يسال الأشخاص الذين قبض عليهم ليعرفوه أن الذى أرسلهم خلافه . فقال له الوالى انا لا أعرف بطريركا بالاسكندرية سواك فأبى البطريرك أن يخبره بما فعل بطريرك الملكيين لئلا يوقعه فى بلية شأن المسيحى الحقيقى الذى لا يسعى فى ضرر الآخرين . ولما كان الوقت بيسلا طلب البطريرك من الوالى مهلة سبعة أيام ليدعو فيها الله ليكشف عن الحقيقة فقال له لعلك تريد أن تهرب أو تقتل نفسك فأجابه انى تحت تصرفك فمهما أردته بى فافعله فأعطاه مهلة ثلاثة أيام فخرج من عنده رسائل الله بدموع أن يظهر براءته فعند مغيب شمس اليوم الثانى نظر أحد كتبة البطريرك القس الهندى ماشيا على شاطىء البحر فمضى به الى البطريرك فأخذه فى اليوم الثالث الى الوالى والتمس منه أن يعفو عمن يقع عليهم اللوم بعد ظهور الحقيقة فوعده بذلك فقدم اليه القس الهندى فأعلمه بكل ماجرى فلما علم الأمير الحقيقة أرسل الهندى الى السجن وأمر بطلب بطريرك الملكيين وكتب الى أبيه يخبره أن بطريرك النصارى بالاسكندرية ليس له ذنب فيما جرى وذكر له صلاحه وفضيلته . ثم تقدم البطريرك للوالى طالبا منه أن ينجز وعده بالعفو عن المذنبين فعفى عن الهندى وبطريرك الملكيين وأطلق الأساقفة الى كراسيهم وأمر لهم أن يبتنوا بيعتين بحلوان وكان الأساقفة ينفقون من عندهم على عمارتيهما ووكل الوالى غريغوريوس أسقف القيس بتشييدهما .

ولم يكد البابا سيمون يتخلص من هذه المحنة حتى وقع فى غيرها فان قسا يدعى مينا كان أقامه وكيلا على الوقف وترك له حرية التصرف على كل ما تملكه البطريركية غير أنه أساء التصرف وبدد أموال الوقف وسار سيرة غير حميدة وكان البطريرك ينصحه دواما قائلا له « احذر من أن تبقى فى منزلك شيئا مما لله لئلا ينزل بك البلاء » فلم يسمع لقوله بل سلط لسانه على البابا سيمون وأنشأ يسلبه بالأقاويل الكاذبة . فوقعت عليه من قبل الله صاعقة قوية عقدت لسانه عن الكلام . فحزن البطريرك

لأجله ولأجل مال البيعة الذى كان تحت يده وسأل السيد المسيح أن يقيمه. فلما كان نصف الليل بلغ البابا أن مينا على حافة الموت فأرسل من قبله كاتبا يسأل زوجته عما اذا كان زوجها أخبرها بشىء عن مال الوقف فلما وصل الكاتب الى البيت علم أن مينا قد مات . ولما توفى البسوه ثوب الكهنوت واضجعوه على السرير كعادة أهل الاسكندرية فدخل اليه رسول البطريرك وانحنى عليه ليقبله فقام لوقته وتعلق برقبته وقال « الله الواحد اله الأب الطوباوى البابا سيمون » . وأخذ الرجل يبدى علامات شكره لله الذى أعاد اليه الحياة بدعاء البابا سيمون فأسرع التلميذ وأخبر البطريرك بما جرى ثم توجه القس مينا الى البابا سيمون وسلم له جميع مال البيعة وطلب منه الصفح عن كل ما فرط منه . أما البابا سيمون فوسم جملة أساقفة مختبرين فى العلوم منهم زكريا أسقف سخا وأطلموس أخوه أسقف منوف العليا وغيرهما وأقام تسع سنين ونصفا ثم اعتل فى يوم الخميس وكان حينئذ بحلوان بسبب رسامته الأساقفة وارسالهم الى الجهات المختصة بهم فقال لتلميذه هيا بنا نمضى الى وادى هبيب لنأخذ بركة الآباء القديسين فمضى الى الأديرة وبعدها رجع للاسكندرية حيث توفى فى الرابع والعشرين من أبيب سنة ٤٠٢ ش و ٧٠٠م ودفن بدير الزجاج كطلبه وقيل ان المسلمين سموه فمات مسموما .

القسم الثانى

مشاهير الأنبياء

يوحنا النيقاوى (١)

كان أسقفا لأبروشية نقيوس فى النصف الثانى من القرن السابع . ولما كان خبيرا بأحوال الرهبان قلده البابا سيمون البطريرك ال ٤٢ رئاسة الأديرة . وحدث أن أحد الرهبان المحبين للشهوات أخرج عذراء من ديرها ودخل بها وادى هبيب وارتكب معها الاثم . فلما ظهر ذلك بين الرهبان جزعوا وارتعبوا وانتهى الخبر الى مسامع الأنبا يوحنا

(١) نسبة الى نقيوس بمركز منوف وتسمى باللغة القديمة (ابشاتى) وبقربها الآن زاوية رزين وآثار الكنائس باقية بها .

فقـــام بتأديب الراهب وضربه ضربا موجعـــا حتى مات بعد عشرة أيام من شدة الضرب ٠

فلما بلغ الأساقفـة فى مصر خبر موت الراهب اجتمعوا سرا وسالوا الأنبـا يوحنـا عن القضـية فاعترف أمامهم انه هو الذى ضربه فأوجبوا عليه القطع لـكونه تعدى على الواجب وحرموا عليه أن يتقدم لرفع الأسرار الربيـة بل يتنـاولها كراهب ٠ فلمـا سمع الحكم وقف فى وسطهم وقال « لقـد قطعتمونى ظلمـا هكذا يجعلكم الله غرباء عن كراسيكم الى تمـام الزمان الذى حكمتم به على » وجرى فعـلا أن بعض الأعيان كانوا يخالطون غير زوجاتهم ولـما منعهم الأسـاقفة وشوا بهم الى الحـاكم فاستحضرهم من بلادهم وظل مدة يستجوبهم حتى مات الأنبـا يوحنـا وكان حينئذ قـد بلغ من العمر أقصاه ويظهر أن تلك الاساءة أحزنته فقضت عليه ٠

وكان هذا الأنبا كثير الاطلاع على صحف الأقـدمين حاصلا على قسم موفور من المعـارف الدينية والأدبية ومن أهم مآثره المؤلف الذى وضعه فى تاريخ مصر باللغة القبطيـة وهو يعـد من أفضـل كتب التـاريخ نظرا لاحتوائه على كثير من الحوادث التى جرت فى ايام الفتح العربى ومنها ماوقع فى أيامه وشاهده بعينـه ٠ وقـد وجد ما دونه به مطابقا لمـا كتبه كبار المؤرخين عن تاريخ مصر القـديم ٠ وقـد ترجم هـذا المؤلف الثمين من القبطيـة الى اليونانيـة فالعربيـة فالحبشية ولـكن لم تبق من ترجماته سوى النسخة الحبشية التى نقلهـا الى العربيـة الشماس غبريال المصرى الراهب الذى كان قائدا للجيش الحبشى منذ ٣٠٠ سنة ٠ وقد اهتم الدكتور زوتنبرج بنشر هذا التاريخ باللغتين الفرنسية والحبشية معا ٠

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) هرقـــل
(٢) فتح الفـــرس
(٣) عودة هرقل لفتح مصر
(٤ أصـــل المقوقس
(٥) الفتح الاســـلامى
(٦) محاولة سرقة رأس مار مرقس
(٧) فتح السودان والخمس المدن الغربية
(٨) الأقباط فى صدر الحكم الاسلامى
(٩) خلافة مـــروان بن الحـــكم

« هرقـــل » :

فى زمن تولى فوقا كرسى القيصرية قام ضده هرقل والى افريقية قاصدا الاستقلال بحكم مصر فناصره المصريون على فوقا لاسيما أهالى نقيوس الذين اعترفوا بحكم هرقل عليهم وساروا اليه تحت رئاسة أسقفهم ثيوذوروس ووكيله مينا ٠ ولكن جيش هرقل هـــزم أخيرا وأسر الأسقف ووكيله فرفعا الكتاب المقدس بأيديهم ليعفوا عنهما ولكن بعض أنصار فوقا اتهموهما بكسر رأس تمثال للكهم كان بنقيوس فقطع قائد جيش فوقا رأس الأسقف وعـــذب وكيله بالجلد بالسياط الى أن دفع ثلاثة آلاف قطعة من الذهب فدية ولكنـــه مات بعد يومين من اطلاقه من شدة ألم الضرب ٠ ورفع القائد يد القساوة على الذين تظاهروا بالميل لهرقل فجلد كثيرين منهم وقطع رؤوس الباقين ٠

غير أن هرقل عاد فشد أزره وهجم على الاسكندرية وقام المصريون بأسرهم معه ٠ وكان يوجد راهب بسمنود يدعى ثاوفيلس اشتهر بالقداســة وقضى أربعين سنة فوق قمة عامود يعبد الله فتوجه اليه قائد جيوش هرقل واستفهم عن مصير جيشه فتنبأ له خيرا وفاز القائد بجيش فوقا واستتب الملك لهرقل فى مصر سنة ٦١٠م ٠

(٢) فتح الفـــرس :

ولم يكد يتم النصر لهرقل حتى قام الفرس لغزو بلاد الشرق وبعد أن أتموا فتح بلاد الشام وأخذوا خشبة الصليب الى بلادهم زحفوا على القطر المصرى وتمكنوا من الاستيلاء عليه فهجموا على الكنائس والأديرة وعاثوا فيها فسادا ٠ وأعلن القائد الفارسى فى الاسكندرية أنه مستعد أن يعطى كل مصرى من ابن ثمان عشرة سنة الى ابن خمسين عشرين دينارا فلما خرجوا الى خارج المدينة سلط عليهم السيوف فقتل منهم ثمانين ألف رجل ٠ ولما فعل هذا رحل الى الصعيد وكان فى مدينة نقيوس قوم دسوا اليه بأن الرهبان الذين فى الجبال والمغاير وعددهم سبعة آلاف راهب يملكون خيرات جزيلة فأرسل جيشه ليلا وأحاط بهم وفى الصباح أمر بقتلهم جميعا ٠ وبلغت الأديرة التى أخربوها بضواحى الاسكندرية ٦٢٠ ديرا كان يسكنها رهبان وراهبات ودمروا أديرة الرهبان بوادى النطرون ٠ وبقيت مصر فى يد الفرس عشر سنوات ساموا فيها المصرين الخسف والعذاب أشكالا ٠

(٣) عودة هرقل لفتح مصر :

وفى مدة فتح الفرس لمصر كان هرقل مشغولا بتوطيد ملـكه على جميع المملكة الرومانية ولما تم له ما أراد حول وجهه نحو مصر ارادة استخلاصها من يد الفرس الا أنه شـعر بضرورة الاتحـاد مع الأقبـاط ليفوز بغرضـه فاسـتدعى اليه أثنـاسيوس بطريرك أنطـاكية وطلب منه الانضمام للكنيسة الملـكية فأبى مدافعـا عن ايمانه القـديم قائلا « لو اعتقـدت ايهـا الملك الجليل بطبيعتين فى المسيح فينبغى أن تسلم أن لـكل طبيعـة منهما فعـلا خاصـا قائما بهـا وأنهـا تفعل على حدتهـا بدون اتحاد الطبيعـة الأخرى واشـتراكها فى الفعل ٠ فيكون المسيح اذا بنـاء على هذا الاعتقـاد واحدا بالاسم واثنين بالفعل لأن الفـاعل فيـه ليس واحدا بل اثنـان » فمـال هرقل الى كلامه ومضى الى القسطنطينية وسـأل سرجيوس بطريركها عمـا اذا كان الفـاعل فى المسيح واحـدا أم اثنين فأجابه أن الفـاعل واحـد لأن المشيئة واحـدة والارادة واحدة غير منقسمة فاقتنع بذلك وأراد أن يوحد المذاهب المسيحية على هذا المبدأ وهو أن المسيح واحد وفعله واحد ومشيئته واحدة بدون أن يأتى بذكر للطبيعة الواحدة أو الاثنتين ٠

ثم كلف هرقل سرجيوس بطريرك القسطنطينية وكيروس أحد أسـاقفة المملـكة الغربيـة وبعض أساقفـة اليونان بأن يضـعوا منشورا يسمونه

« الاكثيسيس » أى « مشروع الاتحاد » لايذكرون فيه اسم المجمع الخلكيدونى الذى يبغضه المصريون بل يقررون فيه ان للمسيح « مشيئة واحدة » ومن ثم عين كيروس المذكور بطريركا للاسكندريةوأنفذه الىمصر بهذا المنشور وطلب من بطريرك الأقباط أن يقبله فرفض بحجة أنه لايبحث فى منشور يحرره ملك كل اهتمامه بالغزو والفتح ولا شأن له بالمسائل الدينية · ولما رأى كيروس بطريرك الملكيين أن الاتفاق السياسى بين هرقل والمصريين يتوقف على الاتفاق الدينى حاول ان يرغم البطريرك القبطى البابا بنيامين على توقيع المنشور رغما فهدد حياته وحياة كثيرين من وجهاء الاقباط حتى اضطر معظمهم أن يتركوا مدينة الاسكندرية · وهرب البابا بنيامين ولما لم يقف له على أثر قبض على أخيه مينا وأنزل به بلايا عظيمة وأشعل فى جنبه المشاعل حتى خرج شحم كليتيه الى جنبه وسال على الأرض وقلع أسنانه باللكم لاعترافه بالأمانة الأرثوذكسية · وكان هرقل قد أوصى جنوده بأنه اذا قال احد أن مجمع خلكيدون حق اعفوا عنه ومن قال أنه ضلال اطرحوه فى البحر ففعلوا ذلك وملأوا جملة جوالق رملا وطرحوا مينا فى البحر وهم يمسكون الجوالق وقالوا له قل أن مجمع خلكيدون حق ونحن نرحمك فأبى وكان هذا على ثلاث دفعات ثم دفعوه الى عمق المياه فراح شديد التمسك بايمانه ·

وكان البابا بنيامين قد أوصى الأساقفة أن يختفوا من وجه الاضطهاد فأطاعه بعضهم وبقى الأكثرون · فلما أمر هرقل بالزام الأرثوذكسيين بقبول مجمع خلكيدون ضل عدد كبير من أولئك الأساقفة بعضهم بالعذاب وآخرون بالمواعيد وغيرهم بالخداع ومن هؤلاء كورش أسقف نقيوس وبقطر أسقف الفيوم ·

ثم أقام هرقل أساقفة خلكيدونيين فى بلاد مصر كلها الى أنصنا وكان يبلى الأرثوذكسيين بلايا صعبة وما زال يطارد رعاتهم ويضطهدهم ويذل أفرادهم ويغتصب كنائسهم ويسلب منازلهم وهم صاغرون ويفتك بهم وهم صابرون بدون أن يتبصر فى عواقب الأمور حتى اشرفت مملكة الرومان على الهلاك وأصبحت فى حال انحطاط زائد بسبب التعصبات الدينية والاختلافات المذهبية ·

وقد رجعت سلطة الرومانيين الى مصر فى وقت بلغ فيه سخط المصريين عليهم أشده لاسيما لما رأوا أن ملوك القسطنطينية كانوا يرون

شغلهم الوحيد هو ارغام المصريين على التمذهب بمذهب مجمع خلكيدون ولكن هؤلاء لم يغفلوا عن هذا فثبتوا فى مبادئهم وحفظوا لغتهم وحافظوا على شريعتهم الدينية وترجموا جميع تعاليمهم الى لغتهم ولا يخفى أن ذلك جمع كلمتهم وشد عرى اتحادهم فقووا وثار فى خاطرهم أمر الاستقلال . ولهذا السبب كثرت القلاقل فى البلاد وصغرت الحكومة الرومانية فى عيون المصريين لا سيما لأنهم كانوا يشاهدون قرب سقوطها وما كان يهددها من كل الجهات . فاستعمل الحكام والولاة العنف والقوة فى تنفيذ أغراضهم فكان هذا داعيا الى انقلاب الأهالى على الحكام وتعديهم عليهم والسعى فى اخراجهم .

وكانت معظم هذه القلاقل تتناول الوجه البحرى . أما الوجه القبلى فكان احسن حالا وانعم بالا لأن الامبراطرة لم يكونوا يهتمون به كثيرا فكان اهله معروفين بالغيرة الدينية والعمل على تقدم المسيحية وارتقائها فازدهرت فيه واشرق نورها ولهذا السبب عينه نجد للآن أن أغلب الأقباط يسكنون الوجه القبلى لانه كان أكثر أمانا لهم من الوجه البحرى .

(٤) أصل المقوقس :

وقد أقام هرقل على مصر واليا من قبله هو « المقوقس » ومقوقس على ما ذكر بعضهم كلمة يونانية معناها حاكم والعرب يسمونه عظيم القبط أما اسمه فكان جرجس بن مينا وهو يونانى الأصل . ولا ريب فى رومانية المقوقس اذ لم يكن قياصرة الرومان يقيمون ولاة بمصر الا اذا كانوا من جنسيتهم . واذا كان الأمر كذلك فلماذا تواطأ المقوقس مع العرب على قومه الرومان ؟ الواضح أن المقوقس لما رأى انتفاض قصبة المملكة الرومانية فى مصر وكان محبا للمال للدرجة القصوى ضم لحوزته كل الضرائب التى كان يأخذها من المصريين للحكومة . ولما رأى أن هرقل مزمع أن يعيد سلطته لمصر ولابد ان يطالبه بدفع ما اختلسه من المال اضطر أن يسهل للعرب سبيل الاستيلاء على مصر .

وروى المؤرخون أن محمدا صاحب الشريعة الاسلامية أرسل فى السنة السادسة للهجرة كتابا الى المقوقس يدعوه فيه الى الاسلام فأكرم المقوقس رسله وأرسل معهم هدية من ضمنها جارية قبطية تسمى مارية اتخذها سرية فرزق منها بولد سماه ابراهيم ولكنه لم يعش ولم ترزق منه بغيره . وقد استنتج أن من ذلك الحين كان بين المقوقس وزعماء العرب صلات

وعلاقات سرية · وقيل ان المقوقس كان يراسل صاحب الشريعة الاسلامية وبقى السر مكتوما لا يعلم به أحد حتى استخلفه عمر بن الخطاب فتم للمقوقس ما أراد من استيلاء العرب على مصر · ويقال ان الخطاب الاتى هو الذى أرسله نبى المسلمين للمقوقس :

« بسم الله الرحمن الرحيم · من محمد عبد الله ورسوله الى المقوقس عظيم القبط · سلام على من اتبع الهدى · اما بعد فانى ادعوك بدعاية الاسلام · اسلم تسلم يؤتك الله اجرك مرتين فان توليت فعليك اثم كل القبط · يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بانا مسلمون » ·

وهذه صورة جواب المقوقس : ـ « بسم الله الرحمن الرحيم · لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط · اما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو اليه وقد علمت أن نبيا قد بقى وكنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان من القبط عظيم وكسوة وأهديت لك بغلة لتركبها والسلام » والكتابان مرتاب فيهما ·

(٥) الفتح الاسلامى :

وكان جيش العرب فى فاتحة هذا القرن حاملا لواء الظفر فى كل مكان وظل يخترق الهضاب والبطاح ويجوب الفيافى والبلاد حتى وصل الى حدود مصر تحت قيادة عمرو بن العاص فدخل مدينة العريش وذلك فى سنة ٦٣٩ م ومنها وصل الى بلبيس وفتحها بعد قتال طال أمده نحو شهر · ولما استولى عليها وجد بها أرمانوسه بنت المقوقس فلم يمسها بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها الى أبيها فى مدينة منف مكرمة الجانب معززة الخاطر فعد المقوقس هذه الفعلة جميلا ومكرمة من عمرو وحسبها حسنة له ·

واحتلت جيوش العرب الوجه البحرى فصاروا يرتكبون فيه الفظائع فوقف فى وجههم اثنان من الأقباط هما مينا وقزمان وترأسا جماعة مدربة فكانوا يدفعون عنهم غائلة الاعتداء الأجنبى عربيا كان أم رومانيا · قيل أن عمرو عندما وصل الى نقيوس فتك بأهلها فتكا

ذريعا ولم يبق أحدا ممن كانوا فى الشوارع أو الكنائس وصار يتقدم الى داخل البلاد حتى وصل الى بابيليون ودام القتال بين عمرو وبين الروم سبعة أشهر كان يتظاهر المقوقس فى أثنائها بأنه ضد العرب وهو معهم فخابر الروم فى أمر التسليم بالتى هى أحسن فأبوا كل الاباء فانسحب من الحصن ولم يبق فيه سوى عدد قليل من القبط لم يقووا على مقاومة العرب فعمدوا الى الهرب قاصدين منف فتتبعهم العرب وكان يفصلهما جسران من المراكب فرفعهما القبط فبقى العرب محاطين بالماء من كل الجهات ٠

ولما رأى المقوقس اشتداد بأس العرب تفاوض معهم فكتب اليه عمرو يقول ليس لك ولقومك سبيل للنجاة الا اذا اخترت واحدا من هذه الشروط :

١ ــ اما الجزية ٠
٢ ــ أو الاسلام ٠
٣ ــ أو استمرار القتال ٠

فجمع المقوقس رجال حكومته وتفاوض مع رسل من قبل عمرو واتفق رأيهم على ايثار الجزية ورضوا بها على صلح يكون بينهم يعرفونه ٠ فاجتمع المقوقس وعمرو وتقرر الصلح بينهما بوثيقة مفادها أن يعطى الأمان للأقباط ومن أراد البقاء بمصر من الروم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وفى نظير ذلك يدفع كل قبطى دينارين ما عدا الشيخ والولد البالغ من العمر ١٢ سنة ٠ والمرأة وأحصى من دفع الجزية فى تلك السنة من القبط فكان عددهم ستة ملايين ٠ وكان عدد الأقباط قد نقص بعد اضطهاد ديوكلتيانوس ولكنه أخذ يتزايد بعد انتشار المسيحية حتى بلغ مجموعهم ابان دخول العرب أربعة وعشرين مليونا تقريبا ٠

ولما رأى هرقل ما كان من استيلاء العرب على مصر مات محزونا مرذولا وأقسم عمرو الايمان المغلظ بتنفيذ وعده مع المصريين ٠ وذكر المؤرخون أنه بعد استتباب السلطان للعرب فى مصر وبينما كان الفاتح العربى يشتغل فى تدبير مصالحه بالاسكندرية سمع رهبان وادى النطرون وبرية شيهات أن أمة جديدة ملكت البلاد فسار منهم الى عمرو سبعون الفا حفاة الأقدام بثياب ممزقة يحمل كل واحد منهم عكازا فخاف عمرو أن يكون هذا الجيش قوة مقاومة ولكنهم تقدموا اليه وطلبوا منه أن

يمنحهم حريتهم الدينيــة ويأمر برجوع بطريركهم من منفــاه فأجاب عمرو طلبهم وأظهر ميله للأقبــاط فازداد هؤلاء ثقــة به ومالوا اليه خصوصــا لمــا رأوه يفتح لهم الصــدور ويبيح لهم اقامة الــكنائس والمعــابد فى وسط الفسطاط الذى بنــاه بمساعدة الأقبــاط وجعله عاصــمة الــديار المصرية ومركز الامارة على حين أنه لم يكن للمسلمين معبد فكانوا يصلون ويخطبون فى الخــلاء ٠

وقرب عمرو اليه كثيرين من الأقبــاط واعتمد عليهم فى اصلاح شئون البلاد ووظفهم بوظائف عالية فكان منهم الحكام والرؤساء والكتاب وجباة الخراج فقاموا بخدمة البلاد بأمانة حتى عم الرخاء وساد الأمن وقسم عمرو القطر المصرى الى كور أو أعمــال يرأس كلا منها حاكم قبطى ذاتيه العسايا ينظر فيهــا ويصــدر احكامه ٠ وخطب عمرو فى جيش المسلمين وكان من خطبته قوله « حــدثنى عمر امير المؤمنين (رضه) أنه سمع رســول الله (صلعم) يقول أن الله سيفتح عليكم بعــدى مصر فاستوصوا بقبطها خيرا فان لــكم فيهــا صــهرا وذمة فــكفوا أيــديكم وعفــوا فروجكم وغضــوا أبصاركم » أهـ ٠ ثم بنى عمرو جامعه المعروف بهمة مهنــدس قبطى يدعى بقطــر ٠

وذكر ابن القفطى وأبو الفــرج الملطى وغيرهمــا أن عمرو لمــا فتح الاسكندرية كان من جملة علمائها رجل اسمه يحيى (يوحنا) الغراماطيقى فدخل على عمرو وقد عرف موضــعه من العلوم فأكرمه عمرو وسمع من الفاظه الفلسفية التى لم تــكن للعرب بهــا أنسة ما هاله ففتن به وكان عمرو عاقــلا حسن الاستماع صحيح الفكر فلازمه وكان لايفارقــه ٠ ثم قال له يحيى يوما « انك قــد أحطت بحواصل الاسكندرية وختمت على كل الأصناف الموجودة بها فمــا لك به انتفــاع فلا نعارضــك فيــه وما لا انتفاع لك به فنحن أولى به » فقــال له عمرو « ما الذى تحتاج اليه » قال « كتب الحكمة التى فى الخزائن الملوكية » فقال له عمرو « هــذا ما لا يمكنى أن آمر فيه الا بعد استئذان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فــكتب الى عمر وعرفه قول يحيى فورد عليــــه كتــــاب عمــر يقول فيه « وأما الــكتب التى ذكرتهــا وان كان فيهــا ما يخالف كتاب الله فــلا حاجــة اليهــا فتقــدم باعدامها » فشرع عمرو فى تفريقهــا على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقــدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر فاسمع ما جرى واعجب ٠

(٦) محاولة سرقة رأس مار مرقس :

بعد استيلاء المسلمين على الاسكندرية دمروا أسوار المدينة وأشعلوا النيران فى معظم الكنائس وبينها الكنيسة القديمة لمار مرقس حيث كانت بقايا جسم القديس مدفونة • ويؤخذ من رواية الأنبا ساويرس المؤرخ أن بقايا القديس خلصت بمعجزة الهية لأنه بينما كانت النيران متأججة فى الكنيسة دخل اليها بحارة المراكب وفتشوا تابوت القديس ظانين أن فيه مالا ولما لم يجدوا أخذوا الثياب من على جسمه وبقيت عظامه فيه • وجاء بعد ذلك رئيس مركب شنوده احد عظماء الأقباط فوجد رأس القديس فأخذها وخبأها فى جوف مركبه ولما أراد أن يسيره خارج الاسكندرية لم ينتقل فأخبره شنوده بذلك ففتش السفينة فوجد بها رأس القديس فمضى واعلم البابا بنيامين بالخبر وكان شنوده قد شاهد فى رؤيا القديس مرقس يطلب منه ان يبنى له كنيسة فى موضع عينه له فاعترف بأن شكل الرأس كالشكل الذى شاهده فى الرؤيا وحالا اخذها من المركب فاقلعت فورا وجميع الذين شاهدوا هذه الاعجوبة كانوا يمجدون الله وقيل أن عمرو بن العاص عندما قص عليه البطريرك هذه المعجزة أعطاه ١٠٠٠ دينار لكى يبتنى بها كنيسة احتراما للراس وسميت بالمعلقة وكانت قائمة جنوبى الاسكندرية •

وعاد البابا بنيامين الى المدينة والرأس فى حضنه وصنع لها تابوتا من الأبنوس وبنى عليها بيعة ومن ذلك الوقت صار كل البطاركة الذين يرسمون يضعون الرأس أمامهم وقت التكريس مغطاة ببرقع جديد ويقدمونها للشعب لتقبيلها وفيما بعد جدد هذه البيعة البابا يوحنا السمنودى البطريرك ال ٤٠ وفى مدة البابا زكريا البطريرك ال ٦٤ وجد أحد الأمراء الأتراك رأس القديس مار مرقس ولما سمع بأن المسيحيين يعلقون عليها أهمية كبرى عزم على حملها الى القاهرة وتمكن الشماس بقيرة أحد مستخدمى الحكومة أن يشتريها منه بمبلغ ٣٠٠ دينار وقدمها للبطريرك حيث كان فى دير أبى مقار • وفى أيام البابا خريستوذلو البطريرك ال ٦٦ كانت الرأس المقدسة محفوظة فى منزل أبى يحيى بن زكريا وقد مرض مرضا شديدا فخشى المؤمنون أن تختم الحكومة بيته بعد موته لحفظ مافيه فأخذوا تابوت الرأس وحملوه الى بيت مجاور واذ رأوا المحل غير آمن أرادوا نقله الى بيت الأب مانهوب راوى هذا الخبر ولكن هذا الرجل الذى كان مقربا للسلطان أبى حفظ التابوت عنده فعهد به الى القس

سمعان . الا ان رجلا افريقيا اسمه على ابن بكير من اهالى برقة وقف على سر المسألة ورفعه الى الحاكم فى رسالة فألقى القبض على كل المهتمين بالأمر ولما سئلوا امام حاكم الاسكندرية كوكب الدولة طلب منهم أن يردوا راس القديس او يدفعوا مبلغ عشرة آلاف دينار التى كان يظن بحسب فكره ان اليونانيين كانوا مستعدين لدفعها ثمنا لباقى الاعضاء وبعد ان لبثوا مكبلين بالحديد ٢٧ يوما دفع احدهم ابو الفتح ٦٠٠ دينار فأطلق سراحه بعد ثلاثة ايام واعيدت راس القديس الى المسيحيين فكانت موضوع احترامهم فى مدة حكم الملك الكامل . ووجدت راس القديس فى منزل ابن السكرى حيث كانت قد اكتشفت من عدة سنين مضت .

وقيل أن رجلا روميا اشترى الراس فى عهد البابا خروستوذولو بأربعمائة دينار وبنى عليها حائطا خشية من وصول الأيدى اليها وأن البابا مرقس ال ٧٣ جاء هذه الدار وبات هناك الى ثانى يوم وكيرلس ابن لقلق ال ٧٥ لما وضعت عليه اليد خرج الى دار ابن السكرى التى فيها الرأس . وقيل أنها كانت رأس البابا بطرس خاتم الشهداء لان راس مار مرقس كانت معه على جسده لما نقله الروم الى البندقية والله أعلم .

وكنيستنا القبطية تخبر أن رأس الرسول مرقس نقلت من دار ابن السكرى الى ضريح البطاركة بالكنيسة المرقسية بالاسكندرية ولم تزل باقية به وذلك انه لما جلس البابا بطرس ال ١٠٤ واحتضن الرأس على أن هناك من يحاولون سرقة الرأس فأمر بحفظها بكل عناية فى ضريح البطاركة بالاسكندرية .

(٧) فتح السودان والخمس المدن الغربية :

وكانت البلاد السودانية والخمس المدن الغربية قد صارت قبيل الفتح الاسلامى العربى كلها مسيحية تعترف بسيادة بطريرك الأقباط عليها . وكان السودان عبارة عن ممالك مسيحية عديدة مستقلة ومنظمة . فسير اليها عمرو قوة عسكرية تحت قيادة عبد الله بن سعد فلزم قتالهم مدة وفى أثناء محاصرته لمدينة دنقلة دمر كنيستها الكبرى فجزع النوبيون وسلموا للعرب فاشترط عليهم هؤلاء أن يسمحوا للمسلمين بالاقامة معهم وأن يبنوا لهم جامعا يقومون هم بانارته ونظافته ثم حكموا عليهم بدفع ضريبة سنوية من العبيد الأقوياء وكان هذا مبدأ تجارة الرقيق . أما الخمس المدن فلم يستطع عمرو اخضاعها واكتفى بما أخذه منها من الغنائم والأسرى الذين جعلهم عبيدا .

(٨) الأقبـاط فى صـدر الحكم الاسـلامى :

وكانت مدة ولاية عمرو بن العاص فى مصر وخلافة عمر بن الخطاب أحسن أوقات الراحة التى ذاقها الأقبـاط وقيل أن قبطيـا فقـيرا أتى عمر الخليفـة وشكا اليه أن ابن العاص لطمه فاستدعى عمرو وقال له « ولد النـاس أحرارا فلماذا تستعبدوهم » وأمر القبطى أن يلطم الأمير · ولـكن لـما تولى الخـلافة عثمان بن عفان سنة ٦٤٤ م فصـل عمرو وعين بدله عبد الله بن سعد فاشـتد على الأهالى وجمع منهم ضرائب باهظة فجبا فى أول سنة أربعة عشر مليونا من الدنانير بزيادة مليونين عما كان يجبوه عمرو فسر الخليفة بهذه الزيادة وقال لعمرو « يا أبا عبد الله درت اللقحة بأكثر من درها الأول » فأجابه عمرو « لقد أضررتم بولدها ان لم يمت الفصـيل » أى أن هذه الزيادة لابد أن تضر أهل البلاد اذ لم يزد عددهم عن الأول ·

وفى أثنـاء ذلك أنفـذ الروم حمـلة من جنودهم لاسترجاع مصر من المسلمين وفى أثنـاء قتالهم بالاسكندرية كانوا يعيثون فسادا فى القـرى وينهبون ما بهـا ويقتلون سكانها فخشى القبط استيلائهم على البـلاد مرة ثانية فناصروا العرب وباء الروم بالخيبة والخذلان ·

وبعد انتهاء دولة الخلفاء الراشدين بموت على بن أبى طالب الـذى خلف عثمان بن عفـان ابتـدأت الدولة الأموية التى كان أول خلفـائها معـاوية بن أبى سفيان سنة ٦٦١ م · وفى مبدأ الدولة الأموية كان الأقباط ملازمين الهـدوء والسكينة لاستقامة الحـال معهم وظلوا محـافظين على شروط معـاهدتهم مع عمرو فلم يطلبوا الاستقلال وكان حينئذ فى استطاعتهم نواله اذا طلبوه · ولـما زادت شرور عبـد الله بن سعد طلبوا اسـتبداله بصديقهم عمرو فأعيـد اليهم فصـار فرحهم عظيما ولـما مات حزنوا عليه وكان لهم الحق فى ذلك الحزن لأنه لم يتول مصر واحد أحسن اليهم مثـله كما سترى · واستخلف الخليفـة معـاوية على مصر بعد عمرو سعيد بن يزيد فاضطهد بطريرك الأقبـاط اضطهادا شديدا ·

(٩) خلافة مروان بن الحكم سنة ٦٨٤ م :

ولى على مصر ابنه عبد العزيز وكان فى مبدأ أمره محاسنا الأقبـاط ولـما بنى مدينـة حلوان نقل اليهـا بيت المـال وكان الأمين عليه رجل قبطى يسمى انتنـاس وابتنى بهـا القصـور الشاهقة ولعلمه بأن الأقبـاط هم أصحاب البلاد وذوو الثروة والاقتـدار كلف أغنياءهم أن يبنى كل منهم له

دارا بمدينته الجديدة ولكي يحبب اليهم سكناها أمر البطريرك ببناء بيعتين فيها لكي يزيد في حسن رونقها بالنسبة لجمال الكنائس في تلك الأيام وقد سبق معنا أنه وكّل بعمارة البيعتين الأنبا غريغوريوس أسقف القيس (١) وكان بين عبدالعزيز والبابا اسحق الـ ٤١ ائتلاف فكان البطريرك يكثر التردد على حلوان لزيارة الأمير ٠

وبعد ذلك داخل عبد العزيز فكر بعد أن أخضع البلاد كلها له بأنه لا يوجد فيها من له السلطان مثله الا البطريرك فتغير عليه وامر الاقباط بأن لا ينتخبوا بطريركهم بعيدا عنه اى فى الاسكندرية كما جرت العادة بل فى بابيليون وأعلى الضرائب عليهم وكان الاكليروس الى ذلك الحين معافين من الجزية فألزم كل واحد منهم بدفع دينار فى السنة والبطريرك بثلاثة آلاف دينار ٠ ولما انتهى اليه خبر الانحطاط الزائد الذى وصلت اليه المملكة الرومانية لم يعد يعبأ بمهادنة الأقباط فمد اليهم يد الأذى وشرع فى نهب اموالهم وسلب مقتنياتهم وامر بكسر الصلبان التى فى كورة مصر حتى صلبان الذهب والفضة ثم كتب عدة رقاع وجعلها على أبواب البيع بمصر والريف يقول فيها « محمد أعظم رسل الله وعيسى أيضا رسول الله والله لم يلد ولم يولد » ٠

القسم الرابع
البدع

(١) مشروع هرقل　　　　(٢) بدعة الطلاق

---

(١) مشروع هرقل :

وقد مر بنا الكلام عنه فى حوادث « المملكة والكنيسة » وهو أن فى المسيح طبيعتين ومشيئة واحدة ولقب بمذهب المونوثيليتيه ٠ ومع أن بطريرك الروم الأرثوذكس بالقسطنطينية قبله حينئذ الا أن راهبا يونانيا اسكندريا يدعى صفرونيوس قاوم هذا المذهب وأذاع فى أماكن كثيرة تعليم المشيئتين وفيما بعد أقيم بطريركا لأورشليم فجمع مجمعا أيد فيه رأيه الا أن القيصر أثبت التعليم بمشيئة واحدة فى مجمع عقده بالقسطنطينية

---

(١) بمديرية المنيا كانت مدينة عظيمة اشتهرت بصناعة المنسوجات الصوفية التى كانت تسمى بالارجز رقد تخربت الآن ولم تبق الا أطلالها ٠

تحت رئاسة سرجيوس بطريركها وتبعه فى الرأى خلفاؤه بيرس وبولس وبطرس وتوما وثيوذورس ويوحنا . ودعا سرجيوس أنوريوس أسقف رومية لقبول مذهبه الجديد فقبله ونادى به الا أن خلفاءه شجبوه وكذلك قسطنطين اللحيانى حرم تعليم المشيئة الواحدة وبطاركة القسطنطينية وأنوريوس فى مجمع عقده سنة ٦٨٠ م ونقض اليونان حرم هذا المجمع بقرار فى مجمع آخر سنة ٧١٢ م ثم أيدها مجمع آخر وهكذا استمر الشقاق سائدا بينهم الى أن بطل التعليم بالمشيئة الواحدة من الكنائس الخلكيدونية ولم تستمر تعلم به الا كنيسة الموارنة التى أسسها يوحنا مارون فان هذا قضى حياته يدافع عن ذلك التعليم وسارت طائفته على مبدئه الى أن انضمت للكنيسة البابوية سنة ١١٨٢م .

(٢) بدعة الطلاق :

وجرى فى أيام البابا سيمون الـ ٤٢ أن قوما من الأقباط تركوا نساءهم وأخذوا غيرهن فجعل الأساقفة يردعونهم عن هذا العمل فاغتاظوا منهم ومضوا الى الوالى وقالوا له ان الأساقفة منعونا عن الزواج واضطرونا الى ارتكاب فعل الزنا فغضب وجمع الأساقفة من كراسيهم الى مدينة الاسكندرية فاجتمع منهم ٦٤ أسقفا ولم يعلموا سبب حضورهم ولما علموا السبب اطلعوا الوالى على الحقيقة وبعد مناقشة فيما بينهم حكموا بقطع أولئك القوم ان لم يتركوا النساء الغريبات .

القرن الثامن

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) الاكسندروس٢	(٢) قزمان١
(٣) ثيوذوروس	(٤) خائيل١
(٥) مينا١	(٦) يوحنا٤

(١) الاكسندروس٢ ـ البطريرك الثالث والأربعون :

وبعد وفاة البابا سيمون لم يتمكن الأساقفة من اقامة خلف له فخلا الكرسى بعده ثلاث سنين وبعد ذلك طلب أثناسيوس أحد موظفى الأقباط فى الديوان من الوالى أن يسمح للأنبا غريغوريوس أسقف القيس أن يتولى ادارة أعمال الكنيسة فكتب له أمرا بذلك واستمر الانبا غريغوريوس أربع سنوات يدير الحركة حتى سنة ٧٠٣ م فقد انتخب باجماع الآراء القس الاكسندروس من نباموسير وكان راهبا وديعا عالما بالكتب المقدسة وبعد الاستئذان من الوالى أقيم بطريركا فى يوم عيد مار مرقس الذى هو آخر برموده سنة ٤٠٤ ش و ٧٠٣ م فى عهد خلافة عبد الملك بن مروان وكانت أيامه الأولى كلها صفاء وهناء وشمل الجميع سرور عظيم وساد السلام على البيعة المقدسة ٠

غير أن الشيطان الذى لا يدع كنيسة الله فى راحة أثار ضيقا تألم هذا البابا بسببه كثيرا وذلك أنه بعد عبد العزيز ولى الخليفة ابنه عبد الله على مصر فسار فى طريق الجور حتى أن البطريرك لما مضى للسلام عليه كعادة البطاركة سأل عنه فقيل له أنه بطريرك النصارى فقبض عليه وسلمه لأحد حجابه وقال له انزل ما تريد به من الهوان حتى يدفع ثلاثة آلاف دينار فأخذه وأقام مدة ثلاثة أيام والمسيحيون يتوقعون أن يتنازل عن شىء من القيمة فلم يمكن ولهذا وقع خوف عظيم على جميع المؤمنين بالنسبة لذلك المبلغ الباهظ الذى لم يكن فى طاقتهم دفعه ثم تقدم الشماس جرجس الى الحاجب وقال له « هل تطلب نفس البطريرك أم المال » فأجابه

المــال فقــال له اذا سلمه لى مدة شهرين أنا أطوف به على أولاده المؤمنين، فأجمع له هــذا المــال فجال به الشماس فى الوجه البحرى حتى حصل على المــال وسلمه للوالى ٠

ثم تولى بعــد عبــد الله الأمير قرة سنة ٧٠١ م وكان متولى ديوان الاسكندرية من الأقبــاط رجل يدعى تاودروس كانت بينــه وبين البطريرك عــداوة فلما وصل قرة الى مصر توجه اليه البطريرك ليؤدى واجب السلام عليه فنسج على منوال سلفــه وقبض عليه والزمه ان يدفع من المــال مقدار ما دفع لعبــد الله فقــال له البطريرك انى لا أملك هــذا المبلغ لأن مخلصنا أمر جميع تابعيــه بأن لا يقتنوا ذهبــا ولا فضــة وما أتاه عبد الله معى كان من قبيل الظلم الفــاحش وقــد استعطيت كل المبلغ الذى أرغمنى على دفعه فطلب منــه الوالى أن يبرر كلامه هــذا بقسم فأبى البطريرك أن يحلف فقال له الوالى لابد من دفع هــذا المبلغ ولو بعت لحمــك فالتمس منه البطريرك أن يسمح له بزيارة الوجــه القبلى ووعــده بأن يرسل له كل ما يتحصــل عليه ففرح أهل الصــعيد بالبطريرك فرحا عظيما لعــدم مشاهدتهم بطاركة بعد البــابا بنيــامين الذى كان مختفيــا عنــدهم ٠ وحــدث أن سائحا يدعى فيلسطس وهو مقيم على صخرة وكان معــه ولداه الراهبــان ٠ فأمرهمــا بأن يهيئــا له مكانا خلاف الصخرة ٠ فبينما همــا ينظفــان الأرض وجــدا كنزا عظيما فى خمســة أوان فأخفيــا عنه واحــدا وأظهرا له الأربعة فشكر الله وقال هــذا نصيب البــابا الاسكندروس الذى رأى الرب ضيقته ٠ ثم اســتدعى كاتب البطريرك والراهب جرجس وكيله وأعطــاهما الأربعة أوان ليسلماها للبطريرك ٠ فجربهما الشيطان فدفنــاها أما الراهبــــان فقسما ما اختلساه وتركا عيشة الرهبنــة ولبسا الملابس الفــاخرة وظهرا بمظهر سىء حتى ارتاب فى أمرهمــا الوالى فقبض عليهما فاعترف أحدهما بكل ماجرى وأن الأربعة أوان الباقيــة طرف وكيلى البطريرك فأمر حالاً بغلق الابسقوبيون (الدار البطريركية) وأخــذ كل ما فيهــا من الأوانى والذهب والفضــة والــكتب والمقتنيــات واستحضر البطريرك وهم بقتــله بسبب قوله أنه ليس معــه ذهب وكبــله بالحــديد وطرحــه فى الســجن سبعة أيام ثم أخرجه ليقوم بدفع الـ ٣٠٠٠دينار فرجع يستعطى من المسيحيين حتى تحصل على المبلغ ودفعه ٠

ولم يكد يستريح من هــذه المشقات حتى سعى به أناس أشرار لدى الوالى بأن لديه قوما يضربون الدنانير وبينمــا كان جالســا فى الساعــة

التاسعة من النهار لتناول طعام الافطار رأى أن البطريركية قد أحيطت من كل جانب بالجنود فقبضوا عليه وعلى أصحابه وطرحوه على الأرض وضربوا أصحابه وعوقبوا حتى سالت دماؤهم وكادوا يموتون . وما زالوا يوسعونهم اهانات وضربات حتى اليوم الثانى من أمشير سنة ٢٤٠ ش اذ تحقق لهم كذب التهمة التى وجهت اليهم .

ولم تكف هذا البطريرك البائس هذه البلايا الخارجية ولم تقف ويلاته عند هذا الحد حتى قامت عليه زوابع داخلية من نصارى الاسكندرية وكهنتها طالبين منه أن يؤدى لكنائسها ما كان مقررا على البطريركية دفعه لها وكانت هذه العوائد قد انقطعت من مدة سنين بسبب الغرامات الفادحة التى اضطر البابا الاكسندروس أن يقوم بدفعها للحكومة . فأخذ البطريرك يترضاهم ويطيب خاطرهم بالكلام اللين معتذرا عن عدم الدفع بما شاهدوه من نهب جميع مال البيعة حتى صارت الكاسات التى كانت ترفع فيها الأسرار المقدسة من زجاج عوضا عن الذهب والفضة ولكنهم لم يرعووا وأخذوا يوجهون اليه شديد التوبيخ فعرفهم أن كنائس الاسكندرية لا حق لها فى ما تطلب لأن تلك المرتبات كانت انعاما من الحكومة وأول من رتبها قسطنطين الكبير للمساعدة ولكنها انقطعت فيما بعد . فصارت البطريركية تجرى صرفها باختيارها . فحالما سمعوا هذا الكلام ضجوا وطلبوا منه بالحاح أن يدفع مالهم فلما رآهم لا يرتدعون بالكلام اللين انتهرهم وطردهم من عنده فخرجوا يشسعون عليه ولم يكفوا عن المقاومة الا بعد مدة .

وكان فى أيام هذا البابا على كرسى أنطاكية البطريرك يوليانوس الذى اقام على الكرسى من أيام البابا يوحنا بطريرك الاسكندرية الى أيام البابا الاكسندروس ثم توفى وحاول أساقفة المشرق اقامة آخر عوضه فمنعهم الوليد الوالى بدعوى أنه لا يمكن اقامة أسقف فى حياته . ولكنهم عمدوا الى انسان خائف الله يدعى ايليا وأجلسوه على الكرسى وحال جلوسه كتب سنوديقا الى البابا الاكسندروس صحبة أسقف يدعى استفانوس فجاء الى البابا بينما كان يتفقد ديارات وادى هبيب فقبله بفرح وكتب للبطريرك الأنطاكى جوابا لرسالته .

وكان أرخن مدينة الاسكندرية يدعى تادرس فاستعان به لدى الأمير طبيب يدعى أنوبيس من أهل الاسكندرية لكى يقدمه بطريركا وكان روميا خلكيدونيا وذلك أيضا بمساعدة كاتب اسمه انسطاسيوس من الاسكندرية

دفع للوالى الف دينـــار ليوافق على رسامته بطريركا فقبل الوالى هذا الطلب وأقيم هذا الهرطوقى بطريركا وكان يهزأ بالبابا الاكسندروس لا سيما اذا لحقتــه تجربة حتى ظهرت أفعــاله الرديئــة فقــام عليه الشعب طالبا قطعه فاحتمى بالبابا الاكسندروس والتمس منه أن يغفر له ما بدا منه ورغب أن يقبله فى الأمانة الأرثوذكسية فصفح عنه ٠ ثم حدث حينئذ وفاة ايليا بطريرك أنطــاكية فقــام عوضه اسقف تقى يدعى اتناسيوس فـكتب هــذا سنوديقا للبابا الاكسندروس فجاوبه عليها جوابا مملوءا بعبارات المحبة ٠

ولــا تولى حنظله بن صفوان سنة ٧١٣ م أراد أن يرسم على أيدى كل من النصــارى صــورة الأسد ٠ ثم قبض على البطريرك ليسمه فامتنع فلم يدعه الوالى فالتمس منــه ان يسمح له بمهلة ثلاثة أيام فـدخل البطريرك الى مخدعه وسأل الرب أن لا يتركه يوسم بل ينقله من هــذا العــالم بسرعة فنظر الله لضيقتــه وافتقــده بمرض فى اليوم الثــالث وكان يتزايد عليه كل يوم وقبل وفاته أرسل قوما من قبله للوالى يستعطفونه لكى يسمح له بالانطــلاق الى كرسيه لاشــتداد المرض عليــه فأبى الوالى ظانا أنه يكذب٠ ولــا اشتد عليه المرض استدعى تلاميــذه وطلب منهم أن ينزلوه فى مركب الى الاسكندرية فبعث الوالى قوما وراءه ليمسكوه ويحضروه أمامه فوجدوه قــد توفى فقبضــوا على تلاميــذه وعــذبوهم عــذابا شــديدا وكانت مدة اقامة هــذا البــــابا على الـكرسى ٣٤ سنة ونصــــفا وكانت وفاته فى ٢ أمشير سنة ٤٣١ ش و ٧٢٦ م ٠

(٢) قزمان١ ــ البطريرك الرابع والأربعون :

كان راهبــا قــديسا من برية أبى مقــــار وكان من أهل بســاموسير فأجلسوه على الـكرسى البطريركى بغير اختيــاره فى شهر برمهات ســنة ٤٣١ ش و ٧٢٦ م فى عهــد خلافــة هشام بن عبد الملك وكان ميــــالا الى الانفراد والعبــادة ولــا رأى رتبــة البطريركية ثقــلا عظيما عليه وواجبــا خطيرا غير قادر على القيــام بأعبــائه أخذ يتوسل الى السيد المسيح بحرارة ليــلا ونهــارا أن ينقله من هــذا العــالم فلما كان تمام خمسة عشر شهرا تنيح بمجد وكرامة فى آخر يوم من بؤونه سنة ٤٣٢ ش و٧٢٧م ٠

وكان بظاهر مريوط دير يعرف بطمنوه تحت رئاسة رجل اسمه يحنس أعطى نعمة جزيلة وكان الرب يشرفه بصنع العجــائب على يديه وكان له تلميذ يخدمه اسمه ثيوذوروس فاق من فى الدير بأفعاله الصالحة وفى حياة

البابا الاكسندروس قال له معلمه يحنس . اعلم يا ابنى انه فى السنة التى يتنيح فيها الاكسندروس أتنيح أنا معه وأنت تجلس على كرسى الرسول الجليل مار مرقس وليس بعد البابا الاكسندروس ولكن بعد الذى يأتى بعده .

(٣) ثيوذوروس — البطريرك الخامس والأربعون :

فتم قول هذا الشيخ الجليلى اذ أن الأراخنة والاكليروس حالما سمعوا نبأ وفاة البابا قزمان اهتموا بانتخاب من يصلح للبطريركية فذكر لهم بمشيئة الرب الأب ثيوذوروس من دير أبى يحنس فمضوا الى الدير وأخذوه وأحضروه الى الاسكندرية وكرسوه فى شهر أبيب سنة ٤٣٢ ش و٧٢٧ م فى عهد خلافة هشام بن عبد الملك ونالت الكنيسة فى أيامه أكمل قسط من الراحة بفضل عدالة الخليفة هشام . الا أن البطريرك صادف متاعب جمة لدى مشاهدته الفظائع التى آتاها الولاة واستمر صابرا على ما رأى حتى افتقده الرب وأخذه اليه بشيخوخة حسنة وبنعمة السيد المسيح كانت البيعة تنمو بلا مقاوم لها ولا شقاق فيها فى جميع أيامه وأقام على الكرسى الرسولى ١١ سنة ونصفا وتنيح فى سابع يوم من أمشير سنة ٤٤٤ ش و٧٣٨ م وبعد وفاة هذا البابا استمرت الاضطهادات قائمة على قدم وساق فلم يتمكن المصريون من اقامة خلف له وزادت الصعوبة حينما بدأ الانشقاق بين كنائس الاسكندرية وباقى الكهنة فى القطر المصرى . فانتهز الخلكيدونيون هذه الفرصة وعقدوا مجمعا بمصر وأحضروا ثلاثة أشخاص ليختاروا منهم واحدا ليجعلوه بطريركا .

ولما بلغت فظائع القاسم الوالى الى الخليفة أمر بطرده من مصر فذهب بعض الأساقفة وقابلوه وهو منطلق وطلبوا منهم السماح لهم باقامة بطريرك فطلب منهم رشوة فأبوا أن يعطوه وتنبأوا عنه بأنه لا يرجع الى مصر مرة أخرى فرجع الأساقفة فوجدوا الخلكيدونيين قد سبقوا وأخذوا واحدا منهم كان خياطا يدعى قزمان وجمعوا مالا طائلا وقدموه للقاسم قبل سفره ليأمر باقامته بطريركا ورسموه مفتخرين على الأرثوذكسيين .

وتولى مصر بعد القاسم جعفر بن الوليد فاجتمع مجمع الأساقفة فى ٢٨ مسرى سنة ٤٤٤ ش وكان معهم كهنة الاسكندرية والأراخنة . وكان بين

هؤلاء الأساقفة الذين اجتمعوا لتقدمة البطريرك الأنبا موسى أسقف أوسيم فمضوا الى الوالى وسألوه أن يأذن لهم باقامة بطريرك فقال لهم اذا استقر رأيكم على واحد أرونى اياه فانطلقوا الى بيعة أبى شنوده فى مصر وشرعوا يصلون ويطلبون من الله أن يوفق لهم من يصلح للبطريركية فذكر لهم ابرآم أسقف الفيوم الأنبا بطرس أسقف مريوط وكان هذا قد أقام جميع أيامه فى برية أبى مقار ولكنه كان ضعيفا لكبر سنه فلم يقر الرأى عليه فاجتمعوا فى اليوم الثانى فقدم أحد الشعب اسم أحد الأساقفة فقال أسقف مصر اذا رضى به الجميع فهو أصلح من سواه فقال المقدم انتخاب البطريرك من حق الشعب والرسامة من حق الأساقفة فقال أسقف الفيوم لكم الحق فى أن تنتخبون أى انسان ولكن اذا لم يكن صالحا فى نظرنا فلا نرسمه واستمروا فى مباحثة ومناقشة مدة عشرة أيام فكان كهنة الاسكندرية وبعض الأساقفة متفقين على رسامة واحد ويقولون لا نرسم سواه وكان أساقفة الصعيد غير موافقين على رسامته فلما كان يوم ١٤ توت وقع بينهم انشقاق عظيم لحقهم بسببه حزن وبكاء فاستحضروا بينهم الأنبا موسى أسقف أوسيم والأنبا بطرس أسقف ترنوط وكان الأول مريضا والثانى معه مقيمين بجبل أوسيم بدير نهيا الذى فى بر الجيزة غربى مصر فاستدعيا الى المجمع فجاؤا بالأنبا موسى محمولا على قطعة خشب نظرا لضعفه وعدم اقتداره على ركوب الحيوانات وأتى الأنبا بطرس راكبا دابة . وحضرا الى المجمع ورأيا المناقشات الحادة التى كانت تجرى فيه وكل حزب يتشبث بتزكية من وقع اختياره عليه وكان الأنبا موسى ملقيا وسط المجمع من شدة الوجع فغضب من هذا الانشقاق وأمسك بيده جريدة وطرد كهنة الاسكندرية وأتباعهم الذين كانوا أكثر تعصبا وانقضى النهار ولم تتفق الآراء على أحد .

فلما كان نصف الليل استيقظ شماس مع الأنبا موسى وقال له أعرف انسانا يستحق الانتخاب دون غيره فسأله عنه فأجابه هو القس خائيل ببيعة أبى مقار وهو انسان فيه روح الله ومشهور بالتقوى والعلم فصرخ الأنبا بطرس وقال هذا الشماس تكلم بروح المسيح وفى الغد عندما ذكر اسم هذا القس أجمعت الآراء على انتخابه وقاموا بسرعة وتوجهوا للوالى وأخبروه بما جرى وسألوه أن يكتب لشيوخ وكهنة وادى هبيب ليسلموا لهم الأب خائيل المذكور فكتب لهم وبينما كانوا ذاهبين اليه

قابلوه فى الطريق مع زمرة من الرهبـان قاموا من الدير وقصـدوا المضى الى الوالى ليلتمسوا منـه رفع الحيف عن الـكهنة لاسيما الغرامة الباهظة التى كانت تدفع عنـد انتخـاب البطـاركة فشكروا السيد المسيح على هذا التـدبير الحسن ورجعوا به الى قصر الوالى فوافق عليه فمضوا واقاموه بطريركا باحتفـال عظيم فى ١٧ توت سنة ٤٤٥ ش وسنة ٧٣٩ م وحـدث بعد رسامته مطر استمر ثلاثة أيام فتفاءل الشعب خيرا وذلك لانقطاع المطر عنهم مدة سنتين ٠

(٤) خائيل١ ـ البطريرك السادس والأربعون :

جلس على كرسى البطريركية فى ١٧ توت سنة ٤٤٥ ش وسنة ٧٤٢ م فى عهد خلافـة هشام بن عبد الملك وسمى نفسه خائيل اى الأخير ولم يرض أن يدعى ميخائيل تواضعا منـه حتى لا يكون اسمه كاسم رئيس الملائـكة ونال حظوة لدى الوالى حوثرة الذى كان يحضره ويتحادث معه فى امور شتى ولمـا آلت الخـلافة الى مروان تقـدم اليـه قوم من الخلـكيدونيين برئاسة بطريركهم قزمان برشـوة قائلين كان لنـا كنائس كثيرة بمصر أخذها منا الأقبـاط وليس لنـا الآن بيعة واحـدة ونرجو أن تـكتب للوالى أن يسلمنا بيعـة أبى مينـا بمريوط فأعطـاهم الخليفـة أوامر الى الوالى عبـد الملك ليكشف الحـال بين الأرثوذكسيين والخلـكيدونيين ليعرف من بنى هـذه البيعـة ليسلمها اليه ٠ فاسـتدعى الوالى بطريركى الأقبـاط والروم وكان الصوم قـد قرب ورافق البـابا خائيل موسى أسقف أوسيم وتادرس أسقف مصر وطـالت المنـاقشة بين الطرفين مدة أربعين يوما حتى مل الوالى وطلب من وكيل له اسمه عيسى أن يستكتب كلا الطرفين حقيقـة مستندة فتقـدم اليـه الخلـكيدونيون بالهـدايا وجمع البابا خائيل أساقفته وكتب كتابا مملوءا بالأدلة الـكافية لاقنـاع الوالى بأن كنيسة مارمينا ملك الأرثوذكسيين غير أن الرشوة أعمت عينى الذى كلف بالبحث فى القضية ومال الى جانب الخلـكيدونيين مع ظهور الحق فى جانب الأرثوذكسيين غير أن الله لم يدعه يقرر شيئا فعزل قبل ابداء الحكم وولى آخر عادل فلمـا سمع أقوال الطرفين حكم باثبـات ملـكية الـكنيسة للأرثوذكسيين ٠ ولمـا رأى الخلـكيدونيون حبوط مؤامـراتهم الشيطانيـة حاولوا الاتحـاد مع الأرثوذكسيين ولـكن بعد استجوابهم اتضح لهم سوء نيتهم فأبوا قبولهم ٠

وحدث بعـد ذلك أنه كان فى دنقـله من بلاد النوبة ملك شرير يدعى ابراهيم وقعت بينـه وبين أسقفها كرياكوس خصومة بسبب اجتهاد الأسقف

فى ردع الملك عن خلاله الرديئة فاغتاظ الملك منه وكتب للبطريرك طالبا قطعه والا يحمل رعاياه على السجود للأصنام فبعث البطريرك اليه يسترضيه ولكنه أصر على عناده فحضر كرياكوس الأسقف الى مصر وانعقد مجمع بسببه رأى أن يبقى كرياكوس بأحد أديرة الاسكندرية ويرسل أسقف آخر للنوبة خلافه فلم يرض كرياكوس قبول هذا الحكم لأنه مظلوم فحكم المجمع بتوقيفه عن الخدم بالكنيسة وكرسوا أسقفا آخر يدعى يؤانس وأرسلوه ليأخذ مركزه ومضى كرياكوس الى دير من أديرة النوبة ومضى فيه بقية حياته منفردا عن العالم ٠

وجرى بعد ذلك أن تولى حفص بن الوليد فاضطهد المسيحيين اضطهادا مريعا للغاية واعتنق كثيرون الاسلامية وفر الأساقفة الى الأديرة خوفا من خطر السقوط فجمع البطريرك والأساقفة مجمعا حكم فيه بضرورة استمرار الأساقفة فى كراسيهم وحرم من يتجاوز هذا الحكم ٠

ثم آل الحكم بعد حفص الى عبد الملك بن مروان فاستفرغ جهده فى مضايقة الأقباط وقضى على البابا خائيل وطلب منه مبلغا جسيما لايقوى على القيام بدفعه فأمر أن يقتل البطريرك وتوضع رجلاه فى خشبة عظيمة وتطوق رقبته بطوق حديد ثقيل وكان معه أنبا موسى أسقف أوسيم وتادرس أسقف مصر وغيرهما فوضعوهم فى خزانة مظلمة نقرت فى صخر لا تصل اليها أشعة الشمس واستمروا فى هذا الضيق من ١١ توت الى ١٢ بابه وكان معهم أيضا ٣٠٠ من الرجال والنساء وكان المرضى والمعتلون يأتون الى البطريرك فى السجن لكى يصلى عليهم ويشفيهم وكان بعضهم محكوما عليه بالسجن لذنب جناه فانتهز البابا خائيل تلك الفرصة وجعل ينصحهم ليتركوا آثامهم ويتوبوا الى الله فرجع منهم كثيرون ٠

وكان على مائدة الخليفة رجل مؤمن فكان مرارا يفتقد البطريرك ويعزيه ويطيب خاطره ٠ فلما تمت سبعة عشر يوما من الشهر المذكور أمر الوالى باحضار البطريرك ومن معه وطالبه بدفع المبلغ فالتمس منه البطريرك أن يترك له فرصة يمضى فيها الى الصعيد وما يتمكن من الحصول عليه من المسيحيين يدفعه له ٠ فسار الى الصعيد وناله تعب جسيم وكان المصريون قد أصابهم العسر المالى بسبب كثرة المغارم الفادحة ٠ لكن البابا خائيل كان يمر بينهم كملاك سلام يشفى المرضى بقوة الرب ويرد الذين هجروا الايمان الأرثوذكسى وأتى الوالى بما جمعه

فلم يرتض به والقاه فى السجن فشعر بذلك كرياكوس ملك النوبة فغضب وقدم بجيوشه الى مصر وقتل من كان فى طريقه من المسلمين حتى جاء الفسطاط فعسكر فيه وهدد عبد الملك الوالى فأطلق البطريرك ورجاه ان يتوسط بينه وبين ملك النوبة فأجرى بينهما صلحا · ومن ثم صار البطريرك موضوع احترام الوالى لا سيما لأنه شفى له ابنته التى كانت مصابة بروح نجس ·

وبعد اطلاق سراح البطريرك رفع الاسرار المقدسة فى بيعة الشهيدين سرجيوس وواخس وتناول من يده جمهور غفير من الشعب وقد منع أحدهم لأنه أكل قبل مجيئه الى الكنيسة · وعلم ان قوما من المسيحيين كانوا يأكلون قبل التناول ولا يعتبرون ذلك خطية فحرر منشورا قضى فيه بمنع جميع الذين يتقدمون للتناول وهم غير صائمين · ثم ابتدأ بتعمير الكنائس التى كانت فى زمان البابا الاكسندروس قد سلب منها رخامها وخشبها فأعادها الى رونقها الأصلى ·

غير أن الزمان على مايظهر لم يدع الكنيسة المصرية تذوق طعم الراحة وقتا الا ليذيقها الشقاء أوقاتا فقد حضر مروان الى مصر ونكث هو وعبد الملك عهدهما للأقباط وأخذا فى اضطهادهم بقساوة بربرية حتى هاج هياج الأقباط وقاموا يدافعون عن أنفسهم ببسالة وتمكنوا من ان يهزموا جيش مروان ولكنه فيما بعد استجمع قواه وقاتلهم بشدة وكانت الكنيستان القبطية والرومية بجانب بعضهما فى الدفاع ضد مروان فهزم الأقباط أخيرا وقبض على البطريركين القبطى والرومى · وقد افتدى قزمان بطريرك الأروام نفسه بدفع الف قطعة ذهب أما البابا خائيل فارسل اليه الوالى يقول ادفع مقدار ما دفع قزمان وأنا أطلقك فأجابه ليس فى بيعتى شىء وأنا أجعل نفسى عوضا عن المال · فثقل رجليه بقطعة حديد والقاه فى السجن وابتدأ يعذبه مدة تسعة أيام ثم أحضره اليه وامسك بيده وجذبه على وجهه وطرحه على ركبتيه وكان فى يده قضيب فضربه به مائتى دفعة على رأسه بكل قوته ولكن عناية المسيح لم تسمح بأن يناله ضرر وبعد ذلك أمر الوالى بضرب عنقه وأنزل قلنسوته على وجهه حتى تؤخذ رأسه فقدم رقبته بسرعة وشرع السياف فى الضرب وكان يصيح أنه سيأخذ رأسه ثلاث دفعات كما جرت العادة وفى ثانى دفعة عدل الوالى عن قتله لما سمع انه كان ينصح البشامرة الثائرين من الأقباط بالعدول عن مقاتلته وارتأى أن يرسله الى رشيد وكلفه بأن يكتب للثائرين

يأمرهم بالكف عن العصيان مخبرا اياهم بأن كل ما ناله من الأذى حدث بسبب عصيانهم ٠

فلما بلغ الخبر البشامرة الثائرين تهيجوا أكثر وقاوموا مقاومة عنيفة حتى أكرهوهم على الهرب بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة ٠ فعزز مروان قوة جيشه وسمح لهم أن يذيقوا الاقباط العذاب أشكالا والوانا فاوقعوا بهم من الويلات ماتصطك لسماع أخبارها الركب وتشيب لها نواصى الولدان ٠ ومما زاد الخطب هولا أن فى سنة ٧٥١ م دخل أبو العباس مصر بجيش زاخر وهو يقصد أخذها من يد مروان ٠ وكان الأقباط فى ضيق شديد فانحازوا اليه وطلبوا مساعدته وعندما وصل السفاح الى مصر عسكر بجيشه على شاطىء النيل تجاه مروان الذى كان لايزال قابضا على البابا خائيل وموسى أسقف أوسيم وبعض الأساقفة ٠

ولما علم مروان أن بعض الأقباط عقدوا صلحا مع أبى العباس اشتد به الغضب واستدعى اليه البطريرك وأوقفه أمام الاقباط الذين كانوا مع مع خصمه فى الجهة المقابلة وأمر جنوده باهانته فمدوا اليه أيديهم بسرعة وشرعوا ينتفون شعر لحيته من عارضيه ورموا شعره فى البحر ٠ وكان المصريون وجيش أبى العباس يشاهدون ذلك بغيظ شديد وكانوا يتمنون لو يجدون مراكب يعبرون بها النهر ليقتصوا من مروان على هذا الظلم الفظيع ٠ ثم عادوا الى الأنبا موسى وأذاقوه العذاب مما لا يطيق احتماله الاقوياء فضلا عن شيخ ضعيف مثله ٠

ثم رحل مروان وأمر أن يقف البطريرك ومن معه فى الشمس على الشاطىء واستمر بقية اليوم وليلته وفى الغد جاء مروان ومعه الجلاد وجلس على شاطىء البحر وأمر باحضار البطريرك اليه فأبى الأساقفة الذين معه الا مرافقته فجاءوا جميعهم الى مروان وأوقف البطريرك بين يديه عشر ساعات ووجهه اليه وحوله عدة سيوف مسلولة وآلات الحرب ٠ وأما الذين رافقوا البطريرك من الأكليروس والشعب وعدتهم عشرة فأوقفهم على يساره فى ناحية وسلمهم الى قوم قساة وجعل مع كل واحد ثلاثة من الجنود وجعلوا يضربونهم بأعصاب البقر ولما اشتدت حرارة الشمس أعد مروان آلات العذاب المختلفة لأنهم لم يتفقوا على طريقة يقتلونهم بها ٠ وكان البابا خائيل فى تلك الأثناء يبسط يديه ويصلب على وجهه ويبارك من معه ٠ وكان الأقباط وجيش أبى العباس يشاهدونهم من البر الشرقى وجماعة من المسلمين يبكون عليهم ٠ ثم أمر مروان يزيد

أقسى جنوده أن يأخذ البطريرك الى بحرى المتنزهات فاقتيد ومن معه بفظاظة متناهية والبطريرك يصلى للرب أن يثبت ايمانهم . وقد بلغت القساوة على أولئك البائسين مبلغا استدعى اشفاق عبد الله بن مروان الكبير فبكى عليهم وتقدم وهو يسكب الدموع الغزيرة الى أبيه طالبا أن يطلق سراحهم ثم قال له . انت تعرف أننا لا نقدر على مقاومة جيش الخراسانيين فنضطر الى الذهاب للسودان وأهله كما نعلم من أولاد هذا الشيخ البطريرك فان قتلته لا يقبلونا .

فتطلع مروان الى جيوش الخراسانيين فرآهم فى كثرة أزعجته وأيقن أنه لا يقوى على محاربتهم فأعاد البطريرك ومن معه الى الاعتقال وكان ذلك المكان بالجيزة وكان فيه أربعة سجون فأدخلوهم فيها موثقين وربطوا فى قدم كل واحد منهم قطعة حديد ثقيلة وجعلوهم خلف ثلاثة أبواب من الخشب دون ان يشاهدوا ضوءا أو ينفذ اليهم هواء وكان واحد منهم ينظر الى الشرق وآخر للغرب . واستمروا فى ضيق شديد حتى أشرفوا على الموت غير أنهم تعزوا بأقوال البطريرك الممزوجة بالمواعيد الالهية التى كانت تخفف عنهم آلامهم وتنبأ لهم الأنبا موسى أنهم يخرجون من السجن ومروان فى قيد الحياة ولم يجسر أحد بالسؤال عنهم والا عرض نفسه للموت . واستمروا عشرة أيام والكنيسة تصلى من أجلهم .

وقد تمت نبوة الأنبا موسى عندما قام الخراسانيون وعدوا البحر الى الجهة الغربية وضيقوا الخناق على مروان وجيشه فانهزم أمامهم وترك جيشه وهرب وجاء ابنه الصغير ليحرق السجن الذى كان فيه البطريرك بالنار وما كادت النار تشتعل حتى أكرهه أعداؤه على الهروب وجاء بعض ذوى الشفقة وأطفأوا النار وأطلقوا المسجونين وحلوا قيودهم وجاءوا بهم الى كنيسة مار مرقس بالجيزة وكانت ليلة الأحد الأول من مسرى (١) .

ولما استولى أبو العباس على مصر أحسن الى المسيحيين ورثى لحالهم وسامح البشامرة الثائرين بالخراج ودفع لهم خراجا وطلب منه البطريرك أن يعطيه مؤونة للبيع فى كل البلاد فأجابه الى ما التمس .

---

(١) أما أسماء الذين كانوا معتقلين مع البطريرك فهى : — البطريرك وموسى أسقف أوسيم ويحنس كاتب سيرة البطريرك وأسقف طنبدا ومينا كاتبه وزكريا أسقف أتريب وبطرس أسقف بوصير وجرجس تلميذه وأثناسيوس أرشى بيعة أبى مقار ويعقوب أسقف سنجار وتلميذه بطرس من سمنود .

غير أن هذه الراحة لم تدم سوى أربع سنين كانت كأحلام النائم وتغيرت بعد سفر السفاح من مصر وتركه الولاية لسواه فأساء الولاة التصرف وأعادوا الكرة على النصارى فهم البطريرك يدافع عنهم محتجا بما أظهره ابو العباس من الأمان لهم ولكنه لم يفلح فى دفاعه عنهم واستمر المسيحيون فى ضنك حتى شوهدت مياه النيل ناقصة عن منسوبها المعتاد ذراعين وذلك لاظهار قوة الله · وكان الأساقفة حينئذ قد أخذوا يتوافدون على البطريرك فى عيد الصليب كما جرت العادة أن يعقدوا مجمعين فى السنة ·

ولما كان اليوم السابع عشر من شهر توت وهو يوم عيد الصليب فكر الأساقفة أن يقيموا صلوات خصوصية فيها يرفعون تضرعاتهم لله حتى يرحمهم ويزيد فى مياه النيل وتقدموا يصحبهم جميع كهنة الجيزة وأكثر أهل الفسطاط وحملوا الأناجيل والمباخر ودخلوا البيعة الكبيرة التى كانت للقديس مرقس وكان أساسها فى البحر ولم تكن البيعة تسع الناس لكثرتهم حتى أن باقيهم أقام بالحقول والحدائق ·

فتقدم البطريرك ورفع الصليب وكان معه أنبا مينا أسقف منف يحمل الانجيل المقدس وباقى الكهنة يتبعونهما وهم يحملون الصلبان والأناجيل المقدسة ووقفوا على شاطىء البحر قبل طلوع الشمس وصلى البطريرك وأنبا مينا والشعب يرد عليهم « كيرياليصون » (يارب ارحم) الى تمام ثلاث ساعات من النهار حتى بهت جميع الموجودين من يهود ومسلمين وغيرهم من صراخهم الذى سمعه الله تعالى اسمه وزاد النيل ذراعا فبلغ الخبر مسامع الوالى وجميع الناس فغار علماء المسلمين والتمسوا منه أن يرافقهم فى الغد لاقامة الصلاة حتى يرفعوا مياه النيل كالنصارى فالتزم من ثم الوالى أن يدعو أرباب الأديان ليصلوا الى الله بشأن ذلك فدعا علماء الاسلام فصلوا وجاء بعدهم حاخامات اليهود فصلوا والمياه لم ترتفع بل أخبرهم أحد قياسى النيل أن مازاده أمس نقصه اليوم ·

فاغتاظ الوالى والمصلون وأمر بالكف عن اقامة الصلاة بالمرة خوفا من أن يزيد النيل مرة ثانية بصلاة الأقباط فيعتريهم الخجل الا أنه لما رأى الخطر يتهدد البلاد من قلة المياه أضطر أن يدعو النصارى للصلاة فحضر البطريرك وحاشيته واحتفل برفع الأسرار الربية واستمروا الى الساعة السادسة من النهار ولما القوا مياه غسل الأوانى المقدسة فى البحر فحلت على مائه البركة الالهية وأخذ يرتفع حتى زاد ثلاثة أذرع ·

فأحب أبو عون الوالى النصارى وواساهم وعمل الخير فى كنائسهم واستمر البابا خائيل بعد ذلك يجاهد فى خدمة الله فكان يطوف على رعيته مفتقدا اياها شافيا المرضى رادا الضال . ثم كاتب البقية الباقية من حزبى ميليتس ويوليانوس الهرطوقيين ليردهم عن ضلالهم فلم يردوا عليه فسار اليهم بنفسه وأخذ يقنعهم فلم يسمعوا قوله فتركهم ساخطا عليهم فحل عليهم غضب الله وأصابهم وباء شديد فأفنى جلهم .

أما كنيسة أنطاكية فى عهد البابا خائيل فكان قد توفى بطريركها أثناسيوس وأقيم بعده يوحنا الذى اقام ثلاث سنين ثم لحق بسلفه واستمر كرسيه بعده شاغرا . وحدث بسبب البطريركية نزاع شديد بين بعض أساقفة سوريا وبين البابا خائيل وذلك أن امرأة المنصور ابى جعفر كانت عاقرا فسمعت عن تقوى اسحق أسقف حاران وعمله العجائب فاستدعته فحضر لديها وصلى لأجلها فتم لها ما ارادت ورزقت ولدا فصار الأسقف اسحق عندها موضوع الاكرام والتبجيل . وحدث بعد وفاة يوحنا بطريرك أنطاكية أن اسحق سأل الوالى أن يخلفه فأجيب سؤله حالا وتهدد بالموت كل من يتعرض له . وقيل أنه تسبب فى قتل مطرانين قالا له انك بصفتك أسقف حاران لا يلزمك أن تتقوى بالسلطان وتغتصب الكرسى .

وبعد ذلك كلف الخليفة بأن يكتب الى والى مصر يأمره بان يتمم كافة رغائب اسحق لدى بطريرك مصر . ثم كتب كتابا الى البابا خائيل وأرسله صحبة مطرانى دمشق وحمص وكاتبين له أحدهما قس والآخر شماس . فلما اطلع البابا خائيل على الكتاب لم يقدم رأيا قبل مشورة الأساقفة فاستدعاهم اليه ولبث مجتمعا بهم مدة شهر وقرر أخيرا أنه لا يشترك مع بطريرك أخذ رتبته بقوة السلطان . وكان الأمر للوالى من قبل الخليفة أنه اذا رفض بطريرك مصر اجابة طلب اسحق يرسل اليه فخير البطريرك بين المصادقة على بطريركية اسحق وبين السفر للسلطان فقبل السفر لولا شفقة الوالى عليه لشيخوخته ومشقة الطريق وحاول أن يقنعه بالمصادقة فأبى وأخذ يتأهب للسفر ولم يؤخره عنه الابلوغه خبر وفاة اسحق سبب النزاع وقيام آخر مقامه يدعى أثناسيوس وهذا أيضا توفى فى اليوم الثالث لرسامته وقام بعده رجل كان خلكيدونيا واعتنق الأمانة الأرثوذكسية يدعى جرجس فلم يمر عليه الا القليل حتى قبض عليه واودع السجن بسعاية أسقف من أساقفته يدعى داود يرغب أن يأخذ مكانه وكانت أمه خادمة

لأبى جعفر المنصـــور • ومن ذلك الحين انقطعت العــلاقات بين الـــكنيستين الأنطاكية والاسكندرية مدة ما • وكانت البيعة فى أيام البابا خائيل الأخيرة فى ســـلام • ثم تنيح ومضى الى الرب فى ١٦ برمهـــات سنة ٤٦٨ش و٧٦٧م بعد أن أقام على الـــكرسى ثلاثة وعشرين عاما •

(٥) مينا ــ البطريرك السابع والأربعون :

وبعد نياحة البـــابا خائيل اجتمع الشعب والأساقفـــة لانتخـــاب خلف له فـــذكر القس مينـــا الراهب من سمنود ببيعـــة أبى مقار وكان قيما من شبوبيتـــه وتلميـــذا للبابا خائيل • وما جلس على الـــكرسى فى شهر برمودة سنة ٤٦٨ش و ٧٦٧م فى عهد خلافـــة المنصـــور بن محمد حتى أخذ يصلح ما أفسدته يد الاضطهاد وذاقت الـــكنيسة طعم الســـلام بعـــد أن حرمت منه مدة طويلة • غير أن الشيطان عـــدو الســـلام أثار الشر على البـــابا مينـــا بواسطة راهب يدعى بطرس من قرية تسمى دسيمه طمع فى نوال الأسقفية ولم ينلهـــا لعـــدم استحقاقه فأخـــذ يشـــيع المـــذمات على البطريرك حتى استدعاه اليه وجعل ينصحه لـــكى يعـــدل عن شره فلم يرعو بل ساهر الى ســـورية وزور مكاتيب باسم البـــابا مينـــا الى بطريرك أنطاكية ومطارنتـــه يقول فيهـــا أن كنيسة مصر وقعت فى شـــدة وأصيبت باضطهاد عظيم فاعتنى به البطريرك وجمع له مالا وزوده بتوصـــيات الى العظمـــاء لينـــال منهم خيرا واستمر مستعملا غشـــه حتى وصل الى مدينـــة دمشق التى يقيم بها الخليفـــة فبـــدأ يذيع الأخبـــار بأن بيت مال الخليفـــة خال من المال وبطريرك نصـــارى مصر له دراية بعمل كيميا الذهب ولأجل هـــذا ملأ كنائســـه من الأوانى المصـــنوعة من الذهب والفضـــة وعزز كـــلامه هـــذا بدفع رشـــوة لموظفى بلاط الخليفـــة حتى يقدموه له •

وكان ابن الخليفـــة قـــد مات فلما وقع نظره على بطرس رآه يشبه فى صـــورته صـــورة ولده الميت فـــدخل به الى زوجتـــه النـــائحة لـــكى تتعزى فسرت بمرآه وأقام عنـــدهم عـــدة شهور ونال حظوة فى عينى الخليفة حتى صرح له باستعداده لقضاء جميع مآربه فطلب منه أن يقيمه بطريركا عوض مينا بطريرك مصر فـــكتب الخليفـــة الى الوالى عبد الرحن وكلفـــه بأن يجهز لبطرس ثيـــابا فاخرة ويرقم عليهـــا بالخط العربى « بطرس بطريرك مصر » وكتب اســـم الملك فـــكتب بطـــرس من جهـــله بعـــد اســـمه لفظـــة « عبد الملك » •

ولما وصل الخبر للوالى أرسل يستدعى البطريرك القديس فتوسل الى الرب أن يخلصه من هذه التجربة وسار للوالى الى مصر منشرحا لاستحقاقه أن يتألم من أجل المسيح · فأعلمه الوالى بجلية الخبر فشخص الى بطرس وشجبه بشجاعة فأراد الوالى أن يقنعه بالحسنى باطاعة أمر الخليفة فأجابه « لا ينبغى أن أطيع الخليفة وأقاوم الله » فسأل الوالى بطرس عما يريد أن يفعله فأجابه أنه يروم أن يستحضر لديه كل الأساقفة ويلزمهم بطاعته ويشخص الى الاسكندرية ليستلم كنائسها فاعتقل البطريرك وتادرس أسقف مصر حتى يدعو البطريرك بقية الأساقفة فكتب اليهم يستدعيهم الى الفسطاط فأسرعوا فى الحضور وقام بطرس يوم الأحد بينما كانوا يقيمون الصلاة فى الكنيسة وتقدم بجسارة وصعد الى الهيكل ليقول صلاة الشكر كالبطريرك والقلنسوة المكتوب عليها اسم الملك على رأسه فلما شاهد الآباء الأساقفة هذا التصرف الشنيع أسرع أنبا مينا أسقف صنبو وأنبا موسى أسقف أوسيم وامسكا بالقلنسوة ورميا به من على الهيكل وقال له بقية الأساقفة « لا تقف أمام الهيكل لئلا تنجسه » فأمر بأن توضع فى رقابهم وأرجلهم السلاسل الحديدية وطرحوا فى السجن فاستمروا فيه أياما قلائل وطلب بطرس من الوالى أن يأتى بهم من السجن ويوقفهم بين يديه ففعل فأمر بطرس أن يستحضر الأوانى المصنوعة من الذهب والفضة لتحمل الى بيت الملك فأجاب البطريرك بأن الكنيسة لتوالى الاضطهادات عليها عدمت كل أثاثها » وقال له بطرس « أنا أعرف أن لديك كتابا تستطيع أن تصنع به ذهبا وفضة » فأجابه البطريرك « انى لا أعرف شيئا من ذلك » فحلف بطرس برأس الخليفة أن يلزم البطريرك ومن معه أن يشتغلوا فى طلى المراكب بالزفت فلزم البطريرك والأساقفة هذا العمل مدة سنة ووجوههم تكاد تصهرها الشمس حتى كان يبكى عليهم كل من شاهدهم ثم أعيدوا الى السجن وما زال بطرس يطالبهم بتسليم أوانى الكنائس ·

وكان الوالى غير راض على تصرف بطرس القبيح ولكنه لم يشأ مقاومته خوفا من الخليفة · غير أنه لما رآه تجاوز الحد فى شره عنفه على ما يأتيه ضد كبير النصارى · فهدده بطرس قائلا « أتريد أن أطيع البطريرك وأخالف الملك » فخشى الوالى أن ينم فيه لدى الخليفة فقبض عليه وكبل يديه ورجليه بالحديد وطرحه فى السجن والقاه فى مطبق ضيق وأفرج عن البطريرك ومن معه فمضوا الى الاسكندرية ودخلوا البيعة بفرح عظيم وواصلوا جهادهم فى خدمة الكنيسة ·

ولما تمت ثلاث سنين وبطرس فى السجن تغير الوالى الذى كان يمقته وعين عوضه فأطلق جميع المسجونين ومنهم بطرس فانطلق الى الخليفة وأعلن اسلامه وروى من الأخبار الكاذبة ضد البطريرك والوالى المعزول ما شاءت له نياته السيئة وطلب من الخليفة أن يعطيه قوة كبيرة لكى ينتقم من البطريرك أشر انتقام ولكن الرب لم يسمح فقبل وصوله الى مصر مات الخليفة فخزى بطرس ومضى الى بلده فعرفه كل من التقاه وأبى جميع معارفه الاختلاط به حتى اضطر أن يستغفر الأساقفة ليرضى عنه الناس ولكنهم رذلوه وظل مرذولا حتى مات أشر الميتات ·

وبعد ذلك تنيح البابا مينا بسلام بعد أن مضى مدة ثمان سنين على الكرسى المرقسى وكانت وفاته فى آخر يوم من طوبة سنة ٤٧٨ ش و ٧٧٦ م ·

وبعد وفاة البابا مينا بقيت البيعة بدون بطريرك حتى اجتمع الأساقفة وفكروا فى اقامة خلف له وذكروا عدة أسماء وأقاموا عدة أيام حتى ينتخب الرب من دعاه لهذه الخدمة · وكان آباؤنا اذا اجتمعوا للاتفاق على اقامة بطريرك يكتبون أسماء كثيرة فى رقاع صغيرة ويضعونها على الهيكل ويصلى الأساقفة والكهنة والشعب الأرثوذكسى الى الرب بنية خالصة ويصيحون (كيرياليصون » ثم يجعلون غلاما صغيرا يمد يده ليأخذ رقعة من جملة الرقاع فالذى يخرج اسمه يقدمونه بطريركا ·

فلما فعلوا ذلك كان ببيعة القديس أبى مينا قس اسمه يوحنا تلميذ للبابا خائيل وهو مولود فى نبا وأبى صير وترهب فى وادى هبيب ولم يكن اسمه بين المكتوبين فذكره لهم شيخ شماس معددا فضائله فكتبوا اسمه وصلوا وفعلوا كما تقدم ذكره ثلاث دفعات فخرج اسمه فى الثلاث المرات والجميع يتعجبون ويقولون « حقا مستحق » فقدموه وجلس على الكرسى ·

(٦) يوحنا٤ ـ البطريرك الثامن والأربعون :

وبعد جلوس البابا يوحنا على الكرسى المرقسى فى شهر أمشير سنة ٤٧٨ ش و ٧٧٦م فى عهد خلافة محمد المهدى كتب سنوديقا ممتلئة حكمة الى الأب المغبوط جرجس بطريرك أنطاكية يجدد له فيها اتحاده معه فى الأمانة · وكان الأب جرجس قد ألقى فى السجن كما ذكر وجلس عوضه ابن خادمة الخليفة الذى لم يخاطب الكرسى الاسكندرى بتة حتى مات.

وعاد الأب جرجس بعد عشر سنين وجلس على كرسيه ثانية فلما وقف على رسالة البابا يوحنا سر منها للغاية ورد عليها بمثلها ٠

وكان البابا يوحنا حسن الخلق والخلق ونال حظوة عند الملوك والولاة مداوما لعمل الخير فاهتم ببناء بيعة ومسكن بطريركى فشيدهما بأتم زينة وزين كل بيع الاسكندرية بمساعدة الولاة والشعب ٠ وفى أيامه كان علم السلام يخفق على الكنيسة بأسرها حتى عمل تذكارا له بهذه المدينة وانتشرت سيرته الصالحة على كل لسان حتى أن المخالفين كما هى عادتهم أخذهم الحسد وكان رئيس الهراطقة حينئذ رجل يسمى يوليانوس وكان صبييا ماهرا مشهورا ومحترما لدى الملوك المسلمين لأجل صناعته فحاول كثيرا أن يستولى على بعض الكنائس القبطية غير أنه لم يستطع لهياج الشعب وخاب مسعاه فضلا عن أن تهمه لم تلق من يصغى اليها لثقة الجميع باستقامة البطريرك الاسكندرى ٠

فواصل البابا يوحنا جهاده فى بناء البيع حتى أن الشعب الأرثوذكسى لما شاهد شغفه بتشييد الكنائس كان الكثيرون منهم يسلمون له أموالهم ليبنى بها البيع تذكارا لهم ٠ وكان فى بيعة أبى مينا قيما يدعى مرقس من الاسكندرية اشتهر بتقواه وعلمه واجادة القراءة والترتيل فى الكنيسة حتى كان الكثيرون يبكرون الى البيعة لئلا تفوتهم قراءته فاتخذه البطريرك له تلميذا وقدمه فى الرتب الكهنوتية ولكنه كان يزداد تواضعا وطلب منه معلمه أن يلبسه اسكيم الرهبنة فأخذه الى دير أبى مقار وكرسه فيه وتنبأ عنه أحد الشيوخ قائلا « انه سيكون خليفة مرقس الرسول » ٠

ولما رجع البطريرك من الدير طلب منه رجلان صالحان يدعى أحدهما كوريا والآخر برنابا أن يستأنف اهتمامه ويشيد كنيسة باسم الملاك ميخائيل فكلف شماسه مرقس بالاشراف على عمارتها فكان نشيطا ناجحا فى عمله فوسوس الشيطان الى يوليانوس الهرطوقى أن يذكر أمام الخليفة أن البابا يوحنا أخذ أملاك الحكومة وبنى فوقها كنائس غير أنه بعد الفحص ظهر كذب ذلك المخالف وجعل الرب فى قلب الخليفة أن يأمر البطريرك باتمام البيعة فتم بناؤها فى مدة خمس سنين وكانت تدعى بيعة التوبة ٠ وكان مساعدا للبطريرك شماس كاتب اسمه يوحنا صار فيما بعد أسقفا لكرسى سخا بعد وفاة البطريرك ٠

وبعد ذلك نزل غلاء عظيم على مدينة الاسكندرية فحل البلاء بكثيرين من النـاس حتى حزن قلب البـابا عليهم وصلى طالبـا رفع هذا الويل عنهم وكلف تلميذه مرقس أن يمد يده لاغاثة كل محتاج وكانت مخازن البيعـة وحسابها تحت يده واستمر يحض الأغنيـاء على مساعـدة الفقراء حتى شفق الرب ورفع الغلاء ٠

وحينئذ تنيح الأب جرجس بطريرك أنطاكية وأقيم عوضه انسان قديس يدعى كرياكوس فلما اتصلت به أعمال البابا يوحنـا كتب اليـه يجدد معه علاقـة الاتحـاد التى كانت قـد انقطعت مدة بسبب الاضـطهاد الذى كان واقعـا على الـكنيستين فرد عليـه البـابا يوحنـا برسـالة كلهـا اخلاص ومحبـة ٠

وحدث أيضـا أن أنبـا جرجس أسقف مصر تنيح فـكتبت رعيته الى البطريرك تلتمس منه اقامة شماسه مرقس عوضـه فأجاب طلبهم واستدعى الشماس ليقيمه أسقفا فأبى بتـة فشدد عليه وأرغمه على قبول القسوسية ليصير أسقفا بعدها ولـكنه التمس منه أن يعفيـه من هـذه الخدمة الشاقة فلم يقبل البطريرك طلبـه فلاذ مرقس بالهروب واضطر البطريرك أن يكرس لشعب مصر قسا يدعى ميخائيل أسقفا لهم ٠

فحقد البطريرك على مرقس بسبب هروبه منه وكتب لشيخ قـديس بالبرلس يسمى جرجس يخبره فيه أنه وجد على مرقس لعصيانه عليه وعدم قبوله للأسقفية فأرسل اليه الشيخ جرجس يقول له ان عدم قبول الأسقفية من الله الذى سـيجعله بطريركا بعدك فتعجب البطـريرك وطلب الشماس مرقس اليه ورفع شأنه ووضعه عنده موضع الاحترام والتبجيل ٠

وتوجـه البطريرك الى فسطاط مصر ليجمع خراج الـكنائس فحـرك الشيطان واليـا مبغضا للمسيح على أن يهـدم بيع مصر ولـكن الرب أماته قبل أن يبـدأ بعمله المـذموم وعين مكانه انسان محب للنصارى فساعدهم على ترميم البيع التى كان سلفه قـد شرع فى هـدمها ٠ وكان البطريرك قـد قضى أشـغاله بمصر وعول على العودة للاسكندرية وكان عيد الميـلاد قـد قرب فطلب منه شـعب مصر أن يبقى عنـدهم ليرفع لهم الأسرار المقدسة ويناولهم ٠ فلمـا دخل البيعـة رآها بغير سقف فتنهـد وطلب من الرب أن يقويه ليكمل بنـاء كافـة البيع غير أن الرب أبقى هـذا العمل الجليل لخليفتـه ٠ فلما أكمل الخـدمة شعر بضعف أصـابه ولحقـه وجع برأسه

فطلب من الأساقفة أن يمضوا به الى الاسكندرية ليموت فيها فحملوه فى مركب وكان معه ميخائيل أسقف مصر وجرجس أسقف منفيس فلما وصل الى الاسكندرية ثقل عليه المرض ولحق بآبائه بعد أن أوصى بمرقس ليكون بعده فى اليوم السادس عشر من شهر طوبه سنة ٥٠٢ ش و٧٩٩م قيل ان يوم موته هو يوم ميلاده ويوم تعيينه بطريركا · وأقام على الكرسى اربع وعشرين سنة ·

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

(١) أنبا صموئيل أسقف أوسيم (٢) أنبا موسى أسقف أوسيم

---

(١) أنبا صموئيل أسقف أوسيم :

عاش عيشة الزهد فلم يقتن لنفسه شيئا من مقتنيات العالم فلم يكن له سوى ثوب واحد وكان بهى الطلعة حسن السيرة يعظ الخطاة والمرتدين عن الايمان فيسمعون له ويطيعون قوله · وكان مع البابا الاكسندروس الثانى وقت أن دعاه جابى الخراج وهو ينوى به شرا ففرا كلاهما معا فتبعهما الجابى فوجد البطريرك قد مات والقى القبض على هذا الأب وأتى به الى عبد الله الوالى الذى اتهمه بأنه حرض البطريرك على الهروب وطلب منه أن يدفع عوضه الف دينار : وكان الأنبا صموئيل فقيرا لا يملك قوت يومه فاعتذر للوالى بعدم قدرته على دفع المبلغ فلم يقبل منه وسلمه الى شرطيين لتعذيبه فأخذاه وقدماه الى قوم من البرابرة لهم طباع الوحوش فجذبوه وصاروا يجرونه فى شوارع مصر حتى أتوا به الى باب بيعة مار جرجس وجمع كثير يجرى خلفه ·

وبعد هذا العذاب عادوا يطالبونه بدفع المبلغ ولما رأوه عاجزا عن تقديمه نزعوا عنه ثوبه وألبسوه مسح شعر وعلقوه بذراعيه وهو عريان وجميع الشعب ينظرونه وهم يضربونه بسياط من جلود البقر حتى جرى دمه على الأرض واستمروا معه على هذا الحال أسبوعا وكبار الموظفين يتوسطون له عند الأمير وأفهموه بأن لا يد له فى هروب البطريرك حتى

أطلقوه بعد أن تجرع كؤوس الآلام أشكالا ولا ريب أن ذلك العذاب قضى عليه فلحق بآبائه ٠

(٢) أنبا موسى أسقف أوسيم :

من أعلام آباء الكنيسة فى هذا الجيل نشأ على حب الطهارة والبتولية من صغره وتعلم علوم البيعة وصار شماسا ثم قصد برية شيهات وترهب عند رجل قديس فمكث فى خدمته مدة ثمان عشرة سنة سالكا طريق الفضيلة والنسك الزائد ٠ ولما اشتهر أمره اختير أسقفا لأوسيم فرعى رعيته أحسن رعاية ولم يقتن شيئا فى كل زمانه وعرف بالتقوى والشجاعة وكان يقضى جل أوقاته فى الأصوام والصلوات حتى لم يكن يتيسر للناس مقابلته الا فى يومى السبت والأحد وكان غيورا على الايمان المستقيم ففى أول رسامته كان فى مدينة أوسيم أديرة كثيرة لأصحاب ميليتس المنشق فوعظهم بكلام كثير وكان جلهم قد لبسوا الاسكيم من يده فلما لم يطيعوه نفاهم جميعا ٠

وأعطاه الرب موهبة صنع الآيات والعجائب فشفى كثيرين من أمراض مختلفة وتنبأ كثيرا عن حوادث قبل وقوعها فكان كما قال ٠ وقبل انتخاب البابا خائيل الأول كان والى مصر يضايق الأقباط فتنبأ الأنبا موسى عن آخرته السيئة وتم قوله وتولى بعده حفص بن الوليد فطلب منه الأنبا موسى أن يسمح لهم بانتخاب بطريرك فسمح لهم ٠

ولما جرى الاضطهاد على البيعة هرب كل الأساقفة من كراسيهم الا أن أبروشية الأنبا موسى تعلقت به لكى لا يتركها فريسة للذئاب فكان يطوف الجيزة وأعمال مصر مفتقدا المؤمنين ومثبتا اياها ٠ وأتاه يوما بعض أراخنة مصر وطلبوا اليه أن يصلى الى الله ليرفع الكرب عنهم وعن شعبه لأنهم كانوا قد أحصوا الذين اعتنقوا الاسلام فوجدوهم أربعة وعشرين الفا فقال لهم آمنوا يا أولادى « ان الوالى الذى يضطهدكم يهلك فى بحر هذا الشهر » فكان كما قال ولما بلغ أمره حوثرة الوالى الذى خلف ذاك قرب اليه القديس وكان يستشيره فى الأمور المهمة ٠

وحدث بعد ذلك خلاف بين الأرثوذكسيين والخلكيدونيين على البيع فخاف الشمامسة أن يدفع الخلكيدونيون رشوة للوالى فيسلم لهم فى بيع الأرثوذكسيين ولذلك طلبوا من الأنبا موسى أن يرشى الوالى مثلهم فأجابهم

« يا أولادى لا يليق بالبطاركة والأساقفة أن يدفعوا رشوة لأحد كما لا يليق بهم أن يأخذوا من أحد فان الله لا يتخلى عنا حسب وعده » وقد حقق الرب قوله فحكم بالكنيسة للأرثوذكسيين ٠

وفى أثناء ثورة البشامرة ضد الحكومة سأل تلميذ له عن النتيجة فأجابه لا يترك الله بيعته الى التمام بل يخلصها وهذه المملكة تبيد وتحل أخرى محلها وبعد مدة وجيزة ضيق ابن مروان الوالى على البابا خائيل فأتى هذا صباح يوم أحد الى أوسيم والجنود تقوده فعندما أبصرهم الأنبا موسى قال هذا هو اليوم الذى أتوقعه ومن أراد أن يبذل نفسه فليتبعنى لأنى أشتهى من زمان أن أسفك دمى الدنس عوضا عن الدم الزكى المسفوك عنا ٠ ولكن عظيم هو حزنى لأن جيل القديسين قد اضمحل وافتقرنا جدا اذ لانجد انسانا يشاركنا فى هذه التضحية ٠

ولبس القديس ثوبا وترك جميع مافى بيعته وتبع البطريرك ولما مثلوا أمام الوالى طرح الأنبا موسى على ركبتيه ورفعت رجلاه الى فوق وضرب بدبابيس نحاس على جنبيه ورقبته وكان الجنود المكلفون بضربه يقولون له اعطنا مالا ونحن نتركك فلم يكن يجاوب بكلمة واحدة ٠

وأمر الوالى بقطع رقبة البطريرك وساقه السياف الى موضع القتلى فجرى الأنبا موسى خلفه ولم يشأ أن يتركه فمنعه السياف وهو لا يمتنع حتى غضب منه ورفع عليه دبوس نحاس ليضربه به فمد القديس رأسه الا أن بعض الموظفين منعوا الجلاد من أن يضربه ٠ وكان الجنود يشهدون عنه قائلين بلغتهم العربية « نعم هذا الخادم لربه » ثم وضع فى السجن مع البطريرك وقيدت رجلاه مع كثيرين من الأساقفة فتنبأ لهم الأنبا موسى بأنهم يخرجون بالسلامة وتم قوله لأن مروان مضطهدهم انهزم فخرجوا من السجن سالمين الى كراسيهم ٠

واستمر القديس موسى مرافقا للبابا خائيل طول أيام تجاربه ولما أكمل أيام جهاده مرض وعرف أن وفاته قد دنت فاستدعى اليه رعيته وأوصاهم ثم باركهم وتنيح بسلام ٠

القسم الثالث
الملكة والكنيسة

(١) عصبة بن عبد العزيز
(٢) خلافة الوليد بن عبد الملك وولاية عبد الله ابن أخيه
(٣) ولاية قره بن شريك
(٤) خلافة سليمان بن عبد الملك وولاية أسامة بن يزيد
(٥) خلافة عمر بن عبد العزيز
(٦) خلافة يزيد بن عبد الملك
(٧) خلافة هشام بن عبد الملك
(٨) ولاية حنظلة بن صفوان
(٩) خلافة الوليد بن يزيد
(١٠) ولاية عبد الملك بن مروان
(١١) مصر فى عهد الدولة العباسية
(١٢) خلافة أبى جعفر المنصور
(١٣) خلافة هرون الرشيد

---

(١) عصبة بن عبد العزيز :

وولى بعد عبد العزيز على مصر ابنه عصبة (ويسميه الأنبا ساويرس الأصمع) فبذل جهده فى اضطهاد الأقباط وساعده على ذلك شرير يدعى بنيامين كان شماسا فى الكنيسة ولكنه اعتنق الديانة الاسلامية وتصادق مع عصبة وصار يوغر صدره على الأقباط حتى فسر له الانجيل باللغة العربية وكان يقرأ كتب النصارى عله يجد فيها طعنا بالمسلمين وتمكن من أن يجعل عصبة يستخدم ضدهم كل طريقة جائرة ليقلل عددهم ويذل من شأنهم فألزمهم بدفع مغارم باهظة ولما رأى الأقباط أن المسلمين معافون من دفع الجزية التى أصبحت وقرا ثقيلا على عاتقهم بسبب الزيادات التى كان يضعها عليهم الولاة خلافا للعهد وما كان يصيبهم من متوليى الخراج من الجور والعسف فى تحصيلها آثر بعضهم الاسلام تخلصا من المغارم الفادحة ومن هؤلاء بطرس والى الصعيد وتادرس أخوه وثاوفانس ابن عمدة مريوط وكهنة وعلمانيون لا يحصى عددهم ٠

وتسبب عن اقبال الأقباط لاعتناق الاسلام نقص فى الايراد فوشى اليه بنيامين بأن الرهبان قوم أغنياء ينفقون من أموالهم الوافرة على طيب المأكول ولذيذ المشروب فأراد عصبة أن يعوض بما يفرضه عليهم ماخسره من الذين أسلموا ٠ فأنفذ صاحبا له يدعى يزيد ومعه آخر فأحصى جميع الرهبان فى سائر الأماكن ولا سيما فى وادى هبيب حيث وجد أكثر من ستة آلاف راهب وفرض على كل واحد منهم دينارا وأمرهم أن لايرهبوا أحدا بدون اذنه ثم الزم الأساقفة بدفع الفى دينار كل سنة خلاف الجزية المقررة عليهم ٠

غير أن الله لم يسمح لعصبة أن يستمر فى طغيانه فأدبه تأديبا قاسيا وذلك أنه لما كان يوم سبت النور دخل الى كنيسة حلوان ووقع بصره على صورة السيدة العذراء وابنها السيد المسيح فى حضنها فسأل الأساقفة عنها فأفهموه مغزاها فملأ فمه بصاقا وتفل عليها وأخذ يجدف قائلا من هو المسيح حتى تعبدوه وأقسم أنه اذا طال به الزمن سيمحق كل النصارى ٠ ولكنه فى تلك الليلة أنزل الله به انتقاما مريعا وفى صباح عيد القيامة توجه الى أبيه وهو جالس مع أعيان الأمة وقص عليه حلما هائلا شاهده وهو أنه أبصر انسانا بهيا جالسا على عرش وحوله الوف وربوات يحملون السلاح فسأل من هذا الذى أخذ الملك من أبى فقيل له انه يسوع المسيح ملك الملوك ورب الأرباب الذى بصقت فى وجهه ثم تقدم أحد الجنود وطعنى بحربة فى جنبى ٠ ولم يكد ينتهى من قصته حتى ضربه الله بحمى قتاله لم تمهله سوى ساعات قليلة تجرع فيها مر العذاب فحزن عليه أبوه حزنا مفرطا ولحقه بعد أربعين يوما ٠

وكان الموظفون المسلمون أقل علما بشؤون وظائفهم من الموظفين الأقباط وقد فكروا مرارا فى الاستغناء عنهم ولكنهم رأوا أن الأحوال لا تستقيم بدون وجودهم فكان بقاء الأقباط فى وظائفهم سببا من الأسباب التى كانت تخفف من وطأة الاضطهاد عليهم ولو أن الموظفين لم يكونوا يستطيعون المجاهرة بالدفاع عن اخوتهم ٠ ومع أن الحكومة كانت تدرك شدة الحاجة اليهم فى أعمالها الهندسية والطبية والحساب وفى كل شغل يحتاج الى الذكاء والانتباه الا أنها لم تعفهم من اضطهادها وجورها مرارا حتى اضطر كثيرون منهم الى السير تبعا لرغبة رؤسائهم فأهملوا فى اتمام واجبات دينهم التى كانت توجب السخط عليهم ٠

(٢) خلافة الوليد بن عبدالملك سنة٧٠٥ وولاية عبدالله ابن أخيه :

تولى عبد الله هـذا مصر وكان كريهـا للنصـارى فاشتد عليهم وبلغ ظلمه عنان السماء حتى أنه كان فى أكثر أوقاته اذا جلس على المـائدة يأمر بذبح بعض الأقبـاط امامه ليتلذذ برؤية دمهم يسيل على الأرض أو يطير على مائدته • فاحتمل الأقبـاط من الأهوال مايشيب لهولها الولدان وحكم بالموت على كثيرين منهم وقضـوا شهداء ولـكن الحكومة لم تسمح بدفن جثثهم الا اذا دفع أهلوهم مبلغـا من المـال فاضطر كثيرون الى اعتنـاق الدين الاسـلامى • وغيرهم هاجروا القطر المصرى هربا من الضيق الذى استحكمت حلقـاته عليهم • وآخرون ماتوا من شدة الجوع وهدمت كنائس كثيرة وتعطلت شـعائر العبـادة فى كثير من الأنحـاء حتى عزل عبد الله فتنفس المضطهدون الصعداء •

وفى أول هـذا الجيل أمر عبـد الله أن تجعـل الـكتابة فى دواوين الحكومة بمصر باللغـة العربيـة وكانت الى ذلك الحين بالقبطيـة وكان القـائم بهـا وبسائر الأعمال الادارية الاقباط تحت رئاسة انتناس الذى كان أمينا على بيت المـال كما تقـدم فعزله وولى مكانه ابن يربوع الفزارى من أهل حمص • ولمـا رأى القبطـان هـذا التغيير يعود عليهم وبالا ويأول الى رفتهم من وظـائفهم جدوا فى تعلم اللغة العربيـة فأتقنوا فنى الـكتابة والحساب بهـا فى وقت قصـير بل تفننوا فيهما وجعلوا لحساباتهم قواعد وروابط مخصـوصة • ونقلت ايضا أسماء البلاد الى العربية فتحرفت عن أصلها كما نرى •

(٣) ولاية قرة بن شريك سنة ٧٠٩ م :

وقـد سـار قرة على منوال سلفـه فى اضـطهاد الأقبـاط وعاملهم وبطريركهم بقساوة بربرية وثقل الجزية على الرهبـان وأمر بضم تركة كل قبطى غنى يموت الى حوزته • وكان قـد مات كاتب فى ديوان الاسكندرية وغيره كثيرون فأخـذ مالهم ثم نفـذ أمره فى الأساقفـة وزاد عليهم مائة الف دينـار غير المقرر عليهم • واشتد قرة فى جوره فـكان يحتقر عبـادة الأقبـاط ويدخل أحيـانا الى كنائسهم ومعـه رجال حاشـيته ويوقفهم عن صـلاتهم • ولمـا عمت الويلات ظهـر أن الأقبـاط يهجرون بلادهم بكثرة متناهيـة فـكلف رجلا من سخا يدعى عبد العزيز بالوقوف فى وجـه كل الهاربين وتقييد كل من يراه هاربا وارجاعه الى مكانه •

وكأنه لم يكف البلاد ما أصابها من الوالى فحل بها وباء عظيم حصد الألوف من الأرواح ولكنه أحسن اذ دخل قصر قرة فنهب نساءه وكان هو يهرب منه الى كل مكان ولكنه أصابه وأودى بحياته ·

والذى جاء بعد قرة لم يلبث سوى ثلاثة أشهر خربت فيها أكثر كنائس الاسكندرية واخذت اعمدتها الرخام والمرمر وباقى أنواع الزينة والزخرفة ووضعت فى الجوامع التى لم تكن تزيد الا بقلة الكنائس ·

(٤) خلافة سليمان بن عبدالملك سنة ٧١٤م وولاية أسامة بن يزيد :

وعين الخليفة سليمان أسامة جابيا لخراج مصر فلم ير الاقباط حاكما أشد منه قساوة وأعظم شراسة فكانت مدة ولايته عليهم من أبلغ أيامهم هولا · ولما رأى أنه يوجد فى برية شيهات وحدها عدد عظيم من الرهبان خشى قيامهم ضد الحكومة الظالمة فأمر بمنع الترهب وبالغ فى التنكيل بهم ليفل جموعهم فزاد الضريبة الموضوعة عليهم ورتب طريقة جديدة بها يتأكد من دفعهم اياها فأمر بأن يلبس كل راهب خاتما من حديد فى اصبعه مكتوبا عليه اسمه واسم ديره يسلمه اليه جابى الخراج عندما يدفع ماهو مقرر عليه من الجزية واذا وجد واحد منهم غير لابس له تقطع يده واذا أصر على المخالفة يقتل ·

وتكرر الهجوم على الأديرة وهدمها وقتل من بها من الرهبان غير الحاملين هذا الوسم ولم يكن يحصى عدد من قطعت أيديهم لهذا السبب ومن حلقت لحاهم وقلعت عيونهم وجلدوا بالسياط وكثيرون ذاقوا باقى أنواع العذاب التى أودت بحياتهم وكانت تضم ممتلكاتهم الى مال أسامة الخاص · وكان من محبته للمال يأمر الولاة بأن يتهموا الأقباط بما هم براء منهم حتى يتمكنوا من اعدامهم واحضار مالهم اليه بل أمرهم قائلا « سلمت اليكم أنفس الناس فتحصلوا ما تقدرون عليه من أساقفة أو رهبان أو كنائس أو كل الناس واحملوا الى القماش والمال والبهائم وكلما تجدونه ولا تراعوا أحدا وفى أى موضع نزلتموه فاضربوه » فكانوا يخربون البيوت والكنائس ويقلعون الأعمدة والأخشاب ويبيعون مايساوى عشرة دنانير بدينار فأرغم الأقباط على اخفاء كل ما عندهم وتظاهر أغنياؤهم بالفقر وكثيرون منهم صاروا يحملون أمتعتهم ويفرون بها من البلاد · فلكى يتلافى أسامة هذا الخطر أصدر أمرا يحتم على كل

من يمر فى النيل صاعدا أو نازلا أو من يبرح مصر يأخذ جواز للسفر حتى اذا انتقل من مكان الى مكان داخلها وأن يدفع مقابل ذلك عشرة دنانير أو ستمائة قرش صاغ ومن يخالف هذا الأمر فمنهم من يقتله ومن يصلبه ومن يقطع يديه ورجليه حتى خلت الطرق من المارين فيها وانقطع السفر وكف البيع والشراء لقيام الناس حول دار أسامة شهرين أو أكثر لاستخراج جواز المرور • واذا اتلفت العوارض جواز انسان وبقى معه قطعة منه أو تغير رسمه يلزمه أن يستخرج عوضه • ومما يحكى أن أرملة سافرت فى النيل مع ابن لها بعد دفع المفروض ونيل تذكرة المرور بكل مشقة نظرا لضيق ذات يدها • فحدث وهى فى أثناء المسير أن ابنها هذا تطاول الى النيل مستقيا فاختطفه تمساح وابتلعه وثيابه والناس ينظرون وكانت تذكرة المرور فى جيبه • فلما وصلت المرأة المكان المقصود اعترضها صاحب التذاكر وأبى الا أن تبرز تذكرتها فأخبرته ما كان من أمر ضياع ابنها على مشهد من الناس فأغلق أذنيه عن صراخها ولم يفرج عنها حتى باعت كل ما فى يديها ودفعت الفلس الأخير •

ثم أنفذ أسامة رسلا للرهبان ليفحصوهم فوجدوا بعضهم بغير الخاتم الذى أمر أن يوضع فى يد كل راهب فاحضروهم اليه فمنهم من ضربت رقبته ومنهم من مات تحت السياط ثم أنه سمر باب احدى الكنائس بالحديد وطلب منهم الف دينار وجمع مقدمى الرهبان وعذبهم وخيرهم بين أن يدفع كل واحد منهم دينارا أو يهدم البيع ويخربها ويهلك جميع الأساقفة• فقلقت الكنيسة كلها وارتفعت الأصوات الى العزة الالهية لتدفع عنهم هذا البلاء فسمع الله صوتهم •

(٥) خلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٧١٧ م :

وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز فرفع اليه المصريون شكواهم على أسامة فأرسل خلفا له أيوب بن شرحبيل وأمره أن يقبض على أسامة ويكبله بالحديد ويسمر يديه ورجليه بأطواق من الخشب ويرسله اليه ففعل فمات أسامة فأرسل خلفا له أيوب بن شرحبيل وأمره أن يقبض على أسامة ويكبله الحق مجراه وأنسى المصريين ما كان من استبداد أسامة وغلاظته فألغى الضرائب عن الرهبان وخفف الخراج عن أهالى البلاد فأحبوه وزادوا فى اعتباره •

وكان على الجيش فى مصر حيان بن شريح فبلغ عمر أنه يطالب الأقباط الذين أسلموا بالجزية فعظم عليه ذلك فكتب له « أرى يا حيان أن تضع الجزية عمن أسلم من أهل الذمة فان الله تعالى قال « فان تابوا وأقاموا الصلاة والزكاة فحلوا سبيلهم ان الله غفور رحيم » وقال « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله ولا يدينون بدين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » فأجابه حيان « أما بعد فان الاسلام قد أضر بالجزية حتى سلفت من الحارث بن ثابتة عشرين الف دينار تممت بها عطاء أهل الديوان فان رأى أمير المؤمنين أن يأمر بقضائها فعل » فكتب اليه عمر « أما بعد فقد بلغنى كتابك وقد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطا فضع الجزية عمن أسلم قبح الله رأيك فان الله بعث محمدا (صلعم) هاديا ولم يبعثه جابيا ولعمرى لعمر أشقى من أن يدخل الناس كلهم الاسلام على يده » فرفعت الجزية عمن أسلم من النصارى ووزعت على اخوانهم الباقين على دينهم وكذلك كانت توزع جزية من يموت منهم على الأحياء ويلزمون بأدائها طوعا أو كرها ٠

(٦) خلافة يزيد بن عبد الملك سنة ٧٢٠م :

ولى على مصر بشر بن صفوان ومع أنه انتهج منهجا حسنا الا أن يزيد الزمه بأن يضع على الكنائس والأساقفة الخراج الذى رفعه عنهم عمر سنة واحدة وزاد فى الضرائب فأصبحت الاقامة فى البلاد وبالا على أهلها فتركها منهم كثيرون لاسيما عندما أتى أمر من يزيد يشدد على الوالى بأن يحتم على كل من يقيم فى البلاد أن يكون على دين محمد مثله ومن لايريد فليخرج منها تاركا كل ما يملك ٠ فاعتبر الأقباط السماح لهم بالخروج من البلاد رحمة منه فهجرها كثيرون حتى اقفرت مديريات بجملتها وترك الموظفون منهم وظائفهم ووضعت على الذين لم يتمكنوا من الفرار جزية باهظة واعتنق كثيرون الدين الاسلامى فرارا من المغارم ٠ وانتهز المتعصبون هذه الفرصة وهدموا كنائس كثيرة ٠

تم تولى حنظلة بن صفوان فشرع يتمم أمر الخليفة بكسر جميع الصلبان التى فى سائر الأماكن ومحو الصور التى فى الكنائس وتحويلها الى جوامع ٠ وتولى بعد حنظلة جملة ولاة لم يكن شغلهم سوى التفنن فى تعذيب الأقباط وسلب مالهم ٠

(٧) خلافة هشام بن عبد الملك سنة ٧٢٤ م :

كان عادلا محبا فى اجراء الانصاف بين أفراد رعيته فشكا اليه الأقباط من ظلم عمال الخراج فأصدر أمره للوالى بوجوب معاملتهم بمقتضى العهد الذى بيدهم ولكن لم يجد هذا نفعا ولا فائدة بل كان سببا فى مشاركة الوالى مع عمال الخراج على التضييق والتشديد عليهم ولما لم ير الأقباط من الولاة الا الاصرار على عدم تغيير خطتهم وشاهدوا سيل الظلم قد طفح • نزعوا فى ولاية الحسن بن يوسف وجباية رجل ظالم اسمه عبد الله الى التوقف والمقاومة وعزموا على القيام بثورة يدافعون فيها عن حريتهم وحياتهم •

وقد بدأت هذه الثورة سنة ٧٢٥ م فاعتصب أهل تنوويمى وقربيط وعامة أهل الحوف الشرقى (الشرقية) بالوجه البحرى وتوقفوا عن دفع الأموال فأرسل اليهم الوالى جندا فحاربوهم وقتل فى هذه الواقعة من الفريقين خلق كثير وهزم الأقباط أخيرا لندرة تدربهم على القتال غير أنهم لم يهربوا بل استمروا واقفين أمام جيوش أعدائهم حتى ذبحوا عن آخرهم •

ولما بلغ الخليفة خبر هذه الحادثة وعرف سببها خشى سوء العاقبة بانتفاض جميع الأقباط فى الوجهين القبلى والبحرى فعزل الوالى المذكور وولى مكانه حفص بن الوليد وأمره أن يحصى أهل البلاد ويوزع عليهم الخراج بطريقة عادلة وألا يخرج فى ربط الجزية عن حد ما صولحوا عليه مع عمرو بن العاص وبمقتضى العهد الذى بيدهم • ففعل كما أمر وبلغ عدد القبط فى هذا الاحصاء أكثر من خمسة ملايين من الذين يدفعون الجزية عدا النساء والشيوخ والصبيان فاستراح الأقباط من الاضطهاد مدة سبع سنوات بل تمكنوا فى زمن ولاية الوليد بن رفاعة من الحصول على اذن ببناء كنيسة بمصر القديمة على اسم مار مينا فاغتاظ وهيب اليحصبى وتجمهر كثيرون من المتعصبين وحاولوا احباط عمل الكنيسة ولكن الله أوقف اعتداءهم بارسال ضربتين على سكان مصر وهما الجوع والوباء فأفنيا منهم الألوف •

(٨) ولاية حنظلة بن صفوان :

هذه ثانى مرة تولى فيها مصر وكانت سنة ٧٣٦ م وكان هذا الرجل ظالما عاتيا غشوما رغم رغبة الخليفة اليه أن يعامل الناس بالرفق

واللين والمعروف • وكان عمله كاسمه فلم يكتف بالضرائب المفروضة على الانسان من ابن عشر سنين الى ابن مائة ففرضها على الحيوانات وحكم بقطع يد كل مسيحى لا يكون معه وصل بالبراءة أو لا توجد على يده صورة الأسد • ولم يقف حنظلة عند هذا الحد بل لما اراد أن يبنى له دورا بالفسطاط استخدم فيه الاقباط وضغط عليهم ضغطا شديدا لم يطيقوه فهاجوا فى مدن بناوصا وسمنود وما يجاورها وفى بلاد الصعيد وقاموا على عمال الخراج وأخرجوهم من بلادهم وحصلت بينهم وبين جنود الوالى واقعة عظيمة قتل فيها كثيرون •

كل هذا وحنظلة لا يزيد الا جورا وعسفا فشكوه الى الخليفة فعزله وولى مكانه حفص بن الوليد ثانية فلم يسر هذه المرة فى خطة مولاه فزاد الضرائب واشتد على المسيحيين وطفق ينهب أموالهم ويجور عليهم فعم البلاء الذى حمل الناس على اكل الجيف وصار يموت من أهل القاهرة كل يوم ١٥٠٠ نفر •

وبلغ الأقباط خبر موت الخليفة هشام فتأسفوا وحزنوا لأنه لم يكن يميز فى أحكامه بين أحد مهما كان دينه • وفى أيامه حارب المسلمون الروم وأسروا منهم خلقا كثيرا فكان الأقباط يشترون منهم عددا وافرا ويطلقون سراحهم فنالوا اكمل فخر وأجمل ثناء •

(٩) خلافة الوليد بن يزيد سنة ٧٤٣ م :

ولى على مصر حسان بن عتاهية الذى زاد الضرائب وضايق الأهالى واضطهد الأقباط فأبدل بحفص ثالثة فلم يسر الا على خطة اضطهاد المسيحيين وأثقال كاهلهم بمضاعفة الخراج وأمرهم أن يعتنقوا الاسلام كرها فسقط منهم عدد ليس بقليل قيل أنهم ٢٤ الفا عدا من ثبت على ايمانه ونال اكليل الشهادة •

وخشى كثيرون من الأساقفة نتيجة هذه القساوة وخافوا على أنفسهم من السقوط ففروا من أبروشياتهم وكمنوا فى الأديرة تاركين رعيتهم فريسة للذئاب وكانت تلك فرصة أخرى كثر فيها الذين اعتنقوا الاسلام اما تخلصا من اضطهاد شنيع أو باغراء الولاة الذين وعدوهم بالعفو اذا نطقوا بالشهادة فقط ويلبثون مسيحيين فعلا ومسلمين اسما ولكن النتيجة كانت سيئة فى الحالتين لأن أولاد هؤلاء المساكين صاروا مسلمين فعلا لا اسما •

وفى ذلك الوقت قام مروان بن محمد سنة ٧٤٤ م واغتصب الخلافة من ابراهيم بن الوليد وولى مصر حوثرة بن سهيل فأراح الأقباط قليلا من ذلك الظلم الهائل الذى كان واقعا على رؤوسهم ولذلك صرف بطريرك الأقباط حينئذ وهو البابا خائيل الأول أكثر أوقاته فى قبول توبة الذين أنكروا الديانة المسيحية ٠

(١٠) ولاية عبد الملك بن مروان سنة ٧٥٠ م :

تولى مصر بعد حوثرة فانتهز انشغال مروان فى القتال وشن الغارة على الأقباط واضطهدهم اضطهادا فظيعا ٠ وفى أثناء ذلك أتى مروان فارا من وجه أبى العباس الملقب بالسفاح الذى نزع منه جميع الولايات ولم تبق له سوى مصر فأراد أن يحتفظ بها ولكنه وجدها فى اضطراب بسبب سوء ادارة الولاة وعمال الخراج ٠

وكان قبط الوجه البحرى فى الجهة المعروفة بالبشمور وهى مديرية الدقهلية والمنزلة ودمياط وفى جهة شبرا بسنبوط قد قاموا على عمال الخراج وقتلوهم فجرد الوالى عساكره فحاربهم الأقباط وانتصروا عليهم دفعتين وكان القائد للبشموريين رجل قبطى منهم يسمى مينا بن بقيرة ٠ وبعد أن تمتع الأقباط مدة بالراحة استجمع مروان قوته وحاربهم فهزمهم هذه المرة وتركوا ميدان القتال وتحصنوا فى بلادهم فلم يتمكن مروان من متابعتهم بسبب الوحل الذى كان فى طريقهم فضرب العساكر حولهم يحرسونهم فكان البشموريون يخرجون اليهم ليلا من طريق يعرفونه ويقتلون من قدروا على قتله ولما طال عليهم الأمر رحلوا عنهم ٠

وجاء أبو العباس الى مصر فلم يقو مروان على الوقوف أمامه فهرب الى الوجه القبلى وسمح لعساكره أن ينهبوا البلاد فصاروا يقتلون الأراخنة ويسبون نساءهم وأولادهم ويسلبون أموالهم ويهدمون الكنائس ٠ وفيما هو هناك اعتصب أهل طحا (بمديرية المنيا) وتوقفوا عن دفع الخراج فأرسل اليهم أميرا من أمرائه فقتل ونفى كثيرين منهم واستباح كل مالهم وكان عدد سكان هذه المدينة أكثر من ٢٠٠٠٠ نفس كلهم نصارى فهدم كنائسهم ولم يبق فيها غير واحدة كانوا التزموا بثلاثة آلاف دينار فى نظير بقائها فأعطوا ألفين وعجزوا عن الباقى فجعل ثلثها جامعا ٠

ثم ولج عساكر مروان الأديرة ونهبوها واغتصبوا الراهبات لهتك أعراضهن واكراههن على البغاء وظلوا يقتلون وينهبون البلاد واخربوها

من منف الى مدينة تاوصنا · وامعنوا فى أثناء سيرهم فى الافساد حتى وصلوا الى الشرق بجهة اخميم وكان هناك دير راهبات تسكنه ثلاثون عذراء فنهبوه ووجدوا بين العذارى صبية ترهبت وهى ابنة ثلاث سنين وكانت ذات جمال بارع فراقت فى نظرهم وأرادوا أن يقترعوا عليها ولكنهم استحسنوا أن يأخذوها هدية للسلطان · فلما سمعت قولهم تقدمت الى قائدهم وقالت له أنا أعبد الله بطهارتى منذ سنين ولا يجمل بكم أن تفسدوا عبادتى واذا أوليتمونى هذا المعروف أنا أكافئكم عوضه بدواء أصفه لكم يحمى أعناقكم من فعل السيوف فتعجبوا من كلامها فقالت لهم ان آبائى كانوا قوما مقاتلين ومن الشجعان وقد دفعوا لى دواء كانوا يتدهنون به اذا خرجوا للقتال فكانت السيوف الحادة تكل ولا تضر أجسادهم وان كنتم لا تصدقون فها أنا أدهن رقبتى به وليستحضر أشجعكم أحد سيف ويضربنى به فلابد أن يرجع مفلولا وقصدت بذلك أن تدبر طريقة للموت دون أن تنجس جسدها الطاهر ·

ثم دخلت قلايتها وأخرجت قنينة فيها زيت قد صلى عليه القديسون وكانت محتفظة به فدهنت به رقبتها ووجهها وجميع جسدها ثم جثت وبدأت تصلى وهى تمد عنقها للسياف فظن الجهال أن الأمر صحيح ولم يعلموا مافى قلبها ثم قالت لهم « من كان فيكم قويا وسيفه ماض قاطع فليتقدم » فوثب شاب شجاع بسيف يفتخر به فسترت وجهها بردائها وأحنت رأسها وقالت له أضرب بكل قوتك ولا تبال فضرب القديسة فطارت رأسها فعلموا حينئذ أنها خدعتهم فندموا وحزنوا حزنا عظيما ووقع عليهم خوف شديد ولم يلتفتوا بعدها لراهبة أخرى بل تركوهن ومضوا يمجدون الله ·

ثم رجع مروان من الصعيد فوجد جيوش أبى العباس قد حلت قرب الفسطاط فأطلق فيها النار · وفى هذه الأثناء كانت البيعة معرضة للسقوط فى كل مكان ولم يكن فيها أمن لأحد من بنيها الا للذين لجأوا الى برية النطرون أو الأماكن المنفردة فى الجبال · ولم يأتهم الفرج الا بعد انتصار أبى العباس على مروان وقتله اياه وبموته انقرضت الدولة الأموية وقامت مكانها الدولة العباسية واستولت على مصر ·

أما حالة الأقباط فى ذلك الوقت فكانت سيئة للغاية فالاضطهادات والأوبئة والمجاعات كل هذه فتكت بهم فتكا ذريعا وتسبب عن ذلك نقص

عظيم فى عــدد هذه الأمة التعيسة الحظ السيئة البخت · وباختلاط القبط بالعرب أخــذت لغتهم تنحط شــيئا فشيئا حتى لم يبق منهــا بتوالى الأيام الا رسمها واقتصروا على استعمالها فى الطقوس الـكنسية ولولا ذلك لأمحى أثرها بالـكلية · وما الفضــل الا لرؤساء الدين الذين كانوا يعلمون الناس ان المحافظة على لغتهم الأصلية ولو بغير المعاملة بها فى الأحوال المعيشية من الواجبات الدينية ·

(١١) مصر فى عهد الدولة العباسية سنة ٧٥١ م :

ولمـا كان الأقبــاط قــد ظــاهروا أبا العبــاس على مروان نادى العباسيون بعد استتباب الملك لهم بالأمان على المسـيحيين وكانت نواياهم لأقبــاط مصر حسنة الا أن بعد البــلاد عن مركز الخــلافة وعــدم بقاء الولاة فى مناصبهم جعلهم يستبدون ويعملون فى النــاس كيفما شاءوا كما كان يفعل الولاة أيام الدولة الأموية وبعضهم لعلمه أن منصبه غير باق له لم يكن يهتم الا بمصلحته الشخصية ·

(١٢) خلافة أبى جعفر المنصور سنة ٧٥٤ م :

ولى عنه بمصر يزيد بن حاتم فأوقع ببطريرك الأقبــاط البابا مينا الأول اضطهادا عظيما فساء الأقبـــاط ما لحق برئيسهم من الاهانة وانعكست الحال ثانيــة فتمرد قبط رشــيد وسخا وغيرهمــا وجاهــدوا بالعصــيان وطردوا المستخدمين من بلادهم وصــاروا يديرون أعمــالهم بأنفسهم وأرسل والى مصر جيشا قويا ليحــاربهم ويخضعهم ولـكن الأقبــاط استطاعوا أن يفوزوا بذلك الجيش كله ولو كان مسموحا لهم أن يتــدربوا على القتـــال ويحملوا الأسلحة لانتصروا على الجيش الثــانى الذى حاصرهم ولـكنهم انكسروا بعد أن ثبتوا أمام أعــدائهم مدة ثبوت الرواسى حتى اضطروا الى أكل جثث الموتى ·

(١٣) خلافة هارون الرشيد سنة ٧٧٦ م :

ولى مصر على بن سليمان فاشتد غضبه على النصارى وعمــد الى ما كان يلجأ اليه غيره من الولاة السالفين وهو هدم كنائسهم فعزم على هدم كنائس الفسطاط فعرض عليه النصــارى خمسين الف دينــار لـكى يتجاوز لهم عن كنيسة كانت قائمــة فى حصن قسطنطين فأبى وهــدم جميع الكنائس ولم يبق منها سوى كنيسة أنبا شنودة الواقعة بين الفسطاط وبابيليون ·

وتولى بعد على موسى بن عيسى فأراح الأقباط واذن لهم ببناء الكنائس التى تهدمت وكان ذلك بمساعدة الليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة القاضيين ومشورتهما بحجة أن بناءها من عمار البلاد فشدداهم على ذلك ٠ وخلف موسى بعض ولاة لم يعرفوا لهم عملا سوى اضطهاد الأقباط ٠ وكأن المصائب أبت الا أن تكون وقفا على هؤلاء المساكين فتوالت المجاعات التى فتكت بثروتهم وصار الفقراء يموتون جوعا أو تقتلهم الحكومة تخلصا من اعالتهم ٠ ومن الغريب أن أحد ولاة مصر تنبه الى أن المجاعات تتوالى بسبب اهمال تطهير الترع وتنظيم احوال الرى فساق اليها عددا عظيما من الاقباط ليس لديهم قوت يوم فماتوا من الجوع وبقيت جثثهم مكومة فى الاماكن التى ماتوا فيها ونشأ عن عفونتها طاعون زاد فى شقاء البلاد ٠

وكان من رأى هارون الرشيد أن لا يبقى والى مصر حاكما لها اكثر من سنة وكان يشدد عليهم باجراء قواعد العدل والانصاف فاستراح الأقباط فى مدة خلافته من الاضطهاد غير انه كان ينظر اليهم والى بطريركهم بعين الريب خوفا من انتفاضهم عليه فبذل جهده فى التضييق عليهم ٠ ولما تولى مصر أخوه عبيد الله ابن المهدى أهدى الخليفة فتاة مصرية آية فى الجمال فطاب بها قلبه وحدث انها مرضت فحزن كثيرا وبحث عن أمهر الأطباء ليعالجوها فانتدب له عبيد الله يوليانوس بطريرك الأروام فى مصر وكان طبيبا بارعا فداوى محظية الخليفة ولما برئت رغب اليه هارون أن يطلب منه أجرا فسأله بعض الكنائس القبطية فأجيب سؤاله ونال مناه ٠ وشيد البابا يوحنا ال ٤ كنيسة عظيمة للملاك ميخائيل فاغتاظ منه الأروام وشكوه للخليفة ووجدها الوالى فرصة مناسبة لفرض غرامة باهظة على البطريرك فدفعها هذا راضيا دون أن يوقف بناء الكنيسة يوما واحدا ٠

وبلغ الولاة الذين تقلبوا على مصر فى مدة سبع سنوات سبعة آخرهم يسمى اسحق بن سليمان الذى لما وصل الى مصر زاد فى خراج المزارعين زيادة أجحفت بهم فخرج عليه اهل الحوف فحاربهم فقتل كثير من أصحابه فكتب الى الرشيد بذلك فعقد لهرثمة بن أعين فى جيش عظيم وبعث به فنزل الحوف فتلقاه أهله بالطاعة واذعنوا فقبل منهم واستخرج الخراج كله ٠ وفى سنة ٧٩٨ م ولى الليث ابن الفضل فبعث بمساح يمسحون الأراضى ومن جملتهم أراضى أهل الحوف فانتقص لهم من القصبة أصابع فتظلموا الى الليث فلم يسمع لهم فتجهزوا وساروا الى الفسطاط فخرج

اليهم الليث فى أربعــة آلاف من جنده والتقى بهم فانهزم عنه الجند وبقى فى نحو المائتين فحمل بمن معه على أهل الحوف فهزمهم حتى بلغ بهم غيفة وبعث الليث الى الفسطاط بثمانين رأسا من رؤوس الثائرين ٠

القســم الرابع

البـــــدع

التعليم بانبثاق الروح القدس من الآب والابن

علمت الـكنيسة منذ البدء بأن الروح القدس منبثق من الآب فقط كما نص الانجيل المقـــدس بالحـرف الواحـــد (يو ١٥ : ٢٦) وفى المجمع القسطنطينى المسكونى الثـانى المنعقـد برئاسة البـابا تيموثاوس البطريرك الاسكندرى ال ٢٢ حرم من يقول أو يعلم بغير ذلك ٠ وسارت الـكنيسة على هذا المبـدأ الى نهـاية الجيل الثـامن حتى ظهر لوكيوس المبتـدع فى عهد لاون الثالث أسقف روميـة سنة ٨٠٨ م وعلم فى فلسطين أولا بأن الروح القـدس منبثق من الآب والابن فشجبه الأساقفـة وطردوه من بلادهم فلجأ الى رومية فلم يتفق له النجاح فتوجه الى فرنسا وفيهـا تمكن من أن ينفث سمومه بين الأكليروس بمساعدة كرلوس الأكبر ومن ثم رجع الى رومية ببعض أتبـاعه فقاومهم لاون الثالث الذى جلس على الكرسى الرومانى سنة ٧٩٥ م ٠ ولـما رأى هـذه البدعة تمتد فى رومية ولم يكن فى كنيسته رجال متضلعون فى العلوم اللاهوتية ليـدفعوها طلب من توما بطريرك أورشليم أن يرسل اليه رجالا حكماء أتقيـاء ينقـذون كنيسة روميـة من الضـلال ولـكن القيصر اضطهد رسل بطريرك أورشليم ولم يدعهم يصلون الى رومية وعقد مجمعا سنة ٨٠٩ م قرر فيـه الزيادة وحاول اقنـاع أسقف روميـة بهـا فلم يفلح بل أجابه لاون « انى لا أعلم ما اذا كان الآباء القدماء عملوا عملا أفضل بتركهم هـذه الـكلمة ولا أقـدر أن أؤكد أنهم لم يعلموا جيـدا هـذا الأمر كما نعلمه نحن لأنى لا أتجاسر أن أشبه نفسى بهم فضلا عن أن أفضـل نفسى عنهم ومهما كانت غايتنـا حسنة فيجب علينـا أن نخشى لئلا نضر نحن ما هو فى ذاته حسن ببعدنا عن النهج القـــديم فى التعليم لأن الآباء لـما منعوا كل زيادة فى الدستور لم يقسموا النيات الى نية صالحة ونية رديئـة بل منعوا الزيادة منعا مطلقـــا حتى أنهم لم يسمحوا ولا بأن يفتكر أحد لماذا عملوا هكذا » أهـ ٠

ولـكى يمنع لاون كل تغيير فى دستور الايمان عقد مجمعا سنة ٨١٠م ونقش الدستور على لوحين من فضـة باليونانية واللاتينية صحيحا سالمـا بدون الزيادة ونصبهما أمام الباب المقابل قبرى بطرس وبولس وكتب عليهما هـذا العنـوان « أنا لاون قـد نصـبت هـذين اللوحين حبـا بالايمـان الأرثوذكسى وحفظـا له » (١) وكان لـكرلوس قيصر فى ايجاد هذه الزيادة مصـلحة خاصـة أولا لـكى يثبت سلطته على أسبانيا التى نشأت عنـدها هـذه الزيادة ثانيـا لـكى يفصـل الغـرب عن الشرق فى العقيدة ويحفظ استقلاليته فتأمل ٠

ولمـا أقيم بناديكتوس الثالث على الـكرسى الرومانى قام عليه قوم وعزلوه وأهانوه ونزعوا عنه حلة الـكهنوت وحبسوه وانتخبوا بدلا منـه قسا مقطوعا يدعى أنسطاسيوس فقـام الشعب ضـدهم وطرد أنسطاسيوس وأعاد بناديكتوس فسيم من مجمع الأسـاقفة (٢) ولمـا كانت بدعة الانبثاق آخذة فى الامتداد بين الشعوب الغربية كتب دستور الايمان بحروف لاتينية خاليـا من الزيادة وسن قانونا بوجوب تعليمـه لـكل واحـد من الشـعب الايطالى منعـا لدخول الهرطقة وكتب رسائل الى بطاركة الشرق بأن رؤساء كهنة رومية لا يقبلون الشركة مع أحد ما لم يكن محافظا على دستور الايمان

---

(١) ملاتيوس ٨ : ١٤ : ٦ ٠

(٢) نقل المؤرخون أن بين البابا لاون الرابع والبـابا بناديكتوس الثالث قام فى سنه ٨٥٣ بابا اسمه يوحنا الثامن وهو المعروف بالبـابا حنة لأنه كان أنثى جرمانيـة وقصتها كما رواها موسهيم المؤرخ فى كتابه ص٣١٤ هى كما يأتى : « كانت ابنة مرسل انكليزى ترك انـكلترا ليبشر الصكصـونيين المهتدين حـديثا فولدت فى أنـكلهم وحسب قـول المؤلفين المتنوعين دعيت حنـة واغنس واغبرت وايزابيلا وماركريت ودوروثى وجدت فاشتهرت منـذ حداثتها بذكاء العقل وحب العلم واذ لحظت من راهب شاب من فولدا الغرام بها انسرقت من والديهـا وهى مغرومة به أيضا وتزيت بزى الذكور ودخلت دير فولدا واذ لم ترتض بالحجز هنـا انسرقت أيضا مع محبوبها ومضيا الى انكلترا ثم الى فرنسا وايطاليـا وأخيرا الى أثينـا فى بلاد اليونان حيث انصبا على طلب العلم ٠ وحين مات الراهب كانت حنة عديمة التعزية فتركت أثينـا وأتت الى رومية حيث فتحت مدرسة وحصلت على شهرة عظيمة بالعلم والقداسة الـكاذبة وحين مات ليون الرابع سنة ٨٥٥م انتخبت بابا وجلست على الـكرسى البابوى نحو سنتين ممدوحة السيرة بدون أن يشك أحد فى جنسيتها ولـكنها أخذت واحدا من أهل بيتها يمكنها أن تثق به الى فراشها فحبلت منه ٠ وأخيرا اذ كان زمانها لتضـع أقرب مما كانت تظن تجرأت فى أسـبوع الآلام أن تشـترك مع كل أكليروسـها فى الطقس السنوى وفيما كانت مارة فى الشـوارع بين كنيسة ماراكلميندس والمرسح أتى عليهـا آلام شديدة ووقعت على الأرض بين المزدحمين وفيما كان الواقفون عليهـا يجتهدون فى أن يعالجوها ولدت ابنـا فمات الولد والبعض يقولون ماتت أيضـا حالا والآخرون يقولون عاشت وأرسلت الى السجن حالا هدفا للعن العموم (أنظر بوروبلاتينا) ٠

سالما كما سلمت المجامع المسكونية السبعة وحددت المحافظة عليه بأن الروح القدس ينبثق من الآب فقط لا من الابن كما علم أبناء الفساد · وقد حافظ أكثر خلفاء هذا الأسقف على سلامة دستور الايمان الى أيام استفانوس الخامس نحو سنة ٨٩٥م (١) ·

ولكن نيقولاوس خليفة بناديكتوس سنة ٨٥٨ م حاول أن يدخل الزيادة فى بلاد البلغار فقاومه فوتيوس بطريرك القسطنطينية فى مجمع عقد بهذه العاصمة وقع عليه نواب الأسقف الرومانى بهذه العبارة « انه يجب أن لا يسن قانون جديد بل ان يصدق على دستور الايمان النيقاوى » أما خلف نيقولاوس يوحنا الثامن سنة ٨٧٢ م فانه قرر حرم كل من يعترف بالزيادة وكتب لفوتيوس يدافع عن كنيسته بقوله « اننا نحن فضلا عن كوننا لا نقول ذلك (يعنى المنبثق من الآب والابن ») نحكم بأن الذين تجاسروا من الأصل أن يعلموه هم مخالفون للوصايا الالهية ومغيرون للأقوال اللاهوتية أقوال السيد المسيح والرسل وسائر الآباء الذين التأموا مجمعا وسلموا الدستور المقدس ونحسبهم مع يهوذا لأنهم ارتكبوا ارتكابه لا بأنهم دفعوا جسد الرب للموت بل بأنهم شقوا وفصلوا المؤمنين أعضاء جسده بعضهم عن بعض ودفعوهم بذلك للموت الأبدى أو بالحرى خنقوا أنفسهم كما فعل التلميذ الملتوى المذكور » ·

ولكن فرموذوزس سنة ٨٩١ م قبل الزيادة فشجبه خلفه استفانوس السادس سنة ٨٩٧ م وأخرج جثته وحاكمها وقطع أصابع يده التى كان يقدس بها القرابين ويبارك الشعب والقى تلك الجثة فى نهر تيبر فعثر بها صياد ودفنها الا أن سرجيوس الذى جلس على كرسى رومية سنة ٩٠٥ م أخرجها وبعد أن فصل الهامة عنها طرحها فى النهر ثانية وأعاد رسامة كل الذين رسمهم بدعوى أنه لم يكن أسقفا شرعيا ولبثت الزيادة تتنقل بين أيدى أساقفة رومية فواحد يقبلها وآخر يشجبها حتى قام بناديكتوس الثامن سنة ١٠١٢ م فقرر قبولها رسميا سنة ١٠١٤ م فتم بذلك انشقاق الروم عنهم كما قرروا قبلا الاعتقاد بطبيعتين ومشيئتين فى السيد المسيح فكان الانشقاق بينهم وبين الكنيسة المصرية ·

---

(١) ملاتيوس ٩ : ٧ : ٤ ·

واليك شهادات الآباء المعترف بقداستهم من كل الكنائس والتى تبرهن على أن اعتقاد الكنيسة منذ عصورها الأولى هو أن الروح القدس ينبثق من الآب فقط :

قال القديس أثناسيوس الرسولى « ان لنا الها واحدا وهو الآب الذى لا بداءة له وهو مبدأ الأشياء كلها لأن منه الكلمة يولد والروح ينبثق » ·

وذكر القديس كيرلس الاسكندرى فى الحرم التاسع « ان الروح خاص بالابن » فجاوبه ثاوذوريتوس عما يعنى بقوله فأجابه « ان الروح القدس ينبثق من الله الآب حسب قول المخلص لكنه ليس غريبا من الابن » وقد شرح قوله « ليس غريبا من الابن » بقوله فى رسالة الى نسطور « انه ليس غريبا من الابن بحسب الجوهر · يعنى مساويا له فى الجوهر للأبد » ·

وقال الأسقف الرومانى داماسوس سنة ٣٦٦ م فى اعتراف ايمانه الذى كتبه للأسقف باولينوس « انه يقبل قبولا كاملا اعتقاد المجمع الثانى المسكونى فى انبثاق الروح القدس ويلعن كل من يتجاسر أن يقول « ان الروح القدس كان بواسطة الابن والذين لا ينادون بكل حرية أن للروح القدس جوهرا واحدا أو سلطة واحدة مع الآب والابن » (١) ·

وقال القديس باسيليوس الكبير « فى مقالته المشهورة بالرد على أنوميوس « كما أن الروح القدس ليس له الولادة بحالة ما هكذا والابن ليس له الانبثاق وكما أن الابن ليس هو من الروح القدس هكذا والروح القدس ليس هو من الابن وكما أن الابن مولود من الآب وحده هكذا والروح القدس ينبثق من الآب وحده » ·

وقال القديس غريغوريوس نيصص فى ميمره المختص بالافادة والتفهيم عن اللاهوت « ان الخاصة الانبثاقية هى موجودة فى الآب فقط » ·

وقال القديس يوحنا فم الذهب فى ميمره الذى على البنديكستى « ان الآب علة واحدة للابن والروح القدس » ·

---

(١) تاريخ الانشقاق ١ : ١٥٩ و ٢١٥ ·

وقال أوغسطينوس فى رده على هرطقة أريوس فصل ٢٣ « لايظن أن الروح بواسطة الترتيب هو منه (أى الابن) كما أنه هو ذاته (الابن) من الآب بل كلاهما من الآب . الابن يولد والروح ينبثق » .

وقال أيرونيموس فى مخاطبته داماسوس « اننا لمؤمنون بالروح القدس أيضا الذى من الآب خاصة ينبثق » (١) .

ونختم بأن ننقل ما وجد من الشهادات فى كتب الأقباط التبع المطبوعة برومية التى تصرح بانبثاق الروح من الآب واليك هى :

ورد فى ص ٢٥٧ و٢٥٨ من كتاب الخولاجى المطبوع برومية سنة ١٤٥٢ ش و١٧٣٦ م ما يأتى « الروح القدس الغير المستحيل المتسلط المحيى المنبثق من الآب الذى نطق فى الأنبياء حل على آبائنا كوعد المسيح وتكلموا بكل لغة » .

وورد فى كتاب اللقان والسجدة المطبوع برومية سنة ١٤٧٨ ش و١٧٦٢ م فى صحيفة ٣٦٤ و٣٦٥ و٣٩٩ و٤٠٠ و٤١٦ و٤١٧ قول صريح بأن الروح منبثق من الآب فقط فليراجع فى محله ولعلهم بعد ذلك يرعوون .

---

(١) مجلة صهيون سنة ٢٩ : ٧ ص ٢١٣ .

القرن التاسع

القسم الأول
تاريخ البطـــاركة

(١) مرقس٢ (٢) يعقوب
(٣) سيمون٢ (٤) يوساب
(٥) خائيل٢ (٦) قزمان٢
(٧) شنوده١ (٨) ميخائيل١

---

(١) مرقس ٢ ـ البطريرك التاسع والأربعون :

بعد وفاة البـــابا يوحنـــا ٤ اجتمع الأساقفـــة والشعب الأرثوذكسى بالاسكندرية وتشاوروا فى من يقيمونه بطريركا فاتفقت كلمتهم على القس مرقس وكتبوا الى أنبـا ميخائيل أسقف مصر بشأنه فمضى الى الوالى يطلب منه الترخيص للمسيحيين بتكريس بطريركهم فأذن له ٠

ولمـا بلغ القس مرقس خبر اختيـار الشعب له وهو من عائلة مشهورة فى الاسكندرية بالشرف والتقوى عول على الهروب فأرسل الأنبـا ميخائيل يفتش عليه حتى وجده وبعثـه الى الاسكندرية وقـدم فى اليوم الثانى من أمشير سنة ٥٠٢ش و٧٩٩م فى عهد خلافـة هارون الرشيد ٠ وحال جلوسه على الـكرسى قرأ على الشعب حقيقـة اعتقـاد الأرثوذكسيين وأظهر ضلال المجمع الخلـكيدونى ٠

وبعد تـكريسه بأسبوع كانت جمعـة الرفاع فمضى الى دير الزجاج ليقضى فيـه أيام الصـوم بالصلوات ومن هنـاك أرسل الى أنبـا ميخائيل أسقف مصر يخبره فيـه بعزمه على الذهاب الى الوالى بعد عيد الفصح ليسلم عليه ويطلب منه الترخيص ببنـاء الـكنائس المتهدمة ٠ فلما جاء عيد الفصح قصـد البطريرك فسطاط مصر ليسلم على الوالى فتلقـاه الأنبـا ميخائيل باحتفـال عظيم ثم استأذن فى الدخول على الوالى فسر منه جـدا وأعجب بحسن كلامه ووعـده بقضاء جميع مآربه وخرج من عنده يستشير أولاده فى الأمر الذى يلتمسون من الوالى أن يجيبهم اليه فأقروا على طلب

بنـاء البيع فزاروه فى اليوم التالى والتمسوا منه ذلك فأعطاهم أمرا ببناء كافة البيع فاهتم البابا مرقس بالكنائس وعمر ماخرب منها ·

ثم سعى فى تجديد العلاقات بين الكنيستين الاسكندرية والانطاكية وكتب سنوديقا الى كرياكوس بطريرك أنطاكية فتلقى منه جوابا حسنا · وعدل بعد ذلك على رد الضالين وكان حينئذ منهم قوم يعرفون باتباع بارسنوفة الذين لا رأس لهم السابق ذكرهم واستمروا لغاية البابا مرقس مصرين على انفصالهم فحزن عليهم وصلى الى الرب لكى يساعده على ردهم فسمع الله له وجاءه رئيسا تلك الشيعة مستغفرين عن ذنوبهما فأراد أن يختبر توبتهما فأفهمهما أن ما نالاه من الرتب الكهنوتية بأيدى الهراطقة باطل فقبلا أن يقبلهما بدون رتب كهنوتية ومن ثم أتى بهما ورسمهما أسقفين ببيعة مار مينا بمريوط فى ١٥ هاتور أحدهما لمدينة طنطا والثانى لأتريب (بجوار بنها) ·

فلما نظر البرسنوفيون ما كان من انضمام رئيسيهما للكنيسة الأرثوذكسية كتبوا للبابا مرقس ايضا لكى يقبلهم ويأتى اليهم ليكرس بيعتهم فلبى نداءهم وانطلق اليهم وأظهر رضاءه عنهم وأقام لهم قداسا وناولهم من الأسرار المقدسة وكان فرح عظيم حتى أنه بعد أيام رأى أن البيعة التى كرسها للبرسنوفيين ضيقة فدعا الصناع وأنفق عليها حتى اتسعت ودعيت « بيعة البطريرك » ولما رجع الى الاسكندرية طلب منه وجهاء الشعب أن يبنى بيعة السيد المخلص ويوسعها لأنها فى وسط المدينة فاعتذر لهم خوفا من أن يتهيج عليه الأشرار ويسعوا ضده بالوشاية لدى السلطان ولكنهم الحوا عليه فأجاب طلبهم وبدأ فى تشييد الكنيسة حتى أتمها بكل زينة فكانت موضوع فرح الأرثوذكسيين وكدر للخلكيدونيين واجتمع الأساقفة وكرسوها فى عيد الصليب فى ١٧ توت ·

وأعطى الله هذا البابا موهبة اجراء الآيات والعجائب فكان يدهن الكثيرين من المرضى بزيت باسم السيد المسيح ويصلى عليهم فيبرأون عاجلا وكثيرون تم لهم الشفاء بصلواته · وفى تلك الأيام أقام البابا رجلا على الخدمة البطريركية كان مملوءا حسدا لكل انسان وخصوصا لكاتب البطريرك فكان يشيع عنه كل قبيح حتى وصل الخبر للبابا مرقس فطفق ينصحه بأن لا يعود فيما بعد يذيع مذماته ولكنه لم يسمع النصيحة بل استمر فى شره حتى كان يوم عيد نياحة البابا يوحنا فمضى ذلك الشرير

وابتدأ يتكلم فى حق الكاتب • فضجر منه البطريرك ولعنه ان كان ما يتكلم به زورا فأقسم أنه يتكلم حقا ولأنه حلف كذبا أصيب سريعا بالفالج الى يوم وفاته •

وظهر فى ذلك الحين جراد كثير فى البحيرة والاسكندرية فأكل جميع أثمار الارض والكروم فحزن البطريرك وأمر جميع الشعب الأرثوذكسى ان يخرجوا بالمباخر والصلبان والأناجيل ليسألوا الله أن يرفع عنهم هذا الغضب فما كادوا يصلون الى المكان الذى انتشر فيه الجراد وارتفع صوت صلاتهم حتى رأوه يتعالى الى الجو ويسقط فى البحر •

وبينما كان البطريرك راجعا الى مصر وهو يفتقد رعيته اجتاز ببلدة تسمى أغروة فخرج الكهنة والشعب يستقبلونه بالاكرام كالعادة وكان بين المحتفلين به انسان به روح نجس فصرعه بين الناس فطلب البابا مرقس ان يقدم اليه ثم رسم على وجهه علامة الصليب وهو يصلى فخرج منه الشيطان وقام سالما • ومع أنه شفى كثيرين من مرضاهم كان هو نفسه مصابا بمرض عضال استمر به اثنتى عشرة سنة دون أن يطلب الشفاء منه بل كان يشكر الله على الدوام الذى جربه نظير باقى أصفيائه •

أما الشيطان فلم يطق أن يرى كنيسة الله ناجحة فأخذ يكيد لها وذلك أنه فى ذلك الحين هجم مسلمو الأندلس على مصر وبدأوا ينهبون كل ماتصل اليه أيديهم ويقبضون على النصارى ويبيعونهم كالعبيد لا فرق بين رومانى وقبطى • وقد أظهر البابا مرقس فى هذه الأزمة شجاعة نادرة المثال فكان يشترى كثيرين من القسوس والشمامسة والعذارى والنساء والأولاد وبلغ عدد ما اشتراه منهم ست آلاف نفس • وكان عندما يشتريهم يسلمهم كتب انعتاقهم حالا ويقول لهم من أراد منكم البقاء عندى أسلمه للمعلمين يعلمونه علوم البيعة ومن أراد الرحيل الى بلده ادفع له ما يوصله اليها• واستمر مثابرا على هذا الجهاد الحسن حتى شاع ذكر فضائله واقترن اسمه بكل مدح وثناء •

وسلط الشيطان قوما أشرار على بيعة المخلص فأطلقوا يدهم فيها فنهبوا كل مابها ولم يبقوا شيئا وذلك لأنهم كانوا قد رأوا جثث موتاهم ملقاة على بابها فظنوا أن النصارى قتلوهم وأخذوا يضطهدونهم بشدة حتى لبس البابا مرقس فى تلك المدة ثياب الحداد على ما لحق كنيسته من الويل ومع ما كان محيطا به من الأخطار لم يتأخر لحظة واحدة عن اتمام واجباته

وكان أولاده يأتون اليه معزين اياه ويسألونه الذهاب الى بيوتهم وهو يأبى حتى قام الأرخن مقار النبراوى من كرسى سمنود ومضى الى عبد العزيز المتولى على المشرق وأوقفه على ما أتاه الأشرار ضدهم ظلما وكيف أن بطريركهم اضطر مرارا من سوء الاضطهاد أن يختبيء مع أساقفته فى أحد الأديرة المقفرة فاعطاه الوالى كتابا ليأوى البطريرك اليه حتى يزول الخطر فاقام البطريرك بنبروه مدة ٠

ومع ذلك لم يكن هذا البابا يتخلى عن الاهتمام بالبيع المقدسة واعادة الأعضاء التى افترقت من كنيسة أنطاكية بواسطة ابراهيم المطران ٠ وجرى حينئذ على برية الرهبان بوادى هبيب بلايا عظيمة ولما وصل خبرها مسامع البابا مرقس زاد حزنه فنظر الرب لكثرة همومه وأراد أن يريحه من تعب هذا العالم فظهر له مرقس الرسول فى رؤيا يقول له « افرح يا مرقس خليفتى لأنك ستعتق من هذا الجسد » ولما استيقظ من النوم كلف الأساقفة بعمل قداس وتناول الأسرار المقدسة ثم أسلم الروح فكفنه الآباء والأساقفة ودفنوه ببيعة نبروه بعد أن أقام على الكرسى مدة عشرين سنة وقيل أكثر وكانت نياحته فى الثانى والعشرين من برموده سنة ٥٣٥ ش و٨١٩ م وكتب فى أيامه رسائل كثيرة ٠

(٦) يعقوب - البطريرك الخمسون :

كان قسا بدير أبى مقار ترك وادى هبيب على أثر خراب الأديرة ومضى الى دير فى طيبة وهناك تجلت له رؤيا علم منها أن الرب يدعوه للذهاب الى البرية المقدسة فعاد اليها مسرعا ٠

أما الأرثوذكسيون فبعد موت البابا مرقس لحقهم حزن عظيم لاسيما لوفاته بعيدا عنهم وكان الخطر قد زال فاجتمع الأساقفة والشعب وطلبوا من الرب أن يرشدهم الى الراعى الأمين فذكر عدد غير قليل وبينهم القس يعقوب فأجمعوا على انتخابه واستدعوه من دير أبى مقار وهو لا يعلم وساروا به الى الاسكندرية وكرسوه بطريركا وهو يبكى فى شهر بؤونة سنة ٥٣٥ ش و٨١٩ م فى عهد خلافة عبد الله المأمون ٠

وحال جلوسه على الكرسى قاوم أصحاب البدع ولاسيما أتباع المجمع الفاسد الخلكيدونى وأتباع أوطاخى الذين ينكرون آلام المسيح بالجسد وفى بعض الأيام قدم الأسرار المقدسة ليناول الشعب ٠ وكان

بعض الهراطقة قد حضروا للصلاة على سبيل التفرج واختلطوا بالأرثوذكسيين فلما علم البابا بذلك رفع صوته بشجاعة قائلا « أية خلطة لأولاد الله مع أولاد بليعال » فخزى المخالفون وخرجوا جميعهم متسربلين بثياب الخجل وكان فيهم رجل موسر موظف بجباية خراج الاسكندرية وكانت له دالة عند الاندلسيين فمضى مسرعا اليهم متكلما بحق البطريرك حتى غير قلب الوالى عليه وارسل الهرطوقى يهدد البطريرك قائلا له « سأفقدك السلام وأشتت شعبك حتى اذا رفعت صوتك فى الكنيسة قائلا « السلام لكم » لا تجد من الشعب من يرد عليك « ومع روحك » غير أن البابا تنبأ قائلا له « الشر الذى تتوقعه لغيرك لابد يحل بك » وقد تم قوله اذ بعد قليل تشاجر الرجل المخالف مع آخر فقتله وسلب جميع ماله ووقع الرعب فى قلوب باقى المخالفين وصار بطريركهم يوقر البابا يعقوب ويجله ·

وكانت أعمال هذا البابا تتقدم وتنجح الا أن الأخطار الأخيرة التى وقعت بالبيعة اورثتها فقرا عظيما فساعد البطريرك بعض المساعدة رجل قريب له من وجهاء نبروه ارسل اليه ما تحتاجه البيع · وقد زاده شعورا بالفاقة مطالبة بعض الكنائس له بالخراج الذى كان مقررا لها على البطريركية فلم يقو على اجابة طلبها وكان شماس اسمه جرجس بكنيسة الاسكندرية أخذ يتكلم معه بجسارة وطلب منه أن يعود الى ديره اذا لم يقوم بتأدية خراج البيع فتألم منه البطريرك حتى لم يكد الشماس يصل الى بيته وقد أصابته حمى عظيمة قضت عليه عاجلا فانذعر المطالبون بالخراج وهدأوا ·

ولما جاء الصوم المقدس قصد دير أبى مقار ليقضيه فيه كما جرت عادة الآباء البطاركة وأخذ معه للرهبان كل ما يحتاجون اليه من الخيرات · وكان فى أيام رهبنته قد بدأ بعمارة هيكل على اسم القديس شنوده قبل هيكل القديس أبى مقار فكمله وجدد البيع ليأوى اليها الرهبان عوض البيع المتهدمة ·

فاغتاظ الشيطان من نجاح عمله وكان له شماس يعتنى به ليقدمه فى درجة الكهنوت فسولت له نفسه أن يتصرف تصرفا سيئا فكان يعمل ما يشاء بدون استئذان رئيسه ومن ذلك أنه ضرب أحد التلاميذ حتى مات فلما شاهد ذلك خفراء الدير شددوا على البطريرك ليعطيهم القاتل ليقتلوه

فاجتهد البـابا أن يخلصـه فلم يفلح ولمـا علم الخفراء أنه يعتنى به طلبوا منه مالا جزيلا ولمـا لم يكن معه سـاعده الأساقفـة والشـعب حتى وفى ما طلبوه وخلص الشاب من أيديهم ٠

ثم قصـد البـابا يعقوب الصعيد ليفتقد الشعب والأديرة فقوبل مقابلة عظيمـة وبعـد ذلك جاء اليه رجل كان رئيسـا على بعض البـلاد يدعى عبد العزيز وطلب منـه أن يوسمه أسـقفا فلم يرض أن يخرج على قوانين البيعـة فاشتـاظ عبد العزيز وطـاف بلادا كثيرة يضطهد اهلها ويذلهم حتى أوقع بلايا شتى بأناس كثيرين ولذلك طلب الأرخـن مقـار النبراوى من البطريرك أن يرسمه وكان عبد العزيز قـد توعـد أمام مقار قائلا « ان لم يجتمع بى البطريرك أهـدم البيع وأقتل الأسـاقفة » فسار اليه البـابا يعقوب يصحبه القس يوسـاب الذى صـار فيما بعـد بطـريركا ولمـا كان القس يوسـاب خائفـا من مواجهة عبد العزيز هـدأ البطريرك اضـطرابه وقال له « لا تخف فاننـا لا نشاهـده حيـا » وفعـلا فقد جاء الخبر بأنه بينما كان شارعا فى هدم أحد الحصون وقع عليه حجر قضى على حياته الشقية ٠

ثم تولى بعده ولده المدعو على فمنع الظلم واستراح الـكثيرون ورجع الرهبان الى وادى هبيب بعد هروبهم منـه ورأى البـابا يعقوب أن هيكل القـديس شنوده لايسع الرهبان فبنى بيعة باسم ابى مقار وكرزها فى أول يوم من برموده وكان يوم تذكار للبطريرك ٠

وكان مقار النبراوى يشتهى أن يرى البطريرك فدعاه الى منزله ليبارك عائلته فجـاء اليه البطريرك وعمل له وليمة عظيمة وقـدم صدقات كثيرة وبينما كان السرور شـاملا مرض ابن الأرخـن ومات فجـزع الجميع أما البطريرك فأظهر السكون التام وطلب الغـلام ورسـم على وجهه علامة الصليب وصلى لأجله فرد الرب اليه الحياة ومجد الله وزاد الأرخن فى عمل الخير نحو المحتـاجين ودفع ثلث ماله للأرامل والأيتـام وبنى فى مدينـة أورشليم بيعـة لاسـتراحة الأرثوذكسيين وهى تعرف ببيعـة المجدلانيـة وتعهد بأن لايرد لأحد سؤالا ولا يغلق بابه فى وجه أحد ٠

ولمـا انتشر ذكر البـابا يعقوب واشتهرت أعمـاله الصالحة سمع به الأب ديونيسيوس بطريرك أنطاكية واشتهى أن يراه وجها لوجه ولم يمنعه سوى كثرة الحروب التى اسـتمرت قائمـة فى أرض مصر أربع عشرة سنة ٠ واتفق له فيما بعد المجىء الى مصر مرتين الأولى ليحتج أمام عبدالله

ابن طـاهر والى مصر على تصرفات أخيـه فى أديسا حيث بلغ من الظلم والغشم مبلغـا عظيمـا وقـد تحصـل ديونيسيوس على جواب من عبد الله لأخيـه يحـذره فيـه من اتيـان أى تعـد على الـكنائس فى أنطاكيـة ٠ ونزل بطريرك أنطـاكية فى مدينـة صـان (شرقيـة) فخـرج سكانهـا وعددهم نحو ثلاثين الف قبطى يتقدمهم البـابا يعقوب والأساقفة واستقبلوا الأب ديونيسيوس اسـتقبالا عظيما حتى كتب هـذا البطريرك بعد رجوعه لـكرسيه عن الأقبـاط يقول « وجدت بطريركهم وأساقفتهم أتقيـاء ورعين متواضـعين يحبون الله ويخـافونه من كل قلوبهـم وقـد أكرموا مثوانا وأظهروا لنـا كل بشاشة ولطف مدة وجودنا فى مصر مما نشكرهم عليـه شكرا مستفيضا » ٠

وكان البابا يعقوب يعلم أن تلميـذه يأتى أعمـالا بغير ارادته فـدعاه اليـه ونصحه بعـدم الاستمرار فى طغيـانه خوفا من وقـوع بلايا على الـكنيسة فلم يطع قوله وأصيبت الـكنيسة بنكبة فشدد الوالى على البطريرك فى طلب الخراج ولم يكن معه فاضطر أن يقـدم له أوانى البيعـة ٠ غير أنه بينما كان الصـائغ يكسر كأسـا مقدسـة جرحت يده وسـال منها دم كثير فخـاف الوالى ومن معـه وأمر أن لا يكسر منهـا شـيئا وأعادها الى البطريرك وشـدد عليه فى دفع الخراج فنالتـه صـعوبة شديدة حتى وفاه٠ وبعـد ذلك عـزل الوالى وأصـيب بمرض عيـاء فـكلف أولاده أن يردوا المال للبطريرك ففعلوا كما أوصاهم ٠

وتولى على جبـاية الخراج رجل يدعى ايليـا بن يزيد وفى أيامه تنيح أسقف بالصـعيد على كرسى قاو فأوفـد أهل المدينة انسانا للبطريرك ليقيمه عوضـه فخشى الرجل أن يمتنع البطريرك عن رسامته فمضى الى الجـابى وقـدم له مالا ليأمر البطريرك برسامتـه فأبى البطريرك مخالفـة القـوانين الـكنسية ولـكن الأساقفـة خوفا من حـدوث ضـيق على البيعـة بسبب ذلك الزموه بأن يرسمه ولـكن هـذا الأسـقف لم يكد يصـل الى أبروشيته حتى مرض ومات ٠

وبعد ذلك توجه البـابا يعقوب لافتقـاد الـكنائس والشعب ولمـا وصل الى ضيعة تسمى تسمت أحضروا له شـابا به شـيطان قـد أخرسـه وأصمه وسـألوه أن يضع يده عليه فصلى ودهنـه بزيت فخرج منه الشيطان فورا وتـكلم وسمع ٠ ثم اشـتهى البطريرك أن يقيم بمدينـة تنتـدا أياما

قليلة لدى مروره عليها وهو يطلب من الله أن يريه من سيكون خليفة له فعلم أنه تلميذه سيمون ٠

وكانت عادة هذا البابا اذا أراد أن يقيم أسقفا أن يسهر ويصوم حتى يظهر له الله أعماله وكان يحفظ أيام نياحة الآباء البطاركة من مرقس الرسول الى مرقس أبيه بالروح ويعيد لهم ٠ ثم أراد السيد المسيح أن يخلصه من مشقات الحياة فاعتل وضعفت قوته وتنيح فى ١٤ أمشير سنة ٥٤٤ ش و٨٣٦ م وليلة موته سمع يقول فى الساعة الرابعة من الليل « يا أبوى ديوسقوروس وساويرس ها أنذا أجى اليكما » وكانت مدة جلوسه على الكرسى ١٨ سنة و١٨ شهرا ودفن حيث توفى بتنتدا ٠

(٣) سيمون ٢ - البطريرك الحادى والخمسون :

ولما تنيح البابا يعقوب قدم بعد مدة يسيرة عوضه الأب سيمون وهو من مدينة الاسكندرية من أصل شريف وكان مقيما بقلاية البطريرك وتربى منذ صباه مع البابا مرقس ولكن البابا سيمون لم يقم على الكرسى المرقسى سوى خمسة شهور و١٦ يوما وتنيح فى ٣ بابه سنة ٨٣٧م على قول من روى أنه عاش هكذا وسنة ٥٤٨ش على قول من روى أنه عاش ثلاث سنين وسبعة أشهر وقضى مدة رئاسته كلها وهو مصاب بداء المفاصل يتوجع منه وجعا شديدا الى أن أسكنه الرب الراحة الأبدية ٠

وبعد نياحة البابا سيمون اجتمع الأساقفة وأعيان الطائفة ليقيموا عوضه فاختلفت كلمتهم وذلك لأن أهل الاسكندرية افتكروا ميلا منهم للمجد العالمى أن يقيموا رجلا علمانيا (متزوجا) لأنه كان غنيا وذا اعتبار يدعى اسحق وكان على رأس هذا الحزب زكريا اسقف أوسيم وتادرس أسقف مصر وكلفاه أن يكتب كتابا لكهنة الاسكندرية يعدهم فيه بالخير الجزيل ٠

وكان فى ذلك الزمان أساقفة قديسون يغارون على بيعة الله منهم انبا ميخائيل أسقف بلبيس وأنبا ميخائيل أسقف صا وأنبا يوحنا اسقف بنا وغيرهم فلما بلغهم مانوى عليه الأسقفان وأهل الاسكندرية اجتمعوا وتوجهوا الى الاسكندرية ووبخوا الذين فكروا بانتخاب رجل متزوج مخالفة للشريعة ٠ ووفقت النعمة الالهية حينئذ أن يذكر قس فاضل يدعى يوساب كان مقيما ببيعة أبى مقار فاتفقت عليه كلمتهم

وأرسلوا وفدا يستدعيه وقالوا اذا كان الرب قد اختاره نجد باب قلايته مفتوحا ولما وصلوا اليه ألفوه قائما يغلق باب قلايته خلف تلاميذه وقد خرجوا ليملأوا الماء وقالوا له انك تدعى للبطريركية فبكى بكاء مرا وامتنع فأخذوه عنوة فى اليوم الثانى عشر من هاتور عيد الملاك ميخائيل وودعه آباء الدير بحزن عميق وساروا به حتى أتوا الى الاسكندرية وأعلموا الوالى وكان اسمه عبد الله بن يزيد باختيارهم لهذا الأب وطلبوا أخذ رأيه قبل تكريسه فامتنع لأن اسحق المذكور كان قد وعده بألف دينار اذا جلس على الكرسى ثم قال لهم اذا أردتم أن يرسم هذا بطريركا فأعطونى ماوعدنى به اسحق ٠

فلبث الآباء الأساقفة فى منزل الوالى متوسلين حتى يصادق لهم على الانتخاب وهو يأبى طالبا منهم المال حتى أغضبهم فأفهموه أنهم ليسوا تحت سلطانه بل تحت سلطان والى مصر وعرفوه أنه اذا لم يقرهم على رأيهم ينطلقون الى فسطاط مصر ويطلبون من واليها ترخيصا فلما رأى ثباتهم أذن لهم فاجتمعوا فى بيعة مار مرقس وتمموا الرسامة فى ٢١ هاتور سنة ٥٤٨ ش و ٨٣٧ م فى عهد خلافة المأمون وخلافة محمد المعتصم ٠

(٤) يوساب ـ البطريرك الثانى والخمسون :

كان من أبوين فاضلين بمدينة منوف العليا معروفين لدى الحكام وبعد موتهما تركا له ثروة طائلة وبقى يوساب يتيما حتى نظر اليه ارخن تقى كان متوليا بادارة مصر اسمه تادرس من نيقيوس فأخذه اليه ليصيره له ولدا فاقام عنده مدة حتى رأى فى نفسه شوقا للعيشة النسكية فأخبر الأرخن بعزمه ولما لم يقدر أن يحوله عن غرضه أرسله الى مدينة الاسكندرية الى البابا مرقس وكتب له كتابا يذكر له فيه تاريخ حياته ٠ وقبل قيام يوساب الى البطريرك وزع كل أمواله على الفقراء والمساكين ٠

ففرح به البابا مرقس وسلمه الى شماسه ليعلمه الكتابة باللغة اليونانية فكان ذكيا غير أنه لم ينثن عن عزمه فلما أقام عند البطريرك مدة التمس منه أن يسمح له بالذهاب الى البرية فسر من ميله الصالح وأرسله سريعا الى دير أبى مقار ووضعه تحت ارشاد ايغومانوس يدعى بولس وفى سنة ٧٩١ م استحضره البطريرك فأقام عنده مدة ولما

أراد الرجوع الى البرية رسمه قسا وأرسله فمكث هناك مدة من السنين · ولما اعتل الشيخ بولس معلم يوساب وقف على خدمته بدون انقطاع ليلا ونهارا وتحصل على بركته وقبل وفاته تنبأ عنه بأنه سيكون رئيسا للكرسى وينال تعبا جزيلا ·

وحال رسامة هذا البابا كانت البيعة تنوء تحت عبء فقر مدقع فشرع يغرس كروما وينشىء طواحين ومعاصر ولكن بعد قليل أخذت نبوة الشيخ تتم اذ انتشر وباء عظيم فى شرقى مصر وغربيها وحدث غلاء فاحش فأصيب من أهوالهما الكثيرون من رعية البابا يوساب وناله حزن عظيم على ماجرى لهم وهو يدعو الله أن يرفع هذه الويلات عنهم · ولشدة التجارب التى اكتنفته لم يتمكن من مكاتبة بطريرك أنطاكية مع أنه كان يشتهى أن يجدد العلاقة بين الكنيستين ولكنه لم يجد يوما واحدا يستريح فيه ويتمم هذه الأمنية المقدسة ·

وحدث أن أسندا على كرسى تنيس يدعى اسحق سعى به بعض شعبه بكلام ردىء لدى البطريرك وطلبوا منه خلعه والا هجروا الأرثوذكسية ويمثل ذلك تصرف أهل مصر مع أسقفهم وتوعدوا برجمه ان لم يرفعه البطريرك من أبروشيتهم · فكان ذلك سببا فى زيادة أحزان هذا البطريرك التعيس فصلى الى الرب أن يثبت شعبه وكهنته وطلب جميع الأساقفة من كل الأماكن وأوقفهم على ما جرى فرأوا حفظا لسلام الكنيسة أن يرفعوا الأسقفين من كرسيهما وكان البطريرك يتنهد على ماجرى ·

وجرى أن أهل البشمور خرجوا على الحكومة وجاهروا بعصيانهم فكتب الوالى الى الخليفة المأمون يأخذ رأيه فى ذلك وكان الخليفة محبا للنصارى بسبب معاشرته لعلمائهم فحضر الى مصر ومعه ديونيسيوس بطريرك أنطاكية فلما علم البابا يوساب بخبر مجيئهما سار الى الفسطاط ليسلم عليهما ففرح به كلاهما ثم كلفه الخليفة أن يقوم بديونيسيوس بطريرك أنطاكية الى أهل البشمور ليقنعاهم بالخضوع له بالحسنى والا يسلط عليهم سيف انتقامه ·

فقام البطريركان وسارا الى البشموريين وأخذا ينصحانهم ويوبخانهم على أفعالهم ولما لم يسمعوا لقولهما ويخضعوا لمشورتهما رجعا الى المأمون وأخبراه باصرارهم على العناد فأرسل اليهم أفشين الوالى ليقنعهم بالقوة · ثم سأل الأب ديونيسيوس عما دعاهم الى العصيان فتأسف

وحدث الخليفة بما سمع من ظلم الولاة فقال له المأمون لا تفه بمثل هذا الكلام لأن متوليى الخراج كانوا من قبل أخى المعتصم ولو سمع ما قلت لما أبقاك بمصر ساعة واحدة · فأسرع الأب ديونيسيوس ليودع البابا يوساب وعيناه تفيض بالدموع وسافر عاجلا · وبعد رحيله بلغ المعتصم الخبر فأرسل وراءه من يقتله ولما لم يتمكن من العثور عليه غضب جدا · وبعد أن توفى المأمون وملك المعتصم عوضه هرب الأب ديونيسيوس ولم يقم بأنطاكية حتى عاهده الخليفة على أن لا يقتله فرجع اليها ·

ولما كان البابا يوساب بمصر رأى أن اسحق الذى كان مرشحا نفسه للبطريركية محتقرا من جميع الطبقات فأحب أن يواسيه فدعاه اليه وطيب خاطره بالكلام الحسن وقلده وكالة البطريركية فانشرح صدره وأعلن خضوعه له ولما حضروا فى بيعة السيدة العذراء بقصر الشمع يوم عيد الشعانين رسم الأرخن اسحق شماسا أمام عدد كبير من الشعب ·

ولما كان المأمون بمصر أعطى البابا يوساب فرمانا بخط يده باقراره رئيسا عاما روحانيا على الأمة القبطية وجميع كنائس مصر وخدامها غير أنه لم تكد تنتهى هذه الحوادث حتى دخل الشيطان فى نفسى أسقفى مصر وتنيس المقطوعين فمضيا الى أفشين الوالى بعد أن قمع ثورة البشموريين ودسا اليه بأن البطريرك هو الذى حرض البشموريين على العصيان وأخبراه أنه مجتمع فى البيعة مع ما لا يحصى من الشعب وكلهم طوع أمره · وكان الأفشين حينئذ سكرانا فغضب ووجه أخاه الى البيعة بجند كثير ليحضر البطريرك ليقتله فسار أمامهم اسحق أسقف تنيس حتى دخلوا البيعة وأشار الى البطريرك وكان فى الهيكل فدخل اليه أخو الأفشين ليأخذ رأسه أمام المذبح فسقط السيف من يده على عامود رخام وانكسر فاشتد غيظه واستل مدية كانت معه وطعنه بها· فاضطرب جميع المصلين وصاحوا بصوت عظيم متوهمين أنه مات ولكنهم عندما اقتربوا اليه وجدوا السكين قد مزقت ثيابه وقطعت منطقته ولكنها لم تضر جسده ·

فلما نظر أخو الأفشين هذه الأعجوبة أخذه ليمضى به الى أخيه كما أمره وفيما هم يجذبونه تعلق به الشعب وهم يبكون فهدأهم وخرج وهم يتبعونه فغضب أخو الوالى ورفع يده وضربه بسوط على رأسه فانجرحت

عينـاه ودخل الى الأفشين وحـدثه بخبره مع الأسقفين وكيف أنه قطعهما ولـكى ينتقما منه دبرا له هـذه المـكيدة • فلمـا تحقق الأفشين من براءة البطريرك استشاط غيظـا على الأسقفين وعول على الانتقـام منهما فتقـدم اليه البطريرك حينئذ وطلب منه العفو عنهما كمـا تأمر ديانته فتعجب الوالى من هـذه المبـادىء السامية وأطلق الأسقفين ولمـا بلغ الخليفة خبر هذه الحادثة ارتفعت قيمة البابا يوساب فى عينيه وأمر باكرامه •

وبعد ذلك أراد البطريرك أن يرسم أسـقفين لأبروشيتى مصر وتنيس عوض المقطوعين فوسم اسحق الأرخن الذى صيره شماسا ونائبـا عنـه أسـقفا على أوسيم ووسم آخر اسمه ديمتريوس على تنيس وبقى فسطـاط مصر تحت تـدبير أسـقف أوسـيم الـذى اسـتمر مشرفا على الـكرسى الى نهاية حيـاته •

ثم وجه البطريرك نظره نحو الحبشـة والنوبة وافتقدهمـا برسـائل بعثها يستفسر فيها عن حال الـكنائس فيهما ولم يتمكن من انجاز مشروعات مهمة بسبب الخـلاف الذى كان قائما بين ملوك الحبشة وولاة مصر وهـو يطلب من الله أن يحل السـلام ليبلغ غرضـه • ولبثت الحرب قائمة بين الفريقين أربع عشرة سنة وبعد أرسل الخليفـة المعتصم فجعل حراسا على الطريق التى بين مصر وبين النوبة والحبشـة وكان ملك النوبة حينئذ يدعى زكريا فـكتب اليـه المعتصم يطلب منه أن يدفع خراج أربع عشرة سنة والا أشهر عليه السيف • وكان لوالى مصر كاتب بالصعيد يسمى جرجس فـكتب للبطريرك يعرفـه بما جرى فانتهز هـذه الفرصـة وأرسل كتابا لملوك الحبشـة يعـرفهم فيـه أنه انقطع عن الـكتابة اليهم بسبب ما حل به من الاضطهاد ونصحهم بتجنب الخـلاف مع المسلمين وهـذه الرسـالة بلغهـا لزكريا بواسطة والى أسوان •

فلما وصل كتاب الخليفـة الى ملك النوبة أرسل ابنـه الى مصر بهدايا جزيلة وابتعد عن التحزب اكراما لخاطر البطريرك • فاستقبل البابا يوساب جرجس بن ملك النوبة بفرح عظيم ثم ودعه ليقوم الى الخليفة ببغداد فتلقاه المعتصم باحترام زائد وانتهى الخلاف على مايرام •

وكان فى بلاد الحبشـة حينئـذ أسقف يدعى يوحنـا وسم بيد البـابا يعقوب وحـدث أن ملك الحبشة انهمك فى حرب فعمد أهل البـلاد الى طرد الأسقف من البـلاد بايعـاز الملـكة وأقاموا آخر عوضـه • فأتى يوحنـا

الى مصر ونزل فى دير البرموس الذى ترهب فيه بوادى هبيب • وبعد قيامه من الحبشة أصيبت بنكبات مختلفة ورجع الملك وهو لا يدرى ما جرى فلما وقف على الخبر أرسل حالا الى البابا يوساب معلنا خضوعه له ومعتذرا عن ضلال القوم ومخبرا اياه بما أصاب البلاد من الأوبئة وتأخير المطر بعد ترك الأسقف يوحنا لها والتمس السماح بعودة الأسقف على جناح السرعة • فاستدعى البطريرك يوحنا وعزاه وثبته ودفع له نفقة السفر وسيره الى الحبشة ففرح به الملك فرحا عظيما وعمل الشيطان فى قلوب بعض الأشرار فتقدموا الى ملك الحبشة طالبين منه أن يأمر الأسقف بالاختتان أسوة بهم والا طردوه ثانيا فخشى الأسقف من تعب الطريق اذا رجع لمصر ثانية ووافقهم على ماطلبوا •

ثم اهتم البابا يوساب برسامة أساقفة كثيرين أوفدهم الى كل موضع من كرسى مار مرقس الرسول الى أفريقية والخمس المدن ومصر والحبشة والنوبة • ولم يكد يشعر بالسرور حتى بلغه خبر من الخليفة يأمر به والى مصر أن يجرد الكنائس من زيناتها ويأخذ منها الأعمدة الرخام • وكان وصول ذلك الأمر وتدبيره بواسطة رجل نسطورى يدعى لعازر • ولما وصل مصر اجتمع عليه أمثاله من الهراطقة الخلكيدونيين المقيمين بالاسكندرية ولم يكفوا عن السعى ليلا ونهارا يحسنون له هدم البيع ويرشدونه الى ما فيها من الأعمدة حتى أتوا الى بيعة الشهيد مار مينا بمريوط واوقفوه على جمال رونقها فتعجب وبهت من حسن زينتها وقال هذا ما يحتاج اليه الخليفة •

فلما بلغ الخبر البطريرك تقدم اليه وقال له هوذا كل الكنائس أمامك فافعل بها كما أمرك الخليفة فقط أرجو منك أن تحفظ هذه الكنيسة ومهما طلبته منى أعطيك فأبى المخالف سماع كلامه وشرع فى أخذ الرخام الملون والبلاط النادر من تلك البيعة • ولما وصل الرخام الى مدينة الاسكندرية لحق البطريرك والشعب حزن عظيم واهتم البابا يوساب باصلاح ما عبثت به أيدى الأشرار من كنيسة مريوط وساعده الرب حتى أعاد اليها بهاءها الأصلى •

وقد انتقم الرب من لعازر المذكور انتقاما مريعا فأصيب بداء عضال القاه طريحا فى الفراش لا يقوى على الجلوس أو القيام مدة طويلة ناله فيها فقر مدقع وضنك شديد حتى اضطر أن يلتجىء الى البابا

يوساب ويلتمس منه الصلاة لأجله فقابل البطريرك شره بالخير وعداوته بالمحبة وأواه عنده ولكن كلمة الرب كانت قد نفذت فيه فراح ضحية قساوة قلبه واهانته مقادس العلى ٠

ومن المخالفين الذين كانوا بمدينة الاسكندرية رجل خلكيدونى من ذوى اليسار خرج يوما ليتنزه فى كرومه فوجد احدى سواقيه مكسورة فطلب لها نجارا فقيل له عن نجار شيخ وكان يوم الجمعة العظيمة فأبى النجار أن ينتقل فى ذلك اليوم الذى صلب فيه مخلص العالم فأخذ الهرطوقى يجدف بكلام ردىء على كلمة الله فوبخه الشيخ ومضى الى البطريرك بوادى هبيب وروى له الخبر فتنبأ البابا يوساب قائلا « تخرس الشفاة المتكلمة بالالحاد » وبعد وقت وجيز أصيب ذلك الخلكيدونى بالفالج وانقطع لسانه عن الكلام الى يوم وفاته حتى اضطر بطريرك الملكيين المدعو صفرون أن يوقر البابا يوساب ويحضر عنده ليسلم عليه ٠

وحدث بعد ذلك أن توفى الأنبا اسحق أسقف أوسيم فأقيم مكانه الشماس يوحنا بسؤال وجهاء مصر وقدم على كرسى أوسيم الشماس بقيرة ولكنه تنيح بعد مدة وجيزة وكان للأنبا اسحق تلميذ يدعى تادرس كان يلتمس كرسى أوسيم بدون رضاء الشعب فامتنع البطريرك عن رسامته فترك تادرس خوف الله واستعان بعلى بن يحيى الأرمنى الوالى وتوسل اليه أن يلزم البطريرك برسامته فأبى البابا يوساب مطلقا أن يثلم قوانين الكنيسة فحنق عليه الوالى حنقا عظيما وشرع فى هدم بيع فسطاط مصر وبدأ بهدم بيعة « المعلقة » القائمة بقصر الشمع فهدم أعلاها والبابا يوساب يبكى بكاء مرا ، وأخيرا تقدم اليه قوم وطلبوا منه أن يعدل عن رأيه خوفا من ضياع البيع ويرسم ذلك الانسان وهو مسئول عن نفسه٠ فلم يكف الوالى عن الغضب بل طلب ثلاثة آلاف دينار مقابل عدم هدم البيع ٠ فقلق الشعب والأساقفة وقسطوا المال عليهم حفظا للبيع فهدأ غضب الوالى وأمر برسامة الأسقف فرسم غير أن الله انتقم من الوالى شر انتقام فقتل فى الحرب بعد قليل ٠

ودخل الشيطان قلب يوحنا أسقف مصر فكان يطلب من البطريرك أن يرفع رتبته وكان حينئذ بمصر قاض يدعى محمد بن عبد الله رجل شرير قاس وكان يمقت المسيحيين ويجدف على عبادتهم فصاحبه أسقف مصر

ليتمكن به من الحصــول على أمانيه وملأ قلبه بالغيظ على البــابا يوساب ففكر القاضى فى أى سبيل يسلكه ليسىء الى البطريرك ٠

وذات يوم دعاه اليه وكان خبر اتفاق أسقف مصر معه قد بلغ مسامعه فاستند على ذراع القــدير وأتى اليه فوجــد معه جملة أساقفــة انحــازوا لأسقف مصر فلما مثل البطريرك أمام القاضى ســأله بحدة قائلا « من الذى جعلك رئيسا على كافة النصــارى » فأجابه البطريرك عاجلا « الله » فالتفت القــاضى الى الأساقفــة وقال لهم عليكم من الآن أن تنكروا رئاسة هذا عليكم مكتفين برئاســة أسقف مصر » فأظهروا الطــاعة ومن ثم وبخهم البــابا يوساب باللغــة القبطيــة على ضلالهم وكان أحد علماء المسلمين الجالسين يفهم تلك اللغــة فأبلغ القــاضى ما قاله البطريرك فغضــب منــه وقال له « هل لك أن تقــاوم سلطانى » فأجابه البــابا بشجاعة « اذا استطعت أن تحجب ضــوء الشمس بكفيك أمكنك أن تفعل ما أمرت به لأن بيدى اعتمادا من الخليفــة وهؤلاء الأساقفــة تحت سلطانى ولى الخيــار فى عزلهم اذا انحرفوا عن جادة الصــواب » فهــدأ القــاضى وطلب منه أن يطلعــه على الاعتماد وكان بيــد البــابا يوساب اعتمادات منحت له من الخلفاء المأمون والمعتصم والواثق فلما وقف عليها القاضى أطلقــه بكرامة فخرج البطريرك وهــو يطلب من الله لأجل الأساقفــــة قائــــلا « يا رب لا تقــم لهم هــــذه الخطيئــــة » ٠

ولم يكد يسلم من هــذه التجربة حتى أثار عليه الشيطــان غيرها وذلك أنه كان من عادة البطــاركة أن يبعثوا ارساليــات الى بلاد الحبشة وغيرها من أفريقيــة وكانت تلك الارساليــات تؤلف من شبان من أفريقيــة كان ملوك الحبشة والنوبة يهــدونهم الى البطاركة رجاء تعليمهم قواعد الدين المسيحى وارسالهم ليكرزوا بين المسيحيين وغيرهم فى بلاد أفريقيــا ٠ فكان البــابا يوســاب يعتنى بتعليم هؤلاء الشبان ففتح لهم مدرســة فى البطريركية واهتم بأن يقــدم لهم جميع حاجاتهم فبسعاية أســقف مصر المقطوع علم القــاضى بأمرهم فأرسل من أتى بهم اليه من البطريركية رغمــا واستدعى البطريرك وعنفــه قائلا « لا ينبغى لك أن تختطف أبنــاء المسلمين لتنصرهم » فأجابه البــابا « هؤلاء نصــارى أولاد نصــارى أرســلوا الى من ملــكى النوبة والحبشة » فأتى القــاضى بالأولاد أمام البطريرك ولعظم التهــديد اعترفوا بالاســلام أمامه وهو يذرف الدموع الســخينة ٠ فقــال له القــاضى « هاهم

قد أصبحوا مسلمين فخذ ثمنهم واتركهم » فأجابه « لا يصح لى أن أعمل على استعباد الأحرار أما أنت فسيطالبك الرب ويقاضيك على ذلك » فأمر القاضى باقتسام الأولاد بين أعيان المسلمين فاتخذوهم عبيدا وخداما ٠

وفى السنة الخامسة عشرة من بطريركية البابا يوساب أى فى سنة ٥٦٢ ش توفى الأب ديونيسيوس بطريرك أنطاكية وأقيم عوضه آخر اسمه يوحنا وكان رجلا كاملا فكتب رسالة محبة الى البابا الاسكندرى كالعادة وأرسلها مع مطرانى أوفيمية وحمص فتلقاها بسرور وقرأها على مسمع الشعب وكان لذلك القاضى المذكور نائب بالاسكندرية يفوقه ظلما وشرا يدعى محمد بن بشير فأشار عليه بعض الأشرار أن يهين البطريرك أمام المطرانين السوريين فأطاع مشورتهم واستدعاه اليه مع المطرانين وسأله عن الغلمان الذين أمره قاضى مصر بعدم قبولهم فأجابه لم أرهم منذ أخذوا منى فأمر به فضربه الجنود على رقبته بغير رحمة ولكموه لكما موجعا مدة طويلة ولبثوا يضربونه وهو مطرق برأسه لا يرفعها ولم يسمع منه سوى قوله « أشكرك يا سيدى يسوع المسيح » فبكى جميع المشاهدين وتعجب المطرانان من ثباته وبعد خروجه من حضرة القاضى كتب رسالة لبطريرك أنطاكية وودع رسوليه وهما يطوبانه على حسن جهاده ٠

وفى السنة الثامنة عشرة من بطريركيته ولى على مدينة الاسكندرية هرثمة بن نصر وكان ظالما عاتيا فأتى هو وسراريه الى البطريركية وأكل وشرب معهن ثم قام وطاف جميع مساكن البطريركية حتى انتهى الى المخدع الذى يضطجع فيه البابا فطرده منه وأدخل سراريه اليه ونام معهن فيه ٠ فانتقم منه الله بمرض أصابه فى أحشائه وأوقفه على حافة الموت ٠ وبعد أن وشى اليه بأن ملوك الروم يعطون البطريرك مالا وهو يكاتبهم ويحثهم على المجىء لمصر فأمر باعتقاله فى موضع ضيق وعول على معاقبته الى أن يدفع له الف دينار وما زال يعذبه وهو صابر حتى استقر الحال على أربع مئة دينار ٠

وفى أثناء ذلك كانت ضربة القاضى تزاد كل يوم والدم يتدفق من جسمه دون أن يستريح ليلا ونهارا وضاعت فيه حيلة الأطباء واستمر يتهدد البطريرك حتى دفع المبلغ ولم يكد يستلمه حتى أذيع خبر موته وخرج البابا

من السجن محفوفا بالاكرام واستمر مجاهدا ومحتملا التعب حتى أراد الرب أن يريحه من هذا العالم فنقله اليه فى اليوم السابع من مرضه وتنيح فى ٢٣ بابه سنة ٥٦٧ ش و٨٤٩م وكان يوم أحد وقت تناول الأسرار . وكانت مدة قيامه على الكرسى ١٢ سنة وقيل ١٨ و١١ شهرا .

وقبل موته كان قد تنبأ بأن الله سيعاقب قاضى مصر على ظلمه فتم قوله وأرسل الخليفة رسولا من قبله ليكشف أحوال مصر فوقف على مظالم القاضى فأخذه وحلق لحيته ورأسه وأشهره فى شوارع مصر ونهب كل ما جمعه ظلما ثم نفاه ببغداد وظل منفيا حتى موته . ولما سمع قاضى الاسكندرية بذلك هرب سرا ولم يعد يسمع عنه خبر .

(٥) خائيل٢ ـ البطريرك الثالث والخمسون :

وبعد أن تنيح البابا يوساب أقرت جميع أصوات الكهنة وأبناء الأمة على اختيار الأب خائيل من دير أبى يحنس خلفا له وسيم بطريركا فى ٢٤ كيهك فى نفس السنة التى توفى فيها سلفه فى عهد خلافة المتوكل ابن المعتصم ولم يكد يجلس على الكرسى حتى تعرض له الولاة الظالمون طالبين منه مبالغ طائلة على سبيل رشوة أو يمنعونه من الجلوس على الكرسى فاضطر أن يبيع ذخائر الكنيسة ويوفى المطلوب . ولم تطل مدة هذا البابا سوى سنة واحدة وخمسة أشهر لم يحدث فى خلالها ما يستحق الذكر سوى ماجرى على طائفته من الاضطهاد ثم توفى فى ٢٢ برمودة سنة ٥٦٨ ش و ٨٥١ م .

(٦) قزمان٢ ـ البطريرك الرابع والخمسون :

وبعد وفاة البابا خائيل اجتمع مجمع الكهنة والأعيان وانتخبوا بالاجماع لكرسى البطريركية الأب قزمان من رهبان دير أبى مقار وتمت رسامته فى ٢٤ أبيب فى نفس السنة التى توفى فيها سلفه فى عهد خلافة المتوكل وهو من سمنود وجرت فى أيامه اضطهادات عنيفة وسنت قوانين صارمة ضد المسيحيين .

وفى أيام هذا البابا أمر قيصر الروم بمحو الصور من الكنائس فبعث اليه هذا البابا وناظره حتى أقنعه ورجع به الى حسن الاعتقاد فرسم باعادة الصور الى ما كانت عليه . ولبث البابا قزمان على كرسى البطريركية سبع سنوات وسبعة أشهر و١٣ يوما ثم توفى فى خلال تلك

القلاقل التى كانت تهدد سلام طائفته وكانت نياحته فى ٢١ هاتور سنة ٥٧٦ ش و ٨٥٩ م ٠

(٧) شنوده١ـ البطريرك الخامس والخمسون :

وبعد نياحة البابا قزمان حدث اختلاف بين الأساقفة فى من يخلفه ولكنهم عادوا واتفقوا على تقدمة الأب شنوده من رهبان دير أبى مقار وأصله من البتنون واتفق أنه دخل الكنيسة فجأة فى وقت تلاوة القداس وكان الكاهن يقول « مستحق وعادل » فسر الشعب لهذا الاتفاق واعتبروه صوتا سماويا يزكى الأب شنوده فأجروا تكريسه فى ١٣ طوبة فى السنة التى توفى فيها سلفه فى عهد خلافة المتوكل فى كنيسة القديس أبى سرجة ٠

وكان هذا البابا عالما تقيا فحالما استلم عصا الرعاية سعى جهده فى ملاشاة البدع وابادة الهرطقات من بين المؤمنين ٠ وكان أهالى قرية فى مريوط لا يزالون متمسكين ببدعتى أبوليناريوس وأوطاخى فسار اليهم وأرشدهم الى الاعتقاد الصحيح حتى أتى بهم الى الرأى الصواب ثم قصد الوجه القبلى ليفتقد رعيته فوجد نصارى البلينا قد خرجوا على أسقفيهما واعتنقوا بدعتى سابليوس وفوتيوس اللذين كانا يعتقدان بآلام لاهوت المسيح وقت الصلب فأخذ يقنعهم من أقوال الآباء القديسين بخطأ اعتقادهم وطلب منهم الانقياد لأسقفيهم اللذين حادوا عن تعليمهما ولبث يرشدهم حتى عادوا الى حضن الكنيسة ٠

غير أنه فى عهد الخليفة المنتصر تولى مصر يزيد بن عبد الله سنة ٨٦١ م وكان هذا الوالى ظالما قاسيا فأتى بالبابا شنوده اليه وأمره أن يدفع له خمسة آلاف دينار وقرر عليه أن يقوم بدفع مثل هذا المبلغ سنويا ٠ ولما أدرك البابا شنوده أنه ليس فى طاقته القيام بدفع مثل هذه الضريبة الفاحشة لاذ بالهروب واختفى فى أحد الأديرة البعيدة ٠ ولما لم يعرف الوالى مقره شرع ينهب الكنائس ويسلب الكهنة ويهين الرعية فلما سمع البطريرك بأن أولاده يعذبون مضى الى الوالى وسلم نفسه له فداء لراحتهم فأمسكه الوالى وشدد عليه ليدفع سبعة آلاف دينار منها أربعة آلاف خراج الكنائس مدة سنتين وثلاثة آلاف خراج الرهبان سنة واحدة فأخذ الأساقفة والقسوس يجدون فى جمع هذا المبلغ من الشعب ليقوموا بدفعه ولكنهم لم يتمكنوا الا من جمع أربعة آلاف دينار

قـدموها للبطريرك فسلمهـا للوالى وتعهد له بدفع مثلهـا سنويا اذا عفى عنه فقبل وأطلقـه .

وبعـد ذلك بقليل اسـتولى على كرسى الخـلافة المعتز بالله سـنة ٨٦٦ م فانتخب البطريرك رجلين من كبار الأقبـاط المعتبرين من الشعب وهمـا الأرخن ساويرس والأرخن ابراهيم وأوفـدهما الى الخليفة ليبسطا له ما ذاقتـه مصر من المر والعلقم لجور ولاتهـا وظلم حكامها ويرجواه بأن يرحم بلادهمـا ويقيم فيهـا نصـاب العدل والشفقة ودعا لهما البطريرك بالتوفيق فلمـا مثلا بين يدى الخليفـة أحسن استقبـالهما وأجاب مطلبهما وأعطى لهما أمرا يقضى بأن جميـع الأراضى والـكنائس والأديرة وأوانى المـذبح التى سلبت منهم أيام التعـدى والاعتساف ينبغى أن ترجع اليهـم ثانيـة فجـاء الرسولان الى البـابا شنوده بذلك القرار فـكتبمنه عـدة صور أرسل لـكل أسقف فى القطر المصرى صـورة منها طالبـا منهم أن يشكروا الله على هذه المنحة العظيمة ويقدموا الثناء الواجب للخليفة .

وقـد أنجز هـذا البطريرك اصـلاحات عـديدة فى القطر كانت البلاد فى حاجة شـديدة اليهـا ومن أعمـاله المبرورة انه انتهز عهد الراحة فى ولاية مزاحم فاشـتغل بتوصيل الميـاه الى مدينـة الاسكندرية فى قناة بنى لها صهريجا مرتفعـا فى المـدينة ومد منه المواسير والمجارى الى المنازل والمساكن فصـار سكان الاسكنـدرية يشربون ماء زلالا افضـل من ميـاه الوقت الحاضر وعمت بواسطة هـذا الخليج الميـاه لسقى الأراضى فـكانت سببا فى زيادة الخصب والنماء .

وقـد ميز الرب هـذا البـابا بأن أجرى على يديه آيات وعجائب ومنها أنه حـدث فى أيامه شرق عظيم بسبب عـدم نزول الأمطـار فجـاء اليـه الـكثيرون فى ليـلة أحد الأعيـاد وهم يشتكون من قلة الميـاه التى كادت تدفعهم هم ومواشيهم الى الخطر وطلبوا منـه أن يطلب من الله لـكى يمنع عنهم هـذا البـلاء فلمـا بدأ الصـباح احتفل بالعيـد وفى حال تقـديم الأسرار الربيـة توسل الى القـدير أن يفرج كرب شعبه فلم يكادوا يخرجون من الـكنيسة حتى فتحت السماء طاقاتها وهطلت الأمطار والجميع بفرح يمجدون الله .

وحدث فيما بعد لما استتب الملك فى مصر لأحمد بن طولون أنه أخذ ينظر الى البطريرك القبطى نظر النفور والكراهة لتوهمه بأنه فى امكانه أن يقاومه

ولذلك كان يتحين الفرص المناسبة لاضطهاد الأقباط الى أن رأى مايبرر تداخله فى شئونهم عندما قام شماس قبطى خائن وطلب من البطريرك أن يرسمه أسقفا وقدم له رشوة مقابل ذلك فوبخه البابا شنوده على تصرفه الردىء رافضا رشوته متوعدا اياه بتجريده من رتبة الشموسية اذا لم يكف من عمله السىء .

فأراد الراهب أن ينتقم لنفسه فأغرى راهبا سوريا بقليل من المال أعطاه اياه لكى يعترف بأنه البطريرك أمام ثلاثة شهود من المسلمين لا يعرفون البطريرك ذاتيا وكتب له أمامهم صكا بأنه اقترض منه مبلغا جسيما جدا يدفعه له بعد مدة . وبعد ذلك عزم الشماس على تقديم السند للقاضى ليخلص له حقه من رئيسه غير أنه قبل أن يتمم عمله شعر به كبار المستخدمين الأقباط فاخطروا البطريرك بالأمر وفى الحال استدعى لديه أحد أعيان المسلمين المعروفين بالشرف والصدق وطلب منه أن يحضر أمامه الثلاثة الشهود من المسلمين حتى يميزوه من بين الجالسين ان كانوا يعرفونه فلما حضروا لم يستطيعوا تمييزه واعترفوا أنه ليس هو الشخص الذى شهدوا عليه ومن ثم علمت الحقيقة وكيف دبر ذلك الشماس المكيدة ليوقع ببطريركه . ولما رفع الشماس دعواه وطلب البابا شنوده أمام القاضى طلب الشهود ليقرروا الحقيقة فما وقع نظرهم على الشماس حتى أخذوا يوبخونه على وقاحته المتناهية فاتشح بالخزى وندم على ما فعل مستغفرا رئيسه .

وقد نسج كثيرون من المسيحيين بالاسم على منوال ذلك الشماس فكانوا يتهمون اخوانهم تهما باطلة حتى ينالوا حظوة لدى الولاة المسلمين الذين كانوا يتذرعون بتلك الوشايا الكاذبة الى اضطهاد الأقباط . فادعى راهب على البطريرك أنه يعرف علم الكيمياء وعنده من الذهب والفضة مالا يحصى ومن ذلك أن راهبا من أعمال البشمور قدم لابن طولون شكوى كاذبة يدعى فيها أن بطريرك النصارى يجمع الأموال بطريق الاختلاس ويبذرها . فقبض الوالى عليه مع رهط من أساقفته وغللهم بالقيود وساقهم الى بابيليون مصر حيث خلع عنهم ملابسهم الكهنوتية والبسهم ثيابا قذرة وأركبهم على دواب بدون براذع وأمر أن يطاف بهم فى الشوارع ليكونوا موضوع سخرية وهزء الناظرين . بعد نهاية هذا التحقير وضع البطريرك فى سجن لبث فيه شهرا كاملا وهو يتعذب من مرض المفاصل ثم أتى به أمام الوالى فلم يستطع المبلغ الكاذب أن يثبت تهمته واشتد غيظ الأقباط عليه وقصدوا أن يفتكوا به فأسرع وطرح نفسه تحت قدمى البطريرك ملتمسا منه العفو عما نزل به فعامله

البطريرك معاملة المسيحى الحقيقى وصرح له بصفحه عنه وبرهن على ذلك بأن أعطى له مبلغا من المال وأركبه جملا يصل به الى بلدته ووهب له ثلاث حلل ثياب وأظهر له منتهى اللطف حتى عنفه وكيله على هذا اللين المتناهى الغير المحمود لشخص لا يستحق سوى القصاص الشديد · وقد صدق ظن هذا الوكيل فان ذلك الراهب رجع الى شره وعمل على اضطهاد المسيحيين وذهب الى الاسكندرية وشرع يضطهد التجار والمسافرين فرفعوا أمره الى الحاكم وثبت له صدق شكواهم فأمر بضربه بأعصاب البقر حتى تمزق لحمه وقضى عليه من تأثير الضرب ·

وادعى راهب آخر بما هو أعظم من جميعه بقوله ان البطريرك اغتصب بعضا من المسلمين وردهم عن الاسلام جبرا وجعلهم نصارى ثم صيرهم رهبانا ولكى يؤكد للوالى صدق قوله طلب منه أن يسير معه جندا الى احدى الأديرة ليحضر منها من كان مسلما ثم أكرهه البطريرك على النصرانية والرهبنة ولما وصل الى الدير أخذ يملق بعض الرهبان ليجذبهم اليه فلم يوافقوه فأمر الجند بالقبض عليهم وأتوا بهم الى الوالى فأقام الرهبان الأدلة القاطعة على أنهم مسيحيون أولاد مسيحيين وكان هذا الراهب يكره راهبا آخر من دير أبى يحنس فأكد للوالى انه كان مسلما فاستحضره وجلده بالسياط ليعترف بذلك ولما رأى اصراره أرسل الراهب الشرير مع بعض الجنود الى البطريرك ليأتوا به اليه حتى يدافع عن هذه التهمة فبينما كان الراهب بقلاية البطريرك وقع بصره على بعض صناديق فتوهم أنها مملوءة مالا فأحضرها لدى الوالى ولكنها لما فتحت وجدت مملوءة بنسخ قديمة بخط اليد ذات أهمية كان البطريرك مولعا بجمعها فلحق الراهب الخجل ولذلك اتهم تلاميذ البطريرك بأنهم سرقوا الأموال التى أحضرها فبدأ الوالى يحقق هذه التهمة الجديدة ولكن البطريرك أثبت براءة تلاميذه وبين فساد التهمة الموجهة ضده موضحا بأن دخله لا يكاد يكفى نفقاته التى ينفقها دوما على الكنائس دون أن يدخر شيئا له ·

فصدقه الوالى واشتد غيظه على ذلك الراهب النمام وصرف الرهبان الذين اتهموا بأنهم كانوا مسلمين الى أديرتهم وأفرج عن البطريرك وحاشيته وضرب على ذلك الراهب الكاذب غرامة جسيمة الزمه بدفعها ·

وهكذا استمر أشرار الرهبان الذين كانوا يسعون لبث الفتن لعدم موافقة الآباء على تقليدهم الوظائف الدينية العالية لعدم لياقتهم رغما عن المبالغ التى كانوا يعدونهم بنقدها وآخر تلك الحوادث أن راهبا طاعنا فى السن اتفق مع بعض اليهود على تجديد اضطهاد النصارى فأخذوا يطوفون ليهيجوا المسلمين عليهم فى كل مكان متذرعين بالتهمة المقدمة وهى أنهم يسعون لرد المسلمين الى المسيحية فقام عليهم المسلمون يقتلون الكثيرين منهم وينهبون أموالهم ثم أوقعوا بالبطريرك وأساقفته وأجبروا الحاكم على اضطهادهم ٠

وكان البابا شنوده قد اعتاد هو وبعض الاكليروس والشعب أن يتوجهوا سنويا الى دير أبى مقار فى برية شيهات قبيل عيد الفصح ٠ وحدث فى احدى السنين أن العربان الذين كانوا يملأون تلك البرية تعدوا على المسيحيين ونهبوا متاعهم ولم يقفوا عند هذا الحد بل هجموا فى يوم الخميس الكبير على الدير حال ازدحامه بالمسيحيين لكى ينهبوهم ويخربوا الدير فاستولى الخوف الشديد على الرهبان والشعب وانزعجوا جدا عندما رأوا خطر الموت يفد اليهم فرفعوا أصواتهم بالبكاء والنحيب وبينما هم كذلك تقدم البابا شنوده بشجاعة وخرج بعكازه الى العربان الهائجين دون أن يمنعه استعطاف أبنائه كى لا يخرج وتقدم الى الأشرار وطلب منهم أن يأتوا اليه ليقتلوه فلما رأوا منه هذه البسالة وتطلعوا الى هيئته الموقرة رجعوا الى الوراء تاركين الدير ولما أظهر الرهبان خوفا من قيام العربان عليهم مرة أخرى ابتنى لهم فى كل دير حصنا منيعا ٠

وبالجملة كانت حياة البابا شنوده مملوءة بجلائل الأعمال واستمر مجاهدا على كرسى البطريرك ١١ سنة و٣ شهور و١٨ يوما ورقد بالرب فى ١٤ برمهات سنة ٥٩٧ ش و ٨٦٩ م ٠

(٨) ميخائيل١ - البطريرك السادس والخمسون :

أقرت آراء جميع أبناء الطائفة والأساقفة بعد نياحة البابا شنوده على اختيار الأب ميخائيل خلفا له وكانت رسامته فى شهر برمودة فى نفس السنة التى توفى فيها سلفه فى عهد خلافة المعتمد بن المتوكل ولم يتعرض لرسامته احمد بن طولون لانشغاله فى الحرب مع ابنه ٠ فقد كانت عادة الولاة التعرض للشعب فى تنصيب بطاركة عليهم رغبة فى

سلب أموالهم . ولما رأى البابا ميخائيل الجو صافيا أمامه نهض الى تعمير الكنائس التى تهدمت فى ابان الاضطهاد وتشييد بعضها مما أزيلت معالمه . وكانت فاتحة أعماله عقب رسامته بقليل قبوله دعوى تلقاها من مسيحيى دنوشر من أعمال سخا يطلبون منه الحضور مع الأساقفة لتدشين كنيسة بنيت باسم مار بطلومايس الشهيد . وفى صباح اليوم الذى عين لتكريس هذه الكنيسة سار البطريرك مع الأساقفة وكثير من الشعب الى الكنيسة للقيام بالفروض الدينية ولكنهم لم يجدوا اسقف الكنيسة فأخذ البطريرك فى اتمام الخدمة الدينية مع أساقفته حتى انتهى الى رفع القرابين بدون أن ينتظر قدوم ذلك الأسقف وبعد تقديم الحمل وحال تلاوة صلاة الشكر دخل أسقف سخا المشار اليه وهو ممتلىء غيظا لأن البطريرك تعدى على حقوقه ورفع القرابين فى أبروشيته وكنيسته بدون اذن منه . ثم سار نحو المذبح وأمسك القربانة وطرحها فى الأرض وخرج غاضبا ولم تكن تلك القربانة قد تقدست بعد فاستبدلها البطريرك بغيرها وتمم القداس وأعطى البركة للشعب .

وفى اليوم التالى عقد البطريرك مجمعا من الأساقفة الذين شاهدوا تلك الحادثة وأجمعت الآراء على قطع ذلك الأسقف الشرير واقامة آخر بدله فكان ذلك مدعاة لزيادة التهاب حرارة الغيظ فى نفس الأسقف وأراد أن يكيد لرئيسه فتوجه الى احمد بن طولون وكان حينئذ على أهبة القيام الى سوريا للحرب وفى احتياج للأموال للصرف منها على الجيش فلما علم بذلك الأسقف المعزول ذهب اليه وأخذ يهون الأمر عليه قائلا ان بطريرك الأقباط عنده من الأموال والثروة ما يكفى لهذه النفقات وما هو أكثر منها وأن مثله لا يحتاج لغير القوت واللباس وأنه لايتأخر عن المساعدة ببعض ما عنده لو طلب منه ذلك فشكره ابن طولون واستدعى اليه البطريرك حالا وقال له « أنت تعلم أن مساعدتنا للخليفة بالرجال والأموال أمر واجب ولا يخفى عليك الحروب القائمة علينا بسوريا واستعدادنا للقيام بها واحتياجنا للنفقات . وقد علمت انك ذو ثروة وافرة ومثلك لا يحتاج لغير الطعام واللباس وقد استدعيتك بالاكرام لتدفع لى بطيب خاطر ما لديك لمساعدتنا فتحظى من الخليفة بالرضا ومنى بالمنة الجزيلة » فعلم البطريرك أن هذه مكيدة محبوكة فأخذ يحتج ويدافع عن نفسه مبرهنا للوالى كذب التهمة التى وجهت اليه من ذلك الأسقف الخائن . ولكن ابن طولون لم يقبل منه اعتذارا وطلب منه أن يسلمه

جميع الأوانى الذهبيــة والفضــية الموجودة فى الـكنائس القبطيـــة فى القطر المصرى وكل معدن يمكن تحويله الى نقود فرفض البطريرك هذا الطلب بتــاتا معتــذرا بأن هــذه ملك لله لا له ففى الحــال قبض عليه وزجه فى السجن مع شماس له يدعى ابن المنــذر وقــد بقى هــذا البطريرك المسكين سنة كاملة فى السجن ٠

وكان فى معيــة ابن طولون اثنــان من كتبة المسيحيين مقربين اليــه أحدهمــا يدعى يوحنــا والآخر موسى فاجتهدا فى انقــاذ البطريرك بالاتحاد مع وزير الوالى احمد بن المــارديني ٠ وكان لهــذا الوزير كاتبان فى ديوانه وهمــا يوحنــا ومقــار ابنــه فوقعــا عليه وطلبــا منه أن يكشف للحــاكم حقيقــة الأمر ويسعى فى اطلاق سراح البطريرك تلقــاء مبلغ يقدمونه له فــداء له وللـكنائس ٠ ولمــا علم ابن طولون أن السجن والموت لا يرعبــان البطريرك ولا يحملانه على تسليم آوانى الـكنائس قبل وساطة وزيره بشرط أن يضمن كاتبان البطريرك ليــدفع عشرين الف دينــار فاضــطر البطريرك البــائس حبــا فى خلاص أبنــائه من شــقاء يحيط بهم واضطهاد يقع فوق رؤوسهم أن يكتب صكا على نفســه متعهــدا بدفع المبلغ على قسطين ريثما يتمكن من جمعه من أبنــائه وكان عليه أن يدفع النصف بعــد شهر والنصف الآخر بعد أربعة شهور ٠

ولمــا حان ميعــاد القسط الأول دفع أولئــك الـكتاب ألفى دينـــار وتبرع الوزير بألف واقترض البطريرك من التجــار المسلمين ســبعة آلاف فصــارت الجمــلة عشرة آلاف سددها لابن طولون وأخــذ بعــد ذلك يجتهد فى الجمع ليفى دين التجــار من جهة ويسدد القسط الثــانى من جهة أخرى فقرر على كل أســقف مبلغــا وافرا ولــكن كل ذلك لم يكف فجعل يزيد من الضرائب على أبنــاء الـكنيسة وفرض على كل راهب دينــارا فلم يف ذلك أيضــا بالمطلوب ٠ ولمــا ضــاق به الأمر بدأ يبيع بيوتا موقوفة للـكنائس وأراضى خارج الفسطاط كان يسكنها جمــاعة من الأحبــاش وأضــاف ثمنها الى المــال الأصلى فظهر أن كل هــذه المبــالغ زهيــدة بجــانب المطلوب فضــلا على أن الأربعــة الأشهر المضروبة لدفع نصــف الغرامة الثــانى كانت قــد مرت مر السحاب فوقع البطريرك فى يأس وقنــوط ورأى الموت المريع أمام عينيــه ولــكن كل خوفه كان على حيــاة يوحنا الـكاتب وابنــه اللذين ضمناه فى تسديد الغرامة ٠

فاضطرته الحـــالة القصـوى الى رسم عشرة أســاقفة على عشرة أبروشيات كانت خاليــة حينئــذ مقــابل مبلغ دفعــه كل واحد منهم · وقــد تألم البــابا ميخائيل أشد الألم لذلك غير أن عــذره واضح حيث أنه لم يأخذ لنفسه شــيئا مما جمع بل دفع تلك النقود لرفع ضيم واضطهاد كان وقوعهما محتما على أمتــه كمــا أنه لم يقل أحــد من المؤرخين أن البــابا ميخائيل كرس أسقفا غير كفؤ لأنه قــدم ذهبا وفضة (١) ·

وقد انتهز اليهود هذه الفرصــة وأخــذوا يســاومون البطريرك على كنيسة للأقبــاط كانت قــد خربت وتهــدمت ولم تــكن تؤدى فيهــا خــدمة فاضطر البطريرك أن يبيعهــا اياهم ولم تزل تحت يدهم الى يومنا هذا (٢) وباعهم أيضــا ارضــا بالبساتين لدفن موتاهم بهــا · ثم عمــد الى طريقة أخرى يجمع بهــا بعض المــال وهى تأجير مقــاعد خاصــــة بالـكنائس للأغنيــاء · ولمــا لم يكن كل ذلك كافيا للسداد رأى أن يسأل المشرفين على ادارة كنائس الاسكندرية لـكى يبيعوا النقوش والزخارف الموجودة فى كنائسهم ويرسلوا له ثمنهــا ليــدرأ به آلام الاضطهاد · فقــاومه اكليروس الاسكندرية مقاومة شديدة ولـكنهم لمــا رأوا ضيقته رضوا بشرط أن يؤدى هو وخلفاؤه الف دينار كل سنة لـكنائس الثغر الاسكندرى ·

وبعد ذلك كله وجــد البــابا ميخائيل ان جميع ماتحصل عليه أقــل من المطلوب فانطلق الى تانيس وهو فى حيرة كبرى وبينما هو كذلك وافى راهب الى تلاميــذه بثيــاب بالية وقال لهم قولوا لمعلمكم أن الرب يمزق عنه

---

(١) قالت المؤرخة الانكليزية مدام بوتشر : ــ « ولا يغرب عن ذهن اللبيب أن أساقفة الأقباط قديما دفعوا تلك المبالغ فدية لكنيستهم ولكن أساقفة الكنيسة الانكليزية الذين يتمتعون بالسلام والأمن فى ظل حكومة ملك مسيحى لايزالون يدفعون الى يومنا هذا مبلغا لايقل عن ٣٠٠ جنيه يؤدونها ضريبة للحكومة ولرئيس الأساقفة يوم رسامتهم » أهـ (٢ : ٢٧٤)

(٢) كان ببابيليون كنيس لليهود بنى قبل خراب أورشليم للمرة الثانيــة بنحو ٤٥ سنة ولما ظهرت المسيحية بمصر اعتنقها أغلب اليهود وتحول الكنيس الى كنيسة · ولما حدث الانشقاق بين الكنيسة القبطية واليونانيــة استولى الملكيون على تلك الكنيسة وبقيت فى حوزتهم حتى انقرضوا فى الجيل التاسع فاستولى عليها القبط ولما رأى اليهود ضيقة البابا ميخائيل وحاجته الى المال ليسدد غرامة ابن طولون استأجروا منه هذه الكنيسة لمــائة سنة وقيل أنهم اشتروها وعلى كل حال فهى فى يدهم الى الآن ويعتبرونها من أقدس الأماكن اذ يزعمون أن فيها قبر أرميا النبى ·

صك الغرامة بعد أربعين يوما . قال هـذا واختفى عنهم وحاولوا بعد أن أخبروا البطريرك أن يجدوه فلم يقفوا له على أثر . ولم تمض الأربعون يوما حتى مات ابن طولون وخلفه ابنه خمارويه فطيب خاطر البطريرك ومزق صك الغرامة وأطلقه مكرما معززا .

وقد استمر البابا ميخائيل على الكرسى البطريركى مدة ٢٥ سنة وشهر واحد و٩ أيام وتوفى فى ٢٠ برمهات سنة ٦٢٠ ش و٨٩٤م .

القسم الثانى

المملكة والكنيسة

(١) سرقة أهالى البندقية لجسد القديس مرقس
(٢) خلافة المأمون
(٣) المتوكل وابنه المنتصر
(٤) المستعين وغيره
(٥) المعتز
(٦) احمد بن طولون

---

(١) سرقة أهالى البندقية لجسد القديس مرقس :

لبث خلفاء مار مرقس ينتخبون على قبره وكذلك ظلوا مدة الثلاثة القرون الأولى يدفنون بجانبه . وشهد السنكسار (٤ أبيب) أن كنيسة القديس مرقس ببوكاليا كانت لا تزال تضم جسده فى القرن الخامس وشهد أيضا بأنه كانت هناك كنيسة أخرى جنوبى الاسكندرية باسم القديس مرقس أيضا . وقد ظلت كنيسة بوكاليا قائمة للقرن السابع ثم خربت على يد العرب . ثم صغرت تلك الكنيسة وأطلق عليها اسم « الكنيسة التى تحت الأرض » .

قال أبو المكارم المؤرخ « لما حصل الخلاف فى الايمان الأرثوذكسى بمدينة خلكيدون سنة٤٥١م طلب الملكيون أن تقسم كنائس الاسكندرية بينهم وبين القبط فاختص الملكيون بالكنيسة التى تحت الأرض والتى أبقى بها جسد الرسول واختص القبط بالكنيسة الأخرى الجنوبية التى نقل اليها رأس الرسول

فما كان من الافرنج الا أن سرقوا هذا الجسد بوضعه فى عمود مجوف من الرخام ولما وصلوا بغنيمتهم الى البندقية قابلهم أهاليها بفرح عظيم وجعلوا جمهوريتهم الحديثة تحت حماية الأسد المرقسى لما كان لمرقس الانجيلى من المآثر بايطاليا » أهـ ٠

ووجدت قطعة فى أحدث الكتب التاريخية البولاندية وهى تخبرنا عن كيفية سرقة أهالى البندقية لجسد الرسول مرقس وهاك ملخصها :

« الامبراطور ليون الأرمنى الذى حكم من ٨١٣ الى ٨٢٠ منع رعيته من معاملة مدينة الاسكندرية تجاريا نظرا لامتلائها وقتئذ بالمسلمين أعداء اليونانيين واللاتينيين ٠ ومع ذلك فبعض التجار البندقيين كانوا ملزومين بحكم العواصف والرياح أن يلتجئوا الى ميناء الاسكندرية ليمضوا فيها بعض الزمن الى أن يتمكنوا من استئناف المسير وفى ذلك الحين عزم سلطان مصر على تشييد قصر فخيم له فى قاعدة ملكه فأمر برفع العمدان والواح الرخام المزينة بها الكنائس وباقى الاثارات ليقيمها فى قصره وقد هدمت كنيسة مار مرقس الموجودة ببوكالى القريبة من شاطىء البحر كغيرها وأخذت أعمدتها وأحجار الرخام الموضوعة بها حول قبر الرسول وأرسلت الى مصر رغما من معارضات وتوسلات البطريرك وأكليروس المدينة ٠ وفى هذه الأثناء فكر التجار البندقيون فى مشروع خطير وهو أخذ بقايا القديس الذى هو عندهم موضع احترام وتبجيل كى يذهبوا كل يوم للسجود أمام قبره ولما رأوا أن فى استعمال القوة هياج الشعب المسيحى ضدهم عزموا على ارشاء حراس قبر القديس بقولهم ان بقاياه ستحفظ فى بلد مسيحية وتكون موضع احترام وتعظيم ساكنيها بدلا من تركها فى بلدة قد لا تمكث بها طويلا بل تلعب بها أيدى الكفرة وأما عندهم فيمكنهم أن يحرصوا فى المحافظة على بقايا القديس حيث تكون فى مأمن من كل طارىء ٠ وقد اقتنع الحراس بهاته الوعود والأقوال وسلموا بقاياه الى هؤلاء التجار ووضعوا جثة أحد القديسين مكانها فاقلع البندقيون بالجثة الى ايطاليا ولكى يخلصوها من العمال المسلمين وضعوا فوق الصندوق قطعا من لحم الخنزير الذى تحرمه الشريعة الاسلامية ٠ ولما وصلوا الى البندقية عرضوا الجثة على حاكم المدينة الذى وضعها فى كنيسة قصره ريثما يتمكن من تشييد معبد يليق بهذا القديس العظيم ٠ ومن ثم أسعدت تلك المدينة بامتلاك تلك البقايا المقدسة ويتخذ أهالى

البندقية مار مرقس نصيرا لهم ويعتقدون أنه سببسعادة جمهوريتهم ويحيون ذكرى ذلك النقل فى أول فبراير » أهـ (١) ٠

ولقد يوجد بالبندقية نسخة أصلية يونانيــة من انجيل القديس مرقس يقال أنهم أخــذوها بين سنة ١٤٥٢ م و ١٤٧٢ م ووجود هــذه النســخة الأصلية باللغة اليونانية مما يكذب ادعاء الغربيين أن مرقس الرسول كتب انجيله برومية باللغــة اللاتينيــة ويثبت أنه كتب فى مصر باللغة اليونانيــة ومنها نقل الى القبطية ٠

(٢) خلافة المأمون سنة ٨١٣ م :

وبعد موت هرون الرشيد وقع خلاف بين ابنيــه وقام كل منهما يطالب بالخــلافة فانتهز مسلمو الأنــدلس هــذه الفرصــة وهجموا على مصر ٠ وكثيرون من الأقبــاط الذين أخنــاهم الذل ســاعدوا الأندلسيين على أخــذ الاسكندرية ولــكن مسلمى الاسكندرية قاوموا الأندلسيين واشتبكت الحرب بين الفريقين مدة أطلق فيهــا البغــاة أيديهم لسلب ونهب الأقبــاط فهجموا على البيوت والمنــازل فنهبوها ثم دمروا الــكنائس ومنها كنيسة المخلص واغتصبوا ما فيهــا من الأمتعة وسلبوا الأوانى المقدسة وأثموا بالمقادس ٠ وغارت قبــائل العرب على وادى النطرون فأخربوا أديرته ونهبوها وفتكوا برهبــانها وطردوهم فلم يبق منهم الا القليل ٠ وآلت ولاية مصر بعد ذلك لرجل اسمه عبد الله بن طــاهر فأباح لجنوده نهب الأديرة واحراق الكنائس والتمثيل بعابديها ٠

واستقل المأمون بن الرشــيد فيما بعــد بالخــلافة وولى مصر أخاه المعتصم فوكل عنه عمر بن الوليد فغــار وجار فقــام الأقبــاط بثورة تعتبر آخر ثوراتهم قاصــدين بها التخلص من النير الأجنبى الثقيل فامتنع أهــل الوجه البحرى عن دفع الخراج فكان بينهم وبين عساكر الوالى حروب هائلة قتل فيهــا من الفريقين خلق كثير وقتل عمر فاستخلف مكانه عيسى الجلودى واقتدى أقبــاط الصعيد بأهل الوجه البحرى فأصبحت البــلاد جميعها فى حالة فوضى فقــدم اليهــا المعتصم بأربعــة آلاف جنــدى وقتل أهل الحوف٠ واستمر الأقبــاط ثائرين وأخرجوا العمال لسوء ســيرتهم والولاة يوقعون

---

(١) الناشر : وقد نقلت رفاته الى مصر فى عهد البابا كيرلس السادس فى ٢٤ يونية سنة ١٩٦٨ م

بهم ويقتلون ويأسرون حتى بلغ خبر الثورة للخليفة المأمون فقدم الى مصر وشاهد ظلم الولاة فسخط على عيسى وحل لواءه وأخذه بلباس البياض عقوبة له وقال له « لم يكن هذا الحدث الا من فعلك وفعل عمالك حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتم الخبر حتى تفاقم الأمر واضطربت البلاد » .

ثم حمل المأمون على البشموريين بعساكره فشتت شملهم وفرق جمعهم ودخل بلادهم وقتل رجالهم وسبى نساءهم وأطفالهم وسلب أموالهم وهدم كنائسهم وبالجملة لم يبرح تلك الجهة حتى خرب منازلهم وجعل بلادهم العامرة أطلالا بالية ومن ثم ذل القبط ولم يتجرأوا فيما بعد على المقاومة. وكان المسلمون فى أثناء قيام المأمون باخضاع الثائرين الأقباط يطوفون فى البلاد لينتقموا منهم فقتلوا كثيرين ونهبوهم وأخذوا عددا كبيرا منهم وباعوهم كالحيوانات حتى اضطرت الطبقة السفلى الى اعتناق الدين الاسلامى هروبا من تلك الفوادح التى كانت ملمة بهم . فأخذ عدد الأقباط يقل حتى صار أقل من عدد المسلمين . وقبل هذا الزمن كان المسلمون لا يوجدون الا فى الجيش أو فى المدن الكبرى فامتلأت بهم القرى الصغيرة لاعتناق ربع سكان القطر المصرى الديانة الاسلامية وهؤلاء صاروا يفلحون أراضى اخوانهم الأقباط الباقين على دينهم ويغتصبونها منهم وبذا زاد عددهم وقويت شوكتهم .

وحدث فى أثناء وجود المأمون بمصر أن مر بقرية طأ النمل ولم يشأ أن يعرج عليها لصغرها فخرجت خلفه عجوز قبطية وطلبت منه أن يشرف قريتها فلبى دعوتها وقامت العجوز وولداها بتقديم طعام فاخر له وجنوده حتى استعظم ذلك ولما أصبح الصباح وعزم المأمون على الرحيل حضرت اليه العجوز ومعها عشر وصايف فى يد كل وصيفة طبق عليه كيس من ذهب مطبوع فى عام واحد فاندهش المأمون وطلب منها أن تعيد ذهبها فأبت وقالت له لا تكسر قلوبنا ولا تحتقرنا . ولما سألها من أين لك كل ذلك تناولت قطعة طين وقالت له « ان هذا الذهب من هذا الطين . ولا تنس عدلك يا أمير المؤمنين » فأعجب بها وبسعة حالها وقبل هديتها وأقطعها عدة ضياع ووضع عنها خراج مائتى فدان .

ومكث المأمون بمصر مدة شهرين حتى نظم أحوالها ومن ثم برحها الى بغداد فبلغه أن الدواوين صارت على خطة لا يرضاها من حيث قبول الزيادات فى الأراضى ونزعها من يد من كابد مشقات وتحمل نفقات

جسيمة فى اصلاحها وتسليمها لمن يدفع الزيادة من غير كلفة ولا تعب فأصدر أمره بعدم قبول هذه الزيادات مادام يكون الناس قائمين بدفع ما عليهم من الأموال ٠

(٣) خلافة المتوكل سنة ٨٤٧م وابنه المنتصر سنة ٨٦١م :

وولى الخليفة المتوكل على مصر ابنه المنتصر وكانا كلاهما يبغضان الأقباط ومع أنهما كانا يشعران بشدة الحاجة اليهم فى انجاز الأعمال الهندسية والحسابية والطبية وغيرها الا أنهما عاملاهم بالقوة والجور قاصدين أن يغيرا هيئة مملكتهما بمحوهم فاضطر الأقباط الى الاهمال فى واجبات دينهم وتراخوا فى خدمة الحكومة ٠

وبلغت الاستهانة بالأقباط الدرجة التى لم يكتفوا فيها بأن ينهبوا حجارة الرخام والمرمر الموجودة فى كنائسهم ونقلها الى بغداد لتوضع فى قصور الخليفة بل قاموا الى مدافنهم فى القطر ونبشوا قبورهم التى كانوا يعنون بتشييدها وأزالوها ولم يبقوا فيها حجرا على حجر ٠

واستمر الخليفة المتوكل يصدر أوامره ضد جميع المسيحيين المقيمين فى مملكته خصوصا فى مصر راغبا ازعاج خاطرهم وتكدير صفوهم ٠ ومنطوق تلك الأوامر يفيد على أنه قصد بها اذلال شأن المسيحيين وأضعاف حميتهم ٠ فالنساء فى ذلك الحين كن يلبسن المناطق والأحزمة والحياصات حبا فى الحشمة والتواضع فصدر أمر المتوكل بمنعهن عن لبس ما تعودنه والزام الرجال بلبس الطيالس العسلية وشد الزنانير وأن يخيط كل رجل على ثيابه قطعتين طول الواحدة أربعة قراريط ولون كل واحدة تختلف عن الأخرى ولون الاثنتين يخالف لون الثياب ٠ أما النساء فاذا أردن الخروج يتنقبن ببرقع عسلى اللون وهى ما كان خاصا بالبغيات ٠ وحظر على النصارى أيضا أن يركبوا سوى البغال والحمير الحقيرة ببرانع قذرة عليها علامة خاصة ويعملوا كرتين فى مؤخرة البرذعة والركابات تكون من خشب واللجام قطعة من حبل ٠

وأمر الأقباط أيضا بأن يجعلوا على أبواب دورهم صور شياطين وقرود من خشب ومنعوا من اشعال النور فى احتفالاتهم أو أعراسهم وأن لا يطبخوا طعاما على مرأى من الناس كما جرت عادة الفقراء فى كل بلاد المشرق وأن يساووا قبورهم بالأرض وحجر عليهم استعمال الصليب

المقدس فى أحد الشعانين وأمر بهدم كنائسهم المحدثة وأخذ العشر عن منازلهم ٠

ثم بعد ذلك بأربع سنين أمروا أن يلبسوا دراعيتين على الدراريع والأقبية ونشر الخليفة أوامره هذه فى كل الأماكن فذل الأقباط ذلا عظيما ولم يعودوا يرفعون رؤوسهم وأسلم منهم عدد لا يحصى والذين لم يسلموا كان كثيرون منهم لا يقوون على التظاهر بالمسيحية وكانوا اذا اجتمعوا للصلاة لا يستطيعون رفع أصواتهم بل يصلون بأصوات ضعيفة حتى لا يسمعها المسلمون فيهجمون عليهم ويدنسون مقادسهم ويطردون من فيها وينهبونها ويخربونها ٠

وقد ضجر الأقباط من كثرة توالى تلك الأوامر الصارمة ولا سيما لبس الرجال المنطقة التى كانت خاصة بالنساء فكان الأساقفة يبذلون جهدهم ليحملوهم على الخضوع لهذه الأوامر حقنا للدماء وأفهموهم أن لبس المنطقة حتى فى أوقات الصلاة من دلائل الحشمة ولكى لايجعلوهم يزدرون بركوب الحمير قالوا لهم بأن السيد المسيح نفسه ركب جحشا وأن الخيول للمتكبرين ولا تستعمل الا فى الحروب ٠

وبعد ذلك صدر أمرا أكثر قساوة وهو عدم الاستعانة بالأقباط فى أعمال الحكومة فرفت منهم كثيرون وانحط بذلك شأن عائلات كثيرة أصابها الفقر المدقع ٠ ولم يقف الأمر عند هذا الحد فصدر أمر يراد به القضاء على المسيحية فى مصر وهو ابطال الصلاة على كل ميت واغلاق جميع الكنائس فلا تؤدى فيها خدمة واستئصال جميع الكروم ومنع بيع النبيذ حتى لا يجد الأقباط خمرا لاتمام سر الافخارستيا ٠ ويقول المؤرخون « وقد نفذ هذا القرار الأخير بالدقة حتى صار من المستحيل ايجاد عنب أو نبيذ فى جميع أنحاء القطر المصرى ٠ الا أن الكهنة الذين كانوا لا يهابون الموت لم يكفوا عن تأدية هذا السر المقدس وكانوا يبذلون قصارى جهدهم ليحصلوا على الخمر من خارج القطر المصرى ٠ ولكن هذا العنب كان ينشف حين وصوله لمصر ويصير زبيبا فيضعه الكاهن فى الماء برهة ثم يعصره قبل أن يختمر لعدم وجود وقت كاف ٠ ومن ذلك الحين صار الأقباط يستعملون على الدوام نبيذا غير الخمر المتناولة » اهـ ٠

وفى نحو سنة ٨٥٢ عزم الرومانيون على استرداد مصر من يد العرب فسارت جيوشهم واحتلت دمياط وكان عملهم هذا آيلا الى ضرر مسيحيى مصر والأقباط منهم بنوع خاص فضايقهم الوالى خوفا من أن يقوموا بمساعدة للرومانيين اخوتهم في الدين . ولكى يزيد من ضيقة الأقباط طلب منهم مبلغا طائلا واذ لم يتمكنوا من تأديته نهب القسوس وقفل جميع الكنائس فى الفسطاط وبابليون الا واحدة .

(٤) خلافة المستعين سنة ٨٦٢م :

وقد قتل المتوكل بيد ابنه المنتصر وجلس بعده على كرسى الخلافة ولكن لم تطل مدته أكثر من سنة فملك بعده المستعين الذى أراح الأقباط ورد لهم ما سلب منهم من الكنائس فأصلح المتخرب منها من الاسكندرية شمالا الى أسوان جنوبا وصارت تمارس فيها الخدمات الكنسية كالعادة .

(٥) خلافة المعتز وغيره سنة ٨٦٦ م :

عين لمصر رجلا تركيا يدعى مزاحم بن خاقان وكان الأتراك يحتقرون العرب فوجد فى ولايته نوع من العدل والتساوى بين الأقباط والمسلمين، وبعد مزاحم تولى رجل تركى اسمه ببك سنة ٨٦٨ م ولكنه لم يحضر الى مصر بل أوفد مندوبين من قبله أحدهما احمد بن المدبر لجمع الضرائب والآخر احمد بن طولون لقيادة الجيش فتجبر أولهما على الأهالى وضاعف الضرائب على المسيحيين والمسلمين سواء ولكن وطأته كانت أشد على المسيحيين فأحصى الرهبان والقسوس وعين عليهم ضريبة بعد أن كانت رفعت عنهم والزم البطريرك بدفع ما فرض عليهم وهو يحصلها منهم بمعرفته وبلغ مقدار مافرض عليهم أكثر من ستة آلاف دينار فى السنة . فاضطر البطريرك أن يفرض عوائد على الأساقفة وأفراد الناس ليتمكن من دفع هذه الغرامات فحصلت لهم مضايقات شديدة فآثر كثير منهم الاسلام، تخلصا من الشدائد . وفى هذه الأثناء هجم العرب على بعض بلاد الصعيد وأضروا بالبلاد والعباد وأخربوا عدة أديرة منها دير أنبا شنوده، ودير القلمون بالفيوم ودير أنبا باخوم بناحية طحا .

ولما اشتد الضيق بالأقباط عرضوا أمرهم على الخليفة فكتب لوالى مصر يأمره بصرف الكرب عنهم فاستراحوا قليلا . وجاء بعد المعتز المهتدى سنة ٨٦٩م فتحصل الأقباط منه بواسطة مقدمهم ابراهيم على تأييد أمر المعتز . ولما تولى الخليفة المعتمد بن المتوكل سنة ٨٧٠ م قام فى عهده قائد جيش مصر احمد بن طولون ونادى بنفسه ملكا على مصر ولكى

يجذب قلوب المصريين اليه خفف عنهم الضرائب فتساوى الأقباط بالمسلمين . إلا أن ابن طولون كان يفضل الأتراك على العرب والأروام على الأقباط .

(٦) خلافة احمد بن طولون سنة ٨٧٠ م :

لما علم أن الأقباط هم أرباب الفنون والصنائع فى مصر طلب اليه مهندسا قبطيا ماهرا فلباه ابن كاتب الفرغانى وطلب منه أن يوصل المياه الى المدينة التى بناها بمصر القديمة . فعمل المهندس القبطى قناة عجيبة أدهشت جميع الذين رأوها من عظم اتقانها ولكن لسوء الحظ بينما كان ابن طولون يتفرج عليها عثر حصانه بكومة تراب أهمل العمال فى نقلها فغضب على المهندس والقاه فى السجن . وفيما بعد ظن ابن طولون أن الأقباط أغنياء فزاد عليهم الضرائب وعول على نهب أموالهم .

وفكر ابن طولون بعد ذلك فى بناء جامع يكون أعظم ما بنى من الجوامع فى مصر الى ذلك الحين يقيمه على ٣٠٠ عمود من الرخام فقيل له ان مثل هذا العدد من الأعمدة لا يمكن الحصول عليه الا اذا هدمت كنائس ومعابد النصارى واذ كان يوما يسمع القرآن علم بعدم جواز استعمال أدوات مسروقة فى بناء الجوامع فشق ثيابه وصاح قائلا « انه يستحيل على تشييد الجامع بدون نهب مواده من الكنائس فانى ماسمعت من يوم وجودى ان جامعا بنى دون أن تؤخذ أعمدته من كنائس المسيحيين . وحيث أنه لا يمكنى الا مخالفة هذا الأمر فسوف أخالفه واستغفر ربى عن هذا الذنب ان لم يكن بناء الجامع كافيا للغفران » .

ولما سمع ابن كاتب الفرغانى وهو فى السجن ما كان من رغبة ابن طولون وتردده كتب اليه عريضة وهو مسجون يفيده أنه قادر على اتمام مشروعه ومستعد لتنفيذ مرغوبه بغير احتياج لأكثر من عمودين يجعلهما فى القبلة . فلما قرأ العريضة تذكره وأمر باطلاقه من السجن واستحضره أمامه وعهد اليه فى بناء الجامع بالكيفية التى رسمها فشيد جامعا فخيما لم يسلب له ولا عامود واحد من الكنائس . بل كان يوجد فى الكنائس قديما حوض ماء للاغتسال فى يوم خميس العهد فكان المسلمون ينقلون هذه الأحواض الى المساجد لتكون لهم « ميضة » للوضوء . فصنع المهندس القبطى البارع ميضة جميلة لجامع ابن طولون وتم الجامع على ما يرام . وخلع ابن طولون على المهندس خلعة فاخرة وقرر له راتبا يتقاضاه مدة حياته . غير أنه فيما بعد الزم هذا المهندس المسكين باعتناق الدين الاسلامى فأبى فقطعت رأسه .

وقال المسعودى فى كتابه « مروج الذهب ومعادن الجوهر » أن ابن طولون سمع عن فيلسوف قبطى طاف بلادا كثيرة يسكن أعالى بلاد مصر وله من العمر ١٣٠ سنة فأمر فحمل اليه وسأله عن سبب طول عمره فأجابه الاعتدال فى المأكل والمشرب والملبس · وقيل أن ابن طولون سأل هذا الفيلسوف عن منابع النيل فأجابه « ان منابع النيل فى أعلاه فالبحيرة الواسعة الأطراف وهى عند المكان الذى يتساوى فيه الليل والنهار طول الدهر أى تحت الموضع الذى يسميه المنجمون « الفلك المستقيم » وما ذكرت فمعروف وغير منكور » ومعلوم أن العلماء والمستكشفين لم يهتدوا الى منابع النيل الا فى القرن ال ١٨ ولكنها كانت معروفة لذلك العالم القبطى قبل ذلك بألف وست مائة سنة وما البحيرة التى أشار اليها سوى بحيرة البرت نيانزا التى استكشفها (سبيك) عند خط الاستواء (١) ·

والغريب أن ابن طولون بعد ما اضطهد الأقباط وبطريركهم اضطهادا قاسيا طلب فى مرضه الأخير من أساقفتهم وقسوسهم أن يحملوا الأناجيل ويشتركوا مع رؤساء الدين الاسلامى فى الصلاة لأجله عسى الله يمن عليه بالشفاء ولكنه مات وملك بعده ابنه خمارويه سنة ٨٨٤ م وكان صديقا للأنبا باخوم أسقف طحا فأحسن للأقباط ورفع عنهم الجزية وأعطاهم صكا بذلك حتى لا يعود أحد الى مطالبتهم بها · وقيل أن خمارويه هذا كان ميالا للمسيحية والمسيحيين حتى أنه كان يصرف ساعات من النهار واقفا أمام صورة فى كنيسة الأروام بالقصير بهيئة التعبد والخشوع · وكان هو صديقا حميما للرهبان فى القصير ونظرا لميله اليهم ومحبته فى البقاء معهم ابتنى لنفسه غرفة وسط صوامعهم لكى يتمكن من مشاهدتهم وقت العبادة والتمتع برؤية الصور المقدسة ·

وتوالى بعد ذلك أولاد ابن طولون على كرسى السلطنة واحدا بعد آخر الى أن تولى الحكم فى مصر رجل يدعى عيسى بن الجراح فضيق على النصارى ولا سيما الرهبان والقسوس وفرض عليهم ضرائب باهظة فسار وفد منهم الى الخليفة ببغداد ورفعوا اليه احتجاجا فالتفت اليهم الخليفة وكتب الى الوالى بمصر يأمره أن يعاملهم بمقتضى العهود التى بأيديهم والزمه أن يترفق خصوصا بالكهنة والرهبان الفقراء · وفى آخر أيام الدولة الطولونية كان عدد الأقباط قد تدهور الى النقصان وصاروا الى أقل من خمسة ملايين فنازلا ·

---

(١) منتخبات تهذيبية للجنة التاريخ القبطى ص ٤٨و٤٨ ·

القرن العاشر

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) غبريال١ (٢) قزمان٢
(٣) مقار١ (٤) ثاوفانيوس
(٥) مينا٢ (٦) ابرآم١
(٧) فيلوثاوس

---

(١) غبريال١ ـ البطريرك السابع والخمسون :

لم تتمكن الكنيسة بعد وفاة البابا ميخائيل من تنصيب خلف له بالنسبة للمصائب الشديدة والكوارث القاسية التى ألمت بها . ولبثت الكنيسة أربع عشرة سنة بدون بطريرك قفلت فى خلالها كنائس كثيرة وتعطلت حركة بعضها وأخذت عوامل النزاع مكانها بين المسيحيين حتى سخر الرب لهم الأنبا باخوم أسقف طحا وكانت له مكانة سامية لدى الوالى خمارويه فتوسط لديه فسمح باقامة بطريرك للكنيسة القبطية وأعطاه تصريحا بذلك واختير باجماع آراء الشعب والكهنة الأب غبريال الراهب من دير أبى مقار وأصله من الميه منوفية فرسم فى شهر بشنس سنة ٦٢٥ش و ٩١٠ م فى عهد خلافة المقتدر بن المعتضد .

وكان هذا البابا تقيا ذا شعور رقيق ولكنه للضرورة سار على خطة البابا ميخائيل فى فرض ضريبة على كل أسقف يرسم جديدا لكى يدفع الرسم المطلوب لكنائس الاسكندرية التى تعهد بها البابا ميخائيل فى أوقات ضيقاته كما أنه لم يلغ الضريبة الشخصية التى كانت مضروبة على أعضاء الكنيسة القبطية سداد لطلبات ابن طولون بل ظل يتقاضاها ليتمكن من ترميم الكنائس المتهدمة .

ولم يتضايق هذا البابا من الحروب الخارجية فقط بل تألم كثيرا من حروب داخلية انتشبت فى داخله اذ حرك فيه عدو الخير الأميال الباطلة ولما رأى ارادته أضعف من أن تطفى هذا الاضطرام هرب الى برية شيهات واعترف بحاله لأتقياء الرهبان فقدموا له النصيحة قائلين « اعلم أيها البابا ان اشتعال الشهوة ينشأ من العظمة والفخر كما أن

خطبة التجديف دليل الاعتداد بالذات فان كنت تروم أن تحتمى من حرب الشهوات فعليك بملازمة فضيلتى الوداعة والتواضع فانهما أنجع دواء وأفضل رادع لمقاومة الأفكار الرديئة لا سيما اذا أضيف اليهما فضيلتا النسك وصرامة العيش فانهما يذللان الأميال الباطلة ويقمعان الأهواء البهيمية ، فأذعن البطريرك لنصيحة الآباء وواظب على أفعال التقشف والزهد ثلاث سنوات وكان يحمل نفسه على ممارسة أقل الأعمال التى تذللها حتى بلغ به الاتضاع بأن كان يمر على قلالى الرهبان وينظفها بمكنسة من الأوساخ • فنظر الرب لمسكنته ودرعه بنعمته وخلصه من التجربة ومن ثم استأنف جهاده فى خدمة كرسيه حتى أتم ١١ سنة فى الرئاسة وتنيح فى ٢١ أمشير سنة ٦٣٦ ش و ٩٢١ م •

(٢) قزمان٣ ـ البطريرك الثامن والخمسون :

انتخب بطريركا عقب وفاة البابا غبريال مباشرة وتمت رسامته فى شهر برمهات فى السنة التى توفى فيها سلفه فى عهد خلافة المقتدر • وكانت الاضطهادات التى وقعت على الكنيسة والنكبات التى حلت بها قد جعلت العلاقة التى بين الكنيسة القبطية وابنتها الكنيسة الحبشية تفتر قليلا مدة قرن أو أكثر • وحال جلوس البابا قزمان على الكرسى أوفد اليه ملك الحبشة رسلا يطلبون منه تعيين مطران قبطى لكنيستهم لداعى شيخوخة الملك وقرب وفاته ورغبته فى أن يقيم المطران وصيا على ولديه الصغيرين فرسم لهم البطريرك مطرانا يدعى بطرس وسار معهم الى الحبشة حيث قوبل فيها باحتفال عظيم • وبينما كان الملك يجود أنفاسه الأخيرة استدعى اليه المطران بطرس وكلفه بأن يتولى وصاية ولديه وعند بلوغهما سن الرشد يعين منهما ملكا من يراه أجدر من الآخر من حيث الكفاءة لا السن • وبعد مدة عمد المطران الى الابن الأصغر وتوجه ملكا اذ رآه أوفر عقلا وأسد رأيا ومع أن الابن الأكبر استاء من ذلك الا أنه لم يبد أدنى معارضة •

وحدث بعدئذ أن راهبين من مصر أحدهما يدعى بقطر والآخر مينا من الذين تعودوا التجول للتسول سافرا الى الحبشة وطلبا من الأنبا بطرس دراهم فأبى أن يعطيهما وازدرى بهما • فحقدا عليه وأرادا أن يكيدا له فزورا ختما باسم البابا قزمان البطريرك وكتبوا رسالة الى كبار مملكة الحبشة مؤداها أن المدعو بطرس مطران غير شرعى لم يعين من قبله وأنه غير راض

عن تعيين الابن الأصغر ملكا لأن الأكبر أولى منه بالملك وأحق » ولذلك يطلب أن ينفوا كلا من المطران والملك الجديد ويعتبروا مينا حامل هذه الرسالة ويقيموا الابن الأكبر ملكا ٠

ثم ذهب مينا بهذا الخطاب وسلمه للابن الأكبر فأطاع أرباب دولة الحبشة أمر البطريرك وأقروا على نفى المطران والملك واجتمع حول الابن الأكبر بعض المشاغبين ودارت بينه وبين أخيه حرب أهلية انتهت بأسر الملك وسجنه ونفى المطران الى مكان بعيد ثم قام الابن الأكبر ملكا ومينا مطرانا وبقطر وكيلا له ٠

غير أنه بعد وقت وجيز حدث خلاف بين مينا وبقطر فانتهز هذا مرة فرصة كان فيها المطران المزور غائبا وطرد خدمة المطرانية ونهب كل مافيها من النقود والأشياء الثمينة وحملها وأتى بها الى مصر واعتنق الديانة الاسلامية ٠ وانتهى الخبر الى البطريرك فأرسل بسرعة رسلا بخطاب الى الحبشة يحرم فيه مينا ويشجب أعماله ويأمر باعادة المطران الحقيقى ٠ فقام ملك الحبشة المغتصب على مينا وقتله شر قتلة طمعا منه فى استجلاب رضاء البطريرك وأرسل يستدعى المطران بطرس فوجد أنه قد مات لشدة ما لحقه من أنواع العذاب فى منفاه ٠ وكان له تلميذ فأخذه الملك وأقامه عنده مطرانا دون أن يسمح له بالذهاب لينال الرسامة من البطريرك خوفا من أن يوصيه بنزع الملك عنه واعطائه لأخيه ٠ ولما علم البطريرك بما جرى سخط على الحبشة ولم يشأ أن يرسم لها مطرانا ونسج على منواله أربعة بطاركة لم يريدوا أن يرسموا مطرانا للحبشة واستمرت مدة سبعين سنة لم يرسل اليها من الكنيسة القبطية مطران واحد ٠

وبعد أن مضى البابا قزمان ١٢ سنة و١٢ يوما على كرسى البطريركية تنيح فى ٣ برمهات سنة ٦٤٩ ش و٩٣٣ م ٠

(٣) مقار١ ـ البطريرك التاسع والخمسون :

أختير للبطريركية بعد قزمان الأب مكاريوس من قرية شبرا قبالة وكان وحيدا لأمه العجوز ولكنه ترهب من صغره فى دير أبى مقار ولما صار بطريركا وتمت رسامته فى برمودة سنة ٦٤٩ ش و ٩٣٣ م فى عهد خلافة القاهر بن المعتضد انطلق الى دير أبى مقار كعادة أسلافه وعند عودته منه تلقى دعوة من أهل بلدته يرجونه فيها المجىء اليهم ولم يكن له فى بلدته قريب سوى والدته العجوز وكان يحبها محبة زائدة لأنها

أحسنت تهذيبه وكانت لذلك الحين على قيد الحياة فعزم على زيارتها ليسر فؤادها بوظيفته السامية ٠

وسار الى البلدة مع حاشيته ولما اقترب منها أسرع واحد الى والدته فوجدها فبشرها بقدوم ولدها بموكب عظيم ٠ فلم تحفل بالبشرى ولم تلتفت لكلامه بل لبثت تشتغل والدموع تجرى على خديها فاندهش ذلك الشخص من أمرها ورجع من عندها بخجل عظيم ٠ أما البطريرك فاستقر فى البلدة ريثما ينتهى الاحتفال بقدومه وبعد ذلك انطلق بمن معه نحو منزل أمه فلما وصل اليها رآها وهى تغزل لم تتحرك من مكانها فقط رفعت نظرها اليه مرة واحدة وعادت الى عملها وقد أرسلت من عينيها دمعتين حارتين دون أن تفوه بكلمة ٠

فتقدم اليها بالسلام فردت عليه واستمرت فى شغلها ٠ فظن أنها لم تعرفه وتجهل مركزه السامى الذى وصل اليه فقال لها « اعلمى يا أماه أننى أنا ولدك مقار الذى ارتقى الى أشرف رتبة فى الكنيسة وقد صرت بطريركا فابتهجي وسرى بما أحرزه ابنك من المقام الرفيع » فرفعت عينيها اليه والدموع تتساقط منها بغزارة وقالت له وهى تجهش فى البكاء « كنت أتمنى أن أرى نعشك محمولا على الأعناق وخلفك النسوة يبكين حزنا من أن أراك متقلدا هذه الوظيفة الخطيرة يحيط بك الأساقفة والقسوس ذلك لأنك لما كنت علمانيا كنت مسئولا عن خطاياك الشخصية فقط ولكنك لما صرت بطريركا فسوف تسأل عن خطايا كل الشعب وزلاتهم فتيقن أنك فى خطر عظيم هيهات أن تنجو منه بسهولة لأنه من المعلوم أن المجد العالمى يحجب عن الانسان نور الحق ٠ فمن أين يا ولدى تقدر أن تكون بصيرا وقد وضع مجد الرئاسة برقعا على عينيك فها قد أنذرتك بما أنت فيه من الخطر فكن محترصا واذكر والدتك التى تعبت فى تربيتك » قالت هذا واستأنفت الغزل كما كانت فلما سمع البطريرك خرج من عندها وجلا كئيبا واستمرت هذه الكلمات تطن فى أذنيه طول حياته وكانت سببا فى استقامته وحرصه على اتمام واجباته بكل أمانة مدة العشرين سنة التى قضاها بطريركا حتى تنيح فى ٢٤ بؤونة سنة ٦٦٩ش و ٩٥٣ م ٠

(٤) ثاوفانيوس – البطريرك الستون :

وبعد نياحة البابا مقار انتخب خلفا له ثاوفانيوس من الاسكندرية فى شهر مسرى سنة ٦٦٩ش و ٩٥٣م فى عهد انوجورين الأخشيد ٠ وكان

هرما وفى أوائل أيام بطريركيته شعرت الكنيسة بعسر مالى عظيم وخلت مخازن البطريركية من الأموال بسبب الضريبة التى كانت معينة لكنائس الاسكندرية كما ذكر آنفا فضلا عن النهب المتواصل الذى كان واقعا على الأقباط من الحكام والولاة ٠ وقد رأى البطريرك أن الشعب ضجر من هذه الغرامات الباهظة فطلب من كنيسة الاسكندرية التنازل عن هذه الغرامة أو تخفيفها قليلا ٠ ولكن كنيسة الاسكندرية لم تتنازل عن هذه الغرامة وأصرت على المطالبة بحقها ٠

وكان البطريرك ثاوفانيوس حاد الطبع سريع الغضب كثير الحمق غير قادر على كبح جماح غيظه وقيل أن ذلك كان بسبب روح نجس تسلط عليه وقال بعضهم أنه نشأ عن مرض عصبى كالصرع أو خلافه كان يفاجئه فيغير أطواره فلما رأى تصميم أقباط الاسكندرية على المطالبة بالغرامة أخذ يشتمهم ويوبخهم بما خرج به عن دائرة التعقل حتى استاء منه الكهنة وأظهروا غيظهم منه بكلمات قاسية وجهوها اليه فازداد هيجانه وصياحه فحمله بعضهم الى مركب الى بابيليون لظنهم أنه يهدأ اذا استنشق نسيم النيل ولكنه اذ لم يكف عن هياجه تقدم اليه أحد الأساقفة بالصلاة لتوهمه بأن فيه روحا نجسا فتشنجت أعصابه ووثب عليه وهنا اختلف فى سبب موته فقيل أنه لما لم يقو الأساقفة على تهديئته ظلوا به الى أن أخرجوه فى البحر وجعلوا على وجهه مخدة ورقدوا عليها الى أن مات ورموه فى البحر ويقول واضع سير البطاركة أنه مات مسموما وقتل مختنقا والله أعلم وكانت وفاته فى ٤ برمهات سنة ٦٧٤ ش و ٩٥٦م ومدة رئاسته ثلاث سنوات ٠

وفى سنة ٩٤١ م كان بطريركا على كنيسة الأروام بمصر أوطوخيوس الطبيب وكان عالما ضليعا واضطهدت كنيسته فى عهده من الولاة المسلمين اضطهادا عنيفا جعلها تسقط فى وهدة الانحطاط والتأخر وظلت خمسمائة سنة بعد هذا التاريخ وهى مطموسة الأثر عارية من كل خبر لا يعرف عنها شىء سوى أسماء البطاركة الذين قاموا فيها قياما اسميا بدون عمل يذكر ٠

(٥) مينا ٢ ـ البطريرك الحادى والستون :

وبعد وفاة البابا ثاوفانيوس انتخب للكرسى البطريركى راهبا قسا ولكنه رفض قبول هذا المركز الخطير وذكر اسم الأب مينا أحد رهبان

دير أبى مقار وأصله من صـندلا غربيـة وقبل أن يصـير هـذا الأب راهبا كان أهله قـد أرغموه على الزواج فتزوج بامرأة عفيفة واتفقـا معـا على عيشة البتوليـة • وحـدث أنه لمـا رسم بطريركا قاوم بعضهم رسـامته بدعوى أنه كان متزوجا والقـانون يمنع المتزوجين من أن يكونوا بطـاركة وتحزبوا مع بعض الأساقفـة واتفقوا على خلعـه من وظيفته فعقدوا مجمعا واستحضروا أمامهم زوجتـه ليقيموها دليـلا على عدم شرعيـة بطريركيته فوقفت الزوجة فى المجمع واعترفت بأنه لم يعرفهـا معرفـة زواج البتـة فعدلوا عن رأيهم واعتبروا البـابا مينـا مستحقا لرتبته وكانت رسامته فى شهر برموده سنة ٦٧٤ش و٩٥٦ م فى عهد أنوجور •

وقد جلس هذا البابا على السدة البطريركية ١١ سنة وقعت فيها على طائفته بنوع خاص والأمة المصرية بنوع عام كل أنواع الضـيق والـكرب لجأ فى أثنـائها الى سـيدة قبطيـة غنية اسمها دينـة من محلة دانيـال (غربيـة) وبقى فى ضـيافتها حتى انتهت حيـاته فى ٣ كيهـك سـنة ٦٨٧ش و ٩٧٥ م •

(٦) ابرآم ـ البطريرك الثانى والستون :

وبعد نيـاحة البـابا مينا انعقد مجمع الأساقفة فى كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة لانتخاب بطريرك جـديد وبينما هم يتبـاحثون دون أن يقر رأيهم على واحـد دخل عليهم رجل كان مشهورا بالآداب ومكارم الأخلاق يدعى ابرآم السريانى فلما وقع نظرهم عليه أجمعت آراؤهم على تزكيتـه لهـذا المنصب ووضعوا عليه الأيدى فى شهر طوبه سنة ٦٨٧ ش و ٩٧٥ م فى عهد خلافة المعز لدين الله •

وكان هذا البـابا فى مبدأ أمره تاجرا كبيرا فى مصر معروفا لدى المعز وكانت بينهما صـداقة قوية فلما عين بطريركا وزع جميع مقتنياته فى سبل الخير وأفرغ جهده للقيـام بواجبـات وظيفتـه الخطيرة • وكان فى عهده قزمان بن مينـا الوزير القبطى الذى لمـا عين واليـا على فلسطين ترك لدى البـابا ابرآم مبلغ مائة ألف دينـار بصـفة أمانة وأوصاه أن يحتفظ بهـا حتى يعود وان لم يرجع وأدركته المنيـة يفرقها على المشروعات الخيرية • وحـدث لمـا وقعت فلسطين والشام فى يد (هفتكين) صرف البـابا ابرآم تلك الأموال على من يستحقها ولـكن فيما بعد رجع الوزير الى مصر بعـد كسرة هفتكين وطلب من البطريرك الأمانة فأخبره بما فعل فسر منه سرورا عظيمـا •

وكان المعز الخليفة قد عهد ليعقوب بن يوسف جباية الخراج وكان هذا الرجل يهودى الأصل ولكنه أسلم بغية الحصول على المراتب العالية وكان يمقت المسيحيين ويشيع عليهم المذمات حتى طلب من الخليفة أن يأتى بامام النصارى لكى يحجه ويبرهن له بطلان ديانته • فاستدعى الخليفة اليه البابا ابرآم لهذا الغرض فأخذ البطريرك معه الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين العالم الكبير صاحب كتاب « تاريخ البطاركة » المشهور ودار بينه وبين ذلك اليهودى جدال فأفحمه هذا الأب ببراهين قوية سربلته بالخجل أمام الخليفة •

فاغتاظ ذلك اليهودى من المسيحيين أكثر مما كان وازدادت بغضته لهم وأخذ ينسج لهم برد مكيدة أخرى حتى وقف على الآية الواردة بالانجيل المقدس القائلة « لو كان لكم ايمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل » (مت ١٧ : ٢٠) فأسرع وأطلع المعز على هذه الآية وقال له اذا كان دين النصارى صحيحا فهو ذا جبل المقطم ينقلونه لنا فنعتبرهم والا فهم أهل للطرد من هذه البلاد لتخلوا مساكنهم للمسلمين •

فانخدع المعز بكلامه ورأى اذا كان كلام المسيح حقا فان جبل المقطم الذى يكتنف القاهرة اذا ابتعد عنها يكون مركز المدينة أعظم واذا لم يكن حقا فهناك فرصة مناسبة لسلب المسيحيين • ولذلك استدعى البابا ابرآم وخيره بين أمور ثلاثة اما نقل الجبل أو اعتناق الاسلام أو ترك البلاد • فوقع البابا فى حيرة ولكنه التمس منه ثلاثة أيام ثم رجع الى البطريركية وأصدر منشورا عاما يأمر فيه جميع مسيحى مصر بالصوم ثلاثة أيام الى الغروب وباقامة الصلوات الحارة لسلامة الكنيسة •

أما هو فانطلق الى كنيسة السيدة العذراء المعروفة بالمعلقة بمصر القديمة وانعكف فيها على الصوم والصلاة حتى شاهد فى نومه السيدة العذراء تشير عليه بأن يخرج من باب الدرب الحديد الذى يقود للسوق الكبير فيجد هناك رجلا يحمل جرة ماء وهذا الرجل يعلمه ما ينبغى عمله • فلما استيقظ أطاع الرؤيا فوجد الرجل وأتى به الى الكنيسة وأفضى اليه بالأمر فاعتذر الرجل بضعفه ولكنه اذ رأى البطريرك يلح عليه هدأ روعه وأرشده الى الخطة التى يجب السير عليها •

وفى صباح اليوم الثالث أخبر البطريرك الخليفة بأنه عازم على نقل الجبل فسار الوالى الى خارج المدينة هو وجميع العظماء ولحقه البطريرك وأساقفته وكبار العلمانيين والرجل الساقى بملابسه الرثة · وبعد تقديم الأسرار الربية سجد البطريرك يتبعه الشعب ثم وقفوا وهم يصرخون قائلين « كيرياليصون » فحدثت زلزلة عظيمة ولاح الجبل للناظرين كأنه يتزحزح من مكانه وبعد ذلك ارتفع حتى ظهرت الشمس من تحته ثم عاد الى مكانه · وأخذ البطريرك فى السجود والهتاف « كيرياليصون » والجبل يسقط ويقوم معهم فى سجودهم وقيامهم والشمس تظهر فى أسفله حتى أكملوا ثلاث مرات · ففزع الخليفة ومن معه وعدا الى البطريرك علىظهر الجواد والتمس منه أن يكف عن عمله لئلا تنقلب المدينة ·

وبعد هذه الحادثة غدا البابا ابرآم محبوبا عند الخليفة وقيل أن المعز اقترح على البطريرك أن يطلب منه مايشاء فطلب اليه البطريرك أن يعيد له موضع كنيسة القديس مركوريوس التى تخربت واستولى عليها المسلمون مدة الاضطهاد السابق وأن يسمح له بترميم كنيسة المعلقة بقصر الشمع وكان قد انهدم من سورها جزء عظيم فأمر الخليفة أن تعطى له كنيسة أبى سيفين فى الحال · وكتب أبو المكارم سعد الله بن جرجس بن مسعود صاحب كتاب « الكنائس والأديرة » عن ذلك مايأتى « ولما شرع البطريرك فى اعادة بناء الكنيسة هاج عليه رعاع المسلمين واعترضوه بدعوى أنها تخربت من زمان طويل ولم يبق منها سوى بعض جدران آيلة للسقوط قد جعلها المسلمون مخازن لقصب السكر ولكنهم كفوا عن المقاومة عندما علموا أن الذى أمر ببنائها هو الخليفة نفسه · وأمر أيضا بصرف كل نفقات البناء من خزينة الحكومة فأخذ البطريرك الدراهم وردها الى خزينة الحكومة والتمس من الخليفة أن يقبلها منه ثانية ولا يجبره على قبولها قائلا :

« ان الذى نبنى له كنيسته قادر على أن يساعدنا حتى نتممها وهو غير محتاج الى مال العالم » فرضى الخليفة وبعد ذلك بمدة بدأ البطريرك فى العمل فعاد الأشرار الى المقاومة وأوقفوا البناء ولما وصل الخبر الى الخليفة أنفذ اليهم قوة عسكرية أخمدت هياجهم فواصل البطريرك العمل بكل طمأنينة وقيل أن الخليفة نفسه وقف على جدار الأساس وأمر البطريرك أن يضع الحجر الأول ولما شرع فى البناء طرح شيخ مسلم نفسه فى الأساس قائلا « اما أن يمنع البناء أو أموت فى سبيل الدين ».

فغضب الخليفة وهم برجمه لولا أن البطريرك توسل اليه أن يسامحه ففعل وهو يتعجب من هذه الأخلاق السامية ثم تقدم المسيحيون الى البابا بمساعدة مالية فقبلها شاكرا وبمعونة الرب تم له ما كان يرجوه من اتمام الكنيسة وتشييدها » أهـ ٠

ومن مآثر البابا ابرآم أنه أدخل فى الكنيسة القبطية فرض صوم نينوى الذى يصومه السريان وذلك أنه لما حل أول الصوم الكبير صامت الكنيسة القبطية أسبوع هرقل فجاراهم البطريرك اذ لم يره لائقا أن يكون فاطرا وأولاده صائمين ولما جاء ميعاد صوم نينوى صامه فاقتدى به بنوه ومن ثم حافظت الكنيسة القبطية على هذه العادة ليومنا هذا ٠ ثم ألحق بصوم الميلاد ثلاثة أيام بعد أن كان يصام أربعين يوما فقط وهذه الثلاثة الأيام هى التى صامها المسيحيون فى عهد هذا البطريرك ليرفع عنهم الويل الذى كان مزمعا أن يحل بهم بسبب نقل جبل المقطم ٠

ومن فضائل هذا البابا أيضا أنه اجتهد فى مقاومة كل العوائد الذميمة التى كانت متفشية بين شعبه بسبب اختلاطهم بالغرباء ٠ فألغى أمر بيع الرتب الكهنوتية والمناصب الكنسية التى اضطر للسير عليها بعض البطاركة للتخلص من الغرامات الفادحة التى فرضها عليهم الولاة وجعل رسامة القسوس وتقليد الوظائف الدينية من أعماله الخصوصية ويحصل على ذلك شيئا معلوما من الشعب ٠ ومن أعظم اصلاحاته التى قام بها بكل غيرة محاربة عادة التسرى التى انتشرت بين الأقباط انتشارا هائلا شوش حالتهم الداخلية ولا سيما الموظفين منهم فى مصالح الحكومة وذلك بينما كانوا متمتعين بالراحة والرفاهية فى ظل الدولة الفاطمية متقلدين المناصب الرفيعة ولهم الكلمة النافذة فى دواوين الحكومة ناسين الأتعاب والمصائب التى كانت تتوالى عليهم فكثر تهافتهم على السرارى فكان الواحد منهم يجلب الى بيته عددا منهن بدون عقد شرعى مما ينافى روح الدين المسيحى ٠ ولم يجدوا من يعارضهم أو ينكرها عليهم لاهتمام البطاركة بجمع الغرامات المضروبة عليهم ٠

فقام البابا ابرآم وأنكر عليهم هذه العادة وطلب منهم أن يقلعوا عنها وان كانت قد تأصلت فيهم واعتادوا عليها وألفوها ومضى على اتباعهم اياها زمن طويل لم يسهل عليهم التنازل عنها مرة واحدة فلم يلق منهم سوى الاباء والمقاومة وعدم الرضوخ وكان أشد المقاومين له رجل مشهور بالغنى ونفوذ

الكلمة يدعى أبا السرور وهو من الحاصلين على المنـــاصب العاليـــة فى الحكومة وكانت لديه عدة سرارى وحظيات فاعترض عليه البطريرك فى ذلك وعنفـه كثيرا ولمـا لم يرتدع أصـــدر عليه حرمانا من الـــكنيسة فمـــا كان من هذا الغشوم الا أن سعى فى موته فـدس له السم وراح البطريرك شهيد الواجب ولم يتم على الـــكرسى سوى ثلاث سنين وستة أيام ورقد فى الرب فى ٦ كيهك سنة ٦٩١٠ش و ٩٧٩ م ٠

(٧) فيلوثاؤس ـ البطريرك الثالث والستون :

وخلف البابا ابرآم فى شهر طوبه من تلك السنة فى عهد عبد العزيز ابن المعز الراهب فيلوثاؤس من دير أبى سيفين وقيل أنه من دير أبى مقار٠ وهذا البطريرك مع أنه لم يعارض الأمة فى عادة التسرى التى كان يستقبحها سلفـــه الا أنه كان مبغوضـــا ٠ وقـــد ذكر التاريخ عنه أمورا مذمومة فـــلم يكن يهتم بغير صـــالح شخصه وأرخى العنـــان للملاذ الجسدية ومحبة الأكل والشرب وتدخير المـــال ولذلك لم يكن أحد يرتقى الى درجـــة الأسقفية فى عهده الا بعد دفع جعل عظيم ٠

وتلقى هذا البطريرك فى أيامه رسالة من بلاد الحبشة بعد الانقطـــاع الطويل الذى كان بين الـــكنيستين فيـــه يطلب ملـــكها بواسطة جرجس ملك النوبة من البطريرك أن يهتم بانقـــاذ الحبشـــة من التعـــاسة الدينيـــة التى وصلت اليهـــا بسبب عـــدم رسامة مطارنة لها واعترف فى خطابه أن ماحل ببلاده هو قصـــاص عادل لمـــا اقترفوه ضـــد الـــكنيسة القبطيـــــة فأسرع البطريرك ورسم الراهب دانيـــال من دير أبى سيفين أسقفا للحبشة وسار اليها فاستقبله ملـــكها الشاب الشرعى الذى كانت قـــد اغتصبت الملك منه امرأة فأجلسه المطران على عرش أجـــداده وحرم المرأة المغتصبة فأنزلهـــا الشعب عن الـــكرسى وحكموا باعدامها ٠

وطالت مدة هـــذا البطريرك فاستمر ٢٤ سنة على كرسى البطريركية لم يقع فيهـــا أى ضيم على الـــكنيسة وبينما كان قائما مرة بخدمة القداس سقط فجأة فاقد الرشد فحل محله أحد القسوس وتمم القداس وفى النهـــاية حملوه للبطريركية حيث أسلم الروح فى ١٢ هاتور سنة ٧١٦ ش و١٠٠٤م ٠

القسم الثانى
مشاهير الكنيسة

(١) أبو المكارم
(٢) الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين
(٣) قزمان ابن مينا

---

(١) أبو المكارم :

هو سعد الله بن جرجس بن مسعود كان من أفاضل القبط ومؤرخيهم وضع سنة ٩٢٥م كتابا فى تاريخ الأديرة والكنائس القبطية عثر على جزء منه راهب كاثوليكى يدعى فانسليب أتى مصر فى القرن السابع‌عشر واشتراه بثلاثة قروش وطبع بعد موته وهو يباع اليوم بمائة وخمسين قرشا وينسب الى أبى صالح الأرمنى خطأ لأن اسمه وجد مكتوبا عليه ويظهر أنه ناسخ الكتاب أو مقتنيه ووجد المرحوم الايغومانوس فيلوثاؤس ابرهيم رئيس الكنيسة المرقسية بالقاهرة بقية هذا الكتاب وأدرك ذلك البحاثة جرجس أفندى فيلوثاؤس عوض ولكن ليس بين كتاب الأقباط من له همة كافية ليقوم بطبعه ونشره كاملا ·

(٢) الأنبا ساويرس أسقف الأشمونين :

الأشمونين كانت مدينة زاهرة ومشهورة عند القبط القدماء · وكان يعبد فيها أنوبيس وهرمس وغيرهما · وظلت شهرتها ممتدة الى العصر المسيحى وكانت بها الى زمن قريب تماثيل قديمة وكنائس كثيرة لأنها كانت مركزا لأسقفية ومن أشهر أساقفتها الأنبا ساويرس المذكور · كان عالما فاضلا وهو أول من اعتنى بجمع تاريخ البطاركة السالفين جمعه من السجلات المكتوبة باللغتين القبطية واليونانية المحفوظة بدير أبى مقار ودير نهيا ونقله الى اللغة العربية مظهرا أسفه لانصراف موظفى القبط فى ذلك العهد عن لغتهم القبطية الى اللغة العربية وأتمه وهو فى سن الثمانين وقد أضاف الأنبا ميخائيل أسقف تانيس (١) على هذا الكتاب تاريخ البطاركة لغاية سنة ١٢٤٣ م ·

---

(١) تانيس أو تنيس هى مدينة صان بمديرية الشرقية بقرب بحيرة المنزلة فى الشمال الغربى للصالحية وذكرت هذه المدينة فى التوراة باسم صوعن (عد ١٣ : ٢٢) ويقال ان موسى النبى صنع عجائبه فيها ·

وللأنبا ساويرس جملة مؤلفات تدل على تمكنه من العلم والمعرفة وضعها باللغة العربية التى ترجم اليها أيضا كثيرا من المؤلفات القبطية واليونانية لفائدة أبناء جلدته الأقباط ولا سيما سكان الفسطاط والقاهرة الذين كانوا قد هجروا بالكلية لغتهم القبطية بسبب اشتغالهم بالدواوين كما ذكر • وقد عد صاحب كتاب « الخريدة النفيسة » اثنى عشر مؤلفا لهذا الحبر الفاضل جميعها باللغة العربية وهى :

(١) التوحيد
(٢) الاتحاد الباهر رد به على اليهود
(٣) الشرح والتفصيل رد به على النساطرة
(٤) مبادىء الدين كتبه للوزير قزمان بن مينا
(٥) نظم الجوهر (٦) المجلس
(٧) طب الغم وشفاء الحزن
(٨) المجامع (٩) تفسير دستور الايمان
(١٠) كتاب فند به مزاعم سعيد بن بطريق بطريق الملكيين
(١١) الايضاح • ويظهر أن الباباويين نغلوه ببعض مدعياتهم
(١٢) ترتيب الكهنوت

هذا غير ما لم يقف له على خبر • وقد ترجم « تاريخ البطاركة » الذى اعتمدنا عليه كثيرا فى كتابنا هذا الى كثير من اللغات الأوروبية وكذا « تاريخ المجامع » وغيرهما ومما يؤسف له أن نرى أنفسنا أقل غيرة على آثار آبائنا من الغير • فالغربيون يعنون بها ويبحثون عنها بحثا دقيقا ويحفظونها فى مكاتبهم ويترجمون النافع منها الى لغاتهم وأما نحن فان لم تصلنا منهم فلا نقف لها على أثر •

(٣) قزمان بن مينا :

كان من كبار رجال حكومة المعز لدين الله • وكان فى الوزارة وقتئذ يعقوب بن كلس اليهودى المار ذكره فخشى أن يأول ميل الخليفة الى قزمان الى حلوله فى منصبه واتفق أن خلا منصب ولاية فلسطين التى كانت تابعة لمصر وفكر الخليفة فى رجل أمين يوليه هذا المنصب فأشار عليه يعقوب بأن يختار له قزمان بالنسبة لطهارة ذمته وحسن تدبيره وهكذا تمكن من أن يبعد منافسه عن مصر • وحدث بعد ذلك أن رجلا من بغداد يدعى هفتكين هجم على الشام وهزم الجيوش المصرية التى كان يقودها جوهر واستولى على

قسم عظيم منهـا وأحس قزمان بعظم الخطر فجمع كل ما كان للولاية من المـال والنفائس وخبأه فى دير وبعد أن تم الصلح بين جوهر وهفتكين أخذ يعقوب يوغر صـدر الخليفـة على قزمان ويصفه بالخيـانة واغتيال أموال الولاية ليحمل الخليفـة على قتله ولم يرض الخليفـة بالصلح الذى عقـده جوهر فقـام بنفسه الى الشام وحارب هفتكين وفاز به وعندئذ تقدم اليـه أبو اليمن ومعه أموال الولاية وسلمه اياها فشكر له حسن أمانته وأقره فى منصـبه ٠

القسم الثالث

الملـكة والـكنيسة

(١) الدولة الأخشيدية
(٢) حكم الفاطميين ٠ الخليفة المعز وقائده جوهر وابنه العزيز
(٣) تنصر الواضح بن رجا

---

(١) الدولة الأخشـيدية :

وبعد انقراض الدولة الطولونية قامت هذه الدولة مكانها فحكمت مصر باسم الدولة العباسية مدة أربع وثلاثين سنة من سنة ٩٣٤ ـ ٩٦٨ م ومحمد الأخشيد رأس هذه الدولة لمـا رأى احتيـاجه للمال لينفقه فى الحروب زاد الضرائب المطلوبة من الأقبـاط ٠ ونشأ عن ارتباك الحكم فى البلاد مجاعة فادحة يقول المؤرخون نشأ عنها زوال أبروشيات كثيرة برمتها واضمحلالها لأن أقباطها ماتوا من الجوع ولم يبق منهم أحد ٠

(٢) حكم الفاطميين ـ الخليفة المعز وقائده جوهر وابنه العزيز سنة٩٦٩م :

وبعـد انقراض الدولة الأخشـيدية آل الحكم فى مصر الى الـدولة الفاطمية وأول خلفائها المعز لدين الله ٠ وفيما مضى أغار ملوك مصر مرات متوالية على الممالك المسيحية فى السودان وحاولوا اكراه أهلها على اعتناق الدين الاسـلامى ولـكنهم لم يفلحوا حتى أن جوهر قائد جيش المعز أرسل

وفدا الى جرجس ملك النوبة يدعوه الى الاسلام فرد عليه بكتاب يقول فيه « بعد السلام والتحيات · ندعوكم الى اعتناق الدين المسيحى » وبعد ذلك انتهت المخابرات وعاشت ممالك السودان المسيحية بأمن باقى هذا الجيل .

وفى الوقت الذى احتل فيه الفاطميون مصر كان المسيحيون فى مصر يسكنون مدينة بابيليون (مصر القديمة) التى كانت معتبرة أقدم مدن القطر المصرى ورغما عما حل بالأقباط من المصائب كان عددهم حينئذ كما ذكر خمسة ملايين وكانوا هم أهل البلاد والمتسلطين فيها والذين بيدهم مقاليد الأمور والأعمال على اختلاف أنواعها ·

وعزم جوهر القائد على بناء جامع يفوق كل الجوامع التى بنيت فى المدينة الجديدة التى بناها وسماها باسمه « القاهرة » فأخذ أغلب أعمدة هذا المسجد من الكنائس المسيحية · وحدث أن مسلمى مدينة تانيس قد خرجوا على المعز واستقلوا بأنفسهم وساروا يعيثون فى الأرض فسادا فنهبوا أغنياء النصارى وخطفوا البنات والنساء منهم وفضحوهن ولبثوا يرتكبون هذه الفظائع مدة طويلة حتى اضطر قوم من النصارى يعرفون بأولاد قشلام أن يبعثوا برسائل سرية الى المعز يلتمسون منه أن يسعى فى انقاذهم فلبى دعواهم وأرسل جنودا أحاطوا بالعصاة وحاصروهم مدة ثلاثة أشهر والعصاة يجرون الفتك بالمسيحيين فاضطر هؤلاء الى عقد صلح معهم ودخل قائد جيش المعز ودعى العصاة اليه وأولم لهم وليمة عظيمة ولما طاب قلبهم بالخمر هجم عليهم وذبحهم عن آخرهم ·

(٣) تنصر الواضح بن رجا :

وقد روى المؤرخون أنه فى أيام الخليفة المعز حدث أن أحد رجاله اعتنق الدين المسيحى ومن أمره أنه كان يدعى الواضح بن رجا تعلم القرآن صغيرا ونشأ كارها للدين المسيحى كراهة زائدة · وفى ذات يوم كان مجتازا رأى قوما ملتفين حول شاب مسلم تنصر فسأل عن الخبر فقيل له أنه قد حكم عليه بالموت حرقا وهو يساق الى المكان الذى أعدت فيه النار وهم يحاولون اقناعه بالرجوع الى دينه فتأسف الواضح عليه وأنشأ ينصحه ليجذبه الى الاعتراف بالدين الاسلامى ويقول له « كيف تعتنق دين الثلاثة الآلهة » فأجابه المسيحى « أنا أؤمن باله واحد وسيأتى عليك وقت فيه تؤمن مثلى وتتألم لأجل هذا الدين نظيرى » ·

فلما سمع الواضح قوله اغتاظ منه ورفسه بزجليه وقال له « أيها الضال المختل هل أصير نصرانيا مثلك وكافرا نظيرك حاشا ثم حاشا » ثم تناوله الواقفون بأنواع الاهانات والرجل ساكن هادىء وبعد ذلك ساروا به الى موضع الاعدام والواضح معهم وشاهد المسيحى وهو يقدم عنقه للسياف بهدوء ويحتمل العذاب بصبر وبعد قطع رأسه ألقى جسده للنار ولما انطفأت جاء قوم من المسيحيين فوجدوا جسده سالما ٠

فرجع الواضح من ساحة الاعدام وقد هاله ما رأى من ثبات المسيحى وأدهشه اقدامه على الموت بمثل تلك الشجاعة وقضى ليلته وهذه الأفكار تتردد على خاطره وشعر بأسف فى قلبه على الاهانة التى أوقعها بذلك الشاب الوديع وخشى أن يقوده هذا الفكر الى اتمام نبوءة ذلك الشاب عنه فأراد التسلى بالذهاب الى الحج وفيما هو فى الطريق حلم أن أحد شيوخ الرهبان دعاه اليه ثلاث مرات وقال له « ان كنت ترغب فى خلاص نفسك فقم واتبعنى » فقص حلمه على رفاقه فأفهموه أنه أضغاث أحلام ٠

وبينما هو راجع من الحج ضل عن الطريق قبل وصوله القاهرة وتاه فى الصحراء عن القافلة وهجمت عليه جيوش الظلام وهو يرتعد خصوصا عندما سمع زئير الوحوش الضارية القريبة منه فاستغاث قائلا « اذا نجوت من هذا الخطر اعتبر نجاتى برهانا على صدق الدين المسيحى وأرغم على اعتناقه » ولم ينته من قوله حتى أقبل عليه فارس وطلب اليه أن يتبعه فسار خلفه حتى أوصله الى دير القديس مركوريوس (أبو سيفين) بمصر القديمة ٠ ورفع الواضح عينه فاذا به فى كنيسة مسيحية فلم يعد يرتاب فى أن ما جرى معه كان بتدبير العناية الالهية لخلاصه بايمانه بالمسيح ٠

ولما أصبح الصباح ورآه خادم الكنيسة جزع منه وخاله لصا ولكنه اذ رأى أثاث الكنيسة باقيا حسبه مجنونا ولكن الواضح طمأنه وسأله عن المكان الذى هو فيه فأخبره أنه فى كنيسة القديس مركوريوس وقص عليه خبر جهاد هذا القديس وأراه صورته فى الأيقونة فاندهش الواضح عندما ألفاها تشبه تمام الشبه صورة الفارس الذى قاده الى تلك الكنيسة ٠ فصمم على اعتناق الدين المسيحى واطلع خادم الكنيسة على سريرته فخبأه الشماس فى مكان وأرسل اليه أحد الكهنة فحفظه فى الدير مدة وعمده سرا خوفا من الشر الذى يحيق بالكنيسة اذا شعر أحد أقاربه ودعى اسمه بولس ٠

واتفق أنه خرج ذات يوم الى خارج الكنيسة فشاهده أحد أصدقائه فاندهش وصار بين الشك واليقين لما أشيع عنه بأنه مات تائها فى طريق مكة ثم سار وأخبر أهله بذلك فتنكر اثنان من اخوته ووقفا أمام باب الكنيسة حتى خرج ولما تحققاه قبضا عليه وأتيا به الى أبيهما فلما شاهده بكى بدموع غزيرة ولعن شيخوخته وضرب بوجهه الى الأرض فأجابه الواضح « لماذا تبكى يا أبى اذا أحزنتك الثياب الرثة فان باطنى متجدد بالنعمة وبالقوة المسيحيتين » فاستخبر منه أبوه عما اذا كان قد ضل وصار مسيحيا فأجابه « انى لم أضل ولكنى اهتديت واسمى بولس » فازداد الشيخ بكاء وعويلا وهو يقول له « هل أردت أن تلطخ حياتى بالعار وتزرينى أمام عارفى التمس منك أن تمنع عنى هذا الخزى اكراما لشيخوختى برجوعك الى دينك الأول » فأجابه الواضح قائلا « ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس من أحب أبا أو أما أو ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى » (مت ١٠ : ٣٧) هكذا قال السيد المسيح « واعلم أنى مسيحى وعلى اسم المسيح أموت » فهدده والده بالموت ان لم يرجع ولما رآه مصرا طرحه فى بالوعة ماء دون أكل وشرب مدة أسبوع كانت أمه فى أثنائه تتردد عليه من كثرة شفقتها وتلقى له بعض الطعام . ولما شاهد رجا أن أمه تكاد تقتل نفسها من شدة الحزن اتفق مع أولاده على اطلاق سبيله سرا فسار الى أديرة وادى النطرون ولبس شكل الرهبنة ولكن أحد الرهبان حسن له الرجوع الى وطنه بدعوى أنه لا يستطيع أن يمجد الرب الا باعلانه ايمانه فى نفس وطنه . فأسرع الراهب بولس بالذهاب الى بلدته وهناك صرح علانية بأنه مسيحى فعرفه أهله وأتوا به الى منزلهم فلم يمد اليه أحد يد الأذى نظرا لمحبتهم له ولكنهم نصحوه كثيرا أن يعود لديانته الأولى فلما رأوا منه اصرارا زائدا سجنوه فى ذلك المكان المظلم مستودع القذارة مدة ستة أيام بدون طعام . وكان للواضح زوجة جميلة له منها ولد صغير فصارت تتردد عليه تلك المدة وتستعطفه ليرجع اشفاقا على ولده وهو لا يرد جوابا فأخرجه أبوه ودعاه الى الاقرار بالاسلامية فأبى فأراد أن ينتقم منه انتقاما هائلا فأمر كبير أولاده أن يأتى بزوجة الواضح ويزنى بها أمام عينه ففعل وعينا الواضح تريان ومع ذلك لم تكن هذه التجربة المرة لتثنى عزمه بل ظل ثابتا فهدده أبوه بانتقام آخر قائلا له « ان لم ترجع عن ضلالك لأغرقن ابنك وأنت ترى » فأجابه الواضح « لا ريب أنى أحب ابنى فلذة كبدى ولكن بلا شك أحب المسيح أكثر منه » فأخذه رجا من أمه ودفعه لقوم وأمرهم أن يجروا الواضح الى البحر

ويغرقوا ابنه أمامه اذا هو لبث مصرا على ضلاله فساروا بهما ولما وصلوا الى البحر أخذ أحدهم الولد وغطسه حتى رقبته ودعى أباه الى الارتداد فصاح الواضح بحرقة « أنت تعلم أيها المسيح مقدار محبة الوالد لولده ولكن لا تسمح بأن تكون هذه المحبة سببا للكفر بك ولهذا أقدم ابنى باختيارى ضحية لك كما قدم ابراهيم ابنه اسحق » ثم التفت نحو الرجل وقال « انى أفضل المسيح لا على ابنى فقط بل على كل ما يوجد فى الأرض بأسرها » فترك الرجل الولد يغوص فى الماء وعاد بالواضح الى أبيه فسلمه للحاكم ليقتص منه فتوسلت زوجته الى الحاكم ليبقيه حيا فشفق عليها وأطلقه فانطلق الى أسقف الأشمونين ولبث معه مدة قصيرة وبعد ذلك مضى الى أقاصى السودان جنوبا وبنى كنيسة باسم رئيس الملائكة ميخائيل ٠ ثم رجع الى مصر ليرسم كاهنا وعرض أمره على فيلوثاؤس البطريرك وكان كما ذكر عنه محبا للسيمونية فأبى أن يرسمه الا بعد دفع مبلغ من المال فحزن لهذا الأمر والبطريرك يصر على طلبه حتى دفع المبلغ أحد أغنياء الأقباط ورسم بولس كاهنا ٠ فبلغ أباه الخبر فاستعظمه واستأجر قوما من الأعراب ليفتكوا به ولكن بعض الأقباط أخطروه بما دبر ضده فهرب الى بلدة تدعى صدفا وأقام خادما فى كنيسة للقديس تادرس فلما شعر به المسلمون هاجوا عليه يريدون قتله ولكنه مات قبل أن يتمكنوا منه ٠ وعند موته هجم المسلمون على الكنيسة وسلبوها ٠ وكان قد أوصى وكيل البطريركية بجثته خوفا من أن تعبث بها أيدى المسلمين فاحتفظ الوكيل بها وقص خبره على ميخائيل أسقف صان المؤرخ ٠

القرن الحادى عشر

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) زكريا
(٢) شنوده ٢
(٣) خيروستو ذولو
(٤) كيرلس ٢
(٥) ميخائيل ٢

(١) زكريا ـ البطريرك الرابع والستون :

في مبدأ هذا الجيل انعقد مجمع الأساقفة والكهنة والعلمانيين لانتخاب البطريرك وفي أثناء انعقاده كان ابراهيم بن بشر أحد تجار الاسكندرية المشهورين بالغنى والمعروفين لدى كبار المملكة قد مضى الى الملك في القاهرة والتمس منه أن يكتب للمجمع كتابا يأمره فيه بانتخابه بطريركا • فكتب اليه وسار الى الاسكندرية وقبل أن يصل اليها كان المجمع قد وسم الأب زكريا في شهر طوبه سنة ٧١٦ش و١٠٠٤م في عهد الحاكم بامر الله • وقيل أن ابراهيم المذكور كان معضدا من بعض أعيان الاسكندرية ولما رآه الأساقفة يحمل أمرا ملكيا خافوا لئلا يوقع بهم الحاكم وسعوا في ترضية خاطره فرسموه قسا ثم قمصا ووعدوه بالأسقفية عند خلو أية أبروشية فطابت نفسه بذلك وقيل أنه رسم فيما بعد اسقفا على مدينة ممفيس •

أما الأب زكريا فأصله من الاسكندرية وتأدب من حداثته بالآداب المسيحية ونظرا لحسن سيرته رسموه قسا بكنيسة الملاك ميخائيل بالاسكندرية ولما رسم بطريركا سار في خطة آبائه الأطهار وجعل همه التدقيق في رسامة الأساقفة لكراهته عادة السيمونية (أى بيع الرتب نسبة الى سيمون الساحر الذى أراد أن يشترى موهبة الروح بدراهم)

فكان شديد الوطأة على أولئك الذين كان يظن أنهم ارتقوا بهذه الواسطة

وقد أقام عنده مجلس أساقفة لحل المشاكل الدينية وكان جلهم من أقربائه فلم يراعوا الأمانة فى خدمتهم فكانوا يقبلون الرشوة من المتقاضين لتنفيذ مآربهم وقيل أن أحدهم جمع أكثر من ٢٠ الف جنيه من هذه الطريق ونشأ عن هذا التصرف ضيق شديد للبطريرك سيأتى ذكره ·

فمن ذلك أن رجلا يدعى القس يوحنا كان كاهنا على قرية أبى نفر « بالجيزة » بلغ به الشوق لمنصب الأسقفية لدرجة أنه سار الى البطريرك وطلب منه أن يتمم رسامته فقدم البطريرك طلب يوحنا الى مجمع الأساقفة فلم يره المجمع لائقا فرفض طلبه قيل لأنه كان متزوجا · وكان للبطريرك ابن أخ يدعى ميخائيل أسقف سخا وهو محب للرشوة فطلب من القس يوحنا مالا يساعده على بلوغ غرضه فاعتذر يوحنا ووعده بالوفاء بعد تعيينه فعمل ميخائيل على معاكسته الا أن البطريرك لم يقطع أمله بالمرة بل وعده بنيل مراده بعد حين · ولكن القس الح عليه باجراء الرسامة حالا وهدده بأن يوقع به اذا امتنع فازدرى به البطريرك لوقاحته وطرده · فأضمر له القس الشر ولما كانت له كلمة فى دوائر الحكومة عزم على تقديم شكواه للخليفة · فشعر الكتاب الأقباط بذلك وخافوا أن تأوول تلك الشكوى الى اضطهاد عنيف فأخذوا يلاطفون القس وكتبوا له تزكية منهم وخطابا للبطريرك يطلبون منه تعيين يوحنا أسقفا ·

وكان البطريرك غائبا بوادى هبيب فقادت القس يوحنا الصدف الى الوقوع بين يدى عدوه ميخائيل فلما علم بأمره خشى أن يقابل البطريرك فيرسمه وأسرع فى تسليمه لقوم من العرب وأمرهم بأن يلقوه فى بئر ويرجموه حتى يموت فأخذوه وفعلوا به كما أوصاهم ولحسن حظ يوحنا كان فى تلك البئر كهف فتوارى فيه ونجا من الخطر واذ ظن الأعراب أنه مات تركوه ·

وبلغ الخبر بعدئذ البطريرك فغضب على ابن أخيه جدا وكانت مساوئه وميله لقبول الرشوة قد ذاعت وانتشرت فسخط عليه وأمر قوما ممن يثق بهم أن يذهبوا ويخرجوا الرجل فوجدوه حيا · فلما مثل أمامه وعده برسامته أسقفا عند خلو أية أبروشية وفيما بعد اضطر البطريرك أن يخلف وعده ليوحنا بالنسبة لحكم مجمع الأساقفة ولما سمعه عن تصرف يوحنا المعيب فلما خلت أول أبروشية عين لها واحدا بدله وقيل أن ميخائيل ابن أخى البطريرك هو الذى مازال به حتى رسم غير يوحنا ·

فاغتاظ يوحنا من ذلك وعول على الانتقـام من البطريرك فكتب تقريراً شائنـا بحقه ورفعـه الى الحـاكم بأمر الله وكانت عادة البطاركة الى هذا الزمن مكاتبـة ملوك الحبشـة والنوبة مبـاشرة فوشى القس للخليفـة أن البطريرك يكاتب هؤلاء الملوك ويكشف لهم كل ما يجرى فى البـلاد ويعرفهم سوء معـاملة النصـارى خلافا للعهود • فغضب الحاكم وأمر بالقبض على البطريرك وعلى بعض الأساقفـة والقـاهم فى السجن ثلاثة شهور ثم طرح البطريرك بعد ذلك للاسود هو وراهب يدعى سوسنة النوبى فلم ينلهما منها ضرر بل تآنست بهما ومما ذكر أن أحـد الأسـود كان يأتى وينطرح تحت قـدمى الراهب سوسنة ويلحسهما فعـاقب الحـاكم متولى أمر السباع وتوهم أن امتنـاعها ناشىء عن كثرة أكلهـا فأبقـاها مدة بغير طعـام ثم ذبح خروفا ولطخ بدمه أثواب البطريرك والراهب والقـاهما أمامها ففعلت كالأول فأعيـدا الى الحبس واستمر الحـاكم مدة تسع سـنين يضـطهد الأقبـاط والبطريرك زكريا فى أعمـاق السـجون يهـدده تارة بالحرق ويعـده تارة بالهبـات والعطـايا اذا تدين بالاسـلامية وحمل الأقبـاط على اعتناقها •

غير أن البطريرك لبث ثابتا كالصخر أمام كل هذه الزوابع حتى مل منه الحاكم وتوسل اليه أحد الأمراءأن يشفق عليه فأتى بالبطريرك ونفاه فى أحد الأديرة البعيدة فى برية شيهات وأمره أن لا يخرج منه أبدا وأن لا يكـاتب البطاركة ملوك النوبة والحبشة مباشرة وألا يقبلوا منهم مكاتبات الا بعـد عرضها عليه ومعرفة ما فيها وكذلك طلب من هؤلاء الملوك أن تكون المكاتبات منهم واليه مباشرة وبقى الأمر هكذا مدة طويلة فكان اذا أتى الخليفـة أو السلطان كتاب يقتضى الرد يطلب من البطريرك أن يشرح له ما عليه نصارى مصر من الراحة والحرية فى الدين وعدم التعرض لهم فى عقائدهم ولو كانوا فى أشد عذاب ويوصيه خيرا بالمسلمين الذين تحت رعايته •

وحدث أن راهبا يدعى بيمين تدين بالاسلامية وتزلف الى الحاكم ونال منه حظوة وتمكن من استصدار أمر برفع الاضطهاد عن الأقباط وعاد الى كنيسة أبى سيفين وزاره الخليفة فى تلك الكنيسة لمحبته له فسأله أن يأذن للمسيحيين فى العودة الى مدينة بابيليون فأجابه الى طلبه ورجع البطريرك وأقام فى كنيسة أبى سيفين مع بعض الأساقفة والكهنة والراهب بيمين وزار الخليفة الكنيسة مرة أخرى فعرفه بيمين بالبطريرك فاندهش من حقـارة ملابسه وعدم تهيبه وسأل عن مقدار نفوذه فأجابه أنه بحالته البسيطة هذه

يستطيع أن يخضع الناس له برسالة يوقع عليها باسم الصليب أكثر من خضوعهم لجيوشك الجرارة .

فأدار الخليفة وجهه وخرج من الكنيسة وهم لا يدرون على ما عزم أن يفعل بهم ولبثوا فى الكنيسة ينتظرون الهلاك المريع وزادهم رعبا حضور القس يوحنا كاهن أبى نفر علة كل المحن الى الكنيسة فى ذلك الوقت وتقدم الى البطريرك وهنأه برجوعه سالما وعاد يطلب منه القديم فأغتاظ الأساقفة من هذه الدناءة وعابوا على البطريرك مقابلته يوحنا بالحنو وقالوا له لسنا ندرى الى أية مهواة تريد أن تقودنا ببساطتك . وكان أشدهم مقاومة ليوحنا واظهارا للغيظ منه ميخائيل ابن أخى البطريرك فخاف منه يوحنا واحتمى ببعض الواقفين فأقنعوا ميخائيل بضرورة الصفح عنه فصفح ورفعوا يوحنا الى رتبة الايغومانوسية وهى أعلى درجة يستحقها بصفة كونه متزوجا .

وبعد بضع ساعات ضجت الكنيسة كلها لسماعها نبأ رجوع الخليفة اليهم وارتفعت جميع الأصوات بالبكاء والعويل حتى شاهدوا الخليفة بالعيان يدخل الكنيسة بحاشيته فكادت ألبابهم تطير واذا بالحاكم يسلم البطريرك فرمانا باباحة الحرية للاقباط ورد جميع ما سلب منهم فتغيرت لهجة حزنهم بلهجة الشكر لله على هذه النعمة الجزيلة ثم تفرغ البابا زكريا لترميم ما تهدم من الكنائس بدون كلل مدة ١٢ سنة فجدد منها الكثير وساعده على ذلك فرمان الحاكم بأمر الله .

والتاريخ يمدح البابا زكريا ويصفه بالتقوى الزائدة حتى استحق أن تجرى على يديه آيات وعجائب بقوة الله ومن ذلك أن شماسا اختلف مع امرأته وتركها فجربه الشيطان بارتكاب خطية الزنا مع خنثى ولأنه أحد خدام بيعة الله انتقم منه عاجلا بأن ضربه بالبرص . ولما مضى الى بيته رأته امرأته على تلك الحال فقدمت عليه شكوى للبطريرك فاستحضره لديه وفرض عليه قانونا بأن يصوم أربعين يوما الى المساء ويأكل ويشرب فقط ما يسد الرمق والسغب وبعد انقضاء هذه المدة منحه الحل والغفران ومسحه بزيت فنال الشفاء العاجل .

واستمر البابا زكريا بطريركا مدة ٢٧ سنة قضى منها منفيا مدة تسع سنين ببرية شيهات وبنى فى عهده دير شهران (١) المعروف الآن بدير

---

(١) اسم البلدة التى كان بها الدير وكانت عامرة آهلة وقد خربت وتلاشت كغيرها وفى موقعها الآن قرية تسمى المعصرة .

العريان بنـاه الراهب بيمين بأمر الحـاكم · وكانت نيـاحة البـابا زكريا فى ٣ ١هاتور سنة ٧٤٥ش و ١٠٣٢ م ·

(٢) شنوده ٢ ـ البطريك الخامس والستون :

وبعد وفاة البـابا زكريا انتخب مجمع الأساقفة والشعب راهبا يسمى شنوده من دير أبى مقـار وأصله من طنـان وقيل تلبـانه وكانت العادة أن الخليفـة لا يصرح بتقليد البطريرك الا اذا أورد مبلغـا مقداره ٦٠٠٠ دينار نقدا أو يكتب به صكا ليـدفعه فى ميعـاد معين وكان بين الأقبـاط رجل مسموع الـكلمة يسمى ابن بكر قسعى لدى الخليفـة فأصـدر أمـرا برفع هذه الغرامة واذن برسامة الأب شنوده بطريركا فرسم فى شهر كيهك سنة ٧٤٥ش و ١٠٣٢ م فى عهد خلافة الظاهر بن الحاكم ·

وفى وقت ترشيح شنوده اشترط عليه اكليروس الاسكندرية أن ينفق على كنائسهم كل سنة ٥٠٠ دينار واشترط عليه أعيان الطائفة أن يرفض قبول اية رشوة لا سيما ممن يروم أن ينـال درجة كهنوتية · ولـكن هـذا البطريرك لم يكد يستقر به المنصب حتى أظهر من محبتـه للمـال ما أوجب اعتراض أهم أبنـاء أمته عنه لا سيما ابن بكر الذى نصحه بالسير فى طريق الاعتـدال فأشانه وتجـاوز عهـده ولم يكن يسمح برتبـة الأسـقفية أو القسوسية لكن لمن يجزل له الرشـوة · ويقال أن الايغومانوس يوحنـا الذى طالب بالأسقفية فى عهـد البـابا زكريا ولم ينلها رأى الفرصـة مناسـبة للحصـول عليها نقـدم للبطريرك ما جعله أهـلا للاسـقفية على أبروشـية العريش وصار يدفع ستين دينـارا سـنويا لحصـوله على أمنيتـه · وباع البطريرك أسـقفية بانفيوس للاسـقف روفائيل بألف ومائتى دينار وأسقفية ليكوبوليس « أسـيوط » بمبلغ فـادح · غير أن شـعب ليكوبوليس رفض قبول هذا الايغومانوس أسقفا عليه لعلمه بنواله الرتبـة بالسيمونية فطلب من البطريرك اما أن يقنع الشـعب أو يعطيـه ما دفعـه فـرفض اجابة الطلبين ·

وأصـدر هـذا البطريرك قـرارا يقضى بأن تـكون جميع مقتنيـات الأساقفـة ملـكا للبطريركية بعـد وفاتهم وكان أول من نفـذ فيـه هـذا القرار أسقف شنان فأمر أخاه أن يسلم كل ما كان لأخيـه الى البطريركية فالتمس منه أن يترك له ولو شيئا يسيرا يعيش منه فلم يقبل فاعتنق الرجل الديانة الاسلامية ورفع دعواه للمحاكم الشرعية التى حكمت له بأحقيـة

امتلاك جميع مقتنيات أخيه . غير أن هذا القرار أى تحويل مقتنيات الأساقفة الى البطريركية بعد وفاتهم صار نافذ المفعول وعمل به لغاية يومنا هذا .

وفى السنة الثانية من رئاسة هذا البطريرك أظهر رفضه لدفع الاعانة التى قررها للاسكندريين واعتذر بعدم كفاية ايراد البطريركية لمصروفاته فرفع عليه أكليروس الاسكندرية دعوى فى مجمع انعقد بالقاهرة حضره ابن بكر ولما طال الجدال بين البطريرك والاسكندريين تعهد ابن بكر هو ووجهاء الطائفة بدفع هذه الاعانة اذا اقلع البطريرك والأساقفة عن بيع الرتب الكهنوتية فقبل التوقيع على صورة قرار بهذا الشكل . وكان بعض الأساقفة قد اخذوا أموالا من بعض العلمانيين ليكرسوهم كهنة فرفضوا التوقيع معتبرين عملهم شريفا . فتقدم اليهم ابن بكر ونصحهم بالعدول عن هذا التصرف الوخيم فأظهر البطريرك ارتياحه لكلامه وطلب منه القرار ليعيد قراءته على مسمع الأساقفة فأعطاه اياه ابن بكر مطمئنا ولكنه اندهش اذ راه ممزقا بين يديه وانتهى المجمع على هذه الحالة المحزنة .

غير أن الأساقفة الذين أثر فيهم كلام ابن بكر اجتمعوا فى كنيسة أبى سيفين وأظهروا رضاءهم على قراره واتفقوا على السير بموجبه . فتحزب البطريرك ولبث فى كنيسة الملاك ميخائيل ثم توجه فى اليوم التالى الىكنيسة أبى سيفين وتقابل مع الأساقفة وابن بكر وأخذ فى مناقشتهم حتى قبل أخيرا أن يمضى ذلك القرار ولكنه اذ رأى ابن بكر يتداخل فى شئونه المالية رجع الى عناده وعمل على اهانته وقضى بقية حياته مبغوضا حتى أدركته المنية فى ١٢ هاتور سنة ٧٦١ش و ١٠٤٧ م بعد أن قضى بطريركا ١٤سنة و٧ أشهر و١٥ يوما .

(٣) خيروستوذولو ـ البطريرك السادس والستون :

كان راهبا بصومعة سنجار ويلقب بالحبيس وأصله من بلدة بورا وتمت رسامته فى شهر كيهك سنة ٧٦١ ش و ١٠٤٧ م فى عهد خلافة المستنصر بن الحاكم فلما استقر به المنصب قام من مدينة الاسكندرية الى مصر واتخذ كنيسة المعلقة بظاهر الفسطاط مقرا له ولم يكتف بكنيسة المعلقة بل جدد كنيسة القديس مركوريوس وجعلها كاتدرائية كبرى ومركزا لكرسيه وجعل كنيسة العذراء فى حى الأروام مقرا له يأوى اليه عند اللزوم ورضى أسقف بابيليون بذلك . والذى دعاه الى ذلك انتقال

عظمة مدينـة الاسكندرية الى مدينـة القـاهرة وكثرة ما فى هـذه من المسيحيين وعلاقـة وظيفتـه بالحكومة ومن ذلك الحين صـار يعين أسقف للاسكندرية بلقب وكيل الـكرازة المرقسية ٠

وكان أول من سعى فى ايصـال الأذى لهـذا البـابا رجل كان بين كتاب الدولة يسمى يوحنـا بن الظـالم أحب الأسقفية وسعى لدى البطريرك وما زال به حتى أجاب طلبـه وولاه أسقفية سخا ٠ ويظهر أن مطامعه لم تقف عنـد هذا الحد وكان هـذا سبب نزاع حـدث بينـه وبين البطريرك عقب انتقـاله لمصر فضم اليه بعض الأسـاقفة منهم خائيل أسقف قطور ، وايليـا أسقف طمويه ، وجرجس أسقف الخنـدق ، ومرقس أسقف البلينا، وميخائيل أسقف تنيس . وتحالفوا مع جمهور من الشعب على عزل البطريرك وادعوا بأن رسامتـه غير قانونيـة لأن الفصـول المختصة بسيامة البطاركة لم تقرأ عليه ٠ ولـكن كان فى بلاط الخليفـة رجل يسمى أبا زكريا يحيى ابن مقـاره وهو شيخ فاضل مسموع الـكلمة فتـلافى الأمر وتداخل بينهم وصـالح البطريرك مع أسـقف سـخا وطيب خاطر البـاقين وصرفهم الى مراكزهم وبهـذا انتهت على أحسن حال ٠ وبعد ذلك حـدث انقسام بين مجمع الأساقفـة بسبب اثنين منهما تشاحنـا على حـدود أبروشيتيهما ولم ينته الخلاف ويحل السلام الا بعد تعب شديد ٠

ومن أعمال هذا البابا أنه اهتم باصلاح ما تخرب من الكنائس وحدث أنه فى يوم واحد دشن خمس كنائس قام بتشييدها أعيـان الطائفة بأسماء القديسين يوحنا الانجيلى ومركوريوس ومينا وجرجس وروفائيل ٠ ورسم فى ذلك اليوم كاهنا وستين شماسا وكان الفرح شاملا والسرور عاما ٠

ثم وجـه نظره نحو الخلل الذى سـاد على الـكنيسة فى أيام سلفـه الذى لم يكن يهتم باتمام طقوس الكنيسة كما هى وكان ذوو النفوذ يتداخلون فى قلب نظـامها حتى فترت الغيرة الدينيـة وأقبل الـكثيرون على اعتناق الديانة الاسـلامية ٠ فجال البـابا خيروستوذولو فى جميع أنحـاء القطر المصرى يتفقد أحوال الـكنائس ويتبين شئونهـا فبنى كنائس كثيرة حتى وصل الى دمنهور فشيد بهـا بيعـة فخمـة واتخـذها مقرا لـكرسيه فزادت قيمتها ووفـد عليهـا الـكثيرون من الأقبـاط وذلك لأن بعـدها عن مركز الحكومة منع وصول الاضطهاد اليها ٠

وأول تهمة وجهت اليه من المسلمين أن استعمل سلطانه على جرجس ملك النوبة للضرر بمصالح المسلمين والزمه بأن يقطع العلاقات التجارية معهم ويمتنع عن ارسال الجزية المعتادة من الرقيق · وكان البطريرك قد أوفد أسقفا من قبله الى ملك النوبة ليدشن كنيسة بنيت فى عهده ولما أحضر البابا ليجيب عن هذه التهمة أخذ يقنع يازورى وزير الخليفة فى مصر بأن مصالحه ببلاد الحبشة لا تتعلق مطلقا بالمسائل السياسية بل بمسائل خاصة بالديانة فسلم الوزير بصحة كلامه ولبث البطريرك هو وقومه مدة متمتعين بالراحة الكاملة ·

وفيما بعد قام لمقاومته عبد الوهاب أبو الحسن أحد قضاة القاهرة الذى انتقل الى دمنهور وهناك واجه البطريرك وكان يتوهم أن البطريرك سيهبه شيئا فلما خاب أمله استخدم كراهة الوزير للبطريرك للانتقام منه فوشى به أنه سلب أموال كثيرين ظلما وبنى بها عشرين كنيسة وفى دمنهور شيد كنيسة عظيمة وقصرا شاهقا نقش عليه البسملة المسيحية واتهمه بأنه يحتقر الاسلام · واذ كان الوزير يتوقع فرصة لاضطهاد النصارى استعظم هذه التهمة وأرسل بعجلة من يهدم تلك الكنائس التى بتلك الجهة وناصره على اتمام هذا الأمر أبو الفرج البابلى من كبار المملكة وكان حينئذ وكيلا على الوجه البحرى والزم البطريرك أن يمحو البسملة المنقوشة على باب قصره فلم يمانع فى ذلك لكنه قال « ان محوها من على السور لا يمحوها عن صفحات قلبى » ·

ثم قبض على البطريرك وبعض أساقفة الوجه البحرى واعتقلوا وأرسلوا الى القاهرة مدعين عليهم بدعاو باطلة لا أصل لها · أما الخليفة فانه رغما عن تمويهات الوزير لم يجد عليهم ما يوجب هذه الاهانة فأخلى سبيلهم وطيب خاطرهم وصرفهم الى أماكنهم فشق هذا على الوزير ولشدة غيظه أمر بقفل جميع الكنائس المسيحية فى القطر المصرى فثار الشعب القبطى وبلغ الخبر للخليفة الذى تلافى الأمر بالقبض على هذا الوزير المستبد ونفاه الى جهة تنيس بأقصى الوجه البحرى وبعد ذلك قتله لما رآه يسعى فى تهييج المسلمين على النصارى ·

ولم يكد البطريرك يستريح قليلا حتى جرى عليه اضطهاد آخر عندما حاول أن يفتح الكنائس فتعينت ضريبة باهظة على أقباط الاسكندرية دفعوها مقابل تسليم البطريرك مفاتيح كنيسة واحدة لاقامة العبادة فيها

وتركوا له بيت انيانوس البطريرك الثانى وذكر كاترمير المؤرخ نقلا عن كتاب مخطوط أن رأس يوحنا المعمدان التى كانت محفوظة الى ذلك الوقت بالاسكندرية خبأها الأقباط خوفا من وقوعها فى يد المسلمين ٠

وعاد المسلمون ثانية والقوا القبض على البطريرك ووجدوا فى خزينته تسعة آلاف دينار نهبوها واقتسموها ثم أطلقوا سراحه بتوسط ذوى النفوذ من موظفى الأقباط وكانت العادة أن يزور البطاركة أديرة وادى النطرون ففى أحد السنين بينما كان البابا خيروستوذولو بوادى النطرون هجم أتباع ناصر الدولة زعيم الترك على الأديرة واضطهدوا الرهبان وذبحوا كثيرين منهم وأخذوا البطريرك أسيرا معهم وأوسعوه اهانة وتعذيبا ولكن الله نجاه بواسطة رجل قبطى يدعى أبا الطيب كان رئيس كتبة ناصر الدولة فتوسل الى مولاه أن يطلقه ففعل اكراما لخاطره ودفع أبو الطيب فدية له مبلغ ثلاثة آلاف دينار ٠

وأصيبت البلاد فيما بعد بجوع شديد مات بسببه ميخائيل أسقف تنيس وكان جرجس ملك النوبة قد أرسل رجلا يقال له يامون ليرسمه البطريرك مطرانا لبلاده فرسمه وأوصاه أن يخبر الملك بالحالة السيئة التى بات فيها الأقباط فشفق عليهم ملك النوبة وأرسل لهم زادا وافرا غير أن جنود ناصر الدولة اعترضوا رسل ملك النوبة عند وصولهم الى حدود مصر وأرجعوهم بالمؤونة خائبين الى ملكهم ٠

وفيما بعد قبض على زمام الولاية فى مصر بدر الدين الجمالى فوشى له أحد المسلمين بأن فكتور مطران النوبة أمر بهدم جامع للمسلمين هناك فغضب لذلك وأمر بالقاء القبض على البطريرك والقى عليه تبعة ذلك العمل ولكن البطريرك برهن له على فساد التهمة فأطلقه وأخلى سبيله ٠ وهرب أحد العصاة من وجه بدر الجمالى الى بلاد النوبة فكلف البطريرك بأن يبعث أسقفا من قبله الى ملك النوبة يطلب منه تسليم ذلك الثائر فأجاب البطريرك طلبه وعين لذلك أسقفا يدعى مركوريوس سار مع مندوبين من قبل بدر وبلغوا الطلب للملك النوبة فقبض على ذلك الرجل وسلمه اليهم فجاءوا به الى القاهرة ٠

ووشى مرة أخرى الى بدر بأن كيرلس مطران الحبشة الذى كان يدعى قبلا اينا عبدون يغرر بمسلمى الحبشة الضعيفى الايمان ويدعوهم الى شرب الخمر عند تناول الطعام فقبض بدر على البابا خيروستوذولو بصفته رئيسا

لذلك المطران ليعاقبه عوضا عنه ولحسن الحظ لم يكن كيرلس المذكور قد سيم مطرانا بعد فدفع المطران عنه هذه التهمة وصرح بأنه لم يرسم بعد وأنه سيرسل له الأنبا مركوريوس لتتميم رسامته وينصحه بأن يكف عما يعمل ان كان ما شاع حقا فاقتنع بدر الدين وأطلقه ولكن غيظ ولاة المسلمين من البطريرك كان يزداد يوما فيوما خصوصا لما رأوه من نفوذه على بلاد الحبشة فكانوا يفضون المراسلات المتبادلة بين الفريقين ويردونها الى جهاتها مفضوضة أو يمزقونها حسبما يتراأى لهم ·

أما البابا خيروستوذولو فصرف باقى حياته فى وضع قوانين كنسية نافعة لشفاء داء الخلل الذى كان عاما وقتئذ وجعل هذه القوانين سارية المفعول فى كل كنائس القطر المصرى وكان عددها ٣١ قانونا حرم فى بعضها على الأرثوذكس من رجال ونساء التزوج بالأجانب وغير الأرثوذكس · وكانت العادة أن يصنع القربان المقدس خاليا من الزيوت والأدهان ولكن أهالى سوريا كانوا يضعون الزيوت فى قرابينهم فأنكر عليهم البابا خيروستوذولو ذلك · واتفق أنه كان يقدس مرة فى كنيسة أبى سيفين بحضور طبيب سورى له اتصال بالخليفة فأحضر قربانا مما يصنع فى بلاده وطلب من البطريرك أن يصلى عليه فأفهمه أن ذلك مغاير لقوانين الكنيسة فأصر الطبيب على طلبه حتى أمر البطريرك رجال الكنيسة أن يخرجوه رغما فعمل هذا الطبيب على القاء بذور العداء بين البطريرك والخليفة ·

وبعد أن قضى هذا البطريرك مدة تسع وعشرين سنة وثمانية شهور و ١٩ يوما على الكرسى البطريركى رقد فى الرب فى ٢٤ كيهك سنة ٧٩٢ ش و١٠٧٨ م ودفن بكنيسة المعلقة ببابيليون ثم نقلوا رفاته الى وادى النطرون ·

(٤) كيرلس٢ - البطريرك السابع والستون :

كان حبيسا بصومعة سنجار واسمه جرجس وهو من أهل اقلاقه بحيرة انتخب للبطريركية فى ٢٢ برمهات سنة ٧٩٢ ش و ١٠٧٨ م فى عهد خلافة المستنصر بقرار مجمع انعقد فى الدار البطريركية مؤلف من الأساقفة وكبار الشعب · وقوبل انتخابه بالارتياح فى جميع دوائر الحكومة حتى أن عقلاء المسلمين طلبوا اليه أن يبارك قصر الخليفة فباركه باحتفال عظيم وتفاءل الأقباط به خيرا ·

وعقب رسامته بقليل تنازل سلمون ملك النوبة عن الملك لابن أخته المدعو جرجس وآثر العزلة والانفراد فى دير نفريوس الواقع فى البرية بين حدود مصر والنوبة ملازما الصلاة والعبادة فحاصره أهل أسوان طمعا فى ضم الدير الى مصر وأخذوه أسيرا وأتوا به الى أمير الجيوش بدر الجمالى فقابله البطريرك وكبار الأقباط باحتفال عظيم ولقى من أمير الجيوش اكراما زائدا وخصص له قصرا لاقامته فيه وبقى به فى مصر حتى توفى بعد ذلك بقليل ودفن بالاكرام بدير الخندق المعروف الآن بدير أنبا رويس خارج القاهرة ٠

وفى أثناء اقامة سلمون بمصر تحقق بالعيان ما كان بين القبط والنوبيين من الرابطة الدينية وتبادل البطريرك معه الزيارات واحتفى به وجهاء الطائفة وكان وجوده بينهم هذه المدة سببا فى رفع شأنهم عند أكابر الدولة وعظمائها لا سيما عند أمير الجيوش الذى لما شاهد علامات الاخاء بين الاقباط والنوبيين والحبش رغب فى عقد معاهدة مع ملوك هاتين الأمتين لتسهيل طرق التجارة وامتدادها بين الديار المصرية وتلك البلاد فكاشف عظماء الأمة القبطية وعقلاءهم بما يكنه فى صدره وطلب منهم بذل الجهد فى مساعدته فلبوا طلبه وشرعوا فى فتح باب المخابرات مع ملوك الحبشة والنوبة بواسطة البطريرك وهكذا تم الاتفاق على ما يروم أمير الجيوش الذى أنعم على البطريرك بمال يستعين به على اصلاح الأديرة والكنائس المتخربة ٠

وجرى بعد ذلك أن شخصا اسمه كيرلس انطلق الى بلاد الحبشة وادعى أنه مطرانها وتسلط على كنائسها ولما بلغ أمره الى البابا كيرلس حزن وقصد أن يقيم غيره أسقفا شرعيا يدعى ساويرس ويرسله اليها فقاومه أمير الجيوش وأبى أن يرخص له بسفر المطران الا اذا وعده بأن يبنى فى الحبشة خمسة مساجد وأن يرسل له المطران كل سنة هدية فلم يسع البطريرك الا الرضوخ وسار ساويرس الى الحبشة فهرب من وجهه كيرلس الى بلدة (دهلك) من بلاد الحكومة المصرية وبلغ أمره أمير الجيوش فاستقدمه اليه وأخذ كل ثروته وقتله ٠ ولاقى المطران ساويرس متاعب جمة لا سيما عند ما شرع يبذل مجهوده فى اصلاح الكنيسة الحبشية ومقاومة العادات الفاسدة الشائعة بينها وكان جل الأمراء يأخذون جملة من الجاريات فوق الزوجة الشرعية فقصد المطران أن يستأصل شأفة هذه العادة ولكن مساعيه لم تأت بفائدة تذكر لأنهم كانوا يدعون

أنهم باقون على شريعة موسى فى أمر تعدد الزوجات واعتقدوا أن ذلك ليس محرما الا على القسوس والشمامسة فقط مع اعترافهم بأن ذلك مخالف لروح المسيح ٠

وحدث فيما بعد أن ساويرس أرسل أخاه الى أمير الجيوش بهدية لم تصادف منه قبولا لحقارتها فاشتد غيظه وأتى بالبطريرك مع عشرة أساقفة وأخذ يعنفه بشدة على تقصيره فى القيام بما وعد به فشرع البطريرك يدافع عن نفسه فقاطعه وتوعده وأساقفته ان لم يكلفوا اثنين منهم بالسفر الى الحبشة ليلزما مطرانها بوفاء وعده وأن يرسل ضريبة ٥٠ سنة سلفا وأن يحذر الحبش من التربص لتجار الاسلام فى الدروب وأمر أن يبقى البطريرك والأساقفة تحت تصرفه وأن يدفع كل منهم أربعة دنانير يوميا نفقة اعالة حتى يرجع المطرانان اللذان يرسلان الى الحبشة ولكنه فيما بعد عدل عن هذا الرأى واكتفى بتدوين اسمائهم وجعلهم تحت مراقبة الجنود وأطلق سراحهم فأقاموا فى كنيسة المعلقة واتفقوا على أن يرسلوا الأنبا مرقس أسقف أوسيم والأنبا تادرس أسقف سنجار وأحاطوا أمير الجيوش بما دبروه ٠

ولكن هذا الأمر لم ينفذ بتدبير الهى وذلك أن باسيل ملك النوبة أرسل ابن الملك المتوفى الى أمير الجيوش بهدايا فاخرة طالبا منه أن يكلف البطريرك بتكريسه مطرانا على النوبة وخشى أمير الجيوش أن يظهر سخطه على البطريرك أمام ابن ملك النوبة فسمح له أن يمثل أمامه هو وأخو ساويرس المطران فدفع البطريرك عن نفسه وأخبره أخو المطران أن أخاه بنى سبعة جوامع بدل خمسة ولكن الحبش هاجوا عليه واتهموه بالتحيز للمسلمين وقاموا على الجوامع وهدموها وقصدوا الفتك بالمطران حتى اضطر الى الهروب ولم يخلصه من أيديهم الا الملك الذى أمر بسجنه حينئذ ٠

ولما شعر ابن ملك النوبة بحرج حالة البطريرك والأساقفة طلب من أمير الجيوش اطلاق سراحهم فقبل وأمر البطريرك بارسال الأسقفين الى الحبشة لاعادة بناء الجوامع المتهدمة فسافر الأسقفان وأخبرا ملك الحبشة بالأمر وأخبراه أن جميع كنائس القطر المصرى تحت خطر الانهدام ان لم تسرع ببناء الجوامع فاستشاط الملك غيظا وأرسل يقول لبدر

« ان تجاسرت ومددت يدك بسوء الى كنيسة واحدة فاعلم أنى أقلب مكة رأسا على عقب ولا أرضى باعادة بناء حجر واحد الا اذا أخذت وزنه ذهبا » ٠

غير أن بدر الجمالى هذا على رأى أكثر المؤرخين لم يكن مسلما بل مسيحيا وانما أظهر التحيز للاسلامية حبا فى بقاء سلطانه مرفوع الشأن ٠ وقد تجلت أخلاقه الطيبة فى الحادثة التى نذكرها وهى أن الأسقف يوحنا الظالم الذى سبق واضطهد البابا خيروستوذولو بقى مصرا على تشويش راحة الأمة فصار يترقب فرصة لاظهار ما كان يخفيه فى صدره فلما تقلد البابا كيرلس الرئاسة اتحد مع أربعة أساقفة وهم أخوه مرقس أسقف سمنود ويوحنا أسقف دميرة وخائيل أسقف أبى صير ومقارة أسقف القيس ومعهم الشماس أبو غالب أحد أعيان مصر المشهورين وتواطأوا على عزل البطريرك فكتبوا تقريرا بالطعن فى حقه مدعين عليه بدعاو توجب عزله وقدموها لبدر الدين الجمالى بواسطة يسيب رئيس بستانه وكان قبطيا ٠ وكان البطريرك متغيبا حينئذ فى الأقاليم يزور الكنائس ويفتقد الرعية ويدشن البيع التى بنيت حديثا ٠

فلما اطلع أمير الجيوش على التقرير رأى أنه ليس من شأنه أن يحكم فى أمر مثل هذا من تلقاء نفسه بمجرد أقوالهم فأمر البطريرك بعقد مجمع من أساقفة الوجهين القبلى والبحرى وكبار الأمة يرأسه أمير الجيوش ليبحثوا فى الأمور المنسوبة اليه على البطريرك ليعرف عما اذا كانت صحيحة أو غير صحيحة ٠ فحرر البطريرك كشفا بأسماء الأساقفة الذين يطلبون لحضور الاجتماع فحضر فى مدة قصيرة ٢٧ أسقفا من الوجه البحرى و٢٢ من الوجه القبلى و٣ أساقفة بابيليون والخندق والجيزة ٠

ولما تكامل عدد الحضور انعقد المجمع تحت رئاسة أمير الجيوش فى قطعة أرض له خارج القاهرة ٠ ثم وضع الكتاب المقدس فى الوسط وجلس أساقفة الوجه البحرى على الكراسى فى صف وأساقفة الوجه القبلى على الكراسى فى صف وأساقفة مصر وضواحيها فى صف وجلس المشتكون وأصحاب الدعوى معا ٠ وبعد الصلاة قدم ابن الظالم تقريره الذى يتهم فيه البطريرك بتهم شنيعة فقام البابا كيرلس وفند كل تهمة تفنيدا لا يدع مجالا لمدع فاقتنع الجميع وعلى رأسهم أمير الجيوش ببراءة البطريرك ولذلك وقف أمير الجيوش فى وسط المجمع ووبخ الأساقفة على

هذا التنابذ قائلا لهم « كان يجدر بكم أن تكونوا أنتم المثال فى المسامحة حتى يقتدى بكم الشعب الذى ترشدونه ثم حث الأساقفة على الخضوع لرئيسهم والاخلاص له وطلب منهم أن يطلبوا منه العفو فتصافح الجميع أمامه وكلف أحد رجاله بأن يسلمهم أوراق العفو · ثم أمر بقطع رأس عامل بستانه الذى سعى بالشر ضد بطريركه فخجل الأساقفة من تأنيب الجمالى لهم ورجعوا الى كنيسة أبى سيفين وأخذوا يتضرعون الى الله ليغفر لهم خطاياهم وبعد أسبوع كلفوا البطريرك بأن يقيم لهم صلاة القداس وتناولوا من بين يديه القربان المقدس ·

ولما كان بدر الدين الجمالى أمير الجيوش أرمنى الأصل تكاثر عدد الأرمن المهاجرين الى القطر المصرى حتى انتخبوا لهم بطريركا يدعى غريغورى ولما كان الأرمن تابعين للكنيسة القبطية فى اعتقادها بالطبيعة الواحدة فقام البابا كيرلس برسامة غريغورى بطريرك الأرمن وحرر منشورا لكافة الكنائس يخبرها فيه أن كنائس مصر والحبشة وأنطاكية وأرمينية متحدة فى الايمان الأرثوذكسى المستقيم ·

وبعد ذلك اشتغل البابا كيرلس بوضع قوانين جديدة للكنيسة سارت عليها الى ما بعد وفاته بزمن · واهتم أيضا باصلاح الكنائس وإفتقاد الفقراء · وكانت اللغة القبطية تتضاءل شيئا فشيئا وتحل محلها اللغة العربية حتى رأى البطريرك نفسه مضطرا الى تعلمها · ويقول المؤرخون أن البابا كيرلس هو أول من عمل الكسوة البطريركية من ديباج أزرق وبلارية من ديباج أحمر مزدانة بصور من ذهب · وبعد أن قضى ١٤ سنة و٦ شهور و١٦ يوما رقد بالرب فى ١٢ بؤونة سنة ٨٠٦ ش و ١٠٩٢ م ·

(٥) ميخائيل ٢ ـ البطريرك الثامن والستون :

رسم بعد وفاة البابا كيرلس الثانى بأربعة شهور وأربعة أيام وأصله من بلدة سخا وكان حبيسا بصومعة سنجار وقبل رسامته اشترط عليه الأساقفة :

١ ـ أن يحرم السيمونية ·

٢ ـ أن يتعهد بدفع مرتب وكيل الكرازة المرقسية بالاسكندرية (*)

٣ ـ أن يتنازل عن الكنائس التى اتخذها لنفسه البابا خيروستوذولو من كرسى مصر وهى كنائس المعلقة وأبى سيفين والعذراء بحارة الروم ومن كرسى أوسيم والجيزة كنيسة الملاك ميخائيل ومن كرسى طمويه دير الشمع ودير الفخار · وكتبت هذه الشروط فى أربع نسخ أمضاها البطريرك وحفظت واحدة عنده والثانية عند شنوده أسقف مصر والثالثة عند يوحنا أسقف سخا والرابعة عند أسقف الاسكندرية وقيل أن البطريرك عندما أمضى الشروط وعدهم بالنظر فى سائر مطاليبهم لا سيما راتب أسقف الاسكندرية الذى يتعذر عليه القيام به ·

وهذه الكلمات قالها البطريرك كمقدمة لعزمه على نكث هذه الشروط ولهذا لما جاءه أسقف مصر وطلب منه أن يتنازل له عن الكنائس التى ذكرت فى الشروط أنكر عليه ذلك وقال أنه رفض هذه الشروط عند توليته· وكان البطريرك قد تحصل على نسختين من الشروط المأخوذة عليه وهما نسختا أسقفى الاسكندرية وسخا · وكانت نسخة أسقف مصر معه فأشهرها أمام البطريرك وقال له « أنا بيدى الحجة عليك » فحاول أن يأخذها منه فأبى أن يعطيها له فغضب عليه ومنعه من مباشرة خدمة الكهنوت وأمر كهنة مصر أن لا يذكروا اسمه فى أثناء الصلاة فاضطر الأسقف للهروب واختفى فى دير القلمون بالفيوم · فقامت قيامة الشعب فى مصر واعتصبوا ضد البطريرك وقصدوا خلعه بالقوة ان لم يرد أسقفهم لمركزه فامتثل لرغبتهم واستدعى الأسقف ولاطفه ورده الى مقره ·

ولم يلبثا متسالمين مدة حتى قام بينهما النفور مرة أخرى فأراد البطريرك أن يتخلص منه فدعا أساقفة مصر وعقد مجمعا وادعى عليه أمامه أنه قدس فى أيام البابا كيرلس مرتين فى يوم واحد مخالفة للقوانين فأقر المجمع على وجوب قطعه ودعاه ليسمع صوت الحكم فأبى الحضور وهرب واختبأ فى منزل مختف ببابيليون وبعد انصراف المجمع وضع البطريرك يديه على كنيستى شنوده ببابيليون اللتين قام عليهما النزاع ·

وقام البابا ميخائيل بعد ذلك بخدمة جليلة للقطر المصرى وذلك أنه لما تولى المستنصر بالله لم يرتفع النيل أعواما متوالية فتعطل الزرع وقلت المحصولات وكثر الغلاء حتى بلغ ثمن الأردب الواحد من القمح مبلغا عظيما واذ علم المستنصر بأن مصدر زيادة النيل من بلاد الحبش دعا اليه البطريرك وبعثه اليها بهدية سنية برسم النجاشى ولدى وصوله

قابله باحتفال عظيم وسأله عن سبب قدومه فأعلمه بما حل بمصر وأهلها من الضنك والجوع بسبب نقص زيادة النيل وأنه أتى ليستعين به على ايجاد طريقة لمنع هذه الغوائل عن البلاد وأهلها . وقدم له هدية الخليفة فأمر الملك بفتح سد فى احدى الجهات التابعة له فجرت المياه منه الى أن وصلت مصر وزاد النيل فى ليلة واحدة ثلاثة أذرع واستمرت الزيادة حتى رويت البلاد وزرعت الأراضى فزال الغلاء . وفى اثناء اقامة البطريرك بتلك الأصقاع بذل جهده فى تمكين عرى الود بين الخليفة وملك الأحباش فكانت هذه خدمة أخرى قام بتأديتها للمستنصر ونال بذلك رضاه وممنونيته فأحسن اليه وبالغ فى اكرامه والبابا ميخائيل هو أول بطريرك مصرى زار بلاد الحبش بعد خضوعها دينيا للكنيسة القبطية .

وفى سنة ١١٠٢ م توفى مطران الحبشة فأرسل ملكها وفدا للبطريرك يطلب منه أن يرسم لهم آخر عوضه فرسم البطريرك راهبا يدعى جرجس مطرانا وسافر مع الوفد الى بلاد الحبشة ولكنه بوصوله فيها واستلامه دار المطرانية أظهر الميل لجمع الأموال فغضب عليه الأحباش والزمه الملك برد كل ما جمعه ثم أعيد الى مصر وطرح بأمر الوزير الأفضل فى أعماق السجون .

وقصد البابا ميخائيل أن يقيم أسقفا لمصر خلافا لأسقفها المقطوع فحالت دون قصده المنية وذلك أن الوزير الافضل رجع من الحرب الى مصر فخرج البطريرك لتهنئته فلم يكد يعود الى الدار البطريركية حتى أصيب بطاعون وتوفى فى ثانى يوم فى ٣٠ بشنس سنة ٨١٦ش و ١١٠٢ م وبعد أن استمر على الكرسى الحبرية تسع سنين و٧ شهور و١٩ يوما .

القسم الثانى
مشاهير الكنيسة

(١) المعلم سرور جلال (٢) أبو اليمن يوسف
(٣) أبو سعد منصور (٤) أبو المليح
(٥) بقيرة الرشيدى

---

(١) المعلم سرور جلال :

كان ضامنا ملتزما فى أيام الخليفة المستنصر فتمكن من أن يحصل على ثروة طائلة واشتهر بالعقل والفطنة وحسن التدبير وأحبه الخليفة

وقربه اليه ونال ثقتــه فــكان يجيبــه الى كل ما يطلب وكان الخليفة يكلفه ســنويا باعداد كل ما يلزمه لرحلته الى فم الخليج لحضــور مهرجان كسر السد (فتح الخليج) فــكان يقوم بما يحتــاجه وجيوشه من الطعام الفاخر فيسر منه الخليفــة ويخلع عليه • ومع ذلك كان المعلم سرور وديعا متواضعا يعمل الخير لجميع الناس بدون تمييز بين مسلم ومسيحى فقصده كل من له حاجة عند الخليفــة فــكان يسأله فى أمرهم فلا يرد له طلبــا حتى أجمع الــكل على محبته • وقيل أن الخليفــة أرسله فى مهمة فمــات فجأة فى الطريق ويقال أنه مات بدون ان يخلف نسلا •

٢ ـ أبو اليمن يوسف بن مكروواه بن زنبور الشهير بأمين الأمناء :

وكان أمينا على خزائن الخليفة ثم تولى نظارة الريف بالوجه البحرى وقد أحسن كثيرا الى أبناء جنسه فابتنى ديرا عظيما فى أحسن مكان وهو الدير الشــهير بدير أبى ســيفين بطمويه ببر الجيزة وغرس حوله بساتين واسعة كانت فى أيامه من أبهج المتنزهات حتى أن الأفضل الوزير ابن بدر الجمالى كان يقضى فيها أغلب أوقاته متنزها • وأبواليمن منأصل عائلة كبيرة عظم أمرها واشتهرت بالغنى وسعة الحــال وآخر أعضائها ابن القيس ابن زنبور الذى أسلم فى أيام دولة المماليك وسمى بعلم الدين •

(٣) أبو سعد منصــور :

هو ابن أبى اليمن المــذكور كان كاتبا بليغــا وبطــــلا شجاعا تولى الوزارة فى أيام المستنصر ولــكنه تخلى عنها عنــدما طالبهم الجند الأتراك بمرتبــاتهم ولم يكن فى الخزينة ما يسد مطالبهم ولمــا اعتصب كبيرهم ناصر الدولة على الخليفة قام لردعــه ابو ســعد على رأس العســاكر المواليــة فقاتله وهزمه •

(٤) أبو المليح الشهير بمماتى :

كان فى خلافة المستنصر ووزارة بدر الجمــالى أمير الجيوش واشتهر بالغنى وسعة الحــال وعمل الخير والاحسان وسبب تسميته مماتى أنه لمــا اشــتد الغــلاء بمصر كان يجود بما عنـــده على المحتــــاجين وكان أولاد المسلمين اذا رأوه صــاحوا خلفــه قائلين « مماتى » فــكان يشــفق عليهم ويهبهم غلالا لدفع جوعهم • وهو جد أسعد بن مهذب بن زكريا الذى أسلم فى وزارة شيركويه فى أيام العاضد •

(٥) بقيرة الرشيدى · الشهير بابن بقر :

كان من العــاملين فى الأمة وحــدثت فى أيامه مجاعة أظهر فيــه عطفــا زائدا على المنكوبين فــكان يطوف الأحيــاء التى يقطنهــا العمــال والفقراء مفتقدا أحوالهم محسنا اليهم وكان يقضى لياليه فى زيارة المرضى ومؤاساة المحبوسين ·

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) الحاكم بأمر الله (٢) المستنصر (٣) الحروب الصليبية

---

(١) الحاكم بأمر الله سنة ٩٩٦ م :

ظهر فى أيامه مسلم متمذهب يدعى ضرار سن شرائع كثيرة منهـــا تعظيم يوم الجمعــة والاحتفــال بالأعيــاد والتعويض عن الحج بمكة بزيارة مقــام طــالب باليمن وأباح الزيجة بين الأخ وأختــه والأب وبناته والأم وأبنــائها فارتاح الحــاكم لهــذه الديانة الجــديدة · ويظن أنه كان معتوها اذ كان يصعد كل صباح منفردا الى جبل المقطم حيث ادعى أنه يناجى الله كما كان يفعل موسى · وبعد أن كان أشد نصير للديانة الاسلامية نادى جهارا بمقاومتها واقامة ديانتــه الجديدة مكانها فاحتقرته الرعية ولم تعــد تعبأ بمدعياته فعاد الى نصرة الاسلام واضطهاد النصارى ·

قيل أن السبب الذى هيجه على المسيحيين هو أنه فى أثنــاء ادعائه الألوهية وضع دفاتر فى مراكز الحكومة الأربعة وهى القاهرة ومصر القديمة والفسطاط وبابيليون لتسجيل أسماء الذين يعتنقون آراءه الباطلة فأطاعه ستة عشر الف نفس لم يكن بينهم مسيحى واحد فنقم على النصارى وأمر بحرق مدينتهم بابيليون فحرقت وسلبت أمتعتهــا ونهى عن بيع الزبيب حتى لا يتيسر للأقبــاط اتمام السر المقدس وهجم على بيوت التجار وجمع ماكان موجودا منه وأحرقه بالنار وكان فى الجيزة كروم كثيرة فأرسل اليها أعوانه فقطعوها وخربوها عن آخرها ·

وكان النصارى فى عهد الحاكم قد تقدموا حتى صاروا كالوزراء وتعاظموا لاتساع أحوالهم وكثرة أموالهم فتزايد غيظ المسلمين منهم · وكان من رجال حكومة الخليفة المعز لدين الله نصرانى يسمى عيسى بن بسطوروس لبث فى خدمة الحكومة الى أن مات العزيز وتولى الخلافة بعده ابنه الحاكم فعزله ثم قبض عليه وقتله · وكان لبرجوان وزير الحاكم نصرانى آخر يسمى فهد بن ابراهيم يعرفه الحاكم حق المعرفة لأنه كان يدخل اليه مع سيده برجوان ويقف بحضرة الخليفة ويعرض عليه الرقاع ويشرح له المسائل ويتلقى أوامره عن كل واحدة منها ويكتب ما يأمر به فيوقع عليه · ولما قتل برجوان دعى الحاكم فهد بن ابراهيم وسكن روعه وأمنه على حياته ومنحه لقب رئيس ودعى أبا العلاء وصار يترقى فى الوظائف والرتب العالية حتى أحرز لقب وزير ولكنه فيما بعد كان فهد أول من جار عليه الحاكم من النصارى وذلك أن مناظرا له وشى به اليه بأنه يقوى نفوذ النصارى ويساعدهم على سلب مال الدواوين بتفويض أمر الأموال والدواوين اليهم فحمى غضب الحاكم على فهد ولم تمض أيام حتى قبض عليه وضرب عنقه بعد أن استمر فى الرئاسة خمس سنوات وتسعة أشهر واثنى عشر يوما ·

وقبض الحاكم أيضا على قبطى آخر يدعى المعلم غبريال بن نجاح ووعده بمنصب الوزارة اذا هو أسلم فاستمهله يوما واحدا وذهب الى أهله وودعهم وحثهم على الثبات واحتمال الشدائد والاضطهادات المقبلة ومضى الى الخليفة وجاهر أمامه بأنه لا يترك دينه اكراما لمنصب دنياوى فأمر بضربه الف سوط فمات قبل الضربة الثمانمائة ولكنهم استمروا يضربونه وهو مائت حتى أتموا الألف · وبعد ذلك قبض على ثمانية آخرين وهددوا فثبت منهم أربعة وأسلم الآخرون فرارا من العذاب · ومات أحد الأربعة الذين ثبتوا وأرسل الثلاثة الباقون الى السجن حتى يغيروا رأيهم واستمروا فى السجن حتى انتهى الاضطهاد ·

وقال المقريزى يصف قساوة الحاكم وتجبره « وتشدد على النصارى والزمهم بلبس ثياب الغيار وشد الزنار فى أوساطهم ومنعهم من عمل الشعانين وعيد الصليب والتظاهر بما كانت عاداتهم فعله فى أعيادهم من الاجتماع واللهو وقبض على جميع ما هو محبس على الكنائس والديارات وأدخله فى الديوان وكتب الى أعماله كلها بذلك وأحرق عدة صلبان كثيرة ومنع النصارى من شراء العبيد والاماء وهدم الكنائس التى بخط راشدة

ظاهر مدينة مصر وأخرب كنائس المقس خارج القاهرة وأباح ما فيها للناس فانتهبوا منها ما يجل وصفه وهدم دير القصير وأنهب العامة ما فيه ومنع النصارى من عمل الغطاس على شاطىء النيل بمصر وأبطل ما كان يعمل فيه من الاجتماع للهو والزم رجال النصارى بتعليق الصلبان الخشب التى زنة كل صليب منها خمسة أرطال فى أعناقهم ومنعهم من ركوب الخيل وجعل لهم أن يركبوا البغال والحمير بسروج ولجم غير محلاة بالذهب والفضة بل تكون من جلود سود وضرب بالحرس فى القاهرة ومصر وأمر أن لا يركب أحد من المكارية ذميا ولا يحمل نوتى منهم أحدا من أهل الذمة وأن تكون ثياب النصارى وعمائمهم شديدة السواد وركب سروجهم من خشب الجميز وأن يعلق اليهود فى أعناقهم خشبا مدورا زنة الخشبة منها خمسة أرطال وهى ظاهرة فوق ثيابهم وأخذ فى هدم الكنائس كلها وأباح ما فيها وما هو محبس عليها للناس نهبا واقطاعا فهدمت بأسرها ونهب جميع امتعتها وأقطع أحباسها وبنى فى مواضعها المساجد واذن بالصلاة فى كنيسة شنوده بمصر وأحيط بكنيسة المعلقة فى قصر الشمع وأكثر الناس فى رفع القصص بطلب كنائس أعمال مصر ودياراتها فلم يرد قصة منها الا وقد وقع عليها باجابة رافعها لما سأل فأخذوا أمتعة الكنائس والديارات وباعوا بأسواق مصر ما وجدوا من أوانى الذهب والفضة وغير ذلك وتصرفوا فى أحباسها ووجد بكنيسة شنوده مال جليل ووجد فى المعلقة من المصاغ وثياب الديباج أمر كثير جدا الى الغاية وكتب الى ولاة الأعمال بتمكين المسلمين من هدم الكنائس والديارات فعم الهدم فيها من سنة ثلاث وأربعمائة حتى ذكر من يوثق به فى ذلك أن الذى هدم الى آخر سنة خمس وأربعمائة بمصر والشام وأعمالهما من الهياكل التى بناها الروم نيف وثلاثون الف بيعة ونهب مافيها من آلات الذهب والفضة وقبض على أوقافها وكانت أوقافا جليلة على مبان عجيبة والزم النصارى أن تكون الصلبان فى أعناقهم اذا دخلوا الحمام والزم اليهود أن يكون فى أعناقهم الأجراس ثم الزم اليهود والنصارى بخروجهم كلهم من أرض مصر الى بلاد الروم فاجتمعوا بأسرهم تحت القصر من القاهرة واستغاثوا ولاذوا بعفو أمير المؤمنين حتى أعفوا من النفى وفى هذه الحوادث أسلم كثير من النصارى » أهـ .

واستمر اضطهاد الحاكم ٩ سنين كانت الثلاث الأخيرة منها أشد هولا اذ أمر بابطال العبادة فى جميع الكنائس الا فى الأديرة الكائنة

بالجبال فكان الشعب يرشون حكام الأقاليم ليسمحوا لهم بممارسة شعائر العبادة فى البيوت سرا ومن ثم صار الأقباط يقدسون ويتناولون الافخارستيا سرا • فهال الحاكم عدم تنفيذ أمره بالدقة فأصدر قرارا بمحو الديانة المسيحية من كل مملكته • وضيق على القسوس وقتل منهم عددا عظيما وهرب كثير منهم الى الأديرة البعيدة فتتبعهم وقتلهم • وأكره كثيرين من النصارى على الاسلام فأسلم منهم عدد عظيم ولكن كثيرين جاهروا بالايمان ولم يخشوا بطش الخليفة منهم الشماس بقيرة أحد رؤساء كتاب الديوان فهذا استعفى من خدمته وحمل الانجيل على صدره وسار به الى السراى واعترف قدام الخليفة بالمسيح فقيده وطرحه مع جماعة فى السجن ثم عفا عنهم وأنالهم الحرية فجالوا يثبتون اخوتهم على الايمان •

واستمر الحاكم يفتك بالأقباط فتكا ذريعا حتى أتاح لهم الحظ براهب يدعى بيمين كان قد أسلم فلما رأى أن كثيرين صرح لهم بالرجوع الى دينهم وقف فى طريق الحاكم هو وجماعة ممن أسلموا معه ولما مر بهم صرخوا قائلين « أيها الملك مرنا أن نعود الى ديننا أو اذبحنا فاننا لانطيق أن نبقى مسلمين » فسمح لهم بذلك وكتب لهم مرسوما وأمر أن لا يتعرض لهم أحد بمكروه • ثم قرب اليه الراهب المذكور وأعطاه اذنا ببناء دير خارج مصر على اسم الشهيد مركوريوس وهو المعروف بدير شهران ودير العريان الآن فسكنه مع بعض الرهبان ومن محبة الحاكم لبيمين صار يتردد على هذا الدير ويأكل ويشرب مع الرهبان ويظهر استعداده لاجابة طلباتهم فطلبوا منه ارجاع بطريركهم المنفى فأرجعه وسلمه أمرا بفتح الكنائس المغلقة وبناء التى أمر بهدمها واعادة مانهب منها ورد أوقافها اليها كما كانت • وبعد قليل مات الحاكم وتولى الخلافة بعده ابنه الظاهر سنة ١٠٢١ م فأقر الأقباط فى وظائفهم ومنحهم حرية العبادة بغير معارضة وأباح لهم الاحتفاء بعوائدهم والاحتفال بأعيادهم ومواسمهم •

(٢) المستنصر بالله :

بويع الخلافة سنة ١٠٣٦ م • بعد الظاهر بن الحاكم وفى أيامه اعتنق بعض الأقباط الدين الاسلامى وحدث أن أحد كبار موظفى الأقباط كان له ولد عاص فطرده من بيته لخروجه عن طاعته فاعتنق الدين الاسلامى وكان خاله جرجس أسقف ميساره فوعظه كثيرا لكى يرجع الى

دينه فلم يرجع فحرمه من ميراث أبيه ولكنه بعد مدة ندم وعاد الى ديانته وترهب فى دير القديس ميخائيل باسم نيقام (أى التائب) وتراءى له فيما بعد أن يكفر عن جحوده للمسيح باعلان ايمانه أمام الذين كانوا يعرفونه وقت اسلامه فانطلق الى القاهرة واجتمع بهم وهو بلباس الرهبنة فاغتاظوا منه وانهالوا عليه ضربا والقوه فى السجن • فسعى والده لدى القاضى ودفع له رشوة ليفتى باخراجه فأفتى القاضى بامكانية خروجه اذا تظاهر بالجنون ويقر الأطباء عنه أنه مجنون أمام شهود فأقنعه أبوه بضرورة اتباع تلك الطريقة للتخلص من السجن فأطاعه وخرج أبوه ليدعو الأطباء •

الا أن أحد الرهبان تمكن من الوصول اليه فى السجن ووبخه على ماعزم عليه من أتباع تلك الطريقة المشينة لشرف المسيحية فعدل عما نواه ولما تقدم الأطباء ليفحصوه اعترف بايمانه بالثلاثة الأقانيم فاغتاظ منه الشهود وقدموا عنه تقريرا للقاضى فأمر بقطع رأسه فسيق الى مكان يدعى رأس الجسر والجماهير تتبعه بكثرة من مسلمين ومسيحيين وقبل اعدامه عرض عليه الضابط المكلف بذلك الاعتراف بالاسلام ووعده بأن يهبه مقابل ذلك الحصان الذى كان راكبا اياه ويرفعه الخليفة الى أسمى الرتب فأجابه الشاب « لا تتعب نفسك مع من يتأكد أن كل مجد العالم لا يساوى شيئا يسيرا من ملكوت السموات الذى يرغب الحصول عليه » فتقدم اليه الجلاد وسيفه يلمع فى يده وهدده قائلا ان لم تنثن فهذا السيف الحاد يقطع حبل حياتك بعد ثوان فأجابه ان أية حديدة تنهى حياتى • وأراد أحد المؤمنين أن يغطى عينيه كى لا يجزع من رهبة الموت ولكن لم يتمكن من ذلك لأن الجند منعوه فناداه باللغة القبطية قائلا « تشجع يا جندى المسيح فان ملاكا أراه فوق رأسك وبيده أكليل جهادك » • ثم تحول الشاب الى ناحية الشرق وجثا على ركبتيه وصلى ومد عنقه للجلاد فأطاح عنه رأسه وسلم جسده لأهله بناء على أمر الخليفة ودفن بجوار كنيسة الملاك ميخائيل وبعد ذلك حضر البابا خيروستوذولو البطريرك ودفنه فى الكنيسة بكل احترام •

وكان للمستنصر وزير ضعيف الرأى سىء التدبير يسمى محمد اليازورى كان شديد الكراهة للمسيحيين عموما والأقباط خصوصا لميل الخليفة اليهم فكان يترقب فرصة للايقاع بهم فأتيحت له عندما أبلغه عدو لهم أنهم شيدوا كنائس جديدة فأمر بهدمها وبقفل جميع الكنائس

المسيحية فى القطر المصرى فثار المسيحيون وكادت تقع الفتنة لولا أن الخليفة قبض على ذلك الوزير ونفاه الى جهة تانيس بأقصى الوجه البحرى وبعد ذلك قتله لأنه كان يهيج المسلمين عليه باشاعته عنه أنه يمكن الأقباط من التراؤس على المسلمين . وذلك لأن الخليفة كان يعرف جيدا أمانة الأقباط ونشاطهم فى عملهم فثبتهم فى وظائفهم رغم قيام المسلمين عليهم وطلبهم منه أن يخلعهم من وظائفهم . وحدث أنه ارضاء لخاطرهم خلع مئات وعشرات من الأقباط ولكن الأعمال ارتبكت فالتمسوا منه أن يعيدهم الى وظائفهم فعادوا مبجلين .

وأصدر المستنصر بعد ذلك أمرا قصد به ارضاء خواطر المسلمين يقضى بهدم كنائس الوجهين القبلى والبحرى وانيط ذلك برجلين مسلمين أبو الفرج البابلى للوجه القبلى وكان المكلف بهدم الكنائس بالوجه البحرى يدعى ناصر الدولة وكان أكثر قساوة فتخربت كنائس دمنهور وأقفلت سائر كنائس الدلتا وفرض على الأقباط ضريبة سبعة آلاف دينار فى نظير صبره على ايصاد الكنائس ولكنه بينما كان جادا فى ذلك وقع عن جواده بغتة فقتل لساعته وبموته كف الاضطهاد من الأقباط .

أما أقباط الاسكندرية فكانوا فى حال أسعد لحسن أخلاق واليهم فانه لم يكد يتلقى أمر الخليفة بضرورة دفع الأقباط ستة آلاف دينار حتى أخطر الاكليروس به وطلب منهم أن يخفوا كل ما يوجد فى الكنائس من الأمتعة الثمينة ولما جاءت جنود الوالى فى الصباح لسلب الكنيسة لم يجدوا فيها غير الحصر والستائر . وكتب للخليفة يعتذر عنهم بأنهم فقراء لا يقوون على دفع المبلغ واقترح عليه انقاصه الى الف دينار فقط فقبل فجمع النصف من الأقباط والنصف الآخر من الأروام . وأخذ رجال الخليفة مفاتيح جميع الكنائس ولم يعط للبطريرك الا مفاتيح كنيسة واحدة . وقيل ان رأس يوحنا المعمدان كانت محفوظة عند الأقباط فخبأوها حينئذ خشية من أن تصل اليها أيدى الناهبين .

وقرب نصف هذا الجيل جاء الى مصر عرب بنى هلال من بلاد نجد وكان عددهم عظيما جدا وبموجب أمر أميرهم حسن بن سرحان وقائديهم دياب بن غانم وسلامه بن رزق المشهور بأبى زيد عبروا النيل وأخربوا أكثر الأديرة وقتلوا رهبانا كثيرين . وأصيبت البلاد بجوع شديد وعقبه وباء مهلك فتضافر على جلب الشقاء على السكان حتى أن أهالى مدينة

تانيس هلكوا جميعا من الجوع بما فيهم ميخائيل أسقفهم ولم يبق منهم سوى مائة نفس ٠

ولما اشتد الحال طلب الأقباط من جرجس ملك النوبة أن يمدهم بما يفرج كربهم فأمدهم بمؤونة أرسلها مع رسل من قبله ولكن ناصر الدولة الوزير أرغمهم على العودة بما معهم من المؤونة ٠ وحدث أن امرأة قبطية كانت تملك عقدا يبلغ ثمنه الف دينار فاستبدلته بكيس دقيق ٠ وخوفا من أن لا تصل به الى منزلها استأجرت قوما يحمونها بالسيوف حتى بيتها ولما صارت قريبة منه رآه الجائعون فهجموا عليها واختطفوا الكيس بين أيديهم وأخذ كل منهم ما تمكن من اختطافه ولم تتحصل المرأة الا على ما يكفى لرغيف واحد فصعدت به على سور المدينة وصاحت بأن هذا الرغيف كلفنى الف دينار ٠ فوصل الخبر مسامع الخليفة فألزم التجار بصرف ما عندهم للجائعين فانصرف الكرب ٠

واستوزر الخليفة المستنصر بدر الدين الجمالى الأرمنى ليرد عنه غارات الأعداء وقيل أن بدر الدين هذا كان مسيحيا ومع أنه كان يميل للمسيحيين الا أنه لم يظهر ذلك الميل اليهم وروى أبو المكارم المؤرخ أنه مات مسيحيا لكونه دفن فى البساتين بحلوان بجوار الكنيسة الأرمنية ٠ ولما هدأت الأحوال كلف الأقباط بتنظيم الدواوين وتشكيلها على هيئة جديدة وعهد اليهم ضبط الحسابات وتحصيل الأموال فتحسنت الايرادات وبلغ مقدار ما جبى حينئذ ضعفى ما كان يجبى قبلا ٠ ولما عاد المستنصر الى قوته اضطهد الأقباط كما اضطهدهم الحاكم وأمرهم بلبس الزنار الأسود وفرض الضرائب على أفرادهم وكاد يستمر فى طغيانه لولا خوفه من أن يغتاظ منه ملك الحبشة ٠

(٣) الحروب الصليبية من سنة ١٠٩٧ م

سميت كذلك بالنسبة للصلبان التى كان يعلقها عساكر الافرنج فى أعناقهم وعلى ثيابهم وكانوا يرومون بها انقاذ الأراضى المقدسة من يد المسلمين وسببها أن راهبا فرنسيا يدعى بطرس قصد الى مدينة القدس ليزورها كعادة المسيحيين فرأى فيها ما هاله وهو أن المدينة المقدسة

استولى عليها الترك الذين كانوا قد نزعوا سوريا من يد الدولة الفاطمية واستقلوا بها وحكموها حكما جائرا وأخذوا فى اذلال ساكنيها من المسيحيين ومعاملة الزائرين منهم كل سنة أسوأ معاملة فعظم عليه الأمر ورجع الى أوروبا وأوقف أسقف رومية على ما شاهد فحرك الأسقف ملوك الافرنج على محاربة المسلمين وانتزاع الأراضى المقدسة من أيديهم فأصغوا اليه ولبوا دعوته وقاموا من بلادهم يقودون الجيوش الجرارة وجرت بينهم وبين المسلمين معارك عظيمة أريقت فيها الدماء هدرا وبلا جدوى واستولى الافرنج على بلاد كثيرة من ضمنها القدس واستمرت معهم أكثر من تسعين سنة الى أن خلصها منهم صلاح الدين الأيوبى سلطان مصر ٠

القرن الثانى عشر

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) مقـار ٢	(٢) غبريال ٢
(٣) ميخـائيل ٣	(٤) يوحنـا ٥
(٥) مرقس ٣	(٦) يوحنـا ٦

---

(١) مقار ٢ – البطريرك التاسع والستون :

بعد وفاة البابا ميخائيل ترشح اثنان للبطريركية من رهبان دير أبى مقـار ولم يتمكن الأساقفـة من انتخـاب أحدهمـا وذلك لأن أحد المرشحين كان عمره أقل من الخمسين والقـانون يحظر انتخـاب بطريرك ممن لم يبلغوا هـذا السن وبعد مرور ستة أشهر على خلو البطريركية قرر الأساقفة فى المجمع الاكليريكى الذى انعقـد بالقـاهرة انتخاب أحدهمـا المدعو مقار وتمت رسامته فى ١٣ هاتور سنة ٨١٧ ش و ١١٠٢ م فى عهد خلافة الآمر ابن المستعلى ·

غير أنه اعترض على انتخـابه لأنه كان من ثمرة ثانى زواج وشروط انتخـاب البطـاركة تقضى أن لا ينتخب البطريرك الا أن كان ابن أمه من أول زوج وبعد التحقيق ظهر للأساقفـة أن أباه الذى تزوج مـرتين لا أمه فوافقوا على تكريسه ·

وقد حاول أكليروس الاسكندرية أن يلزموه قبل رسامته بالتوقيع على تعهد بدفع مرتبـات باهظة سـنوية · واذ كان هـذا الأب غير راغب فى منصب البطريركية امتنع بتـة أن يقيـد نفسـه بأى شرط · ولـما صمموا عليه وضـايقوه فر منهم وانزوى فى أحد الأديرة ولـكنهم اذ لم يجـدوا من يصلح غيره أحضروه رغمـا وتنازل اكليروس الاسكندرية عن غلوائهم وقبلوا أن يدفع لهم ٢٠٠ دينارا كل سنة فقط ·

وعلى أثر رسامته دعاه الأساقفـة الى رفع القربان فى كنيسة المعلقة فهاج رهبـان دير أبى مقـار لمخالفـة ذلك لعادة سلفائه الذين كانوا يرفعون

أول قربانهم فى ديرهم • وتنـازعوا مع الأساقفة والأراخنـة والحوا طالبين عدم انقطاع عادة ديرهم فأجابوا طلبهم وأخـذوا البطريرك وانطلقوا به الى دير أبى مقار واحتفلوا به احتفالا عظيما •

وفى عهد هذا البـابا توفى الأنبـا شنوده أسقف مصر فطلب منـه وجهاء الأقبـاط فى مصر وفى مقدمتهم الشماس يوحنـا بن صاعد أن يوسم لأبروشيتهم أسقفا عوضـه وكان البطريرك غير ميـال لوجود أسقف خاص فى أبروشية مصر خوفا من مزاحمتـه اياه لأن أسـقف مصر كان يعـادل البطريرك فى المنزلة ويزاحمه على مركزه ودخله فلم يجبهم اجابة تامة بل كان يعـدهم من يوم لآخر حتى أدركوا أغراضه فتعصبوا ضده وأصروا على طلبهم حتى التزم رغما عنه أن يكمل مرغوبهم •

واستمر هذا البابا على الـكرسى المرقسى ٢٦ سـنة و٧ أشهر كانت كلها سلام وفرح ثم تنيح فى ٤ توت سنة ٨٤٤ش و ١١٢٩م •

(٢) غبريال ٢ ـ البطريرك السبعون :

فى آخر حيـاة البـابا مقار كان فى ديوان الخليفـة كاتبان أحدهمـا مسلم يسمى ابن أبى قيراط والآخر سامرى يدعى ابراهيم فوشيا للخليفـة بأن الأقبـاط يأخـذون أموال الـكنائس ويمدون بهـا الافرنج سرا فغضب عليهم وأمر بأخذها الى بيت المـال وبعد وفاة البـابا مقار لم يجسر الأقباط على الاستئذان فى انتخـاب غيره بسبب هـذه التهمـة التى غيرت خاطر الخليفـة • وظلوا بدون بطريرك الى أن قام الجنـد على هذين الـكاتبين وقتلوهمـا شر قتـلة فقـام بعدهما رجل مسيحى من الملـكيين يسمى أبا البركات يوحنـا بن أبى الليث فطلب منه الـكتاب الاقبـاط أن يستأذن لهم باقامة بطريرك من الوزير الأفضـل بن بدر الجمـالى فأجاب طلبهم وصرح لهم أن يقدموا من يختارونه وكان بين الـكتاب رجل بتول من مصر يسمى أبا العـلاء بن تريك فوقع اختيـارهم عليه وكان سليل عائلة قبطية قـديمة ثم اعتزل الخـدمة فيما بعد وصـار شماسا فى كنيسـة أبى سيفين وكان الوزير قـد طلب منه أن يستمر فى وظيفتـه ولم يرد أن يتركه لاسـتقامته ونزاهته فلما عرضوا اسمه عليه سمح وأذن وكرس بالاسكندرية وقـدس بأديرة وادى هبيب فى ٩ أمشير سنة ٨٤٧ و ١١٣١ م فى عهد خلافة الحافظ ابن محمد ودعى غبريال ٢ •

وحدث أنه لما تلا الاعتراف زاد عليه عبارة لم تكن فيه قبلا وهى قوله (وصيره واحدا مع لاهوته) فاضطرب الرهبان لهذه الزيادة واحتجوا عليها فقال لهم البطريرك بأن مجمع الأساقفة قد أمره بتلاوتها فرضوا بها بشرط أن يضاف اليها « بدون اختلاط ولا امتزاج ولا استحالة » خشية من الانسياق لهرطقة أوطاخى فعمل برأيهم وأصدر منشورا لعموم الكنائس يعلمها بذلك ٠

وتوفى فى عهده بطريرك الأرمن فطلبوا اليه أن يرسم لهم أسقف اطفيح بطريركا وتاج الدولة أسقفا فامتنع فى بادىء الأمر ولكنه لما رأى اصرارهم لبى طلبهم ورسمهما ثم رسم ٣٥ أسقفا للابروشيات القبطية وقد حاول بعضهم أن يعطيه مالا فأبى كلية رغبة منه فى القضاء على السيمونية ٠

وأتاه فيما بعد وفد من قبل ملك الحبشة يحمل خطابين أحدهما للخليفة والآخر له ٠ وفيهما يعترض على قصر عدد أساقفة الحبشة على سبعة ويطلب أسقفا علاوة على الموجودين ٠ وكانت القوانين تمنع زيادة أساقفة الكنيسة الحبشية عن سبعة خشية استقلالها عن أمها الكنيسة القبطية لأنه اذا تكامل عددهم الى اثنى عشر جاز لهم انتخاب بطريرك وكان ملك الحبشة باتفاق مع مطرانها ميخائيل يقصد من وراء هذا الطلب الوصول لهذا الغرض ٠ فرفض البطريرك هذا الطلب واعتبره جسارة من المطران ٠ فعاد ملك الحبشة وأرسل هدية للخليفة وخطابا يرجوه فيه أن ينفذ طلبه فاستدعى الخليفة البطريرك وطلب منه أن يتساهل مع الملك فى طلبه فاعتذر له قائلا أن قبوله ذلك يؤول الى خروج الحبشة من تحت سلطته فاقتنع الخليفة وقبل عذره ٠

وقد ذكرت مجلة المقتطف نقلا عن كتاب « لباب الآداب » لواضعه أسامة ابن منقذ الكنانى ما يأتى « ولقد أذكرنى قول الحكيم « انما سلطان الملك على الأجساد دون القلوب » أمرا شهدته بمصر فى سنة ٥٤٧هـ وهو أن رسول ملك الحبشة وكتابه وصل الى الملك العادل أبي الحسن على بن السلار رضى الله عنه فسألته أن يأمر البطريرك بمصر أن يعزل بطرك الحبشة وتلك البلاد كلها مردودة الى بطرك مصر فأمر الملك العادل باحضار البطرك فحضر وأنا عنده فرأيت شيخا نحيفا مصفرا فأدناه حتى وقف عند باب المجلس فسلم ثم انحرف وجلس على دكل فى الدار وأنفذ اليه يقول له ملك الحبشة قد شكا من البطرك

الذى يتولى بلاده وسألنى فى التقدم اليك بعزله فقال يا مولاى ماوليته حتى اختبرته ورأيته يصلح للناموس الذى هو فيه وما ظهر لى من أمره ما يوجب عزله ولا يسعنى فى دينى أن أعمل فيه بغير الواجب ولا يجوز لى أن أعزله فاغتاظ الملك العادل رحمه الله من قوله وأمر باعتقاله فاعتقل يومين ثم أنفذ اليه وأنا حاضر أيضا يقول له لابد من عزل هذا البطرك من أجل سؤال ملك الحبشة فى ذلك فقال يا مولاى ما عندى جواب غير ما قلته لك وحكمك وقدرتك انما هى على الجسم الضعيف الذى بين يديك وأما دينى فما لك عليه سبيل والله ما أعزله ولو نالنى كل مكروه فأمر الملك العادل رحمه الله باطلاقه واعتذر الى ملك الحبشة » أهـ ٠

وبعد ذلك اعتنى البطريرك بوضع ثلاثين قانونا حظر فى بعضها ما يؤتى فى الأعراس من أمور الخلاعة المغايرة لروح الدين ولبث على كرسى البطريركية ١٤ سنة و ٣ شهور ثم تنيح فى ١٠ برموده سنة ٨٦١ش و ١١٤٥ م ٠

(٣) ميخائيل ٣ - البطريرك الحادى والسبعون :

بعد وفاة البابا غبريال اهتم الأساقفة بانتخاب خلفه فلم تتفق كلمتهم على واحد وذلك بسبب مقاومة راهب من عائلة معروفة يقال له يؤنس بن كوران كان يريد أن يكون بطريركا وكان من حزبه لقانه من أعمال البحيرة وخيروستوذولو أسقف فوه وميخائيل أسقف طنطا ٠ غير ان اساقفة الاسكندرية والصعيد أبوا بالاجماع قبوله واتحد رأى الكل أخيرا على اختيار ثلاثة رهبان ينتخبون أحدهم بالقرعة بطريركا وهم يؤنس ابن أبى الفتح وميخائيل من دير أبى يحنس وسليمان بن الدخيارى من دير برموس فوقعت القرعة على ميخائيل الملقب بابن الدقادوسى ٠

ومع أن هذا الراهب كان معروفا بشدة التقوى والنسك الا أنه كان لا يدرى شيئا من العلم ولم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة سواء بالقبطية أو العربية ولم يمنع ذلك من انتخابه لشدة لياقته لذلك المنصب الخطير فكرموه باحتفال عظيم فى احدى كنائس بابيليون فى اليوم الحادى عشر من أبيب سنة ٨٦١ ش و ١١٤٥ م فى عهد خلافة الحافظ بن محمد ٠

وحال جلوسه على الكرسى فتح الله ذهنه ووهبه قسطا وافرا من الحكمة ٠ ولكن لم تطل مدته سوى تسعة شهور و١٦ يوما وتوفى فى ٣

برموده سنة ٨٦٢ش و ١١٤٦م وقيل أنه مات مسموما والذى أقدم على سمه أحد الرهبان المحبين للعيشة الرخوة وكان البطريرك يوبخه فلم يطق توبيخه ٠

(٤) يوحنا ٥ ـ البطريرك الثانى والسبعون :

هو يؤنس بن أبى الفتح من دير أبى يحنس أحد الراهبين اللذين كانا مرشحين للبطريركية عند انتخاب البابا ميخائيل فانتخب بطريركا وأدى فروض رسامته فى ١٥بؤونه سنة ٨٦٢ش و ١١٤٦م فى عهد خلافة الحافظ ٠ وكانت الكنيسة القبطية فى عهده تكثر من الاحتفالات الدينية فحدث أن رهبان سمنود زادوا على الاعتراف لفظة (المحيى) بعد كلمة (ان هذا الجسد) فاعترض على هذه الزيادة الأنبا مكاريوس أسقفهم وأمرهم بتركها ولما أبوا رفع الأمر الى البابا يوحنا فعقد مجمعا من سائر أساقفة مصر وطرح المسألة أمامهم وبعد البحث أقر المجمع على هذه الزيادة وأصدر البطريرك منشورا لجميع الكنائس بقبولها ولكن رهبان دير أبى مقار احتجوا على المجمع وطعنوا فى حكمه وأثاروا غبارا عظيما وبلغ بهم الغيظ الى رفع دعواهم أمام الوالى فلما مثل الفريقان أمامه ووقف على سر الخلاف سخر بهما وطردهما ٠ غير أن الرهبان لبثوا يقاومون البطريرك طالبين حذف الزيادة ولكنهم خضعوا اخيرا ٠

وحدث فى زمان هذا البابا أن مملكة الحبشة اغتصبها رجل من غير العائلة الملوكية وقتل ملكها الشرعى وجلس مكانه فوبخه مطران الحبشة بشدة على هذا الظلم فنفاه وأرسل الى البطريرك يطلب منه تعيين واحد خلافه مدعيا عليه بأنه كبر وشاخ فامتنع البطريرك عن اجابة طلبه فعمد ملك الحبشة المغتصب الى والى مصر وأرسل له هدية ورجاه ان يلزم البطريرك بايفاد مطران من طرفه للحبشة فلما تكلم الوالى مع البطريرك قال لهان مطران الحبشة لايزال حيا فاقتنع ٠

وبعد أن مضى البابا يوحنا على كرسى البطريركية ١٨ سنة و١٠ شهور و١١ يوما تنيح فى ١٤ بشنس سنة ٨٢٢ ش و ١١٦٦م ٠

(٥) مرقس ٣ ـ البطريرك الثالث والسبعون :

وبعد وفاة البابا يوحنا اجتمع مجمع الأساقفة والشعب بالدار البطريركية لانتخاب من يليق للبطريركية فوقع اختيارهم على الأرخن مرقس

أبى الفرج أبى سعد التاجر الشهير والبتول الناسك وهو معروف بابن زرعة سريانى الجنس قبطى المذهب فأقيم بطريركا فى ١٨ بؤونة سنة ٨٢٢ ش و ١١٦٦م فى عهد خلافة العاضد بن يوسف ٠

ولما استقر به المنصب قام بواجباته خير قيام وانتشبت فى عهده الحروب الصليبية واشتد الخلاف بينه وبين مرقس بن قنبر المبتدع كما يأتى ٠ واستمر على الكرسى ٢٢ سنة و٦ شهور و٢٥ يوما وتنيح فى ٦ طوبه سنة ٩٠٤ ش و ١١٨٩م ٠

(٦) يوحنا ٦ ـ البطريرك الرابع والسبعون :

كان قبل رسامته بطريركا يدعى أبا المجد وكان فى الأصل علمانيا يتعاطى التجارة ويتردد على بلاد اليمن فى البحر حتى كثر ماله وذاع صيته وكان شريكا لقوم يدعون بأولاد الخبـاب فحدث مرة بينما كانوا راجعين من بلاد اليمن أن انكسرت بهم السفينة وفقد كل مابها عدا ماله فانه كان محتفظا به فى خنادق المركب فلما رأى أولاد الخبـاب أن مالهم قد ضاع حزنوا جدا ولكن أبا المجد أعلمهم بما كان فسروا منه للغاية وارتفعت قيمته فى أعينهم وأرادوا أن يكافئوه على فعله الحسن فرشحوه لكرسى البطريركية وكانت فضائله قد اشتهرت للخاص والعام فوافق الكل على انتخابه وكان له من النقود سبعة آلاف دينار فوزعها جميعها على الفقراء والكنائس ٠

وقيل أنه كان متزوجا ولما ماتت زوجته لم يشأ أن يتخذ له زوجة غيرها وآثر العزلة ٠ ومع أن القانون يحتم أن الذى ينتخب بطريركا لابد أن يكون أعزب من بدء حياته الا أن علم أبى المجد الواسع وفضيلته الزائدة أكسباه الأفضلية على جميع المرشحين لذلك المركز السامى ٠ ولم تكن له رغبة فى نيل هذا المركز بل لما توفى البابا مرقس كان يسعى لدى الحكام فى تعيين آخر مكانه فأشار بعض أصحاب الكلمة من المسلمين على كبار الأقباط باختياره لهذه الوظيفة لأهليته فقبلوا هذه المشورة وانتخبوه فى ٤ أمشير سنة ٩٠٥ش و ١١٨٩م فى عهد سلطنة صلاح الدين الأيوبى ولم يعارض فى انتخابه أحد ودعى يوحنا السادس ٠

وبعد ذلك وصله خبر وفاة مطران الحبشة فعين بدله كيلوس أسقف فوه التى كان شعبها جميعه قد قتل بسبب الحروب الصليبية ورقاه لدرجة

المطرانيــة وسافر للحبشة فقوبل باحتفــال عظيم ترأسه الملك نفسه ولــكنه عاش فى بلاد الحبشة عيشة الترف وكان له عشرة قسوس بصفة تلاميــذ وحدث مرة أنه فقد من كنيسة اكسيوم عاصمة المملــكة آنيــة من الذهب عظيمة القيمة فحصر المطران الشبهة فى أمين خزائن الــكنيسة وهو أحــد تلاميذه فأمر بضربه حتى أسلم الروح فثــار عليه أهله وأرادوا أن يفتكوا به ولــكنه لاذ بالفرار وأتى الى مصر فاندهش البطريرك وسأله عن ســبب مجيئــه فأجابه أن أخا الملــكة اغتصب الرئاسة منه لعــدم موافقتــه له فى بعض أمور تخل بالدين فلم يقبل البطريرك منه هــذا القول قضــية مسلمة بل أنفذ على الفور منــــدوبا من قبــله بكتاب منه لملك الحبشــة يشف عن اهتمامه بصــالح التــابعين لرئاسته وان كانوا بعيــدين عنه وأناط المندوب بتحقيق المسألة بكل دقــة وحجز الأسقف عنــده حتى يعود المنــدوب · وبعد سنة عاد المنــدوب وعرض على البطريرك نتيجةالتحقيق وأرسل ملك الحبشة مع المنــدوب بعض كبار مملــكته وقسيسه الخــاص ليشهدوا أمام البطريرك فى وجــه المطران بالذنب العظيم الذى اقترفه وطلب من البطريرك أن يرسل مطرانا غيره وصحبهم بكتاب وهــدية سنية لملك مصر وهــو اذ ذاك الملك العادل وطلب اليه أن يأذن للبطريرك فى تعيين مطران آخر واذ كان الملك غائبا فى سورية منهمكا فى مقــاتلة الافرنج والقائم بأعباء المملــكة ولده الكامل فقبل منهم الهدية وأذن للبطريرك أن يجيب طلب الملك ·

ولــكن لشدة محافظة البطريرك على واجباته وحرصه على القوانين امتنع عن اجابة الطلب فى الحــال فجمع مجمعــا حافلا من رؤساء الــكهنة وكبار الأمة وأحضر المطران وبعــد تلاوة القضــية بحضــوره سأله اذا كان لديه مايدفع به التهمة عن نفسه واذ لم يقو على ذلك حكم المجمع بتجريده من رتبتــه ومن كل درجة كهنوتية قبل الشروع فى انتخاب وتعيين آخر عوضه· ولمــا كان اليوم المعين لتجريده هرع الناس من كل جهة من أقبــاط ومسلمين الى المــكان الذى أعــد للاحتفــال لمشاهدة هــذا المنظر الغريب وتقــاطر النــاس أفواجا حتى بلغت أجرة الحمــار فى ذلك اليوم ثلاثة دراهم · ولما كانت الساعة المعينــة أتى به أمام المجمع بملابسه الرسمية وبعد تلاوة الحكم نودى عليه بالتجريد فمزقت ملابسه من على جسمه · فكان يوما مشهودا لم يسبق له نظير وصار الناس يتحدثون بهوله أياما ·

وقــد انتخب البطريرك أســقفا غير هــذا للحبشة من دير أنطونيوس يدعى اسحق فقــام بخدمتها بحزم زائد ونال فيهــا مركزا ساميا وحسب

فى عـداد القـديسين ومن مآثره أنه استحضر من بلاده المصرية رهطا من بنى قومه الأقبـاط نقشوا حجارة زين بهـا كنـائس الحبشة وجعلها ذات رونق بهيج أعجب به النـاظرون وعاش أربعين سـنة بين الأحبـــاش فى صفاء وهنـاء ٠

وحدث أيضـا فى أيام هـذا البـابا أن قسا من البشمور ترمل فتزوج مرة ثانيـة فطرده من كانوا تحت رئاسـته فمضى الى الاسكندرية وصـار يؤدى الخـدمة الدينيـة فى كنائسها فلمـا وصل خبره الى البـابا يوحنا استاء استياء عظيما ووبخ اكليروس الاسكنـدرية وسن قانونا يقضى بأنه لا يجوز لأية كنيسة أن تقبل كاهنا غير معروف بدون أن يكون معـه تصريح رسمى من رئيسه ٠

وبعد ذلك بقليل توفى البـابا يوحنـــا فى ١١ طوبه سـنة ٩٣٢ ش و ١٢١٦ م بعد أن قضى على الـكرسى ٢٧ سنة وكان لموته رنة حزن لأنه كان محبوبا من الجميع من أقبـاط ومسلمين وكان من أشد الناس حزنا عليه بطريرك الروم الأرثوذكس فقـد شوهد يبكى عند تشييع جنازته بكاءا مرا ٠ غير أنهم دفنوه بغير أن يحتفلوا به احتفـالا عظيما لأن من عادة المصريين أن يعجلوا بدفن موتاهم ولـما كان موته بغتة لم يتمكن أحـد من أساقفـة الابروشيات من حضور جنازته ٠

وقـد شهد أحد المؤرخين المسلمين عن البـابا يوحنا بأنه عاش حياته زاهـدا فى المـال فالمفى السيمونية وكان مثريا فلم يشأ أن يثقل على الأمة فى شىء بل عاش كل أيام رئاسته يصرف على نفسه ومن معه ويتصدق على الفقراء من ماله الخـاص وأبى اجابة مطالب الاسكندريين الباهظة حفظا لمـال الوقف ولهـذا توفرت الأموال بالبطريركية فكانت سببا فى طمع داود ابن لقلق والسعى للاستيلاء عليها ٠

وفى أيام هذا البـابا بطل ارسال الأساقفـة الى الخمس المدن الغربية وذلك أن تلك البـلاد التى كانت تابعـة للـكرسى المرقسى والتى اسـتمرت الـكنيسة المصرية ترسل اليهـا الأساقفـة بانتظـام من القرن الأول للقرن الخـامس الذى حـدث فيـه الانشقاق المحـزن وقام الامبراطرة الرومان يقاومون البطاركة المصريين وعقبهم ملوك المسلمين بعد الفتح العربى فشددوا عليهم النكير حتى أقبل أهل الخمس المـدن على الدخول فى الديانة الاسلامية أفواجا وبطل ارسال الأساقفة اليها من عهد هذا البابا الى الآن ٠

القسم الثانى
مشاهير الكنيسة

(١) الأسعد أبو الخير (٣) أبو البركات

(٢) السيدة ترفه (٤) الأنبا ميخائيل أسقف دمياط

١ ـ الأسعد أبو الخير :

هو جرجه بن أبى وهب الشهير بابن الميقاط اشتهر بين عظماء الأقباط فى عهد خلافة العاضد • تعرض له الوزير شاور الذى أحرق مصر القديمة وادعى عليه بأن له علاقة بعساكر الصليبيين وأنه يخابرهم سرا وبناء على ذلك قبض عليه ووضع تحت العذاب حتى مات • وهو رأس لعائلة اشتهر أمرها فيما بعد منها أبو الفتوح بن الميقاط الذى ترأس ديوان الجيوش فى أيام الملك العادل •

٢ ـ السيدة ترفه :

من مصر القديمة عرفت بالغنى واشتهرت بالتقوى الزائدة والغيرة فى عمل الخير ومن مآثرها أنها أنفقت من مالها الخاص على تشييد كنيسة على اسم أبى نفر وأعدت بأعلاها مكانا واسعا ليكون ديرا للعذارى الراغبات فى البتولية وأنفقت أيضا على نسخ جملة كتب ووهبتها للدير ونقشت اسمها على لوح خشب ووضعته فوق الباب الذى تدخل منه النساء الى الكنيسة •

٣ ـ أبو البركات :

هو ابن أبى الليث كان رئيس ديوان المجلس وشى به بعض الحاسدين الى الخليفة بأن له مرتبات باهظة وأنه يختلس أموال الحكومة ويستخدم أقاربه ويفضلهم على غيرهم فلم يسمع لهم الخليفة وأقره فى منصبه الا أنه قتل فى سنة ٥١٨ هـ •

٤ ـ الأنبا ميخائيل أسقف دمياط :

كان من علماء ذلك العصر وجمع قوانين الكنيسة الى مجموع واحد وألف كتاب البغية لمن طلب لنفسه الخلاص والنجاة من يوم القصاص •

القسم الثالث

الملكة والكنيسة

---

(١) الحروب الصليبية وتأثيرها على الأقباط فى عهد الخليفة الآمر بن المستعلى

(٢) الحافظ (٣) الظافر (٤) شاور وشيركويه

(٥) الدولة الأيوبية · صلاح الدين يوسف ووزيره بهاء الدين

---

١ ـ الحروب الصليبية وتأثيرها على الأقباط فى عهد الخليفة الآمر بن المستعلى سنة ١١٠١ م :

وحاول الصليبيون أخذ مصر ولكنهم فشلوا ولشدة غيظهم من عدم مساعدة الأقباط لهم أصدروا قانونا يمنع أقباط مصر والسودان من زيارة القبر المقدس وحملهم على ذلك أيضا اعتبارهم أن الأقباط هراطقة مع أن هؤلاء كانوا يتمنون لهم الفوز فى مبدأ الأمر ولكنهم علموا فيما بعد أنهم لا يستريحون مع اللاتين المتغطرسين بأكثر مما يستريحون مع المسلمين وقد أدركوا ذلك من أن أسقف رومية أصدر أمرا الى الصليبيين بضم البلاد التى فتحوها الى بطريركية اللاتين فى أورشليم وكانوا ينوون لأقباط مصر مانووه لغيرهم ولكنهم ارتدوا بالخيبة فى هجمتهم عليها مرة ثانية ·

واطمأن بال الأفضل بن بدر الجمالى وزير الآمر بأحكام الله على مصر وتحصل الأقباط فى أيامه على خير جزيل ولكنه لما رأى كثرة توالى هجوم الصليبيين على مصر وارتكابهم الفظائع فى كل بلد يدخلونها نفر قلبه وقلوب المسلمين من كل نصرانى مهما كان مذهبه وجنسيته ووقع الأقباط من جراء هذه الحروب تحت سخط مواطنيهم مع أن الأقباط كانوا فى نظر الأفرنج هراطقة كالمسلمين ولم يسلموا من شرهم حتى أنهم لما وصلوا الى مصر أول مرة نزلوا بمدينة تسمى الفرما وقتلوا جميع من فيها بدون تمييز بين مسلم أو نصرانى ·

ونال الأقباط من جراء الحروب الصليبية شر آخر وذلك أنه لما طالت مدة الحرب احتاجت الحكومة المصرية الى نفقات جسيمة ففرضوا جزءا عظيما منها على الأقباط فتضايق منهم كثيرون حتى أن بعضهم اضطر

الى بيع أملاكه لدفع المطلوب منه وأصبح الكثيرون فقراء وهكذا اتخذ المغرضون الحرب وسيلة لاضطهاد النصارى · وكان فى ديوان الخليفة كاتبان أحدهما مسلم يسمى ابن أبى قيراط والآخر سامرى يدعى ابراهيم فوشيا للخليفة بأن الأقباط ينفذون سرا الى الافرنج أموالا يأخذونها من الكنائس فغضب عليهم وأمر بضم أموال الكنائس لبيت المال أما الواشيان فقام عليهما الجنود وقتلوهما شر قتلة ·

ومع ذلك كان الآمر يكثر من التردد على دير نهيا بالجيزة ويقيم به أياما للنزهة · وكان فى كل مرة يأتى اليه ينعم على رهبانه بألف درهم حتى بلغ ماينالوه منه أكثر من ثلاثين ألف درهم · وفى أول مرة نزل به أنعم عليه بثلاثين فدان بلا مال بناحية طهرمس بالجيزة · وهذا الدير هو الذى قال فيه ابن البصرى الشاعر فى قصيدة له :

يا دير نهيا ما ذكرتك ساعة الا تذكرت السواد بمفرقى

يا دير نهيا ان ذكرت فاننى أسعى اليك على الخيول السبق

٢ ـ خلافة الحافظ سنة ١١٣٠ م :

وفى أيام الخليفة الحافظ لدين الله تولى منصب الوزارة رجل أرمنى شقيق بطريرك الأرمن فهدأت أحوال الأقباط وتعزز مركز المسيحيين · غير أن المسلمين ثاروا على الوزير بحجة أنه أوجد للمسيحيين نفوذا قد يمكنهم من استعادة السلطة الى قبضتهم · وكان زعيم هذه الثورة رجل يدعى رضوان فقدم برجاله على مصر القديمة وبابيليون والقاهرة حيث كان يسكن المسيحيون وأمر من معه بسلبهم ونهب أمتعتهم وجعل همه الضغط على الأقباط ومصادرتهم والزمهم بركوب الحمير والبغال دون الخيل وشد الزنار ولبس الغيار كما ادعى عليهم بأنهم غير أكفاء للوظائف وضاعف الضرائب المقررة عليهم· غير أن المسلمين الذين كانوا يعلمون شدة احتياجهم لكفاءة الأقباط العلمية نقموا على رضوان ولم يمكنوه من ذبحهم ·

وفيما بعد غرس الأفضل الوزير بستانا بالروضة بجوار كنيسة الملاك ميخائيل المختارة وأحاطه ببناء بلغ أسوار البيعة فطلب المهندس من الأقباط رشوة لكى لا يقرب من الأسوار فوعدوه ولكن لفقرهم لم يوفوا الوعد فانتهز ذلك المهندس حدوث زلزلة دمرت بعض المنازل وعقبتها ظلمة دامسة وأسرع برجاله الى البيعة ودمرها ·

وكان الأب ميخائيل أسقف صهرجت قد اعتنى بتجديد كنيسة منية زفتى ورممها فوثب عليه المسلمون واغتصبوها وحولوها الى مسجد فرفع الأسقف شكواه الى رضوان المذكور فادعى الذين اغتصبوها أنها بنيت حديثا ولما أثبت أنها قديمة أعيدت اليه ٠

٣ ـ خلافة الظافر سنة ١١٤٩ م :

وفى أيامه اشتد ساعد طايع بن زريك الأرمنى فارتقى الى منصب الوزير الأول فى مصر ولم يكتف بذلك بل نادى بنفسه ملكا ودعا نفسه الملك الصالح فتجبر على الأقباط وضايقهم مضايقة شديدة وأوقع بهم شرا عظيما ومن ذلك أن مدينة المطرية التى كانت ولا تزال معتبرة عند الأقباط مقدسة لتشريف المسيح اياها حتى سكن بها كثيرون منهم وبنوا فيها جملة كنائس فاغتصب الملك الصالح احدى تلك الكنائس وحولها جامعا ٠

٤ ـ خلافة العاضد ووزارة شاور وشيركوية :

وفى مدة خلافة العاضد بن يوسف الذى تولى سنة ١١٦٠ م استوزر رجلا يسمى شاور الذى لما تضايق من الصليبيين أحرق الفسطاط (مصر القديمة) حتى لا يعسكر فيه الافرنج فكانت هذه مصيبة أخرى لأن معظم سكانها كانوا أقباطا فهلك منهم كثير ومن نجا من النار خرج هائما لايدرى الى أين يذهب واستمرت النار متقدة أياما وذهب فى ذلك الحريق أمتعة الأقباط المساكين وأصبحت منازلهم آثارا بالية ولم يظهر من البناء سوى قباب الكنائس ولم يكن فى وسع الأقباط حينئذ أن يبنوا كنائسهم الا فى مكان أو اثنين بما التقطوه من الحجارة المتفرقة التى أوقعتها النار من البيوت والكنائس ٠ ولبث الكهنة الذين لم يهربوا من النار يحرسون تلك الأنقاض وبعد حين وجد الأقباط ست كنائس باقية داخل حصن الرومانيين ففرحوا بها فرحا عظيما ٠ ومن أشهر الكنائس التى احترقت حينئذ كنيسة دير أبى سيفين ٠

وبعد مدة قتل شاور واستوزر بعده شيركويه ولكى يرضى هذا الوزير الجديد خواطر المسلمين الذين اشتدت كراهتهم للنصارى بسبب الفظائع التى كان يرتكبها الصليبيون تعدى على الأقباط وسامهم عذابا اليما فنهب منازلهم وفضح نساءهم واغتصب بعضهم الى الاسلام ٠ ومن ذلك أن راهبا من دير أبى مقار نزل الى القاهرة ليبتاع شيئا فدعوه الى الاسلام فأبى

فقتلوه وأشعلوا النار فى جثته فلم تحترق فأخذها النصارى ودفنوها فى كنيسة أبى سرجه . ثم هجم شيركويه ورجاله على الكنائس التى بضواحى القاهرة فهدموها وهدموا كنيستى الحمرى بحارة الروم والزهرى فى بر الخليج غربى باب اللوق ونهبوا ما وجدوا بهما من الأمتعة ثم الزم شيركويه النصارى بشد الزنانير على أوساطهم ومنعهم من ارخاء الذؤابة المعروفة بالعذبة وقرر عليهم مغارم باهظة وحرمهم من التوظف فى الوظائف الرئيسية فى الدواوين . أما نصارى الصعيد فباعوا أنفسهم للعربان وترامو عليهم فأدخلوهم فى حمايتهم وبهذه الطريقة نجا كثيرون منهم من الموت لكنهم صاروا بذلك عبيدا للعرب .

وكان بين الكتاب النصارى رجل يسمى زكريا بن أبى المليح مماتى فكتب رقعة رفعها الى أسد الدين شيركويه يلتمس منه أن لايمنع النصارى من ارخاء العذبة وقد صدرها بالبيتين الآتيين :

يا أسد الدين ومن عدله　　يحفظ فينا سنة المصطفى
كفى عيارا شد أوساطنا　　فما الذى أوجب كشف القفا

فلم يجب طلبه . وكان زكريا هذا من نصارى أسيوط ولما أسلم دعى الأسعد ابن شرف الدين وولى ناظرا على الدواوين وكان شاعرا مجيدا وكاتبا بليغا ومن شعره :

تعاتبنى وتنهى عن أمور　　سبيل الناس أن ينهوك عنها
أتقدر ان تكون كمثل عينى　　وحقك ما على أضر منها

وبموت الملك العاضد انتهت الدولة الفاطمية وكان الأقباط فى آخر عهدها رغم ماحل بهم متقلدين زمام الوظائف الحسابية التى وضعوا لها قواعد دقيقة لا يتمكن سواهم من ضبطها وكانوا قد أتقنوا اللغة العربية ووضعوا فيها مؤلفات تشهد لهم بالمقدرة التامة ونقلوا اليها مؤلفات كثيرة من القبطية واليونانية وقد عرفت الحكومة قدرهم فصارت تلقبهم بألقاب التفخيم (كالرئيس وهبة الله . والأمجد . والأسعد . والشيخ . ونجيب الدولة . وتاج الدولة . وفخر الدولة) .

وكانت معظم الصنائع والفنون بأيديهم وكان اتقانهم لها بالغا منتهاه ولا تزال بقايا صناعاتهم موجودة للآن فى الأديرة والكنائس القديمة بحارة زويلة وحارة الروم ومصر القديمة وكنيسة المعلقة كما أنهم لم يهملوا علم

الطب فاشتغلوا به ونالوا منه حظا وافرا واهتموا بعلم المواقيت والفوا فيه مؤلفات واسعة وصل الينا بعضها ٠

٥ ـ الدولة الأيوبية : صلاح الدين يوسف ووزيره بهاء الدين :

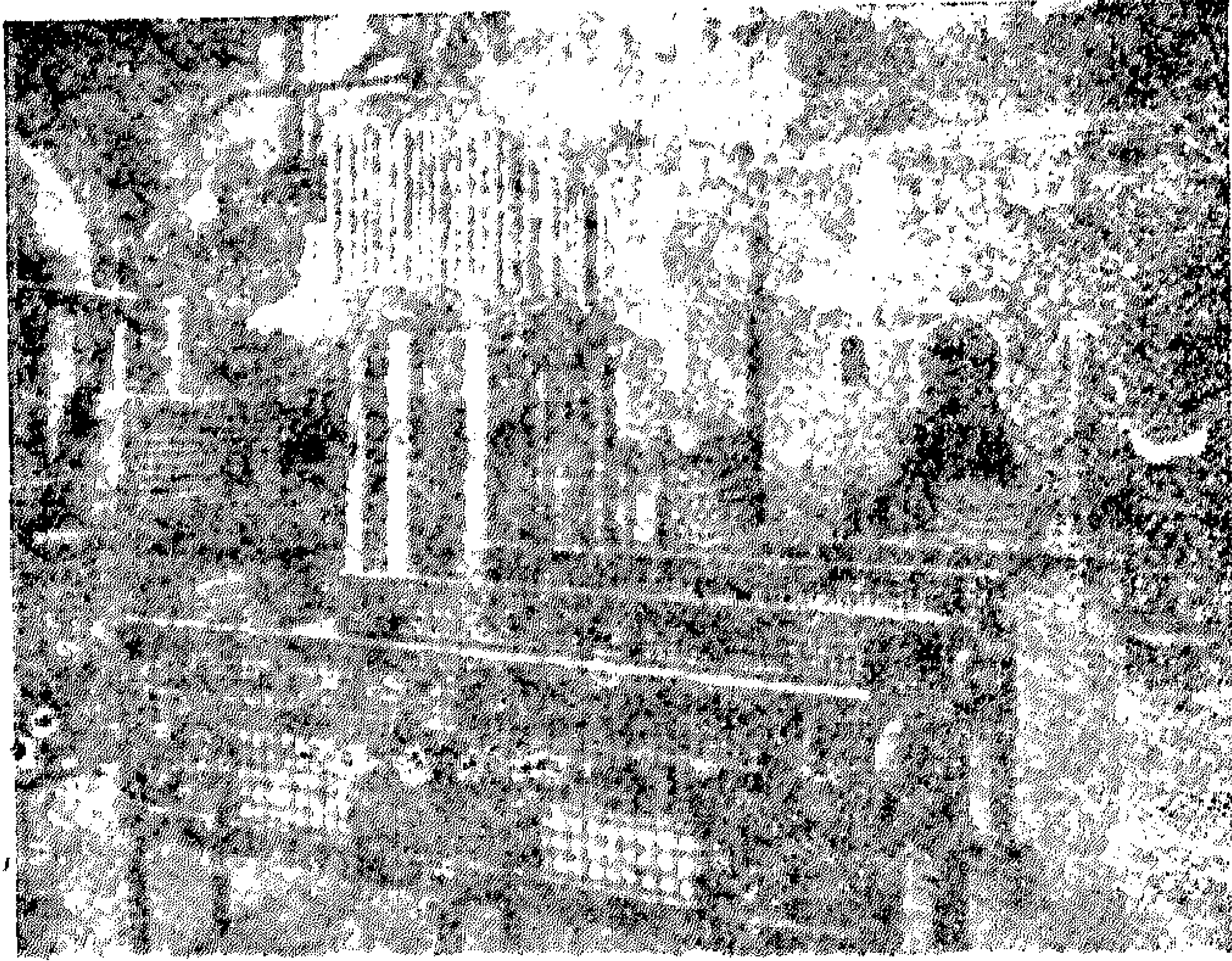
تولى صلاح الدين كرسى الوزارة سنة ١١٦١ م فحكم على الأقباط أن يعلقوا أجراسا فى أعناقهم وأمر أن تنزع الصلبان الخشب من فوق كل كنيسة وتطلى كل قبة كنيسة بيضاء بالطين الأسود وبعدم دق النواقيس فى سائر الكنائس ٠ وكان من عادة النصارى أن يزفوا فى عيد الشعانين الصليب فى الشوارع فى كل بلدة وكل مدينة فمنعهم من ذلك وأمرهم أن لايصلوا فى الكنائس الا بأصوات منخفضة فكانت هذه الأوامر عاملا على تهيج المسلمين وبغضهم لهم أكثر فاضطهدوا الأقباط فى كل مكان واغتصبوا كنائس كثيرة وحولوها الى جوامع والزموا عددا من المسيحيين باعتناق الاسلام ٠

وحدث أيضا أن ظهر رجل بمدينة قفط التى كان معظم سكانها أقباطا وادعى أنه ابن العاضد آخر الخلفاء الفاطميين فتبعه كثيرون وجاهروا بالعصيان على صلاح الدين فأرسل لهم جيشا تحت قيادة أخيه فأحاط بالمدينة وخربها ونهبها وقبض على ثلاثة آلاف رجل من سكانها وعلقهم فى عمائمهم على الأشجار التى كانت حول المدينة ومن ثم لم تقم لقفط قائمة وهى الآن قرية حقيرة وبعد ذلك وضع صلاح الدين يده على ممتلكات الأديرة والكنائس وأنعم بها على أعوانه وأتباعه ٠

جلس صلاح الدين على كرسى السلطنة سنة ١١٧١ م وفى أثناء انشغاله بالحروب فى سوريا لاح للملك النوبة أن ينتهز تلك الفرصة ويستولى على مصر فوصل الى أسوان وأسر كثيرين من المسلمين فسير اليه صلاح الدين جيشا فحاصر قلعة دير أبريم وفتحها عنوة واستخلص الأسرى المسلمين ونهب المدينة وقتل أكثر سكانها وأسر أسقفها وطلب منه أموالا واذ لم يجد عنده شيئا باعه مع الأسرى وقبض ثمنه ٠

وكان عرش مصر فى أثناء اشتباك صلاح الدين فى المعارك مسندا الى الوزير بهاء الدين أحد خصيانه السود فارتأى هذا أن يرمم أسوار المدينة فساق اليها المصريين من مسلمين ونصارى معا ليشتغلوا فيها فنقم الكل عليه وصار الأولاد يمثلون به ويلقبونه باسم « قراقوش » ولا

يزال الى اليوم من يقيمون حفـلات استهزاء بهـذا الاسم · وتعمد مضايقة الأقبــاط مضايقة شــديدة فأول عمل أتاه ضدهم أنه رفت كل الموظفين منهم فى جميع دوائر الحكومة ولم يبق منهم فيهـا الا من أسلم على يد شيركويه وبعده · ثم عاد فأرجعهم من نفسه لمـا رأى استحالة قيام الأعمال المصلحية وانتظامها بدونهم · بل ان السلطان نفسه لمـا تحقق أمانتهم اتخذ له منهم كاتبا خصوصيا من عائلة قـديمة شريفـة يعرف بعائلة شرافى وكان أبوه من مشاهير الحكومة فى أيام العاضد يسمى بأبى المعالى ومنحه صلاح الدين لقب الشرف والرئاسة فـدعاه بالشيخ الرئيس صفى الدولة بن أبى المعالى وكان محبوبا وبقى فى خدمته حتى مات · وكان الأرمن قد هاجروا من مصر



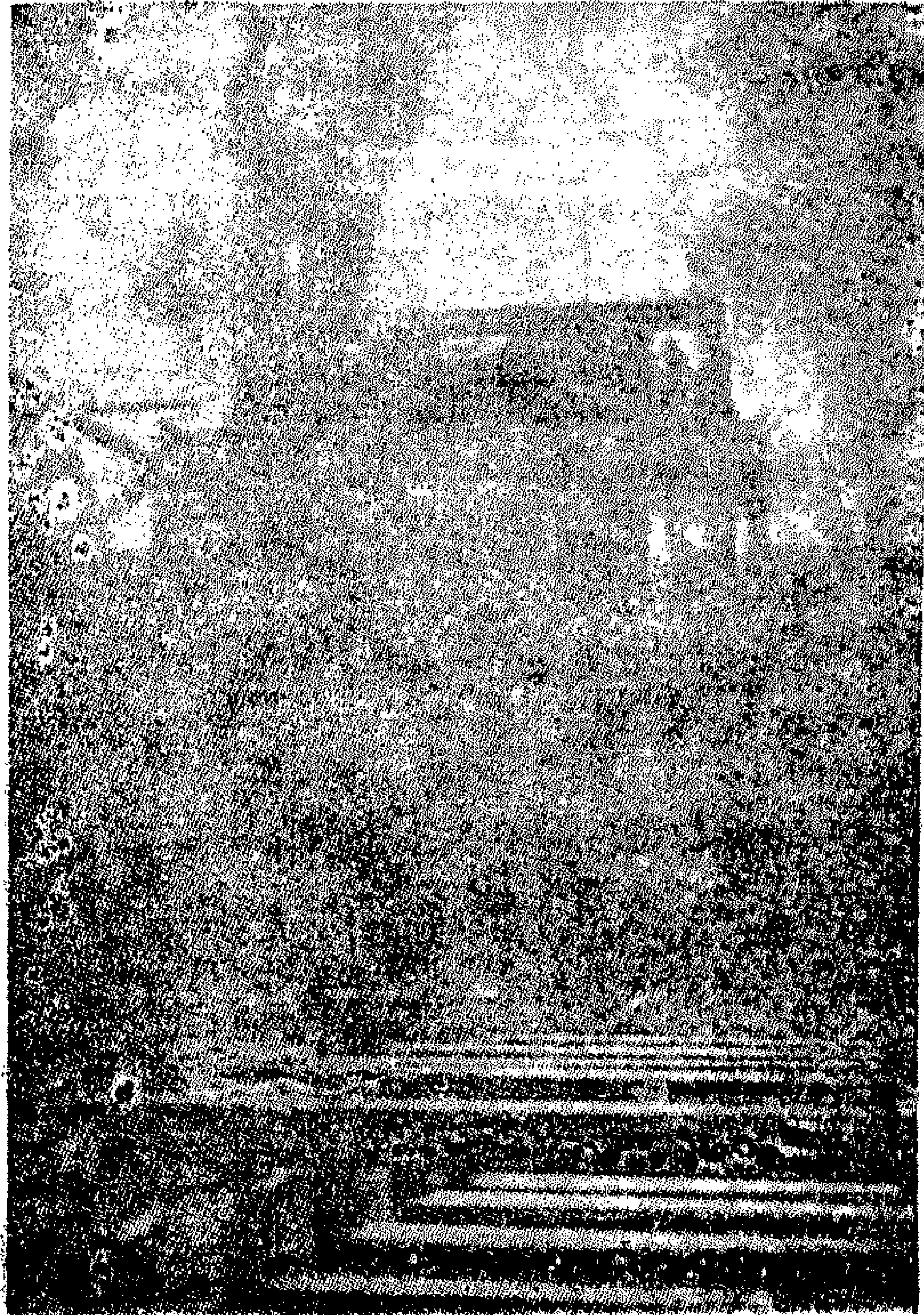
« كنيسة المعلقة من الخارج بمصر القديمة »

وتركوا كنيسة بالفسطاط أنعم بها السلطان على فقيـه دمشقى يسمى بهـاء الدين فطلبها صفى الدولة للاقبـاط فأعطاها صـلاح الدين لهم ولمـا تحقق صـلاح الدين من اخلاص الأقبـاط وهبهم أعظم مكان فى بيت المقدس وهو الدير المعروف الآن بدير السلطان نسبة اليه ·

وتجاسر حينئذ راهب يدعى جالوش وكتب يتم فى الرهبـــان للوزير مدعيا عليهم بأنهم على علم تام بعلوم السحر والتنجيم والرقى ولهم دراية بكيفية صنع الذهب والفضة الأمور التى يخالفون بهـا أوامر الانجيل فأمر الوزير بعض جنوده بفحص الشكوى فساروا الى وادى النطرون وأوقعـوا

بشيوخ الرهبان اهانة كبرى وأتوا بهم مقيدين الى الوزير الذى فحص أمرهم فوجدهم أبرياء فأطلق سبيلهم ٠

ولكن حدث أن جماعة من الأقباط ومنهم اثنان من كبارهم أحدهما يدعى أبو سعيد بن أبى الفضل بن فهد النحال والآخر أبو اليمن بن أبى الفرج من عائلة زنبورة الشهيرة احتفلوا فى أحد الأيام فى كنيسة الأرمن التى وهبها السلطان لهم بعيد الشعانين وكان مع خدام أبى سعيد وأبى اليمن أناء فيه زيت خاص من الزيتون ليقدموا منه لمواليهم ولما لم يجدوه اتهموا حراس المسلمين بأنهم سرقوه وأدى الحال الى وقوع مشاجرة بين الخدام والحراس تعدى فيها أولئك على هؤلاء بالضرب فرفعوا أمرهم الى بهاء الدين الفقيه الدمشقى صاحب البساتين التى حول الكنيسة فقص الخبر على السلطان وهذا أحضر صفى الدولة واستعاد منه الأمر الذى أعطاه له بأخذ الكنيسة وأغلق أبوابها ولكنها أعيدت بالتماس صفى الدولة ثانية ٠



« كنيسة أبى سرجة بمصر القديمة »

ومما يستحق الذكر أنه فى أثناء حصار الصليبيين لدمياط سنة ١٠٧٢ م حدث أن وزيرا قبطيا لاقى الصعوبات فى سبيل الاستئذان ببناء كنيسة على اسم الست بربارة وناله بعد الجهد وشيد تلك الكنيسة التى لاتزال للآن بمصر القديمة ٠ وقد دفعته الغيرة الدينية على تجديد كنيسة القديس أبى سرجة فغضب منه الخليفة اذ لم يأذن له الا ببناء كنيسة واحدة وأمر بارسال العمال بالمعاول والفؤوس لهدم احدى الكنيستين كما يختار الوزير فحزن الوزير حزنا عظيما حتى مات فى الحال فأسف عليه الخليفة ولم يشاء هدم احدى الكنيستين ٠

القسم الرابع

البدع والانشقاق

١ ـ انشقاق مرقس بن قنبر

٢ ـ مبادىء ابن ياسر القسطال

---

١ ـ انشقاق مرقس بن قنبر :

رسمه أسقف دمياط كاهنا لاحدى بلاد الصعيد وكان حائزا على قسط من العلوم والمعرفة فضلا عن معرفة اللغتين العربية والقبطية وكان يحسن اللغة اليونانية فترجم منها بعض الكتب ونقلها الى العربية والف أيضا جملة كتب نادى فيها بمبادىء مخالفة لمبادىء الكنيسة المرعية فجاهر بعدم فائدة البخور وطلب الأساقفة والعلمانيون من البابا يوحنا الخامس أن يحرمه فتمهل عليه لعله يرجع عن غيه ولكنه سمع عنه فيما بعد أنه ترك زوجته وصار راهبا طمعا فى الحصول على رتبة الأسقفية فتأكد البطريرك من سوء تصرفه وحرمه وقطعه من شركة الكنيسة فلم يبال بذلك بل دأب على القيام بالوعظ والتبشير ولما كان يتبعه كثيرون قاوم أيضا عادة الختان بحجة انها خاصة باليهود لا بالمسيحيين ٠

ولما تبوأ الكرسى البطريركى البابا مرقس بن زعرة كتب اليه أساقفة وعلماء الصعيد يرجون منه أن يتلافى الخطر المحدق بالكنيسة من جراء الفتن التى يجتهد مرقس فى ايقاظها فاستقدمه البطريرك اليه ونصحه فقبل النصيحة واعترف بخطئه فحل من حرمه ورجع الى بلدته ولكنه عاد الى سيرته الأولى فلما رأى البطريرك ذلك عقد مجمعا من ٦٠ أسقفا وافق فيه على حرمه وتجريده من رتبته الكهنوتية ٠

فطلب مرقس من الحكومة المصرية أن تنظر فى دعواه فرغب الحكام أن يتداخلوا فى أمره ولكن البطريرك والأساقفة أبوا بالكلية قبول طرح المسألة أمام الحكام وارتضوا بتحكيم الأب ميخائيل بطريرك أنطاكية فسعى هذا جهده لايجاد الصلح ولكنه لم يفلح ٠ وبعد ذلك رأى مرقس بن قنبر ان يرتمى فى أحضان الكنيسة الملكية وكانت حينئذ ضعيفة النفوذ فرجع مرقس منها بعد قليل نادما طالبا من البطريرك أن يقبل توبته ولكن الأقباط ازدروا به لكثرة تلونه وكان أتباعه قد رجعوا الى كنيستهم الأصلية فعاد ثانية الى الكنيسة الملكية ولكنها لم تقبله لعدم ثباته فبقى مدة حياته مطرودا ٠

٢ ـ مبادىء ابن ياسر القسطال :

كان قسا عالما فاضلا أراد اصلاح بعض الطقوس والعادات الاجتماعية فرأى منعا للمشاكل الزوجية أن يرى الخطيبان أحدهما الآخر٠ واثبت أن الختان ليس فريضة دينية ٠ وأشار بتربية الشعر ووجوب كشف الرأس حال الصلاة ٠ ومع أن كثيرين قبلوا آراءه بارتياح إلا أنه اضطهد من أجلها ولكنه لم ينثن بل ألف رسالة أثبت فيها مبادئه فقطعوه وأخرجوه من ديره الموجود للآن بالمعدوية وكان من الأديرة الفخيمة التى يفد اليها كبار الأمة لقضاء أيام فيها ترويحا للنفس ٠

وكان بجوار هذا الدير بستان واسع انشأه هذا القس من ماله الخاص فأخرج منه وراق فيما بعد فى نظر ابن الحافظ أحد خلفاء الدولة

الفاطمية فاتخذه لنفسه وصار ملكا للفاطميين حتى ملكت فى مصـــر الدولة الأيوبيـــة فآل أمره أخيرا الى طفتكين أخى الملك صلاح الدين الـــكروى فضم اليه كل البساتين المجاورة له وكانت للاقبـــاط وجعلها بستانا واحدا وكان بتلك الجهـــة كنيســـة تسمى كنيسة الســـودان فاســـتولى عليهـــا أيضـــا وهـــدمها ·

وكان لابن ياسر صـــديق يهودى فتبـــاحثا معـــا كثيرا ارادة أن يقنع أحدهمـــا الآخر ويجـــذبه الى ديانته فتمكن ابن ياسر من اقناع اليهودى فآمن بالمسيح وصـــار عضوا بالـــكنيسة القبطية وتعلم لغتها ورسم شـــماسا فى كنيسة حارة زويلة ·

القرن الثالث عشر

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) كيرلس ٣
(٢) أثناسيوس ٣
(٣) يوحنا ٧ وغبريال ٣
(٤) ثيودوسيوس ٢

---

١ - كيرلس ٣ - البطريرك الخامس والسبعون :

لم تمر مدة وجيزة على انتقال البابا يوحنا السادس حتى اشتد الخلاف بين المسيحيين بسبب انتخاب من يخلفه وبقى الكرسى البطريركى خاليا ممن يتبوأه لعدم اقرار الأساقفة على واحد من المرشحين ٠ وكان من المرشحين اثنان أحدهما يدعى بولس والثانى رئيس شمامسة المعلقة ٠ وغير هذين الرجلين كان آخر يدعى داود بن يوحنا بن لقلق من الفيوم سعى فى الحصول على هذا المنصب الجليل ٠ وكان هذا الرجل فى عهد البابا يوحنا السادس قد رشح نفسه مطرانا للحبشة فرفض البطريرك قبوله وانتهره ٠

وكان داود هذا كلفا بالحصول على احدى رتب الكهنوت الرئيسية فانتهز فرصة انعقاد مجمع الأساقفة والشعب لانتخاب بطريرك جديد وبذل كل جهده ليستميلهم اليه فلم يفلح فاستعان بالأرخن أبى الفتوح كاتب جيش الملك العادل فحاول هذا الرجل أن يقنع الأساقفة بقبوله فأبوا ولكن بما له من النفوذ فى الحكومة والدالة على الملك استطاع أن يحصل على أمر بتوليته بطريركا وتمكن أبو الفتوح من أن يستميل اليه بعض الأساقفة اما بالحيلة أو بالارهاب فوافقوه على الرضى به وعينوا صباح يوم الأحد التالى للاحتفال بتوليته فى كنيسة المعلقة وحجز أبو الفتوح هؤلاء الأساقفة ليلة الأحد ليبيتوا عنده ليضمن قيامهم برسامة داود ٠

ولما تضايق الأساقفة أنفذوا رسولا سريا الى كبار المسيحيين يعلمونهم بالخبر فشق عليهم الأمر وهاجوا وماجوا وهبوا الى المقاومة وكادت تجرى الدماء لولا أن شخصا يدعى أسعد بن صدقة الكاتب خشى سوء النتيجة وتلافى الأمر بحكمته وأوصى القوم بالهدوء والسكينة ليتدبروا الأمر فى جو خال من الاضطراب والشغب . ثم اصطفى بعضهم ورافقهم ليلا وهم يحملون الشموع والأنوار الى حيث يقيم الملك الكامل ابن السلطان ولما شعر بازدحامهم تحت قصره انزعج وأنفذ يستقصى عما جرى فطلب منه أن يسمح لبعضهم بشرح مسألتهم فسمح لهم فلما مثلوا أمامه أوقفوه على الحقيقة والتمسوا منه أن يتوسط لهم لدى أبيه ليمنع عنهم هذه النازلة ويقاوم رسامة هذا الرجل لعدم استحقاقه لمركز خطير كهذا تحتم القوانين بعدم انتخاب أحد له الا اذا اجتمعت عليه الكلمة وقر عليه الرأى فهدأ روعهم ووعدهم خيرا .

ولما انصرف القوم على هذا الوعد توجه الملك الكامل فى الحال الى أبيه الملك العادل وكشف له الأمر وأحاطه بعدم رضى الاكليروس والشعب على تولية ذلك الرجل لأسباب قانونية وأخبره بالأساقفة الذين حجزهم أبو الفتوح ببيته ليقوموا بالرسامة رغما عنهم اعتمادا على الأمر الذى أخذه من الملك . فلما وقف الملك على سر المسألة أخذ يشك فى أبى الفتوح اذ قال له ان الأمة ورؤساءها راضون به وكاد أبو الفتوح يجنى ثمرة زرعه لولا أن الملك تأنى فى الأمر وأرسل جنودا يستحضرون الأساقفة الذين حجزهم بمصر القديمة ليقف منهم على الخبر .

وفى الوقت الذى كان ابن صدقه يدبر الأمر هكذا كان أبو الفتوح مهتما بتنفيذ الأمر بعجلة فبادر بأخذ ابن لقلق من القاهرة الى مصر القديمة فى فجر يوم الأحد وبينما هم سائرون به التقى بهم الجند وكان قد انضم اليهم جم غفير من الناس فهجموا عليهم وضربوهم ضربا مبرحا وفرقوا شملهم وكادوا يفتكون بداود ولكنه هرب واختفى .

أما الجند فاضطروا أن يهملوا الأمر الذى أرسلوا لأجله واهتموا بتفريق الجمع ولم يتم لهم ذلك الا بعد عناء عظيم وكان أبو الفتوح وداود يرومان أن تتم الرسامة سرا بواسطة الأساقفة ولكن الجند أسرعوا الى كنيسة المعلقة وأمروا الأساقفة بالخروج حالا من الكنيسة والذهاب الى القاهرة كأمر الملك العادل فسروا جدا اذ سمعوا هذه الدعوة التى كانوا

يرجونها بفارغ الصبر نظرا لمضايقة داود وأبى الفتوح لهم والالحاح عليهم برسامته بطريركا ٠

فلما قام الأساقفة مع رجال الحكومة الى القاهرة خابت آمال داود من رسامته سرا ولما وقف الملك العادل على جلية الخبر من الأساقفة وأنهم غير متفقين على كلمة واحدة فبعضهم كان يرفض قبوله رفضا باتا وبعضهم خاف بأس أبى الفتوح فأظهر الرضاء ٠ غير أن أغلب الأساقفة أبوا الموافقة على الرسامة وبعد ذلك اجتمع أربعة منهم وحرموه وتعاهدوا على أن لا يحضروا سيامته ولو أرغموا على ذلك ٠

أما أبو الفتوح وداود فقد حاولا مرة أخرى أن يتمما الرسامة فلم ينجحا فى مسعاهما وذلك أن أبا الفتوح عاد الى الملك العادل وأثر على فهمه بأن داود أليق من غيره للبطريركية وأن الذين تظاهروا ضده هم من رعاع القوم وصعاليكهم ثم كتب عريضة وبذل جهده حتى تحصل بالتهديد على امضاء ١٣ أسقفا وأربعين راهبا وبعض العامة وقدمها للعادل فلم يسعه الا الموافقة غير أن المؤمنين كانوا متيقظين فقاموا قومتهم مستنجدين بطبيب الملك وكان قبطيا وبواسطته تمكنوا من افساد تدبير أبى الفتوح وأمر الملك أن لا ينصب بطريركا الا من تتفق الكلمة عليه ٠

ثم توفى الملك العادل وخلفه ابنه الكامل فوقع فى أزمة مالية فحض الأقباط على انتخاب داود بطريركا طمعا فى أن ينال أولا رسوم البطريركية التى كانت تدفع لخزينة الحكومة وثانيا ليأخذ المال اللازم من داود نفسه فى نظير مساعدته للحصول على مأربه وما كاد يشيع هذا الخبر حتى هرع كثير من أساقفة جميع جهات القطر للاحتجاج على تعيين داود وكان داود يومئذ قد احتفل فى ديوان الحكومة بشكر الذين رشحوه ولكنه لما رأى معارضة السواد الأعظم من الرؤساء والمرؤوسين فى انتخابه شعر بخيبة آماله مرة أخرى ٠

ولكن لم تضعف هذه الخيبة عزمه بل عمد الى الاستيلاء على الكرسى البطريركى بالقوة فلم يبال باحتفال أو رسامة بل لبس اللباس البطريركى وسار الى كنيسة القديس سرجيوس محفوفا بأعوانه وبينما كان يؤدى الفروض كان جمهور كبير من الأقباط يوجهون اليه أقسى كلمات الهجاء حتى أن أعوانه لم يتمكنوا من سماع صلاته ٠ وكان هياج المؤمنين عاما فى جميع الانحاء فاستخدم داود نفوذه وجعل الحكام يضطهدونهم ولا سيما الرهبان والاكليروس ٠

وبينما كان الملك الكامل يزور أديرة وادى النطرون ودير القديس مكاريوس طلب منه الرهبان أن يسمح لهم بتعيين بطريرك تتفق على انتخابه كلمتهم وأخبروه انه تخرج من دير ابى مقار ثمانون راهبا رسمهم البابا يوحنا السادس كهنة على عدة ابروشيات فلم يبق منهم على قيد الحياة سوى أربعة فقط وأعلموه انهم يخدمون جميع الأبروشيات مع انهم لم يزالوا رهبانا ولا يمكنهم أن ينالوا رتبة الأسقفية الا بيد البطريرك ٠

وكان الأساقفة يموتون واحدا بعد آخر وتخلو أبروشياتهم ممن يحل فيها نظرا لعدم وجود بطريرك يقيم عوض المتوفين ٠ فاجابهم الملك الكامل بلطفه المعهود أنه لا يتأخر عن اجابة طلبهم اذا توفقوا الى بطريرك يجمعون على انتخابه ووعدهم بالتنازل عن الرسوم التى اعتادت البطريركية دفعها للحكومة عند تنصيب كل بطريرك جديد ٠

كل ذلك وداود لم يفتا يسعى بدون انقطاع ليلا ونهارا ليفوز ببغيته مستعملا تارة الحيلة وأخرى التوسل بكبار الحكومة وأحيانا الرشاوى والهدايا حتى فرغ كل ما لديه من المال دون أن يتم له رضاء الشعب عنه ٠ وهكذا استمر الكرسى خاليا بسبب هذا الخلاف مدة عشرين سنة مات فى خلالها معظم الأساقفة وغيرهم من الذين كانوا من أقوى المعارضين لداود الذى كان كلما يسمع بموت احدهم يفرح ويسر ويعتقد أن اجل التوقف له كاد ينقضى ٠

ولما اشتدت حاجة الملك الكامل للمال اقدم على أمر كان قد اقسم بأن لا يفعله فحنث فى يمينه ٠ وكان يوجد راهب يسمى عماد المرشال وصفه بعضهم بالخبث والعناد ومعاكسة عظماء الامة وائمة الطائفة والقائهم فى ورطات لا يمكنهم التخلص منها الا بدفع غرامات طائلة حتى انكشف أمره أخيرا للسلطان فقبض عليه وعاقبه بما يستحق وقيل أنه طلب أن يسلم فلم يقبل الملك اسلامه فاجتمع هذا الراهب بداود واتفق معه على أن يسعى له بشرط أن يدفع ثلاثة آلاف دينار لخزينة الحكومة وكان بين رجال حاشية الملك الكامل أمير يعرفه عماد يسمى فخر الدولة له كلمة نافذة لدى الملك فمضى اليه وكشف له الأمر فوعده خيرا ومن ثم صدر أمر الملك برسامة داود على الشرط المذكور فرسم على أيدى الأساقفة القليلين الذين كانوا باقين وقتئذ وهددوا بالموت ان لم يرسموه ٠ فتولى داود البطريركية وسمى كيرلس الثالث فى ٢٢ بؤونه سنة ٩٥١ش و١٢٣٥م

واحتفل كيرلس برسامته احتفالا بهيجا أساء المسلمين واجتهد في مبدأ الأمر أن يرضى الرأى العام فرسم بعض الكهنة والشمامسة بدون أن يحصل منهم شيئا ولكنه فيما بعد استبد وأساء التدبير وأظهر شراهته في محبة المال وتحصيله اياه بطرق غير جائزة · وكانت أكثر من أربعين أبروشية قد خلت من الأساقفة فصار لا يولى أسقفا الا من ينقده مبلغا أكثر من سواه بغير مراعاة الأهلية والاستحقاق ·

فلما بلغت أخبار قبائحه المسامع نفرت منه قلوب الناس وتكدرت خواطر الشعب ونصحه بعضهم على انفراد فلم ينتصح بل كان يقول لهم أنه مضطر الى جمع النقود لسداد المطلوب للحكومة جزاء تنصيبه بطريركا· فاشتد مقت الجميع له وأكثر الكل من التشنيع عليه ومن هؤلاء الراهب عماد فانه نازعه كثيرا وشدد عليه النكير واجتهد أن يقيم عليه رقباء خوفا على أموال الوقف ·

ولسبب لا نعلمه قبض عليه الملك والزمه بدفع الف وخمسمائة دينار فاتخذ هذه الغرامة ذريعة للتوغل فى قظائعه فأصدر أمرا اداريا باتباع جميع الأديرة له مباشرة وفرض عليها مبالغ سنوية ونزع أيضا بعض البلاد من أبروشياتها واتبعها له وربط عليها عوائد تدفع ليده خاصة فكدر بذلك خواطر الأساقفة فنقموا عليه هم ورؤساء الأديرة وصاروا يترددون عليه ويكلمونه فى أمرهم فتركهم وانطلق الى الاسكندرية · ولما رأى أن احتجاج الشعب شديد ضد السيمونية دعا اليه كبار الأمة والاكليروس وأخبرهم أن ما جمعه كان لايفاء الأموال الأميرية ووعدهم أنه بعد سداد المطلوب يكف عن بيع الرتب الكهنوتية اذا لم يكن داع لجمع الأموال بهذه الطريقة ·

غير أنه لم يفتأ يظهر شروره وقاده سوء تصرفه الى التعدى على حقوق زميله بطريرك أنطاكية السريانى فعين مطرانا قبطيا سماه مطران سوريا وأرسله الى مدينة القدس ليقيم بها بحجة أنه يوجد فى سوريا كثير من الأقباط لا يعرفون اللغة السريانية التى يصلى بها السريان فى كنائسهم وقبل هذا العهد كانت مصالح الأقباط فى الأراضى المقدسة موكولة الى الكنيسة السريانية ويظن أنها لم تقم بها كما ينبغى وعلى كل حال فقد أدى تدبير كيرلس هذا الى افساد العلاقات الودية القديمة وفصم عرى الاتحاد الذى كان بين السريان والأقباط ·

ومع أن الأساقفة فى مصر عارضوه فى هذا التعيين الا انه لم يسمع لهم قولا غير أنهم نجحوا فى حمله على ارسال مندوب الى بطريرك أنطاكية الذى كان مقيما وقتئذ بأورشليم يطلب اليه الاعتراف بالمطران الذى أرسله . فأبى أغناطيوس بطريرك انطاكية أن يعترف بالمطران واضطر ان يستعين باكليروس اللاتين الذين كانوا ينتظرون مثل هذا الشقاق ليستفيدوا منه فبسطوا له حمايتهم واضطر أغناطيوس ان يعامل كيرلس كما عامله فعين مطرانا من قبله لكنيسة الحبشة وهو رجل حبشى يسمى توما مولود فى بلاد الأحباش .

فكثر سخط الناس على كيرلس ونصحه أبو الفتوح وغيره من كبار الأمة ورجال الاكليروس مرة بعد أخرى ان يعدل عن خطته فلم يقبل نصيحتهم فاجتنبوه واعتزلوه بالمرة ولم يعد احد منهم يدنو منه او يجتمع به فاتخذ هذا الاعراض فرصة للاستبداد والتصرف فى مصالح الأمة تصرفا سيئا .

وكان كيرلس قد استمال اليه الملك الكامل وأغلب عظماء المسلمين بالرشاوى والهبات وأستعان بهم على أبناء طائفته الذين أصبح يزدرى بهم ولا يحسب لوجودهم او معارضتهم حسابا . ولما كان رؤساء الحكومة غير مطلعين على فظائع كيرلس قام وفد من كبار الأمة القبطية وأساقفتها يرأسه عماد الراهب وقصوا أخباره على محافظ العاصمة وكان ممن استمالهم كيرلس اليه بالرشوة فلم يهتم بالأمر بل حامى عن كيرلس وعضده . ولما حضر كيرلس أبدى اندهاشه قائلا « لم يعرف فى التاريخ الكنسى أن أساقفة ائتمروا على خلع بطريرك وان كانوا يشتكون من تضييقى عليهم فليبحثوا القانون لعلهم يجدون ما يستندون عليه » .

وكانت طلبات الأساقفة فى تلك الشكوى خمسة أمور رئيسية :

١ — الاقلاع عن السيمونية والرشوة .

٢ — احترام حقوق بطريرك السريان وأن لا تتجاوز سلطة المطران الذى عينه مدينة غزة .

٣ — عزل من قلدهم الرتب الكهنوتية بدون استحقاق .

٤ — لا ينبغى للبطريرك أن يقلد بدع الكنيسة اليونانية .

٥ — تعيين أحد الأساقفة الشيوخ المدربين وكيلا للبطريركية .

أما كيرلس فلم يكتف بعدم اجابة هذا الطلب فقط بل سعى لدى الحاكم ورمى عماد بكل كريهة فألقى القبض عليه وزج فى السجن · وكان قد وعد بعقد مجمع تنظر فيه هذه الشكاوى فلم يبر بوعده · ولما فاض الكيل قام أربعة عشر أسقفا الى الدار البطريركية بالمعلقة بمصر القديمة وأرغموه على المجيء من مدينة الاسكندرية فجاء اليهم فألزموه أن يعقد مجمعا مؤلفا من الاكليروس وكبار الأمة للنظر فى ما اختل من الأحوال بسبب سوء تصرفه فاضطر أن يجيبهم خوفا منهم وكانوا قد أعدوا مشروعا يتضمن قوانين ضرورية لتقدم الكنيسة · فلما اجتمع المجمع قدموه له وطلبوا منه أن يمضى عليه ويتعهد بتنفيذه ·

وحاول كيرلس الامتناع عن أن يكون مقيدا بهذه القيود التى لم تتفق مع ما ينويه فهدده الأساقفة بالانفصال عنه واجتنابه وقطع العلائق معه فاضطر أن يمضى بالرغم عنه وكلفوا ابن العسال صفا الفضائل بجمع هذه القوانين فجمعت ووزعت على جميع الأبروشيات ·

وحدث بعد ذلك موت الملك الكامل وملك عوضه الملك الصالح فجار على النصارى وترك رعاع المسلمين يضطهدونهم · أما كيرلس فسعى كعادته حتى استمال اليه الملك الجديد ولما كان يحاول التخلص من هذا التقييد واعادة الاستقلال اليه انتهز فرصة هذا الاختلال الذى لحق النصارى منه ضرر عظيم وأعلن رفضه لما اتفق عليه · فعقد الأساقفة مجمعا حضره وجهاء الطائفة طلبوا فيه منه مرة أخرى أن يلاحظ القوانين الكنسية فازدرى بهم واحتقر كلامهم فقام فى وجهه فى هذه المرة راهب يسمى بطرس بن التعبان ويعرف بالشيخ السنى وكان عالما فاضلا محبوبا محترما بالنسبة لحكمته وشيخوخته وأقام الأدلة على ما ارتكبه مما يخل بمقامه ورتبته كمخالفته للقوانين المرعية ونكثه العهود وارتكاب الرشوة وغير ذلك من الأعمال والخصال الذميمة وقدم له قانونا ليمضى عليه مؤداه أن يعين أسقفا طاهر الذمة ليراقب أموال الوقف وأن يرسم أسقفين لابروشيتين خاليتين بدون رشوة وكان كيرلس قد امتنع عن رسامة أحد لهما حتى يتحصل الضريبة المعتادة وأن يعين ناظرين لمدرستى القاهرة وبابيليون وأن يترك الأديرة تحت رئاسة الأساقفة التى تكون فى دائرة ابروشياتهم ·

فأخذ كيرلس يماطل الى أن استاء منه أحد أصحابه وضجر من بخله عليه فخان عهده ووشى به الى أمير القاهرة وكانت شكوى الشيخ السنى

قد هدمت مركزه فى عيون الحكام فعزموا على القبض عليه مرارا لمحاكمته ولكن الأساقفة لم يسمحوا بتسليمه ليد الحكومة خوفا من أن يكون ذلك اعترافا منهم بحق الحكومة فى التسلط على البطريرك والقضاء عليه . غير انه فى هذه المرة تم القبض عليه وهموا بعزله تخلصا من الاشتغال بالقضايا التى كانت تقدم عليه من وقت لآخر ونسبوا اليه معاملة البعض بالقسوة الزائدة واستعماله معهم انواع التعذيب التى تقضى بهلاكهم . واجتهد أولو الامر ان يجعلوا الأساقفة يشهدون عليه فأبوا وتداولوا مع الأمير وكان يحب الاقباط حبا جما واتفقوا معه على أن يطلق كيرلس اذا أمضى القوانين التى سنوها له فأمضى عليها كيرلس هربا من الشر المحدق به واطلق سراحه على شرط أن يدفع لخزينة الحكومة مبلغا فكان ذلك داعيا الى استئناف مساعيه الشريرة فى جمع المال بطرق غير مشروعة .

فضاق ذرع الأساقفة من ذلك السلوك الممقوت وكثر اخلافه للعهود وصمموا على خلعه واخبروا الأمير بذلك فقال لهم وهل يجوز عندكم خلع البطريرك فأجابوه يجوز اذا ارتضى هو بذلك ولم يكن من المنتظر ان يتنازل كيرلس عن مركزه حبا فى سلامة رعيته فاستمر فى ضلاله حتى أراح الله منه تلك الأمة التعيسة بموته بعد أن مضى عليه فى الرئاسة ثمان سنوات لم تر فى خلالها راحة يوما واحدا ولما مات شكر الناس الله وكانوا يهنئون بعضهم بعضا على الخلاص منه وكان موته فى ١٤ برمهات سنة ٩٥٩ش و١٢٤٣م .

ومما يدل على سوء الحالة التى انتهت اليها الأمة القبطية فى عهد هذا الرجل أنه لم يسمع فى تاريخها ان أسقفا اعتنق الاسلامية الا فى عهده مع سماح الحكام للمسيحيين بالعيشة بالسلام حينئذ .

٢ ـ أثناسيوس ٣ ـ البطريرك السادس والسبعون :

وبعد وفاة كيرلس خلا الكرسى سبع سنين وستة أشهر وعشرين يوما كان الأساقفة فى خلالها يدبرون شؤون الكنيسة فى كل أبروشية والناس فى سكون غير مهتمين بانتخاب غيره بسبب الاتعاب التى لاقوها من كيرلس قبل توليته وفى مدة رئاسته . ويقول المؤرخون ان الأمة والاكليروس لبثوا بدون أن يفكروا فى انتخاب بطريرك جديد انتظارا لوفاة اثنين من أعوان كيرلس الأردياء السيرة لكى يتمكنوا من الحصول على رجل تقى يصلح ما أفسده كيرلس . وقد توفقوا أخيرا الى الشماس ابن القس المعروف

بأبى المكارم بن كلهيل من مصر فأقروا على رسامته فى مجمع عقدوه لهذه الغاية وتمت رسوم تكريسه فى ٥ بابه سنة ٩٦٧ ش و ١٢٥١ م فى عهد سلطنة أيبك الجاشنكير ٠

وقد حقق ظن منتخبيه فلم يكد يستقر به المنصب حتى جاهد فى الغاء السيمونية وشدد النكير على الكهنة الذين علم أنهم نالوا رتبة بهذه الواسطة ٠ واستمر طول المدة التى أقامها على الكرسى البطريركى وهى ١١ سنة وشهرا واحدا يبنى ما هدمه كيرلس حتى أتم جهاده وتنيح فى أول كهيك سنة ٩٧٨ش و ١٢٦٢ م ٠

٢ - يوحنا ٧ - البطريرك السابع والسبعون* وغبريال ٣ - البطريرك الثامن والسبعون (١) :

وكلاهما من مصر وقيل أن البابا غبريال ٣ من الشام وفى الوقت الذى توفى فيه البابا أثناسيوس كان يوجد اثنان أحدهما يدعى يوحنا بن أبى سعيد السكرى والآخر غبريال ابن أخت أسقف طنبذى مترشحين للبطريركية وقد تساوت أصوات منتخبيهما فى المجمع المقدس ٠ وكان يوحنا معضدا من أكابر الطائفة بمصر القديمة وغبريال من بعض أعيان القاهرة واشتد اللدد والخصام وعمل كل فريق على نصرة صاحبه وانقسم الأساقفة الى قسمين أحدهما وافق على انتخاب يوحنا والآخر ساعد على انتخاب غبريال وأخيرا اتفقوا على تحكيم الهيكلية (القرعة) فاقترع الفريقان على أيهما يولى فوقعت القرعة باسم غبريال ومع ذلك فلم يرض الحزب الآخر ونهض منازعا غبريال وكان جله من عظماء الأمة فعمدوا الى استرضاء الحكام ليعضدوهم فى أمر انتخاب يوحنا حتى تقووا وثبتت قدمهم فتمكنوا من اقامته بطريركا ٠

واستمر البابا يوحنا يحكم الكنيسة نحو ست سنوات وتسعة أشهر كانت كلها منافسة ومعاكسة وخصام وفى خلالها تقوى حزب غبريال وتجارى الأساقفة على عزل البطريرك يوحنا وسجنوه بأحد الأديرة وولوا غبريال مكانه وكان هو الأولى بالبطريركية نظرا لكفاءته واستحقاقه واستمر يدبر شؤون الكنيسة سنتين وشهرين كانت الفتنة فى خلالها

---

(١) يلاحظ انه لم يقم بطريركا على كرسى الاسكندرية فى وقت واحد الا هذه المرة ويندهش المطلع على تاريخ اساقفة كرسى رومية اذ يجد انه جلس اسقفان على الكرسى فى وقت واحد ٢٨ مرة و ٣ اساقفة ٦ مرات واربعة اساقفة ٤ مرات (تاريخ الانشقاق ٣ : ٤٠٥و٤٠٦) ٠

لا تخمد نارها ولا ينطفى أوارها حتى تنيح البابا غبريال فاتحدت كلمة الجميع على اعادة البابا يوحنا الى منصب البطريركية فأخرجوه من معتقله وأرجعوه الى مقره فقوبل فيه باكرام زائد .

وكان البابا يوحنا جليل القدر وفورا واسع العلم والمعرفة فلما استقر به المنصب دبر الأمور فأحسن التدبير وعمل على ازالة الوحشة بين الأحزاب وبالغ فى التلطف مع الحزم ففاز ونجح ومالت اليه القلوب واتحدت على محبته الخواطر فعظمت شهرته واتسعت كلمته . وفى مدة بطريركيته أتاه كتاب من امبراطور الحبشة يشتكى له فيه تهجم المطارنة السوريين على بلاده ويعترف بخضوعه للكنيسة القبطية دون غيرها ويطلب منه رسامة مطران تقى يرعى الكنيسة الحبشية فما لبث وقف البطريرك على فحوى الخطاب اسرع برسامة مطران قادر للحبشة حتى يحفظها من هجمات الاجانب .

ومما حدث فى أيامه أن تاجرا مصريا ارسل مبلغا من المال لشريك له فى الحبشة وتصادف ان الرجل مات قبل وصول المال اليه فرفع التاجر المصرى أمره للملك مصر وهذا حوله على البابا يوحنا فوعد بالمساعدة وانفذ كتابا لامبراطور الحبشة مع ذلك التاجر وحالما وصل به وعلم الناس أن البطريرك ارسل اليهم خطابا اسرعوا لمقابلة حامله بكل اجلال واكرام . وفى يوم الأحد تلا الامبراطور بخشوع تام خطاب البطريرك على مسمع الجميع فى الكنيسة الكبرى وعاد التاجر الى مصر يحمل ماله وهدايا ثمينة .

وطالت أيام البابا يوحنا حتى تنيح فى ٢٦ برموده سنة ١٠٠٩ ش و ١٢٩٣م ولبث بطريركا للمرة الثانية اثنتين وعشرين سنة وستة شهور فتكون جملة سنى بطريركيته ٢٩ سنة .

وقد وجد البيان الآتى مكتوبا باللغتين القبطية والعربية فى كتاب بصخة تاريخه ١٠ بشنس سنة ١٥١٠ ش .

« انه لما كان القانون الرسولى يأمر بقراءة اسفار العهدين العتيق والحديث صار ذلك فرضا لازما على كل مسيحى حتى جلس الأب الموقر الأنبا غبريال بن تريك أو ٧٧ فى عدد البطاركة وهذا كان كاتبا على كرسى مار مرقس الرسول بمدينة الاسكندرية سنة ٩٧٤ للشهداء الأطهار فرأى أن الناس بالنسبة لانهماكهم فى أعمالهم وخدمة السلاطين والخلفاء وبقية

الأشغال الثقيلة لا يمكنهم اتمام القانون الرسولى فجمع علماء من ذوى المعرفة والفهم ورهبانا كثيرين من دير القديس أبى مقار وأخذوا من العتيقة والحديثة ما يلائم ووضعوه كتابا وسموه كتاب البصخة وصاروا يعملون الفصح كل سنة فى بيعهم حتى صار الأب المكرم بكل نوع الأنبا بطرس أسقفا على كرسى البهنسا فنظر فى البصخة فرأى أنهم يعملون فى ساعة نبوات وأناجيل كثيرة وفى ساعة أخرى قليلة فجمع من الكتب المقدسة ووضع لكل ساعة من الساعات ما يوافقها وبذا صار تلاوة الساعات متساوية ووضع لكل يوم من أيام الأسبوع عظتين من اقوال الآباء واحدة للصباح وواحدة للمساء كما هو مدون بكتاب البصخة الى يومنا هذا » أهـ (١) ٠

٤ ـ ثيودوسيوس ٢ ـ البطريرك التاسع والسبعون :

وبعد ان توفى البابا يوحنا السابع خلا الكرسى سنة واحدة وثلاثة اشهر ونصفا ثم وفد اساقفة جميع الأبروشيات الى البطريركية واستدعوا وجهاء الأمة وبحثوا عمن يليق للرئاسة فوقع اختيارهم على الراهب ثيودوسيوس من دير أبى فانة وكان قبلا يدعى عبد المسيح بن رويل وهو من منية بن خصيم فتمموا تكريسه فى ١٨ مسرى سنة ١٠١٠ ش و١٢٩٤ م فى أيام الملك الناصر محمد بن المنصور بن قلاوون ٠ وما استقر به المنصب حتى قام برعاية قطيع المسيح بكل أمانة الى أن أمضى خمسة سنوات وخمسة شهور على الكرسى المرقسى ارتاح الأقباط فيها من اضطهاد المسلمين وتنيح فى ٦ طوبه سنة ١٠١٦ ش و ١٣٠٠ م وخلا الكرسى بعده أربعين يوما ٠

وقال بعض المؤرخين « ولم تكن قلوب الجماعة مؤتلفة مع هذا البطريرك حيث كان ارتقاؤه للرئاسة من غير اختيارهم فضلا عن كونه نسب لأخذ الرشوة وحدث فى أيامه فناء وغلاء شديدان » أهـ ٠

---

(١) عن البصخة المطبوعة حديثا ٠

القسم الثانى
مشاهير الكنيسة

(١) أولاد العسال (٢) بعض العلماء (٣) برسوم العريان

---

١ ـ أولاد العسال :

نبغ جماعة من الأقباط فى هذا الجيل فى العلوم الرياضية والدينية والشرعية فاهتموا بأمر أمتهم والفوا الكتب العديدة فى الشريعة وأصول الدين والتفسير باللغة العربية لأنها كانت اللغة التى يتكلم بها الجميع حينئذ ٠ ولكنهم خشية من ان يقضى على لغتهم الأصلية وضعوا كتبا لغوية قبطية حفظت تلك اللغة من التلاشى ٠ ومن بين أولئك الافاضل جماعة يدعون أولاد العسال من أصل قبطى ويستدل على أنهم كانوا غالبا من سدمنت بالوجه القبلى ولكنهم سكنوا مصر وبعضهم كان موظفا بالحكومة والبعض الآخر تفرغ لخدمة الله وكانت لهم منزلة رفيعة فى عهد الدولة الأيوبية الحاكمة ولا سيما أبو اسحق الذى كان مصاحبا للأيوبيين فى الشام ٠ وكان لهم مركز سام فى الكنيسة فانتخب أحدهم وهو الصفى أبو الفضائل فى عهد الخلاف الذى حصل فى أيام البطريرك كيرلس بن لقلق ليكون كاتم أسرار مجمع عقد لفض الخلاف فى توت سنة ٩٥٥ ش ٠

ويقول المرحوم الايغومانوس فيلوثاؤس أن عائلة بنى العسال تتصاعد فى النسب الى رجل قبطى أرثوذكسى يدعى أبا البشر يوحنا الكاتب المصرى ويوحنا المشار اليه ولد أبا سهل جرجس وهذا ولد أبا اسحق ابراهيم الذى منه تخلف الشيخ الأجل فخر الدولة أبو الفضائل أسعد والد هؤلاء الأفاضل ومما اعتاده بعض كتبة ذلك الحين أن يكنوا رجال هذه العائلة غالبا بأبى الفضائل وأبى الفضل وما أشبه ٠

وكان لأولاد العسال معرفة بليغة بعلوم كثيرة واشتهروا بجودة خطهم العربى والى عائلتهم ينسب الخط الأسعدى غالبا هذا فضلا عن الخط اليونانى القديم المستعمل الآن فى اللغة القبطية ٠ والذين اشتهروا منهم بالفضل والمعرفة من أولاد الشيخ أبى الفضائل الأسعد المشار اليهم هم : ـ

١ ـ الشيخ الفاضل مؤتمن الدولة أبو اسحق ٠

٢ ـ وشقيقه الفاضل الحكيم الأسعد أبو الفرج هبة الله ٠

٣ ـ وشقيقهما الشيخ الفاضل الصفى أبو الفضائل الأمجد ٠ أما مؤلفاتهم فتدل على سعة فى الاطلاع وطول باع فى البحث الدقيق ولم يتركوا بابا من ابواب العلوم الا وطرقوه فكتبوا يدافعون عن الدين ويضعون قواعد للغات وبالأخص لغتهم القبطية ويسنون القوانين والشرائع وعدا ذلك كان لهم المام بفنون أخرى كالتصوير والتركيبات الكيماوية وانشاؤهم العربى يضارع أفضل شعراء وكتاب العرب الجاهليين ٠ وهذا ما عثر عليه من مصنفاتهم : ـ

اولا ـ للمؤتمن أبى اسحق :

١ ـ مجموع أصول الدين ومسموع محصول اليقين وهو من أوسع الكتب اللاهوتية ٠

٢ ـ التبصرة المختصرة فى اللغة القبطية ٠

٣ ـ آداب الكنيسة ٠

٤ ـ خطب الأعياد السيدية وغيرها ٠

٥ ـ السلم المقفى والذهب المصفى وهو قاموس قبطى عربى ٠

٦ ـ مقدمة فى رسائل بولس ٠

ثانيا ـ للاسعد أبى الفرج هبة الله :

١ ـ مقدمة (أجرومية) فى اللغة القبطية ٠

٢ ـ مقابلة وتصحيح لترجمات الأناجيل الأربعة ٠

٣ ـ رسالة فى مقدمة رسائل بولس التى صنفها أخوه المؤتمن ٠

٤ ـ كتاب فى حساب الأبقطى وفيه بعض قواعد فلكية وتاريخية وجدول للبطاركة ٠

٥ ـ أرجوزة فى هذا الحساب شرحها البابا يوحنا البطريرك الـ ١٠٧ ٠ وقد عبثت الأيدى برسائل ومؤلفات أخرى عن الأنفس بعد مفارقتها لأجسادها ٠

ثالثا ـ للصفى أبى الفضائل :

١ ـ كتاب الصحائح فى الرد على النصائح ·

٢ ـ كتاب فى الرد على المدعين تحريف الانجيل ·

٣ ـ جامع اختصار القوانين المعروف بالمجموع الصفوى وهو الذى تعتمد عليه الكنيسة اليوم (١) ·

٤ ـ الكتاب الأوسط ·

٥ ـ فصول مختصرة فى التثليث والتوحيد ·

٦ ـ حواشى على مناظرات الشيخ عيسى الوراق مع ابن عدى وأجوبته على اعتراضات عبد الله الناشى وغيره ·

٧ ـ ارجوزة فى المواريث · وله كتاب « كفاية المبتدئين فى علم القوانين » ولكن لا أثر له ·

٢ ـ بعض العلماء :

وممن اشتهروا أيضا بالعلم والمعرفة فى ذلك العصر غير أولاد العسال ودلت مؤلفاتهم على تضلعهم فى العلوم والمعارف : ـ

أولا : جرجس بن العميد · ويعرف بابن المكين كاتب الجيش المنصورة ومن تأليفاته تاريخ مدنى فى جزئين وقد ترجم منه أخيرا الجزء الثانى الى الفرنساوية · وكتاب الحاوى ضمنه حل اعتراضات على الدين المسيحى وفسر بعض الآيات المعضلة من الانجيل وكمل تاريخ الطبرى أيضا ·

ثانيا : بطرس أبو شاكر بن الراهب · ويعرف بأبى الكرم كان شماس كنيسة المعلقة سنة ١٢٦٠م والف كتاب « الشفا فى كشف ما استتر من لاهوت المسيح وما اختفى » ومقدمة فى التثليث والتوحيد · وكتاب أبيقطى ذو مقدمة اضافية بالقبطية والعربية ·

ثالثا : شمس الرئاسة أبو البركات بن كبر · كان قسا لكنيسة المعلقة وهو عالم فاضل · الف كتاب « مصباح الظلمة وايضاح الخدمة » يتضمن جملة فوائد دينية وأدبية · وله خطب تتلى فى الكنائس ·

---

(١) اهتم بطبعه جرجس افندى فيلوثاؤس عوض وعن مقدمته استقينا هذه المعلومات ·

رابعا : القس بطرس السدمنتى . كان من علماء اللاهوت الضليعين الف كتاب « التصحيح فى آلام المسيح » وله عدة رسائل قيمة .

خامسا : علم الرئاسة بن كاتب قيصر . هو الرئيس الأوحد علم الرئاسة أبو اسحق ابراهيم ابن الشيخ الرئيس ابى الثناء ابن الشيخ صفى الدولة كاتب الأمير علم الدين قيصر . وضع هذا الشيخ الفاضل مقدمة فى قواعد نحو اللغة القبطية معروفة بكتاب « التبصرة » والف كتابا فى تفسير الرؤيا .

٣ ـ برسوم العريان :

هو ابن كاتب الملكة شجرة الدر خلف له والده ثروة عظيمة فرغب عنها واحتقرها وآثر عيشة العبادة والزهد فآوى الى مغارة بكنيسة أبى سيفين لاتزال باقية الى اليوم عن يمين الداخل الى الكنيسة من بابها البحرى وانعكف على مباشرة الفضائل كالصوم والصلاة وبلغ خبره الآذان فتقاطر اليه كثيرون وقصده المرضى وقد أجرى الرب على يديه آيات شفاء كثيرة وحدث فى أيامه اضطهاد على المسيحيين فأغلقت الكنائس وحظر الصلاة بها أما هو فلبث يصلى فى كنيسته فاستدعاه الحاكم وأمر بجلده ثم حبس ولبث فى السجن أياما حتى أطلق سراحه فاستأنف عبادته فى الكنيسة وكان يصلى الى الله أن يرفع الضيق عن شعبه فسمع صوته وزال الاضطهاد وفتحت الكنائس .

وفى آخر حياته انفرد بدير شهران بالمعصرة مواظبا على اتمام الفضائل حتى تنيح فاحتفل بدفنه البابا يوحنا الثامن ودفن بكنيسة ذلك الدير الذى دعى باسمه الى اليوم .

القسم الثالث
الأمة والكنيسة

(١) الملك العادل وابنه الملك الكامل
(٢) دولة المماليك الأولى · أيبك وابنه نور الدين
(٣) الظاهر بيبرس البندقدارى وابنه بركه خان
(٤) صلاح الدين خليل

---

١ ـ الملك العادل سنة ١٢٠٠ م وابنه الملك الكامل سنة١٢١٨م :

وفى ايام الملك العادل مات بهاء الدين الدمشقى الفقيه المذكور آنفا وحل محله آخر واستولى على البساتين التى تحيط كنيسة الأرمن المشار اليها فطلب من الأقباط مالا متابل تغاضيه عن فتحها والصلاة فيها فلما لم يجيبوه الى طلبه هجم على الكنيسة أثناء انشغال الملك العادل بالحروب مع الافرنج فى سوريا ونهبها ونهب كنيسة أخرى كانت بجانبها وطرد من بهما وأغلقهما فلم يقاومه احد من الاقباط خوفا ولكنهم رفعوا شكواهم للملك بعد رجوعه فامر بفتح الكنيستين وعدم التعرض للاقباط فى اقامة شعائرهم الدينية ·

ولما كان الملك العادل فى سوريا أسند الحكم فى مصر لأبنه الملك الكامل وكان يحب الأقباط حبا جما حتى أن الذين أسلموا ظاهريا فى أيام صلاح الدين طلبوا منه ان يصرح لهم بالعودة الى دينهم الذى لم يتركوه الا خوفا من الحريق وهو القصاص الذى تهدد به كل من لا يقبل الدين الاسلامى فأجاب طلبهم · وكان من جملة هؤلاء راهب من دير النطرون يدعى يوحنا عين بعد اسلامه كاتبا فى الديوان وحاز شهرة فى الأعمال الحسابية ولما توسم العدل فى الملك الكامل اشترى قماشا ومنديلا وذهب اليه وقال هذا لأجل كفنى اقتلنى أو ردنى الى دينى فشفق الكامل عليه ووهبه الحرية فترك وظيفته ورجع الى ديره ·

وقبطى آخر من مدينة طيبة لما سمع بنجاح هذا الراهب طلب أن يقتل أو يسمح له بالرجوع الى دينه ولكن لسوء الحظ ما كاد الملك الكامل

يجيبه الى طلبه حتى حضر أبوه الملك العادل من الحرب فغضب عليه وسخط على القبطى وسلمه الى محافظ الاسكندرية ليتولى تعذيبه حتى يسلم وأرسل وراء الراهب واستحضره من دير أبى مقار وأمر بقتله ان لم يسرع الى انكار دينه فلم يكد يسمع هذا المسكين الحكم باعدامه حتى ارتعدت فرائصه وجاهر باسلامه أمام الجنود التى استحضرته من الدير بل صار يتملق الى السلطان طلبا للنجاة من الموت وأخبره بأنه مستعد أن يرشد جنوده على كنوز وجدها الرهبان فى بئر حفروها ووجدوا بها أوانى ذهبية وفضية ونقودا رومانية وخبأوها فى الدير • فسار به الجنود الى الدير وكان الرهبان قد تمكنوا قبل وصولهم من اخفاء أوانى الكنيسة فى بئر بلا ماء وأكد رئيس الدير للجنود بأنه لا يوجد عندهم شىء مما يطلبون وأن البئر حفرها قوم مسلمون لايزالون أحياء ولكن الراهب التعيس أرشد الجنود الى تلك البئر فاستخرجوا منها كأسا وصينية وبعض الأوانى التى التى تستعمل فى تناول سر الأفخارستيا فأفهمهم الرئيس أن هذه الأوانى مهداة الى الدير من بعض المؤمنين وأروهم أسماءهم مكتوبة عليها فأخذها الجنود الى الملك العادل فأمر بقراءة الكتابة المكتوبة عليها باللغة القبطية فاتضح أنها جديدة وتوسط الملك الكامل فى الأمر فأعيدت الى الرهبان فطافوا بها فى شوارع القاهرة مادحين عدل السلطان ومسرورين سرورا عظيما •

وكانت كنيسة مار مرقس بالاسكندرية كحصن منيع جدا على البحر فخاف الملك العادل لئلا يأتى الافرنج الذين كانوا يقاتلون المسلمين فى عدة مواضع ويتغلبوا على الاسكندرية ويتحصنوا بالكنيسة المذكورة فيتعذر عليه اخراجهم منها فأمر بهدمها وكانت واسعة جدا عظيمة البناء •

وبعد موت الملك العادل استقل بالملك ابنه الملك الكامل وفى أيامه قام الصليبيون بحملتهم السادسة وتقدموا الى فتح مصر وكان ذلك متيسرا لهم لولا الانشقاق الذى دب بينهم ومنشأه القاصد الرسولى الذى أرسله أسقف رومية مع الحملة فلم يكفه ما حازه من السلطان الدينى فنازع قواد الجيش سلطانهم فأبى جان برين قائد الجيوش أن يسلم وظيفته لأحد الاكليروس واستمرا يتشادان على الرئاسة وقتا تمكن فيه المسلمون من

لم شعثهم فوقفوا فى وجه الصليبيين وانتصروا عليهم انتصارا باهرا ·
وجاء لغوث الصليبيين رجل يدعى القديس فرنسيس ومعه لفيف من الرهبان قاصدين الاستشهاد فى الحروب · وبعد انكسار الصليبيين سار فرنسيس مع رفيق له لزيارة معسكر المسلمين فقبض عليهما وجىء بهما أمام الملك الكامل فأجابه فرنسيس بأنه أتى ليهدى المصريين الى الحق وقصد بذلك المسيحيين والمسلمين سواء · وكان الملك الكامل يجهل أن الغربيين يعتبرون الأرثوذكسى والمسلم سواء · فأعجب الملك الكامل من شجاعته وبعد ذلك عرض الراهب على الملك أن يشعل نارا ويستحضر شيخا مسلما ليدخل اياه فيها ومن يخرج سليما يكون دينه الحق فرفض الملك لعلمه بأنه لايوجد واحد من مشايخ المسلمين يقبل ذلك فطلب أن يدخل وحده على شريطة ان خرج صحيحا يعتنق الملك الديانة المسيحية فرفض الملك وصرفه بلطف ·

ولما استمر الصليبيون يضايقون الملك الكامل وفرغ المال من خزائنه استولى على نصف أموال البطريركية القبطية ولما عارضه الأقباط فى تعيين داود بن لقلق بطريركا وكان قد وعده بدفع مبلغ من المال اشتد عليهم وأخذ جنوده كثيرين منهم ومن الرهبان والشمامسة وساقوهم الى الأشغال الشاقة وسخروهم فى بناء الاستحكامات والحصون التى كانت تقام فى وجه الصليبيين · وبعد ذلك أعلنوهم أنهم سيدخلونهم الجندية فاجتمع الأساقفة لدى الملك الكامل ففرض عليهم فدية معينة من المال نظير بدل عسكرى ·

وكان الأقباط ينتظرون النجاة من الحكم الاسلامى من وراء فتح الصليبيين ولكنهم لما علموا أن هؤلاء يعتبرونهم والمسلمين سواء سخطوا عليهم لا سيما عندما بلغت الأخبار بأنهم لما دخلوا دمياط أساءوا الى الأقباط وأنكروا عليهم حقوقهم الوطنية وعينوا مطرانا لدمياط من قبل كنيسة رومية اللاتينية · كما أنهم قتلوا كثيرين وأخذوا الأطفال من أحضان أمهاتهم فآثر الأقباط الهدوء والسكينة وعدم التدخل فى الأمر ·

وساءهم من الصليبيين أكثر منعهم اياهم من دخول القدس ولم يدخلوه حتى استولى صلاح الدين عليه وفى سنة ١٢٠٤ م فى أيام الملك العادل فاجأ الافرنج مصر من جهة رشيد وتقدموا الى فوه وتحصنوا فيها وكانت خاصة بالأقباط ولها أسقف مخصوص فقتلوا كثيرين وطردوا غيرهم

وسبوا البعض والبعض الآخر لم يسعه الا الهرب • أما الأسقف فانه لما وجد نفسه وحيدا تركها وذهب الى مصر واقام بها حتى ولى مطرانا على بلاد الحبشة • وفى أثناء ذلك حل بالبلاد غلاء شديد لم يسمع بمثله فأكل الناس القطط والكلاب فهجر بعض الاقباط أوطانهم وذهبوا الى بلاد الأحباش وتوطنوا بها فقوبلوا من ملكها بالترحيب واذ كان معظمهم من أرباب الفنون والصنائع أشغلهم فى اقامة المبانى الواسعة والكنائس الفخيمة التى كانت تدهش كل من رآها • وبين هؤلاء قبطى كبير يدعى فخر الدولة أناط به ملك الحبشة تنظيم مملكته وترتيب دواوين بها على الطريقة الجارية بمصر •

ولما انهزم الصليبيون ابتهج الأقباط اذ وجدوا المسلمين أكثر شفقة عليهم منهم ولما رأى الملك الكامل منهم ذلك ركن اليهم وقربهم ورفع مقامهم وعمل على مافيه راحتهم يدلك على ذلك ان بعض الأمراء قبض على بعض الرهبان وسلبهم مبلغا من المال بحجة أنهم تأخروا فى دفع الجزية السنوية • وكان هذا المبلغ هو كل ما يملكه الرهبان فشكوه للملك الكامل فنظر فى دعواهم وأمر بارجاع المال اليهم • ومن حسنات الملك الكامل أنه رفض قبول كل رشوة لأجل ترشيح داود بن لقلق بطريرك وأعفى الرهبان من الجزية الشخصية وزار بنفسه دير وادى النطرون وتفقد أحوال الرهبان وزار أيضا دير القديس مكاريوس فوجد أحد موظفى الاسلام ساكنا به فأمره بالرحيل محافظة على شعور الرهبان •

وبالجملة فقد منع الملك الكامل التعرض للاقباط فى أى شأن من شؤون دينهم وأذن لهم ببناء كنائسهم التى خربها المسلمون وأباح لهم فتح ما أغلق منها واقامة شعائرهم الدينية فيها جهارا بدون مانع ولذا تراهم يذكرون للآن فى صلواتهم اليومية هذه العبارة « وحنن الله قلوب المتولين علينا » •

ولكنه فيما بعد قام داود بن لقلق بتمثيل دوره المشهور فسقطت محبة الملك الكامل للأقباط بسببه وندم على اعفاء الرهبان من الجزية وظن أن كثيرين منهم دخلوا الرهبنة بدون حق فأمر بفرزهم من الرهبان الحقيقيين فوجد المتعصبون فرصة للايقاع بالأقباط فسلبوا الأموال من الرهبان عموما ولم يميزوا بين الحقيقى والمتصنع • ومما يذكر بالسخط لداود المشار اليه هو أنه لم يستخدم عدل الملك الكامل لاصلاح شأن أمته بل أضاع بسوء تصرفه هذه الفرصة الحسنة •

وكان المسلمون أيضا ينظرون الى الأقباط بغيظ لعلمهم أنهم والصليبيون على دين واحد . وبلغ من عنف المسلمين وغيظهم عليهم أنهم فى أثناء تقدمهم لانقاذ دمياط من يد الصليبيين صار الجنود يهدمون كل كنيسة قبطية انتقاما من النصارى عموما وقاسى الأقباط فى داخلية البلاد شدائد عظيمة .

وعلى كل حال فكانت أحوال الأقباط فى أيام الدولة الأيوبية رغم ما تخللها من صعوبات أفضل من غيرها وقام الأقباط بخدمة الحكومة بكل أمانة حتى أن الحكام والأمراء ائتمنوهم على خزائنهم وأموالهم فحافظوا عليها وسلموهم مصالحهم نسيروها على أحسن حال وتأكد الكل استحالة الاستغناء عنهم أو عدم امكان تسيير الأعمال بدونهم .

٢ ـ دولة المماليك الأولى : أيبك وابنه نور الدين سنة ١٢٥٠م :

وتولى بعد الملك الكامل جملة ملوك آخرهم المعظم الذى انتهت بموته الدولة الأيوبية وقامت مكانها دولة المماليك الأولى وكان أول ملوكها عز الدين أيبك وفى أيامه كان بين نصارى صعيد مصر الأقباط طبيب يسمى تيودور (تادرس) أسلم فى أيام الملك الكامل وخدم عند الملك الفائز ابراهيم ابن الملك العادل فنسب اليه ودعى بالأسعد شرف الدين أبى القاسم هبة الله بن صاعد الفائزى ولما آلت المملكة للملك نجم الدين الأيوبى ولاه نظارة الدواوين جميعها وبعد قليل غضب عليه فسافر الى دمشق وبقى بها حتى تولى عز الدين أيبك كرسى السلطنة فعاد الى مصر وتعلق بخدمته فولاه الدواوين وتمكن من الدولة تمكنا زائدا وكان مبدأه التظاهر بحب المسلمين وبغض النصارى فأظهر حينئذ خسة متناهية وكان سببا فى وقوع المصائب على رأس اخوانه الأقباط فضغط عليهم وضاعف الضرائب وقرر على التجار وذوى اليسار منهم أموالا يدفعونها كل سنة وفرض مكوسا سنوية على كل ما يملكون من بهائم وعبيد ومؤونة ولعظم قساوته كان يقوم هو بنفسه ليحصل الأموال منهم حتى انتقم الله منه فوشى به الى السلطان بأنه يناصر عليه أعداءه فقبض على أمواله ثم خنق ولف فى نخ ودفن .

٣ ـ الظاهر بيبرس البندقداري وابنه بركه خان سنة ١٢٦٠م :

اتفق فى أيامه حصول حريق عظيم فى القاهرة اتخذه المبغضون وسيلة للايقاع بالنصارى فتكلموا ضدهم لدى الملك بأنهم هم الذين أتوا هذا الفعل الشنيع لتكدرهم من انكسار الافرنج اخوانهم فى الدين فحمى غضب الملك وأمر بجمعهم واخراجهم خارج المدينة والقائهم فى حفرة ليحرقوا أحياء وروى المقريزى أن التهمة كانت متوجهة للنصارى ولليهود فلما أشعلوا لهم النيران برز رجل يهودى يسمى ابن الكازرونى كان صيرافيا فى أحد الدواوين وقال للسلطان بحق الله لا تحرقنا مع هؤلاء الملاعين فضحك السلطان والأمراء والمؤرخون يقررون بأن فارس الدين اقطاى رثى لحالهم فتوسل الى الملك ليعفو عنهم فقبل بشرط أن يدفعوا غرامة قدرها خمسين الف دينار · فدفع الأقباط هذا المال لأجل اصلاح الأحياء المحترقة ولكنه صرف على الحروب التى كان الظاهر قائما بها ·

وفى أيام ابنه بركة خان سنة ١٢٧٧ م كان الأقباط يتظلمون من قساوة الأحكام والمعاملة الغير العادلة · وحدث أنه تقرر رفت كل الموظفين الأقباط من ديوان الحربية واتفق أنه يوم صدور هذا الأمر سقط بناء دير الخندق فى ضواحى القاهرة فخرج خلق كثير من رعاع المسلمين ليكملوا هدمه ·

٤ ـ صلاح الدين خليل سنة ١٢٩٠ م :

تولى الملك المنصور بن قلاوون سنة ١٢٧٩ م ومع أنه عدل الضرائب وساوى فى فرضها بين المسلمين والمسيحيين الا أن هؤلاء لم يسلموا من قساوته ومن قساوة المسلمين فى أثناء تغيبه فى الحروب · وكان قد تمرد عليه المماليك فانتقم منهم انتقاما فظيعا أسخط عليه كل من سمع به فذمه على فعله فبدأ يبنى تكايا للمساكين ومستشفيات للمرضى تكفيرا عن ذنبه وقد أضاف الى هذه الحسنات تشديده على النصارى وأمره اياهم بأن لا يركبوا خيلا ولا بغلا والزمهم بأن يركبوا الحمير ويشدوا الزنانير وأن لا يحدث نصرانى مسلما وهو راكب والا يلبسوا ثيابا مصقولة وغير ذلك من أنواع الذل والهوان ·

وظلت هذه القوانين سارية عليهم حتى عقبه ابنه صلاح الدين خليل الملقب بالأشرف فبدأ يضطهدهم اضطهادا شديدا ولكنهم ثبتوا أمامه ثباتا مدهشا ولكى يعلنوا أن الاضطهاد لايقوى على زعزعة ايمانهم صاروا

يرسمون على أيديهم اشارة الصليب المقدس ومن ذلك الحين صارت هذه العادة مرعية الى الآن ·

وسبب اضطهاد صلاح الدين للأقباط هو ماتوهموه بعد موت قلاوون من أن أيام ذلهم قد انقضت فعادوا الى ركوب الخيل وتغيير الملابس لاسيما لما وجدوا ذوى الشأن من المسلمين يثقون بهم ويوكلونهم على مصالحهم فاعتمدوا على جاه مخدوميهم وغيروا مظاهرهم · واتفق أن قبطيا يسمى عين الغزال كان موظفا بوظيفة وكيل عند أحد الأمراء المماليك فذات يوم صادف وهو ذاهب الى دار مولاه سمسارا مسلما كان مطلوبا بمبلغ من النقود للأمير ثمن غلة اشتراها من شونة فطالبه الوكيل بما عليه واذ لم يكن عنده مايسدد ديونه ساقه الى بيت الأمير فرأى المسلمون فى الشوارع الوكيل القبطى راكبا وقابضا على يد المسلم الذى كان يجرى وراءه فاندهشوا عندما رأوا المسلم اسيرا فى يد القبطى والتفوا حولهما وطلبوا من القبطى أن يخلى سبيله فلم يرض فتكاثروا عليه والقوه عن جواده وأطلقوا السمسار وصاروا يصفعونه ويضربونه وكانت هذه الحادثة بقرب بيت الأمير فذهب غلامه اليه ليأتيه بمن ينجده فأسرع اليه بعبيد الأمير وتمكنوا من انقاذ الوكيل وهو فى حال سيئة مما ناله من الضرب والأذى بعد أن أوسعوا أولئك المعتدين ضربا بالعصى فصاح هؤلاء « هذا ليس فى شرع الاسلام » ثم أسرعوا بالسير نحو القلعة وكانوا كل مامروا فى طريق ينضم اليهم جماعة حتى كثر عددهم ووقفوا تحت القلعة حيث كان السلطان ونادوا بأعلى صوت قائلين « نصر الله السلطان » فلما سمع صياحهم استفهم عن الخبر فعرفوه بما جرى وزادوا القول بأن النصارى تعاظموا على المسلمين وتجبروا عليهم فأرسل السلطان الى الأمير يقول له « كيف تسمح لرجالك بأن يعاملوا المسلمين هكذا اكراما لرجل نصرانى » فاعتذر الأمير بعدم علمه بما جرى ·

وخشى السلطان سوء العاقبة من تجمهر المسلمين فغضب ولم يدبر حيلة لاطفاء نار هذه الفتنة سوى الأمر باهلاك الكتاب النصارى فأمر بجمع كبار كتاب الأمراء واحضارهم بين يديه ليقتلهم فتأثر الأمير بدرالدين وأمير آخر اسمه سنجار الشجاعى واستعطفاه وما زالا به حتى عفا عنهم بشرط أن لا يستخدم الأمراء أحدا منهم وأن يعرضوا عليهم الاسلام فمن امتنع كان هو الجانى على نفسه · فطاف المنادون فى شوارع القاهرة ومصر القديمة يعلنون بأن السلطان يأمر كل الأمراء بأن يلزموا خدمتهم

الأقبـاط باعتنـاق الاسـلام ومن يرفض تقلع رأسه فى الحـال · وسرى هذا الأمر أيضا على موظفى الحكومة ·

فما علم الأقبـاط بهـذا الأمر حتى لاذ منهم الوف بالهروب وانزووا فى الـكهوف والمغـائر فانتهز رعاع المسلمين ومن كان فى نفسه حاجة من جهة النصـارى وأسرعوا بالهجوم على منازلهم وقبضـوا على كثيرين منهم قبل أن يتمكنوا من الفرار وساقوهم الى الهـلاك بعد أن نهبوا ما فى بيوتهم ولم يبق بيت لم تمتد اليه الأيدى بالسلب والنهب وسبى عدد عظيم من النساء وقتل المسلمون بأيديهم كثيرين قبل وصـولهم الى محل القتل أمام السلطان· ولمـا شاهد ذلك الأمير بيدرا سعى لدى السلطان حتى استصدر منه أمـرا يقضى بشنق كل من ينهب بيتـا أمام البيت الـذى ينهبـه ولـكن الرعاع استمروا فى طغيانهم فقبض على كثيرين منهم وجلدوا جلدا مبرحا فـكانوا عبرة لسواهم وانقطع السلب والنهب بعد أن نهبت كل البيوت ونهبت كنيسة المعلقة وقتلوا فيها جماعة وقتل عدد عظيم من الأقباط ·

قال المقريزى « ثم جمع النـائب كثيرا من النصارى كتاب السلطان والأمراء وأوقفهم بين أيدى السلطان عن بعـد منه فرسم للشجاعى وأمير جاندار أن يأخـذا عـدة معهما وينزلا الى سوق الخليل تحت القلعة ويحفرا حفرة كبيرة ويلقيـا فيها الـكتاب الحـاضرين ويضرما عليهم الحطب نارا· فتقـدم الأمير بيـدرا وشفع فيهم فأبى أن يقبل شفاعته وقال ما أريد فى دولتى ديوانا نصرانيا · فلم يزل به حتى سمح بأن من أسلم منهم يستقر فى خدمتـه ومن امتنع ضربت عنقـه فأخرجهم الى دار النيـابة وقال لهم يا جمـاعة ما وصلت قـدرتى مع السلطان فى أمركم الا على شرط وهو أن من اختـار دينـه قتل ومن اختـار الاسـلام خلع عليه وباشر خدمتـه فابتـدره المـكين بن السقاعى أحد المستوفين وقال « ياخوند (كلمة تركية للتعظيم) وأينا قواد يختار القتل على هـذا الدين والله دين نقتل ونموت عليه يروح لا كتب الله عليه سـلامة قولوا لنـا الذى تختاروه حتى نروح عليه » فغلب بيـدرا الضحك وقال له « ويلك أنحن نختار غير دين الاسلام » فقـال « يا خوندما نعرف قولوا ونحن نتبعكم » فأحضر العدول واستسلموهم وكتب بذلك شهادات عليهم ودخل بهـا على السلطـان فألبسهم تشـاريف وخرجوا الى مجلس الوزير الصاحب شمس الدين محمد بن السلعوس فبـدأ بعض الحـاضرين بالمـكين بن السقاعى وناوله ورقة ليكتب عليها وقال له متهكما يا مولانا القـاضى أكتب على هـذه الورقة (أنك أسلمت) فقال له

« والله يا بنى ما كان لنا فى هذا القضاء خلد » فلم يزالوا فى مجلس الوزير الى العصر فجاءهم الحاجب وأخذهم الى مجلس النائب وقد جمع به القضاة فجددوا اسلامهم بحضرتهم فصار الذليل منهم باظهار الاسلام عزيزا يبدى من اذلال المسلمين والتسلط عليهم بالظلم ما كانت تمنعه نصرانيته من اظهاره وما هو الا كما كتب به بعضهم الى الأمير بيدرا النائب :

أسلم الكافرون بالسيف قهرا ... واذا ما خلوا فهم مجرمونا
سلموا من رواح مال وروح ... فهم سالمون لا مسلمونا

وبالجملة فلم ينته هذا القرن الا بمصائب عظيمة فعم الجوع والوباء بسبب قلة زيادة النيل فضلا عن الحروب والفتن والقلاقل وكان الأقباط لكل هذه الرزايا الضحية الوحيدة فكثرت عليهم الضرائب وزادت الجزية فمنهم من مات ومنهم من أسلم اما تخلصا من المغارم أو خشية أن يصيروا الى ما صار اليه من شاهدوهم من اخوانهم المسيحيين ويستولى على جميع املاكهم وربما كان البعض طمعا فى الوصول الى المراكز الرفيعة ·

القرن الرابع عشر

القسـم الأول

تاريـخ البطـاركة

(١) يوحنا ٨	(٢) يوحنا ٩
(٣) بنيـامين ٢	(٤) بطرس ٥
(٥) مرقس ٤	(٦) يوحنـا ١٠
(٧) غبريال ٤	(٨) متـاؤس ١

---

١ ـ يوحنا ٨ ـ البطريرك الثمانون :

وبعد وفاة البـابا ثيودوسيوس فى ختـام القرن الثالث عشر انعقد مجمع الأساقفـة والشعب بالدار البطريركية لانتخـاب غيره فأقـروا على تـكريس رئيس دير شهران المشهور بدير الأنبـا برسـوم العـريان وكان مولودا بالمنيـا ويعرف بيوحنـا بن قديس فقدم بطريركا فى ١٦ أمشـير سنة ١٠١٦ ش و ١٣٠٠ م فى أيام الملك الناصر ٠

وفى أيامه بلغ اضطهاد المسيحيين أشـده وضـجر الأقبـاط من كثرة العوائد المـكروهة التى الزموهم بالسير عليهـا وأرادوا أن يتخلصوا منهـا بالعنف فلمـا رأى المسلمون منهم ذلك طلبوا من محافظ القاهرة أن يسمح لهم بهـدم باقى كنائسهم كى لا يعودوا الى العصـيان مرة أخـرى فاستدعى المحافظ اليه البـابا يوحنـا وأخبره بالأمر وطلب منه أن يوصى أولاده بالخضـوع لـكل ما حل بهم أو يعرضـون ذواتهم لضـيق عظيم فـكتب فى الحـال البطريرك الى جميـع أساقفـة الأبروشـيات يحضـهم ويدعوهم الى التشديد على الشعب القبطى باتبـاع ما أمروا به وخوفا من الاضطهاد شدد عليهم وأمر أن من يخالف هذه الأوامر يحرم من الـكنيسة وأنه لابد من الرضوخ لارادة القوة الحاكمة ٠

غير أن ذلك كله لم يقنع المسلمين فطلبوا من البطريرك أن يغلق كل الـكنائس الباقية بلا تخريب ولـما أبى أن يطيعهم انهالوا عليهـا وأخـذوا يهدمونها وهو يحاول بحكمته أن يدفع هذا البلاء ولـكنه لم يفلح ٠

وهكذا قضى هـذا البـابا على الـكرسى عشرين سـنة وثلاثة شهور وعشرين يوما كانت كلها مفعمة بالأحزان وشديدة الوطأة على المسيحيين حتى أراحه الرب ونقله اليه فى ٤ بؤونة سنة ١٠٣٦ ش و ١٣٢٠ م ٠

٢ ـ يوحنا ٩ ـ البطريرك الحادى والثمانون :

وبعد وفاة البـابا يوحنا ٨ بأربعة شـهور اجتمع المجمع وأقر على انتخـاب واحد كان من جهة نفيسة بالمنوفيـة وقـدموه بطريركا فى أول بابه سنة ١٠٣٧ ش و ١٣٢١ م فى عهد الملك الناصر المذكور ودعى يوحنـا التاسع وعقب تنصيبه شب حريق بالقـاهرة واتهم باشـعال النـار بعض الرهبـان فثـار المسلمون طالبين اهـلاك المسيحيين فطلب القـاضى كريم الدين أن يحضر أمامه البـابا يوحنـا ليـدله عمن أحـدث هـذا الحريق فأحضره الجنـد فى الليل خوفا من أن تصـل اليه أيدى الشـائرين ولـما سئل عن الحريق ذرفت عينـاه الدموع وأورى أنه لا يعـرف شـيئا فأمر القـاضى باطـلاقه لمقره بكل احترام فسار به الحراس الى الدار البطريركية ولـكن جمـاعة الغـوغاء والأوباش الـذين كانوا يملأون الشـوارع كادوا يمزقونه فى الطريق لولا حذر العساكر محافظتهم عليه حتى دخل البطريركية بسلام ويظهر أن تقوى هـذا البـابا حفظتـه من الخطر فى تلك الأيام الهائلة فقضى مدة رئاسـته آمنـا يشاهـد النكبات التى تلحق شـعبه المسكين حتى انتهت حيـاته فى ٢ برموده سنة ١٠٤٣ ش و ١٣٢٨ م وكانت مدة بطريركيته ستة أعوام وخمسة شهور و٢٢ يوما ٠

٣ ـ بنيسامين ٢ ـ البطريرك الثانى والثمانون :

وبعد ثلاثة وأربعين يوما لوفاة البـابا يوحنا اسـتدعى أكابر الأمة الأساقفـة الى الدار البطريركية لاقامة بطريرك آخر فأجمعت آراؤهم على انتخـاب أحد رهبـان دير البغل بجبل طره وأصله من أهل الدمقراط فرسم بطريركا فى ١٥ بشنس سـنة ١٠٤٣ ش و ١٣٢٨ م فى أواخـر ملك الملك الناصر ودعى بنيامين الثانى ٠

وفى أيامه أعيد الـكرب على المسيحيين ولا سيما الرهبان والاكليروس فوجه اهتمامه نحو أديرة الرهبـان التى انـدثر كثير منهـا وأهمل بسبب الاضطهاد فجدد دير أنبـا بشوى الـكائن ببرية النطرون واسـتدعى اليـه بعض الرهبـان ليقيموا به ويعمروه ولبث مجاهدا حتى تمت ١١ سنة و٦

شهور ويوم واحد على جلوسه على الكرسى وتنيح فى ١١ طوبه الموافق لعيد الغطاس سنة ١٠٥٥ ش و ١٣٣٩ م واستمر كرسى البطريركية خاليا بعده عاما واحدا ٠

٤ ـ بطرس ٥ ـ البطريرك الثالث والثمانون :

وخلف البابا بنيامين البابا بطرس الذى اختاره مجمع الأساقفة والشعب الذى انعقد بالدار البطريركية وأقيم بطريركا فى ٦ طوبة سنة ١٠٥٦ ش و ١٣٤٠ م فى أواخر سنى ملك الملك الناصر ٠ وكان يدعى أولا داود وكان راهبا بدير أبى مقار ٠

وفى أيامه تقدمت شكوى من المسلمين على النصارى للسلطان الصالح بأنهم يخالفون القواعد التى أمروهم بالسير عليها فأمر السلطان باحضار البطريرك وكلفه بأن يلزم رعيته بالخضوع لأوامر الحكومة ٠ وقد شاهد هذا البابا بعينه المصائب الفادحة التى كانت تنزل بأمته التعيسة وهو صابر طالبا منه أن يرفعها عنهم حتى سمع الله صلاته وتنيح وهى آمنة مطمئنة فى ٤ أبيب سنة ١٠٦٤ ش و ١٣٤٨ م بعد أن قضى على الكرسى ثمانى سنين وستة شهور وثمانية أيام وخلا الكرسى بعده شهرين وبعض أيام ٠

٥ ـ مرقس ٤ ـ البطريرك الرابع والثمانون :

وبعد وفاة البابا بطرس انتخب الأساقفة والشعب فى مجمع البطريركية راهبا دعوه مرقس الرابع وتمت رسامته فى ١٠ توت سنة ١٠٦٥ ش و ١٣٤٩ م فى مدة تملك السلاطين شعبان وحاجى وحسن وصلاح الدين وكان يدعى أولا فرج الله من قليوب ترهب ورسم قسا بدير شهران ٠

وفى أيامه اشتد الاضطهاد على المسيحيين والقى القبض عليه وعذب عذابا شديدا فعلم ملك النوبة المسيحى بذلك فألقى القبض على كل التجار المسلمين فى مملكته ورهنهم أسرى حتى يطلق سراح البطريرك فالتزم المسلمون فى مصر أن يتركوه دون أن يضروه عند علمهم بهذا الخبر ٠

وحدث فى أيامه أيضا فناء عظيم خربت به القرى ٠ وكانت نياحته فى ٦ أمشير سنة ١٠٧٩ ش و ١٣٦٣ م وخلا الكرسى بعده ٣ شهور و ٦ أيام ٠

٦ ـ يوحنا ١٠ ـ البطريرك الخامس والثمانون :

وبعد وفاة البابا مرقس الرابع حضر الأساقفة من كل الأبروشيات الى البطريركية واجتمعوا بكبار الأمة ويظهر أن يلبغا والى مصر وقتئذ تساهل معهم فانتخبوا بطريركا جديدا بلا صعوبة أو معاكسة من المسلمين وسمى يوحنا العاشر ولقب بالمؤتمن وتمت رسامته باحتفال عظيم فى١٢ بشنس سنة ١٠٧٩ ش و ١٣٦٣ م فى زمن تملك الأشراف شعبان وأصله من دمشق ٠

ولبث على كرسى الرئاسة مدة ست سنوات وشهرين وثمانية أيام حدثت فى خلالها مجاعة عظيمة فى مصر وسوريا حملت سكان القطرين على أكل القطط والكلاب وتنيح فى ١٩ أبيب سنة ١٠٨٥ ش و ١٣٦٩ م وخلا كرسى البطريركية بعده ستة أشهر ٠

٧ ـ غبريال ٤ ـ البطريرك السادس والثمانون :

أختير بطريركا فى مجمع الأساقفة والشعب المنعقد بالبطريركية راهب من دير المحرق يدعى غبريال رسم فى ١١ طوبة سنة ١٠٨٦ ش و ١٣٧٠ م فى زمن تملك الأشرف شعبان وقد تم انتخابه بكل هدوء وسكينة وكانت مدة رئاسته ثمانى سنين وثلاثة شهور و٢١ يوما وتنيح فى ٢ بشنس سنة ١٠٩٤ ش و ١٣٧٨ م وخلا الكرسى بعده ثلاثة شهور ٠

٨ ـ متاؤس ١ ـ البطريرك السابع والثمانون :

جلس على الكرسى بعد البابا غبريال باجماع الأساقفة والشعب ومن أمره أنه من دير المحرق وشغف منذ صباه بالعيشة النسكية فترهب فى سن الرابعة عشرة بدير بقرب أخميم وصار تلميذا للشيخ ابرآم مدة أربع سنين وبعدها دعاه أسقف تلك الجهة ليكون معه ٠

وكان جميل الوجه حسن الصورة فهامت به امرأة وبذلت جهدها لتنال منه مأربها واذ كان يوما يرعى فى الحقل مواشى الأسقف خرجت وراءه وراودته ليرتكب معها خطية الزنا فاقشعر بدنه لدى سماعه طلبها وأخذ يحذرها من التمادى فى هذا الشر ويذكر لها عقاب الله الشديد للخطاة فأجابته « ان جمال حاجبيك هو الذى ساقنى اليك وأشعل بفؤادى لظى غرامك » فأسرع واستل مدية وفى ناحية بعيدة منها قطع بها حاجبيه وعاد اليها والدم يخضبهما ويسيل منها وقال « تفرسى أيتها

الشقية فى الجمال الذى سباك كيف تحول الى شناعة » فحالما شاهدت منظره ارتعدت فرائصها ولاذت بالفرار • الا أن الشيطان عاد وحركها فرجعت تضايقه فطلب من الأسقف أن يطلق سراحه فأبى ورأى أن يتخلص من هذه الورطة فتظاهر أمام الأسقف بالجنون وأخذ يمزق أثوابه حتى اضطر الأسقف أن يخلى سبيله فأتى معلمه الشيخ ابرآم وأطلعه على خبره فسر منه وشجعه على السير الى النهاية فى طريق الفضيلة وأرسل يخبر الأسقف بأمره فلما علم الأسقف أن متى استخدم الجنون لكى يهرب من الشر استدعاه اليه ورسمه كاهنا بدون اذن الشيخ ابرآم فعاتبه الشيخ على ترقيته لراهب صغير الى رتبة الكهنوتية فرد عليه الأسقف متنبئا أن متى سيصل الى رتبة رفيعة •

وبعد ذلك ترك القس متى الأسقف وتوجه الى دير الأنبا انطونيوس بالجبل الشرقى واستمر يخدم بوظيفة شماس ففاحت رائحة فضيلته ونطقت الأفواه بمدحه فخشى أن يؤثر المديح عليه فينتفخ فترك الدير ومضى الى القدس وهناك لبث يعبد الله بعيدا عن الناس مدة طويلة حتى اضطره الحال أن يعود الى مصر ويسكن دير أنطونيوس ثانية •

وبينما كان مباشرا عبادته هجم أحد الأمراء على الدير والقى القبض على الرهبان وبينهم القس متى وعذبهم عذابا شديدا وأنزلهم من الدير فأصابهم فى الطريق عطش شديد ولم يجدوا ماء الا مع الأمير الذى أبى أن يعطيهم نقطة واحدة • فجمع القس متى الرهبان وطلب منهم أن يصلوا لله حتى يفرج كربهم فلم يفرغوا من الصلاة حتى هطل الغيث وارتووا • وكان القس متى يشجع اخوته الرهبان فى الطريق ويعدهم بقرب وقت الفرج • ولما أتوا الريف طلب السلطان من الأمير أن يذهب الى معسكره فترك الرهبان ولوقتها انطلق القس متى وأقام فى الدير المحرق ولبث مواظبا فيه على العبادة حتى اختير للبطريركية فقبلها رغم ارادته ورسم فى أول مسرى سنة ١٠٩٤ش و ١٣٧٨م فى عهد تملك على بن الأشرف •

وكان أثناء بطريركيته ملازما أفعال الخير نحو الجميع فلجأ اليه الفقراء والمعوزون فكان يعمل على تنفيث كربهم حتى نزل به مكروه من راهبين طلبا منه أن يصيرهما أسقفين فرفض طلبهما اذ لم يجدهما مستحقين فتكلما ضده لدى الملك بكلام سوء فلم يسمع كلامهما لانهماكه فى الحرب • واذ لم يجدا فائدة من الشكوى هجما على البطريرك ذات

يوم وتوعـداه بالقتل ان لم يمنحهما مرغوبهما فوعدهمـا باجابة سؤلهما بعد أربعين يوما ولم تنته هذه المدة حتى أراحه منهما الرب بموتهما ٠

وحدث أيضا أن راهبـا سـوريا اعتنق الديانة الاسلامية وبذل جهده ليوقع البطريرك فى محنة فأتى كثيرون طالبين من البـابا أن يلعن هذا الرجل فأجابهم لا أستطيع أن ألعنـه لأنه لابد أن ينـال اكليل الشهادة على اسـم المسيح ٠ وبعد مدة وجيزة شعر الراهب بسقطته واعترف بالمسيح علانيـة فأورده المسلمون موارد الهلاك ٠

وبعد ذلك اتفق يلبغا الوالى مع الأميرين منطاش وسودون على ايقـاع الضرر بالبطريرك والـكنائس ولمـا شرعوا فى عملهم توجـه البـابا الى السلطان برقوق وشكى له الأمر فالزمهم بالـكف عن عملهم ٠ ولبث هـذا البابا مدة ثلاثين سنة وخمسـة شـهور وتنيح فى ٥ طوبة سنة ١١٢٥ ش و ١٤٠٩ م وخلا كرسى الرئاسة بعده أربعة أشهر وأياما ٠

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

أنبا رويس



هو الشهير بأبى فريج ولد فى احدى قرى اقليم الغربية وترك موطنه فى سن العشرين وتوجه الى الصعيد وعاش عيشة النسك والزهد فأحبه الناس ونال مركزا ساميا فى عيونهم ثم هجر الوجه القبلى وأقام بالقاهرة فقبض عليه هو وبعض المؤمنين والقوا فى السجن ونزلت بهم بلايا عديدة كان القديس فى ابانها يقوى رفقاءه على احتمالها الى أن أطلق سراحه بتداخل البطريرك فطاف أنبا رويس معلما بأقواله وأفعاله ٠ وانفرد فى آخر حياته للعبادة والصلاة وأجرى الرب على يديه آيات وعجائب حتى تنيح سنة ١٣٩٧ م وأودع جدثه بدير الخندق المعروف الآن بدير انبا رويس ٠

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) الملك الناصر بن قلاوون
(٢) الملك الصالح
(٣) الملك المنصور
(٤) دولة المماليك الثانية · برقوق

---

١ ـ الملك الناصر بن قلاوون سنة ١٢٩٩ م وركن الدين سنة ١٣٠٨ م :

فى أول ملك الناصر بن قلاوون تفشت الأمراض وفتكت بالانسان والحيوان فأفهمه قاضى الاسلام أن ذلك حدث بسبب وجود المسيحيين فى الدولة · وكان هذا القاضى ابنا لأحد المسيحيين واعتنق الاسلام فارتقى لهذا المنصب وأصبح كارها لديانته الأولى ساعيا جهده فى ارغام تابعيها على تركها فكان يوقع بهم كلما اتيحت له فرصة ·

وكان فى هذا الجيل يجبى من كل فرد من الأقباط دينار في كل سنة علاوة على الجزية المضروبة عليه برسم نفقة الجنود وغير ما كان يجبى منهم بالاشتراك مع المسلمين مما كانوا يسمونه زكاة الدولة ونفقات الاحتفال بوفاء النيل وغير ذلك· وكانت الاضطهادات التى وقعت علىهؤلاء البائسين فى أول هذا الجيل من أهول الويلات التى حلت بهم وأنزلتهم فى قعر الهوان ونالهم منها كل ذل وفقر وقلة عدد مما لا نزال نشاهد أثره للآن وقد يميل بعض المؤرخين الى اتهام الأقباط بأن ماحل بهم من الفوادح كان نتيجة تصرفهم السيء وقد ادعى المقريزى المؤرخ المسلم أن سبب هذه البلايا التى ابتلوا بها تكبر بعضهم وعتوهم فعوقبوا بلبس العمائم الزرقاء وشد الزنانير فى أوساطهم ومنعهم من ركوب الخيل والبغال ·

والحقيقة أن سبب تراكم البلايا على هؤلاء المساكين هو كثرة تذمرهم من الظلم الذى كان يقع بهم ونزوعهم الى الاعتراض على الأوامر القاسية التى كانوا يجبرون بالسير عليها حتى دفعت الحمية منهم كثيرين الى التجرؤ على مخالفة هذه الأوامر ، فلبسوا العمائم البيضاء بدل السوداء

التى حكم عليهم بلبسها وتأنق بعضهم وتجملوا بلبس الثيـــاب المصقولة وتجاسر بعض الموظفين فظهروا فى الشوارع راكبين خيولا فساء هـذا بعض المتعصبين الذين كانوا يرتاحون لاذلال النصـارى ، فصـاروا يهزأون بهم وينظرون اليهم شـذرا وغير ذلك مما جرأ العـامة على اهانتهم والاستخفاف بهم وصـاروا يفكرون فى طريقـة بهـا يلقون عليهم ذلا لا يقوون بعده على رفع أنوفهم فأقر كبارهم على هدم كل كنائس الأقباط وضرورة تنفيـذ كل ما صدر عليهم من القوانين حرفيا ٠

وحدث فى وزارة بيبرس الجاشنكير والأمير ســيلار أن قبطيا مـن موظفى الحكومة المتقدمين كان سائرا فى شوارع مصر راكبا جوادا ولابسا عمـامة بيضـاء وأمامه الخـدم وخلفه بعض المسلمين الذين لهم مآرب فى الحكومة فلاقاه وهو على هـذه الحـال وزير ملك المغـرب وكان قاصـدا الحج فأراد أن يتوسط بينـه وبين الذين خلفـه يسترحمونه ولمـا علم بأنه نصرانى هزأ بالأمر وتوجـه الى القلعـــة وخاطب الوزير بيبرس والأمير سيلار وهو يبكى مشفقا على حال المسلمين الذين أصبحوا تحت ذل النصارى ثم هددهمـا بحلول نقمة الله عليهما ان لم ينتقما من أعـداء المسلمين ، فاستدعيا بطريرك الأقبـاط وأراخنتهم وكبارهم واقنعوهم بالتزام لبس الذل وركوب الحمير ، فأصـدر البطريرك منشورا لعموم الشعب يحضهم فيـه على الخضوع لـكل قانون صدر ضدهم ٠

أما الوزير المغـربى فلم يرض بذلك بل حـرض العـامة على هـدم الـكنائس فقاومه تقى الدين القـاضى الأعظم وجاهر بأنه لا ينبغى أن تهدم الـكنائس المستحدثة فنشأ عن ذلك قفل وهـدم عـدة كنائس بنيت حديثـا بالقاهرة وحاول النصـارى أن يفتحوا كنيسة منهـا ولمـا فتحت تهيج عليهم الرعاع واشتكوهم للامراء ووقفوا فى طريق الوزير والأمير وتوسلوا اليهما أن يرحمـا الاسـلام من تجبر النصـارى الذين ينقضـون أوامر الحكومة ويفتحون الـكنائس بدون تصريح منهـا فصـدر الأمر ثانيـا بضرورة تطبيق ما صـدر من القوانين عليهم ومن خالف أمرا ينهب ماله وتقطع رأسه فطلب المسلمون من البطريرك أن يغلق مابقى من الـكنائس ولمـا رأوه رفض تنفيذ أمرهم قاموا بهدم وتخريب كل الـكنائس ٠

وبعـد ذلك عمد الحكام المسلمون ثانيـا الى رفت كل قبطى موظف بدوائر الحكومة يأبى أن يسلم ، وكان الغوغاء والرعاع يدأبون فى الاستهزاء

بهم ورجم المسارين منهم فى الشوارع بالحجارة ويتقدمون نحو من يشاهدونه راكبا حمارا صغيرا ويجذبونه الى الأرض ويضربونه بالنعال على عنقه حتى يشرف على الهلاك . ووقع ضيق عظيم خصوصا على أقباط مدينتى الاسكندرية والفيوم واشتد الأوباش فى اضطهادهم حتى لم يكن فى طاقة الحكومة مقاومتهم فتظاهر كثيرون من الأقباط بالاسلام كرها فى تغيير زيهم وخوفا من قطع عيشهم ٠

وقال المقريزى « وقد اكثر شعراء العصر فى ذكر تغيير زى أهل الذمة فقال علاء الدين على بن مظفر الوداعى : ـ

لقد الزم الكفار شاشات ذلة   تزيدهم من لعنة الله تشويشا
فقلت لهم ما البسوكم عمائما   ولكنهم قد الزموكم براطيشا

وقال شمس الدين الطيبى : ـ

تعجبوا للنصارى واليهود معا   والسامريين لما عمموا الخرقا
كأنما بات بالاصباغ منسهلا   نسر السماءفأضحىفوقهم زرقا

وحدث فى سنة ١٣٠١ م أن تمرد على السلطان أكثر مسلمى الصعيد فأرسل اليهم قوة لاخضاعهم فذبحت الألوف من الأقباط والمسلمين على السواء وفى السنة التالية حدثت زلزلة دمرت بلادا كثيرة فشعر السلطان أن ذلك كله نتيجة جوره على الأقباط المساكين ٠

وكان عيد وفاء النيل (عيد الشهيد) قد دنا واعتاد الأقباط أن يقيموا احتفالا سنويا له مدة ثلاثة أيام ابتداء من ٨ بشنس فى ناحية شبرا (١) وكانوا يعتقدون أن النيل لايفى الا اذا ألقوا فيه تابوتا من خشب فيه أصبع من أصابع الشهيد ٠ وكان عند اقتراب هذا العيد يرحل المسيحيون ويقيمون بخيامهم على شاطىء النيل ٠ فلما علم الوزير بيبرس أن النصارى عازمون على الاحتفال بهذا العيد أمر بابطاله محتجا بما يحصل فيه من الأمور المغايرة للآداب والنظام وكان ذلك سنة ١٣٠٢ م ٠

---

(١) وبالقبطية « شوبرى » وهى مركبة من كلمتين « شوب » مدينة و « رى » شمس ٠

واستمر الاضطهاد على هـذا الحـال ثلاث سـنوات حتى جاء الى مصر حينئذ وفـد من ملك بارسلونه يحمل فـدية لأسير كان قـد أسره السلطان فى حرب فلما شـاهد رجال هـذا الوفـد مايقع على رؤوس الأقبـاط من البـلاء انذهلوا وجزعوا جـدا ولم يطيقوا رؤية هـذا الجور الفظيع ودفعتهم حميتهم أن يطلبوا من السلطان فتح الكنائس مقـابل مبلغ من المـال يدفعونه له فأجابهم السلطان الى طلبهم ففتحت كنائس كثيرة وخف الاضطهاد نوعا ٠ وقال المقريزى ان السلطان لم يفتح الا كنيسـتين فقط همـا كنيستا حارة زويلة والبندقانيين ثم رجـع ومثل بالوفد تمثيلا شـنيعا ٠

وخلع الملك النـاصر بعـد ذلك وجلس على كرسى السلطنـة عوضـه بيبرس الجاشنكير ولقب بالملك المظفر ولـكن الملك النـاصر عاد فقتل بيبرس واسترد عرشـه وكان قـد تأكد أن كل ما حل به كان من جرى ظلمه للنصارى البـائسين فصـار يحميهم بكل قوته من نهب واستبداد المماليـك وتعصب مواطنيهم المسلمين ولكنـه فيما بعد لم يقو على ايقاف سيل التعصب الذى كان يملأ قلوب المسلمين على الأقبـاط فاضطر أحيانا أن يقسو على المسلمين وتارة عليهم وعلى النصـارى سـواء وأرغم أخيرا أن يسـلم فى بيـوت النصـارى وقتلهم وسلب مالهم عنـدما رأى نار الغضب والهيـاج قـد أخذت من المسلمين كل مأخذ ٠

وقـد ابتدأت ويلات الأقبـاط من هذه الحـادثة وذلك أن الملك الناصر أراد أن يبنى ميـدانا فسيحا بالجهة المعروفـة الآن بالنـاصرية وكان فى الموضع الذى اختـاره كنيسة للاقباط تسمى كنيسة الزهرى واسعة الأطراف محكمة البنـاء وكان بهـا كثير من النصـارى وحولها أيضا عدة كنائس٠ فأشـار عليه المتعصـبون بهـدمها لأنه لا يصح أن تـكون للنصـارى كنيسة ظـاهرة بهـذه الـكيفية أما هو فلم يرد أن يهـدمها بل أمر أن يحفر ماحول جدرانها حتى تنهـار من نفسـها ولـما كانت على جانب عظيم من المتـانة استمرت واقفـة ولم تسقط فاغتـاظ المسلمون ونقموا على الأقبـاط لمـا رأوا السلطان يدافع عنهم ٠

وكثرت حينئذ العمارات بالعاصمة فتواطأ المسلمون مع بعض الأمراء على هـدم الـكنائس لينتقموا من النصارى من جهة وليستخدموا أنقاضها وأدواتهـا فى العمارات التى كلفوا ببنـائها من جهة أخرى وعينوا لذلك

يوم ٢١ بشنس سنة ١٣١٢ م · وفى أحد أيام الجمع تجمع بعض الغوغاء أثناء الصلاة بالجوامع ولم يشعر الأقباط الا والهدم دائر فى كنائسهم وسلب ما بها من الأوانى والمقتنيات ورأوا كنيسة الزهرى قد امتدت اليها الأيدى فهدمتها وسلبت كل ما بها وقتلت كل من كان فيها من المسيحيين · ثم توجه الثائرون الى كنيسة مارمينا فى حى الحمراء التى كانت موضوع اعتبار الأقباط ولكثرة النذور التى كانوا يقدمونها صارت أغنى الكنائس حتى أقام حولها كثيرون من الرهبان والراهبات فتسلق الرعاع تلك المساكن وتمكنوا من هدم الكنيسة حالا ونهبوا منها مالا وقماشا وجرار خمر وأهلكوا كل من كان فيها ثم هدموا كنيستين كانتا بجوار السبع الساقيات وكانت احداهما ديرا للراهبات فأخرجوا منها أكثر من ستين راهبة ونزعوا ثيابهن وسلبوا كل ما وجدوه معهن وبعد ذلك أطلقوا النار فى بيوت النصارى القائمة حول كنيسة مارمينا وحرقوا الكنائس الثلاث ·

ولم يكفهم ذلك فقاموا الى بابيليون التى كان يسكنها اكثر الأقباط وأغنيائهم قاصدين الفتك بهم ولكن هؤلاء شعروا بهم قبل وصولهم فأغلقوا أبواب الحصن القديم وكان داخل سوره ست كنائس واستعد الأقباط للدفاع عن أنفسهم · وكانت أخبار تلك التعديات قد انتهت الى السلطان وقيل له ان لم تسرع فى انقاذ أقباط بابيليون هلكوا عن آخرهم وبلغه خبر وجود عصابة أخرى كانت تسعى الى هدم كنائس الموسكى وحارة زويلة فسار السلطان اليهم وهددهم حتى امتنعوا ومن ثم أصدر أمره للامير جامش أن يقوم حالا بفرقة من العساكر الخيالة لنجدة الأقباط الذين كانوا محاصرين فى قصر الشمع (اسم يطلقه العرب على بابيليون) فأسرع اليهم الأمير ومعه أربعة من الأمراء ثم تقدم قائد الفرقة ووصل قبل الأمير وحاول أن يمنعهم ويبدد شملهم فلم يفلح بل تناوله القوم بالحجارة وفى أثناء ذلك كان الأمير قد وصل فرآهم شارعين فى حرق البوابة الكبيرة التى لم ينجحوا فى كسرها · فهجم عليهم هجمة شديدة ففرقت جموعهم وفروا هاربين ونادى على الباقين أن يبتعدوا والا يقتلهم بالسيف فامتنعوا ثم أقسم بأعلى صوته مهددا كل من يبقى هناك بعد ساعة بالقتل فانصرف الجميع وتفرق الناس وبقى الأمير هناك الى المساء خيفة من أن يعودوا الى الهجوم وقبل أن يبرح مكانه شدد على رئيس الحرس بالمحافظة على بابيليون وترك له خمسين جنديا يساعدونه ·

وقال المقريزى « وكان الأمر فى هدم هذه الكنائس عجبا من العجب وهو أن الناس لما كانوا فى صلاة الجمعة فى ذلك اليوم بجامع قلعة الجبل قام رجل موله وهو يصيح اهدموا الكنيسة التى فى القلعة فتعجب السلطان والأمراء من قوله وحسبه الكل مجنونا ولكنهم مضوا من الجامع الى خرائب التتر من القلعة فاذا فيها كنيسة قد بنيت فهدموها » فتعجب السلطان من أمر هذا الفقير وبحث عنه فلم يجده · وحدث أيضا بالجامع الأزهر أن قام فقير وقال اهدموا كنائس الكفرة وما خرجوا من الجامع حتى رأوا النهابة ومعهم أخشاب الكنائس وثياب النصارى وغير ذلك من النهوب فاضطر السلطان عندئذ أن يرسل أيضا بعض الأمراء الى جهات أخرى فى مصر ليمنعوا الناس عن هدم الكنائس وابعادهم عنها ولكن هؤلاء لم يفعلوا كالأمير الأول بل توانوا وأبطأوا حتى اذا ماوصلوا الى تلك الجهات المقصودة وجدوا الكنائس قد هدمت عن آخرها ونهب الناس كل ما بها وهكذا لم ينج من الهدم والنهب الا كنائس بابيليون والبيوت التى بها · أما كنائس مصر والفسطاط فهدمت جميعها أو معظمها فشمل الخوف جميع الأقباط الساكنين بمصر والفسطاط فلم يجسروا على الخروج من بيوتهم وبقوا مسجونين فيها أياما وبعضهم تركها وسكن ببابيليون لتحصنها وعدم امكان التغلب عليها بسهولة · وكانت الطرق فى ذلك اليوم مريعة جدا لأنها كانت غاصة بالنهابين الحاملين منهوبات الكنائس وبيوت النصارى · وفى ذلك اليوم وتلك الساعة أرسل يخبر والى الاسكندرية أن الرعاع بعد صلاة الجمعة هجموا على أربع كنائس وهدموها وفعل مثلهم رعاع دمنهور فى البحيرة فهدموا كنيستين وفى قوص بالصعيد وقف فقير ودعا قائلا « يا فقراء اهدموا الكنائس » فخرجوا من الجامع فوجدوا الهدم قد وقع فى الكنائس فهدمت منها ست وصارت ترد الى دار السلطنة كل يوم أخبار من الأقاليم تنبىء بقيام جماعة المتعصبين فى مديريات الغربية والشرقية والبهنسا وأسوان ومنفلوط والمنيا وغيرها فى يوم الجمعة المشار اليه بالهتاف على الناس « أن اهدموا كنائس النصارى » فهدم منها ومن الأديرة عدد عظيم ·

فسخط السلطان على أمرائه وطلب منهم البحث على رؤساء العصابات وطلب الدرويش الذى دعا الى هدم الكنائس فلم يجده. وقبض الأمراء

على بعض محركى الثورة فقال هؤلاء ان ما فعلناه كان بأمر السلطان فلم تتمكن الحكومة من أن تثبت أية تهمة عليهم مع أن السلطان لم يكن قد أمر بذلك · ولما أدرك السلطان أن هذه الحادثة دبرت قبل حدوثها أراد أن يقاص مدبريها فخشى الأمراء افتضاح الأمر اذ كانت لهم يد فيها فصاروا يتواقعون على السلطان وما زالوا به حتى أقنعوه أن الله سمح بخراب كنائس النصارى بالنسبة لتعظمهم وارتكابهم الشرور التى تنهى دياناتهم عنها (١) ·

وبعد مرور شهر على هذه الحادثة شعر أهالى القاهرة فجأة بحريق هائل فى المدينة فى يوم سبت واستمرت نيرانه أسبوعا وكان الريح شديدا فخربت منازل كثيرة وظل رجال الحكومة يعملون على اطفاء النار ولكنه كان كل يوم يظهر حريق جديد حتى اضطربت البلاد اضطرابا عظيما وقام المتعصبون ينادون فى الشوارع قائلين « ان النصارى هم الذين أشعلوا النار » ·

وقد أفاض المقريزى المؤرخ المسلم فى سرد خبر هذه الحادثة وعنه استقى باقى المؤرخين الا أن روح تعصبه ظاهرة فى ما كتب فهو يروى أنه فى يوم جمعة من شهر يولية من تلك السنة قبض على راهبين وجدا خارجين من مدرسة فتحقق ظن الصائحين وسلموهما الى السلطان فأمر بتعذيبهما ولم يكد ينطق بالحكم حتى أتوه براهب آخر وجدوه فى جامع الأزهر ومعه عدة أكياس فيها نفط وقطران وبتعذيبهم اعترفوا بأنهم رهبان

---

(١) وقال المقريزى يخبر عن الكنائس التى خربت حينئذ « وخرب من الكنائس كنيسة بخرائب التتر من قلعة الجبل وكنيسه الزهرى فى الموضع الذى فيه الآن البركة الناصرية وكنيسة الحمراء وكنيسة السبع السقايات وكنيسة بحارة الروم وكنيسة بالبندقانيين وكنيستان بحارة زويلة وكنيسة بخزانة البنود وكنيسة بالخندق واربع كنائس بثغر الاسكندرية وكنيستان بدمنهور الوحش وأربع كنائس بالغربية وثلاث كنائس بالشرقية وست كنائس بالبهنساوية وبأسيوط ومنفلوط ومنية الخصيب ثمان كنائس وبقوص وأسوان احدى عشر كنيسة وبالأطفيحية كنيسة وبسوق وردان من مدينة مصر وبالمصاصة وقصر الشمع من مصر ثمان كنائس وخرب من الديارات شىء كثير واقام دير البغل ودير شهران مدة ليس فيهما احد وكانت هذه الخطوب الجليلة فى مدة يسيرة قلما يقع مثلها فى الأزمان المتطاولة ملك فيها من الأنفس وتلف فيها من الاموال وخرب من الاماكن مالا يمكن وصفه ولله عاقبة الأمور » ·

دير يعرف بدير البغل بجهة طرا وانهم أربعة عشر وقد تعاهدوا على احراق مصر والفسطاط وانتقاما من المسلمين على هدم كنائسهم وأنهم اقتسموا القاهرة ومصر فجعل للقاهرة ثمانية ولمصر ستة ٠

وفى أثناء ذلك ظهرت النار بدار القاضى كريم وهو من عائلة قبطية الأصل وأسلمت من مدة فاستدعى اليه بطريرك الأقباط واذ تأكد أنه لا يعلم شيئا عن هذه الحوادث أطلقه آمنا فسخط عليه العامة واتهموه بالكفر لأنه حامى عن الذين حرقوا بيوت المؤمنين ٠ أما القاضى فأفهم السلطان أن بعض جهلاء الأقباط هم الذين ارادوا الانتقام من المسلمين على ما ارتكبوه ضدهم من الفظائع ٠ فأمر السلطان باستمرار تعذيب الرهبان حتى يعترفوا بأسماء الأغنياء الأقباط الذين حرضوهم على هذا الفعل ولكن الرهبان استمروا يحتملون العذاب بصبر ٠ ولما لم يتحولوا عن كلامهم أرسل السلطان وهجم على دير البغل وأتى بكل من فيه من الرهبان وأمر بحرق أربعة منهم أمام ذلك الجمع المحتشد ٠ وانفجر بركان غيظ المسلمين على اثر هذه الحادثة وجالوا يبحثون عن الأقباط فى كل مكان ليوردوهم موارد العذاب دون أن يراعوا أوامر الحكومة فهجموا على بيوتهم ونهبوها وقتلوا من بها بغير رحمة ومن هرب منهم قتلوه فى الطريق ٠ وكانوا اذا عثروا بواحد منهم يسير فى الشوارع يسلبونه ماله ويذبحونه ٠ وقد أدت بهم الجرأة الى أن اجتمع منهم كثيرون تحت قصر السلطان واحتجوا عليه فى وجهه لمعاملته النصارى بالرفق ٠ فرآهم حينما كان نازلا من القلعة الى الميدان وسمعهم يصيحون « نصر الله الاسلام » ويطلبون من السلطان أن يساعدهم على نصرته فلم يهتم بهم وسار الى الميدان وقبل وصوله أخبر ان اثنين من الأقباط قبض عليهما يحرقان منزلا فاحتدم غيظا وأمر بحرقهما أحياء أمام الجموع وبينما هم يحرقونهما اذا بكاتب ديوان الأمير بكتمر الساقى قد مر يريد بيت مولاه وكان نصرانيا فعندما عاينه العامة ألقوه عن دابته الى الأرض وجردوه من جميع ما عليه من الثياب وحملوه ليلقوه فى النار فصاح بالشهادتين وأظهر الاسلام وأطلق ، واتفق حينئذ مرور القاضى كريم الدين بملابسه الرسمية فرجمه الرعاع بالحجارة وقذفوه بكلمات السباب المهينة فأراد أن يتوارى عنهم فلم يتمكن وظلوا يتبعونه حتى دخلوا خلفه ميدان السلطان الذى لما شاهد هذه الحماقة الزائدة أمر باجراء التحقيق فأخبره الأميران سيف الدين وجمال الدين بأن القوم

ثائرون ويلزم أن يسألوا عما يطلبونه والأوفق تهدئة لخواطرهم أن يأمر السلطان بطرد جميع الموظفين الأقباط من دواوين الحكومة ٠

فاستهزأ السلطان بكلامهما وطلب من قائد جيشه أن يأخذ قوة عسكرية يجول بها فى كل شوارع القاهرة مبددا شمل دعاة الفتنة وحلف برأسه انه ان لم يحضر له كل من رجم القاضى كريم الدين بالحجارة يعرض رأسه للقطع وأرسل مع القاضى اربعة أمراء كانوا يميلون سرا الى أعمال الأوباش فاخطروهم بالأمر قبل وصولهم اليهم فتفرقوا جميعهم والقى القائد القبض على بعض الشحاذين وكل من شاهده فى الشوارع فارتعب الأهالى وصاروا يطرحون بأنفسهم فى نهر النيل ٠ ولما أحضر المقبوض عليهم أمام السلطان وكان عددهم مائتى رجل أمر بالشنق على بعضهم وبالقتل على غيرهم وبقطع أيدى الباقين فبكوا بكاء مرا واقسموا انهم لم يرجموا القاضى فلم يلتفت السلطان اليهم واصر على مجازاتهم بما أمر فشنق بعضهم فى اليوم الأول وفى اليوم الثانى قطعت أيدى وأرجل ثلاثة منهم بحضرته وأمر أن يبقى المشنوقون معلقين حتى يراهم الجميع فارتعدت فرائص الأمراء وأخذتهم الشفقة ولكنهم لم يجسروا على طلب العفو منه وكان القاضى غائبا فلما حضر وشاهد جثث هؤلاء المنكودى الحظ طرح نفسه أمام السلطان واستعطفه ومازال به حتى عفى عن الباقين ٠

ولكن لم يبرح السلطان مكانه حتى وفاه خبر بأن النار علقت بجامع ابن طولون والقلعة وقبض على ثلاثة من الأقباط وقال المقريزى « انه باستنطاقهم اعترفوا جهارا انهم من العصابة التى آلت على نفسها احراق مصر والفسطاط » وسواء كان هذا الخبر صحيحا أم تذرع به المتعصبون ليشفوا غليلهم من الأقباط فان هذه الاشاعات هيجت الخواطر على أولئك المساكين ٠ ودام الحريق سبعة أيام والناس يشنعون على السلطان لأنه لم يجب طلبهم ويطرد الأقباط من الحكومة فاغتاظ السلطان وصار يقتل كل من يجده نصرانيا كان أو مسلما ٠ واشتد الهياج على الأقباط حتى اختفى هؤلاء من الموت الأحمر الذى كان يتهددهم وتحصنوا داخل بيوتهم لا يجسرون على الخروج منها لأن من كانت تدعوه الحاجة الى الخروج يقبض عليه ويقدم للمحاكمة بأنه شوهد يحرق بيتا أو جامعا ٠

وذات يوم حمل الرعاع قطعة قماش زرقاء رسم عليها صليب أبيض وجالوا يصيحون بنصرة الاسلام دون كل الأديان ورأى السلطان ان

نفوسهم مازالت متعطشة لشرب دماء الأقبـاط فخشى معـارضتهم وأرسـل منـاديا ينـادى فى النـاس ان من يجد نصرانيـا ويقـدر عليه ويقتله فله ماله فركض الأوباش يفتشون على الأقبـاط وياالهول ذلك الـكرب الذى لحق بهم فـكنت تراهم يجرون الوفا الى المـذابح والذين لم يهلـكوا منهم ميزوهم بلبس خاص فأمروهم بأن لايتزيوا بزى المسلمين وحكموا عليهم بلبس العمائم الزرقاء وبتعليق اجراس فى اعنـاقهم خوفا من أن يتـدنس مسلم بلمسهم وحرموهم من التوظف بدوائر الحكومة أو الأمراء وكان من الجائز ذبح كل قبطى يرى لابسا عمـامة بيضـاء أو راكبا فرسـا أو بغـلا • وأمروا من يريد منهم أن يركب حمـارا بأن يركبه مقلوبا • واستمر القتل والنهب مدة أسلم فيهـا جمـاعة كثيرة حتى مل الفاتكون رؤية الدماء البشرية تسيل على الأرض فـكفوا عن تتبع أثر النصارى •

ولم يطل هذا السكون بل حدث فى الليلة التالية حريق هائل انزوى بعـده الأقبـاط فى كل مخبأ رأوه صالحا لاخفائهم من أمام عيون مضطهديهم واستمروا مختبئين سنة ونصفا أغلقت فى أثنـائها كل الـكنائس • ولـكن السلطان استعمل الحكمة بأن أصـدر أمرا يمنع اضطهاد النصارى واشتغل بوضع قانون محكم يسيرون بموجبه •

وفى سنة ١٣٢٩ م لـما بدأ الاضطهاد يخف قليلا كتب ملك الحبشـة لسلطان مصر يخبره بأنه علم بما حل بنصـارى مصر وطلب منه أن يعيـد ما هـدم من الكنائس والا يهدم جميع الجوامع القائمة فى بلاده ولـمـا كان سلطان مصر واثقـا بنفسه صرف رسل ملك الحبشة بدون جواب • غير أنه لم يفتـه مصـالحة النصـارى فصرح لهم ببنـاء الـكنائس التى هـدمت بنـاء على طلبهم ذلك منـه على شرط أن لا يتوسعوا فيها أو يزيدوا عليهـا شيئا غير أن بعضها هـدم قبل تمام عمارتهـا بدعوى أنهم زادوا فى زخرفتهـا واعلاء بنـائها ومنها كنيسة الست بربارة •

ومما يدل على حطة الحال التى انتهى اليها الأقبـاط التعساء هو أنه لـما كانت الاضطهادات قـد كفت عن اليهود كان القبطى اذا أراد أن يخرج من منزله يستعير عمـامة صـفراء من أحد اليهود ليلبسها حتى يخلص من أذى العـامة • وحدث أن قبطيـا من موظفى الحكومة كان يداين رجلا يهوديا بمبلغ من المـال فلما طرد من وظيفتـه وأصبح محتاجا لمـاله توجه الى منزل اليهودى وطالبـه بما له عنـده فتظاهر اليهودى بأن القبطى كان

عازما على الفتك به فتجمهر حوله كثيرون من المسلمين قصد الايقاع بالقبطى ولكن هذا دخل الدار واحتمى بزوجة اليهودى فطلبت العفو عنه بشرط أن يتنازل عن الدين فقبل ليفوز بحياته ٠

وعلى هذه الصورة المحزنة انتهت حادثة هدم الكنائس وحادثة احراق الجوامع اللتان كانتا شؤما على الأقباط وبعض المؤرخين ينسبهما الى دسائس المماليك الذين كانوا يحسدونهم على نفوذهم فى الدواوين ٠ ومع أن السلطان منع النصارى من مزايا كثيرة عديدة الا أنه رأى تعذر الاستغناء عنهم فى انجاز مصالحه فظل قوم منهم فى وظائفهم بالحكومة ولكى يحفظوا مركزهم تفننوا فى وضع قواعد حسابية محكمة لايدريها سواهم حتى لا يمكن الاستغناء عنهم ٠

(٢) الملك الصالح سنة ١٣٥٢م ٠ وتولى المعتضد بالله سنة ١٣٥٣م :

وفى عهده حدث وباء مهلك فأتى قبطى من الأرياف الى القاهرة وطاف بشوارعها ينذر الناس بالويل ان لم يقلعوا عن شرورهم فقبض عليه وأتى به أمام قاضى الاسلام فصرح أمامه بأنه أتى ليقنع المسلمين بخطيئتهم فى ترك الديانة المسيحية وانه مستعد أن يموت شهيدا فقضى عليه بالعذاب مدة أسبوع وبعد ذلك قطعت رأسه وحرقت جثته ٠ وحدث أيضا فى احدى بلاد الأرياف أن المسلمين شكوا قبطيا لقاضى البلدة بأن جده كان مسلما فحكم القاضى بضرورة اعتناقه للدين الاسلامى ولما أبى القى فى السجن فقام الأقباط وأخرجوه منه ليلا ، فقر رأى المسلمين فى الصباح على اعدام كل قبطى ، فهرب الكثيرون منهم ولكنهم تمكنوا من القبض على عدد عظيم وعذبوهم أشد عذاب ثم هجموا على كنيستهم وسلبوها ذخائرها وبنوا بها جامعا أمام الكنيسة وبعد ذلك مضوا الى قبور الأقباط ونبشوا جثث موتاهم وأحرقوها ٠ ولما ارتبكت أحوال البلدة قدم الحاكم تقريرا الى السلطان يشكو فيه من تصرف قاضى البلدة ضد الأقباط وتبعه الأقباط بشكوى أخرى الى الأمير حسام بالقاهرة يطلبون فيها اعادة بناء كنيستهم ، فلما استقدم القاضى ليحاكم أمام حكام القاهرة وبخهم أحد المشائخ لمحاكمتهم لقاض مسلم من أجل اضطهاده للنصارى غير أن الحكام أصروا على ضرورة عزل القاضى فعزل ٠

وقد أسلم كثيرون من الأقبــاط أوانئذ منهم اثنان أحدهما يسمى موفق الدين والآخر علم الدين وكانا يكدران الحكومة بمنازعتهما المستمرة على منصب الوزارة فألغى السلطان هذا المنصب واستقل الأقباط بادارة الدواوين فصــارت لهم راحة فى أواخر ملك النــاصر وبعده قليلا ، غير أن النصارى الذين أسلموا ووصلوا الى مراكــز رفيعـــة أســاءوا معـــاملة المسلمين وشــددوا عليهم فى الأحكام فاشــتكى المسلمون منهم الى السلطان فأمــر بابعــادهم من ديوانه ودواوين الحكومة والأمراء وألا يبقى أحد ولو أسلم وألا يكرهوا على الاسلام منعـــا للانتقام لأنفسهم بواسطة اسلامهم وتوليهم الوظــائف العاليــة · واذا أسلم أحـــد منهم من تلقــاء نفسه فلا يبرح باب أحد الجوامع بل يعيش من احسان المسلمين أهل الخير ·

ويقول المؤرخون المسلمون انه اتفق أن سكرتيرا مسيحيا مر أمــام جامع الأزهر بالقــاهرة راكبا جواده ولابســا شرائط وعقــالا أبيض على رأسه وأمامه السواس يطردون الناس من أمامه ويوسعون الطريق ويمنعون الزحام ومن ورائه عـــدد كبير من العبيـــد يلبسون الحلل الثمينة ويركبون الجيــاد المطهمة فلمــا رآه المسلمون على هـــذه الأبهة اشتد غيظهم ووثبوا عليه وأنزلوه من على جواده وأخـــذوا يضربونه حتى أشرف على الموت لولا أن تمكن بعضهم من انقــاذه فتقـــدم جمع عظيم الى الأمير طاز وشكوا له تجاسر الأقبــاط على الظهور بهـــذا المظهر فاستصدر أوامر من السلطـــان تقضى باذلالهم ومنـــع كل اتصــــال لهم بدوائر الحكومة والأمراء ، وكانت نتيجـــة ذلك أن ابتـــدأ المسلمون فى التسلط على الأقبــاط فصــــاروا يهدمون مساكنهم القــائمة أمام مساكن المسلمين وصـــاروا يتعقبونهم فى الطرقات ويتعرضـــون لهم فى الشـــوارع فيمزقون لباسهم ويضربونهم بقساوة شديدة ويلقون عليهم النـــار المشتعلة حتى اضطر الأقبـــاط المساكين أن يختبئوا عن الأنظار وأصبحوا فى حال يرثى لها ولبثوا مدة طويلة لا يظهرون فى الطرق وكان يخال للرائى أنهم انقرضوا جميعا ·

ولم يكتف المسلمون بذلك بل قـــدموا طلبـــا جديدا الى الحكومة ادعوا فيـــه أن الأقبـــاط بدأوا ينهضـــون لتجـــديد كنائسهم وتوسيع مساحتهـــا وطلبوا من السلطان أن يسمح لهم باضطهادهم فأمر والى القاهرة أن يكشف دعواهم ولـــكن العـــامة أبوا الانتظـــار وشرعوا فى هدم الـــكنائس فهدموا كنيسة بجوار قنـــاطر السباع وأخرى بطريق مصر للاسرى وكنيسة الفهادين

بالجوانية ودير نهيا بالجزيرة وكنيسة بناحيـــة بولاق الدكـــرور وسلبوا كل ما كان فيهـا من الذخائر والأمتعـة ثم تقـدموا الى هـدم باقى الـكنائس وبدأوا بكنيسة البنـدقيين فلحقهم الوالى وأراد منعهم فشتموه ورفضـوا سماع كلامه وهـدموا كنيسة شبرا وأخـذوا منهـا اصـابع يد احـد الشهداء وأرسلوها للملك الصـالح فأمر بحرقهـا أمامه والقـاء رمادها فى البحر حتى لا يأخذها النصارى فبطل عيد الشهيد من ذلك العهد الى هـذا اليوم ٠

وبعد ذلك كتب الملك الصـالح الأحكام التالية فامر بعـدم استخدام النصـارى فى مصـالح الحكومة حتى اذا اعتنقـوا الاسـلام ومن اسلم لا يسمح له بالعـودة الى أهله أو رؤيتهم الا اذا أسـلموا مثله وان يلزم الجوامع لحضـور الصلوات الخمس والجمع ٠ واذا مات مسيحى يستولى المسلمون قسمة تركته على ورثتـه اذا كان له ورثة والا فهى لبيت المـال والزم بطريرك الأقبـاط بالموافقة على هذه الأوامر ٠

ولم يكد حكام الأقاليم يتسلمون هذه الأوامر حتى سمع ان الأقبـاط فى كل مكان يقبلون بكثرة على اعتنـــاق الديانة الاسـلامية وتعلم القرآن وحولت كنائسهم الى مساجد وانه قـد أسلم فى بلدة قليوب فى يوم واحد أكثر من أربع مائة وخمسين قبطيـا وقـدم حينئذ تقرير للسلطان الصـالح ووزرائه شيخون وضرغتمش وطاز بما للـكنيسة القبطية من الأملاك الموقوفة فأحيل على ديوان الأوقاف لفحصه ومعرفـة ماتضـمنه ففحصـه الديوان ووجد مقـدار الأطيـان ٢٥ الف فـدان فقرر السلطان بأن ينعم بهـا على الأمراء فاغتصبت من المسيحيين وأعطيت لهم وكان ذلك داعيا لهـدم عـدة كنائس أخرى ٠

وفى سنة ١٣٥٥ م تولى الملك النـاصر حسن وكان الأمير يلبغا الحاكم المتصرف محبا للاقباط ولكن بعض الرعاع قبضـــوا على قبطى فى ســـنة ١٣٦٩ م وعـذبوه عـذابا اليما حتى مات بحجة أنهم اشتبهوا فيه بأنه ساحر وأنه تسبب فى وفاة زوجة الملك الشاب وهى ابنة الأمير تاج الدين ٠

أما ماكان من أمر الموظفين الأقباط المطرودين فانه لم يمض زمن حتى دعت الضرورة الى اعادتهم للخدمة ٠ وفى تلك الأيام وفد على مصر سـائح انجليزى كتب يقول أن ملك مصر عرض عليه أن يسلم ويزوجه بابنته فأبى وقال أن السلطان قال له مرة أن النصارى بسبب معاصيهم خسروا مصـر

وسوريا ولو عبدوا الله حقا لما استطاع أحد أن يقهرهم وأن المسلمين يعتقدون انه يجيء زمن لما يخلص النصارى النية نحو الخالق سبحانه وتعالى يسودوا على ارض مصر كلها ٠

(٣) الملك المنصور سنة ١٣٨١ م :

انتشبت فى أيامه ثورات ضد الأقباط رغم منع الحكومة اضطهادهم وحدث أن قبطيا يدعى ميخائيل أعلن اسلامه فتهلل به المسلمون وألبسوه حلة فاخرة وأركبوه بغلا للسلطان وطافوا به المدينة بموكب عظيم ورقوه الى مركز سام فى الحكومة بعد ارتداده بثلاث سنوات ولقب بالجاحد شعبان ٠ أما عدد الأقباط فنقص كثيرا بسبب مظالم الحكام والآفات الربانية من جهة واقبال الكثيرين منهم على الاسلام اما طوعا أو كرها من جهة أخرى ٠ ولما كثر الذين أسلموا منهم أبغضهم المسلمون الأصليون لأنهم كانوا يزاحمونهم فى الوظائف الادارية العالية وهكذا لم يقدروا أن يرضوهم سواء أسلموا أو لم يسلموا وقد آثر بعضهم الموت على هذه العيشة المرة ٠

الا أن الأقباط المرتدين أظهروا حينئذ ميلا عظيما للرجوع الى ديانتهم الأصلية ٠ وفى سنة ١٣٨٩ م دخل منهم القاهرة عدد عظيم من الرجال والنساء جاءوا من الأرياف قاصدين التكفير عن ارادتهم بالاستشهاد فطافوا الشوارع يصيحون بأعلى صوت قائلين « نحن نصارى نحن نصارى » ولما سئلوا عن سبب ذلك أجابوا اننا تركنا ديانة الأنبياء الكذبة ورجعنا الى ديننا الحقيقى الذى لم نتركه الا خوفا من الاضطهاد٠ فتألب حولهم المسلمون ونصحوهم بالعودة للاسلام ولكنهم رفضوا بجسارة كلية فحاول المسلمون ارهابهم ليرتدوا وساقوا كثيرين من الرجال الى ميدان أمام مدرسة الملك الصالح وهناك بدأوا يحزون رؤوسهم الواحد بعد الآخر ٠فلم يتزعزع واحد منهم وقبض على بعض النساء ولكنهن تمسكن بايمانهن دون أن يجزعن فجردوهن من ثيابهن وجروهن الى سفح الجبل تحت القلعة وقطعت أعناقهن بقساوة زائدة حتى أن بعض المسلمين استفظعوا هذا الحكم ونقموا على القاضى الذى حكم به ٠ وشوهد بعد ذلك راهب يعظ ضد الدين الاسلامى وأمامه رجل وثلاث نساء يشجعونه على الاستشهاد فقبض على الخمسة وقطعت رؤوسهم وأحرقت أجسادهم ٠

وكان باقيا من عائلة زنبورة الشهيرة التى تقدم ذكرها رجلا كان أسلم وسمى بعلم الدين حصلت بينه وبين أحد الأمراء منافسة فكلف

بعض أتباعه أن يشهدوا عليه زورا بأنه يدعى الاسلام وهو لا يزال باقيا على نصرانيته وزوجته باقية على تلك الديانة ومع ذلك لم يتركها أن يكرهها على الاسلام فأفتى العلماء بحرقه فقبض عليه وأتى بزوجته وابنه وصاروا يضربونهما بالسياط حتى ماتا أمامه ثم عذبوه عذابا شديدا حتى مات فاستولى العامة على ثروته ٠

٤ ـ دولة المماليك الثانية : برقوق سنة ١٣٨٢ م :

وحدث فى أيامه أن أميرا مسلما تعهد بهدم كنيسة للاقباط كانوا يشتغلون فيها خمر الأباركة ٠ فنهب منها الف جرة من الخمر المذكور وأمر بكسرها أمام باب زويلة فى الميدان الذى تحت القلعة ٠ واقترح المجلس الأعلى على برقوق أن يضطهد الأقباط ولكنه رفض بل أمر أن يقتل رجل اعتنق الديانة الاسلامية ٠

القرن الخامس عشر

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) غبريال ٥	(٤) غبريال ٦
(٢) يوحنا ١١	(٥) ميخائيل ٤
(٣) متى ٢	(٦) يوحنا ١٢

---

١ - غبريال ٥ - البطريرك الثامن والثمانون :

فى أول هذا القرن اجتمع الآباء والشعب بالدار البطريركية لانتخاب بطريرك جديد فاختاروا الراهب غبريال من دير القلمون بالجيزة وأقيم بطريركا فى ٢٦ برموده سنة ١١٢٥ ش و١٤٠٩ م فى عهد تملك السلطان الناصر فرج بن برقوق وكان هذا البابا قبل أن يترهب كاتبا فى الحكومة وفى مدة رئاسته فرغت خزينة البطريركية فكان يعتمد فى الحصول على قوته الضرورى على احسان أولاده وكانت الكنيسة الحبشية ترسل اعانة للكنيسة المصرية فقطعتها فى عهد البابا غبريال ٠

وكان اذا أراد أن ينتقل من مكان الى آخر يسير على قدميه ٠ وفى سنة ١٤١٨ م دعاه مجلس الحكومة فلما مثل أمامه هدده بالموت اذا لم يمنع الأحباش الذين تحت سلطته من مضايقة التجار المسلمين النازلين فى بلادهم فوعدهم بالكتابة الى ملكهم ليمنعهم ولم يؤخره الاضطهاد الشديد الذى كان محيطا به عن القيام بواجباته فوضع كتابا فى الطقوس الكنسية واشتغل بهمة فى اصلاح ما أفسدته يد الاضطهاد واستمر فى الرئاسة ثمانى عشرة سنة وثمانية أشهر واثنى عشر يوما وتنيح فى ٨ طوبة سنة ١١٤٤ ش و١٤٢٨ م وخلا كرسى الرئاسة بعده أربعة أشهر وأياما ٠

٢ - يوحنا ١١ - البطريرك التاسع والثمانون :

وفى المدة التى خلا فيها الكرسى بعد البابا غبريال كان يسوس فيها ادارة الكنيسة راهب من دير طره يدعى ميخائيل وكان لهذا الراهب

حزب كبير يؤيد لنوال البطريركية ولكن عناية الله دبرت أن يقر مجمع الأساقفة والشعب على انتخاب من يدعى أبا الفرج من القاهرة وكان مشهورا بالفضيلة والعلم ويقوم بالتدريس فى مدرسة قبطية عظيمة (بالمكس) .

فأقيم أبو الفرج بطريركا ودعى يوحنا ال ١١ فى ١٦ بشنس سنة ١١٤٤ش و١٤٢٨ م فى عهد تملك الملك الأشرف ابى النصر برس باى واستمر قائما بوظيفته بأمانة نحو ٢٤ سنة و١١ شهرا و٢٨ يوما وتوفى فى ٩ بشنس سنة ١١٦٨ ش و١٤٥٣ م وخلا كرسى الرئاسة بعده أربعة أشهر وأياما .

وفى أيام هذا البابا اجتهد ملوك الافرنج وعلى رأسهم ملك القسطنطينية فى مقاومة المسلمين ورأوا ان ذلك لا يتأتى الا بزوال الخلاف الدينى وايجاد الاتحاد بين مسيحى الشرق والغرب . فبعد تفكر طويل استقر الرأى على عقد مجمع لهذا الغرض بمدينة فلورنسا من أعمال ايطاليا يحضره أسقف رومية بطريرك القسطنطينية وغيرهما من نواب الشعب الأرثوذكسى . وكانت الكنيسة القبطية أيضا قد أرسلت نائبا من قبلها لحضور ذلك المجمع يدعى يوحنا وهو رئيس دير أنطونيوس ولكنه وصل الى فلورنسا متأخرا عقب انفضاض المجمع وكانت نتيجة انعقاده عودة اتحاد كنيستى اليونان والرومان وقام رؤساء الكنائس الى بلادهم على نية الاجتماع مرة أخرى . واذ لم ير الأب يوحنا بدا من العودة الى مصر تحصل على قرار من المجمع بقبول الكنيسة القبطية ضمن ذلك الاتحاد العظيم فى جلسته القادمة ولكن ذلك الاتحاد الذى كان يسعى اليه ملوك الافرنج وملك القسطنطينية لم يتم بسبب تجاوز أسقف رومية حدود الاعتدال فى طلباته .

ويدعى المؤرخون الكاثوليك بناء على ذلك أن الكنيسة القبطية خضعت لأسقف رومية حينا من الزمن وانه كان المقصود من ذلك المجمع اعادتها الى الخضوع لسلطانه مرة أخرى وفى ذلك قالت المؤرخة الانجليزية مدام بوتشر : « ولكنى أقول انها لو كانت خاضعة له من قبل كما يقولون لما كان يعين بطريركا خاصا له فى أبروشية الاسكندرية ذاتها التى فيها البطريرك القبطى مما يثبت صحة الانفصال وعدم الخضوع . ومع ذلك فانه لم يكن الغرض من قبول الكنيستين اليونانية والقبطية بالدخول فى مجمع فلورنسا الخضوع للبابا بل مجرد المصالحة والمسامحة

بين الكنائس الشرقية والغربية ولم يحبط ذلك السعى الا لما رأى رجال الكنيسة اليونانية والكنيسة القبطية ادعاءات بابا رومية الغربية وطلبه السلطة العليا لنفسه فكان هذا سبب رفض اليونان والأقباط شروط ذلك المجمع وانكارها لما عرضت عليهم وأدركوا سوء القصد من ذلك الاتحاد » أهـ ٠

٣ - متاؤس ٢ - البطريرك التسعون :

بعد وفاة البابا يوحنا وافق مجمع الأساقفة والشعب على تكريس متاؤس أحد رهبان الدير المحرق وأقيم بطريركا فى ١٣ توت سنة ١١٦٩ش و١٤٥٣ م فى عهد تملك الظاهر ٠ واستمر فى البطريركية نحو ثلاث عشرة سنة وتوفى فى ١٣ توت سنة ١١٨٢ ش و١٤٦٦ م وخلا الكرسى بعده أربعة أشهر وأياما ٠

٤ - غبريال ٦ - البطريرك الحادى والتسعون :

بعد وفاة البابا متاؤس الثانى أختير للبطريركية الأنبا غبريال السادس وهو من الغربية قدم بطريركا فى ١٥ أمشير سنة ١١٨٢ ش و١٤٦٦ م فى عهد تملك الملك الظاهر خوش قدم الناصرى واستمر فى البطريركية ثمان سنوات وعشرة أشهر وبعض أيام وتوفى فى ١٩ كيهك سنة ١١٩١ ش و١٤٧٥ م وخلا الكرسى البطريركى بعده سنتين ونحو الشهرين ٠

٥ - ميخائيل ٤ - البطريرك الثانى والتسعون :

وقد خلف البابا غبريال السادس البابا ميخائيل الرابع وهو من سمالوط وقيل سنباط أقيم بطريركا فى ١٣ أمشير سنة ١١٩٣ ش و١٤٧٧ م فى عهد تملك الأشرف أبى النصر فايت باى الظاهرى المحمودى وأقام فى البطريركية سنة واحدة وثلاثة أيام وتوفى فى ١٦ أمشير سنة ١١٩٤ ش و١٤٧٨ م وخلا بعده كرسى الرئاسة سنتين وشهرين وسبعة أيام ٠

٦ - يوحنا ١٢ - البطريرك الثالث والتسعون :

وكرس بطريركا بعد البابا ميخائيل يوحنا الثانى عشر وهو من نقاده أقيم بطريركا فى ٢٣ برموده سنة ١١٩٦ ش و١٤٨٠ م فى عهد الملك الأشرف فايت باى وأقام فى البطريركية ثلاث سنوات وأربعة أشهر وأياما وتوفى فى ٧ توت سنة ١٢٠٠ ش و١٤٨٤ م وخلا كرسى الرئاسة بعده خمسة أشهر ٠

القسم الثانى
المملكة والكنيسة

(١) الملك العادل   (٢) المحمودى
(٣) الأشرف برس باى   (٤) المستنجد

---

١ - الملك العادل سنة ١٤١٢ م :

وفى أيامه شرع المسلمون فى تدبير طريقة بها يلاشون الأقباط عن بكرة أبيهم فاهتموا بمعرفة اسمائهم وعددهم ومقدار ثروتهم وفرض السلطان ضريبة على جميع الأقباط وانشأ لهذا مكتبا ليقيد فيه أسماء مواليدهم ووفياتهم فقسموا الى ثلاث طبقات · طبقة الأغنياء وقرروا عليهم ضريبة أربعة دنانير عن كل نفس · وطبقة المتوسطين يدفع كل واحد دينارين وطبقة الفقراء دينارا واحدا · ومع أن هذا السلطان كان يمقت الأقباط كأسلافه الا أنه ميلا للسلام ضغط على المعتدين وأمر بانصاف المظلومين فسخط عليه العامة ·

٢ - المحمودى سنة ١٤١٢ م:

وفى عهده صرح للمماليك باضطهاد الأقباط فاغتصب منهم قائد الحرب مبلغا عظيما من المال وفرض ضريبة باهظة على الخمر الذى كان يتاجر فيه كثيرون من الأقباط ببابيليون · وأمر القائد جنوده بالهجوم على بابيليون بحجة اتلاف ما فيها من الخمر فهجموا على الأقباط واستمروا يوقعون بهم ولم يكفوا حتى استرضاهم الأقباط بمبلغ وافر من المال ·

وفى سنة ١٤١٨ م صدر أمر برفت كل الأقباط الذين تمكنوا من التوظف فى الحكومة وبدأوا بقبطى كان سكرتيرا للوزير الأول فأمر السلطان بحبسه وتعذيبه فعروه من ثيابه وجروه فى شوارع القاهرة وأمامه موظف مسلم ينادى قائلا « هكذا يفعل بكل موظف قبطى » فأسلم من الموظفين كثيرون واختفى باقيهم فى منازلهم ولكنهم أسلموا فيما بعد لشدة الضيق · وقيل أن كثيرين منهم أسلموا على زعم أنهم يتمكنون بعد الاسلام من الانتقام من معذبيهم ·

٣ - الأشرف برس باى سنة ١٤٢٢ م :

اكتشفت فى أيامه مؤامرة سرية بين ملك الحبشة والصليبيين الغرض منها محو الديانة الاسلامية ٠

٤ - المستنجد سنة ١٤٥٣ م :

وفى أيام المستنجد أوقد المماليك النيران فى الأحياء المسيحية فى القاهرة وباقى المدن المصرية وواصلوا النهب والسلب فأرسل ملك الحبشة سفيرا من قبله فى زمن الملك المنصور يوصيه خيرا بالأقباط الذين كانوا واقعين حينئذ تحت الاضطهاد ٠ وفى أيام خوش قدم سنة ١٤٦١ م هجم المماليك على الأقباط فى مصر القديمة ونهبوا منهم كل ما وصلت اليه أيديهم وفى أيام فايت باى سنة ١٤٦٧م لم تصدر الحكومة قرارا باضطهادهم ولكن الرعاع لم يكفوا عن التحرش بهم رجاء نهبهم وسلبهم ٠ واستخدم كثيرون من الأقباط فى اقامة المبانى التى شيدت فى أيام فايت باى ٠

وفى سنة ١٤٨٤ م هجم عرب الوجه القبلى على ديرى أنطونيوس وبولا وقتلوا جميع من فيهما من الرهبان وبقيا خرابا نحو ثمانين سنة وكان فيهما مكتبتان عظيمتان تحتويان على عدد عظيم من الكتب القديمة الثمينة فجمعوها وأحرقوها عن آخرها ولم يبق فيهما الا ماخفى عن عيونهم ٠

القرن السادس عشر

القسم الأول
تاريخ البطاركة

(١) يوحنا ١٣	(٢) غبريال ٧
(٣) يوحنا ١٤	(٤) غبريال ٨

١ ـ يوحنا ١٣ ـ البطريرك الرابع والتسعون :

استحق نوال هذه الوظيفة السامية لأنه كان محسنا على الجميع بدون استثناء وأصله من بلدة صدفا بمديرية أسيوط واقيم بطريركا فى ١٥ أمشير سنة ١٢٠٠ ش و ١٤٨٤ م فى عهد الملك الأشرف ٠

وكانت العلاقات بين الكنيسة الحبشية وأمها الكنيسة القبطية فى ذلك الحين فاترة بسبب تتابع اغارات ملوك مصر على بلاد الحبش ٠ فسعى داود ملك الحبشة وعقد محالفة مع البرتوغاليين لينتصر بهم على ملوك مصر المسلمين فنزح كثيرون من البرتوغاليين الى بلاد الحبش ولما رأوا هذه المملكة بدون رئيس دينى حرضوا ملكها على قبول مطران على الحبشة من البرتوغاليين المقيمين فى بلاده وفعلا طلبوا منه أن يطلب من أسقف رومية أن يكرس له مطرانا وكان الاختيار قد وقع على رجل برتوغالى ببلاد الحبش يدعى يوآس برمودز فسافر الى رومية فرسمه أسقفها مطرانا على الحبشة وسماه بطريرك الاسكندرية ٠ فعد القبط والروم هذا تعديا من أسقف رومية وأنكروا عليه الحق فى ذلك وأبوا معرفة الشخص الذى عينه بأية صفة ٠ ومن تصرف أسقف رومية هذا يتضح كذب مؤرخى الكاثوليك الذين يدعون أن الكنيسة القبطية فى ذلك الوقت كانت خاضعة لكنيستهم اذ لو كان ذلك صحيحا لما كان هناك موجب لتسمية بطريرك غير بطريركها القبطى أو كان يجب على أسقف رومية عزله قبل تعيين سواه ٠

أما البابا يوحنا فاستمر على الكرسى البطريركى مجاهدا فى سبيل رفع مقام كنيسته مدة أربعين سنة الا أربعة أيام اتم فيها اصلاحات

شتى ووضع مؤلفات كثيرة فى الدين المسيحى ثم توفى فى ١١ أمشير سنة ١٢٤٠ ش ١٥٢٤ م واستمر كرسى الرئاسة خاليا بعده سنة وثمانية أشهر ٠

٢ ـ غبريال ٧ ـ البطريرك الخامس والتسعون :

كان يدعى أولا روفائيل وهو من منشاة الدير المحرق وترهب بدير السريان ببرية شيهات وأقيم بطريركا فى ٤ بابه سنة ١٢٤٢ ش و١٥٢٦م فى عهد السلطان سليمان وكان له اهتمام زائد فى عمارة الأديرة فعمر ديرى القديس أنطونيوس والقديس بولا بعد دمارهما ببرية العربة بالجبل شرقى النيل باقليم بنى سويف والبهنسا وعمر أيضا دير المحرق بالوجه القبلى ٠ ولما قام عرب بنى عطية ونهبوا دير القديس بولا واخربوه وقتلوا راهبا من رهبانه وشتتوا شمل الباقين اجتهد واهتم فى عمارته ثانيا وعمره بالرهبان ٠

وكان البابا غبريال مهيبا ذا نفوذ لدى أمته وفى أواخر حياته طالبه السلطان سليم بما لا يقدر عليه من الغرامة فرحل قاصدا الأديرة ببرية العربة وبينما هو عابر النهر من جهة الميمون أدركته المنية فتوفى فى ٢٩ بابه سنة ١٢٨٥ ش و ١٥٧٠ م بعد وفاته لم يوجد شىء من المال مخلفا عنه لأنه صرف ايراداته بأسرها فى منافع الأمة ٠ وكانت مدة رئاسته ٤٣ سنة وخلا كرسى البطريركية بعده خمس سنوات ونحو ستة أشهر ٠

وفى أيام هذا البابا مات ملك الحبش وتولى مكانه ولده المسمى اقلاديوس فسار على خطة أبيه مسالما البرتوغاليين ومحترما لبرمودز البطريرك الرومانى ولما أنكرت القوات الاسلامية التى كانت تهدد بلاده رفض الاعتراف بسيادة أسقف رومية وأوقف برمودز عند حده وأعلنه أنه اذا أراد البقاء فى بلاد الحبش فلا يعتبر نفسه أكثر من ضيف واجب اكرامه لأنه لا يريد أن يكون خاضعا لغير بطريرك الأقباط ٠ ثم أرسل وفدا الى البابا غبريال يلتمس منه أن يرسل له مطرانا جديدا ويعلن له أنه هو رئيسه الروحى الوحيد فرسم له البطريرك كاهنا يدعى يوسف وشيعه اليه فقابله الملك ورعيته باكرام زائد وانشراح خاطر وهكذا عادت العلائق بين الأقباط والحبش الى ما كانت عليه قبلا بعد أن تعطلت نحو ثمانين سنة ٠

أما المطران اللاتينى فلما رأى استحالة ضم الكنيسة الحبشية الى الكنيسة الرومانية عاد الى بلاده وأوقف أسقف رومية على الخبر فاستاء اغناطيوس أحد رؤساء الرهبنة فى رومية من هذا الخذلان المعيب وتوسل الى أسقفه أن يرسله الى الحبشة فخشى أن يقتل وأرسل عوضه رجلا يدعى نونوباريتو وكاهنين آخرين فسار الثلاثة الى جوا فأقام بها باريتو واستمر الكاهنان فى سفرهما حتى وصلا بلاد الحبش فقابلهما اقلاديوس بكل لطف وأفهمهما أنه يرفض قطعيا الاعتراف بسلطة أسقف رومية على شعبه وأنه لا يخضع الا لكرسى مار مرقس الانجيلى والرسول· ولزيادة لطفه سمح لهما بالاقامة فى بلاده وهو واثق من ثبات شعبه على أرثوذكسيتهم الى أن خلفه على العرش أخوه مينا فأظهر الاستياء للكاهنين وسخط عليهما حتى أصبحا منفردين لا يكلمهما أحد · فاغتاظا منه وأغريا أحد كبار الجيش على اتباع مذهبهما ثم حسنا له عقد محالفة مع المسلمين ضد ملكه ·

واذ شعر مينا بالأمر أسرع فى تأديب هؤلاء العصاة ووصل الخبر لأسقف رومية بفشل ارساليته الثانية لبلاد الحبش فأرسل رسلا الى البابا غبريال يطلب منه انضمام الكنيسة القبطية للكنيسة اللاتينية فقابلهم البطريرك بكل لطف وأعلمهم بكل تأدب انه لا ينحرف قيد شعرة عن التمسك بعقائد كنيسته المقدسة فالتمس منه رسل أسقف رومية بما له من النفوذ على بلاد الحبش أن يطلب من ملكها أن لا يمس الكاهنين الرومانيين بسوء فسمح لهما الملك بالاقامة فى بلاده اكراما لخاطر البطريرك ولكنهما لما لم يحسنا سيرهما واشتهرت رداءتهما سخط عليهما الأحباش وكادوا يقتلونهما فقدما تقريرا للاسقف الرومانى يقولان فيه « ان الحبشة لا ترتد عن ايمانها الا بقوة السيف » فاستدعاهما الأسقف اليه وبذا تم خذلان الأسقف الرومانى فى جذب الحبش اليه ·

٣ _ يوحنا ١٤ _ البطريرك السادس والتسعون :

أقيم خلفا للبابا غبريال فى ٢٢ برموده سنة ١٢٩٠ ش و١٥٧٤ م فى عهد سلطنة مراد الأول · وهو من منفلوط وكان راهبا بدير العذراء المعروف بالبرموس ببرية النطرون · وكان من أمره أن الدولة كلفته بجمع الجزية من المسيحيين فطاف بلاد مصر القبلية وجمعها وأداها للحكومة· ومن المضايقات التى كان يتقصده بها الوزراء رحل مرة ثانية الى

الصعيد وثالثة وأخيرا الى الاسكندرية ولما سكن الاضطراب عاد منها الى السنمارية وبها ضعف وتوفى فى ٣ من نسىء سنة ١٣٠٥ ش و١٥٨٩ م بعد أن استمر فى البطريركية خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وأياما وخلا الكرسى بعده أربعة أشهر ٠

وحدث فى أيامه أمر يدل على أن أسقف رومية لم يكتف بالخذلان الذى أصابه فى بلاد الحبشة ولم يثنه ذلك عن عزمه فى ضم أقباط مصر اليه ولما رأى أنهم يقاسون من المسلمين العذاب أشكالا والوانا ولاسيما منذ خضعت مصر للملوك العثمانيين فان الولاة كانوا يفضلون الروم عليهم اتخذ ذلك فرصة مناسبة لاخضاعهم لرئاسته وجعلهم تحت حمايته فأرسل الأسقف الرومانى وكان حينئذ غريغوريوس ال ١٣ بعض رجاله الى مصر فاجتمعوا بالبابا يوحنا وكان شيخا متواضعا محبا للسلام فما زالوا به حتى أقنعوه أنه اذا خضع لكنيسة رومية بشروط سهلة يضمن بذلك حماية الأقباط ويأمن غائلة الاضطهادات الاسلامية أما هو فيبقى بطريركا على جميع الأمة كما هو بدون نقص شىء من كرامته أو سلطته٠ وأشاروا عليه أن يدعو جميع الأساقفة ليقصوا عليهم الأمر ويعرضوا عليهم طلبات أسقفهم ويشرحوا لهم الغرض منها ٠

فدعا البابا يوحنا الأساقفة وأخبرهم بما يميل اليه أسقف رومية من الاتحاد معه فأظهروا ارتياحهم الى الاتحاد بين الطوائف ولكن لما انعقد المجمع وسمع الأساقفة آراء نواب أسقف رومية هاجوا وعارضوا معارضة شديدة كما رفضوا اقتراحات أسقف رومية رفضا باتا واشتد النزاع وقويت المعارضة وصرخ الأساقفة قائلين « ان موافقتنا على طلبات أسقف رومية تضر فى المستقبل باستقلال الأمة الدينى الذى اشتراه آباؤنا بسفك دمائهم » ٠

ولكن يظهر أن البطريرك لشيخوخته وبساطته وسلامة نيته وميله لحماية أولاده من اضطهاد المسلمين أظهر ميله للاتفاق ولكن الأساقفة عارضوه بشدة ولما لم تتفق الآراء على شىء انفضت الجلسة على نية الاجتماع ثانيا ٠ ولكن اتفق أن البطريرك توفى فى تلك الليلة فأحبط المسعى وذهبت كل الأتعاب سدى والمؤرخون الكاثوليك يقولون أن البطريرك مات مسموما والمؤرخون الافرنج ينفون ذلك ٠ أما رسل أسقف رومية فألقى والى مصر القبض عليهم كعيون غرباء واتهمهم بالقاء دسائس الفتنة بين

الرعايا والقاهم فى الحبس فرق لهم بعض كبار الاقباط ودفعوا خمسة آلاف قطعة من الذهب مقابل اطلاق سراحهم ليعودوا الى بلادهم فشكرهم أسقف رومية وهو سكستوس الخامس الذى خلف غريغوريوس ال ١٣ على فعلهم ورد لهم المال ٠

٤ - غبريال ٨ - البطريرك السابع والتسعون :

انتخب بطريركا خلفا للبابا يوحنا وهو من منبير وكان يدعى أولا شنوده وهو راهب من دير القديس بشوى وكرس بطريركا فى ١٦ بؤونة سنة ١٣٠٦ ش و١٥٩٠ م فى عهد سلطنة مراد بن سليم وفى أيامه ذاق المسيحيون طعم الراحة لشدة حاجة المسلمين فى أشغالهم الى مهارتهم الكتابية واستقر هذا البابا على كرسى البطريركية مدة ١١ سنة وتوفى فى ٩ بشنس سنة ١٣١٨ ش و١٦٠١ م ٠

وفى عهده جدد أسقف رومية مساعيه ليحمل الكنيسة القبطية على الاعتراف بسيادته عليها فأظهر فى مخابراته للبابا غبريال الثامن كل التساهل والتودد الا أنه لم ينجح بالمرة لأن مساعيه لم تكن صادرة عن غيرة دينية صحيحة بل عن ميل الى حب الاستئثار والادعاء بالسلطة الأمر الذى فضلا عن مخالفته لأوامر السيد المسيح الصريحة فقد جر كل الويل على المسيحيين فى كل العصور ٠ ويقول بارونيوس المؤرخ الرومانى أن البابا غبريال أظهر ميلا للخضوع لسلطة كنيسة رومية نظير سلفه البابا يوحنا وأن الاتفاق والاتحاد المذكور قبلته الكنيسة القبطية فى يناير سنة ١٥٩٥ م وهذا القول بعيد عن الصحة بعد السماء عن الأرض ٠ لأن أسقف رومية وهو اكليمنضس الثانى لما طلب من البابا غبريال الخضوع لسلطته رد عليه برقة اعتادها باباوات الكنيسة المصرية فخالها أسقف رومية رضى واستكانة ٠

القسم الثـــانى

المملــكة والــكنيسة

الحالة بوجه عام فى زمن احتلال المملــكة العثمانية

احتل يسلم بن بيازيد سلطان الدولة العثمانية مصر فى سنة ١٥١٧م فسار على منوال الملوك الفاتحين من الجور والظلم ولم يغب الأقبــاط عن ذاكرة أى فاتح لمصر ليتركهم يتــذوقون طعم الراحة قليلا بل كانوا دائما فى طليعــة المنكوبين واهتم بأمرهم السلطان بيازيد فاضطهدهم بشدة ومع أن السنين التى سلفت كان الأقبــاط فيهــا يشعرون بالراحة نوعا الا أنه لمــا بدأ هذا السلطان باضطهادهم تحرك عليهم المسلمون قاصدين اضطهادهم ٠ غير أن أصحاب الحرف والأعمــال منهم كانوا معافين من الاضطهاد لمعرفة المسلمين باحتيــــاجهم اليهم ولهـــذا كانوا يحببون اليهم الاســلام لتروج صناعتهم أكثر فاعتنق فى أثنـــاء الفتح العثمــانى كثيرون من الصـــناع المسيحيين الديانة الاسلامية ٠

القســم الأول
تاريخ البطــاركة

(١) مرقس ٥ (٢) يوحنــا ١٥
(٣) متــاؤس ٣ (٤) مرقس ٦
(٥) متاؤس ٤ (٦) يوحنــا ١٦

١ ـ مرقس ٥ ـ البطريرك الثامن والتسعون :

أقيم خلفــا للبــابا غبريال فى أول توت سنة ١٣١٩ ش و١٦٠٢ م فى عهد سلطنة محمد بن مراد وأصله من بلدة البياضية بمديرية أسيوط وكان عالمــا ورعا تقيــا محبا للخير صبورا على المــكاره واشتد العمال فى أيامه على رعيتــه شــدة عظيمة فــكان يكثر من الطواف بين النــاس ويحضهم على الصبر والسكون ٠

وفى أيامه سرت بين الأقبــاط عادة اتخاذ زوجات غير شرعيات على طرق مختلفــة لاسيما بين نصــارى جهة الردينيــة حتى قام مطران دمياط وجاهر بأن تعــدد الزوجات غير ممنوع فى الانجيل ٠ ولمــا لاحظ البــــابا مرقس ذلك أصــدر منشورا يحرم فيــه تعدد الزوجات وحرم المطران الذى علم به ٠ فاتفق المطران هو وبعض الأقبــاط الذين يشغلون مراكز خطيرة فى الحكومة على الايقاع بالبطريرك فشكوه لجعفر باشا الحــاكم المسلم فرآها فرصــة مناسبة لاذلال شأن الأقبــاط فــدعا اليه البــابا مرقس وأمر بضربه حتى أشرف على المــوت وعــــزله من منصـــبه وحبسه فى برج الاسكندرية ٠

أما المطران وحزبه فخــدعوا راهبــا من البياضية وأقاموه بطريركا فصرح لهم بالطــلاق وبتعــدد الزوجات وبعــد وقت قصير اهتاج مسيحيو القـــاهرة والصــعيد وقام رهط منهم الى الوالى وأقنعــوه برد البطريرك المسجون الى مرتبتــه فرده وخضع كل حزب لبطريركه الى أن ضعف حزب الراهب وانحلت عراه فمضى الى بستان وجعل يعمل فيــه حتى وافاه القدر

المحتوم واستقل البابا مرقس حتى تنيح فى سنة ١٣٣٠ ش و١٦١٣ م وكانت مدة رئاسته ١١ سنة ٠

واستأنف أسقف رومية مخابراته مع هذا البطريرك بشأن انضمام الكنيسة القبطية له والكاثوليك ينسبون عزله الى دسيسة من بعض كبار الأقباط لما رأوا فيه الميل الى عقد اتفاقية مع أسقف رومية ويقولون لو لم يكن والى مصر عزل البطريرك مرقس فجأة لكانت الكنيسة القبطية قد خضعت للسلطة الرومانية ٠ والأمر واضح مما سلف أن سبب عزله خلاف ماذكر فتأمل ٠

وفى سنة ١٦٠٤ م اهتمت الكنيسة القبطية بمقاومة الارساليات الكاثوليكية ببلاد الحبشة ٠ وقبل ذلك الوقت بأربع سنوات أوفد من قبل أسقف رومية يسوعى يدعى بيدوفيز فلم يصل الى مصوع حتى سجنه الأحباش ولكنهم أطلقوه فيما بعد وصرحوا له بالبقاء بينهم فقضى وقتا منعزلا بمدينة فريموتا ثم عكف على درس لغتهم حتى أتقنها وانتشر اسمه حتى وصل الامبراطور فاستدعاه اليه ولما مثل أمامه أخذ يظهر براعته فى معرفة اللغة الحبشية وجادل كهنة الأحباش بها وفاز عليهم فسمح له الامبراطور أن يعظ الجمهور فألقى عظة أثر بها على الامبراطور حتى رغب فى اعتناق المذهب الكاثوليكى وتبعه رجال بلاطه فقامت قيامة الأحباش تحت زعامة المطران القبطى واشتبك القتال بينهم وبين الامبراطور فذبحوه وانكسر قومه وقام مكانه آخر ٠

فحول فيز اليسوعى نظره الى الامبراطور الجديد قاصدا أن يستميله أيضا للمذهب الكاثوليكى فنجح وسمع أن الحبشة سترسل وفدا الى الفتيكان تعلن خضوعها له فأشهر المطران القبطى حرم كل من ينحاز للكاثوليك واشتد هياج الشعب الحبشى ثانية وحاول اسقاط الامبراطور ولكنه تغلب عليهم واستمر الهياج يزداد خصوصا بعد أن أعلن الامبراطور اعتناقه للمذهب الكاثوليكى ولبث النزاع قائما حتى انقطعت أنفاس فيز فهدأ الشقاق وبطلت حركته ٠

٢ ـ يوحنا ١٥ ـ البطريرك التاسع والتسعون :

وبعد وفاة البابا مرقس انتخب الأقباط لهم بطريركا جديدا وهو البابا يوحنا ال ١٥ فى سنة ١٣٣٠ ش و١٦١٣ م فى عهد سلطنة عثمان ابن محمد وأصله من ملوى ٠ وكانت الضيقات لم تزل تترى على شعبه

فجال فى أبروشياته مرتين يعزى المكروبين وبينما كان يطوف بين رعيته وجد فى أبنوب وجيها عنده محظية فنصحه وأرشده واذ لم يرعو حرمه فاغتاظ الرجل منه ودس له السم فى الطعام فلما شعر بدنو الأجل نزل فى مركب فعاجلته المنية فى البحر وتوفى سنة ١٢٤١ ش و١٦٢٢ م وكانت مدة رئاسته عشر سنين .

وفى خلال مدة البابا يوحنا مات الملك الحبشى الذى اعتنق الكاثوليكية وتولى ابنه باسيليوس فاضطهد تابعى الكاثوليك وارسل الى البطريرك القبطى لكى يرسل له مطرانا وسمح للمرسلين الكاثوليك أن يقيموا فى بلاده على شرط أن لا يتعرضوا لمعتقد أهلها ولكن لما شعر بأنهم ساعون فى استحضار جيش البورتغاليين ليؤيدوا مذهبهم بالقوة أمرهم أن يبرحوا البلاد فلم يطيعوا واتفقوا مع كبير من الأحباش كان عاصيا فى وجه ملكه ولكن بعد اتحاده معهم باعهم كالعبيد الى تجار الأتراك فاستخلصهم الملك من أيدى التجار ولكنهم لم ينجوا من أيدى الأحباش فقبضوا عليهم وقتلوهم ، فهدأت البلاد بعد حروب وارتباكات دامت سنين وانتهت بقطع دابر الكاثوليك وطرد كل متمذهب بمذهبهم من بلاد الحبش ومنع دخول الغرباء اليها لغير التجارة واكتساب المعايش .

واتصلت هذه الأخبار بأقباط مصر وذكرتهم بأوقات اضطهاد الملوك الرومانيين لهم فلم يقبلوا من أسقف رومية هناء ولا عزاء ولكنهم لم يبدوا أنفة من وجود الافرنج وجماعة الكاثوليك بينهم لما حضر بعضهم الى مصر وتوطنوا بها للتجارة بمقتضى المعاهدات الدولية التى عقدت منذ الجيل السادس عشر للميلاد بين ملوك أوربا والمملكة العثمانية .

٣ - متاؤس ٣ - البطريرك المائة :

أقيم بطريركا سنة ١٣٤١ ش و١٦٢٣ م فى عهد السلطان ابراهيم وأصله من طوخ دلسكه وكان اسمه تادرس رئيس دير أبى مقار وفى مدته وقع غلاء وقحط وأكلت الميتة وأرسل مطرانا الى الحبشة من أسيوط فلم يقبلوه فكرس غيره وقضى على الكرسى ١٩ سنة وتنيح فى توت سنة ١٣٦٠ ش و١٦٤٢ م وخلا الكرسى بعده خمس سنوات .

٤ ـ مرقس ٦ ـ البطريرك المائة والواحد :

كرس بطريركا فى ١٧ برموده سنة ١٣٦٢ ش و١٦٤٦ م فى عهد السلطان محمد وهو من بهجورة من دير أنطونيوس بالعربة وكان للمعلم بشارة من أعيان القاهرة يد فى تقدمته ٠

وفى أوائل رئاسته تنافس مع المعلم بشارة مدة طويلة ولم تكد تنتهى هذه المنافسة حتى لاقى صعوبة أخرى وذلك أنه أصدر أمرا يمنع فيه الرهبان من التجول فى البلاد فتعصبوا عليه وشكوه للوالى فقبض عليه والقاه فى السجن ولم يخرج منه حتى وقع فى غرامة جسيمة ولم يسترح بعد خروجه من السجن حتى تنيح فى ٧ برموده سنة ١٣٧٢ ش و١٦٥٦ م بعد أن قضى على الكرسى مدة عشر سنين ٠

٥ ـ متاؤس ٤ ـ البطريرك المائة والثانى :

كان يدعى أولا جرجس وهو من ناحية مير وترهب بوادى النطرون بدير البرموس واشتهر بالتقى والعلم والورع وانتخب للبطريركية وأرسلت الجماعة تطلبه فامتنع فقام حزب من المصريين ورغبوا فى تعيين خلافه فلما لم يتم لهم أحضر المنتخب الأول بواسطة الدولة وحضر الاثنان وعملت بينهما القرعة فى الكنيسة وفى دار الولاية وفى الجهتين جاءت النتيجة باسم جرجس المنتخب أولا فأقيم بطريركا فى آخر هاتور ١٣٧٧ ش و١٦٦١م فى عهد السلطان محمد ٠

واستمر هذا البطريرك فى الرئاسة أربع عشرة سنة وثمانية أشهر ونصفا وقاسى شدائد مختلفة وعاش حتى رأى السلام ناشرا الويته ووقع فى عهده سنة ١٣٨٧ ش فناء عظيم سمى الموت الحارق وأرسل مطرانين للحبشة شنوده وخيروستوذولو ٠ وكان هذا البطريرك آخر من سكن من البطاركة فى حارة زويلة ومن بعده انتقل مركز البطاركة الى حارة الروم وتوفى فى ١٦ مسرى سنة ١٣٩١ ش و ١٦٧٥ م ودفن بدير مركوريوس وخلا الكرسى بعده سبعة أشهر ٠

٦ ـ يوحنا ١٦ ـ البطريرك المائة والثالث :

كرس بطريركا فى ١٢ برمهات سنة ١٣٩٢ ش و١٦٧٦ م فى عهد السلطان محمد ٠ وكان يدعى أولا ابراهيم بن المغربى وهو من طوخ دلكه وترهب بدير أنطونيوس ٠ وفى أثناء رئاسته طاف الوجه القبلى والبحرى

مفتقـدا أحوال المسيحيين وزار القـدس وكان فى صحبته رجل من أكابر النصارى يدعى جرجس الطوخى وقـد ساعده هـذا الرجل على عمـارة مادثر من الـكنائس والأديرة خصـوصا دير القـديس بولا الذى كان قـد تخرب من أعوام مديدة فعمره هـذا البطريرك وأعاد اليه الرهبان بعد أن بقى خاليـا منهم مائة سنة وبنى دار البطريركية فى حارة الروم وأرسـل المعلم لطف الله الى السلطان بهدايا لرفع جزية المـال عن حارة الروم ٠ وكرس الميرون المقدس سنة ١٤١٩ ش ٠

وكان هـذا البطريرك ممدوح الخصـال محسنا للفقراء والمحتاجين فاتحا داره لاستقبال الغرباء والمنقطعين وكانت أكثر أيامه شدائد ومصـائب متراكمة كادت تتعطل بسببها شعائر الدين لولا عنـاية الله ٠ وبعد أن قضى بطريركا ٤٢ سنة وثلاثة أشهر توفى فى ١٠ بؤونة سنة ١٤٣٤ ش و١٧١٨م وخلا كرسى البطريركية بعده شهرين وخمسة أيام ٠

وفى أيام هـذا البـابا حضر لمصر سنة ١٦٩٢ م قنصـل فرنساوى يدعى مولييـه وكتب كتابا عن مصر قال فيـه عن الأقبـاط « أنهم أقل جهلا وغشومة ولـكنهم متشبثون بمـا يحسبه غيرهم هرطقـة » وأورد شاهـدا على ذلك قوله « ان المرسلين اللاتين مع ماكانوا عليه من المهـارة والجدارة لم يستطيعوا أن يجذبوا اليهم واحدا منهم رغما عن طول بقائهم بينهم وعمل كل مافى وسعهم لاقناعهم » ٠

ومما قاله أيضـا « انه لمـا لم يقو المرسلون على اجتـذاب القبط اليهم بالاقنـاع دبروا حيلة أخرى فصـاروا يوزعون صـدقات نقـدية على من يحضر منهم الى كنيستهم فالتجأ اليهم جم غفير من الفقراء ولمـا استبدل رئيس الدير بغيره الغى التصـديق بهذه الـكيفية ولذلك لم يعد من الفقراء من يقرب كنيسة الافرنج » ٠

ومما رواه عن شدة تمسك الأقبـاط بعقيدتهم هو « أن لويس الرابع عشر ملك فرنسا طلب منه أن ينتخب ثلاثة من شـبان الأقبـاط الأذكياء من عائلات طيبـة ويرسلهم الى فرنسا ليتعلموا على نفقـة الحكومة الفرنسية فلم يرض أغنيـاء الأقبـاط أو فقراؤهم أن يسلموهم أولادهم خوفا من أن يغيروا معتقدهم ٠ وكان المرسلون اللاتين قـد فتحوا مدارس لتعليم الشبان فبمجرد اشـاعة الخبر منع الأقبـاط أولادهم عنهـا فأصبحت خاوية خالية ولم يبق مع الـكاثوليك سـوى بضـعة أنفـار وهم الذين أخذوهم من

والديهم وهم أطفال من أولاد الفقراء وربوهم منذ نشأتهم على المعتقد الكاثوليكى غير أن هذه الطريقة التى عمدوا اليها لم تنجح أيضا فان كثيرين من أولاد الأقباط الذين علموهم فى رومية عندما عادوا الى أوطانهم شق عليهم ترك معتقدهم الأصلى فرجعوا اليه مرة ثانية · فضلا عن ذلك فانه لما أدرك الأقباط أن المرسلين الكاثوليك لا يأخذون أولادهم لتعليمهم شفقة عليهم بل ليلقنوهم المعتقد الكاثوليكى امتنعوا عن تقديم أولادهم لهم حتى الفقراء منهم » وقال المسيو مولييه أيضا « وحتى الذين كانوا يتضورون جوعا وكنا نعطيهم طعاما امتنعوا عن المجىء الينا خوفا من أن نكثلكهم » ·

وكان بعض الأقباط التابعين لأسقف رومية قد غشوه بأن بطريرك الأقباط أظهر رضاءه عن مدارس الايطاليين وأمر أبناء رعيته بتعليم أولادهم فيها فلما اطلع مولييه على الحقيقة أفهمه بأن البطريرك لم يكن يعترف بأعمال ووجود المرسلين الايطاليين بل كان يفرض عدم وجودهم بالمرة فى البلاد ·

ولما رأى اللاتين عدم نجاح مساعيهم فى مصر حولوا التفاتهم مرة أخرى للحبشة · فبعد أن أرسلوا ثلاث ارساليات آخر واحدة منها أرسلت فى سنة ١٧٠٦ م أرسلوا بايعاز لويس التاسع عشر ملك فرنسا طبيبا للحبشة يدعى دى رول ليدبر بحسن سياسته مع ملكها تمهيد الطريق لليسوعيين لقبولهم فيها وكان مع دى رول ترجمان سورى يسمى ايلياس فلما وصلا الى سنار قبض عليهما الحاكم وحجز عنده الطبيب وأطلق سراح الترجمان لكى يذهب للملك ويطلب منه السماح بدخولهما الى بلاده فرد عليه ملك الحبشة بأنه اذا كان قادما بصفة سائح فلا بأس من ترك الحرية له ليدخل بلاده وأما اذا كان من اليسوعيين فلابد من منع المجىء الى الحبشة · الا أن سلطان سنار بعدما اطلع على خطاب ملك الحبشة داخله ريب من جهة دى رول فبعد أن حجزه عنده ثلاثة أشهر قتله ·

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

أبو ذقن

ظهر فى أواسط هذا القرن رجل قبطى من أهل الوجاهة والفضل يكنى بأبى ذقن المنوفى · وضع كتابا باللغة العربية شرح فيه حال الأقباط فى ذلك العصر وعوائدهم وأفرد بابا مخصوصا للدفاع عن معتقد الكنيسة القبطية ومقابلة حالتهم الدينية بحال الكاثوليك الرومانيين ملتزما فى أقواله وعباراته خطة الأدب وخلو الغرض وعدم التحاشى فى تفضيل بعض الأمور والعوائد الدينية الجارية بين الكاثوليك على غيرها مما هو جار بين الأقباط ·

ويقول العارفون أن هذا الكتاب الجليل يوجد باحدى مكتبات اكسفورد ببلاد الانجليز وقد ترجم الى اللغة العربية ونشر بتلك المدينة فى سنة ١٦٧٥ م وترجمه أيضا ونشره باللغة الانجليزية السرسادلير سنة ١٦٩٣ م ·

ويقول أبو ذقن أن أعضاء الكنيسة القبطية مشهورون فى كل ممالك العالم بلقب ممتاز وهو (مسيحيو الحزام) ·

ومما جاء فى ذلك الكتاب عن الأقباط أنهم اكتسبوا فى ذلك الزمان بحسن خدماتهم وصداقتهم ثقة المسلمين بهم فعززوهم وساووهم بالروم والافرنج وأن معظم الصنائع كانت فى أيديهم وكانت تدرس فى مدارسهم اللغات العربية والقبطية والحساب والجغرافيا والدين · وقال ومع أن شبان الافرنج أكثر علما من شبان الأقباط الا أن هؤلاء أكثر زهدا وأقل شراهة فى المأكل والمشرب من أولئك وذكر أبو ذقن أنه عندما يريد أحد الأقباط أن يذهب الى القدس يلتزم بدفع جزيتين للاتراك الأولى عندما ينوى السفر وقيمتها ثمانية ريالات والثانية وقيمتها أربعة يدفعها غالبا عند دخوله المدينة المقدسة ·

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) حالة الاقبـاط بوجه عام
(٢) مصير اللغـة القبطيـة
(٣) حالة المسيحيين فى النوبة والخمس المدن الغربية

---

١ ـ حالة الاقباط بوجه عام :

جار ملوك آل عثمان على المصريين وغالبـا لم يميزوا ما بين قبطى ومسلم حتى كثر حـدوث الثورات فكان يقع فى خلالهـا طبعـا البـلاء بكثيرين من الأقبـاط ولمـا كثر الانقسام بين المماليك كان العرب يهجمون على البـلاد وينهبون البيوت ويقتلون الرجال ويسبون النساء ٠ وانتهزوا هذه الفرصـة مرة فهجموا على مدينـةأخميم فى الوجه القبلى وكان معظم سكانها من النصـارى أهل الـكد والعمل ونهبوها وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلهـا ٠

الا أن الأقبـاط على كل حال عاشوا تلك المدة مع مواطنيهم المسلمين فى حال أفضـل مما مضى واشـتركوا معـا فى مر العيش وحلوه غير أنهم كانوا يزيدون عنهم فى دفع الجزية التى صـارت تسمى بالجالية أو الجوالى واستعملوا الجور فى تحصيلها منهم ٠

٢ ـ مصير اللغـة القبطيـة :

أما اللغـة القبطيـة فـكانت قـد تلاشت بالمرة الا أن المقريزى يذكر أن الرهبـان لبثوا يتكلمون بهـا لغـاية القرن الخـامس عشر وان بعض النساء والأطفـال فى الصعيد ورهبـان الأديرة الـكائنة حول أسيوط وأهل درنـكة من كبيرهم الى صـغيرهم كانوا يتكلمون بهـا فى ذلك العصر ٠ وذكر أيضـا فانسليب العـالم الذى زار مصر سنة ١٦٧٢ م أنه وجد بين الأقبـاط من يتكلم بلغتـه الأصلية ٠ ولـما وفـد نابليون امبراطور فرنسا واحتل مصر سنة ١٧٩٨ م طلب أن يسمع من يتكلم باللغـة القبطيـة فجىء له بقبطى من الصـعيد يجيـدها ولم ينـازعه فى هـذا الامتيـاز سـوى امرأة عجوز ٠

٣ - حال المسيحية فى النوبة وفى الخمس المدن الغربية :

وكان ولاة مملكة النوبة حتى القرن السادس عشر مسيحيين خاضعين لسلطان مصر يدفعون له الخراج ولكنه بعد الفتح العثمانى أخذت الحكومة المسيحيـة تسقط فى النوبة وقامت مكانها حكومة اسلامية اجتهدت فى محو النصرانية من تلك البلاد فكثر عدد المستشهدين وأسلم كثيرون ومن خلص من الموت صار فى عوائده كالمسلم سواء وهكذا أهمل أمر الدين المسيحى وبطل من تلك البلاد . ولا يبعد أنه فى ذلك الحين الزم مسيحيو الواحات باعتناق الاسلامية فقلبت كنائسهم مساجد .

القرن الثامن عشر

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) بطرس ٦   (٢) يوحنا ١٧   (٣) مرقس ٧

(٤) يوحنا ١٨   (٥) مرقس ٨

---

١ — بطرس ٦ — البطريرك المائة والرابع :

أقيم بطريركا فى ١٥ مسرى سنة ١٤٣٤ ش و١٧١٨ م فى عهد السلطان أحمد • وكان أولا يدعى مرجان وهو من مدينة أسيوط أقيم قسيسا على دير القديس بولا وفى مدة رئاسته حاز مقاما ساميا لدى أولى الأمر فتمكن من أن يطوف الوجه البحرى والقبلى لتفقد أحوال قومه • وكان شديد المحافظة على شعبه مانعا لهم كل ما يحرمه الدين المسيحى من جهة الزواج أو الطلاق ونحو ذلك واجتمع بالسنجق ابن أيواز وغيره من المتكلمين بسبب أن شرذمة حاولت أن تبيح الطلاق لأية علة ولغير علة وجرت لهم معهم خطوب فيما يختص بحدود مذهبه ، فأفتى له العلماء وصدر له فرمان من الوزير المتولى باقراره على قانون مذهبه ومنع التعرض له فى ذلك وصار الكهنة لا يعقدون زواجا الا على يده فى قلايته بسبب ابن قس طلق امرأته وتزوج غيرها وهذا البابا أخفى رأس القديس مرقس • وفى أيامه طلبت الحبشة مطرانا لها فرسم أسقف القدس مطرانا وأرسله لها •

واستمر فى الرئاسة سبع سنوات وستة أشهر وأياما وتوفى فى ٢٦ برمهات سنة ١٤٤٢ ش ١٧٢٦ م وخلا منصب البطريركية بعده تسعة أشهر •

٢ — يوحنا ١٧ — البطريرك المائة والخامس :

أقيم بطريركا فى ٦ طوبه سنة ١٤٤٣ ش و١٧٢٧ م فى أواخر مدة السلطان أحمد • كان يدعى أولا عبد السيد وهو من ملوى وترهب بدير

القديس بولا وعند رسامته منع عادة استلام الصليب من يد السلف ميتا لأنه فزع منه . وفى أثناء بطريركيته أنشأ كنيستين فى ديرى أنطونيوس وبولا بمساعدة الشهير جرجس السروجى أمير قومه بوقته .

وفى سنة ١٧٤٣ م أنفذ امبراطور الحبشة من قبله وفدا للبابا يوحنا عقب وفاة خيرستوذولو مطران الحبشة يطلب منه أن يعين بدله . وكان الوفد مؤلفا من ثلاثة أشخاص أحدهم قبطى يدعى جرجس والآخران حبشيان اسم أحدهما تاوضروس والثانى نيكانيوس ولما وصلوا الى مصوع قبض عليهم حاكمها وسلب نصف النقود التى كانت معهم وأكرههم على الاسلام فاختفى القبطى وأطاعه ليكانيوس واعتنق الاسلام أما تاوضروس فرشى بالمال وتمكن من الوصول للقاهرة وطلب من البطريرك رسامة مطران لبلاده فأجيب الى طلبه ورسم المطران سنة ١٧٤٥ م وعاد به ولكنهما صادفا فى مصوع ما صادفه الوفد الأول فألقيا فى السجن غير أن تاوضروس تمكن بحيلة من أن يسهل سبيل المطران للفرار وبقى هو حتى طلب مالا من بلاده دفعه فدية عن نفسه .

وفى أيام البابا يوحنا اشتد الكرب على المسيحيين وضربت عليهم غرامة فادحة لم يعف منها أحد وبيعت بسبب هذه الغرامة الجواهر الكريمة بأبخس الأثمان والزم بهذه الغرامة القسوس والرهبان والصبيان والفقراء وأرغم البطريرك بدفعها عن القسوس وخدام الدين وحدثت زلزلة هائلة دمرت أماكن كثيرة وأبادت بلادا عن آخرها .

وفى أيامه أيضا تمكن المرسلون الكاثوليك فى تسعة مراكز جنوب القاهرة وهى أنتينوا وأسيوط وأبو تيج وصدفا وأخميم وجرجا والأقصر وأسوان وفى دير النوبة أيضا . وفى سنة ١٧٣١ م أرسل اكليمنص الثانى عشر أسقف رومية يحض رؤساء ارسالياته على بذل آخر مجهوداتهم ليتمكنوا من ارسال بعض أولاد الأقباط ليتعلموا فى رومية فلم يتمكنوا بأية طريقة ولم يجدهم ماوجهوه الى الأقباط من التهديد والوعيد .

فكتب أسقف رومية المذكور الى البابا يوحنا عن يد الكردينال بلوجا أحد المرسلين الكاثوليك يطلب منه أن يقبل هو وكنيسته الخضوع لسلطانه ولكن هذه المخابرات انتهت نظير غيرها بلا ثمرة . ولما تولى بنديكتس الرابع عشر على الكرسى الرومانى أنكر قول كل قائل بوجود اتحاد بين الأقباط وبين كنيسته وقفل باب المخابرات الودية التى استمرت

جارية بين أساقفة رومية وبطاركة الاسكندرية ولكن بدون فائدة · وكان بمدينة القدس قس قبطى كاثوليكى يدعى أثناسيوس فرسمه مطرانا سنة ١٧٤١ م على مصر غير أنه لم يحضر اليها بل بقى كل أيام حياته بأورشليم· وكان النائب عنه فى مصر قس يسمى يسطس المراغلى · وكان يوجد حينئذ شاب قبطى اسمه روفائيل الطوخى من أهالى جرجا أخذه الكاثوليك بالقوة حينما كان صغيرا وأرسلوه لدرس اللاهوت فى رومية وبعد اتمام دراسته عينه الأسقف الرومانى أسقفا على أرسينو ثم استدعاه اليه ثانية ليساعده فى تاليف كتب باللغة القبطية وتنقيح كتب الطقوس الكنسية ·

وفى السنين الأخيرة من القرن الثامن عشر تمكن الكاثوليك من استمالة أسقف جرجا القبطى الى مذهبهم ولكن لهرطقته حرم من الكنيسة القبطية حتى نقم عليه الاسلام أيضا ففر هاربا الى رومية وعاش فيها حتى مات سنة ١٨٠٧ م ·

ونشأ عن انضمام بعض الأفراد من الأمة القبطية نشوذ بين أفراد العائلات وانقسام بسبب التركات والزواج فاشتكى كبار الكتاب لمخدومهم الأمراء من سوء تصرف قسوس اللاتين وتعديهم على حقوق بطريركهم · فعقد لذلك مجلس بحضورهم وحضور البطريرك وقسيس اللاتين بالمحكمة الكبرى الشرعية وبعد سماع أقوال المشتكين واحتجاج المشتكى عليهم تقرر التصريح لبطريرك الأقباط باستعمال السلطة الدينية على أبناء أمته والتصرف فيهم بما توجبه قوانينه المرعية وعدم التعرض له أو التعدى على حقوقه وتحررت بذلك حجة من المحكمة وسلمت ليد البطريرك · وقد عثر على هذه الحجة صاحب جريدة مصر ونشرها وهذه صورتها : ـ

صورة حجة شرعية صادرة من المحكمة الكبرى بمصر المحمية بتاريخ غرة محرم سنة ١١٥١ هـ ·

هو أنه بمصر المحروسة لدى سيدنا ومولانا الخ ابراهيم بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (هنا أسماء الأمراء الذين بهم انعقدت الجلسة) بعد أن رفع كل من المعلم رزق الله ولد الذمى ابراهيم بدرى النصرانى اليعقوبى بخدمة ميراللوا الأمير ابراهيم بك الدفتردار بمصر المحروسة حالا (وهنا أسماء الأقباط الأرثوذكس الذين رفعوا الشكوى للمحكمة من جور المرسلين الكاثوليك وعددهم أربعة وعشرون شخصا) وغيرهم

من النصارى اليعاقبة القبطية والقسيسين والرهبان يشتكون من أن جماعة من النصارى اليعاقبة القبطية مخالفون لملتهم وبطريركهم والقسيسين ورهبان اليعاقبة القبطية مخالفون لملتهم وبطريركهم الى الافرنج الغير القبطيين ليدخلوا فى ملتهم لعدم دفع الجزية وأن المعلم يوحنا بطريرك النصارى اليعاقبة القبطية ينهى الجماعة القبطيين المرقومين عن ذلك مرارا فلم ينتهوا ولم يسمعوا لقوله وأن القانون المتعارف بينهم أن كل من خالف كلام بطريركهم يكون مغضوبا عليه ويلزم الأدب اللائق بحاله وان حصل التوافق والتراضى بين طائفة النصارى اليعاقبة القبطية المرقومين وكبيرهم ان كل من خالف ملته وكان قبطى وانتقل من ملة القبطيين الى ملة الافرنج وثبت ذلك عليه بالوجه الشرعى يكون على الأمراء الصناجقة وأغوات البلكات وكخدا البلكات واختيارياتهم الخروج من عهدة من ينتقل من النصارى اليعاقبة القبطية المرقومين الى ملة الافرنج الخروج من حقه وتأديبه بما يليق بحالة زجر له ولأمثاله باعتراف كل من طائفة النصارى اليعاقبة القبطية المرقومين الاعتراف المرعى كما التوافق والتراضى المرعيين ولما تم الحال على هذا المنوال كتب ذلك ضبطا للواقع ليراجع به عند الاحتياج اليه والاحتجاج به وعلى ماجرى وقع التحرير ٠

فى غرة محرم الحرام افتتاح سنة احدى وخمسين ومائة والف ٠

محمد عبد الرازق ، محمد على حنفى ، على على عبد النبى ، محمد فواكه ، محمد خلاف ، حسن على أحمد ٠

وقد وقفنا أيضا على صورة رسالة نشرها المندوب البابارى بالقطر المصرى على جماعة الكاثوليك الذين كانوا كلهم بالوجه القبلى وذلك تنفيذا للمعاهدة التى تمت بينه وبين بطريرك الأقباط سنة ١٧٩٤ م عند معتمد دولة النمسا وفيها يوصى الأقباط المتكثلكين بمدن جرجا واخميم وفرشوط ونقاده بذلك الاتفاق الذى عقد بينه بصفته كيرلس رئيس عام رهبان المرسلين الكاثوليك والخواجه كركور وشتى قنصل النمسا والأب اكليمنضس رئيس عام سابقا وبين البطريرك أنبا يؤنس والمعلم ابراهيم الجوهرى والمعلم جرجس أخيه رؤساء طائفة الأقباط بمصر ٠ وكان الاتفاق على ما يأتى :

١ ـ المتزوجون من الفريقين لهم حرية اختيار الصلاة بأية كنيسة أرادوا قبطية كانت أو كاثوليكية ٠

٢ ـ من الآن فصاعدا لا ينبغى أن يتزوج الاقباط من الكاثوليك ولا الكاثوليك من الأقباط ٠

٣ ـ لا يدخل قسوس الكاثوليك بيوت الأرثوذكس ليكرزوا لهم ولا قسوس الأرثوذكس بيوت الكاثوليك ٠

٤ ـ لا ينبغى ارغام أى أحد ليصلى بكنيسة معينة بل ليترك لكل واحد حق اختيار الكنيسة التى يحب ٠

٥ ـ لا يصح فيما بعد اذا حدث خلاف أن يرفع الأمر الى رجال الحكومة بل الى الرؤساء من الكنيستين ولهم حق مقاصة المعتدى ٠ أهـ ٠ تحريرا فى ٣ شهر يانوارنوس سنة ١٧٩٤ م ٠

ولما بلغ السلطان أن قدم الارساليات الكاثوليكية أخذت تثبت فى مصر خشى امتداد سطوة الأجانب فى بلاده فكاتب بطريرك الكنيسة اليونانية وطلب منه أن يحذر جميع أفراد رعيته من ولوج معابد الكاثوليك٠ وكان معظم الذين اعتنقوا المذهب الكاثوليكى من السوريين الذين أرادوا أن يحتموا بالمذهب من تعدى المسلمين عليهم ٠ وجعل السلطان غرامة الف كيس على الذين يذهبون لمعابد المرسلين اليسوعيين فجمع السوريون هذا المبلغ وسلموه للسلطان وفيما بعد قبض أحد أمراء المماليك على أربعة من المرسلين اللاتين ولم يفرج عنهم الا بعد أن دفعوا غرامة فادحة ٠

أما البابا يوحنا فاستمر فى كرسى البطريركية ثمانى عشرة سنة وبعض أشهر وتوفى فى ٢٣برموده سنة ١٤٦١ش و١٧٤٥ م وخلا منصب البطريركية بعده شهرا واحدا ٠

٣ ـ مرقس ٧ ـ البطريرك المائة والسادس :

أقيم بطريركا فى ٢٤ بشنس سنة ١٤٦١ش و١٧٤٥ م فى عهد السلطان محمود وكان يدعى سمعان من قلوصنا ترهب فى دير القديس بولا وكان طلق اللسان حسن الصوت محسنا ممدوح السيرة محبوبا فى قومه حتى شبهوه بالملائكة واستمر فى البطريركية ٢٤ سنة وتوفى فى ١٢بشنس سنة ١٤٨٥ ش و١٧٦٩ م ومات بدير السيدة العذراء بالعدوية ودفن بحارة البطريرك بأبى سيفين وخلا منصب البطريركية بعده خمسة أشهر وثلاثة أيام ٠

٤ ـ يوحنا ١٨ ـ البطريرك المائة والسابع :

اقيم بطريركا فى ١٥ بابة سنة ١٤٨٦ ش و ١٧٧٠ م فى عهد السلطان مصطفى وكان أولا يدعى يوسف من الفيوم وترهب بدير القديس انطونيوس. وفى أثناء رئاسته نالته شدائد من مأمورى الأحكام لاسيما من حسن باشا القائد التركى الذى أمر بضبط خزينته وأخذ أمواله واختفى من الظلم واشترك مع المعلم ابراهيم الجوهرى الشهير فى تعمير أديرة وكنائس كثيرة . وفى أيامه كرس الميرون .

وسعى الكاثوليك لاجتذاب الكنائس الشرقية وعلى الأخص كنيسة مصر فنشروا لذلك كتاب « أعمال مجمع خلكيدون » ووزعوه فى البلاد الشرقية ثم أرسلوا مندوبا من قبلهم الى البابا يوحنا يحمل رسالة من أسقف رومية يدعوه فيها الى الاتحاد معه فسلم الرسالة للانبا يوساب الأبح أسقف جرجا وكلفه بالرد عليها فرد عليها وفندها (١) أما نسخ كتاب « أعمال مجمع خلكيدون » فقد وجدت مثبتة لدعوى الكنيسة القبطية فندم الأسقف الرومانى على نشر ذلك الكتاب وجمع ما تمكن من جمعه وحرقه وأنفق أموالا كثيرة فى ذلك .

واستمر البابا يوحنا على كرسيه ٢٦ سنة وسبعة اشهر و١٧ يوما وتوفى فى ٢ بؤونة سنة ١٥١٢ ش و ١٧٩٦ م وخلا منصب البطريركية بعده نحو أربعة أشهر .

٥ ـ مرقس ٨ ـ البطريرك المائة والثامن :

ولد فى بلدة طما بمديرية جرجا فى أواسط الجيل الثامن عشر ودعى يوحنا وتربى التربية المعتادة وقتئذ ونما ميالا لعيشة النسك والتعبد فترهب بدير انطونيوس وبعد ذلك أقام بالدار البطريركية مع البابا يوحنا ال ١٨ وشاهد ما حل بهذا البطريرك من الويلات . وبعد وفاة البابا يوحنا أختير بموافقة الأساقفة الى منصب البطريركية وكان بعضهم

---

(١) كان هذا الأب عالما متضلعا فى العلوم اللاهوتية فدافع عن كنيسته ضد تهجم الباباويين دفاعا مجيدا وله كتاب ثمين فى ذلك يدعى « سلاح المؤمنين » محفوظة منه فى الدار البطريركية نسختان تاريخ أحديهما ٢٦ برمهات سنة ١٥٦٧ ش . وله كتاب آخر اسمه « الادراج » لأنبا يؤنس الـ ١٧ اهتم به الأنبا يوساب تاريخ كتابته ١٩ مسرى سنة ١٥٤٥ ش وهو فى الشؤون الدينية الداخلية .

يرشحون أنفسهم لهذه الوظيفة فعول الأساقفة على جعل الانتخاب بواسطة القرعة الهيكلية فوقعت القرعة على الأب يوحنا فتمموا رسامته فى كنيسة العذراء بحارة الروم في يوم الأحد ٢٨ توت سنة ١٥١٣ ش و ١٧٩٧ م في عهد السلطان سليم الثالث ٠ وفى أوائل مدته أتى أمير الجيوش الفرنساوية نابليون الى الديار المصرية ومكث الفرنساويون بها ثلاث سنوات ثم رحلوا من مصر وعاد الحكم للدولة العثمانية وشاهد هذا البابا أول حكم محمد على باشا الخديوى الكبير ٠

وفى أيام هذا البابا نكب المسيحيون بسبب دخول الفرنساويين مصر وقاسى هو ذاته مصائب عديدة بسببها نقل مركز البطريركية من حارة الروم الى الأزبكية بالدرب الواسع وقد روى لنا مؤلف كتاب نوابغ الأقباط ومشاهيرهم تفصيل ذلك نقلا عن كتاب « عمل الميرون المقدس » فى أيام البابا بطرس السابع المحفوظ بالدار البطريركية قال : — « فى أيام الأنبا مرقس ال ١٠٨ حرقت الكنيستان العليا والسفلى بحارة الروم وكان الميرون الذى عمله سلفه موضوعا فى موضع واحد بأعلى دهليز الكنيسة السفلى فحرق وكان باقيا من هذا الدهن المقدس فى بعض الكنائس بمصر القديمة الذى عمل من أيام البابا متاؤس الثانى ومن أيام البابا يوحنا ال ١٦ ٠ وقبل حرق الكنيسة بثمانى سنوات فى رياسة البابا مرقس انتقلت القلاية البطريركية من حارة الروم الى حارة الأزبكية فى سنة ١٥١٥ ش والسبب فى ذلك لما دخل الفرنسيس مصر حصل للنصارى الأقباط اهانة عظمى بسببهم وقاسى من جراء ذلك البابا مرقس كثيرا فانتقل الى الأزبكية فى مواضع كان بناها المعلم ابراهيم الجوهرى قبل وفاته ٠

وسبب بناء هذه الكنائس التى أقام بها البطريرك أن المعلم ابراهيم تحصل على فرمان ببناء الكنيسة وأودعه بالقلاية فى مدة البابا يوحنا ال ١٨ وبعد ذلك اشترى محلات وهدمها وابتدأ بوضع أساساتها وبجوارها أماكن أقام فيها الأنبا مرقس وكيفية حصول المعلم ابراهيم على ذلك الفرمان هو أنه اتفق له أن احدى قريبات السلطان المحترمات ولعلها أخت السلطان كامل قدمت من القسطنطينية الى مصر قاصدة الحج ولكونه متقدما فى الحكم تقدما مشهورا باشر بنفسه أداء الخدمات الواجبة لمثلها فى الذهاب والعودة وقدم لها الهدايا اللائقة لرفيع مقامها فأرادت مكافأته على خدمته التى أبداها وسألته عن

مرغوباته فالتمس منها المساعدة فى اصدار فرمان سلطانى بالرخصة فى انشاء كنيسة بالأزبكية حيث مستقر سكنه والتمس منها أشياء أخرى لرفع الجزية عن الرهبان الى غير ذلك فقبل رجاؤه بالاجابة ولكنه توفى قبل أن يتم البناء فقام به أخوه المعلم جرجس ٠

وبعد دخول الفرنسيس بثمانية عشر شهرا حصلت حرب بينهما وبين العثمانيين الذين بالقاهرة مدة ٢٤ يوما فى صوم الأربعين المقدسة فعمل البابا مرقس جمعة البصخة وعيد القيامة فى منظرة الحوش بجوار الكنيسة لأنه لم يقدر أحد على الخروج منها أو الدخول اليها وحرقت فيها محلات عظيمة وحصل نهب وكانت شدة عظيمة وقاموا بالثغر وهدموا دير مار مرقس الانجيلى الذى بظاهر الثغر . وقد مكث الفرنسيس ثلاثين شهرا وبعدئذ رضى الله بخروجهم ثم ببناء الكنيسة التى اهتم بها المعلم ابراهيم الجوهرى وفى يوم الأحد ١٥ توت سنة ١٥١٧ ش كرسها البابا مرقس على اسم مار مرقس عوضا عن الدير الذى هدمه الفرنسيس بثغر الاسكندرية وقد أضاف اليها محلات » أهـ وقد شيدت الكنيسة بملك المعلمين يعقوب وملطى حيث الآن الكنيسة الصغرى بالبطريركية ٠

وكانت تقوى هذا البابا مقرونة بالعلم الصحيح وقد وضع جملة مواعظ لتقرأ فى الكنيسة أشبه بقوانين لأصلاح خلل النظام فى أوقات الصلاة فمنها عظة عن الذين يتكلمون فى الكنيسة بغير أدب وأخرى عن دورة الفقراء فى الكنيسة ومما قاله فيها « أنا أسألكم بلين المسيح وتواضعه أن تبطل دورة الأطباق ولا يدور الفقراء فالأطباق يقفون بها فى الخورس التحتانى وذلك فى وقت التسريح ومثل ذلك الفقراء بجانبهم بأدب ووقار » وغير ذلك من الرسائل فى مواضيع دينية ومما عثر عليه من رسائله رسالة تعزية الى انسان كان فى شدة وخلص منها يقول فيها « ان الكتب الشرعية يا ابنى الحبيب عزى الله قلبك بعزاء الروح القدس المعزى تدعونا الى تعزية بعضنا بعضا والعقل والأدب والمحبة والعادة مجمعة على ذلك فقد صار مستحبا وفرضا وما هذا الا لأن المباشر بذاته الألم والحزن قد يعدم الرأى الصائب عند حلول المصائب أو ينسى الأمر الواجب لاستيلاء الاكتئاب عليه فيحتاج الى من يذكره ٠ لذلك كتبت اليك » أهـ ٠



« البابا مرقس الثامن »

وقد روى عن هذا البابا أنه كان شديد الاهتمام بأمر الكنائس والأديرة واصلاح المتخرب منها ٠ وكان مقدرا لمنفعة الوعظ فثابر على القاء المواعظ بنفسه ولم ينقطع عن تعليم شعبه فى وقت من الأوقات٠ وقد رسم جملة أساقفة ومن جملة من رسم مطرانا للحبشة وذلك على أثر مجىء بعض الرهبان والكهنة ومعهم جواب من ملك الحبشة الجديد يطلب فيه منه أن يرسم لهم مطرانا عوضا عن أنبا يوساب فرسم واحدا يدعى مكاريوس وأرسله مع الكهنة سنة ١٥٢١ ش وأصحبهم بكتب تعليم ومواعظ لأنه سمع أن بعضهم صاروا هراطقة فبعث يهنىء الملك وعظماء الدولة ويثبتهم فى الأمانة المستقيمة ٠

واشتهر هذا البابا بعمل الخير والاحسان ٠ وقيل فى وصفه أنه كان قصير القامة شديد التقشف كثير الهموم مصفرا بسيطا فى أكله وملابسه ٠ واستمر فى الرئاسة ثلاث عشرة سنة وشهرين وستة عشر يوما وتوفى فى ١٣ كيهك سنة ١٥٢٦ش و ١٨١٠م وهو أول من قبر من الباباوات بالكنيسة البطيركية بالازبكية فى الجهة القبلية للكنيسة الكبرى بجوار المذبح فى الكنيسة الصغرى التى كرسها هو على اسم القديس استفانوس رئيس الشمامسة وكان دفنه فى يوم ١٤ كيهك كما كتب خلفه البابا بطرس السابع ٠

القسم الثانى

مشاهير الكنيسة

---

١ ـ المعلم رزق :

كان سكرتير الضربخانة المصرية فرقاه على بك الكبير عظيم المماليك الى مدير حساباتها · وكان للمعلم رزق دراية بالعلوم ولاسيما علم الفلك وكان مسموع الكلمة عند على بك ويعول عليه فى سائر الأمور · ولما زار مصر المستر بروس السائح الانجليزى سنة ١٧٦٨ م ساعده المعلم رزق على انجاز مهمته فسر منه وقدم له هدايا نفيسة فلم يقبلها بل ردها وأرسل له مثلها ·

وكان بدمياط تاجر مشهور يسمى الحاج عمر بن عبد الوهاب الطرابلسى فحصلت بينه وبين أحد تجار النصارى منازعة بالثغر انتهت بالسب واللعن فعول الحاج عمر على الانتقام من النصرانى فأتى مصر وادعى أنه سب دينه واستفتى المشايخ فأقروا على حرقه ولكن كبار كتاب الأقباط سعوا حتى استصدروا عفوا عن النصرانى واحبطوا مساعى الحاج عمر ·

وفيما بعد قبض على بك على الحاج عمر وسلب مقتنياته ونفاه من البلاد والجبرتى المؤرخ المسلم ينسب نفيه الى مساعى كبار كتاب النصارى الذين كانوا موضع ثقة على بك ·

وفيما بعد قام محمد على بك أبو الذهب مملوك على بك وقتله واستقل بالرئاسة فعزل المعلم رزق من وظيفته وقيل أنه قتله وأمر بابطال استعمال النقود التى ضربت على يده فى عهد على بك ·

٢ ـ المعلم ابراهيم الجوهرى :

ظهر هذا الرجل العظيم فى أواسط القرن الثامن عشر ولا يعلم كيف نشأ الا أنه يعلم أنه تعلم منذ حداثته صناعة الكتابة وكان قلبه مفعما

بمحبة الدين والتقوى وتقلد أول وظيفة له عند أحد المماليك وكان ينفق ربع راتبه فى الأعمال الخيرية ولاسيما نساخة الكتب وايقافها على الكنائس فكان بين حين وآخر يأتى للبطريرك بكتاب ويسلمه له فسر منه البطريرك وباركه ودعا له بالنجاح · ولامر ما ترك الخدمة التى كان بها وأخبر البطريرك بذلك فطلب من رئيس كتبة الأقباط أن يقبله كاتبا خاصا له فقبله وبعد حين توفى الكاتب فاقر رأى الجميع على ابراهيم ليخلفه فى مكانه لما عرف عنه من الاستقامة والنزاهة ·

صار ابراهيم رئيسا للكتبة وبلغ أسمى رتبة كان يتطلع اليها القبطى حينئذ فبالغ فى انكار ذاته واظهار تواضعه وعكف على صنع الخير لجميع الناس بدون تمييز بين أهل الأديان واتصل خبره بابراهيم بك الوالى فعززه وأكرمه واختصه بثقته ولما رأى المعلم ابراهيم الفرصة سانحة أمامه ليقدم خدمة لأمته شرع يعمر الكنائس الخيرية ويصلح ما فيها من الخلل واشترى أملاكا كثيرة وأوقفها عليها ويوجد بدفترية البطريركية صورة ٢٣٨ حجة لتلك الأملاك التى اشتراها ذلك الرجل المغبوط وتنازل عنها للكنائس ·

وقد رزق بولد سماه يوسف وعرف اسمه من حجة وقفية أوقفها باسمه الا أن العناية الالهية شاءت انتقال ابنه الى الديار الأبدية فتكدر خاطره عليه لأنه كان وحيدا له وأغلق المكان الذى كان مخصصا له وكسر السلم الموصل اليه حتى لا يشاهده قط ·

ولما اشتد ظلم الواليين ابراهيم بك ومراد بك أنفذت اليهم المملكة العثمانية حسن قبطان باشا سنة ١١٩٩ هـ فقاتلهما وانتصر عليهما فهربا من وجهه الى الصعيد واضطر المعلم ابراهيم الى مرافقتهما وأمر حسن باشا باحصاء كل ممتلكات المعلم ابراهيم بما أوقفه على الكنائس وبسبب اختلال الأحوال وعدم ائتمان الناس على أموالهم وأرواحهم اختفت زوجة المعلم ابراهيم فى بيت حسن كتخدا على بك أمين الحساب الذى كان لزوجها عليه مآثر فقبضوا عليها وأرغموها على أن تخبرهم عن مخابىء زوجها فدلتهم عليها وأخرجوا منها أوانى ذهب وفضة فأخذ منها ما أخذ وباع ما باع · ووشى بعضهم على مكان ابن المعلم المشار اليه فصعدوا اليه وأخرجوا كل ما كان فيه من فرش وأمتعة وأوانى ذهب وفضة وصينى وأتوا بها الى حسن باشا فباعها بين يديه بالمزاد وكانت شيئا كثيرا فاستغرق بيعها عدة أيام ·

ولما عادت الأحكام الى الأميرين مراد وابراهيم رجعا من الصعيد فرجع معهم المعلم ابراهيم وكان هو الوحيد من كبار الاقباط الذى نجا من اضطهاد حسن وتمكن بحسن سياسته وذكائه من حفظ مركزه فى عيون المسلمين والأقباط فارتقى ثانية الى درجة عظيمة واستأنف جهاده فى افتقاد الكنائس والفقراء والمساكين حتى انه لم يكن يعتبر ماله ملكا خاصا به بل كان يصرفه فى كل عمل خيرى وللآن يوجد الكثير من الأديرة والكنائس التى شيدها كما كان مهتما بأحوال الرهبان الذين كان يرسل اليهم بدون انقطاع كل ما يحتاجون اليه ولا يزال الترمس باقيا من تلك المؤونة فى أغلب الأديرة . وهذه الكنيسة الكبرى بالأزبكية التى سعى فى تشييدها كما ذكر تنطق بفضله وتشهد بغيرته .

وتروى عن المعلم ابراهيم حوادث كثيرة منها أن أخاه المعلم جرجس كان مرة ممتطيا جوادا ومارا فى احدى الطرق فاهانه أحد المشايخ ولم يحترمه وينزل عن الجواد لمقابلته فشقت الاهانة على المعلم جرجس وأخبر أخاه بها فأجابه « غدا أقطع لسانه » وفى اليوم الثانى استدل على منزل الشيخ وأرسل له هدايا سمنا وجبنا الى غير ذلك بدون علم أخيه . فلما مر أخوه المعلم جرجس مرة أخرى على الرجل وقف له اجلالا مرحبا به ترحيبا شديدا داعيا له الأمر الذى جعله فى حيرة واندهاش ولما عاد علم بما فعله شقيقه وأدرك حقيقة قوله سأقطع لك لسانه اذ حوله من البغضة الى المحبة والاكرام وبذلك تمم قول الرسول « ان جاع عدوك فأطعمه . وان عطش فاسقه . لأنك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه » (رو ١٢ : ٢٠) .

ويروى أيضا أن امرأة جاءت ليلة عيد الى زوجة أحد مشاهير المعلمين فى ذلك الحين (يقال انه المعلم فانوس الكبير) وشكت سوء حالها وضيمها لأن زوجها فى السجن وأولاده يبكون لعدم وجوده معهم فى هذا العيد وربما حكم عليه بالاعدام . فأرسلت هذه الزوجة الفاضلة كل ما تحتاجه العائلات فى الأعياد الى بيت ذلك الرجل وأرسلت تخبر امرأته لكى تستعد بكل اللوازم لأن زوجها سيكون فى بيته تلك الليلة .

ولما جاء المعلم الى بيته ليلا بعد خروجه من الكنيسة لم يجده مضيئا كالعادة فاندهش لذلك لاسيما لما وجد زوجته حزينة فسأل ما الخطب الذى دهمنا وجعلك تجلسين هكذا مكتئبة فأجابته أيليق أن

نفرح نحن ونبتهج وتلك العائلة حزينة باكية لسجن رجلها فان رمت أن تكون سعيدا بهذا العيد يلزمك أن تسعى فى اطلاق سراح ذلك الرجل الآن فقال لها حى هو اسم الرب ليكن كما تريدين وأسرع بالذهاب الى أولى الأمر وتمكن من استصدار عفو عن الرجل الذى انطلق الى بيته وكان سرور عائلته به عظيما ٠

ولما كان هذا الأمر قد استغرق مدة من الليل لم يستيقظ المعلم حسب عادته باكرا ليتوجه الى منزل المعلم ابراهيم الجوهرى الذى كان ينتظره ليتوجها وصحبتهما وجوه الأمة لتقديم فروض المعايدة لقداسة البطريرك كالعادة فسأله الجوهرى عن سبب ابطائه فأخبره بحادث الأمس فأجابه الجوهرى « كيف جاز لك أن تنفرد وحدك بهذا العمل الصالح وتستأثر بثوابه ولا تشركنى فيه » ثم انطلقا الى البطريرك ليفصل لهما فى الأمر فقال للمعلم ابراهيم هو أطلقه من السجن وأنت ساعده على ايجاد عمل وكان كذلك ٠

وعلم مرة أن موظفا قبطيا مضى على رفته نصف سنة فسعى له على عمل واستدعاه اليه ليقيمه فيه فجاءه الجواب من الرجل ان فلانا أولى بهذه الوظيفة لأنه رفت قبلى بشهر وليس له ما ينفقه على عائلته أما أنا فبحمد الله أجد ما يكفينى فكان من المعلم ابراهيم أن وظف الاثنين ٠

وكان من عادته نظرا لكونه ناظرا لكنائس القاهرة ومصر القديمة وما يجاورها أن يخصص لكل دير أو كنيسة أوقاتا معلومة ليقتدى به باقى المعلمين ففى مرة قصد دير بابلون الدرج فى يوم رفاع وبعد صلاة القداس توجه كل الى منزله الا واحد رآه المعلم ابراهيم يصعد الى التل فكلف خادمه أن يتتبعه فرآه يصلى وبعد الصلاة بحث حتى وجد وزة ميتة فشكر ربه وأراد النزول وكان الخادم قد سبق وروى الخبر للمعلم ابراهيم قبل نزول الرجل فاستدعاه اليه ووبخه لأنه لم يكشف له حقيقة حاله وكان قد أرسل له كل ما يحتاج وأوصاه أن لا يخفى عنه أمره اذا تضايق ثانية ٠

وقيل أن فقيرا أراد أن يمتحن سخاءه المفرط الذى وصل اليه خبره فتعقبه فى يوم من الأيام من بيته الى محل شغله وكان يعترضه فى الطريق وكل مرة يقصد أن يريه أنه هوهو السائل بعينه ويلتمس منه على

اسم المسيح وكان من عادته اذا سمع هذه الجملة لا يخيب رجاء قائلها مطلقا حتى بلغ عدد المرات التى طلب بها الصدقة منه وأعطاه اياها ثمانى عشرة وبعد ذلك قال له طوباك يا جوهرى الرب معك فقال له لاتتعجب أتطالبنى بهذا المال المودع عندى وأنا أتأخر عن السداد ما أنا الا الأمين والأمين لا ينبغى أن يخون ٠

وكان من عادته فضلا عما يرسله للاديرة والكنائس أن يولم فى كل عيد وليمة عظيمة للفقراء والمساكين فشعر مرة أن خدمه قصروا فى استكمال ما يجب لوليمة أقامها فى كنيسة القديسة بربارة بمصر القديمة فوبخهم شديدا قائلا لهم « ان هؤلاء الفقراء ضعفاء فيجب علينا أن نواسيهم ونطيب قلوبهم ونجبر خواطرهم الكسيرة ببعض ما نملك من نعم الله ٠ ومخلصنا لم يأمرنا بالاهتمام بالأغنياء بل بالمساكين الذين ليس فى طاقة أيديهم أن يكافئونا عما نعمله معهم من الخير لكى يتولى هو مكافأتنا بالأجر السمائى فى اليوم الأخير » ٠

وبالجملة فكان المعلم ابراهيم مثال السخاء والاحسان فلم يكن يخيب سائلا أتاه دون أن يميز بين انسان وآخر فضلا عما كان يرسله سنويا من الزاد والمؤونة لجميع أديرة الرهبان ولكى يتمم الله معه القول « الذى يحبه الرب يؤدبه » اختطف منه ابنه الوحيد فحزن الرجل حزنا شديدا وأفرطت زوجته أيضا فى الحزن والبست كل شىء فى بيتها ثياب الحداد ٠ ولما جاء ميعاد ارسال مؤونة الأديرة قالت له امرأته كيف تهتم بالكنائس والفقراء والأديرة والله لا يحفظ لنا وحيدنا لنتمتع به فوافقها وامتنع عن أن يقدم شيئا ٠

قيل أن القديس أنطونيوس أبا الرهبان تراءى لزوجة المعلم ابراهيم بشكل نورانى وعزاها قائلا « ان الله أحب الولد ونقله اليه شابا وأحب الوالد لأن من ذا الذى يعرف مقاصد الله فربما أفسد شهرته وعاب اسمه وذلك أفضل جزاء فلا تفشلى فى عملك الذى كنت عليه من قبل وأمرها أن تعزى زوجها وكان المعلم ابراهيم من يوم انتقال ولده ينام فى مكان وزوجته فى آخر فأصبح الصباح ورأى المعلم ابراهيم زوجته قد أبدلت ثيابها السوداء بثياب بيضاء وعلامات السرور بادية على وجهها فسألها ما الخبر ؟ فقصت عليه حلمها فتعزى هو أيضا وشكر الله على أعمال عنايته العجيبة ومن ثم زادا فى عمل الخير والاحسان ٠

وحدث أنه كان يوما يصـلى بكنيسة أبى سيفين بحـارة زويلة فأرسل للقمص ابراهيم عصـفور خادم كنيسة القـلاية يقول له المعلم يطلب الاسراع فى الصـلاة ليتمكن من اللحـاق فى الـديوان فرد عليه القمص بصـوت مسموع « المعلم فى السماء والـكنيسة لله وليست لأحـد فان لم يعجبـه فليبن كنيسـة أخرى » أما المعلم ابراهيم فعوضـا عن أن يغيظـه هـذا الـكلام سر منه وابتهج واستعجل ببنـاء كنيسة أخرى ٠ فقال له القمص احمد الله الذى جعل غضبك فى بنـاء كنيسة أخرى فزادت مبراتك وحسناتك وكنت أنا السبب » ٠

ويضيق بنـا المقـام لو أتينـا بذكر الـكنائس التى شـيدها والأديرة التى جـددها والأملاك التى أوقفهـا باسمه أو باسم أخيـه جرجس أو باسم ابنـه الوحيـد المتوفى أو باسم بنـاته والـكتب التى اهتم بنسخها وقدمها هبـة للـكنائس ولم تزل غرر مآثره موجودة فى كل جهة ومكان حتى فى مدينـة القـدس فـكل ذلك يراه القـارىء مفصـلا بكتاب « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم » الجزء الأول فليطالعه من أراد التوسع ليعرف كيف ينبغى أن يكون البر وكيف ينبغى أن تكون الخدمة للصالح العام ٠

ومات المعلم ابراهيم سنة ١٢٠٩ هـ فكان لموته رنة حزن وأسى فى جميع انحـاء القطر ورثاه الأنبـا يوساب أسقف جرجا فى كتابه « سلاح المؤمنين » بمرثيـة بليغـة وحزن ابراهيم بك لموته فشوهد يمشى فى جنازته وهو يأسف على فقده أسفا عظيما ٠

قيل أنه كان من المترددين عليه فقير يقصـده فى مواعيد معلومة فلما حضر وسأل عنه أخبروه بوفاته فحثى الرجل التراب على رأسه وسألهم أن يدلوه على مقبرته وهنـاك بكاه كثيرا حتى أخـذته سنة من النوم فتراءى له الفقيد الـكريم وقال له لا تبك أنا لى فى ذمة فـلان الفـلانى الزيات فى بولاق عشرة بنادقة فسلم عليه من قبلى واطلبهـا منه وهو يعطيها لك وتراءى له كذلك على ثلاث مرات ومن ثم توجه الفقير للرجل فوجد كما قال له الا أنه لم يجسر أن يطالبه بالمبلغ ولمـا رآه الرجل متحيرا فسأله عن أمره فقص عليه الخبر فاعترف بالمبلغ وسلمه له ٠

وروى أيضا ان بعض الأشرار وشوا فى ابنـة المعلم ابراهيم المدعوة دميـانة الى الوالى بأنهـا تحفظ أموال أبيهـا التى أخـذها من الحكومة فلما سئلت عن ذلك استمهلته حتى تحضر ما طلبـه ثم طافت القاهرة تجمع

الفقراء والمعوزين وأحضرتهم اليه وقالت له ان أموال أبى هى مودعة فى بطون هؤلاء فلما عرف الوالى الحقيقة صرفها ونكر والدها بالخير ٠

ويقال انه للان توجد عائلة سريانيــة شهيرة بحلب تخصص أياما من السنة لرفع قداديس على اسم هــذا الرجل الفاضل وسبب ذلك ان جد هذه العــائلة كان تاجرا شــهيرا وحاول الــكاثوليك أن يجــذبوه الى مذهبهم فأبى اطــاعتهم ولمــا عجزوا عن اقنــاعه اغتاظوا منه ونهبوا أمواله وطردوه من حلب فأتى الى مصر وتعرف بالمعلم ابراهيم فأواه مدة حتى جدد ثروته وعاد الى بلده ٠

٣ ـ المعلم جرجس الجوهرى :

لمــا مات أخوه المعلم ابراهيم قلده ابراهيم بك زميل مراد بك منصــبه وسار على خطتــه ونسج على منواله واقتــدى بأخيــه فى كل شىء حتى نال ثقتــه عنــد جميع المصريين على اختلاف أجناسهم ٠ وكان بين الــكتبة النصــارى الذين تحت ادارته رجل يسمى يوسف كساب من عائلة سورية الأصل ســولت له نفســه الأمارة بالسوء أن يسعى به عند مخدومه وهو اذ ذاك اسماعيل بك واتهمه بما ليس فيــه واذ كان المعلم جرجس محسوبا على ابراهيم بك خصم اسماعيل بك صــدق كلام الواشى وغضب على المعلم جرجس وأنزله من منصبه وعينــه بدله رئيسا على الدواوين وبعــد مدة وجيزة ظهر لاسماعيل بك كذب يوسف المــذكور وخيــانته فأمر بتغريقه فى نهر النيل وأعاد المعلم جرجس الى منصبه ٠

ولمــا انتصر عساكر الفرنسيس على الممــاليك وعــدوا الى بولاق كلف المعلم جرجس الجوهرى رئيس المبــاشرين أن يعــد هذا البيت لنزول نابليون فيــه ففرشه وجهزه ولمــا دخل القاهرة أقام به ومن ذلك الحين عرف نابليون المعلم جرجس الجوهرى وأهــداه جبــة مزركشة بالقصب ليلبسها فى أيام التشريفــات ٠ ولمــا ســافر نابليون الى الســويس لقطع شأفة ابراهيم بك استصحب معــه بعض الأعيــان والمــديرين وفى مقــدمتهم المعــلم جرجس الجوهرى الذى كان يعتمد عليه فى مهــام الأمور كما أنه رافق الفرنساويين هو وبعض أعيــان الأقبــاط الى الوجــــه البحرى لتقــرير الصــــلح بين المتقــاتلين ٠ وذكر الجبرتى أنه لمــا احتفل الفرنساويون بأحــد أعيــادهم دعوا أعيــان المصريين كان المعلم جرجس بينهم لابســا ملابس الافتخــار ٠ ولمــا حــدثت الثورة ضــد الفرنساويين طلب المعلم جرجس وبعض أعيان

الأقبـاط من مقـدمي المسلمين الأمان لأنهم انحصروا فى دورهم فى وسطهم وخافوا على نهب بيوتهم اذا خرجوا فارين فأرسلوا اليهم الأمان وقابلوا البـاشا والـكاتخدا والأمراء وأعانوهم بالمال واللوازم ٠

وحدث فيما بعد انقـلاب انتهى بتوليـة محمـد على باشا حكم مصر فنـال المعلم جرجس فى عهده المركز الأول ٠ غير أن الحظ خالفـه وذلك أن محمـد على باشا طالبـه كثيرا بمبـالغ طـائلة وهو يستمهله لعـدم وجودها معه ٠ ولمـا توقف عن تحصـيل النقود التى كان محتاجا اليهـا قبض عليه ومعـه بعض الأقبـاط بحجة أنه متأخر عن دفع ما عليه من المال وحجزوا فى بيت كتخـداه وأقام فى منصبه المعلم غالى الذى كان كاتبا عند الألفى عدو محمد على باشا ٠

وبعد سـبعة أيام أفرج عن المعـلم جرجس ومن معه بشرط أن يدفع أربعـة آلاف وثمانمائة كيس فدفع جزءا عظيما منه ووزع البـاقى على الـكتاب والصيارف ما عدا المعلم غالى وشخص آخر يدعى المعلم فيلوثاؤس وضـاق بوجهه الحـال فاضطر أن يبيع أفخر أملاكه التى كانت بجهـة الأزبكية بقنطرة الدكة ٠ وبعـد ذلك خانه السعد فنزع محمد على باشا كل ما كان له وباعه بالمزاد ٠

وقيل أنه نفى الى الصعيد بأمر محمد على باشا وقيل أنه هو الذى هرب من تلقـاء نفسـه ٠ وقبـل ذهابه جمع كل حجج أملاكه وسلمها فى البطريركية لتنفق من ريعهـا فوضعت اليـد عليها وبقيت فى حوزتها للآن وصرح له بالعودة بعـد أربع سـنوات فعـاد الى القـاهرة فى ١٣ شوال سنة ١٢٢٤ هـ وقابل البـاشا فأكرمه ثم نزل بيتـه الذى بحارة الونديك وكان قـد فرشـه له المعلم غالى وحضر عالى القوم ودونهم من مختلف الأجناس للسلام عليه وعاش الى أن تنيح فى سنة ١٢٢٥ هـ ودفن بمصر العتيقة بدير مار جـرجس ولا يزال قبره موجـودا ولـكنه تخـرب وليس من يفـكر فى اصـلاحه ٠

٤ ـ الأمير يعقوب ومهاجرة شبان الأقباط لفرنسا :

يظهـر أنه كان منصرفا عن حـرفة الـكتابة الى اقتنـاء الأمـلاك والمتـاجرة ٠ وتعرف به الفرنساويون حال احتـلالهم لمصر ولمـا تبينوه فيـه من النشـاط والحزم كلفوه بجمع الغرامة التى فرضـوها على أهالى

القاهرة ولما رأى الجيش الافرنسى لسوء تدبير الجنرال مينو آخذا فى التناقص اتفق مع الفرنساويين على تجنيد بعض شبان الأقباط فجمع من الصعيد نحو الألفين منهم فقبلهم الفرنساويون ودربوهم على حمل السلاح والقتال وتعلم يعقوب الحركات العسكرية وترأس الفرقة القبطية والحق بخدمة الجيش الافرنسى ومنح رتبة الجنرال (القائد) الا أن آباء الشبان الأقباط وذوى قرباهم لم يكونوا قد الفوا هذه الخدمة فلجأوا الى الأنبا مرقس ال١٠١ ليتوسط لهم لدى الجنرال يعقوب حتى يطلق سراح أولادهم فلم يذعن له وبنى قلعة بجهة الجامع الأحمر بالأزبكية وسماها قلعة يعقوب ٠

ولما دبرت مكيدة لاغتيال الأقباط وجه يعقوب كل همه للدفاع عن اخوانه أقباط القاهرة وبدأ بهدم بعض البيوت التى خربت فى الحوادث الأخيرة وبنى بأنقاضها سورا عاليا منيعا حول الحى الذى جمع الأقباط فيه وشيد أبراجا فوقه داخل السور وعمل للسور بوابتين ورتب جنديين قبطيين يقفان على كل باب والسلاح على أكتافهما لمنع كل من يحاول الدخول فأصبح المكان حصينا وتمكن يعقوب من أن ينجى قومه من مذبحة مريعة ٠

ولم يكن فى امكان يعقوب البقاء فى مصر بعد خروج الفرنساويين منها فخرج مع الجيش الفرنساوى هو وأكثر رجال فرقته خشية من اضطهاد المسلمين لهم لأن الفرنساويين كانوا قد ولوا منهم أفرادا فى مناصب عالية وفى عدادهم المعلم أبو طاقية الذى كان يفصل بين المسلمين فى الأحكام الشرعية ولم يعد الى القطر المصرى بل استمر فى فرنسا حتى مات بعد مهاجرته اليها ببضع سنوات ٠

قيل ولم تكن العلاقة بينه وبين البطريرك كما يجب وذلك بسبب أخذه لامرأة من غير جنسه بطريقة غير شرعية ومخالفته لقومه فى الزى والحركات حتى أنه لما مات سنة ١٢١٨ هـ طلبت زوجته الاستيلاء على ما يخصها فى تركته فعارضها اخوته بدعوى أنها غير شرعية ٠

وممن خرج مع الفرنساويين أيضا من جنود يعقوب بقطر واسمه الياس بقطر صاحب القاموس الفرنساوى والعربى المشهور والبعض يقول انه ابن أخى يعقوب ولد بأسيوط سنة ١٧٨٤ م عينه نابليون مترجما لجيشه وبعد مهاجرته نال مركزا علميا ساميا بفرنسا ووضع القاموس

المشـار اليـه ومما ينبغى الاشـارة اليـه أنه أول من درس من الأقباط اللغة الفرنسية ·

وقيل أن الأقبـاط الذين هاجروا الى فرنسا حينئذ أضـاعوا جنسيتهم هنـاك ولم يبق لأسماء اسراتهم أثر يذكر ومنهم الـكولونيل مكاريوس حنين والـكولونيل غبريال سيداروس والـكولونيل حنـا هـرقل والقومنـدان عبد الله منصـور · وقـد روى بعض الثقـاة أن الخـديوى اسماعيل استحضر مرة جمـاعة من الممثلين والممثـلات من فرنسـا ومن هؤلاء الممثـلات آنسـة تعرف بمـدام منصـور نسبة الى جـدها الأدنى أو الأعلى المعلم منصور القبطى أحد المهاجرين من مصر الى تلك الديار ·

٥ ـ المعلم ملطى :

كان كاتبا عند أيوب بك الدفتردار من مماليك محمد بك أبو الذهب · ولمـا احتل الفرنسيون البـلاد كونوا ديوانا للنظر فى القضـايا العـامة وجعلوا المعلم ملطى رئيسا عليه بموافقـة أعضائه من مسلمين ونصـارى وذلك لمـا امتاز به هذا الرجل العظيم من الخبرة وحسن التدبير ·



« ثلاثة من معلمى القبط بينهم المعلم ملطى والجنرال يعقوب »

واستمر المعلم ملطى يدير الديوان بمهارة مدة حكم الفرنساويين وبعد خروجهم القى القبض عليه وقطعت رأسه عند باب زويلة ·

٦ ـ المعلم أنطون أبو طاقيـة :

اشتهر فى مدة حكم الفرنساويين وكان مثريا فزاره نابليون فى أواخر سنة ١٧٩٩ م وكان محتـاجا للمـال فنزع المعلم أنطون طاقيتـه من فـوق

رأسه وأخذ يملأ بها المال حتى استوفى نابليون حاجته • فارتفعت قيمته فى عينيه فولاه فى وظائف كبيرة فقام بها خير قيام الا أنه رفع كثيرا من الأموال والضرائب عن الأهالى فلم يرق عمله فى نظر الفرنساويين فقبضوا عليه وسجنوه فى القلعة حتى يدفع ما تأخر عليه من حساب البلاد فدفعه من ماله الخاص فى الحال • ولما ترك الفرنساويون مصر قبض عليه محمد باشا أبو مرق مع اثنين من كبار الأقباط هما المعلم ابراهيم زيدان والمعلم عبد الله بركات وقتلهم سنة ١٨٠٢ م وأمر ببيع مالهم فى المزاد فوجد عند المعلم أنطون كثير من ثياب وأقمشة هندية نفيسة وأمتعة ومصاغ وجواهر وساعات وأوانى ذهب وفضة وكثير من العبيد والجوارى واستمر سوق المزاد فى ذلك عدة أيام •

وفى سنة ١٨٥٣ م سافر المعلم ابراهيم عوض حفيد المعلم أنطون الى باريس ليطالب بالمال الذى دفعه جده الى نابليون امبراطور فرنسا فرد عليه نابليون الثالث يقول ان هذا المال كان قد فرض على الأقباط فدفعه عنهم أبو طاقية الا أنه دفع له أجرة نفقات مبلغ ٤٥٠٠ ليرة فرنساوية •

القسم الثالث
المملكة والكنيسة

(١) سلطنة محمود بن مصطفى
(٢) عبد الحميد الأول
(٣) سليم الثالث واحتلال الفرنسويين لمصر

---

١ _ سلطنة محمود بن مصطفى فى سنة ١٧٣٤ م :

وفى أيامه كان الانكشارية الأتراك يحصلون من الأقباط ضريبة عن الأنفس واشتدت ضيقتهم بواسطة تركى من الاستانة رشى السلطان حتى اشترى امتياز هذه الضريبة وجاء الى مصر وصار يحصل من هؤلاء الأقباط البؤساء أضعاف ما كان يحصله منهم الانكشارية •

وفى أثناء النصف الأول من القرن الثامن عشر عاش الأقباط بسلام لأن المسلمين كانوا مشغولين بمقاتلة بعضهم الا أن قدرتهم الصناعية انحطت بسبب توالى نزول المصائب عليهم فلم تكن لهم قابلية تامة للتفنن

فى اتقان صناعتهم لاسيما ولم يكن فى امكان القبطى أن يبقى فى بيته شيئا يستحق السرقة ويستمر عنده يوما واحدا ٠

وفى سنة ١٧٣٣ م أمر حاكم كل قسم بأن يفرض ضريبة على الأقباط الساكنين فى دائرته وكانت تحصل منهم على ثلاث درجات الدرجة الأولى تدفع ٤٢٠ بارة عن كل نفس والثانية ٢٧٠ والثالثة ١٠٠ والزم البطريرك بدفع الضريبة عن القسوس والخدام ومع كل ذلك لم يصدر أمر رسمى باضطهادهم غير أنه فى الوقت الذى كان فيه المماليك يقاتلون بعضهم كان العرب يهجمون على البلاد وينهبون البيوت ويقتلون الرجال ويسبون النساء ٠ وانتهزوا هذه الفرصة مرة فهجموا على مدينة اخميم فى الوجه القبلى وكان معظم سكانها من النصارى أهل الكد والعمل فنهبوها وخربوها وقتلوا كثيرا من أهلها ٠

وهكذا كان بين آن وآخر يحدث استبداد وضيق على الأقباط المسيحيين وعلى الذين أسلموا منهم أيضا بسبب اختلال النظام وفساد الأحوال ولما استولى العرب الهوارة على معظم بلاد الوجه القبلى انتمى القبط اليهم فأدخلوهم فى ذمتهم وحماهم فصار القبطى يخاطب العربى المنتمى اليه « بدويى » والعربى يسمى القبطى الذى تحت حمايته « نصرانيى » وهكذا كانت عيشتهم فى هذه المدة راضية نوعا ٠

بل ان الحكومة اضطرت لاحتياجها الى أناس ذوى فطنة أن تستخدم الكثيرين من الأقباط فى أعمالها فقاموا بتنظيمها أحسن قيام فوضعهم كبار المسلمين وعظماؤهم والولاة والحكام موضع ثقتهم وسلموا اليهم ادارة المصالح والأشغال والحسابات وكثيرا ما كانوا يكنون بأسمائهم فيقال مثلا المعلم غبريال السادات والمعلم يوسف الألفى والمعلم منقريوس المورلى وغير ذلك نسبة لمخدوميهم الذين اعتقدوا فيهم الأمانة والاخلاص فعهدوا اليهم بمسائلهم الشخصية فكانوا يدبرونها أحسن تدبير وأدى ذلك الى الاعتقاد بأن الأقباط على بينة تامة بالسحر والتنجيم والعرافة ٠

ومن ذلك قيل أنه فى شهر يونية سنة ١٧٣٤ م ادعى رجل قبطى من أهل التخيلات الفاسدة أن العالم سيقضى يوم الجمعة المقبل فذاع الخبر فى كل مكان وحل الهلع فى القلوب ولما سئل عن حقيقة الخبر قال مؤكدا « احبسونى فى أى مكان شئتم واذا لم يتم قولى اذبحونى » فزاد خوف الناس ٠ ولما جاء الميعاد ولم يحصل شىء لم يكذبه الناس بل قالوا ان الأولياء التمسوا من الله أن يعفى عن العالم فعفى عنه ٠

وكان محظورا على الأقباط ومحرما عليهم زيارة القدس ففى سنة ١٧٥٣ م سعوا لينالوا تصريحا بزيارته ولو كلفهم ذلك المبالغ الطائلة ليرشوا بها الحكام · وكان لأحد كبار المماليك سكرتيرا قبطيا له نفوذ كبير عنده فتمكن بواسطته من مخابرة شيخ الجامع الأزهر فقبل أن ينظر فى الأمر على شرط أن يدفع له مبلغ الف دينار لكى يصدر فتوى تبيح للاقباط الذهاب الى القدس والعودة منه بسلام دون أن يصيبهم مكروه فدفع الأقباط هذا المبلغ وأصدر لهم الفتوى فكان سرورهم عظيما وتأهبوا للذهاب الى القدس وعينوا مكانا فى الصحراء الشرقية الملاصقة للقاهرة ليجتمع فيه المسافرون ومنه يسيرون بطريق البر ·

فكان يفد الى ذلك المكان كل يوم مئات من الأقباط رجالا ونساء وجهزوا الجمال اللازمة لحملهم وحضر لوداعهم كثيرون من أقاربهم ومعهم كثير من الهدايا الثمينة للقبر المقدس واستأجروا بعض العربان لحراستهم فى الطريق ·

فوصل الخبر الى مسامع المسلمين فتذمروا على عبد الله شيخ الجامع الأزهر الذى أصدر تلك الفتوى خصوصا لما علموا أنه أخذ رشوة قبل الافتاء وبقشيشا بعده فسخطوا عليه كثيرا · ولما رأى أن الانكار لا يجديه نفعا دعا جميع طلبة الأزهر وكثيرين من الرعاع والأوباش وحثهم على اقتفاء أثر الأقباط وارجاعهم بالقوة قبل سفرهم فأسرعوا الى المكان الذى كان الأقباط يجهزون فيه أمتعتهم وانقضوا عليهم انقضاض الصواعق والسيوف تلمع بأيديهم وبدأوا يفتكون بكل من يتمكنون من القبض عليه فترك الكل جميع أمتعتهم وفازوا من الغنيمة بالاياب فأخذ الثائرون الأمتعة وعادوا بها فرحين مغتبطين وقد بذل أغنياء الأقباط مجهودا عظيما لارجاع ما فقد منهم من الأمتعة فضاعت مجهوداتهم عبثا ·

٢ ـ عبد الحميد الأول سنة ١٧٨٤ م :

وفى أيامه عهد لحسن باشا بقمع المماليك فدخل القاهرة ولم يسلم الأقباط من يده فأعاد عليهم كل القوانين الجائرة التى كانت تسن ضدهم فى العصور الأولى وقعد متربصا عله يجد فرصة مناسبة لسحقهم فأنزل كبارهم من وظائفهم التى وصلوا اليها فى مدة على بك الكبير

ووضعهم فى وظـائف حقيرة ثم جعل ينهب منازلهم ومنازل أولادهم ويهدمها ويغتصب ممتلكاتهم ٠

ولم يكتف بذلك بل أمر المنـادين أن يصيحوا فى شـوارع القـاهرة محذرين الأقبـاط من ركوب دابة ومن أن يقتنوا عبدا أو جارية أو يسموا أحد أبنـائهم بأسماء الأنبيـاء أو الرسل المـذكورين فى التوراة وتوصـل حسن بذلك الى اغتصـاب كل جوار وعبيد الأقبـاط وصرح لعساكره بطرد كل جارية أو عبد يجدونه فى بيت قبطى وجمع حسن باشا كل هذا الرقيق الى القلعة وهنـاك باعه بثمن فادح واضطر الأقبـاط ايضـا الى الخضوع للامر الثـانى فغير الموظفون عند المسلمين أسماءهم وعرف القبطى باسمين اسم ينـادى به فى مركز عمله واسم ينادى به بين أهله ٠

وبعد ذلك أمر حسن باشا باحصـاء الأقبـاط وبيوتهم وقرر عليهم جزية ٥٠٠٠ كيس نقـدية يدفعونهـا للحكومة وضـاعف ضريبـة الأنفس لاسيما على الذين خرجوا مع مخدوميهم الأمراء صحبة مراد بك وابراهيم بك العـاصيين اللذين جاء لاذلالهما فقـد زاد عليهم الضريبـة ضـعفا آخر حتى بلغت ٧٥٠٠٠ ريال ولا يخفى ما حصل للحريم من الاهانة فى تحصيلها حال غيـاب أزواجهن الرجال وكان بين الـكتاب المباشرين رجل يدعى المعلم واصف فقبض عليه وحبسـه وضربه وطالبـه بالأموال وكان المعلم واصف كما روى الجبرتى يجيـد التركية ويعـرف الايراد والمصـاريف وعنـده نسخ من الرزنامة ويحفظ الـكليات والجزئيـات ولا يخفى على ذهنـه شيء من ذلك ٠

والزموهم بلبس زيهم الأصلى من شد الزنار والزنوط فتسلط العامة عليهم وتتبعوهم بالايذاء ومن وجـدوه بغير زنار رجموه بالحجارة وحثوا التراب فى وجهه فانكمشوا وانعكفوا عن الخروج أياما وأرسل حسن باشا يطلب من قاضى القضـاء احصاء ما أوقفـه المعلم ابراهيم الجوهرى يومئذ على الـكنائس والأديرة ثم أحس بما وراء ذلك من الفشل وظهور الفتنـة فخاف واسـتدعى اليه المعلم ابراهيم وكلمه فى الأمر فصالحه المعلم ابراهيم على مبلغ عظيم من المـال فأمـر فنودى فيهم بالأمان وعـدم التعرض لهم بمكروه ٠

وعمت الشدة جميع النصارى فضربت عليهم غرامة أخرى فضـاقت الدنيـا بهم وباع الـكثيرون منهم جميع ماعندد حتى ملابسه وملابس عياله

وقرر على كل شخص منهم جزية قدرها دينار بلا فرق وذلك خلاف الجزية الديوانية المقررة على كل واحد منهم وتتبع حسن الأديرة وأخذ كل ماوجده فيها من ودائع ٠

وفى أوائل سنة ١٧٨٧ م مر عبدى باشا والى الدولة مع اسماعيل بك فى حى من أحياء المدينة فسأل عن اسم الحى فاجابه اسماعيل بك ان معظم سكانه من المسيحيين فامر للحال بهدم كل مافيه من المنازل ولم يتمكن الأقباط من تخليص منازلهم من الهدم الا بعد دفع ٣٥٠٠٠ ريال دفع السوريون منها ١٧٠٠٠ وهم دفعوا الباقى ٠

٣ ـ سلطنة سليم الثالث سنة ١٧٨٩ م واحتلال الفرنسويين لمصر سنة ١٧٩٨ م :

ولما دنا الفرنساويون من مصر رجاء احتلالها اجتمع المسلمون فى ديوان الحاكم وقر رأيهم على قتل كل مسيحى القاهرة الا أن عقلاءهم حذروهم من عاقبة هذا العمل الوخيم فاقتنعوا لكنهم استمروا يذلون الأقباط فكانوا يشتمونهم فى الطرقات مهددين اياهم بالذبح ٠ وهجم بعض الرعاع على كنائسهم وأديرتهم ومنازلهم بدعوى البحث عما فيها من الأسلحة ٠

ولما دخل الفرنسيون البلاد تظاهر معظمهم باعتناق الاسلام استجلابا لرضاء المصريين عليهم فاحتقر الأقباط منهم هذا النفاق ولكنهم لم يستبعدوه على قوم يتلقون التعاليم المسيحية من قصر الفاتيكان٠ وفى يوم من الأيام اجتمع شيوخ المسلمين بالجامع الأزهر ونادوا فى الشوارع أن كل من يوحد الله يمضى للجامع الأزهر لأن هذا هو يوم محاربة الكفار فقامت ثورة ضد الفرنساويين فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٧٩٨م وذبحوا كل من كان يمر منهم فى الشوارع ولما كان المسلمون يعرفون أن الأقباط والفرنساويين على دين واحد ذبحوا كثيرين من الأقباط أيضا ٠

وقد حاول الأتراك استرجاع مصر من يد الفرنساويين وفى أثناء اشتباك القتال بينهما تخلف قائد تركى يدعى ناصف باشا ودخل القاهرة ودار فيها يذبح وينهب المسيحيين وتهيج المسلمون عليهم فطافوا الشوارع يبحثون فيها على كل مسيحى ليوقعوا به فقتلوا نصارى بولاق ونهبوا بيوتهم وقبضوا على كثيرين من الرجال وذبحوهم بلا رحمة ٠ أما النساء فكن يجلدن عرايا وتقطع رؤوس أطفالهن أمامهن ولم يخلص الأقباط من

هـذا الويل ســوى ضــابط تركى اسمه عثمان بك قال لنــاصف حسن باشا علنــا « ليس من العــــدل اراقـــة دماء رعايا الدولة ضــد ارادة مولانا السلطان » فانقطع الاضــطهاد وبعــد ذلك صــار القتل فى النصــارى عاما فــذهبت طائفــة الى حاراتهم وبيوتهم التى بناحيــة بين الصــورين وباب الشعرية وجهة الموسكى فصاروا يهجمون على البيوت ويقتلون من يصادفونه من الرجال والنساء وينهبون ويأسرون ٠

وقال الجبرتى « وحضر أيضــا رجل مغربى والتف عليه طائفــة من المغــاربة وفعل أمورا فظيعــة للغــاية فــكان يتجسس على البيوت التى فيهــا الفرنســاويون والأقبـــاط فيهجم عليهم ويقتلهم وينهبون ما عنــدهم ويسجنون النســاء ويسلبون ما عليهن من الحلى والثيــاب ومنهم من قطع رأس البنيــة الصغيرة طمعــا فى ما على رأسها وشعرها من الذهب » أهـ ولمــا انتصر الفرنساويون على الأتراك فر اليهم أكثر المسيحيين محتمين بهم ٠

ثم انتشب القتــال مرة أخــرى بين الدولتين فأعيـــدت الــكرة على الأقبـــاط فــكان يقتل منهم كل يوم خلق كثير وكادوا يهلــكون عن آخرهم لولا أن رجلا حازما منهم يدعى يعقوب دبر طريقــة لنجــاتهم كما ذكر فى ترجمتـــه فابتنى لهم حصــنا لحمــايتهم ولــكنه تهــدم فيمــا بعــد حينما تركه الأقبــاط فى عهــد اطمئنــانهم كمــا هجر الأقبــاط حيهم فى ذلك الحين وهو الموجود الآن بكلوت بك ولم يبق من الأحيــاء القبطيــة القــديمة غير أماكنهم فى حارة الروم وزويلة ٠ وأخــذ الأقبــاط الحــذر من ذلك الحين فقووا جــدران بيوتهم ورفعوا أســوارها الى حــد يتعــذر على الهاجمين الصعود اليها وبعضهم كسا أبوابهــا بمسامير حــديد كبيرة ذات رؤوس جافية متلاصقة ببعضها حتى لاتؤثر فيها الآلات الحادة ٠

ولمــا اســتقر الفرنساويون فى مصر ســاووا بين أهل الأديان حتى أنهم لمــا شرعوا فى ترتيب ديوان للنظر فى قضـــايا التجــار الفوه من اثنى عشر عضــوا ستة منهم من النصــارى القبط وســتة من تجــار المسلمين وجعلوا المعلم ملطى القبطى رئيســا له ٠ وحــدث أن نصرانيــا جاهر مرة بشرب الدخان نكاية فى المسلمين فغضب عليه أحــد المشايخ وضربه ولمــا وصل الخبر للحــاكم الفرنساوى أدب القبطى والزمه بالخضــوع لعوائد البــلاد وقبل هــذا التــاريخ أسلم رجل من عائلة قبطيــة ودعى محمــد المهدى فعظم أمره واشتد ساعده ٠ وقيل أن الأقباط حال دخول الفرنساويين

لمصر طلبوا منهم منع الضيق الحال بهم فرد عليهم المباشر العام يعدهم بالحماية وبمعاقبة الذين يسعون فى ذبحهم ووعدهم اذا أرجع لهم حقوقهم أن يعاملوه بالأمانة ثم مدح بطريركهم على فضائله وحسن مقاصده ٠

وكان اذا مر أحدهم على الجامع الأزهر ينزل من على حصانه ولا يمر به راكبا غير أن بعض الجهلاء ثاروا على أثر ربط الفرنساويين العوائد على الأملاك وتعصبوا ضدهم وارتكبوا فظائع فهددهم الفرنساويون بضرب المدينة ولا سيما الجامع الأزهر ، ولما لم يرتدعوا خربوا منازل كثيرة حول الجامع ودخل الجنود الجامع فآهانوه اهانة عظيمة ٠

وفيما بعد قتل كليبر قائد الفرنساويين وخلفه آخر يدعى مينو فلكى ينال عطف المسلمين اعتنق ديانتهم ودعا ذاته عبد الله وأسلم معه ابنه وسماه سليمان ورفت كل الموظفين المسيحيين من أقباط وأجانب وسلم كل الأعمال للمسلمين وجعل قانون الأحوال الشخصية المتعلقة بالميراث والزواج وفقا للشريعة الاسلامية ٠

وعند خروج الفرنساويين من مصر كان سخط المسلمين على الأقباط شديدا بسبب المساواة التى تحصلوا عليها بهم فى زمنهم وظهورهم راكبين الخيل وحاملين السلاح فلهذا وقع الأقباط تحت ضنك شديد بعد خروج الفرنساويين فدار فيهم السلب وهدمت بيوت كثيرة لهم وكان يعرض حياته للخطر من يتجاسر منهم على بناء بيت أو كنيسة ٠

القرن التاسع عشر

القسم الأول

تاريخ البطاركة

(١) بطرس ٧	(٢) كيرلس ٤
(٣) ديمتريوس ٢	(٤) كيرلس ٥

١ - بطرس ٧ - البطريرك المائة والتاسع :

ولد بقرية الجاولى بمركز منفلوط ولذا اشتهر باسم بطرس الجاولى. وكان يدعى أولا منقريوس ورسم قسيسا بدير القديس انطونيوس باسم مركوريوس ثم رقى الى درجة الايغامانوسية لما لاحظه فيه رئيس الدير من التقشف والاستقامة ولبث مواظبا على أفعاله النسكية حتى بلغ خبره مسامع البابا مرقس سلفه فاستدعاه اليه وكان فى حاجة شديدة الى رجل صالح يرسمه مطرانا للحبشة فانتخبه لهذه الوظيفة غير أن عناية الله أخرت تعيينه وحفظته لما هو أسمى من ذلك . الا أنه رسم مطرانا على الكنيسة عموما باسم وكيل الكرازة المرقسية ودعى ثاوفيلوس فأقام مع البابا مرقس فى الدار البطريركية وشاطره فى القيام بجميع مصالح الأمة الى أن توفى البابا مرقس فأجمع رأى الكل على اقامته بطريركا وقد تم تعيينه فى يوم الأحد ١٦ كيهك سنة ١٥٢٦ ش و١٨١٠م بعد وفاة سلفه بثلاثة أيام وذلك فى عهد خديوية محمد على باشا . وهو أول من وضعت عليه الأيدى فى مركز البطريركية .

كان هذا البابا تقيا ورعا زاهدا متقشفا محبا للخير قليل الكلام مع هيبة ووقار يقضى يومه منكبا على المطالعة أو مواظبا على الصلاة خصوصا لأجل سلام كنيسته ، ويروى أن أحد أصحابه احتاج اليه فى أمر فدخل عليه حجرته فألقاه يصلى والدموع على خديه وليس عليه من الملابس الا ما يقيه من النظر فأمر بعد ذلك أن لا يدخل اليه أحد وهو منفرد . ولم يكن يهتم يوما بما يأكل أو يشرب حتى أنه اشتهى مرة طعاما فأبقاه الى أن انتن ومن ثم أكل منه رغما عن اشمئزاز نفسه تعنيفا لها وتبكيتا . ومثل ذلك يقال عن لباسه فلم ير يوما لابسا لباسا أنيقا أو

جالسا فى مكان يدل على الأبهة بل كان لا يلبس الا الصوف الخشن وينتعل مركوبا مكعوبا أحمر بملعقة ولا يجلس الا على الأرض أو على دكة ولا ينام الا على حصير من القش وبالجملة فكان وديعا متواضعا لم يزده ارتقاؤه الى رتبة البطريركية الا مبالغته فى انكار الذات فلم يغير نظام رهبنته حتى قيل انه كان يجدل الخوص فى أوقات فراغه ٠

وكان لا يتعرض الى أمر من أمور السياسة ولا يخرج من الدار البطريركية الا اذا دعته الحاجة واذا سار فى الطريق أرخى على وجهه لثاما أسود واذا تكلم فمع التأدب والحشمة ولا ينظر الى وجه سامعه ولم يكن يرغب فى حضور الأكاليل فى المنازل واذا طلب أحد وجوده لنوال بركة فكان يطلب حضور العروسين بالكنيسة صباحا ليناولهما الأسرار المقدسة بعد الاعتراف ٠ قيل أنه أصيب مرة بألم فى ركبتيه فوصف له العارفون لبس ثلاثة جوارب من الصوف فأبى بتة أن يبدل نظام معيشته النسكية معتقدا أن الله وحده هو الشافى ٠

وكان هذا البابا فضلا عن ذلك سامى الأخلاق واسع العقل كثير الرغبة فى اصلاح كنيسته وكان ميله شديدا لمطالعة الكتب الدينية والعلمية والتارخية حتى كانت تشغله المطالعة أحيانا عن الأكل والشرب ولهذا اهتم بنقل ونسخ الكتب النادرة ومن ضمنها سيرة القديس باخوميوس أبى الشركة وينسب معظم ما يوجد اليوم فى مكتبة البطريركية الى ما جمعه هذا البابا ٠ ووجد له مؤلف كتاب « نوابغ الأقباط ومشاهيرهم » فى مكتبة البطريركية كتابين بخطه فى الدفاع عن العقائد الأرثوذكسية الأول « مقالات فى المجادلات » والثانى « فى الاعتقادات ردا على المعاندين » وله أيضا مواعظ ورسائل وقصد بما كتب هداية من انسلخوا عن كنيستهم وانضموا للكنيسة الباباوية ٠

وأضاف البابا بطرس الى هذه الصفات الحلم فى الرئاسة والحكمة فى التصرف فأصبح موضوع الاحترام عند الجميع وفاز بحظوظ قلما سبقه فيها غيره فكانت الحكومة راضية عنه وكان قومه حاصلين على الأمن والرفاهية والكنيسة مشهورة فى القطر المصرى حاصلة على اقامة شعائرها ، ونال حظوة لدى الوالى وبواسطته نجح الأقباط وعهدت الحكومة اليهم فى الأشغال الكتابية والادارية ونالوا أوفر قسط من الحرية فكانوا يباشرون عبادتهم ويخرجون موتاهم وأمامهم الصليب بدون خوف ٠

وكان بالنوبة ١٧ أبروشية أيام أن كان أهلها يدينون بالمسيحية فلما خضعت لمصر بعد الفتح العربى سقطت حكومتها المسيحية وأبدلت بحكومة اسلامية ، ولما تم لمحمد على باشا فتحها سنة ١٨٢٠ م كان لايزال بها الوف من الأقباط وعاد الذين تظاهروا بانكار المسيحية الى الاعتراف بها وطلبوا أن يرسم لهم أساقفة فرسم البابا بطرس أسقفين على التعاقب وأرسلهما مع فيئة من الرعاة برضاء الهيئة الحاكمة ٠

وكان أفضل ما اشتهر به البابا بطرس زهده فى المال وكراهته له فلم تجد السيمونية اليه سبيلا بل كان لا يسمح بوضع اليد على أى كاهن ما لم يتأكد من حسن سلوكه ٠ وفى مدته صار تجديد كنائس بالأقاليم البحرية والقبلية ورسم فى عهده ٢٥ أسقفا ومطرانين للحبشة ومن الأساقفة المشهورين فى أيامه يوساب الأخميمى وأثناسيوس الغمراوى وتوماس المليجى وسرابامون المنوفى الشهير بأبى طرحه وسيرد تاريخ حياته ٠

وكان أقباط بلدة الجاولى مسقط رأسه متضايقين للغاية من قساوة العائلات الاسلامية القوية فيها فلكى يخلص البابا بطرس قومه من نيرهم استدعى اليه أكابر أقباط تلك البلدة وكلفهم بانتقاء مائتى فدان من أفضل أطيانهم وقدمها هدية لشريف باشا ورام بذلك أن يعين لها الباشا متى دخلت فى حوزته مندوبا من قبله كالحاكم يكون له وحده حق الاشراف على شئون البلدة وبذلك يمتنع استبداد المسلمين بالأقباط ٠ وكان الرجل الذى عينه شريف باشا بايعاز البابا بطرس قبطيا من اسيوط يدعى المعلم بشاى مليوش وأعطاه شريف باشا ٣٦ فدانا من المائتين ليزرعها ويعيش من ايرادها وبهذه الطريقة تمكن البابا من تحرير أقباط بلدته من الذل الذى كان واقعا عليهم ٠

ففاح حينئذ عبير فضائل هذا البطريرك الجليل فى كل مكان وأصبح ذكر اسمه مقرونا بكل اجلال واحترام وتقاطر الى مجلسه كبار العلماء المتدينين للمباحثة فكان يجاوبهم على أسئلتهم بكل حكمة ٠ ووشح الله علمه وتقواه بموهبة الآيات والعجائب فجرى على يديه منها الكثير ومن ذلك قيل أنه ذات يوم أتاه رجل مخبرا اياه بأنه ترك بيته مدة خمسة أشهر طلبا للمعاش ثانى يوم زواجه قبل أن يعرف زوجته ولما رجع اليها وجدها حبلى ولما سألها عن الحقيقة ازدرت به لعلمها

بأن أباها أسمى منـه مقـاما وأعلى مركزا فاسـتدعى البطريرك تلك المرأة فأتت مع والدها وأخـذ البطريرك يسـتخبرها عن الواقع وينصحها أن تعترف له فأبت أن تجيبه الا بقولها « ان حملى هو من زوجى » ولما أدرك البطريرك أنها تـكذب قال لها « ان الذى من الله يثبت والذى من الشيطان يزول » فلم تبال بهذا القول ولـكنها لم تـكد تضع رجلها على آخر درجات سلم البطريركية حتى سـقط الحمل . فلما علم البطريرك بذلك أصـدر حكمه بطلاقها لعلة الزنا . وقـد كان ذلك الرجل الوجيه يظن أن جاهه يحمل البطريرك على الحكم لمصلحته ولـكن البطريرك خيب قوله وقال له « ليس بينكم أحـد أقـوى من الضـعيف متى كان مع الحق ولا أضعف من القوى متى كان مع الباطل » .

وفى أيامه توقف النيل عن الزيادة فضج النـاس وعجوا وأمر الحاكم رؤساء الأديان برفع أصـوات الابتهـال الى الله لتزيد ميـاه النيل فصلى أولا المسلمون وعقبهم اليهود فلم يزد النيل قيراطـا واحد فطلب من البطريرك أن يصلى فتقدم الى سـاحل البحر ومعه بعض الأساقفة والـكهنة والشعب وعظمـاء الأمة ورفع الأسرار الربيـة وبعـد الانتهـاء القى الميـاه التى غسلت به الأوانى المقـدسة فى البحر مع قربانه البركة فشوهد البحر يتعالى حتى أخذ حده فى الزيادة ووصل الى المـكان الذى أقيمت فيه خيمة الصلاة قبل أن ترفع وكان ذلك فى ١٩ مسرى سنة ١٥٢٥ ش .

وبلغت أخبـار فضـل البـابا بطرس وتقواه مسامع محمد على باشا فأجله وأكرمه وأنزله عنـده منزلة سامية وحـدث لما احتل ابراهيم باشا الأراضى المقـدسة وشى اليه بعض الأشرار بأن ما يدعى به المسيحيون من ظهور النور على قبر المسيح هو زور وبهتـان فصدق ابراهيم باشا وشايتهم وزاده ريبـا علمه أن النور لا يخرج الا على أيدى بطاركة الأروام بالقدس. ولما كانت ثقـة ابراهيم باشـا وأبيـه بالبـابا بطرس عظيمة استدعاه اليه من مصر فسار البطريرك الى القـدس ولما علم ابراهيم باشا بقـدومه خف لاسـتقباله بحاشيته وقواد جيشه وعند حضور البطريرك أمسك بيديه وسـاعده على النزول من مركبه وأعلمه بالأمر الذى استقدمه بسببه وطلب منه أن يصلى ليخرج النور على يديه فأجابه البـابا بطرس والدموع تفيض من عينيـه « ان النور يظهر على يديك لا على يدى أنا الخاطىء » ولعلم البـابا بطرس بأن ذلك تترتب عليه عـداوة بين الروم والأقبـاط اعتـذر

لابراهيم باشا طالبا منه أن يكون حاضرا معه بطريرك الأروام ويكون هو معهما ليزول الريب فرافقهما ابراهيم باشا وكانت كنيسة القيامة قد فاضت بالجماهير والزائرين الى خارج كنيسة القيامة والاحداق بهم حتى يوقعوا بهم اذا لم يظهر النور ٠

فشعر البابا بطرس بسوء العاقبة اذا لم يظهر النور وكان قد قضى هو وبطريرك الأروام مواظبين على الصلاة والصوم مدة ثلاثة أيام كالعادة وبعد ذلك أقيمت الصلاة المعتادة فوق القبر ولم تتم حتى انبثق نور من القبر المقدس واجتاز من الأعمدة فشقها كما يرى اليوم الى أن وصل الجماهير المحتشدة خارج الكنيسة فضجوا هاتفين « النور ٠ النور » وتلتهم أصوات الذين فى الكنيسة قائلين كذلك بطريقة أرعبت ابراهيم باشا وصيرته فى ذهول وكاد يسقط على الأرض وهو يقول (أمان بابا) واستند على البطريرك حتى هدأ روعه وعادت اليه قواه ٠

ومن ثم بالغ ابراهيم باشا فى تعظيم البابا بطرس وأعاده الى القاهرة بكل اجلال وقضى بقية حياته يقضى بين شعبه بكل حكمة وعلم منصفا للمظلوم من الظالم وللضعيف من القوى دون أن يراعى الا ما يمجد اسم الله القدوس ٠ وذات يوم جاء واحد من كبار الشعب يصلى بالكنيسة صباحا كالعادة فرأى أن الكاهن قد أطال فى الصلاة فكلمه فى ذلك وأفهمه أن ميعاد انصراف الموظفين الى دواوينهم قد أزف فلم يلتفت اليه الكاهن بل استمر يصلى حتى انتهت العبادة فشكى الكبير الكاهن الى البطريرك فقال له « هذا بيت الله ولا يصح تقديم أو تأخير العبادة فيه تبعا لرغائب الناس » ٠

ومما يدل على عظم فضيلته أنه أتاه يوما رجل يشكو من امرأته التى تزوجها بكرا فوجدها ثيبا فقال له البابا بطرس « ذلك هو الأفضل لك حتى تقوم بخدمتك كما يجب » فكرر عليه الرجل الشكوى وهو يقول له « خير لك أن تكون امرأة لتقضى لوازمك » ولما رآه الرجل لا يفهم المقصود أحضر له اناء من اللبن الرائب مختوما بدون أن تمسه يد وقال له ان البكر تكون هكذا ثم غمس فيه أحد أصابعه وقال له هكذا تكون الثيب فقال البطريرك « لعن الله اليوم الذى عرفت فيه البكر من الثيب » ثم قضى فى دعواه رسميا ٠

ولما كان محمد على باشا يتقدم فى فتوحاته وغزواته خشيت دولة روسيا أن يعظم أمره ويحول دون أمانيها فى الشرق وفى المملكة العثمانية

ففكرت أن تستعين بالأمة القبطية على نيل أغراضها ضد محمد على باشا فأرسلت أميرا روسيا يعرض على بطريرك الأقباط قبول حماية الروسيا لشعبه فذهب المندوب الى الدار البطريركية وكان يفتكر أنه يرى رئيس أكبر أمة مسيحية فى أفريقية بحالة تدل على عظمة وتنم على أبهة ، وكانت قد وردت الأخبار للبطريرك بزيارته فلم يبدل شيئا من نظام بطريركيته أو يهتم بتغيير هيئته حتى انتهى اليه المندوب الروسى فألفاه والكتاب المقدس بيديه يطالع فيه وهو بزعبوطه الصوف الخشن جالسا على مقعد خشبى وحوله مقاعد مثله مبعثرة فلم يخطر ببال المندوب أن هذا هو رئيس الأمة القبطية سليلة مجد الفراعنة وسأله أين البطريرك ؟ فأجابه البابا بطرس ومن الذى يروم مقابلته فأجابه المندوب معرفا اياه بمركزه العظيم فقال له البابا بطرس بكل هدوء تفضل اجلس أنا البطريرك بنعمة الله فظهرت بغتة على المندوب دهشة عظيمة وكاد يكذب أنه هو ويخرج لولا أنه رأى ملامح الصدق ظاهرة على وجه البطريرك ولعل دهشة المندوب نشأت من مقابلة بساطة البابا بطرس بفخفخة رؤساء الأديان فى باقى الأقطار حيث يقلدون الملوك فى مجالسهم وملابسهم وأبهتهم ولكن لو رفع بصره وتمثل أوامر رئيس المسيحية لرسله وكيف كان يعيش رؤساء المسيحية فى عصورها الأولى لزال عجبه واعتبر أن هذا حقا خليفة رسل المسيح فى بساطتهم ونسكهم ووقف المندوب برهة وهو يشخص الى البطريرك باهتا حتى غلبته عظمة البابا بطرس الروحية لا الخارجية فأسرع اليه وانحنى أمامه ولثم يديه فقابله البابا بطرس بما يليق وأجلسه بجانبه ٠

ثم أخذ المندوب يسأله لماذا يعيش بمثل هذه البساطة ولا يهتم بمركزه فى العالم المسيحى فأجابه البابا بطرس « ليس الخادم أفضل من سيده أنا عبد يسوع المسيح الذى أتى الى العالم وعاش مع الفقير ولأجله وكان يجالس الخطاة ولم يكن له دار يأوى اليها أما أنا فلى مكان أقيم به واحتمى فيه من حر الصيف وبرد الشتاء ٠ لم يكن للمسيح ملك الأرض والسماء ما يأكله مع رسله الأطهار ولا مخزن فيه مؤونة وها أنا آكل وأتمتع فهل أنا أفضل من صاحب المعونة ؟ فتحير المندوب فى كيف يجيب وتخلص بالسؤال عن حال الكنيسة القبطية فأجابه البابا أنها بنعمة مخلصها فى خير ومادام هو يرعاها فلابد أن تجوز جميع الصعوبات ٠

فبدأ المندوب يظهر ألمه على حالة الأقباط التعيسة وعرض على البطريرك حماية قيصر الروسيا للشعب القبطى فأجابه البابا مستفهما بشىء من البساطة « هل مليككم يحيا الى الأبد » قال له لا ياسيدى الأب بل يموت كما يموت سائر البشر · فأجابه « اذن أنتم تعيشون تحت رعاية مليك يموت وأما نحن نعيش تحت رعاية مليك لا يموت وهو الله » ·

حينئذ لم يسع المندوب الا أن ينطرح على قدمى البابا بطرس وأخذ يقبلهما وترك الدار البطريركية وقد شعر بعظمة هذا البطريرك الروحية وانطلق الى محمد على باشا فسأله عما رأى بمصر فأجابه « لم تدهشنى عظمة الأهرام ولا ارتفاع المسلات وكتابتها ولم يهزنى كل ما فى هذا القطر من العجائب بل أثر فى نفسى فقط زيارتى للرجل التقى بطريرك الأقباط » ثم روى له ماجرى بينهما فطفح السرور على وجه محمد على باشا وقام فى نفس اليوم الى الدار البطريركية وقدم الشكر الجزيل للبابا بطرس على ما أبداه من الوطنية الحقة ومن الاخلاص للبلاد قال له البابا بطرس لا تشكر من قام بواجب عليه نحو بلاده » فقال له محمد على باشا والدموع تنهمر من عينيه « لقد رفعت اليوم شأنك وشأن بلادك فليكن لك مقام محمد على بمصر ولتكن مركبة معدة لركبك كمركبته » ·

وبعد هذه الحوادث حصل خلاف بين الأنبا سلامة مطران الحبشة وبين ملكها وسببه أنه لما فتح السودان طلب النجاشى من البابا بطرس رسم الكهنة على الحدود للحبشة فلبعد المسافات كلف الأنبا سلامة باختيار الكهنة فرسم الأنبا سلامة من العلمانيين الأقباط العدد المطلوب على الطقس القبطى فلم يرض بهم الكهنة الأحباش الذين معه ولم يعترفوا بهم وشنعوا عليه للنجاشى ثيوذوروس فكان هذا مبدأ الخلاف الذى اتسع · والسبب الحقيقى لهذا الخلاف هو تحول الأحباش عن التمسك بالأمانة المستقيمة فكان الأنبا سلامة ينصحهم ليرجعوا الى اعتقادهم الأصلى فأبوا سماع صوته مدعين بأنهم وجدوا آباءهم على ما يسيرون عليه واذ رأى أن النصائح غير كافية لردعهم هددهم باستعمال أحكام الكنيسة فرفعوا الى البطريرك شكوى فى حقه مؤداها أنه قاس عليهم فكتب اليه البطريرك يطلب منه أن يستعمل معهم اللين واللطف فأرسل المطران للبطريرك يشرح له حقيقة المسألة فشجعه على ثباته ·

ويذكر مؤلف « الكافى » سببا آخر لهذا الخلاف وهو أنه يوجد للقبط بأرض بيت المقدس دير عظيم يعرف بدير السلطان وهو على مقربة من كنيسة

القيامة وكانت تأوى اليه جماعة من الحبشان المستوطنين ببيت المقدس كسائر الغرباء الذين لامأوى لهم بتلك الديار فاتفق أن وقع شقاق بين أولئك الحبشان وبين رهبان ذلك الدير الى المخاصمة ثم الى الملاكمة فلم يسـع الرهبان الا اخراج أولئك الحبشان خارج الدير المذكور وسد أبوابه فى وجوههم فتحزبوا وأرادوا الدخول عنوة فلم يفلحوا فشكوا أمرهم الى أصحاب الحل والعقد فلم ينالوا غرضا ، وكان قد كبر مصابهم على قنصل الانجليز ببيت المقدس فتجرد للأخذ بناصرهم وبالغ فى تعضيدهم لأمر لم تصل الينـا معرفتـه فقام أولئك الحبشان يدعون ملكية الدير المذكور وقالوا ان الذى انشأه هو أحد ملـوك الحبشة ولذلك يسمى بدير السلطان وأما القبط فلا ملك لهم ولا سلطان منـذ دخول النصرانية بأرض مصر وقال القبط غير ذلك أنه بواسطة الأسعد أحـد عظماء القبط فى خلافة محمد المهدى ثالث خلفاء بنى العباس كان الخليفة المشار اليه أحسن الى القبط بقطعة الأرض الواقع عليها بناء الدير المذكور ورسم ببنائه على نفقته فسماه جماعة القبط من يومئذ دير السلطان ٠

ولما عظم الخلاف وتحرجت الحالة أوعز قنصل الانجليز للحبشة برفع ظلامتهم للدولة العثمانية فسار منهم نفـر الى القسطنطينية ووردت كتب النجاشى فى ذلك للبابا بطرس فكتب الى مطران القدس ليفض هذا الخلاف بالحسنى فلم يفلح فى اقناع جماعة الأحباش ، ولبث الشقاق يستفحل واشتد الخلاف بين مطران الحبشة وأهلها كما ذكرنا فلم ير البطريرك بدا من تسوية المسألة خوفا من حدوث مالا تحمد عقباه وكان فى نيته السفر لبلاد الحبشة لفض هذا النزاع بنفسه فحالت دون ذلك شيخوخته ٠ فأسرع بارسال القس داود رئيس دير انطونيوس الذى خلفه فى البطريركية باسم كيرلس الرابـع وأوفد معه راهبا بالدير اسمه برسوم الذى رقى فيما بعد مطرانا على المنوفية باسم أنبا يؤنس وزود داود بالنصائح ليحل هذا الخلاف بالحكمة وسلمـه ثلاثة كتب لكل من المطران والاكليروس والشعب الحبشى وقبيـل سفر داود وعده البطريرك بأنه اذا حل المسألة على أحسن حال يكافئه مكافأة حسنة ووعده بالمطرانية اذا أتاه ناجحا ٠

فسـار القس داود الى عـزبة بوش وتأهب للسفر سـنة ١٥٦٧ ش و١٨٥١ م ثم وصل الى الحبشة بعـد متاعب جمة كما سيذكر فى تاريخه٠ وفى أثنـاء وجود القس داود ببلاد الحبشـة مرض البـابا بطرس وعنـد احتضـاره سأله بعض كبار الأمة عمن يخلفـه فى هـذا المنصب فرفع عينه الى السـماء لحظـة ثم أطرق وقال « داود رئيس عـزبة بوش » فأرسلوا

يستدعونه عاجلا وكان البـابا بطرس قـد كتب اليه قبل مرضـه بأيام كثيرة أن يحضر ولا يبطىء لشدة الحاجـة اليـه ولـكنه لم يحضر الا بعد وفاة البطريرك بشهرين ونصف .

وبلغت مدة رئاسة البابا بطرس ٤٢ سنة وثلاثة أشهر و١٢ يوما وتنيح منشرح الخـاطر من التحسين العظيم الذى تم فى أيامه الا أنه كان يظهر أله من تصرفات الارساليـات الـكاثوليكية التى كانت فى مبدأ الأمر تعمل فقط لجـذب الأروام ولـكنها تعدت على الـكنيسة القبطيـة وأغرت بعض أعضـائها على ترك مذهبهم وروى السنكسار بأنه عمل الميرون المقـدس وعمر بدير انطونيوس عمـارة جسيمة وزار الديورة بالبرارى المقـدسة وزار كنيسة مار مرقس بالاسكندرية ووصف بأنه كان طويل القامة ممتلىء الجسم ذا صحة معتـدلة قلما يشكو ألمـا ويعللون ذلك لتقشـفه وزهـده واعتـداله وكانت وفاته فى ليـلة الاثنين أول جمعـة عيـد الفصـح ٢٨ برمهات سنة ١٥٦٨ ش و ١٨٥٢ م ودفن بالاكرام بجانب سلفه وخلا منصب البطريركية بعده سنة واحدة و١١ يوما .

٢ ـ كيرلس ٤ ـ البطريرك المائة والعاشر :

ولد هذا المصلح العظيم حوالى سنة ١٥٣٢ ش وسنة ١٨١٦ م بقرية نجع أبو زرقالى من قسم صوامعة سفلاق المعروفة بالصوامعة الشرقيـة باقليم اخميم من مديرية جرجا ودعى داود ومع أن والده توماس بن بشوت إبن داود كان أميـا لا يعرف القراءة والـكتابة ولـكنه اعتنى بتعلم ابنـه حتى صار ملما بالقراءة باللغتين العربية والقبطية وشىء من الحساب ولمـا كبر اشتغل مع والده بالزراعة وفى هذه الأثنـاء اختلط بالعربان المجاورين لقريتـه فتعلم منهم امتطـاء صهوات الخيول وركوب الهجن حتى اشتهر فيهم بالفروسية . ومنذ نشأته لم يعبأ بمهام هـذه الحياة كأن العناية كانت تجهزه لعمل أشرف ولغـاية أعظم بل كان عفوفا تقيـا ورعا محبا للفقراء حسن النيـة سليم الطوية ميـالا الى العزلة والانفراد شـديد الرغبـة فى معرفة أخبار القديسين .

ولمـا بلغ الثانية والعشرين من عمره مال الى الرهبنـة وعزم على الرحيل من وطنـه فمنعـه أبواه ولـكنه استمر يراقب الفرص حتى خرج هاربا سنة ١٥٥٤ ش فقصـد الى دير انطونيوس ولبس اسكيم الرهبنة على يد رئيسه القس أثناسيوس القلوصنى الذى توسم فيه النعمة وآنس فيـه

الأهلية والكفاءة ولم يتم به سنة حتى أظهر فى خلالها ذكاء وورعا ودعة وأصالة رأى فضلا عن ميله الى مطالعة الكتاب المقدس وكان يجمع الرهبان ويقرأ عليهم ويشرح لهم ويحببهم فى المطالعة فسر منه رئيس الدير ورسمه قسيسا وصار يعتمد عليه فى انجاز الأمور المهمة وعهد بتدبير أمر الرهبان اليه • ومع ذلك لم يكن يميل قط الى التباهى أو التفاخر بفضائله لأنه لم يكن يكره شيئا كما يكره الأنانية فوصل خبره الى البابا بطرس السابع فاستدعاه اليه وباركه وشاركه فى منحه البركة الأنبا صرابامون الأسقف الشهير بأبى طرحه وتنبأ له بمستقبل حسن ولم تمض سنتان على وجوده بالدير حتى مات رئيس ذلك الدير فأجمع الرهبان على اختياره لهذا المنصب بالرغم من حداثة عهده وكتبوا للبابا بطرس السابع البطريرك فأقرهم على اختياره ورقاه الى رئاسة الدير ومن ذلك الحين بدأ يتألق نور مواهبه حيث بادر الى وضع نظام للدير حرم به على الرهبان مغادرته الا لضرورة قاطعة وأخذ فى اصلاح أحواله الأدبية والمادية وأكب فى الوقت نفسه على توسيع دائرة معلوماته فاهتم بدرس الصرف والنحو فاكتسب منهما ما يكفى لضبط الفاظه وعنى بتعليم الرهبان فخصص فى العزبة بناحية بوش بمديرية بنى سويف التى كانت ولا تزال مقر دير أنطونيوس مكانا جمع فيه كثيرا من الكتب على كتب الدير وجعله للمطالعة والمناقشة فى المواضيع العلمية دينية وأدبية وتاريخية • ثم فتح « كتابا » فى بوش لتعليم الأولاد اللغتين العربية والقبطية ومن نوادره وهو رئيس عزبة الدير ببوش أنه أراد أن يرد الزيارة لمن زاره فمر عمدا من طريق يوصل للجامع فألفاه متهدما فلام المسلمين على ذلك ووعد بمساعدتهم اذا هم شرعوا فى بنائه وذلك ليساعدوه فى ماكان ينتويه من بناء العزبة • وحدث أيضا أنه كان يتفقد زراعة الدير فشاهده أعرابى وهو بلباس الرهبنة فقال له انزل يا نصرانى عن الدابة ليسلبها منه فاستعطفه فلم يقبل بل لطمه على خده واتفق أن زلت قدم الاعرابى فى بركة ملآنة بالطين فتركه القس داود يغسل ملابسه وانطلق الاعرابى يشتكى لرئيس الدير الراهب الذى دفعه الى البركة فقابله هو وقال أنا هو الراهب الذى لطمته ومع ذلك فانى مسامحك وأعطى له نصف أردب قمحا ومثله شعيرا •

ولما حدث الخلاف بين الأحباش وبين مطرانهم الأنبا اندراوس ولما كان للقس داود اقبال وحسن سياسة انتدب للقيام بفض هذا النزاع •

قال بعض المؤرخين ولم يفلح فى هذا الأمر لسعاية قنصل الانجليز وطال مقامه على غير طائل وجاء اليه الطلب فتقدم الى النجاشى فى ذلك فلم يأذن له وعوقه أياما أخر ثم سرحه ·



« البابا كيرلس الرابع بملابسه الاعتيادية »

وحدث قبل قدومه من بلاد الحبشة وبعد وفاة البـابا بطرس بقليل أن اجتمع الأساقفـة وكبار الأمة بالدار البطريركية ليتفقوا على انتخاب بطريرك كالعـادة فـذكر بعضهم القس داود فعـارض آخرون بحجة عدم معرفتهم ما آل اليه أمره ورغبوا فى انتخاب سواه وهكذا انفضت هذه الجلسة بدون جدوى · واتفق أن وصلت رسالة عقب ذلك من القس داود لأحد الوجهـاء من أصـدقائه ينبئـه فيهـا بمبارحة بلاد الحبشـة ووصوله حـدود مصر فابتهج الذين رشحوه وأذاعوا الخبر ومن ثم طلبوا انتخابه فى الجلسـة الثانية فعارضهم قوم وطلبوا انتخـاب الأنبـا يوساب أسقف اخميم وبقيت المعارضـة مستمرة دون أن يصلوا الى نتيجة ، ولمـا وصل القس داود الى القاهرة تقوى محازبوه وشـددوا فى انتخـابه ولاقاه النـاس باحتفـال عظيم للغساية ونزل بالدار البطريركية ضـيفا ولبث بهـا أياما وكان وصوله فى ١٧ يوليو سنة ١٨٥٢ م ·

بعد أن لبث ببلاد الحبشة سنة وستة أشهر وكان الأمر يومئذ الى عباس باشا الأول فرفع اليه جماعة من كبار الأمة التماسا باقامة داود بطريركا . قال أحد كتاب الأخبار فطاولهم وسأل أصحاب الزايرجات عما يرونه في اقامة داود بطريركا فأرجفوا وهولوا وقالوا نكد ثم خصام وشدة ثم موت الوالى وتمزيق شمل أتباعه فاضطرب عباس باشا وشدد فى السؤال فلم يروا فى حسابهم غير ذلك وكان من مقدمى دواوين الدولة يومئذ ديوانى اسمه جاد أفندى عونى وهو جاد شيحه فاستدعاه كتخدا الباشا وقال له اعلم جماعة القبط بأن لا سبيل الى ولاية داود منصب البطريركية فان أبوا الا هو كانت الطامة الكبرى فلما علم القوم بما قاله كتخدا الباشا اختلفت آراؤهم وتفرقت كلمتهم وانقسموا فمنهم من قال لا نختار غير داود ومنهم من طلب أسقف أخميم السابق ذكره وهؤلاء هم أنصار جاد أفندى ومنهم من اختار الأنبا أثناسيوس أسقف أبى تيج ومنهم من اختار غيره واشتد الاختلاف وتفرقت الأهواء وكثر التحزب وتوالى الاجتماع فى الليل والنهار ولبثوا على هذه الحالة أياما وجاد أفندى يغدو ويروح على كتخدا الباشا ليعلمه بأخبار كل يوم .

ولما كاد الشقاق يستفحل استعان أنصار القس داود بالمستر ليدر أحد مرسلى جمعية التبشير الانجليزية وطلبوا منه التوسط لدى قنصل الانجليز ليكلم عباس باشا فى أمر قبول القس داود بطريركا فكلمه فوعده ولكنه ماطل فى وعده حتى قدم من بلاد الحبشة قسيس حبشى ومعه كثير من الهدايا الثمينة وكتاب من النجاشى لعباس باشا فقابله ومكث عنده أياما ومن ثم أشيع فى كل مكان أن القس داود سار الى بلاد الحبشة ليستعين هو وقومه بالنجاشى على الخروج من طاعة الوالى فاستدعى القس داود الى دار المحافظة واستجوب عما كان بينه وبين النجاشى وكان الباشا قد أمر أن يذهب به الى مجلس الأحكام بقلعة الجبل فكانوا يأتون به أمام المجلس كل يوم مرة ومرتين ويشددون عليه فى السؤال وكان هو مع ذلك هادئا ثابتا يتكلم برزانة وبعقل فاغتاظ عباس باشا واشتد بغضه للقبط فأمر باخراج الموظفين منهم من خدمة الحكومة ونفى مقدميهم الى سنار وأوفور وأذل من كانت الحاجة اليه شديدة فكانوا لعظم ضيقهم يشترون المصالح الديوانية بالمناقصة .

ثم استدعى كتخدا الباشا جاد أفندى يوما وأعلمه برغبة الوالى فى اختيار بطريرك غير داود وطلب منه التعجيل فى ذلك هروبا من وساطة

القنصل فجمع جاد أفنـدى الأسـاقفة وأوقفهم على الأمر فانتشرت عليهم آراؤهم وتمزقت وحـدتهم الا أن محازبى أسقف أخميم اتفقوا على تنفيـذ رغبتهم بالحيـلة وذلك أنهم يجتمعون ليـلا ويوسمونه بطريركا فاذا أصبح الصـباح وجد أنصـار القس داود أن السهم قـد نفذ فيرضخون مكرهين وقيل أن جاد أفنـدى كان قـد تحصـل على أمر شـفاهى من عبـاس باشا برسمه • ثم اجتمع الأساقفـة بالدار البطريركية وتبعهم الغوغاء سرا ومعهم أسقف أخميم وجاد أفنـدى وبعض أقاربه وأغلقوا عليهم الأبواب ووضعوا عليها حراسـا وبدأوا يتممون الرسـامة سرا ولـكن حيلتهم لم تتم فبينما هم كـذلك اذ برز أعمى من عـرفان المـكاتب وجعل يطوف فى الشوارع والحـارات والأزقة وينـادى أن قوموا من نومكم يا قوم ففى هذه اللحظة يتممون رسـامة أسقف أخميم ولبث ينـادى ويصيح حتى استيقظ النـاس وانطلقوا الى الدار البطريركية فاقتحموا الأبواب وكثر الهيـاج وكان بعض الحبشـان نيـاما بالبطريركية فاستيقظوا وسألوهم عن الخبر فحسنوا اليهم اخراج الأساقفـة من الكنيسة عنوة فأمسكوا العصى وكسروا أبواب الكنيسة وأخرجوا الأساقفة رغما واختلطت الأصوات وتعـالى الصـياح ولبث الناس يغدون ويروحون أمام دار البطريركية حتى مطلع الفجر •

ولمـا خابت مساعى المتشيعين للاسقف طفقوا يختلقون الأقاويل على القس داود فأشاعوا أنه فى مدة اقامته بالحبشة تزوج من امرأة وله منهـا ولدان وأصل هـذه الاشـاعة القسيس الحبشى المـار ذكره لتغيظـه منـه بسبب ما ذهب الى الحبشة من أجله وكان قـد أتى ليشى به للبطريرك ولمـا رأى البطريرك قـد مات أذاعها حينئذ ليعطل رسامته ولمـا استقصى الناس عن حقيقة هذه الاشاعة اتضح كذب القسيس الحبشى •

ورأى قنصل الانجليز أن الفتنـة كادت تعم فحـذر عبـاس باشـا من سـوء العاقبـة • وكان الخلاف قد ظل قائما عشرة أشهر فانتهى بتوسط ورتبيت الأرمن بتعيين القس داود مطرانا على مصر ثم اذا اتضح أنه لائق يتقلد البطريركية فسمح عباس باشا بذلك •

واذ كان جمـاعة الحبشان لا يحبون داود ولا تسرهم رسامته اجتمعوا ببعض العـامة وبأيديهم العصى ودخلوا الـكنيسة قبـل تمـام الرسـامة وصـاحوا فى وجوه المصلين بالسب والشتم واشـتد الهياج فهرب الأساقفة وتعقب الحبشان القس داود ليغتـالوه فوجـدوه قـد اختفى ولـكن الكلمة

كانت قد اتحدت على رسامته مطرانا فرسم فى اليوم التالى ودعى كيرلس وكان ذلك فى يوم ١٠ برموده سنة ١٥٦٩ ش و١٨٥٣ م ٠

وقال أحد المؤرخين « فقام خصومه وحالوا بينه وبين انجاز مصالح الطائفة واشتدوا عليه شدة بالغة حتى كان اذا أراد النوم لايجد لرأسه وسادة ولا لجنبه فراشا واذا جاع لا يطعم الا ما قدموه اليه واذا زاره أحد لا يأذنون بلقائه وهو مع ذلك ساكن البال رائق الحال لا يألوا جهدا فى تأليف القلوب المتفرقة والنفوس المتنافرة حتى طرحوا الخلاف جانبا ومن ذلك الحين اخذ يباشر اعمال الطائفة وكان أول عمل باشره بناء المدرسة الكبرى الباقية الى اليوم وهى أول مدرسة أقيمت لتعليم شبان الأقباط فاشترى عدة منازل وهدمها وأقام على أنقاضها مدرسة مسيحية ويقال انه انتفق فى بنائها ٦٠٠ الف قرش فكان بناؤها موجبا لاجماع الجميع على اختياره وطلبوا من قنصل الانجليز اعانتهم على ذلك فما زال بعباس باشا حتى أخذ موافقته فسيم بطريركا بحضور جميع الأساقفة ماعدا اسقفى أخميم وأبى تيج ولقب كيرلس الرابع فى ٢٨ بشنس سنة ١٥٧٠ ش و١٨٥٤ م ٠

فلما تمت رسامته باحتفال عظيم قدمت عليه الوفود لتهنئته ولم يمض على ارتقائه لمنصب البطريركية أيام حتى مات عباس باشا فسلم الناس بصحة ما قاله أصحاب الزايرجات ٠ أما هو فسعى فى جمع القلوب وازالة أسباب النفور حتى تم له ما أراد ثم عكف على العمل لما فيه رقى الأمة فنظم ادارة البطريركية والأوقاف وأتم بناء المدرسة واختار لها أساتذة ماهرين لتعليم اللغات الحية وجعل التعليم فيها والكتب والأدوات مجانا ٠ ومن شدة اهتمامه بها كان يزور غرف التدريس دائما كل يوم مرة واثنتين ويستمع لالقاء الدروس ويقول للاساتذة انى قد علمت اليوم أشياء لم يكن لى علم بها ، ثم أنشأ بها قاعة كان يستقبل فيها الزائرين لا سيما من الأجانب الذين كان يكلفهم بفحص غرف التدريس وابداء ملاحظاتهم فى ما يئول لنجاح المدرسة ٠

وكان يكلف نفسه بالقاء بعض عبارات تاريخية وأدبية على مسامع الطلبة مما يناسب ادراكهم وسنهم وجعل تعليم اللغة القبطية جبرا وكان يشرف عليه بنفسه ٠ واذ رأى بعض الطلبة من جهات بعيدة يتكبدون مشقة فى الحضور الى المدرسة أنشأ لهم مدرسة بحارة السقايين كان يزورها كل أسبوعين ويسأل عنها دائما ٠

ومع كل ذلك كان الاقبال على التعليم فى مدرسة الأزبكية قليلا فلم يزد عدد طلبتها عن ١٥٠ طالبا وكان المشار اليهم فى تعليم الأطفال حينئذ جماعة العرفان فلما أحسوا بما أجراه البطريرك سعوا يلقون الفتن ضده فى البيوت وجعلوا يوهمون أهل الأولاد بأن بين البطريرك والوالى عقدا على أن يجند له من الأولاد ألوفا ، وكان اذا وصل الدار البطريركية شيء من أدوات المدرسة بكوا وناحوا وقالوا هذه آلات الحرب واذ رأى البطريرك تفاقم الخطر من هذه الوساوس استرضى العرفان بأن أناط بهم التعليم الأولى فى المدارس التى أنشأها ولم تمض مدة حتى تقدم التعليم فيها ونجحت نجاحا باهرا وأنجبت تلاميذ يجيدون التكلم باللغات المختلفة وكان يدعو سنويا كبار القوم ويوزع جوائز فاخرة على التلاميذ الذين ينبغون تشجيعا لهم وتنشيطا لسواهم ، وكان معظم التلاميذ من أبناء الوجهاء ولهذا كان يعاملهم معاملة حسنة وينبه الأساتذة ليربوهم تربية سامية • ولشدة غيرته وجد مرة أحد الأساتذة نائما فأمر باحضار فلقة ليضربه لولا أن شهدت تلامذته بمرضه •

وكلف أحد قسوس الكنيسة الكبرى بالأزبكية المدعو القمص تكلا المعروف باجادة واتقان الألحان الكنسية بأن يختار من بين تلامذة المدرسة عددا من ذوى الأصوات الحسنة وعهد اليه بتعليمهم وأعد لهم ملابس خاصة وكانوا يقومون بالخدمة فى الكنيسة فكان ذلك داعيا لابتهاج الأهالى فأقبلوا بأولادهم الى المدرسة وواظبوا معهم على حضور الكنيسة •

وبعد قليل تخرج من تلك المدرسة تلامذة كثيرون واتفق انشاء مصلحة السكة الحديد بالديار المصرية فانتظموا فى خدمتها وانتشروا فى محطاتها وكانوا يؤدون أعمالهم باللغة الانكليزية ، وبعضهم استخدم فى البنوك وعند التجار لمعرفتهم اللغة الطليانية • وكان اهتمامه عظيما بتعليم اللغة القبطية واحيائها بعد موتها فطبع منها عدة كتب بدار الطباعة بلندن فتعلمها أبناء المدارس وتكلموا بها فكانت الى آخر أيامه من أهم اللغات التى يتكلم بها أبناء المدارس وكان يقول « انى أنتظر بفروغ صبر استعداد تلامذة مدارسنا لتلقى العلوم العقلية كالمنطق والبيان وغيرهما من العلوم العالية التى يتسع بها العقل وتغزر المادة » •

ثم وجه عنايته الى ترميم الكنائس واعادة ما تخرب منها فأعادها الى ما كانت عليه • ولما رأى صعوبة تحمل ساكنى حارة السقايين

والجهات القريبة منها المشاق لحضور الصلاة بكنيسة الأزبكية سعى لدى سعيد باشا سنة ١٥٧٢ ش ليحصل على اذن ببناء كنيسة فى تلك الجهة فصدر له فى ٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٢ هـ فكرس مكانا بمنزل رجل شهرته القيصاوى ليكون كنيسة الى حين التمكن من بناء جديد وأقام أول صلاة فى تلك الكنيسة وبقيت الكنيسة فى ذلك المكان الى أن بنيت الكنيسة الحالية سنة ١٥٩٧ ش و١٨٨١ م ٠

وعقب هذا التقدم والنجاح العلمى والدينى وجه نظره نحو انشاء مكتبة تجمع الكتب النفيسة فألفى بالدار البطريركية كثيرا من الكتب المطروحة بدون اعتناء والتى عبثت بها العوادى وبينها كتب ثمينة للغاية فالتفت اليها وأخذ فى اصلاح ما فسد منها ووضعها فى مكان خاص ثم جمع من خزائن الأديرة والمعابد القديمة نفائس الكتب وأشهر السجلات ليضعها فى المكتبة أيضا ورسم بتصحيح الكثير من كتب الكنيسة وقد كانت محشوة بالخلط والتخريف لاسيما وقد امتدت أيدى البابويين فى العصور المظلمة التى مرت على كنيستنا الى أهم كتب الكنيسة فشوهتها فصححوا مافيها وضبطوا عباراتها على أحسن مايرام ٠

ومن ثم شعر بضرورة احضار مطبعة لطبع الكتب المحفوظة بالدار البطريركية ومما يدل على عظم توقيره للعلم أنه يوم وصول أدوات المطبعة كان بدير القديس أنطونيوس فأرسل يأمر باستقبال المطبعة باحتفال رسمى يرتل فيه الشمامسة التراتيل الدينية ولما رجع من الدير عاب عليه بعضهم هذا الأمر فأجابهم لو كنت حاضرا لرقصت أمامها كما رقص داود أمام تابوت العهد ٠

ووقع فى أيامه خلاف بين الحكومتين المصرية والحبشية بسبب تعيين الحدود بين الحكومتين ٠ وقيل أن السلطان عبد المجيد هو الذى أوعز الى سعيد باشا بأن يرسل بطريرك الأقباط الى بلاد الحبشة لعقد اتفاقية بينه وبين ثيوذور ملك الحبشة الذى كان قد تعدى على بعض جهات من اقليمى هرر وزيلع التابعتين حينئذ للحكومة العثمانية فجهزت له باخرة وقام البطريرك بهذه المهمة السياسية صبيحة يوم بدون أن يدرى أحد الا الذين رافقوه للسفر وبعض خدامه فسافر والكآبة تعلو وجهه لتشاؤمه من ذلك السفر وكان يرافقه اثنان من الأغوات الترك فانتهز فرصة طول السفر وتمكن من أن يتعلم منهما اللغة التركية ٠

ولما علم نجاشى الحبشة بقدومه خرج لملاقاته بموكب حافل على مسيرة ثلاثة ايام من عاصمة مملكته وطلب منه أن يمسحه ملكا بحضور جميع ملوك الحبشة · قال صاحب تاريخ الكافى « وكان فى مجدله نفر من الانجليز مرسلين من الجمعية المعروفة بجمعية التبشير بالانجيل لبث تعاليم مارتين لوثر الدينية بين الحبشان وقد تقربوا من النجاشى بعمل المدافع وصنع الأسلحة لعسكره وتعليمهم فنون الحرب والقتال حتى مال اليهم وأعطاهم الحرية ليجولوا فى كل مكان فكادوا يعبثون بطقوس الكنيسة القبطية ولم يفلح مطران الحبشة فى مقاومتهم فانتهز فرصة وجود البطريرك ورفع أمرهم اليه فبعد انقضاء الأفراح طلب البطريرك من النجاشى أن يرد لبلاد مصر ما أخذه منها فأجابه الى طلبه بسرور زائد ثم كلمه بشأن المرسلين الانجليز وطلب منه ترحيلهم فاعتذر بكونهم يعلمون جنوده فنون الحرب فأفهمه أن الحال غير داعية الآن للحرب فأمر النجاشى باخراج المرسلين من بلاده فحقدوا على البطريرك وعولوا على الانتقام منه ·

وكان البطريرك قد بعث يطلب من سعيد باشا أن يسير اليه ببعض الصناع والمعلمين فدس اليه قنصل الانجليز بأن كيرلس يروم أن يسلم بلادك الى النجاشى ، وما زال سعيد باشا حتى قام الى الخرطوم بجيش عظيم وفى الوقت نفسه كان الانجليز يحبكون مكيدة أخرى ضد البطريرك لدى النجاشى فدسوا اليه أيضا بأن قدوم كيرلس اليك انما هو لطرد الانجليز الذين كانوا يعدون لك آلات الحرب ليمكن والى مصر منك وقد حمل اليك من قبل سعيد باشا كساء مسموما اذا لبسته قضى عليك ، وكان بين الهدايا التى قدمها البطريرك للنجاشى برنس مزركش بالجواهر الكريمة فهال النجاشى الأمر لا سيما لما علم بقدوم سعيد باشا بجيشه الى الخرطوم وأمر فسجن البطريرك وضيق عليه الخناق وخشية من أن يفلت البطريرك ويمسح ملكا للحبشة آخر سواه اصطحبه معه فكان يسوقه أمامه فى كل مكان يحل به محاطا بنفر من الحراس وكان اذا جلس يوقفه أمامه ويبكته بأقسى الألفاظ ·

وتمكن البطريرك من أن يصل الى والدة النجاشى وكانت تقية ورعة وأفضى اليها بجلية الخبر فتوسلت الى ولدها من جهته فسمح له أن يدافع عن نفسه فتمكن من اقناعه بجليل مقاصده ومن ثم طلب أن يلبس الثوب الذى ارتاب به فلبسه البطريرك مدة يومين دون أن يصاب بأذى ولبسه رجل

محكوم عليه بالموت مدة ثلاثة أيام فلم يصبه شيء البتة . وكان النجاشي قد أمر بحرق البطريرك حيا فعفى عنه وارسل البطريرك يخبر شعيد باشا أن نجاحه متوقف على رجوعه من حيث أتى فرحل سعيد باشا ورجع الى مصر وعند ذلك تحلى للنجاشي سوء تصديقه للوشاة واعتذر للبطريرك برفع الحجر على رأسه .

وكان قد مر أكثر من سنة منذ خرج البطريرك من مصر ولم يرد منه خبر أو يسمع عنه شيء فقلق الناس لذلك . وبعد سنةوأربعةأشهر وصلمكتوب منه ينبيء بأنه وصل للخرطوم ومعه اثنان من رجال حكومة الحبش أحدهما قسيس الملك والثاني وزيره فسر محبوه الذين حسبوه قد مات ووصل القاهرة فى ١٧ أمشير سنة ١٥٧٤ ش فاستقبل استقبالا عظيما .

وعقب عودته واستكمال راحته من وعثاء السفر بثلاثة أشهر شرع فى يوم الخميس ٢٨ برموده سنة ١٥٧٥ ش ببناء الكنيسة الكبرى بالأزبكية وكان يوم تأسيسها يوما مشهودا حضر فيه جميع كبار البلاد ورؤساء الطوائف . وقد أمر بنقض الكنيسة القديمة التى اتمها المعلم جرجس الجوهرى فى عهد البابا مرقس الثامن وما زال مجتهدا مسرعا فى اتمام البناء لأنه كان يقول بكآبة قلب نفسى تحدثنى بأنى سأقبر فيها قبل اتمامها حتى توفى فباشر اتمامها خلفه ديمتريوس وأكمل زخرفها سنة ١٥٩٦ ش غبطة البطريرك البابا كيرلس الخامس .

ورأى بعد ذلك أن أفضل سبيل لنجاح كنيسته وطائفته ترقية وتهذيب الاكليروس ، فكان يجمع كل سبت جميع القسوس بالدار البطريركية ويحضر معهم ويناقشهم ويشرح لهم واجبات القسوس وآدابهم وما ينيلهم حظوة فى عيون الناس ، ولهذا جعل رواتب شهرية لمن يعرف اللغة القبطية والوعظ فعرف كيف يحبب لهم العلم ويقاوم بهم المبشرين فى مصر والحبشة وقال المؤرخون أنه كان ميالا الى تعليم البنات وتهذيبهن الى حد يكن فيه معينات لأزواجهن ومربيات لأولادهن فصادف من المقاومة فى ذلك أشكالا ولكنه كان يتحين الفرص ويتبين انتفاعها فلم تطل أيامه .

ويذكر البعض للبابا كيرلس عيبا وهو أنه بدد نقودا كثيرة تبلغ نحو نصف مليون كانت مكومة بالدار البطريركية من مال الأوقاف وقال انه انفق ١٧ الف بندقى لعمل كساو مخصوصة وأطقم كاملة لتلبسها الشمامسة وبدرشينات وطواق مفضضة . غير أنه لم ينفق شيئا فى غير محله فكل ما أنفقه عاد على الطائفة بالنجاح والفلاح .

وقد وقعت لهذا البابا مأساة محزنة دبرها له دهاة ساسة الانجليز الذين كانوا ناقمين عليه لأنه طرد مرسليهم من بلاد الحبشة ولم يمكنهم من أخذ دير السلطان بالقدس واشتد غيظهم عليه عندما علموا عزمه على توحيد الكنائس الأرثوذكسية ، فبعد رحيل وزير نجاشي الحبشة شعر البطريرك بتغير سعيد باشا عليه واتفق أنه اصطحب معه بطريركي الروم والأرمن الى دير القديس انطونيوس بالجبل الشرقي ليقضوا فيه أياما ترويحا للنفس فانتهز قنصل الانجليز جنرال مرى ودس الى سعيد باشا بأن كيرلس انما يسعى ليجعل الكنائس الأرثوذكسية تحت رئاسته ويضعها تحت حماية دولة الروسيا وأفهمه أن هذا أعظم خطر يتهدد الولاية المصرية، فأرسل سعيد باشا الى مدير بنى سويف يأمره بأن يستدعى البطريرك حالا فاستمهله أياما فاشتد غيظ سعيد باشا قال صاحب تاريخ « الكافى » فلما كان فى أحد الأيام جاء اليه رسول من قبل محافظ مصر يستدعيه الى الديوان لأمر لا يتم الا بحضوره فلم يقبل الذهاب وصرف الرسول بالتى هى أحسن فعاد اليه ثانية وثالثة فلم ير بدا من الذهاب وسار معه وغاب ساعة ثم عاد ووجهه يقطر منه العرق وقد نزلت به حمى فعرف العلة وأشار بالدواء فلم يأته حتى آتاه طبيب محمد سعيد باشا بأمر منه وأخذ فى علاجه وما زال يعالجه أياما وقد اشتدت علته وعظم الداء وفقد الرشد وسقط شعر رأسه ولحيته على وسادته وانحل جسده ومات » أهـ ٠

وقال الايغومانوس فيلوثاؤس رئيس الكنيسة الكبرى انه لم يقبل السم فى القهوة لأنه سمعهم يتكلمون بالتركية وهو يفهمها ورجع الى قلايته كئيبا حزينا حتى أثر عليه الأسف ومرض فاحتالوا عليه بواسطة صديقه ورتبيت الأرمن والخواجا حنا مسره الذى سيرد ذكره وأحضر له طبيبا قالا عنه أنه أمين ولكنه دس له السم فى الدواء فلما شعر به يمزق أحشاءه سلم الأمر لله وهو يقول « لا تخافوا ممن يقتل الجسد بل خافوا ممن يقتل النفس » أهـ ٠

وكانت وفاته فى ليلة الأربعاء ٢٣ طوبة سنة ١٥٧٧ ش و١٨٦١ م ودفن بتربته التى ابتناها لنفسه بالكنيسة الكبرى وخلا الكرسى بعده سنة واحدة وثلاثة أشهر وسبعة أيام كان يدير البطريركية فى أثنائها أنبا مرقس مطران البحيرة ٠

وليس من ينكر أن السبع السنوات والتسعة الأشهر والثمانية عشر يوما التى قضاها هذا البطريرك فى الرئاسة كانت خيرا وبركة لكنيسته

وطائفتــه . وجاء عنه فى كتاب « الخطط التوفيقيــة » ج ٦ « ان حالة الادارة البطريركية من جهة سياسة الاكليروس ورعاية الأمة ونحو ذلك قد امتازت فى مدته كثيرا جــدا عن السابق ، ولقــد كان هــذا البطريرك حاذقا نبيهــا ذا عنــاية شديدة بالمنقطعين وذوى البيوت من أمته ، طلق اللســان عارفا بالتــاريخ مدققــا فى علوم الدين المسيحى محافظا على حدود المذهب ماقتــا للرشوة غير مكترث بالمــال قائما بأعباء وظيفتــه وفى الحقيقة انه كان لم تعب سيرته بشىء ما ولو لم يكن حادا فى المشروعات سريع الاقــدام على الأمور التى تفتقر للتــأنى والمشورات لــكان يعجــز القلم عن تجبير صــفاته » أهـ .

ويصفونه بأنه كان متوسط القــامة ممتلىء الجسم قوى البنية صحيح الأعضــاء أبيض اللون حاد النظر والذهن كبير الرأس عريض الجبهة كثيف اللحيــة أسودها . وكان كثير الأمثــال فى حديثــه قلما يلقى عبـــارة لا يسندها الى مثل وهو غاية فى العفــة والتقشف لا يشرب الخمر شــديد الــكره لمقــابلة النساء ومحادثتهن حليم بعيد الغضب عظيم الاحترام للرهبنة محافظا على أصولها شديد القساوة على الاكليروس كلفا بمخالطة العلماء ومجالسة الفضــلاء ولم يكن يستنكف أن يجاهر بغلطه اذا بان له ومما يؤثر عنه قوله « ان انتقالنــا مما نحن فيه الى ما يجعلنا فى مصاف غيرنا يحتاج الى أعمال وأتعاب كثيرة يلزم لها عمر نوح وصبر أيوب » .

قيل أنه لمــا طلب منه سعيد باشــا القيــام للحبشة عرض عليه أمر طائفتــه القبطيــة بصفة كونها قائمة بنصيبها فى خدمة البــلاد ورجاه أن تمنح مزية المساواة فيكون منها أعضاء فى المجالس المحلية كاخوانهم المسلمين ويسمح للموجودين منهم فى الخدمة العسكرية أن يكونوا ضــباطا ورؤساء وأن يقبل منهم طلبــة فى المــدارس العالية فوعده ســعيد باشــا باجابة طلبه بعد عودته من بلاد الحبشــة ولــكنه بعــد رجوعه جدد طلبه فصــار يماطله حتى قطع الرجاء . وقــد ظن بعضهم انه طلب من البــاشا أن يعفى أولاده من خــدمة الجنــدية فأجاب « حاشاى أن أكون جبــانا بهذا المقــدار لا أعرف للوطنيــة قيمة فأحرم البــلاد من خدمة أبنــائها لها » قيل لــا شعر الموسيو سباتييه قنصــل فرنسا فى مصر بمطالبــه عرض عليه استعداده لمساعدته فيما يختص بمساواة الأقبــاط بالمسلمين فى الوظــائف العسكرية على شرط أنه يتحصــــل على تصريح من ملك الحبشــة بدخول رهبـــان اليسوعيين فى بلاده والتوطن فيهــا فأبى أن يجيبه الى طلبه . وكان مسالما

لجميع طوائف المسيحيين وبينه وبين رؤسائهم صداقة عظيمة لا سيما الروم الأرثوذكس ، ولما سافر بطريركهم الى الاستانة كلف البابا كيرلس بمباشرة أشغال بطريركيته الى أن يعود ٠

وفى مدته أقام مطرانا خصوصيا لمصر ولم يكن بها من قبل مطران نظرا لوجود مركز البطريرك بها ، وأقام على البحيرة والاسكندرية مطرانا أنبا مرقس وعلى المنوفية مطرانا آخر أنبا يؤنس الذى رافقه فى سفره الأول للحبشة باسم الراهب برسوم ، وقد كان على الجهتين رئيس واحد من قبل ، ورسم مطرانا للقدس أنبا باسيليوس وأسقفين للوجه القبلى بعد وفاة سلفيهما ٠

ومن القوانين السامية التى رسمها الأمر بعدم تزويج فتاة الا متى بلغت الرابعة عشرة وأن تكون الخطبة بعقد صلح يمكن حله متى أريد لا عقد املاك وذلك حفظا لسلامة العائلات وتخلصا من الطلاق الذى كان أبغض الأمور لديه ولهذا شدد بضرورة اعتراف الزوجين قبل الاكليل حتى لا تحصل أية شكوى بعد ٠

وللبابا كيرلس نوادر تستحق الذكر فمن ذلك انه كان كلفا بلبس لباس الاعراب لا سيما وهو مختلط بهم حال رئاسته لدير بوش (١) فحدث مرة أنه اصطحب معه بعض الاعراب لزيارة الدير ففكر شيخ أولئك الاعراب فى سلب البطريرك ومن معه من قصاد الدير ولما وقف البطريرك على سوء نيته دبر طريقة للتخلص منه ، وذلك أنه فى ليلة حالكة الظلام وقفت فيها القافلة للراحة خرج ذلك الشيخ من خبائه وتوغل فى البادية قضاء حاجه فتعقبه البطريرك وهو مرتد برداء الاعراب وقبض على سلاحه وأمره بخلع ملابسه فأذعن الشيخ رغما عنه ولكنه عرفه بنفسه ورد له سلاحه فعدل الشيخ عما كان ينويه ٠

ومن ذلك أنه قصد المنيا مع بعض الاعراب لشراء مواش للدير ونزلوا ضيوفا بدار الأنبا ياكوبوس أسقف المنيا المشهور بالكرم وحسن الضيافة وقبل انصرافهم من عنده مال اليه القس داود بلباس الاعراب وقال له « أنا القس داود بقيت لأشكرك » فذعر الأسقف واستنجد بخدمه وكان القس داود قد لحق بأصحابه وأمعنوا فى السير ٠

---

(١) عن كتاب نوابغ الأقباط ومشاهيرهم فى القرن التاسع عشر ١ ص ١٠٢ ، ١٠٣

وبعد رسامته بطريركا كان نازلا مرة بدار ابن عم له ببوش وهو لابس ملابس الاعراب فأتى بعض العونة الذين يدعون انهم قسوس كنائس معينة وجلسوا بجانب البطريرك يحدثونه بأنهم أصدقاء البطريرك وأنه يجلهم ويحترمهم فتركهم ورجع بلباسه الكهنوتى وهو يقول لهم ها أنا صديقكم البطريرك جئت لكم لابرهن على صداقتى لكم بان اكلف المدير بالقبض عليكم ليتولى اكرامكم ريثما أعود الى القاهرة ٠

ومن نوادره بعد رسامته بطريركا (١) انه جاءه مرة رجل يطلب طلاق امرأته لأنها خرساء وعمياء ومكسحة فقال له ان الانجيل يامر ان نفعل بالناس ما نحب ان يفعلوه بنا فهب انك كنت اعمى ومكسحا واخرس فهل كنت تود أن تطلب امرأتك طلاقك فاقتنع وانصرف ٠

وأتاه يوما أيضا رجل يشكو من حميه لأنه حجز زوجته عنه فدعا أبو الزوجة فاعتذر بفقر الزوج وسوء تصرفه فصرفه البطريرك ليحقق دعواه ثم أرسل لبيت الزوج كل ما تحتاجه البيوت ومن ثم دعا أبا الزوجة مع بعض الأعيان ليرى بيت صهره فوجدوا البيت كامل الأثاث وارسل البطريرك الى زوجة الرجل يأمرها بعدم مقابلة زوجها فلما توجه الى بيته لم تشأ زوجته أن تقابله كأمر البطريرك فمضى اليه يطلب حله فوبخه قائلا اذا كنت لم تستطع فراق زوجتك يوما واحدا فكيف بصهرك الشاب فخجل وقبل رجوع ابنته الى زوجها اذا صرح لزوجته بمقابلته فاشترط البابا كيرلس مقابل ذلك أن يدفع ٧٥ جنيها التى أنفقها على بيت صهره والزمه بها بداعى أنه هو الذى قبل هذا الزوج على فقره فكان له أن يرفض طلبه ليتزوج امرأة فقيرة مثله يعيش معها براحة ونعيم ٠

ومما يؤثر عنه أنه وهو رئيس دير بوش زار الدير المحرق فطلب منه راهب غضب عليه رئيسه أن يتوسط فى الصفح عنه فأبى الرئيس قبول وساطته ولما جاء المساء واجتمعوا للصلاة طلب منه أن يتقدمهم فى العبادة فبدأ بتلاوة الصلاة الربانية بصوت عال حتى انتهى الى قوله « واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين الينا » فقال هكذا « ولا تغفر لنا ذنوبنا كما نحن أيضا لا نغفر للمذنبين الينا » فنبهه رئيس الدير ظانا أنه أخطأ فأعاد الصلاة ثانية وكررها هكذا فكرر له الرئيس التنبيه ٠ فعند ذلك أجابه هل نكذب على الله وهل أنت غفرت خطية أخيك حتى

---

(١) عن الخريدة لنفيسة فى تاريخ الكنيسة ج ٢ ٠

يغفر لك الله ؟ فخجل الرئس وأسرع بمسامحة الراهب من كل اثم جناه ، وحدث أنه زار العزيز مع بعض علماء المسلمين فقال له أحدهم انكم رغما من كونكم أصحاب كتاب فانتم مشركون لأنكم تجعلون لله ابنا مساويا له بالجوهر فقال له البطريرك ورد فى صورة الشورى « وليس كمثله شىء » فقال له العالم الكاف زائدة فقال نحذفها أجابه لا يمكن قال البطريرك نعمل بحكمها فقال العالم لا فأجاب البطريرك من أين أتت الحيرة فتقدم واحد وقال « لا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ٠

وقيل أن سعيد باشا اعترض أمامه على المسيحية لأنها تساوى بين الرجل والمرأة فأجابه البابا كيرلس اذا أتت المرأة أمرا مشكورا فهل لا يكافئها الله بأقل مما يكافىء به الرجل فقال الباشا حاشا لله من الظلم فأجابه « اذا كانت أحكام السماء تقضى بذلك فبالأولى أحكام الأرض » ٠

وروى أنه بينما كان فى زيارة رجل كاثوليكى طلب هذا مناقشته فى الطبيعة والطبيعتين فلم يشأ البطريرك أن يرد عليه وبينما كان خارجا قال للبواب « كم واحدا تعبد يا حمد ؟ » فأجابه « استغفر الله لا أعبد سوى واحد أحد » فقال له قل لسيدك لماذا يشرك من الواحد آخر وانصرف ٠

وحكى أيضا أنه زاره القاصد الرسولى يصحبه الخواجا يوحنا مسرة طالبا منه أن ينضم للبابا وكان حينئذ مشغولا فى بناء الكنيسة فجلس معهم وأظهر أنه مهتم بفحص كتاب كان معه ولما طال زمن انشغاله بالكتاب قال له الخواجا مسرة علام تفتش ؟ فأجابه لقد أصبحت فى حاجة الى المال بسبب العمارات القائمة وعرض على أحدهم أن استعين ببيع الغفرانات فأخذت أفحص الكتاب المقدس لعلى أهتدى فيه الى مايبرر هذا العمل ومع ذلك ضاع تعبى عبثا فاذا كان لحضرة القاصد معرفة بشاهد يؤيد الغفرانات فليدلنى عليه ففهم القاصد المراد وانصرف خجلا ٠

ومما يدل على مقدار تواضعه وتسامحه أنه عاقب كاهنا بدون أن يتحقق عما اذا كان مذنبا أو غير مذنب ، ولما ظهرت له براءته تعلق به وطلب منه أن يصفح له فخجل الكاهن ولكنه لبث يلح عليه حتى قال له « الله يحلك » ويروى عنه أيضا انه لما سافر الى الحبشة وكل الى المعلم برسوم واصف الاشراف على جميع أعمال الدار البطريركية أثناء غيبته وعند عودته سعى واش بالمعلم برسوم لدى البطريرك سعاية أدت الى نفور بينهما ، ولم يمض الا القليل حتى ظهرت الحقيقة وثبت للبطريرك أن الرجل

برىء مما نسب اليه فندم على مافرط منه ضد المعلم برسوم وأسرع فكتب اليه يقول « لقد تحريت المسألة فوجدتها كلاما لا أصل له فأرجوك المسامحة لأنى بشرى غير معصوم من الخطأ » ثم وقع هكذا : الحقير كيرلس ٠ ٠

٣ — ديمتريوس ٢ — البطريرك المائة والحادى عشر :

كان أولا يدعى ميخائيل رئيس دير القديس مغاريوس ببرية النطرون انتخب للبطريركية ثم قرر فى ٩ بؤنة سنة ١٥٧٨ ش و١٨٦٢ م فى أواخر خديوية سعيد باشا وبعد تقليده زار الجناب الخديوى وذوات الحكومة فقال له سعيد باشا عند أول مقابلة له « لا نفعل مثل سلفك كلما يلزم لك قل لى عليه وأنا مستعد لتأديته لك » ٠

ثم شرع البابا ديمتريوس فى تكميل الكنيسة الكبرى بالأزبكية التى أسسها سلفه حتى تمت على نظامها الحالى واستمر يدير حركات المدارس التى أنشأها سلفه أيضا ، وقد توفر له الحظ عند تولى الخديوى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ م اذ أنعم عليه بجملة كثيرة من الأراضى الزراعية للقيام بلوازم بطريركيته ومدارسه ،ولم يبرح مرادفا له بصلاته مسعفا له باصدار أوامره الكريمة باجراء امتحان مدارسه بعد امتحان المدارس الأميرية كالرسوم الجارية بها وذلك بأن يصير الامتحان باحتفال يحضره كل عام كرام القوم والعلماء والأمراء الأمر الذى أضحت المدارس القبطية تفتخر به فى كل زمان ثم رقى اسماعيل باشا جملة من قومه الأقباط الأصليين للرتب والوظائف الأميرية ٠

ولما قدم السلطان عبدالعزيز الى مصر فى سنة ١٨٦٣م دعا اسماعيل باشا العلماء والوزراء والآباء الروحيين والوجوه ليحظوا بمقابلته ٠ وعين لهم يوما قال المعاصرون انه وافق يوم الجمعة العظيمة للارثوذكسيين وكانت العادة فى ذلك العهد أن من يدع للمثول بين يدى السلطان يقبل طرف ثيابه فلما جاء دور البابا ديمتريوس تقدم توا ولثم صدر السلطان فانزعج السلطان ودهش الحاضرون وعدوا ذلك من البطريرك جسارة كبيرة ٠ ولما سئل عن معنى التقبيل الغريب الذى لم يسبقه اليه غيره أجاب « انما أنا أقبل يد الله ملك الملوك وسلطان السلاطين لأنه ورد فى الكتاب المقدس أن « قلب الملك فى يد الرب (أم ٢١ : ١) وكان مع البطريرك قس

يقال له القمص سلامة يعرف التركية تترجم كلام البطريرك فلما سمع السلطان ترجمة هذه العبارة ابتسم سرورا وأنعم بألف فدان من أملاك الحكومة للمدارس القبطية ثم زادها الخديوى اسماعيل خمسمائة فدان أخرى فى مديرية الشرقية ·

وبعد ذلك بلغ البابا ديمتريوس ان بعضا من قومه بالجهات القبلية نبذوا عنهم بعض عقائدهم الأرثوذكسية واتبعوا آراء أجنبية طارئة فقام بنفسه فى برمهات سنة ١٥٨٣ ش لتفقد تلك الجهات يصحبه العلامة الشهير الايغومانوس فيلوثاؤس رئيس الكنيسة الكبرى وعينت له الحكومة مركب بخار من طرف الحكومة السنية حسب التماسه وزار مدن وبلاد وكنائس الوجه القبلى الى أن بلغ اسنا واستمر فى هذا السفر ثلاثة أشهر وبعد حصوله على اقناع وارتداد أولئك الأشخاص وضمهم للكنيسة عاد الى مركزه ·

واستمر فى الرئاسة سبع سنين وسبعة شهور وسبعة ايام وتوفى ليلة عيد الغطاس اعنى ليلة ١١ طوبة سنة ١٥٨٦ش و١٨٧٠م (١) ·

٤ - كيرلس ٥ - البطريرك المائة والثانى عشر :

وهو البطريرك الحالى ولد فى قرية تدعى تزمنت من مديرية بنى سويف سنة ١٨٢٤ م ودعى باسم يوحنا وبعد ميلاده بزمان يسير هجر أبواه مسقط رأسيهما واستوطنا بكفر سليمان الصعيدى بمديرية الشرقية وما زالت عشيرته بذلك الكفر الى يومنا هذا ·

ولما بلغ سن الرشد رسم شماسا من مطران القدس أنبا ابرآم المتوفى وبعد قليل توفى والداه فاعتنى بتربيته المعلم بطرس أخوه البكر وكانت تلوح عليه من حداثته دلائل التقوى والميل للانقطاع عن العالم ومحبة الكتب والمطالعة فكان يتجنب أترابه من الشبان ويخشى على طباعه أن تؤثر عليها طباعهم وكان يحترم أب اعترافه احتراما فائقا ·

ولبثت بذور الفضيلة تنمو فى قلبه حتى بلغ العشرين من عمره أعنى سنة ١٨٤٤ م فصار يتردد بين أمرين اما أن ينذر نفسه لله ويعيش بتولا بين الرهبان أو يتزوج ويصير رب عائلة ، فتغلبت عليه أمياله وعواطفه

---

(١) الخطط التوفيقية ج ٦ ·

وقصد دير السريان بالجبل الغربى فلم يلبث به بضعة أيام حتى استرجعه أهله وأخذوا يلاطفونه كى لا يتركهم ، ولكن كان يتحين الفرص لترك العالم وملاذه وآثار العيشة التى كانوا يخيفونه منها وتمكن من الهرب وترهب بدير السيدة العذراء بالبراموس .



« غبطة البابا كيرلس الخامس »

وكان هذا الدير فى غاية الفقر والفاقة اذ كانت ايراداته فى أيدى الغير يستغلونها لأنفسهم حتى لم يكن يقتات رهبانه الا بالترمس الذى كان مدخرا بالأديرة من عهد المرحوم المعلم ابراهيم الجوهرى ومن ثم تناقص عدد رهبانه الى أربعة وكان البابا كيرلس بينهم سالكا مسلك الفضيلة متمما قوانين الرهبنة كما يجب فاتفقت الكلمة على ترقيته لدرجة الكهنوت فكتبت له تزكية وفى سنة ١٨٤٥م رسم قسيسا من أسقف المنوفية المتوفى أنبا صرابامون على كنيسة حارة زويلة .

وبعد قليل طلبه الرهبان ليتولى ادارة شئونهم فسلم له تدبير أمور مجمع الرهبان بنفس الدير فظهر ناجحا فى المعرفة والسيرة واحتقاره لذاته حتى كان يوزع على الرهبان مما يكسبه من نسخ الكتب واشتهر

حينئذ « بيوحنا الناسخ » فتحسنت أحوال الدير وزاد عدد رهبـــانه الذين ساروا على منواله فى احتقار العالم ومجده الباطل ٠

وطالما رغب سلفه وكثير من الأمة فى احضـاره للقاهرة وتعيينه فى رتبـة أعلى مما كان عليه فلم يقبل ولم تسمح كبار الرهبنـة بتركه اياهم الى أن استدعاه البـابا ديمتريوس سنة ١٨٥٥ م ورسمه ايغومانوسا وأقامه مساعدا فى الـكنيسة الـكاتدرائية بالأزبكية ٠ فشق الأمر على رهبانه ولم يطيقوا احتمال فراقه فـكتبوا يستعطفون البطريرك ليعيده اليهم فلبى طلبهم وأرجعه الى مكانه فقام بأعباء وظيفته خير قيام ٠

ولـما توفى سلفه أقامت الأمة باستئذان الحكومة السنية نيـافة الأنبـا مرقس مطران البحيرة ووكيل الاسكندرية وكيلا لأجل عدم توقيف حـركة ادارة الدار البطريركية فجعلت الحـاظ الجميع تتوجـه نحو الايغومانوس يوحنا وأصـوات الانتخـــاب تترادف عليه ولولا ما حصـل من الأسباب الاعتيـادية والأغراض الشخصية التى نشأ عنها خلو المنصب البطريركى من الرئيس أربع سنوات وتسعة أشهر لأحضر وقلد حالا ٠

وكانت الأمة قـد رتبت لها مجلسـا مليـا يتعـــاطى تدبير أمورها الخصوصية وتأيد مجلسها هـذا بأمر عال كريم فبعـد ترتيبـه التمست الأمة بواسطة مجلسها من مقـام الخـديوية السنية احضـاره بمساعـدة الحكومة لرسمه بطريركا فتم ذلك وكلفت الحكومة مدير البحيرة باحضاره فحضر للقاهرة وانتخبـه البطاركة والأساقفـة وأعيان الطائفة القبطيـــة بطريركا للـكرازة المرقسية فى ٢٣ بابه سنة ١٥٩١ ش و ١ نوفمبر ســنة ١٨٧٤ م باحتفـــال حافل حضره كبار الأمة والأمراء والرؤساء الروحانيين فى الـكنيسة الـكبرى بالأزبكية وفى ثانى يوم من بطريركيته زار الجناب العـالى الخـديوى اسماعيل باشـا وبعـد ذلك لبث ثلاثة أيام فى مركزه البطريركى يقبل تهانى الأمة ٠

واذا أردنا أن نعد فضـائله ومآثره بعد رسامته بطريركا يضيق بنا المقـام نظرا لـكثرتها وبلوغها الحـد الأسمى فمن صـلاح متناه الى محبة للفقراء ومساعدة للمنكوبين ناهيك عن الاصلاحات التى قام بها لطائفتـه وأمته فشاد جملة قصـور فى كل دير من أديرة القاهرة ومصر القـديمة رشيد ثلاث عشرة كنيسة بمصر والخرطوم والجيزة وزين الـكنيسة الـكبرى بأبدع أنواع الزينـة وأنشأ تسع مدارس بالقـاهرة والجيزة منها المـدرسة

الاكليريكية ومدرسة البنات بالأزبكية والصنائع ببولاق واشترى لذمة البطريركية أكثر من خمسمائة فدان واشترى السراى الكائنة بمهمشة حيث المدرسة الاكليريكية حتى زاد ايراد البطريركية ستة أضعاف عما كان أولا وجل نفقة هذه المشروعات النافعة كان يقدمه من ايراده الخاص وتبلغ الأموال التى أنفقها من ماله خاصة أكثر من سبعين ألفا من الجنيهات ٠

وعلا نجم الأمة القبطية فى عهده فانتشرت الحرية واتسع نطاق العمل وعم العلم وتقدم أبناؤه فى البلاد فأصبح منهم السراة المعروفين والأغنياء المشهورين والذين تعلموا منهم نالوا الرتب العالية فى الحكومة نعظم شأنهم وارتفعت كلمتهم وارتقى العلم الدينى فصار صوت الوعظ يسمع فى أغلب كنائس القطر وانشئت مدارس للرهبان بحيث يحكم البصير لأول وهلة أن التقدم السريع الذى حازته الأمة القبطية فى هذا الوقت القصير لم يكن يؤتيه الا الله القادر على كل شىء بواسطة خليفة رسله البابا كيرلس الخامس وبالجملة فلم يتوفر للامة القبطية حظ ولم تتح لها سعادة كما فى عهد البابا كيرلس ٠

أما حوادث الخلاف التى وقعت بين غبطته وبين بعض رجال أمته فنذكرها ملخصة عن كتاب « القول اليقين فى مسألة الأقباط الأرثوذكسيين » للمرحوم يوسف بك منقريوس : -

بعد وفاة البابا ديمتريوس الثانى تولى ادارة شئون الكنيسة الأنبا مرقس مطران الاسكندرية ووكيل الكرازة المرقسية سنة ١٨٦٢ م ولما كثرت عليه الأعمال استعان ببعض المتقدمين من الطائفة على انجازها فشكل منهم مجلسا شوريا لبث يدير معه أمور الطائفة ثم طلب منه الأعضاء أن يطلب من الحكومة اعتماد مجلسهم ففعل وأجابت الحكومة طلبه فى ١٥ ذى الحجة سنة ١٢٩٠ هـ ٠

ولما ارتقى غبطة البطريرك الحالى كرسى البطريركية وضع مع أعضاء المجلس حسب روايتهم لائحة تقضى بوجوب نظر المجلس فى مصالح الكنائس وأحوالها وفى المدارس والأوقاف والفقراء والأحوال الشخصية ورسامة القسس وغير ذلك والتمس البابا البطريرك من الحكومة التصديق على اللائحة فصدقت عليها فى ١٤ مايو سنة ١٨٨٣ م الا أن هذه اللائحة كانت حبرا على ورق لأن أعضاء المجلس لم يهتموا بشىء ولم يوجهوا نظرهم

للاهتمام بما يستدعى جهادهم وتعبهم ولبث مجلسهم ينحل شيئا فشيئا حتى فارق الحياة ٠

وبعد مدة تحرك بعض أبناء الأمة فطلبوا من غبطة البطريرك تشكيل المجلس فأبى أن يجيبهم بدون تعديل اللائحة وحذف ما فيها مما يخل بسلطته فلم يقبلوا بل رفعوا أمرهم الى الخديوى وكان وقتئذ توفيق باشا وعزموا على عقد اجتماع لاعادة الانتخاب فكتب البابا كيرلس يحيط مجلس النظار علما بالمسألة وطلب منع ذلك الاجتماع فمنع ٠

ومن ثم استدعى البابا كيرلس المطارنة والأساقفة وكبار القسوس من كل الجهات وعقد بهم مجمعا اكليريكيا أصدروا فيه قرارا يقضى بضرورة عدم تداخل أحد من الشعب فى تدبير أمور الكنيسة ومتعلقاتها ٠

وحمل البابا كيرلس ونيافة الأنبا يؤنس مطران الاسكندرية هذا القرار الى توفيق باشا ورفعاه اليه فوعد بالمساعدة وقضى البابا بالاسكندرية مدة شهرين مافتىء فيها أعضاء المجلس يسعون ليحققوا أغراضهم غير أنهم لما قابلوا توفيق باشا أدركوا استحالة عمل شىء بدون رضاء البابا كيرلس فأكرهوا على ملاطفته ومحاسنته ولما رجع من الاسكندرية استقبلوه استقبالا فخيما ٠

وكان المرحوم بطرس باشا غالى بأوربا فى أثناء هذه الحوادث وحضر بعد ذلك فألقى اليه توفيق باشا مقاليد المسألة وكلفه بحسم هذه المشاكل فوبخ أبناء الطائفة وأرغمهم على طلب الصفح من غبطة البطريرك وانتهت المسألة على مايرام واهتم البابا بعد ذلك من تلقاء نفسه بتعليم الرهبان ونشر المعارف وتشييد المدارس فى البلاد حتى أصيب بمرض فانطلق الى دير العريان ترويحا للنفس مدة ٠

وعقب ذلك تأسست جمعية التوفيق وحررت نشرة تطلب فيها ضرورة الانفاق من ريع الأوقاف على ترقية المدارس وتسهيل وسائط التربية العالية لأبناء الأمة فتعرض لهذه النشرة بعضهم يفندها ويكشف أغلاطها وأعقبت الجمعية نشرتها بأخرى طلبت فيه تعيين مرتب للاكليروس القبطى أسوة باكليروس باقى الطوائف فأظهر الجميع موافقتهم على هذا الرأى لتأكدهم بأنه سر نجاح وتقدم أكليروسنا ٠ ثم كتبت نشرة أخرى بضرورة اعادة تشكيل المجلس الملى فردت عليها الجمعية الأرثوذكسية واحتدم الجدال بين الفريقين مدة ما ٠

وفى خلال تلك المناظرات استدعى بطرس باشا غالى نيافة الأنبا يؤنس مطران الاسكندرية الى القاهرة وكلفه أن يبلغ غبطة البطريرك بأن الأمة ترغب فى انشاء مجلس ملى ، فرد البابا برضاه عن تشكيل مجلس اذا عدلت اللائحة القديمة فأبى بطرس باشا تغيير اللائحة وأصر البابا على طلبه . ولما كانت جمعية التوفيق قد تحدت غبطة البابا بكلام لم توقر فيه مركزه الدينى كتب للديوان الخديوى يطلب منعها فلم يرد عليه . وكان بطرس باشا عازما على السفر الى أوربا وتقابل مع الخديوى ليأخذ منه اذنا بالسفر فذكر أمامه النزاع الطائفى الحاصل فأجابه بطرس باشا بأنه لا يمكن أن يهدأ مالم يشكل المجلس فصدر الأمر لبطرس باشا بتأخير سفره ليسعى فى تشكيل المجلس .

وأبلغ البابا كيرلس هذا القرار وهو مقيم بدير العدوية الكائن بجنوب القاهرة واستدعى الى قائمقام رئيس مجلس النظار فتوجه اليه وصحبته القمص تادرس مينا أحد قسوس البطريركية فوجدا معه بطرس باشا غالى وطالت المناقشة بين الطرفين فى أمر المجلس وغبطة البطريرك يبدى اصرارا زائدا فأبلغه الوزير القائم بالأمر الذى صدر النطق العالى به بضرورة تشكيل المجلس ولابد من تنفيذه بالقوة .

فانطلق البابا كيرلس للدار البطريركية وكتب للديوان الخديوى يطلب تعديل الأمر وكتب أيضا كذلك لمختار باشا المندوب العالى العثمانى وغيرهما من أولى الشأن وكان ذلك فى ٢٨ يونية سنة ١٨٩٢ م وفى مساء ذلك اليوم استدعى نحو خمسمائة نفس من رجال الطائفة بدعوة موقع عليها من بطرس باشا غالى بصفته نائب مجلس الأمة لاجراء انتخاب المجلس .

وفى الغد قصد بطرس باشا الدار البطريركية تتبعه عساكر البوليس ومنع الدخول الى البطريركية وصرف تلاميذ المدرسة وأساتذتها وطرد الخدم وضبطت أبواب البطريركية ، فأرسل غبطة البطريرك يستنجد بالمعية السنية فلم ترد عليه والناس حيارى لا يعرفون مايتم وبعد الظهر جاءت جنود أخرى ، وأقبل محافظ القاهرة وطلب من غبطة البطريرك أن يقبل الرئاسة على الانتخاب فأبى فقام المحافظ الى المجلس المعد للانتخاب بالمدرسة الكبرى وافتتح الحفلة باسم الحضرة الفخيمة الخديوية وبدىء بالانتخاب فأسفر عن النتيجة الآتية وهى :

بطرس باشا غالى . حنا بك نصر الله . بطرس بك يوسف . مقار بك عبد الشهيد . قلينى بك فهمى . خليل افندى ابراهيم . يوسف بك وهبه .

يوسف أفنـدى سليمان • حنـا بك باخوم • نخلة بك البـاراتى • حبشى أفندى مفتاح • يعقوب افندى نخلة روفيلة • وهؤلاء بصفة أعضاء • وانتخب باسيلى بك تادرس • عبد المسيح بك حبشى • ابراهيم أفنـدى منصور • وهبـه أفنـدى يوسف عبده • رفلة أفندى جرجس • مرقس أفندى سميكة • ابراهيم بك روفائيل الطوخى • باسيلى أفندى روفائيل الطوخى • فرج أفندى ابراهيم • بطرس أفنـدى أبادير • يعقوب أفندى نخلة يوسف • عوض بك سعد الله بصفة نواب أعضاء •

وبعد الانتخاب أعلن غبطة البطريرك الديوان الخديوى والأمة بالجرائد أن ماتم كان بغير اذنه وبدون رضـاه وانه لا يوافق مطلقـا عليه • وكان عيد الأضحى قـد قـدم فتوجه غبطتـه مع بعض الآباء المطارنة والقسوس لمقـابلة الجنـاب العـالى فأبى أن يقـابلهم وتكدرت الخواطر لهذا السبب وأراد بطرس باشـا أن يسـتجلب رضـــاء سـمو الخـديوى على الآباء الروحيين فـكلف البـابا كيرلس أن يحرر للمعيـة السنية خطابا يعلن فيه قبوله لانتخاب المجلس ويلتمس رضى الخـديوى المعظـم ويرجـو التشرف بمقـابلته فرفض غبطتـه أن يحرر خطابا هـذه صـورته وكتب خطابا آخر طلب فيـه المقـابلة فلم ترد عليه المعيـة السنية بل كتبت لبطرس باشا تطلب منه أن يبلغ البطريرك بأن المعيـة لا تسمح له فيما بعد بمخاطبتها وان كان له على أحد شىء فليرفع أمره لجهات الاختصاص •

هذا وفضـلا عن احتجاجات غبطة البطريرك المتعددة وافقت الحكومة على تقرير الانتخاب وأعلن غبطة البطريرك بذلك فـكتب لمجلس النظار بأنه باق على رأيه لم يتغير وكان بعض أنصـار جمعيـة التوفيق يجولون فى البـلاد لأخـذ توقيعـات أبنـاء الطائفـة على قرار انتخابهم فكتب غبطة البطريرك يحذر الأمة من الانقياد لهم •

وانعقد المجلس ورأى أنه من المستحيل اكتسـاب رضـاء البطريرك وموافقتـه فأصـدر قرارا مؤداه رفع البـابا كيرلس الخامس من رئاسـة المجلس ومن ادارة كل ما يتعلق بشئون الطائفـة وأن المجلس ينتخب من يلزم ليكون وكيلا للبطريركية ورئيسا للمجلس • وعرض هذا القرار على مجلس النظار فوافق عليه وصـدر به قرار فى ٢٨ يونية سنة ١٨٩٢ م ولما اطلع عليه غبطة البطريرك كتب الى مجلس النظار يحتج على رفع يده من ادارة شئون هو وحده المدبر لها •

وكان مقار بك عبد الشهيد فى أثناء هذه المدة يسعى فى استمالة أحد الآباء المطارنة أو الأساقفة لقبول رئاسة المجلس وادارة البطريركية. فكلم فى ذلك أسقفى الفيوم والخرطوم فوبخاه بشدة ولكن أعلن بالجرائد أن اثنين من أساقفة الأقباط قبلا الترأوس على المجلس فأعلن غبطة البطريرك حرم من يتجارى على ذلك الا ان مقار بك تمكن من أن يستميل الى المجلس الأنبا أثناسيوس أسقف صنبو واتى به الى القاهرة متنكرا ولما أظهر خوفه من شجب البطريرك أقنعه الايغومانوس فيلوثاوس الذى انضم لتلك الحركة حينئذ بأنه فى امكانه اذا صدر الحرم أن يفنده من الكتاب المقدس ومن قوانين الكنيسة. ووصلت هذه الأخبار مسامع غبطة البطريرك فأنذر أسقف صنبو فأرسل هذا اليه يعلن خضوعه التام ويكذب كل ما أشيع عنه.

ولما ضاق الأمر بغبطة البطريرك ورأى أبواب الحكومة المصرية مغلقة أمامه استعان ببعض قناصل الدول فخاطب قنصل انجلترا فأبى التوسط بينه وبين الخديوى وقابل قنصل روسيا وقص عليه كل ماحصل فوعد بالتوسط بينه وبين بطرس باشا فأظهر بطرس باشا ميله للصلح وفعلا توجه للدار البطريركية وتقابل مع غبطة البطريرك واتفقا على نسيان مامضى وعلى تعديل لائحة المجلس وبحسب ذلك التعديل يحفظ لغبطة البطريرك حق حفظ أوقاف الأديرة لها وادارة ديوان البطريركية ورئاسة المجلس وغير ذلك. وما ذاع خبر هذا الاتفاق حتى كادت تطير له القلوب من شدة الفرح وأخذت رسائل التهانى تترى على الدار البطريركية وبطرس باشا.

وكاد الخلاف يزول أثره والوئام يشتد أزره لولا أن ذلك الاتفاق لم يكن ملائما لأغراض أعضاء المجلس فأرسلوا مندوبين بعد كتابة الاتفاق بأيام الى غبطة البطريرك لتقديم اقتراحات جديدة لهم وطلبوا الرد عليها فى مدة يوم واحد وهددوه فى حالة عدم الرد بعمل كل مايمكنهم عمله. فلم يشأ غبطته أن يرد عليهم بل كتب لبطرس باشا بقبوله فقط للاتفاق الذى أبرماه معا وتشبث رجال المجلس بطلباتهم وهكذا انصرم حبل الوفاق ثانيا فأسفت الأمة وعادت الى حزنها واكتئابها وقام غبطة البطريرك حينئذ ليقيم بالاسكندرية.

وفى ٢٦ أغسطس سنة ١٨٩٢ م أعلن المجلس الغاء ذلك الاتفاق وقرر تعيين أسقف صنبو وكيلا للبطريركية ورئيسا للمجلس وصدرت الارادة

السنية بالموافقة وتوجه مقار بك الى صنبو لتهنئة أسقفها بمركزه الجديد واحضاره معه فأبى مرافقته الى القاهرة الا بطلب رسمى من وزارة الداخلية فجاءه الطلب بعد ساعات وكتب هو يعلن غبطة البطريرك بذلك ٠

فأرسل غبطة البطريرك الى نيافة أسقف بنى سويف لينتظر أسقف صنبو على المحطة أثناء قيامه للقاهرة ويعلنه بالحرم اذا خالف قوانين الكنيسة فانتظره حسب الأمر وأعلن له الحكم البطريركى فلم يعبأ به وقوبل بمحطة القاهرة مقابلة رسمية وكان الأعضاء يهتفون له قائلين « يعيش الأنبا أثناسيوس » ٠ أما غبطة البطريرك فأمر أسقف الخرطوم وأحد قسوس البطريركية بمنع أسقف صنبو من دخول البطريركية فاجتمع بعض الرهبان وفقراء الأحباش والخدم داخل البطريركية وأغلقوا الأبواب الخارجية ولكن أسقف الخرطوم أبى الاشتراك معهم فى هذه المقاومة وظل مقيما بمصر القديمة ٠

قيل أن القسوس الذين رافقوا أسقف صنبو توجهوا الى البطريركية فوجدوا أبوابها مغلقة فرجعوا على الأعقاب والأولاد يصرخون وراءهم قائلين « يا محرومون يا محرومون » أما الأسقف فتوجه الى دار عوض بك سعد الله ونزل به ضيفا حتى تفتح له أبواب البطريركية ٠

وعلى أثر ذلك اجتمع بالدار البطريركية بالاسكندرية حضرات الأساقفة والكهنة الموجودين بها وقرروا قطع أثناسيوس من كامل الوظائف الكهنوتية ثم كتب غبطة البطريرك حاشية على هذا القرار باعتماده وكان غبطته قد كتب للمطوب الذكر الأنبا باسيليوس أسقف كرسى أورشليم يعلمه بما حصل من أسقف صنبو فجاء من نيافته تلغراف بوجوب معاملة هذا الأسقف حسب القوانين الكنسية ٠

ولما رأى أعضاء المجلس أن أبواب البطريركية مغلقة فى وجوههم وأن وجود غبطة البطريرك ونيافة مطران اسكندرية دعا الى تأخير اجراءاتهم اجتمعوا فى ٢٦ مسرى سنة ١٦٠٨ ش و٣١ أغسطس سنة ١٨٩٢ م وشكلوا مجلسا روحيا من القسوس الذين انضموا اليهم وهم القس بشاى خادم كنيسة حارة زويلة والقمص جرجس بشاى خادم كنيسة الدمشيرية والقمص بولس جرجس وكيل قضايا البطريركية والايغومانوس فيلوثاؤس رئيس الكنيسة الكبرى وباتفاق المجلسين تقرر ابعاد غبطة

البطريرك الى دير البرموس ونيافة مطران الاسكندرية الى دير أنبا بولا وأرسل القرار الى رئاسة مجلس النظام فأقرته سريعا وبناء على ذلك توجه محافظ الاسكندرية فى يوم الخميس أول سبتمبر سنة ١٨٩٢ م الى غبطة البطريرك وأعلمه بهذا الأمر فقبله بسرور ووعد بالسفر غدا وأحيطت البطريركية بالاسكندرية بالعساكر وفى صباح الجمعة سافر غبطته تاركا لأرباب المجلس بالاسكندرية الف ومائتى فنتو وأوصى أن لا تصرف بل تكون وقفا وترك لهم القاهرة ثمانمائة فنتو وبعض قطع ذهب وساعة ذهبية أهديت له من اسماعيل باشا وغير ذلك من الأثاثات الخاصة به والتى لم يهتم بأخذ شىء منها حتى ولا سجادته الخصوصية · أما ملابسه فقد فرق بعضها فى الطريق وفرق الباقى على الرهبان حال وصوله للدير ·

ولما وصل الى محطة الطرانة شاهد حمزة بك عمدة الطرانة أنهم أعدوا له جملا ليحمله الى الدير الذى كان يبعد عن المحطة نحو ٢٤ ساعة وعلم أن غبطته على ما هو عليه من الوهن لم يكن يمكنه أن يقطع المسافة راكبا جملا فاستحضر له جواده الخاص وسار معه الى نصف المسافة مودعا ولم يرجع الا بالحاح غبطة البابا الشديد وبعد أن استراح غبطته بالدير قليلا خلع ثيابه ولبس ثياب الرهبان وساوى نفسه بأقلهم واشترك معهم فى كافة الأعمال · وكان بالدير حديقة جعلها موضوع عنايته فكان يمضى جل وقته عاملا فى غرسها وتنقيتها وريها وعزقها حتى أينعت وصارت روضة زاهرة · أما نيافة مطران الاسكندرية فأخذ الى القاهرة ومنها الى بنى سويف ومنها الى دير أنبا بولا ·

هذا وبعد ذلك قام أعضاء المجلس تصحبهم قوة عسكرية لفتح أبواب البطريركية ففتحت ودخلها أسقف صنبو والايغومانوس فيلوثاؤس وأقاما بها · قيل أنه فى يوم الأحد ٤ سبتمبر سنة ١٨٩٢ م وهو أول أحد أقام به الأسقف الصلاة بالكنيسة الكبرى أعطى الانجيل ليقرأ منه الفصل المعين لذلك اليوم فتلا خطأ فصلا فحواه خيانة يهوذا للسيد المسيح وتسليمه اياه فنبهه الايغومانوس فيلوثاؤس فارتعد وجزع لاسيما لما تمثل نفسه أسوة بيهوذا الأسخريوطى الا أنه لم ينكف عن تلاوة ذلك حتى انتهى منه وهو غائب عن الشعور لا يدرى أين هو أبالقاهرة أم بصنبو · ومن هذا القبيل جرى أن الأيغومانوس فيلوثاؤس بينما كان يرفع الأسرار الربية سقطت الصينية من بين يديه فتشاءم الكثيرون ومن غرائب الصدف أنه فى نفس هذا اليوم وقع الكأس من يد الكاهن الذى كان يخدم بالكنيسة

المرقسية بالاسكندرية وبعد أسبوع وقعت مبخرة البخور من يد الايغومانوس المومأ اليه فكادت تحرق السجادة . فاستخلص النـاس من كل هذه الحوادث أن الله غير راض عن أعمال المجلس وأنصاره .

وما بلغت هذه الحوادث الجمعية الأرثوذكسية حتى عملت على استثمارها فكتبت منشورا تدعو فيه الشعب الأرثوذكسى أن يمتنع عن الصلاة مع ذلك الأسقف وكهنته المحرومين وأن يتوجهوا للصلاة بكنيسة الأروام الأرثوذكس بالحمزاوى فلبى هذا النداء كثيرون فكانوا يتوجهون الى كنيسة الأروام وأظهر هؤلاء عظيم سرورهم وجعلوا الصلاة باللغة العربية وقيل أن بعضهم تبرع ببناء كنيسة ومدرسة بالشماشرجى للذين ينفصلون عن الكنيسة القبطية وينضمون لكنيسة الأروام .

فخشى أعضاء المجلس عاقبة هذا الأمر وعولوا على استدعاء الأساقفة من كل الجهات ليحلوا المحرومين وكان جل الأساقفة قد تركوا مراكزهم وانطلقوا الى الأديرة وهم أساقفة بنى سويف واسنا ومنفلوط ولم يجب دعوتهم سوى أساقفة المنيا وأخميم وجرجا وأسيوط الا أنهم عوضا عن أن يجيبوا المجلس الى طلبه أعلنوا موافقتهم لأحكام رئيسهم غبطة البطريرك وجددوا شجب المشجوبين بل امتنعوا عن المرور من الدرب الواسع الكائنة به البطريركية ونزلوا بعزبة أنبا بولا بدرب الجنينة بالقبيلة وبعد أن أقاموا بالقاهرة مدة لم ينل منهم فى أثنائها أعضاء المجلس طائلا عادوا الى مراكزهم وتعطلت الشعائر الدينية بالقاهرة اذ لم يقبل أحد أن يستدعى أحد الكهنة المحرومين لاجراء فروض التكليل والتعميد والصلاة على الموتى وغير ذلك .

ومن ثم توالى رفع عرائض الاسترحام العديدة من أبناء الطائفة الى سمو الخديوى بطلب استرجاع بطريركهم وفى يوم السبت ١٩ بابه سنة ١٦٠٩ ش تقدم وفد من أعيان الأمة الى مصطفى باشا فهمى رئيس الوزارة مكررا هذا الطلب فوعده خيرا وبعد ذلك تمكن الوفد من مقابلة سمو الخديوى وأعاد على سمعه رغبة الأمة فى رجوع بطريركها . وبالجملة فقد بذل الشعب مع الأساقفة كل مجهود لديهم فى سبيل عودة رئيسهم حتى صدر أمر خديوى كريم فى ٢٠ يناير سنة ١٨٩٣ م بالسماح بعودة غبطة البطريرك ونيافة المطران فما ذاع هذا الخبر حتى أقيمت معالم الأفراح وبدا السرور والبشر على كل الوجوه وانطلق كل لسان يشكر الله .

ووصل الأمر الكريم مسامع غبطة البطريرك وتوجه اليه مائتا نفس من أبناء الأمة فى يوم الخميس ٢٦ طوبة سنة ١٦٠٩ ش وطلبوا منه أن ينزل من الدير يوم الاثنين ليعدوا له مكانا خاصا يوم الثلاثاء ولكن الظروف قضت أن يبرحوا الدير يوم الجمعة ٢٧ طوبة وكان العربان طول الطريق ينشدون الأناشيد ويطلقون البنادق ويركضون على صهوات خيولهم حتى وصل الركب الى محطة كفر داود فأقبل الناس يلثمون يدى غبطته وهو يدعو لهم ويباركهم ٠

وكان الذين أتوا لاستحضار غبطة البطريرك قد صمموا على السفر فى قطار خاص فقال لهم غبطته اننا لا نسافر الا فى قطار الركاب فألحوا عليه كثيرا فلم يقبل وبينما هم كذلك اذا بتلغراف يفيد عدم امكان قيام قطار خاص فأمرهم غبطته أن يقطعوا التذاكر حتى يذهب لزيارة بعض أهالى تلك البلدة التى كانت تبعد عن المحطة مقدار ثلث ساعة فالتمسوا منه أن يبقى لئلا يبرحهم القطار فقال لهم لا تخافوا فسكتوا وهم فى غاية الحيرة وقالوا لابد من ارجاء السفر للغد وبعد قليل وصل اليهم أن بعض آلات القطار قد تعطلت وأن القطار سيتأخر عن ميعاده ساعتين فتعجبوا ومجدوا الله وهكذا تمكن غبطة البابا ومن معه من السفر صباح السبت ٢٨ طوبه ٠

وكانت البطريركية مزدحمة بألوف المبتهجين بعودة رئيسهم والأجراس تدق مبشرة بقدومه ٠ واستقبل غبطة البابا فى كل المحطات التى مر عليها القطار استقبالا عظيما بالكهنة والشمامسة والتراتيل اما الاحتفال بقدومه فى القاهرة فحدث عنه ولا حرج حيث كانت الجماهير تموج كالبحر الزاخر وأصوات الدعاء لسمو الخديوى ودولتلو رياض باشا وغبطته تشق عنان السماء ٠ ولما نزل من المحطة كان الناس يقبلون أهداب ثيابه ورجليه ويديه وكادوا يرفعونه على رؤوسهم وبالكاد استطاع أن يعتلى العربة المعدة له ووصل البطريركية فى مسافة طويلة لشدة الازدحام حتى اندهش محافظ القاهرة الذى حضر بالجنود لاستقبال غبطته رسميا لجلال ذلك الاحتفال وحسن رونقه وكان القسوس والشمامسة أمام الكنيسة بملابسهم الرسمية وسعف النخل بأيديهم يرنمون ترنيمات التهانى والنساء يزغردن والجميع فى ابتهاج ما عليه من مزيد ٠

وكان قد قام وفد آخر من كبار الطائفة وتوجه الى دير أنبا بولا فى يوم الأربعاء ٢٥ طوبه لاستدعاء نيافة مطران الاسكندرية فقام معهم الى بنى سويف وهناك تقابل مع سمو الخديوى فى بنى سويف حيث اتفق تشريفه لها حينئذ وأظهر سمو الخديوى سروره مما تم ودعا له نيافة المطران بالعز والتأييد · ومن ثم سافر نيافته الى القاهرة فقوبل باحتفال عظيم فى المحطة وفى البطريركية ·

وبعد عشرة أيام من عودة غبطة البطريرك جاء بطرس باشا لزيارته وصحبته جميع المحرومين فاعترفوا بكل ما صدر منهم وطلبوا الصفح عنهم والرضاء عليهم فسامحهم غبطته وحلهم لما جبل عليه من مكارم الأخلاق ولكى يتمم وصية سيده المسيح رسم أسقف صنبو مطرانا وحذرهم جميعا من العودة الى مثل ما أتوه لئلا يقعوا تحت طائلة الحرم ثانيا ·

وبعد مناقشة طويلة بين غبطة البطريرك وأعضاء المجلس من جهة وبينه وبين جمعية التوفيق من جهة أخرى صدر الأمر العالى بارجاع الادارة الى غبطة البطريرك واتفق على انتداب أربعة من أعضاء المجلس لمساعدة غبطته فى ادارة شئون الطائفة وكان أول عمل أقرته اللجنة الملية تحت رئاسة غبطته هو وجوب فتح المدرسة الاكليريكية وجمع الأوقاف بديوان البطريركية · ثم عينت المجلس الروحى للنظر فى الأمور الدينية وقرر منع تجول القسوس وعدم رسامة أحد منهم الا اذا استوفيت فيه الشروط المطلوبة الا أن هذا القرار الأخير لا يزال حبرا على ورق فالقسوس سواء كانوا من الحقيقيين أو الذين يتزيون بزيهم يجولون فى كل مكان ويجلبون عارا على الأمة والطائفة · وعدم التدقيق فى رسامتهم لا يزال ساريا مع أنه العبء الوحيد الثقيل الذى يمنع نهوض هذه الأمة وتقدمها ·

وكان غبطة البطريرك بعد هذه الحوادث لا يفتأ ينشر المنشورات يحض فى بعضها أبناء الأمة على الاهتمام بالأمور الدينية وبتعليم أولادهم على المبادىء الأرثوذكسية وفى البعض الآخر حرم عادة الندب والحزن المفرط على الميت · ثم أنشأ مدرسة اكليريكية بالأديرة وسعى فى تعميم التعليم لأنه عنوان رقى الأمم وسر نجاحها ·

وفكر غبطته أن يقوم بزيارة رعيته وافتقادها فبارح القاهرة فى ٢٦ طوبة سنة ١٦٢٠ ش و ٢٥ يناير سنة ١٩٠٤ م لزيارة الوجه

القبلى والأقطار السودانية فقوبل مقابلة عظيمة ، وعاد من رحلته فى ٢ أبريل سنة ١٩٠٤ م . وبعد ذلك انحلت اللجنة الملية لسبب فساد النظام الذى انتهت اليه ومن ثم تقرر باتفاق غبطته مع بطرس باشا انتخاب المجلس الملى الرابع وصدقت عليه الارادة السنية فى أول مارس سنة ١٩٠٦ م وقد حدث خلاف بين المجلس وغبطته انتهى بتعيين الأب القمص بطرس عبد الملك لرئاسة جلسات المجلس سنة ١٩٠٩ م .

ثم شرع غبطته فى رحلة ثانية من ٢٥ يناير سنة ١٩٠٩ م للوجه القبلى أيضا ورجع منها فى ١١ أبريل من تلك السنة وقد حدث فى أسيوط مانذكره وهو أن حزب من يسمون أنفسهم بالمصلحين بأسيوط وزع نشرات بالكنيسة مؤداها الطعن فى الهيئة الاكليريكية وكان غبطة البطريرك قائما بالصلاة فقدمت له من الحزب مطالب فمزقها والقاها على الأرض فهاج أعضاء الحزب وخرج غبطته من الكنيسة غاضبا الا أن المسألة انتهت بسلام وخرج غبطته من أسيوط مودعا بالاكرام اللائق بمقامه السامى .

وعقب رجوع غبطته أنذره المجلس بتسليم أوقاف الرهبان وعظم الخلاف واشتد وقد حاول انصار المجلس أن يستغلوا شكوى بعض الرهبان من رئيسهم ضد البطريركية وقاموا بمظاهرة عدائية أمام الكنيسة الكبرى وانتهى كل سعى من هذا القبيل بالفشل التام .

وانعقد فى عهد غبطته المؤتمر القبطى بأسيوط فى ٦ مارس سنة ١٩١١ م ليطلب من الحكومة مساواة الأقباط بالمسلمين فى كافة الحقوق المدنية والدينية فطلبت الحكومة من غبطة البطريرك أن يمنع هذا الاجتماع خشية من حدوث ما لا تحمد عقباه فنشر منشورا يحض فيه على استعمال الحكمة والروية فى المطالبة بهذه الحقوق فرد عليه نيافة الأنبا مكاريوس مطران أسيوط متعهدا بعدم حدوث أى مكروه وعقد المؤتمر فى ميعاده وألقيت الخطب ورفعت الاحتجاجات وذهبت جميعها صرخة فى واد .

ومن ذلك الحين والأمة القبطية آخذة فى النهوض والتقدم بفضل حكمة رئيسها العام غبطة البابا كيرلس وقد حمل حسن تصرفه وعظيم حكمته أبناء الأمة المصرية من مسلمين وأقباط على أن يأخذوا بناصر بعضهم البعض ويزيلوا من قلوبهم كل شقاق وبغضة موقنين أن الدين لله والوطن للجميع .

أما علاقة هذا البابا بالكنائس التابعة له فهى على أحسن مايرام. وكانت العادة الجارية ببلاد الحبشة أن لا يرسل اليها الا أسقف واحد فاذا مات أرسل غيره ، ولكن فى سنة ١٨٨١ م طلب النجاشى يوحنا تعيين مطران وثلاثة أساقفة ولما كان هذا الطلب مغايرا للعادة فقد ترددت الكنيسة أولا فى اجابته ثم فى يولية سنة ١٨٨١ م تم الاتفاق بين الأحباش والرئاسة الدينية بعقد مكتوب على اجابة ماطلبوه . ورسم لهم مطران وثلاثة أساقفة بشروط مخصوصة . والآن ليس بالحبشة غير مطران واحد هو الانبا متاؤس الذى زار القطر المصرى مرتين وبلغ عدد من أرسل الى الحبشة من الأساقفة ١٠٥ حتى أوائل القرن التاسع عشر يضاف اليهم الأربعون الذين رسموا فى خلال القرن المشار اليه .

أما بلاد النوبة فقد كان بها ١٧ أبروشية الا أنها أخذت تضمحل لجور الحكام المسلمين حتى سنة ١٨٨٠ م فلم يبق بتلك البلاد من المسيحيين أكثر من ١٦ الفا . ولما أعيد فتح السودان فى ٢ سبتمبر سنة ١٨٩٨ م رسم لهم البابا كيرلس الحالى أسقفا رقى فيما بعد الى رتبة مطران وبنيت كنيسة كبرى فى الخرطوم وسبع كنائس أخرى فى الأقاليم ومنظور بناء غيرها فى باقى جهات السودان التى بها مسيحيون .

وفى ٢٣ بابه سنة ١٦٤٠ ش أتم البابا كيرلس خمسين سنة على الكرسى المرقسى وهى أطول مدة أقامها بطريرك على هذا الكرسى واحتفلت الطائفة بعيد يوبيله الذهبى احتفالا عظيما شهده كبار القوم ومندوبو الحكومة من وطنيين وأجانب . وقيل أن غبطته لم يقبل فى مبدأ الأمر هذا الاحتفال زهدا منه فى مجد العالم لكنه قبل حضور الصلاة بالكنيسة وسماع الخطب .

القسم الثانى
مشاهير المتنيحة

(١) الأنبا سرابامون أسقف المنوفيـة
(٢) الأنبـا باسيليوس مطران القـدس
(٣) الأنبـا ابرآم أسقف الفيوم ٠
(٤) الايغومانوس فيلوثاؤس

---

١ ـ الأنبـا سرابامون أسقف المنوفيـة (١) :

نشأ هـذا الأب الفاضل بمديرية الشرقيـة باسم صليب ولـا أدرك رشـده أقام بالقـاهرة واحترف مهنـة بيع الزيت وكان يطوف الشوارع والحـارات منـاديا على زيتـه ، ورووا أن سبب طلوعـه للدير هو أنه ذات يوم توفى ولد لاحـدى النساء الشريرات بأسـباب فعليـة ، فقيل لها أن تنتظر الرجل النصرانى الذى يطوف لبيع الزيت وتلقى الولد تحت أرجل حمـاره وتتهمه بقتـله ، ففعلت ذلك وسيق بحمـاره الى الحـاكم يتبعـه جمهور غفير يشهد عليـه بأنه هو القـاتل وعبثـا حاول أن يبرىء نفسـه وينـادى أنا مظلوم ، قيل انه لـا تضـايق توسل الى الله أن يخلصـه من هـذه البليـة فأجاب سؤله وخلصـه بمعجزة مدهشة ، أما القـديس فحالمـا رأى ذلك ترك حمـاره بمـا عليه وفر هاربا الى الدير خشـية من الفخر العالمى ولبث بالدير حتى انتخبه أسقفا للمنوفية البابا بطرس ال ١٠٩ ٠

وبعد رسـامة هـذا الأب أسـقفا اشـتهر بأمـرين أولهما التقشـف والنسك والبساطة وثانيهما صـنع العجـائب والمعجزات ٠ فعن الأمر الأول يقولون أنه لم يكن يعبأ بزخرف المعيشـة ولا ما تشتهى النفس فـكان يقضى طول الليل قائمـا يصلى وبعد الصـلاة يأتى على الأرض ويضع مركوبه تحت رأسـه وينـام عليه وكان أغلب أكله الدشيشة فى اناء من خشب ، وقيل أنه مرة دخل بيتـا فشم فيـه رائحـة ملوخيـة وفراخ اشتهت نفسه أن تأكل منهما وكان ذلك فى أحد أيام الخماسين فأرسل اليه أهل البيت شيئا

---

(١) نقلناه ملخصا عن كتاب « نوابغ الأقبـاط ومشاهيرهم » ج ٢ ٠

من الطعام حيث يقيم بالبطريركية ، ولما قدم له أمر بتأخيره وأبقاه ثلاثة أيام حتى أنتن ومن ثم طلب من تلميذه ابراهيم برغوت أن يستحضره ووضع لقمة منه فى فمه فعافته نفسه فابتدأ يوبخها قائلا ها هى شهوتك لماذا لم تأكليها يا ملعونة ثم أعطى الطعام للتلميذ فأراقه خارجا ٠

وروى عن ميله للاحسان الخفى أنه كان فى احدى الليالى شخص يسير متنكرا فى بعض أزقة القاهرة وعلى كتفه سلة ثقيلة الحمل فصادفه وهو بهذه الحالة رجل من خدمة الدار البطريركية يدعى حنا النجار فاستغرب زيه وتلثمه اذ رآه يكاد لا يظهر من وجهه غير عينيه وهو يلهث تعبا من حمله فرابه أمره وظنه لصا فجد وراءه حتى أدركه ثم رآه وقف بباب وقرعه فانفتح الباب فسلم السلة للفاتح دون ان ينطق بكلمة وعاد من حيث أتى وعندئذ تقدم اليه حنا وأمسك به فما تبينه حتى علم أنه الأنبا سرابامون أسقف المنوفية ، وكان يأتى بالدقيق والقمح يحمله بنفسه الى الأسر التى لا تمد يدها للسؤال حياء عاملا فى ذلك بقول السيد المسيح « وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك » ٠

واتفق مرة أنه كان لدى الأنبا سرابامون ستمائة ريال فرأى أن يشترى بها دارا للاوقاف وقد وضعها فى كيس وسلم الكيس الى تلميذه ابراهيم ليحفظه الى أن تتم المساومة ٠ وحدث أن زار ابراهيم أحد أقاربه وعلم بأمر الكيس فدفعه الطمع الى سرقته فلما افتقد التلميذ ابراهيم النقود ولم يجدها ذهب الى الأسقف باكيا فخفف الأسقف حزنه وقال له ثق يا ابنى بالله فهو قادر أن يرد الينا المال ٠ وفى هذه الأثناء كان السارق قد شعر بتأنيب ضميره فلم يستطع أن يضيع قرشا من الكيس الذي سرقه ثم اشتد به الندم فقام مسرعا وجاء الى الأسقف بنفسه ومعه الكيس وانطرح أمامه طالبا السماح والعفو فسامحه الأسقف وبعد أن بين له شر السرقة ووخامة عواقبها نصحه بالاستقامة وقال له اذا وقعت فى ضيق فتعالى الى ٠ ثم تحنن عليه وأعطاه بعض دريهمات فتأثر الشاب من هذه المعاملة وبكى وعزم من ذلك الحين أن يعيش أمينا مجدا فى عمله ٠

قيل وكانت درايته بالقراءة ضعيفة حتى أنه كان عندما يقع نظره على انجيل القداس ويجده مطولا يقول « يا أبوى يا أم النور دا طويل

يابوى » وذلك لأنه كان طاعنـا فى السن : وكان من عادته على الـدوام أنه عندما كان يستغيث من أى شىء يقول يا أم النور ·

أما عن الأمر الثـانى الذى اشتهر به وهو صنع العجائب والمعجزات فحـدث عنه ولا حرج فقـد رويت عنه حوادث يعـارضها العقل لولا قول الـكتاب « كل شىء مستطاع للمؤمن » (مر ٩ : ٢٣) وكانت شهرته الزائدة باخراج الشياطين بقراءة المزمور الرابع والثلاثين ورش الميـاه على وجوه المصـابين باسم (أيسوس بخرسطوس) قيل أنه خطر له مـرة أن يسأل شيطانا عن اسمه فأجابه « اسمى سراباموں الأسقف » فقـال « وى يابوى هى الشياطين فيهـا أساقفـة ياما بقيت معوجة يا صليب » وهو اسـمه الأصلى وكان اذا تألم يقول دائما « يا خطيتك يا صليب » ·

وحدث أن مريضـا بروح نجس أتى به الى البـابا بطرس البطريرك ليصلى عليه فطلب أن يأتى حتى يستدعى الأنبـا سراباموں ليصلى عليه فقـال له الأنبـا ابرآم أسقف القـدس « منك أيهـا البابا نأخذ نحن الأساقفة الراهب فصـل ولا تنتظر مجىء الأسقف » فأجابه البطريرك بتواضع زائد « اعلم يا أخى ان لـكل واحد منـا موهبـة » ولـكن الأسقف لم يقتنع فقال له البطريرك « أنت أسقف مثله فقم صل » فقـام وصلى على المريض ولـكن بلا منفعـة لأن الروح الشرير كان يستهزىء به ويذكر له تأخره فى اتمام واجبـاته حتى اعترف بتقصـيره · ولمـا حضر الأنبـا سراباموں تأخر مقـدما البطريرك وبعد الالحـاح عليه قبل بشرط أن يصلى بصليب البطريرك فصلى ونال المريض الشفاء بخروج الروح النجس منه ·

واليك ما وجد عن احدى معجزاته فى كتاب « سير البطاركة » نقلا عن كتاب « نوابغ الأقبـاط » ج ٢ : —

« ومما يستحق الذكر العجـائب التى حـدثت على يديه وفى زمانه منهـا أن ابنـة محمد على باشا (زهرى باشا) زوجة احمـد بك الدفتردار كان اعتراها روح نجس فعـانى الأطبـاء أتعـابا شـاقة فى معالجتها ولم يستطيعوا أن يشفوها اذ لم يكن ذلك مرضـا طبيعيـا · وكان صيت أنبـا سراباموں أسقف المنوفيـة بما أعطى من قوة اخراج الأرواح الشريرة مالئا القطر المصرى فـذكر لمحمـد على باشا عن امكان أئمة النصارى فى شفاء ابنتـه ما جعله أن يدعو الأب بطرس البطريرك الى مبـاشرة ذلك فالأب اذ كان يعلم ان ابنتـه معتراة من روح نجس استدعى الأب سراباموں وأمره

أن يتوجـه الى السراى حيث سكن زهرى باشـا فلبى دعوته وتوجه فكانت السراى غاصـة بالجنود والجماهير رجالا ونساء فلما ابتدأ أن يصلى على الأميرة تحرك الشيطان فيهـا والقـاها صرعى على الأرض فازبدت وشرعت تصرخ بأصـوات ارتجت لهـا السراى فارتعب الأب لذلك وخاف من سـوء العاقبـة وصـار يستغيث بقوة المسـيح صـارخا بصـوت محزن زارفا العبرات قائلا « عظيمة خطيئتك يا صليب يا يسـوع مجد يمينـك وانصر كنيستك » حينئـذ أكمل الصـلاة ورسم علامة الصليب على ماء وضرب به وجـه الأميرة فصرخ الشيطان بصـوت مـزعج وخرج منهـا وقامت الأميرة صحيحة وضربت الموسيقى فرحا وبشر محمـد على باشا بذلك وجاء الى ابنتـه فوجـدها متعافيـة فرغب أن يكافىء الأب سرابامون فصر صرة من النقود (قيل بهـا مبلغ أربعـة آلاف جنيـه) وقـدمها للاب فأبى أن يقبلهـا واعتـذر له قائلا « ليس من شـئون وظيفتى أن أربح بمواهب الرب ما لا يحوجنى اليه فلباسى كما ترى فرجيـة صـوف أحمر وطعـامى الخبز وطبيخ العـدس فعوض ذلك اسأل دولتكم أن تميلوا بتعاطفاتـكم نحو أبناء الطائفة القبطيـة وتخدموا بنيهـا المرفوتين فأجابه الى ذلك والح عليه أن يقبل تلك العطيـة فأخـذ منهـا شـيئا قليـلا وفرقـه أثنـاء مروره على العساكر » أهـ ومن ذلك الحين صار لهـذا الأسقف ولبطريركه البابا بطرس منزلة سامية فى عيون الحكام بسبب هـذه الحادثة واسـندت وظائف كثيرة فى الحكومة لـكثيرين من الأقبـاط على أثرها ٠

قيل وكان الشيطان يحاربه بروح الفخر والاعجاب فيصـور له أنه أفضـل من غيره قـداسة حتى سمع مرة يقول « بقـا يا صليب ٠ عطيت مواهب الشفا يا صليب أنت يا عفش أنت يا نتن ٠ أنت يا وحش تخـرج الشياطين يا صليب ٠ تشفى المرضى يا صليب ٠ ثم يجـاوب نفسه بحـدة وغضب شديدين ويقول يا أخى دى قوة الله يا صليب ٠ دى قوة الله » ٠

وروى أنه لمـا تنيح أنبـا مكاريوس أسقف أسـيوط دخل الأنبـا سرابامون ليـلا منزعجـا على البطريرك يخبره أنه شاهد روحه صـاعدة وتحقق الخبر تماما ٠ وجلس مرة مع البطريرك ومعه تادرس أفندى عريان والد باسيلى باشا تادرس واذا بالأنبـا سرابامون صرخ فلما سئل لمـاذا أجاب انى شاهـدت روح الأنبـا يوسـاب أسـقف الفيوم مرتفعـة الى السماء فتركه البطريرك ودخل مخدعه دون أن يبقى لمقـابلة الزائرين فسئل عن سبب ذلك قال حزنا على الأنبـا سرابامون لئـلا يكون الازدهاء قـد

استولى عليه للموهبة التى أعطاها له الله فيفسدها عوضا عن كونه يستخدمها للخير فتقدم الأسقف وضرب له مطانوة وأفهمه انه لم ينل درهما واحدا تلقاء أى عمل أتاه ٠

وعقب ذلك أصدر عباس باشا الأول أمره باعدام جميع السحرة والمنجمين فوشى بالقديس أنه منهم وانه شفى زهرى باشا فطلبه الخديوى عازما على قتله فانطلق اليه وكان يوم الجمعة العظيمة فقابله الخديوى باحتقار وقال له هل أنت ساحر فأجابه انا رجل مسكين فقال له أنت شفيت زهرى باشا فصرخ القديس بقوة فى وجهه قائلا « هذه قوة الله » فارتعب عباس باشا وجزع وقال له امان يا بابا ثم صرفه بسلام ٠

وكان الأنبا سرابامون يكره الطلاق كراهة زائدة حتى انه لم يطلق فى مدة رئاسته احدا ولما كان يستعصى عليه ارضاء الزوج أو الزوجة اذا تحقق أن أحدهما مظلوم يقول له ان شاء الله أزوجك فى العام المقبل فلا يأتى الميعاد الا ويتوفى الظالم ويتزوج بطبيعة الحال ٠

ودخل عليه يوما زوج بحالة غضب شديد وأفهمه أن امرأته وجدت فى أماكن البغاء فطيب خاطره وصرفه للغد ، ثم انطلق الى البيت الذى وصف له ولتعود النساء على رؤيته تقدمن اليه يطلبن بركة فسألهن عن المرأة فلم يخفين عليه أمرها وأفهمنه أنها أتت اليوم فقط فطلب الانفراد بها فى غرفة مظلمة ولبث يوبخها ويؤنبها حتى عزمت على السير بالاستقامة ثم تركها تلك الليلة بمنزل أحد القسوس وطلب منه أن يأتيه صباحا متشكيا من اعالتها وكان ذلك أمام الزوج فقال الأسقف للقس « يخطيتك يا صليب أخطيت يا بوى حلنى قم أحضرها » فوجد الزوج أنها امرأته وأنها كانت فى بيت القس لا فى بيوت البغاء فقبلها وعاشا فيما بعد بكل سلام ٠

واذا أردنا أن نذكر معجزاته واحدة فواحدة يطول بنا المجال فنكتفى بذكر اليسير منها ٠ قيل انه لما حل مرض الهواء الأصفر بمصر نجت منه جميع البيوت التى كان متعودا أن يزورها ٠ وحدث مرة أنه كان مارا من موقع حديقة الأزبكية الحالى فوجد امرأة تبكى على بغل لها سقط من العربة من شدة الحمل وكان قد أشير اليها أن تنتظر مرور الأسقف ليشفيه ويقيمه فأجاب سؤالها وصلى واستجاب الله له ٠

وذات يوم كان ذاهبا الى كنيسة حارة زويلة من شارع درب مصطفى ولم يكن يوصل اليها غيره فتعلقت به احدى البـاغيات وكانت قد تعاهدت مع بعض مثيلاتها أن تهينه فى الطريق فطلب منها بلطف أن تتركه فلم تفعل فدعا قائلا « اليد التى أمسكتنى تشل » فصرخت المرأة حالا من الألم الذى لحق يدها وطلبت اليه أن يشفيها فشفق عليها وشفاها ٠

وجرى فى مروره بالسرحة السنوية أن طلع عليه عبد أسود رئيس عصابة وأوقف بغلته وطلب منه ما معه من النقود فلما فتش جيوبه ولم يجد بها شيئا طلب أن ينزل عن البغلة ويخلع ملابسه فقال له القديس اتركنى وانطلق فأبى ورفع يده بنبوته ليضربه فقال له القديس « أنت رفعتها دعها مرفوعة واتركنى » ثم تركه وسار فى طريقه ولما رجع ثانى يوم وجد يده مرفوعة كما هى فشفاه بعد أن أخذ تعهدا منه بعدم العودة للسرقة مرة أخرى ٠

وغير ذلك كثير لا يحصيه العد ٠ وطالت أيام هذا القديس حتى أدرك البابا كيرلس الرابع والأنبا سرابامون هو الذى رسم الراهب يوحنا الناسخ « البابا كيرلس الخامس » سنة ١٨٤٥ م قسا بديره بالبراموس فى كنيسة حارة زويلة بأمر بطريركه الذى استصغر الراهب فى عينه لأنه كان شابا فقال له الأنبا سرابامون « يظهر أنه مبروك وان شاء الله يخدم أمة الرب » ٠

وتنيح الأنبا سرابامون ودفن مع بطريركه البابا بطرس ال ١٠٩ والبابا مرقس ال ١٠٨ ولا رابع لهما فى الجهة الشرقية القبلية من الكنيسة الكاتدرائية الكبرى ٠

٢ ـ الأنبا باسيليوس مطران القدس :

ولد فى سنة ١٥٣٤ ش فى قرية تدعى الدابة من مديرية قنا مركز فرشوط من والدين فاضلين ٠ وفى ليلة ميلاده رأى والده حلما كأن صوتا يهتف به « أن قم وارفع الشكر لله على هذه المنحة الجزيلة التى وهبها لك » ففى الصباح حمل ابنه على ذراعيه وتوجه نحو الشرق وبارك الله شاكرا له فضله ٠



« الأنبا باسيليوس مطران القدس »

وكان والده يصطحب ابنه معه للكنيسة كل يوم أحد فيتعجب منه عندما يجده واقفا على قدميه طالما كان الكاهن يتلو صلاة القداس دون أن يتحرك أو يفوه بكلمة صغيرة ولا يترك الكنيسة الى أن تنصرف تماما • فسر منه والده لاسيما اذ رآه مطيعا له اطاعة كلية وراغبا فى تقليده هو وأمه حينما يقومان للصلاة فكان يقف مثلهما وعند حلول الصيام كان يصوم نظيرهما (١) •

ولم تكن أسباب التعليم متوفرة حينئذ فاعتنى والداه بتثقيفه فعلماه القراءة والكتابة ومبادىء الدين وطقوس الكنيسة فأتقن جميعها وبرع براعة تامة أدهشت عارفيه • وكان كلفا بنوع خاص بمطالعة الكتاب المقدس فكان يقضى ليله مكبا على قراءته وكان غرامه الزائد بأمثال سليمان الحكيم ورسائل بولس الرسول وخشية من أن يمل مطالعة الكتاب كتب آية ٢٩ من ص ٥ من انجيل يوحنا بحروف كبيرة وعلقها فى صحن داره حتى اذا مارجع من عند معلمه وجلس للاكل أو النوم ووقع نظره على

---

(١) نقلناه ملخصا عن كتاب « غذاء النفوس فى تاريخ حياة أنبا باسيليوس » •

هـذه الآية نهض حالا وأمسك بيـده الـكتاب المقـدس وبدأ يطالع فيـه اتماما للاية « فتشوا الـكتب لأنـكم تظنون أن لـكم فيهـا حيـاة أبدية وهى التى تشهد لى » ٠

ومن كثرة المطالعـة أصيب برمد فى عينيـه ومع ذلك لم ينفك يطالع الـكتاب فعـاب عليه ذلك أحـد أقربائه بقوله « أتظن ان الاجتهاد ينيل المراد ألم تسمع القول « قيراط سعد ولا فـدان شـطارة » فرد عليه فورا بقول سليمان الحكيم « يد المجتهدين تسود ٠ أما الرخوة فتكون تحت الجزية » (أم ١٢ : ٢٤) ٠

وشاهده معلمه مرة يماشى غلاما ذا طباع رديئـة فدون أمامه هـذا البيت :

واحـذر معـاشرة اللئيم فانها تعدى كما يعدى السليم الأجرب

فرد عليه قائلا : « انى آليت على نفسى معاهـدا الله أن أسعى جهدى لأرد الضالين الى سـبيل الصـواب حتى أكون مع غير المؤمن كأنى غير مؤمن لأربح الغير المؤمن » (١ كو ٩ : ٢١) ٠

فـكتب اليه معلمه :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيـك بالأخبـار من لم تزود

فأجابه كف عن تعنيفى وسترى بنعمـة الله نتيجـة عملى ٠ ومازال بالغلام الردىء السيرة حتى قاده الى حظيرة المسيح وخلصه وانتهى الخبر الى معلمه فشكره شكرا جزيلا ٠

وحدث أن والده أولم وليمة لبعض كبار القوم ففكر فى أن يعمل عملا يمجد به الله فحمل الطعـام المعـد للاغنيـاء وذهب به الى بيوت الفقراء وقـدمه لهم ، ولـما حان ميعـاد الأكل لم يجد المدعوون طعـاما وخرجوا غاضبين بعـد أن اعتـذر لهم بكلمات رقيقـة فسأله والده عن جلية الخبر فأجابه أن من دعوتهم لا يحتـاجون الى طعامك لأنهم يأكلونه فى بيوتهم دائما أما الذين أكلوه فهم محرومون منـه وقل أن يتمتعوا به وكتابنا يقول « من يرحم الفقير يقرض الرب وعن معروفه يجـازيه » (أم ١٩ : ١٧) فقبله والده بين عينيـه وقال له لقـد نبهتنـا من غفلتنـا ونسياننا واجباتنا

من نحو الله فبكى عند ذلك ابنــه بكاء شــديدا وقال لوالده « ويل لى لأنى لم آت عملا يستحق ثنــاء فضــلا عن ان ما عملته لم يعد لى أجر عليه لأن الـكتاب يقول « لا تعرف شمالك ما تعمل يمينــك » (مت ٦ : ٣) وهو مالم أقصده قط ٠

قيل أنه بينما كان ذاهبــا الى الـكنيسة يوما وجد اثنين يتشاجران فتداخل بينهما ليصلحهما فضربه الظـالم على وجهه لتــداخله فيما لايعنيه فبــدأ المظلوم يعنف الضــارب على قساوته فقال له الطوباوى « لا تلمه فانى لا أريد أن أقابل الشر بمثله » ثم خاطب الضارب قائلا « سامحنى اذا كنت قــد أسأت اليك اذ لا يخلو انسان من عيب مطلقا » ثم التفت نحو الشرق وصلى صــلاة طويلة وانصرف ولم تمض مدة حتى أتى اليه الضارب وقدم له الدراهم التى كان مطالبــا بها والتمس منه أن يعطيها لصاحبها وطلب منه أن يصفح له عما أساء به اليه ٠

ولا يسع من يطالع مقــدمة هذه السيرة الا الحكم بأن صاحبها تشربت روحه منذ الحــداثة بروح الفضــيلة ونما فيــه الميل لترك العالم وملاذه وبينما كانت هــذه الأفــكار تتردد على خاطره فتح الـكتاب المقــدس فوقع نظره على قول الرسول بولس « حسن للرجل أن لا يمس امرأة ٠٠ لأن هيئة هذا العــالم تزول ٠٠ غير المتزوج يهتم فيما للرب كيف يرضى الرب ٠ وأما المتزوج فيهتم فيما للعــالم كيف يرضى امرأته » (١ كو ٧ : ١ و ٣١ ـ ٣٣) فرسخ فى ذهنــه هــذا الاعتقــاد ثم توجه للصــلاة بالـكنيسة فأعطى له كتاب « السنكسار » ليتلو منه سيرة فـكانت بالصــدفة سيرة القــديس أنطونيوس مؤسس الرهبنــة فعجب لهــذا الاتفــاق ومن ثم انطلق الى دير القديس أنطونيوس ولبس شكل الرهبنة سنة ١٥٥٩ ش ٠

ومن ذلك الحين أشرقت منه شمس الفضــيلة وبانت عليه أدلة الكمال فـكان لا يذوق طعــاما فى الصــوم المقــدس الا مرة واحــدة يوميا قبيل المساء وفى باقى الأصــوام يصوم للعصر ٠ وفى الأيام يصوم حتى الظهر ولا يتنــاول الا ما يســد رمقه ٠ وروى أحد رفقــائه الرهبــان أنه عندما كانوا يجتمعون فى منتصف الليل ولا يحضر معهم يجدونه ساجدا بقلايتــه أو واقفــا يعبــد وكان اذا قام أحد الرهبــان فجرا يجده مستيقظا ملازما الصلاة ٠ وفى الصــباح كان يسرع لخــدمة المرضى والشيوخ من الرهبان بكل غيرة ونشاط ٠ وذات ليــلة أصيب راهب شيخ بحمى شديدة فأسرع

اليه بكل فراشه وأعطاه اياها ليستدفىء وبات هو يقاسى شديد البرد طول الليل ٠

فلما انتهت أخبار فضيلته الى مجمع الرهبان رقى الى درجة الكهنوت فرسم قسا سنة ١٥٦٥ ش فزاد فى التمسك بفضائله وتفانى فى قمع جسده ٠ وكان أبغض الأمور اليه النميمة والاغتياب ولذلك كتب على جوانب حجرته قول السيد المسيح « يا مرائى أخرج أولا الخشبة من عينك ٠ وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك » (مت ٧: ٣ ـ ٥) وأعقبها بنهى من يغتاب الغير وحدث أن واحدا تكلم فى حق آخر أمامه فرفع يده الى تلك الآية وقال للمغتاب « أنقش هذه الآية على لوح قلبك وابتعد عن النميمة والا توقع عقاب الله الشديد » وكان فى جل مواعظه يبتدىء بقول الرسول « اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد » (غلا ٥ : ١٦) فاعترضه واحد مرة بقوله « لقد مللنا من تكرار هذه الآية فأت لنا بغيرها والا فاترك الوعظ لمن هو أقدر عليه منك » فأجابه « أمامنا الينبوع الحى فهلم نستقى منه جميعا » (مشيرا الى الكتاب المقدس) وكان من عادته اذا استعصى عليه فهم آية من الكتاب يستفهم عنها من أحد الرهبان فان أفهمه شكر له فضله والا جثا أمام الله طالبا منه الارشاد وقد عمم هذا المبدأ بين جميع عارفيه ٠

وفى سنة ١٥٦٨ ش رسم ايغومانوسا وسلم ادارة الدير ورئاسته فعمل على كل ما فيه نجاحه وترقيته فنمت الايرادات التى كان ينفقها فى المنافع العمومية ولم يكن يتأخر فى أن يوقف أى انسان على ما يرد وما يصرف ٠ وقد دخل عليه مرة أحد الرهبان فوجده يبكى بحرقة ولدى السؤال أجابه كيف لا أبكى وقد مر أكثر من سنة لم أجدد فيها للدير شبر أرض ألا استحق عقاب ذلك العبد الذى أخذ الوزنة وخبأها فى الأرض دون أن يتجر بها ويربح (مت ٢٥ : ٢٤ ـ ٣٠) ولهذا عزم على الاستعفاء من رئاسة الدير لولا توسل الرهبان فبقى يمارس الأعمال بهمة فائقة حتى تمكن من أن يجدد للوقف أملاكا ويجرى اصلاحات عديدة ٠

وقيل أنه سافر مرة للقاهرة لقضاء ما يحتاجه اخوانه الرهبان وكان بعض اللصوص قد سمعوا أنه سيأتى من القاهرة ومعه مال فكمنوا له فى الطريق ولكن الرب أضله السبيل فتاه ولبث يكابد مشقة زائدة حتى وصل الدير والرب قد نجاه من خطر اللصوص ٠

وكانت معاملته للرهبان الذين كانوا تحت رئاسته معاملة بالغة حد اللطف والشفقة فكان يفصل فى كل خلاف يرفع اليه بروح المحبة والسلام . ولم يكن يعتبر نفسه أفضل منهم ولم يميز ذاته بشىء عنهم بل كان يمسك المكنسة بيده وينظف قلايته بنفسه ويباشر ايضا تنظيف قلالى الشيوخ والمرضى من الرهبان .

وروى أن السكر كان أشد الامور كراهة لديه واتفق أنه زار كاهنا بالقاهرة فألفاه يتعاطى خمرا فلما سأله عن سبب ذلك اجابه « كل عطايا الله صالحة اذا أخذت بشكر » فاحتدم القديس غيظا وبدأ يفند رأيه بشدة مستدلا بآيات الكتاب المقدس الواردة بسفر الأمثال (٢٣ : ٢٩ ـ ٣٢ و ٢٠ : ١ و ٢٣ : ٢٠ و ٢١) ويقول الرسول بولس (أف ٥ : ١٨) ووصيته للقسوس (١ تى ٣ : ١ ـ ٣) ثم قال له كيف يتمكن الكاهن من أن يكون متحليا بالفضائل وهو يترنح تحت تأثير السكر كالمجانين ألم يبلغك خبر ذلك الرجل الذى دفعه السكر الى ارتكاب خطيئتين شنيعتين الأولى الزنا بابنته البكر والثانية قتل ولده فلذة كبده . وهكذا تمكن من أن يقنع الكاهن بخطأ رأيه حتى قام وكسر زجاجة الخمر وتعهد بعدم العودة اليها مرة ثانية .

وكانت سيرة القديس قد عبقت رائحتها فى كل مكان وترنم بحسنها كل لسان فاختير مطرانا على كرسى القدس الشريف فى ابتداء سنة ١٥٧٢ش على يد البابا كيرلس الرابع وقد حاول أن يتخلص من هذا الحمل الثقيل ولكن البطريرك وأعيان الأمة ألزموه بالقبول فقبل وسار الى الأرض المقدسة . وما كان أشد حزنه عندما رأى مصالح الأمة القبطية هناك فى غاية التأخر فبذل جهده حتى جدد لها من الأملاك والعقارات ما قيمته ١٥٠ الف جنيه .

ولما وجد زوار القدس أن الأقباط يكابدون المشقات فى يافا لعدم وجود أماكن يحلون بها جد حتى اشترى بستانا واسعا تبلغ مساحته نحو العشرين فدانا فى شهر بؤونة سنة ١٥٨١ ش فابتنى به كنيسة ودارا للمطرانية فاخرتين واشترى بجوارهما أيضا قطعتين أرض جميلتى الموقع سنة ١٦١١ ش وجهز بهما كل ما يلزم لراحة الزائرين .

أما الاصلاحات التى أنشأها بالقدس الشريف فلنترك كاتب سيرته صاحب كتاب « غذاء النفوس فى تاريخ حياة أنبا باسيليوس » الذى

نقلنـا عنه السيرة يتكلم عنهـا قال : ـ « لم يكن للاقبـاط غير بضعة أماكن غير معتنى بهـا فاذ رأى ذلك المطوب الذكر صـاحب الترجمـة عمل بمـا تقتضيه واجبات الراعي الحقيقى فعمر دير القديس أنطونيوس الملاصق لكنيسة القيـامة الشريفـة حتى أضحى يشتمل على كنيسـة جليلة ودار للبطريركية جميلة ونيف وأربعين أودة بعـد أن كان خربا تنعق جدرانه البوم والغربان . وعمر كذلك دير وكنيسة مار جرجس باذلا همـة عليـاء على الأخص فى عمل حجاب هيكلها البـديع حتى أضحى نادر المثـال فى الاتقان والزخرفة والـكمال . ثم وجه همتـه الشماء فى تعمير باب دير الملاك المعروف بدير السلطان وذلك بعـد أن استغرق وقتـا ليس بقليل فى رفع الشكوى والدعوى الى البـاب العـالى ضـد جمـاعة الأحبـاش والطوائف التى كانت تأخـذ بنـاصرهم . وجليـة الأمر أنه لمـا لم يكن لاخواننـا فى المذهب الأحبـاش أملاك فى القـدس الشريف يقيمون بهـا تعطف صـاحب الترجمة وأباح لهم استيطان هـذا الدير مؤقتـا ريثما يتوفق لهم بنـاء مكان خاص بهم . غير أن النفس الأمارة بالسوء سولت لهم مقـابلة الاحسـان بالنكران والجود بالجحود فقـاموا على ساق وقـدم طالبين اغتصـاب هـذا الأثر المأثور قهرا . وهكذا تجاروا على اختطـاف مفـاتيح الدير المومأ اليه فى سـنة ١٢٨٠ هـ باغراء ومساعدة قناصل وسفراء دولتى انجلترا وفرنسا وغيرهما من بقيـة الدول فاذ رأى الأنبـا باسيليوس هذا الاعتـداء وقف كالبطل الصنديد يكافحهم ويعارضهم بقلب كالحديد وأخيرا رفع الأمر الى الصدارة العظمى فصـدرت الارادة السنية بتـاريخ ١٢ جمـادى الأخرى سنة ١٢٨٠هـ نمرة ١٩٢ بعمل مفاتيح جديدة للدير وتسليمها للمترجم به . وهـذا الأمر قيد بالديوان الهمايونى السلطانى كما هو واضح به .

ولم تكن هذه المساعى المترادفـة لتوقف الأحبـاش عنـد حـدهم اذ عادوا فى سنة ١٦٠٩ ش الى طنبورهم الأول يضربون عليه مدعين أن دير السلطان المومأ اليـه ملك حلال لهم وسـاعدهم على هـذه الافتراءات سفير الحكومة الايطاليـة فسفير الروسـيا بالآسـتانة العليـة فقـام الأنبـا باسيليوس تلقـاء ذلك واستفرغ قواه ومعظم جهوده فى ردعهم عن غيهم فرفع شكواه تلغرافيـا لجـلالة مولانا السلطان عبـد الحميد خان (الخليفة حينئـذ) ولجـانب الصـدارة العظمى ولنظـارة العـدلية الجليلة ولسعادة متصرف القـدس الشريف وأناب عنه رسميا حضرة الفاضل ارمانيوس بك حنـا الذى كان وكيـلا لدائرة الخـديوى الأسبق بالآستانة فى رفع معضلات المسألة للمقامات العالية .

ثم عزز هـذه المساعى بارسال خطاب لسعادة الحـازم بطرس باشا غالى ناظر الخارجيـة المصرية يشـير عليه بتوسط سمو خديوينـا الحالى (عباس باشـا يومئذ) فى مخابرة البـاب العـالى بصد تيـار المطامع الأجنبيـة عن حقوق الطائفـة القبطيـة ، ولما اشتهر به سـعادة الوزير المشار اليه من الغيرة التـامة على صـالح الأمة لم يدخر وسعا فى القيام بهذه المهمة وفق المرام فتخـابر سمو خـديوينا المعظم مع مولانا السلطان العظيم الشأن فى ١٠ جمـادى الأخرى سنة ١٣١١ هـ نمرة ١٠ يطلب حفظ حقوق الأقباط الظاهرة للعيـان من قـديم الزمان والوقوف فى طريق من يريد اغتصاب شىء منها ٠

وفى هذه الأثنـاء أقلقته أفـكاره (المترجم) وتراكمت عليه الهواجس حتى اعتراه الأرق خوفا من عـدم نواله أمنيتـه وحبوط مساعيه فعول على ارسال جنـاب القمص ميخائيل الشبلنجى وكيـل وقف القيـامة وقتئـذ (الذى تنصب فيما بعـد مطرانا للـكرسى خلف السعيد الذكر) الى الآستانة وناهيـك عمـا أودعه له من التوصيات اللازمة بوجوب بذل الجهد بالنفس لصـد هجمـات ومطـامع الأجانب وقـد كان وتوجـه وعنـد وصوله اجتمع بسعادة الفـاضل أرمانيوس بك حنـا وكيل دوائر اسماعيل باشا الخديوى وأخبره عن الغـاية من مجيئه فاتحـدا كلاهمـا وشمرا عن ساعد الاجتهاد بغيـة نوال المراد فقـدما عرائض الاسترحام للحضرة الشاهانيـة فصـدر الأمر السامى من جانب الصـدارة العظمى الى متصرفيـة لواء القـدس الشريف بتـاريخ ٦ كانون الثـانى سنة ١٣٠٩ هـ مالية نمرة ٣٠ (١١ طوبة سنة ١٦١٠ ش) مؤيدا ومثبتـا أحقيـة تصرف الأقبـاط بدير السلطـان المـذكور ٠ وقـد بنى الأمر المشار اليه على المضبطة المقـدمة من مجلس ادارة لواء القـدس الشريف ٠ وذلك بعـد أن أقام جنـاب القمص المومأ اليه بالآسـتانة العليـة أربعـة شهور واصل فيهـا الليل بالنهـار سـعيا واجتهـادا فى تنفيـذ وصية معلمـه ولم يغـادرها الا بعـد الحصول على الأمر المـذكور آنفـا ٠ وبالاجمـال فان صـاحب الترجمـة بذل من الهمة أقصـاها ومن الغيرة منتهاها فى حفظ حقوق الطائفـة الى أن توصـل لتحقيق كل أو بعض آماله ولم يبق الآن سوى انتهـاز فرصـة مناسـبة للاسـتيلاء التـام على الدير الذى اكتسب شهرة عظيمة لالتصـاقه بكنيسة القيامة المجيدة واقامته على سطح المغارة التى أخرجت منها الملكة هيلانة عود الصليب الذى صلب عليه رب المجد ٠

وقد كان للاقباط مكان بجوار دير السلطان اتصل اليهم بحسن مساعى المرحوم ابراهيم الجوهرى فاستولى عليه الروسيون بطرق غاية فى الغش والخداع ابتدعها جبران غرغور ترجمان قنصلاتو الروسيا بالقدس وأدخلها على المرحوم القمص جرجس وكيل الوقف آنئذ . ونظرا لأهمية هذا المكان وقربه لكنيسة القيامة أخذ المطوب الذكر أنبا باسيليوس يكثر من التحرير لجلالة قيصر الروس بالتماس رده الى ذويه فلم تقابل وياللاسف هذه الطلبات العادلة بما تستحقه من الاهتمام ولا مراء فالحق فى جانب القوة . وقد قام الروسيون من نحو العشر سنوات وشيدوا فى هذا المكان كنيسة هى وايم الصدق آية فى الاتقان .

كل ذلك لم يثن عزم الفقيد ولم يقلل من همته فبذل أقصى مجهوده حتى تمكن من احاطة هيكلنا القائم على قبر المخلص له المجد بسياج من حديد وزخرفه بجميل الأوانى وأنفس المنقوشات . ثم أخذ بعضا من الآثار التى أقامتها الملكة هيلانة وضمها الى بوايك دير القديس أنطونيوس. كل ذلك قام به رغما عن ارادة أبناء الطوائف الأخرى الذين طالما وقفوا فى طريقه حجر عثرة محاولين اغتصاب هذه الآثار المقدسة فى ضمها الى أملاكهم .

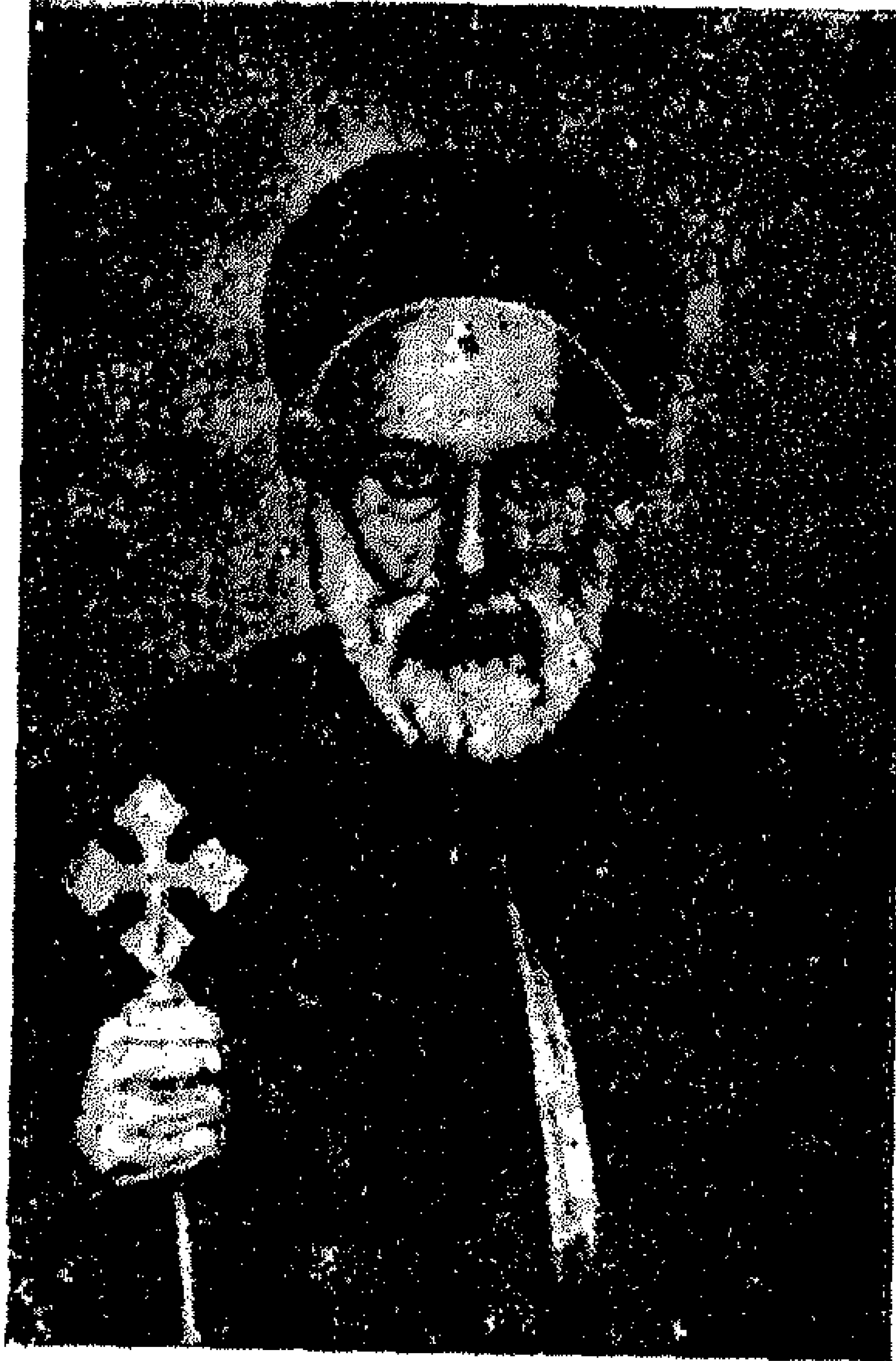
ثم اشترى محلا يسمى « المصبنة » بالقدس الشريف وأعده لسكنى أبناء الطائفة المقيمين بتلك الجهة أهـ .

ولم تحرم كنائس أبروشيته بالقطر المصرى من ثمرة همته فأصلح الكثير منها وجدد عدة بيع ولبث مواصلا جهاده وعمله حتى أقعده مرض عضال أصابه قبل وفاته ببضع سنوات فعين له الأب القمص ميخائيل الشبلنجى (الأنبا تيموثاوس مطران القدس الآن) ليكون أسقفا ووكيلا للكرسى الأورشليمى مدة حياته وخليفة له بعد مماته .

ومع اشتداد المرض على الأنبا باسيليوس لم يكن يهمل السؤال عن رعيته وما يتعلق بها حتى يوم ١٥ برمهات سنة ١٦١٥ ش اذ شعر بألم فى جنبه الأيسر فصار يخاطب الله بما فى (مز ١١٨ : ٢٥) « آه يارب خلص . آه يا رب أنقذ » ولم ينقطع عن اللهج بآيات كتاب الله الى يوم الأحد ١٨ برمهات من تلك السنة حيث أسلم روحه فى يد مخلصه وانضم الى آبائه . وما وصل نبأ نياحته الى أمته حتى ناحت وبكت عليه جميعها وأقيمت له حفلات تأبين فى أشهر مدن القطر .

٣ - الأنبـا ابرآم أسقف الفيوم :

ولد هذا الحبر الـكامل سنة ١٥٢٥ ش و ١٨٢٩ م بقرية دلجا بمركز ملوى بمديرية أسـيوط من أبوين فاضلين تعلم منهما محبة الفضيلة وشهد له بهـا أمام الأنبـا يوساب أسقف صنبو فرسمه شماسا ولمـا بلغ التاسعة عشرة انطلق الى دير العـذراء بالمحرق ولبث مدة تحت الاختبـار حتى اقر عليه جميع الرهبان فرسم راهبا باسم بولس غبريال المحرقاوى ·



« الأنبـا ابرآم اسقف الفيوم »

وكان رئيس ذلك الدير حينئـذ رجلا فاضـلا يدعى القمص عبد الملك الهورى فأعجب بأخلاق الراهب بولس السـامية ومدحـه على وداعتـه وتواضـعه وطهـارة سـيرته واقتـداره على ضـبط نفسـه ومواظبتـه على الصـلاة منفردا الأمور التى جعلت له مركزا عاليـا فى نفوس الرهبان فأحبوه حبـا جما ·

وسمع أسقف المنيـا اذ ذاك وهو الأنبـا باكوبوس بتقوى هذا الأب وفضيلتـه فاسـتدعاه اليه وسلمه ادارة الأسقفية وكلفه بملاحظة الغرباء والمساكين الذين يلجأون الى القـلاية فقـام بخدمتهم خير قيـام ومن ثم رسم قسا · وبعـد زمن تاقت نفسه الى الرجوع للدير فرجع وكان الرهبـان قد

طلبوا عزل رئيسهم لأنه لم يكن يدخر من ايراد الدير شيئا واتفقت كلمتهم على اختيار القس بولس رئيسا لهم فتقدم الدير فى مدة رئاسته اذ سعى جهده فى تحسين أحواله الداخلية والخارجية فغرس به كروما ورمم ماتهدم منه واشترى له أطيانا وانتظمت أحواله حتى أقبل الكثيرون على اعتناق طقس الرهبنة تحت رئاسته الى أن رسم مرة فى دفعة واحدة أربعين راهبا منهم الأنبا بطرس مطران تغريا بالحبشة والأنبا متاؤس مطران الحبشة والأنبا مرقس مطران اسنا والأنبا باخوميوس أسقف الدير المحرق ٠

واتصل خبر شهرته بالاحسان وعمل الخير الى آذان الفقراء والمساكين فلجأوا الى الدير أفرادا وجماعات وهو يعتنى بهم اعتناء زائدا ويظهر سروره وراحته فى خدمتهم ، ولبث خمس سنوات فى خدمة الدير وهو يقوم بهذه الخدمة فاعترض عليه الرهبان وحذروه لئلا يأول ذلك الى خراب الدير ولكنه استمر يعتنى بكل اللاجئين اليه حتى زاد عددهم عن الرهبان ٠ فقام هؤلاء طالبين عزله ٠ وكان الأنبا مرقس مطران البحيرة فى وكالة كرسى البطريركية فاضطر أن يوافق الرهبان ويعزل القس بولس ويخرجه من الدير فتركه مشيعا بدموع البائسين ورافقه الى البطريركية بعض تلاميذه المخلصين منهم الأنبا متاؤس مطران الحبشة وقابل المطران فأرسله الى دير الأنبا بيشوى مع أولاده الرهبان فلم يقم به طويلا وذهب الى دير البرموس حيث كان رئيسه القس يوحنا الناسخ (وهو غبطة البابا كيرلس الخامس) فقبله مرحبا به فانقطع فى قلايته الى العبادة ومطالعة الكتاب المقدس حتى حفظ أغلب نصوصه غيبا وقال بعض الرهبان انه كان يطالع الكتاب كل ٤٠ يوما مرة ولم يكن يتحصل على قليل من المال حتى يتصدق به على المحتاجين ٠

وفى سنة ١٥٩٧ ش و١٨٨٨ م اختير أسقفا للفيوم بدون علمه وذلك أن ملك الحبشة أرسل يطلب من غبطة البطريرك أن يقيم للحبشة ثلاثة أساقفة ويوفدهم اليه فرسم له القمص أقلاديوس الخالدى (الأنبا متاؤس) والأنبا لوكاس والأنبا بطرس وكان هؤلاء قد لازموا معلمهم القس بولس ولما رأوا أن كرسى الفيوم قد خلا بعد نياحة أسقفها الأنبا ايساك أبوا أن يتركوا الدير مالم يقم معلمهم أسقفا على الفيوم فأجاب غبطة البابا طلبهم ورسم القس بولس باسم الأنبا ابرآام وسار لاستلام مركزه الجديد وبعد استلامه بقليل فاح عبير فضله وانتشر صيت قداسته

في كل مكان · فأم دار أسقفيته كثيرون من كل طبقة فكانوا يجدونها ملأى بالفقراء الذين كانوا يلجأون اليها بالمئات والألوف فكان يهبهم كل ما يكون لديه من المال · وقد جعل بدار الأسقفية مأوى لكثيرين منهم وطالما كان يقدم ثيابه للعرايا وطعامه للجياع ولما رأى منه ذلك الزائرون رتب كثيرون منهم على أنفسهم عوائد يقدمونها لهذا الأب لينفقها على أولئك المساكين ·

ولم يكن يسمح قط هذا القديس بأن يقدم لهم طعام افخر مما يقدم للفقراء ويدل على ذلك أن راهبة تدعى بسيمة رئيسة راهبات دير مار جرجس بحارة زويلة كانت ممن وقعوا على عزل غبطة البابا الأنبا كيرلس الخامس ولما رفعت من وظيفتها لاذت بالأنبا ابرآام فشفق عليها وأقامها لتدبير مائدة المساكين واشترط عليها أن لا تميز بين أكلهم وأكله واتفق مرة أنه نزل ليفتقد جماعاتهم وهم يتناولون طعامهم فأدهشه أن لاحظ أن الطعام الذى قدم اليه فى ذلك اليوم كان أكثر تأنقا مما وجده أمامهم فساوره الحزن وأقال الراهبة الموكلة بخدمة الفقراء من عملها فى الحال فأصيبت بالشلل بعد ذلك بقليل ·

وذات يوم طلبت منه امرأة فقيرة احسانا ولما لم يجد مالا أعطاها شالا حريريا أهدى اليه لتبيعه وتنفقه على حاجتها واتفق أن صاحب الشال شاهد المرأة وهى تبيعه فاشتراه منها وأعاده اليه ورجعت المرأة معه تشكى من قلة المبلغ فطلب الأب من المحسن أن يعطى المرأة عشرة جنيهات لتسد أعوازها فأطاع وأعطاها ·

ومرة أخرى جاءت اليه امرأة تستدينه ولم يكن معه سوى جنيه واحد فأعطاه لها واذ علم وكيل الدير بالأمر أسرع خلف المرأة وأخذه منها وأعطاها ريالا فرجعت المرأة الى الأب وقصت عليه الخبر فوبخ الوكيل لاسيما لما أخبره أنه ليس بالأسقفية شىء ولامه على عدم ايمانه وطلب منه أن يعطى المرأة ماأخذه منها ولم يمض القليل حتى وردت بالبوستة نقود وغلال ·

وجاء يوما الفقراء يشكون من أن الطباخ استعاض لهم مرتبهم من اللحم بقطع العظم فأراد أن يتحقق الأمر بنفسه · فنزل ليلا وقت العشاء متخفيا واندس بين الفقراء كأنه منهم وتناول معهم نصيبه من اللحم واذا به قطعة عظم فقام فى وجه الطباخ وأشهر العظمة بيده وعنفه

تعنيفـــا شــديدا وعــزله من وظيفتــه وقيل أنه فقــد بصره بعد خروجه من عنــده ٠

ومما يدل على اقتران تقواه بعلمه أنه جاءه يوما بعض أشخاص طلبوا للعسكرية يلتمسون منه أن يدعو لهم باطلاق سراحهم فــدعا لهم وأطلق سراحهم وجاءه بعـدهم آخرون وطلبوا منه نفس الطلب فأجابهم اذا كان الجميع يريدون الاستعفاء من خـدمة الحكومة فمن الذى يوكل بحراســة الأمن وصرفهم ٠

وكان من عاداته أن يلقى على زائريه دائما نصــائح وتعــاليم وعظات تنبىء باتساع مداركه فى معرفــة أســفار الـكتاب كما أنه كان يقضى وقته كله أثنــاء زياراته لبــلاد أبروشيته فى القيــام بالوعظ وتوحيـد القلوب ونزع الضــغائن ٠ وكان اذا طلب منه أن يرسم كاهنــا يبحث عن سلوكه وآدابه ويدقق طويلا فى اختيار أحواله ٠

ومع امتداد شهرته ووصول صيته الى كل سمع لبثت فضيلة التواضع تزينــه طول حيــاته حتى أنه لمــا اســتدعاه اليه غبطة البطريرك ليرفعه الى درجــة المطرانيــة جزاء فضــله امتنع عن القبول ورد عليــه يقول « انى أحب أن أكون دائما حقيرا فى ملكوت الله » ٠

ومن صفاته أيضــا أنه كان صريحا الى أقصى حدود الصراحة فى ابداء رأيه ولا ينظر فى ما يقول « الا الى الحق لذاته فتتضاءل عنده هيبة العظماء ومقــامات الـكبراء أمام هيبــة الحــق وجلاله حتى كان الآباء المطــارنة والأســاقفة يتقون غضبه ويتمنون رضــاه ٠ ومن ذلك أنه حدث مرة أن عاب رئيس كنيسة قبطيــة أحــد المطارنة فانعقد مجلس كنسى لمحاكمته وطلب من المطران أن يصفح عن الـكاهن فأبى فالتفت الأنبــا ابرآم الى المطران وقال له أظنــك تعرف الصــلاة الربانيــة فأرجوك تلاوتهــا فأخذ يتلوها حتى وصل الى القول « واغفر لنــا ذنوبنــا كما نغفر للمذنبين الينــا » فقاطعه القــديس وقال له اذا كنت تعتقــد بصــحة ما تصلى به فقم وصافح أخاك وقبل رأسه والا فأنت تــكذب على الله عنـدما تتلو صــلاتك فلم يجد المطران مناصا من مسامحة من أساء اليه ٠

وحدث أيضا أن قسا قبل فى كنيسته أسقفا جرد من رتبته الـكهنوتية فعقد مجمع لمحاكمتــه وأقر الجميع على ادانتــــه ولمــا طلب من الأنبــا ابرآم ابداء رأيه أجاب « أن القس لم يعمل الا ما أمر به السيد المسيح من

اضـافة الغرباء ومحبة الأعـداء » وكان أحد البـاشوات حاضرا فقال له « ولـكن هيئـة المجمع ترى ادانة القس » فأجابه « ولمـاذا اذا دعوتمونى اذا لم تكن لى الحرية فى ابداء رأيى » فنبهـه الحـاضرون الى أنه يكلم فـلانا العظيم فأجابهم « أهو أعظم من الله الـذى سمح لعبد من عبيـده كموسى أن يكلمه » ثم أخذ يدافع عن القس حتى أقنع الجميع ببراءته ٠

وفوق هـذه الصفات جميعهـا التى تحلى بهـا هـذا القـديس فان الله قـد وشحه بنعمة أعظم وهى صـلاة الايمـان الأمـر الذى اشتهر به وبواسطتـه جرت على يديه آيات شـفاء عـديدة حتى ذاع اسمه فى جميع أنحـاء القطر وبلغ بعض مدن أوربا أيضا فـكان يقصده المرضى أفواجا على تباين أديانهم ٠

وتتداول الألسنة من تلك العجـائب التى أجراها الشىء الـكثير فمنها أنه شفى امرأة مسلمة من بلوط (بمديرية أسـيوط) من مرض الشلل الذى عطل جسمها ولسانها وبعـد ثلاثة أيام لزيارته وصـلاته عليهـا شـعرت بالقوة تدب فىجسمها وقامت بكل صحة ٠ وحدث أن امرأة لرجل بروتستانتى لم تكن ترزق بنسل نذرت ان أعطـاها الله ولدا تعمده بيد الأنبـا ابرآم فلما أعطيت نسيت العهد فشاهدت ليلة رؤيا بهيئة قسيس بلباس أبيض وبيده صليب فخافت على ولدها وتممت النذر ٠

وغير هذه الحوادث كثير ٠ أما عجائبـه فى اخراج الشياطين فـلا يحصيها العد وبالجملة فقـد شرفه الله بهذه الموهبـة الخارقة للعادة فمجد اسمه ورفع شأن ديانته ٠

وظل الأنبـا ابرآم قائما بأعبـاء وظيفته حتى لحقه مرض فى بشنس سنة ١٦٣٠ ش وكان يشتد عليه فى كل يوم وهو يتحمله بصبر وشكر حتى وهو فى عنف المرض لم يكن يسمح لنفسـه بشىء مما تشتهى وقيل أنه حينئذ تاق الى أكل الحمـام وطلب منه شيئا فأحضر اليه ولـكنه أبقاه عنده ثلاثة أيام حتى انتن وتصـاعدت رائحتـه الـكريهة ومن ثم وضعه أمامه وقال مخاطبـا نفسه « هاقـد أجبتلك سؤلك يا نفسى فـكلى مما ستصيرين أنتن منه » وبعد ذلك طرحه ٠

وانتقل الأنبـا ابرآم الى السماء فى شهر بؤونة سنة ١٦٣٠ ش وفى ١٠ يونيو سنة ١٩١٤ م فشيعه الى القبر عشرة آلاف نفس من المسيحيين والمسلمين ودفن فى منامة أعدها لنفسه بكنيسة أبى سيفين ٠

٤ - الايغومانوس فيلوثاؤس ابراهيم :

ولد بطنطا سنة ١٨٣٧ م وبعد أن درس العلوم فى المدارس وأتقن اللغات القبطية والعربية والايطالية عين قسيسا لطنطا سنة ١٨٦٢ م فانكب على كتب اللاهوت يطالعها حتى برع فى الوعظ فانتشر اسمه فى كل جهات القطر وبعدما رفع الى رتبة ايغومانوس سنة ١٨٦٥ م طلبه البابا ديمتريوس ٢ ليرافقه فى رحلته بالوجه القبلى سنة ١٨٦٧ م فأظهر مقدرة فائقة فى الخطابة حتى رد كثيرين للكنيسة ممن تمذهبوا بالمذاهب الحديثة ٠

وفى أكتوبر سنة ١٨٧٤ م انتخبه المجلس الملى راعيا وواعظا للكنيسة الكبرى ورئيسا لمدرسة أنشئت خصيصا للرهبان فأبدى مادل على اقتداره وما رفع مركزه فى عيون الأمة ولبث يخدم الى أن توفاه الله فى ١٠ مارس سنة ١٩٠٤ م ٠ وله المؤلفات البليغة الآتية التى دافع فى بعضها دفاعا مجيدا عن عقائد كنيسته ضد المتهجمين عليها من الباباويين وهى (١) نفح العبير فى الرد على البشير (٢) الحجة الأرثوذكسية ضد اللهجة الرومانية (٣) تنوير المبتدئين فى تعليم الدين (٤) كتاب خطب ومواعظ (٥) الخلاصة القانونية فى الأحوال الشخصية ٠

القسم الثالث

المملكة والكنيسة

(١) يوسف باشا الصدر الأعظم
(٢) محمد على باشا
(٣) سعيد باشا
(٤) الاحتلال الانجليزى
(٥) الحالة الحاضرة

---

١ - يوسف باشا الصدر الأعظم :

وقع المسيحيون وعلى الخصوص الأقباط منهم فى آلام مرعبة فى زمن ولاية يوسف باشا الصدر الأعظم سنة ١٨٠١ م فكانت الجنود التركية

تجول فى أحيائهم وتدخل بيوتهم مواصلة السلب والنهب والفتك بين آن وآخر . وقتل يوسف باشا ثلاثة من أعيان الأقباط بدعوى أنهم كانوا من أنصار الفرنسويين وأخذت أموالهم وممتلكاتهم ففر كثيرون من الأقباط من أمام وجه الأتراك ووضع هؤلاء غرامة عليهم بصفة فدية عن أنفسهم .

٢ ـ محمد على باشا :

وقد تولى محمد على باشا زمام الأحكام فى مصر سنة ١٨٠٥ م وقد أخذ يعتدل ميزان الزمان بالأقباط فصاروا يتدرجون فى الحصول على السلام والطمأنينة ولم تقع بها الا اضطهادات خفيفة فمن ذلك أنه فرض عليهم غرامة تقدر بمائتى الف ريال ليصرف منها محمد على باشا مرتبات جنوده وأمر اثنين من كبار الأقباط الكاثوليك وهم المعلم غالى وورتة فيكتور وكيل دائرة عثمان بك البرديسى الذى مات وقتئذ بأن يدفعا من المبلغ ثمانين الفا والباقى يدفعه الأقباط الأرثوذكس .

ولما كان محمد على رجلا بعيد النظر رأى احتياجه شديدا لمساعدة المسيحيين نظرا لأمانتهم ، فاستخدم منهم كثيرين من الأرمن والكاثوليك ولم يرغب فى استخدام الأقباط خوفا من أن يزداد نفوذهم وتتقوى شوكتهم فيقاومونه باعتبارهم أصحاب البلاد منذ القديم . الا أنه أمر بابطال الاضطهادات ومنع كل تعد بل كان يعاقب عقابا شديدا من كان يعرف عنهم أنهم يدعون الى الفتنة الدينية ثم كتب العلامة السيد اسماعيل الوهبى رسائل مؤيدة بآيات قرآنية مضمونها لزوم الكف عن اضطهاد النصارى والاعتذار عنهم بأن الحامل لهم على تداخلهم مع الفرنساويين حماية أعراضهم وأموالهم .

وشعر محمد على أنه من المستحيل الاستغناء عن الأقباط وكانت ثقته بهم قد تزايدت نظرا لميلهم الى الهدوء والسكينة فوزع خدمة الوطن على أهله كل بما له من الأهلية وخص القبط بما امتازوا به من الأعمال الحسابية وضبط الايرادات والمصروفات حتى قال أحد الانجليز الذى حضر الى مصر فى أيامه سائحا فى تقرير رفعه الى رئيس مجلس وزراء انجلترا وعرض على البرلمان « أن الأقباط للقلم بمثابة المحراث للفلاح » .

ولاتساع مصالح البلاد على يد محمد على كثر عدد الموظفين الأقباط فأخذ نفوذهم فى الامتداد وأصبح بينهم وجهاء كثيرون . قيل

وكان تعداد الأقباط قليلا جدا فى ذلك الوقت حتى أنه لما أراد محمد على أن يحصر تعدادهم وجدهم ١٥٠٠٠٠ نفس فقط ولكن عمال التعداد نسوا حارة من القاهرة وهذا أقل عدد وصل اليه الأقباط بعد أن كانوا يعدون بعشرات الملايين فى مصر والسودان الا أنه فى سنة ١٨٥٥ م قد أحصاهم البطريرك فوجد عددهم لا يقل ولا يزيد عن ٢١٧٠٠٠ نفس بينما كان كل تعداد سكان القطر المصرى فى ذلك الحين خمسة ملايين من النفوس ٠

وفى يوم ١٧ برمهات سنة ١٥٦٠ ش و ١٨٤٥ م قضى على قبطى بدمياط يدعى سيدهم بشاى كان موظفا بالاسكندرية فى وظيفة كتابية فادعى عليه بعضهم زورا أنه سب الدين الاسلامى وشهد عليه اثنان أحدهما بربرى والآخر حمار وبناء على ذلك حكم القاضى الشرعى بجلده فضرب بشدة عظيمة ثم أركبوه جاموسة مقلوبا وطافوا به البلد وهم ينخسونه بالابر والأسياخ الحديدية ويلطمونه بالزفت المغلى حتى وقفوا به أمام دار المحافظة وهو على حافة الموت ٠

وبعد ذلك حملوه الى منزله فانكفأ أمامه وأخذه أهله فمات بعد خمسة أيام أما المسيحيون على اختلاف مللهم ونحلهم فقد اعتبروا موته استشهادا واجتمعوا واحتفلوا بتشييع وفاته احتفالا لم يسبقه نظير ٠ ولبث الناس مدة يتحدثون بفظاعة هذا الأمر وقرر المسيحيون رفع مظلمتهم لقناصل الدول ليعرضوا أمرهم على محمد على باشا وكان أحدهم الخواجا ميخائيل سرور معتمدا لسبع دول فرفع تقريرا وافيا بما حصل للخديوى الذى بعد أن وقف على الحقيقة أمر باعادة التحقيق بالدقة المتناهية فأسفر عن ادانة القاضى والمحافظ فخلعهما من وظيفتيهما ونفاهما ثم خاطب ميخائيل سرور بما تم فطلب منه ترضية للخواطر أن يسمح للمسيحيين برفع الصليب جهارا أمام جنازاتهم فسمح الخديوى بذلك فى الاسكندرية ٠ أما فى مصر وغيرها من البلاد فلم يسمح لهم برفع الصليب أمام الموتى الا فى عهد البابا كيرلس الرابع ٠

٣ ـ سعيد باشا :

ولما تولى مصر عباس باشا الأول سنة ١٨٤٩ م عزم على تقليل نفوذ الأقباط من الدواوين فاختار أربعة من طلبة المدارس الأميرية وسلم كل رئيس ديوان واحدا منهم ليعلموهم مسك الدفاتر ويمرنوهم على

الأعمال الحسابية . ثم صمم على طرد الأقباط من البلاد اذا أبوا الاسلام فساد بينهم الخوف والذعر غير أن المنية عاجلته بالقتل وبذا تخلص الموظفون الأقباط من هذه الورطة التى كانوا يحسبون لها حسابا عظيما حتى أن بعضهم لما مضى عليه شهر أو شهران وتحقق فى تلميذه عدم الميل للتعلم قال انه لم يبق من عمره سوى عشرة أشهر وهكذا كل ما مضى عليه شهر آخر فكان يتوقع الموت على الدوام ويستعد له وتولى مكانه سعيد باشا سنة ١٨٥٤ م وكان الأقباط قد انتهوا الى حالة يتمكنون معها على المعيشة مع مواطنيهم المسلمين الا أنه حظر عليهم استعمال السلاح منذ قاموا بالدفاع عن أنفسهم تحت قيادة الجنرال يعقوب . وكانوا ممنوعين من التجنيد خوفا من خيانتهم للجيش الاسلامى الا أن سعيد باشا أصدر أمرا بضرورة تجنيدهم فاتخذ ذلك بعض المسلمين آلة لاضطهادهم فقبضوا فى أسيوط على كل الذكور فى أغلب البيوت القبطية وساقوهم للعسكرية ولم يتركوا ولا واحد منهم لاعالة النساء والأولاد .

وكان قواد الجيش المسلمين يستبدون بالعساكر الأقباط ويعاملونهم بقساوة ليعتنقوا الاسلام . فلما رأى البابا كيرلس الرابع شكى أمرهم الى ذوى النفوذ من موظفى الانجليز فى مصر فأرغم سعيد باشا على اعفاء الأقباط من الخدمة العسكرية . قيل وكان ذلك سبب غيظه من البطريرك وسمه اياه . وقد عرض الفرنساويون على البطريرك استخدام نفوذهم فى مساعدته بشرط أن يصدر أمرا الملك الحبشة ليصرح بدخول اليسوعيين الى بلاده فرفض مساعدتهم وبعد موت البطريرك صارت الحكومة تطرد مئات من موظفى الأقباط .

وكان سعيد باشا قد الغى فى أيامه دواوين الحكومة ومصالحها وأعطى لمستخدميها المستغنى عنهم أطيانا ليزرعوها ويعيشوا منها غير انه لما تولى اسماعيل باشا سنة ١٨٦٣ م وأعاد الدواوين والمصالح واستخدمهم فيها أخذ منهم الأطيان .

٤ ـ الاحتلال الانجليزى :

وفى أيام توفيق باشا الذى خلف اسماعيل باشا سنة ١٨٧٩ م حضر وفد من قبل ملك الحبشة يحمل هدايا نفيسة للخديوى وللبطريرك ويطلب من توفيق باشا استمرار العلاقات الودية بينه وبين حكومة مصر . وفى سنة ١٨٨٢ م حدثت ثورة عرابى باشا وقام رعاع الاسكندرية بمذبحة

عظيمة قاسى فيها المسيحيون كل أنواع العذاب فلجأ الأجانب منهم والوطنيون الى بطريركية الاسكندرية وهاجر كثيرون منهم الى داخل البلاد ·

وفى أثناء ذلك حدثت ثورة المهدى بالسودان وقبل استيلائه عليه تركه النصارى وأووا الى القطر المصرى وأسقف الخرطوم وبعض الكهنة الذين لم يتمكنوا من الهرب أرغموا على اعتناق الاسلام ·

وروت مدام بوتشر أن الجنرال غوردون سنة ١٨٨٥ م وجد باقيا بالسودان أسقف قبطى من الكنيسة المصرية وكان فى أبروشيته سبع كنائس ودير للراهبات وبعث الجنرال غوردون الأسقف بأمان الى القاهرة قبل سقوط مدينة الخرطوم فى أيدى الدراويش وبعد ذلك اعتزل الأسقف الخدمة الدينية ولا ريب أن رعيته وكنائسه ذاقوا الويل فى عهد المهدى وتوفى الأسقف سنة ١٨٩٧ م ·

٥ ـ الحالة الحاضرة :

الأقباط الآن فى رغد ونعيم وهم فى راحة لم يفوزوا بمثلها فى عصر من العصور وكثيرون منهم من ذوى الحيثيات والمقامات الرفيعة فى البلاد · ولما قامت الحركة الوطنية سنة ١٩١٩ م انضموا لمواطنيهم المسلمين طالبين استقلال البلاد فقدر لهم مواطنيهم هذه الوطنية العالية وأصبح العنصران فى حالة تآخ لم تتم فى وقت غير هذا · أما عددهم فيبلغ مليونا واحدا يقيم الآن ثلاثة أرباعه بالوجه القبلى وباقيه فى الوجه البحرى · والأقباط الأرثوذكس فقط يبلغون ٧٥٤٧٧٨ نفسا · المتعلمون منهم ١٤٦٧١٦ وعدد عائلاتهم ١٢٦٥٠ عائلة ·

القسم الرابع
البـــدع والانشــقاق

(١) الارساليات الـكاثوليكية
(٢) الارساليــات البروتستانتيــة

---

١ - الارســاليات الـكاثوليكية :

فصلنا آنفا المساعى المتواصلة التى بذلها أساقفة الـكنيسة الرومانية لاخضــاع الـكنيسة القبطيــة لهم وكيف فشلوا فى كل ماســعوا ٠ ولـما احتل الفرنساويون مصرمن سنة ١٧٩٨ - ١٨٠١ م دخل بدخولهم كثير من الافرنج ولم يتركوها بعــد خروج الفرنساويين بل لبثوا يتمتعون بحمــاية فرنســا ٠ ولـما تولى محمد على باشا مصر سنة ١٨٠٥ - ١٨٤٨ م استخدم من هؤلاء كثيرين فى مصــالح عـديدة وتتابعت الارساليات اللاتينيــة من فرنشسكان وفرير وجزويت لبث المذهب الرومانى ولـكنهم لم ينجحوا ٠

وذكر فى كتاب « نوابغ الأقبــاط ومشاهيرهم » ج ١ : ١١٧ مايأتى: « قــد سعى فى أيام محمد على باشا بضم كنيسة مصر الى كنيسة رومية لأن التنظيمات الجــديدة التى صــارت فى مصر كانت بواسطة رجال فرنسا وعلمائهم ، فلما رأى محمد على باشا نفسه مغمورة بجزيل معروفهم رام أن يقــابلهم بمثله واذ احتــار فيما يقوم به نظير ذلك نصحه أحــد قوادم الجيش وكان بابويا أن يسعى فى ضم نصارى مصر الى كنيسة رومية فيجد بذلك الافرنج فعــلا جميــلا ومعروفا يوازى معروفهم ، فاستدعى المعلم غالى الـذى كان كبير الـكتاب آنئــذ وأمــره أن يفعل ذلك فوقع فى حيص بيص وخاف من وقوع الفتن بين الطائفــة فأجاب البــاشا قائلا « ان اســتمالة الطائفــة جميعهــا الى مذهب كنيسة رومية دفعــة واحــدة لا تنتهى بدون قلاقل وسفك دماء كثيرين فنرى الأحسن أن يكون ذلك بسياسة وتدريب وذلك أننــا نعتنق نحن أولا المــذهب البــاباوى بشرط أن لا نـكره على تغيير طقوســنا وعوائدنا الشرقيــة وبذلك يمكن أن تميل أفراد الطائفـــة رويدا رويدا فقبل البــاشا هــذا الرأى الأخير وأخبر الافرنج ففرحوا وشـكروا فعله فانقلب من ثم المعلم غالى وابنه باسيليوس بك ورهط قليل من أشياعهما

فى مصر واخميم باباويين بالظاهر وهم يضمرون أنهم بعد حين يعودون الى حضن كنيستهم ومع ذلك مازالوا يعتبرون كهنة الأرثوذكسيين حق الاعتبار ويعمدون أولادهم عندهم » أهـ ·

غير أن كثلكة غالى لم تأت بنتيجة فنبذ وأهله من الأرثوذكسيين ولم يتبعه أحد منهم · وأرسل المعلم غالى قبطيا من قبله الى أسقف رومية ليعينه بطريركا على مصر يكون هو وأتباعه خاضعين له كل ذلك ارضاء للفرنساويين وتقربا منهم ليحفظوا له مركزه فى الحكومة المصرية ويخلصوه من المغارم بيد أن محمد على باشا أدرك خطورة هذا الأمر فى ما بعد وعده تثبيتا لقدم الافرنج فى مصر وعلم أن كثلكة المعلم غالى كانت للغرض المومأ اليه فكان ذلك من جملة الأسباب التى دعت الى قتل المعلم غالى بزفتى فى أوائل مايو سنة ١٨٢٢ م ·

ويعرف اتباع المعلم غالى التابعون الآن للمذهب الرومانى « بالأقباط التبع » وأطلقوا على أنفسهم اسم « الأقباط الكاثوليك » والحقيقة أن لفظة كاثوليكية ومعناها « جامعة » هى احدى علامات الكنيسة الأرثوذكسية الأربع التى هى « واحدة · مقدسة · جامعة · رسولية » وسميت الكنيسة « جامعة » لأنها تضم فى حضنها جميع الأمم بدون استثناء كقول السيد المسيح « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم » (مت ١٩:٢٨) أما الكثلكة اصطلاحا فهى التتبع للمذهب اللاتينى ومن ثم فالقبطى الكاثوليكى هو التابع لكنيسة اللاتين الرومانية الفاقد لاستقلاله الدينى » (١) ·

وأول بطريرك أقيم على الأقباط التبع هو كيرلس مقار سنة ١٨٩٩ م حال رسامته بدأ ينشر المنشورات متطاولا فيها على المقام البطريركى الجليل داعيا أبناء الكنيسة القبطية الى الانضمام لأسقف رومية ثم طاف فى الوجه القبلى يبث أفكاره ويزعج الخواطر بتعاليمه فاضطر البابا كيرلس الخامس الى مقاومته وردعه فحرر منشورا يحذر فيه أبناءه من الانقياد لهؤلاء القوم مذكرا اياهم بجهاد آبائهم فى حفظ ايمانهم ودفاعهم عنه الدفاع الجليل الذى رفع شأنهم وخلد ذكرهم ·

فباء كيرلس مقار بالخيبة اذ لاقاه أبناء الكنيسة بالاستياء وعنفه بعضهم فى قما فعاد الى القاهرة يجر خلفه أذيال الخزى

---

(١) مختصر تاريخ الأمة القبطية ص ٦٩ و٧٠

والعـار • وقـد عز عليه ذلك فسافر برسالة من رئيسه ساكن قصر الفاتيكان الى نجـاشي الأحبـاش منليك الثـانى فى مهمة ظـاهرها سياسية يطلب اطلاق سراح الايطاليين وباطنهـا السعى لدى منليك لادراك بعض المزايا الدينيـة فتخوف بعض كبار الأقبـاط من هـذا الأمر ولبثوا فى قلق حتى قـدم كبير حبشى من بلاده الى الدار البطريركية فسئل عن الحقيقة فأجاب « لا تخافوا لأننـا نفضـل أن نرى الموت الأحمـر من أن نغير عقيدتنـا الأرثوذكسية » ثم قال « حـدث فى عهد مليكنا السابق يوحنـا أن شذت فيئـة واعتنقت المـذهب الـكاثوليكى وشيدت لها كنيسة فلما علم بهم أمر بقتلهم وهـدم كنيستهم وهـدد كل حبشى يعتنق ذلك المـذهب بالموت ومن ذلك الحين وبلادنا نظيفة من ذلك المذهب » •

وقـد تحقق هذا القول فلم يفلح كيرلس مقـار فى مهمته مع ماتجشمه من الصعاب والأهوال فـكان له ذلك عظة وعبرة وأدرك أنه أخطأ فى ترك عقيـدة آبائه الأرثوذكسية وجاهر بذلك أمام كثيرين من أصدقائه الأخصاء الذين أسر لهم نيتـه فى العودة الى الـكنيسة الأصلية فشاعت هذه الأخبار وبلغت مسامع أسقف رومية فعزله وعين آخر مكانه ومن ثم عزم على وضع كتاب فى صـحة العقيـدة الأرثوذكسية وموافقتها لأحكام المجامع المسكونية الثـلاثة كل الموافقـة بدون أقل انحـراف فتوسـط لديه كثيرون من قبـل أسقف رومية لـكى يمنع نشره أو يؤخره ولـكنه نشره بالفرنساوية ودعاه « الوضع الالهى فى تأسيس الـكنيسة » نفى فيـه عصمة البـابا ورئاسته وأثبت فضـل الـكنيسة الأرثوذكسية وأتى هـذا الـكتاب بنتيجـة حسنة فانضم عقب ظهوره عـدة عائلات من الأقبـاط الـكاثوليك الى كنيستهم الأصلية نخص منهم بالذكر عائلة القمص بطرس العتر وعائلة الأشقر وعائلة نصر الله عريف وهذه العـائلات الثـلاث وحدها تشمل نحو مائة وخمسين نسمة •

والغريب أنه بعد ظهور هـذا الـكتاب أقام الأقبـاط التبع لـكيرلس مقـار بعـد وفاته جنـازا عاما فى كل الـكنائس ومدحوه مدحا زائدا ناسين أنه بكتابه استنكر قيـام كنيسـة خاصـة منهم منفصـلة عن كنيستهم الأرثوذكسية •

٢ ـ الارساليات البروتستانتية :

دخل المــذهب البروتستانتى الى مصر فى منتصف القرن التاسع عشر عنــدما جاء مرسل أمريكانى يدعى الدكتور لانسن وأقام بالاسكندرية وجاء بعــده مرسل اسكوتلندى هو الدكتور يوحنا هوج وبعدما لبثــا بالاسكندرية مدة أخــذا يطوفان البــلاد راكبين النيل يدعوان الى مذهبهما · وفى سنة ١٨٦٢ م جعلا موضع تبشيرهما القــاهرة · وبعد ذلك انطلق الدكتور هوج الى أســيوط سنة ١٨٦٥ م واتخــذها مقر عمله واستطاع أن يؤسس بهــا كنيسة بروتستانية سنة ١٨٦٧ م ·

وذكر فى كتاب « الخريدة النفيســة فى تاريخ الــكنيسة » أن بعض البروتستانت تجرأوا فى أســيوط على الهجوم على كنيستها ليلا وكسروا أيقوناتها فشكاهم البــابا ديمتريوس الثــانى للخــديوى فأصـــدر أمرا بنفيهم الى البحر الأبيض فالتجأوا الى قنــاصل الدول طالبين حمايتهم فلبت طلبهم ودفعت عنهم قصــاص النفى فــكان ذلك داعيا الى زيادة البروتستانت ولاسيما فى أسيوط · وانشق من المــذهب البروتســتانت مذاهب أخــرى كالبلموسى والاصلاحى والسبتى والرسولى والحافى وغيرها ·

خاتمــة
بين الماضي والحاضر

(١) الأبروشيات (٢) الكنائس
٣ ـ الاديرة ٤ ـ اللغة القبطية
(٥) الوعظ والمدرسة الاكليريكية

---

١ ـ الأبروشيات :

كثرت الأبروشيات فى القطر المصرى بكثرة عدد المؤمنين حتى بلغت ١٦٨ أبروشية فى القرن الثامن ثم أخذت تتناقص الى أن صارت ١١٠ فى القرن العاشر حسب جدول جرجس بن مسعود الشهير بأبى المكارم ثم الى ٥٢ فى القرن الحادى عشر والثانى عشر واليك أسماؤها ·

أولا ـ فى الوجه البحرى :

١ ـ سخا ، ٢ ـ تنيس ، ٣ ـ تلبانة ، ٤ ـ أبو صير ، ٥ ـ منوف ، ٦ ـ نوسا ، ٧ ـ نستروة ، ٨ ـ بنها ، ٩ ـ دمنهور ، ١٠ ـ سرسنا ، ١١ ـ أتريب ، ١٢ ـ سمنود ، ١٣ ـ دمياط ، ١٤ ـ دميرة ، ١٥ ـ سهرجت ، ١٦ ـ طنطا ، ١٧ ـ البرلس ، ١٨ ـ صا ، ١٩ ـ خربتا ، ٢٠ ـ مصيل ، ٢١ ـ رشيد ، ٢٢ ـ بلبيس ، ٢٣ قطور ، ٢٤ ـ دقميرة ، ٢٥ ـ و ٢٦ ـ الواحات ، ٢٧ ـ سنجار ·

ثانيا ـ فى الوجه القبلى :

٢٨ ـ أطفيح ، ٢٩ ـ أهناس ، ٣٠ ـ القيس ، ٣١ ـ طحا . ٣٢ ـ أنصنا ، ٣٣ ـ أسيوط ، ٣٤ ـ قاو ، ٣٥ ـ البلينا ، ٣٦ القصير . ٣٧ ـ طمويه ، ٣٨ ـ الفيوم ، ٣٩ ـ البهنسا ، ٤٠ ـ الاشمونين ، ٤١ ـ قسقام ، ٤٢ ـ شطب ، ٤٣ ـ أخميم ، ٤٤ ـ هو ، ٤٥ ـ أرمنت ، ٤٦ ـ اسنا ـ ٤٧ ـ دندرا ، ٤٨ ـ أسوان ، ٤٩ ـ قوص ·

وكان فى مصر ثلاث أبروشيات : ٥٠ ـ مصر ، ٥١ ـ الجيزة ، ٥٢ ـ الخندق ·

وما يأتى ننقله عن كتاب « خلاصة تاريخ المسيحية فى مصر » واستمرت الأبروشيات فى التناقص الى أن باتت ١٧ أبروشية فقط فى القرن السابع عشر وهى الآن ١٤ أبروشية كما يؤخذ من الجدولين الآتيين : ـ

فى القرن السابع عشر	فى القرن العشرين
١ ـ الاسكندرية ـ ٢ البحيرة ـ ٣ منوف	١ ـ صارت الآن هذه الأبروشيات الثلاث يرأسها مطران مقره الاسكندرية وهى أبروشية الاسكندرية والبحيرة والمنوفية وبعض مدن فى مديرية الغربية والأديرة البحرية .
٤ ـ دمياط والمنصورة ٥ ـ بلبيس ٦ ـ أطفيح	٢ ـ صارت أبروشية واحدة يرأسها مطران مقره المنصورة وهى أبروشية القليوبية والدقهلية والغربية والشرقية والقنال والأراضى المقدسة وتدعى أبروشية الكرسى الأورشليمى .
٧ ـ الفيوم	٣ ـ صارت أسقفية الفيوم والجيزة يرأسها أسقف مقره الفيوم .
٨ ـ البهنسا	٤ ـ الآن أبروشية بنى سويف والبهنسا يرأسها مطران مقره بنى سويف .
٩ ـ الأشمونين ١٠ ـ ملوى	٥ ـ الآن أبروشية المنيا والأشمونين يرأسها مطران مقره المنيا .
١١ ـ قسقام	٦ ـ الآن أبروشية صنبو وقسقام يرأسها مطران مقره صنبو .
١٢ ـ منفلوط	٧ ـ الآن أبروشية منفلوط وأبنوب يرأسها أسقف مقره منفلوط .
١٣ ـ أسيوط	٨ ـ الآن أبروشية أسيوط يرأسها مطران مقره أسيوط .
١٤ ـ أبو تيج	٩ ـ الآن أبروشية أبى تيج يرأسها مطران مقره أبو تيج .
١٥ ـ طما	١٠ ـ الآن أبروشية مركز جرجا وبندره بهجوره وفرشوط يرأسها مطران مقره جرجا .
١٦ ـ جرجا	١١ ـ أبروشية أخميم وتشمل مركزى أخميم وسوهاج يرأسها مطران مقره أخميم .

١١ ـ أبروشية البلينا وتشمل مركز البلينا يراسها مطران مقره البلينا ٠

١٢ ـ أبروشية قنا يراسها مطران مقره قنا ٠

١٤ ـ أبروشية اسنا يرأسها مطران مقره اسنا ٠

١٧ ـ نقاده

٢ ـ الكنائس :

كانت الكنائس القبطية عقب دخول المسيحية مصر رغما عن اضطهاد الوثنيين لمعتنقى تلك الديانة حتى بلغ عددها عند دخول الاسلام مصر زهاء الـ ١٥ الف كنيسة ٠ غير انها لبثت تتضاءل تحت عنفوان التخريب والتدمير وتحويلها الى مساجد حتى انتهى عددها الآن الى ٥٤٦ كنيسة بالقطر المصرى و١٠ كنائس بكرسى النوبة ٠ ويجدر بنا أن نذكر هنا ماقاله المستر بتلر المؤرخ الانجليزى عن الكنائس القبطية فى مؤلفه عنها : ـ

« واذا أنت طفت الكنائس المصرية ودخلت أصغر وأحقر كنيسة من الكنائس رأيت علامات الرجاء والأمل تبدو على جدرانها وقلما شاهدت فيها صورة تشير الى جهنم أو الى عذاب مقبل بل قلما تجد فيها تمثال جمجمة باهتة ولا هيكل عظام عار مما يشير الى آلام وسقام ولكن ترى شهداءها تبتسم تماثيلهم المرسومة على الجدران كأن ما قاسوه من العذاب والاضطهاد لم يكن شيئا يذكر بل أصبح نسيا منسيا ٠ وهناك نشاهد القديسين الأبطال مصورين بشكل يدل على أنهم قتلوا ثعبانا أو أحد رؤساء هذا العالم الشرير دون أن يجدوا فى قتله عناء يذكر أما آلامهم وأوجاعهم فليس لها أثر فى ذلك الرسم كما لا تجد صورة تمثل الخاطىء بعد موته مما تشمئز منه النفس وتنكمش لمرآه الروح » أهـ » ٠

٣ ـ الأديرة :

وقد بلغت فى العصور الأولى بضع مئات ولكن جلها قد اندثر ولم يبق منها غير سبعة أديرة منها أربعة بوادى النطرون وهى دير العذراء بالبرموس ودير العذراء المعروف بدير السريان ، ودير أنبا بيشوى ، ودير أنبا مقار ، وثلاثة بالوجه القبلى وهى : دير أنبا أنطونيوس ، دير أنبا بولا ، ودير العذراء بالمحرق ، وتوجد بالقاهرة خمسة أديرة للراهبات

هى : دير مار جرجس ، ودير أبى سيفين بمصر القديمة ، ودير الأمير تادرس بحارة الروم ، ودير مار جرجس ، ودير العذراء بحارة زويلة ٠

٤ ـ اللغـة القبطيـة :

أما عن اللغـة القبطيـة فقد ذكر أبو المـكارم فى تاريخه عادة وهى لا تزال جارية فى اسنا وهى أن المسيحيين يحضرون فى أعراس المسلمين ويراسون زفاف العريس فى الشوارع ويتلون نصوصا وحكما باللغة القبطية الصعيدية كان أهالى منقبـاد منذ ١٣٠ سنة يتكلمون بالقبطيـة وروى أن سيدة قبطيـة غطست طفلا لها فى نهر النيل وقالت بالقبطيـة ما معناه « هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » فسمعها أحـد الحكام وظن أنهـا تسبه فاستصدر أمرا بعدم جواز استعمال هذه اللغـة ٠ وكانت عدد القبانيـة بالمديريات منذ نحو ثلاثين سنة مرسوما عليها الأرقام القبطية ٠

الا أن هذه اللغـة نهضت بعد كبوتها فى منتصف الجيل التاسع عشر فنبغ فيهـا كثيرون منهم عريان أفنـدى جرجس مفتاح المتوفى سنة ١٨٨٨م والايغومانوس فيلوثاؤس رئيس الـكنيسة الـكبرى والقمص تكلا والمعلم قزمان وبرسوم أفنـدى الراهب فى زمن رئاسـة البـابا كيرلس الرابع فوضعوا فيهـا كتبا نافعـة ونبغ فيهـا أيضـا القمص عبد المسيح المسعودى واقلوديوس بك لبيب والدكتور ابراهيم حلمى ونجيب أفندى سمعان ولايزال نهوضها بطيئـا لضعف الروح القومية فى نفوس الأقباط ٠

٥ ـ الوعظ والمـدرسة الاكليريكية :

بعد انقطاع صوت الوعظ من كنيستنا مدة ١٤٠٠ سنة لداعى تعطيل المدرسة اللاهوتيـة الأولى التى أنشأها مار مرقص الرسول رأى غبطة البابا كيرلس الخامس حاجة الـكنيسة والأمة لهذه المدرسة فأنشأها للمرة الأولى سنة ١٨٧٥ م وكان طلابهـا من رهبـان الأديرة فلم يقبل عليهـا منهم الا النـذر اليسير ولم تعش أكثر من بضعة شهور ثم أعيد افتتـاحها من جديد فى سنة ١٨٩٣ م واختير لها اثنـا عشر طالبـا من طلبة المدرسة الـكبرى وقتئذ وأسندت رئاستها للطبيب الذكر المرحوم يوسف بك منقريوس وتقرر أن تدرس فيهـا اللغـات القبطيـة والعربية والانجليزية والرياضة ٠ وكان مركز المـدرسة سنة افتتـاحها بالفجـالة (مكان مدرسة البنـات الآن)

وبعد سنة انتقلت الى الدار البطريركية ثم الى دار فى سوق القبيلة وأعيدت الى الدار البطريركية · وبعد ذلك اشتريت لها سراى مهمشة فى سنة ١٩٠٢ م وانتقلت المدرسة اليها فى سنة ١٩٠٤ م ثم أعيدت ثالثة الى الدار البطريركية وأخيرا نقلت نهائيا الى مهمشة فى سنة ١٩١٢ م ولا تزال بها الى الآن وقد اندمج ضمن طلابها فى خلال هذه المدة نحو ٤٠٠ طالب والذين تخرجوا منها هم الذين يرون الآن فى الكنائس والجمعيات والمدارس قسوسا وشمامسة ووعاظ ومعلمين للدين الذين لولاهم لبقيت الكنيسة كما كانت قبل انشاء المدرسة الاكليريكية خالية من الوعظ والتعليم والمؤلفات الدينية ·

وفى سنة ١٩١٨ م توفى يوسف بك منقريوس فأسند غبطة البابا رئاستها لحضرة اللاهوتى البارع الشماس حبيب أفندى جرجس أول خريجى المدرسة فنجحت فى عهده نجاحا باهرا وتقدمت تقدما محسوسا ينبىء بأنها تسعى بخطى واسعة لاعادة مجدها السالف ولصاحب هذا الكتاب الفخر بأنه أحد الذين تخرجوا فى أول سنة من عهد رئاسة هذا الشماس الفاضل سنة ١٩٢٠ م ·

(انتهى)

الأنبا توماس : مطران المنيا والاشمونين :

هو الرجل العظيم الذى قام بأعمال جليلة جعلت لكنيسته مقاما عاليا • تغنينا عن اذاعة فضله تلك الكنائس والمدارس العديدة التى شيدها والتى تشهد له بأنه ممن يهتمون بالباقى لا بالفانى • هذا فضلا عن تشجيعه للعلم واهتمامه بنشر الوعظ فى دائرة أبروشيته حتى يصح أن يقال انه ما من مشروع علمى نافع للكنيسة الا وله اليد الطولى فى انجازه أمد الله فى حياته وجعله قدوة للاخرين فى خدمة الصالح العام •



« حضرة اللاهوتى البارع حبيب أفندى ناظر المدرسة الاكليريكية »

هو أول من رفع صوت الوعظ عاليا فى كنيستنا بعد انقطاعه مدة أجيال طويلة وقد أنجب تلامذة كثيرين يعلو صوتهم بالوعظ فى أغلب مدن القطر • وهو يبذل فى كل يوم من جهده وقوته ليرفع شأن أمته بمواهبه العلمية • وتغنينا مجلة الكرمة الذائعة الصيت ومجهوداته العظيمة فى اصلاح المدرسة الاكليريكية عن الاطناب والمدح • أبقاه الله لخير كنيسته وأعانه على اتمام ما يحمل للكنيسة فى صدره من الأمانى المقدسة •

« ملحق »

كان الأب لويس شيخو اليسوعى قد نشر بمجلته « المشرق » بعض انتقادات على كتاب « تاريخ الكنيسة القبطية » وقد رد عليه المتنيح القس منسى يوحنا

فى نبذة طبعها سنة ١٩٢٥ م ونورد هنا هذه النبذة للفائدة

رد على انتقـــاد

الأب لويس شيخو اليسوعى

لـكتاب « تاريخ الـكنيسة القبطيـــة »

بقــــلم

القس منسى يوحنــا

راعى الـكنيسة القبطية الأرثوذكسية بملوى (سابقا)

ومؤلف كتاب « تاريخ الـكنيسة القبطية »

تمهيـــد

أطلعنى بعضهم على انتقـــاد حـــرره الأب لويس شيخو اليسوعى بمجلته « المشرق » لـكتابى « تاريخ الـكنيسة القبطيـة » وطلب الى الرد عليه فأحجمت أولا لأن الانتقـاد لم يحو شيئا يستحق الرد الا أننى لبيت دعوة الداعى خوفا من أن يظن الأب أن انتقـادد قضى لبـانته من حيث هدم الحجج القوية التى اقمنـاها على بطلان ادعاءات كنيسته · وها أنا أقدم ردى وجيزا وأترك الحكم لفطنـة القـارىء · ينحصر انتقـاد الأب لويس على كتاب « تاريخ الـكنيسة القبطية » فى الأمور الآتية :

١ - انى تعرضت لمـا لا علاقة له مع الأقباط من التاريخ الـكنسى العام ·

٢ - انى كنت مدفوعا بعامل التعصب القومى ·

٣ - ان ما كتبتـــه بشـأن تأسيس القـــديس مرقس الرســول للـكرسى الاسكندرى لا سند له الا فى مخيلتى ·

٤ - ان قولى بسقوط ليباريوس أسقف رومية فى الهرطقة محض افتراء ·

٥ - انتقاد قولنا نقلا عن أستاذ يسوعى « بأن تقـدم البـــاباوات منة منحت لهم من المجامع والقياصرة لا من الله ·

٦ - اعتبار قصة البابا حنة حديث خرافة ·

الـرد

هذا فحوى انتقاد الأب لويس ونجيب عليه :

أولا — انى لم أتعرض للتاريخ الكنسى العام الا لأنه يرتبط ارتباطا قويا بتاريخ الكنيسة القبطية . وهل يستطيع الأب لويس أن يكتب لنا تاريخ كنيسة رومية فى القرون الخمسة الأولى دون أن يتعرض لتاريخ الكنيسة القبطية ؟

وهل يمكنه أن يقول أن أبطال الكنيسة الذين مثلوا دورا مهما مجدوا به اسم مخلصهم لم يكن جلهم ان لم نقل كلهم من أبناء الكنيسة ؟ وهل ينكر أن المسيحية فى عصورها الأولى لم يكن مديروها ومرشدوها من باباوات الكرسى المرقسى ؟ ليتصفح التاريخ الكنسى العام ملقيا الغرض جانبا ليرى أن كنيسته التى يدعى بأنها أم الكنائس احتاجت فى أوقات ارتبكت فيها أمورها الى من يصلح شأنها من رجال الكنيسة القبطية كالبابا ديونيسيوس الذى أعاد بحسن سعيه الكرسى الأسقفى الرومانى الى كرنيليوس (٢٤٥ م) بعد أن كان قد اختطفه منه نوفاسيانوس المبتدع . وكالقديس أثناسيوس الرسولى الذى نظم أحوال كنيسة رومية أثناء اقامته بها . وكالبابا بطرس الثانى الذى توجه الى رومية سنة ٢٧٤ م وحرك أسقفها داماسوس على أن يعقد مجمعا مكانيا يحرم فيه بدع أبوليناريوس ومارسيل ومكدونيوس لينفى عن كنيسة رومية شبهة موالاتها للهراطقة . فكيف يعيب علينا حضرة الأب تعرضنا للتاريخ الكنسى العام ولم يكن التاريخ الكنسى العام فى الأربعة العصور الأولى سوى تاريخ الكنيسة القبطية اذ لم يظهر على مسرح جهاده ويقوم بالدفاع ضد الهراطقة والمبتدعين سوى باباوات ورجال الكنيسة المرقسية .

ثانيا — ولقد اتهمنا الأب بأننا كتبنا مدفوعين بعامل التعصب القومى . فليسأل نفسه وليحكم ضميره . الا يؤخذ من انتقاده أن كل حرف خطه بنانه تتجلى فيه روح التعصب الذى اشتهر به الباباويون فى كل زمان ومكان وهل الذى يدافع عن كنيسته ويرد عنها الافتراء المعيب هو الذى تغشى أبصاره النعرة القومية أم الذى يهجم على شرف الكنائس النقية

وحبا فى تأييد سلطان يزعمه لنفسه يحاول أن يلطخه ويلصق به كل شين وعار زورا وبهتانا ؟ ولا يكفيه ذلك بل يفتات على تلك الكنائس وبجرأة ينكر كل ما اشتهرت به من الفضائل · وهل لم يكن الباباويون مدفوعين بروح التعصب الذميم وهم يريدون أن ينسبوا كل فضل على كنيسة المسيح لأنفسهم ويحاولون أن يغتصبوا كل ما تعب فيه غيرهم وينسبوه لذواتهم · فحق فيهم قول القديس باسيليوس الكبير الذى استاء من داماسوس أسقف رومية نظرا لاستخفافه بقوانين الكنيسة ومقاومة آباء الكنيسة الأنطاكية فكتب للبابا أثناسيوس الرسول يقول « ان نشر ألوية السلام فوق ربوع كنيسة انطاكية منوط بك وحدك · لأن ما أصاب هذه الكنيسة يفتقر الى شفقتك الانجيلية وحكمتك الرسولية · ان كنيسة أنطاكية أيها القديس لم تمزقها أيدى الهراطقة بل أيدى أولئك الذين يدعون أنهم أرثوذكسيون (يريد أساقفة رومية) وهم شر من الأريوسيين » أهـ (راجع رسالة الـ ٦٦) ثم أرسل ثانية يقول له « ان الهراطقة يحتمون بالأساقفة الرومانيين الذين يغرسون بذور الشقاق أينما حلوا » (رسالة ٦٩و٨٠) ·

ثالثا ـ وقد كان الأب قاسيا على الحقيقة فى انتقاده حين قال « وكل ما كتبه عن القديس مرقس والقديس بطرس فى كتابه (ص ٧ ـ ١٢) لا سند له الا فى مخيلته » أهـ مع أننا لم نترك حقيقة ذكرناها دون أن نسندها الى شاهد انجيلى أو تاريخى · فقد قلنا أن علاقة مرقس الرسول ببولس الرسول كانت أشد اتصالا من علاقته ببطرس : وأتينا بشهادة بولس نفسه حيث ذكر لأهل كولوسى سنة ٦٣ م أن مرقس مرسل اليهم من قبله (كو ٤ : ١٠) ويتضح من رسالة بولس الى فيلمون (عدد ٢٤) أن مرقس كان حينئذ معه فى رومية · وفى سنة ٦٧ أو ٦١ م يذكر بولس أن مرقس كان فى أفسس وطلب من تيموثاوس أن يحضره اليه برومية (٢ تى ٤ : ١١) ·

فواضح من كل هذا أن مرقس خدم مع بولس لا مع بطرس اذ لم يذكره بطرس سوى مرة واحدة حيث يقول فى رسالته الأولى (٥ : ١٣) « تسلم عليكم التى فى بابل المختارة معكم ومرقس ابنى » وقد حاول الباباويون كعادتهم فى تحريف الكلام عن مواضعه لحاجة فى نفوسهم أن يبرهنوا على أن بطرس يعنى ببابل « مدينة رومية » واستدلوا على ذلك ببرهان أوهى من بيوت العنكبوت وهو اطلاق صاحب سفر الرؤيا (١٤ : ٨) لقب « بابل » على رومية مع أن سفر الرؤيا كتب بعد موت

بطرس الرسول بثلاثين سنة كما شهد بذلك القس يوسف الحلبى المارونى فى مقدمة كتابه « العنوان العجيب فى تفسير رؤيا يوحنا الحبيب » الذى طبعه المطران يوسف الدبس وكما يشهد الدومينيكان فى كتابهم العهد الجديد ص ٥٢٥ ٠ قلنا فى كتابنا « تاريخ الكنيسة القبطية » أن بطرس قصد ببابل « بابيليون مصر » التى كانت حينئذ آهلة باليهود وكانت مهمة بطرس تبشير أهل الختان لا سيما الذين فى الشتات كما يصرح بذلك بطرس نفسه فى رسالته الأولى (ص ١ : ١) وأثبتنا قولنا بذكره لمرقس عقب ذكره لبابل لأن مصر كانت موضع خدمة مرقس كما هو معلوم وهذا هو ميتا فرست الكاثوليكى يقول « ان بطرس بعد المجمع الأورشليمى (٥٢ م) رجع الى رومية (كذا) واجتاز فى طريقه مصر وافريقية » (راجع سير القديسين للرهبان الدومينيكان ج ١ ص ٧٩٥) ولكن الباباويين لايزالون يكابرون ويدعون أن مرقس الرسول كتب انجيله برومية ٠ وهل فى وسعهم أن يكذبوا القديس يوحنا فم الذهب الذى قال فى ميمره على انجيل متى ١ : ٣ « ان انجيل القديس مرقس قد كتب فى مصر » أهـ وكنا نود لو أنهم أقاموا الأدلة على صدق دعواهم بدل أن يكذبونا من غير ما دليل ٠ وانى لهم ذلك والحق يشهد انهم عاجزون عن ايراد دليل تاريخى واحد غير مرتاب فيه لأن تلاعبهم بالشهادات التاريخية أمر مشهور ومعلوم وقد سجله عليهم بطريرك الأقباط الكاثوليك كيرلس مقار فى كتابه « الوضع الالهى فى تأسيس الكنيسة » ٠

نسألكم فأجيبونا فى أية سنة كان مرقس متتلمذا لبطرس فى رومية؟ انه يعوزكم دليل واحد فى كتاب الله على اثبات ذهاب بطرس الى رومية فضلا عن اثبات اقامة مرقس بها ليكون تلميذا لمعلم لم تطأ قدماه أرض مدينة رومية الا فى آخر أيام حياته ٠

بعد استشهاد استفانوس رئيس الشمامسة خرج بطرس ينادى بالانجيل فى أطراف اليهودية (أع ٩ — ١٢) وبعد رجوع بولس من دمشق نجده معه فى أورشليم (غل ١ : ١٨) ثم نجده سجينا بأورشليم سنة ٤٤ م (أع ٢١ : ٢٤) ثم نجده فى المجمع الرسولى الذى انعقد فى أورشليم سنة ٥٠ م (غل ٢ : ٩ وأع ١٥ :٧) ثم نقرأ أنه كان فى أنطاكية بعد ذلك بسنتين تقريبا (غل ٢ : ١١) ومع أن بولس بعث بالرسالة الى أهل رومية من مدينة كورنثوس سنة ٥٨ م لم يأت على اسم بطرس فى عدد الذين أرسل اليهم سلاما وذكر أسماءهم ولو كان بطرس فى رومية

وقتئذ لما الغى اسمه مع كونه عمودا فى الكنيسة (غل ٢ : ٩) وقال الرسول بولس فى رسالته لأهل رومية « فهكذا ما هو لى مستعد لتبشيركم أنتم الذين فى رومية أيضا » (رو ١ : ١٥) فكيف ذلك لو كان بطرس قد سبقهوبشر فى رومية وهو يصرح بأنه يحترس دائما من أن يبنى على أساس غيره (رو ١٥ : ٢٠) وقال القديس لوقا كاتب سفر الأعمال (٢٨ : ١٤ ـ ١٧) عن وصول بولس ورفقائه الى رومية « ومن هناك لما سمع الأخوة بخبرنا خرجوا لاستقبالنا • فلما رآهم بولس شكر الله وتشجع » فليس من ثم ذكر لبطرس هنا فهل أهمل الكاتب ذكر استقبال بطرس لبولس مع الأخوة لو كان معهم وهو رأس الكنيسة المنظورة أم اعتبر بطرس قيامه لمقابلة بولس أمرا غير لائق بمقامه العظيم • أظن أنه لم تكن روح الكبرياء السائدة على قلوب باباوات رومية قد سادت بعد على قلب بطرس الذى دوى فى أذنيه قول سيده « أكبركم يكون خادما لكم » وقال الرسول بولس فى رسالته لأهل كولوسى التى أرسلت من رومية سنة ٦٣ م « يسلم عليكم ارسترخس المأسور معى ومرقس ابن أخت برنابا • ويسوع المدعو يسطس الذين هم من الختان • هؤلاء هم وحدهم العاملون معى لملكوت الله » (كو ٤ : ١٠ و١١) فلو كان بطرس قد سبق بولس فى تأسيس كنيسة رومية أو على الأقل كان شريكا له أما كان الواجب على رسول الأمم أن يقدمه على أولئك الثلاثة المختونين ؟ وكيف جاز لبولس أن يسقط « رسول الختان » من بين أهل الختان الذين عاونوه فى تأسيس كنيسة رومية ؟ وماذا يقول الباباويون فى لوقا الانجيلى الذى قال « وبعد ثلاثة أيام (من وصول بولس الى رومية) استدعى بولس الذين كانوا وجوه اليهود •• (فقالوا له) نستحسن أن نسمع منك ماذا ترى لأنه معلوم عندنا من جهة هذا المذهب أنه يقاوم فى كل مكان فعينوا له يوما فجاء اليه كثيرون الى المنزل فطفق يشرح لهم شاهدا لملكوت الله ومقنعا اياهم من ناموس موسى والأنبياء بأمر يسوع من الصباح الى المساء • فاقتنع بعضهم بما قيل وبعضهم لم يؤمنوا » (اع ٢٨ : ١٧ ـ الخ) فهل يصح أن يقال ذلك عن أهل مدينة قضى بطرس فيها مدة طويلة يبشرهم بالمسيح ؟ ليسمع أصحاب الحجى وينصفوا • وأخيرا بولس كتب الى تيموثاوس من رومية قبل استشهاده بقليل (٢ تى ٤ : ١٠ و١١) وتشكى من ترك المسيحيين له ماعدا لوقا فقال بصريح العبارة (لوقا وحده معى) دون أن يلمح الى بطرس فليقل لنا الباباويون من نكذب أكتاب الله أم اياهم ؟ •

يدعى الكاردينال بارونيوس فى جدوله للازمنة عن سنتى ٤٢ و٤٣ بأن بطرس توجه الى رومية فى اواخر سنة ٤٢ م ومع ان هذه دعوى فاسدة بلا دليل الا انه لا يعقل أن بطرس الذى بحسب شهادة بارونيوس نفسه قد أقام بأنطاكية سبع سنين يؤسس كنيستها من سنة ٣٦ م لا يقضى برومية غير وقت قصير ومن ثم يبرحها الى أورشليم لان الكتاب المقدس يخبرنا أنه فى سنة ٤٤ كان فى سجن أورشليم (اع ١٢ : ٤) والحقيقة أن الرسل لم يبرحوا أورشليم قبل سنة ٤٥ م وهاهم الفرنسسكان يقولون فى ص ٣٣ من تاريخهم الكنسى المطبوع باورشليم سنة ١٨٧٢ م « ان الرسل بعد تبشيرهم اليهودية تفرقوا لتبشير العالم سنة ٤٥ م » اهـ وهاهو ابولونيوس من أئمة القرن القرن الثانى يقول « انى تسلمت من الأقدمين أن المسيح قبل صعوده الى السماء كان قد اوصى رسله بألا يبتعدوا كثيرا عن أورشليم مدة اثنتى عشرة سنة » اهـ (أوسابيوس ك ٥ : ف ١٨) ٠

ويدعى المطران يوسف الدبيس فى كتابه « نحفة الجيل فى تفسير الأناجيل » ص ٣٧٣ « أن بطرس ومرقس قصدا رومية سنة ٤٥ م اى بعد خروج الأول من سجنه بأورشليم » اهـ فكيف نوفق بين هذا القول وبين ما يثبته سفر أعمال الرسل حيث يشهد بأن مرقس كان فى نفس هذه السنة وما بعدها مشاركا بولس وبرنابا فى الكرازة (أع ١٢ : ٢٥ و١٣ : ١٣ و ١٥ : ٣٧ ـ ٣٩) بل كيف نوفق بين رواية الدبس هذه وبين ما قرره الخورى يوسف العلم فى كتابه « تيسير الوسائل فى تفسير الرسائل » ص ٧٦٩ حيث قال « انه فى سنة ٤٥ م أمر القيصر كلوديوس بنفى المسيحيين واليهود من رومية » اهـ فكيف يتفق أن يتوجه بطرس ومرقس الى رومية مع الأمر بنفى اليهود والمسيحيين منهما ؟ والصواب ما يرويه العلامة لاكتنس ٠ الذى ائتمنه القيصر قسطنطين على تهذيب ابنه كرسبينوس والذى لفصاحته سمى شيشيرون المسيحى حيث يقول فى كتابه « الاضطهادات » ص ٣ « انما سافر بطرس الى رومية فى حكم القيصر نيرون » اهـ ومعلوم أن نيرون ملك من سنة ٥٤ ـ ٦٨ م ٠

فلعل الأب شيخو يعلم بعد هذا أن ما كتبناه بشأن القديسين بطرس ومرقس له سند صحيح لا فى مخيلتنا بل فى الكتاب المقدس وكتب الآباء المعتبرين وكتب الباباويين أنفسهم ٠ أما قوله بذهاب بطرس الى رومية فلا يستطيع أن يسنده بشاهد كتابى واحد حتى قال بعضهم « ان كاتب سفر الأعمال أتى بذكر أمر طفيف كحلاقة رأس بولس (أع ١٨ : ١٨) ولم

يأت على لفظ واحد ولو مجازى يؤخذ منه دخول بطرس الى رومية » فبماذا يجيب الاب شيخو ؟

أما دعواهم بان بطرس أقام مرقس أسقفا على الاسكندرية وهو فى رومية فهى التى يقال عنها صواب القول لا سند لها صحيح الا فى مخيلتهم فضلا عما اثبتناه من عدم ذهاب بطرس الى رومية نذكر ما جاء بكتاب « مختصر تاريخ الأمة القبطية » ص ٣١٨ « لأن الرسل لم يكونوا ليقيموا الأساقفة على الكنائس الا بعد تأسيسها بايجاد الرعية لئلا يقام الراعى على الجدران ويكون بلا كرسى Inpartibus · وفضلا عن ذلك فان كتاب الله والتقليد الرسولى وتاريخ الكنيسة تنبئنا صراحة بأن رسل الرب كانوا يؤسسون الكنائس ولم يكونوا ليبرحوها لتأسيس غيرها الا بعد أن يقيموا عليها الأساقفة الخاصة بها والملزمين برعايتها والسهر عليها كما أتى ذلك بولس فى أنطاكية ورومية وبطرس فى اليهودية · ومرقس فى الاسكندرية الخ ولم تنبئنا تلك الكتب المقدسة بأنهم كانوا يقيم بعضهم بعضا أساقفة تلك الكنائس التى يؤسسونها · ولو أتوا ذلك لنقضوا أمر مرسلها الذى ائتمنهم على تبشير العالم بأسره حيث قال لهم « اذهبوا الى العالم أجمع واكرزوا بالانجيل للخليقة كلها » (مر ١٦ : ١٥) والخلاصة أن الرسل والتلاميذ هم أساقفة مسكونين لا مكانيون ماعدا يعقوب أخا الرب فانه فضلا عن كونه أسقفا مسكونيا فقد أقيم أسقفا مكانيا على أورشليم وذلك بصفة استثنائية · وذلك من يد المسيح نفسه بشهادة الذهبى الفم (مقالة ٢٨ على ١ كو ١٥) ومن يد الرسل بشهادة ايرونيموس (سلسلة المؤلفين الكنسيين ف ٣) ·

رابعا — نسب الى الأب شيخو الافتراء لأنى قلت بسقوط ليباريوس أسقف رومية فى الهرطقة لأن هذا يهدم دعواهم بعصمة البابا ولكن الأب لم ينصف فى ذلك بل كان عليه أن يقيم الحجة ضد مؤرخ كاثوليكى نقلنا شهادته وسجلناها بكتابنا ويظهر أنه (خجل) أن يذكرها فوجه الينا سهام لومه وأعرض عن ذكر « المعلم الفاضل لومند اليسوعى » مؤلف كتاب « خلاصة تاريخ الكنيسة » المطبوع بمطبعة الآباء المرسلين اليسوعيين فى بيروت سنة ١٨٧٤ م الذى قال بكتابه ج ١ ص ١٩٢ ما نصه : « أما البابا ليباريوس فكان أولا أبدى عزما شديدا الا أنه فشل فيما بعد لما قساه من زعج المنفى فأمضى على شجب أثناسيوس · » أهـ · وما معنى الموافقة على شجب أثناسيوس الا شجب الوهية المسيح المبدأ الذى كان يدافع عنه

أثنـاسيوس ولأجله اضطهد لأن آثناسيوس لم يأتوزرا يستحق عليه الشجب بشهادة البابابويين أنفسهم ؟

ولننقل هنـا بعض الشهادات التى تؤيد قولنـا عن كتاب « مختصر تاريخ الأمة القبطيـة » فليفنـدها الأب شيخو وارجو أن لا يحيلنـا الى مجلة « المشرق » وانا لجوابه لمنتظرون :

قال القـديس أثنـاسيوس فى كتـابه « تاريخ الاريوسيين » ف ٤١ و ٤٦ « أن ليبـاريوس سقط فى الهرطقـة الاريوسية بعد أن قضى فى النفى سنتين » أهـ · وقال فى احتجاجه الثانى ضد الأريوسيين ف ٨٩ « انه لم يسـتطع أن يحتمل آلام النفى فـكبا » أهـ · وذكـر أورنيموس فى كتابه « مشاهير الرجال » ف ٩٧ وفى « جدوله للازمنة » عن سنة ٣٥٤ م « أن ليبـاريوس سئم المنفى وضـجر من الوحدة · فأمضى الـكفر الأريوسى · ودخل رومية بعد ذلك الجحود ظـافرا منتصرا » أهـ · وقال هيلاريوس اسقف بوايتيـه فى الرسالة التى بعث بهـا الى القيصر قسطنس « لقد كنت بافراجك عن ليبـاريوس أشد كفرا وأكثر الحادا مما كنت عليه عند امرك بنفيه »أهـ· وقال أيضا ذلك الأسقف الأرثوذكسى الغربى فى رسالته الى ليباريوس ف١١ « الويل لك أيهـا المجـرم الخبيث · الويل للمقطوع من شركة الـكنيسة الجامعة · الويل لك يا مثلث اللعنة » أهـ ·

وفوق ذلك فقد ظهر فى القرن الخامس ثلاثة كتب لاتينية تسجل على ليبـاريوس سقوطه فى هرطقـة أريوس · ولم تزل هذه الـكتب موجودة حتى اليوم وهى « تراجم البـاباوات الرومانيين » و « أعمـال استشهاد القـديس فيلـكس الثـانى » و « أعمال استشهاد القديس أوسابيوس أسقف فرسيل الذى قتـله ليبـاريوس » ولقد قال القس أوكسيليوس (أحد رجال القرن العـاشر) فى كتابه « الدفاع عن البـابا فرموز ضد البابا سرجيوس الثـالث (وكلاهمـا رومانى) « من ذا الذى يجهل أن ليبـاريوس انغمس فى الهرطقـة الأريوسية · وأنه أصبح ركنا من أركان الهرطقة الفظيعة · ومن لا يدرى أن سلوك ذلك الأسقف الضـال بات سببا فى المصائب التى حلت برومية بعد عودته اليها » وقـد أشار الـكردينال بارونيوس الى تلك المصـائب بأن قال (لمـا استرد ليبـاريوس كرسيه أجبر الشعب على اتباعه فى ضـلاله · واضطره الى قبول الأسرار الالهية من يده غير أن الرومانيين قـد رفضـوا هذه الشركة الاثيمة وانفصلوا عن أسقفهم الجانى الذى أثار عليهم حربا عوانا سفكت فيهـا دماء الأبرياء حتى فى صـحن الـكنائس

وأمام الهيكل » راجع بوسيه فى كتابه (الدفاع عن اقرار الاكليروس الفرنسى) ك ٩ ف ٣٣ وبيوس التاسع أسقف رومية صدق على قاموس بوليبه القائل فى ص ١٠٤١ (ان النفى قد زعزع ايمان ليباريوس فوقع على صورة الأريوسيين) أهـ ٠ وقال الأسقف الفرنسى بوستيل فى ص ١١٠ من كتابه (تاريخ الكنيسة) المطبوع سنة ١٨٤٢م فى مطبعة الآباء الأغسطينيين فى (ليل) (بفرنسا) « ان ليباريوس قد جبن لدرجة أدت به الى أن يوقع الحرم على القديس أثناسيوس الاسكندرى » أهـ ٠ وجاء فى كتاب « الدلالة اللامعة » المطبوع بعناية مجمع انتشار الايمان برومية ص ١٤٧ وفى كتاب « تاريخ الكنيسة » ج ١ ص ١٩٢ و ١٩٣ للومند الجزويت مايؤيد سقوط ليباريوس فى الهرطقة ٠ وقال غريغوريوس جرجس شاهين (رئيس أساقفة السريان الكاثوليك بدمشق) فى كتابه « نهج وسيم » ص ١٣٥ « يعلم التاريخ اليقينى أن ليباريوس الحبر الرومانى كان قد صدق على صورة ايمان الأريوسيين الناكرى لاهوت المسيح » أهـ ٠ وليفونسوس مارديادى ليكورى أحد قديسى الكنيسة الكاثوليكية يقول فى كتابه « دحض الهرطقات » ص ٨٣ عن ليباريوس نقلا عن أورسى م٦ ك ١٤ عد ٧١ « أنه أمضى احدى الصور الأريوسية حارما القديس أثناسيوس » وكتب فى ص ٨٦ نقلا عن الكردينال بارونيوس فى جدوله للازمنة عن سنة ٣٥٧ ف ٥٧ عن فيلكس الذى سبق وذمه لأنه أخذ مكان ليباريوس « أنه لما سمع بخطأ ليباريوس اتحد مع الكاثوليكيين وحرم الملك ومن ذلك الوقت ابتدأ أن يعتبر بابا شرعيا كما ابتدأ أن يحسب ليباريوس معزولا من البابوية » أهـ ٠ والغريب أن ليكورى فى سلسلة باباوات رومية يعتبر كل من ليباريوس وفيلكس بابا ويصدر اسمه بلفظة « قديس » ٠

قال الأب كيرلس مقار بطريرك الأقباط الكاثوليك فى كتابه « الوضع الالهى فى تأسيس الكنيسة » أضف الى هذا الالحاد الذى ارتكبه مجموع الأسقفية الغربية الحاد البابا ليباريوس نفسه بصفته أسقف الكنيسة الرسولية الوحيدة فى الغرب كله فان ليباريوس هذا بعد أن سئم آلام النفى مدة سنتين وتاقت نفسه الى أن يعود الى التربع على كرسى رومية الكبير ٠٠ جحد ايمان نيقية وقطع القديس أثناسيوس من شركة الكنيسة واعتنق الأريوسية » أهـ ٠ ليفحص الأب شيخو جيدا كتاب « سيرة القديسين » المطبوع بالموصل سنة ١٨٧٠ بمعرفة الرهبان الدومنيكان فيجد أنهم قد غفلوا اسم ليباريوس اغفالا ولم يرضوا أن يحسبوه قديسا ٠ أما احتجاج الأب علينا بأن سنكسار كنيستنا القبطية يذكر عيد ليباريوس فلا يزيف قولنا

لأننا نعتقد أن ليباريوس بعد أن سقط فى الهرطقة تاب وندم ونحن نجادلكم فى امكان سقوط البابا (المعصوم) فى الخطأ لا فى هل مات ليباريوس قديسا أو هرطوقيا ٠

خامسا ـ انتقد الأب شيخو قولنا نقلا عن أستاذ يسوعى « بأن تقدم الباباوات منة منحت لهم من المجامع والقياصرة لا من الله » لقد أنكر أولا وجود يسوعى يدعى « ارهاديوس بيليوس » فمع أننا نعترف له بسعة الاطلاع الا أننا ننكر عليه أنه لم تعد تخفى عليه خافية أو لم يعد يجهل كتابا مطبوعا وأظنه يوافقنا على ذلك بعد أن تهدأ ثائرة غضبه من كتابنا وتخمد جذوة غيظه ورغبته فى تكذيبنا ولو بالتمويه اذ « العصمة لله وحده » أو « لله وللبابا فقط » كما يعتقد حضرته ٠

أما استغرابه القول « ان تقدم الباباوات منة منحت لهم من المجامع والقياصرة « لا من الله » فليس فى محله « لأن الله لم يمنح رسله سلطانا على البقية ٠ وانى على يقين أن الأب لا يجهل ذلك الخلاف الذى شجر بين الرسل فى من منهم هو أعظم فى ملكوت السموات وقد اتفقوا أخيرا على أن يرجعوا فى الأمر لسيدهم ٠ وقد كان المخلص له المجد عوضا عن أن يكلف الأب شيخو بذل الجهد فى استخراج الأدلة لاثبات رياسة بطرس يستطيع أن يقول له بصريح العبارة « أنت هو الأول والأعظم » ولكن يسوع دعا ولدا وأقامه فى وسطهم وقال « الحق أقول لكم ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات ٠ فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم فى ملكوت السموات » (مت ١٨ :١ ـ ٣) ٠

قال الأب شيخو « فنسى الشماس قول الرب لبطرس « أنت الصخرة » والرب لم يقل لبطرس « أنت الصخرة » بل قال له « أنت بطرس وعلى هذه الصخرة سأبنى كنيستى » وهذه هى الترجمة الحقيقية اليونانية وتطابقها الترجمة القبطية وهاك لفظها بلغتنا :

وأنا أقول لك أنت

بطرس وسأبنى كنيستى

على هذه الصخرة

فالصخرة اذن التى بنيت عليها كنيسة المسيح هى حسن الاعتراف بالسيد المسيح بل ان السيد المسيح ذاته هو صخرة الحق لا شخص بطرس بل اعترافه الحقيقى بسيده أنه ابن الله الحى فالشماس لم ينس قول المخلص لبطرس « أنت الصخرة » اذ لم يقل له ذلك ولكن الأب شيخو نسى قول كتاب الله « الرب صخرتى وحصنى ومنقذى » (٢ صم ٢٢ : ٢) وقوله أيضا « ليس صخرة مثل الهنا » بل نسى قول بطرس نفسه « هذا هو الحجر الذى أحتقرتموه أيها البناؤون الذى صار رأس الزاوية » (أع ٤ : ١١) وقوله أيضا « لذلك يتضمن أيضا فى الكتاب هنذا أضع فى صهيون حجر زاوية مختارا كريما والذى يؤمن به لن يخزى · وحجر صدمة وصخرة عثرة » (١ بط ٢ : ٦ ـ ٨) وقول بولس « لأنهم كانوا يشربون من صخرة روحية تابعتهم والصخرة كانت المسيح » (١ كو ١٠:٤) ·

قال الخورى يوسف العلم فى « تفسير الرسائل » ص ١٤ فى شرح قول الرسول بولس « لا يستطيع أحد أن يضع أساسا آخر غير الذى وضع الذى هو يسوع » (١ كو ٣ : ١١) « قال القديس انسلموس وغريغوريوس فى هذه الآية ان أساس الكنيسة وأساس كل مؤمن فيها انما هو يسوع المسيح أى الايمان بالمسيح المخلص » وعلى هذا المعنى يكون المسيح وحده أساس الكنيسة القائم بنفسه المسند كل البناء · وأما تسمية الرسل بأساسات الكنيسة كما ورد فى سفر الرؤيا ص ٢١ فليست من هذا القبيل بل من حيث تبشيرهم وتعليمهم فى الأول » أهـ ·

استدل الأب ثانيا على رياسة بطرس وخلفائه بقول المخلص له ليلة آلامه « لكنى طلبت من أجلك لكى لا يفنى ايمانك » (لو ٢٢ : ٣١ و ٣٢) ولو تأمل جيدا فى هذا القول بعد أن يرفع حجاب التعصب الذميم الذى يتهم به غيره لرأى فيه انذارا لبطرس لا تثبيتا لرياسته لأن المخلص قال له هذا بعد قوله « سمعان هوذا الشيطان طلبكم لكى يغربلكم كالحنطة » فهذا التخصيص فى المخاطبة لا يستدل منه على تولية بطرس الزعامة يفهم منه أنه تنبيه وايقاظ حتى يكف عن الاتكال على نفسه واعتماد على ذاته خشية السقوط · وقوله « طلبت من أجلك » لا يقصد به أنه يمنحه بركة خاصة وامتيازا بل انه سينكره ولكنه له المجد لا يسمح بهلاكه · وقد سبق الرب وصلى لأجل كل الرسل (يو ١٧:٩ و١١ و١٥ و١٧ و١٩ » أما قوله « لكى لا يفنى ايمانك » فلا يراد به أنه يعينه حتى لا ينقص ايمانه شيئا بل لكى لا يفنى كلية والدليل على ذلك من وجهين :

١ ـ ان النص القبطى كاليونانى معناه « لئلا ينفد (أو يفرغ) ايمانك »٠

٢ ـ ولو كان المعنى أن ايمانه لا يشوبه نقص لما رؤى يجاهر بجحود سيده أمام أمة ٠ فمفاد قول المخلص أنه سيسقط ولكنه سيقوم بالتوبة ٠

استدل الأب ثالثا بقول المخلص لبطرس بعد قوله « لقد طلبت من أجلك لكى لا يفنى ايمانك » وأنت متى رجعت ثبت اخوتك » ويفهم مما مر بنا أن المخلص يعلم بطرس أن سقوطه وقيامه سيكون نموذجا للاخرين حتى لا ييأس أحد من الخلاص ومما يؤيد ذلك أن بطرس لما سمع خطاب سيده لحد قوله « وأنت متى رجعت ثبت اخوتك » وتجرأ على اجابته قائلا « يا رب انى مستعد أن أمضى معك حتى الى السجن والى الموت » فالمخلص كرر الانذار اليه قائلا « أقول لك يا بطرس لا يصيح الديك اليوم قبل أن تنكر ثلاث مرات انك تعرفنى » (لو ٢٢ : ٣٣ و٣٤) فكأنه يقول له أيها الضعيف الذى تدعى بأنك ستثبت معى فى آلامى دون باقى الرسل ستكون وحدك منكرا لى عكس ما تدعيه الآن ٠

استدل رابعا بقول المخلص لبطرس بعد القيامة « ارع خرافى ونعاجى » وواضح لمن يتأمل قليلا فى تنبيه السيد لبطرس ليلة الآلام انه سينكره ثلاث مرات واصرار بطرس على عدم التسليم بذلك وفى سؤال السيد لبطرس بعد القيامة بقوله « أتحبنى » أنه يذكره بما فرط منه حتى يتعلم أن لا يعتمد على ذاته أبدا ٠ والدليل على ذلك أنه حينما سئل بطرس من المخلص ثالثة « أتحبنى » وقال له « يا رب انت تعلم كل شىء أنت تعلم أنى أحبك وكأنه فهم أن السيد يريد أن يذكره بما بدأ منه ليلة الآلام من الادعاآت المتكررة التى لم يف منها بشىء فتأثر وشمله الحزن ٠ فهنا تكرار السؤال ليس معناه تولية بطرس الرياسة بل تأنيبه وتهذيبه والا لفرح بطرس وتهلل عوض الحزن الذى ملأ قلبه ٠

ومعنى قوله (ارع) تثبيت بطرس حتى لا ييأس كلما تذكر سقوطه فالمخلص بقوله (ارع) أعاد لبطرس صفة الرعوية كباقى الرسل اخوته التى فقدها بجحوده ٠ على أن السيد له المجد لم يحصر تفويض الرعاية فى شخص بطرس بل فوضها لكل من رسله قبل صعوده الى السموات (راجع مت ١٨:٢٨ ٠٠٠ الخ ومر ١٥:١٦ ولو ٤٧:٢٤ و٤٨ و٥٠ ويو ١١:٢٠) وبولس الرسول سمى قسوس أفسس رعاة (أع ٢٨:٢٠) وبطرس

نفسه أطلق لقب راعى على كل عامل فى كـرم الرب (١ بط ٥: ٤ ـ ٤)
قال القـديس كيرلس (ان باعتراف بطرس المثلث محيت خطيئـة الجحدات الثـلاث · وبأقوال يسوع المسيح لبطرس ثلاثا ارع غنمى قـد عينه جديدا فى رتبـة الرسـولية كى لا يتبين بأنه قـد عدمها بسبب الجحد الذى حصل بسبب ضعف البشرية) ·

« كتاب الفاحص والمؤمن ص ٩١ »

سادسا ـ اعتبر الأب شيخو قصـة البـابا حنة حديث خرافة من انا أشرنا بكتابنا ص ٤٤٢ الى المصـدر الذى نقلنـا عنه روايتهـا وهو موسهيم الذى نقلهـا عن مؤرخين غربيين · كذا ذكرها الأب جراسيموس مسرة فى كتابه (تاريخ الانشقاق ج١ ص٣٥٧) وهل يستطيع الأب أن يمحو قصـة هذا البـابا من كل كتب التـاريخ التى تملأ الأرض حينئذ نرى من التعصب الذميم أن نذكرها أما وهى قصـة مشهورة ومعروفة فليس له حق أن يتهمنا بالتعصب لأننـا أشرنا اليها ·

وهل يعتبر الأب أن قصـة البـابا حنة وصمة عار فى جبين البابوية· وهل نسى أو تنـاسى تاريخ البـابوية فى القرن العـاشر أو لم يقرأ شـيئا عن البـاباوات الذين اتخـذهم الروائيون أبطالا لقصص مخزية تمثل على المسارح كالبـابا اسكندر السادس (بورجيـا) لعلك ترى بعد ذلك أيهـا الأب أن الشماس لا يستحق لقب (المتعصب الذميم) الذى لقبتـه به والا كنت تتهم به كل مؤرخ كان نزيهـا وخاليـا من الغـرض كم من حوادث مستنكرة تشوه بها تاريخ البـابوية نمسك القلم عن الخوض فيهـا حتى لا يندى منها وجه الأديب حياء ·

أما باقى ما ورد فى انتقـاد الأب من شتائم ومذام فنجل أنفسنا عن الرد عليهـا فقط كنا نتوقع أن يترفع الأب وهو رجل عالم وله صفة اكليريكية عن توجيـه قوارص الـكلام لمن يرغب فى منـاظرته · وكان أجـدر به وأولى أن يصرف همه الى اظهار الحقيقـة مجردة عن الألفاظ القاسية التى نسامحه عليها ونتمنى ألا يلوث بها قلمه مرة أخرى ·

هذا وقـد أخذ الأب يرمينـا بل ورمى الشرقيين عامة بقلة العلم وأنشأ يفخر بالغربيين وبتفوقهم واسـتدل على ذلك بكلمة دوناها بكتابنا أسـفنا فيها على قلة عنايتنـا بحفظ آثار آبائنـا فمعنى ذلك أيها الأب انا نعلم

تمام العلم فضل مجهودات آبائنا عليكم ونلوم أنفسنا على تركها غنيمة باردة لكم تثقفون بها عقولكم ثم يكون الجزاء أن تجحدوا الجميل وتكفروا النعمة وتدعوا أن المعارف منكم نشأت واليكم تعود ٠

تلك حقيقة نربأ بالأب أن ينكرها ولا يعترف بها وهو المستشرق المعروف الذى لم يجد فى كتب الغربيين ما يروى ظمأه وتعطشه للعلم ووجد ذلك فى المكاتب الشرقية التى علمته كيف يمسك القلم ليجرى بسب أهلها وتحقيرهم بأنهم أقل منه كفاية ودراية سامحه الله ٠

لقد تذرع الأب بخطأ ورد سهوا وهو الاشارة الى القديس أغناطيوس أسقف أنطاكية بانه أسقف رومية وعهدنا بالعلماء التواضع ولكن الأب تنكب طريقهم وراح يملأ ما ضغيه فخرا ٠ غفر الله له هذا التباهى الذى لم يكن يليق برجل علم ودين مثله ٠

خطاب بطريركى

ارسل غبطة البابا المعظم الأنبا كيرلس الخامس بطريرك الكرازة المرقسية خطابا لمؤلف كتاب « تاريخ الكنيسة القبطية » بتاريخ ١٦ أبيب ١٦٤٠ ش عقب تقديم نسخة منه لغبطته هذه صورته : ـ

ختم
كيرلس
بطريرك الكرازة المرقسية

حضرة الابن المبارك الشماس منسى القمص واعظ أقباط ملوى باركه الرب ٠ غب منحكم البركات وامدادكم بصالح الدعوات بمنه وكرمه تعالى تكونون حائزين تمام المسرات ٠ استلمنا هديتكم كتاب تاريخ الكنيسة تأليفكم فتصفحناه ووجدناه كتابا مفيدا مستوفيا الايضاح نافعا لعموم أولادنا الأقباط لكى يعرفوا تاريخ آبائهم ويقتدوا بسيرتهم الصالحة وجهادهم الحسن ولذا ترونا مسرورين من عملكم المفيد وندعو لكم بالنجاح والصلاح كى تستمروا فى مثل هذه الأعمال الصالحة ونسأل الله القدير أن يبارككم بيده العالية ويجعل دائما كل أعمالكم مباركة لمجد اسمه القدوس ٠ وسلام الرب يشمل جميعكم ولعزته الشكر دائما ٠

تقـــاريظ

أهــدانا حضرة الفاضل الشـماس منسى أفنـدى القمص نسخة من كتاب « تاريخ الـكنيسة القبطية » وهو المؤلف النفيس الذى وضعه حضرته أخيرا حاويا تاريخا مفصـلا ولذيذا للـكنيسة القبطيـة منذ تأسيسها وقد حلاه بصـور عـديدة · والـكتاب عبـارة عن مجلد كبير من القطع الـكبير وأنه يكفى تقريظا للـكتاب أن نذكر ان قريبـا لنـا زار غبطة البابا المعظم الأنبـا كيرلس فى حلوان من أمد قريب وعنـد دخوله عليه وجد بين يديه نسخة من كتاب التاريخ هذا يطالع فيهـا وبعـد السلام أشار غبطة البطريرك على الزائر بتلاوة هـذا الـكتاب · ولـما سأله الزائر عن كتاب تاريخى آخر اجاب غبطتـه قائلا « ان كتاب الشماس منسى هو أوفى ما كتب فى تاريخ الـكنيسة القبطية » ثم نصحه غبطته بمطالعته · كما أن غبطته من كثرة اعجابه بالـكتاب كما بلغنـا طالعـه مرارا وأمر بتجليد عدد كبير منه أهدى بعضه لـكبار أعيـان الأمة وأوقف بعضــه على الـكنائس والأديرة · وهذه شهادة كافيــة بنفسها أن تظهر قيمة هـذا الـكتاب فيجدر بكل ابن للكنيسة يهمه الالـمام بتاريخ كنيسته أن يطالع هذا السفر النفيس ·

وقد أهــدانا مؤلفا ثانيا له وهو كتاب « يسوع المصلوب » وهو كتاب تقوى موضـوعه آلام السيد المسيح وكلماته التى نطق بهـا على الصليب وهو كتاب مملوء بالتأملات الخشوعية العميقة والتعاليم المؤثرة ·

فهـــــرس كتـــاب

« تاريخ الكنيسة القبطيـــة »

القاهرة الحديثة للطباعة
أحمد بهى الدين الخربوطلى
٣ شارع الجد بالفجالة
تليفون ٩٣٤٣١٠ - س.ت ١٤٩١٢٨

رقم الايداع ٤١٦٠/٨٢
دولى ٣ ـ ٦ ـ ٠٠ ـ ١٦٦ ـ ٩٧٧

يطلب من جميع المكتبات المسيحية
فى القاهرة والأقاليم


Bibliotheca Alexandrina
0393402